البيان والتبيين

الجاحظ

تحقيق حسن السندوبي

البيان والتبيين

تأليف
الجاحظ

تحقيق
حسن السندوبي

هنــداوي

البيان والتبيين

الجاحظ

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥٩٧ ٥

صدر هذا الكتاب في القرن التاسع الميلادي.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

الجزء الأول	٧
الجاحظ	٩
باب البيان	٧٧
باب الصمت	١٥١
الجزء الثاني	٢٦٣
استدراك وتكميل	٢٦٥
باب اللحن	٤١١
الجزء الثالث	٥٠١
هذا كتاب العصا	٥٠٣
كتاب الزهد	٥٧١
خاتمة للشارح	٧٦١

الجزء الأول

الجاحظ[1]

(١) نَسبه وكُنيته

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، وإنما لقبُ «الجاحظ» لجحوظ عينَيه؛ أي بروزهما، وقد يُقال له «الحدقي» لكِبَر حدقتَيه أيضًا.

وكان جده محبوب رجلًا أسود، وكان جمَّالًا لعمرو بن قلع، وكان هو مولًى للقَلمَّس بن عمرو بن قلع الكناني الفقيمي الليثي.

(٢) مَقامه ومنزلته

ويُعَد الجاحظ سيِّد كُتاب العربية بلا مُنازع، وشيخ أدباء العرب بلا مُدافع، وإمام ذوي اللَّسَن والبيان وأهل الفصاحة والكلام، وكان من محاسن الدنيا ومفاخر الإسلام.

(٣) مولده ومنشؤه

وُلِد بالبصرة حوالَي سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م، ونشأ ببغداد، وأخذ علومه ومعارفه عن شيوخ البلدَين وجِلَّة علمائهما وصفوة أهل الكلام فيهما، وتخصَّص في مذاهب الاعتزال على أستاذه

---

[1] عن الحيوان والبيان والتبيين للجاحظ، وتأويل مُختلِف الحديث لابن قُتيبة، ومُروج الذهب للمسعودي، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، وأمالي السيد المُرتضى، وإعجاز القرآن للباقلَّاني، والمِلل والنِّحل للشهرستاني، والأمالي لأبي علي القالي، والأنساب للسمعاني، والفَرق بين الفِرق للبغدادي، والانتصار للخيَّاط، وسرح العيون لابن نُباتة المصري، ومعجم الأدباء لياقوت، ووفَيات الأعيان لابن خَلِّكان، وشرح الصلاح الصفدي على لامية العجم، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وزهر الآداب للحُصري، وبُغية الوعاة للسيوطي، وثلاث رسائل طُبعت حديثًا بالمطبعة السلفية، ومطالعات شتَّى في كُتُب الأدب والتاريخ.

أبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظَّام، وحدَّث عن يزيد بن هارون والسري بن عبدويه وأبي يوسف القاضي والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمة، وعنه روى أبو بكر عبد الله بن داود السجستاني ومحمد بن عبد الله بن أبي الدلهاب وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد ويموت بن المزرع ابن أخته؛ أعني ابن أخت الجاحظ.

(٤) معارفه

أتقن فنونًا كثيرة، ويظهر أنه تعلَّم الفارسية وأجادها، وقرأ كُتُب الفلاسفة من اليونان والفُرس والروم والهند، ونظر في علوم الأوائل، ولم يُنقَل كتاب حتى عهده إلى العربية في أي علم وفي أي فن إلا قرأه وتمثَّله. وكان كثير الحفظ، واسِع الرواية، قويَّ الحجة، ناصع البرهان. ملأت تصانيفه الآفاق، وانتفع بها الخلق، وعمَّت فوائدها حتى لقد قيل: مما فضَّل الله به أمَّة محمد ﷺ على غيرها من الأمم: عمر بن الخطاب بسياسته، والحسن البصري بعلمه، والجاحظ ببيانه.

(٥) صُحْبته بابن الزيات

وكان مُنقطعًا إلى الوزير محمد بن عبد الملك الزيَّات، مُنحرفًا عن أحمد بن أبي دؤاد لِما كان بين محمد وأحمد من الشنآن، فلما قُبض على محمد بن الزيَّات هرب الجاحظ، فقيل له: لمَ هربت؟ فقال: خِفتُ أن أكون ثانيَ اثنين إذ هما في التنُّور.

يُشير إلى التنُّور الذي صنعه ابن الزيَّات، وجعل فيه مسامير ليُعذِّب به خصومه فعُذِّب هو فيه حتى مات.

(٦) الجاحظ وابن أبي دؤاد

ولما أُتيَ بالجاحظ إلى أحمد بن أبي دؤاد بعد موت ابن الزيَّات دخل عليه مغلول العُنق بسلسلة، مقيَّد الرِّجلَين، في قميصٍ سمِلٍ؛ فلما وقع نظر ابن أبي دؤاد عليه قال: والله ما علِمتُك إلا مُتناسيًا للنعمة، كَفورًا للصنيعة، مَعدِنًا للمساوي، وما قصَّرتُ باستصلاحي لك، ولكن الأيام لا تصلح منك لفساد طويَّتك، ورداءة دخلتك، وسوء اختيارك، وغالِب طبعك. فقال الجاحظ: خفِّض عليك أيَّدك الله؛ فوالله لأن يكون لك الأمر عليَّ خيرٌ من أن يكون لي عليك، ولأن أُسيئ وتُحسِن أحسنُ في الأُحدوثة عنك من أن أُحسنَ وتُسيء، ولأن تعفوَ عني في

حال قدرتك أجملُ بك من الانتقام مني. فقال ابن أبي دؤاد: قبَّحك الله؛ فوالله ما علِمتُك إلا كثير تزويق اللسان، وقد جعلتَ بيانك أمام قلبك ثم اضطغنت فيه النفاق والكفر. يا غلام، صِرْ به إلى الحمَّام وأمِط عنه الأذى.

فنُزِع عنه الغُل والقَيد، وأُدخلَ الحمَّام، وحُمِل إليه تخت من ثياب وطويلة وخُف، فلبس ذلك، ثم جاءه فصدَّره في مجلسه، ثم أقبل عليه، وقال: هاتِ الآن حديثك يا أبا عثمان.

(٧) مذهبه في الاعتزال

انفرد الجاحظ بآراءٍ خاصة في علم الكلام، واختصَّ بمذهب في الاعتزال، وصار شيخ فِرقة من فِرَق المعتزلة تُسمَّى «الجاحظية» نسبةً إليه. ومما تفرَّد به القول بأن المعرفة طَباع، وهي مع ذلك فِعل العبد على الحقيقة، وقوله في سائر الأفعال إنها تُنسَب إلى العِباد على أنَّها وقعت منهم طَباعًا، وأنها وجبت بإرادتهم، وليس بجائزٍ أن يبلغ أحد ولا يعرف الله تعالى. والكفار عنده بين مُعاند، وبين عارف قد استغرقه حبُّه لمذهبه وعصبيته؛ فهو لا يشعر بما عنده من المعرفة بخلافه.

وتحدَّث عن نفسه فقال: قلت لأبي يعقوب الخزيمي: من خلق المعاصي؟ قال: الله. قلت: فمن عذَّب عليها؟ قال: الله. قلت: فلِمَ؟ قال: لا أدري والله.

وقد ثارت بينه وبين مُخالفيه في الرأي من الملاحدة والمُرجئة والرافضة مُناظراتٌ عنيفة ومحاولاتٌ حادَّة تناوَلوه فيها بكل أنواع الشَّنع، ولكن النصر كان من نصيبه، والظَّفر في جانبه، ولم تقِف هجمات خصومه عليه في حياته، بل استمرَّت واشتدَّت بعد وفاته، غير أن أنصاره تمكَّنوا من رد تلك الهجمات، ودحض هاتيك الخصومات؛ فهذا أبو الحُسين الخيَّاط روى في كتابه «الانتصار» مُهاجمات لابن الراوندي تناوَل فيها بالطعن الجارح عقيدة الجاحظ، وكيف عقَّب الخيَّاط على هذه المطاعن والمثالب بردِّها على صاحبها ابن الراوندي؛ فممَّا رواه الخيَّاط قوله: ثم قال (يعني ابن الراوندي):

وأما الجاحظ فإنه يقول: «إنَّه مُحالٌ أن يُعدم الله الأجسام بعد وجودها، وإن كان أوجدها بعد عدمها.» قال: ومتى استحال أن يُعدَم الجسم بعد وجوده، استحال أيضًا وجوده بعد عدمه. وهذا كذبٌ على الجاحظ عظيم؛ وذلك أن قول الرجل إنما يُعرَف بحكاية أصحابه عنه أو بكُتبه، فهل وُجِد هذا القول في كتاب من كُتُبه؟ فإن كُتُب عمرو الجاحظ معروفةٌ مشهورة في أيدي الناس، أو هل حكاه عنه أحد من أصحابه؟ فإذا كان الرجل

ميتًا فكُتُبه وأصحابه تُخبِر بخلاف ما قرفه به هذا الماجن الكذَّاب؛ فقد تبيَّن كذبه وبَهْته وجهله. ومن بعد، فمن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبِّهة، وكتابه في الأخبار وإثبات النبوة، وكتابه في نظم القرآن، عَلِم أنَّ له في الإسلام غَناءً عظيمًا لم يكُن الله عز وجل ليُضيعه له.

قلت: لعَمْري إنَّ القول ببقاء المادة وعدم تلاشيها قد أصبح في عصرنا هذا مذهبًا معروفًا يسلِّم به ويَدِين بصحة أُسُسه الكثيرُ من أكابر العلماء وفُحولهم في أوروبا وغيرها، ولهم على صحته من الأدلة والبراهين العلمية المبنية على البحث والاستقراء ما لا سبيل إلى دفعه أو إضعافه، إلا إذا جاء الزمن من الاكتشافات بما لم يخطر على بال، فينتصر المذهب الروحي على المذهب المادي؛ فإذا كان الجاحظ قد ارتأى هذا الرأي كان له فضل السبق إليه والقول به منذ أحد عشر قرنًا.

ثم قال صاحب «الانتصار» فيما يردُّ به على ابن الراوندي: وأما رميُك للجاحظ ببُغض الرسول فهو دليل على أنَّك لا تعرف المُحِب من المُبغِض، ولا الوليَّ من العدو؛ لأنَّه لا يعرف المُتكلمون أحدًا منهم نصر الرسالة واحتجَّ للنبوة بلَغ في ذلك ما بلَغه الجاحظ، ولا يُعرَف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد ﷺ على نبوَّته، غير كتاب الجاحظ، وهذه كُتُبه في إثبات الرسالة وكُتُبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة. وهل يُستدلُّ على حب الرسول ﷺ والإيمان به وتصديقه فيما جاء به بشيءٍ أوكدَ مما يُستدلُّ به على حب الجاحظ للرسول وتصديقه إياه؟

(٨) ومما ثلبه به خصومه تقرُّبًا إلى العامة والحشوة

قال ابن قتيبة: ثم نصير إلى الجاحظ، وهو آخِر المُتكلمين والمعابر على المُتقدمين، وأحسَنُهم للحجة استثارةً، وأشدُّهم تلطفًا لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتجُّ بفضل السُّودان على البِيضان، وتجده يحتجُّ مرةً للعثمانية على الرافضة، ومرةً للزيدية على العثمانية وأهل السُّنة، ومرةً يُفضِّل عليًّا رضي الله عنه ومرةً يؤخِّره، ويقول: قال رسول الله ﷺ، ويُتبعه قال الجماز، وقال إسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش، ويُجلُّ رسول الله ﷺ عن أن يُذكَر في كتاب ذُكِرا فيه، فكيف في ورقة أو بعد سطر أو سطرَين؟

ويعمل كتابًا يذكُر فيه حُجَج النصارى على المسلمين، فإذا صار إلى الرد عليهم تجوَّز في الحجة كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون، وتشكيك الضعَفة من المسلمين. وتجده

يقصد في كُتُبه للمضاحيك والعبث؛ يريد بذلك استمالة الأحداث وشُرَّاب النبيذ، ويستهزئ من الحديث استهزاءً لا يخفى على أهل العلم، كذِكره كبد الحوت وقرن الشيطان، وذكر الحجر الأسود، وأنه كان أبيض فسوَّده المشركون، وقد كان يجب أن يبيِّضه المسلمون حين أسلموا. ويذكُر الصحيفة التي كان فيها المُنزَل في الرضاع تحت سرير عائشة فأكلتها الشاة، وأشياء من أحاديث أهل الكتاب في تنادُم الدِّيك والغُراب، ودفن الهُدهد في رأسه، وتسبيح الضفدع، وطَوق الحمامة وأشباه هذا. وهو مع هذا من أكذب الأمَّة، وأوضَعِهم لحديث، وأنصَرِهم لباطل.

ورُوِيَ عن أبي عمرٍو أنه جرى ذِكر الجاحظ في مجلس أبي العبَّاس أحمد بن يحيى، فقال: أمسِكوا عن ذِكر الجاحظ؛ فإنه غير ثقة.

وقال الأزهري: كان الجاحظ روى عن الثِّقات ما ليس في كلامهم، وكان قد أُوتيَ بَسطةً في لسانه، وبيانًا في خطابه، ومجالًا واسعًا في فنونه، غير أنَّ أهل العلم والمعرفة ذمُّوه، وعن الصدق دفعوه.

وقال البديع الهمَذاني في المُقامة الجاحظية:

إنَّ الجاحظ في أحد شِقَّي البلاغة يقطف، وفي الآخر يقِف، والبليغ من لم يُقصِّر نَظمُه عن نثره، ولم يُزرِ كلامه بشعره، فهل ترَون للجاحظ شعرًا رائقًا؟ قلنا: لا. قال: فهلُّموا إلى كلامه؛ فهو بَعيد الإشارات، قريب العبارات، قليل الاستعارات، مُنقاد لعُريان الكلام يستعمله، نَفورٌ من مُعتاصه يُهمِله، فهل سمعتم له بكلمةٍ غير مسموعة، أو لفظةٍ غير مصنوعة؟

وقال المسعودي: وزعم الجاحظ أن نهر مُكران الذي هو نهر السند من النيل، ويستدلُّ على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه، فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل؟ وذكر ذلك في كتابه «الأمصار»، وهو كتاب في نهاية الغثاثة؛ لأنَّ الرجل لم يسلك البِحار، ولا أكثر الأسفار، ولا تعرَّف المسالك والأقطار، وإنَّما هو حاطِبُ ليلٍ ينقُل من كُتُب الورَّاقين.

قلت: ليس المسعودي من أولئك الذين أشَرْنا إلى أنهم إنَّما يقصدون بثلب الجاحظ القُربى إلى العامَّة والحشوة، ولكنه عالِمٌ ينظر فيما هو مخصَّص به من فروع العلوم والمعارف. ولا شكَّ في أنَّ الحق في هذه المسألة قد جانَبه. وقد أذكَرَتني طعنة المسعودي في الجاحظ طعنةً مِثلها للجاحظ في الخليل بن أحمد.

(٩) رأي الجاحظ في الخليل

قال الجاحظ: إنَّ الخليل بن أحمد من أجل إحسانه في النحو والعَروض، وضع كتابًا في الإيقاع وتراكيب الأصوات، وهو لم يُعالج وتَرًا قط، ولا مسَّ بيده قضيبًا قط، ولا كثُرَت مُشاهَدته للمغنِّين. وكتب كتابًا في الكلام، ولو جهد كلُّ بليغ في الأرض أن يتعمَّد ذلك الخطأ والتعقيد لَمَا وقع له ذلك، ولو أن مَمْرورًا استفرغ قُوى مِرَّته في الهذيان لَمَا تهيَّأ له مِثل ذلك منه، ولا يتأتَّى ذلك لأحد إلا بخذلانٍ من الله تعالى.

قلت: وهذا من طريف الاتفاقات، ولعل الله قيَّض المسعوديَّ ليقول في الجاحظ ما قال الجاحظ في الخليل بن أحمد، ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾.

(١٠) ومن آراء العارفين فيه

قال أبو العبَّاس محمد بن يزيد المُبرد: ما رأيت أحرص على العلم من ثلاثة: الجاحظ، والفتح بن خاقان، وإسماعيل بن إسحاق القاضي. فأما الجاحظ فإنه كان إذا وقع بيده كتابٌ قرأه من أوله إلى آخِره، أيَّ كتاب كان … إلخ.

وكتب الفتح بن خاقان إلى الجاحظ كتابًا يقول في فصل منه:

> إنَّ أمير المؤمنين يَجدُّ بك ويهشُّ عند ذِكرك، ولولا عظَمتك في نفسه، لِعلمك ومعرفتك، لَحالَ بينك وبين بُعدِك عن مجلسه، ولغصَبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومُتوفر عليه. ولقد كان ألقى إليَّ من هذا عنوانه، فزِدتُك في نفسه زيادةً كفَّ بها عن تجشيمك؛ فاعرِفْ لي هذه الحال، واعتقِدْ هذه المِنَّة على كتاب «الرد على النصارى»، وافرغْ منه وعجِّل به إليَّ، وكُن ممن جدا به على نفسه، وتنال مشاهرتك. قد استطلقته لما مضى، واستسلفت لك لسنةٍ كاملة مستقبلة، وهذا مما لم تحتكم به نفسك. وقد قرأت رسالتك في «بصيرة غنام»، ولولا أني أزيد في مخيِّلتك لعرَّفتك ما يعتريني عند قراءتها، والسلام.

وكان الرئيس أبو الفضل ابن العميد من المُعجَبين بالجاحظ، المُتوفِّرين على كُتُبه ومصنَّفاته، المُغترِفين من بِحار علومه وآدابه، الذاهبين مذهبه في أسلوبه وكتابه، حتى لقد كان يُلقَّب أحيانًا بـ «الجاحظ الثاني». قال أبو القاسم السِّيرافي: حضَرْنا مجلس

الأستاذ أبي الفضل ابن العميد الوزير، فجرى ذِكر الجاحظ، فغضَّ بعض الحاضرين منه وأزْرى به، وسكت الوزير عنه. فلما خرج الرجل قلت له: سكتَّ أيُّها الأستاذ عن هذا الرجل في قوله مع عادتك في الرد على أمثاله؟ فقال: لم أجِد في مقابلته أبلغَ من تركه على جهله، ولو واقَفتُه وبيَّنت له لنظر في كُتُبه وصار بذلك إنسانًا يا أبا القاسم؛ فكُتُب الجاحظ تعلِّم العقل أولًا، والأدب ثانيًا، ولم أستصلحه لذلك.

وقال القاضي ابن خلِّكان: الجاحظ صاحب التصانيف في كل فن، وله مقالة في أصول الدين. ومن أحسن تصانيفه وأمتعها كتاب «الحيوان»؛ فلقد جمع فيه كل غريبة، وكذلك «البيان والتبيين»، وهي كثيرة جدًّا. وكان مع فضائله مشوَّه الخَلق.

(١١) شيء من أخباره ونوادره

وللجاحظ أخبارٌ شائقة، ونوادر فائقة، وأحاديث رائقة، وكان مع جِده وجلالة مَقامه، وسُموِّ مَنزلته، ومع مواقفه المشهورة في الجدل والتناظر، ومع مُجالَدته خصومه بقوة لَسَنه، ومتانة بيانه، كان مع هذا كله ميَّالًا إلى المُلَح واللطائف، والنُّكت والطرائف، والتندُّر والعبث، والسخرية والهُزء، لا يُبالي أن يدوِّن النكتة وأن يرويَها ولو كان فيها ما يتناول سَمْته، ويمسُّ جلاله، ويأخذ من حُلى وقاره؛ فمن ذلك ما حدَّث به عن نفسه فقال:

ذُكِرتُ للمتوكِّل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع مَنظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرَفني، فخرَجت من عنده، فلقيت محمد بن إبراهيم وهو يريد الانصراف إلى مدينة السلام، فعرض عليَّ الخروج معه والانحدار في حرَّاقته، وكنَّا بسُرَّ مَن رأى، فركِبْنا في الحرَّاقة، فلما انتهينا إلى فم نهر القاطول نصب ستارة وأمر بالغناء، فاندفعت عوَّادة فغنَّت:

كل يوم قطيعةٌ وعتابُ ... ينقضي دهرنا ونحن غِضَابُ
ليت شِعري أنا خُصِصتُ بهذا ... دُون ذا الخلق أم كذا الأحبابُ؟

وسكتت. فأمر الطنبورية فغنَّت:

وا رحمتا للعاشقينا ... ما إنْ أرى لهمُ مُعِينا
كم يُهجَرون ويُصرَمو ... نَ ويُقطَعون فيَصبِرونا

فقالت لها العوادة: فيصنعون ماذا؟ قالت: هكذا يصنعون. وضربت بيدها إلى الستارة فهتكتها، وبرزت كأنها فلقة قمر، فألقت نفسها في الماء، وعلى رأس محمد غلامٌ يُضاهيها في الجمال وبيده مِذبَّة، فأتى الموضع، ونظر إليها وهي تمرُّ بين الماء وأنشد:

أنتِ التي غرَّقتني   بعد القضا لو تَعلمينا

وألقى نفسه في أثرها، فأدار الملَّاح الحرَّاقة فإذا بهما مُعتنِقان، ثم غاصا فلم يُرَيا. فاستعظم محمد ذلك وهالَه أمرُهما، ثم قال: يا عمرو، لتُحدِّثني حديثًا يُسلِّيني عن فعل هذين وإلا ألحقتك بهما. قال: فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك، وقد قعد للمظالم يومًا وعرضت عليه القصص، فمرَّت به قصة فيها: إن رأى أمير المؤمنين أن يُخرِج إليَّ فلانة حتى تغنِّيَني ثلاثة أصوات فعل. فاغتاظ يزيد من ذلك، وأمر مَن يخرج إليه ويأتيه برأسه، ثم أتبع الرسول رسولًا آخَر يأمره أن يُدخِل إليه الرجل، فأدخله، فلما وقف بين يدَيه قال له: ما الذي حمَلك على ما صنعت؟ قال: الثقة بحِلمك، والاتِّكال على عفوك. فأمره بالجلوس حتى لم يبقَ أحد من بني أميَّة إلا خرج، ثم أمر فأُخرجت الجارية ومعها عُودها، فقال لها الفتى: غنِّي:

أفاطمَ مهلًا بعضَ هذا التدلُّلِ   وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمي فأجمِلي

فغنَّته. فقال له يزيد: قل. فقال: غنِّي:

تألَّق البرقُ نجديًّا فقلتُ له   يا أيُّها البرقُ إني عنك مشغولُ

فغنَّته. فقال له يزيد: قل. فقال: يا مولاي، تأمُر لي برطل شراب. فأمر له به، فما استتمَّ شربه حتى وثب وصعِد على أعلى قبَّة ليزيد، فرمى نفسه على دماغه فمات. فقال يزيد: إنا لله وإنا إليه راجعون، أتراه الأحمق الجاهل ظنَّ أني أُخرج إليه جاريتي وأردُّها إلى مِلكي؟ يا غِلمان، خُذوا بيدها واحملوها إلى أهله إن كان له أهل، وإلا فبيعوها وتصدَّقوا عنه بثمنها. فانطلقوا بها إلى أهله، فلما توسَّطت الدار نظرت إلى حفيرة في وسط دار يزيد قد أُعدَّت للمطر، فجذبت نفسها من أيديهم وأنشدت:

من مات عشقًا فليمُتْ هكذا   لا خيرَ في عشقٍ بلا موتِ

وألقت نفسها في الحفيرة على دماغها فماتت، فسُرِّي عن محمد وأجزل صِلتي.

وقال: أتيت منزل صديق لي فطرقت الباب، فخرجت إليَّ جاريةٌ سندية، فقلت: قُولي لسيِّدك الجاحظُ بالباب. فقالت: أقول الجاحدُ بالباب؟ على لُغتها. فقلت: لا، قُولي الحدقيُّ بالباب. فقالت: أقول الحلقي؟ فقلت: لا تقولي شيئًا. ورجعت.

وقال مرةً: ما أخجلني أحدٌ مِثل امرأتَين، رأيت إحداهما في العسكر، وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام، فأردت أن أُمازحها، فقلت: انزلي كُلِي معنا. فقالت: اصعد أنت حتى ترى الدنيا. وأما الأخرى فإنها أتَتني وأنا على باب داري فقالت: لي إليك حاجة وأريد أن تمشيَ معي. فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغٍ يهودي، وقالت له: مِثل هذا. وانصرفت، فسألت الصائغ عن قولها فقال: إنها أتت إليَّ بفصٍّ وأمرَتني أن أنقش عليه صورة شيطان، فقلت لها: يا سِتي ما رأيت الشيطان. فأتت بك وقالت ما سمعت.

وقال: دخلت ديوان المُكاتَبات ببغداد، فرأيت قومًا قد صقَلوا ثيابهم، وصفوا عمائمهم، ووشَوا طُرُزهم، ثم اختبرتهم فوجدتهم كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾، ظواهر نظيفة، وبواطن سخيفة، فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يَكسِبون.

وقال: وقفت يومًا على قاضٍ فأردت الولع به، فقلت لمن حوله: إنه رجلٌ صالح لا يُحبُّ الشهرة. فتفرَّقوا عنه. فنظر إليَّ وقال: حسبك الله.

وقال: قلت يومًا لعُبيد الكلابي: أيَسرُّك أن تكون هجينًا ولك ألف دينار؟ فقال: لا أحبُّ اللؤم بشيء. قلت: فإن أمير المؤمنين ابن أمَة؟ فقال: أخزى الله من أطاعه. قلت: نبيَّا الله إسماعيل ومحمد ابنَا أمَة؟ فقال: لا يقول هذا إلا قدريٌّ. قلت: وما القدري؟ قال: لا أدري، إلا أنه رجلُ سوء.

وقال: أتاني بعض الثُّقلاء فقال: سمعت أنَّ لك ألف جواب مُسكِت، فعلِّمني منها. فقلت: نعم. فقال: إذا قال لي شخص: يا زوج القَحبة، يا ثقيل الروح؛ أي شيء أقوله له؟ قلت: قل له: صدَقت.

وسأله بعضهم كتابًا إلى بعض أصحابه بالوصية به، فكتب له رقعةً وختمها، فلما خرج الرجل من عنده فضَّها فإذا فيها: كتابي هذا إليك مع من لا أعرفه ولا أُوجِب حقَّه، فإن قضيت حاجته لم أحمدك، وإن ردَدته لم أذمَّك. فرجع الرجل إليه فقال الجاحظ: كأنك فضضت الورقة؟ قال نعم. قال: لا يَضيرك ما فيها؛ فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص. فقال الرجل: قطع الله يدَيك ورجلَيك ولعنك. فقال الجاحظ: ما هذا؟ قال: علامة لي إذا أردت أن أشكر شخصًا.

وقال: نزلت على صديق لي فلم آكل عنده لحمًا، فعرَّضت له. فقال: إني لا أُكثر من اللحم منذ سمعت الحديث: إن الله يكره البيت اللَّحِم. فقلت: يا أخي، إنما أراد البيت الذي تؤكل فيه لحوم الناس بالغِيبة، فلم يؤخِّر حضور اللحم من ذلك اليوم.

قلت: وهذه من مَعابث الجاحظ.

(١٢) نُخَب من رسائله الخاصة

كتب إلى محمد بن عبد الملك الزيَّات، وكان قد تنكَّر له:

أعاذك الله من سوء الغضب، وعصَمك من سرَف الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف، ورجَّح في قلبك إيثار الأناة؛ فقد خِفتُ — أيَّدك الله — أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزَق السُّفهاء، ومجانبة سُبُل الحكماء.

وبعد، فقد قال عبد الرحمن بن حسَّان بن ثابت:

وإن امرأً أمسى وأصبح سالمًا من الناس إلا ما جنى لَسعيدُ

وقال الآخَر:

ومن دعا الناسَ إلى ذمِّه ذمُّوه بالحقِّ وبالباطلِ

فإن كنتُ اجترأت عليك — أصلحك الله — فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يُورث الإغفال، والعفو المُتتابع يؤمن من المكافأة؛ ولذلك قال عُيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله: عُمَر كان خيرًا لي منك، أرهبني فأتْقاني، وأعطاني فأغْناني؛ فإن كنت لا تهبُ عقابي — أيَّدك الله — لخدمةٍ سلفت لي عندك، فهَبْه لأياديك عندي؛ فإن النعمة تشفع في النقمة، وإلا تفعل ذلك لذلك فعُدْ إلى حسن العادة، وإلا فافعل ذلك لحسن الأُحدوثة، وإلا فأتِ ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة؛ فسبحان من جعلك تعفو عن المُتعمد، وتتجافى عن عقاب المُصر، حتى إذا صِرتَ إلى مَن هفوته ذِكر، وذنبه نِسيان، ومن لا يعرف الشكر إلا لك، والإنعام إلا منك، هجمت عليه بالعقوبة.

واعلم — أيَّدك الله — أن شَين غضبك عليَّ كزَينِ صفحك عنِّي، وأن موت ذِكري مع انقطاع سببي منك كحياة ذِكري مع اتصال سببي بك. واعلم أن لك فطنةَ عليم، وغفلةَ كريم، والسلام.

وكتب إلى أحمد بن أبي دؤاد يستعطفه، فقال:

ليس عندي أعزَّك الله سبب، ولا أقدر على شفيع إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة، والتأميل الذي لا يكون إلا من نتاج حسن الظن وإثبات الفضل بحال المأمول، وأرجو أن أكون من العُتقاء الشاكرين فتكون خير مُعتِب، وأكون أفضل شاكر، ولعل الله أن يجعل هذا الأمر سببًا لهذا الإنعام، وهذا الإنعام سببًا للانقطاع إليكم، والكون تحت أجنحتكم؛ فيكون لا أعظم بركةً ولا أنمى بقيةً من ذنبٍ أصبحت فيه، وبمِثلك — جُعلتُ فِداك — عاد الذنب وسيلة، والسيئة حسنة. ومِثلك من انقلب به الشر خيرًا، والغُرم غُنمًا.

من عاقَب فقد أخذ حظه، وإنَّما الأجر في الآخرة وطِيب الذِّكر في الدنيا على قدر الاحتمال وتجرُّع المرائر. وأرجو ألا أضيع وأهلك فيما بين عقلك وكرمك. وما أكثر من يعفو عمَّن صغُر ذنبه وعظُم حقُّه، وإنَّما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجُرم، ضعيف الحُرمة. وإن كان العفو العظيم مُستطرفًا من غيركم فهو تِلاد فيكم، حتى ربما دعا ذلك كثيرًا من الناس إلى مخالفة أمركم، فلا أنتم عن ذلك تنكُلون، ولا على سالف إحسانكم تندمون. وما مثلكم إلا كمثل عيسى ابن مريم حين كان لا يمرُّ بملأ من بني إسرائيل إلا أسمعوه شرًّا وأسمعهم خيرًا، فقال له شمعون الصفا: ما رأيت كاليوم؛ كلما أسمعوك شرًّا أسمعتهم خيرًا؟ فقال: كلُّ امرئٍ يُنفق مما عنده. وليس في أوعيتكم إلا الخير، ولا في أوعيتكم إلا الرحمة، وكل إناء بالذي فيه ينضح.

وكتب يقول:

زيَّنك الله بالتقوى، وكفاك ما أهمَّك من الآخرة والأولى. من عاقَب، أبقاك الله تعالى، على الصغيرة عقوبةَ الكبيرة، وعلى الهفوة عقوبةَ الإصرار؛ فقد تناهى في الظلم. ومن لم يفرِّق بين الأسافل والأعالي، والأداني والأقاصي، فقد قصَّر.

والله لقد كنت أكره سرَف الرضا مَخافةَ أن يؤدِّيَ إلى سرَف الهوى، فما ظنُّك بسرف الغيظ وغلبة الغضب من طيَّاشٍ عَجول فحَّاش، ومعه من الخُرق بقدر قِسطه من التِهاب المِرَّة الحمراء؟ وأنت رُوح كما أنت جسم، وكذلك جِنسك ونوعك، إلا أن التأثُّر في الرقاق أسرع، وضده في الغِلاظ الجُفاة أكمل؛ ولذلك اشتدَّ جزعي عليك من سلطان الغيظ وغلبته. فإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه، فانظر في عِلَّته، وفي سبب إخراجه من مَعدِنه الذي منه نجَم، وعُشِّه الذي منه درَج، وإلى جهة صاحبه في التسرُّع والثبات، وإلى حِلمه عند التعريض، وفِطنته عند التوبة. فكل ذنب كان سببه ضِيق صدر من جهة الفيض في المقادير، أو من طريق الأنَفة وغلبة طباع الحميَّة، من جهة الجفوة أو من جهة استحقاقه فيما زين له عمله أنه مقصر به في حقه، مؤخر عن رتبته، أو كان مُبلغًا عنه مكذوبًا عليه، أو كان ذلك جائزًا فيه غير مُمتنع منه، فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل فليس يقف عليها كريم، ولا ينظر فيها حليم. ولست أسمِّيه بكثرة معروفه كريمًا، حتى يكون عقله غامرًا لعلمه، وعِلمه غالبًا على طباعه. كما لا أسمِّيه بكفِّ العِقاب حليمًا، حتى يكون عارفًا بمِقدار ما أخذ وترك. ومتى وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البُغض المحض، والنِّفار الغالب، فلو لم ترضَ لصاحبه بعِقابٍ دون قعر جهنم، لعذَرَك كثير من العقلاء، ولصوَّب رأيَك عالمٌ من الأشراف. والأناة أقربُ من الحمد، وأبعدُ من الذم، وأنأى من خوف العجلة. وقد قال الأول: عليك بالأناة؛ فإنك على إيقاع ما تتوقَّعه أقدرُ منك على ردِّ ما قد أوقَعتَه. وليس يُصارع الغضبَ أيام شبابه شيءٌ إلا صرَعه، ولا يُنازعه قبل انتهائه [مُنازع] إلا قهره، وإنما يُحتال له قبل هيجه، فمتى تمكَّن واستفحل، وأذكى ناره واشتعل، ثم لاقى من صاحبه قدرة، ومن أعوانه سمعًا وطاعة، فلو استبطنته بالتوراة، وأوجرته بالإنجيل، ولدَدته بالزَّبور، وأفرغت على رأسه القرآن إفراغًا، وأتيته بآدم شفيعًا، لَمَا قصَّر دون أقصى قوَّته، ولن يُسكِّن غضبَ العبد إلا ذِكرُه غضب الرب.

فلا تقِف — حفظك الله — بعد مُضيِّك في عِتابي التماسًا للعفو عني، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة بي، ولكن قِف وقفةَ من يتَّهم الغضب

على عقله، والشيطان على دينه، ويعلم أنَّ للكرم أعداءً، ويُمسك إمساكَ من لا يُبرئ نفسه من الهوى، ولا يُبرئ الهوى من الخطأ. ولا تُنكر لنفسك أن تزلَّ، ولعقلك أن يهفوَ؛ فقد زلَّ آدم عليه السلام وقد خلقه بيده. ولست أسألك إلا ريثما تسكُن نفسك، ويرتدُّ إليك ذهنك، وترى الحِلم وما يجلب من السلامة وطيِّب الأحدوثة، والله يَعلم، وكفى به عليمًا.

لقد أردت أن أفْديَك بنفسي في مُكاتَباتي، وكنت عند نفسي في عِداد الموتى وفي حيِّز الهَلكى، فرأيت أن من الخيانة لك، ومن اللؤم في معاملتك، أن أفْديَك بنفسٍ ميتة، وأن أُريَك أني قد جعلت لك أنفس ذُخْر، والذُّخر معدوم، وأنا أقول كما قال أخو ثقيف: مودَّة الأخ التالد وإن أخلقَ خيرٌ من مودَّة الأخ الطارف وإن ظهرت مساعدته، وراقت جِدَّته.

سلَّمك الله وسلَّم عليك، وكان لك ومعك.

وكتب إلى قليب المغربي يقول:

والله يا قليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة، ورُوحي بك مجروحة، لَساجَلتُك هذه القطيعة، ومادَدتك حبل المصارَمة، وأرجو أن الله تعالى يُديل صبري من جفائك، فيردُّك إلى مودَّتي وأنفُ القِلى راغِم؛ فقد طال العهد بالاجتماع حتى كِدنا نتناكر عند الالتقاء.

(١٣) نُبَذ من شعره

وشِعر الجاحظ وإن كان دون طبقته في البلاغة، ودون مَنزلته في الفصاحة، إلا أننا لا يُمكِننا أن نترك هذه الترجمة دون إثبات ما عثَرْنا عليه منه.

روى يموت بن المزرع هذه الأبيات للجاحظ يهجو بها الجمَّاز:

نَسبُ الجمَّاز مَقصُو　　رٌ إليه مُنتهاه
تنتهي الأحسابُ بالنَّا　　سِ ولا يَعْدو قفاه
يتحاجى مَن أبو الجمـ　　ـازِ فيه كاتِباه
ليس يدري مَن أبو الجمـ　　ـازِ إلا مَن يراه

وروى له أبو العيناء هذه الأبيات في الخضاب:

زُرتُ فتاةً من بني هلالِ فاستعجلتْ إليَّ بالسؤالِ
ما لي أراكَ قانِيَ السِّبالِ كأنما كرعتَ في جِريالِ
ما يبتغي مِثلُك من أمثالي؟ تنحَّ قدَّامي ومن حيالي

وقال:

يَطيبُ العيشُ إن تَلقى حكيمًا غذاه العِلمُ والفَهمُ المُصيبُ
فيَكشفُ عنك حَيرةَ كلِّ جهلٍ وفضلُ العلمِ يَعرفُه اللبيبُ
سَقامُ الحِرصِ ليس له شفاءٌ وداءُ الجهلِ ليس له طبيبُ

وقال:

إنْ حالَ لونُ الرأسِ عن حالِهِ ففي خِضابِ المرءِ مُستمتَعُ
هَبْ أنَّ مَن شابَ له حِيلةٌ فما الذي تُحنى له الأضلُعُ؟

وروى له أبو الحسن البَرمكي:

وكان لنا أصدقاءُ مضَوا تفانَوا جميعًا وما خُلِّدوا
تساقَوا جميعًا كُئوسَ المَنونِ فماتَ الصديقُ وماتَ العَدُو

وله من أبيات في المدح:

بدا حين أثْرى بإخوانِه ففلَّلَ عنهم شَباةَ العَدَمْ
وذكَّرَه الحزمُ صرْفَ الزمانِ فبادَرَ قبلَ انتقالِ النِّعَمْ
فتًى خصَّه اللهُ بالمَكرُماتِ فمازَجَ منه الحيا بالكَرَمْ

(١٤) مرضه وما قيل في سببه وما أحاط به

قال ابن أبي أصيبعة: نقلت من خطِّ المختار بن الحسن بن بطلان أن أبا عثمان الجاحظ ويوحنا بن ماسويه اجتمعا بغالب ظنِّي على مائدة إسماعيل بن بلبل الوزير (قلت: الأقرب

إلى الصواب ما رواه جمال الدين بن نُباتة المصري في شرحه على رسالة ابن زيدون من أن اجتماعهما كان على مائدة أحمد بن أبي دؤاد)، وكان في جملة ما قُدِّم مَضيرة بعد سمك، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما، فقال له أبو عثمان: أيها الشيخ، لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضادًّا له؛ فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له، وإن كانا من طبعٍ واحد فلنحسب أنَّا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا. فقال يوحنا: والله ما لي خبرة بالكلام، ولكن كُلْ يا أبا عثمان، وانظر ما يكون في غد. فأكل أبو عثمان نُصرةً لدعواه، ففُلِج في ليلته، فقال: هذه والله نتيجة القياس المُحال.

وقال أبو العبَّاس محمد بن يزيد المُبرد: عُدتُ الجاحظ فسمعته يقول: أنا من جانبي الأيسر مفلوج؛ فلو قُرِض بالمقاريض ما علمت، ومن جانبي الأيمن مُنقرس؛ فلو مرَّ بي الذباب لا لمت، وبي حصاة لا ينسرح لي البول معها، وأشد ما عليَّ ست وتسعون.

وقال يموت بن المزرع (وهو ابن أخت الجاحظ): وجَّه المُتوكل في السنة التي قُتِل فيها (٢٤٧) أن يُحمَل إليه الجاحظ من البصرة — وقد سأله الفتح بن خاقان ذلك — فوجده لا فضل فيه، فقال لمن أراد حمله: ما يُصنَع بامرئ ليس بطائل، ذي شقٍّ مائل، ولُعابٍ سائل، وفرجٍ بائل، وعقلٍ زائل، ولونٍ حائل؟

وقال أبو معاذ عبدان الخولي المُتطبب: دخلنا يومًا بسُرَّ من رأى على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فُلِج، فلما أخذنا مجالسنا أتى رسول المُتوكل فيه فقال: وما يصنع أمير المؤمنين بشقٍّ مائل، ولُعابٍ سائل؟ ثم أقبل علينا فقال: ما تقولون في رجل له شِقَّان؛ أحدهما لو غُرِز بالمسال ما أحس، والشقُّ الآخر يمرُّ به الذباب فيغوث، وأكثر ما أشكوه الثمانون؟ ثم أنشدنا أبياتًا من قصيدة عوف بن محلم الخُزاعي. قال أبو معاذ: وكان سبب هذه القصيدة أنَّ عوفًا دخل على عبد الله بن طاهر، فسلَّم عليه عبد الله فلم يسمع، فأُعلم بذلك، فزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة ارتجالات، فأنشده:

يا ابنَ الذي دانَ له المَشرِقانْ ... طرًّا وقد دانَ له المَغرِبانْ
إن الثمانين وبُلِّغتَها ... قد أحوجتْ سَمْعي إلى تَرجُمانْ
وبدَّلتني بالشِّطاطِ انْحِنا ... وكنتُ كالصَّعدةِ تحت السِّنانْ
وبدَّلتني من زَماعِ الفتى ... وهمَّتي همَّ الجبانِ الهِدانْ
وقارَبتْ منِّي خُطًا لم تكن ... مُقارَباتٍ وثنَتْ من عِنانْ

وأنشأتْ بيني وبين الورى عَنانةً من غيرِ نسجِ العَنانْ
ولم تدَعْ فيَّ لمُستمتِعٍ إلا لساني وبحَسْبي لسانْ
أدعو به اللهَ وأُثني به على الأمير المُصعَبيِّ الهِجانْ
فقرِّباني بأبي أنتما من وطني قبلَ اصفرارِ البَنانْ
وقبلَ مَنْعايَ إلى نِسوةٍ أوطانُها حرَّانُ والرَّقمتانْ

وقال بعض البرامكة: كنت تقلَّدت السند فأقمت بها ما شاء الله، ثم اتصل بي أني صُرفت عنها، وكنت قد كسبت بها ثلاثين ألف دينار، فخشيت أن يفجأني الصارف فيسمع بمكان المال فيطمع فيه، فصُغْته عشرة آلاف إهليلجة، ولم يلبث الصارف أن أتى، فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة، فخبرت أن الجاحظ بها، وأنه عليل بالفالج، فأحببت أن أراه قبل وفاته، فصِرتُ إليه، فأفضيت إلى باب دار لطيف فقرَعتُه، فخرجت إليَّ خادمٌ صفراء فقالت: من أنت؟ قلت: رجلٌ غريب، وأحبُّ أن أُسرَّ بالنظر إلى الشيخ. فبلَّغته الخادم ما قلت، فسمعته يقول: قولي له: وما تصنع بشقٍّ مائل، ولُعابٍ سائل، ولونٍ حائل؟ فقلت للجارية: لا بد من الوصول إليه. فلما بلَّغته قال: هذا رجل قد اجتاز بالبصرة، وسمع بعِلَّتي فقال أُحبُّ أن أراه قبل موته، فأقول قد رأيت الجاحظ. ثم أَذِن لي فدخلت وسلَّمت عليه، فردَّ ردًّا جميلًا! وقال: من تكون أعزَّك الله؟ فانتسبت له، فقال: رحِم الله تعالى أسلافك وآباءك السمحاء الأجواد؛ فلقد كانت أزمانهم رياض الأزمنة، ولقد انجبر بهم خلقٌ كثير، فسقيًا لهم ورعيًا. فدعوت له وقلت: أنا أسألك أن تُنشدني شيئًا من الشعر. فأنشدني:

لئن قُدِّمت قبلي رجالٌ فطالما مشيتُ على رِسْلي فكنتُ المُقدَّما
ولكنَّ هذا الدهرَ تأتي صُروفُه فتُبرِمُ منقوضًا وتنقضُ مُبرَما

ثم نهضت، فلما قاربت الدهليز قال: يا فتًى، أرأيت مفلوجًا ينفعه الإهليلج؟ قلت: لا. قال: فإن الإهليلج الذي معك ينفعني فابعث لي منه. فقلت: نعم. وخرجت مُتعجبًا من وقوفه على خبري مع كتماني له، وبعثت له مائة إهليلجة.

وقال أبو طاهر: صِرتُ إلى الجاحظ ومعي جماعة، وقد أسنَّ واعتلَّ في آخر عمره، وهو في مَنظرة له وعنده ابن خاقان جاره، فقرعنا الباب فلم يفتح لنا، وأشرف من المنظرة

وقال: ألا إني قد حوقلت، وحملت رُمَيح أبي سعد، وسُقتُ الغنم،[٢] فما تصنعون بي؟ سلِّموا سلام الوداع. فسلَّمْنا وانصرفنا.

وشكا يومًا لطبيبه عِلَّته فقال: قد اصطلحت الأضداد على جسدي، إن أكلت باردًا أخذ برِجلي، وإن أكلت حارًّا أخذ برأسي.

وما زال في عِلَّته هذه إلى أن وقعت عليه مجلدات العلم، فمات، رحمه الله، في سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م.

(١٥) مؤلَّفاته

نُثبِت هنا ما أمكن العثور عليه من أسماء مؤلَّفاته:

- كتاب الحيوان.
- كتاب البيان والتبيين.
- كتاب البُخلاء.
- كتاب سلوة الحريف في مناظرة الربيع والخريف.
- مجموعة رسائل تحوي:
  - رسالة الحاسد والمحسود.
  - رسالة في مناقب التُّرك وعامة جند الخلافة.
  - رسالة في فخر السُّودان على البِيضان.
  - رسالة في التربيع والتدوير.
  - رسالة في تفضيل النطق على الصمت.
  - رسالة في مدح التُّجَّار وذم عمل السلطان.
  - رسالة في العشق والنساء.
  - رسالة في الوُكلاء.

[٢] حوقلت: أكثرت من قول «لا حول ولا قوة إلا بالله»؛ لتتابُع الأمراض. وقوله «رميح أبي سعد»: هو رجل من العرب أسنَّ فاستعان بالعصا، وهو أول من فعل ذلك، فقيل لكل من شاخ أخذ رميح أبي سعد. وقوله «سقت الغنم»: كناية عن الهَرم؛ لأن سائق الغنم يُطأطئ من رأسه.

- رسالة في استنجاز الوعد.
- رسالة في بيان مذاهب الشيعة.
- رسالة في طبقات المغنِّين.

• أسماء ما ذكر منها في كتاب الحيوان:

- كتاب حِيَل اللصوص.
- كتاب غِش الصناعات.
- كتاب المُلَح والطُّرَف.
- كتاب احتجاج البخلاء (ويظهر أنه السابق ذِكره).
- كتاب الصُّرحاء والهُجناء.
- كتاب مُفاخَرة السُّودان والحُمْران.
- كتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب.
- كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات.
- كتاب فضل ما بين الرجال والنساء.
- كتاب القحطانية والعدنانية.
- كتاب العرب والموالي.
- كتاب العرب والعجم.
- كتاب الأصنام.
- كتاب المعادن.
- كتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس.
- كتاب فرق ما بين الجن والإنس.
- كتاب فرق ما بين الملائكة والجن.
- كتاب الأوفاق والرياضات.
- كتاب الرسائل الهاشميات.
- كتاب خلق القرآن.
- كتاب الرد على المُشبهة.
- كتاب أصول الفُتيا والأحكام.
- كتاب الاحتجاج لنظم القرآن.
- كتاب معارضة الزيدية.

- كتاب الوعد والوعيد.
- كتاب النصراني واليهودي.
- كتاب الجوابات.
- كتاب المسائل.
- كتاب أصحاب الإلهام.
- كتاب الحجة في تثبيت النبوة.
- كتاب الأخبار.
- كتاب بصيرة غنام المُرتد.
- كتاب الرد على الجهمية.
- كتاب فرق ما بين النبي والمُتنبي.
- كتاب العباسية.

• رسالة في مفاخرة المِسك والرماد.[٣] ثلاث رسائل هي:

- رسالة في الرد على النصارى.
- رسالة في ذم أخلاق الكُتاب.
- رسالة في القِيان.

• عن كتاب الانتصار للخيَّاط بعد حذف المكرَّر:

- كتاب أفعال الطبائع.
- كتاب فضيلة المعتزلة.

• عن كتاب التاج:

- كتاب أخلاق الفِتيان وفضائل أهل البطالة.

• ما نُسب إلى الجاحظ:

- كتاب التاج في أخلاق الملوك. نَسَبه إليه أحمد زكي باشا.

[٣] أشار إليها الصلاح الصفدي في شرحه على لامية العجم، وقال: إنها رسالةٌ بديعة.

- كتاب تنبيه الملوك والمكايد. أشار زكي باشا إلى أنه مما نُسِب إليه.
- كتاب المحاسن والأضداد.

هذا ما أعجل الوقت به من استخلاص ترجمة الجاحظ عن شتَّى الكتب ومختلِف الأسفار مما لم يسبقنا إليه سابق، ولله الحمد والمِنَّة.

حسن السندوبي
القاهرة في يوم الأحد
١٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥
٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على سيدنا محمد النبي الكريم وسلَّم
عونَك اللهم وتيسيرَك

اللهم إنَّا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل. ونعوذ بك من التكلُّف لما لا نُحسِن، كما نعوذ بك من العُجْب بما نُحسِن. ونعوذ بك من السَّلاطة والهَذَر،[1] كما نعوذ بك من العِيِّ والحَصَر، وقديمًا ما تعوَّذوا بالله من شرِّهما، وتضرَّعوا إلى الله في السَّلامة منهما.

وقد قال النَّمِر بن تَولب:[2]

أَعِذْني ربِّ من حصَرٍ وعِيٍّ ومن نفسٍ أُعالجها علاجا

---

[1] السلاطة: البذاءة. والهذر: الإكثار من الكلام الفارغ.

[2] النمر بن تولب العكلي: شاعرٌ مُخضرَم، أسلم وحَسُن إسلامه، وكان من أجواد العرب المذكورين، وفُرسانهم المشهورين. وكان شاعرًا فصيحًا، وشجاعًا كريمًا. لقَّبه أبو عمرو بن العلاء بالكيِّس لحُسنِ شعره. وقال عنه حمَّاد الراوية: إنه كثير البيت السائر والمُتمثَّل به. وهذا البيت الذي تمثَّل به الجاحظ أحد أبيات هو أولها، وبعده:

ومن حاجاتِ نفسي فاعصِمَنِّي فإن لمُضمَراتِ النفس حاجا
فأنت وليُّها وبرئتُ منها إليك فما قضيتَ فلا خِلاجا

شاخ حتى خَرِف، وكان هِجيراه في خرَفه: أصبِحوا الضيف، أغبِقوا الضيف.

وقال الهُذَلي:[٣]

ولا حَصِرٌ بخُطبتِه　　إذا ما عزَّت الخُطَبُ

وقال مكّي بن سوادة:[٤]

حَصِرٌ مُسهَبٌ جريءٌ جبانٌ　　خيرُ عيِّ الرجال عيٌّ سَكوت

وقال الآخَر:

مليءٌ ببُهرٍ والتفاتٌ وسعلةٌ　　ومَسحةُ عُثْنونٍ وفتلُ الأصابعِ[٥]

ومما ذموا به العيَّ قولُه:

وما بيَ من عِيٍّ ولا أنطقُ الخنا　　إذا جمَع الأقوامَ في الخَطبِ مَحفِلُ

وقال الراجز وهو يمتح بدَلوِه:[٦]

عَلِقتَ يا حارثُ عندَ الورِدِ　　بجابئٍ لا رَفِلِ التَّردِّي[٧]
ولا عيِيٍّ بابتناءِ المَجدِ

---

[٣] الهذلي هذا هو أبو العيال بن أبي عنترة من سعد هذيل. كان شاعرًا فصيحًا أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم فيمن أسلم من هذيل. والبيت الذي جاء به الجاحظ هو من قصيدةٍ يرثي بها ابن عمه عبد بن زهرة، يقول فيها:

أَلَا لله درُّك من　　فتى قومٍ إذا رَهِبوا
وقالوا مَن فتًى للحر　　بِ يرقبنا ويرتقبُ
فكنتَ فتاهمُ فيها　　إذا يُدعى لها يَثِبُ

إلخ. امتدَّ به العمر حتى أدرك عهد معاوية، وتُوفي في خلافته.

[٤] مكي بن سوادة (لم أعثر على شيء عنه فيما بين يدي من كُتُب).

[٥] البهر: الإعياء. والعثنون: اللحية.

[٦] المتح: الاستقاء.

[٧] الورد: وُرود الماء. الجابئ: المُفاجئ بقدومه. لا رفل التردي: غير جاهل بخطر السقوط.

وهذا كقول بشَّار الأعمى:[8]

وعِيُّ الفَعَالِ كعِيِّ المَقالِ　　وفي الصمتِ عِيٌّ كعِيِّ الكَلِمْ

وهذا المذهب شبيهٌ بما ذهب إليه شُتَيم بن خُوَيلد في قوله:

ولا يَشعَبون الصَّدعَ بعدَ تفاقُمٍ　　وفي رِفقِ أيديكم لذي الصَّدعِ شاعبُ[9]

وهذا كقول زبَّان بن سيار:

ولَسْنا كأقوامٍ أجَدُّوا رياسةً　　يُرى مالُها ولا يُحَسُّ فَعَالُها
يُريغون في الخِصبِ الأمورَ ونفعُهم　　قليلٌ إذ الأموالُ طالَ هُزالُها[10]
وقُلنا بلا عيٍّ وسُسْنا بطاقةٍ　　إذ النارُ نارُ الحربِ طالَ اشتعالُها

لأنهم يجعلون العجز والعيَّ من الخُرق، كانا في الجوارح أم في الألسنة. وقال ابن أحمر الباهلي:

لو كنتُ ذا علمٍ عَلِمتُ وكيف لي　　بالعلمِ بعدَ تدبُّرِ الأمرِ

وقالوا في الصمت كقولهم في المنطق. قال أُحَيحة بن الجُلاح:[11]

والصمتُ أحسَنُ بالفتى　　ما لم يكُنْ عِيٌّ يَشينُه
والقولُ ذو خَطَلٍ إذا　　ما لم يكُنْ لُبٌّ يُعِينُه

---

[8] بشَّار الأعمى: هو بشَّار بن بُرْد، ومحلُّه في الشعر وتقدُّمه في الإبداع أشهر من أن يُدَل عليه. وهو زعيم الشعراء المُحدَثين بلا مُنازع. ذاع أمره في الدولتَين الأموية والعباسية، وأخذ سنيَّ الجوائز من خلفائهما وأمرائهما، وكان مرهوب الجانب مخشيَّ اللسان. وُلِد سنة ٧٦هـ/ ٦٩٥م، وقُتِل سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م.

[9] يقول: إن أعداءكم لا يُصلِحون فاسدًا، أما أنتم ففي أيديكم كل صلاح.

[10] يُريغون: من الإراغة، وهي الطلب.

[11] أحيحة بن الجلاح: شاعرٌ أوْسي جاهلي، فارس شجاع، وكريم جواد، وله أحداث وخطوب مع تُبَّع بن حسَّان ملك اليمن، ومع الحارث بن ظالم، مما هو معروف ومشهور.

وقال مُحرِز بن علقمة:

لقد وارى المقابرُ من شريكٍ كثيرَ تحلُّمٍ وقليلَ عابِ
صَموتًا في المجالس غيرَ عَيٍّ جديرًا حين ينطقُ بالصوابِ

وقال مكِّي بن سوادة:

تَسلَّمَ بالسكوتِ من العيوبِ فكان السكتُ أجلبَ للعيوبِ
ويرتجلُ الكلامَ وليس فيه سِوى الهَذَيان من حَشدِ الخطيبِ[١٢]

وقال آخَر:

جمَعتَ صنوفَ العِيِّ من كلِّ وِجهةٍ وكنتَ حَرِيًّا بالبلاغةِ من كَثَبْ
أبوك مُعِمٌّ في الكلام ومُخوِلٌ وخالُك وثَّابُ الجراثيمِ في الخُطَبْ

وقال حُمَيد بن ثور الهلالي:[١٣]

أتانا ولم يَعدِلْه سَحبانُ وائلٍ بيانًا وعِلمًا بالذي هو قائلُ[١٤]
فما زال عنه اللَّقمُ حتى كأنه من العِيِّ لمَّا أنْ تَكلَّمَ باقِلُ[١٥]

---

[١٢] الحشد هنا بمعنى الاستعداد.

[١٣] حميد بن ثور: شاعرٌ مُخضرَم أدرك الجاهلية والإسلام، وكان شاعرًا مُجيدًا، وقال الشعر في أيام عمر، وله وصف في القطاة تفاخَر فيه مع العجير السلولي، وأوس بن غلفاء الهجيمي، ومُزاحم العقيلي، والعباس بن يزيد الكندي، ولما اختلفوا فيمن كان منهم أحسن وصفًا احتكموا إلى ليلى الأخيلية فقالت:

ألا كل ما قال الرُّواة وأنشَدوا بها غيرَ ما قال السلوليُّ بَهرجُ

فقضت للعجير السلولي عليهم. ويُعَد حميد من الصحابة.

[١٤] سحبان: هو سحبان بن زفر بن إياس، يُضرَب به المثل في الفصاحة والخطابة، فيُقال: أخطَبُ من سحبان وائل. كان من ألسنة العرب في الجاهلية، فلما جاء الإسلام أسلم. خطب في وفود خراسان بين يدَي معاوية من صلاة الظهر إلى صلاة العصر ما تنحنح ولا سعل ولا توقَّف. مات سنة ٥٤هـ/٦٧٣م. وباقل بعكسه، يُضرَب به المثل في العي، فيُقال: أعيا من باقل.

[١٥] اللَّقم: توالي اللُّقَم في الفم.

سَحْبان مَثَلٌ في البيان، وباقل مَثَلٌ في العِي، ولهما أخبار. وقال آخَر:

ماذا رُزِئنا منكِ أمَّ الأسودِ　　من رَحَبِ الصَّدرِ وعَقلٍ مُتلِدِ
وهْي صَنَاعٌ باللسانِ واليدِ

وقال آخَر:

لو صُحِبتْ شهرَين دأبًا لم تُمَل　　وجعلت تُكثِر قولَ لا وبلْ
حبُّك للباطلِ قِدْمًا قد شَغَلْ　　كَسْبَك عن عِيالِنا قلتُ أجَلْ
تَضجُّرًا منِّي وعِيًّا بالحِيَلْ

قال: وقيل لبُزُرجِمهر بن البختكان الفارسي:[١٦] أيُّ شيء أستَرُ للعِي؟ قال: عقلٌ يجمِّله. قالوا: فإن لم يكُن له عقل؟ قال: فمالٌ يستره. قالوا: فإن لم يكُن له مال؟ قال: فإخوانٌ يعبِّرون عنه. قالوا: فإن لم يكُن له إخوان يعبِّرون عنه؟ قال: فيكون ذا صمت. قالوا: فإن لم يكُن ذا صمت؟ قال: فموت وحِيٌّ خيرٌ له من أن يكون في دار الحياة.

وسأل الله موسى ﷺ حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حُجته، والإفصاح عن أدلَّته، فقال حين ذكر العُقدة التي كانت في لسانه، والحُبسة التي كانت في بيانه: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾. وأنبأنا الله تبارك وتعالى عن تعلُّق فرعون بكل سبب، واستراحته إلى كل شغب، ونبَّهنا بذلك على مذهب كل جاحد مُعاند، وعلى كل مُختال مُكايد، حين خبَّرنا بقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾. وقال موسى عليه السلام: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾. وقال: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾، رغبةً منه في غاية الإفصاح بالحُجة، والمبالغة في وضوح الدلالة؛ لتكون الأعناق إليه أسرع، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقَّة. ولله عز وجل أن يمتحن عباده بما شاء من التخفيف والتثقيل، ويبلو أخبارهم كيف أحبَّ من المكروه والمحبوب، ولكل زمان ضربٌ من المصلحة، ونوع من المحنة، وشكل من العبادة. ومن الدليل على أن الله عز وجل حلَّ تلك العُقدة، وأطلق ذلك التعقيد والحبسة، قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي

[١٦] بزرجمهر، وقد يُقال بزرج مهر: حكيمٌ فارسي مشهور، نكبه كِسرى لقول الحق.

﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾، إلى قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾. فلم تقع الاستجابة على شيء من دعائه دون شيء لعموم الخبر. وسنقول في شأن موسى عليه السلام ومسألته في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وذكرَ الله تعالى جميل بلائه في تعليم البيان، وعظيم نعمته في تقويم اللسان، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. وقال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾. ومدح القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ، وسمَّاه فُرقانًا، وقال: ﴿عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾. وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾. وقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾.

وذكرَ الله تعالى لنبيِّه حال قريش في بلاغة المنطق، ورجاحة الأحلام، وصحَّة العقول. وذكرَ العرب وما فيها من الدهاء والنكراء والمكر، ومن بلاغة الألسنة، واللَّدد عند الخصومة، فقال: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾. وقال: ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾. وقال: ﴿وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾. وقال: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. ثم ذكر خلابة ألسنتهم، واستمالتهم الأسماع بحسن منطقهم، فقال: ﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾. ثم قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مع قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾. وقال الشاعر في قومٍ يُحسِنون في القول ويُسيئون في العمل، قال أبو حفص: أنشدني الأصمعي للمُكعبَر الضبِّي:

كُسالى إذا لاقيتُهم غيرَ مَنطقٍ ... يُلهَّى به المحروبُ وهْو عناءُ

وقيل لذَوهمان: ما تقول في خُزاعة؟ قال: جُوع وأحاديث. وفي شبيه بهذا المعنى قال أُفنون بن صُريم التغلبي:[١٧]

لو أنَّني كنتُ من عادٍ ومن إرَمٍ ... غَذِيَّ قَيلٍ ولُقمانٍ وذي جَدَنِ

[١٧] أفنون بن صريم التغلبي: شاعرٌ قديم، له حكايةٌ غريبة؛ ذلك أن بعض الكُهان أنذره بهلاكه من لدغةٍ تُصيبه، فكان لا ينام إلا على ظهر راحلته، فبينا هو ذات ليلة على ناقته وهي ترعى إذ الْتَوَت حية على

لَمَا وقَوا بأخيهم من مُهوِّلةٍ   أخا السَّكونِ ولا حادُوا عن السَّننِ
أنَّى جزَوا عامرًا سوءًا بِفعلِهمُ   أم كيف يَجزُونني السُّوأى من الحَسنِ
أم كيف ينفعُ ما تُعطي العَلوقُ به   رِئمانُ أنفٍ إذا ما ضُنَّ باللبنِ

ورئمان: أصله الرِّقة والرحمة، والرَّءوم أرقُّ من الرءوف، فقال: «رئمان أنف»، كأنها تبرُّ ولدها بأنفها وتمنعه اللبن.

ولأن العرب تجعل الحديث والبَسط والتأنيس والتلقِّيَ بالبِشر من حقوق القِرى ومن تمام الإكرام. وقالوا: تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤاكَلة. وقال شاعرهم وهو حاتمٌ الطائي:[١٨]

سَلِي الجائعَ الغَرثانَ يا أمَّ مُنذِرٍ   إذا ما أتاني بين ناري ومَجزري
هَلَ ابْسُطُ وجهي؟ إنه أوَّلُ القِرى   وأبذلُ معروفي له دون مُنكَري؟

وقال الآخَر:

إنك يا ابنَ جعفرٍ خيرُ فتًى   وخيرُهم لطارِقٍ إذا أتى
ورُبَّ نِضوٍ طرَقَ الحيَّ سُرًى   صادَفَ زادًا وحديثًا ما اشتهى
إن الحديثَ جانبٌ من القِرى

وقال الآخَر:

لِحافي لِحافُ الضَّيفِ والبيتُ بيتُه   ولم يُلهِني عنه غزالٌ مُقنَّعُ
أحدِّثُه إن الحديثَ من القِرى   وتَعلَم نَفْسي أنه سوف يَهجَعُ

مِشفَرِها، فاضطربت ورمت بها إليه فلدغته. فقال:

لَعَمرُك ما يدري الفتى كيف يتَّقي   إذا هو لم يَجعلْ له اللهَ واقيَا

ثم خرَّ ميتًا لساعته، وذلك حواليَ سنة ٥٦٧م.

[١٨] حاتم الطائي: هو الجواد المشهور، كان شاعرًا فحلًا، وفارسًا شجاعًا، وله في الجود والكرم حوادث وأخبارٌ معروفة. تُوفي حواليَ سنة ٦٠٥م.

ولذلك قال عمرو بن الأهتم:[19]

فقلتُ له أهلًا وسهلًا ومَرحبًا فهذا مَبيتٌ صالحٌ وصديقُ

وقال الآخر:

أُضاحِكُ ضَيفي قبلَ إنزالِ رَحلِه ويُخصِبُ عندي والمَحلُّ جديبُ
وما الخِصبُ للأضيافِ أن يَكثُرَ القِرى ولكنَّما وجهُ الكريمِ خصيبُ

ثم قال الله تبارك وتعالى في بابٍ آخَر من صفة قريش والعرب: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾. وقال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾. وقال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾. وقال: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾. وعلى هذا المذهب قال: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾. وقد قال الشاعر:

يَتقارَضون إذا التَقَوا في مَوقفٍ نظرًا يُزيلُ مَواقِعَ الأقدامِ

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾. لأن مدار الأمر على البيان والتبيين، وعلى الإفهام والتفهيم. وكلما كان اللسان أبيَنَ كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشدَّ استبانةً كان أحمد. والمُفهِّم لك والمُتفهِّم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المُفهِّم أفضل من المُتفهِّم، وكذلك المُعلِّم والمُتعلِّم.

هكذا ظاهر هذه القضية، وجمهور هذه الحكومة، إلا في الخاص الذي لا يُذكَر، والقليل الذي لا يُشهَر.

وضرب الله مثلًا لعِيِّ اللسان ورداءة البيان، حين شبَّه أهله بالنساء والوِلدان، وقال تعالى: ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. ولذلك قال النَّمر بن تَولب:

وكلُّ خليلٍ عليه الرِّعاثُ والحبلاتُ ضعيفٌ مَلِقْ[20]

---

[19] عمرو بن الأهتم: هو عمرو بن سنان الأهتم المنقري التميمي، وكان من سادات تميم وخطبائهم وشعرائهم وذوي الفصاحة واللَّسن في الجاهلية والإسلام. وهو صاحب الحديث مع الزبرقان بن بدر بين يدَي النبي ﷺ، وله مواقف مشهورة. تُوفي سنة ٥٧هـ/٦٧٦م.

[20] الرعاث: الأقراط. والحبلات: ضربٌ من الحُلي.

وليس، حفظك الله، مَضرَّة سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم إطالة الخُطبة، بأعظم مما يحدُث عن العِي من اختلال الحُجة، وعن الحَصَر من فوت درك الحاجة. والناس لا يُعيِّرون الخُرس، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز، وهم يذمُّون الحَصِر، ويؤنِّبون العييَّ؛ فإن تكلَّفا مع ذلك مقامات الخُطباء، وتعاطيا مناظرة البُلغاء، تضاعَف عليهما الذم، وترادَف عليهما التأنيب. ومُماتَنة العَيي الحَصِر للبليغ المِصقَع، في سبيل مُماتَنة المُنقطِع المُفحَم للشاعر المفلِّق. وأحدهما ألومُ من صاحبه، والألسنة إليه أسرع. وليس اللَّجْلاج والتَّمْتام والألثَغُ والفأفاء وذو الحُبسة والحُكلة والرُّتَّة وذو اللَّفَف[٢١] والعجلة في سبيل الحَصِر في خُطبته، والعيي في مُناضَلة خصومه. كما أن سبيل المُفحَم عند الشعراء، والبكيء عند الخُطباء، خلاف سبيل المُسهَب الثَّرْثار، والخَطِل المِكثار.

ثم اعلم، أبقاك الله، أن صاحب التشديق والتقعير والتقعيب[٢٢] من الخطباء والبلغاء، مع سماجة التكلُّف، وشُنعة التزيُّد، أعذَرُ من عييٍّ يتكلَّف الخطابة، ومن حصِرٍ يتعرَّض لأهل الاعتياد والدُّربة. ومدار اللائمة ومستقَرُّ المذمَّة حيث رأيت بلاغةً يُخالطها التكلُّف، وبيانًا يُمازجه التزيُّد، إلا أن تعاطيَ الحصِر المنقوص مَقام الدَّرِب التام، أقبحُ من تعاطي البليغ الخطيب، ومن تشادُق الأعرابي القُح. وانتحال المعروف ببعض الغزارة في المعاني والألفاظ، وفي التحبير والارتجال، أنه البحر الذي لا يُنزَح، والغَمر الذي لا يُسبَر، أيسرُ من انتحال الحصِر المنخوب أنه في مِسلاخ[٢٣] التام الموفَّر، والجامع المحكَّك. وإن كان رسول الله ﷺ قد قال: «إياي والتشادُق.» وقال: «أبغَضُكم إليَّ الثَّرثارون المُتفيهِقون.» وقال: «من بدا جفا.» وعاب الفدَّادين[٢٤] والمُتزيدين في جهارة الصوت، وانتحال سعة الأشداق، ورُحْب الغلاصم، وهَدَل الشفاه. وأعلَمَنا أن ذلك في أهل الوَبَر أكثر، وفي أهل المَدَر أقل؛ فإذا عاب المدريَّ بأكثر مما عاب به الوبري، فما ظنُّك بالمُولَّد القروي والمُتكلف البلدي؟ فالحَصِر المُتكلف والعييُّ المُتزيد، ألوَمُ من البليغ المُتكلف لأكثر مما عنده، وهو أعذَر؛ لأن

---

[٢١] كل هذه صفات من عيوب اللسان المُوجِبة للعِي والحصر.

[٢٢] صفاتٌ مذمومة في الخطيب.

[٢٣] المنخوب: الرعديد. في مسلاخ: في جلد؛ يعني في ثيابه وصفاته.

[٢٤] الفدادون: ذوو الأصوات المُزعجة.

الشبهة الداخلة عليه أقوى. فمن أسوأُ حالًا، أبقاك الله، ممن يكون ألوَمَ من المُتشدِّقين، ومن الثرثارين المُتفيهقين، وممن ذكره النبي ﷺ نصًّا، وجعل النهي عن مذهبه مفسَّرًا، وذكر مَقْته له وبُغْضه إياه؟

ولما عَلِم واصل بن عطاء[٢٥] أنه ألثغ فاحش اللَّثَغ، وأن مَخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذ كان داعيةَ مقالة، ورئيسَ نِحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النِّحل، وزُعماء المِلل، وأنه لا بد له من مُقارَعة الأبطال، ومن الخُطب الطِّوال، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المَخرج وجهارة المَنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة كحاجته إلى الجلالة والفخامة، وأن ذلك من أكثر ما تُستمال به القلوب، وتنثني إليه الأعناق، وتُزيَّن به المعاني.

وعَلِم واصلٌ أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام، واللسان المُتمكن، والقوة المُتصرفة، كنَحوِ ما أعطى الله نبيَّه موسى صلوات الله عليه من التوفيق والتسديد، مع لباس التقوى وطابع النبوَّة، ومع المحبة والاتساع في المعرفة، ومع هدي النبيِّين وسَمْت المُرسَلين، وما يُغشيهم الله به من القَبول والمَهابة؛ ولذلك قال بعض شعراء النبي ﷺ:

لو لم تَكُنْ فيه آياتٌ مُبيِّنةٌ كانتْ بَداهتُه تُنبِيكَ بالخَبرِ

ومع ما أعطى الله موسى عليه السلام من الحُجة البالغة، ومن العلامات الظاهرة، والبُرهانات الواضحة، إلى أن حلَّ الله تلك العُقدة، ورفع تلك الحُبسة، وأسقط تلك المِحنة. ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة، رامَ أبو حُذيفة[٢٥] إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف مَنطقه؛ فلم يزَل يُكابد ذلك

[٢٥] واصل بن عطاء، ويُكنى أبا حذيفة، ويُلقَّب الغزَّال لجلوسه في سوق الغزَّالين عند رضيع له يُعرَف بأبي عبد الله الغزَّال، وما كان لُزومه لسوق الغزَّالين إلا ليتصدَّق على من يغشاه من النساء المُتعفِّفات. وكانت به لُثْغة في الراء قبيحة، فكان يتجنَّب الراء في كلامه وخُطَبه ومحاوراته، وكان شيخًا من شيوخ المعتزلة، وعلَمًا من أعلامهم. مدحه بشَّار بن بُرد كثيرًا ثم هجاه لاختلافهما في الرأي. وكانت بينه وبين عمرو بن عُبَيد شيخ المعتزلة في مجلس الحسن البصري مناظرةٌ هامَّة في مُرتكِب الكبيرة؛ هل هو كافر أو فاسق؟ أخذ أبو عمرو بقول واصل، وهو المَنزلة بين المَنزلتَين.
وُلِد سنة ٦٩٩م، وتُوفي سنة ١٣١هـ/٧٤٨م.

ويُغالبه، ويُناضله ويُساجله، ويتأتَّى لستره والراحة من هُجْنته، حتى انتظم له ما حاوَل، واتَّسق له ما أمَّل. ولولا استفاضة هذا الخبر وظهور هذه الحال حتى صار لغرابته مثلًا، ولظرافته مَعلمًا، لَمَا استجزنا الإقرار به والتأكيد له. ولست أعني خُطَبه المحفوظة ورسائله المخلَّدة؛ لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت مُحاجَّة الخصوم، ومُناقَلة الأكْفاء، ومُفاوَضة الإخوان.

واللُّثْغة في الراء تكون بالغين والذال والياء، والغين أقلها قبحًا، وأوجدها في كبار الناس وبُلغائهم وأشرافهم وعلمائهم.

وكانت لثغة محمد بن شبيب المُتكلم بالغين، فإذا حمل على نفسه وقوَّم لسانه أخرج الراء. وقد ذكر ذلك أبو الطروق الضبِّي فقال:

عليمٌ بإبدالِ الحُروفِ وقامِعٌ لكلِّ خطيبٍ يَغلِبُ الحقَّ باطِلُه

وكان واصل بن عطاء قبيحَ اللثغة شنيعَها، وكان طويل العُنق جدًّا، وفيه قال بشَّارٌ الأعمى:

ما لي أُشايِعُ غزَّالًا له عُنُقٌ كنِقنِقِ الدَّوِّ إنْ ولَّى وإنْ مَثَلا[٢٦]
عُنقَ الزَّرافةِ ما بالي وبالُكمُ أتُكفِرون رِجالًا أكْفَروا رَجُلا

فلما هجا واصلًا وصوَّب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، وقال:

الأرضُ مُظلِمةٌ والنارُ مُشرِقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانتِ النارُ

وكان واصل بن عطاء غزَّالًا، وزعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقيل له: وعلي أيضًا؟ فأنشد:

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عَمرٍو بصاحِبِكِ الذي لا تَصحَبِينا

قال واصل بن عطاء عند ذلك: «أمَا لهذا المُلحِد الأعمى المُشنَّف المُكتنى بأبي معاذ من يقتله؟ أمَا والله لولا أن الغِيلة سجيَّةٌ من سجايا الغالية لبعثت إليه من يَبعَج بطنه

٢٦ كنقنق الدو: كعنق الظليم الفلوي.

على مَضجعه، ويقتله في جَوف منزله وفي يوم حفله، ثم كان لا يتولى ذلك منه إلا عُقيلي أو سَدوسي.»

قال إسماعيل بن محمد الأنصاري، وعبد الكريم بن روح الغفاري، قال أبو حفص عمر بن أبي عثمان الشَّمَّري: ألا تَرَيان كيف تجنُّب الراء في كلامه هذا، وأنتما للذي تَرَيان من سلامته وقلة ظهور التكلُّف فيه لا تظنَّان به التكلُّف، مع امتناعه من حرفٍ كثير الدوَران في الكلام؟ ألا تَرَيان أنه حين لم يستطع أن يقول بشَّار، وابن بُرْد، والمرعَّث، جعل المشنَّف بدلًا من المرعَّث، والمُلحِد بدلًا من الكافر؛ وقال إن الغيلة سجيةٌ من سجايا الغالية، ولم يذكُر المنصورية ولا المُغيرية؛ لمكان الراء؛ وقال لبعثت من يبعج بطنه، ولم يقل لأرسلت إليه؛ وقال على مضجعه، ولم يقل على فِراشه؟

وكان إذا أراد أن يذكُر البُرَّ، قال: القمح والحِنطة، والحنطة لغةٌ كوفية، والقمح لغةٌ شامية. هذا وهو يعلم أن لغة من قال بُر، أفصَحُ لغة من قال قمح أو حنطة. قال المُتنخل الهُذلي:[٢٧]

لا دَرَّ دَرِّيَ إنْ أطعمتُ نازِلَهم قِرفَ الحَتيِّ وعندي البُرُّ مكنوزُ[٢٨]

وقال أُميَّة بن أبي الصَّلْت[٢٩] في مديح عبد الله بن جُدعان:[٣٠]

---

[٢٧] المُتنخل: هو ملك بن عُوَيمر الهُذلي، ويُكنى أبا أثيل، شاعرٌ فحل من شعراء هُذيل وفُصحائهم.

[٢٨] قرف الحتي: سويق المقل (الدوم).

[٢٩] أمية بن أبي الصلت الثقفي: قال عنه الرواة إنه أشعَرُ أهل المدر. كان قد نظر في كُتُب الأوائل، وتعبَّد لربِّ إبراهيم وإسماعيل، وحرَّم الخمر، وشكَّ في الأوثان، والتَمَس الدين، وطمع في النبوة. ولما بُعِث النبي حسده، وكان يُحرض قريشًا بعد وقعة بدر ويرثي قتلاها من المشركين. وقبل هذين البيتَين يقول:

وما لي لا أُحيِّيه وعندي مَواهبُ يَطَّلِعن على النِّجادِ
لأبيَضَ من بني تَيم بنِ كَعبٍ وهُم كالمَشرفيَّاتِ الحِدادِ
لكلِّ قبيلةٍ هادٍ ورأسٌ وأنتَ الرَّأسُ تَقدُمُ كلَّ هادِ
له بالخيفِ قد عَلِمت مَعَدٌّ وإنَّ البيتَ يُرفَعُ بالعِمادِ

مات على غير دين سنةَ ٢هـ/٦٢٣م، وقيل سنة ٩هـ/٦٣٠م.

[٣٠] عبد الله بن جدعان التيمي: كان من مشاهير الأجواد، وكان يُلقَّب بحاسي الذهب لأنه كان يشرب في إناء من الذهب. كان في مبدأ أمره صُعلوكًا شِرِّيرًا فاتكًا، فنفاه أهله لكثرة جناياته وكثرة مغارمه التي

لـه داعٍ بمكة مُشمعِلٌّ وآخَرُ فوقَ دارتِه يُنادي
إلى رُدُحٍ من الشِّيزى عليها لُبابُ البُرِّ يُلبِكُ بالشِّهادِ[٣١]

وقال بعض القُرشيين يذكُر قيس بن معد يكرب ومَقدمه مكة في كلمة له:

قيسٌ أبو الأشعث بِطْريقُ اليَمَنْ لا يَسأَلُ السائلُ عنه إبنُ مَنْ
أَشْبَعَ آلَ اللهِ مِن بُرِّ عَدَنْ

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أترَون أني لا أعرف رقيق العيش؟ لُباب البُر بصغار المعزى. وسمع الحسن رجلًا يعيب الفالوذق، فقال: لباب البر، بلعاب النحل، بخالص السمن؟ ما عاب هذا مسلم. وقالت عائشة رضي الله عنها: ما شبع رسول الله ﷺ من هذه البرة السمراء حتى فارَق الدنيا.

وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب؛ ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر.

حدَّثني أبو سعيد عبد الكريم بن روح قال: قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر: ليست لكم، مَعاشرَ أهل البصرة، لغةٌ فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة. فقال ابن المناذر: أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن، وأكثرها له موافقةً، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم؛ أنتم تُسمُّون القِدر بُرمة، وتجمعون البرمة على بِرام، ونحن نقول: قِدر، ونجمعها على قدور، وقال الله عز وجل: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾. وأنتم تُسمُّون البيت إذا كان فوق البيت عُلِّيةً، وتجمعون هذا الاسم على علالي، ونحن نُسميه غُرفة، ونجمعها على غرفات وغُرَف، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾. وقال: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾. وأنتم تُسمُّون الطَّلع الكافور والإغريض،

يجرُّها عليهم، فخرج هائمًا في شِعاب مكة، فعثر بقبرٍ قديم فيه من الذهب والأحجار الكريمة شيءٌ كثير، فنقله إلى منزله، وصار يُنفق منه في صالح الأعمال، حتى ضُرِب به المثل في الكرم فقيل: «أقْرَى من حاسي الذهب.»

[٣١] الردح: الجِفان الواسعة. الشيزى: خشبٌ أسود تُصنَع منه القِصاع. عليها، في رواية: ملاء. يلبك: يعجن. الشهاد: العسل.

ونحن نُسميه الطلع، وقال الله عز وجل: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. فعدَّ عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا.

ألا ترى أن أهل المدينة لمَّا نزل فيهم ناس من الفُرس في قديم الدهر عَلِقوا بألفاظ من ألفاظهم؛ ولذلك يُسمُّون البِطيخ الخِربِز، ويُسمُّون السميط الروذق، ويُسمُّون المصوص المزوز، ويُسمون الشِّطرنج الأشترنج، إلى غير ذلك من الأسماء؟

وكذا أهل الكوفة؛ فإنهم يُسمون المِسحاة بالْ، وبال بالفارسية. ولو عَلِق ذلك لغة أهل البصرة — إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب — كان ذلك أشبه؛ إذ كان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب. ويسمِّي أهل الكوفة الحَوك[٣٢] باذروج، والباذروج بالفارسية، والحوك كلمةٌ عربية.

وأهل البصرة إذا التقت أربع طُرُق يُسمُّونها مربَّعة، ويُسميها أهل الكوفة الجهار سو، والجهار سو بالفارسية. ويُسمُّون السوق أو السويقة وازار، والوازار بالفارسية. ويُسمُّون القثاء خيارًا، والخيار فارسية. ويُسمُّون المجذوم ويذي، بالفارسية.

وقد يستخفُّ الناس ألفاظًا ويستعملونها وغيرُها أحقُّ بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المُدقِع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة؟ وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث. ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، ولا السمع أسماعًا؟ والجاري على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقَّدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال. وقد زعم بعض القُراء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج.

والعامَّة ربما استخفَّت أقل اللغتَين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالًا وتدع ما هو أظهر وأكثر؛ ولذلك صِرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يَسِر ما هو أجود منه، وكذلك المَثل السائر. وقد يَبلغ الفارس والجواد الغاية في الشهرة ولا

[٣٢] الحوك: البقلة الحمقاء (الرجلة).

يُرزَق ذلك الذكر والتنويه بعض من هو أولى بذلك منه، ألا ترى أن العامَّة ابنُ القِرِّيَّة[٣٣] أشهر عندها في الخطابة من سحبان وائل، وعُبيد الله بن الحر أذكَرُ عندهم في الفروسية من زُهير بن ذؤيب؟ وكذلك مذهبهم في عنترة بن شداد، وعتيبة بن الحارث بن شهاب، وهم يضربون المَثل بعمرو بن معد يكرب، ولا يعرفون بسطام بن قيس.

وفي القرآن معانٍ لا تكاد تفترق، مثل: الصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس.

قال قطرب: أنشدني ضرار بن عمرو قولَ الشاعر في واصل:

ويَجعلُ البُرَّ قمحًا في تَصرُّفِه ... وجانَبَ الراءَ حتى احتالَ للشَّعَرِ
ولم يُطِقْ مطرًا والقولُ يُعجِلُه ... فعاذَ بالغَيثِ إشفاقًا من المَطَرِ

قال وسألت عثمان البُرِّي: كيف كان واصل يصنع في العدد؟ وكيف كان يصنع بعشرة وعشرين وأربعين؟ وكيف كان يصنع بالقمر والبدر ويوم الأربعاء وشهر رمضان؟ وكيف كان يصنع بالمحرَّم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر وجمادى الآخرة ورجب؟ فقال: ما لي فيه قول إلا ما قال صفوان:

مُلقَّنٌ مُلهَمٌ فيما يُحاوِلُه ... جمٌّ خواطرُه جوَّابُ آفاقِ

وأنشدني ديسمٌ قال: أنشدني أبو محمد اليزيدي:

وخَلَّةُ اللفظِ في الياءاتِ إن فُقِدتْ ... كخَلَّةِ اللفظِ في اللَّاماتِ والألِفِ
وخَصلةُ الرَّاءِ فيها غيرُ خافيةٍ ... فاعرِفْ مَواقعَها في القولِ والصُّحُفِ

يزعم أن هذه الحروف أكثر ترددًا من غيرها، والحاجة إليها أشد. واعتبِرْ ذلك بأن تأخذ عدة رسائل وعدة خُطَب من جملة خُطَب الناس ورسائلهم؛ فإنك متى حصَّلت جميع حروفها، وعددت كل شكل على حِدة، عَلِمت أن هذه الحروف الحاجةُ إليها أشد.

[٣٣] ابن القرية: هو أيوب بن زيد، والقرية أمه، كان خطيبًا لسنًا وبيِّنًا مفوَّهًا. قتله الحجَّاج بتهمة مناصرته لابن الأشعث سنة ٨٤هـ/٧٠٣م.

(١) ذكر ما جاء في تلقيب واصل بالغزَّال ومن نفى ذلك عنه

قال أبو عثمان: فمن ذلك ما أخبرنا به الأصمعي قال: أنشدني المعتمر بن سليمان، لإسحاق بن سُويد العدوي:

بَرِئتُ من الخوارجِ لستُ منهم ... من الغزَّالِ منهم وابنِ بابِ
ومن قوم إذا ذكروا عليًّا ... يَرُدُّون السَّلامَ على السَّحابِ
ولكنِّي أُحبُّ بكلِّ قلبي ... وأعلمُ أنَّ ذاك من الصوابِ
رسولَ اللهِ والصِّدِّيقَ حُبًّا ... به أرجو غدًا حُسْنَ المآبِ

وفي ذلك قال بشَّار:

ما لي أُشايِعُ غزَّالًا له عُنُقٌ ... كنِقنِقِ الدَّوِّ إنْ ولَّى وإنْ مَثَلا

ومن ذلك قول معدان السميطي:

يومَ تُشفى النُّفوسُ من يَعصُرِ اللُّؤ ... مَ ويُثنى بِسامةَ الرَّحَّالِ
وعَديٍّ وتَيمِها وثقيفٍ ... وأُميٍّ وتَغلبٍ وهلالِ
لا حَرورًا ولا النوائبُ تنجو ... لا ولا صحبُ واصلِ الغزَّالِ

وكان بشَّارٌ كثير المديح لواصل بن عطاء قبل أن يَدِين بالرَّجعة ويُكفِّر جميع الأمَّة. وكان قد قال في تفضيله على خالد بن صفوان[٣٤] وشبيب بن شيبة، والفضل بن عيسى، يوم خطبوا عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق:

أبا حُذيفةَ قد أُوتيتَ مَعجبةً ... من خُطبةٍ بدَهَت من غيرِ تقديرِ
وإنَّ قولًا يروقُ الخالدَينِ معًا ... لَمُسكِتٌ مُخرِسٌ عن كلِّ تحبيرِ

---

[٣٤] خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم: كان خطيبًا مُبينًا، ولسنًا بليغًا، وكان بخيلًا مِطلاقًا. وكان يقول: أربعة لا يُطمَع فيهن عندي؛ القرض، والفرض، والهرس، وأن أسعى مع أحد في حاجة. قيل له: وما يُصنَع بك بعد هذه؟ فقال: الماء البارد، وحديث لا يُنادى وليده. وقيل له: من أحبُّ إخوانك إليك؟ قال: من سدَّ خللي، وغفر زللي، وقبِل عِللي. وكان يقول: ما من ليلةٍ أحب إليَّ من ليلة قد طلَّقت فيها نسائي فأرجع والستورُ قد قُلِعت، ومتاع البيت قد نُقِل، فبعثت إليَّ بنتي بسليلة فيها طعامي، وتبعث

لأنه كان مع ارتجاله الخُطبة التي نزع منها الراء، كانت مع ذلك أطول من خُطَبهم، وقال بشَّار:

تكلَّفوا القولَ والأقوامُ قد حَفَلوا   وحبَّروا خُطبًا ناهِيكَ من خُطَبِ
فقامَ مُرتجِلًا تَغْلي بَداهتُه   كمِرجَلِ القَينِ لمَّا حُفَّ باللَّهَبِ
وجانَبَ الراءَ لم يَشعُرْ به أحدٌ   قبلَ التصفُّحِ والإغراقِ في الطَّلَبِ

وقال في كلمة له يعني تلك الخطبة:

فهذا بَديهٌ لا كتحبيرِ قائلٍ   إذا ما أرادَ القولَ زوَّرَه شَهْرا

فلما انقلب عليهم بشار ومَقاتله لهم بادية، هجَوه ونفَوه، فما زال غائبًا حتى مات عمرو بن عُبيد.[٣٥] وقال صفوان الأنصاري:

متى كان غزَّالٌ له يا ابنَ حَوشبٍ   غُلامٌ كعمرٍو أو كعيسى بنِ حاضرِ
أمَا كان عُثمانُ الطويلُ بنُ خالدٍ   أو القَرمُ حفصٌ نُهْيةً للمُخاطِرِ
له خَلْفَ شِعبِ الصينِ في كلِّ ثَغرةٍ   إلى سُوسِها الأقصى وخَلْفَ البرابرِ
رِجالٌ دُعاةٌ لا يَفُلُّ عزيمَهم   تهكُّمُ جبَّارٍ ولا كَيدُ ماكِرِ

إليَّ الأخرى بفراشٍ أنام عليه. وقال خالد لبعض الوُلاة: قدمت فأعطيت كلًّا بقسط من وجهك وكرامتك، حتى كأنك لست من أحد، أو حتى كأنك من كل أحد.

وسأل عبد الملك الحجَّاج عن عيبه فتلكَّأ عليه، فأبى إلا أن يُخبره، فقال: أنا حديدٌ حَسود حَقود لَجوج ذو قسوة. فبلغ هذا الكلام خالد بن صفوان، فقال: لقد انتحل الشرَّ بحذافيره، والمروق من جميع الخير بزوبره، ولقد تأنَّق في ذم نفسه، وتجوَّد في الدلالة على لؤم طبعه، وفي إقامة البرهان على إفراط كفره، وشدة المشاكلة لشيطانه الذي أغواه. ورأى خالدٌ السفَّاحَ ومات في عهده سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م.

وشبيب بن شيبة: الخطيب اللسن المعروف، من رهط خالد ومن بابه.

[٣٥] عمرو بن عبيد: هو عمرو بن عبيد بن باب شيخ المعتزلة، وهو أول من ترك مجلس الحسن البصري للاختلاف في الرأي، فقال الحسن: اعتزلنا عمرو. فسُمِّي كل من أخذ برأيه المعتزلة. وكان جده باب من سَبْي كابل، سباه عبد الرحمن بن سمرة. وكان عمرو مُتزهدًا مُتقشفًا، وكانت بينه وبين واصل بن عطاء محاورة في شأن مُرتكِب الكبيرة.

وُلِد سنة ٨٠هـ/٦٩٩م، وتُوفي سنة ١٤٤هـ/٧٦١م.

إذا قال مُرُّوا في الشتاءِ تَطاوَعوا وإنْ كان صيفًا لم يَخَفْ شهرَ ناجرِ
بـهـجـرةِ أوطـانٍ وبـذلٍ وكُـلـفـةٍ وشِـدَّةِ أخـطـارٍ وكـدِّ الـمُـسـافِـرِ
فـأنـجَـحَ مَـسْـعـاهـم وأثـقَـبَ زَنـدَهـم وأوْرَى بـفَـلـجٍ لـلـمُـخـاصِـمِ قـاهـرِ
وأوتـادُ أرضِ الـلـهِ فـي كـلِّ بـلـدةٍ ومَوضعُ فُتياها وعِلمِ التَّشاجُرِ
ومـا كـان سَـحـبـانٌ يَـشـقُّ غُـبـارَهـم ولا الشُّدقُ من حيَّي هلالِ بنِ عامرِ
ولا الناطقُ النخَّارُ والشيخُ دَغفلٌ إذا وصَلوا أيمانَهم بالمَخاصرِ
ولا القالةُ الأعلَونَ رَهطُ مكحَّلٍ إذا نطقوا في الصُّلحِ بينَ العشائرِ
بجمعٍ من الجُفَّين راضٍ وساخطٍ وقـد زحـفـتْ بُـدَّاؤهـم لـلـمَـحـاضـرِ

الجفان: بكر وتميم. والروقان: بكر وتغلب. والفاران: الأزد وتميم. قيل ذلك لكل عمارة من الناس، وهي جمع. والعمائر أيضًا: غار. والجف أيضًا: قشر الطلعة.

تـلـقَّـبَ بـالـغـزَّالِ واحـدُ عـصـره فمن لليتامى والقَبيلِ المُكاثرِ
ومـن لـحَـروريٍّ وآخَـرَ رافـضٍ وآخَـرَ مُـرْجـيٍّ وآخَـرَ حـائـرِ؟
وأمـرٍ بـمـعـروفٍ وإنـكـارِ مُـنـكَـرٍ وتحصينِ دينِ اللهِ من كلِّ كافرِ
يُصيبون فصْلَ القولِ في كلِّ مَنطقٍ كما طبَّقتْ في العَظمِ مُدْيةُ جازِرِ
تراهم كأنَّ الطيرَ فوقَ رُءوسِهم على عِمَّةٍ معروفةٍ في المَعاشرِ
وسِيماهمُ معروفةٌ في وُجوهِهم وفي المَشيِ حُجاجًا وفوقَ الأباعرِ
وفي رَكعةٍ تأتي على الليلِ كلِّه وظاهرِ قولٍ في مثالِ الضمائرِ
وفي قَصِّ هُدَّابٍ وإحفاءِ شارِبٍ وكَورٍ على شَيبٍ يُضيءُ لناظِرِ
وعَـنـفَـقـةٍ مـصـلـومـةٍ ولـنَـعـلِـه قِبالانِ في رُدنٍ رحيبِ الخواطرِ
فتلك علاماتٌ تُحيطُ بوَصفِهم وليس جَهُولُ القومِ في جِرمِ خابرِ

وفي واصلٍ يقول صفوان:

فما مسَّ دينارًا ولا صرَّ درهمًا ولا عرَفَ الثوبَ الذي هو قاطِعُه

وفيه يقول أسباط بن واصل الشيباني:

وأشهدُ أنَّ الله سمَّاك واصلًا وأنك ميمونُ النَّقيبةِ والشِّيَمْ

ولما قام بشَّار يعذر إبليس في أن النار خيرٌ من الأرض، وذكر واصلًا بما ذكره، قال صفوان:

زعمتَ بأنَّ النَّارَ أكرَمُ عُنصرًا وفي الأرضِ تَحيا بالحجارةِ والزَّندِ
ويُخلَقُ في أرحامِها وأرومِها أعاجيبُ لا تُحصى بخطٍّ ولا عَقدِ[٣٦]
وفي القَعرِ من لُجِّ البِحارِ مَنافعٌ من اللؤلؤِ المَكنونِ والعَنبرِ الوَردِ
كذلك سرُّ الأرضِ في البحرِ كلِّه وفي الغَيضةِ الغنَّاءِ والجبلِ الصَّلدِ
ولا بُدَّ من أرضٍ لكلِّ مطيَّرٍ وكلِّ سَبوحٍ في الغمائرِ من جُدِّ
كذاك وما يَنساحُ في الأرضِ ماشيًا على بطنِه مشْيَ المُجانِبِ للقَصدِ
ويَسْري على جِلدٍ يُقيمُ حُزوزَه تعمُّجَ ماءِ السَّيلِ في صَبَبٍ حَردِ[٣٧]
وفي قُلَلِ الأجبالِ خَلْفَ مُقطَّمٍ زَبَرجدُ أملاكِ الورى ساعةَ الحَشدِ
وفي الحَرَّةِ الرَّجلاءِ تَلْقى مَعادنًا لهنَّ مَغاراتٌ تَبجَّسُ بالنَّقدِ[٣٨]
من الذهبِ الإبريزِ والفِضَّةِ التي تَرُوقُ وتُصْبي ذا القناعةِ والزُّهدِ
وكلِّ فِلزٍّ من نُحاسٍ وآنكٍ ومن زئبقٍ حيٍّ ونوشادرٍ يُسْدي[٣٩]
وفيه زرانيخٌ ومَكرٌ ومَرتَكٌ ومن مَرقَشيشا غيرِ كابٍ ولا مُكدِي[٤٠]
وفيها ضُروبُ القارِ والشَّبِّ والنَّهى وأصنافُ كبريتٍ مُطاوِلةُ الوَقدِ[٤١]
ترى العرقَ منها في المَقاطعِ لائحًا كما قدَّت الحسناءُ حاشيةَ البُردِ[٤٢]
ومن إثمدٍ جَونٍ وكِلسٍ وفِضَّةٍ ومن تُوتياءَ في مَعادِنه هِندي[٤٣]
وفي كلِّ أغوارِ البلادِ مَعادنٌ وفي ظاهرِ البَيداءِ من مُستوٍ نَجِدِ

---

٣٦ أرومها: المقصود بها أصول الغابات.

٣٧ تعمج وتمعج: بمعنى تلوى. في صبب حرد: في المسايل المنحدرة.

٣٨ الحرة الرجلاء: الأرض الخشنة ذات الحجارة السُّود البركانية. تبجس بالنقد: تتبجس بالذهب والفضة، وقد أبان ذلك البيت التالي. وفي نسخة: تبخسن. ولا معنى لها ها هنا.

٣٩ فلز: قطع النحاس والبرنز وغيرها من المعادن.

٤٠ المكر: المغرة الحمراء. والمرتك: الحجر المحرق.

٤١ النهى: الزجاج.

٤٢ العرق: أي عروق المعادن في الأرض.

٤٣ إثمد جون: كحل أسود. كلس: جير.

وكـلُّ يـواقـيـتِ الأنـامِ وحَـلـيُـهـا — من الأرضِ والأحجارِ فاخِرةُ المَجدِ
وفيها مَقامُ الخِلِّ والرُّكنِ والصَّفا — ومُستلَمُ الحُجَّاجِ من جَنَّةِ الخُلدِ
وفي صخرةِ الخِضرِ التي عند حُوتِها — وفي الحَجَرِ المُمهي لموسى على عَمدِ
وفي الصخرةِ الصمَّاء تَصدَعُ آيةٌ — لأمِّ فَصيلٍ ذي رُغاءٍ وذي وَجدِ[٤٤]
مَفاخرُ للطينِ الذي كان أصْلَنا — ونحن بَنُوه غيرَ شكٍّ ولا جَحدِ
فذلك تدبيرٌ ونفعٌ وحكمةٌ — وأوضَحُ برهانٍ على الواحدِ الفردِ
أتَجعلُ عَمرًا والنِّطاسيَّ واصلًا — كأتباعِ دَيصانٍ وهم قُمُشُ المَدِّ[٤٥]
وتَفخَرُ بالميلاءِ والعِلجِ عاصمٍ — وتَضحَكُ من جِيدِ الرئيسِ أبي جَعدِ
وتحكي لدى الأقوامِ شُنعةَ رأيِه — لِتَصرِفَ أهواءَ النُّفوسِ إلى الرَّدِّ
وسمَّيتَه الغزَّالَ في الشِّعرِ مُطنِبًا — ومَولاك عند الظُّلمِ قِصَّتُه مُردِي

يقول: إن مولاك ملَّاح؛ لأن الملَّاحين إذا تظلَّموا رفعوا المرادي.

فيا ابنَ حليفِ الطِّينِ واللؤمِ والعمى — وأبعَدَ خَلقِ اللهِ من طُرُقِ الرُّشدِ
أتَهْجو أبا بَكرٍ وتَخلعُ بعدَه — عليًّا وتَعزو كلَّ ذاك إلى بُردِ؟
كأنك غضبانٌ على الدينِ كلِّه — وطالبُ ذَحلٍ لا يَبيتُ على حِقدِ[٤٦]
رجعتَ إلى الأمصارِ من بعدِ واصلٍ — وكنتَ شريدًا في التهائمِ والنجدِ
أتَجعلُ ليلى الناعظيَّةَ نِحلةً — وكلَّ عريقٍ في التناسخِ والرَّدِّ[٤٧]
عليك بدَعدٍ والصَّدوفِ وفَرْتنى — وحاضِنتَي كِسفٍ وزامِلتَي هندِ[٤٨]
تُواثِبُ أقمارًا وأنتَ مُشوَّهٌ — وأقرَبُ خَلقِ اللهِ من شَبَهِ القِردِ

---

[٤٤] يُشير بهذا البيت إلى آية صالح النبي، وإلى انشقاق الصخرة له عن ناقة ومعها فصيلها.

[٤٥] عمرو: يريد عمرو بن عبيد رأس المعتزلة. وواصل: هو واصل بن عطاء المعتزلي. وقد مر الكلام عليهما. ديصان: هو رأس فِرقة من الفِرق المجوسية يقولون بأصلَين للوجود؛ نور وظلمة، وأن النور يفعل الخير قصدًا واختيارًا، والظلمة تفعل الشر طبعًا واضطرارًا.

[٤٦] الذحل: الثأر.

[٤٧] ليلى الناعظية: امرأةٌ عاقلة مدبِّرة، لها حكايات في البخل طريفة طالما تندَّر بها الجاحظ. التناسخ: انتقال الروح من جسم إلى جسم، وهو من مذاهب براهمة الهند.

[٤٨] الصدوف وفرتنى وأخواتهما: أسماء نساء قيان من أهل الملاهي والأهواء.

ولذلك قال فيه حمَّادُ عَجردٍ[٤٩] بعد ذلك:

ويا أقبَحَ من قِردٍ إذا ما عَمِيَ القِردُ

ويُقال إنه لم يَجزَع من شيء قطُّ جزَعَه من هذا البيت. وذكره الشاعر وذكر أخوَيه لأمه فقال:

لقد ولَدتْ أمُّ الأُكَيمِهِ أعرجًا وآخَرَ مقطوعَ القفا ناقِصَ العَضدِ

وكانوا ثلاثةً مُختلفي الآباء والأمُّ واحدة، وكلهم وُلِد زمِنًا؛ ولذلك قال بعض من يهجوه:

إذا دعاه الخالُ أقْعَى ونَكَصْ وهُجنةُ الإقرافِ فيه بالخصصْ[٥٠]

وقال الشاعر:

لا تَشهَدَنَّ بخارجيٍّ مُطرِفٍ حتى ترى من نَجلِه أفراسا

وقال صفوان الأنصاري في بشَّار وأخوَيه، وكان يُخاطب أُمَّهم:

ولَدتِ خُلْدًا وذِيخًا في تَشتُّمِه وبعْدَه خُزَزًا يَشتدُّ في العَضدِ

والخلد: ضربٌ من الجرذان يُولَد أعمى. والذيخ: ذكر الضباع، وهو أعرج. والخزز: ذكر الأرانب، وهو قصير اليدَين لا يلحقه الكلب في الصيد.

ثلاثةٌ من ثلاثٍ فُرِّقوا فِرَقًا فاعرِفْ بذلك عِرقَ الخالِ من ولدِ

وقال بعد ذلك سليمان الأعمى، أخو مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر، في اعتذار بشَّار لإبليس وهو يُخبِر عن كرم خِصال الأرض:

لا بُدَّ للأرضِ إن طابَتْ وإن خَبُثَتْ من أنْ تُحِيلَ إليها كلَّ مَغروسِ

---

[٤٩] حماد عجر: شاعرٌ معروف من أهل العبث والمجون، له في بشَّار أهاجٍ كثيرة.

[٥٠] أقعى ونكص: استخذى وخجل لانحطاط أصله من جهة أمه. هجنة الإقراف: أي انحطاطه من جهة أبيه أيضًا خاصة به وظاهرة فيه.

وتُربةُ الأرضِ إن جِيدَتْ وإن قُحِطتْ فحَملُها أبدًا في إثرِ مَنفوسِ
وبطنُها بفِلزِّ الأرضِ ذو خبرٍ بكلِّ جوهرةٍ في الأرضِ مرموسِ

الفلز: جوهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس والآنُك وغير ذلك.

وكلِّ آنيةٍ عمَّت مَرافقُها وكلِّ مُنتقَدٍ فيها وملبوسِ
وكلُّ ماعُونِها كالمِلحِ مِرفَقةٌ وكلها مُضحِكٌ من قولِ إبليسِ

وقال بعض خلفاء بغداد:

عَجِبتُ من إبليسَ في كِبْرِه وخُبثِ ما أبداه من نيَّتِه
تاهَ على آدمَ في سَجدةٍ وصارَ قوَّادًا لذُرِّيَّتِه

وذكره بهذا المعنى سليمان، أخو مسلم الأنصاري، فقال:

يأبى السُّجودَ له من فَرطِ نَخوتِه وقد تَحوَّلَ في مِسلاخِ قوَّادِ[٥١]

وقال صفوان في شأن واصل وبشَّار، وفي شأن النار والطين، في كلمة له:

وفي جَوفِها للعبدِ أستَرُ مَنزلٍ وفي ظهرِها يَقضي فرائضَه العبدُ
تَمُجُّ لُفاظَ المِلحِ مجًّا وتَصطفي سبائكَ لا تَصْدى وإنْ قَدُمَ العَهدُ
وليس بمُحصٍ كُنْهَ ما في بُطونِها حسابٌ ولا خطٌّ وإنْ بلَغَ الجَهدُ
فسائِلْ بعبدِ اللهِ في يومِ حفلِه وذاك مَقامٌ لا يُشاهِدُه وغْدُ[٥٢]
أقامَ شبيبًا وابنَ صفوانَ قبْلَه بقولِ خطيبٍ لا يُجانِبُه القَصدُ[٥٣]
وقامَ ابنُ عيسى ثم قفَّاه واصلٌ فأبدَعَ قولًا ما له في الورى نِدُّ
فما نقَصَتْه الرَّاءُ إذ كانَ قادرًا على تَركِها واللفظُ مطَّرِدٌ سَردُ

---

[٥١] مسلاخ: جلد، والمراد به تحوَّل في زي قوَّاد أو ديُّوث.

[٥٢] عبد الله: هو ابن عمر بن عبد العزيز.

[٥٣] شبيب: هو شبيب بن شيبة أحد الخُطباء البُلغاء، وهو من رهط خالد بن صفوان ومن بابه. ابن صفوان: هو خالد المارُّ ذِكره. ابن عيسى: هو الفضل بن عيسى، كان خطيبًا لسنًا بليغًا. واصل: هو واصل بن عطاء، مرَّ ذِكره.

ففضَّلَ عبدُ اللهِ خُطبةَ واصلٍ وضُوعِفَ في قَسمِ الصِّلاتِ له الشُّكدُ[٥٤]
فأقنَعَ كلَّ القومِ شُكرُ حِبائِهم وقلَّلَ ذاك الضعفَ في عينِه الزُّهدُ

قد كتبنا احتجاج من زعم أن واصل بن عطاء كان غزَّالًا، واحتجاج من دفع ذلك عنه. ويزعم هؤلاء أن قول الناس واصلٌ الغزَّال، كما يُقال خالدٌ الحذَّاء، وكما يقولون هشامٌ الدَّستواني. وإنما قيل ذلك لأن الإباضية[٥٥] كانت تبعث إليه من صدقاتها بثيابٍ دستوانية، فكان يكسوها الأعراب الذين يكونون بالحباب، فأجابوه إلى قول الإباضية، وكانوا قبل ذلك لا يزوجون الهُجناء، فأجابوه إلى التسوية وزوَّجوا هجينًا. فقال الهجين في ذلك:

إنَّا وجَدْنا دَستوانِينا الصائمين المُتعبِّدينا
أفضَلَ منكم حسَبًا ودِينا أخزى الإلهُ المُتكبِّرينا
أفيكمُ من يُنكِحُ الهجينا؟

وإنما قيل ذلك لواصل لكثرة جلوسه في سوق الغزَّالين إلى أبي عبد الله مولى قطن الهلالي. وكذلك كانت حالُ خالدٍ الحذَّاء الفقيه. وكما قالوا أبو مسعودٍ البدري؛ لأنه كان نازلًا على ذلك الماء. وكما قالوا: أبو مالكٍ السُّدِّي؛ لأنه كان يبيع الخُمُر[٥٦] في سُدَّة المسجد.

وهذا الباب مُستقصًى في كتاب الأسماء والكُنى، وقد ذكرنا جملة منه في أنباء السراري والمهيرات.[٥٧]

قال أبو عثمان:

(٢) ذكر الحروف التي تدخلها اللثغة وما يحضرني منها

وهي أربعة أحرُف؛ القاف، والسين، واللام، والراء. فأما التي هي على الشين المُعجَمة فذلك شيء لا يُصوِّره الخط؛ لأنه ليس من الحروف المعروفة، وإنما هو مَخرج من

---

[٥٤] الشكد: الشكر.

[٥٥] الإباضية: هم فِرقة من فِرق الخوارج أتباع عبد الله بن إباض الذي خرج في أيام مروان بن محمد، ولهم في تكفير بعض المسلمين واستباحة حُرُماتهم آراءٌ غريبة.

[٥٦] الخمر: جمع خِمار، وهو ما تُغطي به المرأة رأسها.

[٥٧] المهيرات: الجواري الحرائر.

المخارج، والمخارج لا تُحصى ولا يُوقَف عليها. وكذلك القول في حروفٍ كثيرة من حروف لُغات العجم، وليس ذلك في شيءٍ أكثر منه في لغة الخوز، وفي سواحل البحر من أسياف فارس ناسٌ كثير، كلامهم شبيه الصفير، فمن يستطيع أن يُصور كثيرًا من حروف الزمزمة، وهي الحروف التي تظهر من فم المجوسي إذا ترك الإفصاح عن معانيه، وأخذ في باب الكناية وهو على الطعام؟

فاللُّثْغة التي تَعرِض للسين تكون ثاءً، كقوله لأبي يكسوم: أبي يكثوم، وكما يقولون: بُثْرة، إذا أرادوا بُسْرة، وباثم الله إذا أرادوا بسم الله.

والثانية اللثغة التي تَعرِض للقاف؛ فإن صاحبها يجعل القاف طاءً، فإذا أراد أن يقول: قلت له، قال: طلت له؛ وإذا أراد أن يقول: قال لي، قال: طال لي.

وأما اللثغة التي تقع في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياءً، فيقول بدل قوله اعتللت: اعتييت، وبدل جمل: جمي. وآخرون يجعلون اللام كافًا، كالذي عرض لعمر أخي هلال، فإنه كان إذا أراد أن يقول: ما العلة في هذا؟ قال: ما اكعكة في هذا؟

فأما اللثغة التي تقع في الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام؛ لأن الذي يَعرِض لها أربعة أحرُف؛ فمنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو، قال: عمي، فيجعل الراء ياءً. ومنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو، قال: عمغ، فيجعل الراء غينًا. ومنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو، قال: عمذ، فيجعل الراء ذالًا. وإذا أنشد قول الشاعر:

واستبدَّت مَرَّةً واحدةً   إنما العاجِزُ مَن لا يَستَبِدْ

قال:

واستبدَّت مذةً واحدةً   إنما العاجِزُ مَن لا يَستبد

فمن هؤلاء علي بن جُنيد بن فُريدى.

ومنهم من يجعل الراء ظاءً مُعجَمة، فيقول إذا أنشد هذا البيت:

واستبدَّت مرةً واحدةً   إنما العاجِزُ من لا يَستبد

قال:

واستبدَّت مظةً واحدةً   إنما العاجِزُ مَن لا يَستبد

ومنهم من يجعل الراء غينًا مُعجَمة، فإذا أراد أن يُنشِد هذا البيت:

واستبدَّت مرةً واحدةً إنما العاجِزُ مَن لا يَستبد

قال:

واستبدَّت مغةً واحدةً إنما العاجِزُ مَن لا يَستبد

كما أن الذي لُثْغته بالياء، إذا أراد أن يقول: واستبدَّت مرةً واحدة، قال: واستبدَّت ميةً واحدة.

وأما اللثغة الخامسة التي كانت تَعرِض لواصل بن عطاء، وسليمان بن يزيد العدوي الشاعر، فليس إلى تصويرها سبيل. وكذلك اللثغة التي تَعرِض في الشين كنحوِ ما كان لمحمد بن الحجَّاج كاتب داود بن محمد كاتب أم جعفر؛ فإن تلك أيضًا ليس لها صورة في الخط تُرى بالعين، وإنما يُصورها اللسان وتتأدَّى إلى السمع. وربما اجتمعت في الواحد لثغتان في حرفَين، كنحو لثغة شوشى، صاحب عبد الله بن خالد الأموي؛ فإنه كان يجعل اللام ياءً والراء ياءً، قال مرةً: موياي ويي ايَّي، يريد: مولاي ولي الري.

واللثغة في الراء إذا كانت بالياء فهي أحقرهن وأوضعهن لذي المروءة، ثم التي على الظاء، ثم التي على الذال. فأما التي على الغين فهي أيسرُهن، ويُقال إن صاحبها لو جهد نفسه جهده، وأخذ لسانه، وتكلَّف مَخرج الراء على حقها والإفصاح بها، لم يكن بعيدًا من أن تُجيبه الطبيعة، ويؤثر فيها ذلك التعهد أثرًا حسنًا. وقد كانت لثغة محمد بن شبيب المُتكلم بالغين، وكان إذا شاء أن يقول: عمرو، ولعمري، وما أشبه ذلك على الصحة قاله، ولكنه كان يستثقل التكلُّف والتهيُّؤ لذلك، فقلت له: إذا لم يكن المانع إلا هذا العذر فلست أشكُّ أنك لو احتملت هذا التكلف والتتبع شهرًا واحدًا أن لسانك كان يستقيم.

أما من يعتريه اللثغ في الضاد، ربما اعتراه أيضًا في الصاد والراء، حتى إذا أراد أن يقول: مضر، قال: مضي، فهذا وأشباهه لاحقون بشوشى.

وزعم ناس من العوام أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان ألثغ، ولم يقفوا من الحروف التي كانت تَعرِض له على شيء بعينه؛ فمنهم من جعل ذلك خِلقة، ومنهم من زعم أنه إنما اعتراه حين قالت آسية بنت مُزاحم امرأة فرعون لفرعون: لا تقتل طفلًا لا يفرِّق الجمر من التمر. فلما دعا له فرعون بهما جميعًا تناوَل جمرة فأهوى بها إلى فيه، فاعتراه من ذلك ما اعتراه.

وأما اللثغة في الراء فتكون في الياء، والذال، والغين، وهي أقلها قبحًا وأوجدها في ذي الشرف وكبار الناس وبُلغائهم وأشرافهم وعلمائهم، وكانت لثغة محمد بن شبيب المُتكلم بالغين، فإذا حمل على نفسه وقوَّم لسانه أخرج الراء على الصحة فتأتَّى له ذلك، وكان يدع ذلك استثقالًا، أنا سمعت ذلك منه، قال: وكان الواقدي يروي عن بعض رجاله أن لسان موسى عليه السلام كانت عليه شامة فيها شعرات. وليس يدل القرآن على شيء مما قالوا؛ لأنه ليس في قوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ دليلٌ على شيءٍ دون شيء.

قال الأصمعي: إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تَمْتام، وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء. وأنشد لرؤبة بن العجَّاج:

يا حمدَ ذاك المنطقِ التَّمتامِ كأنَّ وَسْواسَكِ في اللِّمامِ
حديثُ شيطانِ بني همَّامِ

وبعضهم يُنشِد: يا حمدَ ذات المنطق التمتام. وليس ذلك بشيء، وإنما ذلك كما قاله أبو الزحف:

لستَ بفأفاءٍ ولا تَمتامِ ولا كثيرِ الهُجرِ في المَنامِ

وأنشد أيضًا للخولاني في كلمة له:

إنَّ السِّياطَ تَركنَ لِاسْتِك مَنطقًا كمقالةِ التَّمتامِ ليس بمُعرِبِ

فجعل الخولاني التمتام غير مُعرِب عن معناه، ولا مُفصِح بحاجته.

وقال أبو عبيدة: إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألَفُّ، وقيل: بلسانه لَفَف. وأنشدني لأبي الزحف الراجز:

كأنَّ فيه لَفَفًا إذا نَطَقْ من طُولِ تحبيسٍ وهمٍّ وأرَقْ

كأنه لما جلس وحده ولم يكن له من يُكلمه، وطال عليه ذلك، أصابه لفف في لسانه، وكان يزيد بن جابر، قاضي الأزارقة بعد المُقعطِل، يُقال له الصَّموت؛ لأنه لما طال صمته ثَقُل عليه الكلام، فكان لسانه يلتوي ولا يكاد يُبِين. وأخبرني محمد بن الجهم

أن مِثل هذا اعتراه أيام محاربة الزُّط، من طول التفكُّر ولزوم الصمت. قال: وأنشدني الأصمعي:

حديثُ بني زُطٍّ إذا ما لَقِيتُهم كنَزْوِ الدَّبى في العَرفَجِ المُتقارِبِ[٥٨]

قال ذلك حين كان في كلامهم عجلة. وقال سَلمة بن عيَّاش:

كأنَّ بني رالانِ إذ جاءَ جَمعُهم فَراريجُ يُلقى بينهنَّ سَوِيقُ

فقال ذلك لرِقَّة أصواتهم وعجلة كلامهم. وقال اللهبي في اللَّجْلاج:

ليس خطيبُ القومِ باللَّجْلاجِ ولا الذي يَزحَلُ كالهِلْباجِ[٥٩]
ورُبَّ بَيْداءَ وليلٍ داجِ هتَكتُه بالنَّصِّ والإدلاجِ[٦٠]

وقال محمد بن سلَّام الجُمَحي: كان عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه، قال: خالِقُ هذا وخالِقُ عمرو بن العاص واحد. ويُقال: في لسانه حُبْسة، إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حد الفأفاء والتمتام. ويُقال: في لسانه لُكنة، إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب، وجذبت لسانَه العادةُ الأولى إلى المخرج الأول. فإذا قالوا: في لسانه حُكلة، فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق، وعجز أداة اللفظ، حتى لا تُعرَف معانيه إلا بالاستدلال. وقال رؤبة بن العجَّاج:

لو أنني أُوتيتُ عِلمَ الحُكْلِ عِلمَ سُليمانَ كلامَ النَّملِ[٦١]

وقال محمد بن ذؤيب في مديح عبد الملك بن صالح:

ويَفهمُ قولَ الحُكلِ لو أنَّ ذَرَّةً تُساوِدُ أخرى لم يَفُتْه سِوادُها

---

[٥٨] النزو: الوثب. الدبى: صِغار الجراد. العرفج: شجر سهلي.

[٥٩] يزحل: يزول. الهلباج: الأحمق القَدم الجامع لصنوف الشر.

[٦٠] النص والإدلاج: السير الشديد في أول الليل.

[٦١] الحكل: الذور.

وقال التَّيمي في هجائه لبني تغلب:

ولكنَّ حُكلًا لا تُبِينُ ودِينُها　　عبادةُ أعلاجٍ عليها البَرانسُ

قال سحيم بن حفص في الخطيب الذي تَعرِض له النحنحة والسُّعلة، وذلك إذا انتفخ سَحْره، وكبا زَنْده، ونبا حده، فقال:

نعوذُ باللهِ من الإهمالِ　　ومن كَلالِ الغربِ في المَقالِ
ومن خطيبٍ دائمِ السُّعالِ

وأنشدني الأعرابي:

إنَّ زيادًا ليس بالبَكيِّ　　ولا بهيَّابٍ كثيرِ العِيِّ

وأنشدني بعض أصحابنا:

نادَيتُ هَيْذانَ والأبوابُ مُغلَقةٌ　　ومِثلُ هَيذانَ سنَّى فتحةَ البابِ
كالهِندُوانيِّ لم يُفلَلْ مَضاربُه　　وجهٌ جميلٌ وقلبٌ غيرُ وجَّابِ

وقال الآخَر:

إذا اللهُ سنَّى عَقْدَ شيءٍ تيسَّرا

وقال بِشْر بن مَعمر في مِثل ذلك:

ومِن الكبائر مِقوَلٌ مُتتعتِعٌ　　جمٌّ التَّنحنُحِ مُتعَبٌ مَبهورُ

وذلك أنه شهد ريسان أبا بُجير بن ريسان يخطب، وقد شهدت أنا هذه الخطبة ولم أرَ جبانًا قطُّ أجرأ منه، ولا جريئًا قطُّ أجبن منه.

وقال الأشلُّ الأزرقي — من بعض أخوال عِمران بن حِطَّان الصُّفري القَعَدي — في زيد بن جُندب الإيادي خطيب الأزارقة، واجتمعا في بعض المَحافل، فقال بعد ذلك الأشلُّ البكري:

نَحنَحَ زيدٌ وسَعَلْ　　لمَّا رأى وقْعَ الأَسَلْ
وَيلُ امِّهِ إذا ارتجَلْ　　ثم أطالَ واحتفَلْ

وقد ذكر الشاعر زيد بن جُندب الإيادي، الخطيب الأزرقي، في مرثيَّته لأبي دواد بن جرير الإيادي، حيث ذكره بالخطابة وضرب المَثل بخُطباء إياد، فقال:

كقُسِّ إيادٍ أو لَقيطِ بنِ مَعبدٍ وعُذْرةَ والمِنْطيقِ زيدِ بنِ جُندَبِ

وزيد بن جندب هو الذي يقول في الاختلاف الذي وقع بين الأزارقة:

قُلْ للمُحِلِّين قد قرَّتْ عُيونُكمُ بفُرقةِ القومِ والبَغضاءِ والهَرَبِ
كُنَّا أُناسًا على دِينٍ ففرَّقَنا فرعُ الكلامِ وخلطُ الجِدِّ باللَّعِبِ
ما كانَ أغْنَى رِجالًا ضلَّ سَعيُهمُ عن الجِدالِ وأغناهم عنِ الخُطَبِ
إنِّي لَأهوَنُكم في الأرضِ مُضطرَبًا ما لي سِوى فَرَسي والرُّمحِ من نَشَبِ

وأما عُذرة المذكور في البيت الأول فهو عذرة بن حجرة الخطيب الإيادي، ويدلُّ على قَدرِه فيهم، وعلى قَدرِه في اللَّسن وفي الخُطب، قولُ شاعرهم:

وأيُّ فتى صبرٍ على الأينِ والظَّما إذا اعتصَروا للُّوحِ ماءَ فِظاظِها[٦٢]
إذا ضرَّجوها ساعةً بدِمائِها وحُلَّ عن الكَوماءِ عَقدُ شِظاظِها[٦٣]
فإنَّك ضحَّاكٌ إلى كلِّ صاحبٍ وأنطَقُ من قُسٍّ غَداةَ عُكاظِها[٦٤]
إذا شعبَ المَولى مُشاعِبُ مَعشرٍ فعُذرةُ فيها آخِذٌ بكِظاظِها

فلم يضرب هذا الشاعر الإيادي المَثل لهذا الخطيب الإيادي إلا برجل من خُطباء إياد، وهو قس بن ساعدة. ولم يضرب صاحب مرثية أبي دواد بن جرير الإيادي المَثل

---

[٦٢] الأين: الإعياء من السير الطويل الشاق. اللوح: العطش. ماء الفظاظ: ماء فرث البعير. وكانت العرب إذا أزمعت سفرًا بعيدًا أو اجتياز مفازة شاقَّة سقَوا إبلهم ثم شدُّوا أفواهها لئلا تجترَّ، فإذا أخذ منهم الظمأ شقُّوا بطن البعير واعتصروا فرثه وشربوا منه.

[٦٣] الكوماء: الناقة التامة الخَلق، العظيمة السنام. عقد الشظاظ: خشبة تُدخَل في عُرى الغرائر.

[٦٤] قس: هو قس بن ساعدة الإيادي، خطيب العرب ونذيرها. سَمِعه النبي وهو صغير في عكاظ وتحدَّث بخطبته، وكفى بهذا شرفًا. وقد عُمِّر كثيرًا، وفي طول عمره اختلافٌ أقلُّه ٣٨٠، وأكثره ٧٠٠، وتُوفي قبل البعثة.

إلا بخُطباء إياد فقط، ولم يفتقر إلى غيرهم، حيث قال في عذرة بن حجرة:

كقُسِّ إيادٍ أو لقيطِ بنِ مَعبدٍ[٦٥]　　وعُذرةَ والمِنْطيقِ زيدِ بنِ جُندَبِ

وأول هذه المرثية قوله:

نعى ابنَ جريرٍ جاهلٌ بمُصابه　　فعمَّ نِزارًا بالبُكا والتحوُّبِ[٦٦]
نعاه لنا كاللَّيثِ يَحمي عَرينَه　　وكالبدرِ يَغْشى ضوءُه كلَّ كوكبِ
وأصبَرُ من عَودٍ وأهدى إذا سرى　　من النَّجمِ في داجٍ من الليلِ غَيهَبِ[٦٧]
وأضرَبُ من حدِّ السِّنانِ لسانُه　　وأمضى من السيفِ الحُسام المُشطَّبِ
زعيمُ نزارٍ كلِّها وخطيبُها　　إذا قامَ طاطا رأسَه كلُّ مِشغَبِ
سليلُ قرومٍ سادةٍ ثم قالةٍ　　يَبُزُّون يومَ الجَمعِ أهلَ المُحصَّبِ[٦٨]
كقُسِّ إيادٍ أو لقيطِ بنِ مَعبدٍ　　وعُذرةَ والمِنْطيقِ زيدِ بنِ جُندَبِ

في كلمةٍ له طويلة. وإيَّاهم عنى الشاعر بقوله:

يَرمُون بالخُطبِ الطِّوالِ وتارةً　　وحْيَ المَلاحِظِ خِيفةَ الرُّقَباءِ

قال: أخبرني محمد بن عبَّاد بن كاسب، كاتب زُهير ومولى بجيلة من سَبْي دابق، وكان شاعرًا راوية، وطلَّابة للعلم علَّامة، قال: سمعت أبا دواد بن جرير يقول، وقد جرى شيءٌ من ذِكر الخُطب وتحبير الكلام واقتضابه، وصعوبة ذلك المَقام وأهواله، فقال: تخليص المعاني رِفق، والاستعانة بالغريب عَجْز، والتشادق من غير أهل البادية بُغْض، والنظر في عيون الناس عِي، ومسُّ اللحية هُلْك، والخروج مما بُنِي عليه أول الكلام إسهاب. وسَمعتُه يقول: رأس الخطابة الطَّبع، وعمودها الدُّربة، وجَناحاها رواية الكلام،

[٦٥] لقيط بن معبد، وصاحب الأغاني يُسميه لقيط بن يعمر: شاعرٌ جاهلي قديم، عُرِف بقصيدته التي يُنذِر بها قومه غزو الفُرس لهم.

[٦٦] التحوب: التوجع.

[٦٧] وأصبر من عود: وأصبر من بعير.

[٦٨] قروم: سادة أمجاد.

يبزون: يغلبون.

وحَليُها الإعراب، وبهاؤها تخيُّر الألفاظ، والمحبة مقرونة بقِلَّة الاستكراه. وأنشدني بيتًا له في صفة خُطباء إياد، وهو قوله:

يَرمُون بالخُطبِ الطِّوالِ وتارةً　　　وحْيَ المَلاحظِ خِيفةَ الرُّقباءِ

فذكر المبسوط في موضعه، والمحذوف في موضعه، والمُوجَز، والكناية، والوحي باللحظ، ودلالة الإشارة. وأنشدني له الثقة في كلمة له معروفة:

الجُودُ أخشَنُ مسًّا يا بَنِي مَطر　　　من أنْ تَبُزَّكُموه كفٌّ مُستلِبِ
ما أعلَمَ الناسَ أنَّ الجُودَ مَدفعةٌ　　　للذمِّ لكنَّه يأتي على النَّشَبِ

قال: ثم لم يَحفل بها، فادَّعاها مسلم بن الوليد الأنصاري، أو ادُّعيت له. وكان أحد من يُجيد قريض الشعر وتحبير الكلام.

وفي الخُطباء من يكون شاعرًا، ويكون إذا تحدَّث أو وصف أو احتجَّ بليغًا مفوَّهًا بيِّنًا، وربما كان خطيبًا فقط، وشاعرًا فقط، وبيِّنَ اللسان فقط.

ومن الشعراء الخُطباء، الأبْيناء الحُكماء، قُسُّ بن ساعدة الإيادي. والخطباء كثير، والشعراء أكثر منهم. ومن يَجمع الخطابةَ والشعر قليل.

ومنهم عمرو بن الأهتم المِنقري، وهو المكحَّل. قالوا: كأنَّ شِعره في مجالس الملوك حُللٌ منشورة. قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، قيل للأوسية: أيُّ منظرٍ أحسن؟ قالت: قصورٌ بِيض في حدائقَ خُضْر. فأنشد عند ذلك عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، بيت عَدي بن زيد العبادي:

كدُمى العاجِ في المحاريبِ أو كالـ　　　ـبيضِ في الرَّوضِ زَهرُه مُستنيرُ[٦٩]

قال: فقال قسامة بن زهير: كلام عمرو بن الأهتم آنَق، وشِعره أحسَن، هذا. وقسامة أحد أبْيناء العرب.

ومن الخُطباء الشعراء البَعيث المُجاشعي، واسمه خِداش بن بِشْر بن لبيد.

ومن الخُطباء الشعراء الكُميت بن زيد الأسدي، وكُنْيته أبو المُستهل.

ومن الخُطباء الشعراء الطِّرِمَّاح بن حكيم الطائي، وكُنْيته أبو نفر.

---

[٦٩] الدمى: الصور الماثلة. المحاريب: أماكن العبادة.

قال القاسم بن مَعن: قال محمد بن سهل راوية الكُميت: أنشدت الكميت قول الطرماح:

إذا قُبِضتْ نفسُ الطِّرِمَّاحِ أخلَقَتْ عُرى المجدِ واسترخى عِنانُ القصائدِ

فقال الكميت: إي والله، وعِنان الخطابة والرواية.

قال أبو عثمان الجاحظ: ولم يرَ الناس أعجب حالًا من الكميت والطرماح. وكان الكميت عدنانيًّا عصبيًّا، وكان الطرماح قحطانيًّا عصبيًّا. وكان الكميت شيعيًّا من الغالية، وكان الطرماح خارجيًّا من الصُّفرية. وكان الكميت يتعصَّب لأهل الكوفة، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام. وبينهما مع ذلك من الخاصة والمُخالَطة ما لم يكُن بين نفسَين قط، ثم لم يجرِ بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض، ولا شيءٌ مما تدعو هذه الخصال إليه. ولم يرَ الناس مِثلهما إلا ما ذكروا من حال عبد الله بن زيد الإباضي وهشام بن الحكم الرافضي؛ فإنهما صارا إلى المشاركة بعد الخلطة والمصاحبة. وقد كانت الحال بين خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة، الحال التي تدعو إلى المفارقة بعد المناقشة والمحاسدة؛ للذي اجتمع فيهما من اتفاق الصناعة والقرابة والمجاورة، فكان يُقال: لولا أنهما أحلم تميم لَتَبايَنا تبايُن النمر والأسد. وكذلك كانت حال هشام بن حكم الرافضي وعبد الله بن زيد الإباضي، إلا أنهما فضلا على سائر المُتضادين بما صارا إليه من الشركة في جميع تجارتهما. وذكر خالد بن صفوان شبيب بن شيبة فقال: ليس له صديق في السر، ولا عدوٌّ في العلانية. فلم يُعارضه شبيب.

وتدل كلمة خالد هذه على أنه يُحسِن أن يسبَّ سب الأشراف.

ومن الخُطباء الشعراء عِمران بن حِطَّان،[٧٠] وكُنْيته أبو شهاب، أحد بني عمرو بن شيبان إخوة سدوس.

فمن بني عمرو بن شيبان مع قِلَّتهم من العلماء والخطباء والشعراء:

عِمران بن حِطَّان رئيس القَعَدة من الصُّفرية، وصاحب فُتياهم، ومَقرعهم عند اختلافهم.

[٧٠] عمران بن حطان: شاعرٌ فصيح من شعراء الخوارج ودُعاتهم. أدرك صدرًا من الصحابة وروى عنهم، وروى عنه أصحاب الحديث، ثم صار من الشراة الخوارج. طلبه الحجَّاج ففرَّ منه، وله في فراره خطوب وأحداث. وكان بليغًا مُبينًا.

ومنهم دَغفَل بن حنظلة النسَّابة، الخطيب العلَّامة.

ومنهم القَعقاع بن شَور.

وسنذكُر شأنهم إذا انتهينا إلى موضع ذِكرهم إن شاء الله تعالى.

ومن الخُطباء الشعراء نصر بن سيَّار، أحد بني ليث بن بكر، صاحب خراسان، وهو يُعَد في أصحاب الولايات، وفي الحروب، وفي التدبير، وفي العقل وشدة الرأي.

ومن الخُطباء الشعراء زيد بن جندب الإيادي، وقد ذكرنا شأنه.

ومن الخُطباء الشعراء عَجلان بن سَحبان الباهلي. وسحبان هذا هو سحبانُ وائل، وهو خطيب العرب.

ومن الخطباء الشعراء العلماء، وممن قد تنافر إليه الأشراف: أعشى هَمْدان.

ومن الشعراء الخطباء عِمران بن عصام العرني، وهو الذي أشار على عبد الملك بخَلْع أخيه عبد العزيز، والبيعة للوليد بن عبد الملك، في خطبته المشهورة، وقصيدته المذكورة. وهو الذي لما بلغ عبد الملك بن مروان قتل الحجَّاج له قال: ولِمَ قتله؟ هلَّا رعى له قوله فيه:

وبعثتَ من ولدِ الأغرِّ مُعتِّبٍ ... صقرًا يَلوذُ حَمامُه بالعَرفَجِ
فإذا طبختَ بنارِه أنضجتَها ... وإذا طبختَ بغيرِها لم يَنضَجِ
وهو الهِزَبرُ إذا أرادَ فريسةً ... لم يُنجِها منه صياحُ الهجهجِ[٧١]

ومن خُطباء الأمصار وشُعرائهم والمولَّدين منهم: بشَّارٌ الأعمى. وهو بشَّار بن بُرْد، وكُنْيته أبو معاذ. كان من أحد موالي بني عقيل، فإن كان مولى أم ظباء — على ما يقول بنو سدوس وما ذكره حمَّاد عجرد — فهو من موالي بني سدوس. ويُقال إنه من أهل خراسان نازلًا في بني عقيل. وله مديحٌ كثير في فُرسان أهل خراسان ورجالاتهم، وهو الذي يقول:

من خُراسانَ وبَيتي في الذُّرى ... ولَدى المَسعاةِ فَرْعي قد سَبَقْ
وإني لِمنْ قومٍ خُراسانُ دارُهم ... كرامٍ وفَرْعي فيهمُ ناضرٌ بَسَقْ

[٧١] صياح الهجهج: هو الصياح لطرد الأسد وزجره.

وكان شاعرًا راجزًا، سجَّاعًا خطيبًا، صاحب منثور ومزدوج، وله رسائل معروفة.

وأنشد عُقبة بن رؤبة، عُقبة بن سَلْم، رجزًا يمتدحه فيه، وبشَّارٌ حاضر، فأظهر بشَّارٌ استحسان الأرجوزة، فقال عُقبة بن رؤبة: هذا طرازٌ يا أبا معاذ لا تُحسِنه. فقال بشَّار: أَلِمِثْلي يُقال هذا الكلام؟ أنا والله أرجَزُ منك ومن أبيك ومن جدك. ثم غدا على عُقبة بن سَلْم بأرجوزته التي أولها:

يا طَلَلَ الحَيِّ بِذَاتِ الصَّمْدِ　　بِاللهِ خبِّرْ كيفَ كُنتَ بَعْدي

وهي التي يقول فيها:

اسْلَمْ وحُيِّيتَ أبا المِلَدِّ　　للهِ أيامُك في مَعَدِّ

وفيها يقول:

الحُرُّ يُلْحى والعصا للعَبدِ　　وليس للمُلحِفِ مِثلُ الرَّدِّ

ويقول فيها:

وصاحِبٍ كالدُّمَّلِ المُمِدِّ　　حمَلتُه في رُقعةٍ من جِلدي
وما وراء رَغْبتي من زُهْدي

أي لم أُرِه زهدًا فيه ولا رغبةً. ذهب إلى قول الشاعر:

لقد كنتَ في قومٍ عليك أَشِحَّةٍ　　بنَفْسِك لولا أنَّ مَن طاحَ طائحُ
يَودُّون لو خاطُوا عليك جُلودَهم　　ولا تَدفعُ الموتَ النُّفوسُ الشحائحُ

والمطبوعون على الشعر من المولَّدين بشَّارٌ العُقيلي، والسيِّد الحِميري، وأبو العتاهية، وابن أبي عُيَينة. وقد ذكر الناس في هذا الباب يحيى بن نوفل، وسَلمًا الخاسر، وخلف بن خليفة. وأبان بن عبد الحميد اللاحقي أولى بالطبع من هؤلاء، وبشَّار أطبَعُهم كلهم.

ومن الخطباء الشعراء، وممن يؤلِّف الكلام الجيِّد، ويصنع المناقلات الحِسان، ويؤلِّف الشعر والقصائد الشريفة، مع بيانٍ عجيب، وروايةٍ كثيرة، وحُسنِ دلٍّ وإشارة: عيسى بن يزيد بن دأب، أحد بني ليث بن بكر، وكُنْيته أبو الوليد.

ومن الخطباء الشعراء، ممن كان يَجمع الخطابة والشعر الجيِّد والرسائل الفاخرة، مع البيان الحسن: كُلثوم بن عمرو العتَّابي، وكُنْيته أبو عمرو. وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلَّف مِثل ذلك من شعراء المولَّدين، كنحوِ منصور النَّمَري ومسلم بن الوليد الأنصاري وأشباههما. وكان العتَّابي يحتذي حذْوَ بشَّار في البديع، ولم يكُن في المولَّدين أصوَبُ بديعًا من بشَّار وابن هَرمة. والعتابي من ولد عمرو بن كلثوم؛ ولذلك قال:

إنِّي امرؤٌ هَدَمَ الإقتارُ مأثُرتي واجتاحَ ما بَنَتِ الأيامُ من خَطَري
أيامَ عمرِو بنِ كُلثومٍ يُسوِّدُه حيًّا ربيعةَ والأفناءُ من مُضَرِ
أَرُومةٌ عطَّلَتْني من مَكارِمِها كالقَوسِ عطَّلَها الرَّامي من الوَتَرِ

ودل في هذه القصيدة على أنه كان قصيرًا قولُه:

نَهى ظِرافَ الغواني عن مُواصَلتي ما يَفجَأُ العَينَ من شَيْبي ومن قِصَري

ومن الخطباء الشعراء الذين قد جمعوا الشِّعر والخُطب، والرسائل الطِّوال والقِصار، والكُتب الكبار المخلَّدة، والسِّيَر الحِسان المولَّدة، والأخبار المدوَّنة: سهل بن هارون بن راهيبوني[٧٢] الكاتب، صاحب كتاب «ثعلة وعفرة» في معارضة كتاب «كليلة ودمنة»، وكتاب «الإخوان» وكتاب «المسائل»، وكتاب «المخزومي والهذلية»، وغير ذلك من الكتب.

ومن الخطباء الشعراء علي بن إبراهيم بن جَبلة بن مَخرمة، ولا أعلمه يُكنى إلا أبا الحسن.

وسنذكُر كلام قس بن ساعدة، وشأن لقيط بن معبد، وهند بنت الخُس، وخُمعة[٧٣] بنت حابس، وخطباء إياد، إذا صِرنا إلى ذِكر خطباء القبائل إن شاء الله.

---

[٧٢] سهل بن هارون بن راهبون، ويُكنى أبا عمر: أصله من نيسابور ونزل البصرة. تفرَّد في زمانه بالبلاغة والحكمة وسعة البيان، وكان يميل إلى مذهب الشعوبية الذين يَدِينون ببُغض العرب. أُعجبَ المأمون ببلاغته وعقله فولَّاه خِزانة الحكمة، وهي التي كانت تحوي كُتُب الفلاسفة التي نُقلت للمأمون من جزيرة قبرس. صنَّف كُتبًا كثيرة عارَض بها كُتُب الأوائل، حتى لُقِّب «بزرجمهر الإسلام». وله نَظمٌ جيِّد ونثرٌ فائق. ولقد كان الجاحظ كثير الإعجاب به والنقل عنه، وله رسالة في البخل هي آية من الآيات، وكان بخيلًا ظريفًا، وله في البخل نوادر مُعجِبة.

ولإياد وتميم في الخُطب خَصلة ليست لأحد من العرب؛ لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعُكاظ وموعظته، وهو رواه لقريش والعرب، وهو الذي عَجِب من حُسْنه وأظهر من تصويبه. وهذا إسنادٌ تَعجِز عنه الأماني، وتنقطع دونه الآمال. وإنما وفَّق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه للتوحيد، ولإظهاره معنى الإخلاص، وإيمانه بالبعث؛ ولذلك كان خطيب العرب قاطبةً.

وكذلك ليس لأحد في ذلك مِثل الذي لبني تميم؛ لأن رسول الله ﷺ لما سأل عمرو بن الأهتم عن الزِّبْرِقان بن بدر قال: مانِعٌ لحوزته، مُطاع في أذينه. فقال الزبرقان: أمَا إنه قد عَلِم أكثر مما قال، لكنه حسدني شرفي. فقال عمرو: أمَا لئن قال ما قال فوالله ما عَلِمته إلا ضيِّق الصدر، زَمِر المروءة، لئيم الخال، حديث الغنى. فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول، ورأى الإنكار في عينَي رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله، رضيت فقلت أحسن ما علمت، وغضبت فقلت أقبح ما علمت؛ وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الآخرة. فقال النبي ﷺ عند ذلك: إن من البيان لَسِحرًا.

فهاتان الخصلتان خُصَّت بهما إياد وتميم دون سائر القبائل.

ودخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبي سفيان، فأشار له إلى الوساد فقال له: اجلس. فجلس على الأرض، فقال معاوية: ما منعك يا أحنفُ من الجلوس على الوساد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن فيما أوصى به قيس بن عاصم المنقري ولده أن قال: لا تَغشَ السلطان حتى يملَّك، ولا تقطعه حتى ينساك، ولا تجلس له على فِراش ولا وساد، واجعل بينك وبينه مجلس رجل أو رجلَين؛ فإنه عسى أن يأتيَ من هو أولى بذلك المجلس منك فتُقام له، فيكون قيامك زيادةً له ونقصًا عليك. حَسْبي بهذا المجلس يا أمير المؤمنين، لعله أن يأتيَ من هو أولى بذلك المجلس مني. فقال معاوية: لقد أُوتيَت تميم الحكمة، مع رِقَّة حواشي الكلام. وأنشأ يقول:

يا أيُّها السائلُ عمَّا مضى وعِلمِ هذا الزَّمنِ العائبِ

---

[٧٣] خمعة بنت حابس. وفي الأصل: جمعة، وهذا خطأ لا أدري إذا كان من النُّساخ أو كان من الجاحظ، غير أنني تحقَّقت أن صحة الاسم «خمعة» كما ضبطه صاحب العُباب والمُحكَم، وابن الشجري في كتابه ما اتفق لفظه واختلف معناه، وكذلك رواه القاضي عِياض في شرحه لحديث أم زرع. والمعروف أنها بنت الخس أخت هند.

إن كنت تَبْغي العلمَ أو أَهْلَه　　أو شاهدًا يُخبِرُ عن غائبِ
فاعتبِرِ الأرضَ بسُكَّانِها　　واعتبِرِ الصاحبَ بالصاحبِ

وذهب الشاعر في مرثية أبي دؤاد في قوله:

وأصبَرُ من عودٍ وأهدى إذا سرى　　من النَّجمِ في داجٍ من الليلِ غَيهَبِ

هذا شبيه بقول جبَّار بن سليمان بن مالك بن جعفر بن كُلاب، حين وقف على قبر عامر بن الطفيل، فقال: كان والله لا يضلُّ حتى يضلَّ النَّجم، ولا يعطش حتى يعطش البعير، ولا يهاب حتى يهاب السيل. وكان والله خير ما يكون حين لا تظنُّ نفسٌ بنفس خيرًا.

وكان زيد بن جندب أَشْغى أَقْلَح، ولولا ذلك لكان أخطب العرب قاطبةً. وقال عَبيدة بن هلال اليَشكُري في هجائه له:

أَشْغى عَقَنْباةٌ ونابٌ ذو عَصَلْ　　وقَلَحٌ بادٍ وسِنٌّ قد نَصَلْ[٧٤]

وقال عَبيدة أيضًا فيه:

ولَفُوكَ أشنَعُ حين تَنطقُ فاغرًا　　مِن في قَريحٍ قد أصابَ بَرِيرا[٧٥]

وقال الكُميت:

تُشبَّهُ بالهامِ آثارُها　　مَشافرَ قُرحًا أكَلْن البَريرا

وقال أخو النمر بن تولب في شُنعة أشداق الجمل:

كم ضربةٍ لك تَحكي فا قُراسيةٍ　　من المَصاعبِ في أشداقِه شَنَعُ

---

[٧٤] أشغى: بارز الأسنان العليا. عقنباة: حادُّ المخالب. ناب ذو عصل: ناب مُعوج. القلح: صُفرة الأسنان. والسن الناصل: الخارج.

[٧٥] البرير: ثمر الأراك أول ظهوره.

وفي الخطباء من كان أشغى، ومن كان أروق، ومن كان أشدق، ومن كان أضجم، ومن كان أفقم.

القراسية: بعيرٌ أضجم، والضجم اعوجاج في الفم، والفقم مِثله. والرَّوَق: ركوب السن الشفة. وفي كل ذلك روينا الشاهد والمَثل.

وروى الهيثم بن عدي، عن أبي يعقوب الثقفي، عن عبد الملك بن عمير، قال: قَدِم علينا الأحنف الكوفة مع مصعب بن الزبير، فما رأيت خصلةً تُذَم في رجل إلا وقد رأيتها فيه؛ كان أصعل الرأس، أحجن الأنف، أغضف الأذن، مُتراكب الأسنان، أشدق، مائل الذقن، ناتئ الوَجنة، باخق العين، خفيف العارضَين، أحنف الرِّجلَين،[٧٦] ولكنه إذا تكلَّم جلَّى عن نفسه.

ولو استطاع الهيثم أن يمنعه البيان أيضًا لمنعه، ولولا أنه لم يجد بدًّا من أن يجعل له شيئًا على حال لَمَا أقرَّ بأنه إذا تكلَّم جلَّى عن نفسه.

وقولنا في كلمته هذه كقول هند بنت عُتبة حين أتاها نعيُ يزيد بن أبي سفيان، وقال لها بعض المُعزِّين: إنا لَنَرجو أن يكون في معاوية خلفٌ من يزيد. فقالت هند: ومِثل معاوية لا يكون خلفًا من أحد، فوالله لو جُمعت العرب من أقطارها ثم رُمِي به فيها لخرج من أي أعراضها شاء. ولكنَّا نقول: أَلِمِثل الأحنف يُقال: إلا أنه إذا تكلَّم جلَّى عن نفسه؟

ثم رجع بنا القول إلى الكلام الأول فيما يعتري اللسانَ من ضروب الآفات.

قال ابن الأعرابي: طلَّق أبو رمادة امرأته حين وجدها لَثْغاء، وخاف أن تَجيئه بولدٍ ألثغ، فقال:

لَثْغاءُ تأتي بحِيَفْسٍ أَلثَغِ ... تَميسُ في المَوشيِّ والمُصبَّغِ

الحِيَفس: الولد القصير الصغير.

وأنشد ابن الأعرابي كلمةً جامعة لكثير من هذه المعاني، وهو قول الشاعر:

اسكُتْ ولا تَنطِقْ فأنتَ حَبْحابْ ... كُلُّك ذو عَيبٍ وأنت عيَّابْ

---

[٧٦] صعل الرأس: الصعل دقة الرأس مع طول. أحجن: معوج. أغضف: مُسترخي الأذن. باخق: أعور. أحنف، الحنف اعوجاج القدمَين نحو بعضهما.

إنْ صدَقَ القومُ فأنتَ كذَّابْ أو نطقَ القومُ فأنتَ هيَّابْ
أو سكتَ القومُ فأنتَ قَبْقابْ أو أقدَموا يومًا فأنتَ وجَّابْ

وأنشدني:

ولست بزمِّيجةٍ في الفِرا شِ وجَّابةٍ يَحتمي أن يُجيبا
ولا ذي قلازمَ عند الحياضِ إذا ما الشَّريبُ أرابَ الشَّريبا

الزميجة: الثقيل عن الحركة. والقلازم: كثرة الصياح.
وأنشدني:

رُبَّ غريبٍ ناصِحِ الجَيبِ وابنِ أبٍ متَّهَمِ الغَيبِ
ورُبَّ عيَّابٍ له مَنظرٌ مُشتملُ الثوبِ على العَيبِ

وأنشد:

وأجْرا من رأيتُ بظَهرِ غَيبٍ على عَيبِ الرِّجالِ ذَوُو العُيوبِ

وقال سهل بن هارون: لو عرف الزِّنجي فرط حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف، وتكميل جميل البيان، لَمَا نزع ثناياه.

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في سُهيل بن عمرو الخطيب: يا رسول الله، انزِعْ ثَنيَّتَيه السُّفليَين حتى يَدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا.

وإنما قال ذلك لأن سُهيلًا كان أعلم من شفته السفلى.

وقال خلَّاد بن يزيد الأرقط: خطب الجُمحي خطبة نكاح أصابَ فيها معانيَ الكلام، وكان في كلامه صفيرٌ يخرج من موضع ثناياه المنزوعة، فأجابه زيد بن علي بن الحسين بكلام في جودة كلامه إلا أنه فضله بحسن المَخرج والسلامة من الصفير، فذكر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر سلامةَ لفظ زيد بسلامة أسنانه، فقال في كلمة له:

قلَّتْ قوادحُها وتمَّ عديدُها فلَهُ بذاكَ مَزيَّةٌ لا تُنكَرُ

ويُروى:

صحَّت مَخارجُها وتمَّ حروفُها

المزية: الفضيلة.

وزعم يحيى بن نُجيم بن معاوية بن زمعة، أحد رُواة أهل البصرة، قال: قال يونس بن حبيب في تأويل قول الأحنف بن قيس:

أنا ابن الزَّافريَّةِ أرضَعتْني ... بثَدي لا أجَدُّ ولا وخيمُ
أتمَّتني فلَمْ تَنقُص عِظامي ... ولا صَوْتي إذا اصطكَّ الخُصومُ

قال: إنما عنى بقوله عظامي أسنانَه التي في فمه، وهي التي إذا تمَّت تمَّت الحروف. وقال يونس: وكيف يقول مِثله: أتمتني فلم تنقص عظامي، وهو يريد بالعظام عظام اليدَين والرِّجلَين، وهو أحنف من رِجلَيه جميعًا، مع قول الحُتات له: والله إنك ضئيل، وإن أمك لَوَرهاء؛ وكان أعرف بمواقع العيوب وأبصر بدقيقها وجليلها؟ وكيف يقول ذلك وهو نُصْب عيون الأعداء والشعراء والأكْفاء، وهو أنف مُضَر الذي تعطس عنه، وأبيَنُ العرب والعجم قاطبةً؟

قالوا: ولم يتكلم معاوية على مِنبر جماعة مذ سقطت ثناياه في الطَّسْت.

قال أبو الحسن وغيره: لما شقَّ على معاوية سقوطُ مقادم فمه، قال له يزيد بن مَعن السُّلمي: والله ما بلَغ أحدٌ سنَّك إلا أبغض بعضه بعضًا، ففُوك أهوَن علينا من سمعك وبصرك. فطابت نفسه.

وقال أبو الحسن المدايني: لما شدَّ عبد الملك أسنانه بالذهب قال: لولا المنابر والنساء ما باليت متى سقطتْ.

قال: وسألت مباركًا الزنجي الفاشكار — ولا أعلم زنجيًّا بلَغ في الفشكرة مَبلغه — فقلت له: لِمَ ينزع الزنجي ثناياه؟ ولِمَ يُحدد ناس منهم أسنانهم؟ فقال: أما أصحاب التحديد فللقتال والنهش، ولأنهم يأكلون لحوم الناس، ومتى حارَب ملكٌ ملكًا فأخذه قتيلًا أو أسيرًا أكله، وكذلك إذا حارَب بعضهم بعضًا أكل الغالب منهم المغلوب.

وأما أصحاب القلع فإنهم قالوا: نظَرْنا إلى مقادم أفواه الغنم فكرِهْنا أن تُشبِه مقادم أفواهنا مقادم أفواه الغنم. فكم تظنُّهم، حفظك الله، فقدوا من المنافع العظام بفقد تلك الثنايا؟

وفي هذا كلامٌ يقع في كتاب «الحيوان». وقال أبو الهندي في اللثغ:

سقَيتُ أبا المُطرَّح إذ تأنَّى ... وذو الرَّعَثاتِ مُنتصِبٌ يَصيحُ
شرابًا يَهرُبُ الذِّبَّانُ منه ... ويَلثَغُ حين يَشربُه الفصيحُ

وقال محمد بن عمرو الرومي، مولى أمير المؤمنين: قد صحَّت التَّجرِبة وقامت العِبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلَحُ في الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها، وخالَف أحد شطرَيها الشطر الآخر.

وقد رأينا تصديق ذلك في أفواه قوم شاهَدَهم الناس بعد أن سقط جميع أسنانهم، وبعد أن بقي منها الثلث أو الربع؛ فممَّن سقطت جميع أسنانه، وكان معنى كلامه مفهومًا: الوليد بن هشام القحذمي صاحب الأخبار. ومنهم أبو سفيان، والعلاء بن لبيد التغلبي، وكان ذا بيانٍ ولسن. وكان عبيد الله بن أبي غسَّان ظريفًا يصرِّف لسانه كيف أحب. وكان الإلحاح على القيس قد بَرَد أسنانه حتى كان لا يرى أحد منها شيئًا إلا إن تطلَّع في لحم اللِّثة وفي أصول مَنابت الأسنان. وكان سفيان بن الأبرد الكلبي كثيرًا ما يَجمع بين القارِّ والحارِّ، فتساقطت أسنانه جميعًا، وكان مع ذلك خطيبًا بيِّنًا.

وقال أهل التجرِبة: إذا كان في اللحم الذي فيه مَغارز الأسنان تشمير وقِصَر سَمْك، ذهبت الحروف وفسد البيان، وإذا وجد اللسان من جميع جهاته شيئًا يَقرعه ويصكُّه، ولم يمرَّ في هواءٍ واسع المجال، وكان لسانه يملأ جوبة فمه، لم يضرَّه سقوط أسنانه إلا بالِمقدار الُمغتفَر، والجزء الُمحتمَل. ويؤكِّد ذلك قولُ صاحب المنطق؛ فإنه زعم في كتاب «الحيوان» أن الطائر والسَّبُع والبهيمة كلما كان لسان الواحد منها أعرض كان أفصح وأبين، وأحكى لِما يُلقَّن ولما يسمع، كنحو الببَّغاء والغُداف وغُراب البَين وما أشبه ذلك، وكالذي يتهيَّأ من أفواه السنانير إذا تجاوَبت من الحروف المقطَّعة المشاركة لمخارج حروف الناس. فأما الغَنم فليس يُمكِنها أن تقول إلا «ماء»، والميم والباء أول ما يتهيَّأ في أفواه الأطفال، كقولهم: ماما، وبابا. لأنهما خارجان من عمل اللسان، وإنهما يظهران بالْتِقاء الشفتَين. وليس شيء من الحروف أدخل في باب النقص والعجز من فم الأهتم من الفاء والسين إذا كانا في وسط الكلمة، فأما الضاد فليس تَخرُج إلا من الشِّدق الأيمن، إلا أن يكون الُمتكلم أعسر يَسرًا، مثل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان يُخرِج الضاد من أي شِدقَيه شاء. فأما الأيمن والأعسر والأضبط فليس يُمكِنهم ذلك إلا بالاستكراه الشديد. وكذلك الأنفاس مقسومة المنخرَين، فحالًا يكون الاسترواح ودفع البخار من الجوف من الشِّق الأيمن، وحالًا يكون من الشِّق الأيسر. ولا يجتمعان على ذلك في وقت إلا أن يستكره ذلك مُستكرِه، أو يتكلَّفه مُتكلف؛ فأما إذا ترك أنفاسه على سجيَّتها لم يكُن إلا كما قالوا.

وقالوا: الدليل على أن من سقط جميع أسنانه أن عظم اللسان نافع له، قولُ كعب بن جعيل ليزيد بن معاوية حين أمره بهجاء الأنصار، فقال له: أرادِّي أنت إلى الكفر بعد الإيمان؟ لا أهجو قومًا نصروا رسول الله ﷺ وآوَوه، ولكني سأدلُّك على غلام في الحي كافر كأنَّ لسانه لسان ثور. يعني الأخطل. وجاء في الحديث: «إن الله تبارك وتعالى يُبغِض الرَّجل يتخلَّل بلسانه كما تتخلَّل الباقرة الخلا بلسانها.» قالوا: ويدلُّ على ذلك قول حسَّان بن ثابت حين قال له النبي ﷺ: ما بقي من لسانك؟ فأخرج لسانه حتى قرع بطرفه طرف أرنبته، ثم قال: والله إني لو وضعته على صخرٍ لفَلَقه، أو على شعر لحَلَقه، وما يَسرُّني به مِقوَلٌ من مَعَد. وأبو السمط[٧٧] مَرْوان بن أبي الجنوب بن مروان بن أبي حفصة، وأبوه وابنه، في نسقٍ واحد، يقرعون بأطراف ألسنتهم أطرافَ آنُفهم.

وتقول الهند: لولا أن الفيل مقلوب اللسان لكان أنطق من كل طائر يتهيَّأ في لسانه كثير من الحروف المقطَّعة المعروفة.

وقد ضرب الذين يزعمون أن ذَهاب جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف من ذهاب الشطر أو الثلثَين في ذلك مثلًا، فقالوا: الحَمَام المقصوص جَناحاه جميعًا أجدَرُ أن يطير من الذي يكون أحدهما وافرًا والآخر مقصوصًا. قالوا: وعلة ذلك التعديل والاستواء، وإذا لم يكن كذلك ارتفع أحد شِقَّيه وانخفض الآخر فلم يجدف ولم يَطِر. والقطا من الطير قد يتهيَّأ من أفواهها أن تقول: «قطا قطا.» وبذلك سُمِّيت. ويتهيَّأ من أفواه الكلاب العينات والفاءات والواوات، كنحو قولها: «وو، وو.» وكنحو قولها: «عف، عف.» قال الهيثم بن عدي: قيل لصبيٍّ: من أبوك؟ قال: «وو، وو.» لأن أباه كان يُسمَّى كلبًا.

ولكل لغة حروفٌ تدور في أكثر كلامها، كنحو استعمال الروم للسين، واستعمال الجرامقة للعين. قال الأصمعي: ليس للروم ضاد، ولا للفُرس ثاء، ولا للسريان دال.

ومن ألفاظ العرب ألفاظ تنافر، وإن كانت مجموعةً في بيت شعر لم يستطع المُنشِد إنشادها إلا ببعض الاستكراه؛ فمن ذلك قول الشاعر:

وقَبرُ حَربٍ بمكانٍ قَفرُ   وليس قُرْبَ قَبرِ حَربٍ قَبرُ

---

[٧٧] أبو السِّمط، في الأصل: أبو الصمت. وهو خطأ، وما أثبتناه هو الصواب.

ولَمَّا رأى من لا عِلم له أن أحدًا لا يستطيع أن يُنشِد هذين البيتين ثلاث مرَّات في نسقٍ واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج، وقيل لهم: إن ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن. صدَّقوا بذلك.

ومن ذلك قول ابن بشير في أحمد بن يوسف حين استبطأه:

هل مُعِينٌ على البُكا والعويلِ   أمْ مُعَزٍّ على المُصابِ الجَليلِ
ميِّتٌ مات وهو في ورَقِ العَيـ   ـشِ مُقِيمٌ به وظلٍّ ظليلِ
في عِدادِ الموتى وفي غامِرِ الدُّنـ   ـيا أبو جَعفرٍ أخي وخليلي
لم يمُتْ مِيتةَ الوفاة ولكنْ   مات من كلِّ صالحٍ وجميلِ
لا أُذِيلُ الآمالَ بَعدَك إنِّي   بَعدَها بالآمالِ حقُّ بخيلِ
كم لها موقفًا ببابِ صديقٍ   رجَعَت من نَداهُ بالتَّعطيلِ

ثم قال:

لم يَضِرْها والحمدُ للهِ شيءٌ   وانثنتْ نحوَ عزفِ نفْسٍ ذَهولِ

فتفقَّدِ النصف الأخير من هذا البيت؛ فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرَّأ من بعض.
وأنشدني أبو العاصي قال: أنشدني خَلفٌ الأحمر في هذا المعنى:

وبعضُ قريضِ القومِ أولادُ عَلَّةٍ   يُكِدُّ لسانَ الناطقِ المُتحفِّظِ

وقال أبو العاصي: أنشدني في ذلك أبو البيداء الرياحي:

وشِعرٌ كبَعرِ الكَبشِ فرَّقَ بيْنَه   لسانُ دَعيٍّ في القريضِ دَخيلِ

أما قول خلف «وبعض قريض القوم أولاد علة»، فإنه يقول: إذا كان الشعر مُستكرَهًا، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مُماثلًا لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العَلَّات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مَرْضيًّا مُوافقًا، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مئونة. وأجوَدُ الشعر ما رأيته مُتلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فيُعلَم بذلك أنه قد أُفرغَ إفراغًا جيدًا، وسُبِك سَبكًا واحدًا؛ فهو يجري على اللسان كما يجري على الدِّهان.

وأما قوله «كبعر الكبش»، فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع مُتفرقًا غير مؤتلِف ولا مُتجاور، وكذلك حروف الكلام وأجزاء الشعر من البيت تراها متَّفِقة لمسًا وليِّنة المعاطف سهلة، وتراها مُختلفةً مُتباينة، ومُتنافرة مُستكرَهة، تشقُّ على اللسان وتكدُّه، والأخرى تراها سهلةً ليِّنة، ورطبةً مُواتية، سَلِسة[٧٨] النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسْره كلمةٌ واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرفٌ واحد.

قال سُحيم بن حفص: قالت بنت الحُطيئة للحُطيئة: تركت قومًا كِرامًا ونزلت في بني كُليب بعر الكبش؟ فعابَتهم بتفرُّق بيوتهم. فقيل لهم: فأنشِدونا بعض ما لا تتنافر أجزاؤه، ولا تتباين ألفاظه. فقالوا: قال الثقفي:

من كانَ ذا عَضُدٍ يُدرِكْ ظُلامتَه　　إن الذليلَ الذي ليست له عَضُدُ
تَنْبو يداه إذا ما قلَّ ناصِرُه　　ويأنَفُ الضَّيمَ إنْ أثْرى له عَدَدُ

وأنشدوا:

رمَتْني وسِترُ اللهِ بيني وبينها　　عَشيَّةَ أرآمِ الكِناسِ رميمُ
رميمُ التي قالت لجاراتِ بيتِها　　ضَمِنتُ لكم ألا يزالَ يَهِيمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رمَتْني رمَيتُها　　ولكنَّ عهدي بالنِّضالِ قديمُ

وأنشدوا:

ولستُ بزميجةٍ في الفِرا　　شِ وجَّابةٍ يَحتمي أن يُجيبا
ولا ذي قلازمَ عندَ الحياضِ　　إذا ما الشَّريبُ أرابَ الشَّريبا

قال نَوفل بن سالم لرؤبة بن العجَّاج: يا أبا الجحَّاف، مُت متى شئت. قال: وكيف ذاك؟ قال: رأيت عُقبة بن رؤبة يُنشِد رجزًا أعجبني. قال: إنه يقول لو كان لقوله قِران. وقال الشاعر:

مَهاربةٌ مَناجبةٌ قِرانٌ　　مَنادبةٌ كأنَّهمُ الأُسودُ[٧٩]

---

[٧٨] كان في الأصل: متوانية سليسة. وليس هذا بشيء، فأصلحناها كما هي مُثبَتة هنا.

[٧٩] مهاربة: مُسارعون. قران: مُتماثلون.

وأنشد ابن الأعرابي:

وبات يَدرُسُ شِعرًا لا قِرانَ له   قد كان ثقَّفَه حَولًا فما زادا

وقال بشَّار:

فهذا بَديهٌ لا كتَحبيرِ قائلٍ   إذا ما أرادَ القولَ زوَّرَه شَهْرا

فهذا في افتراق الألفاظ، فأما افتراق الحروف فإن الجيم لا تُقارِن الظاء ولا القاف ولا الطاء ولا الغين بتقديم ولا تأخير، والزاي لا تُقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ولا الذال بتقديم ولا تأخير.

وهذا بابٌ كثير، وقد يُكتفى بذِكر القليل حتى يُستدل به على الغاية التي إليها يُجرى. وقد يتكلم المِغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية المعروفة، ويكون لفظه مُتخيَّرًا فاخرًا، ومعناه شريفًا كريمًا، ويعلم مع ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطيٌّ. وكذلك إذا تكلَّم الخراساني على هذه الصفة فإنك تعرف مع إعرابه وتخيُّر ألفاظه في مخرج كلامه أنه خراساني. وكذلك إن كان من كُتاب الأهواز. ومع هذا إنا نجد الحاكية من الناس يحكي ألفاظ سُكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يُغادر من ذلك شيئًا، وكذلك تكون حكايته للخراساني والأهوازي والزنجي والسندي والحبشي[٨٠] وغير ذلك، نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم. فأما إذا حكى كلام الفأفاء فكأنما قد جُمعت كل طُرفة في كل فأفاء في الأرض في لسانٍ واحد، كما أنك تجده يحكي الأعمى بصورٍ يُنشئها لوجهه وعينه وأعضائه، لا تكاد تجد من ألفِ أعمى واحدًا يجمع ذلك كله، فكأنه قد جمع جميع طُرَف[٨١] حركات العُميان في أعمى واحد.

ولقد كان أبو دبُّوبة الزنجي، مولى آل زياد، يقف بباب الكرخ بحضرة المُكارِين، فينهق، فلا يبقى حمارٌ مريض، ولا هرِمٌ حسير، ولا مُتعَبٌ بهير، إلا نهق. وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك ولا يتحرك منها مُتحرك حتى كان

---

[٨٠] والحبشي: كان في الأصل: الأجناس. وليس هذا مقامها، فمحوناها وأثبتنا مكانها الحبشي كما يقتضيه السياق.

[٨١] كان في الأصل كلمة طُرُق، ولم نرَ لها موقعًا هنا، والأليق بهذا المقام كلمة «طرف» كما أثبتناها.

أبو دبُّوبة يُحركه، وكأنه قد جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيقٍ واحد. وكذلك في نُباح الكلاب؛ ولذلك زعمت الأوائل أن الإنسان إنما قيل له العالَم الصغير سليل العالَم الكبير؛ لأنه يُصور بيده كل صورة، ويحكي بفمه كل حكاية، ولأنه يأكل النبات كما تأكل البهائم، ويأكل الحيوان كما تأكل السِّباع، وأن فيه من أخلاق جميع أجناس الحيوان أشكالًا. وإنما تهيَّأ وأمكن الحاكية بجميع مخارج الأمم لما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة والتمكين، وحين فضَّله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة، فبطُول استعمال التكلُّف ذلَّت لذلك جوارحه، ومتى ترك شمائله ولسانه على سجيَّتها كان مقصورًا بعادة المنشأ على الشكل الذي لم يزَل فيه.

وهذه القضية مقصورة على هذه الجملة من مخارج الألفاظ وصور الحركات والسكون، فأما حروف الكلام فإن حُكْمها إذا تمكَّنت في الألسنة خلاف هذا الحكم، ألا ترى أن السِّندي إذا جُلِب كبيرًا فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايًا ولو أقام في عُليا تميم، وسُفلى قيس، وبين عَجُز هوازن، خمسين عامًا؟ وكذلك النبطي القُح، خلاف المِغلاق، الذي نشأ في بلاد النبط؛ لأن النبطيَّ القُحَّ يجعل الزاي سينًا، فإذا أراد أن يقول: زَورَق، قال: سورق. ويجعل العين همزة، فإذا أراد أن يقول: مُشمعِل، قال: مُشمِئِل. والنخَّاس يمتحن لسان الجارية إذا ظنَّ أنها رومية وأهلها يزعمون أنها مولَّدة بأن تقول: ناعمة، وتقول: شمس، ثلاث مرَّات مُتواليات.

والذي يعتري اللسانَ ممَّا يمنع من البيانَ أمورٌ؛ منها اللُّثغة التي تعتري الصِّبيان إلى أن ينشئوا، وهو خلاف ما يعتري الشيخ الهرِم الماجَّ، المُسترخيَ الحنك، المُرتفع اللِّثة، وخلاف ما يعتري أصحابَ اللَّكَن من العجم ومن نشأ من العرب مع العجم.

فمن اللُّكْن ممن كان خطيبًا أو شاعرًا أو كاتبًا داهيًا: زياد بن سلمى أبو أمامة، وهو زيادٌ الأعجم. قال أبو عُبيدة: كان يُنشِد قوله:

فتًى زادَه السُّلطانُ في الودِّ رِفعةً إذا غيَّرَ السُّلطانُ كلَّ خليلِ

قال: كان يجعل السين شينًا، والطاء تاءً، فيقول:

فتًى زادَه الشُّلْتانُ في الودِّ رِفعةً

ومنهم سُحيم عبد بني الحسحاس، قال له عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، وأنشده قصيدته التي أولها:

عُمَيرةَ ودِّعْ إنْ تَجهَّزتَ غاديا كفى الشَّيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا

لو كان شِعرك كله مِثل هذا لأجَزتك.

(هكذا وقع في جميع نُسَخ الكتاب، والحكاية مروية عن عمر، رضي الله تعالى عنه، في غير هذا الموضع، كما وقعت داخل الكتاب: لو قدَّمت الإسلام على الشيب لأجزتك.)[٨٢] قال: ما سعرت، يريد ما شعرت. فجعل الشين المُعجَمة سينًا غير مُعجَمة.

ومنهم عُبيد الله بن زياد والي العراق، قال لهانئ بن قبيصة: أهَرُوريٌّ سائر اليوم؟ يريد: أحَرُوري.

ومنهم صُهيب بن سِنان النَّمَري صاحب رسول الله ﷺ، كان يقول: إنك لهائن، يريد: إنك لخائن. وصهيب بن سنان يرتضخ لُكْنَةً رومية، وعبيد الله بن زياد يرتضخ لُكْنَةً فارسية، وقد اجتمعا على جعل الحاء هاءً. وأزدا نقاذار لُكنتُه لكنةٌ نبطية، وكان مِثلهما في جعل الحاء هاءً. وبعضهم يروي أنه أملى على كاتب له فقال: اكتب: الهاصل ألفُ كُر. فكتبها الكاتب بالهاء كما لفظ بها، فأعاد عليه الكلام، فأعاد عليه الكاتب. فلما فطن لاجتماعهما على الجهل قال: أنت لا تُهسِن أن تكتب، وأنا لا أُهسِن أن أُملي، فاكتب: الجاصل ألف كُر. فكتبها بالجيم مُعجَمة.

ومنهم أبو مسلم صاحب الدعوة، كان جيِّد الألفاظ جيِّد المعاني، وكان إذا أراد أن يقول: قلت له، قال: كلت له. فشارَك في تحويل القاف كافًا عُبيد الله بن زياد. كذلك خبَّرنا أبو عُبيدة، وإنما أُتيَ عُبيد الله بن زياد في ذلك أنه نشأ في الأساورة عند شِيرَوَيه الأسواري زوج أمه مَرجانة. وقد كان في آل زياد غيرُ واحد يُسمى شيرويه. قال: وفي دار شيرويه عاد علي بن أبي طالب، كرَّم الله وجهه، زيادًا في علةٍ كانت به.

فهذا ما حضرَنا من لكنة البُلغاء والخطباء والرؤساء، فأما لكنة العامة ومن لم يكن له حظ في المنطق فمِثل قيل مولى زياد، فإنه مرةً قال لزياد: أهدوا إلينا همار وهش. يريد حمار وحش. قال زياد: وأي شيء تقول ويلك؟ قال: أهدوا إلينا أيرًا. يريد عيرًا.

---

[٨٢] هذه العبارة التي بين القوسَين يظهر أنها ليست من أصل الكتاب، ولعلها حاشية علَّقها بعض قدماء المطَّلعين عليه. وإذ قامت بنا هذه الشبهة وضعنا العبارة بين قوسين ونبَّهنا عليها.

فقال زياد: الأول أهوَن. وقالت أم ولد لجرير بن الخَطَفى لبعض ولدها: وقع الجِردان في عجانِ أمِّكم. فأبدلت الذال دالًا من الجِرذان، وضمَّت الجيم، وجعلت العجين عجانًا. قال بعض الشعراء في أم ولد له يذكُر لُكْنتها:

أكثَرُ ما أسمَعُ منها في السَّحَرْ تذكيرُها الأنثى وتأنيثُ الذَّكَرْ
والسَّوءَةُ السَّوآءُ في ذِكرِ القَمَرْ

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول: القمر، قالت: الكمر. وقال ابن عبَّاد: ركِبت عجوزٌ سِندية جملًا، فلما مشى تحتها مُتخلعًا اعتراها كهيئة حركة الجِماع، فقالت: هذا الذمل يذكِّرنا بالسر. تريد أنه يذكِّرها بالوطء. فجعلت الشين سينًا، والجيم ذالًا. وهذا كثير.

وبابٌ آخر من اللكنة، كما قيل للنبطي: لمَ ابتعتَ هذه الأتان؟ قال: أركبها وتلَد لي. فقد جاء بالمعنى بعينه ولم يُبدل الحروف بغيرها، ولا زاد فيها ولا نقص، ولكنه فتح المكسور حين قال: تلَد لي. ولم يقُل: تلِد لي. والصقلي يجعل الذال المُعجَمة دالًا في الحروف.

باب البيان

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله

قال بعض جهابذة الألفاظ ونُقَّاد المعاني: المعاني القائمة في صدور العِباد المُتصوَّرة في أذهانهم، والمُتخلِّجة في نفوسهم، والمُتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورةٌ خفيَّة، وبعيدةٌ وحشية، ومحجوبةٌ مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمُعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره. وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقرِّبها من الفهم، وتجلبها للعقل، وتجعل الخفيَّ منها ظاهرًا، والغائب شاهدًا، والبعيد قريبًا. وهي التي تخلِّص[1] المُلتبِس، وتحلُّ المُنعقِد، وتجعل المُهمَل مقيَّدًا، والمقيَّد مُطلَقًا، والمجهول معروفًا، والوحشيَّ مألوفًا، والغُفْل موسومًا، والموسوم معلومًا، وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقَّة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبيَن وأنوَر، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحثُّ عليه، وبذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخَرت العرب، وتفاضَلت أصناف الأعجام.

[1] كانت في الأصل «تلخص»، ولا معنى للتلخيص هنا، وإنما هي تخلص كما أثبتناها.

والبيان اسمٌ جامع لكل شيء كشفَ لك قناع المعنى، وهتك الحُجُب دون الضمير، حتى يُفضيَ السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنًا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلَغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

ثم اعلم، حفظك الله، أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ؛ لأن المعانيَ مبسوطة إلى غير غاية، ومُمتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورةٌ معدودة، ومحصَّلةٌ محدودة. وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسةُ أشياء لا تنقص ولا تزيد؛ أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقد، ثم الخط، ثم الحال وتُسمَّى نِصبة. والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات.

ولكل واحد من هذه الخمسة صورةٌ بائنة من صورة صاحبتها، وحليةٌ مُخالفة لحلية أختها؛ وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصِّها وعامِّها، وعن طبقاتها في السارِّ والضارِّ، وعما يكون منها لَغوًا بَهرجًا، وساقطًا مطَّرَحًا.

قال أبو عثمان: وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب، ولكنَّا أخَّرناه لبعض التدبير.

وقالوا: البيان بصر والعِي عمًى، كما أن العلم بصر، والجهل عمًى. والبيان من نتاج العلم، والعِي من نتاج الجهل. وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان تَرجمان العلم. وقال صاحب المنطق: حد الإنسان الحيُّ الناطق المُبِين. وقالوا: حياة المروءة الصدق، وحياة الروح العفاف، وحياة الحِلم العلم، وحياة العلم البيان. وقال يونس بن حبيب: ليس لعَييٍّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حكَّ بيافوخه عنان السماء. وقالوا: شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنُّه قطعة من علمه، واختياره قطعة من عقله. وقال ابن التوءم: الروح عماد البدن، والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم.

قد قلنا في الدلالة باللفظ، فأما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف. وقد يتهدَّد رافع السوط والسيف فيكون ذلك زاجرًا رادعًا، ويكون وعيدًا وتحذيرًا.

والإشارة واللفظ شريكان، ونِعْم العَون هي له، ونِعْم التَّرجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تُغْني عن الخط!

وبعد، فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحِلية موصوفة، على اختلاف في طبقاتها ودلالتها؟ وفي الإشارة بالطَّرْف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفقٌ كبير، ومعونةٌ حاضرة في أمورٍ يُسرُّها الناس من بعض، ويُخفونها من الجليس وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاص الخاص، ولجَهِلوا هذا الباب البتَّة. ولولا أن تفسير هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسَّرتها لكم. وقد قال الشاعر في دلالات الإشارة:

أشارَتْ بطَرْفِ العَينِ خِيفةَ أهلِها ... إشارةَ مذعورٍ ولم تَتكلَّمِ
فأيقَنتُ أنَّ الطَّرْفَ قد قال مَرحبًا ... وأهلًا وسهلًا بالحبيبِ المُتيَّمِ

وقال الآخَر:

وللقلبِ على القلبِ ... دليلٌ حين يَلقاهُ
وفي النَّاسِ من النَّاسِ ... مقاييسٌ وأشْباهُ
وفي العينِ غِنًى للمَرْ ... ءِ أنْ تَنطِقَ أفْواهُ

وقال الآخَر:

ومَعشرٍ صِيدٍ ذوي تَجِلَّةْ ... تَرى عليهم للنَّدى أدِلَّةْ

وقال الآخَر:

تَرى عينُها عَيْني فتَعرِفُ وحْيَها ... وتَعرِفُ عَيْني ما به الوحيُ يَرجِعُ

وقال الآخَر:

وعَينُ الفتى تُبْدي الذي في ضميرِه ... وتَعرِفُ بالنَّجوى الحديثَ المُغمَّسا

وقال الآخَر:

العَينُ تُبْدي الذي في نفْسِ صاحِبِها ... من المَحبَّةِ أو بُغضٍ إذا كانا
والعَينُ تَنطِقُ والأفواهُ صامتةٌ ... حتَّى تَرى من ضميرِ القلبِ تِبْيانا

هذا، ومَبلغ الإشارة أبعدُ من مَبلغ الصوت؛ فهذا أيضًا بابٌ تتقدم فيه الإشارة الصوت. والصوت هو آلة اللفظ، وهو الجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف. وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان، مع الذي يكون مع الإشارة من الدلِّ والشكل والتقتُّل والتثنِّي واستدعاء الشهوة، وغير ذلك من الأمور.

قد قلنا في الدلالة بالإشارة، فأما الخط، فممَّا ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه من فضيلة الخط والإنعام بمنافع الكتاب قولُه لنبيِّه ﷺ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وأقسم به في كتابه المنزَّل على نبيِّه المُرسَل ﷺ حيث قال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾. ولذلك قالوا: القلم أحد اللِّسانَين. كما قالوا: قلَّة العيال أحد اليسارَين. وقالوا: القلم أبقى أثرًا، واللسان أكثر هذرًا. وقال عبد الرحمن بن كيسان: استعمال القلم أجدَرُ أن يحضَّ الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام. وقالوا: اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مُطلَق في الشاهد والغائب، وهو للغابر الكائن، مِثله للقائم الراهن. والكتاب يُقرأ بكل مكان، ويُدرَس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه، ولا يتجاوزه إلى غيره.

وأما القول في العَقد، وهو الحساب، دون اللفظ والخط، فالدليل على فضيلته، وعِظَم قدر الانتفاع به، قولُ الله عز وجل: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. وقال جل وتقدَّس: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾. وقال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. وقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾. والحساب يشتمل على معانٍ كثيرة ومنافع جليلة. ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لَمَا فهموا عن الله عز وجل ذِكره معنى الحساب في الآخرة.

وفي عدم اللفظ، وفساد الخط، والجهل بالعقد، فسادُ جُل النِّعم، وفقدان جمهور المنافع، واختلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قوامًا، ومصلحةً ونظامًا.

وأما النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمُشيرة بغير اليد. وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونامٍ، ومُقيم وظاعن، وزائد وناقص؛ فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق؛ فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء مُعرِبة من جهة البرهان؛ ولذلك قال الأول: سَلِ الأرض فقُل: من شقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تُجِبك حوارًا، أجابتك اعتبارًا. وقال بعض الخطباء: أشهد أن السموات والأرض آياتٌ دالَّات، وشواهد قائمات، كلٌّ يؤدي عنك الحجة، ويُعرِب عنك بالربوبية، موسومة بآثار قدرتك، ومعالم تدبيرك التي تجلَّيت بها لخلقك، فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما آنَسها من وحشة الفكر، ورجم الظنون، فهي على اعترافها لك، وذلِّها إليك، شاهدةٌ بأنك لا تُحيط بك الصفات، ولا تحدُّك الأوهام، وأن حظ المُفكر فيك الاعتراف لك. وقال خطيب من الخُطباء حين قام على سرير الإسكندر وهو ميت: الإسكندر كان أمسِ أنطقَ منه اليوم، وهو اليوم أوعَظُ منه أمس. ومتى دل الشيء على معنًى فقد أخبر عنه وإن كان صامتًا، وأشار إليه وإن كان ساكتًا.

وهذا القول شائع في جميع اللغات، ومتَّفَق عليه مع إفراط الاختلافات.

وأنشدني أبو الرُّدَيني العُكْلي في تنسُّم الذئب الريح واستنشاقه واسترواحه:

يَستخبرُ الرِّيحَ إذا لم يَسمَعِ بِمثلِ مِقراعِ الصَّفا المُوقَّعِ

المقراع: الفأس التي يُكسَر بها الصخر. والموقع: المحدَّد. يُقال: وقَّعت الحديدة إذا حددتها. وقال عنترة بن شدَّاد العَبسي، وجعل نعيب الغُراب خبرًا للزاجر:

حَرِقُ الجَناحِ كأنَّ لَحيَي رأسِه جَلَمانِ بالأخبارِ هشٌّ مُولَعُ

الحرق: الأسود. شبَّه لحيَيه بالجلمين؛ لأن الغراب يخبِّر بالفُرقة والغُربة، ويقطع كما يقطع الجلمان. وقال الراعي:

إنَّ السَّماءَ وإنَّ الرِّيحَ شاهدةٌ والأرضُ تَشهدُ والأيامُ والبَلَدُ
لقد جزَيتُ بني بدرٍ ببَغيِهمِ يومَ الهباءةِ يومًا ما له قَوَدُ

وقال نُصَيب في هذا المعنى، يمدح سليمان بن عبد الملك:

أقولُ لرَكبٍ صادِرين لقيتُهم ... قِفا ذاتَ أوشالٍ ومَولاك قارِبُ
قِفوا خبِّرونا عن سُليمانَ إنَّني ... لِمَعروفِه من آلِ ودَّانَ طالِبُ
فعاجُوا فأثنَوا بالذي أنت أهلُه ... ولو سكَتوا أثنتْ عليكَ الحقائبُ

وهذا كثير جدًّا.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: قيمة كل إنسان ما يُحسِن.

فلو لم نَقِف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها كافيةً شافية، ومُجْزِية مُغْنية، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية، وغير مقصِّرة عن الغاية.

وأحسَنُ الكلام ما كان قليله يُغْنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشَّاه من نور الحكمة على حسب نيَّة صاحبه وتقوى قائله. فإذا كان المعنى شريفًا، واللفظ بليغًا، وكان صحيح الطبع، بعيدًا من الاستكراه، ومنزَّهًا عن الاختلال، مصونًا عن التكلُّف، صنع في القلوب صنيع الغَيث في التُّربة الكريمة، ومتى فصَلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفَذت من قائلها على هذه الصفة، أصْحَبها الله من التوفيق، ومنحها من التأييد، ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها عقول الجهلة.

وقد قال عامر بن عبد القيس: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تُجاوز الآذان.

قال الحسن، رضي الله تعالى عنه — وسمع مُتكلمًا يعظ فلم تقع موعظته بموضع من قلبه ولم يرقَّ عندها — يا هذا، إن بقلبك لشرًّا أو بقلبي. وقال علي بن الحسين بن علي، رضي الله عنهم: لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة، وجملة الحال في صواب التبيين، لأعربوا عن كل ما تخلَّج في صدورهم، ولوجدوا من برد اليقين ما يُغْنيهم عن المُنازَعة إلى كل حال سوى حالهم، وعلى أن دَرَك ذلك كان يعدمهم في الأيام القليلة العدة، والفكرة القصيرة المدة، ولكنهم من بين مغمور بالجهل، ومفتون بالعُجب، ومعدول بالهوى عن باب التثبُّت، ومصروف بسوء العادة عن تفضيل التعلم. وقد جمع محمد بن علي بن الحسين صلاح شأن الدنيا بحذافيرها في كلمتَين، فقال: صلاح شأن جميع

التعايش والتعاشر ملءُ مِكيال؛ ثُلُثاه فطنة، وثُلُثه تغافل. فلم يجعل لغير الفطنة نصيبًا من الخير، ولا حظًّا في الصلاح؛ لأن الإنسان لا يتغافل إلا عن شيء قد فطن له وعرفه.

وذكر هذه الثلاثةَ الأخبار إبراهيمُ بن داحة عن محمد بن عمير، وذكرها صالح بن علي الأفقم عن محمد بن عمير، وهؤلاء جميعًا من مشايخ الشيع، وكان ابن عمير أغلاهم.

وأخبرني إبراهيم بن السندي، عن علي بن صالح الحاجب، عن العباس بن محمد، قال: قيل لعبد الله بن عبَّاس: أنَّى لك هذا العلم؟ قال: قلبٌ عَقول، ولسانٌ سَئول. وقد رووا هذا الكلام عن دَغفل بن حنظلة[٢] العلَّامة، وعبد الله أولى به منه. والدليل على ذلك قول الحسن: إن أول من عُرف بالبصرة ابن عبَّاس، صَعِد المِنبر فقرأ سورة البقرة ففسَّرها حرفًا حرفًا، وكان مِثَجًّا يَسيل غَربًا.

المثج: السائل الكثير، وهو من الثجاج. والغرب ها هنا: الدوام.

أخبرنا هشام بن حسَّان وغيره، قال: قيل للحسن: يا أبا سعيد، إن قومًا زعموا أنك تذمُّ ابن عباس. قالوا: فبكى حتى اخضَّلت لِحيتُه، ثم قال: إن ابن عبَّاس كان من الإسلام بمكان، إن ابن عبَّاس كان من القرآن بمكان، وكان والله له لسانٌ سَئول، وقلبٌ عَقول، وكان والله مِثَجًّا يَسيل غَربًا.

قالوا: وقال علي بن عبد الله بن عبَّاس: من لم يجد مسَّ نقص الجهل في عقله، وذُلَّ المعصية في قلبه، ولم يستبِنْ موضع الخَلَّة في لسانه، عند كَلال حده عن حدِّ خصمه، فليس ممَّن يفزع عن ريبة، ولا يرغب عن حال مَعجزة، ولا يَكترث لفصل ما بين حُجة وشُبهة. قالوا: وذكر محمد بن علي بن عبد الله بن عبَّاس بلاغة بعض أهله فقال: إني لأكرَه أن يكون مقدار لسانه فاضلًا على مقدار علمه، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلًا على مقدار عقله.

وهذا كلامٌ شريفٌ نافع، فاحفظوا لفظه وتدبَّروا معناه.

ثم اعلموا أن المعنى الحقير الفاسد، والدنيء الساقط، يُعشش في القلب، ثم يَبيض ثم يُفرخ. فإذا ضرب بجِرانه، ومكَّن لعُروقه، استفحل الفساد وبزَل، وتمكَّن الجهل

---

[٢] دغفل بن حنظلة السدوسي الشيباني. كان مَضرب المثل في معرفته أنساب العرب، فكانوا يقولون: «أنسَبُ من دغفل.» أدرك النبيَّ ﷺ ولم يروِ عنه شيئًا، وله مع أبي بكر محاورة في النسب تزيد عليه فيها. وقد وصف العلم فقال: إن للعلم آفة وإضاعة، ونكدًا واستجاعة؛ فآفته النسيان، وإضاعته أن تحدِّث به من ليس بأهله، ونكده الكذب فيه، واستجاعته أن صاحبه منهوم لا يشبع. قتَله الأزارقة.

وفرخ؛ فعند ذلك يقوى داؤه، ويمتنع دواؤه. اللفظ الهجين الرديُّ، والمُستكرَه الغبيُّ، أعلَقُ باللسان، وآلَف للسمع، وأشدُّ التحامًا بالقلب، من اللفظ النبيه الشريف، والمعنى الرفيع الكريم. ولو جالَست الجُهال والنَّوكى، والسُّخفاء والحَمقى، شهرًا فقط، لم تنقَ من أوضار كلامهم، وخبال معانيهم، بمجالسة أهل البيان والعقل دهرًا؛ لأن الفساد أسرع إلى الناس، وأشد التحامًا بالطبائع. والإنسان بالتعلُّم والتكلُّف، وبطول الاختلاف إلى العلماء، ومدارسة كُتُب الحكماء، يجود لفظه، ويحسُن أدبه. وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك التعلم، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخيُّر.

ومما يؤكِّد قول محمد بن علي بن عبد الله بن عبَّاس، قولُ بعض الحكماء حين قيل له: متى يكون الأدب شرًّا من عدمه؟ قال: إذا كَثُر الأدب، ونقَصت القريحة. وقد قال بعض الأولين: من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه، كان حتفه في أغلب خصال الخير عليه. وهذا كله قريبٌ بعضه من بعض.

وذكر المُغِيرة بن شُعبة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال: كان والله أفضل من أن يَخدع، وأعقل من أن يُخدَع. وقال محمد بن علي بن عبد الله بن عبَّاس: كفاك من علم الدين أن تعرف ما لا يسع جهله، وكفاك من علم الأدب أن ترويَ الشاهد والمثل. وكان عبد الرحمن بن إسحاق القاضي يروي عن جده إبراهيم بن سلمة، قال: سمعت أبا مسلم يقول: سمعت الإمام إبراهيم بن محمد يقول: يكفي من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع.

قال أبو عثمان: وأما أنا فأستحسن هذا القول جدًّا.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلَّى الله على سيدنا محمد خاصةً، وعلى الأنبياء عامةً.

أخبرني أبو الزبير كاتب محمد بن حسَّان، وحدَّثني محمد بن أبان — ولا أدري كاتب من كان — قالا: قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البَداهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال بعض أهل الهند: جِماع البلاغة البصر بالحُجة، والمعرفة بمواضع الفرصة. ثم قال: ومن البصر بالحجة، والمعرفة

بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها؛ إذ كان الإفصاح أوعر طريقةً، وربما كان الإضراب عنها صفحًا أبلغ في الدرك، وأحق بالنظر.

وقال مرةً: جِماع البلاغة التماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة الحرف بما التَبس من المعاني أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذَّر. ثم قال: وزَينُ ذلك كله وبهاؤه، وحلاوته وسناؤه، أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدَّلة، واللهجة نقيَّة؛ فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت، فقد تم كل التمام، وكمل كل الكمال.

وخالَف عليه سهل بن هارون — وكان سهلٌ في نفسه عتيق الوجه، حسن الإشارة، بعيدًا من الفدامة،[٣] مُعتدل القامة، مقبول الصورة، يُقضى له بالحكمة قبل الخبرة، وبرقَّة الذهن قبل المخاطبة، وبدقَّة المذهب قبل الامتحان، وبالنُّبل قبل التكشُّف؛ فلم يمنعه ذلك أن يقول ما هو الحق عنده وإن أدخل ذلك على حاله النقص — قال سهل بن هارون: لو أن رَجلَين خطبا أو تحدَّثا، أو احتجَّا أو وصفا، وكان أحدهما جميلًا جليلًا بهيًّا، ذا لباس[٤] نبيلًا، وذا حسب شريفًا، وكان الآخر قليلًا قميئًا، وباذَّ الهيئة دميمًا، وخامل الذِّكر مجهولًا، ثم كان كلامهما في مقدارٍ واحد من البلاغة، وفي وزنٍ واحد من الصواب، لتصدَّع عنهما الجمع وعامَّتُهم تَقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللباذِّ الهيئة على ذي الهيئة، ولشغلهم التعجُّب منه عن مساواة صاحبه، ولصار التعجُّب منه سببًا للعُجب به، ولكان الإكثار في شأنه علةً للإكثار في مدحه؛ لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيئس، ومن حسده أبعد. فإذا هجموا منه على ما لم يحتسبوه، وظهر منه خلاف ما قدَّروه، تضاعَف حُسْن كلامه في صدورهم، وكَبُر في عيونهم؛ لأن الشيء من غير مَعدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أظرف، وكلما كان أظرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع، وإنما ذلك كنوادر كلام الصِّبيان ومُلَح المجانين؛ فإن ضِحك السامعين من ذلك أشد، وتعجُّبهم به أكثر، والناس موكَّلون بتعظيم الغريب، واستطراف البديع، وليس لهم في الموجود الراهن المُقيم، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى، مثل الذي معهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذ،

---

[٣] الفدامة: العِي والغباء.

[٤] في نسخة: ولبَّاسًا نبيلًا. ولم نرَ لها معنًى، فأبدلناها بما أثبتناه هنا ليستقيم اللفظ ويدنوَ المعنى من الصواب.

وكل ما كان في ملك غيرهم. وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم، وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعمُّ نفعًا، وأكثر في وجوه العلم تصرُّفًا، وأخفُّ مؤنة، وأكثر فائدة.

ولذلك قدَّم بعض الناس الخارجيَّ على العريق، والطارف على التليد. وكانوا يقولون: إذا كان الخليفة بليغًا والسيِّد خطيبًا، فإنك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرَين؛ إما رجلًا يُعطي كلامهما من التعظيم والتفضيل، والإكبار والتبجيل، على قدر حالهما في نفسه، وموقعهما من قلبه؛ وإما رجلًا تَعرِض له التهمة لنفسه فيهما، والخوف من أن يُعطيَ تعظيمه لهما يُوهمه من صواب قولهما، وبلاغة كلامهما، ما ليس عندهما، حتى يُفرِط في الإشفاق، ويُسرِف في التهمة؛ فالأول يزيد في حقه للذي له في نفسه، والآخر يَنقُصه من حقه لتهمته لنفسه، ولإشفاقه من أن يكون مخدوعًا في أمره. فإذا كان الحب يُعمي عن المساوئ، فالبغض يُعمي عن الحقائق والمحاسن. وليس يعرف حقائقَ مقادير المعاني ومحصول حدود لطائف الأمور إلا عالمٌ حكيم، أو مَعتدلُ الأخلاط[٥] عليم، وإلا القويُّ المُنَّة، الوثيق العُقدة، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكثر.

وكان سهل بن هارون شديد الإطناب في وصف المأمون في البلاغة والجهارة، وبالحلاوة والفخامة، وجودة اللهجة والطلاوة.

وإذا صِرنا إلى ذكر ما يحضُرنا من تسمية خُطباء بني هاشم، وبُلغاء رجال القبائل، قلنا في وصفهما على حسب حالهما، والفرق الذي بينهما، ولأننا عسى أن نذكُر جملة أسماء خطباء الجاهليين والإسلاميين، والبدويين والحضريين، وبعض ما يحضُرنا من صفاتهم وأقدارهم ومقاماتهم، وبالله التوفيق.

ثم رجع بنا القول إلى ذكر الإشارة. وروى أبو شَمِر عن مُعمَّر أبي الأشعث خلاف القول الأول في الإشارة والحركة عند الخطبة، وعند منازعة الرجال ومناقلة الأكْفاء.

وكان أبو شمر إذا نازَع لم يُحرك يدَيه ولا مَنكبَيه، ولم يقلب عينَيه، ولم يُحرك رأسه، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع[٦] صخرة، وكان يقضي على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك، وبالعجز عن بلوغ إرادته، وكان يقول: ليس من المنطق أن تستعين

---

[٥] معتدل الأخلاط: معتدل المزاج.

[٦] الصدع: الشق.

عليه بغيره. حتى كلَّمه إبراهيم بن سيَّار النظَّام[٧] عند أيوب بن جعفر، فاضطرَّه بالحُجة، وبالزيادة في المسألة، حتى حرَّك يدَيه، وحلَّ حَبْوته، وحبا إليه حتى أخذ بيدَيه؛ ففي ذلك اليوم انتقل أيوب من قول أبي شمر إلى قول إبراهيم.

وكان الذي غرَّ أبا شمر وموَّه له هذا الرأيَ أن أصحابه كانوا يستمعون منه، ويُسلِّمون له، ويميلون إليه، ويَقبلون كل ما يُورِده عليهم ويُثبِته عندهم؛ فلما طال عليه توقيرهم له، وترك مجاذبتهم إياه، وخفَّت مؤنة الكلام عليه، نَسِي حال منازعة الأكْفاء، ومجاذبة الخصوم. وكان شيخًا وقورًا، وزِمِّيتًا رَكينًا، وكان ذا تصرُّف في العلم، ومذكورًا بالفهم والحِلم.

---

[٧] هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّار النظَّام، أحد شيوخ المعتزلة، وأستاذ الجاحظ في علم الكلام وفي انتحال الاعتزال. وكان من أئمة البلاغة وأعيان البيان. قرأ كثيرًا من كُتُب الأوائل، واستوعب ما تعلَّق منها بالطبيعيات والإلهيات، واستنبط منها مسائل مزجها بكلام المعتزلة، وتفرَّد بها عنهم، وصار رأسًا لـ «فِرقة النظامية» المنسوبة إليه. وكان جيِّد المنطق، حادَّ الذهن، سريع الخاطر، غوَّاصًا على المعاني، دقيق الاستنباط، ذكيَّ الفؤاد. وقد أدَّاه ذلك إلى ما ذهب إليه من الآراء والأفكار، ومن قوله إن الجوهر مؤلَّف من أعراضٍ اجتمعت. وليس بين قوله هذا، وبين قول علماء الطبيعة في عصرنا من أنه لا يوجد جوهرٌ فردٌ غير قابل للتجزئة، فرقٌ كبير. وكان من صِغره يتوقَّد ذكاءً، ويتدفَّق فصاحة، ويفيض بلاغة، دفعه أبوه وهو صغير إلى الخليل بن أحمد ليعلِّمه، فقال له الخليل يومًا ليمتحنه وفي يده قدح زجاج: يا بُنيَّ، صِف لي هذه الزجاجة. فقال: أبمدح أم بذم؟ فقال: بمدح. قال: نعم، تُريك القذى، وتقيك الأذى، ولا تستر ما ورى. قال: فذُمَّها. فقال: سريعٌ كسرُها، بطيءٌ جبرُها. قال: فصِفْ هذه النخلة. وأومأ إلى نخلة في داره. فقال: أبمدح أم بذم؟ قال: بمدح. فقال: حُلوٌ مُجتناها، باسقٌ مُنتهاها، ناضرٌ أعلاها. قال: فذُمَّها. فقال: صعبة المُرتقى، بعيدة المُجتنى، محفوفة بالأذى. فقال الخليل: يا بُنيَّ، نحن إلى التعلُّم منك أحوج. ثم اشتغل على أبي الهُذيل العلَّاف بمذهب الكلام إلى أن برع وظهر في أيام المعتصم، وتبِعه خلقٌ كثير. وناظَر شيخه أبا الهذيل وظهر عليه مرارًا. ووصف يومًا عبد الوهاب الثقفي فقال: هو أحلى من أمِنَ بعد خوف، وبرئ بعد سقم، وخَصِب بعد جدب، وغَنِي بعد فقر، ومن طاعة المحبوب، وفرَج المكروب، ومن الوصل الدائم، مع الشباب الناعم. وكان كثير التطيُّر، وله فيه أحداث. وله كلامٌ رشيق، وشعرٌ رقيق. فمن كلامه: العلم شيء لا يُعطيك بعضه حتى تُعطيَه كُلَّك؛ فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه لك البعض على خطر. وقال: مما يدلُّ على لؤم الذهب والفضة صيرورتهما عند اللئام؛ فالشيء يصير إلى شبهه، والجنسية علة الضم. وقال: إذا كان في جيرانك جنازة وليس في بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة؛ فإن المصيبة عندك أكثر منها عند القوم، وبيتك أولى بالمأتم. وُلِد بالبصرة سنة ١٨٥هـ/٨٠١م، وتُوفي سنة ٢٢١هـ/٨٣٥م.

قال معمر أبو الأشعث: قلت لبَهْلة الهندي — أيام اجتلب يحيى بن خالد أطبَّاء الهند، مثل: «مَنكة» و«بازَيكر» و«قِلبِرَقل» و«سِندباذ» وفلان وفلان — ما البلاغة عند أهل الهند؟ قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفةٌ مكتوبة لا أُحسِن ترجمتها لك، ولم أُعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها، وتلخيص لطائف معانيها. قال أبو الأشعث: فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة، فإذا فيها:

«أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة؛ وذلك أن يكون الخطيب رابِطَ الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، مُتخير اللفظ، لا يُكلم سيِّد الأمَّة بكلام الأَمة، ولا الملوك بكلام السُّوقة، ويكون في قُواه فضل للتصرُّف في كل طبقة، ولا يُدقق المعاني كل التدقيق، ولا يُنقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يُصفيها كل التصفية، ولا يُهذبها غاية التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يُصادف حكيمًا، أو فيلسوفًا عليمًا، ومن قد تعوَّد حذف فضول الكلام، وإسقاط مشتركات الألفاظ، قد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة، لا على جهة الاعتراض والتصفح، وعلى جهة الاستطراف والتظرُّف.»

وقال من علم: حق المعنى أن يكون الاسم له طبقًا، وتلك الحال له وفقًا، ويكون الاسم له لا فاضلًا ولا مفضولًا، ولا مُقصرًا، ولا مُشتركًا ولا مُضمنًا، ويكون مع ذلك ذاكرًا لما عقد عليه أول كلامه، ويكون تصفُّحه لمصادره في وزن تصفُّحه لموارده، ويكون لفظه مُؤنقًا، ولهَول تلك المقامات مُعاودًا. ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار مَنازلهم، وأن تُواتيَه آلته، وتتصرَّف معه أداته، ويكون في التهمة لنفسه مُعتدلًا، وفي حُسن الظن بها مُقتصدًا؛ فإنه إن تجاوَز مقدار الحق في التهمة لنفسه ظلمها، فأودعها ذلة المظلومين، وإن تجاوَز الحق في مقدار حسن الظن بها أمنها، فأودعها تهاوُن الآمنين، ولكل ذلك مقدار من الشغل، ولكل شغل مقدارٌ من الوهن، ولكل وهن مقدارٌ من الجهل.

وقال إبراهيم بن هانئ — وكان ماجنًا خليعًا، كثير العبث مُتمردًا — ولولا أن كلامه هذا الذي أراد به الهزل يدخل في باب الجد، لَمَا جعلته صلة الكلام الماضي، وليس في الأرض لفظٌ يسقط البتة، ولا معنًى يبور حتى لا يصلح لمكان من الأماكن، قال إبراهيم بن هانئ: من تمام آلة القَصص أن يكون القاصُّ أعمى، ويكون شيخًا بعيد مدى الصوت. ومن تمام آلة الزَّمر أن تكون الزامرة سوداء، ومن تمام آلة المغنِّي أن يكون

فاره البِرذَون، برَّاق الثياب، عظيم الكِبْر، سيِّئ الخُلق. ومن تمام آلة الخمَّار أن يكون ذميًّا، ويكون اسمه أذين، أو مازيار، أو أزدا نقاذار، أو ميشا، أو شَلُوما، ويكون أرقط الثياب، مختوم العنق. ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيًّا، ويكون الداعي إلى الله صوفيًّا. ومن تمام آلة السؤدد أن يكون السيِّد ثقيل السمع، عظيم الرأس.

ولذلك قال ابن سِنان الجديدي لراشد بن سَلمة الهُذلي: ما أنت بعظيم الرأس ولا ثقيل السمع فتكون سيِّدًا، ولا بأرسح فتكون فارسًا. وقال شبيب بن شيبة الخطيب لبعض فِتيان بني منقر: والله ما مطلتَ مَطْل الفُرسان، ولا فتقتَ فَتْق السادة.

قال الشاعر:

تُقلِّبُ رأسًا لم يَكُنْ رأسَ سيِّدٍ ... وكفًّا ككفِّ الضَّبِّ أو هي أحقَرُ

فعاب صِغر رأسه وصِغر كفه، كما عاب الشاعر كف عبد الله بن مطيع العدوي حين وجدها غليظةً جافية، فقال:

دعا ابنُ مُطيعٍ للبِياعِ فجِئتُه ... إلى بَيعةٍ قلبي لها غيرُ آلِفِ
فناوَلَني خَشْناءَ لمَّا لمستُها ... بكفِّيَ ليستْ من أكُفِّ الخلائفِ

وهذا بابٌ يقع في «كتاب الجوارح» مع ذِكر البُرْص والعُرْج والعُسْر والأُدْر والفُلْج والحُدْب والقُرْع، وغير ذلك من عِلل الجوارح، وهو وارد عليكم بعد هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وقال إبراهيم بن هانئ: ومن تمام آلة الشيعي أن يكون وافِرَ الجُمَّة، صاحب بازَيْكَند. ومن تمام آلة الحارس أن يكون زِمِّيتًا قَطوبًا، أبيض اللحية، أقْنى أجْنى، وصاحب تكلُّم بالفارسية.

وأخبرني إبراهيم بن السندي قال: دخل العُماني الراجز على الرشيد ليُنشِده شعرًا، وعليه قَلَنسُوةٌ طويلة، وخُفٌّ ساذَج، فقال: إياك أن تُنشِدني إلا وعليك عمامةٌ عظيمة الكَور، وخُفَّان دُمالقان. قال إبراهيم، قال أبو نصر: فبكر عليه من الغد وقد تزيَّا بزِيِّ الأعراب، فأنشده ثم دنا منه فقبَّل يده، وقال: يا أمير المؤمنين، قد والله أنشدت مروان، ورأيت وجهه، وقبَّلت يده، وأخذت جائزته؛ وأنشدت يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد، ورأيت وجوههما، وقبَّلت أيديَهما، وأخذت جوائزهما؛ وأنشدت السفَّاح، ورأيت وجهه،

وقبَّلت يده، وأخذت جائزته؛ وأنشدت المنصور، ورأيت وجهه، وقبَّلت يده، وأخذت جائزته؛ وأنشدت المهديَّ ورأيت وجهه، وقبَّلت يده، وأخذت جائزته؛ وأنشدت الهاديَ، ورأيت وجهه، وقبَّلت يده، وأخذت جائزته؛ هذا إلى كثير من أشباه الخُلفاء، وكبار الأمراء، والسادة الرؤساء، ولا والله إن رأيت فيهم أبْهى مَنظرًا، ولا أحسن وجهًا، ولا أنعم كفًّا، ولا أندى راحةً، منك يا أمير المؤمنين. ووالله لو أُلقيَ في رُوعي أني أتحدَّث عنك ما قلت لك ما قلت. فأعظم له الجائزة على شعره، وأضعف له على كلامه، وأقبل عليه فبسطه، حتى تمنَّى والله جميعُ من حضر أنهم قاموا ذلك المقام.

ثم رجع بنا القول إلى الكلام الأول. قال ابن الأعرابي: قال معاوية بن أبي سفيان لصُحار بن عيَّاش العبدي: ما هذه البلاغة التي فيكم؟ قال: شيءٌ تَجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا. فقال له رجل من عُرْض القوم: يا أمير المؤمنين، [هم] بالبُسر والرُّطب، أبصر منهم بالخُطب. فقال له صُحار: أجل والله، إنا لنَعلَم إن الريح لتَنفخه، وإن البرد ليَعقده، وإن القمر ليَصبِغه، وإن الحر ليُنضِجه. فقال له معاوية: ما تعدُّون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال له صُحار: أن تُجيب فلا تُبطئ، وأن تقول فلا تُخطئ. فقال له معاوية: أوَ كذلك تقول يا صحار؟ قال صحار: أَقِلْني يا أمير المؤمنين، لا تُبطئ ولا تُخطئ.

وشأن عبد القيس عجيب؛ وذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرَّقوا فِرقتَين؛ ففِرقة وقعت بعُمان وشق عُمان، وفيهم خطباء العرب؛ وفرقة وقعت إلى البحرَين وشق البحرين، وهم من أشعر قبيلة في العرب، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سُرَّة البادية وفي مَعدِن الفصاحة، وهذا عَجب. ومن خطبائهم المشهورين صَعْصعة بن صُوحان، وزيد بن صُوحان، وشَيخان بن صُوحان، ومنهم صُحار بن عيَّاش. وصحار من شيعة عثمان، وبنو صوحان من شيعة علي. ومنهم مَصقلة بن رقبة، ورقبة بن مَصقلة، وكَرِب بن رقبة.

وإذا صِرنا إلى ذِكر الخطباء والنسَّابين، ذكرنا من كلام كل واحد منهم بقدر ما يحضُرنا، وبالله التوفيق.

قال لي ابن الأعرابي، قال لي المفضَّل بن محمد الضبِّي،[٨] قلت لأعرابي منا: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خَطل. قال ابن الأعرابي، فقلت للمفضَّل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد. قال ابن الأعرابي، قيل

[٨] انظر ترجمة المفضل محرَّرة بقلمنا في كتاب المفضَّليات الذي شرحناه ونُشِر حديثًا.

لعبد الله بن عمر: لو دعوتَ الله لنا بدعوات. فقال: اللهم ارحمنا وعافِنا وارزقنا. فقال رجل: لو زِدتنا يا أبا عبد الرحمن! فقال: نعوذ بالله من الإسهاب.

(١) باب ذِكر ناس من البُلغاء والخطباء والأبيناء والفقهاء والأمراء ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل

منهم زيد بن صوحان.

ومنهم أبو واثلة إياس بن معاوية المُزَني القاضي القائف، وصاحب الزَّكَن، والمعروف بجودة الفِراسة، ولكثرة كلامه قال له عبد الله بن شُبرُمة: أنا وأنت لا نتَّفق، أنت لا تشتهي أن تسكت، وأنا لا أشتهي أن أسمع. وأتى حلقةً من حلق قريش في مسجد دمشق فاستولى على المجلس، ورأوه أحمر دميمًا باذَّ الهيئة قشيفًا، فاستهانوا به، فلما عرفوه اعتذروا إليه وقالوا: الذنب مقسوم بيننا وبينك، أتيتنا في زيِّ مِسكين تُكلمنا بكلام الملوك. ورأيت ناسًا يستحسنون جواب إياس حين قيل له: ما فيك عيبٌ غير أنك مُعجَب بقولك. قال: أفأعجبكم قولي؟ قالوا: نعم. قال: فأنا أحقُّ بأن أعجب بما أقول وبما يكون مني منكم.

والناس، حفظك الله، لم يضعوا ذِكر العُجب في هذا الموضع. والمَعيب عند الناس ليس هو الذي يعرف ما يكون منه من الحسن، والمعرفة لا تدخل في باب التسمية بالعجب، والعجب مذموم، وقد جاء في الحديث: «إنَّ المؤمنَ من ساءته سيئتُه وسرَّته حسنتُه.» وقيل لعمر: فلان لا يعرف الشر. قال: ذلك أجدَرُ أن يقع فيه. وإنما العُجب إسراف الرجل في السرور بما يكون منه، والإفراط في استحسانه، حتى يظهر ذلك في لفظه وفي شمائله. وهو كالذي وصف به صعصعة بن صوحان المُنذرَ بن الجارود عند علي بن أبي طالب، كرَّم الله وجهه، فقال: أمَا والله إنه مع ذلك لنظَّار في عِطفَيه، تفَّال في شراكَيه، تُعجِبه حُمْرة بُردَيه.

قال أبو الحسن، قيل لإياس: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام. قال: فتسمعون صوابًا أم خطأً؟ قالوا: بل صوابًا. قال: فالزيادة من الخير خير. وليس كما قال؛ للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال والملال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه. وذكر الأصمعي أن عمر بن هُبَيرة لما أراده[٩] على القضاء قال: إني لا أصلح له. قال: وكيف

[٩] لما أراده: يعني لما أراد إياس بن معاوية.

ذلك؟ قال: لأني عَييٌّ، ولأني دميم، ولأني حديد. قال ابن هُبيرة: أما الحِدَّة فإن السوط يقوِّمك، وأما الدمامة فإني لا أريد أن أحاسن بك أحدًا، وأما العِيُّ فقد عبَّرت عما تريد. فإن كان إياس عند نفسه عَييًّا فذاك أجدر بأن يهجر الإكثار. وبعد هذا فما نعلم أحدًا رمى إياسًا بالعِي، وإنما عابوه بالإكثار. وذكر صالح بن سليمان، عن عُتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث، قال: ما رأيت عقول الناس إلا قريبًا بعضها من بعض، إلا ما كان من عقل الحجَّاج بن يوسف، وإياس بن معاوية؛ فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيرًا. وقال قائل لإياس: لمَ تَعجَل بالقضاء؟ فقال له إياس: كم لكفِّك من إصبع؟ قال: خمس. قال: عجلت. قال: لم يعجل من قال بعدما قتل الشيء علمًا ويقينًا. قال إياس: فهذا هو جوابي لك. وكان كثيرًا ما يُنشد قول النابغة الجَعدي:

أبى لي البلاءُ وأنِّي امرؤٌ إذا ما تَبيَّنتُ لم أرتَبِ

قال: ومدح سَلَمة بن عيَّاش سوَّارَ بن عبد الله بمِثل ما وصف به إياسٌ نفسه حين قال:

وأوقَفَ عندَ الأمرِ ما لم يَبِنْ له وأمْضَى إذا ما شكَّ ما كان ماضِيا

وكتب عمر بن عبد العزيز، رحمه الله تعالى، إلى عَدي بن أرطاة: إن قِبَلك رَجلَين من مُزَينة، فولِّ أحدهما قضاء البصرة. يعني بكر بن عبد الله المُزني وإياس بن معاوية. فقال بكر: والله ما أُحسِن القضاء، فإن كنت صادقًا فما يحلُّ لك أن تولِّيَني، وإن كنت كاذبًا إنها لأحراهما. وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا: شيخها الحسن، وفتاها بكر. وقال إياس بن معاوية: لست بخِبٍّ والخِبُّ لا يخدعني، ولا يخدع ابن سيرين، وهو يخدع أبي ويخدع الحسن. ودخل الشام وهو غلام، فتقدَّم خصمًا له — وكان الخصم شيخًا كبيرًا — إلى بعض قضاة عبد الملك بن مروان، فقال له القاضي: أتتقدَّم شيخًا كبيرًا؟ قال: الحق أكبر منه. قال: اسكت. قال: فمن ينطق بحُجتي؟ قال: لا أظنُّك تقول حقًّا حتى تقوم. قال: لا إله إلا الله. أحقًّا هذا أم باطلًا؟ فقام القاضي فدخل على عبد الملك من ساعته فخبَّره بالخبر، فقال عبد الملك: اقضِ حاجته الساعة وأخرِجْه من الشام، لا يُفسِد عليَّ الناس. فإذا كان من إياس وهو غلام يُخاف على جماعة أهل الشام، فما ظنُّك به وقد كبِرَت سِنُّه وعض ناجذه؟

وجملة القول في إياس أنه كان من مفاخر مضر، ومن مقدَّمي القضاة، وكان فقيه البدن، رقيق المسلك في الفِطن، وكان صادق الحَدس نقَّابًا، وعجيب الفِراسة مُلهَمًا، وكان عفيف الطعم، كريم المدخل والشِّيَم، وجيهًا عند الخُلفاء، مقدَّمًا عند الأكْفاء، وفي مُزينة خيرٌ كثير.

ثم رجعنا إلى القول الأول. ومنهم ربيعة الرأي، وكان لا يكاد يسكت. قالوا: وتكلَّم يومًا فأكثر وأُعجبَ بالذي كان منه، فالتَفَت إلى أعرابيٍّ كان عنده فقال: يا أعرابي، ما تعدُّون العيَّ فيكم؟ قال: ما كنت فيه منذ اليوم. وكان يقول: الساكت بين النائم والأخرس.

ومنهم عُبيد الله بن محمد بن حفص التيمي، ومحمد بن حفص هو ابن عائشة، ثم قيل لعُبيد الله ابن أبي عائشة، وكان كثير العلم والسماع، مُتصرفًا في الخبر والأثر، وكان من أجود قريش، وكان لا يكاد يسكت، وهو في ذلك كثير الفوائد، وكان أبوه محمد بن حفص عظيم الشأن كثير العلم، بعث إليه ميخاب خليفته في بعض الأمر، فأتاه في حلقته في المسجد، فقال له في بعض كلامه: أبو مَن أصلَحَك الله؟ فقال له: هلَّا عرَفت هذا قبل مجيئك؟ وإن كان لا بد لك من هذا فاعترض من شئت فاسأله. فقال له: إني أريد أن تُخلِيَني. قال: أفي حاجة لك أم في حاجة لي؟ قال: بل في حاجة لي. قال: فالْقَني في المنزل. قال: فإن الحاجة لك. قال: ما دون إخواني ستر.

ومنهم محمد بن مِسعَر العُقيلي، وكان كريمًا، كريم المجالسة، يذهب مذهب النُّسَّاك، وكان جوادًا. مر صديق له من بني هاشم بقصر له وبستانٍ نفيس، فبلغه أنه استحسنه، فوهبه له.

ومنهم أحمد بن المُعذَّل بن غَيلان، كان يذهب مذهب مالك، وكان ذا بيان وتبحُّر في المعاني وتصرُّف في الألفاظ.

وممن كان يُكثِر الكلام جدًّا الفضل بن سهل، ثم الحسن بن سهل في أيامه. وحدَّثني محمد بن الجهم ودؤاد بن أبي دؤاد قالا: جلس الحسن بن سهل في مُصلَّى الجماعة لنُعيم بن حازم، فأقبل نعيم حافيًا حاسرًا وهو يقول: ذنبي أعظم من السماء، ذنبي أعظم من الهواء، ذنبي أعظم من الماء. قالا، فقال الحسن بن سهل: على رِسْلك، تقدَّمت منك طاعة، وكان آخر أمرك إلى توبة، وليس للذنب بينهما مكان، وليس ذنبك في الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين في العفو.

ومن هؤلاء علي بن هشام، وكان لا يسكت، ولا أدري كيف كان كلامه.

قال: وحدَّثني مهدي بن ميمون، قال حدَّثنا غيلان بن جرير، قال كان مُطرف بن عبد الله يقول: لا تُطعِم طعامك من لا يشتهيه. يقول: لا تُقبِل بحديثك على من لا يُقبِل عليك بوجهه. وقال عبد الله بن مسعود: حدِّثِ الناس ما حدجوك بأسماعهم، ولحَظُوك بأبصارهم، فإذا رأيت منهم فترةً فأمسِكْ. قال: وجعل السمَّاك يومًا يتكلم، وجارية له حيث تسمع كلامه، فلما انصرف إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه، لولا أنك تُكثِر تَرْداده. فقال: أردِّده حتى يفهمه من لم يفهمه. قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه قد ملَّه من فهمه. قال عبَّاد بن عوَّام، عن شُعبة، عن قتادة، قال: مكتوب في التوراة: لا يُعاد الحديث مرَّتَين. وسفيان بن عُيينة، عن الزُّهري، قال: إعادة الحديث أشدُّ من نقل الصخر. وقال بعض الحكماء: من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤنة الاستماع منك.

وجملة القول في التَّرداد أنه ليس فيه حدٌّ ينتهي إليه، ولا يؤتى إلى وصفه، وإنما ذلك على قدر المُستمِعين له، ومن يحضره من العوام والخواص. وقد رأينا الله عز وجل ردَّد ذِكر قصة موسى وهود، وهارون وشعيب، وإبراهيم ولوط، وعاد وثمود، وكذلك ذِكر الجنة والنار وأمور كثيرة؛ لأنه خاطَب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم، وأكثرهم غبيٌّ غافل، أو مُعاندٌ مشغول الفكر ساهي القلب. وأما حديث القصص والرِّقَّة فإني لم أرَ أحدًا يعيب ذلك، وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعاني عيًّا إلا ما كان من النخَّار بن أوس العُذْري؛[١٠] فإنه كان إذا تكلَّم في الحَمَالات، وفي الصفح والاحتمال، وصلاح ذات البَين، وتخويف الفريقَين من التفاني والبوار، كان ربما ردَّد الكلام على طريق التهويل والتخويف، وربما حَمِي فنخر.

قال ثُمامة بن أشرس: كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهُّل، والجزالة والحلاوة، وإفهامًا يُغْنيه عن الإعادة، ولو كان في الأرض ناطقٌ يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة، كما استغنى عن الإعادة. وقال مرةً: ما رأيت أحدًا كان لا يتحبَّس، ولا يتلجلج، ولا يتنحنح، ولا يرتقب لفظًا قد استدعاه من بعد، ولا يلتمس التخلص إلى معنًى قد تعصَّى عليه طلبه، أشد اقتدارًا، ولا أقل تكلفًا، من جعفر بن يحيى. وقال ثمامة: قلت لجعفر بن يحيى: ما البيان؟ قال: أن يكون الاسم يُحيط

---

[١٠] النخار بن أوس بن الحارث بن هزيم القضاعي. كان من المقدَّمين في علم النَّسب، وقال عنه أبو عبيدة إنه أنسب العرب. وكان فصيحًا بليغًا مِنطيقًا. دخل على معاوية فازدراه، وكان عليه عباءة، فقال: إن العباءة لا تُكلمك.

بمعناك، ويُجلِّي عن مَغزاك، وتُخرجه من الشركة، ولا تستعين عليه بالفكرة. والذي لا بد منه أن يكون سليمًا من التكلُّف، بعيدًا من الصنعة، بريئًا من التعقُّد، غنيًّا عن التأويل.

وهذا هو تأويل قول الأصمعي: البليغ من طبَّق المَفصِل، وأغناك عن المفسِّر.

خبَّرني جعفر بن سعيد، رضيع أيوب بن جعفر وحاجبُه، قال: ذكرت لعمرو بن مَسعدة توقيعات جعفر بن يحيى، فقال: قد قرأت لأم جعفر توقيعاتٍ في حواشي الكتب وأسافلها، فوجدتها أجود اختصارًا وأجمع للمعاني. قال: ووصف أعرابي أعرابيًّا بالإيجاز والإصابة، فقال: كان والله يضع الهِناء مواضع النُّقب. يظنُّون أنه نقل قول دُرَيد بن الصِّمَّة في الخنساء بنت عمرو بن الشريد إلى ذلك الموضع، وكان دريد قال فيها:

ما إنْ رأيتُ ولا سَمِعتُ به ... في الناس طاليَ أينُقٍ جُرْبِ[11]
مُتبذِّلًا تَبْدو مَحاسنُه ... يَضعُ الهِناءَ مَواضعَ النُّقبِ

ويقولون في إصابة عين المعنى بالكلام المُوجَز: فلانٌ يفلُّ المَحزَّ، ويُصيب المَفصِل. وأخذوا ذلك من صفة الجزَّار الحاذق، فجعلوه مثلًا للمُصيب المُوجِز. وأنشدني أبو قطن الغنوي، وهو الذي يُقال له شهيد الكرم، وكان أبيَن من رأيته من أهل البدو والحضر:

فلو كنتُ مولى قيسِ عَيلانَ لم تَجِدْ ... عليَّ لمخلوقٍ من الناسِ دِرهما
ولكنَّني مولى قُضاعةَ كلِّها ... فلستُ أُبالي أنْ أَدِينَ وتَغرَما
أولئك قومٌ بارَكَ اللهُ فيهمُ ... على كلِّ حالٍ ما أعفَّ وأكرَما
جُفاةُ المَحَزِّ لا يُصيبون مَفصِلًا ... ولا يأكلون اللحمَ إلا تخذُّما[12]

يقول: هم ملوك وأشباه الملوك، ولهم كفاة؛ فهم لا يُحسنون إصابة المفصل. وأنشد أبو عُبيدة في مثل ذلك:

وصُلْعُ الرُّءوسِ عِظامُ البُطونِ ... جُفاةُ المَحَزِّ غِلاظُ القَصَرْ[13]

---

[11] كان في الأصل من كلمة «في الناس»، ولما كانت الرواية الصحيحة «كاليوم» فقد أثبتناها هنا إيثارًا للصحيح على الفاسد.

[12] التخذم: التكلف.

[13] القصر: الأعناق.

وكذلك:

لـيس بِـرَاعِـي إبِـلٍ ولا غَـنَـمْ ولا بجزَّارٍ على ظَهرِ وَضَمْ[١٤]

وقال الآخَر، وهو ابن الزِّبَعرى:

وفِتيانِ صِدقٍ حِسانِ الوُجوهِ لا يَـجِـدُونَ لـشَـيءٍ أَلَـمْ
مِنَ الِ المُغِيرةِ لا يَشهَدُو نَ عِندَ المَجازِرِ لحْمَ الوَضَمْ

وقال الراعي في المعنى الأول:

فطبَّقْن عُرْضَ القُفِّ حتَّى لَقِينَه كما طبَّقتْ في العَظمِ مُدْيَةُ جازِرِ

وأنشد الأصمعي:

وكفُّ فتًى لم يَعرِفِ السَّلخَ قبْلَها تَجُورُ يداهُ في الأديمِ وتَجرَحُ

---

[١٤] الوضم والوضمة: خشبة (أرمة) الجزَّار. وقد نُسِب هذا البيت في هامش النسخة التي طُبعت سنة ١٣٣٢ إلى الشريف الرَّضي، مع أن الجاحظ كانت وفاته في سنة ٢٥٥، وكانت ولادة الشريف في سنة ٣٥٩. وقد كتبنا في هذا وأمثاله نقدًا نشرناه بجريدتنا «الثمرات» بعددها الصادر في ٢٠ يونيو سنة ١٩١٦. هذا والصحيح أن هذا البيت من أرجوزة لرشيد بن رميض العنبري في شريح بن ضبيعة المعروف بالحطم. وكان شريح هذا غزا اليمن في جموع من ربيعة، فغَنِم وأسر وسبى، وكان من أسْراه فرعان بن مهدي بن معد يكرب عم الأشعث بن قيس الكندي، فمرَّ في عودته بمفازةٍ ضلَّ فيها الدليل، ومات فرعان في أيديهم عطشًا مع خلقٍ كثير، وجعل شريح يسوق بأصحابه سوقًا عنيفًا حتى أدركوا الماء، فقال فيه رشيد:

هذا أوانُ الشَّدِّ فاشْتدِّي زِيَمْ نامَ الحُداةُ وابنُ هندٍ لم يَنَمْ
باتَ يُقاسيها غلامٌ كالزَّلَمْ خَدلَّجُ السَّاقَين خفَّاقُ القَدَمْ
قد لفَّها الليلُ بسوَّاقٍ حُطَمْ ليس بِرَاعي إبلٍ ولا غَنَمْ
ولا بجزَّارٍ على ظَهرِ وَضَمْ

فلُقِّب من يومئذٍ بالحطم لقول رشيد فيه. أدرك الحطم الإسلام وأسلم، ثم ارتدَّ بعد وفاة النبي ﷺ.

وأنشد الأصمعي:

لا يُمسِكُ العُرفَ إلا رَيْثَ يُرسِلُه　　ولا يُلاطِمُ عندَ اللَّحمِ في السُّوقِ

وقد فسَّر ذلك لبيد بن ربيعة، وبيَّنه وضرب المثل به، حيث قال في الحكم بين عامر بن الطُّفيل وعَلقمة بن علاثة:

يا هَرِمَ ابنَ الأكْرَمِينَ مَنصِبا　　إنَّك قد أُوتيتَ حُكمًا مُعجِبا
فطبِّقِ المَفصِلَ واغنَمْ طيِّبا

يقول: احكم بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة بكلمة فصل، وبأمرٍ قاطع، فتفصل بها بين الحق والباطل، كما يفصل الجزَّار الحاذق مَفصل العظمَين. وقد قال الشاعر في هرم:

قَضى هرِمٌ يومَ المَريرةِ بيْنَهم　　قضاءَ امرِئٍ بالأوَّليَّةِ عالِمِ
قضى ثُمَّ ولَّى الحُكمَ مَن كان أهلَه　　وليس ذُنابى الرِّيشِ مِثلَ القَوادِمِ

ويُقال في الفَحل إذا لم يُحسِن الضِّراب: جملٌ عياياء، وجملٌ طباقاء. وقالت امرأة في الجاهلية تشكو زوجها: زوجي عياياء طباقاء، وكل داء له داء. حتى جعلوا ذلك مثلًا للعي الفدم الذي لا يتَّجه للحُجة. وقال الشاعر:

طباقاءُ لم يَشهَدْ خُصومًا ولم يَقُدْ　　رِكابًا إلى أكوارِها حينَ تَعكِفُ

وذكر زُهير بن أبي سُلمى الخَطَل فعابَه فقال:

وذي خَطَلٍ في القولِ يَحسبُ أنَّه　　مُصيبٌ فما يُلمِمْ به فهْو قائِلُه
عبَأتُ له حِلمًا وأكرمتُ غيْرَه　　وأعرضتُ عنه وهْو بادٍ مَقاتِلُه

وقال الشاعر:

شُمُسٌ إذا خَطِلَ الحديثُ أوانسٌ　　يَرقُبنَ كلَّ مُجذَّرٍ تِنْبالِ

الشُّمُس: مأخوذة من الخيل، وهي الخيل المَرِحة الضاربة بأذنها من النشاط. والمجذر: القصير. والتنبال: القصير الدنيء.

وقال أبو الأسود الدؤلي — واسم أبي الأسود ظالم بن عمرو — وكان من المقدَّمين في العلم:

وشاعِرِ سوءٍ يَهضِبُ القولَ ظالمًا كما اقتمَّ أعْشى مُظلِمُ الليلِ حاطِبُ

وأنشد:

أعـوذُ بـالـلـهِ الأعـزِّ الأكـرَمِ من قَوليَ الشيءَ الذي لم أعلَمِ
تَخبُّطَ الأعمى الضَّريرِ الأيهَمِ

وقال إبراهيم بن هَرمة في تطبيق المفصل، وتُلحَق هذه بمعاني أخواتها قبل:

وعميمةٍ قد سُقتُ فيها عائرًا غُفْلًا وفيـها عـائرٌ مـوسـومُ
طبَّقتُ مَفصِلَها بغيرِ حديدةٍ فرأى العدوُّ غنايَ حيثُ أقُومُ

وهذه الصفات التي ذكرها ثُمامة بن أشرَس، فوصف بها جعفر بن يحيى، كان ثمامة بن أشرس قد انتظمها لنفسه، واستولى عليها دون جميع أهل عصره، وما علمت أنه كان في زمانه قرويٌّ ولا بلدي كان بلَغ من حُسنِ الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف، ما كان بلغه. وكان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه. ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك. قال بعض الكُتاب: معاني ثُمامة الظاهرة في ألفاظه الواضحة في مخارج كلامه. كما وصف الخُزيمي شعر نفسه في مديح أبي دُلَف حيث يقول:

لـه كَلِـمٌ فيـك مـعـقـولـةٌ إزاءَ القلوبِ كرَكبٍ وُقوفِ

وأول هذه القصيدة:

أبا دُلَفٍ دلَفتْ حاجَتي إليكَ وما خِلتُها بالدَّلوفِ

ويظنُّون أن الخُزيمي إنما احتذى في هذا البيت على أيوب بن القِرِّيَّة حين قال له بعض السلاطين:[١٥] ما أعددت لهذا الموقف؟ قال: ثلاثة حروف، كأنهن رَكبٌ وُقوف، دنيا وآخرة ومعروف.

وحدَّثني صالح بن خاقان، قال: قال شبيب بن شيبة: الناس موكَّلون بتفضيل جودة الابتداء، وبمدح صاحبه، وأنا موكَّل بتفضيل جودة القطع، وبمدح صاحبه، وحظ جودة القافية وإن كانت كلمةً واحدة أرفع من حظ سائر البيت. ثم قال شبيب: فإن ابتُليت بمقام لا بد لك فيه من الإطالة، فقدِّمْ إحكام البلوغ في طلب السلامة من الخطل، قبل التقدم في إحكام البلوغ في شرف التجويد، وإياك أن تَعدِل بالسلامة شيئًا؛ فإن قليلًا كافيًا خيرٌ من كثيرٍ غير شافٍ.

ويُقال إنهم لم يرَوا قطُّ خطيبًا بلديًّا إلا وهو في أول تكلُّفه لتلك المقامات كان مُستثقَلًا مُستصلَفًا أيام رياضته كلها، إلى أن يتوقَّح وتستجيب له المعاني، ويتمكَّن من الألفاظ، إلا شبيب بن شيبة؛ فإنه كان ابتدأ بحلاوة ورشاقة، وسهولة وعذوبة؛ فلم يزَل يزداد منها حتى صار في كل موقف يَبلُغ بقليل الكلام ما لا يَبلُغه الخطباء المصاقع بكثيره. قالوا: ولما مات شبيب بن شيبة أتاهم صالحٌ المُرِّي، أو بعض من أتاهم للتعزية، فقال: رحمة الله على أديب الملوك، وجليس الفقراء، وأخي المساكين. وقال الراجز:

إذا غَدَتْ سَعدٌ على شَبِيبِها   على فَتاها وعلى خَطيبِها
من مَطلَعِ الشَّمسِ إلى مَغيبِها   عَجِبتُ من كَثرتِها وطِيبِها

حدَّثني صديق لي قال، قلت للعتَّابي: ما البلاغة؟ قال: كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبسة ولا استعانة فهو بليغ؛ فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة، ويفوق كل خطيب، فإظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق. قال، فقلت له: قد عرفت الإعادة والحبسة، فما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدَّث قال عند مقاطع كلامه: يا هناه، ويا هذا، ويا هيه، واسمع مني واستمع إليَّ، وافهم عني، أوَ لست تفهم؟ أوَ لست تعقل؟ فهذا كله وما أشبهه عِي وفساد.

[١٥] المراد ببعض السلاطين هنا هو الحجَّاج بن يوسف الثقفي، وله مع ابن القرية خطوب.

قال عبد الكريم بن روح الغِفاري، حدَّثني عمر الشَّمَّري، قال، قيل لعمرو بن عُبيد: ما البلاغة؟ قال: ما بلَغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصَّرك مواقعَ رُشْدك، وعواقبَ غيِّك. قال السائل: ليس هذا أريد. قال: من لم يُحسِن أن يستمع، ومن لم يُحسِن الاستماع لم يُحسِن القول. قال: ليس هذا أريد. قال: قال النبي ﷺ: إنا معشرَ الأنبياء بِكاءٌ.

أي قليلو الكلام، ومنه قيل: رجل بَكِئ. وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله.

قال السائل: ليس هذا أريد. قال: كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام، ما لا يخافون من فتنة السكوت ومن سقطات الصمت. قال السائل: ليس هذا أريد. قال عمرو: فكأنك إنما تريد تحبير اللفظ في حسن الإفهام؟ قال: نعم. قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المكلَّفين، وتخفيف المؤنة على المُستمِعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المُريدين، بالألفاظ المستحسَنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبةً في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم، بالموعظة الحسنة، على الكتاب والسُّنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستوجبت على الله جزيل الثواب.

قلت لعبد الكريم: من هذا الذي صبر له عمرو هذا الصبر؟ قال: قد سألت عن ذلك أبا حفص فقال: ومن كان يجترئ عليه هذه الجراءة إلا حفص بن سالم؟

قال عمر الشمَّري: كان عمرو بن عبيد لا يكاد يتكلم، فإذا تكلم لم يكَد يُطيل. وكان يقول: لا خير في المُتكلم إذا كان كلامه لمن شهده دون نفسه، وإذا طال الكلام عرضت للمُتكلم أسباب التكلُّف، ولا خير في شيء يأتيك به التكلف.

وقال بعضهم — وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوَّنَّاه — لا يكون الكلام يستحقُّ اسم البلاغة حتى يُسابق معناه لفظه، ولفظه معناه؛ فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك.

وكان موسى بن عِمران يقول: لم أرَ أنطق من أيوب بن جعفر، ويحيى بن خالد. وكان ثُمامة يقول: لم أرَ أنطق من جعفر بن يحيى بن خالد. وكان سهل بن هارون يقول: لم أرَ أنطق من المأمون أمير المؤمنين. وقال ثُمامة: سمعت جعفر بن يحيى يقول لكتابه: إن استطعتم أن يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا. وسمعت أبا العتاهية يقول: لو شئت أن يكون حديثي كله شعرًا موزونًا لكان. وقال إسحاق بن حسان بن فوهة: لم يُفسر البلاغةَ تفسيرَ ابن المُقفع أحدٌ قط، سئل: ما البلاغة؟ قال: البلاغة

اسمٌ جامع لمعانٍ تجري في وجوهٍ كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل؛ فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحيُ فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة؛ فأما الخطب بين السِّماطَين، وفي إصلاح ذات البَين، فالإكثار في غير خطل، والإطالة في غير إملال، وليكُنْ في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته.

كأنه يقول: فرِّق بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد، وخطبة الصلح وخطبة المواهب، حتى يكون لكل فن من ذلك صدرٌ يدلُّ على عَجُزه؛ فإنه لا خير في كلام لا يدل على معناك، ولا يُشير إلى مَغزاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نزعت.

قال، فقيل له: فإن ملَّ المُستمع الإطالة التي ذكرت أنها حق ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقَّه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتمَّ لما فاتك من رضا الحاسد والعدو؛ فإنه لا يُرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله، وقد كان يُقال: رضا الناس شيء لا يُنال.

قال: والسُّنة في خطبة النكاح أن يُطيل الخاطب ويقصِّر المُجيب، ألا ترى إلى قيس بن خارجة بن سنان لما ضرب بصفيحة سيفه مؤخِّرة راحلتَي الحاملَين في شأن حَمَالة داحس والغبراء، وقال: ما لي فيها أيها العشَمتان؟ قالا: بل ما عندك؟ قال: عندي قِرى كل نازِل، ورضا كل ساخط، وخطبة من لدن تَطلع الشمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتواصل، وأنهى فيها عن التقاطع.

قالوا: فخطب يومًا إلى الليل فما أعاد فيها كلمة ولا معنًى.

فقيل لأبي يعقوب: هلَّا اكتفى بالأمر بالتواصل عن النهي عن التقاطع؟ أوَ ليس الأمر بالصلة هو النهي عن القطيعة؟ قال: أوَ ما علمت أن الكناية والتعريض لا يعملان في العقول عمل الإفصاح والتكشُّف؟

قال: وسئل ابن المقفع عن قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما يتصعَّدني كلام كما تصعَّدني خطبة النكاح. قال: ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه، ونظر الحِداق من قرب في أجواف الحِداق، ولأنه إذا كان جالسًا معهم كانوا كأنهم نُظراء وأكْفاء،

وإذا علا المِنبر صاروا سُوقة ورعيَّة. وقد ذهب ذاهبون إلى أن تأويل قول عمر يرجع إلى أن الخطيب لا يجد بدًّا من تزكية الخاطب؛ فلعلَّه كره أن يمدحه بما ليس فيه، فيكون قد قال زورًا وغرَّ القوم من صاحبه. ولعَمْري إن هذا التأويل ليجوز إذا كان الخطيب موقوفًا على الخطابة، فأما عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وأشباهه من الأئمة الراشدين، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فلم يكونوا ليتكلَّفوا ذلك إلا فيمن يستحقُّ المدح.

وروى أبو مِخنف، عن الحارث الأعور، قال: والله لقد رأيت عليًّا وإنه ليخطب قاعدًا كقائم، ومُحاربًا كمُسالم. يريد بقوله «قاعدًا» خطبةَ النكاح.

وقال الهيثم بن عدي: لم تكن الخطباء تخطب قُعودًا إلا في خطبة النكاح.

وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع، آيٌ من القرآن؛ فإن ذلك مما يُورث الكلام البهاء والوقار، والرقة وحسن الموقع. قال الهيثم، قال عِمران بن حِطَّان: إن أول خطبة خطبتها عند زياد — أو قال عند ابن زياد — فأُعجبَ بها زياد، وشهدها عمي وأبي. ثم إني مررت ببعض المجالس، فسمعت رجلًا يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيءٌ من القرآن.

وأكثر الخطباء لا يتمثَّلون في خطبهم الطِّوال بشيء من الشعر، ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء. وسمعت مؤمَّل بن خاقان — وذكر في خطبته تميم بن مُر — فقال: إن تميمًا له الشرف القديم العَود، والعِزُّ الأقعَس، والعدد الهَيضَل، وهي في الجاهلية القُدَّام، والذروة والسَّنام. وقد قال الشاعر:

فقلتُ له وأنكَرَ بعضَ شأني ... أَلَمْ تَعرِفْ رِقابَ بَنِي تَميمِ؟

وكان المؤمَّل وأهله يُخالفون جمهور بني سعد في المقالة؛ فلشدة تحدُّبه على سعد وشفقته عليهم، كان يُناضل عند السلطان كل من سعى على أهل مقالتهم، وإن كان قوله خلاف قولهم حدبًا عليهم. وكان صالحٌ المُرِّي، القاصُّ العابد البليغ، كثيرًا ما يُنشد في قصصه وفي مواعظه هذا البيت:

فباتَ يُروِّي أصولَ الفَسيلِ ... فعاشَ الفَسيلُ وماتَ الرَّجُلْ

وأنشد الحسن في مجلسه وفي قصصه وفي مواعظه:

ليس من ماتَ فاستراحَ بمَيْتٍ ... إنَّما المَيتُ ميِّتُ الأحياءِ

وأنشد عبد الصمد بن الفضل بن عيسى بن أبان الرَّقاشي، الخطيب القاصُّ السجَّاع، إما في قصصه، وإما في خُطبة من خُطَبه، رحمه الله سبحانه وتعالى:

أرضٌ تَخيَّرَها لطِيبِ مَقيلِها كعبُ بنُ مامةَ وابنُ أُمِّ دُؤادِ
جَرَتِ الرِّياحُ على مَحلِّ دِيارِهم فكأنَّهم كانوا على مِيعادِ
فأرى النَّعيمَ وكلَّ ما يُلْهى به يومًا يَصيرُ إلى بِلًى ونَفادِ

وقال أبو الحسن: خطب عبد الله بن الحسن على منبر البصرة في العيد فأنشد في خطبته:

أينَ المُلوكُ التي عن حظِّها غفَلتْ حتَّى سقَاها بكأسِ الموتِ ساقِيها
تلك المَدائنُ بالآفاقِ خاليةٌ أمسَتْ خَلاءً وذاقَ الموتَ بانِيها

وكان مالك بن دينار يقول في قصصه: ما أشدَّ فِطامَ الكبير!
وهو كما قال القائل:

وتَرُوضُ عِرسَك بعدما هَرِمتْ ومِنَ العَناءِ رياضةُ الهَرِمِ

ومِثله أيضًا قول صالح بن عبد القُدُّوس:

والشَّيخُ لا يَتركُ أخلاقَهُ حتَّى يُوارى في ثَرَى رَمسِهِ
إذا ارْعَوى عادَ إلى جَهلِهِ كَذِي الضَّنى عادَ إلى نُكسِهِ

قال كلثوم بن عمرو العتَّابي:

وكنتَ امرأً لو شئتَ أن تَبلُغَ المَدى بلَغتَ بأدْنى نِعمةٍ تَستديمُها
ولكنْ فِطامُ النَّفْسِ أثقَلُ مَحمَلًا من الصَّخرةِ الصَّمَّاءِ حين تَرُومُها

وكانوا يمدحون الجَهير الصوت، ويذمُّون الضئيل الصوت؛ ولذلك تشادقوا في الكلام، ومدحوا سعة الفم، وذمُّوا صِغر الفم. حدَّثني محمد بن بشير الشاعر، قيل لأعرابي: ما الجمال؟ قال: طول القامة، وضخم الهامة، ورُحْب الشِّدق، وبُعْد الصوت. وسأل جعفر بن سليمان أبا المِخشِّ عن ابنه المِخَش، وكان جَزِع عليه جزعًا شديدًا، قال: صِف لي

المخش. فقال: كان أشدق خُرطُمانيًّا، سائلًا لُعابه، كأنما ينظر من قَلتَين، كأن تَرقُوَته بُوان أو خالفة، وكأن مَنكبه كِركِرةُ جمل ثَقال. فقأ الله عيني إن كنت رأيت قبله أو بعده مِثله. قال، وقلت لأعرابي: ما الجمال؟ قال: غُئورُ العَينَين، وإشراف الحاجِبَين، ورُحْب الشِّدقَين.

قال دغفل بن حنظلة النسَّابة، والخطيب العلَّامة، حين سأله معاوية عن قبائل قريش، فلما انتهى إلى بني مخزوم قال: مِعزى مَطيرة، عليها قُشَعريرة، إلا بني المُغيرة؛ فإن فيهم تشادُق الكلام، ومُصاهَرة الكرام.

وقال الشاعر في عمرو بن سعيد الأشدق:

تَشادَقَ حتَّى مالَ بالقولِ شِدقُه　　　وكلُّ خطيبٍ لا أبَا لكَ أشدَقُ

وأنشد أبو عُبيدة:

وصُلْعُ الرُّءوسِ عِظامُ البُطونِ　　　رِحابُ الشِّداقِ طِوالُ القَصَرْ

وتكلَّم يومًا عند معاوية الخطباءُ فأحسنوا، فقال: والله لأرميَنَّهم بالخطيب الأشدق، قم يا يزيد فتكلَّمْ.

وهذا القول وغيره من الأخبار والأشعار حُجة لمن زعم أن عمرو بن سعيد لم يسمَّ الأشدق للفَقَم ولا للَّقْوة. وقال يحيى بن نَوفل في خالد بن عبد الله القَسري:

بلَّ السَّراويلَ من خوفٍ ومن وَهَلٍ　　　واستطعمَ الماءَ لمَّا جدَّ في الهَرَبِ
وألحَنُ الناسِ كلِّ الناسِ قاطبةً　　　وكان يُولَعُ بالتَّشديقِ في الخُطَبِ

ويدلُّك على تفضيلهم سعة الأشداق، وهجائهم ضِيق الأفواه، قول الشاعر:

لحا اللهُ أفواهَ الدَّبى من قبيلةٍ　　　إذا ذُكِرتْ في النائباتِ أمورُها

وقال الآخَر:

وأفواهُ الدَّبى حامُوا قليلًا　　　وليس أخو الحِمايةِ كالضَّجورِ

وإنما شبَّه أفواههم بأفواه الدبى لصِغر أفواههم وضِيقها. وعلى ذلك المعنى هجا عَبْدة بن الطبيب حُييَّ بن هزَّال وابنَيه، فقال:

تدعو بُنَيَّيكَ عبَّادًا وجرثمةً   يا فأرةً شجَّها في الجُحرِ مِحفارُ

وقد كان العبَّاس بن عبد المُطَّلب جهيرًا جهير الصوت، وقد مُدِح بذلك، وقد نفع الله المسلمين بجهارة صوته يوم حُنَين حين ذهب الناس عن رسول الله ﷺ، فنادى العبَّاس: يا أصحاب سورة البقرة، هذا رسول الله ﷺ! فتراجع القوم، وأنزل الله عز وجل النصرة وأتى بالفتح.

أخبرني ابن الكلبي عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: كان قيس بن مَخرمة بن المطَّلب بن عبد مناف يمكو حول البيت فيُسمَع ذلك من حراء. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾. فالتصدية: التصفيق. والمكاء: التصفير أو شبيه بالصفير. ولذلك قال عنترة:

وحليلِ غانيةٍ تركتُ مُجدَّلًا   تَمْكو فريصتُه كشِدقِ الأعلَمِ

وقال العُجَير السَّلولي في شدة الصوت:

ومنهنَّ قَرْعي كلَّ بابٍ كأنَّما   به القومُ يَرجُون الأذِينَ نُشورُ
فجئتُ وخَصْمي يَصرِفون نُيوبَهم   كما قُصِبتْ بيْنَ الشِّفارِ جَزورُ
لدى كلِّ موثوق به عندَ مِثلِها   له قَدَمٌ في النَّاطِقِين خَطيرُ
جهيرٌ ومُمتدُّ العِنانِ مُناقِلٌ   بَصيرٌ بعَوراتِ الكلامِ خبيرُ
فظلَّ رِداءُ العَصبِ مُلقًى كأنَّه   سَلَى فَرسٍ تحتَ الرِّجالِ عَقيرُ
لوَ انَّ الصُّخورَ الصُّمَّ يَسمَعنَ صَلْقَنا   لَرُحنَ وفي أعراضِهنَّ فُطورُ

الصلق: شدة الصوت. وفطور: شقوق. وقال مُهلِهل:

ولولا الرِّيحُ أسْمعَ أهلَ نَجدٍ   صليلُ البيضِ تُقرَعُ بالذُّكورِ

والصريف: صوت احتكاك الأنياب. والصليل: صوت الحديد ها هنا. وفي شدة الصوت قال الأعشى في وصفه الخطيب بذلك:

فيهمُ الخِصبُ والسَّماحةُ والنَّجْـ   ـدةُ جَمْعًا والخاطِبُ الصَّلَّاقُ

وقال بشَّار بن بُرْد في ذلك ويهجو بعض الخُطباء:

ومن عَجَبِ الأيَّامِ أنْ قُمْتَ ناطِقًا   وأنتَ ضئيلُ الصَّوتِ مُنتفِخُ السَّحْرِ

ووقع بين فتًى من النصارى وبين ابن فِهْريز كلام، فقال له الفتى: ما ينبغي أن يكون في الأرض رجلٌ واحدٌ أجهل منك. وكان ابن فِهريز في نفسه أكثر الناس علمًا وأدبًا، وكان حريصًا على الجثلقة. فقال للفتى: وكيف حلَلَتُ عندك هذا المحل؟ قال: لأنك تَعلَم أنَّا لا نتَّخذ الجاثليق إلا مديدَ القامة، وأنت قصيرُ القامة؛ ولا نتَّخذه إلا جهيرَ الصوت جيِّدَ الخلق، وأنت دقيقُ الصوت رديءُ الخلق؛ ولا نتَّخذه إلا وهو وافر اللحية عظيمها، وأنت خفيف اللحية صغيرها؛ وأنت تَعلَم أنَّا لا نختار للجَثلقة إلا رجلًا زاهدًا في الرياسة، وأنت أشدُّ الناس عليها كلَبًا، وأظهرهم لها طلبًا؛ فكيف لا تكون أجهل الناس وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة، وأنت قد شغلت في طلبها بالك، وأسهرت فيها ليلك؟ وقال أبو الحَجناء في شدة الصوت:

إنِّي إذا ما زبَّبَ الأشداقُ   والتَجَّ حَوْلي النَّقعُ واللَّقْلاقُ
ثَبتُ الجَنانِ مِرجَمٌ ودَّاقُ

المرجم: الحاذق بالمراجمة بالحجارة. والوداق: الذي يُسيل الحجارة كالودق من المطر. وجاء في الحديث: «من وُقِي شرَّ لَقلَقه وقَبقَبه وذَبذَبه وُقِي الشر.» يعني لسانه وبطنه وفرجه. وقال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في بواكي خالد بن الوليد بن المغيرة: «وما عليهن أن يُرقن من دموعهن على أبي سليمان ما لم يكن نقعٌ أو لقلقة؟» وجاء في الأثر: «ليس منا من حَلَق، أو صَلَق، أو سَلَق، أو شَق.»

ومما مدح به العُماني هارون الرشيد، بالقصيد دون الرجز، قوله:

جَهيرُ العُطاسِ شَديدُ النِّياطِ   جَهيرُ الرُّواءِ جَهيرُ النَّغَمْ
ويَخطو على الأينِ خَطْوَ الظَّليمِ   ويَعْلو السِّماطَ بجسمٍ عَمَمْ

النياط: معاليق القلب. الأين: الإعياء. الظليم: ذكر النعام. عمم: حسن، ومنه قيل: نبتٌ عميم؛ أي حسنٌ كثير. ويُقال: إن جسمه لَعَمم، وإنه لَعمُّ الجسم، إذا كان تامًّا.

وكان الرشيد إذا طاف بالبيت جعل لإزاره ذنبَين عن يمين وشمال، ثم طاف بأوسع من خطو الظليم، وأسرع من رجع يد الأرنب. وقد أخبرني إبراهيم بن السِّندي بمحصول

ذرع ذلك الخطو، إلا أني أحسبه فراسخ فيما رأيته يذهب إليه. قال إبراهيم، ونظر إليه أعرابي في تلك الحال والهيئة فقال: «خطْوَ الظليمِ رِيعَ مُمسًّى فانشمَر.»

ريع: فزع. ممسًّى: حين المساء. انشمر: جدَّ في الهرب.

وحدَّثني إبراهيم السِّندي قال: لما أتى عبدَ الملك بن صالح وفدُ الروم وهو في البلاد، أقام على رأسه رجالًا في السماطَين لهم قَصَرٌ وهام، ومَناكب وأجسام، وشوارب وشعور؛ فبيْنا هم قيامٌ يُكلمونه، ومنهم رجلٌ وجهه في قفا البطريق، إذ عطس عطسةً ضئيلة، فلحظه عبد الملك، فلم يدرِ أيَّ شيء أنكر منه! فلما مضى الوفد قال له: ويلك، هلَّا إذ كنت ضيِّق المنخر كزَّ الخَيشوم، أتبعتها بصيحةٍ تَخلَع بها قلب العِلج؟

وفي تفضيل الجهارة يقول شبَّة بن عِقال بعقب خُطبته عند سليمان بن علي بن عبد الله بن عبَّاس:

أَلَا ليتَ أمَّ الجَهمِ واللهُ سامعٌ　　تَرى حيثُ كانتْ بالعراقِ مَقامي
عَشيَّةَ بذَّ الناسَ جَهْري ومَنطِقي　　وبذَّ كلامَ الناطِقين كلامي

وقال طَحلاء يمدح معاوية بالجهارة وبجودة الخُطبة:

رَكُوبُ المَنابِرِ وثَّابُها　　مِعَنٌّ بخُطبتِه مِجهَرُ
تَرِيعُ إليه هوادي الكلامِ　　إذا ضلَّ خُطبتَه المِهذَرُ

معن: تعرِض له الخطبة فيخطبها مُقتضبًا لها. تريع: ترجع إليه. هوادي الكلام: أوائله. فأراد أن معاوية يخطب في الوقت الذي يذهب فيه كلام المهذر. والمهذر: المِكثار.

وزعموا أن أبا عطيَّة عُفيفًا النَّصري، في الحرب التي كانت بين ثقيف وبين بني نصر، لما رأى الخيل بعَقوته يومئذٍ وأيِس، نادى: يا صباحاه، أُتيتم يا بني نصر! فألقت الحبالى أولادها من شدة صوته. قالوا، فقال ربيعة بن مسعود يصف تلك الحرب وصوت عفيف:

عُقامًا ضَروسًا بين عوفٍ ومالكٍ　　شديدًا لَظاها تَترُكُ الطِّفلَ أَشْيَبا
وكانتْ جُعيلٌ يومَ عمرِو أراكةٍ　　أُسودَ الغَضا غادَرْن لحمًا مُترَّبا
ويوم بمَكرُوثاءَ شَدَّت مُعتِّبٌ　　بغاراتِها قد كان يومًا عَصَبْصبا
فأسقَطَ أحبالَ النِّساءِ بصَوتِه　　عفيفٌ وقد نادى بنَصرٍ فطرَّبا

وكان أبو عُروة، الذي يُقال له أبو عروة السباع، يصيح بالسَّبُع وقد احتمل الشاة، فيُخليها ويذهب هاربًا على وجهه، فضرب به الشاعر المَثل، وهو النابغة الجَعدي، فقال:

وأزجُرُ الكاشحَ العَدوَّ إذا اغْـ ـتابَكَ عِندي زَجرًا على أَضَمِ
زجْرَ أبي عُروةَ السِّباعَ إذا أَشْفقَ أنْ يَلتَبِسنَ بالغَنَمِ

وأنشد أبو عمرٍو الشيباني لرجل من الخوارج يصف صيحة شبيب بن يزيد بن نُعيم،[١٦] قال أبو عُبيدة وأبو الحسن: كان شبيبٌ يصيح في جنَبات الجيش إذا أتاه فلا يلوي أحد على أحد. وقال الشاعر فيه:

إنْ صاحَ يومًا حَسِبتَ الصَّخرَ مُنحدِرًا والرِّيحَ عاصفةً والمَوجَ يَلتطِمُ

قال أبو العاصي: أنشدني أبو مُحرِز خلف بن حيَّان[١٧] — وهو خلَفٌ الأحمر مولى الأشعريين — في عيب التشادق:

له حَنجرٌ رَحبٌ وقولٌ مُنقَّحٌ وفصلُ خِطابٍ ليس فيه تَشادُقُ

[١٦] هو شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني الحَروري الخارجي أمير الخوارج في عصره، ومُزلزِل أركان الدولة الأموية أيام عبد الملك بن مروان. صاحب الوقائع الهائلة، والأحداث العظيمة، مع شيخ العتاة، وأسد الولاة، الحجَّاج بن يوسف الثقفي، وقاتل قواده، ومُبيد أجناده. دخل الكوفة — وهي غاصَّة بجند السلطان، حاشدة بأبطال الدولة وعلى رأسهم الحجَّاج — عَنوةً ليُنيل زوجته غزالة وفاء نذرها من الصلاة في مسجدها الجامع، فأدَّت صلاتها وأطالت فيها ما شاءت، ثم خرج يخترق بها صفوف أعدائه ولم يُصَب بأذًى، ولم ينَلها مكروه.

وكانت زوجته غزالة من الشجاعة والفروسية بالموضع العظيم، فكانت تُباشر الحروب بنفسها، وتخوض المعامع بسيفها، وتصرع الأبطال بقوة جنانها، وهي التي لما أحجم الحجَّاج في إحدى المواقع عن مبارزتها عيَّره بعض الشعراء بقوله:

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نعامةٌ فَتْخاءُ تَنفِرُ من صفيرِ الصافرِ
هلَّا بَرَزتَ إلى غزالةَ في الوغى بل كان قلبُك في جَناحَي طائرِ

وُلد شبيب سنة ٢٥هـ/٦٤٥م، ومات غرقًا في نهر دجيل سنة ٧٧هـ/٦٩٦م.

[١٧] أبو محرز خلف بن حيان الأحمر. كان مولى بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري. وكان راوية علَّامة، شاعرًا بليغًا يصنع الشعر وينسبه إلى العرب، فيُشبِه كلامه كلامهم. وكان يذهب مذهب

إذا كان صوتُ المرءِ خلْفَ لَهاتِه وأنْحى بأشداقٍ لهُنَّ شَقاشِقُ
وقَبقَبَ يَحكي مُقرَمًا في هِبابِه فليسَ بمَسبوقٍ ولا هو سابِقُ

وقال الفرزدق: شقاشق بين أشداق وهام.
وأنشد خلف:

وما في يدَيه غيرُ شِدقٍ يُميلُه وشِقشِقةٍ خَرْساءَ ليس لها نَعبُ
متى رامَ قولًا خالَفَته سجيَّةٌ وضِرسٌ كقَعبِ القَينِ ثلَّمه الشَّعبُ

وأنشد أبو عمرو بن [العلاء]:

وجاءت قريشٌ قريشُ البِطاحِ هي العُصَبُ الأُوَلُ الدَّاخِلةْ
يَقودُهم الفِيلُ والزَّندَبيلُ وذو الضِّرسِ والشَّفةِ المائلةْ

والفيل والزندبيل: أبان والحكم ابنا عبد الملك بن بشر بن مروان. وذو الضرس وذو الشفة المائلة: هو خالد بن سلَمة المخزومي الخطيب. يعني دخولهم على ابن هبيرة. والزندبيل: الأنثى من الفِيَلة فيما ذكر أبو اليقظان نجيم بن حفص. وقال غيره: هو الذكر. فلم يقفوا من ذلك على شيء.

وقال الشاعر في خالد بن سلَمة المخزومي الخطيب:

فما كان قائلَهم دَغْفلٌ ولا الحَيقُطانُ ولا ذو الشَّفةْ

قوله «دغفل»: يريد دغفل بن يزيد بن حنظلة الخطيب الناسب. والحيقطان: عبدٌ أسود، وكان خطيبًا لا يُجارى.

الأصمعي في الرواية حتى قيل إنه مُعلم الأصمعي، وهما اللذان فتقا المعاني، وأوضحا المسالك، وبيَّنا المعالم، ولم يكن لهما في علم الشعر نظير، ثم نسك في أواخر أيامه، وترك الشعر والكلام فيه. وعليه قرأ أهل الكوفة أشعارهم، وكانوا يقصدونه بعد وفاة حمَّاد الراوية، لكنه فاق حمَّادًا. ولما نسك خرج إلى أهل الكوفة فعرَّفهم الأشعار التي أدخلها في أشعار الناس، فقالوا له: أنت كنت عندنا في ذلك الوقت أوثق منك الساعة. مات سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م.

وأنشد أصحابنا:

وقــافـيــةٍ لَـجـلَـجـتُـهـا فـرَدَدتُـهـا لِذِي الضِّرسِ لو أرسلتُها قطَرَت دَما

وقال الفرزدق: أنا عند الناس أشعَرُ العرب، ولرُبَّما كان نزعُ ضرس أيسرَ عليَّ من أن أقول بيت شعر.

وأنشدنا منيع:

فجئتُ ووهبٌ كالخلاةِ تَضمُّها إلى الشِّدقِ أنيابٌ لهُنَّ صريفُ
فقَعقَعتُ لَحيَي خالدٍ واهتَضمتُه بحُجَّةِ خَصمٍ بالخُصومِ عنيفُ

أبو يعقوب الثقفي، عن عبد الملك بن عُمير، قال: سئل الحارث بن أبي ربيعة عن علي بن أبي طالب، كرَّم الله وجهه، فقال: كم كان له ما شئت من ضِرسٍ قاطع في العلم بكتاب الله، والفقه في السُّنة، والهجرة إلى الله ورسوله، والبَسطة في العشيرة، والنجدة في الحرب، والبذل للماعون. قال الآخَر:

ولم تُلفِني فَهًّا ولم تُلفِ حُجَّتي مُلجلَجةً أبْغِي لها من يُقِيمُها
ولا بِتُّ أُزجِيها قضيبًا وتَلتَوي أُراوِغُها طَورًا وطَورًا أَضِيمُها

وأنشدني أبو الرُّديني العُكلي:

فتًى كان يَعلُو مَفرِقَ الحقِّ قولُه إذا الخُطباءُ الصِّيدُ عَضَّلَ قيلُها

وقال الخُزيمي[١٨] في تشادُق علي بن الهيثم:[١٩]

يا عليَّ بنَ هَيثمٍ يا سُماقا قد ملأتَ الدُّنيا علينا بقاقا
خلِّ لَحيَيكَ يَسكُنانِ ولا تَضْـ ـربْ على تَغلِبٍ بلَحيَيكَ طاقا
لا تَشادَقْ إذا تكلَّمتَ واعلَمْ أنَّ لـلـنـاسِ كـلِّـهـم أشـداقـا

---

[١٨] الخزيمي: هو إسحاق بن حسان، ويُكنى أبا يعقوب، أصله من فارس، وهو مولى ابن خزيم الناعم من بني مُرة بن عوف. كان شاعرًا حسن الديباج، جيِّد المعاني. وكان مُتصلًا بمحمد بن منصور بن زياد كاتب البرامكة، وله فيه مدائح جِياد، ثم رثاه بعد موته فقيل له: يا أبا يعقوب، مراثيك لآل منصور

وكان علي بن الهيثم جوادًا، بليغ اللسان والقلم.

قال لي أبو يعقوب الخزيمي: ما رأيت كثلاثة رجال يأكلون الناس أكلًا، حتى إذا رأوا ثلاثة رجال ذابوا كما يذوب المِلح في الماء، أو الرَّصاص عند النار. كان هشام بن الكلبي علَّامة نسَّابة، وراوية للمثالب عيَّابة؛ فإذا رأى الهيثم بن عدي ذاب كما يذوب الرصاص عند النار. وكان الهيثم بن عدي مِفقعانيًّا صاحب تفقيع وتقعير، ويستولي على كلام أهل المجلس، لا يحفل بشاعر ولا بخطيب؛ فإذا رأى موسى الضبِّي ذاب كما يذوب الرصاص عند النار. وكان علَّوَيه المغنِّي أحد الناس في الرواية وفي الحكاية، وفي صنعة الغناء وجودة الضرب، وفي الإطراب وحُسن الخُلق؛ فإذا رأى مُخارقًا ذاب كما يذوب الرصاص عند النار.

ثم رجع بنا القول إلى ذكر التشديق وبُعْد الصوت. قال أبو عُبيدة: كان عُروة بن عُتبة بن جعفر بن كُلاب رديفًا للملوك ورحَّالًا إليهم، وكان يُقال له عُروة الرحَّال؛ فكان يوم أقبل مع ابن الجَون، يريد بني عامر، فلما انتهى إلى واردات مع الصبح، قال له عروة: إنك قد عرفت طول صحبتي لك، ونصيحتي إيَّاك؛ فأْذَن لي فأهتف بقومي

بن زياد أحسن من مدائحك وأجود! فقال: كنَّا نعمل على الرجاء، ونحن الآن نعمل على الوفاء، وبينهما بَونٌ بعيد. وكان قد عَمِي فقال:

إذا ما ماتَ بعضُك فابْكِ بعضًا ... فإنَّ البعضَ من بعضٍ قريبُ
يُمنِّيني الطبيبُ شِفاءَ عَيْني ... وهل غيرُ الإلهِ لها طبيبُ

وقال في معنى الغَيرة والصيانة، وهو كلامٌ جيِّد:

ما أحسَنَ الغَيرةَ في وقتِها ... وأقبَحَ الغَيرةَ في كلِّ حِينْ
مَن لم يَزَلْ متَّهِمًا عِرسَه ... مُناصِبًا فيها لرَيبِ الظُّنونْ
أوشَكَ أنْ يُغرِيَها بالذي ... يَخافُ أنْ يُبرِزَها للعُيونْ
حَسبُكَ من تَحصينِها وَضعُها ... مِنكَ إلى عِرضٍ صحيحٍ ودِينْ
لا تَطَّلعْ مِنكَ على رِيبةٍ ... فيَتبَعَ المَقرونُ حبلَ القرينْ

[١٩] علي بن الهيثم الكاتب الأنباري، كان يُعرَف بجونقا، وكان أديبًا فاضلًا وخطيبًا مفوَّهًا، صاحب تشادُق وتقعير، كثير الاستعمال لعويص اللغة. كتب في ديوان المأمون وغيره من الخلفاء، وكان المأمون يتحفَّظ في كلامه إذا كان حاضرًا.

هتفةً. قال: نعم، وثلاثًا. فقام فنادى: «يا صاحباه!» ثلاث مرَّات. قال: فسمعنا شيوخنا يزعمون أنه أسمع أهل الشِّعب، فتلبَّبوا للحرب، وعسَبوا الرَّبايا[٢٠] ينظرون من أين يأتي القوم. قالوا: وتقول الروم: لولا ضجَّة أهل رُومية وأصواتهم لسمع الناس جميعًا صوت وجوب القُرص في المغرب.

وأعيَبُ عندهم من دقة الصوت وضِيق مخرجه وضعف قوته، أن يعترض الخطيبَ البُهرُ والارتعاش، والرِّعدة والعرَق. قال أبو الحسن، قال سفيان بن عُيينة: تكلَّمَ صعصعة عند معاوية فعرق، قال معاوية: بهرَك القول؟ فقال صعصعة: إن الجياد نضَّاحة بالماء.

والفَرس إذا كان سريع العرق، وكان هشًّا، كان ذلك عيبًا. وكذلك هو في الكثرة. وإذا أبطأ ذلك وكان قليلًا قيل: قد كبا، وهو فَرسٌ كابٍ. وذلك عيب أيضًا.

وأنشدني ابن الأعرابي لأبي مِسمار العُكلي في شبيه بذلك قوله:

لــلــه دَرُّ عــامــرٍ إذا نــطَــقْ ... في حَفلِ إملاكٍ وفي تلك الحِلَقْ
ليس كقومٍ يُعرَفون بالشَّدَقْ ... من خُطبِ الناسِ وممَّا في الوَرَقْ
يُلفِّقون القولَ تلفيقَ الخَلَقْ ... من كلِّ نضَّاحِ الذَّفارى بالعَرَقْ
إذا رَمَته الخُطباءُ بالحَدَقْ

والذفارى هنا، يعني بدن الخطيب، والذفريان للبعير: وهما اللحمتان في قفاه. وإنما ذكر خطب الإملاك لأنهم يذكرون أنه يَعرِض للخطيب فيها من الحصَر أكثر مما يعرض لصاحب المنبر؛ ولذلك قال عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه: ما يتصعَّدني كلامٌ كما تتصعَّدني خطبة النكاح. وقال العُماني:

لا ذَفِرٌ هشٌّ ولا بِكابِ ... ولا بِلَجْلاجٍ ولا هيَّابِ

الهش: الذي يجود بعَرَقه سريعًا، وذلك عيب. والذفر: الكثير العرق. والكابي: الذي لا يكاد يعرق، كالزند الكابي الذي لا يكاد يوري. فجعل له العُماني حالًا بين حالين إذا خطب، وخبر أنه رابط الجأش، مُعاود لتلك المقامات.

وقال الكُميت بن زيد، وكان خطيبًا: إن للخُطبة صعداء، وهي على ذي اللُّب أرمى.

[٢٠] عسبوا الربايا: أكثروا الديدبانات والرُّقباء.

وقولهم أرمى وأربى سواء. يُقال: فلان قد أرمى على المائة وأربى. ولم أرَ الكُميت أفصح عن هذا المعنى ولا تخلَّص إلى خاصَّته، وإنما يجترئ على الخطبة الغُمر الجاهل الماضي الذي لا يَثنيه شيء، أو المطبوع الحاذق الواثق بغزارته واقتداره؛ فالثقة تنفي عن قلبه كل خاطر يورث اللجلجة والنحنحة، والانقطاع والبهر والعرق.

قال عُبيد الله بن زياد وكان خطيبًا، على لُكنةٍ كانت فيه: نِعمَ الشيء الإمارة، لولا قعقعة البُرد، والتشدُّق للخطب. وقيل لعبد الملك بن مروان: عَجِل عليك الشَّيب يا أمير المؤمنين. قال: وكيف لا يعجل عليَّ وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرةً أو مرتَين؟

يعني خطبة الجمعة وبعض ما يعرض من الأمور. قال بعض الكلابيين:

وإذا خطَبتَ على الرجالِ فلا تكُنْ   خَطِلَ الكلامِ تَقُولُه مُختالا
واعلَمْ بأنَّ من السُّكوتِ إبانةً   ومن التكلُّمِ ما يَكونُ خبالا

كلام بِشْر بن المُعتمِر[٢١] حين مرَّ بإبراهيم بن جبَلَة بن مَخرمة السَّكوني الخطيب، وهو يعلِّم فِتيانهم الخطابة، فوقف بِشر، فظنَّ إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلًا من النظَّارة، فقال بشر: اضربوا عما قال صفحًا، واطوُوا عنه كشحًا.

[٢١] بشر بن المعتمر: يُكنى أبا سهل، كان من وجوه أهل الكلام، ومن أفاضل علماء المعتزلة، ومن أكابر بُلغاء الدهر وأبْيِنائه، وكان جميع معتزلة بغداد من مُستجيبيه. وكان به برَص. وكان له ولع بأبي الهُذيل العلَّاف، كثير الوقوع فيه ورميه بالنفاق. ومن أبلغ وأظرف ما قاله فيه قوله: لَأن يكون أبو الهذيل لا يعلم وهو عند الناس يعلم، أَحَبُّ إليه من أن يعلم وهو عند الناس لا يعلم؛ ولَأن يكون من السفلة وهو عند الناس من العِلية، أَحَبُّ إليه من أن يكون من العلية وهو عند الناس من السفلة؛ ولَأن يكون نبيل المنظر سخيف المَخبر، أَحَبُّ إليه من أن يكون نبيل المَخبر سخيف المنظر. وهو بالنفاق أشدُّ عُجبًا منه بالإخلاص، ولباطلٌ مقبول أَحَبُّ إليه من حقٍّ مدفوع.

وهو رأس فِرقة من فِرَق المعتزلة تُنسب إليه يُقال لها «البشرية»، لها آراء ومسائل أخذتها عنه وانفردت بها عن سائر الفِرق. ولبشر أشعارٌ كثيرة يحتجُّ فيها على أصحاب المقالات. قال الجاحظ إنه لم يرَ أحدًا أقوى على المخمَّس والمزدوَج مما قَويَ عليه بِشر، وإنه كان في ذلك أكثر وأقدر من أبان اللاحقي. ومن شِعره:

إنْ كنتَ تَعلَمُ ما أقُو   لُ وما تَقولُ فأنتَ عالِمْ
أو كنتَ تَجهَلُ ذا وذا   كَ فكُنْ لأهلِ العِلمِ لازِمْ

ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وكان أول ذلك الكلام:

«خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك؛ فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهرًا، وأشرف حسبًا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغُرَّة، من لفظٍ شريف ومعنًى بديع. واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يُعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة، وبالتكلف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يُخطئك أن يكون مقبولًا قصدًا، وخفيفًا على اللسان سهلًا، وكما خرج من ينبوعه، ونجم من مَعدنه. وإياك والتوعُّر؛ فإن التوعُّر يُسلِمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراد معنًى كريمًا فلْيَلتمس له لفظًا كريمًا؛ فإن حق المعنى الشريف اللفظُ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يُفسدهما ويهجِّنهما، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالًا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما. وكُن في ثلاث منازل؛ فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا، وفخمًا سهلًا، ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت. والمعنى ليس يشرُف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامِّي والخاصِّي؛ فإن أمكنك أن تبلُغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، على أن تُفهم العامة معانيَ الخاصة، وتكسوَها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكْفاء؛ فأنت البليغ التام.»

قال بِشر: فلما قُرئت على إبراهيم قال لي: أنا أحوَج إلى هذا من هؤلاء الفِتيان.

أهلُ الرِّياسةِ مَن يُنا　　زِعُهم رياستَهم فظالِمْ
سَهِرتْ عُيونُهمُ وأنْـ　　ـتَ مِن الذي قاسَوه حالِمْ
لا تَطلُبَنَّ رياسةً　　بالجهلِ أنت لها مُخاصِمْ
لولا مَقامُهمُ رأيْـ　　ـتَ الدِّينَ مُضطرِبَ الدَّعائمْ

قال أبو عثمان: أما أنا فلم أرَ قومًا قطُّ أمثَل طريقةً في البلاغة من الكُتاب؛ فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكُن متوعِّرًا وحشيًّا، ولا ساقطًا سوقيًّا. وإذا سمعتموني أذكُر العوام فإني لست أعني الفلَّاحين والحِشوة والصُّناع والباعة، ولست أعني أيضًا الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم مثل البير والطيلسان، ومثل موقان وجيلان، ومثل الزِّنج وأمثال الزنج، وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع؛ العرب، وفارس، والهند، والروم، والباقون همج وأشباه الهمج. وأما العوام من أهل مِلَّتنا ودعوتنا ولُغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا، على أن الخاصة تتفاضل في الطبقات أيضًا.

ثم رجع بنا القول إلى بقية كلام بِشر بن المُعتمِر، وإلى ما ذكر من الأقسام. قال بِشر:

> «فإن كانت المنزلة الأولى لا تُواتيك ولا تعتريك، ولا تَسنَح لك عند أول نظرك وفي أول تكلُّفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تَصِر إلى قرارها، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحلَّ في مركزها وفي نِصابها، ولم تصل بشكلها، وكانت قلِقةً في مكانها، نافرةً من موضعها؛ فلا تُكرِهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها؛ فإنك إذا لم تتعاطَ قَرْض الشعر الموزون، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور، لم يُعِبك بترك ذلك أحد؛ وإن أنت تكلَّفتَها ولم تكُن حاذقًا مطبوعًا، ولا مُحكِمًا لسانك، بصيرًا بما عليك أو ما لك، عابَك من أنت أقل عيبًا منه، ورأى من هو دونك أنه فوقك؛ فإن ابتُليتَ بأن تتكلَّف القول، وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطباع في أول وهلة، وتعصَّى عليك بعد إجالة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودَعه بياض يومك أو سواد ليلك، وعاوِدْه عند نشاطك وفراغ بالك؛ فإنك لا تَعدِم الإجابة والمُواتاة، إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عِرق؛ فإن تمنَّع عليك بعد ذلك من غير حادثِ شُغلٍ عرَض، ومن غير طول إهمال، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك، وأخفِّها عليك؛ فإنك لم تشتهِه ولم تُنازع إليه إلا وبينكما نَسب، والشيء لا يحنُّ إلا إلى ما يُشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات؛ لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة، كما تجود به مع المحبة والشهوة، فهكذا هذا.»

وقال: ينبغي للمُتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويُوازن بينها وبين أقدار المُستمِعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المُستمِعين على أقدار تلك الحالات؛ فإن كان الخطيب مُتكلمًا تجنَّب ألفاظ المُتكلمين، كما أنه إن عبَّر عن شيء من صناعة الكلام، واصفًا أو مُجيبًا أو سائلًا، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المُتكلمين؛ إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحنَّ وبها أشغف؛ ولأن كبار المُتكلمين ورؤساء النظَّارين كانوا فوق أكثر الخُطباء، وأبلغ من كثير من البُلغاء، وهم تخيَّروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقُّوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكُن له في لغة العرب اسم، فصاروا في ذلك سلفًا لكل خلف، وقدوة لكل تابع؛ ولذلك قالوا: العرَض، والجوهر، وأيس، وليس. وفرَّقوا بين البُطلان والتلاشي، وذكروا الهذيَّة والهُويَّة والماهية وأشباه ذلك. وكما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقِصار الأرجاز ألقابًا لم تكُن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الألقاب، وتلك الأوزان بتلك الأسماء، كما ذكر الطويل والبسيط والمديد والوافر والكامل وأشباه ذلك، وكما ذكر الأوتاد والأسباب والخَرم والزِّحاف. وقد ذكرت العرب في أشعارها السِّناد والإقواء والإكفاء، ولم أسمع الإيطاء. وقالوا في القصيد والرَّجز والسجع والخُطب، وذكروا حروف الرَّوي والقوافي. وقالوا: هذا بيت، وهذا مِصراع. وقد قال جندل الطهوي حين مدح شعره:

لم أقْوِ فيهنَّ ولم أُساندِ

وقال ذو الرُّمَّة:

وشِعرٍ قد أرِقتُ له غَريبٍ   أُجانِبُه المُسانَدَ والمُحالا

وقال أبو حِزامٍ العُكلي:

بُيوتًا نَصَبْنا لتَقويمِها   جُذولَ الرَّبيئِينَ في المَرْبأةْ[22]
بُيوتًا على الْهَا لَها سَجْحةٌ   بغَيرِ السِّنادِ ولا المَكفأةْ[23]

[22] جذول الربيئين: استطلاع المُراقبين. في المربأة: في المرقب.

[23] سجحة: يماثل. السناد والإكفاء: من عيوب القافية.

وكما سمَّى النحويون، فذكَروا الحال والظرف وما أشبه ذلك؛ لأنهم لو لم يضعوا هذه العلامات لم يستطيعوا تعريف القرويِّين وأبناء البلديِّين عِلم العَروض والنحو. وكذلك أصحاب الحساب؛ فقد اجتلبوا أسماءً وجعلوها علامات للتفاهم.

قالوا: وقبيح بالخطيب أن يقوم بخُطبة العيد، أو يوم السماطَين، أو على مِنبر جماعة، أو في سُدة دار الخلافة، أو في يوم جمع وحفل، إما في إصلاح بين العشائر، واحتمال دماء القبائل، واستلال تلك الضغائن والسخائم، فيقول كما قال بعض مَن خطب على مِنبرٍ ضخم الشأن رفيع المكان: ثم إن الله عز وجل بعد أن أنشأ الخلق وسوَّاهم ومكَّن لهم، لاشاهم فتلاشَوا. ولولا أن المُتكلم افتقر إلى أن يلفظ بالتلاشي لكان ينبغي أن يؤخذ فوق يده. وخَطب آخَر في وسط دار الخلافة، فقال في خُطبته: وأخرجه الله من باب الليسيَّة، فأدخله في باب الأيسيَّة.[٢٤] وقال مرةً أخرى في خطبة له: هذا فريق ما بين السارِّ والضار والدَّفاع. وقال مرةً أخرى: فدلَّ ساتره على غامره، ودلَّ غامره على منحلَّه. فكاد إبراهيم بن السِّندي يطير شِققًا، ويتَّقد غيظًا. هذا وإبراهيم من المُتكلمين، والخطيب لم يكن من المُتكلمين.

وإنَّما جازت هذه الألفاظ في صناعة الكلام حين عجزت الأسماء عن اتساع المعاني. وقد تَحسُن أيضًا ألفاظ المُتكلمين في مثل شعر أبي نُواس، وفي كل ما قالوه على جهة التظرُّف والتملُّح، كقول أبي نُواس:

وذاتِ خــدٍّ مُــورَّدْ قُوهيَّةِ المُتجرَّدْ[٢٥]
تأمَّلَ العينُ مِنها مَحاسنًا ليسَ تَنفَدْ
فبعضُها قد «تناهى» وبعضُها «يَتولَّدْ»
والحُسنُ في كلِّ عُضوٍ منها مُعادٌ مُردَّدْ

وكقوله:

يا عاقِدَ القَلبِ منِّي هلَّا تَذكَّرتَ حلَّا

---

[٢٤] الليسية: النفي. والأيسية: الإثبات. وذلك من اصطلاح المُتكلمين.

[٢٥] قوهية المتجرد: بيضاء الجسم بضَّته، حتى تكاد تُشبه المقانع القوهية المنسوبة إلى قوهستان. وهذه الأبيات في وصف جنان، وفيها بعض خلاف عما في الديوان.

تـرَكـتَ مـنِّـي قـلـيـلًا مـن الـقـلـيـلِ أقَـلَّا
يَـكـادُ «لا يَـتـجـزَّا» أقلُّ في اللفظِ مِن: لا

وقد يتملَّح الأعرابي بأن يُدخِل في شعره شيئًا من كلام الفارسية، كقول العُماني[٢٦] للرشيد في قصيدته التي مدحه فيها:

مَن يَلقَهُ مِن بَطلٍ مُسرَنْدِ في زَغْفةٍ مُحكَمةٍ بالسَّردِ
يَجُولُ بينَ رأسِه و«الكَردِ»

يعني العنق. ويقول فيه أيضًا:

لمَّا هَوى بينَ غِياضِ الأُسْدِ وصارَ في كفِّ الهِزَبرِ الوَردِ
آلى يَذُوقُ الدَّهرَ «آبَ سَردِ»

وكقول الآخَر:

ووَلَّـهَـنـي وَقـعُ الأسِـنَّـةِ والـقَـنـا و«كافر كوبات» لها عِجَرٌ قُفْدُ
بـأيدي رجالٍ ما كَلامي كلامُهم يَسُومُونَني «مَرْدًا» وما أنا «والمَرْدُ»

ومِثل هذا موجود في شعر العُذافر الكندي وغيره. ويجوز أيضًا أن يكون الشعر مثل شعر الحروشاذ، وأسود بن أبي كريمة، كما قال يزيد بن ربيعة بن مفرِّغ:[٢٧]

آبَ است نَبيذَ اسْتْ عُصاراتِ زَبيبَ اسْتْ
سُميَّةُ رُوسبيد اسْتْ

[٢٦] العُماني: هو محمد بن ذؤيب الحنظلي الدارمي الفقيمي. شاعرٌ بصري. قيل إنه لم يرَ عُمان لا هو ولا أبوه، وإنما لُقِّب «العماني» لصُفْرة لونه. وكان شاعرًا راجزًا من مُتوسطي شعراء الدولة العباسية، ولم يكن من طبقة مُعاصريه أمثال أشجع ومسلم ومروان بن أبي حفصة، ولكنه كان لطيفًا داهيًا مقبولًا، وكان الرشيد يستظرفه ويهشُّ له، فأفاد من ذلك مالًا جليلًا.

[٢٧] يزيد بن مفرغ الحِميري: كان شاعرًا مُجيدًا غزِلًا، له أشعارٌ كثيرة في هجاء يزيد بن معاوية وفي آل زياد؛ لأنه صَحِب عبَّاد بن زياد لما ولي خُراسان، واشتغل عنه عباد بحروبه، فذمَّه أقبح ذم، وهجاه

وقال أسود بن أبي كريمة:

لَزِمَ الغُرَّامُ ثَوبي	بُكرةً في يومِ سَبْتِ
فتَمايَلتُ عَليهم	مَيْلَ زَنكيٍّ بمَسْتِ
قد حسا الدَّاذيَّ صِرفًا	أو عُقارًا بايِخَستِ
ثم كُفْتَم ذو زياد	ويحَكم آنْ خَرِ كُفتِ
إنَّ جِلدي دبَغَته	أهلُ صَنعاءَ بحَفتِ
وأبو عَمرةَ عِندي	آنْ كُور يذنمَسْتِ
جالس أندر مكناد	أيا عمد بنهشتِ

وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميًّا ساقطًا سوقيًّا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبًا وحشيًّا، إلا أن يكون المُتكلم بدويًّا أعرابيًّا؛ فإن الوحشيَّ من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقيُّ رطانةَ السوقي.

وكلام الناس في طبقات، كما أن الناس أنفُسهم في طبقات؛ فمن الكلام الجزلُ، والسخيفُ، والمليح، والحسن، والقبيح، والسميح، والخفيف، والثقيل، وكله عربي، وبكلٍّ قد تكلَّموا، وبكلٍّ قد تمادحوا وتعايبوا. فإن زعم زاعمٌ أنه لم يكن في كلامهم تفاضُل، ولا بينهم في ذلك تفاوُت، فلِمَ ذكروا العَيِي، والبَكِي، والحَصِر، والمُفحَم، والخَطِل، والمُسهَب، والمُتشدق، والمُتفيهِق، والمِهماز، والثَّرثار، والمِكثار، والهمَّاز؟ ولمَ ذكَروا الهُجر، والهذر، والهذيان، والتخليط؟ وقالوا: رجلٌ تَلقاعة وتَلهاعة، وفلانٌ يتلهيَع في خطبته. وقالوا: فلانٌ يُخطئ في جوابه، ويُحيل في كلامه، ويُناقض في خبره. ولولا أن هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمَّى ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء.

وأنا أقول إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع، ولا أنفع، ولا آنَق، ولا ألذُّ في الأسماع، ولا أشدُّ اتصالًا بالعقول السليمة، ولا أفتق للِّسان، ولا أجود تقويمًا للبيان، من طول استماع حديث الأعراب الفُصحاء العُقلاء، والعُلماء البُلغاء. وقد أصاب القوم في عامة

أوجع هجاء، وسلقه بلسانه فحبسه، وكان له معه ومع أخيه عُبيد الله بن زياد خطوب. وله في سعيد بن عثمان وغيره ممن واسَوه في نكباته مدائح جِياد.

ما وصفوا، إلا أني أزعم أن سخيف الألفاظ مُشاكل لسخيف المعاني. وقد يُحتاج إلى السخيف في بعض المواضع، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني، كما أن النادرة الباردة جدًّا قد تكون أطيب من النادرة الحارَّة جدًّا، وإنما الكرب الذي يُخيم[٢٨] على القلوب، ويأخذ بالأنفاس، النادرةُ الفاترة التي لا هي حارَّة ولا هي باردة. وكذلك الشعر الوسط، والغناء الوسط. وإنما الشأن في الحار جدًّا والبارد جدًّا.

وكان محمد بن عبَّاد بن كاسب يقول: والله لَفلانٌ أثقلُ من مغنٍّ وسط، وأبغض من ظريفٍ وسط.

ومتى سمعت، حفظك الله، بنادرة من كلام الأعراب، فإيَّاك وأن تحكيَها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها؛ فإنك إن غيَّرتها بأن تلحن في إعرابها، وأخرجتها مخرج كلام المولَّدين والبلديين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، ومُلْحة من مُلَح الحِشوة والطَّغام، فإيَّاك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخير لها لفظًا حسنًا، أو تجعل لها من فيك مَخرجًا سريًّا؛ فإن ذلك يُفسِد الإمتاع بها، ويُخرِجها من صورتها ومن الذي أُريدت له، ويُذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها.

ثم اعلم أن أقبح اللحن لحنُ أصحاب التقعير والتقعيب، والتشديق والتمطيط، والجَهورة والتفخيم، وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلين على طُرُق السابلة وبقرب مجامع الأسواق، ولأهل المدينة ألسنةٌ ذلِقة، وألفاظٌ حسنة، وعبارةٌ جيِّدة، واللحن في عوامِّهم فاشٍ، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب.

واللحن من الجواري الظِّراف، ومن الكواعب النواهد، ومن الشوابِّ المِلاح، ومن ذوات الخدور الغرائر، أيسر. وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلُّف، ولكن إذا كان اللحن سجيَّة سكان البلد. وكما يستملحون اللَّثْغاء إذا كانت حديثة السن، ومقدودةً مجدولة؛ فإذا أسنَّت واكتهلت تغيَّر ذلك الاستملاح. وربما كان اسم الجارية «غُليِّم» و«صُبيَّة» وما أشبه ذلك؛ فإذا صارت كهلةً جزلة، وعجوزًا شَهلة، وحملت اللحم، وتراكم عليها الشحم، وصار بنوها رجالًا، وبناتها نساءً، فما أقبح حينئذٍ أن يُقال لها: يا غليم، كيف أصبحت؟ ويا صبية، كيف أمسيت؟ ولأمرٍ ما كنَّت

[٢٨] في نسخة: يحتم. وليس هذا مقام تحتيم، والصحيح يخيم كما يقتضيه السياق كما أثبتناه ها هنا.

العرب البنات فقالوا: فعلت أم الفضل، وقالت أم عمرو، وذهبت أم حكيم. نعم، حتى دعاهم ذلك إلى التقدُّم في تلك الكُنى.

وقد فسَّرنا ذلك كله في كتاب «الأسماء والكُنى والألقاب والأنباز».

وقد قال مالك بن أسماء في استملاح اللحن من بعض نسائه:

أمُغطًّى منِّي على بصري للـ ـحُبِّ أم أنتِ أكمَلُ الناسِ حُسْنا؟
وحديثٍ ألَذُّه هو ممَّا يَنعَتُ الناعِتونَ يُوزَنُ وَزْنا
مَنطِقٌ صائبٌ وتَلحَنُ أحيا نًا وأحلى الحديثِ ما كانَ لَحْنا[٢٩]

وهم يمدحون الحِذق والرِّفق، والتخلُّص إلى حبَّات القلوب، وإلى إصابة عيون المعاني، ويقولون: أصاب الهدف، إذا أصاب الحق في الجملة. ويقولون: قرطس فلان، وأصاب القِرطاس، إذا كان أجود إصابةً من الأول. فإن قالوا: رمى فأصاب الغُرَّة، وأصاب عين القرطاس، فهو الذي ليس فوقه أحد. ومن ذلك قولهم: فلان يفلُّ المحز، ويُصيب المَفصِل، ويضع الهِناء مواضع النُّقَب. وقال زُرارة بن جزء حين أتى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فتكلَّم عنده، ورفع حاجته إليه:

أتيتُ أبا حفصٍ ولا يَستطيعُه من النَّاسِ إلا كالسِّنانِ طَريرُ
فوفَّقَني الرحمنُ لمَّا لقيتُه وللبابِ من دونِ الخُصومِ صَريرُ
قُرومٌ غُيارى عندَ بابٍ مُمنَّعٍ تُنازِعُ مَلكًا يَهتدي ويَجورُ
فقلتُ له قولًا أصابَ فؤادَه وبعضُ كلامِ القائلينَ غُرورُ

[٢٩] روى أبو الفرج الأصبهاني بسنده عن علي بن يحيى المنجم أنه قال، قلت للجاحظ: إني قرأت في فصل من كتابك «البيان والتبيين»: وإنما يُستحسن من النساء اللحن في الكلام. واستشهدت ببيتَي مالك بن أسماء. قال: هو كذلك. فقلت: أمَا سمعت بخبر هند ابنة أسماء بن خارجة مع الحجَّاج حين لحنت في كلامها، فعاب ذلك عليها، فاحتجَّت ببيتَي أخيها، فقال لها: إن أخاك أراد أن المرأة فطنةٌ تلحن بالكلام إلى غير الظاهر بالمعنى لتستر معناه، وتُوريَ عنه وتُفهمه من أرادت بالتعريض، كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، ولم يُرد الخطأ من الكلام، والخطأ لا يُستحسن من أحد؟

فوجم الجاحظ ساعةً ثم قال: لو سقط إليَّ هذا الخبر أولًا لَما قلت ما تقدَّم. فقلت له: فأصلِحْه. فقال: الآن وقد سار به الكُتاب في الآفاق؟

وفي شبيه ذلك يقول عبد الرحمن بن حسَّان حيث يقول:

رجالٌ أَصِحَّاءُ الجُلودِ من الخَنا   وألسِنةٌ معروفةٌ أين تَذهبُ

وفي إصابة فص الشيء وعينه، يقول ذو الرُّمَّة في مديح بلال بن أبي بردة الأشعري:

تُناخي عندَ خَيرِ فتًى يمانٍ   إذا النَّكباءُ عارَضَتِ الشَّمالا
وخَيرِهم مآثِرَ أهلِ بيتٍ   وأكرَمِهم وإنْ كَرُموا فَعَالا
وأبعَدِهم مسافةَ غَورِ عَقلٍ   إذا ما الأمرُ في الشُّبُهاتِ عالا
ولَبَّسَ بينَ أقوامٍ فكُلٌّ   أَعَدَّ له الشَّغازبَ والمِحالا[30]
وكلُّهمُ ألَدُّ له كِظاظٌ   أَعَدَّ لكلِّ حالِ القومِ حالا[31]
فصَلتَ بحِكمةٍ فأصَبتَ منها   فُصوصَ الحقِّ فانفصلَ انفصالا

وكان أبو سعيد الرأي، وهو شرشير المدني، يعيب أبا حنيفة،[32] فقال الشاعر:

عِندي مَسائلُ لا شَرشِيرُ يُحسِنُها   عندَ السؤالِ ولا أصحابُ شَرشِيرِ
ولا يُصيبُ فُصوصَ الحقِّ تَعلَمُه   إلَّا حنيفيَّةٌ كوفيَّةُ الدُّورِ

ومما قالوا في الإيجاز، وبلوغ المعاني بالألفاظ اليسيرة، قول ثابت بن قُطنة:

ما زِلتُ بَعدَك في همٍّ يَجيشُ به   صَدري وفي نَصَبٍ قد كادَ يُبلِيني
إنِّي تَذكَّرتُ قَتْلى لو شَهِدتُهمُ   في غَمرةِ المَوتِ لم يُصْلَوا بها دُوني
لا أُكثِرُ القولَ فيما يَهضِبونَ به   من الكلامِ قليلٌ منه يَكفِيني[33]

[30] الشغازب: المصارع الشغزبية، وهي حركة من حركات المُصارعين، وهي أن يعقل المُصارع رجله برجل خصمه فيصرعه. والمحال: الاحتيال.
[31] له كظاظ: أي صاحب تجارِب ومِراس في الحرب.
[32] أبو حنيفة: هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النُّعمان صاحب المذهب، وهو أشهر من أن يُعرَّف. تُوفي سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م.
[33] يهضبون: يسحُّون بالكلام سحًّا.

وقال رجل من طيِّئ ومدح كلام رجل فقال: هذا كلامٌ يُكتفى بأولاه، ويُشتفى بأُخراه. وقال أبو وَجرة السَّعدي، من سعد بن بكر، يصف كلام رجل:

يَكْفي قليلُ كلامِه وكثيرُه ثَبتٌ إذا طالَ النِّضالُ مُصِيبُ

ومن كلامهم المُوجَز في أشعارهم قول العُكلي في صفة قوس:

في كفِّه مُعطِيةٌ مَنُوعُ مُوثَقةٌ صابرةٌ جَزوعُ

وقال الآخَر، ووصف سهم رامٍ أصاب حمارًا، فقال: حتى نجا من جوفه وما نجا.
وقال الآخَر وهو يصف ذئبًا:

أطلَسُ يُخْفي شخْصَه غُبارُهُ في شِدقِه شَفْرتُه ونارُهُ
وهْو الخَبيثُ عَينُه فِرارُهُ بَهْمُ بَنِي مُحارِبٍ مُزْدارُهُ

ووصف الآخَر ناقةً فقال: خَرْقاءُ إلا أنَّها صَنَاعُ.
وقال الآخَر ووصف سهمًا صاردًا:[٣٤]

ألْقى على مَفطوحِها مَفطوحا غادَرَ داءً ونَجا صحيحا

المفطوح الأول للقوس، وهو العريض، وهو ها هنا موضع مقبض القوس، والمفطوح الثاني السهم العريض؛ يعني أنه ألقى على مقبض القوس سهمًا عريضًا.
وقال الآخَر:

إنَّكَ يا ابْنَ جَعفرٍ لا تُفلِحُ اللَّيلُ أخْفى والنَّهارُ أفضَحُ

وقالوا في المَثل: الليلُ أخفى للوَيل.
وقال رؤبة يصف حمارًا:

حَشرَجَ في الجَوفِ سَحيلًا أو شَهَقْ حتى يُقالَ ناهقٌ وما نَهَقْ

[٣٤] في نسخة: صادرًا. وهو خطأ، والصواب: صاردًا، كما أثبتناه.

الحشرجة: صوت الصدر. والسحيل: صوت الحمار إذا مده. والشهيق: أن يقطع الصوت.

وقال بعض ولد العبَّاس بن مِرداس السُّلمي في فرس أبي الأعور السُّلمي:

جاءَ كلَمحِ البَرقِ جاشَ ناظِرُهْ يَسبَحُ أُولاه ويَطفُو آخِرُهْ
فما يَمَسُّ الأرضَ منه حافِرُهْ

قوله: جاش ناظره؛ أي جاش بمائه، وناظر البرق سحابه. يسبح: يعني يمد ضبعَيه، فإذا مدَّهما علا كفَلُه.

وقال الآخَر: إنْ سَرَّك الأهوَنُ فابْدَأ بالأشد.

وقال العجَّاج:

يُمكِّنُ السَّيفَ إذا الرُّمحُ انْأطَرْ من هامَةِ اللَّيثِ إذا اللَّيثُ هَتَرْ[٣٥]
كجَملِ البحرِ إذا خاضَ جَسَرْ غَوارِبَ اليَمِّ إذا اليَمُّ هَدَرْ
حتى يُقالَ جاسرٌ وما جَسَرْ

اليم: معظم الماء. وغوارب اليم: معظمه. جسر: قطع، ومنه قيل للجسر جسرٌ لأن الناس يقطعون عليه. وقوله: حتى يُقال جاسر وما جسر؛ أي قطع الأمر وهو بعدُ فيه لما يرَون من مضائه فيه وقدرته عليه.

وقال الآخَر:

يا دارُ قد غيَّرَها بَلاها كأنَّما بقَلمٍ مَحاها
أخرَبَها عُمْرانُ مَن بَناها وكَرُّ مَمْساها على مَغْناها
وطَفِقتْ سحابةٌ تَغْشاها تَبْكي على عِراصِها عَيْناها

قوله: أخربها عمران من بناها، يقول: عمَّرها بالخراب. وأصل العمران مأخوذ من العمر، وهو البقاء، فإذا بقي الرجل في داره فقد عَمَرها، فيقول: إن مدة بقائه فيها

[٣٥] انأطر: انثنى والتَوى في يده.

أبلت منها؛ لأن الأيام مؤثِّرة في الأشياء بالنقص والبلاء؛ فلما بقي الخراب بها وقام مقام العمران في غيرها سُمِّي بالعمران.

وقال غيره:

يا عَجَّلَ الرَّحمنُ بالعَذابِ   لِعامِراتِ البَيتِ بالخَرابِ

يعني الفأر. يقول: هذا عُمرانها. كما يقول الرجل: ما نرى من خيرك ورِفدك، إلا ما يبلغنا من خطبك علينا، وفتِّك في أعضادنا. وقال الله عز وجل: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾. والعذاب لا يكون نزلًا، ولكنه لما أقام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم سُمِّي باسمه.

وقال الآخر:

فقلتُ أطعِمْني عُمَيرُ تَمْرا   فكانَ تَمْري كَهرةً وزَبْرا[٣٦]

والتمر لا يكون كهرة وزبرًا، ولكنه على ذا. وقال الله عز وجل: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. وليس في الجنة بُكرةٌ ولا عشي، ولكن على مقدار البُكر والعشيات. وعلى هذا قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾. والخزنة الحفَظة، وجهنم لا يضيع منها شيء فيُحفَظ، ولا يختار دخولَها إنسان فيُمنَع منها، ولكن لما قامت الملائكة مقام الحافظ الخازن سُمِّيت به.

قوله: ممساها؛ يعني مساءها. ومغناها: موضعها الذي أقيم فيه. والمغاني: المنازل التي كان بها أهلوها. وطفقت: يعني ظلَّت. تبكي على عراصها عيناها: يُقال لكل جوبة منفتقة ليس فيها بناء «عرصة». عيناها ها هنا السحاب. وجعل المطر بكاءً من السحاب على طريق الاستعارة، وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه.

وقال أبو عمرو بن العلاء:[٣٧] اجتمع ثلاثة من الرُّواة، فقال لهم قائل: أي نِصف بيت شعر أحكَمُ وأوجز؟ فقال أحدهم: قول حُميد بن ثَور الهِلالي:

وحَسبُك داءً أن تَصِحَّ وتَسلَما

---

[٣٦] الكهر: الزجر والردع. والزبر: الرمي بما في اليد من حجر ونحوه.

[٣٧] أبو عمرو بن العلاء: هو إمام أهل البصرة في النحو واللغة والقراءات، وهو أحد القُراء السبعة المشهورين. أخذ عن جماعة من التابعين، وقرأ القرآن على سعيد بن جُبير ومجاهد، وروى عن أنس بن مالك وأبي صالح السمان وعطاء وغيرهم. مدحه الفرزدق، ووثَّقه يحيى بن مَعين، وكان صدوقًا ثقةً

ولعل حُميدًا أن يكون أخذه عن النَّمر بن تَولب. قال النمر:

يُحبُّ الفتى طولَ السلامةِ والغِنى فكيف ترى طولَ السلامةِ يَفعَلُ؟

وقال أبو العتاهية: أسرَعَ في نقضِ أمرٍ تمامُه.

ذهب إلى كلام الأول: كلُّ ما أقام شخَص، وكل ما ازداد نقَص، ولو كان الناس يُميتهم الداء إذًا لأعاشهم الدواء.

وقال الثاني من الرُّواة الثلاثة: بل قول أبي خِراش الهُذلي:[٣٨]

نُوكَّلُ بالأدنى وإنْ جَلَّ ما يَمضي

وقال الثالث: بل قول أبي ذؤيب الهُذلي:

وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقنَعُ

فقال قائل: هذا من مفاخر هُذيل؛ أن يكون ثلاثة من الرواة لم يُصيبوا في جميع أشعار العرب إلا ثلاثة أنصاف، اثنان منها لهُذيل وحدها. فقيل لهذا القائل: إنما كان الشرط أن يأتوا بثلاثة أنصاف مُستغنِيات بأنفسها، والنصف الذي لأبي ذؤيب لا يستغني بنفسه، ولا يفهم السامع معنى هذا النصف حتى يكون موصولًا بالنصف الأول؛ لأنك

حُجة. قال أبو عُبيدة: أبو عمرو أعلم الناس بالقراءات والعربية وأيام العرب والشعر. وكان من سادات العرب ووجوههم، قرأ عليه اليزيدي وعبد الله بن المبارك وغيرهما خلقٌ كثير، وأخذ عنه الأدبَ أبو عبيدة والأصمعي وغيرهما. مات سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م.

[٣٨] أبو خراش الهذلي: هو خُويلد بن مُرة من شعراء هذيل المذكورين، وفصحائهم المعروفين. أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم. وكان من العدَّائين الذين يسبقون الخيل على أرجلهم. نهشته أفعى فمات في خلافة عمر بن الخطاب. وهذا الشطر من قصيدةٍ يرثي بها أخاه عُروة، ويذكر خلاص ولده خراش:

حَمِدتُ إلهي بعدَ عُروةَ إذ نَجا خِراشٌ وبعضُ الشرِّ أهوَنُ من بعضِ
فواللهِ لا أنْسى قتيلًا رُزئتُه بجانبِ قَوسي ما حَيِيتُ على الأرضِ
بلى إنَّها تَعفُو الكِلامُ وإنَّما نُوكَّلُ بالأدنى وإنْ جَلَّ ما يَمضي
ولم أدرِ من ألْقى عليه رِداءَه ولكنَّه قد سُلَّ عن ماجدٍ مَحضِ

إذا أنشدت رجلًا لم يسمع بالنصف الأول وسمع «وإذا تُرد إلى قليلٍ تقنعُ»، قال: ومن هذه التي تُرد إلى قليلٍ فتقنع؟ وليس المضمَّن كالمُطلَق، وليس هذا النصف مما رواه هذا العالم، وإنما الرواية قوله:

والدَّهرُ ليس بمُعتِبٍ من يَجزَعُ

ومما مدحوا به الإيجاز والكلام الذي كالوحي والإشارة، قول أبي دؤاد بن جرير الإيادي:

يَرمُونَ بالخُطَبِ الطِّوالِ وتارةً   وحْيَ المَلاحِظِ خِيفةَ الرُّقَباءِ

فمدح كما ترى الإطالة في موضعها، والحذف في موضعه.

ومما يدل على شغفهم وكلَفهم، وشدة حبهم للفهم والإفهام، قول الأسدي في صفة كلام رجل نعَت له موضعًا من تلك السباسب التي لا أمارة فيها بأقل اللفظ وأوجزه، فوصف إيجاز الناعت، وسرعة فهم المنعوت له، فقال:

بِضَرْبةِ نَعتٍ لم تُعَدْ غيْرَ أنَّني   عَقولٌ لأوصافِ الرِّجالِ ذَكُورُها

وهذا كقولهم لابن عبَّاس: أنَّى لك هذا العلم؟ قال: قلبٌ عَقول، ولسانٌ سئول. وقد قال الراجز:

ومَهْمَهَينِ فَدفَدَينِ مَرْتَينِ   جُبْتُهما بالنَّعتِ لا بالنَّعتَينِ

وقالوا في التحذير من مِيسم الشعر، ومن شدة وقْع اللسان، ومن بقاء أثره على الممدوح والمهجو، قال امرؤ القيس بن حُجْر:

ولو عن نَثا غيرِه جاءني   وجُرحُ اللسانِ كجُرحِ اليَدِ[٣٩]

وقال طَرَفة:

بحُسامِ سَيفِك أو لِسانِك والْـ   ـكَلِمُ الأصيلُ كأرغَبِ الكَلْمِ[٤٠]

[٣٩] النثا: الحديث عن الغير.

[٤٠] كأرغب الكلم: أي إن من الكلام ما يجرح جرحًا هو أوسع من جرح السيف أو السنان.

قال، وأنشدني محمد بن زياد:

لَحَوتُ شمَّاسًا كما تُلْحى العِصِي   سبًّا لوَ انَّ السبَّ يُدمي لدَمِي[٤١]
مِن نَفَرٍ كلُّهمُ نِكْسٌ دَنِي   مَحامدُ الرَّذلِ مَشاتيمُ السَّرِي[٤٢]
مَخابطُ العِكمِ مَواديعُ المَطِي   مَتارِكُ الرَّفيقِ بالخَرقِ النَّطِي

وأنشد محمد بن زياد:

تَمنَّى أبو العفَّاق عِنديَ هَجْمةً   تُسهِّلُ مأوى لَيلِها بالكَلاكِلِ
ولا عَقْلَ عِندي غيرُ طَعنٍ نوافذٍ   وضربٍ كأشداقِ الفِصالِ الهوادلِ
وسبٍّ يَودُّ المرءُ لو ماتَ قبْلَه   كصَدعِ الصَّفا فلَّقتَه بالمَعاوِلِ

الهجمة: القطعة من النوق فيها فحل. والكلكل: الصدر. والفصال: جمع فصيل، والفصيل ولد الناقة إذا فُصِل عنها. والهوادل: العظام المشافر. والعقل ها هنا: الدية. والعاقلة: أهل القاتل الأدنَون والأبعدون. والصفا: جمع صفاة، وهي الصخرة.
وقال طرَفة:

رأيتُ القوافي يتَّلِجنَ مَوالجًا   تَضايَقُ عنها أنْ تَولَّجَها الإبَرْ

وقال الأخطل:[٤٣]

حتى أقرُّوا وهُم منِّي على مَضَضٍ   والقولُ يَنفُذُ ما لا تَنفُذُ الإبَرُ

---

[٤١] لحوته: قشَّرته؛ أي كشفت المستور منه بسبِّي له.

[٤٢] نكس دني: نذل لا خير فيه. وهو موضع حمد الأراذل، ومهبط لعنات السراة والأماثل.

[٤٣] الأخطل: هو غياث بن غوث، يُكنى أبا مالك. شاعرٌ فَحْل من أكابر شعراء الإسلام، يُنازع جريرًا والفرزدق التقدُّم والتفوُّق، وقد فضَّله كثير في العلماء بالشعر عليهما. وكان نصرانيًّا، هاجى جريرًا والفرزدق وغيرهما من الشعراء. وهو شاعر بني أمية بلا مُنازع. وهذا من قصيدة له طويلة مَطلعُها:

خفَّ القطينُ فراحوا منك أو بكَروا   وأزعجتْهم نوًى في صَرفِها غِيَرُ

مدح فيها عبد الملك بن مروان وبني أمية وهجا قيسًا، وهي من أجود شعره. وُلد بالجزيرة سنة ٢٠هـ/٦٤٠م، وتُوفي سنة ٩٢هـ/٧٤٠م.

وقال العُماني:

إذ هُنَّ في الرَّيطِ وفي المَوادِعِ　　تَرمي إليهنَّ كبِذرِ الزَّارِعِ

الريط: الثياب، واحدها ريطة، والريطة كل ملاءة لم تكن لفقَين، والحُلة لا تكون إلا ثوبين. والموادع: الثياب التي تصون غيرها، واحدها ميدعة.

وقالوا: الحرب أولها شكوى، وأوسطها نجوى، وآخرها بلوى. وكتب نصر بن سيَّار إلى ابن هُبيرة أيام تحرُّك أمير السواد بخُراسان:

أرى خَلَلَ الرَّمادِ وميضَ جَمرٍ　　فيُوشِكُ أنْ يكونَ له اضطرامُ
فإنَّ النارَ بالعُودَينِ تُذْكى　　وإنَّ الحَربَ أوَّلُها كَلامُ
فقلتُ من التعجُّبِ ليتَ شِعري　　أأيقاظٌ أُميةُ أم نِيامُ
فإن كانوا لِحِينِهِمُ نِيامًا　　فقُلْ قُومُوا فقدْ حانَ القِيامُ

وقال بعض المولَّدين:

إذا نِلتُ العَطيَّةَ بَعدَ مَطلٍ　　فلا كانت وإنْ كانت جَزيلةْ
وسُقيًا للعَطيَّةِ ثُم سُقيًا　　إذا سَهُلتْ وإنْ كانت قليلةْ
ولِلشُّعراءِ ألسِنةٌ حِدادٌ　　على العَوْراتِ مُوفِيةٌ دليلةْ
ومن عَقلِ الكريمِ إذا اتَّقاهم　　وداراهم مُداراةً جميلةْ
إذا وضَعوا مَكاذِبَهم عليه　　وإن كَذَبُوا فليس لهُنَّ حِيلةْ

وقالوا: مذاكرة الرجال تلقيح لألبابها. ومما قالوا في صفة اللسان قول الأسدي، أنشدنيها ابن الأعرابي:

وأصبحتُ أعدَدتُ للنَّائباتِ　　عِرضًا بَريئًا وعَضْبًا صَقيلا
ووَقْعَ لِسانٍ كحدِّ السِّنانِ　　ورُمحًا طويلَ القناةِ عَسُولا

وقال الأعشى:

أُدافِعُ عن أعراضِكم وأُعِيرُكم　　لِسانًا كمِقْراضِ الخَفاجيِّ مِلْحبا

الملحب: القاطع.

وقال ابن هَرمة:

قُل للذي ظلَّ ذا لونَينِ يأكُلُني　　لقد خلَوتَ بلَحمٍ عارِمِ البَشَمِ
إيَّاك لا أُلزِمَنْ لَحيَيك من لُجُمٍ　　نِكلًا يُنكِّلُ قرَّاصًا من اللُّجُمِ
إنِّي امرؤٌ لا أصُوغُ الحَلْيَ تَعمَلُه　　كفَّاي لكنْ لِساني صائغُ الكَلِمِ

وقال الراجز:

إنِّي بَغَيتُ الشِّعرَ وابتغاني　　حتى وجدتُ الشِّعرَ في مَكاني
في عَيْبةٍ مِفتاحُها لِساني

وأنشد:

إنِّي وإنْ كان إزاري خَلَقا　　وبُرْدَتايَ سَمِلًا قد أخْلَقا
قد جعلَ اللهُ لِساني مُطلَقا

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو عثمان: والعتَّابي[٤٤] حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ، لم يَعنِ أن كل من أفهمنا من معاشر المولَّدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون، والمعدول

[٤٤] العتابي: هو كُلثوم بن عمرو التغلبي، شاعرٌ مطبوع، وكاتبٌ بليغ، وخطيبٌ مفوَّه. كان من شعراء الدولة العباسية ومن مُتقدميهم، وكان مُنقطعًا إلى البرامكة فوصفوه للرشيد ووصلوه به، فبلغ عنده كل مبلغ، وعظمت منه فوائده. قيل إنه جاء وهو حدَثٌ إلى بشَّار فأنشده:

أتَصدِفُ عن أُمامةَ أم تُقِيمُ　　وعَهدُك بالصِّبا عهدٌ قديمُ
أقولُ لمُستطارِ القلبِ عفًّى　　على عَزَماتِه السَّيرُ العديمُ
أمَا يَكفيك أنَّ دُموعَ عَيني　　شآبيبٌ يَفيضُ بها الهُمومُ
أشيمُ فلا أردُّ الطَّرْفَ إلَّا　　على أرجائِه ماءٌ سَجومُ

فمدَّ بشَّارٌ يده إليه ثم قال له: أنت بصير؟ قال: نعم. قال: عَجبًا لبصيرٍ أن يقول هذا الشعر!

عن جهته، والمصروف عن حقه، أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان، بعد أن نكون قد فهمنا عنه معنى كلام النبطي الذي قيل له: لمَ اشتريت هذه الأتان؟ قال: أركبها وتلَد لي. وقد عَلِمنا أن معناه كان صحيحًا، وقد فهمنا قول الشيخ الفارسي حين قال لأهل مجلسه: ما من شر من دَين. وإنه قال حين قيل له: ولمَ ذاك يا أبا فلان؟ قال: مِن جرَّى يتعلَّقون. وما نشكُّ أنه قد ذهب مذهبًا، وأنه كما قال معنى قول أبي الجهير الخراساني النخاس حين قال له الحجاج: أتبيع الدوابَّ المَعيبة من جند السلطان؟ قال: شريكاننا في هوازها، وشريكاننا في مداينها، وكما تجيء تكون. قال الحجَّاج: ما تقول ويلَك؟ فقال بعض من قد كان اعتاد سماع الخطأ وكلام العُلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: يقول: شركاؤنا بالأهواز وبالمدائن يبعثون إلينا بهذه الدواب؛ فنحن نبيعها على وجوهها. وقلت لخادم لي: في أي صناعة أسلَمَ هذا الغُلام؟ قال: أصحاب سند نعال. يريد: في أصحاب النعال السندية. وكذلك قول الكاتب المِغلاق للكاتب الذي دونه: اكتب لي قل حطين وريحني منه.

فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل، جعل الفصاحة واللُّكنة، والخطأ والصواب، والإغلاق والإبانة، والملحون والمُعرَب، كله سواءً، وكله بيانًا. وكيف يكون ذلك كله بيانًا، ولولا طول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام لَما عرفه؟ ونحن لم نفهم عنه إلا للنقص الذي فينا، وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لا يستدلُّون على معاني هؤلاء بكلامهم، كما لا يعرفون رطانة الرومي والصقلبي. وإن كان هذا الاسم إنما يستحقُّونه بأنا نفهم عنهم كثيرًا من حوائجهم، فنحن قد نفهم من حمحمة الفَرس كثيرًا من حاجاته، ونفهم بضغاء السِّنَّور كثيرًا من إرادته، وكذلك الكلب، والحمار، والصبي الرضيع، وإنما عنى العتَّابي إفهامك العرب حاجتك على مجرى كلام الفصحاء، وأصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا:

«مُكرَهٌ أخاك لا بَطَل»، و«إذا عزَّ أخاك فهُنْ».

ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم: ذهبت إلى أبو زيد، ورأيت أبي عمرو. ومتى وجد النحويون أعرابيًّا يفهم هذا وأشباهه بَهرَجوه[٤٥] ولم يسمعوا منه؛ لأن ذلك يدل

[٤٥] بهرجوه: زيَّفوه.

على طول إقامته في الدار التي تُفسِد اللغة وتنقص البيان؛ لأن تلك اللغة إنما انقادت واستوت واطردت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة وفي تلك الجيرة، ولفقد الخطأ من جميع الأمم. ولقد كان بين يزيد بن كَثْوة يوم قَدِم علينا البصرة وبينه يوم مات بونٌ بعيد، على أنه قد كان وضع منزله في آخر موضع الفصاحة وأول موضع العُجمة، وكان لا ينفكُّ من رُواة ومُذاكرين.

وزعم أصحابنا البصريون عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: لم أرَ قرويين أفصح من الحسن[٤٦] والحجاج. وكان، ما زعموا، لا يبرِّئهما من اللحن. وزعم أبو العاصي أنه لم يرَ قرويًّا قط لا يلحن في حديثه، وفيما يجري بينه وبين الناس، إلا ما تفقَّده من أبي زيد النحوي،[٤٧] ومن أبي سعيد المعلِّم.

وقد روى أصحابنا أن رجلًا من البلديين قال لأعرابي: كيف أهلِك؟ قالها بكسر اللام. قال: صلبًا. لأنه أجابه على فهمه، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله. وسمعت ابن بشير، وقال له المفضَّل العنبري: إني عثرت البارحة بكتاب، وقد التقطته

[٤٦] الحسن: هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن البصري. كان بارع الفصاحة، بليغ المواعظ، كثير العلم. وكان أبوه يُسمى يسارًا من أهل ميسان مولًى لزيد بن ثابت الأنصاري، وكانت أمه خَيِّرةً مملوكة لأم سلَمة زوج النبي ﷺ، وكان ربما بكى فأعطته ثديها. ومن كلامه، وقد تلا يومًا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ...﴾ «إن قومًا غنوا في المطارف العِتاق، والعمائم الرِّقاق، يطلبون الإمارات، ويُضيعون الأمانات، يتعرَّضون للبلاء وهم منه في عافية، حتى إذا أخافوا من فوقهم من أهل العفَّة، وظلموا من تحتهم من أهل الذمَّة، أهزلوا دينهم، وأسمنوا بَراذينهم، ووسَّعوا دُورهم، وضيَّقوا قبورهم. ألم ترَهم قد جدَّدوا الثياب وأخلقوا الدِّين؟ تبكي يمين أحدهم على شماله، ويأكل من غير ماله. طعامه غصب، وخدمته سُخرة. يدعو بحُلو بعد حامض، وبحارٍّ بعد بارد، وبرطب بعد يابس، حتى إذا أخذته الكظَّة تجشَّأ من البشم ثم قال: يا جارية، هاتي حاطومًا. يعني هاضومًا يهضم الطعام. يا أحمق، لا والله لن تهضم إلا دينك. أين جارك؟ أين يتيمك؟ أين مسكينك؟ أين ما أوصاك الله به؟» وله مواعظ كثيرة آية في البلاغة والاعتبار، وهو من سادات التابعين وأعيانهم. وُلِد بالبصرة سنة ٢١هـ/٦٤١م، وتُوفي بالبصرة سنة ١١٠هـ/٧٢٨م.

[٤٧] أبو زيد: هو سعيد بن أوس الأنصاري. كان إمامًا في النحو والأدب واللغة والنوادر والغريب، وكان حُجةً ثقة. أخذ عن أبي العباس المفضَّل بن محمد الضبي. قال أبو عثمان المازني: رأيت الأصمعي جاء إلى حلقة أبي زيد فقبَّل رأسه وجلس بين يدَيه، وقال: أنت سيدنا ورئيسنا منذ خمسين سنة. وله تصانيف كثيرة. وُلِد سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م، وتُوفي سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م.

وهو عندي، وقد ذكروا أن فيه شعرًا، فإن أردته وهبته لك. قال ابن بشير: أريده إن كان مقيدًا. قال: والله ما أدري أكان مقيدًا أو مغلولًا! ولو عرف التقييد لم يلتفت إلى روايته. وحكى الكسائي[٤٨] أنه قال لغلام بالبادية: من خَلقْك؟ وجزم القاف، فلم يدرِ ما قال، ولم يُجِبه، فردَّ عليه السؤال، فقال الغلام: لعلك تريد من خلقَك؟ وكان بعض الأعراب إذا سمع رجلًا يقول «نعم» في الجواب، قال: نعم وشاء. لأن لغته «نِعم». وقيل لعمر بن لجأ: قل «إنا من المجرمون منتقمين»، قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾. وأنشد الكسائي كلامًا دار بينه وبين بعض فِتيان البادية، فقال:

عَجبًا ما عَجبٌ أعجَبَني   من غُلامٍ حكَميٍّ أُصُلا
قلتُ هل أحسَستَ رَكبًا نزَلوا   حِضنًا ما دونه؟ قال هلا
قلت بيِّن ما هلا هل نزلوا؟   قال حُوبًا ثم ولَّى عَجِلا
لست أدري عندها ما قال لي   أنَعَم ما قال لي أم قال لا
تلك منه لُغةٌ تُعجِبُني   زادَتِ القلبَ خَبالًا خَبَلا

قال أبو الحسن، قال مولى زياد لزياد: أهدوا لنا هِمار وهش. قال: أي شيء تقول ويلَك؟ قال: أهدوا لنا أيرًا. يريد: أهدوا لنا عَيرًا. قال زياد: ويلك، الأول خير. وقال الشاعر يذكر جارية له لَكْناء:

أكثَرُ ما أسمَعُ منها في السَّحَرْ   تذكيرُها الأنثى وتأنيثُ الذَّكَرْ
والسَّوءَةُ السَّوآءُ في ذِكرِ القَمَرْ

فزياد قد فهم عن مولاه، وصاحب الجارية قد فهم عن جاريته، ولكنهما لم يفهما عنهما من إفهامها لهما، ولكنهما لما طال مُقامهما في الموضع الذي يكثر فيه سماعهما لهذا الضرب، صارا يفهمان هذا الضرب من الكلام.

[٤٨] الكسائي: هو علي بن حمزة الشهير بالكسائي، إمام الكوفيين في النحو واللغة، وأحد القُراء السبعة المشهورين. قال ابن الأعرابي: كان الكسائي أعلم الناس بالفقه، ضابطًا، عالمًا بالعربية، قارئًا صدوقًا، إلا أنه كان يُديم شرب النبيذ وغيره. مات بالرَّي سنة ١٩٢هـ/٨٠٧م.

(٢) ذِكر ما قالوا في مديح اللسان بالشعر الموزون واللفظ المنثور

ما جاء في الأثر وصحَّ به الخبر

قال الشاعر:

أرى الناسَ في الأخلاقِ أهْلَ تَخلُّقٍ وأخبارُهم شتَّى فعُرْفٌ ومُنكَرُ
قريبًا تَدانِيهم إذا ما رأيتَهم ومُختلِفًا ما بيْنَهم حينَ تَخبُرُ
فلا تَحمَدنَّ الدَّهرَ ظاهِرَ صَفحةٍ من المرءِ ما لم تَبلُ ما ليس يَظهَرُ
فما المرءُ إلَّا الأصغرانِ لِسانُه ومعقولُه والجسمُ خَلقٌ مُصوَّرُ
وما الزَّينُ في ثَوبٍ تراه وإنَّما يَزِينُ الفَتى مَخبورُه حينَ يُخبَرُ
فإنْ طُرَّةٌ راقَتْكَ مِنهم فرُبَّما أمَرَّ مَذاقُ العُودِ والعُودُ أخضَرُ

وقال سُوَيد بن أبي كاهل[٤٩] في ذلك:

ودَعَتْني بِرُقاها إنَّها تُنزِلُ الأعصَمَ من رأسِ اليَفَعْ[٥٠]
تُسمِعُ الحُدَّاثَ قولًا حَسَنًا لو أرادوا غيْرَه لم يُستطَعْ
ولِسانًا صَيرفيًّا صارِمًا كحُسامِ السَّيفِ ما مَسَّ قَطَعْ

وقال جرير:[٥١]

وليسَ لِسَيْفي في العِظامِ بقيَّةٌ ولا السَّيفُ أشْوى وَقْعةً من لِسانِيا

[٤٩] سويد بن أبي كاهل اليشكري: شاعرٌ مُتقدم من مُخضرَمي الشعراء في الجاهلية والإسلام. وهذه الأبيات من قصيدته البارعة التي قال فيها الأصمعي: كانت العرب تفضِّلها وتعدُّها من حِكمها. وكانت تُسميها في الجاهلية «اليتيمة»، وهي مُثبَتة كاملة بالمفضَّليات، ومشروحة بقلمنا، فمن شاءها فليرجع إليها.

[٥٠] الأعصم: صفة من صفات الظِّباء والوعول. اليفع: المكان المُرتفع.

[٥١] جرير: هو جرير بن عطية بن الخطَفى اليربوعي، يُكنى أبا حزرة. وهو والفرزدق والأخطل المقدَّمون على شعراء الإسلام، وكان جرير أكثرهم فنون شعر، وأسهلهم ألفاظًا، وأقلهم تكلُّفًا، وأرقَّهم نسيبًا، وأسيَرَهم شعرًا، مع عفَّة ودين. قال الأصمعي: كان ينهش جريرًا ثلاثة وأربعون شاعرًا فينبذهم وراء

وقال الآخَر:

وجُرحُ السَّيفِ تَدمُلُه فيَبْرا   ويَبْقى الدَّهرَ ما جَرَحَ اللِّسانُ

وقال الآخَر:

أبا ضُبَيعةَ لا تَعجَلْ بسيِّئةٍ   إلى ابنِ عمِّك واذْكُرْه بإحسانِ
إما تَراني وأثْوابي مُقارِبةٌ   ليستْ بخَزٍّ ولا من نَسجِ كَتَّانِ
فإنَّ في المَجدِ هِمَّاتي وفي لُغَتي   عُلوِيَّةٌ ولِساني غيرُ لحَّانِ

وفيما مدحوا به الأعرابيَّ إذا كان أديبًا، أنشدني ابن أبي خُزيمة، واسمه أسود:

ألَا زعَمتْ عَفْراءُ بالشَّامِ أنَّني   غُلامُ جَوارٍ لا غُلامُ حُروبُ
وإنِّي لَأُهذي بالأوانسِ كالدُّمى   وإنِّي بأطرافِ القَنا لَلُعوبُ
وإنِّي على ما كان من عُنجُهيَّتي   ولُوثةِ أعرابيَّتي لَأديبُ

وقال ابن هرمة:

لله دَرُّك من فتًى فَجَعتْ به   يومَ البَقيعِ حوادثُ الأيَّامِ
هشٌّ إذا نزَلَ الوُفودُ ببابِه   سهلُ الحِجابِ مؤدَّبُ الخُدَّامِ
فإذا رأيتَ شقيقَه وصديقَه   لم تَدرِ أيُّهما أخو الأرحامِ

وقال كعب بن سعد الغَنَوي:

حبيبٌ إلى الزُّوَّارِ غِشْيانُ بيتِه   جميلُ المُحيَّا شبَّ وهْو أديبُ
إذا ما تَراءاه الرجالُ تَحفَّظوا   فلم تَنطِقِ العَوْراءَ وهْو قَريبُ

وقال الحارثي:

وتَعلَمُ أنِّي ماجدٌ وتَرُوعُها   بقيَّةُ أعرابيَّةٍ في مُهاجِرِ

ظهره، ويرمي بهم واحدًا واحدًا، ومنهم من كان ينفخه فيرمي به، وثبت له الفرزدق والأخطل. كانت ولادة جرير سنة ٢٩هـ/٦٤٩م، وتُوفي بعد الفرزدق بسنة، وكانت وفاته باليمامة سنة ١١١هـ/٧٢٩م.

وقال الآخَر:

وإنَّ امْرَأً في الناسِ يُعطى ظُلامةً　　ويُمنَعُ نِصْفَ الحَقِّ منه لَرَاضِعُ
أألمَوتَ يَخْشى أثكَلَ اللهُ أُمَّه　　أمِ العَيشَ يَرْجو نَفْعَه وهْو ضائعُ
ويَطعَمُ ما لم يَندفعْ في مَرِيئِه　　ويَمسَحُ أعلى بَطنِه وهْو جائعُ
وإنَّ العُقولَ فاعلَمَنَّ أسِنَّةٌ　　حِدادُ النَّواحي أرهَفَتْها المَواقعُ

ويقول: كأنَّ لسانه لسان ثَور. وحدَّثني من سمع أعرابيًّا مدح رجلًا برِقَّة اللسان، فقال: كان والله لسانه أرقَّ من ورقة، وألْيَنَ من سَرَقة. وقال النبي ﷺ لحسَّان بن ثابت: ما بَقي من لسانك؟ فأخرج لسانه حتى ضرب بطرفه أرنبته، ثم قال: والله ما يَسرُّني به مِقوَلٌ من مَعد، والله لو وضعته على صخرٍ لفلَقه، أو على شعرٍ لحلَقه. قال: وسمعت أعرابيًّا يصف لسان رجل، فقال: كان يشول بلسانه شولان البروق، ويتخلل به تخلُّل الحيَّة. وأظن هذا الأعرابي أبا وجيه العكلي.

يشول: يرفع. البروق: الناقة إذا طلبت الفحل؛ فإنها حينئذٍ ترفع ذنَبها. وإنما سُمِّي شوَّال شوَّالًا لأن النُّوق شالت بأذنابها فيه. فإن قال قائل: قد يتَّفق أن يكون شوال في وقت لا تشول الناقة بذنَبها فيه، فلِمَ بقي هذا الاسم عليه وقد ينتقل ما له لزم عنه؟ قيل له: إنما جُعل هذا الاسم له سمة حيث اتفق أن شالت النوق بأذنابها فيه، فبقي عليه كالسِّمة، وكذلك رمضان إنما سُمِّي لرمض الماء فيه وإن كان قد يتَّفق هذا الاسم في وقت البرد والحر.

ووصف أعرابي رجلًا فقال: أتيناه فأخرج لسانه كأنه مِخراق لاعب. وقال العبَّاس بن عبد المطَّلب للنبي ﷺ: يا رسول الله، فيمَ الجمال؟ قال: في اللسان. وكان مُجاشع بن دارم خطيبًا سليطًا، وكان نهشل بكيئًا منزورًا، فلما خرجَا من عند بعض الملوك عذله مُجاشع في تركه الكلام، فقال له نهشل: إني والله لا أُحسِن تَكْذابك ولا تَأْثامك، تشول بلسانك شوَلان البروق.

وقالوا: علا جميعَ الخلق مرتبةً الملائكةُ ثم الإنس ثم الجن. وإنما صار لهؤلاء المزيَّة على جميع الخلق بالعقل، وبالاستطاعة على التصرُّف، وبالمنطق.

وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان إلا صورةٌ ممثَّلة، أو بهيمة مُهمَلة. وقال رجل لخالد بن صفوان: ما لي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار، وتتدارسون الآثار، وتتناشدون الأشعار، وقع عليَّ النوم؟ قال: لأنك حمار في مِسلاخ إنسان.

وقال صاحب المنطق: حدُّ الإنسان الحيُّ الناطق المُبين. وقال الأعور الشَّنِّي:[٥٢]

وكائنْ تَرى من صامتٍ لك مُعجَبٍ زيادتُه أو نقصُه في التَّكلُّمِ
لسانُ الفتى نِصفٌ ونِصفٌ فؤادُه فلم تَبْقَ إلا صورةُ اللَّحمِ والدَّمِ

ولما دخل ضَمْرة بن ضَمْرة على النُّعمان بن المُنذِر، زرى عليه للذي رأى من دمامته وقِصَره وقلَّته، فقال النعمان: تسمع بالمُعَيدي لا أن تراه. فقال: أبيتَ اللعن، إن الرجال لا تُكال بالقُفزان، ولا تُوزَن بالميزان، وليست بمُسوكٍ يُستقى بها، وإنما المرء بأصغَرَيه؛ بقلبه ولسانه، إن صال صال بجَنان، وإن قال قال ببَيان.

واليمانية تجعل هذا للصَّقْعب النَّهدي؛ فإن كان ذلك كذلك فقد أقرُّوا أن نهدًا من معد.

وكان يُقال: عقل المرء مدفون بلسانه.

(٣) باب في ذكر اللسان

أبو الحسن قال، قال الحسن: لسان العاقل من وراء قلبه؛ فإذا أراد الكلام تفكَّر، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت. وقلب الجاهل من وراء لسانه؛ فإن همَّ بالكلام تكلَّم به، له أو عليه.

قال أبو عُبيدة، قال أبو الوجيه: حدَّثني الفرزدق[٥٣] قال: كنَّا في ضيافة معاوية بن أبي سفيان، ومعنا كعب بن جُعيل التغلبي، فقال له يزيد: إن ابن حسان — يريد عبد الرحمن بن حسان — قد فضحنا، فاهْجُ الأنصار. قال: أرادِّي أنت إلى الإشراك بعد

[٥٢] هذان البيتان يُروَيان لزُهير بن أبي سُلمى، وهما ضِمن معلَّقته، ويظهر أن هذا من خلط الرواة وعبثهم.

[٥٣] الفرزدق: هو همَّام بن غالب بن صَعصعة التميمي، ويُكنى أبا فراس. وهو وجرير والأخطل الذين ذهبوا بالتقدُّم على شعراء الإسلام. وكان شاعرًا فخم العبارة، شديد أسْر الكلام، جيِّد الأسلوب. وكانت بينه وبين جرير والأخطل مناقضات ومنافرات ومنافسات وأهاجٍ. مات سنة ١١٠هـ/٧٢٨م، ورثاه جرير بأبيات منها:

فلا ولَدتْ بعدَ الفرزدقِ حاملٌ ولا ذاتُ بَعلٍ من نِفاسٍ تَعلَّتِ
هو الوافدُ الميمونُ والرَّاتقُ الثأى إذا النَّعلُ يومًا بالعَشيرةِ زلَّتِ

الإيمان؟ لا أهجو قومًا نصروا رسول الله ﷺ، ولكني أدلُّك على غلام منا نصراني كأن لسانه لسان ثور. يعني الأخطل.

وقال سعد بن أبي وقاص لعمر ابنه حين نطق مع القوم فبذَّهم، وقد كانوا كلَّموه في الرضا عنه: هذا الذي أغضبني عليه؛ أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون قومٌ يأكلون الدنيا بألسنتهم، كما تلحس الأرضَ البقرةُ بلسانها.»

وقال معاوية لعمرو بن العاص: يا عمرو، إن أهل العراق قد أكرهوا عليًّا على أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضُمَّ إليك رجلٌ طويل اللسان، قصير الرأي، فأجِد الحز، وطبِّق المَفصل، ولا تَلقَه برأيك كله.

والعَجب من قول ابن الزُّبير للأعراب: سلاحكم رَث، وحديثكم غَث. وكيف يكون هذا وقد ذكروا أنه أحسن الناس حديثًا، وأن أبا نضرة وعبد الله بن أبي بكر إنما كانا يحكيانه؟ فلا أدري إلا أن يكون حسن حديثه هو الذي ألقى الحسد بينه وبين كل حسن الحديث.

وقد ذكروا أن خالد بن صفوان تكلَّم في بعض الأمر، فأجابه رجل من أهل المدينة بكلام لم يظن خالد أن الكلام كان عنده، فلما طال بهما المجلس كأن خالد عرَّض له[٥٤] ببعض الأمر، فقال المدني: يا أبا صفوان، ما من ذنب إلا اتفاق الصناعتَين. ذكر ذلك الأصمعي، قال فضَّال الأزرق، قال رجل من بني مِنقر: تكلَّم خالد بن صفوان في صلح بكلام لم يسمع الناس قبله مِثله، وإذا أعرابي في بَتٍّ[٥٥] ما في رجلَيه حذاء، فأجابه بكلامٍ وددتُ والله أني كنت متُّ وأن ذلك لم يكن؛ فلما رأى خالدٌ ما نزل بي قال: كيف نُجاريهم وإنما نحكيهم، وكيف نُسابقهم وإنما نجري على ما سبق إلينا من أعراقهم؟[٥٦] وليُفرخ روعُك؛[٥٧] فإنه من مُقاعِس، ومُقاعِس لك. فقلت: يا أبا صفوان، والله ما ألومك على الأولى، ولا أدع حمدك على الأخرى.

قال أبو اليقظان، قال عمر بن عبد العزيز: ما كلَّمني رجل من بني أسد إلا تمنَّيت أن يُمَد له في حُجته حتى يكثُر كلامه فأسمعه.

---

[٥٤] في الأصل: أعرض، وليست بذاك. والصواب: عرَّض، كما أثبتناه.

[٥٥] في الأصل: بث، ولا معنى للبث الذي هو الحزن الشديد ها هنا. والصحيح أنها: بت، وهو طيلسان من خزٍّ أو نحوه، أو هو قباء غليظ.

[٥٦] أعراقهم: أصولهم.

[٥٧] ليفرخ روعك: ليهدأ بالك ولتطمئنَّ نفسك.

وقال يونس: ليس في بني أسد إلا خطيب، أو شاعر، أو قائف، أو زاجر، أو كاهن، أو فارس. قال: وليس في هُذيل إلا شاعر، أو رامٍ، أو شديد العَدْو.

التَّرجُمان بن هُزَيم بن عدي بن أبي طَحمة قال: دُعِي رقبة بن مَصقلة — أو كَرِب بن رقبة — إلى مجلس ليتكلم فيه، فرأى مكان أعرابي في شَملة، فأنكر موضعه، فسأل الذي عن يمينه عنه فخبَّره أنه الذي أعدُّوه لجوابه، فنهض مُسرعًا لا يلوي على شيء كراهةَ أن يجمع بين الديباجتَين فيتَّضع عند الجميع.

وقال خلَّاد بن يزيد: لم يكُن أحدٌ بعد أبي نضرة أحسن حديثًا من مسلم بن قُتيبة. قال: وكان يزيد بن عمر بن هُبيرة يقول: احذفوا الحديث كما يحذفه مسلم بن قتيبة.

ويزعمون أنه لم يرَوا محدِّثًا قطُّ صاحب آثار كان أجود حذفًا وأحسن اختصارًا للحديث من سفيان بن عُيينة، سألوه مرةً عن قول طاوس في ذكاة الجراد، فقال ابنه عنه: ذكاته أخذه.

(٤) وبابٌ آخر

وكانوا يمدحون شِدَّة العارضة، وقوة المُنَّة، وظهور الحُجة، وثبات الجَنان، وكثرة الريق، والعُلو عن الخصم؛ ويهجون بخلاف ذلك. قال الشاعر:

طَباقاءُ لم يَشهَدْ خُصومًا ولم يَعِشْ   حَميدًا ولم يَشهَدْ حِلالًا ولا عِطْرا

قال أبو زُبيد الطائي:[٥٨]

وخـطـيبٍ إذا تَـمُـوتُ الأوْ   جُهُ يومًا في مأقِطٍ مَشهودِ

طباقاء، يُقال للبعير إذا لم يُحسِن الضِّراب: جملٌ عياياء، وجمل طباقاء، وهو هنا للرجل الذي لا يتَّجه للحُجة. الحلال: الجماعات، ويُقال حيٌّ حِلال، إذا كانوا مُتجاورين مُقيمين. والعطر ها هنا: الحرس. المأقط: الموضع الضيِّق. والمأقط: الموضع الذي يُقتتل فيه.

[٥٨] في الأصل: أبو زيد، وليس كذلك. والصحيح أنه أبو زبيد الطائي. وأبو زبيد الطائي هو حرملة بن المنذر، شاعرٌ مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، ومات نصرانيًّا. وكان لسِنًا فصيحًا، وصَّافًا بليغًا. وهو الذي وصف الأسد في حضرة عثمان، عمَّر عمرًا طويلًا، ومات في عهد معاوية.

وقال نافع بن خليفة الغنَوي:

وخصمٍ لدى بابِ الأميرِ كأنَّهم   قُرومٌ فشا فيها الزَّوائرُ والهَدْرُ

القروم: الجمال المصاعب. الزوائر: الذين يزأرون. الهدر: صوته عند هيجه، ويُقال له الهدير.

دلَفتُ لهم دُونَ المُنى بمُلِمَّةٍ   من الدُّرِّ في أعقابِ دُرَّتِها شَذْرُ

دلفت: دنوت.

إذا القومُ قالوا أدْنِ منها وجدتَها   مُطبِّقةً يَهْماءَ ليس لها خَصْرُ

قوله: أدنِ منها، أي قلِّلها واختصِرها. وجدتها مطبقة: أي قد طبقتهم بالحجة. اليهماء: الأرض التي لا يُهتدى فيها الطريق، ويهماء ها هنا يعني التي لا يُهتدى إليها ويضل الخصوم عندها. والأيهم من الرجال: الحائر الذي لا يهتدي لشيء. وأرض يهماء: إذا لم يكن فيها علامة.

وقال الأسلع بن قِطاف الطُّهَوي:

فِداءٌ لقَومي كلُّ مَعشَرِ جارمٍ   طريدٍ ومخذولٍ بما جرَّ مُسلَمِ
هُمُ أفحَموا الخَصمَ الذي يَستقيدُني   وهم قصَموا حِجْلي وهم حقَنوا دمي[٥٩]
بأيدٍ يُفرِّجنَ المَضيقَ وألسُنٍ   سِلاطٍ وجَمعٍ ذي زُهاءٍ عَرَمرَمِ
إذا شئتَ لم تَعدَمْ لدى البابِ منهمُ   جميلَ المُحيَّا واضحًا غيْرَ تَوءمِ

التوءمان: الأخوان المولودان في بطن.

وقال التميمي في ذلك:

أمَا رأيتَ الألسُنَ السِّلاطا   والجاهَ والإقدامَ والنَّشاطا؟
إنَّ النَّدى حيث ترى الضِّغاطا

[٥٩] حجلي: قيدي.

ذهب في البيت الأخير إلى قول الشاعر:

يَسقُطُ الطَّيرُ حيثُ يَنتثِرُ الحَبُّ وتُغْشى مَنازِلُ الكُرَماءِ

وإلى قول الآخَر:

يَرفَضُّ عن بيتِ الفقيرِ ضُيوفُه وترى الغِنى يَهدي لك الزُّوَّارا

وأُنشدَ في المعنى الأول:

وخطيبِ قوم قدَّموه أمامَهم ثقةً به مُتخمِّطٍ تيَّاحِ
جاوَبتُ خُطْبتَه فظلَّ كأنَّه لمَّا خطَبتُ مملَّحٌ بمِلاحِ

المُتخمط: المُتكبر مع غضب. التيَّاح والمِتيَح: الذي يعرض في كل شيء ويدخل فيما لا يعنيه. قوله: مملَّح بملاح؛ أي مُنقبض كأنه مُلِّح من المِلح.
وأُنشدَ أيضًا:

أرِقتُ لضوءِ بَرقٍ في نَشاصِ تَلألأَ في مُملَّاةٍ غِصاصِ

النشاص: السحاب الأبيض المُرتفع بعضه فوق بعض، وليس بمُنبسط. والتلألؤ، ظهور البرق في سرعة. مملاة بالماء، غصاص: قد غُصَّت بالماء.

لَواقِحُ دُلَّحٌ بالماءِ سُحْمٌ تَمجُّ الغيثَ من خَلَلِ الخَصاصِ

اللواقح: التي قد لقحت من الريح. والدلح: الدانية الظاهرة المثقلة بالماء. سُحم: سود. الخصاص ها هنا: خلل السحاب.

سَلِ الخُطباء هل سبَحوا كسَبْحي بُحورَ القولِ أو غاصوا مَغاصي
لِساني بالنَّثير وبالقوافي وبالأسجاعِ أمهَرُ في الغِواصِ

النثير: الكلام المنثور. القوافي: خواتم أبيات الشعر. الأسجاع: الكلام المزدوج على غير وزن.

من الحُوتِ الذي في لُجِّ بَحرٍ يُجِيدُ الغَوصَ في لُجَجِ المَغاصِ
لَعَمْرُك إنَّني لأُعِفُّ نَفْسي وأستُرُ بالتَّكرُّم من خَصاصِ

وأُنشدَ لرجل من بني ناشب بن سليمان بن سلامة بن سعد بن مالك بن ثعلبة:

لَنا قَمرُ السماءِ وكلُّ نَجمٍ يُضيءُ لَنا إذا القَمرانِ غارا
ومن يَفخَرْ بغيرِ أبي نِزارٍ فليسَ بأوَّلِ الخُطباءِ جارا

وأنشد للأقرع:

إنِّي امْرُؤٌ لا أُقيلُ الخَصْمَ عَثْرتَه عندَ الأميرِ إذا ما خَصمُه طَلَعا
يُنيرُ وجْهي إذا جدَّ الخِصامُ بنا ووجهُ خَصْمي تراه الدَّهرَ مُلتفِعا

وأُنشدَ:

تراه بنَصْري في الحَفيظةِ واثقًا وإنْ صدَّ عنِّي العَينُ منه وحاجِبُه
وإنْ خطَرتْ أيدي الكُماةِ وجدتَني نَصورًا إذا ما استَيبسَ الرِّيقَ عاصِبُه

عاصبه: يابسه، يعتصم به حتى يتم كلامه. الكماة: جمع كَمِي، والكَميُّ الرجل المتكمِّي، وهو المتكمِّي بالسلاح؛ يعني المتكفِّر به المتستِّر، ويُقال: كمَّى الرجل شهادته يكمِّيها، إذا كتمها وسترها.

وقال ابن أحمر، وذكر الريق والاعتصام به:

هذا الثَّناءُ وأجدِرْ أنْ أُصاحِبَه وقد يُدوِّمُ رِيقَ الطَّامعِ الأملُ

وقال الزُّبير بن العوَّام وهو يرقِّص ابنه عُروة:

أبيَضُ من آلِ أبي عَتِيقِ مُبارَكٌ من ولدِ الصِّدِّيقِ
أَلَذُّه كما أَلَذُّ رِيقي

وقالت امرأة من بني أسد:

أَلَا بَكَرَ النَّاعي بخَيرِ بَنِي أَسَدْ　　　بعمرِو بنِ مسعودٍ وبالسيِّدِ الصَّمَدْ
فمَن كان يَعْيا بالجوابِ فإنَّه　　　أبو مَعقِلٍ لا حَجْرَ عنه ولا صَدَدْ
أثاروا بصَحْراءِ الثَّويَّةِ قبْرَه　　　وما كنتُ أَخْشى أَنْ تَناءى به البَلَدْ

تناءى: تبعد. الثوية: موضع يُقال له صحراء الثوية، ومن قال الثُّوية فهي تصغير الثَّوية.

وقال أوس بن حَجرٍ في فَضالة بن كَلَدة:

أبا دُلَيجةَ من يُوصى بأرمَلةٍ　　　أم من لأشعَثَ ذي هِدمَينِ طِمْلالِ
أم من يكونُ خطيبَ القومِ إن حفَلوا　　　لدى المُلوكِ أُولي كيدٍ وأقوالِ؟

هدمين: ثوبين خلَقين، يُقال ثوبٌ أهدام، إذا كان خلَقًا. والطملال: الفقير.

وقال أيضًا في فضالة بن كلدة:

أَلَهْفي على حُسنِ آلائِه　　　على الجابرِ الحيِّ والحارِبِ
ورِقْبتِه حتَماتِ المُلُو　　　كِ بيْنَ السُّرادقِ والحاجبِ
ويكفي المقالةَ أهْلَ الرِّجا　　　لِ غيْرَ مَعِيبٍ ولا عائبِ

ورقبته: انتظاره إذن الملوك. وجعله بين السرادق والحاجب ليدل على مكانته من الملك.

وأُنشدَ أيضًا:

وخَصمٍ غِضابٍ يُنغِضونَ رُءوسَهم　　　أُولي قَدَمٍ في الشَّغبِ صُهْبٍ سِبالُها
ضربتُ لهم إبْطَ الشِّمالِ فأصبحتْ　　　يَرُدُّ غُواةً آخرين نَكالُها

إبط الشمال: يعني الفؤاد؛ لأنه يكون في تلك الناحية.

وقال شُتَيم بن خُوَيلد:

وقلتُ لسيِّدِنا يا حَليمُ　　　إنَّك لم تأسُ أسوًا رَفيقا
أعَنتَ عَديًّا على شَأوِها　　　تُعادي فريقًا وتُبْقي فريقا
زجَرتَ بها ليلةً كلَّها　　　فجئتَ بها مُؤيِدًا خَنفقيقا

تأسو: تُداوي، أسوًا وأسًى مصدران، والآسي الطبيب. ومؤيد: داهية. خنفقيق: داهية أيضًا. الشأو: الغَلوة لركض الفَرس.

وأُنشدَ لآدم مولى بَلعَنبر، يقولها لابن له:

يا بِأبي أنتَ ويا فوق بِأَبْ ... يا بِأَبي خُصيُك من خُصيِ وزُبْ
أنتَ الحبيبُ وكذا قولُ المُحِب ... جنَّبَك اللهُ مَعاريضَ الوَصَبْ
حتى تُفيدَ وتُداوي ذا الجَرَبْ ... وذا الجُنونَ من سُعالٍ وكَلَبْ
والحُدْبَ حتى يَستقيمَ ذو الحَدَبْ ... وتَحمِلَ الشَّاعِرَ في اليومِ العَصِبْ
على مَباهيرَ كثيراتِ التَّعَبْ ... وإنْ أرادَ جَدِلٌ صَعبٌ أرِبْ
خُصومةً تَنقُبُ أوساطَ الرُّكَبْ ... أظلَعتَه من رُتَبٍ إلى رُتَبْ
حتى تَرى الأبصارُ أمثالَ الشُّهُبْ ... يَرمي بها أشوَسُ مِلحاحٌ كَلِبْ

مُجرَّبُ الشَّدَّاتِ ميمونٌ مِذَبْ

الوصب: المرض. والعصب: الشديد، يُقال: يوم عَصِب وعصيب وعصبصب، إذا كان شديدًا. مباهير: متاعيب قد علاهم البُهر. الأرب، يُقال: رجل أريب وأرِب وله أرَب، إذا كان عاقلًا أديبًا حازمًا. أظلعته، يُقال: ظلع الرجل إذا خمع في مشيه. الرتبة: واحدة الرتب والرتبات، وهي الدَّرج، وهي ها هنا الأشياء المختلفة؛ أي تُخرجه من شيء إلى شيء. الأشوس: الذي ينظر بمؤخر عينه، ملحاح: مُلح، من الإلحاح على الشيء. كلب: أي الذي قد كلَب. مذب: أي يذبُّ عن حريمه وعن نفسه.

وقالت ابنة وثيمة ترثي أباها وثيمة بن عثمان:

الواهِبُ المالَ التِّلا ... دَ لَنا ويَكْفينا العظيمةْ
ويكونُ مِدرَهنا إذا ... نزَلتْ مُجلِّحةٌ عظيمةْ
واحمرَّ آفاقُ السَّما ... ءِ ولم تَقَعْ في الأرضِ دِيمةْ
وتَعذَّرَ الآكالُ حتى ... كانَ أحمَدَها الهشيمةْ
لا ثُلَّةٌ تَرْعى ولا ... إبلٌ ولا بَقَرٌ مُسِيمةْ
ألْفَيتَه مأوى الأرا ... مِلِ والمُدفَّعةِ اليتيمةْ
والدافِعَ الخَصْمَ الألَدَّ ... إذا تُفُوضِحَ في الخُصومةْ
بلِسانِ لُقمانَ بنِ عا ... دَ وفَصلِ خُطبتِه الحكيمةْ
ألْجَمتَهم بعدَ التَّدا ... فُعِ والتَّجاذبِ في الحكومةْ

التلاد: القديم من المال. والطارف: المستفاد. والمدره: لسان القوم المتكلم عنهم. مجلحة: أي داهية مُصممة. احمر آفاق السماء: اشتد البرد وقل المطر وكثُر القحط. ديمة: واحدة الدِّيَم، وهي الأمطار الدائمة مع سكون. تعذَّر: تمنَّع. الآكال: جمع أُكْل، وهو ما يؤكل. الهشيمة: ما يُهشَّم من الشجر، أي يُكسر. الثلة: ما بين الست إلى العشر من الغنم. مسيمة: راعية.

وكانت العرب تعظِّم شأن لقمان بن عاد الأكبر والأصغر، ولُقَيْم بن لُقمان في النباهة والقدر، وفي العلم والحكم، وفي اللسان وفي الحِلم. وهذان غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن على ما يقول المفسِّرون. ولارتفاع قدره وعِظم شأنه قال النمر بن تولب:

لُقَيمُ بنُ لُقمانَ من أختِه فكانَ ابنَ أختٍ له وابْنَما
ليالِيَ حُمِّقَ فاستحصَنتْ عليه فغُرَّ بها مُظلِما
فغُرَّ بها رَجلٌ مُحكِمٌ فجاءتْ به رَجلًا مُحكِما

وذلك أن أخت لقمان قالت لامرأة لقمان: إني امرأةٌ مُحمِقة، ولقمان رجلٌ مُنجِب مُحكِم، وأنا في ليلة طُهري، فهَبي لي ليلتك. ففعلت، فباتت في بيت امرأة لقمان، فوقع عليها فأحبلها بلقيم؛ فلذلك قال النمر بن تولب ما قال. والمرأة إذا ولدت الحمقى فهي مُحمِقة، ولا يُعلَم ذلك حتى يُرى ولد زوجها من غيرها أكياسًا.

وقالت امرأةٌ ذات بنات:

وما أُبالي أن أكونَ مُحمِقةْ إذا رأيتُ خُصْيةً مُعلَّقةْ

وقال الآخَر:

أزْرى بسَعيِكَ أنْ كُنتَ امْرَأً حَمِقًا من نَسلِ ضاويةِ الأعراقِ مِحماقِ

ضاوية الأعراق: أي ضعيفة الأعراق نحيفتها، يُقال: رجل ضاوٍ وفيه ضاوية، إذا كان نحيفًا قليل الجسم، وجاء في الحديث: «اغترِبوا لا تضووا.» أي لا يتزوج الرجل القرابة القريبة فيجيء ولده ضاويًا، والفعل منه ضوِي يَضوى ضوًى. والأعراق: الأصول، والمحماق: التي عادتها أن تلد الحمقى.

ولبغضهم في البنات قالت إحدى القوابل:

أيا سَحابُ طَرِّقي بخَيرِ وطَرِّقي بخُصْيةٍ وأيْرِ
ولا تُرينا طَرَفَ البُظَيرِ

وقال آخَر في إنجاب الأمَّهات، وهو يُخاطب بني إخوته:

عَفاريتًا عليَّ وأكلِ مالي وحِلمًا عن أُناسٍ آخَرينا
فهلَّا غيْرَ عمِّكمُ ظلَمتُم إذا ما كُنتُمُ مُتظلِّمينا
فلَوْ كُنتُم لِكَيِّسةٍ أكاسَتْ وكَيسُ الأمِّ أكيَسُ لِلبَنِينا
وكانَ لَنا فَزارةُ عمَّ سُوءٍ وكنتُ له كشَرِّ بَنِي الأخينا

ولبغض البنات هجر أبو حمزة الضبِّي خيمة امرأته، وكان يقيل ويبيت عند جيران له، حين ولدت امرأته بنتًا، فمرَّ يومًا بخبائها وإذا هي ترقِّصها وتقول:

ما لأبي حَمْزةَ لا يَأتِينا يَظلُّ في البيتِ الذي يَلِينا
غَضْبانَ أنْ لا نَلِدَ البَنِينا تاللهِ ما ذلك في أيدِينا
وإنَّما نأخُذُ ما أُعطِينا ونحنُ كالأرضِ لِزَارِعِينا
نُنبِتُ ما قد زَرَعوه فِينا

فغدا الشيخ حتى ولج البيت، فقبَّل رأس امرأته وابنتها.

وهذا الباب يقع في كتاب الإنسان من كتاب «الحيوان»، وفي فضل ما بين الذكر والأنثى تامًّا، وليس هذا الباب مما يدخل في باب البيان والتبيين، ولكن قد يجري السبب فيُجرى معه بقدر ما يكون تنشيطًا لقارئ الكتاب؛ لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم كان ذلك أروح على قلبه وأزيَد في نشاطه إن شاء الله.

وقد قال الأول في تعظيم شأن لقيم بن لقمان:

قُومي اصبَحيني فما صِيغَ الفتى حَجَرًا لكنْ رهينةَ أحجارٍ وأرماسِ
قُومي اصبَحيني فإنَّ الدَّهرَ ذو غِيَرٍ أفْنى لُقَيمًا وأفْنى آلَ مرماسِ
اليومَ خَمرٌ ويَبْدو في غدٍ خَبرٌ والدَّهرُ من بينِ إنعامٍ وإيآسِ
فاشرَبْ على حَدَثانِ الدَّهرِ مُرتفِقًا لا يَصحَبُ الهَمَّ قَرعُ السِّنِّ بالكاسِ

اصبحيني: الصَّبوح شرب الغداة. والغبوق: شرب العشي. الرمس: القبر، يُقال: رمست الميت أرمِسه وأرمُسه إذا دفنته.

وقال أبو الطَّمَحان القَيني[٦٠] في ذِكر لقمان:

إنَّ الزَّمانَ ولا تَفْنى عَجائبُه   فيـه تَـقـطُّـعُ أُلَّافٍ وأقْـرانِ
أمسَتْ بَنُو القَينِ أفْراقًا مُوزَّعةً   كأنَّهم من بقايا حيٍّ لُقمانِ

وقد ذكرت العرب هذه الأمم البائدة، والقرون السالفة، ولبعضهم بقايا قليلة، وهم أشلاء في العرب مُتفرقون مغمورون، مثل: جُرْهم، وجاسم، ووبار، وعملاق، وأميم، وطَسم، وجديس، ولقمان، والهس ماس، وبني الناصور، وقَيل بن عتر، وذي جدَن. ويُقال في بني الناصور إن أصلهم من الروم.

فأما ثمود فقد خبَّر الله عز وجل عنهم فقال: ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾. وقال: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾. أنا أعجب من مسلم يصدِّق بالقرآن ويزعم أن في قبائل العرب من بقايا ثمود. وكان أبو عُبيدة يتأوَّل قوله: ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾، أن ذلك إنما وقع على الأكثر وعلى الجمهور الأكبر. وهذا التأويل أخرجه من أبي عُبيدة سوء الرأي في القوم، وليس له أن يجيء إلى خبرٍ عام مُرسَل غير مقيَّد، وخبر مُطلَق غير مستثنًى منه، فيجعله خاصًّا كالمستثنى منه. وأي شيء بقي لطاعن أو مُتأول بعد قوله: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾؟ فكيف يقول ذلك إذا كنا نحن قد نرى منهم في كل حي باقية؟ معاذ الله من ذلك. ورووا أن الحجَّاج قال يومًا على المِنبر: يزعمون أنَّا من بقايا ثمود، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾.

فأما الأمم البائدة من العجم، مثل كَنْعان ويونان وأشباه ذلك، فكثير، ولكن العجم ليست لها عناية بحفظ شأن الأموات ولا الأحياء!

---

[٦٠] أبو الطمحان القيني: هو حنظلة بن الشرقي القيني القضاعي، شاعرٌ فارس، خاربٌ صعلوك، أدرك الجاهلية والإسلام فكان خبيثًا فيهما، وهو القائل:

إذا قيلَ أيُّ الناسِ خَيرٌ قبيلةً   وأصبَرُ يومًا لا تُوارى كواكبُه
فإنَّ بَني لأمِ بنِ عمرٍو أرومةٌ   علَتْ فوقَ صَعبٍ لا تُنالُ مَراقبُه
أضاءتْ لهم أحسابُهم ووُجوهُهم   دُجى اللَّيلِ حتى نظَّمَ الجَزْعَ ثاقِبُه
لهم مَجلِسٌ لا يُحصَرونَ عن النَّدى   إذا مَطلبُ المعروفِ أجدَبَ راكِبُه

وقال المُسيَّب بن عَلَس[٦١] في ذِكر لقمان:

وإلَيكَ أعملتُ المَطيَّةَ مِن ... سَهلِ العِراقِ وأنتَ بالقَفْرِ
أنتَ الرَّئيسُ إذا هُمْ نزَلوا ... وتَوجَّهوا كالأُسْدِ والنُّمْرِ
لو كنتَ من شيءٍ سِوى بَشَرٍ ... كنتَ المُنوَّرَ ليلةَ القَدْرِ
ولأنتَ أجوَدُ بالعطاءِ من الرَّ ... يَّانِ لمَّا جادَ بالقَطْرِ
ولأنتَ أشجَعُ من أُسامةَ إذ ... نَقَعَ الصُّراخُ ولجَّ في الذُّعْرِ[٦٢]
ولأنتَ أبيَنُ حينَ تَنطِقُ من ... لُقمانَ لمَّا عَيَّ بالأمْرِ

وقال لبيد بن ربيعة الجعفري:

وأخلَفَ قُسًّا لَيتَني ولوَ انَّني ... وأعيا على لقمانَ حُكمُ التَّدبُّرِ
فإنْ تَسألينا كيف نحنُ فإنَّنا ... عَصافيرُ من هذا الأنامِ المُسحَّرِ

السَّحَر: الرئة، والمسحر المُعلل بالطعام والشراب، والمسحر المخدوع، كما قال امرؤ القيس:

أرانا مُوضِعِينَ لأمرٍ غَيبٍ ... ونُسحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرابِ

أي نُعلَّل؛ فكأنا نُخدَع ونُسحَر بالطعام وبالشراب.
وقال الفرزدق:

لئنْ حَومَتي صانتْ مَعَدٌّ حِياضَها ... لقد كان لقمانُ بنُ عادٍ يَهابُها

---

[٦١] قوله: وقال المسيب بن علس، رأيت هذه الأبيات منسوبة إلى الأعشى ومُثبَتة في ديوانه.
[٦٢] هذا البيت مركَّب من بيتَين؛ أولهما للمسيب بن علس حيث يقول:

ولأنت أشجع من أسامة إذ ... يقع الصراخ ولج في الذعرِ

وثانيهما لزُهير بن أبي سُلمى حيث يقول:

ولنِعمَ حَشوُ الدِّرعِ أنت إذا ... دُعيت نَزالِ ولُجَّ في الذُّعرِ

وليس من الصواب نسبة هذا البيت أو بعضه للأعشى. وأسامة: الأسد. نقع الصراخ: ارتفع.

وقال آخَر:

إذا ما ماتَ مَيْتٌ من تَميمٍ فسَرَّكَ أنْ يعيشَ فجِئْ بِزادِ
بخُبزٍ أو بلَحمٍ أو بتَمرٍ أو الشيءِ المُلفَّفِ في البِجادِ
تراه يُطوِّفُ الآفاقَ حِرصًا ليَأكُلَ رأسَ لقمانَ بنِ عادِ

وقال أُفنون التغلبي:

لو أنَّني كنتُ من عادٍ ومن إرَمٍ ربيبَ قَيلٍ ولقمانٍ وذي جَدَنِ

وقال آخَر:

ما لذَّةُ العَيشِ والفتى لِلدَّ هرِ والدَّهرُ ذو فُنونِ
أهلَكَ طَسْمًا وقبلَ طَسْمٍ أهلَكَ عادًا وذا جُدُونِ
وأهلَ جاسمٍ ومأربٍ وحيَّ لُقمانَ والنقونِ
واليُسرُ للعُسرِ والتَّغنِّي للفَقرِ والحيُّ للمَنونِ

قال: وهم وإن كانوا يُحبون البيان والطلاقة، والتحبير والبلاغة، والتخلُّص والرشاقة، فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهَذَر والتكلف والإسهاب والإكثار؛ لما في ذلك من التزيُّد والمُباهاة، واتباع الهوى، والمنافسة في العُلو والقدر. وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة؛ لأن ذلك يدعو إلى السلاطة، والسلاطة تدعو إلى البذاء، وكل مِراءٍ في الأرض فإنما هو من نتاج الفضول. ومن حصَّل كلامه وميَّزه، وحاسَب نفسه، وخاف الإثم والذم، أشفق من الضراوة وسوء العادة، وخاف ثمرة العُجب وهُجنة القُبح، وما في حب السُّمعة من الفتنة، وما في الرياء من مجانبة الإخلاص.

ولقد دعا عُبادة بن الصامت بالطعام بكلامٍ ظُن أنه ترك فيه المحاسبة، فقال أوس بن شدَّاد: إنه قد ترك فيه المحاسبة. فاسترجع ثم قال: ما تكلَّمت بكلمة منذ بايعت رسول الله ﷺ إلا مزمومةً مخطومة. قال، وروَوا عن حمَّاد بن سلَمة، عن أبي حمزة، عن إبراهيم قال: إنما يَهلِك الناس في فضول الكلام، وفضول المال. وقال: دَعِ المَعاذر؛ فإن أكثرها مَفاجر. وإنما صارت المعاذر كذلك لأنها داعية إلى التخلص بكل شيء. وقال

سلَّام بن أبي مُطيع، قال لي أيوب: إيَّاك وحِفظَ الحديث. خوفًا عليه من العُجب. وقال إبراهيم النخعي: دع الاعتذار؛ فإنه يُخالط الكذب.

قالوا: ونظر شابٌّ وهو في دار ابن سيرين إلى فَرشٍ في داره، فقال: ما بالُ تلك الآجُرَّة أرفع من الآجُرَّة الأخرى؟ فقال ابن سيرين:[٦٣] يا ابن أخي، إن فُضول النظر تدعو إلى فُضول القول.

وزعم إبراهيم بن السندي، قال أخبرني من سمع عيسى بن علي يقول: فضول النظر من فضول الخواطر، وفضول النظر تدعو إلى فضول القول، وفضول القول يدعو إلى فضول العمل، ومن تعوَّد فضول الكلام ثم تَدارك استصلاح لسانه خرج من استكراه القول، وإن أبطأ أخرجه إبطاؤه إلى أقبح من الفضول.

قال أبو عمرو بن العلاء: أنْكحَ ضِرار بن عمرو الضبِّي ابنته مَعبدَ بن زُرارة، فلما أخرجها إليه قال لها: يا بُنيَّة، أمسِكي عليك الفضلَين. قالت: وما الفضلان؟ قال: فضل الغُلمة، وفضل الكلام.

وضِرار بن عمرو هو الذي قال: من سرَّه بَنُوه ساءته نفسه. وهو الذي لما قال له المُنذر: كيف تخلَّصت يوم كذا وكذا، وما الذي نجَّاك؟ قال: تأخير الأجل، وإكراهي نفسي على المُقِّ الطِّوال.

المقَّاء: المرأة الطويلة. والمُق: جماعة النساء الطوال. والمُق أيضًا: الخيل الطوال.

وكان إخوته قد استشالوه حتى ركب فرسه ورفع عقيرته بعُكاظ، فقال: ألا إن خير حائل أمٌّ، ألا فزوِّجوا الأمَّهات. وذلك أنه صُرِع بين القنا فانشل عليه إخوته لأمِّه حتى أنقذوه.

[٦٣] ابن سيرين: هو محمد بن سيرين، كان يُكنى أبا بكر، وكان والده سيرين عبدًا لأنس بن مالك، فكاتبه على عشرين ألفًا وأدَّاها، وكانت أمه صفية مولاة أبي بكر الصدِّيق. وكان محمد بزَّازًا، وحُبس بدَين كان عليه. قال الأصمعي: الحسن «البصري» سيدٌ سَمْح، وإذا حدَّثك الأصم — يعني ابن سيرين — بشيء فاشدُدْ يدَيك عليه، وقتادة حاطب ليل. وُلِد سنة ٣٣هـ/٦٥٣م، وتُوفي سنة ١١٠هـ/٧٢٨م.

باب الصمت

كان أعرابي يُجالس الشَّعبي يُطيل الصمت، فسُئل عن طول صمته، فقال: أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم. وقالوا: لو كان الكلام من فِضة لكان السكوت من ذهب. وقالوا: مَقتل المرء بين لَحيَيه وفكَّيه. وأخذ أبو بكر الصدِّيق، رضي الله عنه، بطرف لسانه وقال: هذا الذي أوردني الموارد. وقالوا: ليس شيءٌ أحقَّ بطول سجن من لسان. وقالوا: اللسان سبُعٌ عَقور.

وقال النبي ﷺ: «وهل يكبُّ الناسَ على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم.»

وقال ابن الأعرابي عن بعض أشياخه: تكلَّم رجل عند النبي ﷺ فخطل في كلامه، فقال النبي ﷺ: «ما أُعطيَ العبد شرًّا من طلاقة اللسان.»

وقال العايشي وخالد بن خداش،[1] حدَّثنا مهدي بن ميمون، عن غيلان بن جرير، عن مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، عن أبيه، قال: قَدِمنا على رسول الله ﷺ في وفد، فقلنا: يا رسول الله، أنت سيدنا، وأنت أطوَلنا علينا طَولًا، وأنت الجَفنة الغرَّاء. فقال النبي ﷺ: «أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستفزَّنكم الشيطان؛ فإنما أنا عبد الله ورسوله.»

وقال خالد بن عبد الله القَسْري لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: من كانت الخلافة زانَته فقد زِنتَها، ومن شرَّفَته فقد شرَّفتَها؛ فأنت كما قال الشاعر:

وتَزِيدينَ أطيَبَ الطِّيبِ طِيبًا   أنْ تَمسِّيه أينَ مِثلُك أيْنا
وإذا الدُّرُّ زانَ حُسْنَ وُجوهٍ   كان للدُّرِّ حُسْنُ وَجهِك زَيْنا

[1] كان في الأصل خالد بن حداس، وهذا خطأ، والصواب ما أثبتناه. وهو خالد بن خداش بن عجلان، يُكنى أبا الهيثم، وكان مولى المهلب بن أبي صُفرة. تُوفي سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م.

فقال عمر: إن صاحبكم أُعطيَ مَقولًا، ولم يُعطَ معقولًا. وقال الشاعر:

لسانُك معسولٌ ونفسُك شَحَّةٌ وَدُونَ الثُّريَّا مِن صديقِك مالُكا

وأخبرنا بإسناد له أن ناسًا قالوا لابن عمر: ادعُ الله لنا بدعوات. فقال: اللهم ارحمنا وعافِنا وارزقنا. فقالوا: لو زِدتنا يا أبا عبد الرحمن. قال: نعوذ بالله من الإسهاب.

وقال أبو الأسود الدؤلي في ذكر الإسهاب، يقولها في الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة، والحارث هو القُباع، وكان خطيبًا من وجوه قريش ورجالهم، وإنما سُمِّي القُباع لأنه أتي بمكتل لأهل المدينة، فقال: إن هذا المكتل لَقُباع. فسُمِّي به، والقُباع: الواسع الرأس القصير. وقال الفرزدق لجرير:

وقبْلَكَ ما أعيَيتُ كاسِرَ عينِه زيادًا فلمْ تَقدِرْ عليَّ حبائلُه
فأقسمتُ لا آتِيه تِسعينَ حِجَّةً ولو كُسِرتْ عُنْقُ القُباعِ وكاهلُه

قال أبو الأسود:

أميرَ المؤمِنِين جُزيتَ خيرًا أرِحْنا من قُباعِ بَنِي المُغِيرةْ
بَلَوناه فلُمْناه فأعْيا علينا ما يُمِرُّ لنا مَريرةْ[٢]
على أنَّ الفتى نِكْحٌ أكُولٌ ومِسهابٌ مَذاهبُه كثيرةْ

وقال الشاعر:

إيَّاكَ إيَّاكَ المِراءَ فإنَّه إلى الشرِّ دعَّاءٌ وللصَّرمِ جالبُ

وقال أبو العتاهية:

والصمتُ أجمَلُ بالفتى من مَنطقٍ في غيرِ حِينِه
كلُّ امرِئٍ في نفسِه أعلى وأشرَفُ من قَرينِه

[٢] في الأصل: ما يمر لنا هريرة، وليس بذاك، والصواب ما أثبتناه. ومعنى ما يمر مريرة: أي إنه غير مُحكِم فيما وليه من الأمر.

وكان سهل بن هارون يقول: سياسة البلاغة أشدُّ من البلاغة، كما أن التوقِّي على الدواء أشدُّ من الدواء. وكانوا يأمرون بالتبيُّن والتثبُّت، وبالتحرُّز من زلل الكلام، ومن زلل الرأي، ومن الرأي الدَّبَري. والرأي الدَّبَري هو الذي يَعرِض من الصواب بعد مُضيِّ الرأي الأول وفوت استدراكه. وكانوا يأمرون بالتحلُّم والتعلُّم، وبالتقدُّم في ذلك أشد التقدم. وقال الأحنف،[٣] قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تفقَّهوا قبل أن تسودوا. وكان يقول رضي الله عنه: السُّؤدد مع السَّواد. وأنشدوا لكُثيِّر عزَّة:

وفي الحِلمِ والإسلامِ للمرءِ وازعٌ ... وفي تركِ طاعاتِ الفؤادِ المُتيَّمِ
بصائرُ رُشدٍ للفتى مُستبِينةٌ ... وأخلاقُ صِدقٍ عِلمُها بالتعلُّمِ

الوازع: الناهي. والوزَعة: جمع وازع، وهم الناهون والكافُّون.
وقال الأفوه الأودي:

أضْحتْ قرينةُ قد تَغيَّرَ بِشرُها ... وتجهَّمتْ بتَحيَّةِ القومِ العِدا
ألوَتْ بإصبعِها وقالت إنَّما ... يَكفِيكَ ممَّا لا ترى ما قد ترى

وأنشد:

ابدَأ بنَفْسِك فانْهَها عن غَيِّها ... فإذا انتهتْ عنه فأنتَ حَكيمُ
فهُناك تُعذَرُ إنْ وعظتَ ويُقتدى ... بالقولِ منك ويُقبَلُ التعليمُ

---

[٣] الأحنف: هو الأحنف بن قيس، ويُقال إن اسمه الضحَّاك أو صخر، ويُكنى أبا بحر، وبه يُضرَب المثل في الحِلم والسيادة. وكان رسول الله ﷺ قد بعث إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فلما لم يُجيبوا قال لهم الأحنف: إنه يدعوكم إلى الإسلام وإلى مكارم الأخلاق وينهاكم عن ملايمها. فأسلموا وأسلم. ولم يَفِد فيمن وفدوا على النبي، حتى إذا كان عهد عمر وفد عليه، وبعثه عمر إلى خراسان فبيَّتهم العدو ليلًا، فكان أول من ركب الأحنف وهو يقول: إن على كل رئيس حقًّا، أن يخضب الصَّعدة أو تَندقَّا. ثم حمل عليهم فقتل صاحب الطبل، وانهزم القوم ومضوا في آثارهم حتى فتحوا مَرو الروذ في خلافة عثمان. ثم شهد صِفِّين مع علي، كرَّم الله وجهه، وكان سيِّد تميم في عهد معاوية، ثم خرج مع مصعب بن الزبير إلى الكوفة فمات وقد كبر جدًّا، وكانت وفاته في سنة ٦٩هـ/٦٨٨م.

قالوا: وكان الأحنف أشد الناس سلطانًا على نفسه، وكان الحسن أترك لما نُهي عنه.
وقال الآخر:

لا تَعذِراني في الإساءةِ إنَّه　　　شرُّ الرجالِ من يُسيءُ فيُعذَرُ

وقال الكُميت بن زيد الأسدي:

ولم يُقَلْ بعدَ زلَّةٍ لهُمُ　　　عندَ المَعاذيرِ إنَّما حَسِبوا

وأنشدني الأحوص بن محمد:

قامت تُخاصِرُني بقُنَّتِها　　　خَودٌ تأطَّرُ غادةٌ بِكْرُ
كلٌّ يرى أنَّ الشبابَ له　　　في كلِّ مُبلِغِ لذَّةٍ عُذرُ

تخاصرني: آخذ بيدها وتأخذ بيدي. والقُنة: المواضع الغليظة من الأرض في صلابة. الخود: الحسنة الخلق. تأطر: تتثنى. والغادة: الناعمة اللينة.
وقال جرير في فوت الرأي:

ولا يتَّقونَ الشرَّ حتى يُصيبَهم　　　ولا يَعرِفونَ الأمرَ إلا تَدبُّرا

ومدح النابغة ناسًا بخلاف هذه الصفة، فقال:

ولا يَحسَبونَ الخيرَ لا شرَّ بعدَه　　　ولا يَحسَبونَ الشرَّ ضربةَ لازِبِ

اللازب واللازم واحد، واللازب في مكانٍ آخر: اليابس، قال الله عز وجل: ﴿مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾. واللزبات: السِّنون الجَدبة.
وأنشد:

هفا هَفوةً كانت من المرءِ بدعةً　　　وما مِثلُه من مِثلِها بسَليمِ
فإنْ يكُ أخطا في أخيكم فرُبَّما　　　أصابَ التي فيها صلاحُ تَميمِ

وقال قائل عند يزيد بن عمر بن هُبيرة: والله ما أتى الحارث بن شريح بيوم خير قط. فقال له التَّرجمان بن هُزيم: إلا يكُن أتى بيوم خير فقد أتى بيوم شر. وذهب

الترجمان بن هزيم إلى مِثل معنى قول الشاعر:

وما خُلِقتْ بَنُو زِمَّانَ إلا أخيرًا بعدَ خَلقِ الناسِ طُرًّا
وما فعلتْ بنو زِمَّانَ خيرًا ولا فعلتْ بَنُو زِمَّانَ شَرًّا

ومن هذا الجنس من الأحاديث — وهو يدخل في باب المُلَح — قال الأصمعي: وصلت بالعلم، ونِلت بالمُلَح. قال رجلٌ مرةً: أبي الذي قاد الجيوش، وفتح الفتوح، وخرج على الملوك، واغتصب المنابر. فقال له رجل من القوم: لا جَرم، لقد أُسِر وقُتِل وصُلِب. فقال له المفتخِر بأبيه: دعني من أسْر أبي وقتله وصلبه، أبوك أنت حدَّث نفسه بشيء من هذا قط؟

قد سمعنا رواية القوم واحتجاجهم، وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن لك فيهما طبيعة، وأنهما يُناسبانك بعض المناسبة، ويُشاكِلانك في بعض المشاكلة. ولا تُهمِل طبيعتك فيستوليَ الإهمال على قوة القريحة، ويستبدَّ بها سوء العادة. وإن كنت ذا بيان، وأحسست من نفسك بالنفوذ في الخطابة والبلاغة، وبقوة المُنة يوم الحفل، فلا تُقصِّر في التماس أعلاها سورة، وأرفعها في البيان منزلة، ولا يقطعنَّك تهييبُ الجُهلاء، وتخويف الجُبناء، ولا تصرفنَّك الروايات المعدولة عن وجوهها، والأحاديث المتناولة على أقبح مخارجها.

وكيف تُطيعهم بهذه الروايات المعدولة، والأخبار المدخولة، وبهذا الرأي الذي ابتدعوه من قِبل أنفسهم، وقد سمعتَ الله تبارك وتعالى ذكر داود النبي صلوات الله عليه، فقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾؟ فجمع له بالحكمة البراعةَ في العقل، والرجاحةَ في الحِلم، والاتساع في العلم، والصواب في الحكم، وجمع له بفصل الخطاب تفصيلَ المُجمَل، وتخليص المُلتبِس،[٤] والبصر بالحز في موضع الحز، والحسم في موضع الحسم. وذكر رسول الله ﷺ شُعيبًا النبي عليه السلام، فقال: «كان شُعيبٌ خطيب الأنبياء.» وذلك عند بعض ما حكاه الله عنه في كتابه، وحلاه لأسماع عباده، فكيف تهاب منزلة الخُطباء وداودُ عليه السلام سلفُك، وشُعيب إمامك، مع ما تلَونا عليك في صدر هذا الكتاب من القرآن الحكيم، والآي الكريم؟ وهذه خُطَب رسول الله ﷺ مدوَّنة محفوظة، ومخلَّدة مشهورة، وهذه خطب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي

[٤] وتخليص الملتبس. في الأصل: وتلخيص، وليس هذا مكانها والصواب ما أثبتناه.

رضي الله عنهم، وقد كان لرسول الله شعراء يُنافحون عنه وعن أصحابه بأمره، وكان ثابت بن قيس بن الشمَّاس الأنصاري خطيب رسول الله ﷺ لا يدفع ذلك أحد.

فأما ما ذكرتم من الإسهاب والتكلُّف، والخطل والتزيُّد، فإنما يخرج إلى الإسهاب المتكلَّف، وإلى الخطل المتزيَّد، فأما أرباب الكلام، ورؤساء أهل البيان، والمطبوعون المُعاوِدون، وأصحاب التحصيل والمحاسبة، والتوقِّي والشفقة، والذين يتكلمون في صلاح ذات البَين، وفي إطفاء نائرة، أو في حمالة، أو على مِنبر جماعة، أو في عقد إملاك بين مسلم ومسلمة، فكيف يكون كلام هؤلاء يدعو إلى السلاطة والمراء، وإلى الهذر والبذاء، وإلى النفج والرياء؟ ولو كان هذا كما يقولون لكان علي بن أبي طالب وعبد الله بن عبَّاس، رضي الله عنهم، أكثر الناس فيما ذكرتم، فلِمَ خطب صَعصَعة بن صُوحان عند علي بن أبي طالب، وقد كان ينبغي للحسن البصري أن يكون أحق التابعين بما ذكرتم؟

قال الأصمعي: قيل لسعيد بن المُسيب: ها هنا قومٌ نُسَّاك يعيبون إنشاد الشعر. قال: نسَكوا نُسكًا أعجميًّا.

وزعمتم أن رسول الله ﷺ قال: «شُعبتانِ من شُعَب النفاق: البذاء والبيان، وشُعبتانِ من شُعَب الإيمان: الحياء والعِي.»

ونحن نعوذ بالله من العي، ونعوذ بالله أن يكون القرآن يحثُّ على البيان ورسولُ الله ﷺ يحثُّ على العي، ونعوذ بالله أن يجمع رسول الله ﷺ بين البذاء والبيان، وإنما وقع النهي على كل شيء جاوَز المقدار، ووقع اسم العي على كل شيء قصر عن المقدار؛ فالعيُّ مذموم، والخطل مذموم، ودين الله تبارك وتعالى بين المقصِّر والغالي.

وها هنا رواياتٌ كثيرة مدخولة، وأحاديث معلولة. وروَوا أن رجلًا مدح الحياء عند الأحنف، وأن الأحنف قال: بمَ يعود ذلك ضعفًا والخيرُ لا يكون سببًا للشر؟ ولكنا نقول: إن الحياء اسم لمقدار من المقادير، ما زاد على ذلك المقدار فسمِّه ما أحببت. وكذلك الجود اسم لمقدار من المقادير؛ فالسَّرَف اسم لما فضَل عن ذلك المقدار. وللحزم مقدار؛ فالجبن اسم لما فضل عن ذلك المقدار. وللاقتصاد مقدار؛ فالبخل اسم لما خرج عن ذلك المقدار. وللشجاعة مقدار، فالتهوُّر والخَور اسم لما جاوَز ذلك المقدار.

وهذه الأحاديث ليست لعامتها أسانيد متَّصلة، فإن وجدتها متَّصلة لم تجدها محمودة، وأكثرها جاءت مطلقة ليس لها حاملٌ محمود ولا مذموم؛ فإذا كانت الكلمة حسنةً استمتعنا بها على قدر ما فيها من الحسن.

فإن أردت أن تتكلف هذه الصناعة، وتُنسَب إلى هذا الأدب، فقرضت قصيدة، أو حبرت خطبة، أو ألَّفت رسالة؛ فإيَّاك أن تدعوَك ثقتك بنفسك، ويدعوَك عُجبُك بثمرة عقلك، إلى أن تنتحله وتدَّعيه، ولكن اعرضْه على العلماء في عرض رسائل أو أشعار أو خطب؛ فإن رأيت الأسماع تُصغي له، والعيون تحدج إليه، ورأيت من يطلبه ويستحسنه، فانتحِلْه؛ فإن كان ذلك في ابتداء أمرك، وفي أول تكلُّفك، فلم ترَ له طالبًا ولا مُستحسِنًا، فلعله أن يكون — ما دام ريِّضًا قضيبًا — تعنيسًا أن يحلَّ عندهم محل المتروك؛ فإن عاودت أمثال ذلك مرارًا، فوجدت الأسماع عنه منصرفة، والقلوب لاهية، فخُذ في غير هذه الصناعة، واجعل رائدك الذي لا يكذبك حِرصَهم عليه أو زهدهم فيه. وقال الشاعر:

إنَّ الحديثَ تَغُرُّ القومَ خَلْوتُه حتى يُلِحَّ بهم عِيٌّ وإكثارُ

وفي المثل المضروب: «كل مُجرٍ في الخلا مُسَرٌّ.» ولم يقولوا مسرور، وكلٌّ صواب.

فلا تثق في كلامك برأي نفسك؛ فإني ربما رأيت الرجل مُتماسكًا وفوق المُتماسك، حتى إذا صار إلى رأيه في شعره، وفي كلامه، وفي ابنه، رأيته مُتهافتًا وفوق المُتهافت.

وكان زُهير بن أبي سُلمى، وهو أحد الثلاثة المُتقدمين، يُسمِّي كبار قصائده «الحَوليَّات». وقال نوح بن جرير، قال الحُطيئة: خير الشعر الحَوليُّ المنقَّح. وقال البعيث الشاعر، وكان أخطب الناس: إني والله ما أُرسلُ الكلام قضيبًا خشيبًا، وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكَّك.

وكنت أظن أن قولهم «محكَّك» كلمةٌ مولَّدة، حتى سمعت قول الصعب بن علي الكناني:

أبلِغْ فَزارةَ أنَّ الذِّئبَ آكِلُها وجائعٌ سَغِبٌ شرٌّ من الذِّيبِ
أدَلُّ أطلَسُ ذو نفْسٍ مُحكَّكةٍ قد كان طارَ زمانًا في اليَعاسيبِ

وتكلَّم يزيد بن أبان الرقاشي ثم تكلَّم الحسن، وأعرابيان حاضران، فقال أحدهما لصاحبه: كيف رأيت الرجلَين؟ قال: أما الأول فقاصٌّ مُجيد، وأما الآخر فعربيٌّ محكَّك. ونظر أعرابي إلى الحسن، فقال له رجل: كيف تراه؟ قال: أرى خيشومَ حُر. وأرادوا عبد الله بن وهب الراسبي[٥] على الكلام يوم عقدت له الخوارج الرياسة، فقال: وما أنا

[٥] في الأصل: الراسي، وليس كذلك، وهو الراسبي كما أثبتناه.

والرأيَ الفطير، والكلام القضيب؟ ولما فرغوا من البيعة له قال: دعوا الرأي يغبَّ؛ فإن غُبوبه يكشف لكم عن محضه. وقيل لابن التوءم الرقاشي: تكلَّمْ. فقال: ما أشتهي الخبز إلا بائتًا. وقال عُبيد الله بن سالم لرؤبة: مُت يا أبا الجحاف إذا شئت. قال: وكيف ذاك؟ قال: رأيت اليوم عُقبة بن رؤبة يُنشد شعرًا له أعجبني. فقال رؤبة: نعم إنه ليقول، ولكن ليس لشِعره قِران. وقال الشاعر:

مَهاذبةٌ مَناجبةٌ قِرانٌ مَنادبةٌ كأنَّهم الأُسودُ

يريد بقوله: قِران، التشابه والموافقة.

وقال عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك. قال: وبمَ ذاك؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وتقول البيت وابن عمه. وذكر بعضهم شعر النابغة الجعدي فقال: مِطرفٌ بآلاف، وخِمار بوافٍ. وكان الأصمعي يفضِّله من أجل ذلك، وكان يقول: الحُطيئة عبدٌ لشعره. عاب شِعره حين وجده كله متخيَّرًا منتخَبًا مُستويًا، لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه. وقالوا: لو كان شعر صالح بن عبد القُدُّوس[٦] وسابق البَربري كان مفرَّقًا في أشعارٍ كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفع مما هي عليه بطبقات، ولصار شعرهما نوادر سائرة في الآفاق، ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالًا لم تَسِر ولم تجرِ مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك النظام عنده موقع. وقال بعض الشعراء لرجل: أنا أقول في كل ساعة قصيدةً، وأنت تقرضها في كل شهر، فلِمَ ذلك؟ قال: لأني لا أقبل من شيطاني مِثل الذي تقبل من شيطانك.[٧] قالوا: وأنشد عُقبة بن رؤبة

---

[٦] صالح بن عبد القدوس: زعموا أنه كان زِنديقًا، وأنه كان يتظاهر بمذهب الثنوية القائلين بمبدأ النور والظلمة. جرَت بينه وبين أبي الهُذيل العلَّاف مناظراتٌ كان نصيبه فيه الخِذلان. وزعموا أنه رؤي يُصلي صلاةً تامة الركوع والسجود، فقيل له: ما هذا ومذهبك معروف؟ فقال: سُنة البلد، وعادة الجسد، وسلامة الأهل والولد. ولما شاع عنه ما شاع من انتحال الزندقة طلبه المهدي العبَّاسي ونُوظِر بين يدَيه، ثم حبسه وصلبه. وكان شاعرًا من شعراء الحكمة.

[٧] ذكَّرني هذا بما يُروى عن هوميروس الشاعر اليوناني أنه جاءه يومًا الشاعر أبرخس يُفاخره بكثرة شعره وسرعة عمله، ويعيِّره بالبطء وقلة الشعر، فقال له هوميروس: بلَغني أن خنزيرة بأنطاكية عيَّرت لبؤة بطول زمن الحمل وقلة الولد، وفاخَرتها بالسرعة والكثرة، فقالت لها اللبؤة: لقد صدقت، إني ألد الولد بعد الولد، ولكن أسدًا.

أباه رؤبة بن العجَّاج شعرًا، وقال له: كيف تراه؟ قال له: يا بُنيَّ، إن أباك ليَعرِض له مِثل هذا يمينًا وشمالًا فما يلتفت إليه.

وقد روَوا ذلك في زُهير وابنه كعب.

وقيل لعقيل بن عُلَّفة: لِمَ لا تُطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق. وقيل لأبي المهوس: لِمَ لا تُطيل الهجاء؟ قال: لم أجد المثل النادر إلا بيتًا واحدًا، ولم أجد الشعر السائر إلا بيتًا واحدًا. وقال مَسلمة بن عبد الملك لنُصَيب: يا أبا الحجناء، أمَا تُحسِن الهجاء؟ قال: أمَا تراني أحسن مكان «عافاك الله» «لا عافاك الله»؟ ولاموا الكُميت بن زيد على الإطالة، فقال: أنا على القِصار أقدر. وقيل للعجَّاج: ما لك لا تُحسِن الهجاء؟ قال: هل في الأرض صانع إلا وهو على الإفساد أقدر؟ وقال رؤبة: الهدم أسرع من البناء.

وهذه الحُجج التي ذكروها عن نُصيب والكُميت والعجَّاج ورؤبة، إنما ذكروها على وجه الاحتجاج لهم، وهذا منهم جهل إن كانت هذه الأخبار صادقة. وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام؛ ويكون له طبيعة في التجارة وليست له طبيعة في الفِلاحة، ويكون له طبيعة في الحُداء أو في التعبير أو في القراءة بالألحان وليس له طبيعة في الغناء، وإن كانت هذه الأنواع كلها ترجع إلى تأليف اللحون، ويكون له طبيعة في الناي وليس له طبيعة في السرناي، ويكون له طبيعة في قصبة الراعي ولا يكون له طبيعة في القصبتَين المضمومتين، ويكون له طبع في صناعة اللحون ولا يكون له طبع في غيرها، ويكون له طبع في تأليف الرسائل والخطب والأسجاع ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر، ومِثل هذا كثير جدًّا.

وكان عبد الحميد الأكبر وابن المقفع، مع بلاغة أقلامهما وألسنتهما، لا يستطيعان من الشعر إلا ما لا يُذكَر مِثله. وقيل لابن المقفع في ذلك، فقال: الذي أرضاه لا يجيئني، والذي يجيئني لا أرضاه. وهذا الفرزدق وكان مُشتهرًا بالنساء، وكان زير غوانٍ، وهو في ذلك ليس له بيتٌ واحد في النسيب مذكور، ومع حسده لجرير، وجرير عفيف لم يعشق امرأةً قط، وهو مع ذلك أغزل الناس شعرًا. وفي الشعراء من لا يستطيع مجاوزة القصيد إلى الرجز، ومنهم من لا يستطيع مجاوزة الرجز إلى القصيد، ومنهم من يجمعهما كجرير وعمر بن لجأ، وأبي النجم، وحُميد الأرقط، والعماني. وليس الفرزدق في طواله بأشعر منه في قصاره. وفي الشعراء من يخطب، وفيهم من لا يستطيع الخطابة، وكذلك حال الخطباء في قرض الشعر، وشاعرٌ نفسه قد تختلف حالاته. وقال الفرزدق: أنا عند

الناس أشعر الناس، وربما مرَّت عليَّ ساعة ونزعُ ضِرسي أهوَنُ عليَّ من أن أقول بيتًا واحدًا. وقال العجَّاج: لقد قلت أرجوزتي التي أولها:

بكَيتُ والمُحتزَنُ البَكِيُّ   وإنَّما يأتي الصِّبا الصبيُّ
أطَرَبًا وأنت قَنسَريُّ   والدهرُ بالإنسانِ دوَّاريُّ

وأنا بالرمل، فانثالت عليَّ قوافيها انثيالًا، وإني لأريد اليوم دونها في الأيام الكثيرة فما أقدر عليه. وقال لي أبو يعقوب الخزيمي: خرجت من منزلي أريد الشمَّاسية، فابتدأت القول في مرثية لأبي التَّختاخ، فرجعت والله وما أمكنني بيتٌ واحد. وقال الشاعر:

وقد يَقرِضُ الشِّعرَ البَكيءُ لسانُه   وتُعيِي القوافي المرءَ وهْو خَطيبُ

(١) باب من القول في القوافي الظاهرة واللفظ الموجز من ملتقطات كلام النُّساك

قال بعض الناس: من التوقِّي تركُ الإفراط في التوقِّي. وقال بعضهم: إذا لم يكُن ما تريد فأرِدْ ما يكون.

وقال الشاعر:

قَدَرُ اللهِ وارِدٌ   حينَ يُقضى وُرُودُهُ
فأرِدْ ما يكونُ إنْ   لم يَكُنْ ما تُرِيدُهُ

وقيل لأعرابي في شَكاته: كيف تجدك؟ قال: أجد ما لا أشتهي، وأشتهي ما لا أجد، وأنا في زمان من جاد لم يَجِد، ومن وجد لم يَجُد. وقال بعض النُّسَّاك: أنا لِما لا أرجو أرجى مني لِما أرجو. وقال بعضهم: أعجبُ من العَجب، تركُ التعجُّب من العَجب. وقال عمر بن عبد العزيز، رحمه الله، لعبد بني مخزوم: إني أخاف الله فيما تقلَّدت. قال: لست أخاف عليك أن تخاف، وإنما أخاف عليك ألا تخاف. وقال الأحنف لمعاوية: أخافك إن صدَقتك، وأخاف الله إن كذَبتك. وقال رجل من النساك لصاحب له وهو يجود بنفسه: أما ذنوبي فإني أرجو لها مغفرة الله، ولكني أخاف على بناتي الضيعة. فقال له صاحبه: فالذي ترجوه لمغفرة ذنوبك فارجُه لحفظ بناتك. وقال رجل من النساك لصاحب له: ما لي أراك حزينًا؟ قال: كان عندي يتيمٌ أربِّيه لأوجَر فيه، فمات فانقطع عنا أجره؛ إذ بطل قيامنا بمؤنته. فقال له صاحبه: فاجتلِبْ يتيمًا آخر يقوم لك مقام الأول.

قال: أخاف ألا أصيب يتيمًا في سوء خُلُقه. قال له صاحبه: أما أنا فلو كنت في موضعك منه لما ذكرت سوء خُلُقه. وقال آخر، وسمعه أبو هريرة النحوي وهو يقول: ما يمنعني من تعلُّم القرآن إلا أني أخاف أن أضيعه. قال: أما أنت فقد عجَّلت له التضييع، ولعلك إذا تعلَّمته لم تُضيعه. وقال عمر بن عبد العزيز لرجل: من سيِّد قومك؟ قال: أنا. قال: لو كنت كذلك لم تقُل.

(٢) باب آخَر

وقالوا في حسن البيان، وفي التخلُّص من الخصم بالحق والباطل، وفي تخليص الحق من الباطل، وفي الإقرار بالحق، وفي ترك الفخر بالباطل:

قال أعرابي وذكر حِماس بن ثامل:

بَرِئتُ إلى الرَّحمنِ من كلِّ صاحبٍ ... أُصاحِبُه إلا حِماسَ بنَ ثامِلِ
وظنِّي به بيْنَ السِّماطَينِ أنَّه ... سيَنجُو بحقٍّ أو سيَنجُو بباطِلِ

وقال العُجير السَّلولي:

وإنَّ ابنَ زَيدٍ لَابْنُ عمِّي وإنَّه ... لَبَلَّالُ أيدي جِلَّةِ الشَّولِ بالدَّمِ
طَلُوعُ الثَّنايا بالمَطايا وإنَّه ... غداةَ المَرادي للخَطيبِ المُقدَّمُ
يَسُرُّكَ مَظلومًا ويُرضِيكَ ظالمًا ... ويَكفِيكَ ما حُمِّلتَه حينَ تَغرَمُ

الشول: جمع شائلة، وهي الناقة التي قد جفَّ لبنها، وإذا شالت بذنَبها بعد اللقاح فهي شائل، وجمعها شُول.

المرادي: المصادع والمقارع، يُقال: رديت الحجر بصخرة أو بمِعول، إذا ضربته بها لتكسره. والمرادة: الصخرة التي تُكسر بها الحجارة.

وقال ابن رُبْع الهُذلي:

أعَيْني ألَا فابْكِي رُقَيبةَ إنَّه ... وَصُولٌ لأرحامٍ ومِعطاءُ سائلِ
فأُقسمُ لو أدركتُه لحَميتُه ... وإنْ كانَ لم يَترُكْ مَقالًا لقائلِ

وقال بعض اليهود، وهو الربيع بن أبي الحُقيق من بني النضير، وبعثه رسول الله ﷺ إلى خيبر فقتلوه:

سائِلْ بِنا خابِرَ أكْفائِنا   والعِلمُ قد يُلْفى لدى السَّائِلِ
إنَّا إذا مالتْ دَواعي الهَوى   وأنصَتَ السَّامِعُ للقائلِ
واصطرعَ الناسُ بألبابِهم   نَقْضي بحُكمٍ عادلٍ فاصلِ
لا نَجعَلُ الباطلَ حقًّا ولا   نُلِطُّ دُونَ الحقِّ بالباطلِ
نَكرَهُ أنْ تَسْفَه أحلامُنا   فنَخمُلَ الدَّهرَ مع الخاملِ

وقال الآخر، وذكر حِماسًا أيضًا:

أتاني حِماسٌ بابْنِ ماهٍ يَسُوقُه   ليَبغِيَه خيرًا وليس بفاعلِ
ليُعطيَ عَبسًا مالَنا وصدورُنا   من الغيظِ تَغْلي مِثلَ غَلي المَراجِلِ
وقافيةٍ قِيلَتْ لَكُم لم أجِدْ لها   جوابًا إذا لم تَضرِبوا بالمَناصِلِ
فأنطِقَ في حقٍّ بحقٍّ ولم يَكُنْ   ليَرحَضَ عنكم قالةَ الخِزيِ باطِلي

ليرحض: أي ليغسل، والراحض: الغاسل، والمرحاض: الموضع الذي يُغسل فيه.
وقال عمرو بن معد يكرب:[٨]

فلوْ أنَّ قَوْمي أنطَقَتْني رِماحُهم   نطقتُ ولكنَّ الرِّماحَ أجَرَّتِ

الجرار: عود يعرض في فم الفصيل أو يُشَق به لسانه لئلا يرضع. فيقول: قومي لم يطعنوا بالرماح فأُثني عليهم، ولكنهم فرُّوا فأمسكت كالمُجَر الذي في فمه جِرار.
وقال أبو عُبيدة: صاح رؤبة في بعض الحروب التي كانت بين تميم والأزد: يا معشر بني تميم، أطلقوا من لساني! قال: أبصر رجلًا منهم قد طعن فارسًا طعنةً فصاح: لا عيًّا ولا شللًا. والعرب تقول: عيٌّ أبأسُ من شلل. كأن العيَّ فوق كل زمانة. وقالت الجهضمية:

ألَا هلَكَ الحُلوُ الحَلالُ الحُلاحِلُ   ومن عِندَه عِلمٌ وحِلمٌ ونائلُ

---

[٨] عمرو بن معد يكرب: هو فارس اليمن بلا مُنازع، وبطل من أبطال العرب في الجاهلية والإسلام. له غارات في الجاهلية معروفة، ومشاهد في الإسلام موصوفة. مات غازيًا بنهاوند عن سنٍّ عالية.

وذو خُطَبٍ يومًا إذا القومُ أُفحِموا   تُصِيبُ مَرادي قولِه ما يُحاوِلُ
بَصيرٌ بعَوراتِ الكلامِ إذا الْتَقى   شَريجانِ بينَ القومِ حقٌّ وباطلُ
أتيٌّ لِما يأتي الكريمُ بسَيفِه   وإنْ أسلَمَتْه جُندُه والقبائلُ
وليس بِمعطاءِ الظُّلامةِ عن يدٍ   ولا دُونَ أعلى سورةِ المَجدِ قابلُ

الحُلاحل: السيد. شريجان: جنسان، ويقال: الناس شَرجان وشريجان؛ أي فرقتان، ومنه حديث النبي ﷺ أنه لما بلغ الكديد أمر الناس بالفطر، فأصبح الناس شرجَين؛ أي بعضهم صائمًا وبعضهم مُفطرًا.

وأنشد أبو عُبيدة في الخطيب يطول كلامه، ويكون ذكورًا لأول خطبته وللذي بنى عليه أمره، وإن شغب شاغب فقطع عليه كلامه، أو حدث عند ذلك حدث يحتاج فيه إلى تدبيرٍ آخر، وصل الثاني من كلامه بالأول حتى لا يكون أحد كلامَيه أجود من الآخر:

فإنْ أحدَثوا شَغْبًا يُقطِّعُ نَظْمَها   فإنَّك وصَّالٌ لِما قَطَعَ الشَّغْبُ
ولو كنتَ نسَّاجًا سدَوتَ خِطابَها   بقولٍ كطعمِ الشَّهدِ بالباردِ العَذبِ

وقال نُصيب:

وما بذَلتُ ابتذالَ الثَّوبِ ودَّكمُ   وعائدٌ خَلَقًا ما كانَ يُبتذَلُ
وعِلمُك الشيءَ تَهْوى أنْ تَبيَّنَه   أشْفى بقلبِكَ من أخبارِ مَن تَسَلُ

وقال الآخر:

لَعَمرُكَ ما ودُّ اللِّسانِ بنافعٍ   إذا لم يَكُنْ أصلُ المودَّةِ في الصَّدرِ

وقال الآخر:

تَعلَّمْ فليسَ المرءُ يُولَدُ عالِمًا   وليسَ أخو عِلمٍ كمَن هو جاهِلُ
وإنَّ كبيرَ القومِ لا عِلمَ عندَه   صغيرٌ إذا التفَّتْ عليه المَحافِلُ

وقال الآخر:

فتًى مِثلُ صَفوِ الماءِ ليس بِباخلٍ   عليكَ ولا مُهدٍ مَلامًا لِباخلِ

ولا قـائـلٍ عَـوْراءَ تـؤذي رفـيـقَـه ولا رافـعٍ رأسًـا بـعَـوْراءِ قـائـلِ
ولا مُـسـلِـمٍ مَـولًـى لأمـرٍ يُـصِـيـبُـه ولا خـالـطٍ حـقًّـا مُـصِـيـبًـا بـبـاطـلِ
ولا رافـعٍ أُحـدوثـةَ الـسُّـوءِ مُـعـجَـبًـا بـهـا بـيـن أيـدي الـمَـجـلِـسِ الـمُـتـقـابِـلِ
تـرى أهـلَـه فـي نـعـمـةٍ وهْـو شـاحـبٌ طَوِي البطنِ مِخماصُ الضُّحى والأصائلِ

وقالت أخت يزيد بن الطَّثرية:

أرى الأثْلَ من بَطنِ العَقيقِ مُجاوِري قـريـبًـا وقـد غـالـتْ يَـزيـدَ غـوائـلُـه
فتًى قُدَّ قَدَّ السَّيفِ لا مُتضائلٌ ولا رَهِـلٌ لَـبَّـاتُـه وبَـآدِلُـه
فتًى لا يُرى خَرْقُ القَميصِ بخَصْرِه ولـكـنَّـمـا تُـوهـي الـقـمـيـصَ كـواهِـلُـه
إذا نَـزَلَ الأضـيـافُ كـانَ عَـذوَّرًا عـلـى الـحـيِّ حـتـى تَـسـتـقِـلَّ مَـراجِـلُـه
مـضـى فـوَرِثْـنـاه دَرِيـسَ مُـفـاضـةٍ وأبـيـضَ هِـنـديًّـا طـويـلًا حـمـائـلُـه
يَـسُـرُّكَ مَـظـلـومًـا ويُـرضِـيـكَ ظـالـمًـا وكـلُّ الـذي حُـمِّـلـتَـه فـهْـو حـامِـلُـه
أخو الجِدِّ إنْ جَدَّ الرِّجالُ وشمَّروا وذو بـاطـلٍ إنْ شـئـتَ أَلْـهـاكَ بـاطِـلُـه

يصير هذا الشعر وما أشبهه مما وقع في هذا الباب إلى الشعر الذي في أول الفصل.

(٣) باب شعر وغير ذلك من الكلام مما يدخل في باب الخطب

قال الشاعر:

عجبتُ لأقوامٍ يَعِيبون خُطْبتي وما منهمُ في مَوقفٍ بخَطيبِ

وقال الآخر:

إنَّ الكَلامَ لفي الفؤادِ وإنَّما جُعِلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلا
لا يُعجِبنَّك من خَطيبٍ قولُه حتى يكونَ مع اللسانِ أصيلا

وأنشد الآخر:

أبـرَّ فـمـا يـزدادُ إلا حَـمـاقـةً ونَوكًا وإن كانت كثيرًا مَخارِجُه

وقد يكون رديء العقل جيِّد اللسان.

وكان أبو العباس الأعمى يقول:

إذا وصَفَ الإسلامَ أحسَنَ وصْفَه   بِفِيه ويأبى قلبُه ويُهاجِرُه
وإنْ قامَ قالَ الحقَّ ما دامَ قائمًا   تَقيُّ اللسانِ كافرٌ بَعدُ سائرُه

يقول إنه يَتِيه عن قوله ويأباه ويهجره، ويقول الحق على منبره بلسانه وسائرُه كافر.

وقال قيس بن عاصم المِنقري يذكُر ما في بني مِنقر من الخطابة:

إنِّي امرُؤٌ لا يَعتَري خُلُقي   دَنَسٌ يُفنِّدُه ولا أفْنُ
من مِنقرٍ في بَيتِ مَكرُمةٍ   والأصلُ يَنبُتُ حولَه الغُصنُ
خُطباءُ حينَ يَقومُ قائلُهم   بِيضُ الوُجوهِ مَصاقِعٌ لُسْنُ
لا يَفطِنون لعَيبِ جارِهمِ   وهُمُ لحُسنِ جِوارِهم فُطْنُ

ومن هذا الباب، وليس منه في الجملة، قول الآخر:

أشارتْ بطَرْفِ العَينِ خِيفةَ أهلِها   إشارةَ مَذعورٍ ولم تَتكلَّمِ
فأيقنتُ أنَّ الطَّرْفَ قد قالَ مَرحبًا   وأهلًا وسهلًا بالحبيبِ المُسلَّمِ

وقال نُصيب:

يقولُ فيُحسِنُ القولَ ابنُ ليلى   ويفعلُ فوقَ أحسنِ ما يقولُ

وقال آخر:

ألَا رُبَّ خَصْمٍ ذي فُنونٍ عَلوْتُه   وإنْ كانَ ألْوى يُشبِهُ الحقَّ باطِلُه

فهذا هو معنى قول العتابي: البلاغة إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق. وقال الشاعر، وهو كما قال:

عَجِبتُ لإدلالِ العَيِيِّ بنفْسِه   وصَمتِ الذي قد كانَ بالقولِ أعلَمَا
وفي الصَّمتِ سَترٌ للعَيِيِّ وإنَّما   صحيفةُ لُبِّ المَرءِ أنْ يَتكلَّما

وموضع الصحيفة من هذا البيت موضع ذكر العنوان في شعره الذي رثى به عثمان بن عفان، رضي الله تعالى عنه، يقول:

ضحَّوا بأشمَطَ عُنوانُ السُّجودِ به　　يُقطِّعُ الليلَ تَسبيحًا وقُرآنا

وأنشد أيضًا:

تَرى الفِتيانَ كالنَّخلِ　　وما يُدرِيكَ ما الدَّخْلُ
وكلٌّ في الهوى لَيثٌ　　وفيما نابَه فَسْلُ
وليسَ الشأنُ في الوَصلِ　　ولكنْ أن يُرى الفَضلُ

وقال كِسرى أنوشِروان لبُزُرجمِهر: أي الأشياء خير للمرء العيي؟ قال: عقلٌ يعيش به. قال: فإن لم يكن له عقل؟ قال: فإخوانٌ يسترون عليه. قال: فإن لم يكن له إخوان؟ قال: فمالٌ يتحبَّب به إلى الناس. قال: فإن لم يكن له مال؟ قال: فعيٌّ صامت. قال: فإن لم يكن ذلك؟ قال: فموتٌ مُريح.

وقال موسي بن يحيى بن خالد، قال أبو علي: رسائل المرء في كُتُبه أدَلُّ على مقدار عقله، وأصدق شاهد على غيبه لك، ومعناه فيك، من أضعاف ذلك على المشافهة والمواجهة.

(٤) وباب آخر

ووصفوا كلامهم في أشعارهم فجعلوه كبُرود العَصْب، وكالحُلل والمعاطف، والديباج والوَشي، وأشباه ذلك.

وأنشدني أبو الجماهر جُندب بن مُدرك الهلالي:

لا يُشْترى الحَمدُ أُمنيَةً　　ولا يُشْترى الحمدُ بالمَقصرِ
ولكنَّما يُشْترى غاليًا　　فمَن يُعطِ قيمتَه يَشْترِ
ومن يَعتطِفْه على مِئزَرٍ　　فنِعْمَ الرِّداءُ على المِئزرِ

وأنشدني لابن ميَّادة:

نَعَمْ إنَّني مُهدٍ ثناءً ومِدحةً　　كبُردِ يَمانٍ يُربِحُ البَيعَ تاجِرُه

وأنشدني:

فإنْ أهلِكْ فقدْ أبقَيتُ بعدي قوافيَ تُعجِبُ المُتمثِّلينا
لَذيذاتِ المَقاطعِ مُحكَماتٍ لوَ انَّ الشِّعرَ يُلبَسُ لَارْتُدِينا

وقال أبو قردودة يرثي ابن عمَّار قتيل النُّعمان، ووصف كلامه، وقد كان نهاه عن مُنادَمته:

إنِّي نهَيتُ ابنَ عمَّارٍ وقلتُ له لا تأمَنَنْ أحمَرَ العَينَينِ والشَّعَرةْ
إنَّ المُلوكَ متى تَنزِلْ بساحتِهم تَطِرْ بِنارِكَ من نِيرانِهم شَرَرةْ
يا جَفنةً كإزاءِ الحَوضِ قد هَدَموا ومَنطِقًا مِثلَ وَشْيِ اليُمْنةِ الحَبَرةْ

وقال الشاعر في مديح أحمد بن أبي دؤاد:

وعويصٌ من الأمورِ بَهيمٌ غامضُ الشخصِ مُظلِمٌ مَستورُ
قد تَسهَّلتَ ما توعَّرَ منه بلسانٍ يَزِينُه التَّحبيرُ
مِثلُ وَشيِ البُرودِ هَلهَلَه النَّسْـ ـجُ وعِندَ الحِجاجِ دُرٌّ نَثِيرُ
حَسَنُ الصَّمتِ والمَقاطعِ إمَّا أنصَتَ القومُ والحديثُ يَدُورُ
ثُم مِن بعدُ لَحظةٌ تُورِثُ اليُسْـ ـرَ وعِرضٌ مُهذَّبٌ موفورُ

ومما يُضم إلى هذا وليس منه بعينه، قول جميل بن مَعمر:

نَمَتْ في الرَّوابي من مَعَدٍّ وأفلجَتْ على الخَفِراتِ الغُرِّ وهْي وَرِيدُ
أناةٌ على نِيرَينِ أضْحى لِداتُها بَلِينَ بَلاءَ الرَّيطِ وهْي جَديدُ

نمت: شبت. الروابي من معد: البيوت الشريفة، وأصل الرابية والرباوة ما ارتفع من الأرض. وأفلجت: ظهرت وقهرت. الخفرات: الحييَّات.

الأناة: المرأة التي فيها فتور عند القيام. وقوله على نيرين: وصفها بالقوة، كالثوب الذي يُنسج على نيرين، وهو الثوب الذي له سديان، كالديباج وما أشبهه. أضحى لداتها، اللدة: القرينة في المولد والمنشأ. فيقول: إن أقرانها قد بلين، وهي جديد لحسن غذائها ودوام نعمتها.

ومن هذا الشكل وليس منه بعينه قول الشاعر:

على كلِّ ذي نِيرَينِ زِيدَ مَحالُه مَحالًا وفي أضلاعِه زِيدَ أضْلُعا

المحال: محال الظهر، وهي فِقاره، واحدها محالة.
وقال أبو يعقوب الخزيمي الأعور: أول شعر قلتُه هذان البيتان:

بقلبي سَقامٌ لستُ أُحسِنُ وصْفَه على أنَّه ما كانَ فهْو شَديدُ
تَمرُّ به الأيامُ تَسحَبُ ذيْلَها فتَبْلى به الأيامُ وهْو جَديدُ

وقال آخر، وهو أبو الأسود الدؤلي:

أبى القلبُ إلَّا أمَّ عَمرو وحُبَّها عَجوزًا ومن يَحبِبْ عَجوزًا يُفنَّدِ
كبُردِ اليَماني قد تَقادَمَ عَهدُه ورُقْعتُه ما شئتَ في العَينِ واليَدِ

وقال ابن هرمة:

إنَّ الأديمَ الذي أصبحتَ تَعرُكه جهلًا لَذو نَغَلٍ بادٍ وذو حَلَمِ
ولن يُبَطَّ بأيدي الخالِقين ولا أيدي الخوالِقِ إلا جيِّدُ الأدَمِ

وفي غير هذا الباب وهو قريب منه قول ذي الرُّمَّة:

وفي قَعرِ حَجْرٍ من ذؤابةِ عامرٍ إمامُ هُدًى مُستبصِرُ الحُكمِ عادِلُه
كأنَّ على أعطافِه ماءَ مُذهَبٍ إذا سَمَلُ السِّربالِ طارتْ رَعابِلُه

الرعابل: القطع، وشواء مرعبَل أي مقطَّع، ورعبلت الشيء أي قطَّعته. ويُقال: ثوبٌ سَملٌ وأسمال، وأسمل الثوب وسمَل، إذا أخلق.
وهو الذي يقول:

حَوْراءُ في دَعَجٍ صَفْراءُ في نَعَجٍ كأنَّها فِضَّةٌ قد مسَّها ذهبُ

الحور: شدة بياض العين. والدعج: شدة سواد الحدقة. والنعج: اللين. قالوا: لأن المرأة الرقيقة اللون يكون بياضها بالغداة يضرب إلى الحُمرة، وبالعشي يضرب إلى

الصفرة؛ ولذلك قال الأعشى:

بَيضاءُ ضَحْوتَها وصَفْـ ـراءُ العشيَّةِ كالعَرارةْ

وقال آخر:

قد عَلِمتْ بَيضاءُ صَفراءُ الأُصُلْ لأُغنِيَنَّ اليومَ ما أغْنى رَجُلْ

وقال بشَّار بن بُرد:

وخُذي مَلابسَ زينةٍ ومُصبَّغاتٍ فهْي أفْخَرْ
وإذا دخَلتِ تَقنَّعي بالحُمْرِ إنَّ الحُسْنَ أحمَرْ

وهذان أعميان قد اهتديا من حقائق هذا الأمر إلى ما لا يبلغه تمييز البصير، ولبشار خاصةً في هذا الباب ما ليس لأحد، ولولا أنه في «كتاب الرجل والمرأة» وفي «باب القول في الإنسان» في «كتاب الحيوان» أليَقُ وأذكى لذكَرناه في هذا الموضع. ومما ذكروا فيه الوزن قوله:

زِنِي القومَ حتى تَعرِفي عندَ وَزنِهم إذا رُفِعَ المِيزانُ كيفَ أميلُ

وقال ابن الزُّبير الأسدي:

أعاذِلَ غُضِّي بعضَ لَومِك إنَّني أرى الموتَ لا يَرْضى بدَينٍ ولا رَهنِ
وإنِّي أرى دهرًا تَغيَّرَ صَرفُه ودُنيا أراها لا تَقُومُ على وَزنِ

(٥) باب آخر

ويذكُرون الكلام الموزون ويمدحون به، ويفضِّلون إصابة المقادير، ويذمُّون الخروج من التبويل. قال جعفر بن سليمان: ليس يطيب الطعام بكثرة الإنفاق وجودة التوابل، وإنما الشأن في إصابة القدر. وقال الشاعر، وهو عارق بن أُثال الطائي:

ما إنْ يَزالُ ببغدادٍ يُزاحِمُنا على البراذينِ أشْباهِ البراذينِ
أعطاهم اللهُ أموالًا ومَنزلةً من المُلوكِ بلا عقلٍ ولا دِينِ
ما شئتَ من بَغلةٍ شَقْراءَ ناجيةٍ أو من أثاثٍ وقولٍ غيرِ موزونِ

وأنشد بعض الشعراء:

رأتْ رَجلًا أوْدى السِّفارُ بجِسمِه ... فلمْ يَبْقَ إلا مَنطِقٌ وجَناجِنُ
إذا حُسِرتْ عنه العِمامةُ راعَها ... جَميلُ الخُفوقِ أغفَلَتْه الدَّواهنُ
فإنْ أكُ مَعروقَ العِظامِ فإنَّني ... إذا ما وزنتُ القومَ بالقومِ وازِنُ

الجناجن: عظام الصدر.
قال مالك بن أسماء في بعض نسائه، وكانت تُصيب الكلام كثيرًا، وربما لحنت:[٩]

أمُغطًّى منِّي على بَصَري للـ ... ـحُبِّ أم أنتِ أكمَلُ النَّاسِ حُسْنا
وحديثٍ ألَذُّه هو ممَّا ... يَنعَتُ الناعِتون يُوزَنُ وَزْنا
مَنطِقٌ عاقلٌ وتَلحَنُ أحْيا ... نًا وخيرُ الحديثِ ما كانَ لَحْنا

وقال طرَفة في المقدار وإصابته:

فسَقى ديارَك غيْرَ مُفسِدِها ... صَوْبُ الرَّبيعِ ودِيمةٌ تَهْمي

طلب الغيث على قدر الحاجة؛ لأن الفاضل ضار. وقال النبي ﷺ في دعائه: «اللهم اسقِنا سقيًا نافعًا.» لأن المطر ربما جاء في غير إبَّان الزراعات، وربما جاء والتمرُ في الجُرن، والطعام في البيادر، وربما كان في الكثرة مُجاوزًا لمقدار الحاجة. وقال النبي ﷺ: «اللهم حوالَينا ولا علينا.» وقال بعض الشعراء لصاحبه: أنا أشعر منك. قال: ولمَ؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وتقول البيت وابن عمه. وعاب رؤبة شعر ابنه عُقبة، فقال: ليس له قِران. وجعل البيت أخا البيت إذا أشبهه وكان حقه أن يوضع إلى جنبه؛ وعلى ذلك التأويل قال الأعشى:

أبا مِسمَعٍ أقصِرْ فإنَّ قَصيدةً ... متَّى تأتِكم تَلحَقْ بها أخواتُها

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾.

[٩] راجع: [الجزء الأول – باب البيان – (١) باب ذِكر ناس من البُلغاء والخطباء والأبيناء والفقهاء والأمراء ممن لا يكاد يسكت مع قلة الخطأ والزلل، الهامش رقم ٢٩].

وقال عمرو بن معد يكرب:

وكلُّ أخٍ مُفارِقُه أخُوه　　لَعَمرُ أبيكَ إلَّا الفَرقَدانِ

وقالوا فيما هو أبعد معنًى وأقل لفظًا، قال الهُذلي:

أعـامِـرُ لا آلُـوكَ إلَّا مُـهـنَّـدًا　　وجِلدُ أبي عِجلٍ وثيقُ القبائلِ

يعني بأبي عجل: الثور.
وقالوا ما هو أبعد من هذا، قال ابن عسلة الشيباني، واسمه عبد المسيح:[١٠]

وسَـمـاعِ مُـدجِـنـةٍ تُـعلِّلُـنـا　　حتى ننامَ تَناوُمَ العُجْمِ
فصحَوتُ والنَّمَريُّ يَحسَبُها　　عمَّ السِّماكِ وخالةَ النَّجمِ

النجم: واحد وجمع، والنجم: الثريا في كلام العرب. مدجنة: أي سحابة دائمة.
وقال أبو النجم فيما هو أبعد من هذا، ووصف العَير والمعيور؛ الموضع الذي يكون فيه الأعيار:

وظَلَّ يُوفِي الأكَمَ ابنُ خالِها

فهذا مما يدل على توسُّعهم في الكلام، وحمل بعضه على بعض، واشتقاق بعضه من بعض. وقال النبي ﷺ: «نِعمَت العمَّة لكم النخلة.» كأن بينها وبين الإنسان تشابُه وتشاكل من وجوه، وقد ذكرنا ذلك في «كتاب الزرع والنخل». وفي مِثل ذلك قال بعض الفصحاء:

شَهِدتُ بأنَّ التَّمرَ بالزُّبدِ طيِّبٌ　　وأنَّ الحُبارى خالةُ الكِرْوانِ

لأن الحبارى، وإن كانت أعظم بدنًا من الكروان، فإن اللون وعمود الصورة واحد؛ فلذلك جعلها خالته، ورأى أن ذلك قرابةٌ تستحقُّ بها هذا القول.

---

[١٠] انظر قصيدة عبد المسيح بن عسلة مشروحة بقلمنا في المفضَّليات ص١٣٣.

(٦) باب آخر من الشعر

مما قالوا في الخُطب واللَّسَن والامتداح به والمديح عليه

قال كعب الأشقري:

إلَّا أكُنْ في الأرضِ أخطُبُ قائمًا فإنِّي على ظهرِ الكُميتِ خَطيبُ

وقال ثابت قُطنة:

فإلَّا أكُنْ فيكم خطيبًا فإنَّني بسُمْرِ القَنا والسَّيفِ جِدُّ لَعُوبِ

وقالت ليلى الأخْيليَّة:

حتى إذا رُفِعَ اللِّواءُ رأيتَه تحتَ اللِّواءِ على الخَميسِ زَعيما

وقال الآخر:

عَجِبتُ لأقوامٍ يَعِيبونَ خُطْبتي وما منهمُ في مأقِطٍ بخَطيبِ

وهؤلاء يفخرون بخطبهم التي عليها يعتمدون بالسيوف والرماح، وإن كانوا خُطباء.

وقال دُرَيد بن الصِّمَّة:

أبلِغْ نُعَيمًا وأوفى إنْ لَقَيتَهما إنْ لم يَكُنْ كان في سَمْعَيهما صَمَمُ
فلا يَزالُ شِهابٌ يُستضاءُ به يَهْدي المَقانِبَ ما لم يُهلِكِ الصِّمَمُ
عاري الأشاجِعِ مَعصوبٌ بلِمَّتِه أمرُ الزَّعامةِ في عِرنِينِه شَمَمُ

المقانب: جمع مِقنب، والمقنب: الجماعة من الخيل ليست بالكثيرة. الأشاجع: عروق ظاهر الكف، وهي مغرز الأصابع. اللمة: الشعيرة التي ألَّت بالمنكب. زعيم القوم: رأسهم وسيدهم الذي يتكلم عنهم. والزعامة: مصدر الزعيم الذي يسود قومه. وقوله: معصوب بلمته؛ أي يعصب برأسه كل أمر. عرنينه: أنفه.

وقال أبو العبَّاس الأعمى مولى بني بكر بن عبد مناف في بني عبد شمس:

ليتَ شِعري أفاحَ رائحةُ المِســ ـكِ ما إن إخالُ بالخَيفِ أُنْسي
حين غابتْ بنو أُميَّةَ عنه والبهاليلُ من بَني عبدِ شمسِ
خُطباءٌ على المَنابرِ فُرْسَا نٌ عليها وقالةٌ غيرُ خُرْسِ
لا يُعابُون صامِتِين وإن قا لوا أصابوا ولم يَقولوا بلَبْسِ
بحُلومٍ إذا الحُلومُ استخفَّتْ ووُجوهٍ مِثلُ الدنانيرِ مُلْسِ

وقال العجَّاج:

وحاصنٍ من حاصناتٍ مُلْسِ من الأذى ومن قِرافِ الوَقْسِ

المحصنة: ذات الزوج، والحاصن: العفيفة. والوقس: الجرب.
وقال امرؤ القيس بن حجر:

ويا رُبَّ يومٍ قد أرُوحُ مُرجَّلًا حبيبًا إلى البِيضِ الكواعبِ أمْلَسا

وقال أبو العبَّاس الأعمى:

ولم أرَ حيًّا مِثلَ حيٍّ تَحمَّلوا إلى الشامِ مظلومينَ منذُ بُريتُ
أعَزَّ وأمضى حينَ تَشتجرُ القَنا وأعلَمَ بالمِسكينِ حيثُ يَبِيتُ
وأرفَقَ بالدُّنيا بأولى سياسةٍ إذا كادَ أمرُ المُسلِمينَ يَفُوتُ
إذا ماتَ منهم سيِّدٌ قامَ سيِّدٌ بَصيرٌ بعَوْراتِ الكَلامِ زَمِيتُ

وقال آخر:

لا يُغسَلُ العِرضُ من تَدنُّسِه والثَّوبُ إنْ مَسَّ مدنسًا غُسِلا
وزلَّةُ الرِّجلِ تُستقالُ ولا يَكادُ رأيٌ يُقِيلُكَ الزَّلَلا

وقال آخر في الزلل:

ألَهْفي إذ عصَيتُ أبا يَزيدٍ ولَهْفي إذ أطعتُ أبا العَلاءِ
وكانت هَفوةً من غيرِ رِيحٍ وكانت زلَّةً من غيرِ ماءِ

وقال آخر:

فإنَّكَ لم يُنذِرْكَ أمرًا تَخافُه إذا كنتَ فيه جاهلًا مِثلُ خابرِ

وقال ابن وابصة — واسمه سالم — في مقامٍ قام فيه مع ناس من الخطباء:

يا أيُّها المُتحلِّي غيْرَ شِيمتِه ومن سَجيَّتِه الإكثارُ والمَلَقُ
اعمِدْ إلى القَصدِ فيما أنتَ راكِبُه إنَّ التَّخلُّقَ يأتي دُونَه الخُلُقُ
صدَّت هُنَيدةُ لمَّا جئتُ زائرَها عنِّي بمَطروفةٍ إنسانُها غَرِقُ
وراعَها الشَّيبُ في رأسي فقلتُ لها كذاك يَصفَرُّ بعدَ الخُضْرةِ الوَرَقُ
بل مَوقفٍ مِثلِ حدِّ السَّيفِ قُمتُ به أحمي الذِّمارَ وتَرْميني به الحَدَقُ
فما زلَلتُ ولا أُلفِيتُ ذا خَطَلٍ إذا الرجالُ على أمثالِها زَلِقوا

وأنشد أعرابي من باهلة:

سأُعمِلُ نصَّ العِيسِ حتى يَكُفَّني غِنى المالِ يومًا أو غِنى الحَدَثانِ
فلَلموتُ خيرٌ من حياةٍ يُرى لها على الحُرِّ بالإقلالِ وَسمُ هَوانِ
متى يَتكلَّمْ يُلْغَ حُكمُ كلامِه وإنْ لم يَقُلْ قالوا عديمُ بَيانِ
كأنَّ الغِنى في أهلِه بُورِكَ الغِنى بغَيرِ لِسانٍ ناطقٌ بلِسانِ

وفي مثلها، في بعض الوجوه، قال عُروة بن الورد:

ذَريني للغِنى أسْعى فإنِّي رأيتُ الناسَ شرُّهم الفَقيرُ
وأهوَنُهم وأحقَرُهم لدَيهم وإنْ أمسى له نَسبٌ وخِيرُ
ويُقْصى في النَّديِّ وتَزْدريه حليلتُه ويَنهَرُه الصَّغيرُ
ويُلْقى ذو الغِنى وله جَلالٌ يكادُ فؤادُ صاحِبِه يَطيرُ
قليلٌ ذنبُه والذَّنبُ جمٌّ ولكنْ للغِنى ربٌّ غَفورُ

وقال ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنه: الهوى إلهٌ معبود. وتلا قوله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾.

وقال أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل:

تِلك عِرْسايَ تَنطِقانِ على عَمْـ ـدٍ إلى اليومِ قولَ زُورٍ وهِتْرِ
سالَتاني الطَّلاقَ أنْ رأتَا ما لي قليلًا قد جئتُماني بنُكْرِ
فلعلِّي أنْ يَكثُرَ المالُ عندي ويُعَرَّى من المَغارِمِ ظَهْري
وتُرى أعبُدٌ لنا وأواقٍ ومَناصيفُ من خوادِمَ عَشْرِ
ونَجُرُّ الأذيالَ في نِعمةٍ زَوْ لٍ تقولانِ ضَعْ عَصاك لدَهرِ
وَيْكأنْ مَن يَكُنْ له نَشَبٌ يُحـ ـبَبْ ومن يَفتقرْ يَعِشْ عَيشَ ضُرِّ
ويُجنَّبْ سِرَّ النَّجِيِّ ولكنَّ أخا المالِ مُحضَرٌ كلَّ سِرِّ

المناصيف: الخدم، واحدهم مَنصف وناصف، وقد نصَف القوم ينصفهم نصافةً إذا خدمهم. نعمة زول: حسنة، والزول: الخفيف الظريف، وجمعه أزوال.

وقال عَبيد بن الأبرص في نحو هذا وليس كمثله:

تِلكَ عِرْسي غَضْبى تُريدُ زِيالي أَلِبَينٍ تُريدُ أم لِدَلالِ؟
إنْ يَكُنْ طِبُّكِ الفِراقَ فلا أحـ ـفِلُ أنْ تَعطِفي صُدورَ الجَمالِ
كنتِ بَيضاءَ كالمَهاةِ وإذْ آتيكَ نَشْوانَ مُرْخيًا أذْيالي
فاتْرُكي مَطَّ حاجِبَيك وعِيشي معَنا بالرَّجاءِ والتَّأمالِ
زعَمتْ أنَّني كَبِرتُ وأنِّي قلَّ مالي وضنَّ عنِّي الموالي
وصحا باطِلِي وأصبحتُ شيخًا لا يُواتي أمثالَها أمثالي
إنْ تَرَيني تَغيَّرَ الرأسُ منِّي وعلا الشَّيبُ مَفرِقِي وقَذالي
فبِما أدخُلُ الخِباءَ على مَهْـ ـضومةِ الكَشحِ طَفْلةٍ كالغَزالِ
فتعاطيتُ جِيدَها ثم مالتْ مَيَلانَ الكَثيبِ بينَ الرِّمالِ
ثم قالت فِدًى لنفسِك نفْسي وفِداءٌ لمالِ أهلِكَ مالي

الكشح: الخصر. وقوله: مهضومة، أراد لطيفة. والطفلة: الرَّخصة الناعمة.

وخرج عثمان بن عفان، رضي الله تعالى عنه، من داره يومًا، وقد جاء عامر بن عبد قيس فقعد في دهليزه، فلما رأى شيخًا دميمًا أشغى ثطًّا في عباءة فأنكره وأنكر مكانه، فقال: يا أعرابي، أين ربك؟ قال: بالمِرصاد.

والشغى: تراكُب الأسنان واختلافها. ثط: صغير اللحية.

يُقال إن عثمان بن عفان، رضي الله تعالى عنه، لم يُفحِمه أحدٌ قط غير عامر بن عبد قيس. ونظر معاوية إلى النخَّار بن أوس العُذري الخطيب الناسب في عباءة في ناحية من مجلسه، فأنكره وأنكر مكانه زرايةً منه عليه، فقال: من هذا؟ فقال النخَّار: يا أمير المؤمنين، إن العباءة لا تكلِّمك، إنما يكلِّمك من فيها.

قال، ونظر عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، إلى هَرِم بن قُطبة مُلتفًّا في بتٍّ في ناحية المسجد، ورأى دمامته وقلَّته، وعرف تقديم العرب له في الحكم والعلم، فأحبَّ أن يكشفه ويسبر ما عنده، فقال: أرأيت لو تنافرا إليك اليوم، أيهما كنت تنفِّر؟ يعني عَلقمة بن عُلاثة وعامر بن الطُّفيل. فقال: يا أمير المؤمنين، لو قلت فيهما كلمة لأعَدتُها جَذَعةً.[١١] فقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لهذا العقل تحاكَمت إليك العرب. ونظر عمر إلى الأحنف وعنده الوفد، والأحنف مُلتفٌّ في بتٍّ له، فترك جميع القوم واستنطقه، فلما تبعَّق منه ما تبعَّق، وتكلَّم بذلك الكلام البليغ المُصيب، وذهب ذلك المذهب، لم يزَل عنده في علياء، ثم صار إلى أن عقد له الرياسة ثابتًا له ذلك إلى أن فارَق الدنيا.

ونظر النُّعمان بن المُنذر إلى ضَمرة بن ضَمرة، فلما رأى دمامته وقلته قال: تسمع بالمُعَيدي لا أنْ تراه. هكذا تقول العرب. فقال ضمرة: أبَيتَ اللعن، إن الرجال لا تُكال بالقُفزان، وإنما المرء بأصغرَيه؛ لسانه وقلبه. وكان ضمرة خطيبًا، وكان فارسًا شاعرًا شريفًا سيدًا.

وكان الرَّمق بن زيد مدح أبا جُبيلة الغسَّاني، وكان الرَّمق دميمًا قصيرًا، فلما أنشده وحاوَره، قال: عسل طيِّب في ظرف سوء.

قال: وتكلَّم علباءُ بن الهيثم السَّدوسي لدى عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، وكان علباء أعوَر دميمًا، فلما رأى براعته وسمع بيانه، أقبل عمر يُصعِّد فيه بصره ويحدره، فلما خرج قال عمر: لكل أناس في جميلهم خبرة.

قال أبو عثمان: وأنشدت سهل بن هارون قول سلَمة بن خُرشُب وشعره الذي أرسل به إلى سُبيع التغلبي في شأن الرُّهن التي وُضعت على يدَيه في قتال عبس وذُبيان، فقال سهل بن هارون: والله لكأنه قد سمع رسالة عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه،

[١١] يعني لأعاد فتنة المنافرة بين قبائلهما كما كانت في أول أمرها.

إلى أبي موسى الأشعري في سياسة القضاء وتدبير الحكم. والقصيدة قوله:

أبلِغْ سُبَيعًا وأنتَ سيِّدُنا ... قِدمًا وأوفى رِجالِنا ذِمَما
أنَّ بَغيضًا وأنَّ إخوتَها ... ذُبْيانَ قد ضرَّموا الذي اضطرما
نُبِّئتُ أنْ حَكَّموك بينهمُ ... فلا يَقولُنَّ بئسَ ما حَكَما
إنْ كنتَ ذا خبرةٍ بشأنِهمُ ... تَعرِفُ ذا حقِّهم ومن ظَلَما
وتُنزِلُ الأمرَ في مَنازِلِه ... حُكمًا وعِلمًا وتُحضِرُ الفُهَما
ولا تُبالي من المُحِقُّ ولا الْـ ... ـمُبطِلُ لا إلَّةً ولا ذِمَما
فاحكُمْ وأنتَ الحكيمُ بيْنهمُ ... لن يَعدِموا الحُكمَ ثابتًا صَتما
واصدَعْ أديمَ السَّواءِ بيْنهمُ ... على رضا مَن رَضِي ومَن رُغِما[١٢]
إنْ كان مالًا ففُضَّ عِدَّتَه ... مالًا بمالٍ وإنْ دمًا فدَما
حتى ترى ظاهِرَ الحُكومةِ مِثْـ ... ـلَ الصُّبحِ جلَّى نهارُه ظُلَما
هذا وإنْ لم تُطِقْ حُكومتَهم ... فانبِذْ إليهم أمورَهم سَلَما

الصتم: الصحيح القوي، يُقال: رجل صتم، إذا كان شديدًا.

وقال العايشي: كان عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، أعلم الناس بالشعر، ولكنه إذا ابتُلي بالحكم بين النجاشي والعَجلاني، وبين الحُطيئة والزِّبرِقان، كَرِه أن يتعرض للشعراء، واستشهد رجالًا للفريقين مثل حسَّان بن ثابت وغيره ممن تهون عليه سبالهم، فإذا سمع كلامهم حكم بما يعلم، وكان الذي ظهر من حكم ذلك الشاعر مُقنعًا للفريقَين، ويكون هو قد تخلَّص بعِرضه سليمًا؛ فلما رآه من لا علم له يسأل هذا وهذا ظن أن ذلك لجهله بما يعرف غيره. ولقد أنشدوه شعرًا لزُهير، وكان لشعره مقدِّمًا، فلما انتهَوا إلى قوله:

وإنَّ الحقَّ مَقطَعُه ثلاثٌ ... يَمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ

قال عمر كالمُتعجب من علمه بالحقوق، وتفصيله بينها، وإقامته أقسامها:

وإنَّ الحقَّ مَقطَعُه ثلاثٌ ... يَمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ

[١٢] في الأصل: «زعما»، وخطؤها بيِّن، والصواب «رُغِما» كما أثبتناه.

يردِّد البيت من التعجب.
وأنشدوه قصيدة عَبْدة بن الطبيب الطويلة التي على اللام، فلما بلغ المُنشد إلى قوله:

والمرءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدرِكُه والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ[١٣]

قال عمر مُتعجبًا:

والعيش شح وإشفاق وتأميل!

يُعجبهم من حسن ما قسَّم وفصَّل. وأنشدوه قصيدة أبي قيس بن الأسلت التي على العين، وهو ساكت، فلما انتهى المُنشد إلى قوله:

الكَيسُ والقوةُ خيرٌ من الـ إشفاقِ والفَهَّةِ والهاعِ[١٤]

أعاد عمر البيت وقال:

الكَيسُ والقوةُ خيرٌ من الـ إشفاقِ والفَهَّةِ والهاعِ

وجعل عمر يردِّد البيت ويتعجب منه. قال محمد بن سلَّام الجُمحي عن بعض أشياخه، قال: كان عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر.

وقال عمر بن العلاء: كان الشاعر في الجاهلية يُقدَّم على الخطيب بفرط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيِّد عليهم مآثرهم، ويفخِّم شأنهم، ويهوِّل على عدوهم ومن غزاهم، ويهيِّب من فُرسانهم، ويخوِّف من كثرة عددهم، ويهابهم شاعر غيرهم فيُراقب شاعرهم؛ فلما كثُر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبةً، ورحلوا إلى السوقة، وتسرَّعوا إلى أعراض الناس، صار الخطيب عندهم فوق الشاعر؛ ولذلك قال الأول: الشعر أدنى مروءة السَّري، وأسرى مروءة الدَّني.

[١٣] انظر القصيدة بأكملها مشروحة بقلمنا في المفضليات التي شرحناها ونشرناها حديثًا.

[١٤] في المفضليات: الفكة، بدل الفهة. وانظر القصيدة بها مشروحة بقلمنا.

قال: ولقد وضع قول الشعر من قدر النابغة الذُّبياني، ولو كان في الدهر الأول ما زاده ذلك إلا رفعة.

وروى مجالد عن الشعبي قال: ما رأيت مِثلي، ما أشاء أن ألقى رجلًا أعلم مني بشيء إلا لقيته. وقال الحسن البصري: يكون الرجل عابدًا ولا يكون عاقلًا، ويكون عابدًا عاقلًا ولا يكون عالمًا، وكان مُسلم بن يسار عاقلًا عالمًا عابدًا. وكان يُقال: فقه الحسن، وورع ابن سيرين، وعقل مطرِّف، وحفظ قتادة. وذُكرت البصرة، فقيل: شيخها الحسن، وفتاها بكر بن عبد الله المُزني. والذين بثُّوا العلم في الدنيا أربعة؛ قتادة، والزُّهري، والأعمش، والكلبي. وجمع سليمان بن عبد الملك بين قتادة والزهري، فغلب قتادة الزهري، فقيل لسليمان في ذلك، فقال: إنه فقيهٌ مليح. فقال القحذمي: لا، ولكنه تعصَّب للقرشية، ولانقطاعه إليهم، ولروايته فضائلهم. وكان الأصمعي يقول: وصلت بالعلم، ونِلتُ بالمُلَح. وكان سهل بن هارون يقول: اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد، وأعسر من ذلك أن يجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم. والمسجديُّون[١٥] يقولون: من تمنَّى رجلًا حسن العقل، وحسن اللسان، وحسن القلم، تمنَّى شيئًا عسيرًا.

(٧) باب

وكانوا يعيبون النَّوك والعِيَّ والحمق وأخلاق النساء والصِّبيان.

قال الشاعر:

إذا ما كنتَ مُتَّخِذًا خَليلًا ... فلا تَثِقَنْ بكلِّ أخي إخاءِ
فإنْ خُيِّرتَ بيْنهمُ فألصِقْ ... بأهلِ العقلِ منهم والحياءِ
فإنَّ العقلَ ليس له إذا ما ... تفاضَلتِ الفضائلُ من كِفاءِ
فإنَّ النَّوكَ للأحسابِ غَوْلٌ ... وأهوَنُ دائِه داءُ العَياءِ
ومن تركَ العواقبَ مُهمَلاتٍ ... فأيسَرُ سَعيِه سَعيُ العَناءِ
فلا تَثِقنَّ بالنَّوكى لشَيءٍ ... وإنْ كانوا بَني ماءِ السماءِ
فليسوا قابِلِي أدبٍ فدَعْهم ... وكُنْ من ذاك مُنقطِعَ الرَّجاءِ

[١٥] كان المسجديون قومًا يجلسون في مسجد البصرة، كما كان أهل الصُّفَّة يجلسون في مسجد المدينة، ولهم أحاديث.

وقال الآخر في التضييع والنوك:

فعِشْ في حدِّ أنْوَكَ ساعَدَتْه ... مَقاديرٌ يُخالِفُها الصوابُ
ذَهابُ المالِ في حَمدٍ وأجْرٍ ... ذَهابٌ لا يُقالُ له ذَهابُ

وأنشد في ذلك:

أرى زمَنًا نَوْكاه أسعَدُ أهلِه ... ولكنَّما يَشْقى به كلُّ عاقلِ
مشى فوقَه رِجْلاه والرأسُ تحتَه ... فكبَّ الأعالي بارتفاعِ الأسافلِ

وقال الآخر:

ولم أرَ مِثلَ الفَقرِ أوضَعَ للفتى ... ولم أرَ مِثلَ المالِ أرفَعَ للرَّذْلِ
ولم أرَ عزًّا لامْرِئٍ كعَشيرةٍ ... ولم أرَ ذلًّا مِثلَ نأيٍ عن الأهلِ
ولم أرَ من عُدْمٍ أضرَّ على امرئٍ ... إذا عاشَ وسْطَ الناسِ من عدمِ العقلِ

وقال الآخر:

تَحامَقْ مع الحَمْقى إذا ما لَقِيتَهم ... ولا تَلقَهم بالعَقلِ إنْ كنتَ ذا عقلِ
فإنِّي رأيتُ المرءَ يَشْقى بعقلِه ... كما كان قبلَ اليومِ يَسعَدُ بالعقلِ

وقال الآخر:

وأنزَلَني طُولُ النَّوى دارَ غُربةٍ ... إذا شئتُ لاقَيتُ امرأً لا أُشاكِلُه
فحامَقتُه حتى يُقالَ سَجيَّةٌ ... ولو كان ذا عقلٍ لكنتُ أُعاقِلُه

وقال بِشر بن المُعتمِر وأنشد:

وإذا الغبيُّ رأيتَه مُستغنِيًا ... أعيا الطبيبَ وحِيلةَ المُحتالِ

وأنشدني آخر:

وللدَّهرِ أيامٌ فكُنْ في لِباسِه ... كلِبْستِه يومًا أجَدَّ وأخلَقا
وكُنْ أكيَسَ الكَيْسى إذا كنتَ فيهم ... وإنْ كنتَ في الحَمْقى فكُنْ أنتَ أحمَقا

وأنشدني آخر:

ولا تَقْربي يا بِنتَ عمِّي بُوهةً من القومِ دِفْناسًا غبيًّا مُفنَّدا
وإنْ كان أعطى رأسَ سِتِّينَ بَكْرةً وحُكمًا على حُكمٍ وعبدًا مُولَّدا
ألا فاحذري لا تُورِدنَّك هَجمةٌ طِوالُ الذُّرى جِبسًا من القوم قُعْدُدا

وأنشدني آخر:

كسا اللهُ حيَّي تَغلِبَ ابنةِ وائلٍ من اللؤمِ أظفارًا بَطيئًا نُصولُها
إذا ارتَحلوا عن دارِ ضَيمٍ تَعاذَلوا عليها وردُّوا وفْدَهم يَستقيلُها

وأنشدني آخر:

وإنَّ عَناءً أنْ تُفهِّمَ جاهلًا ويَحسَبُ جَهلًا أنَّه منك أفهَمُ

وقال جرير:

ولا يَعرِفونَ الشَّرَّ حتى يُصِيبَهم ولا يَعرِفونَ الأمرَ إلا تَدبُّرا

وقال الأعرج المعنيُّ الطائي:

لقد عَلِمَ الأقوامُ أنْ قد قدَرتُمُ ولم تَبْدءُوهم بالمَظالمِ أوَّلا
فكُونوا كداعي كَرَّةٍ بعدَ فَرَّةٍ ألَا رُبَّ من قد فرَّ ثُمَّتَ أقْبَلا
فإنْ أنتمُ لم تفعلوا فتبدَّلوا بكلِّ سِنانٍ مَعشَرَ العُرْبِ مِغزَلا
وأعطوهمُ حُكْمَ الصَّبيِّ بأهلِه وإنِّي لَأرجو أنْ يقولوا بأنَّ لا

ويُقال: أظلَمُ من صبي، وأكذبُ من صبي، وأخرقُ من صبي.
وأنشد:

ولا تَحكُما حُكْمَ الصَّبيِّ فإنَّه كثيرٌ على ظهرِ الطريقِ مَجاهِلُه

سُئل دَغفَل عن بني عامر فقال: أعناق ظِباء، وأعجاز نساء. قيل: فما تقول في أهل اليمن؟ قال: سيِّد وأنوَك.

(٨) باب في ذِكر المعلِّمين

من أمثال العامة: أحمَقُ من مُعلِّم كُتاب. وقد ذكرهم صِقلاب [فقال]:

وكيف يُرجَّى العقلُ والرأيُ عند من   يَرُوحُ على أُنثى ويَغْدو على طِفلِ

وفي قول بعض الحكماء: لا تستشيروا معلِّمًا، ولا راعيَ غنم، ولا كثير القعود مع النساء. وقال: لا تدع أمَّ صبيِّك تضربه؛ فإنه أعقل منها وإن كانت أسنَّ منه.

وقد سمعنا في المثل: أحمَقُ من راعي ضأن ثمانين.

فأما استحماق رُعاة الغنم في الجملة، فكيف يكون ذلك صوابًا وقد رعى الغنمَ عدةٌ من جِلة الأنبياء عليهم السلام؟ ولَعَمْري إن الفدَّادين من أهل الوبر ورعاة الإبل ليتلوَّمون على رعاة الغنم، ويقول أحدهم لصاحبه: إن كنت كاذبًا فحلبت قاعدًا.

وقال الآخر:

ترى حالِبَ المِعزى إذا سُرَّ قاعدًا   وحالبُهنَّ القائمُ المُتطاوِلُ

وقالت امرأة من غامد، في هزيمة ربيعة بن مكدَّم، لجَمعِ غامدٍ وحده:

ألا هل أتاها على نأيِها   بما فضَحتْ قومَها غامِدُ
تمنَّيتمُ مائتَي فارسٍ   فرَدَّكمُ فارسٌ واحدُ
فليتَ لنا بارتباطِ الخُيو   لِ ضأنًا لها حالبٌ قاعدُ

وقد سمعنا قول بعضهم: الحُمق في الحاكة والمعلِّمين والغزَّالين. قال: والحاكة أقلُّ وأسقط من أن يُقال لها حَمْقى وكذلك الغزَّالون؛ لأن الأحمق هو الذي يتكلم بالصواب الجيِّد ثم يجيء بخطأٍ فاحش، والحائك ليس عنده صواب جيِّد في فعال ولا مقال، إلا أن يُجعل جودة الحياكة من هذا الباب، وليس هو من هذا في شيء.

(٩) وهذا باب آخر

ويُقال: فلانٌ أحمق. فإذا قالوا: مائق، فليس يريدون ذلك المعنى بعينه. وكذلك إذا قالوا: أنوَك. وكذلك إذا قالوا: رقيع. ويقولون: فلانٌ سليم الصدر. ثم يقولون: غبي. ثم يقولون: أبله. وكذلك إذا قالوا: معتوه، ومسلوس، وأشباه ذلك.

قال أبو عُبيدة: يُقال للفارس: شجاع. فإذا تقدَّم ذلك قيل: بطل. فإذا تقدَّم شيئًا قيل: بُهْمة. فإذا صار إلى الغاية قيل: أليَس.

قال العجَّاج: أليَسُ عن حَوبائِه سَخيٌّ.

وهذا المأخذ يجري في الصفات كلها؛ من جود وبخل، وصلاح وفساد، ونقصان ورجحان. ومازلت أسمع هذا القول في المعلِّمين. والمعلِّمون عندي على ضربَين؛ منهم رجالٌ ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة، ومنهم رجالٌ ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشَّحين للخلافة، فكيف تستطيع أن تزعم أن مِثل علي بن حمزة الكسائي، ومحمد بن المُستنير[١٦] الذي يُقال له قُطرب، وأشباه هؤلاء يُقال لهم حَمْقى؟ ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم؛ فإن ذهبوا إلى مُعلمي كتاتيب القُرى فإن لكل قوم حاشيةً وسفلة، فما هم في ذلك إلا كغيرهم.

وكيف تقول مِثل ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء، مثل: كميت بن زيد، وعبد الحميد الكاتب، وقيس بن سعد، وعطاء بن أبي رباح، ومثل: عبد الكريم بن أبي أمية، وحسين المعلم، وأبي سعيد المعلم؟

ومن المعلِّمين: الضحَّاك بن مُزاحم أبو معبد الجُهني، وعامر الشعبي، فكانا يعلِّمان أولاد عبد الملك بن مروان، وكان أبو معبد يعلِّم سعيدًا.

ومنهم: أبو سعيد المؤدِّب، وهو غير أبي سعيد المعلم، وكان يحدِّث عن هشام بن عُروة وغيرهم.

ومنهم: عبد الصمد بن عبد الأعلى، وكان معلِّم ولد عتبة بن أبي سفيان.

وكان إسماعيل بن علي ألزم بعض بنيه عبد الله بن المقفع ليعلِّمه.

وكان أبو بكر عبد الله بن كيسان مُعلمًا.

ومنهم: محمد بن السكن. وما كان عندنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم، ولا أحسن بيانًا، من أبي الوزير وأبي عدنان المُعلمين، وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا.

---

[١٦] محمد بن المستنير: سمَّاه سيبويه «قطرب». أخذ النحو عن سيبويه وعن عيسى بن عمر، وأخذ علم الكلام عن النظَّام، واتصل بأبي دُلف العجلي وأدَّب ولده. وله تصانيف كثيرة. وكان ابن السِّكِّيت لا يوثِّقه. مات سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢٤م.

وقد قال الناس في أبي البيداء، وفي أبي عبد الله الكاتب، وفي الحجَّاج بن يوسف وأبيه ما قالوا.

وقد أنشدوا مع هذا الخبر شاهدًا من الشعر على أن الحجَّاج وأباه كانا مُعلمين بالطائف.

ثم رجع بنا القول إلى الكلام الأول. قالوا: أحقُّ الناس بالرحمة عالمٌ يجري عليه حكمُ جاهل. وكتب الحجَّاج إلى المُهلب يُعجله في حرب الأزارقة ويُسمعه، فكتب إليه المهلب: إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره.

(١٠) وباب آخر

وقال بعض الربَّانيين من الأدباء، وأهل المعرفة من البُلغاء، ممن يكره التشادق والتعمُّق، ويُبغض الإغراق في القول والتكلُّف والاجتلاب، ويعرف أكثر أدواء الكلام ودوائه، وما يعتري المتكلم من الفتنة بحسن ما يقول، وما يعرض للسامع من الافتتان بما يسمع، والذي يُورث الاقتدار من التحكُّم والتسلُّط، والذي يمكِّن الحاذق والمطبوع من التمويه للمعاني والخلَّابة وحسن المنطق. وقال في بعض مواعظه: أُنذِركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام؛ فإن المعنى إذا اكتسى لفظًا حسنًا، وأعاره البليغ مخرجًا سهلًا، ومنحه المتكلم قولًا مُتعشقًا، صارفي قلبك أحلى، ولصدرك أملى. والمعاني إذا كُسيت الألفاظ الكريمة، وأُلبست الأوصاف الرفيعة، تحوَّلت في العيون عن مقادير صورها، وأربَت على حقائق أقدارها، بقدر ما زُيِّنت، وعلى حسب ما زُخرِفت؛ فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في معنى الجواري، والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوي، ومدخل خدع الشيطان خفي.

فاذكُر هذا الباب ولا تنسَه، وتأمَّلْه ولا تفرِّط فيه؛ فإن عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، لم يقُل للأحنف بن قيس، بعد أن احتبسه حولًا مجرَّمًا ليستكثر منه وليُبالغ في تصفُّح حاله والتنقير عن شأنه، «إن رسول الله ﷺ قد كان خوَّفنا كل مُنافِق عليم، وقد خِفت أن تكون منهم»، إلا لما كان راعه من حسن منطقه، ومال إليه لما رأى من رفقه وقلة تكلُّفه؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرًا.»

وقال عمر بن عبد العزيز لرجلٍ أحسن في طلب حاجة، وتأتَّى لها بكلامٍ وجيز ومنطقٍ حسن: هذا والله السِّحرُ الحلال. وقال رسول الله ﷺ: «لا خلابة.» فالقصد من ذلك أن تجتنب السوقي والوحشي، ولا تجعل همَّك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في التخلص

إلى غرائب المعاني، وفي الاقتصار بلاغ، وفي التوسط مجانبة للوعورة، والخروج من سبيل من لا يُحاسب نفسه، وقد قال الشاعر:

عليك بأوساطِ الأمورِ فإنَّها نَجاةٌ ولا تَركَبْ ذَلولًا ولا صَعْبا

وقال الآخر:

لا تَذهَبَنَّ في الأمورِ فَرَطا لا تَسألَنَّ إنْ سألتَ شَطَطا
وكُنْ من الناسِ جميعًا وَسَطا

وليكُن كلامك ما بين المقصِّر والغالي؛ فإنك تَسلَم من المحنة عند العلماء، ومن فتنة الشيطان. وقال أعرابي للحسن: علِّمني دينًا وسطًا، لا ذاهبًا شطوطًا، ولا هابطًا هبوطًا. فقال الحسن: لئن قلت ذاك إن خير الأمور أوساطها. وجاء في الحديث: «خالِطوا الناس وزايِلوهم.» وقال عبد الله بن مسعود في خطبته: وخير الأمور أوساطها، وما قل وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى. نفسٌ تُنجيها، خير من إمارة لا تحصيها. وقال علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: كُن في الناس وسطًا، وامْشِ جانبًا. وكانوا يقولون: اكْرَه الغُلو كما تكره التقصير. وكان رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «قولوا بقولكم ولا يستحوذنَّ عليكم الشيطان.» وكان يقول: «وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائدُ ألسنتهم؟»

(١١) باب من الخُطب القِصار

من خُطَب السلف ومواعظ النُّسَّاك وتأديب من تأديب العلماء

قال رجل لأبي هُريرة النحوي: أريد أن أتعلَّم العلم وأخاف أن أضيِّعه. قال: كفى بترك العلم إضاعةً. وسمع الأحنف رجلًا يقول: التعلُّم في الصِّغر كالنقش في الحجر. فقال الأحنف: الكبير أكبر الناس عقلًا، ولكنه أشغل قلبًا. وقال أبو الدرداء: ما لي أرى علماءكم يذهبون، وجُهالكم لا يتعلمون؟

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلماء، حتى إذا لم يبقَ عالمٌ اتَّخذ الناس رؤساء جهالًا، فسُئلوا فأفتَوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا.»

ولذلك قال عبد الله بن عبَّاس، رضي الله تعالى عنهما، حين دلَّى زيد بن ثابت في القبر: من سرَّه أن يرى كيف ذهاب العلم فلينظر؛ فهكذا ذهابه.

وقال بعض الشعراء لبعض العلماء:

أبْعَدتَ من يومِكَ الفِرارَ فما ... جاوَزتَ حيثُ انتهى بكَ القَدَرُ
لو كان يُنجِي من الرَّدى حَذَرٌ ... نجَّاكَ ممَّا أصابَك الحَذَرُ
يَرحَمُك اللهُ من أخي ثِقةٍ ... لم يكُ في صفوِ ودِّه كَدَرُ
فهكذا يَفسُدُ الزَّمانُ ويَفْـ ... ـنى العلمُ منه ويَدرُسُ الأثرُ

وقال قتادة: لو كان أحدٌ مُكتفيًا من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام؛ إذ قال للعبد الصالح: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

أبو العبَّاس التميمي قال، قال طاوس: الكلمة الصالحة صدقة.

وعن عبد الله بن ثُمامة بن أنس، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قال: «فضل لسانك تعبِّر به عن أخيك الذي لا لسان له صدقة.»

وقال الخليل: تكثَّرْ من العلم لتَعرِف، وتقلَّلْ منه لتحفظ. وقال الفُضيل: نِعمَت الهدية الكلمة من الحكمة يحفظها الرجل حتى يُلقيَها إلى أخيه. وكان يُقال: اجعل ما في الكُتب بيت مال، وما في قلبك للنفقة. وكان يُقال: يكتب الرجل أحسن ما سمع، ويحفظ أحسن ما كتب. وقال أعرابي: حرفٌ في قلبك خير من عشرة في طومارك. وقال عمر بن عبد العزيز: ما قُرِن شيء بشيءٍ أفضل من علم إلى حِلم، ومن عفو إلى قدرة. وكان ميمون بن سِياه إذا جلس إلى قوم قال: إنا قومٌ منقطَع بنا، فحدِّثونا أحاديث نتجمَّل بها. وفخَر سليم مولى زياد بزياد عند معاوية، فقال معاوية: اسكت، فوالله ما أدرك صاحبك شيئًا بسيفه إلا وقد أدركت أكثر منه بلساني. وضرب الحجَّاج أعناق أسرى، فلما قدَّموا إليه رجلًا لتُضرَب عنقه قال: والله لئن كنَّا أسأنا في الذنب فما أحسنت في العفو. فقال الحجاج: أُفٍّ لهذه الجِيَف! أمَا كان فيها أحدٌ يُحسِن مِثل هذا؟ وأمسك عن القتل.

وقال بَشير الرَّحَّال: إني لأجدُ في قلبي حَرًّا لا يُذهِبه إلا بردُ العدل أو حر السِّنان. وقدَّموا رجلًا من الخوارج إلى عبد الملك بن مروان لتُضرَب عنقه، ودخل على عبد الملك ابنٌ صغير له قد ضربه المعلِّم وهو يبكي، فهمَّ عبد الملك بالمُعلم، فقال: دعه يبكي؛ فإنه أفتَحُ لجِرمه، وأصحُّ لبصره، وأذهب لصوته. فقال له عبد الملك: أمَا يشغلك ما أنت فيه عن هذا؟ قال الخارجي: ما ينبغي لمسلم أن يشغله عن قول الحق شيء. فأمر بتخلية

سبيله. وقال إبراهيم بن أدهم: أعربنا في كلامنا فما نلحن حرفًا، ولحنًّا في أعمالنا فما نُعرِب حرفًا. وأنشد:

نُرقِّعُ دُنيانا بتمزيقِ دِينِنا فلا دِينُنا يَبْقى ولا ما نُرقِّعُ

وقال زياد على المِنبر: إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يُقطَع بها ذنَبُ عنزٍ مَصُور، لو بلغت إمامه سفك بها دمه. وعزل عمر زيادًا عن كتابة أبي موسى في بعض قدماته، فقال له زياد: أعن عجز أم عن خيانة؟ قال: لا عن واحدة منهما، ولكن أكره أن أحمل على العامة فضل عقلك. وبلَغ الحجَّاجَ موتُ أسماء بن خارجة، فقال: هل سمعتم بالذي عاش ما شاء ومات حين شاء؟

وكان يُقال: كدرُ الجماعة خيرٌ من صفو الفُرقة. قال أبو الحسن: مرَّ عمر بن ذر، بعبد الله بن عيَّاش المنتوف، وقد كان سَفِه عليه ثم أعرض عنه، فتعلَّق بثوبه فقال: يا هناه، إنا لم نجد لك إذا عصيت الله فينا خيرًا من أن نُطيع الله فيك.

وهذا كلام أخذه عمر بن ذر عن عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، حين قال عمر: إني والله لا أدَع حقًّا لله لشكايةٍ تظهر، ولا لغضبٍ يُحتمل، ولا لُمحاباة بشر، وإنك والله ما عاقبت من عصى الله فيك بمِثل أن تُطيع الله فيه. وكتب عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، إلى سعد بن أبي وقَّاص: يا سعدَ سعدَ بني وُهيب، إن الله إذا أحب عبدًا حبَّبه إلى خلقه، فاعتبِرْ منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن ما لك عند الله مِثل الذي لله عندك.

ومات لعمر بن ذر ابنٌ فقال: أي بُنيَّ، شغَلني الحزن لك عن الحزن عليك. وقال رجل من مُجاشع: كان الحسن يخطب في دمٍ فينا، فأجابه رجل فقال: وقد تركت ذلك لله ولوجوهكم. فقال الحسن: لا تقُل هكذا، بل قل: لله ثم لوجوهكم، وآجَرك الله.

ومر رجل بأبي بكر، رضي الله تعالى عنه، ومعه ثوب فقال: أتبيع الثوب؟ فقال: لا، عافاك الله. فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا، وعافاك الله.

وسأل عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، رجلًا عن شيء فقال: الله أعلم. فقال عمر: لقد شقينا إن كنَّا لا نعلم أن الله أعلم. إذا سُئل أحدكم عن شيء لا يعلمه فليَقل: لا عِلم لي. وكان أبو الدرداء يقول: أبغض الناس إليَّ أن أظلمه من لا يستعين عليَّ بأحد إلا بالله.

وذكر ابن ذر الدنيا فقال: كأنكم إنما زادكم في حرصكم عليها ذمُّ الله عز وجل لها. ونظر أعرابي إلى مال له كثير من الماشية وغيرها، فقال: ينعة، ولكل ينعةٍ استحشاف.

فباع ما هناك من ماله، ثم لزم ثغرًا من ثغور المسلمين حتى مات فيه. وتمنَّى قوم عند يزيد الرقاشي، فقال: أتمنَّى كما تمنَّيتم؟ قالوا: تمنَّه. قال: ليتنا لم نُخلَق، وليتنا إذ خُلِقنا لم نَعصِ، وليتنا إذ عصينا لم نمُت، وليتنا إذ مُتنا لم نُبعَث، وليتنا إذ بُعِثنا لم نُحاسَب، وليتنا إذ حُوسِبنا لم نُعذَّب، وليتنا إذ عُذِّبنا لم نُخلَّد.

وقال الحجَّاج: ليت الله إذ خلَقَنا للآخرة كفانا أمر الدنيا؛ فرفع عنا الهمَّ بالمأكل والمشرب والملبس والمنكح، أو ليته إذ وقعنا في هذه الدار كفانا أمر الآخرة؛ فرفع عنا الاهتمام بما يُنجي من عذابه. فبلغ كلامهما عبد الله بن حسن بن حسن، أو علي بن الحسين، فقال: ما عَلِما شيئًا في التمنِّي، ما اختار الله فهو خير. قال أبو الدرداء: من هوان الدنيا على الله أنه لا يُعصى إلا فيها، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها. قال شريح: الحدة كناية عن الجهل. وقال أبو عُبيدة: العارضة كناية عن البذاء.

وإذا قالوا: فلان مُقتصد، فتلك كناية عن البخل. وإذا قالوا للعامل: مُستقصٍ، فهو كناية عن الجور. وقال حبيب بن أوس الشاعر أبو تمَّام الطائي:

كذبتُمُ ليس يُزهى من له حَسَبٌ ... ومن له نَسَبٌ عمَّن له أدَبُ
إنِّي لَذُو عَجَبٍ منكم أردِّدُه ... فيكم وفي عَجَبي من زَهوِكم عَجَبُ
لَجاجةٌ بيَ فيكم ليس يُشبِهُها ... إلَّا لَجاجتُكم في أنَّكم عَرَبُ

وقيل لأعرابيةٍ مات ابنها: ما أحسنُ عزائك عن ابنك؟ قالت: إن مصيبته آمَنتني من المصائب بعده. وقال سعيد بن عثمان بن عفان لطُويس المغنِّي: أيُّنا أسَنُّ؛ أنا أو أنت يا طويس؟ فقال: بأبي أنت وأمي، لقد شهدت زفاف أمك المُبارَكة إلى أبيك الطيِّب، فانظر إلى حِذقه وإلى معرفته بمخارج الكلام، كيف لم يقُل: زفاف أمك الطيبة إلى أبيك المبارك؟ وهكذا كان وجه الكلام، فقلب المعنى.

وقال رجل من أهل الشام: كنت في حلقة أبي مُسهِر في مسجد دمشق، فذكرنا الكلام وبراعته، والصمت ونبالته، فقال: كلَّا، إن النجم ليس كالقمر، إنك تصف الصمت بالكلام، ولا تصف الكلام بالصمت. وقال الهيثم بن صالح لابنه وكان خطيبًا: يا بُنيَّ، إذا أقللتَ من الكلام أكثرت من الصواب، وإذا أكثرت من الكلام أقللت من الصواب. قال: يا أبَه، فإن أنا أكثرت وأكثرت؟ يعني كلامًا وصوابًا. قال: يا بُنيَّ، ما رأيت موعوظًا أحقَّ بأن يكون واعظًا منك.

وقال ابن عبَّاس: لولا الوسواس، ما باليت ألا أكلِّم الناس.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ما تستبقوا من الدنيا تجدوه في الآخرة. وقال رجل للحسن: إني أكره الموت. قال: ذلك أنك أخَّرت مالك، ولو قدَّمته لسرَّك أن تلحق به. وقال عامر بن الظَّرِب العَدْواني: الرأي نائم، والهوى يقظان؛ فمن هنا يغلب الهوى الرأي. وقال: مكتوب في الحكمة: اشكر لمن أنعمَ عليك، وأنعِمْ على من شكر لك. وقال أبو الدرداء: أيها الناس، لا يمنعكم سوءُ ما تعلمون منا أن تَقبَلوا أحسن ما تسمعون منا.

وقال عبد الملك على المنبر: ألا تُنصِفوننا يا معشر الرعية؟ تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر، ولم تسيروا في أنفسكم ولا فينا سيرة رعية أبي بكر وعمر؟ نسأل الله أن يُعِين كلًّا على كلٍّ. وقال رجل من العرب: أربع لا يَشبَعن من أربع؛ أنثى من ذكر، وعين من نظر، وأرض من مطر، وأُذن من خبر.

وقال موسى عليه السلام لأهله: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾. فقال بعض المُعترضين: فقد قال: ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾. قال أبو عَقيل: لم يعرف موقع النار من أبناء السبيل، ومن الجائع المقرور.

وقال لبيد بن ربيعة:

ومَـقـامٍ ضـيِّـقٍ فـرَّجـتُـه　　　بـبـيـانٍ ولـسـانٍ وجَـدَلْ
لـو يـقـومُ الـفـيلُ أو فـيَّالُه　　　زلَّ عن مِثلِ مَقامي وزَحَلْ
ولـدى النُّعمانِ منِّي مَوطِنٌ　　　بـينَ فـاثورِ أُفـاقٍ فـالـدَّحَـلْ
إذ دعَـتْـنـي عـامرٌ أنصُرُهـا　　　فالْتَقى الألسُنُ كالنَّبلِ الدَّوَلْ
فرمَيتُ القومَ رَشْقًا صائبًا　　　ليس بالعُصْلِ ولا بالمُقثعِلْ
وانتضَلْنا وابنُ سَلْمى قاعدٌ　　　كعَتيقِ الطَّيرِ يُغْضي ويُجَلْ
وقـبـيـلٌ مـن لُـكَـيزٍ شـاهـدٌ　　　رهْطَ مرجومٍ ورهْطَ ابنِ المُعَلْ

وقال:

وأبيضَ يَجتابُ الخُروقَ على الوَجى　　　خطيبًا إذا التفَّ المَجامعُ فاصِلا

وقال لبيد:

لو كان حيٌّ في الحياةِ مُخلَّدًا　　　في الدهرِ أدركَه أبو يَكسُومِ
بكتائبٍ خُرْسٍ تَعوَّدَ كَبْشَها　　　نَطْحَ الكِباشِ شبيهةٍ بنُجومِ
ولقد بلَوتُك وابتلَيتُ خليقتي　　　ولقد كفَاك مُعلِّمي تَعليمي

وقد قال أيضًا لبيد:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافِهم وبقيتُ في خَلْفٍ كجِلدِ الأجربِ
يَتـأكَّـلونَ مَـغـالـةً وخـيـانـةً ويُعابُ قائلُهم وإنْ لم يَشغَبِ[17]

وقال زيد بن جُندب في ذِكر الشغب:

ما كان أغْنى رجالًا ضلَّ سعيُهمُ عن الجِدالِ وأغْناهم عن الشَّغَبِ

وقال آخر في الشغب:

إنِّي إذا عاقبتُ ذو عِقابِ وإنْ تُشاغِبْني فذُو شِغابِ

وقال أحمر بن العمرَّد:

وكـم حـلَّـهـا مـن تَـيِّـحـانٍ سَـمَـيذعٍ مُصافي النَّدى ساقٍ بسَهْماءَ مُطعِمِ[18]
طَوِي البطنِ مِتلافٍ إذا هبَّتِ الصَّبا على الأمرِ غوَّاصٍ وفي الحيِّ شَيظَمِ[19]

وقال:

هل لامَني قومٌ لمَوقِفِ سائلٍ أو في مُخاصَمةِ اللَّجوجِ الأصيَدِ

وقال في التطبيق:

فلمَّا أنْ بَدا القَعْقاعُ لَجَّتْ على شَرَكٍ تُناقِلُه نِقالا
تَعاوَرنَ الحديثَ وطبَّقته كما طبَّقتَ بالنَّعلِ المِثالا

وهذا التطبيق غير التطبيق الأول.

---

[17] المغالة: الاغتيال.

[18] التيحان هنا: الذي يتاح للأمور فيعرض لقضائها. السميذع: السيد الكريم.

[19] الشيظم: الشبيه بالهزبر.

وقال آخر:

لو كنتُ ذا عِلمٍ عَلِمتُ وكيف لي ... بـالـعِـلـمِ بـعـدَ تَـدبُّـرِ الأمـرِ

وقال المُعترِض على أصحاب الخطابة والبلاغة:
قال لقمان لابنه: يا بُنيَّ، إني قد ندمت على الكلام، ولم أندم على السكوت.
وقال الشاعر:

ما إنْ نَدِمتُ على سُكوتي مَرَّةً ... ولقد نَدِمتُ على الكِلامِ مِرارا

وقال آخر:

خـلِّ جَـنْـبَـيكَ لِـرامِ ... وامْـضِ عـنـه بـسَـلامِ
مُتْ بِداءِ الصَّمتِ خيرٌ ... لـكَ مـن داءِ الـكَـلامِ
إنَّما المُسلِمُ من ألْـ ... ـجَـمَ فـاهُ بـلِـجـامِ

وقال آخر في التحذير والاحتراس:

اخفِضِ الصَّوتَ إن نطَقتَ بلَيلٍ ... والـتَفِتْ بـالـنَّهارِ قبلَ الـكَلامِ

وقال في مثل ذلك:

لا أسألُ الناسَ عمَّا في ضمائِرِهم ... ما في ضميري لهم منِّي سيَكْفِيني

وقال حَمزة بن بيض:[٢٠]

لم يَكُنْ عن جِنايةٍ لَحِقَتْني ... لا يَساري ولا يَميني جَنَتْني
بل جَناها أخٌ عليَّ كريمٌ ... وعلى أهلِها بَراقِشُ تَجْني

[٢٠] حمزة بن بيض: شاعرٌ إسلامي كوفي من شعراء الدولة الأموية، وكان خليعًا ماجنًا يُعَد من فحول طبقته. وكان مُنقطعًا إلى المهلب بن أبي صفرة ثم إلى أبان بن الوليد وبلال بن أبي بردة، وأفاد مالًا عظيمًا، ولم يدرك الدولة العباسية.

لأن هذه الكلبة — وهي براقش — إذا نبحت غزيًّا وقد مرُّوا من ورائهم، وقد رجعوا خائبين مُخفِقين، فلما نبحتهم استدلوا بنباحها على أهلها فاستباحوهم، ولو سكتت كانوا قد سلموا؛ فضرب ابن بيض به المَثل.

وقال الأخطل:

تَنِقُّ بلا شيءٍ شيوخُ مُحارِبٍ وما خِلتُها كانت تَرِيشُ ولا تَبْري
ضفادعُ في ظَلْماءِ لَيلٍ تَجاوَبتْ فدلَّ عليها صوتُها حيَّةَ النَّهرِ

النقيق: صياح الضفادع.

وقالوا: الصمت حُكْم وقليلٌ فاعله. وقالوا: استكثِرَ من الهيبة صامت. وقيل لرجل من كلبٍ طويل الصمت: بحقٍّ ما سمَّتكم العلماء خُرْس العرب. فقال: أسكت فأسلم، وأسمع فأعلم. وكانوا يقولون: لا تَعدِلوا بالسلامة شيئًا. ولا تسمع الناس يقولون: جُلِد فلان حين صمت، ولا قُتِل حين سكت؛ وتسمعهم يقولون: جُلِد فلان حين قال كذا وكذا، وقُتِل حين قال كذا وكذا. وفي الحديث المأثور: رحم الله من سكت فسَلِم، أو قال خيرًا فغَنِم. والسلامة فوق الغنيمة؛ لأن السلامة أصل، والغنيمة فرع.

وقال النبي ﷺ: «إن الله يُبغض البليغ الذي يتخلَّل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها.»

وقيل: إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وقال صاحب البلاغة والخطابة وأهل البيان وحب التبيين: إنما عاب النبي ﷺ المُتشادِقين والثَّرثارين، والذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها، والأعرابي المُتشادق، وهو الذي يصنع بفكَّيه وشِدقَيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر؛ فمن تكلَّف ذلك منهم فهو أعيَب، والذم له ألزم. وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيُرسل عدة أمثال سائرة، ولم يكن الناس جميعًا يتمثَّلون بها إلا لِما فيها من المرفق والانتفاع، ومدار العلم على الشاهد والمَثل.

وإنما حثُّوا على الصمت لأن العامة إلى معرفة خطأ القول أسرَعُ منهم إلى معرفة خطأ الصمت، ومعنى الصامت في صمته أخفى من معنى القائل في قوله، وإلا فالسكوت عن قول الحق في معنى النطق بالباطل.

ولعَمْري إن الناس إلى الكلام لأسرع؛ لأن في أصل التركيب أن الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة إلى ترك العمل والسكوت عن جميع القول. وليس الصمت كله أفضل من الكلام كله، ولا الكلام كله أفضل من السكوت كله، بل قد عَلِمنا أن عامة الكلام

أفضل من عامة السكوت، وقد قال الله عز وجل: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾. فجعل سمعه وكذبه سواءً.

وقال الشاعر:

بَنِي عَديٍّ أَلَا يُنْهى سَفيهُكمُ   إنَّ السَّفيهَ إذا لم يُنْهَ مأمورُ

وقال الآخر:

فإنْ أنا لم آمُرْ ولم أنْهَ عنكما   ضَحِكتُ له حتى يَلِجَّ ويَسْتشري

وكيف يكون الصمت أنفع، والإيثار له أفضل، ونفعه لا يكاد يُجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يعمُّ ويخص؟ والرُّواة لم يروُوا سكوت الصامتين كما روت كلام الناطقين. وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت. ومواضع الصمت المحمودة قليلة، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة. وطول الصمت يُفسِد اللسان. وقال بكر بن عبد الله المُزني: طول الصمت حُبْسة. كما قال عمر: ترك الحركة عُقْلة. وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره، وتبلَّدت نفسه، وفسد حِسُّه. وكانوا يُرَوُّون صِبيانهم الأرجاز، ويعلِّمونهم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب؛ لأن ذلك يفتق اللَّهاة، ويفتح الجِرم. واللسان إذا أكثرت تحريكه رقَّ ولان، وإذا أقللت تقليبه وأطلت إسكاته جسأ وغلظ. وقال عُباية الجُعفي: لولا الدُّربة وسوء العادة لأمرت فِتياننا أن يُماريَ بعضهم بعضًا. وأية جارحة منعتها الحركة، ولم تمرِّنها على الأعمال، أصابها من التعقُّد على حسب ذلك المنع.

فلِمَ قال رسول الله ﷺ للنابغة الجعدي «لا يَفضُض اللهُ فاك»؟ ولِمَ قال لكعب بن مالك «ما نسي اللهُ لك مقالك ذلك»؟ ولِمَ قال لهيذان بن شيخ «رُبَّ خطيب من عبس»؟ ولِمَ قال لحسَّان لما هيَّج الغطاريف على بني عبد مناف «والله لشِعرُك أشد عليهم من وقع السهام في غبش الظلام»؟

وما نشك أنه، عليه وعلى آله السلام، قد نهى عن المِراء، وعن التزيُّد والتكلُّف، وعن كل ما ضارَع الرياء أو السُّمعة، والنفج والبذخ، وعن التهاتر والتشاغب، وعن المغالبة والمماتنة؛ فأما نفس البيان، فكيف ينهى عنه وأبيَنُ الكلام كلام الله، وهو الذي مدح التبيين وأهل التفصيل؟ وفي هذا كفاية إن شاء الله.

قال دغفل بن حنظلة: إن للعلم أربعًا؛ آفة، ونكدًا، وإضاعة، واستجاعة؛ فآفته النِّسيان، ونكده الكذب، وإضاعته وضعه في غير موضعه، واستجاعته أنك لا تشبع منه.

وإنما عاب الاستجاعة لسوء تدبير أكثر العلماء، ولخرق سياسة أكثر الرُّواة؛ لأن الرواة إذا شغلوا عقولهم بالازدياد والجمع، عن تحفُّظ ما قد حصَّلوه، وتدبُّر ما قد دوَّنوه، كان ذلك الازدياد داعيًا إلى النقصان، وذلك الربح سببًا للخسران.

وقد جاء في الحديث: «منهومان لا يشبعان؛ منهوم في العلم، ومنهوم في المال.»

وقالوا: علِّمْ عِلمك، وتعلَّمْ عِلم غيرك؛ فإذا أنت قد عَلِمت ما جَهِلت، وحَفِظت ما عَلِمت. وقال الخليل بن أحمد:[٢١] اجعل تعليمك دراسة لعِلمك، واجعل مناظرة المُتعلم تنبيهًا لك على ما ليس عندك. وقال بعضهم، وأظنُّه بكر بن عبد الله المُزني: لا تكدُّوا هذه القلوب ولا تُهمِلوها؛ فخير الفكر ما كان عَقِب الجَمام، ومن أكره بصره عَشِي، وعاوِدُوا الفكرة عند نبوات القلوب، واشحذوها بالمذاكرة، ولا تيئَسوا من إصابة الحكمة إذا امتُحنتم ببعض الاستغلاق؛ فإن من أدام قرع الباب ولج.

وقال الشاعر:

إذا المرءُ أعيَتْه المُروءةُ ناشئًا ... فمَطلَبُها كَهْلًا عليه شَديدُ

وقال الأحنف: السؤدد مع السواد. وتقول الحكماء: من لم ينطق بالحكمة قبل الأربعين لم يبلغ فيها.

وأنشد:

ودُونَ النَّدى في كلِّ قلبٍ ثَنيَّةٌ ... لها مَصعَدٌ حَزْنٌ ومُنحدَرٌ سَهْلُ
ووِدَّ الفتى في كلِّ نَيلٍ يُنِيلُه ... إذا ما انقضى لو أنَّ نائلَه جَزْلُ

وقال الهُذلي:

وإنَّ سيادةَ الأقوامِ فاعلَمْ ... لها صُعَداءُ مَطلَبُها طويلُ
أتَرْجُو أنْ تَسُودَ ولَنْ تُعنَّى ... وكيف يَسُودُ ذو الدَّعةِ البَخيلُ؟

[٢١] الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي الأزدي، يُكنى أبا عبد الرحمن. كان إمامًا في اللغة والنحو، وهو مُخترِع علم العَروض، وأول من صنَّف في علم اللغة؛ وضع كتابه «العين» ولم يتمه. وكان عفيفًا مُتزهدًا صالحًا. وله كُتبٌ كثيرة، وشعره لا بأس به. وُلِد بالبصرة سنة ١٠٠هـ/٧١٨م، وتُوفي سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م.

صالح بن سليمان، عن عتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، قال: ما رأيت عقول الناس إلا قريبًا بعضها من بعض، إلا ما كان من الحجَّاج وإياس بن معاوية؛ فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس. أبو الحسن قال: سمعت أبا الضُّعري الحارثي يقول: كان الحجَّاج أحمق، بنى مدينة واسط في بادية النبط ثم قال لهم: لا تدخلوها. فلما مات دلفوا إليها من قريب. سمعت قَحطبة الجُشمي يقول: كان أهل البصرة لا يشكُّون أنه لم يكن بالبصرة رجلٌ أعقل من عُبيد الله بن الحسن وعُبيد الله بن سالم. وقال معاوية لعمرو بن العاص: إن أهل العراق قد قرنوا بك رجلًا طويل اللسان قصير الرأي، فأجِدِ الحز وطبِّق المَفصل، وإيَّاك أن تلقاه برأيك كله.

(١٢) باب ما قالوا فيه من الحديث الحسن المُوجَز المحذوف القليل الفضول

قال الشاعر:

لها بَشَرٌ مِثلُ الحريرِ ومَنطِقٌ   رَخيمُ الحواشي لا هُراءٌ ولا نَزْرُ

وقال ابن أحمر:

تَضَعُ الحديثَ على مَواضِعِه   وكلامُها من بَعدِه نَزْرُ

وقال الآخر:

حديثٌ كطَعمِ الشَّهدِ حُلوٌ صُدورُه   وأعجازُه الخُطبانُ دُونَ المَحارِمِ

وقال بشَّار:

أُنُسٌ غَرائرُ ما هَمَمْنَ بِرِيبةٍ   كظِباءِ مكَّةَ صَيدُهنَّ حَرامُ
يُحسَبنَ من أُنْسِ الحديثِ زوانيًا   ويَصُدُّهنَّ عنِ الخَنا الإسلامُ

وقال بشَّار:

فنَعِمْنا والعَينُ حيٌّ كَمَيْتٍ   بحديثٍ كنَشْوةِ الخَندَريسِ[٢٢]

---

[٢٢] العين: الرقيب.

وقال بشَّار:

وكـأنَّ رَفْـضَ حـديـثِـهـا   قِطَعُ الرِّياضِ كُسِينَ زَهْرا[٢٣]
وتَـخـالُ ما جمَعتْ عليـ   ـه ثِيابَـها ذَهَبًا وعِطْرا
وكـأنَّ تـحـتَ لِـسـانِـهـا   هارُوتَ يَنفثُ فيه سِحْرا

وقال بشَّار العُقيلي:

وفتاةٍ صُبَّ الجَمالُ عليها   بحديثٍ كلَذَّةِ النَّشْوانِ

وقال بشَّار:

وبِكْرٍ كنُوَّارِ الرِّياضِ حديثُها   تَرُوقُ بوَجهٍ واضحٍ وقَوَامِ

وقال بشَّار:

وحديثٍ كأنَّه قِطَعُ الرَّو   ضِ وفيه الصَّفراءُ والحَمراءُ

وقال الأخطل:

فأسْرَينَ خَمسًا ثُم أصبَحنَ غُدْوةً   يُخبِّرْنَ أخبارًا ألَذَّ من الخَمرِ

أخبرنا عامر بن صالح أن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز كتب إلى امرأته وعنده إخوان له:

إنَّ عِندي أبْقاكِ رَبُّكِ ضَيفًا   واجبًا حقُّهم كُهُولًا ومُرْدا
طرَقوا جارَكِ الذي كان قِدْمًا   لا يرى من كرامةِ الضَّيفِ بُدَّا

[٢٣] وكأن «رفض» حديثها: الرفض القليل. والرواية المتداولة «رجع»، ولعل هذه روايةٌ أخرى. ولست أرى داعيًا يدعو شاعرًا كبشَّار إلى أن يغيِّر ألفاظًا من شعره وهو المشهور بانتقاء الكلمات، غير أنني أرى أن التغيير من الجاحظ نفسه، وقد خبرته فوجدته قليل التحري للرواية، أو قليل العناية برواية الشعر على وجهه، وهذا شأن الكثير من بُلغاء الكُتاب، ولا سيَّما من غزرت مادته منهم.

فلَدَيه أضيافُه قد قَرَاهم وهُمُ يَشتَهون تَمرًا وزُبْدا
فلِهَذا جرى الحديثُ ولكنْ قد جعَلْنا بعضَ المزاحةِ جِدًّا

وأنشد الهُذلي:

كُرُّوا الأحاديثَ عن ليلى إذا بَعُدَتْ إنَّ الأحاديثَ عن ليلى لتُلْهِيني

وقال الهُذلي في حلاوة الحديث:

وإنَّ حديثًا منكِ لو تَبذُلِينَه جَنَى النَّحلِ أو ألبانُ عُوذٍ مَطافِلِ
مَطافيلُ أبكارٌ حديثٌ نِتاجُها تُشابُ بماءٍ مِثلِ ماءِ المَفاصِلِ

العوذ: جمع عائذ، وهي الناقة إذا وضعت، فإذا مشى ولدها فهي مُرشح، فإذا تبعها فهي مُتلِية لأنه يتلوها، وهي في هذا كله مُطفِل، فإن كان أول ولد لها ولدته فهي بِكر.

ماء المفاصل فيه قولان؛ أحدهما أن المفاصل ما بين الجبلين، واحدها مَفصِل، وإنما أراد صفاء الماء لأنه ينحدر عن الجبال ولا يمرُّ بطِين ولا تراب، ويُقال إنها مفاصل البعير، وذكروا أن فيها ماءً له صفاء وعذوبة.

وفي الكلام الموزون يقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

فالْزَمِ الصَّمتَ إنَّ في الصَّمتِ حُكمًا وإذا أنتَ قلتَ قولًا فزِنْهُ

وقال أبو ذؤيب:

وسِرْبٍ يُطلَّى بالعَجيرِ كأنَّه دِماءُ ظِباءٍ بالنُّحورِ ذَبيحُ
بذَلتَ لهنَّ القولَ إنَّك واجدٌ لِما شئتَ من حُلوِ الكلامِ فَصيحُ

السِّرب: الجماعة من النساء والبقر والطير والظباء، بكسر السين، ويُقال: فلان آمِنُ السَّرب، بفتح السين، وخليُّ السرب، وواسع السرب؛ أي المسالك والمذاهب، وإنما هو مثلٌ مضروب للصدر والقلب، وعن الأصمعي: فلانٌ واسع السرب، مكسور؛ أي واسع الصدر، بطيء التأنيب.

وأنشد للحكم بن ريحان من بني عمرو بن كلاب:

يا أجدَلَ الناسِ إنْ جادَلتُه جَدَلا وأكثَرَ الناسِ إنْ عاتَبتُه عِلَلا
كأنَّما عَسلٌ رُجْعانُ مَنطِقِها إنْ كانَ رَجعُ الكَلامِ يُشبِهُ العَسَلا

وقال القطامي:[٢٤]

وفي الخُدورِ غَمَاماتٌ بَرَقنَ لَنا حتى تَصيَّدْنَنا من كلِّ مُصْطادِ
فهُنَّ يَنبِذنَ من قولٍ يُصِبنَ به مَواقعَ الماءِ من ذي الغُلَّةِ الصَّادي

ينبذن: يلقين. الغلة والغليل: العطش الشديد. والصادي: العطشان أيضًا، والاسم الصدى.

وقال الأخطل:

شُمْسٌ إذا خَطِلَ الحديثُ أوانسٌ يَرقُبنَ كلَّ مُجذِّرٍ تِنْبالِ
أُنْفٌ كأنَّ حديثَهنَّ تَنادُمٌ بالكأسِ كلُّ عقيلةٍ مِكْسالِ

التنبال: القصير، والمجذر مثله. والشُّمس: النوافر. الأنف: جمع الآنفة، وهي المنكرة للشيء غير راضية عنه. العقيلة: المصونة في أهلها، وعقيلة كل شيء خيرتُه. والمكسال: ذات الكسل عن الحركة.

وقال أبو العَمَيثل:

لقيتُ ابنةَ السَّهميِّ زينبَ من غُفرِ ونحن حرامٌ مُسْيَ عاشرةِ العَشْرِ
وإنِّي وإيَّاها لَحَتمٌ مَبيتُنا جميعًا ومَسْرانا مُغِذٌّ وذو فَتْرِ
فكلَّمتُها ثِنتَينِ كالثَّلجِ منهما على اللَّوحِ والأخرى أحَرُّ من الجَمْرِ

---

[٢٤] القطامي: هو عُمَير بن شُيَيم، شاعرٌ إسلامي فَحْل مُقلٌّ مُجِيد. لُقب القطامي لقوله:

يَصكُّهنَّ جانبًا فجانِبا صكَّ القطاميِّ القطا القوارِبا

وقد يُلقَّب «صريع الغواني» لقوله:

صريعُ غوانٍ راقَهنَّ ورُقْنَه لَدُنْ شَبَّ حتى شابَ سودُ الذوائبِ

كان نصرانيًّا، وقيل إنه أسلم. تُوفي سنة ١٠١هـ/٧١٩م.

تقول: ما يلقانا فلان إلا عن غُفرٍ؛ أي بعد مدة. مسي: أي وقت المساء. ويقال: أغذ السير، إذا جدَّ فيه وأسرع. واللوح، بالفتح: العطش، يُقال: لاح الرجل يلوح لوحًا، والْتاح يلتاح التياحًا، إذا عطش. واللوح أيضًا: الذي يُكتب فيه. واللوح، بالضم: الهواء، يُقال: لا أفعل ذلك ولو نزوت في اللوح، أو حتى تنزو في اللوح.

وأنشد:

وإنَّا لنُجرِي بيْنَنا حينَ نَلتَقي حديثًا له وَشْيٌ كوَشيِ المَطارفِ
حديثٌ كطَعمِ القَطرِ في المَحْلِ يُشْتفى به من جَوًى في داخلِ القلبِ لاطِفِ

وقال الشمَّاخ بن ضِرار التغلبي:

يَقِرُّ بعَيْني أنْ أُنبَّأَ أنَّها وإنْ لم أنَلْها أَيِّمٌ لم تَزوَّجِ
وكنتُ إذا لاقَيتُها كان سِرُّنا وما بيْنَنا مِثلَ الشِّواءِ المُلَهوَجِ

يريد أنهما من خوف الرُّقباء كانا على عجلة. والملهوج: المعجل الذي لم يُنتظر به النضج.

وقال جِران العَود:

فنِلْنا سِقاطًا من حديثٍ كأنَّه جَنَى النَّحلِ أو أبكارُ كَرمٍ يُقطَّفُ
حديثًا لوَ انَّ البَقْلَ يُولى بمِثلِه زَها البَقلُ واخضرَّ العِضاهُ المُصيِّفُ

وقال الكُميت:

وحديثُهنَّ إذا التَقَيـ ـنَ تَهانُفُ[٢٥] البِيضِ الغرائرْ
فإذا ضَحِكنَ عنِ العِذا بِ لَنا المُسَفَّاتِ الثواغِرْ[٢٦]
كانَ التَّهلُّلُ بالتَّبسُّـ ـمِ لا الفهاهةُ بالقراقِرْ[٢٧]

---

[٢٥] التهانف: التضاحك بدل.

[٢٦] عن العذاب: عن الثنايا العذاب. المسفات الثواغر: الذوات الثغور اللطاف.

[٢٧] القراقر: الضحك المسموع.

وقال الآخر:

ولما تَلاقَينا جرى من عُيونِنا دُموعٌ كفَفْنا غَرْبَها بالأصابِعِ
ونِلْنا سِقاطًا من حديثٍ كأنَّه جَنَى النَّحلِ مَمزوجًا بماءِ الوقائعِ[٢٨]

وقال الأشعث بن سُمَي:

هل تَعرِفُ المَبْدا إلى السَّنامِ ناطَ به سواحِرُ الكَلامِ
كَلامُهنَّ بُرءُ ذي السَّقامِ

وقال الراجز، ووصف عيون الظِّباء بالسحر، وذكر قوسًا صفراء، فقال:

صفراءُ فَرْعٌ خطَموها بوَتَرْ لأْمٍ مُمَرٍّ مِثلِ حُلقومِ النُّغَرْ[٢٩]
حَدَتْ ظُباتِ أسهُمٍ مِثلِ الشَّرَرْ فصَرَعَتْهنَّ بأكنافِ الحفَرْ
حُورُ العُيونِ بابلِيَّاتِ النَّظَرْ يِحسَبُها الناظرُ من وَحشِ البشرْ

ويُروى: «البقر.»

(١٣) باب آخر من الأسجاع في الكلام

قال عمر بن ذر: الله المستعان على ألسنةٍ تَصِف، وقلوبٍ تَعرِف، وأعمالٍ تُخلِف.

ولما مدح عُتيبة بن مِرداس عبد الله بن عبَّاس قال: لا أعطي من يعصي الرحمن، ويُطيع الشيطان، ويقول البُهتان.

وفي الحديث المأثور: «يقول العبد: مالي مالي. وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنَيت، أو أعطيت فأمضيت، أو لبِست فأبليت.»

وقال النَّمر بن تَولَب:

أعاذِلُ إنْ يُصبِحْ صَدايَ بقَفْرةٍ بَعيدًا فآتي صاحِبِي وقريبي
تَرَيْ أنَّ ما أبقيتُ لم أكُ رَبَّه وأنَّ الذي أنفقتُ كانَ نَصِيبي

---

[٢٨] الوقائع هنا بمعنى: المنابع العذبة.

[٢٩] صفراء فرع: قوس غير مشقوقة. خطموها: ربطوها. لأمم ممر: يعني أن الوتر قوي الفتل، وهو شبيه بحلقوم النغر الذي هو البلبل.

الصدى: طائر يخرج من قبر الميت فينعى إليه ضعفَ وليِّه وعَجْزه، وهذا كانت العرب تقوله في الجاهلية، وهو ها هنا مُستعار؛ أي إن أصبحت أنا.

ووصف أعرابي رجلًا فقال: صغير القَدْر، قصير الشَّبْر، ضيِّق الصدر، لئيم النَّجْر، عظيم الكِبر، كثير الفَخر.

الشبر: القامة. والنجر: الطباع.

ووصف بعض الخُطباء رجلًا فقال: ما رأيت أضرَبَ لَمثل، ولا أركَبَ لجَمل، ولا أصعدَ في قُلَل، منه. وسأل بعض الأعراب رسولًا قَدِم من أهل السِّند: كيف رأيتم البلاد؟ فقال: ماؤها وَشَل، ولِصُّها بَطَل، وتَمرُها دَقَل. إن كَثُر الجند بها جاعوا، وإن قلُّوا بها ضاعوا.

وقيل لصعصعة بن معاوية: من أين أقبلت؟ قال: من الفج العميق. قيل: فأين تريد؟ قال: البيت العتيق. قيل: هل من مطر؟ قال: نعم، حتى عفَّا الأثر، وأنضر الشجر، ودهده الحجر. واستجار عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود بمحمد بن مروان بنصيبين، وتزوج بها امرأةً، فقال محمد: كيف ترى نصيبين؟ قال: كثيرة العقارب، قليلة الأقارب.

يريد بقوله: قليلة، كقول القائل: فلانٌ قليل الحياء؛ ليس يريد أن هنالك حياءً وإن قل، يضعون قليلًا في موضع ليس.

ووَلِيَ العلاء الكلابي عملًا خسيسًا بعد أن كان على عملٍ جسيم، فقال: العُنوق بعد النُّوق؟ قال: ونظر رجل من العُبَّاد إلى باب بعض الملوك، فقال: بابٌ جديد، وموتٌ عتيد، ونزعٌ شديد، وسفرٌ بعيد. وقيل لبعض العرب: أيَّ شيء تمنَّى، وأيُّ شيء أحبُّ إليك؟ قال: لواءٌ منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير. وقيل لآخر، وصلَّى ركعتَين وأطال فيهما، وقد كان أُمر بقتله: أجَزِعتَ من الموت؟ فقال: إن أجزع فقد أرى كفنًا منشورًا، وسيفًا مشهورًا، وقبرًا محفورًا. وقال عبد الملك بن مروان لأعرابي: ما أطيبُ الطعام؟ قال: بَكْرةٌ سَنِمة، مُعتبَطة غير ضَمِنة، في قُدورٍ رَذِمة، بِشِفارٍ خَذِمة، في غداةٍ شَبِمة.[30] فقال عبد الملك: وأبِيكَ لقد أطبتَ.

والشبم: البرد.

[30] بكرة سنمة: ناقة فتيَّة ذات سنام عظيم. معتبطة غير ضمنة: نُحِرت لغير علة ولا زمانة ولا ضعف. القدور الرذمة: أي الممتلئة. بشفار خذمة: بسكاكين حادَّة قاطعة. في غداة شبمة: في صبيحة باردة ليِّنة.

وقالوا: لا تَغترَّ بمناصحة الأمير، إذا غشَّك الوزير. وقالوا: من صادَق الكُتاب أغنَوه، ومن عاداهم أفقروه. وقالوا: اجعل قول الكذَّاب ريحًا، تكُن مُستريحًا.

وقيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: لمَ تؤثِر السجع على المنثور، وتُلزِم نفسك القوافيَ وإقامة الوزن؟ قال: إن كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقلَّ خلافي عليك، ولكني أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر؛ فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط؛ وهو أحق بالتقييد وبقلَّة التفلُّت، وما تكلَّمت به العرب من جيِّد المنثور أكثَرُ مما تكلَّمت به من جيِّد الموزون؛ فلم يُحفظ من المنثور عُشْره، ولا ضاع من الموزون عُشْره.

قالوا: فقد قيل للذي قال: يا رسول الله، أرأيت من لا شَرِب ولا أكَل، ولا صاح فاستهل، أليس مِثل ذلك يُطَل، فقال رسول الله ﷺ: «أسجْعٌ كسجع الجاهلية؟»

قال عبد الصمد: لو أن هذا المُتكلم لم يُرِد إلا الإقامة لهذا الوزن لَمَا كان عليه بأس، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالًا لحق فتشادَق في كلامه.

وقال غير عبد الصمد: وجدنا الشعر من القصيد والرجز قد سمعه رسول الله ﷺ، واستحسنه وأمر به شعراءه، وعامة أصحاب رسول الله ﷺ قد قالوا شعرًا، قليلًا كان ذلك أم كثيرًا، واستمعوا واستنشدوا؛ فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز، فكيف يحل ما هو أكثر ويحرم ما هو أقل؟ وقال غيرهما: إذا لم يَطُل ذلك، ولم تكُن القوافي مطلوبةً مجتلَبة، أو ملتمَسة متكلَّفة، وكان ذلك كقول الأعرابي لعامل الماء: حُلبت ركابي، وخُرقت ثيابي، وضُربت صحابي، ومُنعت إبلي من الماء والكلأ.

والركاب: ما يُركب من الإبل.

قال: أوَسجعٌ أيضًا؟ فقال الأعرابي: فكيف أقول؟

لأنه لو قال: حُلبت إبلي أو جمالي أو نوقي أو بعراني أو صرمتي، لكان لم يعبِّر عن حقِّ معناه، وإنما حُلبت ركابه، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب؟ وكذا قوله: خُرقت ثيابي، وضُربت صحابي؛ لأن الكلام إذا قلَّ وقع وقوعًا لا يجوز تغييره، وإذا طال وجدت في القوافي ما يكون مجتلَبًا ومطلوبًا مستكرَهًا.

وفي الحديث المأثور — ويدخل على من طعن في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ وزعم أنه شعر؛ لأنه في تقدير مستفعلن مفاعلن — وطعن في قوله عليه السلام: «هل أنتِ إلا إصبعٌ دَميتِ، وفي سبيل الله ما لقيتِ؟»

فيُقال له: اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم، لوجدت فيها مثل «مستفعلن فاعلن» كثيرًا، وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدار شعرًا. ولو أن رجلًا من الباعة صاح: من يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلَّم بكلام في وزن «مستفعلن مفعولان»، فكيف يكون هذا شعرًا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومِثل هذا المِقدار من الوزن قد يتهيَّأ في جميع الكلام. وإذا جاء المقدار الذي يُعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها، كان ذلك شعرًا، وهذا قريب، والجواب فيه سهل بحمد الله. وسمعت غلامًا لصديق لي، وكان قد سقى بطنه، يقول لغلمان مولاه: اذهبوا بي إلى الطبيب، وقولوا قد اكتوى. وهذا الكلام يخرج وزنه: فاعلاتن مفاعلن، مرَّتَين. وقد علمت أن هذا الغلام لم يخطر على بباله قطُّ أن يقول بيت شعر أبدًا، ومثل هذا كثير لو تتبعته في كلام حاشيتك وغلمانك لوجدته.

وكان الذي كرَّه الأسجاع بعينها، وإن كانت دون الشعر في التكلُّف والصنعة، أن كُهَّان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم، وكانوا يدَّعون الكهانة، وأن مع كل واحد منهم رئيًّا من الجن، مثل «حازي جُهينة»، ومثل «شِق» و«سطيح»، و«عُزَّى سلمة» وأشباههم، كانوا يتكهَّنون ويحكمون بالأسجاع، كقوله: والأرض والسماء، والعُقاب والصَّقعاء، واقعةً ببقعاء، لقد نفَّر المجد بني العُشراء، للمجد والسَّناء. وهذا الباب كثير، ألا ترى أن «ضَمْرة بن ضَمْرة»، و«هَرِم بن قُطبة»، و«الأقرع بن حابس»، و«نُفيل بن عبد العُزَّى»، كانوا يَحكُمون وينفِّرون بالأسجاع، وكذلك «ربيعة بن حذار»؟ فوقع النهي في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية، ولبقيتها فيهم وفي صدور كثير منهم؛ فلما زالت العلة زال التحريم.

وقد كان الخُطباء تتكلم عند الخُلفاء الراشدين، فتكون في تلك الخطب أسجاعٌ كثيرة، فلم ينهَوا منهم أحدًا.

وكان الفضل بن عيسى الرقاشي سجَّاعًا في قصصه، وكان عمرو بن عُبيد، وهشام بن حسَّان، وأبان بن أبي عيَّاش، يأتون مجلسه. قال له داود بن أبي هند: لولا أنك تُفسر القرآن برأيك لأتيناك في مجلسك. قال: فهل تراني أحرِّم حلالًا وأُحلَّ حرامًا؟

وإنما كان يتلو الآية التي فيها ذِكر النار والجنة، والحشر والموت، وأشباه ذلك.

وقد كان عبد الصمد بن الفضل، وأبو العبَّاس القاسم بن يحيى، وعامة قُصَّاص البصرة، وهم أخطب من الخطباء، يجلس إليهم عامة الفقهاء. وقد كان النهي ظاهرًا

عن مرثية أميَّة بن أبي الصَّلت لقتلى أهل بدر، كقوله:

هـلَّا بَـكَـيـتَ عـلـى الـكِـرَا ... مِ بَنِي الكِرامِ أُولي المَمادِحْ

وروى ناس شبيهًا بذلك في هجاء الأعشى لعلقمة بن علاثة؛ فلما زالت العلة زال النهي.
وقال أبو واثلة بن خليفة في عبد الملك بن المُهلب:

لقد صبَرتْ للذُّلِّ أعوادُ مِنبَرٍ ... تَقُومُ عليها في يدَيكَ قَضيبُ
بَكى المِنبرُ الغربيُّ إذ قَمْتَ فوقَه ... فكادتْ مَساميرُ الحديدِ تَذُوبُ
رأيتُك لمَّا شِبتَ أدركَكَ الذي ... يُصِيبُ سَراةَ الأزدِ حينَ تَشِيبُ
سـفـاهـةُ أحـلامٍ وبُـخـلٌ بِـنـائـلٍ ... وفيكَ لمَن عابَ المُزونَ عُيوبُ

وخطب الوليد بن عبد الملك فقال: إن أميرَ المؤمنين عبدَ الملك كان يقول: إن الحَجَّاج جِلدةُ ما بين عينيَّ، ألا وإنه جلدة وجهي كله. وخطب الوليد بعد وفاة الحجَّاج وتوليته يزيد بن أبي مسلم، فقال: إنما مَثلي ومَثل يزيد بن أبي مسلم بعد الحجَّاج كمن سقط منه درهم فأصاب دينارًا.

شبيب بن شيبة قال، حدَّثني خالد بن صفوان قال، خطبنا يزيد بن المهلَّب بواسط فقال: إني قد أسمع قول الرَّعاع: قد جاء مَسلمة، وقد جاء العبَّاس، وقد جاء أهل الشام. وما أهل الشام إلا تسعة أسياف؛ سبعة منها معي واثنان عليَّ، وأما مَسلمة فجرادةٌ صَفراء، وأما العبَّاس فنسطوس بن نسطوس، أتاكم في برابرة وصقالبة، وجرامقة وجراجمة، وأقباط وأنباط وأخلاط من الناس. إنما أقبل إليكم الفلَّاحون والأوباش كأشلاء اللُّجم. والله ما لقوا قومًا قطُّ كحدِّكم وحديدكم، وعدِّكم وعديدكم. أَعِيروني سواعدكم ساعةً من نهارٍ تصفقون بها خراطيمهم؛ فإنما هي غَدوة أو رَوحة حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الفاسقين.

ومدح بشَّارٌ هَزار مُرْد العَتكي بالخُطب وركوبه المنابر، بل رثاه وأبَّنه، فقال:

مـا بـالُ عـيـنِـك دمـعُـهـا مـسـكـوبُ ... سَـهِـرتْ فـأنـتَ بـنَـومِـهـا مـحـروبُ
وكذاك من صَحِبَ الحوادثَ لم يَزَلْ ... تـأتـي عـلـيـه سـلامـةٌ ونُـكـوبُ
يـا أرضُ وَيـحَـكِ أكْـرِمـيـه فـإنَّـه ... لـم يَـبْـقَ لـلـعَـتْـكـيِّ فـيـكِ ضـريـبُ
أبْهى على خَشبِ المَنابرِ قائمًا ... يـومًـا وأحـزَمُ إذ تُـشَـبُّ حُـروبُ

خطباء البصرة

كان سوَّار بن عبد الله أول تميمي خطب على منبر البصرة، ثم خطب عُبيد الله بن الحسن. ووليَ منبرَ البصرة أربعةٌ من القضاة، فكانوا قُضاةً أُمراء؛ بلال، وسوار، وعبيد الله، وأحمد بن رباح. وكان بلال قاضيًا ابن قاضٍ ابن قاضٍ.

وقال رؤبة:

فأنتَ يا ابْنَ القاضِيَينِ قاضِ ‏ ‏ ‏ ‏ مُعتزمٌ على الطريقِ ماضِ

قال أبو الحسن المدائني: كان عُبيد الله بن الحسن حيث وفد على المهدي معزِّيًا أعدَّ له كلامًا، فبلَغه أن الناس قد أعجبهم كلامه، فقال لشبيب بن شيبة: إني والله ما ألتفت إلى هؤلاء، ولكن سَل لي عنها أبا عبيد الله الكاتب. فسأله فقال: ما أحسنَ ما تكلَّم به! على أنه أخذ مواعظ الحسن ورسائل غيلان فلقَّح بينهما كلامًا، فأخبره بذلك شبيب، فقال عبيد الله: لا والله إنْ أخطأ حرفًا واحدًا.

وكان محمد بن سليمان له خطبة لا يغيِّرها، وكان يقول: إن الله وملائكتُه. فكان يرفع الملائكة، فقيل له [في] ذلك، فقال: خرِّجوا لها وجهًا، ولم يكن يدع الرفع.

قال: وصلَّى بنا خُزيمة يوم النحر، فخطب، فلم يُسمع من كلامه إلا ذِكر أمير المؤمنين الرشيد ووليِّ عهده محمد. قال: وكان زُهير بن محمد الضبِّي يُدار به إذا قرع المنبر.

وقال الشاعر:

أميرَ المؤمِنِين إليكَ نَشْكو ‏ ‏ ‏ ‏ وإنْ كنَّا نقولُ بغيرِ عُذْرِ
غفَرتَ ذُنوبَنا وعفَوتَ عنَّا ‏ ‏ ‏ ‏ وليستْ مِنكَ أنْ تَعفُو ببِكْرِ
فإنَّ المِنبَرَ البصريَّ يَشْكو ‏ ‏ ‏ ‏ على العِلَّاتِ إسحاقَ بن شِمْرِ
أضبِّيٌّ على خشَباتِ مُلْكٍ ‏ ‏ ‏ ‏ كمَركَبِ ثَعلبٍ ظهْرَ الهِزَبْرِ

وقال بعض شُعراء العسكر يهجو رجلًا من أهل العسكر:

ما زِلتَ تركبُ كلَّ شيءٍ قائمٍ ‏ ‏ ‏ ‏ حتى اجترأتَ على رُكوبِ المِنبَرِ
ما زالَ مِنبَرُكَ الذي دنَّستَه ‏ ‏ ‏ ‏ بالأمسِ مِنكَ كحائضٍ لم تَطهُرِ

وقال آخر:

فما مِنبَرٌ دنَّستَه باسْتِ أفكَلٍ بِزَاكٍ ولو طهَّرتَه بابْنِ طاهِرِ

(١٤) باب أسجاع

عبد الله بن المُبارَك، عن بعض أشياخه، عن الشعبي قال، قال عيسى بن مريم عليه السلام: «البِرُّ ثلاثة؛ المنطق، والمنظر، والصمت؛ فمن كان منطقه في غير ذِكر فقد لغا، ومن كان نظره في غير اعتبار فقد سها، ومن كان صمته في غير فِكر فقد لها.» وقال علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه: أفضل العبادة الصمت وانتظار الفرج. وقال يزيد بن المهلَّب وهو في الحبس: وا لَهفاه على طليَّة بمائة ألف، وفرْجٍ في جبهة الأسد! وقال عمر رضي الله تعالى عنه: استغزِروا الدموع بالتذكُّر.

وقال الشاعر:

ولا يَبعثُ الأحزانَ مِثلُ التَّذكُّرِ

حفص قال، سمعت عيسى بن عمر يقول، سمعنا الحسن يقول: اقدعوا هذه النفوس؛ فإنها طُلَعة، واعصوها؛ فإنكم إن أطعتموها تنزع بكم إلى شر غاية، وحادِثوها بالذِّكر؛ فإنها سريعة الدثور.

اقدعوا: كُفوا. طُلعة: أي تطلَّع إلى كل شيء. حادثوا: أي اجلوا واشحذوا. والدثور: الدروس، يُقال: دثر أثر فلان؛ أي ذهب، كما يُقال: درس وعفا.

قال: فحدَّثت بهذا الحديث أبا عمرو بن العلاء، فتعجَّب من كلامه.

وقال الشاعر:

سَمِعْنا بِهَيْجا أوجَفَتْ فذكَرتُه ولا يَبعَثُ الأحزانَ مِثلُ التَّذكُّرِ

الوجيف: السير الشديد، يُقال: وجف الفرس والبعير وأوجفته، ومِثله الإيضاع، وهو الإسراع. أراد بهيجاء: أقبلت مسرعة.

ومن الأسجاع قول أيوب بن القِرِّيَّة، وقد كان دُعي للكلام فاحتبس القول عليه، فقال: قد طال السَّمَر، وسقط القمر، واشتدَّ المطر، فماذا يُنتظر؟ فأجابه فتًى من عبد القيس فقال: قد طال الأرَق، وسقط الشفق، وكَثُر اللَّثَق، فلينطق من نطق.

اللثق: الندى الوحل.

وقال أعرابي لرجل: نحن والله آكَلُ منكم للمأدوم، وأكسَبُ منكم للمعدوم، وأعطى منكم للمحروم. ووصف أعرابي رجلًا فقال: إن رِفدَك لنجيح، وإن خيرك لسريح، وإن منعك لُمريح سريح.

عَجِل مريح: أي مريح من كد الطلب.

وقال عبد الملك لأعرابي: ما أطيَبُ الطعام؟ فقال: بَكرةٌ سَنِمة، في قدورٍ رَذِمة، بِشِفارٍ خَذِمة، في غداةٍ شَبِمة. فقال عبد الملك: وأبيكَ لقد أطبتَ.

وسئل أعرابي فقيل له: ما أشدُّ البرد؟ فقال: ريحٌ جِربِياء، في طلِّ عماء، في غِبِّ سماء.

ودعا أعرابي فقال: اللهم إني أسألك البقاء، والنماء، وطيب الإتاء، وحط الأعداء، ورفع الأولياء.

الإتاء: الرزق.

وقال إبراهيم النخَعي لمنصور بن المعتمر: سَل مسألة الحَمقى، واحفظ حِفظ الكَيسى. ووصفت عمةُ حاجزٍ اللص حاجزًا، ففضَّلتْه وقالت: كان حاجزٌ لا يشبع ليلةَ يُضاف، ولا ينام ليلةَ يخاف.

ووصف بعضهم فرسًا فقال: أقبل بزُبْرة الأسد، وأدبر بعَجُز الذئب.

الزبرة: مغرز العنق، ويُقال للشعر الذي بين كتفَيه. ووصفه بأنه محطوط الكفل.

ولما اجتمع الناس، وقامت الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قومٌ الكراهة قام رجل يُقال له يزيد بن المقنَّع، فاخترط من سيفه شبرًا ثم قال: هذا أمير المؤمنين — وأشار بيده إلى معاوية — فإن مات فهذا — وأشار بيده إلى يزيد — فمن أبى فهذا — وأشار بيده إلى سيفه — فقال معاوية: أنت سيِّد الخطباء.

ولما قامت خطباء نِزار عند معاوية فذهبت في الخطب كل مذهب، قام صَبِرة بن شَيمان فقال: يا أمير المؤمنين، إنا حيٌّ فَعَال، ولسنا حيَّ مَقال؛ ونحن نبلغ بفعالنا أكثر من مقال غيرنا.

ولما وفد الأحنف في وجوه أهل البصرة إلى عبد الله بن الزُّبير، تكلَّم أبو حاضر الأسيدي وكان خطيبًا جميلًا، فقال له عبد الله بن الزبير: اسكت، فوالله لوددت أن لي بكل عشرة من أهل العراق رجلًا من أهل الشام، صرف الدينار بالدرهم. قال: يا أمير المؤمنين، إن لنا ولك مثلًا، أفتأذن في ذِكره؟ قال: نعم. قال: مَثلُنا ومثلك ومثل أهل الشام قول الأعشى حيث يقول:

عُلِّقتُها عَرَضًا وعُلِّقتْ رجلًا   غَيْري وعُلِّقَ أخرى غيْرَها الرَّجلُ

أحبَّك أهل العراق، وأحببتَ أهل الشام، وأحب أهل الشام عبد الملك بن مروان.

علي بن مجاهد، عن حُميد بن أبي البَختري، قال: ذكر معاوية لابن الزبير بيعة يزيد، فقال ابن الزبير: إني أناديك ولا أناجيك، إن أخاك من صدَقك، فانظر قبل أن تُقدِم، وتفكَّرْ قبل أن تندم؛ فإن النظر قبل التقدم، والتفكر قبل التندم. فضحك معاوية ثم قال: تعلَّمتَ أبا بكر السِّجاعةَ عند الكِبَر؟ إن في دون ما سجعت به على أخيك ما يكفيك. ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير.

أخبرنا ثُمامة بن أشرَس، قال: لما صرفت اليمانية — من أهل مِزَّة — الماء عن أهل دمشق ووجَّهوه إلى الصحاري، كتب إليهم أبو الهَيذام: إلى بني استِها أهل مِزَّة، ليُمسِّيَنَّني الماء أو لتُصبِّحنَّكم الخيل. قال: فوافاهم الماء قبل أن يُعتموا.

أي يصيرون في وقت عتمة الليل. وعتمته: ظلامه، يُقال: عتَم الليل يَعتِم، إذا أظلم، وأعتم الناس صاروا في وقت العتمة.

فقال أبو الهيذام: الصِّدق يُنْبي عنك لا الوعيد.

وحدَّثني ثُمامة عمَّن قَدِم عليه من أهل دمشق، قال: لما بايَع الناس يزيد بن الوليد، وأتاه الخبر عن مروان بن محمد ببعض التلكُّؤ والتحبُّس، كتب إليه:

> بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين يزيد بن الوليد، إلى مروان بن محمد. أما بعد، فإني أراك تُقدِّم رِجلًا وتؤخِّر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمِدْ على أيهما شئت، والسلام.

وها هنا مذاهب تدل على أصالة الرأي، ومذاهب تدل عل تمام النفس، وعلى الصلاح والكمال، لا أرى كثيرًا من الناس يقفون عليها.

واستعمل عبد الملك بن مروان نافع بن علقمة بن نضلة بن صفوان بن محرِّث خال مروان على مكة، فخطب ذات يوم — وأبان بن عثمان بحذاء المنبر — فشتم طلحة والزبير، فلما نزل قال لأبان: أرضَيتُك من المُدهِنين في أمير المؤمنين؟ قال: لا والله، ولكن سُؤتَني، حَسْبي أن يكونا شركاء في أمره.

فما أدري أيهما أحسن؛ كلام أبان بن عثمان هذا أم إسحاق بن عيسى؛ فإنه قال: أعيذ عليًّا أن يكون قتل عثمان، وأعيذ عثمان بالله أن يقتله علي. فمدح عليًّا بكلامٍ سديدٍ غير نافر، ومقبولٍ غير وحشي. وذهب إلى معنى الحديث في قول رسول الله ﷺ: «أشد أهل النار عذابًا من قتل نبيًّا أو قتله نبي.»

يقول: لا يتَّفق أن يقتله نبي بنفسه إلا وهو أشد خلق الله معاندةً، وأجرؤهم على معصيته. فيقول: لا يجوز أن يقتله علي إلا وهو مستحقٌّ للقتل.

خُطبة من خُطَب النبي ﷺ

خطب النبي ﷺ بعشر كلمات؛ حَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس، إن لكم مَعالم فانتهوا إلى مَعالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. إن المؤمن بين مَخافتَين؛ بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه؛ فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكَبْرة، ومن الحياة قبل الموت؛ فوالذي نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مُستعتَب، ولا بعد الدنيا من دار، إلا الجنة أو النار.»

أبو الحسن المدائني قال: تكلَّم عمَّار بن ياسر يومًا فأوجز، فقيل له: لو زِدْتنا. قال: أمرنا رسول الله ﷺ بإطالة الصلاة وقِصر الخُطبة.

محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عُتبة، عن شيخ من الأنصار من بني زُريق، أن عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، لما أُتي بسيف النُّعمان بن المُنذر دعا جُبير بن مُطعِم فسلَّحه إياه، ثم قال: يا جُبير، ممن كان النُّعمان؟ قال: من أشلاء قَنَص بن مَعَد. وكان جُبير أنسبَ العرب، وكان أخذ النَّسب عن أبي بكر الصدِّيق، رضي الله تعالى عنه، وعن جبير أخذ سعيد بن المسيب. وروى عن بعض ولد طلحة قال، قلت لسعيد بن المسيب: علِّمني النَّسب. قال: أنت رجلٌ تريد أن تُسابَّ الناس. وثلاثة في نسقٍ واحد كانوا أصحاب نسب؛ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، أخذ ذلك عن الخطَّاب، وكان كثيرًا ما يقول: سمعت ذلك من الخطَّاب، ولم أسمع ذلك من الخطَّاب. والخطَّاب بن نُفيل، ونُفيل بن عبد العُزَّى، تنافر إليه عبد المطلب وحرب بن أمية، فنفَّر عبد المطلب؛ أي حكم لعبد المطلب. والمنافرة المحاكمة.

والنُّسَّاب أربعة؛ دَغفَل بن حنظلة، وعُميرة أبو ضَمْضام، وصُبح الحنفي، وابن الكيِّس النَّمري.

وقال الأصمعي: دغفل بن حنظلة، النسَّابة البكري، وكان نصرانيًّا. ولم يُسمِّه.

خطب سليمان بن عبد الملك فقال:

اتَّخِذوا كتاب الله إمامًا، وارضَوا به حَكَمًا، واجعلوه قائدًا؛ فإنه ناسخ لما قبله، ولم ينسخه كتابٌ بعده. وأول كلام بارع سمعوه منه: الكلام فيما يَعنيك خيرٌ من السكوت عما يضرُّك، والسكوت عما لا يَعنيك خيرٌ من الكلام فيما يضرُّك.

خلَّاد بن يزيد الأرقط قال، سمعت من يُخبرنا عن الشعبي قال: ما سمعت مُتكلمًا على مِنبر قطُّ تكلَّم فأحسن إلا تمنَّيت أن يسكت خوفًا من أن يُسيء، إلا زيادًا؛ فإنه كلما كان أكثر كان أجود كلامًا.

وكان نَوفل بن مُساحق إذا دخل على امرأته صمت، وإذا خرج من عندها تكلَّم، فرأته يومًا كذلك فقالت: أما عندي فتُطرِق، وأما عند الناس فتَنطِق. قال: لأني أدِقُّ عن جليلك، وتجلِّين عن دقيقي.

قال أبو الحسن: قاد عيَّاش بن الزِّبرِقان بن بدرٍ إلى عبد الملك بن مروان خمسًا وعشرين فرسًا، فلما جلس لينظر إليها نسب كل فرس منها إلى جميع آبائه وأمهاته، وحلف على كل فرس بيمينٍ غير اليمين التي حلف بها على الفرس الآخر، فقال عبد الملك بن مروان: عجبي من اختلاف أيمانه أشدُّ من عجبي من معرفته بأنساب الخيل.

وقال: كان للزبرقان بن بدر ثلاثة أسماء؛ القمر، والزبرقان، والحصين. وكانت له ثلاث كُنًى؛ أبو شَذرة، وأبو عيَّاش، وأبو العبَّاس. وكان عيَّاش ابنه خطيبًا ماردًا، شديد العارضة، شديد الشكيمة، وجيهًا، وله يقول جرير:

أعيَّاشُ قد ذاقَ القُيونُ مَرارتي وأوقدتُ نارًا فادْنُ دُونَكَ فاصْطَلِ

فقال عيَّاش: إني إذًا لَمَقرور. قالوا: فغلَّب عليه.

(١٥) باب أسماء الخُطباء والبُلغاء والأبْيِناء وذِكر قبائلهم وأنسابهم

كان التدبير في أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم، وأسماء أهل الإسلام على منازلهم، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء، ونقسِّم أمورهم بابًا بابًا على حدته، ونقدِّم من قدَّمه الله عز وجل ورسوله ﷺ في النسب، وفضَّله في الحسب، ولكني لما عجزت عن نظمه وتنضيده، تكلَّفت ذكرهم في الجملة، والله المستعان، وبه التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا به.

كان الفضل بن عيسى الرَّقاشي من أخطب الناس، وكان مُتكلمًا، وكان قاصًّا مُجيدًا. وكان يجلس إليه عمرو بن عُبيد، وهشام بن حسَّان، وأبان بن أبي عيَّاش، وكثير من الفقهاء. وهو رئيس الفضيلية وإليه يُنسَبون. وخطب إليه ابنتَه سوادة بنت الفضل سليمانُ بن طَرخان التيمي، فولدت له المُعتمر بن سليمان. وكان سليمان مُباينًا للفضل في المقالة، فلما ماتت سوادة شهد الجنازةَ المعتمرُ وأبوه فقدَّما الفضل.

وكان الفضل لا يركب إلا الحمير، فقال له عيسى بن حاضر: إنك لتؤثِر الحمير على جميع المركوب، فلِمَ ذلك؟ قال: لِما فيها من المَرافق والمنافع. قلت: مِثل أي شيء؟ قال: لا تستبدل بالمكان على قدر اختلاف الزمان، ثم هي أقلُّها داءً وأيسرها دواءً، وأسلم صريعًا، وأكثر تصريفًا، وأسهل مُرتقًى، وأخفض مَهوًى، وأقل جِماحًا، وأشهر فارهًا، وأقل نظيرًا، يَزهى راكبه وقد تواضع بركوبه، ويكون مُقتصدًا وقد أسرف في ثمنه. قال: ونظر يومًا إلى حمارٍ فارهٍ تحت سالم بن قُتيبة، فقال: قِعْدة نبي، وبِذْلة جبَّار. قال عيسى بن حاضر: ذهب إلى حمار عُزير، وإلى حمار مسيح الدجَّال، وإلى حمار بلعم، وكان يقول: لو أراد أبو سيَّارة عُمَيلة بن أعزلة أن يدفع بالموسم على فرسٍ عربي، أو جملٍ مهري، لفعل، ولكنه ركب عَيرًا أربعين عامًا لأنه كان يتألَّه. وقد ضُرِب به المثل فقالوا: أصحُّ من عَيْر أبي سيَّارة.

والفضل هو الذي يقول في قصصه: سَلِ الأرض فقُل: من شقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تُجِبك حِوارًا، أجابتك اعتبارًا.

وكان عبد الصمد بن الفضل أغزر من أبيه وأعجب وأبيَن وأخطب. وحدَّثني أبو جعفر الصوفي القاص قال: تكلَّم عبد الصمد في خلق البعوضة وفي جميع شأنها ثلاثة مجالس تامة.

وكان يزيد بن أبان، عم الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي، من أصحاب أنَس والحسن، وكان يتكلم في مجلس الحسن، وكان زاهدًا عابدًا، وعالمًا فاضلًا، وكان قاصًّا مُجيدًا. قال أبو عبيدة: كان أبوهم خطيبًا، وكذلك جدهم، وكانوا خُطباء الأكاسرة؛ فلما سُبُوا ووُلِد لهم الأولاد في بلاد الإسلام وفي جزيرة العرب نزعهم ذلك العِرق، فقاموا في أهل هذه اللغة كمقامهم في أهل تلك اللغة، وفيهم شعر وخُطب، وما زالوا كذلك حتى أصهر الغُرباء إليهم، ففسد ذلك العِرق ودخله الخوَر.

ومن خطباء إياد «قُسُّ بن ساعدة»، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: رأيته بسوق عُكاظ على جملٍ أحمر وهو يقول: «أيها الناس، اجتمِعوا، فاسمعوا وعوا. من عاش

مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آتٍ.» وهو القائل في هذه: «آياتٌ مُحكَمات، مطر ونبات، وآباء وأمَّهات، وذاهب وآتٍ؛ ونجومٌ تمور، وبحورٌ لا تغور؛ وسقفٌ مرفوع، ومهادٌ موضوع؛ وليلٍ داجٍ، وسماءٍ ذات أبراج. ما لي أرى الناس يموتون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا، أم حُبسوا فناموا؟» وهو القائل: «يا معشر إياد، أين ثمود وعاد، وأين الآباء والأجداد؟ أين المعروف الذي لم يُشكر، والظلم الذي لم يُنكر؟ أقسم قُسٌّ قسمًا بالله أن لله دينًا هو أرضى له من دينكم هذا.» وأنشدوا له هذه:

فـي الـذاهِـبِـيـنَ الأوَّلـيـ ـنَ من القرونِ لنا بَصائِرْ
لـمَّـا رأيـتُ مَـوارِدًا للموتِ ليس لها مَصادِرْ
ورأيـتُ قـومـي نـحـوَهـا تَمضي الأكابرُ والأصاغِرْ
لا يـرجـعُ الـمـاضـي ولا يَبقى من الباقينَ غابِرْ
أيـقـنـتُ أنـي لا مَـحـا لَة حيث صارَ القومُ صائِرْ

ومن الخطباء «زيد بن علي بن الحسين». وكان خالد بن عبد الله أقرَّ على زيد بن علي، وداود بن علي، وأيوب بن سلمة المخزومي، وعلي بن محمد بن عمر بن علي، وعلي بن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف؛ فسأل هشام زيدًا عن ذلك فقال: أحلف لك؟ قال: وإذا حلفت أصدِّقك؟ قال زيد: اتقِ الله. قال: أوَمِثلُك يا زيد يأمر مِثلي بتقوى الله؟ قال زيد: لا أحد فوق أن يُوصى بتقوى الله، ولا دون أن يُوصِي بتقوى الله. قال هشام: بلَغني أنك تريد الخلافة، ولا تصلح لها لأنك ابن أمَة. قال زيد: فقد كان إسماعيل بن إبراهيم، صلوات الله عليه، ابن أمَة، وإسحاق عليه السلام ابن حُرة، فأخرج الله عز وجل من صُلبِ إسماعيل عليه السلام خير ولد آدم محمدًا ﷺ. فعندها قال له: قم. قال: إذًا لا تراني إلا حيث تكره. ولما خرج من الدار قال: ما أحبَّ أحدٌ الحياة قطُّ إلا ذل. فقال له سالمٌ مولى هشام: لا يسمعن هذا الكلامَ منك أحد.

وقال محمد بن عُمير: إن زيدًا لما رأى الأرض قد طُبِّقت جورًا، ورأى قلة الأعوان، ورأى تخاذل الناس، كانت الشهادة أحبَّ المنيَّات إليه. وكان زيد كثيرًا ما يُنشِد:

شـرَّدَه الـخـوفُ وأزْرى بـه كذاك من يَكرَهُ حَرَّ الجِلادْ
مُنخرِقُ الخُفَّينِ يَشكو الوجى تَنكُبُه أطرافُ مَروٍ حِدادْ
قد كان في الموتِ له راحةٌ والموتُ حَتمٌ في رِقابِ العِبادْ

قال: وكان كثيرًا ما يُنشِد شعر العبسي في ذلك:

إنَّ المُحكَّمَ من لم يَرتقبْ حسَبًا أو يَرهَبِ السيفَ أو حدَّ القنا جَنَفا
من عاذَ بالسيفِ لاقى فُرصةً عَجبًا موتًا على عَجَلٍ أو عاشَ مُنتصِفا

ولما بعث يوسف بن عمر برأس زيد ونصر بن خزيمة مع شيبة بن عقال، وكلَّف آل أبي طالب أن يبرءوا من زيد ويقوم خطباؤهم بذلك، فأول من قام عبد الله بن الحسن فأوجز في كلامه ثم جلس، ثم قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فأطنب في كلامه، وكان شاعرًا بيِّنًا وخطيبًا لسِنًا، فانصرف الناس وهم يقولون: ابن الطيَّار أخطب الناس. فقيل لعبد الله بن الحسن في ذلك، فقال: لو شئت أن أقول لقلت، ولكن لم يكن مقام سرور. فأعجب الناس ذلك منه.

ومن أهل الدهاء والنَّكراء، ومن أهل اللَّسَن واللَّقَن، والجواب العجيب، والكلام الصحيح، والأمثال السائرة، والمخارج العجيبة: «هند بنت الخُس»، وهي الزرقاء، و«خمعة بنت حابس».[31] ويُقال إن حابسًا من إياد. وقال عامر بن عبد الله الفزاري: جُمِع بين هند وخمعة، فقيل لخمعة: أي الرجال أحب إليك؟ قالت: الشَّنِق الكبد، الظاهر الجَلَد، الشديد الجَذْب بالمَسَد. فقيل لهند: أي الرجال أحب إليك؟ قالت: القريب الأمد، الواسع البلد، الذي يُوفَد إليه ولا يَفِد. وقد سئلت هند عن حر الصيف وبرد الشتاء، فقالت: من جعل بؤسًا كأذًى! وقد ضُرب بها المثل، فمن ذلك قول ليلى بنت النضر الشاعرة:

وكنزَ ابنُ جُدْعانٍ دلالةَ أمِّه وكانت كبِنتِ الخُسِّ أو هي أكبَرُ

وقال ابن الأعرابي: يُقال بنت الخس، وبنت الخص، وهي الزرقاء، وبنت الخسف. وقال يونس: لا يُقال إلا بنت الأخس، وهي الزرقاء. وقال أبو عمرو بن العلاء: داهيتا نساء العرب هند الزرقاء، وعنز الزرقاء. وهي زرقاء اليمامة.

قال اليَقطُري، قيل لعبد الله بن الحسن: ما تقول في المِراء؟ قال: ما عسى أن أقول في شيء يُفسِد الصداقة القديمة، ويحتل العقدة الوثيقة؟ وإن كان لأقل ما فيه أن يكون دُرْبةً للمغالبة، والمغالبة من أمتن أسباب الفتنة. إن رسول الله ﷺ لما أتاه السائب

[31] راجع ما كتبناه عنها محقَّقًا في: [الجزء الأول – (٢) ذكر الحروف التي تدخلها اللثغة وما يحضرني منها، الهامش رقم ٧٤].

بن صيفي فقال: أتعرفني يا رسول الله؟ قال: كيف لا أعرف شريكي الذي كان لا يُشاريني ولا يُماريني؟ قال: فتحوَّلت إلى زيد بن علي فقلت له: الصمت خير أم الكلام؟ قال: أخزى الله المساكتة؛ فما أفسدها للبيان، وأجلبها للحصَر، والله لَلمماراة أسرع في هدم العي من النار في يَبس العرفج، ومن السيل في الحدور.

وقد عرف زيد أن المماراة مذمومة، ولكنه قال: المماراة على ما فيها أقل ضررًا من المساكتة التي تُورث البلدة، وتحل العقدة، وتُفسد المُنَّة، وتُورث عِللًا، وتولِّد أدواءً أيسرها العي؛ فإلى هذا المعنى ذهب زيد.

ومن الخطباء خالد بن سلمة المخزومي من قريش، وأبو حاضر، وسالم، وقد تكلَّم عند الخلفاء.

ومن خطباء بني أُسيد الحكمُ بن يزيد بن عُمير، وقد رأس.

ومن أهل اللسن منهم والبيان الحجَّاج بن عمير بن زيد.

ومن الخطباء سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية.

وقيل لسعيد بن المسيب: من أبلغ الناس؟ قال: رسول الله ﷺ. فقيل له: ليس عن هذا نسألك. قال: معاوية وابنه، وسعيد وابنه، وما كان ابن الزبير بدونهم، ولكن لم يكن لكلامه طلاوةٌ مقبولة.

فمن العجب أن ابن الزبير ملأ دفاتر العلماء كلامًا، وهم لا يحفظون لسعيد بن العاص وابنه من الكلام إلا ما لا بال له.

وكان سعيد جوادًا، ولم ينزع قميصه قط، وكان أسود نحيفًا، وكان يُقال له: عُكَّة العسل.

وقال الحطيئة:

سعيدٌ فلا يَغرُرْكَ قِلَّةُ لَحمِه تَخدَّدَ عنه اللَّحمُ فهْو صليبُ

وكان أول من خش الإبل في نفس عظم الأنف، وكان في تدبيره اضطراب. وقال قائل من أهل الكوفة:

يا وَيلَنا قد ذهبَ الوليدُ وجاءنا مُجوِّعًا سعيدُ
يَنقُصُ في الصاعِ ولا يزيدُ

والأُمراء تتحبَّب إلى الرعية بزيادة المكاييل، ولو كان المذهب في الزيادة في الأوزان كالمذهب في زيادة المكاييل ما قصَّروا، كما سأل الأحنف عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الزيادة في المكاييل؛ ولذلك اختلفت أسماء المكاييل، كالزيادي، والفالج، والخالدي، حتى صِرنا إلى هذا المُلجَم اليوم.

ثم من الخطباء «عمرو بن سعيد»، وهو الأشدق. يُقال إن ذلك إنما قيل له لتشادُقه في الكلام. وقال آخرون: بل كان أفقم مائل الذقن؛ ولذلك قال عُبيد الله بن زياد حين أهوى إلى عبد الله بن معاوية: يدَك عنه يا لطيم الشيطان، ويا عاصي الرحمن.

وقال الشاعر:

وعمرٌو لَطيمُ الجنِّ وابنُ محمَّدٍ ... بأسوأِ هذا الأمرِ مُلتبِسانِ

ذُكِر ذلك عن عوانة، وهذا خلاف قول الشاعر:

تشادَقَ حتى مالَ بالقولِ شِدقُه ... وكلُّ خطيبٍ لا أبا لكَ أشدَقُ

وكان معاوية قد دعا به في غِلمة من قريش، فلما استنطقه قال: إن أول كل مركب صعب، وإن مع اليوم غدًا. وقال له: إلى من أوصى بك أبوك؟ قال: إن أبي أوصى إليَّ ولم يوصِ بي. قال: وبأي شيء أوصاك؟ قال: بألا يفقد إخوانه منه إلا شخصه. فقال معاوية عند ذلك: إن ابن سعيد هذا لَأشدَق. فهذا يدل عندهم على أنه إنما سُمِّي بالأشدق لمكان التشادق.

ثم كان بعد عمرو بن سعيد «سعيد بن عمرو بن سعيد»، وكان ناسبًا خطيبًا، وأعظم الناس كِبرًا. وقيل له عند الموت: إن المريض ليستريح إلى الأنين، وإلى أن يصف ما به إلى الطبيب. فقال:

أجاليدُ من رَيبِ المَنونِ فلا ترى ... على هالكٍ عَينًا لنا الدهرَ تَدمَعُ

ودخل على عبد الملك مع خطباء قريش وأشرافهم، فتكلَّموا من قيام، وتكلَّم وهو جالس، فتبسَّم عبد الملك وقال: لقد رجوت عثرته، ولقد أحسن حتى خِفت عثرته. فسعيد بن عمرو بن سعيد، خطيب ابن خطيب ابن خطيب.

ومن الخطباء «سُهيل بن عمرو الأعلم»، أحد بني حسل بن مَعِيص، وكان يُكنى أبا يزيد، وكان عظيم القدر، شريف النفس، صحيح الإسلام. وكان عمر رضي الله تعالى

عنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، انزِعْ ثَنِيَّتَيه السُّفليَين حتى يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا. فقال رسول الله ﷺ: «لا أمثِّل فيمثِّل الله بي وإن كنت نبيًّا، دَعْه يا عمر؛ فعسى أن يقوم مقامًا نحمده.» فلما هاج أهل مكة عند الذي بلغهم من وفاة رسول الله ﷺ قام خطيبًا فقال: أيها الناس، إن يكن محمد قد مات فإن الله حي لم يمت، وقد علمتم أني أكثركم قتَبًا في بَر، وجاريةً في بحر، فأقِرُّوا أميركم وأنا ضامنٌ إن لم يتم الأمر أن أردَّها عليكم. فسكن الناس. وهو الذي قال يوم خرج آذِن عمر، وهو بالباب وعُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وفلان وفلان، فقال الآذن: أين بلال، أين صهيب، أين سلمان، أين عمَّار؟ فتمعَّرت وجوه القوم، فقال سُهيل: لمَ تتمعَّر وجوهكم؟ دُعوا ودُعِينا، فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر، لما أعدَّ الله لهم في الجنة أكثر.

ومن الخطباء «عبد الله بن عُروة بن الزُّبير». قالوا: كان خالد بن صفوان يشبَّه به. وما علمت أنه كان في الخطباء أحدٌ أجود خطبًا من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة؛ للذي يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما، وما علِمنا أن أحدًا ولَّد لهما حرفًا واحدًا.

ومن النسَّابين من بني العنبر ثم من بني المُنذر «الختف بن زيد بن جَعوَنة»، وهو الذي تعرَّض له دغفل بن حنظلة العلَّامة عند ابن عامر بالبصرة، فقال له: متى عهدُك بسَجاحِ أمِّ صادر؟ فقال له: ما لي بها عهد منذ أضلَّت أم حِلس. وهي بعض أمهات دغفل. فقال له:

أنشدتُك بالله، أنحن كنَّا لكم أكثر غزوًا في الجاهلية أم أنتم لنا؟ قال: بل أنتم؛ فلم تُفلِحوا ولم تنجحوا. غزانا فارسُكم وسيدكم وابن سيدكم، فهزمناه مرةً وأسرناه مرة، وقتلناه مرة، وأخذنا في فدائه خِدر أمه. وغزانا أكثركم غزوًا، وأنبهكم في ذلك ذِكرًا، فأعرجناه ثم أرجلناه. فقال ابن عامر: أسألكما بالله لَمَّا كفَفتُما.

وكان عبد الله بن عامر ومصعب بن الزبير يُحبَّان أن يعرفا حالات الناس، فكانا يُغْريان بين الوجوه وبين العلماء؛ فلا جَرَم أنهما كانا إذا سبَّا أوجعا.

وكان أبو بكر، رضي الله تعالى عنه، أنسب هذه الأمة، ثم عمر، ثم جُبير بن مُطعِم، ثم سعيد بن المُسيب، ثم محمد بن سعيد بن المُسيب. ومحمد هو الذي نفى آل عنكة المخزوميين، فرُفع ذلك إلى والي المدينة فجلده الحد. وكان يُنشد:

ويَربوعُ بن عَنكةَ ابنُ أرضٍ وأعتَقَه هُبيرةُ بعدَ حِينِ

يعني هُبيرة بن أبي وهب المخزومي.

ومن النسَّابين العلماء «عُتبة بن عمرو» بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وكان من ذوي الرأي والدهاء، وكان ذا منزلة من الحجَّاج بن يوسف. وعمر بن عبد الرحمن خامس خمسة في الشرف. وكان هو الساعيَ بين الأزد وتميم في الصلح.

ومن بني الحُرقوس «شُعبة بن القَلعَم»، وكان ذا لسان وجواب وعارضة، وكان وصَّافًا فصيحًا. وبنوه، عبد الله وعمر وخالد، كلهم كانوا في هذه الصفة، غير أن خالدًا كان قد جمع مع اللسان العلمَ والحلاوة والظَّرف. وكان الحجَّاج لا يصبر عنه.

ومن بني أُسيد بن عمرو بن تميم «أبو بكر بن الحكم»، كان ناسبًا راوية شاعرًا، وكان أحلى الناس لسانًا، وأحسنهم منطقًا، وأكثرهم تصرفًا، وهو الذي يقول له رؤبة:

لقد خَشِيتُ أنْ تكونَ ساحِرَا   راويةً طَورًا وطَورًا شاعِرَا

ومنهم «مُعلَّل بن خالد»، أحد بني أنمار بن الهُجيم، وكان نسَّابة علَّامة راويةً صدوقًا مُقلدًا، وذُكِر للمُنتجِع بن نَبْهان فقال: كان لا يُجارى ولا يُمارى.

ومنهم من بني العَنبر ثم من بني عمرو بن جندب «أبو الخنساء عبَّاد بن كُسيب»، وكان شاعرًا علَّامة، وراويةً نسَّابة، وكانت له حُرمة بأبي جعفر المنصور.

ومنهم «عمرو بن خَولة»، كان ناسبًا خطيبًا، وراوية فصيحًا، من ولد سعيد بن العاص.

والذي أتى سعيدَ بن المسيب ليعلِّمه النسب هو «إسحاق بن يحيى بن طلحة».

وكان «يحيى بن عُروة بن الزبير» ناسبًا عالمًا، ضربه «إبراهيم بن هشام المخزومي» والي المدينة حتى مات لبعض القول.

وكان «مصعب بن عبد الله بن ثابت» ناسبًا عالمًا، ومن ولده «الزبيري» عامل الرشيد على المدينة واليمن.

ومنهم ثم من قريش «محمد بن جعفر بن حفص»، وهو ابن عائشة، ويُكنى أبا بكر، وابنه «عُبيد الله» كان يجري مَجراه، يُكنى أبا عبد الرحمن.

ومن خُزاعة بن مازن «أبو عمرو» و«أبو سفيان»، ابنا العلاء بن عمَّار بن العريان.

فأما «أبو عمرو» فكان أعلم الناس بأمور العرب، مع صحة سماع، وصدق لسان. وحدَّثني الأصمعي قال: جلست إلى أبي عمرو عشرَ حِججٍ ما سمعته يحتجُّ ببيتٍ إسلامي. قال، وقال مرةً: لقد كثر هذا المُحدَث وحَسُن حتى هممت أن آمر فِتياننا بروايته.

يعني شعر جرير والفرزدق وأشباههما.

وحدَّثني أبو عُبيدة قال: كان أبو عمرو أعلمَ الناس بالعرب والعربية، وبالقراءة والشعر وأيام الناس، وكانت داره خلف دار جعفر بن سليمان، وكانت كُتُبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتًا له إلى قريب من السقف، ثم إنه تقرَّأها فأحرقها كلها، فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه. وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية.

وفي أبي عمرو بن العلاء يقول الفرزدق:

ما زِلتُ أفتحُ أبوابًا وأُغلِقُها حتى أتيتُ أبا عمرِو بنَ عمَّارِ

فإذا كان الفرزدق وهو راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم يقول فيه مثل هذا القول، فهو الذي لا يُشَك في خطابته وبلاغته.

وقال يونس: لولا شِعر الفرزدق لذهب نِصف أخبار الناس.

وقال في أبي عمرٍو مكي بن سَوادة:

الجامعُ العِلمَ نَنْساه ويَحفَظُه والصادقُ القولَ إنْ أندادُه كَذَبوا

وكان «أبو سفيان بن العلاء» ناسبًا، وكلاهما كُناهما أسماؤهما، وكذلك «أبو عمرو بن لبيد». و«أبو سفيان بن العلاء» بن لبيد التغلبي خليفة «عيسى بن شبيب المازني» على شرط البصرة.

وكان «عَقيل بن أبي طالب» ناسبًا عالمًا بالأمهات، بيِّن اللسان، شديد الجواب، لا يقوم له أحد.

وكان «أبو الجهم بن حُذيفة العدوي» ناسبًا شديد العارضة، كثير الذِّكر للأمهات بالمثالب.

ورؤساء النسَّابين «دَغفَل بن حنظلة»، أحد بني عمرو بن شيبان، لم يدرك الناس مِثله لسانًا وعلمًا وحفظًا.

ومن هذه الطبقة «زيد بن الكيِّس النَّمري». ومن نسَّابي كلب «محمدُ بن السائب»، و«هشام بن محمد بن السائب»، و«شرقي بن القطامي».

وكان أعلاهم في العلم ومن ضُرب به المثل «حمَّاد بن بشر».

قال سماك العُكلي:

فسائِلْ دَغفلًا وأخا هلالٍ ونخَّارًا يُنبئك اليقينا

وقد ذكرنا دغفلًا. وأخو هلال هو زيد بن الكيِّس، وبنو هلال حي من النمر بن قاسط.

وقال مِسكين بن أنيف الدارمي في ذلك:

وعندَ الكيِّسِ النَّمريِّ عِلمٌ ولو أمْسى بمُنخرِقِ الشِّمالِ

وقال ثابت قُطنة:

فما العِضَّانِ لو سُئلا جميعًا أخو بكرٍ وزيدُ بني هِلالِ
ولا الكلبيُّ حمَّادُ بنُ بِشرٍ ولا من قادَ في الزمنِ الخوالي

وقال زياد الأعجم:

بل لو سألتَ أخا ربيعةَ دغفلًا لَوَجدتَ في شَيبانَ نِسبةَ دَغفَلِ
إنَّ الأحاينَ والذين يَلُونُهم شرُّ الأنامِ ونَسلُ عبدِ الأعزلِ

يهجو فيها بني الخنساء.

ومنهم «إياس النصري»، كان أنسب الناس، وهو الذي قال: كانوا يقولون أشعرُ العرب أبو دواد الإيادي، وعدي بن زيد العبادي.

وكان «أبو نَوفل بن أبي عقرب» علَّامة ناسبًا خطيبًا فصيحًا، وهو رجل من كنانة، أحد بني عُريج.

ومن بني كِنانة ثم من بني الشدَّاخ «يزيد بن بكر بن دأب»، وكان يزيد عالمًا ناسبًا، وراويةً شاعرًا، وهو القائل:

اللهُ يَعلَمُ في عَليٍّ عِلمَه وكذاك عِلمُ اللهِ في عُثمانِ

وولدَ يزيدُ «يحيى» و«عيسى»، هو الذي يُعرف في العامة بـ «ابن دأبٍ»، وكان من أحسن الناس حديثًا وبيانًا، وكان شاعرًا راوية، وصاحب رسائل وخطب، وكان يُجيدها جدًّا.

ومن آل دأب «حُذيفةُ بن دأب»، وكان عالمًا ناسبًا. وفي آل دأب علمٌ بالنسب والخبر.

وكان «أبو الأسود الدؤلي» — واسمه ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان — خطيبًا عالمًا، وكان قد جمع شدة العقل، وصواب الرأي، وجودة اللسان، وقول الشعر، والظرف، وهو يُعَد في هذه الأصناف، وفي الشيعة، وفي العُرجان، وفي المفاليج.

وعلى كل شيء من هذا شاهدٌ سيقع في موضعه إن شاء الله تعالى.

وقال الخُس لابنته هند: أريد شراء فحل لإبلي. قالت: إن اشتريته فاشترِه أسجح الخدَّين، غائر العينَين، أرقب، أحزم، أعكى، أكوم، إن عُصي غشَم، وإن أُطيع تجرثم. وهي التي قالت لما قيل لها: ما حمَلكِ على أن زنَيتِ بعبدك؟ قالت: طول السِّواد، وقرب الوِساد.

السواد: السِّرار. أسجح: سهل واسع، يُقال: ملكت فأسجح. أرقب: غليظ الرقبة. أحزم: منتفخ موضع المحزم. أعكى، العكوة: مَغرز الوركَين في المؤخر، تصفه بشدة الوركين. إن عُصي غشم: إن عصته الناقة غصبها نفسها. تجرثم: أي بقي، مأخوذ من الجرثومة، وهي الطين والتراب يُجمع حول النخلة ليُقويها، تصفه بالصبر والقوة على الضراب. أكوم: عظيم السنام.

وقال الشاعر في السِّواد:

ويَفهَمُ قولَ الحُكْلِ لو أنَّ ذَرَّةً تُساوِدُ أخرى لم يَفُتْه سِوادُها

يقال: في لسانِ فلانٍ حُكلة، إذا كان شديد الحُبسة مع لثغ.

قالوا: وعاتَب هشام بن عبد الملك زيد بن علي، فقال له: بلَغني عنك شيء. فقال: يا أمير المؤمنين، أحلف لك؟ قال: وإذا حلفت لي أصدِّقك؟ قال: نعم، إن الله لم يرفع أحدًا فوق ألا يرضى به، ولم يضع أحدًا دون ألا يرضى منه به.

كان «زياد بن ظُبْيان» التيمي العايشي خطيبًا، فدخل عليه ابنه عُبيد الله وهو يكيد[٣٢] بنفسه، قال: ألا أوصي بك الأمير زيادًا؟ قال: لا. قال: ولِمَ؟ قال: إذا لم يكن للحي إلا وصية الميت فالحيُّ هو الميت.

وكان «عُبيد الله» أفتك الناس، وأخطب الناس. وهو الذي أتى باب «مالك بن مِسمَع» ومعه نار ليحرق عليه داره، وقد كان نابه أمرٌ فلم يرسل إليه قبل الناس، فأشرف عليه مالك فقال: مهلًا يا أبا مطر، فوالله إن في كِنانتي سهمًا أنا به أوثق مني بك. قال: وإنك

[٣٢] يكيد بنفسه: يُقاسي المشقة في سياقه عند الاحتضار.

لتعُدُّني في كِنانتك؟ فوالله لو أن قمت فيها لطُلْتها، ولو قعدت فيها لخرقتها. قال مالك: مهلًا، أكثر الله في العشيرة مِثلك. قال: لقد سألت الله شططًا.

ودخل «عُبيد الله» على «عبد الملك بن مروان» بعد أن أتاه برأس مُصعَب بن الزُّبير، ومعه ناس من وجوه بكر بن وائل، فأراد أن يقعد معه على سريره، فقال له عبد الملك: ما بال الناس يزعمون أنك لا تُشبِه أباك؟ قال: والله لَأنا أشبه بأبي من الليل بالليل، والغراب بالغراب، والماء بالماء، ولكن إن شئت أنبأتك بمن لا يُشبِه أباه. قال: ومن ذاك؟ قال: من لم يُولَد لتمام، ولم تُنضِجه الأرحام، ومن لم يُشبِه الأخوال والأعمام. قال: ومن ذاك؟ قال: ابن عمي سُويد بن منجوف. قال عبد الملك: أوَكذلك أنت يا سُويد؟ قال: نعم. فلما خرجا من عنده أقبل عليه سُويد فقال: وَرِيتْ بك زِنادي، والله ما يسرُّني أنك نقصته حرفًا واحدًا مما قلت له وأن لي حُمْر النَّعم. قال: وأنا والله ما يسرُّني بحِلمك اليوم عني سُود النَّعم. وأتى «عُبيد الله» عتَّاب بن ورقاء، وعتابٌ على أصبهان، فأعطاه عشرين ألف درهم، فقال: والله ما أحسنتَ فأحمدَك، ولا أسأتَ فأذُمَّك، وإني لأقرب البُعداء، وأبعد القُرباء. وقال أشيم بن شقيق بن ثور لعُبيد الله بن زياد بن ظبيان: ما أنت قائل لربِّك وقد حمَلت رأس مصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان؟ قال: اسكت، فأنت يوم القيامة أخطب من صعصعة بن صوحان إذا تكلَّمت الخوارج.

فما ظنُّك ببلاغة رجل عُبيد الله بن زياد يُضرب به المثل؟

وإنما أردنا بهذا الحديث خاصةً الدلالة على تقديم صعصعة بن صوحان في الخطب، وأولى من كل دلالة استنطاق علي له.

وكان «عثمان بن عُروة» أخطب الناس، وهو الذي قال: والشكر وإنْ قل، ثمنٌ لكل نوال وإنْ جل.

وكان «ثابت بن عبد الله بن الزبير» من أبين الناس، ولم يكن خطيبًا.

وكان «قَسامة بن زُهير» أحد بني رِزام بن مازن، مع زُهده ونُسكه ومَنطقه، من أبين الناس، وكان يعدل بعامر بن عبد قيس في زهده ومنطقه، وهو الذي قال: روِّحوا هذه القلوب تَعِ الذِّكر. وهو الذي قال: يا معشر الناس، إن كلامكم أكثر من صمتكم، فاستعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الصواب بالفكر. وهو الذي كان رسول عمر في البحث عن شأن المُغيرة وشهادة أبي بَكرة.

وكان «خالد بن يزيد بن معاوية» خطيبًا شاعرًا، وفصيحًا جامعًا، وجيِّد الرأي كثير الأدب، وكان أول من ترجم كُتُب النجوم والطب والكيمياء.

ومن خطباء قريش «خالد بن سلَمة المخزومي»، وهو ذو الشفة. وقال الشاعر في ذلك:

فما كان قائلُهم دَغفَلٌ   ولا الحَيقُطانُ ولا ذو الشَّفةْ

ومن خطباء العرب «عُطارد بن حاجب بن زُرارة»، وهو كان الخطيب عند النبي ﷺ، وقال فيه الفرزدق بن غالب:

ومنَّا خطيبٌ لا يُعابُ وحاملٌ   أغَرُّ إذا التفَّت عليه المَجامعُ

ومن الخطباء «عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود»، وكان مع ذلك راوية ناسبًا شاعرًا. ولما رجع عن قول المرجئة إلى قول الشيعة قال:

وأوَّلُ ما نُفارِقُ غيْرَ شكٍّ   نُفارِقُ ما يَقولُ المُرجِئونا
وقالوا مؤمِنٌ من آلِ جَورٍ   وليس المؤمِنونَ بجائرِينا
وقالوا مؤمنٌ دَمُه حَلالٌ   وقد حَرُمتْ دِماءُ المؤمِنِينا

وكان حين هرب إلى محمد بن مروان في فلِّ ابن الأشعث ألزمه ابنَه يؤدِّبه ويقوِّمه، فقال له يومًا: كيف ترى ابن أخيك؟ قال: ألزمتَني رجلًا إن غِبتُ عنه عَتَب، وإن أتيتُه حُجِب، وإن عاتبتُه غَضِب. ثم لزم عمر بن عبد العزيز، وكان ذا منزلة منه. قالوا: وله يقول جرير:

يا أيُّها الرَّجلُ المُرخِي عِمامتَه   هذا زمانك إني قد مضى زمني
أبلِغْ خليفتَنا إنْ كنتَ لاقِيَه   أنِّي لدى البابِ كالمشدودِ في قَرَنِ
وقد رآكَ وُفودُ الخافقَينِ معًا   ومُذ ولِيتَ أمورَ الناسِ لم ترَني

وكان «الجارود بن أبي سبرة» — ويُكنى أبا نوفل — من أبيَنِ الناس وأحسنهم حديثًا، وكان راويةً علَّامة شاعرًا مفلِّقًا، وكان من رجال الشيعة. ولما استنطقه الحجاج قال: ما ظننت أن بالعراق مِثل هذا. وكان يقول: ما أمكنني والٍ قط من أذنه إلا غلبت عليه، ما خلا هذا اليهودي. يعني بلال بن أبي بردة. وكان عليه مُتحاملًا، فلما بلغه أنه دهق حتى دُقَّت ساقه، وجُعل الوتر في خُصيَيه، أنشأ يقول:

لقد قرَّ عَيْني أنَّ ساقَيه دُقَّتا   وأنَّ قُوى الأوتارِ في البَيضةِ اليُسْرى

بَخِلتَ وراجعتَ الخيانةَ والخَنا فيسَّرَكَ اللهُ المقدَّسُ للعُسْرى
فما جِذعُ سُوءٍ خرَّبَ السُّوسُ جَوفَه يُعالِجُه النجَّارُ يُبْرى كما تُبْرى

وإنما ذكر الخصية اليسرى لأن العامة تقول: إن الولد منها يكون.

ومن الخطباء الذين لا يُضاهَون ولا يُجارَون «عبد الله بن عبَّاس». قالوا: خطبَنا بمكة — وعثمان رضي الله تعالى عنه مُحاصَر — خطبةً لو شهدتْها التُّرك والديلم لأسلمتا. وذكره حسَّان بن ثابت فقال:

إذا قالَ لم يَترُكْ مَقالًا لقائلٍ بمُلتقَطاتٍ لا ترى بيْنَها فَصْلا
كفى وشفى ما في النُّفوسِ ولم يَدَعْ لذي إربةٍ في القولِ جِدًّا ولا هَزْلا
سمَوتَ إلى العَليا بغيرِ مَشقَّةٍ فنِلتَ ذُراها لا دَنِيًّا ولا وَغْلا

وقال الحسن: كان عبد الله بن عبَّاس أول من عُرِف بالبصرة صَعِد المِنبر فقرأ البقرة وآل عمران ففسَّرهما حرفًا حرفًا، وكان والله مِثجًّا يسيل غَربًا، وكان يُسمَّى «البحر» و«حبر قريش». وقال النبي ﷺ: «اللهم فقِّهْه في الدين، وعلِّمه التأويل.» وقال عمر: غُصْ غوَّاصُ. ونظر إليه يتكلم فقال:

شِنشِنةٌ أعرِفُها من أخزَمِ

الشعر لأبي أخزم الطائي، وهو جد أبي حاتم طيئ أو جد جده، وكان له ابن يُقال له أخزم فمات وترك بنين، فوثبوا يومًا على جدهم أبي أخزم فأدمَوه، فقال:

إنَّ بَنيَّ زمَّلوني بالدَّمِ شِنشِنةٌ أعرِفُها من أخزَمِ

أي إنهم أشبهوا أباهم في طبيعته وخُلُقه. وأحسبه كان به عاقًّا. فهكذا ذكر ابن الكلبي. والشنشنة مثل الطبيعة والسجيَّة. فأراد عمر رضي الله تعالى عنه: إني أعرف فيك مشابهةً في أبيك في رأيه وعقله. ويُقال: إنه لم يكن لقرشي مِثلُ رأي العبَّاس.

ومن خطباء بني هاشم أيضًا «داود بن علي»، وكان يُكنى أبا سليمان، وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالًا واقتضابًا للقول. ويُقال: إنه لم يتقدم في تحبير خطبة قط. وله كلامٌ كثير معروف محفوظ؛ فمن ذلك خطبته على أهل مكة: شكرًا شكرًا، أمَا والله ما خرَجنا لنحتفر فيكم نهرًا، ولا لنَبنيَ فيكم قصرًا. أظَنَّ عدوُّ الله أن لم نظفر به أن أُرخيَ

له في زمامه، حتى عثر في فضل خِطامه؟ فالآن عاد الأمر في نِصابه، وطلعت الشمس من مطلعها، وأخذ القوسَ باريها، وعاد النَّبْل إلى النَّزَعة، ورجع الأمر إلى مستقَرِّه، في أهل بيت نبيكم؛ أهل بيت الرأفة والرحمة.

ومن خطباء بني هاشم «عبد الله بن الحسن»، وهو القائل لابنه إبراهيم أو محمد: أيْ بُني، إني مؤدٍّ إليك حق الله في تأديبك، فأدِّ إليَّ حق الله في حُسن الاستماع. أيْ بُني، كُفَّ الأذى، وارفض البذاء، واستعِن على الكلام بطول الفكر في المَواطن التي تدعوك نفسك فيها إلى القول؛ فإن للقول ساعاتٍ يَضرُّ فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب، واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحًا، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشًّا؛ يوشك أن يورِّطاك بمشورتهما، فيسبق إليك مكر العاقل، وغرارة الجاهل.

قال الحسن بن خليل: كان المأمون قد استثقل «سهل بن هارون»، فدخل عليه سهل يومًا والناس عنده على منازلهم، فتكلَّم المأمون بكلام فذهب فيه كل مذهب، فلما فرغ المأمون من كلامه أقبل سهل بن هارون على ذلك الجمع فقال: ما لكم تسمعون ولا تعون، وتُشاهدون ولا تفهمون، وتفهمون ولا تعجبون، وتنظرون ولا تُبصرون؟ والله إنه ليفعل ويقول في اليوم القصير مِثل ما فعل بنو مروان وقالوا في الدهر الطويل. عربكم كعجمهم، وعجمكم كعبيدهم، ولكن كيف يعرف الدواءَ من لا يشعر بالداء؟ قال: فرجع له المأمون بعد ذلك إلى الرأي الأول.

ومن خطباء بني هاشم ثم من ولد جعفر بن سليمان «سليمانُ بن جعفر» والي مكة. قال المكي: سمعت مشايخنا من أهل مكة يقولون: إنه لم يَرِد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام إلا وسليمان أبيَنُ منه قاعدًا، وأخطَبُ منه قائمًا.

وكان «داود بن جعفر» إذا خطب اسحنفر فلم يرُدَّه شيء، وكان في لسانه شبيه بالرُّتَّة.

وكان «أيوب» فوق داود في الكلام والبيان، ولم تكن له مقامات داود في الخطب. قال عيسى بن إسحاق لداود بن جعفر: بلَغني أن معاوية قال للنخَّار بن أوس: ابغِني محدِّثًا. قال: ومعي يا أمير المؤمنين تريد محدِّثًا؟ قال: نعم، أستريح منك إليه، ومنه إليك، وأنا لا أستريح إلى غير حديثك، ولا يكون صمتك في حال من الحالات أوفق لي من كلامك.

وكان «إسماعيل بن جعفر» من أدقِّ الناس لسانًا وأحسنهم بيانًا.

ومن خطباء بني هاشم «جعفر بن حسن» بن الحسين بن علي، وكان أحد من يُنازع زيدًا في الوصية، فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوباتهما فقط.

وجماعة من ولد العبَّاس في عصرٍ واحد لم يكن لهم نُظراء في أصالة الرأي، وفي الكمال والجلالة، وفي العلم بقريش والدولة، وبرجال الدعوة، مع البيان العجيب، والغَور البعيد، والنفوس الشريفة، والأقدار الرفيعة، وكانوا فوق الخطباء، وفوق أصحاب الأخبار، وكانوا يَجلُّون عن هذه الأسماء إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك.

منهم «عبد الملك بن صالح»، سأله الرشيد — وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر شاهدان — فقال له: كيف رأيت أرض كذا وكذا؟ قال: مَسافي رِيح، ومَنابت شِيح. قال: فأرض كذا وكذا؟ قال: هِضابٌ حُمْر، وبِراثٌ عُفْر. حتى أتى على جميع ما أراد، فقال عيسى لسليمان: والله ما ينبغي لنا أن نرضى لأنفسنا بالدُّون من الكلام.

الهضبة: الجبل ينبسط على الأرض، وجمعها هضاب. والبراث: الأماكن اللينة السهلة، واحدها بَرْث. وقوله: عفر؛ أي حمرتها كحمرة التراب، والظبي الأعفر: الأحمر؛ لأن حمرته كذلك، والعَفَر والعَفْر: التراب؛ ومنه قيل: ضربه حتى عفره؛ أي ألحقه بالتراب.

ومن هؤلاء «عبد الله بن صالح»، و«العبَّاس بن محمد»، و«إسحاق بن عيسى»، و«إسحاق بن سليمان»، و«أيوب بن جعفر»، هؤلاء كانوا أعلم بقريش وبالدولة وبرجال الدعوة من المعروفين برواية الأخبار، وكان إبراهيم بن السندي يحدِّثني عن هؤلاء بشيء هو خلاف ما في كُتُب الهيثم بن عدي وابن الكلبي، وإذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلَّف المزوَّر.

وكان «عبد الله بن علي» و«داود بن علي» يُعدَلان بأمَّة من الأمم.

ومن مواليهم «إبراهيم» و«نصر» ابنا «السِّندي».

فأما «نصر» فكان صاحب أخبار وأحاديث، وكان لا يعدو حديث ابن الكلبي والهيثم.

وأما «إبراهيم» فإنه كان رجلًا لا نظير له، وكان خطيبًا، وكان ناسبًا، وكان فقيهًا، وكان نحويًّا عَروضيًّا، وحافظًا للحديث، راويةً للشعر، شاعرًا، وكان فخم الألفاظ شريف المعاني، وكان كاتب القلم كاتب العمل، وكان يتكلم بكلام رؤبة، ويعمل في الخراج بعمل زاذان فروح الأعور، وكان مُنجمًا طبيبًا، وكان من رؤساء المُتكلمين، وعالمًا بالدولة وبرجال الدعوة، وكان أحفظ الناس لما سمع، وأقلَّهم نومًا وأصبرهم على السهر.

ومن خطباء تميم «جَحدَب»، وكان خطيبًا راوية، وكان قضى على جرير في بعض مذاهبه، فقال جرير:

قَبَحَ الإلهُ ولا يُقبِّحُ غيرُه   بَظْرًا تَفلَّقَ عن مَفارقِ جَحدَبِ

وهو الذي كان لقيَه خالد بن سلمة المخزومي الخطيب الناسب، فقال: والله ما أنت من حنظلة الأكرمين، ولا سعد الأكثرين، ولا عمرو الأسدين، وما في تميم خيرٌ بعد هؤلاء. فقال له جحدب: والله إنك لمن قريش، وما أنت من بيتها ولا من ثبوتها، ولا من شورها وخلافتها، ولا من أهل سِدانتها وسِقايتها.

وهو شبيه بما قال خالد بن صفوان للعَبْدري؛ فإنه قال له: هشَمتْك هاشم، وأمَّتْك أميَّة، وخزَمتْك مخزوم، وأنت من عبد دارها، ومنتهى عارها، تفتح لها الأبواب إذا أقبلتْ، وتُغلِقها إذا أدبرتْ.

ومن ولد المُنذر «عبدُ الله بن شُبرُمة» بن طُفيل بن هُبيرة بن المُنذِر، وكان فقيهًا عالمًا قاضيًا، وكان راويةً شاعرًا، وكان خطيبًا ناسبًا، وكان حاضر الجواب مفوَّهًا، وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يُشبَّه بعامر الشعبي، وكان يُكنى أبا شبرمة. وقال يحيى بن نوفل:

لمَّا سألتُ الناسَ أينَ المَكرُمةْ والعزُّ والجُرثومةُ المقدَّمةْ
وأين فاروقُ الأمورِ المُحكَمةْ تَتابَعَ الناسُ على ابنِ شُبرُمةْ

وابن شبرمة الذي يقول في ابن أبي ليلى:

وكيف تُرجَّى لفصلِ القضاءِ ولم تُصِبِ الحُكمَ في نَفْسِكا
فتَزعُمُ أنَّك لابنِ الجُلاحِ وهيهاتَ دَعواك من أصلِكا

وقال رجل من فقهاء المدينة: من عندِنا خرج العلم. فقال ابن شبرمة: نعم، ثم لم يرجع إليكم. وقال عيسى بن موسى: دُلُّوني على رجلٍ أُولِيه مكان كذا وكذا. فقال ابن شبرمة: أصلح الله الأمير، هل لك في رجل إن دعوتموه أجابكم، وإن تركتموه لم يأتكم، ليس بالمُلِحِّ طلبًا، ولا بالمُمعِن هربًا؟

وسئل عن رجل، فقال: إن له شرفًا وبيتًا وقَدمًا. ونظروا فإذا هو ساقط من السِّفلة، فقيل له في ذلك، فقال: ما كذبت، شرفه أذناه، وقدمه التي يمشي عليها، ولا بد من أن يكون له بيتٌ يأوي إليه.

قال أبو إسحاق: بل كذبت، إنما هو كقول القائل حين سأله بعض من أراد تزويج حرمة عن رجل، فقال: هو يبيع الدواب. فلما نظروا في أمره وجدوه يبيع السنانير، فلما سئل عن ذلك قال: ما كذبت؛ لأن السِّنَّور دابة. قال أبو إسحاق: بل لعَمْري لقد كذب.

وهذا مِثل القائل حين سئل عن رجل في تزويج امرأة فقال: رزين المجلس، نافذ الطعنة. فحسبوه سيدًا فارسًا، فنظروا فوجوده خيَّاطًا، فسئل عن ذلك، فقال: ما كذبت؛ إنه لطويل الجلوس، جيِّد الطعن بالإبرة. فقال أبو إسحاق: بل لعَمْري لقد كذب؛ لأنه قد غرَّهم منه. وكذلك لو سأله رجل عن رجل يريد أن يُسلفه مالًا عظيمًا، فقال: هو يملك مالًا كان يبيعه بمائة ألف ومائة ألف. فلما بايَعه الرجل وجده مُعدمًا ضعيف الحيلة، فلما قيل له في ذلك قال: ما كذبك؛ لأنه يملك عينَيه وأذنَيه وأنفه وشفتَيه. حتى عد جميع أعضائه وجوارحه.

ومن قال للمُستشير هذا القول فقد غرَّه، وذلك مما لا يحلُّ في دين، ولا يَحسُن في الحرية، وهذا القول معصية لله، والمعصية لا تكون صدقًا. وأدنى منازل هذا الخبر ألا يُسمَّى صدقًا، فأما التسمية له بالكذب فإن فيها كلامًا يطول.

ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدَّمين في الخواص «خالد بن صفوان الأهتمي»، زعموا جميعًا أنه كان عند أبي العبَّاس أمير المؤمنين، وكان من سُمَّاره وأهل المنزلة عنده، ففخر عليه ناس من بَلْحارث بن كعب وأكثروا في القول، فقال أبو العباس: لِمَ لا تتكلم يا خالد؟ فقال: أخوال أمير المؤمنين وعصبته. قال: فأنتم أعمام أمير المؤمنين وعصبته. قال خالد: وما عسى أن أقول لقومٍ كانوا بين ناسجِ بُرد، ودابغِ جِلد، وسائِسِ قرد، وراكبِ عَرد؛ دل عليهم هُدهد، وغرَّقتهم فأرة، وملَكتهم امرأة؟

فلئن كان خالد قد فكَّر وتدبَّر هذا الكلام إنه للراوية الحافظ، والمؤلِّف المُجيد؛ ولئن كان هذا شيئًا حضره حين حرك وبسط فما له نظير في الدنيا. فتأمَّلْ هذا الكلام فإنك ستجده مليحًا مقبولًا، وعظيم القدر جليلًا. ولو خطب اليماني بلسان سحبان وائل حولًا كَريتًا،[٣٣] ثم صُكَّ بهذه الفقرة ما قامت له قائمة.

وكان أذكر الناس لأول كلامه، وأحفظهم لكل شيء سلف من منطقه. قال مكي بن سوادة في صفته له:

عليمٌ بتنزيلِ الكلامِ مُلقَّنٌ ... ذَكورٌ لِما سدَّاه أوَّلَ أوَّلا
يَبُذُّ قريعَ القومِ في كلِّ مَحفِلٍ ... وإنْ كان سحبانَ الخطيبَ ودَغفَلا
ترى خُطباءَ الناسِ يومَ ارتجالِه ... كأنَّهم الكِرْوانُ عايَنَّ أجدَلا

---

[٣٣] حولًا كريتًا: أي عامًا كاملًا.

الكِروان: جمع كَرَوان، وهو ذكر الحُبارى. والأجدل: الصقر.

وكان يُقارض «شبيب بن شيبة» لاجتماعهما على القرابة والمجاورة والصناعة، فذُكِر شبيب عنده مرةً فقال: ليس له صديق في السر، ولا عدو في العلانية.

وهذا كلام ليس يعرف قدرَه إلا الراسخون في هذه الصناعة.

وكان خالد جميلًا ولم يكن بالطويل، فقالت له امرأة: إنك لجميل يا أبا صفوان. قال: وكيف تقولين هذا وما فيَّ عمود الجمال ولا رداؤه ولا بُرنُسه. فقيل له: ما عمود الجمال؟ قال: الطول، ولست بطويل؛ ورداؤه البياض، ولست بأبيض؛ وبرنسه سواد الشعر، وأنا أشمط. ولكن قولي: إنك لمليحٌ ظريف. وخالد يُعَد في الصُّلعان.

ولكلام خالد كتابٌ يدور في أيدي الورَّاقين.

وكان «الأزهر بن عبد الحارث» بن ضِرار بن عمرو الضبِّي، عالمًا ناسبًا.

ومن خطباء بني ضبَّة «حنظلة بن ضِرار»، وقد أدرك الإسلام وطال عمره حتى أدرك يوم الجمل. وقيل له: ما بقي منك؟ قال: أذكر القديم، وأنسى الحديث، وآرق بالليل، وأنام وسط القوم.

ومن خطباء بني ضبة وعلمائهم «مثجور بن غَيلان» بن خَرَشة، وكان مقدَّمًا في المنطق، وهو الذي كتب إلى الحجَّاج: إنهم قد عرضوا عليَّ الذهب والفضة، فما ترى أن آخذ؟ قال: أرى أن تأخذ الذهب. فذهب عنه هاربًا ثم قتله بعد.

وذكره القُلاح بن حَزن المِنقَري فقال:

مِثالُ مَثجورٍ قليلٌ ومِثلُه ... فتى الصِّدقِ إنْ صفَّقتَه كلَّ مَصفَقِ
وما كنتُ أشريه بدُنيا عريضةٍ ... ولا بابْنِ خالٍ بين غربٍ ومَشرِقِ
إذا قال بَذَّ القائلينَ مقالُه ... ويأخذُ من أكْفائه بالمُخنَّقِ

ومن خطباء الخوارج «قَطَري بن الفُجاءة»، له خطبةٌ طويلة مشهورة، وكلامٌ كثير محفوظ، وكانت له كُنْيتان؛ كنية في السِّلم، وهو أبو محمد؛ وكنية في الحرب، وهو أبو نعامة.

وكانت كنية «عامر بن الطفيل» في الحرب غير كنيته في السِّلم، كان يُكنى في الحرب بأبي عقيل، وفي السلم بأبي علي.

وكان «يزيد بن مَزيَد» يُكنى في السلم بأبي خالد، وفي الحرب بأبي الزبير.

وقال مسلم بن الوليد الأنصاري:

لولا سيوفُ أبي الزُّبيرِ وخيلُه بَشَرَ الوليدُ لسيفِه الضحَّاكا

وفيه يقول:

لولا يزيدُ ومِقدارٌ له سَببٌ عاشَ الوليدُ مع الغاوينَ أعواما
سَلَّ الخليفةُ سيفًا من بني مطرٍ يمضي فيَخترقُ الأرواحَ والهاما
إذا الخلافةُ عُدَّت كنتَ أنت لها عزًّا وكان بنو العبَّاس حُكَّاما

ألا تراه قد ذكر قتل الوليد؟

وقد كان «خالد بن يزيد» اكتنى بها في الحرب في بعض أيامه بمصر.

وهذا الباب مستقصًى مع غيره في أبواب الكُنى والأسماء، وهو وارد عليكم إن شاء الله تعالى.

ومن خطباء الخوارج «ابن صُدَيقة»، وهو القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة، وكان صُفريًّا، خطيبًا ناسبًا، ويشوبه ببعض الظَّرف والهزل.

ومن علماء الخوارج «شُبَيل بن عَزْرة الضُّبُعي» صاحب الغريب، وكان راويةً خطيبًا، وشاعرًا ناسبًا، وكان سبعين سنةً رافضيًّا، ثم انتقل خارجيًّا صُفريًّا.

ومن علماء الخوارج «الضحَّاك بن قيس الشيباني»، ويُكنى أبا سعيد، وهو الذي ملك العراق، وسار في خمسين ألفًا، وبايَعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وسليمان بن هشام بن عبد الملك وصلَّيا خلفه.

وقال شاعرهم:

ألَمْ ترَ أنَّ اللهَ أظهَرَ دِينَه وصلَّت قريشٌ خَلْفَ بَكرِ بنِ وائلِ؟

وكان «ابن عطاء الليثي» يُسامر الرشيد، وكان صاحب أخبار وأسمار وعلم بالأنساب، وكان أظرف الناس وأحلاهم.

وكان «عبد العزيز بن عبد الله بن عامر» بن كُريز، راويةً ناسبًا، وعالمًا بالعربية فصيحًا.

وكان «عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر» من أبيَنِ الناس وأفصحهم، وكان مَسلمة بن عبد الملك يقول: إني لأنحِّي كَور العِمامة عن أذني لأسمع كلام عبد الأعلى بن عبد الله.

وقال بعض الأمراء — وأظنُّه بلال بن أبي بُردة — لأبي نوفل الجارود بن أبي سبرة: ماذا تصنعون عند عبد الأعلى إذا كنتم عنده؟ قال: يُشاهدنا بأحسن استماع، وأحسن حديث، ثم يأتي الطبَّاخ فيمثل بين عينَيه فيقول: ما عندك؟ فيقول: عندي لون كذا، وجدي كذا، ودجاجة كذا، ومن الحُلو كذا. قال: ولمَ يسأل عن ذلك؟ قال: ليُقصِر كل رجل عما لا يشتهي حتى يأتيَه ما يشتهي. ثم يأتون بالخوان فيتضايق ونتَّسع، ويقصِّر ونجتهد، فإذا شبعنا خوى تخوية الظليم، ثم أقبل يأكل أكل الجائع المقرور.

والجارود هو الذي قال: سوء الخُلُق يُفسد العمل، كما يُفسِد الخل العسل. وهو الذي قال: عليكم بالمربد؛ فإنه يطرد الفكر، ويجلو البصر، ويجلب الخبر، ويجمع بين ربيعة ومُضَر.

وصَعِد عثمان المِنبر فأُرتجَ عليه، فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يُعدَّان لهذا المقام مقالًا، وأنتم إلى إمامٍ عادل أحوَجُ منكم إلى إمامٍ خطيب، وستأتيكم الخُطب على وجهها، وتعلمون إن شاء الله تعالى.

وشخَص «يزيد بن عمر بن هُبيرة» إلى هشام بن عبد الملك فتكلَّم، فقال هشام: ما مات من خلَّف مِثل هذا. فقال «الأبرش الكلبي»: ليس هناك، أمَا تراه يَرشَح جبينُه لضِيق صدره؟ قال يزيد: ما لذلك رشح، ولكن لجلوسك في هذا الموضع.

وكان الأبرش ثلَّابة نسَّابة، وكان مُصاحبًا لهشام بن عبد الملك، فلما أفضت إليه الخلافة سجد وسجد من كان عنده من جلسائه، والأبرش شاهد لم يسجد، فقال له هشام: ما منعك أن تسجد يا أبرش؟ قال: ولِمَ أسجد وأنت اليوم معي ماشيًا وغدًا فوقي طائرًا؟ قال: فإن طِرت بك معي؟ قال: أتُراك فاعلًا؟ قال: نعم. قال: فالآن طاب السجود.
ودخل يزيد بن عمر على المنصور — وهو يومئذٍ أمير — فقال: أيها الأمير، إن عهد الله لا يُنكَث، وعقده لا يُحَل، وإن إمارتكم بِكر؛ فأذيقوا الناس حلاوتها، وجنِّبوهم مرارتها.

قال سهل بن هارون: دخل قُطرُب النحوي على المخلوع فقال: يا أمير المؤمنين، كانت عِدَتك أرفع من جائزتك. وهو يتبسم. قال سهل: فاغتاظ الفضل بن الربيع. فقلت له: إن هذا من الحصَر والضعف، وليس هذا من الجَلَد والقوة، أمَا تراه يفتل أصابعه، ويرشح جبينه؟

وقال عبد الملك لخالد بن سلمة المخزومي: من أخطَبُ الناس؟ قال: أنا. قال: ثم من؟ قال: سيِّد جُذام. يعني رَوح بن زِنباع. قال: ثم من؟ قال: أُخَيفش ثقيف. يعني الحجَّاج. قال: ثم من؟ قال: أمير المؤمنين. قال: ويحك، جعلتني رابع أربعة. قال: نعم، هو ما سمعت.

ومن خطباء الخوارج وعلمائهم ورؤسائهم في الفُتيا، وشعرائهم ورؤساء قعدهم، «عِمرانُ بن حِطَّان».

ومن علمائهم وشعرائهم وخطبائهم «حبيب بن خُدرة الهلالي»، وعداده في بني شيبان.

وممن كان يرى رأيَ الخوارج «أبو عُبيدة» النحوي مَعمر بن المثنَّى، مولى تيم بن مُرة، ولم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلمَ بجميع العلم منه.

وممن كان يرى رأيَ الخوارج «الهيثم بن عدي» الطائي ثم البحتري.

وممن كان يرى رأى الخوارج «شُعيب بن رباب» الحنفي، أبو بكَّار، صاحب أحمد بن أبي خالد ومحمد بن حسان السَّكسَكي.

ومن الخوارج من علمائهم ورُواتهم «مسلم بن كُرزين»، وكُنيته أبو عُبيدة، وكان إباضيًّا.

ومن علمائهم الصُّفرية، وممن كان مقنعًا في الأخبار لأصحاب الخوارج والجماعة جميعًا، «مُليل»، وأظنه من بني ثعلبة.

ومن أهل هذه الصنعة «أصفر بن عبد الرحمن»، من أخوال «طوق بن مالك».

ومن خطبائهم وفقهائهم وعلمائهم «المُقعطِل»، قاضي عسكر الأزارقة أيام قَطَري.

ومن شعرائهم ورؤسائهم وخطبائهم «عبيدة بن هلال اليَشكري». وكان في بني السَّمين ومن بني شيبان خطباء العرب، وكان فيهم ذاك فاشيًا؛ ولذلك قال الأخطل:

فأينَ السَّمينُ لا يقومُ خطيبُها   أين ابنُ ذي الجَدَّينِ لا يَتكلَّمُ

وقال سُحيم بن حفص: كان «يزيد بن عبد الله بن رؤبة الشيباني» من أخطب الناس عند «يزيد بن الوليد»، فأمر للناس بعطاءين.

ومن الخطباء «مَعبد بن طَوق العَنبري»، دخل على بعض الأمراء فتكلَّم وهو قائم فأحسن، قال: فلما جلس تلهيع في كلامه. فقال له: ما أظرَفَك قائمًا وأموَقَك قاعدًا! قال: إني إذا قمت جدَدت، وإذا قعدت هزلت. قال: ما أحسن ما خرجت منها!

ومن خطباء عبد القيس «مَصقلة بن رقَبة بن مَصقلة» و«كَرِب بن رقَبة».

والعرب قد ذكروا من خطب العرب «العجوز»، وهي خطبة لآل رقبة، ومتى تكلَّموا فلا بد لهم منها أو من بعضها؛ «والعذراء»، وهي خطبة «قيس بن خارجة» لأنه كان

أبا عُذْرها؛ «والشَّوهاء»، وهي خطبة «سحبان وائل»، وقيل ذلك لها من حسنها؛ وذلك أنه خطب بها عند معاوية فلم يُنشد شاعر ولم يخطب خطيب.

وكان «أبو عمَّار الطائي» خطيب مَذحِج كلها، فبلَغ النُّعمانَ حُسنُ حديثه فحمَله على منادمته. وكان النُّعمان أحمر العينَين، أحمر الجلد، أحمر الشعر، وكان شديد العَربدة قتَّالًا للنُّدماء، فنهاه أبو قردودة الطائي عن منادمته، فلما قتله رثاه فقال:

إنِّي نهَيتُ ابنَ عمَّارٍ وقلتُ له لا تأمَنَنْ أحمَرَ العينَينِ والشَّعَرةْ
إنَّ المُلوكَ متى تَنزِلْ بِساحتِهم تَطِرْ بِنارِكَ من نِيرانِهم شَرَرةْ
يا جَفنةً كإزاءِ الحَوضِ قد هدَموا ومَنطقًا مِثلَ وَشيِ اليُمْنةِ الحَبَرةْ

وقال الأصمعي: هو كقوله:

ومنطقٌ خُرِّقَ بالعواسلِ لذَّ كوَشيِ اليُمْنةِ المَراحِلِ

وسأل رسول الله ﷺ عمرو بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر، فقال: إنه لَمانعٌ لحوزته، مُطاع في أذينه. قال الزبرقان: يا رسول الله، إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكنه حسدني يا رسول الله في شرفي فقصَّر بي. فقال عمرو: هو والله زَمِر المروءة، ضيِّق العطن، لئيم الخال. فنظر النبي ﷺ في عينَيه، فقال: يا رسول الله، رضيتُ فقلت أحسن ما علمت، وغضبتُ فقلت أقبح ما علمت، وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الآخرة. فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرًا.»

وتكلَّم رجل في حاجة عند عمر بن عبد العزيز — وكانت حاجته في قضائها مشقَّة — فتكلَّم الرجل بكلامٍ رقيق موجز وتأتَّى لها، فقال عمر: والله إن هذا للسِّحرُ الحلال.

ومن أصحاب الأخبار والآثار «أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة»، وكان القاضيَ قبل أبي يوسف.

ومن أصحاب الأخبار والآثار: «أبو هُنَيدة» و«أبو نعامة» العَدويَّان.

ومن الخطباء «أيوب بن القِرِّيَّة»، وهو الذي لما دخل على الحجَّاج قال له: ما أعددت لهذا الموقف؟ قال: ثلاثة حروف، كأنهن ركْبٌ وقوف؛ دنيا وآخرة ومعروف. ثم قال له في بعض القول: أَقِلْني عثرتي، وأَسِغْني ريقي؛ فإنه لا بد للجواد من كَبوة، وللسيف من نَبوة، وللحليم من هَفوة. قال: كلا والله حتى أوردك جهنم. ألست القائل برُستاقاباد «تغدَّوا الجَديَ قبل أن يتعشَّاكم»؟

ومن خطباء غَطفان في الجاهلية «خُوَيلِد بن عمرو»، و«العُشَراء بن جابر» بن عقيل بن هلال بن سُمَي بن مازن بن فزارة. وخويلد خطيب يوم الفِجار.

ومن أصحاب الأخبار والنَّسب والخُطب وأهل البيان «الوضَّاح بن خيثمة».

ومن أصحاب الأخبار والنَّسب والخُطب والحكام عند أصحاب النفورات «بنو الكوَّاء»، وإياهم يعني مِسكينُ بن أُنيف الدارمي حين ذكر أهل هذه الطبقة فقال:

كِلانا شاعرٌ من حيٍّ صِدقٍ ولكنَّ الرَّحى فوقَ الثِّفالِ
وحكِّمْ دَغفَلًا وارحَلْ إليه ولا تُرحِ المَطيَّ من الكَلالِ
تعالَ إلى بني الكوَّاءِ يقضوا بعِلمِهمُ بأنسابِ الرِّجالِ
تعالَ إلى ابنِ مذعورٍ شِهابٍ يُنبِّي بالسَّوافلِ والعوالي
وعندَ الكيِّسِ النَّمري عِلمٌ ولو أَضْحى بمُنخرِقِ الشِّمالِ

ومن الخطباء القدماء «كعب بن لؤي»، وكان يخطب على العرب عامة، ويحضُّ كنانة خاصةً على البر، فلما مات أكبروا موته، فلم تزَل كنانة تؤرِّخ بموت كعب بن لؤي إلى عام الفيل.

ومن الخطباء الأبْيِناء العلماء الذين جرَوا من الخطابة على أعراقٍ قديمة، «شبيب بن شيبة»، وهو الذي يقول في صالح بن أبي جعفر المنصور، وقد كان المنصور أقام صالحًا فتكلَّم، فقال شبيب: ما رأيت كاليوم أبيَنَ بيانًا، ولا أجوَد لسانًا، ولا أربط جَنانًا، ولا أبلَّ ريقًا، ولا أحسن طريقًا، ولا أغمض عروقًا، من صالح. وحُقَّ لمن كان أمير المؤمنين أباه، والمهدي أخاه، أن يكون كما قال زهير:

يَطلُبُ شأوَ امرأينِ قدَّما حَسنًا نالا المُلوكَ وبَذَّا هذه السُّوقا
هو الجوادُ فإنْ يَلحَقْ بشأوِهِما على تكاليفِه فمِثلُه لَحِقا
أو يَسْبِقاه على ما كانَ من مَهَلٍ فمِثلُ ما قدَّما من صالحٍ سَبَقا

وخرج شبيب من دار الخلافة يومًا فقال له قائل: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الداخل راجيًا، والخارج راضيًا. وقال خالد بن صفوان: اتقوا مجانيق الضعفاء. يريد الدعاء. وقال شبيب: اطلب الأدب؛ فإنه دليل على المروءة، وزيادة في العقل، وصاحب في الغُربة، وصلة في المجلس. وقال شبيب للمهدي يومًا: أراك الله في بَنِيك ما أرى أباك فيك، وأرى الله بَنِيك فيك ما أراك في أبيك.

وقال أبو الحسن، قال زيد بن علي بن الحسين: اطلب ما يعنيك، واترك ما لا يعنيك؛ فإن في ترك ما لا يعنيك دَرَكًا لما يعنيك، وإنما تُقدَّم على ما قدَّمتَ، ولستَ تُقدَّم على ما أخَّرت؛ فآثر ما تلقاه غدًا على ما لا تراه أبدًا. أبو الحسن، عن إبراهيم بن سعد قال، قال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان إلا صورةٌ ممثَّلة، أو بهيمةٌ مُهمَلة.

أبو الحسن قال: كان «أبو بكر خطيبًا»، وكان «عمر» خطيبًا، وكان «عثمان» خطيبًا، وكان «علي» خطيبًا.

وكان من الخطباء «معاوية» و«يزيد» و«عبد الملك» و«معاوية بن يزيد» و«مروان» و«سليمان» و«يزيد بن الوليد» و«الوليد بن يزيد» و«الوليد بن عبد الملك» و«عمر بن عبد العزيز».

ومن خطباء بني هاشم «زيد بن علي» و«عبد الله بن حسن» و«عبد الله بن معاوية»، خطباء لا يُجارَون.

ومن خطباء النُّسَّاك والعُبَّاد «الحسن بن أبي الحسن البصري»، و«مطرِّف بن عبد الله الحَرَشي»، و«مؤرِّق العِجلي»، و«بكر بن عبد الله المُزني»، و«محمد بن واسع الأزدي»، و«يزيد بن أبان الرقاشي»، و«مالك بن دينار السامي».

وليس الأمر كما قال؛ في هؤلاء القاصُّ المُجيد، والواعظ البليغ، وذو المنطق الوجيز؛ فأما الخُطب فإنا لا نعلم أحدًا يتقدم الحسن البصري فيها، وهؤلاء وإن لم يُسمَّوا خطباء فإن الخطيب لم يكن يشقُّ غُبارهم.

أبو الحسن قال، حدَّثني أبو سليمان الحميري قال، كان هشام بن عبد الملك يقول: إني لأستصفق العمامة الرقيقة تكون على أذني إذا كان «عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر» يتكلم؛ مَخافةَ أن يسقط عني من حديثه شيء.

ومن الخطباء من بني عبد الله بن غطفان «أبو البلاد»، وكان راوية ناسبًا.

ومنهم «هاشم بن عبد الأعلى» الفَزاري.

ومن الخطباء «حفص بن معاوية الغلابي»، وكان خطيبًا، وهو الذي قال حين أشرك سليمان بن علي بينه وبين مولًى له على دارة القتب: أشركتَ بيني وبين غير الكَفِي، وولَّيتَني غيرَ السَّنِي.

ومن بني هلال بن عامر «زُرعة بن ضَمرة»، وهو الذي قيل: لولا غُلوٌّ فيه ما كان كلامه إلا الذهب. وقام عند معاوية بالشام خطيبًا، فقال معاوية: يا أهل الشام، هذا خالي فَأْتوني بخالٍ مِثله.

وكان ابنه «النعمان بن زُرعة» بن ضمرة من أخطب الناس، وهو أحد من كان تخلَّص من الحجَّاج من فلِّ ابن الأشعث بالكلام اللطيف.

قال سُحيم بن حفص: ومن الخطباء «عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي»، تكلَّم هو و«عبد الله بن الأهتم» عند عمر بن هُبيرة يُفضل عاصمًا عليه، فقال قائل يومئذٍ: الخلُّ الحامض ما لم يكن ماءً.

ومن خطباء بني تميم «عمرو بن الأهتم»، وكان يُدعى المكحَّل لجماله، وهو الذي قيل فيه: إنما شعره حُللٌ منشَّرة بين أيدي الملوك تأخذ منه ما شاءت. ولم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه.

ومن بني مِنقر «عبد الله بن الأهتم»، وكان خطيبًا ذا مقامات ووفادات.

ومن الخطباء «صفوان بن عبد الله بن الأهتم»، وكان خطيبًا رئيسًا، وابنه «خالد بن صفوان»، وقد وفد إلى هشام، وكان من سُمَّار أبي العبَّاس.

ومنهم «عبد الله بن عبد الله بن الأهتم»، قد وَلِيَ خراسان، ووفد على الخلفاء، وخطب عند الملوك.

ومن ولده «شبيب بن شيبة» بن عبد الله بن عبد الله بن الأهتم، و«عبد الله بن عبد الله بن عبد الله بن الأهتم»، و«خاقان بن الأهتم»، وهو عبد الله بن عبد الله بن عبد الله بن الأهتم.

ومن خطبائهم «محمد الأحول بن خاقان»، وكان خطيب بني تميم، وقد رأيته وسمعت كلامه.

ومن خطبائهم «مَعمر بن خاقان»، وقد وفد.

ومن خطبائهم «مؤمَّل بن خاقان».

وقال أبو الزبير الثقفي: ما رأيت خطيبًا من خطباء الأمصار أشبه بخطباء البادية من المؤمَّل بن خاقان.

ومن خطبائهم «خاقان بن المؤمَّل بن خاقان».

وكان «صباح بن خاقان» ذا علم وبيان ومعرفة، وشدة عارضة، وكثرة رواية، مع سخاء واحتمال، وصبر على الحق، ونصرة للصديق، وقيام بحق الجار.

ومن بني مِنقر «الحكَم بن النَّضر»، وهو «أبو العلاء المِنقري»، وكان يصرِّف لسانه حيث شاء، مع جهارة واقتدار.

ومن خطباء بني صُريم بن الحارث «الخَزرَج بن الصدي».

ومن خطباء بني تميم ثم من مُقاعس «عمارة بن أبي سليمان».

ومن ولد مالك بن سعيد «عبد الله» و«خير» ابنا حبيب، كانا ناسبَين عالمين أديبين ديِّنَين.

ومن ولد مالك بن سعيد «عبد الله» و«العبَّاس» ابنا رؤبة، وكان «العبَّاس» علَّامة ناسبًا راوية، وكان «عبد الله» أرجز الناس وأفصحهم، ويُكنى «أبا الشعثاء»، وهو «العجَّاج».

ومن أصحاب الأخبار والنسب «أبو بكر الصدِّيق» رضي الله عنه، ثم «جُبير بن مُطعِم»، ثم «سعيد بن المسيب»، ثم «محمد بن سعيد» بن المسيب، ثم «قتادة»، و«عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة المسعودي» الذي قال في كلمة له في عمر بن عبد العزيز وعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنه:

فمُسَّا تُرابَ الأرضِ منه خُلِقتَما وفيه المعادُ والمصيرُ إلى الحَشرِ
ولا تأنَفا أنْ تَرجِعا فتُسلِّما فما حُشِيَ الإنسانُ شرًّا من الكِبْرِ
فلو شئتُ أُولي فيكما غيْرَ واحدٍ علانيةً أو قالَ عنديَ في سِرِّ
فإنْ أنا لم آمُرْ ولم أنْهَ عنكما ضَحِكتُ له حتى يَلِجَّ ويَستشري

وهو الذي قيل له: كيف تقول الشعر مع النُّسك والفقه؟ فقال: إن المصدور لا يملك أن ينفث.

وقد ذكر المصدورَ أبو زُبيد الطائي في صفة الأسد فقال:

للصَّدرِ منه عَويلٌ فيه حَشرَجةٌ كأنَّما هو من أحشاءِ مَصدورِ

ومن خطباء هذيل «أبو المليح الهُذلي» أسامة بن عُمير.

ومنهم «أبو بكر الهُذلي»، كان خطيبًا قاصًّا، وعالمًا بيِّنًا، وعالمًا بالأخبار والآثار، وهو الذي لما فاخَر أهلَ الكوفة قال: لنا الساج، والعاج، والديباج، والخراج، والنهر العجَّاج.

(١٦) باب من أسماء الكُهان والحُكام والخطباء والعلماء من قَحْطان

قالوا: أكهَنُ العرب وأسجَعُهم «سَلمة بن أبي حيَّة»، وهو الذي يُقال له «عُزَّى سلمة».

ومنهم ومن خطباء عُمان «مُرَّة بن فَهْم التليد»، وهو الخطيب الذي أوفده المهلَّب إلى الحجَّاج.

ومن العتيك «بِشر بن المُغيرة بن أبي صُفرة»، وهو الذي قال لبني المهلَّب: يا بني عمِّي، إني والله قد قصَّرت عن شَكاة العاتب، وجاوزت شكاة المُستعتِب، حتى كأني لست موصولًا ولا محرومًا؛ فعِدوني امرأً خِفتم لسانه، أو رجوتم شكره، وإني وإن قلت هذا فلَمَا أبلاني الله بكم أعظم مما أبلاكم بي.

ومن خطباء اليمن ثم من حِميَر «الصبَّاح بن شُقي الحِميري»، كان أخطب العرب.

ومنهم ثم من الأنصار «قيس بن الشمَّاس»، ومنهم «ثابت بن قيس بن الشمَّاس» خطيب النبي ﷺ.

ومنهم «رَوح بن زِنباع»، وهو الذي لمَّا همَّ به معاوية قال: لا تُشمِتنَّ بي عدوًّا أنت وقَمتَه، ولا تسوءنَّ بي صديقًا أنت سرَرتَه، ولا تهدمنَّ مني ركنًا أنت بنَيتَه. هلَّا أتى حِلمك وإحسانك على جهلي وإساءتي؟

ومن خطبائهم «الأسود الكذَّاب بن كعب العَنسي». وكان «طُليحة» خطيبًا وشاعرًا، وسجَّاعًا كاهنًا ناسبًا. وكان «مُسيلمة الكذَّاب» بعيدًا من ذلك كله.

و«ثابت بن قيس بن شماس» هو الذي قال لعامر حين قال: أمَا والله لئن تعرَّضتَ لعنِّي وفنِّي، وذكاء سِنِّي، لتُولِّينَّ عني. فقال له ثابت: أمَا والله لئن تعرَّضتَ لسِبابي، وشبا أنيابي، وسرعة جوابي، لتكرهنَّ جَنابي. فقال النبي ﷺ: «يكفيك الله وأبناء قَيلة.»

وأخذت هذا الحديث من رجلٍ يصنع الأخبار فأنا أتَّهمه.

ومن خطباء الأنصار «بِشر بن عمرو بن محصن»، وهو أبو عَمرة الخطيب.

ومن خطباء الأنصار «سعد بن الربيع»، وهو الذي اعترضت ابنته النبي ﷺ، فقال لها: من أنت؟ قالت: ابنة الخطيب النقيب الشهيد؛ سعد بن الربيع.

ومنهم «خال حسَّان بن ثابت»، وفيه يقول حسان:

إنَّ خالي خطيبُ جابيةِ الجَو لانِ عندَ النُّعمانِ حيثُ يقومُ

وإياه يعني حسان بقوله:

رُبَّ خـالٍ لـيَ لـو أبـصَـرتِـه سَبِطِ المِشيةِ في اليومِ الخَصِرْ

ومنهم من الرُّواة والنسَّابين والعلماء «شرقيُّ بن القطامي الكلبي»، و«محمد بن السائب الكلبي»، و«عبد الله عيَّاش الهَمْداني»، و«هشام بن محمد بن السائب الكلبي»، و«الهيثم بن عدي الطائي»، و«أبو رَوق الهَمْداني» واسمه «عطية بن الحارث»،

و«أبو مِخنف لوط بن يحيى الأزدي»، و«محمد بن عمر الأسلمي الواقدي»، و«عَوانة الكلبي»، و«ابن عُيينة المهلَّبي»، و«الخليل بن أحمد» الفراهيدي، و«خلف بن حيَّان الأحمر» الأشعري.

قالوا: ومنا في الجاهلية «عُبيد بن شَريَّة»، ومنا «شِقُّ بن الصعب»، ومنا «ربيع بن ربيعة السطيح الذئبي»، ومنا «المأمور الحارثي»، و«الديَّان بن عبد المدان الحارثي»؛ الشريفان الكاهنان.

ومنهم «عمرو بن حنظلة بن نَهد الحَكَم»، وله يقول القائل:

خيرُ ناسٍ من مَعَدٍّ حنظلةُ بنُ نَهْدِ

ومنهم: «أبو الشطَّاح اللخمي»، وجمع معاوية بينه وبين دَغفل بن حنظلة البكري.

ومنهم «أبو الكُناس الكندي»، ومنهم «أبو مِخوَس الكندي»، وكانا ناسبَين عالمين.

ومن أصحاب الأخبار والآثار «عبد الله بن عتبة بن لهيعة»، ويُكنى أبا عبد الرحمن.

ومن القُدماء في الحكمة والخطابة والرياسة «عُبيد بن شريَّة» الجُرهمي، و«أسقف نجران»، و«أُكَيدِر» صاحب دُومة الجندل، و«أُفيعى نجران»، و«ذَرِب بن حوط»، و«عُلَيم بن جناب»، و«عمرو بن ربيعة»، وهو لُحَي بن حارثة بن عمرو مُزيقيا، و«جَذيمة بن مالك الأبرش»، وهو أول من أسرج الشَّمع ورمى بالمنجنيق.

(١٧) باب ذِكر النُّسَّاك والزُّهَّاد من أهل البيان

«عامر بن عبد قيس»، و«صلة بن أشيَم»، و«عثمان بن أدهم»، و«صفوان بن محرز»، و«الأسود بن كلثوم»، و«الربيع بن خيثم»، و«عمرو بن عتبة بن فرقد»، و«هرم بن حيان»، و«مؤرِّق العجلي»، و«بكر بن عبد الله بن الشِّخير الحرشي».

وبعد هؤلاء «مالك بن دينار»، و«حبيب أبو محمد»، و«يزيد الرقاشي»، و«صالح المُرِّي»، و«أبو حازم الأعرج»، و«زياد» مولى عيَّاش بن أبي ربيعة، و«عبد الواحد بن زياد»، و«حيَّان أبو الأسود»، و«دهثم أبو العلاء».

ومن النساء «رابعة القيسية»، و«مُعاذة العدوية» امرأة صلة بن أشيم، و«أم الدرداء».

ومن نساء الخوارج «البَلجاء»، و«غزالة»، و«قطام»، و«حمَّادة»، و«كُحيلة».

ومن نساء الغالية «ليلى الناعطية»، و«الصَّدوف»، و«هند».

وممن كان من النُّساك ممن أدركناه «أبو الوليد»، وهو «الحَكم الكِندي»، و«محمد بن محمد الحمراني».

ومن القدماء ممن كان يُذكَر بالقدر والرياسة، والبيان، والخطابة، والحكمة، والدهاء والنكراء؛ «لقمان بن عاد»، و«لُقيم بن لقمان»، و«مُجاشع بن دارم»، و«سليط بن كعب» بن يربوع، سمَّوه بذلك لسلاطة لسانه، وقال جرير:

إنَّ سَليطًا كاسْمِه سليطُ

و«لؤي بن غالب»، و«قُس بن ساعدة»، و«قُصي بن كلاب».

ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء «أكثَمُ بن صَيفي»، و«ربيعة بن حُذار»، و«هَرِم بن قُطبة»، و«عامر بن الظَّرِب»، و«لبيد بن ربيعة».

وكان من الشعراء وأسماء الصوفية من النُّساك ممن يُجيد الكلام «كِلاب»، و«كُليب»، و«هاشم الأوقص»، و«أبو هاشم الصوفي»، و«صالح بن عبد الجليل».

ومن القدماء العلماء بالنسب وبالغريب «الخَطَفى»، وهو جد جرير بن عطية بن الخطَفى، وهو حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع، وإنما سُمِّي الخطَفى لأبياتٍ قالها:

يَرفَعنَ بالليلِ إذا ما أَسْدَفا أعناقَ جِنَّانٍ وهامًا رُجَّفا
وعَنَقًا باقي الرَّسيمِ خَيطَفا

العَنق: ضربٌ من السير، وهو المُسبطِر؛ فإذا ارتفع عن العنق قليلًا فهو التزيد، فإذا ارتفع عن ذاك فهو الذميل، والرسيم فوق الذميل. والخيطف: السريع؛ أي يخطف كما يخطف البرق، وخيطف من الخطف، والياء زائدة في خيطف، كما قالوا: رجل صيرف من الصرف، ورجل جيدر من الجدر وهو القِصر، وأصل الخطف الأخذ في سرعة، ثم استُعير لكل سريع.

(١٨) ذكر القُصَّاص

قصَّ «الأسود بن سريع»، وهو الذي قال:

فإنْ تَنجُ منها تَنجُ من ذي عظيمةٍ وإلا فـإنِّـي لا إخـالُـكَ نـاجِـيـا

وقص «الحسن» و«سعيد» بن أبي الحسن.

وكان «جعفر بن الحسن» أول من اتَّخذ في مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن [فيها]، وقص «إبراهيم التيمي».

وقص «عُبيد بن عُمير الليثي»، وجلس إليه «عبد الله بن عمر». حدَّثني بذلك «عمرو بن فائد» بإسناد له.

ومن القُصَّاص «أبو بكر الهُذلي»، وهو «عبد الله بن أبي سليمان»، وكان خطيبًا بيِّنًا، صاحب أخبار وآثار.

وقص ابنه «مطرِّف بن عبد الله» بن الشِّخِّير في مكان أبيه.

ومن كبار القُصاص ثم من هُذيل «مُسلم بن جُندب»، وكان قاصَّ مسجد النبي ﷺ بالمدينة، وكان إمامهم وقارئهم، وفيه يقول عمر بن عبد العزيز: من سرَّه أن يسمع القرآن غضًّا فليسمع قراءة مسلم بن جندب.

ومن القُصاص «عبد الله بن عَرادة» بن عبد الله بن الوضين، وله مسجد في بني شيبان.

ومن القُصاص «موسى الأُسواري»، وكان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فيقعد العرب عن يمينه، والفُرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويُفسرها للعرب بالعربية، ثم يحوِّل وجهه إلى الفُرس فيُفسرها لهم بالفارسية، فلا يُدرى بأي لسان هو أبيَن. واللغتان إذا الْتَقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضَّيم على صاحبتها، إلا ما ذكروا من لسان «موسى بن سيَّار الأسواري»، ولم يكن في هذه الأمة بعد «أبي موسى الأشعري» أقرأ في مِحراب من «موسى بن سيار».

ثم «عثمان بن سعيد بن أسعد».

ثم «يونس النحوي»، ثم «المعلَّى».

ثم قصَّ في مسجده «أبو علي الأسواري»، وهو «عمرو بن فائد»، ستًّا وثلاثين سنة، فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة، فما ختم القرآن حتى مات؛ لأنه كان حافظًا للسِّيَر ولوجوه التأويلات، فكان ربما فسَّر آيةً واحدة في عدة أسابيع، كأن الآية ذُكر فيها يوم بدر، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق في ذلك من الأحاديث الكثيرة، وكان يقصُّ في فنونٍ كثيرة من القصص، ويجعل للقرآن نصيبًا من ذلك، وكان «يونس بن حبيب» يسمع منه كلام العرب ويحتجُّ به، وخصاله المحمودة كثيرة.

ثم قص من بعده «القاسم بن يحيى»، وهو «أبو العبَّاس الضرير»، لم يُدرَك في القُصَّاص مِثله.

وكان يقصُّ معهما وبعدهما «مالك بن عبد الحميد المكفوف»، ويزعمون أن «أبا علي» لم يسمع منه كلمة غيبة قط، ولا عارض أحدًا قط من المخالفين والحُساد والبُغاة بشيء من المكافأة.

فأما «صالح المُرِّي» فإنه كان يُكنى «أبا بشر»، وكان صحيح الكلام رقيق المجلس، فذكر أصحابنا أن «سُفيان بن حبيب» لما دخل البصرة وتوارى عند «مرحوم العطار» قال له مرحوم: هل لك أن تأتيَ قاصًّا عندنا فتتفرج بالخروج والنظر إلى الناس والاستماع منه؟ فأتاه على تكرُّه كأنه ظنَّه كبعض من يبلغه شأنه، فلما أتاه وسمع منطقه، وسمع تلاوته للقرآن، وسمعه يقول: حدَّثنا سعيد عن قتادة، وحدَّثنا قتادة عن الحسن، رأى بيانًا لم يحتسبه، ومذهبًا لم يكن يُدانيه، فأقبل سُفيان على مرحوم فقال: هذا ليس قاصًّا، هذا نذير.

(١٩) باب ما قيل في المَخاصر والعِصِي وغيرهما

كانت العرب تخطب بالمخاصر، وتعتمد على الأرض بالقِسِي، وتُشير بالعِصِي والقنا، نعم حتى كانت المخاصر لا تُفارق أيدي الملوك في مجالسها؛ ولذلك قال الشاعر:

في كفِّه خَيزُرانٌ رِيحُها عَبِقٌ ... بكفِّ أروَعَ في عِرنينِه شَمَمُ
يُغْضي حياءً ويُغْضى من مَهابتِه ... فما يُكلَّمُ إلَّا حينَ يَبتسِمُ
إنْ قالَ قالَ بما يَهْوى جميعُهمُ ... وإنْ تَكلَّمَ يومًا ساختِ الكَلِمُ
يكادُ يُمسِكُه عِرْفانَ راحتِه ... رُكنُ الحَطيمِ إذا ما جاءَ يَستلِمُ
كم هاتفٍ لك من داعٍ وداعيةٍ ... يَدعُونَ يا قُثَمَ الخيراتِ يا قُثَمُ

وقال الشاعر قولًا فسَّر فيه ما قلنا، قال:

مَجالسُهم خَفضُ الحديثِ وقولُهم ... إذا ما قضَوا في الأمرِ وَحيُ المَخاصِرِ

وقال الكُميت بن زيد:

ونَزُورُ مَسْلمةَ المُهذَّ ... بَ بالمؤيَّدةِ السوائرْ
بالمُذهَباتِ المُعجَبا ... تِ لمُفحَمٍ منَّا وشاعِرْ

أهلِ التَّجاوُبِ والمَحا　　فِلِ والمَقاوِلِ بالمَخاصِرْ
فهُمُ كذلك في المَجا　　لِسِ والمَحافِلِ والمَشاعِرْ

وكما قال الأنصاري في المجامع حيث يقول:

وسارتْ بنا سيَّارةٌ ذاتُ سورةٍ　　بِكُومِ المَطايا والخُيولِ الجَماهِرِ
يؤمُّون مُلْكَ الشَّامِ حتى تَمكَّنوا　　مُلوكًا بأرضِ الشامِ فوقَ المَنابِرِ
يُصيبون فصْلَ القولِ في كلِّ خُطبةٍ　　إذا وصلوا أيمانَهم بالمَخاصِرِ

وفي المخاصر والعِصي، وفي خد وجه الأرض بأطراف القِسي، قال الحطيئة:

أم من لخَصمٍ مُضجِعِينَ قِسِيَّهم　　صُعْرٍ خُدودُهمُ عِظامِ المَفخَرِ

وقال لبيد بن ربيعة في الإشارة:

غُلْبٌ تَشذَّرُ بالدُّخولِ كأنَّها　　جِنُّ البَدِيِّ رواسيًا أقدامُها

وقال في خد وجه الأرض بالعِصي والقِسي:

يَشِينُ صِحاحَ البِيدِ كلَّ عَشيَّةٍ　　بِعُوجِ السَّراءِ عندَ بابٍ مُحجَّبِ

عوج: جمع عوجاء، وهي ها هنا القوس. والسراء: شجر يُعمل منه القوس، وفي مِثله يقول الشاعر:

إذا اقتسمَ الناسُ فضْلَ الفَخَارِ　　أطَلْنا على الأرضِ مَيْلَ العصا

وقال الآخر:

كتَبتْ لنا في الأرضِ يومَ مُحرِّقٍ　　أيَّامُنا في الأرضِ يومًا فَيصَلا

وقال لبيد بن ربيعة في ذكر القِسي:

ما إنْ أهابُ إذا السُّرادِقُ عمَّه　　قَرعُ القِسيِّ وأُرعِشَ الرِّعدِيدُ

وقال مَعنُ بن أوس المُزني:

أَلَا من مُبلِغٌ عنِّي رسولًا — عُبيدَ اللهِ إذ عَجِلَ الرِّسالا
تُغافِلُ دُونَنا أبناءَ ثَورٍ — ونحن الأكثرونَ حَصًى ومالا
إذا اجتمعَ القبائلُ جئتَ رِدْفًا — أمامَ الماسِحِين لك السِّبالا
فلا تُعطى عصا الخُطباءِ فيهم — وقد تُكْفى المَقادةَ والمَقالا

ومما قالوا في حمل القناة قوله:

إلى امرئٍ لا تَخطَّاه الرِّقابُ ولا — حُدْبِ الخوانِ إذا ما استُنشئَ العرقُ
صُلْبُ الحيازيمِ لا هَذرُ الكلامِ إذا — هزَّ القناةَ ولا مُستعجِلٌ زَهِقُ

وكما قال جرير بن الخطَفى:

من للقناةِ إذا ما عيَّ قائلُها — أم للأعِنَّةِ يا شَيبُ بنَ عمَّارِ

وقال: ومِثل هذا قول «أبي المُجيب الرَّبَعي»: ما تزال تحفظ أخاك حتى يأخذ القناة، فعند ذلك يفضحك أو يسرُّك. يقول: إذا قام يخطب. وفي كتاب جبل بن يزيد: احفظ أخاك إلا من نفسه. وقال عبد الله بن رؤبة: سأل رجل رؤبة عن أخطب بني تميم، فقال: «خِداش بن بشر بن لبيد.»[٣٤] يعني البَعيث، وإنما قيل له «البعيث» لقوله:

تبعَّث منِّي ما تبعَّث بعدما — أُمِرَّت حِبالي كلَّ مِرَّتِها شَزْرا[٣٥]

وزعم سُحيم بن حفص أنه كان يُقال: أخطَبُ بني تميم البعيثُ إذا أخذ القناة. وقال يونس: لعَمْري لئن كان مغلَّبًا في الشعر لقد كان غُلِّب في الخطب.

ومن الشعراء من يَغلِب شيءٌ قاله في شعره على اسمه وكُنيته فيُسمَّى به، وهم كثير.

---

[٣٤] كان في الأصل: خداش بن لبيد بن بيلبة، وهذا غلط، والصواب ما أثبتناه. انظر [الجزء الأول – (٢) ذكر الحروف التي تدخلها اللثغة وما يحضرني منها].

[٣٥] البعيث، نقل صاحب المزهر عن وشاح بن دريد أن البيت هكذا:

تبعَّث منِّي ما تبعَّث بعدما — أُمِرَّت قُواي واستتمَّ غريمي

فمنهم «البعيث» هذا.

ومنهم عوف بن حِصن[٣٦] بن حذيفة بن بدر، غلب عليه «عويف القوافي» لقوله:

سأُكذِبُ من قد كانَ يَزعُمُ أنَّني إذا قلتُ شِعرًا لا أُجيدُ القوافيا

فسُمِّي «عويف القوافي».

ومنهم «يزيد بن ضِرار» التغلبي، غلب عليه «المزرِّد» لقوله:

فقلتُ تَزرَّدْها عُبَيدُ فإنَّني لِدُرْدِ الموالي في السِّنِينَ مُزرِّدُ

فسُمِّي «المزرِّد».

ومنهم «عمرو بن سعيد» بن مالك، غلب عليه «المرقِّش»؛ وذلك لقوله:

الدَّارُ قَفرٌ والرُّسومُ كما رقَّشَ في ظَهرِ الأديمِ قَلَمْ

فسُمِّي «مرقشًا».

ومنهم: «شاس بن نهار العبدي»، غلب عليه «الممزَّق» لقوله:

فإنْ كنتُ مأكولًا فكُنْ خيرَ آكِلٍ وإلَّا فأدرِكْني ولمَّا أُمزَّقِ

فسُمِّي «الممزق».

ومنهم «جرير بن عبد المسيح» الضبعي، غلب عليه «المتلمِّس» لقوله:

فهذا أوانُ العِرضِ طنَّ ذُبابُه زنابيرُه والأزرقُ المتلمِّسُ

ومنهم «عمرو بن رباح» بن عمرو السُّلمي، أبو خنساء بنت عمرو، غلب «الشريد» على اسمه لقوله:

تولَّى إخوَتي وبَقِيتُ فَردًا وحيدًا في ديارِهمُ شَريدا

---

[٣٦] عوف بن حصن: كان في الأصل: عوف بن حصين، وهو خطأ صوابُه ما أثبتناه. وهو عوف بن معاوية بن عقبة بن عيينة بن حصن الفزاري، شاعرٌ فَحْل من شعراء الدولة الأموية ومن ساكني الكوفة، وهو من أحد بيوت العرب المقدمة الفاخرة.

فسُمِّي «الشريد». وهذا كثير.

ودخل رجل من قيس عيلان على عبد الملك بن مروان، فقال: زُبَيرِيٌّ عُمَيري، والله لا يُحبُّك قلبي أبدًا. قال: يا أمير المؤمنين، إنما يجزع من فُقدان الحب المرأة، ولكن عدل وإنصاف.

وقال عمر لأبي مريم الحنفي السلولي قاتل زيد بن الخطاب: لا يُحبُّك قلبي أبدًا حتى تحب الأرض الدم المسفوح.

وهذا مثل قول الحجَّاج: والله لأقلعنَّك قلع الصمغة. لأن الصمغة اليابسة إذا فُرقت عن الشجرة انقلعت انقلاع الجُلْبة، والأرض لا تنشف الدم المسفوح ولا تمصُّه، فمتى جف الدم وتجلَّب لم ترَه أخذ من الأرض شيئًا.

ومن الخطباء: «الغضبان بن القَبَعثَرى»، وكان محبوسًا في سجن الحجَّاج، فدعا به يومًا، فلما رآه قال: إنك لسمين. قال: القَيد والرَّتعة، ومن يكن ضيفًا للأمير يَسمَن.

وقال يزيد بن عياض: لما نَقم الناس على عثمان خرج يتوكَّأ على مروان وهو يقول: لكلِّ أمَّةٍ آفة، ولكلِّ نعمةٍ عاهة، وإن آفة هذه الأمَّة عيَّابون طعَّانون، يُظهرون لكم ما تُحبُّون، ويُسرُّون ما تكرهون، طغام مثل النعام، يتبعون أول ناعق. لقد نقموا عليَّ ما نقموه على عمر، ولكن قمعهم ووقمهم. والله إني لأقرب ناصرًا وأعز نفرًا، فضَل فضلٌ من مالي، فما لي لا أفعل في الفضل ما أشاء؟

ورأيت الناس يتداولون رسالة «يحيى بن يعمر» على لسان «يزيد بن المهلَّب»: إنا لقينا العدو فقتَلْنا طائفة وأسَرْنا طائفة، ولحقت طائفة بعراعر الأودية وأهضام الغيطان، وبِتْنا بعُرعُرة الجبل، وبات العدو بحضيضه، فقال الحجَّاج: ما يزيد بأبي عُذرة هذا الكلام. فقيل له: إن معه يحيى بن يعمر. فحُمِل إليه، فلما أتاه قال: أين وُلدت؟ قال: بالأهواز. قال: فأنَّى لك هذه الفصاحة؟ قال: أخذتها عن أبي.

عراعر الأودية: أسافلها، وعراعر الجبال: أعاليها. وأهضام الغيطان: مداخلها. والغيطان: جمع غائط، وهو الحائط ذو الشجر.

ورأيتهم يُديرون في كُتُبهم أن امرأةً خاصمت زوجها إلى يحيى بن يعمر فانتهرها مرارًا، فقال له يحيى: إن سألتْك ثمن شَكْرها وشَبْرك، أنشأتَ تطلُّها وتَضهَلها؟

قالوا: الضهل: القليل. والشكر: الجماع. والشبر: البضع. تطلها: تذهب بحقها، يُقال: دم مطلول، ويُقال: بئر ضهول؛ أي قليلة الماء.

فإن كانوا إنما روَوا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة فقد باعَده الله من صفة البلاغة والفصاحة، وإن كانوا إنما دوَّنوه في الكُتب وتذاكروه في المجالس لأنه غريب،

فأبيات من شعر العجَّاج أو شعر الطِّرمَّاح أو أشعار هُذيل تأتي لهم مع حسن الرصف على أكثر مما ذكروا. ولو خاطب بقوله «إن سألتْك ثمن شَكرها وشَبرك أنشأت تطلها وتضهلها؟» الأصمعي، لظننت أنه سيجهل بعض ذلك؛ فهذا ليس من أخلاق الكُتاب ولا من آدابهم.

أبو الحسن: كان غلامٌ يُقعر في كلامه، فأتى أبا الأسود الدؤلي يلتمس بعض ما عنده، فقال له أبو الأسود: ما فعل أبوك؟ قال: أخذته الحمَّى فطبخته طبخًا، وفتخته فتخًا، وفضخته فضخًا، فتركته فرخًا.

فتخته: أضعفته، والفتيخ: الرخو الضعيف. وفضخته: دقته.

فقال أبو الأسود: فما فعلت امرأته التي كانت تُشارُّه وتُمارُّه وتُهارُّه وتُزارُّه؟ قال: طلَّقها وتزوَّجتْ غيره، فرضِيت وحظِيت وبظِيت. قال أبو الأسود: قد عرفنا رضيت وحظيت، فما بظيت؟ قال: بظيت حرفٌ من الغريب لم يبلغْك. قال أبو الأسود: يا بُنيَّ، كل كلمة لا يعرفها عمُّك فاسترها كما تستر السِّنَّور خرءها.

قال أبو الحسن: مر «أبو علقمة النحوي» ببعض طرق البصرة، وهاجت به مِرَّة، فوثب عليه قوم منهم فأقبلوا يعضُّون إبهامه ويؤذِّنون في أذنه، فأفلت من أيديهم فقال: ما لكم تَتكأكئُون عليَّ كما تتكأكئُون على ذي جِنَّة؟ افرنقِعوا عنِّي. قالوا: دعوه؛ فإن شيطانه يتكلم بالهندية. وقال أبو الحسن: وهاج بأبي علقمة الدم فأُتي بحجَّام، فقال للحجَّام: اشدُد قصب المَلازم، وأرهِفْ ظُبات المشارط، وأسرِعِ الوضع، وعجِّلِ النزع، وليكن شرطك وخزًا، ومصُّك نهزًا، ولا تُكرِهنَّ أبيًّا، ولا تردَّنَّ أتيًّا. فوضع الحجَّام محاجمه في جُونته وانصرف.

فحديث أبي علقمة فيه غريب، وفيه أنه لو كان حجَّامًا مرةً ما زاد على ما قال. وليس في كلام يحيى بن يعمر شيء من الدنيا إلا أنه غريب، وهو أيضًا من الغريب بغيض.

وذكروا عن محمد بن إسحاق قال: لما جاء ابنَ الزبير — وهو بمكة — قتلُ مروان الضحَّاك بمرج راهط، قام فينا خطيبًا فقال: إن ثعلب بن ثعلب حفر بالصحصحة، فأخطأت استه الحفرة، وا لهفَ أم لم تلدني على رجل من مُحارب كان يرعى في جبال مكة، فيأتي بالشربة من اللبن فيبيعها بالقبضة من الدقيق، فيرى ذلك سدادًا من عيش، ثم أنشأ يطلب الخلافة ووراثة النبوة!

وأول هذا الكلام مُستكرَه، وهو موجود في كل كتاب، وجارٍ على لسان كل صاحب خبر، وقد سمعت لابن الزبير كلامًا كثيرًا ليس هذا في سبيله ولا يتعلق به.

وقال أبو يعقوب الأعور السُّلمي:

وخَلجةِ ظنٍّ يَسبِقُ الطَّرْفَ حَزمُها　　تُشيفُ على غَيمٍ وتُمكِنُ من زَحلِ
صدَعتُ بها والقومُ فوضى كأنَّهم　　بِكارةُ مِرباعٍ تُبصبِصُ للفَحلِ

خلجة ظن: أي ظن سريع. تُشيف: تُشرف. بكارة مرباع: أي نوق صغار قد أذلَّت للفحل. مرباع: أي نوق ربيع، والمرباع: ربع الغنيمة في الجاهلية لصاحب الجيش، قال ابن عثمة:

لك المِرباعُ منها والصفايا　　وحُكمُك والنشيطةُ والفُضولُ

وقال رجل من بني يربوع:

إلى اللهِ أشكو ثُم أشكو إليكما　　وهل تَنفعُ الشكوى إلى من يَزيدُها؟
حَزازاتِ حُبٍّ في الفؤادِ وعَبْرةً　　أظلُّ بأطرافِ البَنانِ أذُودُها
يَحِنُّ فؤادي من مَخافةِ بَينِكم　　حنينَ المزجَّى وِجهةً لا يُريدُها

وقد أحسن الآخَر حيث يقول:

وأُكرِمُ نَفْسي عن مَناكحَ جَمَّةٍ　　ويَقصُرُ مالي أن أنالَ الغواليا

وقال الآخر:

وإذا العبدُ أغلقَ البابَ دُوني　　لم يُحرَّمْ عليَّ مَتنُ الطَّريقِ

وقال الخليع العطاردي: كنا بالبادية إذ نشأ عارض، وما في السماء قزَعة معلَّقة، وجاء السَّيل فاكتسح أبياتًا من بني سعد، فقلت:

فَرِحْنا بوَسْميٍّ تألَّقَ وَدقُه　　عَشاءً فأبْكانا صباحًا فأسرَعا
له ظُلَّةٌ كأنَّ ريِّقَ وَبلِها　　عَجاجةُ صَيفٍ أو دُخانٌ تَرفَّعا
فكان على قومٍ سلامًا ونعمةً　　وألحَقَ عادًا آخَرينَ وتُبَّعا

وقال أبو عطاء السِّندي لعُبيد الله بن عبَّاس الكِندي:

إلى مَعشَرٍ أرْدَوا أخاكَ وكَفَّروا　　　أباكَ فماذا بعدَ ذاك تقولُ؟
وقُل لعُبيدِ اللهِ لو كانَ جَعفرٌ　　　هو الحيُّ لم يَبرَحْ وأنتَ قَتيلُ

فقال عُبيد الله: أقول عضَّ أبو عطاء ببَظْر أمه. فغُلِّب عليه.
قال أبو عبيدة، قال أبو البصير في أبي رهم السدوسي، وكان يلي الأعمال لأبي جعفر:

رأيتُ أبا رَهمٍ يُقرِّبُ مُنجِحًا　　　غُلامَ أبي بِشرٍ ويَجفو أبا بِشرِ
فقلتُ ليحيى كيف قرَّب مُنجِحًا؟　　　فقال له أَيْرٌ يَزيدُ على شِبرِ

وقال أبو عثمان: وقد طعنت الشعوبية على أخذ العرب المخصرة في خُطبها، والقنا والقضيب، والاتكاء والاعتماد على القوس، والخد في الأرض، والإشارة بالقضيب، بكلامٍ مُستكرَه نذكُره إن شاء الله تعالى في الجزء الثالث.

ولا بد من أن نذكُر فيه بعض كلام معاوية، ويزيد، وعبد الملك، وابن الزبير، وسليمان، وعمر بن عبد العزيز، والوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد؛ لأن الباقين من ملوكهم لم يُذكَر لهم من الكلام الذي يُلحق بالخُطب وبصناعة المنطق إلا اليسير.

ولا بد من أن نذكُر فيه أقسام تأليف جميع الكلام، وكيف خالَف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثورٌ غير مقفًّى على مخارج الأشعار والأسجاع، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان، وتأليفه من أكبر الحُجج.

ولا بد من أن يكون فيه ذِكر شأن إسماعيل، على نبيِّنا وعليه السلام، وانقلاب لغته وبيانه بعد أربع عشرة سنة، وكيف نسي لغته التي رُبي فيها وجرى على أعراقها، وكيف لفَظَ بجميع حاجاته بالعربية عن غير تلقين وترتيب، وحتى لم تدخله عُجمة ولا لُكنة ولا حُبسة، ولا تعلَّق بلسانه شيء من تلك العادة.

ولا بد من ذِكر بعض كلام المأمون ومذاهبه، وبعض ما يحضرني من كلام آبائه وجِلَّة رهطه.

ولا بد أيضًا من ذِكر من صَعِد المِنبر فحَصِر وخلط، أو قال فأحسن؛ ليكون الكتاب أكمل إن شاء الله تعالى.

ولا بد من ذِكر المنابر ولِمَ اتُّخذت، وكيف كانت الخطباء من العرب في الجاهلية وفي صدور الإسلام، وهل كانت المنابر لأمَّةٍ غير أمتنا، وكيف كانت الحال في ذلك.

وقد ذكرنا أن الأمم التي فيها الأخلاق والآداب والحِكَم والعلم أربع، وهي العرب والهند وفارس والروم.

وقال حُكيم بن عيَّاش الكلبي:

ألَمْ يكُ مُلكُ أرضِ اللهِ طُرًّا لأربعةٍ له مُتميِّزينا
لِحِميَرَ والنجاشي وابنِ كِسرى وقيصرَ غيْرَ قولِ المُمتَرِينا

فما أدري بأي سبب وضَع الحبشة في هذا الموضع، وأما ذِكره لحِمَير فإن كان إنما ذهب إلى تُبَّع نفسه في الملوك فهذا له وجه، وأما النجاشي فليس هو عند الملوك في هذا المكان، ولو كان النجاشي في نفسه فوق تُبَّع وكِسرى وقيصر لَمَا كان أهل مملكته من الحبش في هذا الموضع، وهو لم يفضِّل النجاشي لمكان إسلامه، يدل على ذلك تفضيله لكِسرى وقيصر، وكان وضع كلامه على ذِكر الممالك، ثم ترك الممالك وأخذ في ذكر الملوك.

والدليل على أن العرب أنطق، وأن لُغتها أوسع، وأن لفظها أدل، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر، والأمثال التي ضُربت فيها أجوَد وأسيَر.

والدليل على أن البديهة مقصورة عليها، وأن الارتجال والاقتضاب خاصٌّ فيها، وما الفرق بين أشعارهم وبين الكلام الذي تُسميه الفُرس والروم شعرًا، وكيف صار النسيب في أشعارهم وفي كلامهم الذي أدخلوه في غنائهم وفي ألحانهم إنما يُقال على ألسنة نسائهم، وهذا لا يُصاب في العرب إلا القليل اليسير، وكيف صارت العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة، فتضع موزونًا على موزون، والعجم تُمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزونًا على غير موزون.

وسنذكُر في الجزء الثاني من أبواب اللحن والعِي والغلط والغفلة أبوابًا ظريفة، ونذكُر فيه النَّوكى من الوجوه، ومجانين العرب، ومن ضُرِب به المَثل منهم، ونوادر من كلامهم، ومجانين الشعراء، لست أعني مثل «مجنون بني عامر» و«مجنون بني جَعدة»، وإنما أعني مثل «أبي حيَّة» في أهل البادية، ومثل «جُعيفِران» في أهل الأمصار، ومثل «أرسيموس» اليوناني.

وسنذكُر أيضًا بقيَّة أسماء الخطباء والنساك، وأسماء الظرفاء والملحاء، إن شاء الله سبحانه وتعالى.

وسنذكر من كلام الحجَّاج وغيره ما أمكننا في بقية هذا الجزء إن شاء الله تعالى.

وقال أبو الحسن المدائني: قال الحجَّاج لأنس بن مالك، حين دخل عليه في شأن ابنه عبد الله، وكان خرج مع ابن الأشعث: لا مرحبًا بك ولا أهلًا، لعنة الله عليك من شيخٍ

جوَّال في الفتنة، مرةً مع أبي تُراب، ومرةً مع ابن الأشعث، والله لأقلعنَّك قلع الصمغة، ولأعصبنَّك عصب السَّلمة، ولأجرِّدنَّك تجريد الضب. قال أنس: مَن يعني الأمير أبقاه الله؟ قال: إيَّاك أعني، أصمَّ الله صداك. قال: فكتب أنس بذلك إلى عبد الملك، فكتب عبد الملك إلى الحجَّاج: بسم الله الرحمن الرحيم، يا ابن المُستفرِمة بعَجَم الزَّبيب، والله لقد همَمتُ أن أركلك برِجلي ركلةً تهوي بها في نار جهنم، قاتَلَك الله، أُخيفشَ العينَين، أصكَّ الرِّجلين، أسود الجاعرتين، والسلام.

وكان الحجَّاج أخيفش، مُسلق الأجفان؛ ولذلك قال إمام بن أرقم النُّميري، وكان الحجَّاج جعله على بعض شُرُط أبان بن مروان ثم حبسه، فلما خرج قال:

طليقُ اللهِ لم يَمنُنْ عليه أبو داودَ وابنُ أبي كثيرِ
ولا الحجَّاجُ عَينَي بِنتِ ماءٍ تُقلِّبُ طَرْفَها حذَرَ الصُّقورِ

لأن طير الماء لا يكون أبدًا إلا مُنسلق الأجفان. والخَفش دون العَمش. والعصب: أن تُعصب الشجرة ذات الشوك بالعِصاب. وأصك الرجلين: تصك إحداهما الأخرى.

وخطب الحجَّاج يومًا فقال في خطبته: والله ما بقي من الدنيا إلا مِثل ما مضى، ولهُوَ أشبه به من الماء بالماء، والله ما أُحبُّ أن ما مضى من الدنيا لي بعمامتي هذه.

المفضَّل بن محمد الضبِّي قال: كتب الحجَّاج إلى قُتيبة بن مُسلم أنِ ابعث إليَّ بالآدم الجعدي الذي يفهمني ويفهم عني. فبعث إليه غدام بن شُتير. فقال الحجَّاج: لله دَرُّه! ما كتبت إليه في أمرٍ قط إلا فهم عني وعرف ما أريد.

قال أبو الحسن وغيره: أراد الحجَّاج الحج، فخطب الناس فقال: أيها الناس، إني أريد الحج، وقد استخلفت عليكم ابني محمدًا هذا، وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله ﷺ في الأنصار. إن رسول الله ﷺ أوصى أن يُقبَل من مُحسِنهم ويُتجاوز عن مُسيئهم، ألا وإني قد أوصيته ألا يَقبَل من مُحسِنكم ولا يتجاوز عن مُسيئكم، ألا وإنكم ستقولون بعدي مقالةً ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتي، ألا وإنكم ستقولون بعدي: لا أحسن الله له الصحابة. ألا وإني معجِّل لكم الإجابة، لا أحسن الله الخلافة عليكم. ثم نزل.

وكان يقول في خطبته: أيها الناس، إن الكفَّ عن مَحارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله.

وقال عمرو بن عُبيد رحمه الله: كتب عبد الملك بن مروان وصية زياد بيده، وأمر الناس بحفظها وتدبُّر معانيها: إن الله عز وجل جعل لعباده عقولًا عاقَبهم بها على معصيته، وأثابهم بها على طاعته؛ فالناس بين مُحسِن بنعمة الله عليه، ومُسيء بخذلان الله إياه، ولله النعمة على المُحسن والحُجة على المُسيء، فما أولى من تمَّت عليه النعمة في نفسه، ورأى العِبرة في غيره، بأن يضع الدنيا بحيث وضعها الله فيُعطي ما عليه منها، ولا يتكثَّر بما ليس له فيها؛ فإن الدنيا دار فناء ولا سبيل إلى بقائها، ولا بد من لقاء الله، فأحذِّركم الله الذي حذَّركم نفسه، وأوصيكم بتعجيل ما أخَّرته العجَزة قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها، فلا تقدروا على توبة، وليس لكم منها أوبة، وأنا أستخلف الله عليكم وأستخلفه منكم.

وقد رُوي هذا الكلام عن الحجَّاج، وزيادٌ أحق به منه.

(٢٠) باب ما ذكروا فيه من أن أثر السيف يمحو أثر الكلام

قال جرير:

يُكلِّفُني ردَّ العواقبِ بعد ما ... سبَقنَ كسَبقِ السيفِ ما قالَ عاذِلُه

وقال الكُميت بن معروف:

خُذوا العقلَ إنْ أعطاكم العقلَ قومُكم ... وكُونوا كمن سِيمَ الهوانَ فأربَعا
ولا تُكثِروا فيه الضِّجاجَ فإنَّه ... محا السيفُ ما قالَ ابنُ دارةَ أجمَعا

والمثل السائر من قبل هذا: سبَقَ السيفُ العَذَل.

ومن أهل الأدب «زكريا بن درهم»، مولى بني سُليم بن منصور، صاحب سعيد بن عمرو الحرشي، وزكريا هو الذي يقول:

لا تُنكِروا لسعيدٍ فضْلَ نعمتِه ... لا يَشكُرُ اللهَ من لا يَشكُرُ النَّاسا

ومن أهل الأدب ممن وجَّهه هشام إلى الحرشي «السُّرادق بن عبد الله السَّدوسي» الفارسي، ولما ظفِر سَلْم بن قُتيبة بالأزد كان من الجند في دور الأزد انتهاب وإحراق وآثار قبيحة، فقام شبيب بن شيبة إلى سلم بن قتيبة فقال: أيها الأمير، إن هُريم بن عدي بن أبي طَحمة — وكان غير مِنطيق — قال ليزيد بن عبد الملك في شأن

المهالبة: يا أمير المؤمنين، إنا والله ما رأينا أحدًا ظلم ظلمك، ولا نصر نصرك، فافعل الثالثة نقُلْها.

قال الهيثم بن عدي: قام «عبد الله بن الحجَّاج» التغلبي إلى عبد الملك بن مروان، وقد كان أراد الاتصال به، وقد كان عبد الملك حنِقًا عليه، فأقام ببابه حولًا لا يصل إليه، ثم ثار في وجهه في بعض رَكباته فقال:

أدنُو لتَرحمَني وتَرتُقَ خَلَّتي ... وأراكَ تَدفعُني فأينَ المَدفَعُ

فقال عبد الملك: إلى النار. فقال:

ولقد أذَقتَ بني سعيدٍ حَرَّها ... وابنَ الزُّبيرِ فرأسُه مُتضعضِعُ

فقال عبد الملك: قد كان بعض ذاك، وأنا أستغفر الله.

وقال أبو عُبيدة: كان بين الحجَّاج وبين «العُدَيل بن فَرْخ» العجلي بعض الأمر، فتوعَّده الحجَّاج بالقتل، فقال العُديل:

أُخوَّفُ بالحجَّاجِ حتَّى كأنَّما ... يُحرَّكُ عَظمٌ في الفؤادِ مَهِيضُ
ودُونَ يدِ الحجَّاجِ من أنْ تَنالَني ... بِساطٌ لأيدي اليَعمُلاتِ عَريضُ
مَهامِهُ أشباهٌ كأنَّ سَرابَها ... مُلاءٌ بأيدي الغاسلاتِ رَحيضُ

ثم ظَفِر به الحجَّاج فقال له: يا عُدَيل، هل نجَّاك بساطك العريض؟ فقال: أيها الأمير، أنا الذي أقول فيك:

ولو كنتُ بالعَنْقاءِ أو بأسُومِها ... لكانَ لحجَّاجٍ عليَّ دليلُ
خليلُ أميرِ المؤمِنِينَ وسيفُه ... لكلِّ إمامٍ مُصطفًى وخليلُ
بنى قُبَّةَ الإسلامِ حتَّى كأنَّما ... هدى الناسَ من بعدِ الضلالِ رَسولُ

فقال له الحجاج: اربح نفسك، واحقن دمك، وإيَّاك وأختها؛ فقد كان الذي بيني وبين قتلك أقصَرَ من إبهام الحُبارى.

قال أبو الحسن: وقام الوليد بن عُتبة بن أبي سفيان خطيبًا بالمدينة، وكان والِيَها، يَنْعى معاوية ويدعو إلى بيعة يزيد، فلما رأى رَوح بن زِنباع إبطاءهم قال: أيها الناس، إنا لا ندعوكم إلى لخم وجُذام وكلب، ولكنا ندعوكم إلى قريش ومن جعل الله له هذا

الأمر واختصَّه به، وهو يزيد بن معاوية، ونحن أبناء الطعن والطاعون وفضلات الموت، وعندنا إن أجبتم وأطعتم من المعونة والفائدة ما شئتم. فبايَع الناس.

قال: وخطب إبراهيم بن إسماعيل، من ولد المُغيرة المخزومي، فقال:

أنا ابنُ الوغى من شاء أحزَرَ نفسه «صقرًا يلوذُ حَمامُه بالعَرفَجِ»

ثم قال:

استوثِقي أحمِرةَ الوَجِينْ سَمِعنَ حِسَّ أسدٍ حَرُونْ
فهنَّ يَضرِطنَ ويَنتزِينْ

ثم قال: والله إني لأُبغض القرشيَّ أن يكون فظًّا، يا عجبًا لقومٍ يُقال لهم: من أبوكم؟ فيقولون: أمُّنا من قريش. فتكلم رجل من عُرْض الناس وهو يخطب، فقال له غيره: صه؛ فإن الإمام يخطب. فقال: إنما أُمِرنا بالإنصات عند قراءة القرآن، لا عند ضُراط أحمِرة الوجين.

وقال آخر: سمعت «ابن هُبيرة» على هذه الأعواد وهو يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من عدوٍّ يَسري، ومن جليسٍ يفري، ومن صديقٍ يُطري.

قال أبو الحسن: كان «نافع بن علقمة» بن نضلة بن صفوان بن مُحرث، خال مروان، واليًا على مكة والمدينة، وكان شاهرًا سيفه لا يُغمده، وبلَغه أن فتًى من بني سهم يذكُره بكل قبيح، فلما أُتي به وأمر بضرب عنقه قال الفتى: لا تَعجلْ عليَّ، ودعني أتكلَّم. قال: أوَبِك كلام؟ قال: نعم وأزيد. يا نافع وُليت الحرمين تحكم في دمائنا وأموالنا، وعندك أربع عقائل من العرب، وبنيت ياقوتة بين الصفا والمروة — يعني داره — وأنت نافع بن علقمة بن نضلة بن صفوان بن محرث، أحسن الناس وجهًا، وأكرمهم حسبًا، وليس لنا من ذلك إلا التراب، فلم نحسدك على شيء منه ولم ننفسه عليك، ونفِست علينا أن نتكلم؟! فقال: تكلَّمْ حتى ينفكَّ فكَّاك.

علي بن مجاهد، عن جعد بن أبي الجعد، قال صعصعة بن صوحان: ما أعياني جوابُ أحدٍ ما أعياني جواب عثمان، دخلت عليه فقلت له: أُخرِجنا من ديارنا وأموالنا أن قلنا ربنا الله. قال: نحن الذين أخرجنا من ديارنا وأموالنا أن قلنا ربنا الله؛ فمنا من مات بأرض الحبشة، ومنا من مات بالمدينة.

وقال الحجَّاج على مِنبره: والله لألحُوَنَّكم لَحْو العصا، ولأعصبنَّكم عَصْب السَّلَمة، ولأضربنَّكم ضرب غرائب الإبل. يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، إني سمعت تكبيرًا ليس بالتكبير الذي يُراد به الله في الترغيب، ولكنه التكبير الذي يُراد به الترهيب، وقد عرفت أنها عَجاجةٌ تحتها قصفُ فتنة. أيْ بَني اللكيعة، وعبيد العصا، وبني الإماء، والله لئن قرعت عصًا لأتركنَّكم كأمس الدابر.

مالك بن دينار قال: ربما سمعت الحجَّاج يخطب ويذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق؛ لبيانه وحسن تخلُّصه بالحُجج.

وقسَّم الحجاج مالًا، فأعطى منه مالك بن دينار فقَبِل، وأراد أن يدفع منه إلى حبيبٍ أبي محمد فأبى أن يقبل منه شيئًا، ثم مر حبيب بمالك، وإذا هو يقسِّم ذلك المال، فقال له مالك: أبا محمد، لهذا قبِلناه. فقال له حبيب: دعني مما هناك، أسألك بالله، آلحجَّاج اليوم أحبُّ إليك أم قبل اليوم؟ قال: بل اليوم. فقال حبيب: فلا خير في شيء حبَّب إليك الحجَّاج.

ومر «غَيلان بن خَرَشة» الضبِّي مع «عبد الله بن عامر» على نهر عبد الله الذي يشقُّ البصرة، فقال عبد الله: ما أصلَحَ هذا النهرَ لأهل هذا المِصر! فقال غيلان: أجَل أيها الأمير، يعلِّم القوم فيه صِبيانهم السباحة، ويكون لشفاههم ومسيل مياههم، وتأتيهم فيه مِيرتهم. قالوا: ثم مر غيلان يُساير زيادًا على ذلك النهر، وكان قد عادى ابن عامر، فقال زياد: ما أضرَّ هذا النهرَ بأهل هذا المِصر! فقال غيلان: أجَل والله أيها الأمير، تنزُّ منه دُورهم، ويغرق فيه صِبيانهم، ومن أجله تَكثُر بعوضهم.

فالذين كرِهوا البيان إنما كرهوا مِثل هذا المذهب، فأما نفس حسن البيان فليس يذمُّه إلا من عجز عنه، ومن ذم البيان مدح العِي، وكفى بذلك جهلًا وخبالًا.

ولخالد بن صفوان في الجبن المأكول كلامٌ ذهب فيه شبيهًا بهذا المذهب.

ورجع طاوس عن مجلس محمد بن يوسف، وهو يومئذٍ والي اليمن، فقال: ما ظننت أن قول «سبحان الله» يكون معصية لله حتى كان اليوم، سمعت رجلًا أبلغ ابنَ يوسف عن رجل كلامًا، فقال له رجل في المجلس «سبحان الله»، كالمستعظِم لذلك الكلام، فغضب ابن يوسف.

قال أبو الحسن وغيره: دخل يزيد بن أبي مسلم على سليمان بن عبد الملك، وكان دميمًا، فلما رآه قال: على رجلٍ أجَرَّك رَسَنك وسلَّطك على المسلمين لعنةُ الله. فقال: يا أمير المؤمنين، إنك رأيتني والأمرُ عني مُدبِر، ولو رأيتني والأمر عليَّ مُقبِل لاستعظمت

من أمري ما استصغرت. فقال سليمان: أفَتَرى الحجَّاج بلَغ قعر جهنم بعدُ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، يجيء الحجَّاج يوم القيامة بين أبيك وأخيك، قابضًا على يمين أبيك وشمال أخيك، فضعه من النار حيث شئت.

وذكر يزيد بن المهلَّب يزيد بن أبي مُسلم بالعِفَّة عن الدينار والدرهم، وهمَّ أن يستكفيَه مهمًّا من أمره، فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ألا أدلُّك على من هو أزهد في الدينار والدرهم منه وهو شرُّ الخلق؟ قال: بلى. قال: إبليس.

وقال أُسيلِم بن الأحنف للوليد بن عبد الملك قبل أن يُستخلف: أصلح الله الأمير، إذا ظننت ظنًّا فلا تُحققه، وإذا سألت الرجال فسَلْهم عما تعلم، فإذا رأوا سرعة فهمك لما تَعلَم ظنُّوا بك ذلك فيما لا تعلم، ودُسَّ من يسأل لك عما لا تعلم.

وكان أُسيلم بن الأحنف الأسدي ذا بيانٍ وأدب وعقل وجاه، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

ألا أيُّها الرَّكبُ المُجِثُّون هل لكم ... بسيِّدِ أهلِ الشام تُحبَوا وترجعوا؟
أُسَيلِمُ ذاكم لا خفا بمكانِه ... لعَينٍ تَدجَّا أو لأُذنٍ تَسمَّعُ
من النَّفَرِ البِيضِ الذين إذا انتمَوا ... وهابَ الرجالُ حَلْقَةَ البابِ قَعقَعوا
جلا الأذفَرُ الأحوى من المِسكِ فَرْقَه ... وطِيبُ الدِّهانِ رأسَه فهْو أنزَعُ
إذا النَّفَرُ السُّودُ اليمانونَ حاوَلوا ... له حَوكَ بُردَيه أرقُّوا وأوسعوا

وهذا الشعر من أشعار الحفظ والمذاكرة.

الهيثم بن عدي قال: قَدِمت وُفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعدما استُخلف، فأمرهم بشتم الحجَّاج، فقاموا يشتمونه، فقال بعضهم: إن عدوَّ الله الحجَّاج كان عبدًا زبَّابًا، قَنوَّر ابن قَنوَّر، لا نسب له في العرب. قال سليمان: أيُّ شتمٍ هذا؟ إن عدوَّ الله الحجَّاج كتب إليَّ: إنما أنت نقطة من مِداد، فإن رأيت فيَّ ما رأى أبوك وأخوك كنتُ لك كما كنت لهما، وإلا فأنا الحجَّاج وأنت النقطة، فإن شئتُ محَوتُك وإن شئتُ أثبتُك. فالْعَنوه لعنه الله. فأقبل الناس يلعنونه، فقام ابن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فقال: يا أمير المؤمنين، إنا نُخبرك عن عدو الله بعلم. قال: هات. قال: كان عدوُّ الله يتزيَّن تزيُّن المُومِسة، ويصعد المِنبر فيتكلم بكلام الأخيار، فإذا نزل عَمِل عَمَل الفراعنة، وأكذب في حديثه من الدجَّال. فقال سليمان لرجاء بن حَيوة: هذا وأبيك الشتم، لا ما تأتي به السفلة.

وعن عوانة قال: قطع ناس من عمرو بن تميم وحنظلة على الحجَّاج بن يوسف، فكتب إليهم: من الحجَّاج بن يوسف، أما بعد، فإنكم استخلصتم الفتنة، فلا عن حقٍّ تُقاتلون، ولا عن منكرٍ تنهوَن. وايم الله، إني لأهُمُّ أن يكون أولَ ما يَرِد عليكم من قِبلي خيلٌ تنسف الطارف والتالد، وتدع النساء أيامى، والأبناء يتامى، والديار خرابًا، والسواد بياضًا. فأيُّما رفقةٍ مرَّت بأهل ماء فأهل ذلك الماء ضامنون لها حتى تصير إلى الماء الذي يليه، تقدمةً مني إليكم، والسعيد من وُعظ بغيره. والسلام.

مَسلمة بن مُحارب قال، كان الحجَّاج يقول: أخطَبُ الناس صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة، إذا شاء خطب، وإذا شاء سكت.

يعني الحسن. يقول: إنه لم يُنصب نفسه للخطب.

ولما اجتمعت الخطباء عند معاوية في شأن يزيد وفيهم الأحنف، قام رجل من حِمير فقال: إنا لا نُطيق أفواه الكمال — يريد الجمال — عليهم المقال، وعلينا الفعال.

وهذا من الحِميري يدل على تشادُق خطباء نِزار.

سفيان بن عُيينة قال، قال ابن عبَّاس: إذا ترك العالم قول «لا أدري» أُصيبت مَقاتله. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: من قال «لا أدري» فقد أحرز نصف العلم. لأن الذي له على نفسه هذه القوة فقد دلَّنا على جودة التثبت، وكثرة الطلب، وقوة المُنة.

وقيل للمسيح ابن مريم صلوات الله عليه: من نُجالس؟ قال: من يزيد في عِلمكم مَنطقُه، وتُذكِّركم اللهَ رؤيتُه، ويرغِّبكم في الآخرة عمله. ومر المسيح بقوم يبكون فقال: ما لهؤلاء يبكون؟ قالوا: يخافون ذنوبهم. قال: اتركوها يُغفر لكم.

قال الوصافي: دخل الهيثم بن الأسود بن العُريان، وكان خطيبًا شاعرًا، على عبد الملك بن مروان فقال له: كيف نجدك؟ قال: أجدني قد ابيضَّ مني ما كنت أُحبُّ أن يَسودَّ، واسودَّ مني ما كنت أُحبُّ أن يَبيضَّ، واشتدَّ مني ما كنت أُحبُّ أن يلين، ولانَ مني ما كنت أُحبُّ أن يشتد. ثم أنشد:

اسمَعْ أُنبِّئْكَ بآياتِ الكِبَرْ ... نَومُ العِشاءِ وسُعالٌ بالسَّحَرْ
وقِلَّةُ النَّوم إذا الليلُ اعتكَرْ ... وقِلَّةُ الطَّعمِ إذا الزَّادُ حَضَرْ
وسُرعةُ الطَّرفِ وتَحميجُ النَّظَرْ ... وحَذرًا أزدادُه إلى حَذَرْ
وتَركِيَ الحَسناءَ في قَبلِ الطُّهُرْ ... والنَّاسُ يَبلَونَ كما يَبْلى الشَّجَرْ

وقالوا: مُروا الأحداث بالمِراء، والكهول بالفكر. وقال عبد الله بن الحسين: المِراء رائد الغضب؛ فأخزى الله عقلًا يأتيك به الغضب.

وقالوا: أربعة تشتدُّ معاشرتهم؛ الرجل المُتواني، والرجل العالم، والفرس المَرِح، والملك الشديد المملكة. وقال غازٍ أبو مجاهد يُعارضه: أربعة تشتدُّ مؤنتهم؛ النديم المُعربد، والجليس الأحمق، والمغنِّي التائه، والسفلة إذا نفروا.

وقال أبو شِمر الغسَّاني: أقبل عليَّ فلان باللحظ واللفظ، وما الكلام إلا زجر أو وعيد.

قال عُمير بن الحُباب، وروى ذلك عنه مِسعر: ما أغَرتُ على حي في الجاهلية أحزَمَ امرأةً ولا أعجز رجلًا من كلب، وأحزم رجلًا وأعجز امرأةً من تغلب. وقامت امرأة من تغلب إلى الجحَّاف بن حكيم — حين أوقع بالبشر فقتل الرجال وبقر بطون النساء — فقالت له: فضَّ الله فاك، وأصمَّك وأعماك، وأطال سُهادك، وأقلَّ رُقادك؛ فوالله إن قتلتَ إلا نساءً أسافلُهن دُميٌّ، وأعاليهن ثُديٌّ. فقال الجحَّاف لمن حوله: لولا أن تلد مِثلَها لخلَّيت سبيلها. فبلغ ذلك الحسن فقال: إنما الجحَّاف جذوة من نار جهنم.

وكان عامر بن الظَّرِب العَدواني حكيمًا، وكان خطيبًا رئيسًا، وهو القائل: يا معشر عدوان، إن الخير ألوفٌ عَزوف، ولن يُفارق صاحبه حتى يُفارقه، وإني لم أكن حكيمًا حتى اتبعت الحكماء، ولم أكُ سيِّدكم حتى تعبَّدت لكم.

وقال أعشى بني شيبان:

ولا أنا في أمْري ولا في خليقتي ... بمُهتضَمٍ حقِّي ولا قارِعٍ سِنِّي
ولا مُسلِمٍ مولاي من شرٍّ ما جنى ... ولا خائفٍ مولايَ من شرِّ ما أجْني
وإنَّ فؤادًا بيْن جَنبيَّ عالِمٌ ... بما أبصرتْ عَيني وما سَمِعتْ أُذْني
وفضَّلَني في العقلِ والشِّعرِ أنَّني ... أقولُ بما أهوى وأعرِفُ ما أعني

وقال رجل من ولد العبَّاس: ليس ينبغي للقُرشي أن يستغرق في شيء من العلم إلا علم الأخبار، فأما غير ذلك فالنُّتف والشذر من القول.

وقال آخر:

وصافيةٍ تُعشِي العُيونَ رقيقةٍ ... رهينةِ عامٍ في الدِّنانِ وعامِ
أدَرْنا بها الكاسَ الرويَّةَ بيْنَنا ... من الليلِ حتى انجابَ كلُّ ظلامِ
فما ذرَّ قرنُ الشمسِ حتى كأنَّنا ... من العِيِّ نحكي أحمدَ بنَ هشامِ

ومر رجل من قريش بفتًى من ولد عتَّاب بن أسيد وهو يقرأ كتاب سيبويه، فقال: أف لكم، عِلم المؤدِّبين وهِمة المُحتاجين! وقال ابن عتَّاب: يكون الرجل نحويًّا عَروضيًّا، وقسَّامًا فرضيًّا، وحسن الكتاب، جيِّد الحساب، حافظًا للقرآن، راوية للشعر، وهو يرضى أن يُعلِّم أولادنا بستِّين درهمًا. ولو أن رجلًا كان حسن البيان، حسن التخريج للمعاني، ليس عنده غير ذلك، لم يرضَ بألف درهم.

لأن النحوي الذي لا إمتاع عنده كالنجَّار الذي يُدعى ليعلِّق بابًا وهو أحذق الناس ثم يفرغ من تعليقه ذلك الباب، فيُقال له: انصرِف. وصاحب الإمتاع يُراد في الحالات كلها.

وقال عبد الله بن يزيد السُّفياني: عوِّد نفسك الصبر على جليس السوء؛ فإنه لا يكاد يُخطئك. وقال سهل بن عبد العزيز: من ثقل عليك بنفسه، وغمَّك في سؤاله، فألزِمْه أذنًا صمَّاء، وعينًا عمياء. سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، قال: كان أبو هريرة إذا استثقل رجلًا قال: اللهم اغفر له وأرِحْنا منه. وقال ابن أبي أميَّة:

شَهِدتُ الرَّقاشيَّ في مَجلِسٍ وكانَ إليَّ بَغيضًا مَقيتا
فقالَ اقترِحْ كلَّ ما تَشتهي فقلتُ اقترحتُ عليك السُّكوتا

وقال ابن عبَّاس: العلم أكثر من أن يُحصى، فخُذوا من كل شيء أحسَنَه.

المدائني، عن العبَّاس بن عامر، قال: خطب محمد بن الوليد بن عتبة إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله أخته، فقال: الحمد لله رب العزة والكبرياء، وصلَّى الله على محمدٍ خاتم الأنبياء. أما بعد، فقد أحسن بك ظنًّا من أودَعك حُرْمته، واختارك ولم يختَر عليك، وقد زوَّجْناك على ما في كتاب الله؛ إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان.

وخطب أعرابي وأعجله القول وكرِه أن تكون خطبته بلا تحميد ولا تمجيد، فقال: الحمد لله، غير مَلَال لذِكر الله، ولا إيثار غيره عليه. ثم ابتدأ القول في حاجته.

وسأل أعرابي ناسًا فقال: جعل الله حظكم في الخير، ولا جعل حظ السائل منكم عِذرةً صادقة.

وكتب إبراهيم بن سيابة إلى صديق له كثير المال، كثير الدَّخل، كثير النض، إما مُستسلفًا وإما سائلًا، فكتب إليه الرجل: العيال كثير، والدَّين ثقيل، والدَّخل قليل، والمال مكذوب عليه. فكتب إليه إبراهيم: إن كنت كاذبًا فجعلك الله صادقًا، وإن كنت محجوجًا فجعلك الله محذورًا.

وقال الشاعر:

لعلَّ مُفيداتِ الزَّمانِ يُفِدنَني ... بَنِي صامتٍ في غيرِ شيءٍ يَضِيرُها

وقال أعرابي: اللهم لا تُنزلني ماء سوء فأكون امرأ سوء. وقال أعرابي: اللهم قِني عثرات الكرام. وسمع مُجاشع الرَّبعي رجلًا يقول: الشحيح أعذر من الظالم. فقال: أخزى الله شيئين خيرُهما الشُّح.

وأنشدنا أبو فروة:

إنِّي مَدحتُك كاذبًا فأثَبتَني ... لمَّا مدحتُك ما يُثابُ الكاذبُ

وأنشد علي بن معاذ:

ثالَبَني عمرٌو وثالَبتُه ... فأثِمَ المَثلوبُ والثالبُ
قلتُ له خيرًا وقال الخنا ... كلٌّ على صاحِبِه كاذبُ

أبو معشر، قال: لما بلَغ عبدَ الله بن الزبير قتلُ عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد، قام خطيبًا فقال: إن أبا ذِبَّان قتل لطيم الشيطان، كذلك نولِّي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون.

ولما جلس عثمان بن عفان، رضي الله تعالى عنه، على المنبر قال: يا أيها الناس، إن الله قد فتح عليكم إفريقية، وقد بعث إليكم ابن أبي سرح عبدَ الله بن الزبير بالفتح. قم يا ابن الزبير. قال: فقمت وخطبت، فلما نزلت قال: يا أيها الناس، أنكحوا النساء على آبائهن وأخواتهن؛ فإني لم أرَ لأبي بكر الصدِّيق ولدًا أشبه به من هذا.

وقال الجرمي:

وأعدَدتُه ذُخرًا لكلِّ مُلِمَّةٍ ... وسهمُ المنايا بالذخائرِ مُولَعُ

وذكر أبو العَيزار جماعة من الخوارج بالأدب والخطب:

ومُسوِّمٍ للموتِ يَركَبُ دِرعَه ... بينَ القواضبِ والقنا الخطَّارِ
يَدنو وترفعُه الرِّماحُ كأنَّه ... شِلوٌ تَنشَّبَ في مَخالبِ ضارِ
فثَوى صريعًا والرِّماحُ تَنُوشُه ... إنَّ الشُّراةَ قصيرةُ الأعمارِ
أُدباءُ إمَّا جئتُهم خطباءُ ... ضُمناءُ كلِّ كتيبةٍ جرَّارِ

ولما خطب «سفيان بن الأبرد» الأصم الكلبي، فبلغ في الترغيب والترهيب المبالغ، ورأى «عبد الله بن هلال اليشكري» أن ذلك قد فتَّ في أعضاد أصحابه، أنشأ يقول:

لَعَمرِي لقد قامَ الأصمُّ بخُطبةٍ لها في صُدورِ المُسلِمين غليلُ
لَعَمرِي لئن أعطيتُ سُفيانَ بَيْعتي وفارَقتُ دِيني إنَّني لَجَهُولُ

فت في عضدي: أي غرَّني وخوَّفني.

وقال أحد الخطباء الذين تكلَّموا عند الإسكندر ميتًا: كان أمسِ أنطَقَ منه اليوم، وهو اليوم أوعَظُ منه أمس. فأخذ أبو العتاهية هذا المعنى بعينه فقال:

بَكَيتُك يا عليُّ بِدَرِّ عَيْني فلَمْ يُغنِ البُكاءُ عليك شَيَّا
طوَتْكَ خُطوبُ دَهرِك بعدَ نَشرٍ كذاك خُطوبُه نَشرًا وطيَّا
كفى حُزنًا بدَفنِك ثُم إنِّي نفَضتُ تُرابَ قَبرِك من يديَّا
وكانت في حياتِك لي عِظاتٌ وأنتَ اليومَ أوعَظُ مِنكَ حيًّا

ومن الأسجاع الحسنة قول الأعرابية لابنها حين خاصَمته إلى عامل الماء: أمَا كان بطني لك وعاءً؟ أمَا كان حجري لك فِناءً؟ أمَا كان ثديي لك سقاءً؟ فقال ابنها: أصبحتِ خطيبة، رضي الله تعالى عنك.

لأنها قد أتت على حاجتها بالكلام الوجيز المُتخير كما يبلغ ذلك الخطيب بخطبته.

وقال النَّمر بن تَولب:

وقالت ألا فاسمَعْ للَفْظي وخُطبتي فقلتُ سَمِعْنا فانطِقي وأصِيبي
فلمْ تَنطِقي حقًّا ولستِ بأهلِه فقُبِّحتِ ممَّا قائلٍ وخطيبِ

وقال أبو عياد كاتب أبي خالد: ما جلس أحدٌ قط بين يديَّ إلا تَمثَّل لي أني سأجلس بين يدَيه.

قال الله عز وجل: ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾. ليس يريد بلاغة اللسان، وإن كان اللسان لا يبلغ من القلوب حيث يريد إلا بالبلاغة.

وكانت خطبة قريش في الجاهلية، يعني خطبة النساء: باسْمِك اللهم، ذكرت فلانة وفلان بها مشغوف. باسِمك اللهم، لك ما سألت ولنا ما أعطيت.

ولما مات عبد الملك بن مروان صَعِد المِنبر الوليد ابنه، فحَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: لم أرَ مِثلها مُصيبةً، ولم أرَ مِثلها ثوابًا؛ موت أمير المؤمنين، والخلافة بعده. إنا لله وإنا إليه راجعون على المصيبة، والحمد لله على النعمة. انهضوا فبايِعوا على بركة الله، رحمكم الله. فقام إليه عبد الله بن همَّام فقال:

اللهُ أعطاكَ التي لا فوقَها ... وقد أرادَ المُلحِدونَ عَوقَها
عنكَ ويأبى اللهُ إلا سَوقَها ... إليكَ حتَّى قلَّدوك طَوقَها

فبايَع الناس.

وقيل لعمرو بن العاص في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك؟ قال: أجدني أذوب ولا أثوب، وأجد نجوي أكثر من رُزئي، فما بقاء الشيخ على ذلك؟

وقيل لأعرابي كانت به أمراضٌ عِدَّة: كيف تجدك؟ قال: أما الذي يَعمِدني فحُصْر وأُسْر.

وقال مُقاتل: سمعت يزيد بن المهلَّب يخطب بواسط، فقال: يا أهل العراق، يا أهل السبق والسباق، ومَكارم الأخلاق، إن أهل الشام في أفواههم لقمةٌ دسِمة قد رُتبت لها الأشداق، وقاموا لها على ساق، وهم غير تاركيها لكم بالمِراء والجدال؛ فالْبَسوا لهم جلود النُّمور.

(انتهى الجزء الأول ويتلوه الجزء الثاني، وأوله «استدراك وتكميل لترجمة الجاحظ».)

الجزء الثاني

استدراك وتكميل

لترجمة الجاحظ المصدَّر بها الجزء الأول

كان من أثر العجلة التي دفعتنا إلى تسليم ترجمة الجاحظ إلى الطابع أن سقطت منها أوراق لم يفطن إليها لعدم شهودنا تجارب الطبع، فرأينا أن نستدركها ها هنا، وجُلُّها مما لخَّصناه عن كتاب «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب» المعروف بـ «معجم الأدباء» لمؤلِّفه «ياقوت الرومي»، مع ما اقتبسناه من كتاب «الكامل» لأبي العبَّاس «محمد بن يزيد المُبرد» وغيره من الكُتب، وأن ننشره على نسق ذلك القسم وتنسيقه ليؤلف ذلك ترجمةً تامة كاملة لهذا الكاتب العظيم، وسنُخلي هذا القسم مما ذُكِر في القسم الأول إلا ما كان فيه زيادة بيان أو فضل إيضاح.

(١) نسبه وكنيته وأوليته

كان الجاحظ مولًى لأبي القلمس عمرو بن قلع الكناني. قال يموت بن المزرع: الجاحظ خال أمي، وكان جده أسود يُقال له فزارة، وكان جمَّالًا لعمرو بن قلع الكناني. وقال المرزباني، حدَّث المادي قال: حدَّثني من رأى الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان.

(٢) مقامه ومنزلته

قال أبو حيَّان التوحيدي في كتابه الذي ألَّفه في «تقريظ الجاحظ»: حدَّثني أبو سعيد السيرافي — وهمَّك من رجل، وناهيك من عالِم، وشرعك من صدوق — قال، حدَّثنا جماعة

من الصابئين الكُتاب أن ثابت بن قُرَّة قال: ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفُس:

أولهم: عمر بن الخطاب في سياسته ويقظته، وحذره وتحفُّظه، ودينه ويقينه، وجزالته وبذالته، وصرامته وشهامته، وقيامه في صغير أمره وكبيره بنفسه، مع قريحة صافية، وعقل وافر، ولسان عضب، وقلب شديد، وطويَّة مأمونة، وعزيمة مأمومة، وصدر مُنشرح، وبال مُنفسح، وبديهة نضوح، ورويَّة لقوح، وسر طاهر، وتوفيق حاضر، ورأي مُصيب، وأمر عجيب، وشأن غريب. دعم الدين وشيَّد بُنيانه، وأحكم أساسه ورفع أركانه، وأوضح حجته وأنار بُرهانه. ملِكٌ في زي مِسكين، ما جنح في أمر إلى ونى، ولا غض طرفه على خنا. ظهارته كالبطانة، وبطانته كالظهارة. جرح وأسا، ولان وقسا، ومنع وأعطى، واستخذى وسطا.

كل ذلك في الله ولله. لقد كان من نوادر الرجال.

والثاني: الحسن بن أبي الحسن البصري؛ فلقد كان من دراري النجوم علمًا وتقوى، وزهدًا وورعًا، وعِفَّة ورِقَّة، وتألُّهًا وتنزُّهًا، وفقهًا ومعرفة، وفصاحة ونصاحة. مواعظه تصل إلى القلوب، وألفاظه تلتبس بالعقول، وما أعرف له ثانيًا، لا قريبًا ولا مُدانيًا. كان منظره وفق مَخبره، وعلانيته في وزن سريرته. عاش سبعين سنةً لم يُقرَف بمقالةٍ شنعاء، ولم يُزَن برِيبة ولا فحشاء. سليم الدين، نقي الأديم، محروس الحريم، يجمع مجلسه ضروبًا من الناس، وأصناف اللباس؛ لما يوسعهم من بيانه، ويفيض عليهم بافتنانه؛ هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يُلقَّن منه التأويل، وهذا يسمع الحلال والحرام، وهذا يتبع في كلامه، وهذا يجرِّد له المقالة، وهذا يحكي له الفُتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء، وهذا يسمع الموعظة، وهو في جميع هذا كالبحر العجَّاج تدفقًا، وكالسراج الوهَّاج تألقًا. ولا تنسَ مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الأمراء وأشباه الأمراء بالكلام الفصل، واللفظ الجزل، والصدر الرحب، والوجه الصلب، واللسان العضب، كالحجَّاج وفلان وفلان، مع شارة الدين، وبهجة العلم، ورحمة التُّقى. لا تثنيه لائمة في الله، ولا تُذهله رائمة عن الله. يجلس تحت كرسيه قتادةُ صاحب التفسير، وعمرو وواصل صاحبا الكلام، وابن أبي إسحاق صاحب النحو، وفَرقد السبخي صاحب الدقائق، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم.

فمن ذا مِثله، ومن ذا يجري مَجراه؟

والثالث: أبو عثمان الجاحظ، خطيب المسلمين، وشيخ المُتكلمين، ومِدره المُتقدمين والمُتأخرين. إن تكلَّم حكى سحبان في البلاغة، وإن ناظَر ضارَع النظَّام في الجدال، وإن جدَّ خرج في مَسكِ عامر بن عبد قيس، وإن هزل زاد على مزيد حبيب القلوب، ومَراح الأرواح، شيخ الأدب، ولسان العرب. كُتُبه رياضٌ زاهرة، ورسائله أفنانٌ مُثمرة. ما نازَعه مُنازع إلا رشاه آنفًا، ولا تعرَّض له منقوص إلا قدَّم له التواضع استبقاءً. الخلفاء تعرفه، والأمراء تُصافيه وتُنادمه، والعلماء تأخذ عنه، والخاصة تسلِّم له، والعامة تُحبه. جمع بين اللسان والقلم، وبين الفِطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنَّظم، وبين الذكاء والفهم. طال عمره، وفشت حكمته، ووطئ الرجال عقبه، وتهادَوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه، ونجحوا بالاقتداء به.

لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب.

هذا قول ثابت، وهو قول صابئ لا يرى للإسلام حُرمة، ولا للمسلمين حقًّا، ولا يوجب لأحد منهم ذِمامًا، قد انتقد هذا الانتقاد، ونظر هذا النظر، وحكم هذا الحكم، وأبصر الحق بعينٍ لا غشاوة عليها من الهَول، ونفس لا لطخ بها من التقليد، وعقل ما تحيَّل بالعصبية. ولسنا نجهل مع ذلك فضل غير هؤلاء من السلف الطاهر، والخلف الصالح، ولكنا عجبنا فضل عجب من رجل ليس منا، ولا من أهل مِلَّتنا ولُغتنا، ولعله ما خبر عمر بن الخطاب كل الخبرة، ولا استوعب كل ما للحسن من المَنقبة، ولا وقف على جميع ما لأبي عثمان من البيان والحكمة، يقول هذا القول، ويَعجب هذا العَجب، ويحسد أمَّتنا بهم هذا الحسد، ويختم كلامه بأبي عثمان، ويصفه بما يأبى الطاعن عليه أن يكون له شيء منه، ويغضب إذا ادُّعي ذلك له، وأنه للموفر عليه، هل هذا إلا الجهل الذي يُرحم المبتلى به؟

وقال أبو الفضل بن العميد: ثلاثة علوم الناسُ كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفُس؛ أما الفقه فعلى أبي حنيفة؛ لأنه دوَّن وخلَّد ما جعل من يتكلم فيه بعده مُشيرًا إليه، ومُخبرًا عنه. وأما الكلام فعلى أبي الهُذيل. وأما البلاغة والفصاحة واللَّسَن والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ.

وقال أبو محمد الحسن بن عمرو النجيرمي: كنت بالأندلس فقيل لي: إن ها هنا تلميذًا لأبي عثمان الجاحظ يُعرَف بسلَّام بن يزيد، ويُكنى أبا خلف. فأتيته فرأيت شيخًا هِمًّا، فسألته عن سبب اجتماعه مع أبي عثمان ولم يقع أبو عثمان إلى الأندلس. فقال: كان طالب العلم بالمشرق يَشرُف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان، فوقع إلينا كتاب

«التربيع والتدوير» له فأشاروا إليه، ثم أردفه عندنا كتاب «البيان والتبيين» له، فبلَغ الرجل الصكاك بهذين الكتابين. قال: فخرجت لا أعرِّج على شيء حتى قصدت بغداد فسألت عنه، فقيل: هو بسُرَّ من رأى. فأصعدت إليها فقيل لي: قد انحدر إلى البصرة. فانحدرت إليه وسألت عن منزله، فأُرشدت ودخلت إليه فإذا هو جالس وحوالَيه عشرون صبيًّا ليس فيهم ذو لحية غيره، فدُهشت فقلت: أيُّكم أبو عثمان؟ فرفع يده وحرَّكها في وجهي وقال: من أين؟ قلت: من الأندلس. فقال: طينةٌ حمقاء. فما الاسم؟ قلت: سلام. قال: اسم كلب القراد. ابن من؟ قلت: ابن يزيد. قال: بحق ما صِرت، أبو من؟ قلت: أبو خلف. قال: كُنية قرد زبيدة. ما جئت تطلب؟ قلت: العلم. قال: ارجع بوقت فإنك لا تُفلح. قلت له: ما أنصفتَني؛ فقد اشتملت على خصالٍ أربع؛ جفاء البلدية، وبُعْد الشُّقَّة، وغِرَّة الحداثة، ودهشة الداخل. قال: فترى حولي عشرين صبيًّا ليس فيهم ذو لحية غيري، كان يجب أن تعرفني بها.

فأقمت عليه عشرين سنة.

قال أبو حيان: وحدثنا ابن مقسم [قال: قيل لأبي هفان] وقد طال ذكر الجاحظ [له]: لِمَ لا تهجو الجاحظ وقد ندَّد بك وأخذ بمخنقك؟ فقال: أَمِثْلِي يُخدَع عن عقله؟ والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لَمَا أمست إلا بالصين شُهرةً، ولو قلت فيه ألف بيت لَمَا طنَّ منها بيت في ألف سنة.

وقال أبو حيَّان: ومن عجيب الحديث في كُتُبه ما حدَّثنا به علي بن عيسى النحوي الشيخ الصالح قال، سمعت ابن الأخشاد شيخنا أبا بكر يقول: ذكر أبو عثمان في أول كتاب الحيوان أسماء كُتُبه ليكون ذلك كالفهرست، ومر بي في جملتها «الفرق بين النبي والمتنبي»، وكتاب «دلائل النبوة»، وقد ذكرهما هكذا على التفرقة، وأعاد ذكر «الفرق» في الجزء الرابع لشيءٍ دعاه إليه، فأحببت أن أرى الكتابين ولم أقدر إلا على واحد منهما، وهو كتاب «دلائل النبوة»، وربما لُقب بـ «الفرق» خطأً، فهمَّني ذلك وساءني في سوء ظفَري به. فلما شخصت من مصر ودخلت مكة حرسها الله تعالى حاجًّا أقمت مُناديًا بعرفات يُنادي — والناس حضور من الآفاق على اختلاف بُلدانهم، وتنازُح أوطانهم، وتبايُن قبائلهم وأجناسهم من المشرق إلى المغرب، ومن مهبِّ الشمال إلى مهبِّ الجنوب، وهو المنظر الذي لا يُشابهه منظر — رحم الله من دلَّنا على كتاب «الفرق بين النبي والمتنبي» لأبي عثمان الجاحظ على أي وجه كان. قال: فطاف المنادي في ترابيع عرفات وعاد بالخيبة، وقال: حجَّت الناس مِنًى ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به. قال ابن الأخشاد: وإنما أردت بهذا أن أُبلغ نفسي عذرها.

قال ياقوت: وحسبُك بها فضيلةً لأبي عثمان أن يكون مِثل ابن الأخشاد — وهو هو في معرفة علوم الحكمة، وهو رأسٌ عظيم من رءوس المعتزلة — يُستهام بكُتب الجاحظ حتى يُناديَ عليها بعرفات والبيت الحرام. وهذا الكتاب موجود في أيدي الناس اليوم لا يكاد تخلو خِزانة منه، ولقد رأيت أنا منه نحو مائة نسخة أو أكثر.

(٣) مولده ومَنشؤه وأساتذته

قال الجاحظ: أنا أَسَنُّ من أبي نُواس بسنة، وُلِدت في أول سنة ١٥٠ (٧٦٧م)، ووُلِد في آخرها. قلت: وهذا هو الصحيح، وليس بعده نص.

وقال أبو القاسم البلخي: الجاحظ كِناني من أهل البصرة.

سمع من أبي عُبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري، وأخذ النحو عن أبي الحسن الأخفش، وكان صديقه، وأخذ الكلام عن النظَّام، وتلقَّف الفصاحة من العرب شفاهًا بالمِربد.

(٤) معارفه

حدَّث أبو هفان، قال: لم أرَ قط ولا سمعت من أحبَّ الكُتب والعلوم أكثر من الجاحظ؛ فإنه لم يقع بيده كتابٌ قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الورَّاقين ويبيت فيها للنظر؛ والفتح بن خاقان، فإنه كان يحضر لمجالسة المُتوكل، فإذا أراد القيام — يعني المتوكل — لحاجةٍ أخرج كتابًا من كمِّه أو خفِّه وقرأه في مجلس المتوكل إلى حين عوده إليه حتى في الخلاء؛ وإسماعيل بن إسحاق القاضي، فإني ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر في كتاب، أو يقلِّب كُتبًا، أو ينفضها.

وقال أبو بكر أحمد بن علي: كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظَّام، وكان واسع العلم بالكلام، كثير التبحُّر فيه، شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا، وله كُتبٌ كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين، وفي حكاية المخالفين، و[في] الآداب والأخلاق، وفي ضروب من الجد والهزل، وقد تداوَلها الناس وقرءوها وعرفوا فضلها. وإذا تدبَّر العاقل المميز أمر كُتُبه عَلِم أنه ليس في تلقيح العقول، وشحذ الأذهان، ومعرفة أصول الكلام وجواهره، وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب، كُتُب تُشبهها، والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور.

(٥) الجاحظ في ديوان الرسائل

حدَّث عبد الرحمن بن محمد الكاتب، قال: كان الجاحظ يتقلَّد خلافة إبراهيم بن العبَّاس الصُّولي على ديوان الرسائل، فلما جاء إلى الديوان جاءه أبو العيناء، فلما أراد الانصراف تقدَّم الجاحظ إلى حاجبه إذا وصل إلى الدهليز أن لا يدعه يخرج، ولا يمكنه من الرجوع إليه. فخرج أبو العيناء ففعل به ذلك، فنادى بأعلى صوته: يا أبا عثمان، قد أرَيتَنا قدرتك فأرِنا عفوك.

وقال أبو دُلف الكاتب: صُدِّر الجاحظ في ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ثم استعفى فأُعفي. وكان سهل بن هارون يقول: إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكُتَّاب.

(٦) تخطئة الجاحظ وتصويبه

قال علي بن يحيى المُنجم، قلت للجاحظ: مِثلك في علمك ومقدارك في الأدب يقول في كتاب «البيان والتبيين» «ويُكره للجارية أن تُشبَّه بالرجال في فصاحتها»، ألا ترى قول مالك بن أسماء الفزاري:

وحديثٍ ألَذُّه هو ممَّا ... يَنعَتُ الناعتون يُوزَنُ وَزْنا
مَنطِقٌ صائبٌ وتَلحَنُ أحيا ... نًا وخيرُ الحديثِ ما كان لَحْنا

فتراه من لحن الأعراب، وإنما وصفها بالظرف والفطنة، وإنما تلحن أي تُوري في لفظها عن أشياء وتتنكت ما قصدت له. فقال: فطنت لذلك. فقلت: فغيِّرْه. قال: فكيف لي بما سارت به الرُّكبان؟ فهو في كتابه على خطائه.

قال أبو محلم: أراد الفزاري بقوله هذا أنَّ خير الحديث ما أومأت إليَّ به، وورَّت عن الإفصاح به لئلا يعلمه غيرنا. ومِثله قول الكلابي:

ولقد لحنتُ لكم لكيما تفهموا ... ووحيتُ وحيًا ليس بالمُرتابِ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾. أي فيما يتوحَّونه بينهم من النفاق والطعن.

قال أبو حيَّان التوحيدي: وعندي أن المسألة مُحتملة للكلام؛ لأن مُقابل المنطق الصائب المنطق الملحون، واللحن من الغواني والفتيات غير مُنكَر ولا مكروه، بل يُستحب ذلك لأنه بالتأنيث أشبه، وللشهوة أدعى، ومع الغزل أجرى، والإعراب جد، وليس الجد من التغزُّل والتعشُّق والتشاجي في شيء، وعلى مذهب علي بن يحيى أن المنطق الصائب هو الكلام الصريح، وأن اللحن هو التعريض، وأنها تعرف هذا وهذا، فهَبْ أن هذا المعنى مقبول، لِمَ ينبغي أن يكون المعنى الآخر لهوجًا ومردودًا؟ وقد يجوز أن يكون مُراد الشاعر ذاك؛ لأن الشاعر يشعر بهذا كما يشعر بهذا.

(٧) جوائز بعض كُتُبه

قال ميمون بن هارون، قلت للجاحظ: ألك بالبصرة ضَيعة؟ فتبسَّم وقال: إنما أنا وجارية، وجارية تخدمها، وخادم وحمار.

أهديت كتاب «الحيوان» إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار.

وأهديت كتاب «البيان والتبيين» إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار.

وأهديت كتاب «الزرع والنخل» إلى إبراهيم بن العبَّاس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار. فانصرفت إلى البصرة ومعي ضَيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد.

(٨) نُخَب من رسائله الخاصة

من كتاب له إلى محمد بن عبد الملك الزيَّات:

> لا والله، ما عالَج الناس داءً قطُّ أدوى من الغيظ، ولا رأيت شيئًا هو أنفَذُ من شماتة الأعداء، ولا أعلم بابًا أجمع لخصال المكروه من الذل، ولكن المظلوم ما دام يجد من يرجوه، والمُبتلى ما دام يجد من يرثي له، فهو على سبب درك وإن تطاولت به الأيام؛ فكم من كربةٍ فادحة، وضيقةٍ مُصمتة، قد فُتحت أقفالها، وفُككت أغلالها، ومهما قصَّرت فيه فلم أُقصِّر في المعرفة بفضلك، وفي حسن النية بيني وبينك، لا مُشتَّت الهوى، ولا مُقسَّم الأمل، على تقصير قد احتملته، وتفريط قد اغتفرته، ولعل ذلك أن يكون من ذنوب الإدلال، وجرائم الإغفال، ومهما كان من ذلك فلن أجمع بين الإساءة والإنكار، وإن كنت كما تصف من التقصير، وكما تعرف من التفريط، فإني من شاكري أهل هذا الزمان، وحسَني الحال، ومتوسِّطي المذهب، وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك من

المُنعمين، فوق مرتبتي في الشاكرين؛ وقد كانت عليَّ بك نعمة أذاقتني طعم العز، وعوَّدتني روح الكفاية.

وكتب إلى إبراهيم بن المُدبر:

قال عبد الله بن جعفر الوكيل: كنت عند إبراهيم بن المدبر فرأيت بين يدَيه رقعةً يردِّد النظر إليها، فقلت له: ما شأن هذه الرقعة؟ كأنه استعجم عليك شيء فيها؟ فقال: هذه رقعة أبي عثمان الجاحظ، وكلامه يُعجبني، وأنا أردِّده على نفسي لشدة إعجابي. فقلت: هل يجوز أن أقرأها؟ قال: نعم. وألقاها إليَّ، فإذا فيها:

ما ضاء لي نهار ولا دجا ليل مُذ فارقتك إلا وجدت الشوق إليك قد حزَّ في كبدي، والأسف عليك قد أُسقط في يدي، والنزاع نحوك قد خان جِلدي؛ فأنا بين حشًا خافقة، ودمعةٍ مُهراقة، ونفس قد ذبلت بما تُجاهد، وجوانح قد بَلِيت بما تُكابد؛ وذكرت وأنا على فِراش الارتماض، ممنوع من لذَّة الإغماض، قولَ بشَّار:

إذا هتَفَ القُمْريُّ نازَعَني الهوى بشَوقٍ فلم أملِكْ دُموعي من الوَجدِ
أبى اللهُ إلَّا أن يفرِّقَ بيْنَنا وكنَّا كماءِ المُزنِ شيبٌ مع الشَّهدِ
لقد كان ما بَيْني زمانًا وبيْنَها كما كانَ بيْنَ المِسكِ والعَنبرِ الوَرْدي

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه، ونجري في مودَّتنا إليه، في شعره هذا. وذكرت أيضًا ما رماني به الدهر من فُرقة أعزَّائي من إخواني الذين أنت أعَزُّهم، ويمتحنني بمن نأى من أحبَّائي وخُلصاني الذين أنت أحَبُّهم وأخلصهم، ويجرِّعنيه من مرارة نأيهم وبُعْد لقائهم، وسألت الله أن يَقرِن آيات سروري بالقرب منك، ولين عيشي بسرعة أوبتك، وقلت أبياتًا تقصر عن صفة وجدي، وكُنْه ما يتضمنه قلبي، وهي:

بخدِّيَ من قَطرِ الدُّموعِ نُدوبُ وبالقلبِ منِّي مُذ نأيتُ وَجيبُ
ولي نفسٌ حتى الدُّجى يَصدعُ الحشا ورَجعُ حنين للفؤادِ مُذيبُ
ولي شاهدٌ من ضرِّ نفسي وسُقمِها يخبِّرُ عنِّي أنَّني لَكئيبُ
كأنِّيَ لم أُفجَعْ بفُرقةِ صاحبٍ ولا غابَ عن عيني سِواكَ حبيبُ

فقلت لابن المدبر: هذه رقعة عاشق لا رقعة خادم، ورقعة غائب لا رقعة حاضر. فضحك وقال: نحن ننبسط مع أبي عثمان إلى ما هو أدق من هذا وألطف، فأما الغيبة فإننا نجتمع في كل ثلاثة أيام، وتأخَّر ذلك لشغلٍ عرض لي، فخاطبني مخاطبة الغائب، وأقام انقطاع المدة مقام الغيبة.

(٩) شذور من كلماته

قال أبو عثمان: ليس جهد البلاء مد الأعناق وانتظار وقع السيف؛ لأن الوقت قصير، والحين مغمور، ولكن جهد البلاء أن تظهر الخلة، وتطول المدة، وتعجز الحيلة، ثم لا تعدم صديقًا مؤنبًا، وابن عم شامتًا، وجارًا حاسدًا، ووليًّا قد تحوَّل عدوًّا، وزوجةً مُختلعة، وجاريةً مُسبعة، وعبدًا يحقرك، وولدًا ينتهرك.

وقال: إذا سمعت الرجل يقول «ما ترك الأول للآخر شيئًا»، فاعلم أنه ما يريد أن يُفلح.

وقال: احذر من تأمن؛ فإنك حذِرٌ ممن تخاف.

وقال: أجمع الناس على أربع؛ أنه ليس في الدنيا أثقل من أعمى، ولا أبغض من أعور، ولا أخفُّ روحًا من أحول، ولا أقود من أحدب.

وقال: أربعة أشياء ممسوخة؛ أكل الرُّز البارد، والنَّيك في الماء، والقبل على النقاب، والغناء من وراء ستار.

وقال للسدري مرةً: إذا كانت المرأة عاقلةً ظريفة كاملة كانت قَحبة. فقال السدري: وكيف؟ قال: لأنها تأخذ الدراهم وتمتع بالناس والطيب، وتختار على عينها من تريد، والتوبة معروضة لها متى شاءت. فقال له السدري: فكيف عقل العجوز؟ قال: هي أحمق الناس وأقلهم عقلًا.

وقال: كل عشق يُسمَّى حبًّا، وليس كل حب يُسمَّى عشقًا؛ لأن العشق اسم لِما فضل عن المحبة، كما أن السرف اسم لما جاوَز الجود، والبخل اسم لما قصر عن الاقتصاد، والجبن اسم لما فضل عن شدة الاحتراس، والهوج اسم لما فضل عن الشجاعة.

وقال: إن تهيَّأ لك في الشاعر أن تبرَّه وتُرضيَه، وإلا فاقتله.

وقال: يجب للرجل أن يكون سخيًّا لا يبلغ التبذير، شجاعًا لا يبلغ الهوج، مُحترسًا لا يبلغ الجبن، ماضيًا لا يبلغ القحة، قوَّالًا لا يبلغ الهذر، صموتًا لا يبلغ العي، حليمًا لا يبلغ الذل، مُنتصرًا لا يبلغ الظلم، وقورًا لا يبلغ البلادة، نافذًا لا يبلغ الطيش.

وقال أبو زيد البلخي: ما أحسن ما قال الجاحظ؛ عقل المُنشئ مشغول، وعقل المُتصفح فارغ.

(١٠) الجاحظ وابن أبي دؤاد

نشرنا هذه الرواية ضِمن ترجمة الجاحظ في الجزء الأول ملخَّصةً، ثم رأينا أن ننشرها هنا مفصَّلةً لما فيها من زياداتٍ طريفة، ولنصحِّح بها رواية ياقوت التي وردت في كتابه «معجم الأدباء» محرَّفةً.

قال أبو عُبيد[١] الله المَرزباني: حدَّث إسحاق المَوصلي وأبو العيناء، قالا:[٢] كنا[٣] عند أحمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيَّات، فجيء بالجاحظ مقيَّدًا، وكان من أصحاب ابن الزيَّات وفي ناحيته، فلما نظر [إليه] قال: والله ما عَلِمتك إلا مُتناسيًا للنعمة، كفورًا للصنيعة، مَعدِنًا[٤] للمساوي، وما فتني باستصلاحي لك، ولكن الأيام لا تُصلح منك[٥] لفساد طويَّتك، ورداءة دخلتك،[٦] وسوء اختيارك، وتغالب طبعك.

فقال الجاحظ: خفِّض عليك، والله لأن أسيء وتُحسن، أحسن [في الأحدوثة] عنك من أن أحسن وتُسيء، وأن تعفوَ عني في حال قدرتك أجمل [بك] من الانتقام مني.

فقال له ابن أبي دؤاد: قبَّحك الله، [والله] ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام، وقد جعلت بيانك[٧] أمام قلبك، ثم اضطغنت[٨] فيه النفاق والكفر. ما تأويل هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾؟

قال: تلاوتها تأويلها، أعزَّ الله القاضي.

فقال: جيئوا بحدَّاد.

---

[١] في معجم الأدباء: أبو عبد الله.

[٢] وفيه: قال.

[٣] وفيه: كنت.

[٤] وفيه: معددًا.

[٥] وفيه: إلا لفساد.

[٦] وفيه: داخلتك.

[٧] وفيه: ثيابك.

[٨] وفيه: اصطفيت. والكلمات التي بين المعقوفين ليست هناك.

فقال: أعز الله القاضي، ليفكَّ عني أو ليَزيدني؟

فقال: بل ليفكَّ عنك.

فجيء بالحدَّاد فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساقه ويُطيل أمره قليلًا، فلطمه الجاحظ وقال: اعمل عمل شهر في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة؛ فإن الضرر على ساقي، وليس بجذع ولا ساجة. فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه. وقال ابن أبي دؤاد لمحمد بن المنصور، وكان حاضرًا: أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه. ثم قال: يا غلام، صِر به إلى الحمَّام، وأمِط عنه الأذى … إلخ.

(١١) شيء من أخباره ونوادره

قال أبو العبَّاس محمد بن يزيد المبرد، حدَّثني عمرو بن بحر، قال: أتيت أبا الربيع الغَنوي، وكان من أفصح الناس وأبلغهم، ومعي رجل من بني هاشم، فقلت: أأبا الربيع ها هنا؟ فخرج إليَّ وهو يقول: خرج إليك رجلٌ كريم. فلما رأى الهاشمي استحيا من فخره بحضرته، فقال: أكرم الناس رديفًا، وأشرفهم حليفًا.[٩] فتحدَّثنا مليًّا فنهض الهاشمي.

فقلت لأبي الربيع: يا أبا الربيع، من خير الخلق؟

فقال: الناس والله.

قلت: من خير الناس؟

قال: العرب والله.

قلت: فمن خير العرب؟

قال: مُضَر والله.

قلت: فمن خير مضر؟

قال: قيس والله.

قلت: فمن خير قيس؟

قال يَعصُر والله.

قلت: فمن خير يَعصُر؟

---

[٩] أكرم الناس رديفًا: فإن أبا مرثد الغنوي كان رديف رسول الله ﷺ. وأشرفهم حليفًا: كان أبو مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب.

قال غني والله.

قلت: فمن خير غني؟

قال: المُخاطِب لك والله.

قلت: أفأنت خير الناس؟

قال: نعم إي والله.

قلت: أيسُرُّك أن تحتك بنت يزيد بن المهلَّب؟

قال: لا والله.

قلت: ولك ألف دينار؟

قال: لا والله.

قلت: فألفا دينار؟

قال: لا والله.

قلت: ولك الجنة؟ فأطرَق.

ثم قال: على ألا تلد منِّي. وأنشد:

تأبى لأعصُرَ أعراقٌ مهذَّبةٌ   من أن تُناسِبَ قومًا غيْرَ أكْفاءِ
فإنْ يَكُنْ ذاك حَتمًا لا مَردَّ له   فاذكُرْ حُذيفَ فإنِّي غيرُ أبَّاءِ[١٠]

وقال الجاحظ: كان رجل من أهل السواد تشيَّع، وكان ظريفًا، فقال ابن عم له: بلَغني أنك تُبغض عليًّا عليه السلام، ووالله لئن فعلت لترِدِنَّ علية الحوض يوم القيامة ولا يسقيك. قال: والحوض في يده يوم القيامة؟ قال نعم. قال: وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف وفي الآخرة بالعطش؟ فقيل له: أتقول هذا مع تشيُّعك ودينك؟ قال: والله لا تركت النادرة، ولو قتلتني في الدنيا وأدخلتني النار في الآخرة.

وقال الجاحظ: كان يحضر إليَّ رجلٌ فصيح من العجم، فقلت له: هذه الفصاحة وهذا البيان لو ادُّعيت في قبيلة من العرب لكنت لا تُنازع فيها. فأجابني إلى ذلك، فجعلت أحفِّظه نسبًا حتى حفظه وهذَّه هذًّا، فقلت له: الآن لا تته علينا؟ فقال: سبحان الله، إن فعلت ذلك فأنا إذًا دعي.

---

[١٠] فاذكر حذيف: أراد حذيفة بن بدر الفزاري، وإنما ذكره من بين الأشراف لأنه أقربهم إليه نسبًا، وذاك أن يعصر بن سعد بن قيس، وهؤلاء بنو ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان.

(١٢) نُبَذ من شعره

قال في أحمد بن أبي دؤاد:

وعويصٌ من الأمورِ بَهيمٌ غامضُ الشخصِ مُظلِمٌ مستورُ
قد تسنَّمتَ ما تَوعَّرَ منه بلسانٍ يَزينُه التحبيرُ
مثلُ وَشيِ البُرودِ هَلهَله النَّسـ ـجُ وعندَ الحِجاجِ درٌّ نثيرُ
حَسنُ الصمتِ والمقاطعِ إمَّا أنصَتَ القومُ والحديثُ يدورُ
ثم من بعدُ لحظةٌ تُورِث اليُسـ ـرَ وعِرضٌ مهذَّبٌ موفورُ

وكتب إليه يقول:

لا تراني وإن تَطاوَلتُ عمدًا بيْنَ صفَّيهم وأنتَ تسيرُ
كلُّهم فاضلٌ عليَّ بمالٍ ولساني يَزِينُه التحبيرُ
فإذا ضمَّنا الحديثُ وبيتٌ وكأنِّي على الجميعِ أميرُ
رُبَّ خصمٍ أرَقُّ من كلِّ روحٍ ولفَرطِ الذَّكا يكادُ يَطيرُ
فإذا رامَ غايتي فهْو كابٍ وعلى البُعدِ كوكبٌ مبهورُ

وقال في إبراهيم بن رباح:

وعَهْدي به واللهِ يصلحُ أمرُه رحيبُ مجالِ الرأيِ مُنبلِجُ الصدرِ
فلا جعلَ اللهُ الولايةَ سُبَّةً عليه فإنِّي بالولايةِ ذو خُبْرِ
فقد جهَدوه بالسؤالِ وقد أبى به المَجدُ إلا أنْ يَلِجَّ ويَستشري

وقال في أبي الفرج نجاح بن سلمة يسأله إطلاق رزقه، من قصيدة:

أقامَ بدارِ الخفضِ راضٍ بخفضِه وذو الحزمِ يَسْري حيث لا أحدٌ يَسْري
يَظنُّ الرِّضا شيئًا يسيرًا مهوَّنًا ودونَ الرضا كأسٌ أمرُّ من الصَّبرِ
سواءٌ على الأيَّامِ صاحِبُ حُنْكةٍ وآخَرُ كابٍ لا يَرِيشُ ولا يَبْري
خضعتُ لبعضِ القومِ أرجو نوالَه وقد كنتُ لا أعطي الدنيَّة بالقسرِ
فلما رأيتُ القومَ يَبذُلُ بِشرَه ويجعلُ حُسنَ البِشرِ واقيةَ الوَفرِ

رجعتُ على ظَلْعي وراجَعتُ مَنزلي ... فصِرتُ حليفًا للدراسةِ والفِكرِ
وشاوَرتُ إخواني فقالَ حليمُهم ... عليك الفتى المُرِّيَّ ذا الخُلُقِ الغَمرِ
أُعيذُك بالرَّحمنِ من قولِ شامتٍ ... أبو الفرجِ المأمولُ يزهدُ في عمرِو
ولو كان فيه راغبًا لرأيتَه ... كما كان دهرًا في الرَّخاءِ وفي اليُسرِ
أخافُ عليك العَينَ من كلِّ حاسِدِ ... وذو الودِّ مَنخوبُ الفؤادِ من الذُّعرِ
فإنْ تَرْعَ ودِّي بالقَبولِ فأهلُه ... ولا يَعرفُ الأقدارَ غيرُ ذوي القَدرِ

(١٣) شيء من هجو الجمَّاز له

هجا الجاحظ الجمَّاز، فردَّ عليه الجمَّاز، فقال:

يا فتى نفسُه إلى الـ ... ـكُفرِ بالله تائقةْ
لكَ في الفضلِ والتَّزهُّـ ... ـدِ والنُّسكِ سابِقةْ

وقال الجمَّاز فيه:

قال عمرٌو مُفاخرًا ... نحن قومٌ من العَربْ
قلتُ في طاعة لرَبِّـ ... ـكَ أبليتَ ذا النَّسبْ

(١٤) خبر وفاته

قال يزيد بن محمد المهلَّبي، قال لي المعتز بالله: يا يزيد، ورد الخبر بموت الجاحظ. فقلت: لأمير المؤمنين طول البقاء، ودوام النعماء. وذلك في سنة ٢٥٥.

ولما مات رثاه أبو شراعة القيسي بقوله:

في العِلمِ للعُلماءِ أنْ ... يَتفهَّموه مَواعظُ
وإذا نسيتَ وقد جمَعـ ... ـتَ عَلا عليك الحافظُ
ولقد رأيتُ الظرف دَهـ ... ـرًا ما حواه اللَّافظُ
حتى أقامَ طريقَه ... عمرُو بنُ بحرِ الجاحظُ
ثم انقضى أمَدٌ به ... وهو الرئيسُ الفائظُ

قلت: قد نص الجاحظ على أن مولده كان في أول سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م، وقد أجمع المحقِّقون على أن وفاته كانت في أول سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م، وذلك في آخر سنة من خلافة المعتز، ومن المعروف أن مرضه كان في خلافة المُتوكل، ولا شك في أنه أصيب في سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م، فيكون قد ظل مريضًا بالفالج ثماني سنين.

(١٥) بقيَّة مؤلَّفاته مما لم يُذكَر هناك

- كتاب المعرفة.
- كتاب مسائل كتاب المعرفة.
- كتاب جوابات كتاب المعرفة.
- كتاب مسائل القرآن.
- كتاب الإمامة على مذهب الشيعة.
- كتاب حكاية قول أصناف الزيدية.
- كتاب العثمانية.
- كتاب الرد على العثمانية.
- كتاب إمامة معاوية.
- كتاب الأخبار وكيف تصح.
- كتاب القواد.
- كتاب ذكر ما بين الزيدية والرافضة.
- كتاب صياغة الكلام.
- كتاب المخاطبات في التوحيد.
- كتاب تصويب علي في تحكيم الحكمَين.
- كتاب وجوب الإمامة.
- كتاب الشارب والمشروب.
- كتاب افتخار الشتاء والصيف.
- كتاب المعلمين.
- كتاب الجواري.
- كتاب نوادر الحسن.

- كتاب الفخر ما بين عبد شمس ومخزوم.
- كتاب العرجان والبرصان.
- كتاب الطُّفيليين.
- كتاب أخلاق الملوك.
- كتاب الرد على اليهود.
- كتاب المعاد والمعاش.
- كتاب النعل.
- كتاب السلطان وأخلاق أهله.
- كتاب البلدان.
- كتاب الدلالة على أن الإمامة فرض.
- كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال.
- كتاب المغنين والغناء والصنعة.
- كتاب الإخوان.
- كتاب الرد على من ألحد في كتاب الله.
- كتاب آي القرآن.
- كتاب الناشي والمتلاشي.
- كتاب حانوت عطار.
- كتاب التمثيل.
- كتاب فضل العلم.
- كتاب المزاح والجد.
- كتاب جمهرة الملوك.
- كتاب الصوالجة.
- كتاب ذم الزنا.
- كتاب التفكر والاعتبار.
- كتاب الحجر والنبوة.
- كتاب آل إبراهيم بن المدبر في المكاتبة.
- كتاب إحالة القدرة على الظلم.
- كتاب الاعتزال وفضله على الفضيلة.

- كتاب الأخطار والمراتب والصناعات.
- كتاب أحدوثة العالم.
- كتاب الرد على من زعم أن الإنسان جزء لا يتجزأ.
- كتاب أبي النجم وجوابه.
- كتاب التفاح.
- كتاب الأنس والسلوة.
- كتاب الكبر المستحسن والمستقبح.
- كتاب نقض الطب.
- كتاب الحزم والعزم.
- كتاب عناصر الآداب.
- كتاب تحصين الأموال.
- كتاب الأمثال.
- كتاب فضل الفرس على الهملاج.
- كتاب الرسالة إلى أبي الفرج بن نجاح في امتحان عقول الأولياء.
- كتاب رسالة أبي النجم في الخراج.
- كتاب رسالة في القلم.
- كتاب رسالة في فضل اتخاذ الكُتب.
- كتاب رسالة في كتمان السر.
- كتاب رسالة في مدح النبيذ.
- كتاب رسالة في ذم النبيذ.
- كتاب رسالة في العفو والصفح.
- كتاب رسالته في إثم السكر.
- كتاب رسالته في الأمل والمأمول.
- كتاب رسالته في الحلية.
- كتاب رسالته في مدح الكُتَّاب.
- كتاب رسالته في مدح الوراق.
- كتاب رسالته في ذم الوراق.
- كتاب رسالته في من يُسمى من الشعراء عمرًا.
- كتاب رسالته اليتيمة.

- كتاب رسالته في فرط جهل يعقوب بن إسحاق الكندي.
- كتاب رسالته إلى أبي الفرج بن نجاح في الكرم.
- كتاب رسالته في موت أبي حرب الصفار البصري.
- كتاب رسالته في الميراث.
- كتاب رسالته في الأسد والذئب.
- كتاب رسالته في كتاب الكيمياء.
- كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب.
- كتاب رسالته في القضاء والولاة.
- كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية.
- كتاب رسالته في الرد على القولية.
- كتاب العالم والجاهل.
- كتاب النرد والشطرنج.
- كتاب خصومة الحول والعور.
- كتاب أخلاق الشطار.
- كتاب أمهات الأولاد.
- كتاب الأمصار.[١١]
- ومما نُسِب إليه قديمًا:
  - كتاب الإبل.
  - كتاب الهدايا.

وهذا ما أمكن استدراكه مما قد سقط أثناء الطبع من ترجمتنا لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ومن رأينا أن ما أثبتناه هنا من كُتُب الجاحظ قد يكون في ضِمنه ما هو مذكور هناك؛ لأن لبعض كُتُب الجاحظ كثيرًا من العنوانات، وأكثر ما يكون ذلك من تصرُّف النُّساخ، مع العلم بأن كتاب «الحيوان» يحوي كُتبًا عدة، وكذلك كتاب «البيان والتبيين»؛ فهو عبارة عن عدة كُتُب، والمعروف أن الجاحظ وضع منه نسختين كانت

[١١] هذا الكتاب ذكره المسعودي في كتابه «مُروج الذهب»، ولعله هو المسمَّى هنا بكتاب «البلدان»، ولكنا ذكرناه لاحتمال التغاير.

الثانية منهما أصح وأجود، ولا ندري أيتهما التي بين أيدينا، غير أننا بذلنا جهدًا عظيمًا في تحقيقها وضبطها وتجويدها، فإذا لم تكن هي الأصح الأجود من صنيع الجاحظ فهي الأقرب إلى الصحة والجودة من صنيعنا، والله حسبنا ونعم الوكيل.

حسن السندوبي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو عثمان الجاحظ:

الحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلَّى الله على محمد خاصةً وعلى أنبيائه عامةً.

أردنا — أبقاك الله — أن نبتدئ صدر هذا الجزء الثاني من «البيان والتبيين» بالرد على الشعوبية في طعنهم على خطباء العرب؛ إذ وصلوا أيمانهم بالمخاصر، واعتمدوا على وجه الأرض بأطراف القِسي والعِصي، أشاروا عند ذلك بالقضبان والقنا، وفي كل ذلك قد روينا الشاهد الصادق، والمثل السائر.

ولكنَّا أحببنا أن نصدِّر هذا الجزء بكلام من كلام رسول رب العالمين، والسلف المتقدمين، والجِلة من التابعين، الذين كانوا مصابيح الظلام، وقادة هذا الأنام، ومِلح الأرض، وحُليَّ الدنيا، والنجوم التي لا يضل معها الساري، والمنار الذي إليه يرجع الباغي، والحزب الذي كثَّر الله به القليل، وأعز به الذليل، وزاد الكثير في عدده، والعزيز في ارتفاع قدره، وهم الذين جلَوا بكلامهم الأبصار العليلة، وشحذوا بمنطقهم الأذهان الكليلة، فنبَّهوا القلوب من رقدتها، ونقلوها من سوء عادتها، وشفَوها من داء القسوة، وغباوة الغفلة، وداووا من العي الفاضح، ونهجوا الطريق الواضح، ولولا الذي أمَّلت في تقديم ذلك وتعجيله من العمل بالصواب، وجزيل الثواب، لقد كنت بدأت بالرد عليهم، وبكشف قناع دعاويهم، على أنَّا سنقول في ذلك بعد الفراغ مما هو أولى بنا وأوجب علينا، والله الموفِّق والمستعان.

وعلى أن خطباء السلف الطيِّب، وأهل البيان من التابعين بإحسان، ما زالوا يُسمُّون الخطبة التي لم يبتدئ صاحبها بالتحميد، ويستفتح كلامه بالتمجيد: «البَتْراء»، ويُسمُّون التي لم تُوشَّح بالقرآن، وتُزيَّن بالصلاة على النبي ﷺ: «الشوهاء».

وقال عِمران بن حِطَّان: خطبت عند زياد خطبةً ظننت أني لم أقصِّر فيها عن غاية، ولم أدع لطاعنٍ علة، فمررت ببعض المجالس فسمعت شيخًا يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كانَ في خطبته شيء من القرآن. وخطب أعرابي فلما أعجله بعض الأمر عن التصدير بالتحميد، والاستفتاح بالتمجيد، قال: أما بعد، بغير ملالة لذِكر الله، ولا إيثار غيره عليه، فإنا نقول كذا، ونسأل كذا. فرارًا من أن تكون خطبته بَتراء أو شوهاء، وقال شبيب بن شيبة: الحمد لله، وصلَّى الله على رسوله. أما بعد، فإنا نسأل كذا، ونبذل كذا.

وبنا، حفظك الله، أشد الحاجة إلى أن يَسلَم كتابنا هذا من البَتر القبيح، واللقب السميج المَعيب، بل قد نُحبُّ أن نزيد في بهائه، ونستميل القلوب إلى اجتبائه؛ إذ كان الأمل فيه بعيدًا، وكان معناه شريفًا ثمينًا.

ثم اعلم بعد ذلك أن جميع خطب العرب، من أهل المدر والوبر، والبدو والحضر، على ضربَين: منها الطِّوال، ومنها القِصار، ولكل ذلك مكانٌ يليق به، وموضع يحسُن فيه؛ ومن الطوال ما يكون مُستويًا في الجودة، ومُشاكلًا في استواء الصنعة؛ ومنها ذوات الفِقَر الحِسان، والنُّتَف الجِياد؛ وليس فيها بعد ذلك شيءٌ يستحقُّ الحفظ، وإنما حظُّها التخليد في بطون الصحف. ووجدنا عدد القِصار أكثر، ورُواة العلم إلى حفظها أسرع. وقد أعطينا كل شكل من ذلك قسطه من الاختيار، ووفَّينا حقَّه من التمييز، ونرجو ألا نكون قصَّرنا في ذلك، والله الموفِّق.

هذا سوى ما رسمناه في كتابنا هذا من مقطَّعات كلام العرب الفصحاء، وجُمل كلام الأعراب الخُلَّص، وأهل اللَّسَن من رجالات قريش والعرب أهل الخطابة من أهل الحجاز، ونُتفٍ من كلام النُّسَّاك، ومواعظ من كلام الزُّهَّاد، مع قلة كلامهم، وشدة توقِّيهم. ورُبَّ قليلٍ يُغني عن الكثير، كما أن رُبَّ كثير لا يتعلق به صاحب القليل، بل رُبَّ كلمةٍ تُغني عن خطبة، وتنوب عن رسالة، بل رُبَّ كناية تُربي على إفصاح، ولَحظٍ يدل على ضمير، وإن كان ذلك الضمير بعيد الغاية على النهاية.

ومتى شاكَل، أبقاك الله، ذلك اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وَفقًا؛ ولذلك القدر لِفقًا، وخرج من سماجة الاستكراه، وسَلِم من فساد التكلف، كان قمينًا بحسن الموقع، وبانتفاع المُستمع، وأجدر أن يمنع جانبه من تناوُل الطاعنين، ويحميَ عِرضه من اعتراض العيَّابين، ولا تزال القلوب به معمورة، والصدور مأهولة.

ومتى كان اللفظ أيضًا كريمًا في نفسه، متخيَّرًا في جنسه، وكان سليمًا من الفضول، بريئًا من التعقيد، حُبِّب إلى النفوس، واتَّصل بالأذهان، والْتَحم بالعقول، وهشَّت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب، وخفَّ على ألسُن الرُّواة، وشاع في الآفاق ذِكره، وعظُم في الناس خطره، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس، ورياضة للمُتعلم الريِّض.

فإن أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة، ومصلحة حال الخاصة، وكان ممن يعمُّ ولا يخص، وينصح ولا يغش، وكان مشغوفًا بأهل الجماعة، شَنِقًا[١] لأهل الاختلاف والفُرقة، جُمعت له الحظوظ من أقطارها، وسِيقت إليه القلوب بأزمَّتها، وجُمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته، وجُبلت على تصويب إرادته. ومن أعاره الله من معرفته نصيبًا، وأفرغ عليه من محبته ذَنُوبًا، حنَّت إليه المعاني، وسَلِس له نظام اللفظ، وكان قد أغنى المستمِع من كدِّ التكلف، وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم.

ولم أجد في خطب السلف الطيِّب والأعراب الأقحاح ألفاظًا مسخوطة، ولا معانيَ مدخولة، ولا طبعًا رديًّا، ولا قولًا مستكرَهًا، وأكثر ما نجد ذلك في خطب المولَّدين البلديين المُتكلفين، ومن أهل الصنعة المُتأدبين، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، أو كان من نتاج التخير والتفكر.

ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولًا كَرِيتًا،[٢] وزمنًا طويلًا، يردِّد فيها نظره، ويقلِّب فيها رأيه؛ اتهامًا لعقله، وتتبعًا على نفسه، فيجعل عقله زِمامًا على رأيه، ورأيه عِيارًا على شعره؛ إشفاقًا على أدبه، وإحرازًا لما خوَّله الله من نعمته.

وكانوا يُسمُّون تلك القصائد «الحَوليَّات»، و«المقلَّدات»، و«المنقَّحات»، و«المُحكَمات»؛ ليصير قائلها فحلًا خِنذيذًا، وشاعرًا مُفلقًا.

وفي بيوت الشعر الأمثال والأوابد، ومنها الشواهد، ومنها الشوارد.

والشعراء عندهم أربع طبقات؛ فأولهم الفَحل الخِنذيذ. والخنذيذ هو التام، قال الأصمعي، قال رؤبة:[٣] هم الفحولة الرُّواة.

---

[١] شنقًا: راغبًا طامحًا.

[٢] حولًا كريتًا: حولًا كاملًا.

[٣] رؤبة: هو رؤبة بن العجَّاج، ويُكنى أبا الجحاف وأبا العجاج. كان من مُخضرَمي الدولتَين، مدح بني أمية وبني العبَّاس ونال جوائزهما، وهو أحد الرُّجاز الفصحاء المذكورين المقدَّمين. أخذ عنه وجوه أهل اللغة، واحتجُّوا بقوله، وجعلوه إمامًا. وقد روى رؤبة الحديث، قال الأصمعي: قيل ليونس بن حبيب: من

ودون الفحل الخِنذيذ الشاعرُ المُفلق، ودون ذلك الشاعر فقط، والرابع الشُّعرور؛ ولذلك قال الأول في هجاء بعض الشعراء:

أشعر الناس؟ قال: العجَّاج ورؤبة. فقيل: ولِمَ؟ ولمْ نَعنِ الرُّجاز؟ فقال: هم أشعر من أهل القصيد، إنَّما الشعر كلام فأجوَدُه أشعَرُه. وعن أبي عُبيدة قال، قال رؤبة بن العجاج: بعث إليَّ أبو مُسلم لما أفضت الخلافة إلى بني هاشم، فلما دخلت عليه رأى مني جزعًا، فقال: اسكن فلا بأس عليك، ما هذا الجزع الذي ظهر منك؟ قلت: أخافك. قال: ولِمَ؟ قلت: لأنه بلغني أنك تقتل الناس. قال: إنَّما أقتل من يُقاتلني ويريد قتلي، أفأنت منهم؟ قلت: لا. قال: فهل ترى بأسًا؟ قلت: لا. فأقبل على جُلسائه ضاحكًا ثم قال: أما ابن العجاج فقد رخص لنا. ثم قال: أنشِدْني قولك «وقاتم الأعماق خاوي المخترق». فقلت: أوَأنشدك، أصلحك الله، أحسن منه؟ قال: هات. فأنشدته:

قلتُ ونَسْجي مُستجِدٌّ حَوْكا
لَبَّيكَ إذ دعوتَني لَبَّيكا
أحمَدُ ربًّا ساقَني إليكا

قال: هات كلمتك الأولى. قلت: أوَأنشدك أحسن منها؟ قال: هات. فأنشدته:

ما زالَ يَبْني خندقًا ويَهدِمُه
ويَستجيشُ عسكرًا ويَهزِمُه
ومَغنمًا يَجمعُه ويَقسمُه
مَرْوانُ لمَّا أن تهاوَتْ أنجُمُه
وخانَه في حُكمِه مُنجِّمُه

قال: دع هذا وأنشِدْني «وقاتم الأعماق». قلت: أوَأحسن منه؟ قال: هات. فأنشدته:

رفعتَ بَيتًا وخفضتَ بَيْتا
وشِدتَ رُكنَ الدِّينِ إذ بَنَيتا
في الأكرمِينَ من قريشٍ بَيْتا

قال: هات ما سألتك عنه. فأنشدته:

ما زالَ يأتي الأمرَ من أقطارِه
على اليمينِ وعلى يسارِه

يا رابِعَ الشُّعراءِ كيف هجَوتَني   وزعمتَ أنِّي مُفحَمٌ لا أنطقُ؟[٤]

فجعله سُكَّيتًا مخلَّفًا، ومسبوقًا مؤخَّرًا.

وسمعت بعض العلماء يقول: طبقات الشعراء ثلاث؛ شاعر، وشُويعر، وشُعرور. قال: والشويعر مثل: محمد بن حمران بن أبي حمران، سمَّاه بذلك امرؤ القيس بن حُجر.

ومنهم ثم من بني ضبَّة: المُفوَّف، شاعر بني حميس، وهو الشُّويعر؛ ولذلك قال العبدي:

ألا تَنْهى سَراةَ بني حميسٍ   شُوَيعِرَها فُوَيلِيةَ الأفاعي؟
قُبيِّلةٌ تَردَّدُ حيث شاءت   كزائدةِ النعامةِ في الكُراعِ

فُويلية الأفاعي: دُويبة سوداء فوق الخُنفساء.

والشويعر أيضًا: صفوان بن عبد ياليل، من بني سعد بن ليث، ويُقال إن اسمه ربيعة بن عثمان، وهو الذي يقول:

فسائِلْ جَعفرًا وبني أبيها   بني البَرْزا بطخفةَ والمِلاحِ[٥]
وأفلَتنا أبو ليلى طُفيلًا   صحيحَ الجِلدِ من أثرِ السلاحِ

مُشمِّرًا لا يَصْطلي بنارِه
حتى أقرَّ المُلكَ في قرارِه
وفرَّ مَرْوانُ على حِمارِه

قال: ويحك، هات ما دعوتك له وأمرتك بإنشاده، ولا تُنشد شيئًا غيره! فأنشدته «وقاتم الأعماق خاوي المخترق». فلما صِرت إلى قولي «يرمي الجلاميد بجلمودٍ مدق»، قال: قاتَلَك الله، لشدَّ ما استصلبت الحافر! ثم قال: حسبُك، أنا ذلك الجلمود المدق. (قال) وجيء بمنديل فيه مال فوُضع بين يدي، فقال أبو مسلم: يا رؤبة، إنك أتيتنا والأموال مشفوهة، وإن لك لعودة إلينا وعلينا معولًا والدهر أطرق مُستتب، فلا تجعل بيننا وبينك إلا سدة. قال رؤبة: فأخذت المنديل منه، وتالله ما رأيت أعجميًّا أفصح منه، وما ظننت أن أحدًا يعرف هذا الكلام غيري وغير أبي. وكان رؤبة يتراوح في إقامته بين البادية والبصرة. مات سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م.

[٤] في الأصل «مقحم»، ولا معنى له ها هنا، والصواب ما أثبتناه. والمفحم: العَييُّ الذي لا يكاد يُبين.

[٥] طخفة: اسم جبل حدثت بجواره معركة يوم طخفة من أيام العرب. والملاح: اسم مكان أيضًا.

وقد زعم ناس أن الخِنذيذ من الخيل هو الخصي، وكيف يكون ذلك كذلك مع قول الشاعر:

يا لَيتَني يا لَيتَ لم أرَ مِثلَها أمرَّ قِرًى منها وأكثَرَ باكيا
وأكثَرَ خِنذيذًا يَجُرُّ عِنانَه إلى الماءِ لم يَترُكْ له الموتُ ساقيا

وقال بِشر بن أبي خازم:[٦]

وخِنذيذٍ ترى الغُرمُولَ منه كطَيِّ الزِّقِّ علَّقه التِّجارُ

وأبيَنُ من ذلك قول البُرجُمي:

وخناذيذَ خِصْيةً وفُحولا

ويدل على ما قلنا قول العَبسي:

دعوتُ بني سعدٍ إليَّ فشمَّرتْ خناذيذُ من سعدٍ طِوالُ السَّواعِدِ

وكان زُهير بن أبي سُلمى يُسمِّي كبار قصائده «الحوليَّات».

[٦] بشر بن أبي خازم الأسدي: شاعرٌ جاهلي قديم من طبقة النابغة الذُّبياني وعَبيد بن الأبرص. قال أبو عمرو بن العلاء: فَحْلان من فحول الجاهلية كانا يُقويان؛ بشر بن أبي خازم والنابغة الذبياني؛ فأما النابغة فدخل بشر فغنَّى بشعره فلم يعُد، وأما بشر فقال له أخوه سوادة: إنك لتُقْوي. فقال: وما الإقواء؟ قال: قولك:

ألَمْ تَرَ أنَّ طُولَ الدَّهرِ يُسْلي ويُنسِي مِثلَ ما نَسِيتْ جُذامُ

ثم قلت:

وكانوا قومَنا فبَغَوا علينا فسُقْناهم إلى البلدِ الشآمِ

فلم يعُد للإقواء. والبيت الذي جاء به الجاحظ في الأصل هو من قصيدةٍ آية في البلاغة، اختارها المفضَّل الضبي في مفضَّلياته وشرحناها بقلمنا، انظرها هناك ص١٦٢.

وقد فسَّر سُويد بن كُراع العُكلي[7] ما قلنا في قوله:

أبِيتُ بأبوابِ القوافي كأنَّما ... أُصادي بها سِربًا من الوحشِ نُزَّعا
أُكالئُها حتى أُعرِّسَ بعدما ... يكونُ سُحيرٌ أو بُعيدٌ فأهجَعا
عواصيَ إلَّا ما جعلتُ أمامَها ... عصا مِربدٍ تَغْشى نُحورًا وأذرُعا
أهبْتُ بغُرِّ الآبداتِ وراجعَتْ ... طريقًا أملَّتْه القصائدُ مَهيَعا
بعيدةُ شأوٍ لا يكادُ يَرُدُّها ... لها طالبٌ حتى يَكِلَّ ويَظلَعا
إذا خِفتُ أنْ تَرْدى عليَّ رددتُها ... وراءَ التراقي خَشيةً أنْ تَطلَّعا
وجشَّمني خوفُ ابنِ عفَّانَ ردَّها ... فثقَّفتُها حَولًا جَرِيدًا ومَربَعا[8]
وقد كان في نَفْسي عليها زيادةٌ ... فلمْ أرَ إلَّا أنْ أُطيعَ وأسمَعا

ولا حاجة بنا مع هذه الفِقَر إلى الزيادة في الدليل على ما قلنا؛ ولذلك قال الحطيئة:[9] خيرُ الشعر الحَوليُّ المحكَّك.

---

[7] سويد بن كراع العكلي: شاعرٌ مقدَّم من شعراء الدولة الأموية، وكان رجل بني عكل وذا الرأي والتقدم فيهم. وعكل، وضبة، وعدي، وتيم، يُقال لهم الرباب. وأول هذه الأبيات التي رواها له الجاحظ في الأصل:

تقولُ ابنةُ العوفيِّ ليلى ألا ترى ... إلى ابنِ كُراعٍ لا يزالُ مُفزَّعا
مَخافةَ هذَين الأميرَينِ سهَّدتْ ... رُقادي وغشَّتني بياضًا تفرَّعا
على غيرِ جُرمٍ غيرَ أنْ جارَ ظالمٌ ... عليَّ فجهَّزتُ القصيدَ المقرَّعا
وقد هابَني الأقوامُ لمَّا رميتُهم ... بفاقرةٍ إن همَّ أنْ يَتشجَّعا

وفي رواية صاحب الأغاني لهذه الأبيات تغيير وتبديل وزيادة ونقص.

[8] وابن عفان: هو سعيد بن عثمان بن عفان.

[9] الحطيئة: هو جَروَل بن أُويس بن مالك العبسي، شاعر مُخضرَم من فحول الشعراء ومقدَّميهم وفصحائهم، كان مُتصرفًا في فنون الشعر، مُجيدًا في كل ضرب من ضروبه، مع سلاطة ودناءة وخِسَّة في النفس، ولم تقف به الخسة عند حد أن يهجوَ من يُحسِن إليه، بل تناول بالهجو أباه وأمه وزوجته وحتى نفسه. هجا الزِّبرقان بن بدر، فرفع أمره إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فحبسه عمر، وهي أول عقوبة وقعت في الإسلام على بذاءة القول وقذعه، فقال وهو في الحبس:

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذِي مَرخٍ ... زُغبِ الحواصلِ لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيتَ كاسِبَهم في قعرِ مُظلِمةٍ ... فاغفِرْ عليك سلامُ اللهِ يا عُمرُ

وكان الأصمعي يقول: زُهير بن أبي سُلمى والحُطيئة وأشباههما عَبيدُ الشعر. وكذلك كل من يجوِّد في جميع شعره، ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يُخرج أبيات القصيدة كلها مُستوية في الجودة.

وكان يُقال: لولا أن الشعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة، ومن يلتمس قعر الكلام، واغتصاب الألفاظ، لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهلًا ورهوًا، وتنثال عليهم الألفاظ انثيالًا، وإنما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي ورؤبة؛ ولذلك قالوا في شعره: مِطرَف بآلاف، وخِمار بوافٍ. وكان يُخالف في جميع ذلك الرُّواة والشعراء.

وكان أبو عُبيدة يقول، ويحكي ذلك عن يونس: ومن تكسَّب بشعره، والتَمس به صِلات الأشراف والقادة، وجوائز الملوك والسادة، في قصائد السِّماطين، وبالطِّوال التي تُنشَد يوم الحفل، لم يجد بُدًّا من صنيع زُهير والحُطيئة وأشباههما، وإذا قالوا في غير ذلك أخذوا عفو الكلام وتركوا المجهود، ولم ترهم مع ذلك يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد، وفي صنعة طوال الخطب، بل كان الكلام البائت عندهم كالمقتضَب اقتدارًا عليه، وثقةً بحسن عادة الله عندهم فيه.

وكانوا مع ذلك إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير ومهمات الأمور، بيَّتوه في صدورهم، وقيَّدوه على أنفسهم، فإذا قوَّمه الثقَّاف، وأُدخل الكير، وقام على الخِلاص، أبرزوه محكَّكًا منقَّحًا، ومصفًّى من الأدناس مهذَّبًا.

وقال الربيع بن أبي الحُقَيق[10] لأبي ياسر النضيري:

فلا تُكثِرِ النَّجوى وأنتَ مُحارِبٌ ... تُؤامِرُ فيها كلَّ نِكْسٍ مُقصِّرِ

أنتَ الإمامُ الذي من بعدِ صاحِبِه ... ألقتْ إليكَ مَقاليدَ النُّهى البَشرُ
لم يؤثِروكَ بها إذ قدَّموكَ لها ... لكنْ لأنفُسِهم كانت بك الأثَرُ
فامنُنْ على صِبيةٍ بالرَّملِ مَسكنُهم ... بينَ الأباطحِ تَغْشاهم بها القررُ
أهلي فِداؤك كم بيني وبينهمُ ... من عرضِ داويةٍ يَعمى بها الخبرُ

فبكى عمر وعفا عنه، وأخذ عليه العهد ألا يعود، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. مات سنة ٥٩هـ/٦٧٨م.

وكان عبد الله بن وهب الراسبي يقول: إيَّايَ والرأيَ الفطير. وكان يستعيذ بالله من الرأي الدَّبَري.

وقال سحبان وائل: شرُّ خليطَيك السَّئُوم المُحزم. لأن السئوم لا يصبر، وإنما التفاضل في الصبر، والمحزم صعب لا يعرف ما يُراد منه، وليس الحزم إلا بالتجارب، ولأن عقل الغريزة مُسلِم إلى عقل التجربة؛ ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: رأي الشيخ أَحَبُّ إلينا من جَلَد الشباب. ولذلك كرهوا ركوب الصعب حتى يذل، والمُهر الأرِن[11] إلا بعد طول الرياضة، ولم تُحوَّل المعانيق هماليج إلا بعد طول التخليع، ولم يحلبوا الزَّبون إلا بعد الإبساس.

وسنذكُر من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربي، ولم يُشاركه فيه عجمي، ولم يُدَّعَ لأحد ولا ادَّعاه أحد، مما صار مستعملًا ومثلًا سائرًا.

فمن ذلك قوله: «يا خيلَ الله اركَبي.» ومن ذلك قوله: «مات حَتْفَ أنفه.» ومن ذلك قوله: «لا ينتطح فيه عَنزان.» ومن ذلك قوله: «الآن حَمِي الوطيس.»

ولما قال عدي بن حاتم في قتل عثمان رضي الله تعالى عنه «لا تَحبِق فيه عَناق»،[12] قال له معاوية بن أبي سفيان، رحمهما الله، بعد أن فُقئت عينه وقُتل ابنه: يا أبا طَريف، هل حبَقتْ في قتل عثمان عَناق؟ قال: إي والله، والتيس الأضجم. فلم يصر كلامه مثلًا، وصار كلام رسول الله ﷺ مثلًا.

---

[10] الربيع بن أبي الحُقيق: رئيس من رؤساء بني قُريظة، وشاعر من أكابر شعراء اليهود، وكان على بني قريظة يوم بعاث. قال أبو عبيدة: أقبل النابغة الذبياني يريد سوق بني قينقاع، فلحقه الربيع نازلًا من أطمه، فلما أشرفا على السوق سمعا الضجة، وكانت سوقًا عظيمة، فحاصت بالنابغة ناقته فأنشأ يقول: كادت تهال من الأصوات راحلتي.

فقال الربيع: والنفر منها إذا ما أوجست خلق.

فقال النابغة: لولا أُنهنِهُها بالسوط لاجتذبت.

فقال الربيع: منِّي الزِّمام وإني راكبٌ لبق.

فقال النابغة: قد ملَّت الحبس في الآطام واشتعفت.

فقال الربيع: إلى مَناهلها لو أنها طلق.

فقال النابغة: أنت يا ربيع أشعَرُ الناس.

[11] المهر الأرن: المرح النشيط الذي لم يمرن.

[12] لا تحبق فيه عناق: لا تضرط فيه عنز صغيرة.

ومن ذلك قوله لأبي سفيان بن حرب: «كل الصَّيد في جَوفِ الفَرا.» ومن ذلك قوله: «هُدنة على دَخَن، وجماعة على أقذاء.»[١٣] ومن ذلك قوله: «لا يُلسَع المؤمن من جحر مرتين.»

ألا ترى أن الحارث بن خدَّان، حين أُمر بالكلام عند مقتل يزيد بن المهلَّب،[١٤] قال: يا أيها الناس، اتقوا الفتنة؛ فإنها تُقبِل بشبهة، وتُدبِر ببيان، وإن المؤمن لا يُلسع من جُحر مرتين. فضرب بكلام رسول الله ﷺ المثل، ثم قال: اتقوا عُصَبًا تأتيكم من الشام كأنها دِلاء قد انقطع وذَمُها.[١٥]

وقال ابن الأشعث[١٦] لأصحابه وهو على المنبر: قد علِمنا إن كنا نعلم، وفهِمنا إن كنا نفهم، أن المؤمن لا يُلسع من جُحر مرتين، وقد والله لُسعت بكم من جحرٍ ثلاث مرات، وأنا أستغفر الله من كل ما خالف الإيمان، وأعتصم به من كل ما قرَّب من الكفر.

وأنا أذكُر بعد هذا فنًّا آخر من كلامه ﷺ، وهو الكلام الذي قلَّ عدد حروفه، وكثُر عدد معانيه، وجلَّ عن الصنعة، ونُزه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾. فكيف وقد عاب التشديق، وجانَب أصحاب التقعير، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب

---

[١٣] على دخن: على علة وفساد نية.

[١٤] يزيد بن المهلب: كان أميرًا من أمراء الدولة الأموية، وقائدًا من قُوادها العِظام. أبلى مع أبيه المهلب بن أبي صفرة في حروب الخوارج بلاءً حسنًا، وكان شجاعًا بطلًا. وليَ خراسان بعد أبيه وسنُّه ثلاثون سنة، فعزله عبد الملك بمشورة الحجَّاج وكان له مُبغضًا، مع أن أخت يزيد كانت تحت الحجَّاج، ثم حبسه الحجاج وعذَّبه، فهرب من حبسه ومضى إلى الشام مُستشفعًا بسليمان بن عبد الملك، فشفع له إلى الوليد بن عبد الملك، فأمَّنه وكفَّ عنه، ثم ولَّاه سليمان خراسان حينما أفضت الخلافة إليه، فافتتح جرجان ودهستان، ثم أقبل يريد العراق ومعه الغنائم، فعلم بموت سليمان فمال إلى البصرة، فخادَعه عدي بن أرطاة وأوثقه، وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز فحبسه، فهرب من محبسه، ثم خرج على يزيد بن عبد الملك، فوجَّه إليه مَسلمة بن عبد الملك والعبَّاس بن الوليد في جيشٍ كثيف، فالتقَوا بالعقر من أرض بابل، فقُتل يزيد سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م.

[١٥] وذم الدلاء: سُيورها.

[١٦] ابن الأشعث: هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث. كان شجاعًا بطلًا، أبلى في حروب الخوارج بلاءً حسنًا، وكان تقيًّا غيورًا، هاله ما رأى من ظلم الحجَّاج وجوره فخرج عليه، وتبعه القُرَّاء والعلماء والمحدِّثون، وكانت له معه وقائع هائلة، ومنها وقعة الأهواز ووقعة الزاوية ووقعة دير الجماجم ووقعة دحبيل. وقُتل سنة ٨٣هـ/٧٠٢م.

الوحشي، ورغب عن الهجين السُّوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُف بالعصمة، وشُيِّد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق.

وهذا الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى مُعاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلَّت له قَدَم، ولا بارت له حجة، ولم يقُم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يَبذُّ الخطب الطوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتجُّ إلا بالصدق، ولا يطلب الفَلَج[١٧] إلا بالحق، ولا يستعين بالخَلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يُبطئ ولا يعجل، ولا يُسهب ولا يُحصر. ثم لم يسمع الناس بكلامٍ قطُّ أعمَّ نفعًا، ولا أصدَقَ لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبيَنَ في فحواه، من كلامه ﷺ كثيرًا. ولم أرَهم يذمُّون المُتكلف للبلاغة فقط، بل كذلك يرَون المُتظرف والمُتكلف للغناء، ولا يكادون يضعون اسم المُتكلف إلا في المواضع التي يذمُّونها. قال قيس بن خطيم:[١٨]

فما المالُ والأخلاقُ إلَّا مُعارةٌ فما اسطَعتَ من مَعروفِها فتَزوَّدِ
وإنِّي لأغْنى الناسِ عن مُتكلِّفٍ يرى الناسَ ضُلَّالًا وليس بمُهْتَدِ

وقال ابن قميئة:[١٩]

وحمَّالِ أثقالٍ إذا هي أعرَضَتْ عنِ الأصلِ لا يَسْطِيعُها المُتكلِّفُ

---

[١٧] الفلج: الظَّفر والغلب.

[١٨] قيس بن خطيم: هو قيس بن الخطيم الأوسي، شاعرٌ جاهلي فَحْل. قُتل أبوه وهو صغير، فلما بلغ قتَل قاتل أبيه؛ وبسبب ذلك نشأت حروب بين الأوس والخزرج. وزعموا أن قيسًا كان جميلًا، مقرون الحاجبَين، أدعج العينَين، أحمر الشفتَين، برَّاق الثنايا. وكانت زوجته حوَّاء بنت يزيد قد أسلمت دون علمه، فلما قَدِم مكة عرض عليه النبي الإسلام فاستنظره قيس حتى يقدم النبي المدينة، فسأله النبي أن يجتنب زوجته وأوصاه بها خيرًا، ففعل وحفظ الوصية، فقال النبي ﷺ: وفى الأُدَيعج. مات قبل أن يُسلِم وقُبيل الهجرة.

[١٩] ابن قميئة: هو عمرو بن قميئة بن ذريح البكري، شاعرٌ جاهلي قديم، وهو أقدم من امرئ القيس، لقيه امرؤ القيس في آخر عمره، وأخرجه معه إلى قيصر بالقسطنطينية فمات في طريقه. ويُعَد في فحول

وقال محمد بن سلام، قال يونس بن حبيب: ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله ﷺ.

وقد جمعنا في هذا الكتاب جُملًا التَقطناها من أفواه أصحاب الأخبار، ولعل بعض من لم يتَّسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلام، يظن أن قد تكلَّفنا له من الامتداح والتشريف، ومن التزيين والتجويد، ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره، كلا والذي حرَّم التزيُّد على العلماء، وقبَّح التكلُّف عند الحكماء، وبَهْرج الكذَّابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضل سعيُه.

فمن كلام رسول الله ﷺ حين ذكر الأنصار فقال: «أمَا والله ما علِمتُكم إلا لتَقلُّون عند الطمع، وتكثُرون عند الفزع.» وقال: «الناس كلهم سواء كأسنان المشط»، و«المرء كثير بأخيه»، و«لا خير في صحبة من لا يرى لك ما يرى لنفسه.»

وقال الشاعر:

سواءٌ كأسنانِ الحِمارِ فلا ترى — لِذِي شَيبةٍ منهم على ناشئٍ فَضْلا

وقال آخر:

شبابُهمُ وشِيبُهمُ سواءٌ — فهُمْ في اللَّونِ أسنانُ الحِمارِ

وإذا حصَّلت تشبيه الشاعر وحقيقته، وتشبيه النبي ﷺ وحقيقته، علمت فضل ما بين الكلامين.

وقال رسول الله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمَّتهم أدناهم، ويردُّ عليهم أقصاهم، وهم يدٌ على من سواهم.»

فتفهَّمْ، رحمك الله، قلة حروفه، وكثرة معانيه.

وقال ﷺ: «اليد العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى»، و«ابدأ بمن تَعُول.» وقال: «لا تَجنِ يمينك على شِمالك.» وذكر الخيل فقال: «بطونها كنز، وظهورها حِرز.» وقال: «خير المال مُهرةٌ مأمورة، وسكَّةٌ مأبورة.» [٢٠] وقال: «خير المال عينٌ ساهرة لعينٍ نائمة.» وقال: «نِعْمت

الطبقة الثانية في الشعراء. وزعموا أنه كان جميلًا، حسن الوجه، مديد القامة. ومات عن سنٍّ عالية سنة ٥٦٠م.

العمَّة لكم النخلة، تُغرَس في أرضٍ خوَّارة،[21] وتشرب من عينٍ خرَّارة.» وقال: «المُطعِمات في المَحْل، الراسخات في الوَحْل.» وقال: «الحِمى[22] في أصول النخل.» وذكر الخيل فقال: «أعرافها أدفاؤها، وأذنابها مَذابُّها»، و«الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.» وقال: «ليس منا من حلَق أو صلَق أو شَق.»[23] وقال: «نهيتكم عن عقوق الأمهات، ووأد البنات، ومنعٍ وهات.» وقال: «الناس كإبلٍ مائة لا تجد فيها راحلة.»[24] وقال: «ما أملَقَ تاجرٌ صَدوق.» وجاء في الحديث: «ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى.» وقال: «يحمل هذا العلمَ من كل خلَفٍ عُدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المُبطِلين، وتأويل الجاهلين.»

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، قال رسول الله ﷺ: «الخير في السيف، والخير مع السيف، والخير بالسيف.» وقال: «لا يُورَدنَّ مُجرِبٌ على مُصِح.»[25] وقال: «لا تزال أمَّتي صالحًا أمرُها ما لم ترَ الأمانة مَغنمًا، والصدقة مَغرمًا»، و«رأس العقل بعد الإيمان بالله مُداراة الناس»، و«لن يهلك امرؤ بعد مشورة.» وقال: «المُستشار مؤتمن.» وقال: «المستشار بالخيار، إن شاء قال، وإن شاء أمسك.» وقال: «رحمَ الله عبدًا قال خيرًا فغَنِم، أو سكت فسَلِم.» وقال: «افصلوا بين حديثكم بالاستغفار.» وقال: «استعينوا على طول المشي بالسعي.» وقال للختانة: «يا أم عطية، أشِمِّيه ولا تنهكيه؛ فإنه أسْرى للوجه، وأحظى عند الزوج.» وقال: «لا تجلسوا على ظهور الطريق؛ فإن أبَيتم فغُضُّوا الأبصار، ورُدُّوا السلام، واهدوا الضال، وأعينوا الضعيف.» وقال: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا؛ يرضى لكم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبله جميعًا ولا تتفرقوا، وأن تُناصحوا من ولَّاه الله أمركم؛ ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال.» وقال: «يقول ابن آدم: مالي مالي. وإنما لك من مالك ما أكلتَ فأفنَيت، أو لبِستَ

[20] مأمورة: منتجة. وسكة مأبورة: السكة الطريقة المصطفة من النخل، أو الأرض المصلحة المعدة للحرث.

[21] خوارة: سهلة لينة.

[22] الحمى: الممنوع الدنو منه.

[23] الصلق: الصوت الرائع من البواكي والنوائح عند الفواجع.

[24] يعني أن خيار الناس في الندرة كالراحلة الصالحة في الإبل.

[25] يعني أن ذا الإبل الجرباء يحظر عليه الدخول بها على ذي الإبل الصحيحة لئلا تنتقل إليها عدواها.

فأبلَيت، أو وهبتَ فأمضَيت.» وقال: «لو أن لابن آدم واديَين من ذهب لسأل إليهما ثالثًا»، و«لا يملأ جوفَ ابن آدم إلا الترابُ، ويتوب الله على من تاب.» وقال: «إن الدنيا حُلوةٌ خضِرة، وإن الله مُستعمِلكم فيها فناظِرٌ كيف تعملون.» وقال: «إن أحبَّكم إليَّ وأقربكم مني مجالس[٢٦] يوم القيامة، أحاسِنُكم أخلاقًا، المُوطَّئون أكنافًا، الذين يألَفون ويؤلَفون، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة، الثَّرثارون المُتشدقون المُتفيهقون.» وقال: «إيَّايَ والتشادق.» وقال: «إيَّاي والفُرج في الصلاة.» وقال: «لا يؤمن ذو سلطان في سلطانه، ولا يُجلس على تَكرِمته، إلا بإذنه.» وقال: «إيَّاكم والمُشارَّة؛ فإنها تُميت الغُرَّة، وتُحيي العَرَّة.» وقال: «لا ينبغي لصديقٍ أن يكون لعَّانًا.» وقال: «أعوذ بالله من الأعميَين وبَوار الأيِّم.» وكان يقول: «أعوذ بالله من دعاء لا يُسمع، وقلب لا يخشع، وعلم لا ينفع.»

وقال رجل: يا رسول الله، أوصِني بشيءٍ ينفعني الله به. قال: «أكثِرْ ذِكر الموت يُسلِّكَ عن الدنيا، وعليك بالشكر فإن الشكر يزيد في النعمة، وأكثِرِ الدعاء فإنك لا تدري متى يُستجاب لك.» وقال: «أيها الناس إنما بَغيُكم على أنفسكم»، و«إيَّاك والبَغي؛ فإن الله قد قضى أنه من بُغي عليه لينصرنَّه الله»، و«إيَّاك والمكر؛ فإن الله قد قضى أن لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.» وقيل: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ فقال: «اجتناب المحارم، ولا يزال فوك رطبًا من ذِكر الله.» وقيل له: أي الأصحاب أفضل؟ فقال: «الذي إذا ذكَرت أعانك، وإذا نسيت ذكَّرك.» وقيل: أي الناس شر؟ قال: «العلماء إذا فسدوا.» وقال: «دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم؛ الحسد والبغضاء. والبغضاء هي الحالقة، حالقة الدين لا أقول حالقة الشَّعر. والذي نفس محمد بيده لا تؤمنون حتى تحابُّوا، أوَلا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم.» وقال: «تهادَوا تحابُّوا.»

وعن الحسن قال، قال رسول الله ﷺ: «أوصاني ربي بتسع؛ أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، وبالعدل في الرضا والغضب، وبالقصد في الغنى والفقر، وأن أعفوَ عمن ظلمني، وأعطيَ من حرَمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرًا، ونطقي ذكرًا، ونظري عِبرًا.»

وثلاث كلمات رُويت مُرسَلة، وقد رُويت لأقوامٍ شتى، وقد يجوز أن يكون إنما حكَوها ولم يبتدئوها، منها قوله: «لو تكاشفتم لما تدافنتم.» ومنها قوله: «الناس بأزمانهم أشبَهُ منهم بآبائهم.» ومنها قوله: «ما هلك امرؤٌ عرف قدره.»

[٢٦] في الأصل: مجلسًا، والصواب ما أثبتناه، عن النهاية لابن الأثير.

وقال إسماعيل بن عيَّاش، عن عبد الله بن دينار قال، قال النبي ﷺ: «إن الله كَرِه لكم العبث في الصلاة، والرَّفَث في الصيام، والضحك عند المقابر.» وقال: «إذا أذَّنتَ فترسَّل، وإذا أقمت فاجزم.»

وحدَّثنا إسماعيل بن عيَّاش الحِمصي، عن الحسن بن دينار، عن الحصيب بن جُحدر، وهو من حديث معاذ بن جبل قال، قال رسول الله ﷺ: «ليس من أخلاق المؤمن الملَقُ إلا في طلب العلم.» ومن حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «قيِّدوا العلم بالكتاب.» قال: «ويقول الله: لولا رجالٌ خُشَّع، وصِبيان رُضَّع، وبهائم رُتَّع، لصببت عليكم العذاب صبًّا.»

ومن حديث عبد الله بن المُبارَك، رفعه، قال: «إذا ساد القبيلَ فاسِقُهم، وكان زعيمَ القوم أرذلُهم، وأُكرمَ الرجل اتِّقاء شره، فلينتظروا البلاء.»

ومن حديث ابن أبي ذئب، عن المُغيرة، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال ﷺ: «ستحرصون على الإمارة، فنِعمت المُرضِعة، وبئست الفاطمة.»

ومن حديث عبد الملك بن عُمير، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا يحكم الحاكم بين اثنين وهو غضبان.»

ومن حديث عبد الله بن المبارك قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «إن قومًا ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس، فقالوا له: ما تصنع؟ فقال: هو مكاني أصنع فيه ما شئت. فإن أخذوا على يدَيه نجا ونجَوا، وإن تركوه هلك وهلكوا.» وقال: «علِّقْ سَوطك حيث يراه أهلك.»

ودخل السائب بن أبي صيفي على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أتعرفني؟ قال: «كيف لا أعرف شريكي الذي كان لا يُشاريني ولا يُماريني؟»

وقال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بالوالي يَجلد فوق ما أمر الله به فيقول له الرب: عبدي، لمَ جلدتَ فوق ما أمرتُك به؟ فيقول: ربي، غضبتُ لغضبك. فيقول: أكان ينبغي لغضبك أن يكون أشدَّ من غضبي؟ ثم يُؤتى بالمقصِّر فيقول: عبدي، لمَ قصَّرتَ عما أمرتُك به؟ فيقول: ربي، رحِمتُه. فيقول: أكان ينبغي لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتي؟ قال: فيأمر فيهما بشيء قد ذكره لا أعرفه، إلا أنه قال: صيَّرهما إلى النار.»

قال وكيع: حدَّثنا عبد العزيز بن عمر، عن قزَعة قال، قال لي ابن عمر: أودِّعك كما ودَّعني رسول الله ﷺ: «أستودع الله دِينَك وأمانتك وخواتيم عملك.» وقال: «كل أرض بسمائها.»

وروى سعيد بن عُفير، عن ابن لَهيعة، عن أشياخه، أن النبي ﷺ كتب لوائل بن حُجر الحضرمي ولقومه:

> من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة[٢٧] من أهل حضرموت، بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، على التِّيعة شاة، والتِّيمة لصاحبها، وفي السُّيوب[٢٨] الخُمس، لا خِلاط، ولا وِراط، ولا شِناق، ولا شِغار؛[٢٩] فمن أجبى فقد أربى.[٣٠] وكل مُسكِر حرام.

ومن حديث راشد بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُغالوا في النساء؛ فإنما هُنَّ سُقْيا الله.» وقال رسول الله ﷺ: «خير نساء رَكِبن الإبل صوالحُ نساء قريش؛ أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على بعل في ذوات يده.»

وقال مجالد عن الشعبي، قال رسول الله ﷺ: «اللهم أذهِبْ مُلْك غسَّان، وضَعْ مُهور كِندة.»

والذي يدلك على أن الله قد خصَّه من الإيجاز وقلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني، قوله ﷺ: «نُصِرت بالصَّبا، وأُعطيت جوامع الكلم.» ومما رُوي عنه ﷺ من استعمال الأخلاق الكريمة، والأفعال الشريفة، وكثرة الأمر بها، والنهي عما خالف عنها، قوله: «من لم يقبل

[٢٧] الأقيال العباهلة: هم الذين أُقِرُّوا على ملكهم لا يُزالون عنه. وواحد العباهلة: عبهل.

[٢٨] التيعة: اسم لأدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان، وهي كالخُمس من الإبل، والأربعين من الغنم. والتيمة: الشاة الزائدة على الأربعين حتى تبلغا الفريضة الأخرى، أو هي الشاة تكون لصاحبها في منزله يحتلبها وليست بسائمة. والسيوب، قال الزمخشري: السيوب جمع سيب، يريد به المال المدفون في الجاهلية أو المعدن؛ لأنه من فضل الله تعالى وعطائه لمن أصابه.

[٢٩] الخلاط: أن يخلط الرجل ماله من ماشية بما لغيره ليبخس حق الله في الزكاة. والوراط: أن تُخفي مالك من ماشية في وهدة من الأرض أو تغيِّبها في مال غيرك لكيلا يراها المصدق فيأخذ زكاتها. والشناق: ألا يؤخذ في الزائد على الفريضة زكاة إلى أن تبلغ الفريضة الأخرى. والشغار: أن تُزوج الرجل بنتك أو أختك أو التي تلي أمرها من محارمك على أن يُزوجك نظيرتها دون أن يكون بينكما مهر. وقد كان هذا النكاح معروفًا في الجاهلية فأبطله الإسلام بهذا الحديث.

[٣٠] أجبى، الإجباء: بيع الزرع قبل أن يبدوَ صلاحه، أو هو مُواراة المال عن المصدق فرارًا من الزكاة. وقيل: هو العِينة، وهو أن يبيع من رجلٍ سلعة بثمنٍ معلوم إلى أجلٍ مسمًّى ثم يشتريها منه بالنقد بأقل من الثمن الذي باعها به.

عذرًا من مُتنصِّل، صادقًا كان أو كاذبًا، لم يَرِد عليَّ الحوض.» وقال في آخر وصيته: «اتقوا الله في الضعيفَين.» وكلَّمته جارية في السَّبي فقال لها: «من أنتِ؟» قالت: «أنا بنت الرجل الجواد حاتم.» فقال النبي ﷺ: «ارحموا عزيزًا ذل، ارحموا غنيًّا افتقر، ارحموا عالِمًا ضاع بين جُهال.» وقال النبي ﷺ: «سرعة المشي تذهب ببهاء المؤمن.»

وعن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الأحاديث ستكثُر عني بعدي كما كثرت عن الأنبياء من قبلي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافَق كتاب الله فهو عني قلته أو لم أقله.»

وسئلت عائشة، رضي الله تعالى عنها، عن خُلُق النبي ﷺ، فقالت: «خُلُق القرآن.» وتلت قول الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال محمد بن علي: أدَّب الله محمدًا ﷺ بأحسن الآداب، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. فلما وعى قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ﴾.

قال: حدَّثنا علي بن مجاهد قال، حدَّثنا هشام بن عُروة قال، سمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلًا يُنشد:

متى تأتِه تَعشُو إلى ضَوءِ نارِه   تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ

فقال عمر: ذاك رسول الله ﷺ.

وقد كان الناس يستحسنون قول الأعشى:

تُشَبُّ لمَقرورَينِ يَصطليانِها   وباتَ على النارِ النَّدى والمُحلِّقُ

فلما قال الحُطيئة البيت الذي كتبناه قبل هذا سقط بيت الأعشى.

وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال المسروق منه في تهمة من هو بريء حتى يكون أعظم جُرمًا من السارق.»

وقال أبو الحسن: أجرى رسول الله ﷺ الخيل وسابَق بينها، فجاء فرس له أدهم سابقًا، فجثا رسول الله ﷺ على ركبتَيه وقال: «ما هو إلا البحر.»

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: كذب الحطيئة حيث يقول:

وإنَّ جِيادَ الخيلِ لا تَستفزُّنا   ولا جاعلاتُ العاجِ فوقَ المَعاصِمِ

وقد زعم ناس من العلماء أنه لم يستفزُّه سبق فرسه، ولكنه أراد إظهار حب الخيل وتعظيم شأنها.

وكان رسول الله ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس على الأرض، ويلبس العباء، ويُجالس المساكين، ويمشي في الأسواق، ويتوسَّد يده الشريفة، ويُقصُّ من نفسه، ويلطَع أصابعه،[٣١] ولا يأكل متَّكئًا، ولم يُرَ قط ضاحكًا ملء فيه، وكان يقول: «إنما أنا عبد؛ آكل كما يأكل العبد، وأشرب كما يشرب العبد، ولو دُعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أُهديَ إليَّ كُراع[٣٢] لقَبِلت.» لم يأكل قط وحده، ولا ضرب عبده، ولا ضرب أحدًا بيده إلا في سبيل ربه، ولو لم يكن من كرم عفوه، ورجاحة حِلمه، إلا ما كان منه يوم فتح مكة، لقد كان ذلك من أكمل الكمال؛ وذلك أنه حين دخل مكة عَنوةً وقد قتلوا أعمامه وبني أعمامه، وأولياءه وقادة أنصاره، بعد أن حصروه في الشِّعاب، وعذَّبوا أصحابه بأنواع العذاب، وجرحوه في بدنه، وآذَوه في نفسه، وسفِهوا عليه، وأجمعوا على كيده، فلما دخلها بغير حمدهم، وظهر عليهم على ضغن[٣٣] منهم، قام فيهم خطيبًا، فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال:

> أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وإنما نقول في كل باب بالجملة من ذلك المذهب، وإذا عرفتم أول كل باب كنتم خُلقاء أن تعرفوا الأواخر بالأوائل، والمصادر بالموارد.

(١) خطبة الوداع

ومن خطبه ﷺ خطبة حجة الوداع، وهي:

> الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي

[٣١] يلطع أصابعه: يلحسها.

[٣٢] الكراع: مستدق الساق.

[٣٣] في نسخة: على صغر، ولا معنى لذلك ها هنا، وإنما هو على ضغن كما أثبتناه.

له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله، وأحثُّكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد، أيها الناس، اسمعوا مني أبيِّن لكم؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقَوا ربكم، كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.

ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد.

فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى من ائتمنه عليها. وإنَّ ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربًا أبدأ به ربا عمي العبَّاس بن عبد لمطلب. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السَّدانة والسِّقاية. والعمد قَوَد، وشِبه العمد ما قُتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير؛ فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعبَد في أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ[٣٤] زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ﴾، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، و﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، ثلاثة مُتواليات وواحد فرد؛ ذو القَعدة وذو الحِجَّة والمحرَّم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان.

ألا هل بلَّغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقًّا، ولكم عليهن حق؛ لكم عليهن ألا يُوطِئن فُرُشكم غيركم، ولا يُدخِلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة؛ فإن فعلن فإن الله قد أذِن لكم أن تَعضُلوهن وتهجروهن في المَضاجع

---

[٣٤] في نسخة: إن النسيء، والصواب: إنما النسيء، كما جاء في الكتاب القديم.

وتضربوهن ضربًا غير مبرِّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فُروجهن بكلمة الله؛ فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرًا.

ألا هل بلَّغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحلُّ لامرئٍ مال أخيه إلا عن طِيب نفس منه.

ألا هل بلَّغت؟ اللهم فاشهد.

فلا ترجعُنَّ بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض؛ فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده؛ كتاب الله.

ألا هل بلَّغت؟ اللهم فاشهد.

أيها الناس، ربكم واحد، وإن أباكم واحد؛ كلكم لآدم، وآدم من تراب. أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضلٌ إلا بالتقوى.

ألا هل بلَّغت؟ اللهم فاشهد. قالوا: نعم. قال: فليُبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسَم لكل وارث نصيبَه من الميراث، ولا يجوز لوارثٍ وصية، ولا يجوز وصية في أكثر من الثلث. والولد للفِراش، وللعاهر الحجر. من ادَّعى إلى غير أبيه، أو تولَّى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبَل منه صرف ولا عدل. والسلام عليكم ورحمة الله.

وعن الحسن قال: جاء قيس بن عاصم المِنقري[٣٥] إلى رسول الله ﷺ، فلما نظر إليه قال: هذا سيِّد أهل الوبر. فقال: يا رسول الله، خبِّرني عن المال الذي لا تكون عليَّ

[٣٥] قيس بن عاصم المنقري: هو قيس بن عاصم بن سنان بن خالد، ويُكنى أبا علي. كان سيدًا شريفًا موصوفًا بالحِلم. قدِم على رسول الله ﷺ في وفد تميم بعد الفتح فأسلم. وكان الأحنف بن قيس يقول: تعلَّمت الحِلم من قيس بن عاصم، أُوتي بقاتل ابنه فقال: أزعجتم الفتى. وكان ابن عمه، ثم أقبل عليه وقال: يا بُني، نقصت من عددك، وأوهنت من رُكْنك، وفتتَّ في عضدك، وأشمتَّ عدوك، وأسأت بقومك. خلُّوا سبيله. وما حل حبوته، ولا تغير وجهه. وقال ابن الأعرابي: قيل لقيس: بماذا سُدْت قومك؟ فقال: بثلاث؛ بذل الندى، وكف الأذى، ونصر الولي. وكان شاعرًا فحلًا، وشجاعًا باسلًا، كثير الغارات في الجاهلية والإسلام، مظفَّرًا في غزواته. تُوفي سنة ٤٧هـ/٦٦٧م.

فيه تبعةٌ من ضيفٍ ضافني، أو عيال إن كثروا عليَّ. قال: نعم، المال الأربعون، والأكثر الستون، وويلٌ لأصحاب المِئين إلا من أعطى في رَسْلها ونجدتها،[٣٦] وأطرق فحلها، وأفقر ظهرها، ونحر سمينها، وأطعم القانع والمُعتر. قال: يا رسول الله، ما أكرمَ هذه الأخلاقَ وأحسنها! وما يحل بالوادي الذي أكون فيه أكثر من إبلي. قال: فكيف تصنع بالطَّرُوقة؟ قال: تغدو الإبل ويغدو الناس، فمن شاء أخذ برأس بعير فذهب به. قال: فكيف تصنع بالإفقار؟[٣٧] قال: إني لأُفقِر البَكر الضَّرِع والناب المُسنَّة. قال: فكيف تصنع بالمَنيحة؟ قال: إني لأمنح في كلِّ سنةٍ مائة. قال: فأي المال أحب إليك؛ أمالك أم مال مواليك؟ قال: بل مالي. قال: فما لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو أعطيت فأمضيت، وما سوى ذلك للمواريث.

وذكر أبو المِقدام هشام بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي[٣٨] قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز رحمه الله في مرضه الذي مات فيه، فجعلت أُحدُّ النظر إليه، فقال لي: يا ابن كعب، ما لك تُحدُّ النظر إليَّ؟ قلت: لِما نحل من جسمك، وتغيَّر من لونك. قال: فكيف لو رأيتني بعد ثلاثة في قبري، وقد سالت حدَقتاي على وجنتيَّ، وابتدر فمي وأنفي صديدًا ودودًا؛ كنت لي أشد نَكَرةً، أعِدْ عليَّ حديثًا كنت حدَّثتنيه عن ابن عباس. قلت: سمعت ابن عباس يقول، كان رسول الله ﷺ يقول: «إن لكل شيء شرفًا، وإن أشرف المجالس ما استُقبل به القِبلة. ومن أحبَّ أن يكون أعزَّ الناس فليتَّقِ الله، ومن أحبَّ أن يكون أقوى الناس فليتوكَّل على الله، ومن أحبَّ أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده.» ثم قال: «ألا أنبِّئكم بشرار الناس؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «من نزل وحده، ومنع رِفده، وجلد عبده.» ثم قال: «ألا أنبِّئكم بشرٍّ من ذلك؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «من لا يُقيل عَثرةً، ولا يَقبَل مَعذرة.» ثم قال: «ألا أنبِّئكم بشرٍّ من ذلك؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «من لا يُرجى خيره، ولا يؤمَن شره.» ثم قال: «ألا أنبِّئكم بشرٍّ من ذلك؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «من يُبغض الناسَ ويُبغضونه.

[٣٦] رسلها ونجدتها، يُقال: بعيرٌ رسل وناقةٌ رسلة ليِّنة السير. والرسل: القطيع من الإبل.

[٣٧] الإفقار: الإبل التي تُعار للغير.

[٣٨] محمد بن كعب القرظي: راويةٌ إخباري قاصٌّ، يُكنى أبا حمزة. والقرظي نسبة إلى بني قريظة. انتسب يومًا قرظيًّا فقيل له: لِمَ لا تنتسب أنصاريًّا؟ فقال: أكره أن أمنَّ على الله بما لم أفعل. كان يقصُّ في مسجده فسقط عليه وعلى أصحابه فقتلهم. قيل إن ذلك كان في سنة ١١٧هـ/٧٣٥م.

إن عيسى ابن مريم قام خطيبًا في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل، لا تكلَّموا بالحكمة عند الجُهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تُكافئوا ظالمًا فيبطل فضلكم. يا بني إسرائيل، الأمور ثلاثة؛ أمر تبيَّن رشده فاتبعوه، وأمرٌ تبيَّن غيُّه فاجتنبوه، وأمر اختُلف فيه فإلى الله رُدوه.»

وقال النبي ﷺ: كل قوم على زينة من أمرهم، ومَفلحة من أنفُسهم، يُزْرون على من سواهم، ويتبيَّن الحق من ذلك بالمقايسة بالعدل عند ذوي الألباب من الناس. وقال: «من رَضِي رقيقَه فليُمسِكه، ومن لم يرضَ فليبعه، ولا تعذِّبوا عباد الله.» وقال في آخر ما أوصى به: «اتقوا الله في الضعيفَين.»

ابن ثَوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جُبير بن نُفير، عن مالك بن يحامر، عن معاذ بن جبل قال، قال رسول الله ﷺ: «عُمْران بيت المقدس خرابُ يثرب، وخراب يثرب خروجُ المَلحمة، وخروج الملحمة فتح قُسطنطينية، وفتح قُسطنطينية خروج الدجَّال.» ثم ضرب بيده على فخذ الذي حدَّثه أو مَنكبه، ثم قال: «إن هذا لحقٌّ كما أنك ها هنا.» أو «كما أنك قاعد.» يعني معاذًا.[٣٩]

صالح المُرِّي،[٤٠] عن الحسن قال، قال رسول الله ﷺ: «حصِّنوا أموالكم بالزكاة، وداوُوا مَرضاكم بالصدقة، واستقبِلوا البلاء بالدعاء.»

كثير بن هشام، عن عيسى بن إبراهيم، عن الضحَّاك، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: «الجُمعة حجُّ المساكين.»

عوف، عن الحسن، أن النبي ﷺ قال: «اتقوا الله في النساء؛ فإنهن عندكم عَوان، وإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله.»

الواقدي، عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن الله يُحبُّ الجواد من خلقه.»

أبو عبد الرحمن الأشجعي، عن يحيى بن عبد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «ما خلا يهودي بمسلمٍ قطُّ إلا همَّ بقتله.» ويُقال: «حدَّث نفسه بقتله.»

---

[٣٩] لعل هذا الحديث من تسقطات الجاحظ التي أخذه بعضهم بها، وإلا فليس مثل الجاحظ من يروي مثل هذا الحديث على أنه سليم من الشوائب.

[٤٠] صالح المري: كان مولًى لبني مُرة من عبد القيس، وكان من أهل الخير والصلاح، وكان يرى رأي أهل القدر. مات بالبصرة.

أبو عاصم النبيل قال، حدَّثنا عُبيد الله بن أبي زياد، عن شهر بن حَوشب، عن أسماء بنت يزيد قالت، قال النبي ﷺ: «من ذبَّ عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقًّا على الله أن يُحرِّم لحمه على النار.»

إسماعيل بن عيَّاش، عن الحسن بن دينار، عن الخصيب بن جُحدر، عن رجل، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ قال: «ليس من أخلاق المؤمن الملَقُ إلا في طلب العلم.»

عبد ربه بن أعْيَن، عن عبد الله بن ثُمامة بن أنس، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قيِّدوا العلم بالكتاب.» وقال: «فضلُ جاهِك تعود به على أخيك الذي لا جاه له صدقةٌ منك عليه، وفضلُ لسانك تعبِّر به عن أخيك الذي لا لسان له صدقةٌ منك عليه، وفضلُ قوَّتك تعود بها على أخيك الذي لا قوة له صدقةٌ منك عليه، وفضلُ عِلمك تعود به على أخيك الذي لا علم عنده صدقةٌ منك عليه، وإماطتك الأذى عن الطريق صدقةٌ منك على أهله.»

وإنما مدار الأمور والغاية التي يُجرى إليها الفهمُ ثم الإفهام، والطلب ثم التثبُّت.

وقال عمرو بن العاص: ثلاثة لا أملُّهم؛ جليسي ما فَهِم عني، ودابَّتي ما حمَلت رِجلي، وثوبي ما ستر عورتي.

وذكر الشعبي[٤١] ناسًا فقال: ما رأيت مِثلهم أشدَّ تنابذًا في مجلس، ولا أحسن تفهمًا عن محدِّث.

ووصف سهل بن هارون رجلًا فقال: لم أرَ أحسن منه فهمًا لجليل، ولا أحسن تفهمًا لدقيق.

وقال سعيد بن سَلْم[٤٢] لأمير المؤمنين المأمون: لو لم أشكر الله إلا على حسن ما بلاني في أمير المؤمنين من قصده إليَّ بحديثه، وإشارته إليَّ بطرفه، لقد كان ذلك من

[٤١] الشعبي: هو عامر بن شُراحيل بن عبد الشعبي، وأصله من حِمير، وعداده في همدان، وكان يُكنى أبا عمرو. وكان ضئيلًا نحيفًا. وكانت أمه من سَبْي جلولاء، وهي قرية بنواحي فارس. كتب لعبد الله بن مطيع العدوي، ولعبد الله بن يزيد الخطمي عامل ابن الزبير على الكوفة. وكان راوية قاصًّا إخباريًّا معروفًا بالمزح. مات سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م.

[٤٢] سعيد بن سلم: هو سعيد بن سلم بن قُتيبة بن مسلم الباهلي. كان من أمراء الدولة العباسية، ولي لها أرمينية والموصل والسند وطبرستان وسجستان والجزيرة. وكان شجاعًا باسلًا ضابطًا لأموره

أعظم ما تفرضه الشريعة، وتوجبه الحرية. قال المأمون: لأن أمير المؤمنين يجد عندك من حُسن الإفهام إذا حدَّثت، وحسن الفهم إذا حُدِّثت، ما لم يجده عند أحد فيمن مضى، ولا يظن أنه يجده فيمن بقي. وقال له مرةً: والله إنك لتستقفي حديثي، وتقف عند مقاطع كلامي، وتُخبر عنه بما كنت قد أغفلته.

قال أبو الحسن: قالت امرأة لزوجها: ما لك إذا خرجت إلى أصحابك تطلَّقتَ[٤٣] وتحدَّثت، وإذا كنت عندي تعقَّدتَ وأطرقت؟ قال: لأني أجِلُّ عن دقيقك، وتدِقِّين عن جليلي.

وقال أبو مُسهِر بن المبارك: ما حدَّثتُ رجلًا قط إلا أعجبني حسن إصغائه، حفظ عني أم ضيَّع.

وقال أبو عَقيل بن دُرُست: نشاط القائل على قدر فهم المُستمِع.

وقال أبو عبَّاد كاتب ابن أبي خالد: للقائل على المستمِع ثلاث؛ جمع البال، والكتمان، وبسط العُذر. وقال أبو عبَّاد: إذا أنكر القائل عينَي المستمِع فليستفهمه عن منتهى حديثه، وعن السبب الذي أجرى ذلك القول له؛ فإن وجده قد أخلص له الاستماع أتم له الحديث، وإن كان لاهيًا عنه حرَمه حسن الحديث ونفع المؤانسة، وعرَّفه بسوء الاستماع والتقصير في حق المحدِّث.

وأبو عبَّاد هذا هو الذي قال: ما جلس بين يديَّ رجلٌ قط إلا تمثَّل لي أني سأجلس بين يدَيه.

مع أدبٍ بارع وروايةٍ طريفة. حدَّث عن نفسه فقال: مدحني شاعر ببيتَين لم أسمع أحسن منهما، وهما قوله:

أيا ساريًا بالليلِ لا تَخشَ ضلَّةً سعيدُ بنُ سلمٍ ضوءُ كلِّ بلادِ
لنا مقرمٌ أربى على كلِّ مقرمٍ جوادٌ حثا في وجهِ كلِّ جوادِ

فأغفلت صلته، فهجاني ببيتَين لم أسمع أهجى منهما، وهما قوله:

لكلِّ أخي مدحٍ ثوابٌ عَلِمتُه وليس لمدحِ الباهليِّ ثوابُ
مدحتُ ابنَ سلمٍ والمديحُ مهزَّةٌ فكان كصَفوانٍ عليه تُرابُ

[٤٣] تطلقت: ذهبت في انبساطك وانطلاق لسانك بالحديث كل مذهب.

وذكر رجل من القرشيين عبد الملك بن مروان — وعبد الملك يومئذٍ غلام — فقال: إنه لآخذٌ بأربع، وتاركٌ لأربعَ؛ آخذ بأحسن الحديث إذا حدَّث، وبأحسن الاستماع إذا حُدِّث، وبأيسر المؤنة إذا خُولف، وبأحسن البِشر إذا لَقي؛ وتارك لمحادثة اللئيم، ومنازعة اللَّجوج، ومُماراة السفيه، ومصاحبة المأفون.

وذم بعض الحكماء رجلًا فقال: يجزم قبل أن يعلم، ويغضب قبل أن يفهم.

وقال عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، في بعض رسائله إلى قُضاته: الفهمَ الفهمَ مما يختلج في صدرك.

ولا يمكن تمام الفهم إلا مع تمام فراغ البال.

وقال مجنون بني عامر:

أتاني هواها قبلَ أنْ أعرِفَ الهوى فصادَفَ قلبي فارِغًا فتَمكَّنا

وكتب مالك بن أسماء بن خارجة إلى أخيه عُيينة بن أسماء:

أعُيَينُ هلَّا إذ شُغفتَ بها كنتَ استعنتَ بفارِغِ العقلِ
أقبَلتَ تَرْجو الغَوثَ من قِبلي والمُستغاثُ إليه في شُغْلِ

وقال صالحٌ المُرِّي: سوء الاستماع نفاق، وقد لا يفهم المستمع إلا بالتفهُّم، وقد يتفهم أيضًا من لا يفهم.

وقال الحارث بن حِلِّزة:[٤٤]

وحبستُ فيها الرَّكبَ أحدِسُ في كلِّ الأمورِ وكنتُ ذا حَدسِ

[٤٤] في نسخة: ابن جلذة، وليس هنالك، والصواب ما أثبتناه، وهو الحارث بن حلزة اليَشكري، وهذا البيت من قصيدة له بالمفضَّليات التي شرحناها بقلمنا ونشرناها حديثًا، أولها:

لمَنِ الدِّيارُ عفَونَ بالحَبسِ آياتُها كمَهارقِ الفُرسِ
لا شيءَ فيها غيرُ أصورةٍ سُفعِ الخُدودِ يَلُحنَ في الشمسِ
وغيرُ آثارِ الجِيادِ بأعـ ـراضِ الجمادِ وآيةِ الدعسِ
فحبستُ فيها الرَّكبَ أحدِسُ في كلِّ الأمورِ وكنتُ ذا حَدسِ

وقال النابغة الجعدي:

أبا لي البلاءُ وأنِّي امرؤٌ إذا ما تبيَّنتُ لم أرتَبِ

وقال آخر:

تحلَّمْ عن الأدنَينَ واستبقِ ودَّهم ولن تستطيعَ الحِلمَ حتى تَحلَّما

والمثل السائر على وجه الدهر قولهم: العلم بالتعلُّم. وإذا كانت البهيمة إذا أحسَّت بشيء من أسباب القاص أحدَّت نظرها، واستفرغت قُواها في الاسترواح، وجمعت بالها للتسمع، كان الإنسان العاقل أولى بالتثبُّت، وأحق بالتعرُّف.

ولما اتَّهم قُتيبة بن مسلم[٤٥] أبا مِجلَز لاحق بن حُميد[٤٦] ببعض الأمر، قال له أبو مِجلز: أيها الأمير، تثبَّتْ؛ فإن التثبُّت نِصف العفو.

وقال الأحنف: تعلَّمت الحِلم من قيس بن عاصم. وقال فيروز بن حُصين: كنت أختلف إلى دار «الاستخراج» أتعلَّم الصبر.

وقال سهل بن هارون: بلاغة اللسان رِفق، والعِي خُرْق. وكان كثيرًا ما يُنشد قول شُتَيم بن خُوَيلد:

ولا يَشعَبون الصَّدعَ بعدَ تفاقُمٍ وفي رِفقِ أيديكم لذي الصَّدعِ شاعِبُ

(٢) خطبة لأبي بكر الصدِّيق

وقال إبراهيم الأنصاري، وهو إبراهيم بن محمد المفلوج، من ولد أبي زيد القارئ: الخلفاء والأئمة وأمراء المؤمنين ملوك، وليس كل ملك يكون خليفةً وإمامًا. قال: ولذلك

---

[٤٥] قتيبة بن مسلم: أبو حفص الباهلي. كان قائدًا عظيمًا، وشجاعًا باسلًا، وسيدًا كريمًا. ولَّاه عبد الملك بن مروان الريَّ، ثم أشار عليه الحجَّاج فولَّاه خراسان، وكانت هناك ردة فقام بأمرها، وفتح خوارزم وسمرقند وبُخارى، وظل في ولايته ثلاث عشرة سنة ثم عُزِل. وثار به وكيع بن أبي سود الغداني بفرغانة مُنتقمًا، فقتله وهو ابن خمس وأربعين سنة، وذلك في سنة ٩٧هـ/٧١٥م.

[٤٦] أبو مجلز لاحق بن حميد بن سدوس بن شيبان: كان يُقيم بخراسان، فاستقدمه عمر بن العزيز إليه ليسأله عنها، ثم ولَّاه بيت المال وضرب السكة (دار الضرب). تُوفي سنة ١٠١هـ/٧١٩م.

فصل بينهم أبو بكر، رضي الله تعالى عنه، في خطبته؛ فإنه لما فرغ من الحمد والصلاة على النبي ﷺ قال:

إنَّ أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك. فرفع الناس رءوسهم، فقال: ما لكم أيها الناس؟ إنكم لطعَّانون عَجِلون، إن من الملوك من إذا ملك زهَّده الله فيما عنده، ورغَّبه فيما في يدَي غيره، وانتقصه شطر أجله، وأشرب قلبه الإشفاق؛[٤٧] فهو يَحسد على القليل، ويتسخط الكثير، ويسأم الرخاء، وتنقطع عنه لذة الباء، لا يستعمل العِبرة، ولا يسكن إلى الثقة؛ فهو كالدرهم القَسِّي،[٤٨] والسراب الخادع، جَذِل الظاهر، حزين الباطن؛ فإذا وجبت نفسه، ونضب عمره، وضحا ظلُّه، حاسَبه الله فأشدَّ حسابه، وأقل عفوه. ألا إن الفقراء هم المرحومون، وخير الملوك من آمن بالله، وحكم بكتابه وسُنة نبيه ﷺ. وإنكم اليوم على خلافة النبوة، ومَفرق المَحجَّة، وسترَون بعدي مُلكًا عضوضًا،[٤٩] ومُلكًا عنودًا، وأمةً شَعاعًا،[٥٠] ودمًا مُفاحًا؛[٥١] فإن كانت للباطل نزوة، ولأهل الحق جولة، يعفو بها الأثر، ويموت لها البشر، فالزَموا المساجد، واستشيروا القرآن، والزموا الطاعة، ولا تُفارقوا الجماعة، وليكن الإبرام بعد التشاور، والصفقة بعد طول التناظر. أي بلادكم خرسة؟ إن الله سيفتح عليكم أقصاها، كما فتح عليكم أدناها.

(٣) وصية أبي بكر الصدِّيق لعمر الفاروق

إني مُستخلِفك من بعدي، ومُوصيك بتقوى الله. إن لله عملًا بالليل لا يَقبَله بالنهار، وعملًا بالنهار لا يَقبَله بالليل. وإنه لا تُقبَل نافلة حتى تؤدى الفريضة؛ فإنما ثقُلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثِقَله عليهم، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلًا، وإنما خفَّت موازين من خفَّت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخِفَّته عليهم، وحُقَّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفًا. إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوَز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتُهم قلتُ إني أخاف

---

[٤٧] الإشفاق: الخوف.

[٤٨] الدرهم القسي: أي الزائف.

[٤٩] عضوضًا: أي يُصيب الناس فيه عسف وظلم كأنهم يُعضون فيه عضًّا.

[٥٠] شعاعًا: ذاهبة فِرقًا مختلفة.

[٥١] مفاحًا: سائلًا.

ألا أكون من هؤلاء. وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتُهم قلتُ إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء. وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغبًا راهبًا، ولا يتمنَّى على الله غير الحق، ولا يُلقي بيده إلى التهلكة؛ فإذا حفظت وصيَّتي فلا يكن غائبٌ أحبَّ إليك من الموت، وهو آتيك، وإن ضيَّعت وصيَّتي فلا يكن غائبٌ أبغضَ إليك من الموت، ولستَ بمُعجِز الله.

(٤) وصية عمر للخليفة من بعده

وأوصى عُمر رضي الله تعالى عنه الخليفة من بعده، فقال:

> أوصيك بتقوى الله لا شريك له، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرًا؛ أن تعرف لهم سابقتهم. وأوصيك بالأنصار خيرًا؛ فاقبَل من مُحسِنهم وتجاوَزْ عن مُسيئهم. وأوصيك بأهل الأمصار خيرًا؛ فإنهم ردء العدو وجُباة الفيء، لا تحمل فيئهم إلا عن فضلٍ منهم. وأوصيك بأهل البادية خيرًا؛ فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام؛ أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فتُرَد على فقرائهم. وأوصيك بأهل الذِّمَّة خيرًا؛ أن تُقاتل من ورائهم، ولا تُكلفهم فوق طاقتهم إذا أدَّوا ما عليهم للمؤمنين طوعًا أو عن يدٍ وهم صاغرون. وأوصيك بتقوى الله، وشدة الحذر منه، ومَخافة مَقْته؛ أن يطَّلِع منك على رِيبة. وأوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله. وأوصيك بالعدل في الرعيَّة، والتفرُّغ لحوائجهم وثغورهم، ولا تؤثِر غنيَّهم على فقيرهم؛ فإن ذلك بإذن الله سلامةٌ لقلبك، وحطٌّ لوِزْرك، وخير في عاقبة أمرك، حتى تُفضيَ من ذلك إلى من يعرف سريرتك، ويحُول بينك وبين قلبك. وآمرك أن تشتدَّ في أمر الله وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم، ثم لا تأخذك في أحدٍ رأفة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حُرَم الله. واجعل الناس عندك سواءً، لا تُبالي على من وجب الحق، ثم لا تأخذك في الله لومةُ لائم. وإيَّاك والأثَرةَ والمُحاباة فيما ولَّاك الله مما أفاء الله على المؤمنين، فتَجُور وتَظلِم، وتَحرِم نفسك من ذلك ما قد وسَّعه الله عليك، وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة؛ فإن اقترفت لدنياك عدلًا وعفة عما بسط الله لك اقترفت به إيمانًا ورضوانًا، وإن غلبك الهوى اقترفت به سُخط الله. وأوصيك ألا ترخِّص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذمة.

وقد أوصيتك وحضَضتُك ونصحت لك، فابتغ بذلك وجه الله والدار الآخرة، واخترت من دلالتك ما كنت دالًّا عليه نفسي وولدي؛ فإن عملتَ بالذي وعظتُك، وانتهيتَ إلى الذي أمرتُك، أخذتَ به نصيبًا وافرًا، وحظًّا وافيًا؛ وإن لم تقبل ذلك ولم يهمَّك، ولم تُنزل مَعاظم الأمور عند الذي يرضى الله به عنك، يكن ذلك بك انتقاصًا، ورأيك فيه مدخولًا؛ لأن الأهواء مشتركة. ورأس كل خطيئة إبليس، وهو داعٍ إلى كل هلكة، وقد أضلَّ القرون السالفة قبلك فأوردهم النار، ولبئس الثمن أن يكون حظُّ امرئ موالاةَ عدو الله الداعي إلى معاصيه. ثم اركب الحقَّ وخُض إليه الغَمَرات، وكن واعظًا لنفسك. أنشُدك الله لما ترحَّمتَ على جماعة المسلمين فأجلَلتَ كبيرهم، ورحمتَ صغيرهم، ووقَّرت عالِمهم. ولا تضربهم فيذلُّوا، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتُغضبهم، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتُفقرهم، ولا تُجمِّرهم في البعوث فتقطع نسلهم، ولا تجعل المال دُولةً بين الأغنياء منهم، ولا تُغلق بابك دونهم فيأكل قويُّهم ضعيفهم. هذه وصيَّتي إيَّاك، وأُشهد الله عليك، وأقرأ عليك السلام.

(٥) رسالة عمر إلى أبي موسى الأشعري[٥٢] في القضاء

رواها ابن عُيينة وأبو بكر الهُذلي ومَسلمة بن مُحارب، روَوها عن قتادة، ورواها أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم، عن عُبيد الله بن حُميد الهُذلي، عن أبي المليح بن أسامة، أن ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن القضاء فريضةٌ محكَّمة، وسُنةٌ متَّبَعة؛ فافهم إذا أُدلي إليك؛ فإنه لا ينفع تكلُّم بحق لا نفاذ له. آسِ بين الناس في مجلسك ووجهك؛ حتى لا يطمع شريف في حَيفك، ولا يخاف ضعيف من جَورك. والبيِّنة على من ادَّعى،

[٥٢] أبو موسى الأشعري: هو الصحابي الجليل عبد الله بن قيس من الأشعريين من اليمن. قَدِم على رسول الله ﷺ فأسلم في إخوته وقومه، وشهد خيبر وما بعدها من المشاهد. وكان خفيف الجسم، قصيرًا، ثطًّا، حسن الصوت بالقراءة. ولي القضاء لعمر بن الخطاب، وشهد مع علي بن أبي طالب صِفِّين، واختير محكِّمًا عن علي فأضاع صاحبه بسلامة صدره، وتغلَّب عليه عمرو بن العاص بدهائه. وقد روى

واليمين على من أنكر. والصُّلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرَّم حلالًا أو أحلَّ حرامًا. ولا يمنعك قضاءٌ قضيتَه بالأمس فراجَعت فيه نفسك، وهُدِيت فيه لرشدك، أن ترجع عنه؛ فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خيرٌ من التمادي في الباطل. الفهمَ الفهمَ عند ما يتلجلج في صدرك، مما لم يبلُغك في كتاب الله ولا سُنة النبي ﷺ. اعرفِ الأمثال والأشباه، وقِسِ الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلى أحبِّها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى. واجعل للمدَّعي حقًّا غائبًا أو بيِّنة أمدًا ينتهي إليه؛ فإن أحضر بيِّنته أخذت له بحقه، وإلا وجَّهت عليه القضاء؛ فإن ذلك أنفى للشك، وأجلى للعمى، وأبلغ في العذر. المسلمون عُدولٌ بعضهم على بعض، إلا مجلودًا في حد، أو مجرَّبًا عليه شهادة زور، أو ظنينًا في ولاء أو قرابة؛ فإن الله قد تولَّى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالشُّبهات. ثم إيَّاك والقلقَ والضجر، والتأذِّيَ بالناس، والتنكُّر للخصوم في مَواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر، ويُحسن بها الذُّخر؛ فإنه من يُخلِص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يَكفِه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيَّن للناس بما يَعلَم الله خِلافه منه هتك الله ستره وأبدى فعله. والسلام عليك.

(٦) خطبة لعلي بن أبي طالب

وقال أبو عُبيدة مَعمَر بن المُثنَّى:[٥٣] أول خطبة خطَبها علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، حَمِد الله وأثنى عليه، وصلَّى على نبيِّه ﷺ، ثم قال:

أما بعد، فلا يُرعِيَن مُرعٍ إلا على نفسه؛ فإن من أرعى على غير نفسه شُغِل عن الجنة والنارُ أمامه. ساعٍ مُجتهد، وطالبٌ يرجو، ومقصِّر في النار. ثلاثة.

ابن قُتيبة في «المعارف» أن أبا موسى عثر على قبر دانيال النبي بناحية السوس، فأخرج رفاته وكفَّنها وصلَّى عليها ثم قبَرها. تُوفي سنة ٥٢هـ/٦٧٢م.

[٥٣] أبو عبيدة معمر بن المثنى: الإمام الراوية اللغوي البصري. كان مولًى لتيم قريش، قال له رجل: من أبوك؟ وما أصله؟ فقال: حدَّثني أبي أن أباه كان يهوديًّا بباجروان. أخذ أبو عُبيدة عن يونس بن حبيب وأبي عمرو، وأخذ عنه أبو عُبيد القاسم بن سلَّام، وأبو حاتم السجستاني، وأبو عثمان بكر بن محمد المازني، وأبو الحسن علي بن المُغيرة الأثرم، وعمر بن شبَّة. كان أعلم بالأنساب وأيام الناس من

واثنان؛ ملَكٌ طار بجناحَيه، ونبيٌّ أخذه الله بيده. ولا سادس. هلك من ادَّعى، ورَدِي من اقتحم؛ فإن اليمين والشمال مَضلة، والوسطى الجادَّة، منهج عليه باقي الكتاب والسُّنة وآثار النبوة. إن الله داوى هذه الأمة بدوائين؛ السوط والسيف؛ فلا هوادة عند الإمام فيهما. استتِروا ببيوتكم، واصطلِحوا فيما بينكم، والتوبة من ورائكم. من أبدى صفحته للحقِّ هلك. قد كانت أمور لم تكونوا عندي فيها بمحمودين، أمَا إني لو أشاء لقلت عفا الله عما سلف. سبق الرَّجلان ونام الثالث، كالغراب هِمَّته بطنه. يا وَيحَه، لو قُصَّ جناحاه وقُطِع رأسه لكان خيرًا له. انظروا؛ إن أنكرتم فأنكِروا، وإن عرفتم فآزِروا. حق وباطل، ولكلٍّ أهل. ولئن كثُر أمر الباطل لقديمًا فعل، ولئن قلَّ الحق لرُبَّما ولعل. ما أدبر شيء فأقبل. ولئن رجعت عليكم أموركم إنكم لسُعداء، وإني لأخشى أن تكونوا في فترة، وما علينا إلا الاجتهاد.

قال أبو عُبيدة: وروى فيها جعفر بن محمد:

إن أبرار عِترتي، وأطايب أرومتي، أحلَمُ الناس صغارًا، وأعلمهم كبارًا. ألا وإنا من أهل بيت من عِلم الله عَلِمنا، وبحكم الله حَكمنا، ومن قولٍ صادقٍ سَمِعنا. وإن تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا، وإن لم تفعلوا يُهلككم الله بأيدينا. معنا راية الحق، من تبعنا لَحِق، ومن تأخَّر عنا غَرِق. ألا وإن بنا تُرَد دَبرة كل مؤمن، وبنا تُخلَع رِبقة الذل من أعناقكم، وبنا فُتح، وبنا خُتم، لا بكم.

الأصمعي وأبي زيد، وكان أبو نُواس يتعلم منه ويصفه ويذم الأصمعي، وكان يقول: أبو عُبيدة أديمٌ طُوِي على علم، والأصمعي بُلبلٌ في قفص. لأن الأصمعي كان حسن الإنشاء والزخرفة. أقدم الرشيد أبا عُبيدة من البصرة إلى بغداد وقرأ عليه، وكان أبو عُبيدة شُعوبيًّا، وكان يرى رأي الخوارج الإباضية. قال الجاحظ: لم يكن في الأرض خارجيٌّ أعلم بجميع العلوم من أبي عُبيدة. وقال ابن قُتيبة: كان الغريب أغلب عليه، وأخبار العرب وأيامهم. وكان مع علمه ومعرفته ربما لم يُقِم البيت إذا أنشده ولا يُقِيم إعرابه، وقد يروي الشعر مختلف العَروض، ويُخطئ إذا قرأ القرآن نظرًا. وكان يُبغض العرب وله في مثالبها كتاب، وله مصنَّفاتٌ كثيرة. وكان يقول شعرًا ضعيفًا، وأصلح ما رُوي له قوله:

يُكلمُني ويخلجُ حاجبَيه ... لأحسبَ عنده عِلمًا دفينا
وما يدري قبيلًا من دبيرٍ ... إذا قسمَ الذي يدري الظُّنونا

وُلد سنة ١١٢هـ/٧٣٠م، وتُوفي سنة ٢١١هـ/٨٢٦م.

خطبة أخرى له

ومن خطب علي أيضًا، رضي الله تعالى عنه، قالوا: أغار سُفيان بن عَوف الأزدي ثم الغامدي على الأنبار زمان علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وعليها ابن حسَّان أو حسَّان البكري، فقتله وأزال تلك الخيل عن مسالحها، فخرج عليٌّ حتى جلس على باب السُّدة، فحَمِد الله وأثنى عليه، وصلَّى على النبي ﷺ، ثم قال:

أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه رغبةً عنه ألبسه الله ثوب الذِّلة، وشمله البلاء، وألزمه الصَّغار، وسيم الخَسف، ومُنع النَّصف. ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلًا ونهارًا، سرًّا وإعلانًا، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم؛ فوالله ما غُزِي قوم قطُّ في عُقْر دارهم إلا ذلُّوا؛ فتواكَلتم وتخاذَلتم، وثقُل عليكم قولي واتخذتموه وراءكم ظِهريًّا، حتى شُنَّت عليكم الغارات. هذا أخو غامد قد وردت خيله الأنبار، وقتل حسان — أو ابن حسان — البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها، وقتل منكم رجالًا صالحين. وقد بلَغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع أحجالها وقُلْبها ورُعْثها،[٥٤] ثم انصرفوا وافرين ما كُلِم رجل منهم كَلمًا؛ فلو أن امرأً مسلمًا مات من بعدها أسفًا ما كان عندي مَلومًا، بل كان عندي به جديرًا. فيا عَجبًا من جِد هؤلاء القوم في باطلهم، وفشلكم عن حقكم؛ فقُبحًا لكم وتَرحًا حين صِرتم غرضًا يُرمى، وفيئًا يُنهَب. يُغار عليكم ولا تُغِيرون، وتُغزَون ولا تَغزون، ويُعصى الله وترضَون؛ فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: حَمَارَّة القيظ، أمهِلْنا حتى ينسلخ عنا الحر. وإذا أمرتكم بالسير في البرد قلتم: أمهِلْنا حتى ينسلخ عنا القُر. كل هذا فرارًا من الحر والقر؛ فإذا كنتم من الحر والقر تفرُّون، فأنتم والله من السيف أفر. يا أشباه الرجال ولا رجال، ويا أحلام الأطفال وعقول ربَّات الحِجال، ودِدتُ أن الله قد أخرجني من بين ظهرانَيكم، وقبضني إلى رحمته من بينكم. والله لوَدِدتُ أني لم أرَكم ولم أعرفكم. معرفةٌ والله جرَّت ندمًا، وورَّثت صدري غيظًا،

[٥٤] الأحجال: الخلاخيل. والقلب: السِّوار. والرعث: الأقراط. كذا رواه الإسكافي.

وجرَّعتموني الموت أنفاسًا، وأفسدتم عليَّ رأيي بالعِصيان والخِذلان. أحقٌّ قالت قريش «إن ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب»؟ لله أبوهم، وهل منهم أحدٌ أشد لها مِراسًا وأطول لها تجربةً مني؟ لقد مارَستُها وما بلَغت العشرين، وقد نيَّفت فيها على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يُطاع.

قال: فقام رجل من الأزد يُقال له فلان بن عفيف، ثم أخذ بيد أخ له فقال: يا أمير المؤمنين، أنا وأخي كما قال الله: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾. فمُرْنا بأمرك؛ فوالله لنضربنَّ دونك وإن حال دونك جمرُ الغضا، وشَوكُ القَتاد. قال: فأثنى عليهما وقال لهما خيرًا، وقال: أين تقعان مما أريد؟ ثم نزل.

خطبة أخرى له

وخطبة أخرى بهذا الإسناد في شبيه بهذا المعنى، قام فيهم خطيبًا فقال:

أيها الناس المُجتمِعة أبدانُهم، المُختلِفة أهواؤكم، كلامُكم يُوهي الصُّمَّ الصِّلاب، وفِعلكم يُطمِع فيكم عدوَّكم. تقولون في المجالس كَيْت وكَيْت، فإذا جاء القتال قلتم: حِيدِي حَيادِ. ما عزَّت دعوةُ من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، أعاليل بأضاليل. وسألتموني التأخير دفاع ذي الدين المَطول، هيهات لا يمنع الضَّيمَ الذليلُ، ولا يُدرَك الحق إلا بالجِد. أيَّ دارٍ بعد داركم تمنعون؟ أم مع أي إمام بعدي تُقاتلون؟ المغرور واللهِ من غرَرتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب. أصبحت والله لا أصدِّق قولكم، ولا أطمع في نصرتكم. فرَّق الله بيني وبينكم، وأعقبَني بكم من هو خير لي منكم. لوَدِدتُ أن لي بكل عشرة منكم رجلًا من بني فِراس بن غَنْم، صَرْف الدينار بالدرهم.

خطبة أخرى له

وخطب أيضًا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، فقال:

أما بعد، فإن الدنيا قد أدبرَت وآذنَت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإن المِضمار اليوم، والسِّباق غدًا. ألا وإنكم في أيام أمل، من ورائه أجل؛ فمن أخلص في أيام أمله، قبل حضور أجله، فقد نفعه عمله، ولم يضرَّه أمله؛ ومن قصَّر في أيام أمله قبل حضور أجله، فقد خسر عمله، وضرَّه أمله. ألا فاعملوا لله في الرغبة، كما تعملون له في الرهبة. ألا وإني لم أرَ كالجنة نام

طالبها، ولا كالنار نام هاربها. ألا وإنه من لم ينفعه الحق يضرَّه الباطل، ومن لم يستقم به الهدى يجرُّ به الضلال إلى الردى. ألا وإنكم قد أُمرتم بالظعن، ودُللتم على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل.

(٧) خطبة عبد الله بن مسعود[٥٥]

أصدَقُ الحديث كتاب الله تعالى، وأوثق العُرى كلمة التقوى، وخير المِلل ملة إبراهيم عليه السلام، وأحسن السنن سُنة محمد ﷺ، وشر الأمور مُحدَثاتها، وخير الأمور عزائمها. ما قلَّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى. نفسٌ تنجِّيها خيرٌ من إمارة لا تُحصيها. خير الغنى غنى النفس. خير ما أُلقيَ في القلب اليقين. الخمر جِماع الآثام. الناس حِبالة الشيطان. الشباب شُعبة من الجنون. حب الكفاية مِفتاح المَعجزة. من الناس من لا يأتي الجماعة إلا دَبرًا، ولا يذكر الله إلا هجرًا. أعظم الخطايا اللسان الكذوب. سِباب المؤمن فُسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية. من يتألَّ على الله يُكذِبه، ومن يستغفر يُغفَر له. مكتوب في ديوان المُحسِنين: من عفا عُفي عنه. الشقيُّ من شقي في بطن أمه. السعيد من وُعظ بغيره. الأمور بعواقبها. مِلاك العمل خواتيمه. أحسن الهدي هدي الأنبياء. أقبح الضلالة الضلالة بعد الهدى. أشرف الموت الشهادة. من يعرف البلاء يصبر عليه. من لا يعرف البلاء يُنكره.

(٨) خطبة عُتبة بن غَزْوان السُّلمي بعد فتح الأُبُلَّة[٥٦]

حَمِد الله وأثنى عليه، وصلَّى على النبي ﷺ، ثم قال:

أما بعد، فإن الدنيا قد تولَّت حذَّاء مُدبِرة، وقد آذنَت أهلها بصَرْم، وإنما بقي منها صُبابة كصُبابة الإناء يَصطَبُّها صاحبها. ألا وإنكم مُفارقوها لا محالة،

[٥٥] عبد الله بن مسعود: أصله من هُذيل، وكان من حلفاء بني زُهرة، ويُكنى أبا عبد الرحمن. شهد مع رسول الله بدرًا وبيعة الرضوان وجميع المشاهد، وكان على قضاء الكوفة وبيت مالها لعمر بن الخطاب وصدرًا من خلافة عثمان، ثم صار إلى المدينة. وكان رجلًا نحيفًا قصيرًا يكاد الجلوس يُوازونه من قِصَره، وكان شديد الأدمة. تُوفي بالمدينة ودُفن بالبقيع وهو ابن بضع وستين سنة، وذلك في سنة ٣٢هـ/٦٥٢م.

[٥٦] عتبة بن غزوان بن ياسر: صحابي جليل. قَدِم المدينة مُهاجرًا وله من العمر أربعون سنة، وهو في عِداد المهاجرين الأولين. شهد بدرًا، وكان من الرُّماة المذكورين. اختطَّ البصرة، وأمر محجن بن الأذرع

ففارِقوها بأحسن ما يحضركم. ألا وإن من العَجب أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الحجر الضخم يُلقى في النار من شفيرها فيهوي فيها سبعين خريفًا، ولجهنم سبعة أبواب، ما بين البابَين منها مسيرة خمسمائة سنة، ولتأتينَّ عليه ساعة وهو كظيظٌ بالزِّحام. ولقد كنت مع رسول الله ﷺ سابعَ سبعةٍ ما لنا طعام إلا ورق البَشام حتى قرِحت أشداقنا، فوجدت أنا وسعد بن مالك ثمرة فشقَقتُها بيني وبينه بنصفَين، والتَقطت بُردةً فشقَقتُها بيني وبينه فائتزرتُ بنصفها، وما منا أحدٌ اليوم إلا وهو أمير على مِصر من الأمصار. وإنه لم يكن نُبوةٌ قط إلا تناسختها جبرية. وأنا أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمًا، وفي أعيُن الناس صغيرًا. وستُجربون الأمراء من بعدي فتعرفون وتُنكرون.

(٩) خطبة لمعاوية بن أبي سُفيان

رواها شُعيب بن صفوان، وزاد فيها اليَقطُري وغيره، قالوا: لما حضرت معاويةَ الوفاةُ قال مولًى له: من بالباب؟ قال: نفرٌ من قريش يتباشرون بموتك. فقال: ويحَك! ولمَ؟ قال: لا أدري. قال: فوالله ما لهم بعدي إلا الذي يسوءُهم. وأذِن للناس فدخلوا، فحَمِد الله وأثنى عليه، وأوجز، ثم قال:

> أيها الناس، إنا قد أصبحنا في دهرٍ عَنود، وزمنٍ شديد، يُعَد فيه المُحسِن مُسيئًا، ويزداد فيه الظالم عُتوًّا، ولا ننتفع بما عَلِمناه، ولا نسأل عما جَهِلناه، ولا نتخوَّف قارعةً حتى تحلَّ بنا. فالناس على أربعة أصناف؛ منهم من لا يمنعه من الفساد إلا مهانة نفسه، وكلالُ حدِّه، ونضيض وَفْره. ومنهم المُصلِت لسيفه، المُجلِب بخيله ورَجْله، والمُعلِن بشرِّه، قد أشرط نفسه، وأوبق دينه، لحُطامٍ ينتهزه، أو مِقنبٍ[٥٧] يقوده، أو مِنبرٍ يقرعه. ولبئس المَتجر أن تراها لنفسك ثمنًا، ولما لك عند الله عِوضًا. ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا؛ فقد طامَن من شخصه، وقارَب من خَطوه، وشمَّر

فاختطَّ مسجدها، وفتح الأبلة. وكان رجلًا طُوالًا. تُوفي وهو ابن سبع وخمسين سنة في طريق مكة بمعدن بني سُليم، سنة ١٧هـ/٦٣٨م.

[٥٧] المقنب: جماعة الخيل.

من ثوبه، وزخرف نفسه للأمانة، واتَّخذ ستر الله ذريعة للمعصية. ومنهم من قد أقعده عن طلب الملك ضُئولة نفسه، وانقطاع سببه، فقصرت به الحال عن أمله، فتحلَّى باسم القناعة، وتزيَّن بلباس الزُّهَّاد، وليس من ذلك مَراح ولا مَغدًى. وبقي رجالٌ غضَّ أبصارَهم ذِكرُ المَرجع، وأراق دموعَهم خوفُ المَحشر؛ فهم بين شريدٍ نافر، وخائفٍ مُنقمِع، وساكتٍ مكعوم،[٥٨] وداعٍ مُخلِص، ومُوجَعٍ ثَكْلان، قد أخملتهم التقيَّة، وشملتهم الذِّلة؛ فهم بحرٌ أُجاج، أفواههم ضامرة، وقلوبهم قرحة. قد وُعظوا حتى ملُّوا، وقُهروا حتى ذلُّوا، وقُتلوا حتى قلُّوا. فلتكُن الدنيا في أعيُنكم أصغر من حُثالة القرظة، وقُراضة الجلَمَين. واتَّعِظوا بمن كان قبلكم، قبل أن يتَّعظ بكم من كان بعدكم؛ فارفضوها ذميمةً فإنها قد رفضت من كان أشغف بها منكم.

وفي هذه الخطبة، أبقاك الله، ضروب من العَجب؛ منها أن هذا الكلام لا يُشبِه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية، ومنها أن هذا المذهب — في تصنيف الناس، وفي الإخبار عنهم وعمَّا هم عليه من القهر والإذلال، ومن التقيَّة والخوف — أشبه بكلام علي وبمعانيه وبحاله منه بحال معاوية، ومنها أنَّا لم نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزُّهَّاد، ولا يذهب مذاهب العُبَّاد، وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم.

(١٠) خطبة زياد بن أبي سفيان بالبصرة – البَتْراء[٥٩]

قال أبو الحسن المدائني، ذكر ذلك عن مَسلمة بن مُحارب، وعن أبي بكر الهذلي، قالا: قدِم زيادٌ البصرة واليًا لمعاوية بن أبي سفيان، وضمَّ إليه خُراسان وسِجستان، والفسق

[٥٨] مكعوم: أي كأن على فمه الكعام (الكمامة). وفي نسخة: معكوم، ولا معنى له ها هنا.

[٥٩] زياد: هو زياد بن أبي سُفيان، ويُكنى أبا المُغيرة. وُلد بالطائف عام الفتح. وكتب للمغيرة بن شعبة، ثم كتب لأبي موسى الأشعري، ثم كتب لابن عامر، ثم كتب لابن عبَّاس. وكان زياد مع علي بن أبي طالب فولَّاه فارس، فكتب إليه معاوية يتهدَّده ويتوعَّده تارةً، ويَعِده ويمنِّيه أخرى، وما زال به حتى استجاب له، فولَّاه معاوية البصرة وأعمالها؛ خراسان وسجستان. ولما مات المُغيرة بن شُعبة جمع له العراقَين فكان أول من جُمعا له. وهو أول من لبس الخفاف الساذجة وثياب الكَتَّان بالبصرة. وهو بخطبته هذه

بالبصرة كثيرٌ فاشٍ ظاهر. قالا: فخطب خطبةً بَتْراء لم يحمد الله فيها. وقال غيرهما: بل قال:

الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه. اللهم كما زِدْتنا نعمًا فألهِمْنا شكرًا.

أما بعد، فإن الجهالة الجَهلاء، والضلالة العَمياء، والغِيَّ الموفيَّ بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العِظام، ينبُت فيها الصغير، ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعدَّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزمن السرمدي الذي لا يزول. أتكونون كمن طرفت عينَيه الدنيا، وسدَّت مسامعَه الشهوات، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تُسبقوا إليه؛ من ترككِم الضعيف يُقهر ويُؤخذ ماله؟ ما هذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة، في النهار المبصر، والعدد غير قليل؟ ألم تكُن منكم نُهاةٌ تمنع الغُواة عن دَلَج الليل وغارة النهار؟ قرَّبتم القرابة، وباعدتم الدِّين. تعتذرون بغير العذر، وتغضُّون عن المُختلس. كل امرئ منكم يذبُّ عن سفيهه، صنيعَ من لا يخاف عاقبةً، ولا يرجو معادًا.

ما أنتم بالحُلماء، ولقد اتبعتم السُّفهاء، فلم يزَل بكم ما ترَون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حُرَم الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كنوسًا في مكانس الريب. حرامٌ عليَّ الطعام والشراب حتى أسوِّيَها بالأرض هدمًا وإحراقًا.

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله؛ لين في غير ضعف، وشدة في غير عُنف. وإني أُقسم بالله لآخذنَّ الولي بالمولى، والمُقيم بالظاعن، والمُقبِل بالمُدبِر، والمُطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انجُ سعدُ؛ فقد هلك سُعَيد. أو تستقيم قناتكم.

إن كِذبة المِنبر بَلْقاء مشهورة، فإذا تعلَّقتم عليَّ بكذبة فقد حلَّت لكم معصيتي، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها فيَّ، واعلموا أن عندي أمثالها. من

أول من أعلن الأحكام العُرفية في الإسلام. فكانت ولايته ثماني سنين منها خمس على البصرة وأعمالها. وكان من نوابغ قريش. وُلد سنة ٨هـ/٦٢٩م، وتُوفي بالكوفة سنة ٥٣هـ/٦٧٢م.

نُقِب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه. فإيَّاي ودَلَج الليل؛ فإني لا أوتى بمُدلِج إلا سفكت دمه. وقد أجَّلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ويرجع إليكم.

وإيَّاي ودعوى الجاهلية؛ فإني لا أجد أحدًا دعا بها إلا قطعت لسانه. وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أحدثنا لكلِّ ذنبٍ عقوبة؛ فمن غرَّق قومًا غرَّقناه، ومن أحرق قومًا أحرقناه، ومن نقَّب بيتًا نقَّبنا عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفنَّاه حيًّا فيه؛ فكُفُّوا عني أيديَكم وألسنتكم أكفُفْ عنكم يدي ولساني، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامَّتكم إلا ضربت عنقه.

وقد كانت بيني وبين أقوام إحنٌ فجعلت ذلك دَبْر أذني وتحت قدمي؛ فمن كان منكم مُحسنًا فليزدَدْ إحسانًا، ومن كان منكم مُسيئًا فلينزع من إساءته.

إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلُّ من بُغْضي لم أكشف له قناعًا، ولم أهتك له سترًا، حتى يُبديَ لي صفحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره؛ فاستأنِفوا أموركم، وأعينوا على أنفسكم؛ فربَّ مُبتئس بقدومنا سيُسَر، ومسرور بقدومنا سيَبْتئس.

أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نَسُوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوَّلَنا؛ فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحبَبْنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا؛ فاستوجِبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أني مهما قصَّرت عنه فلن أقصِّر عن ثلاثٍ؛ لست مُحتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقًا بليل، ولا حابسًا عطاءً ولا رزقًا عن إبَّانه، ولا مُجمِّرًا لكم بَعثًا؛ فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم؛ فإنهم ساستكم المؤدِّبون لكم، وكهفكم الذي إليه تأوُون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تُشربوا قلوبكم بُغضهم فيشتدَّ لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا له حاجتكم، مع أنه لو استُجيب لكم فيهم لكان شرًّا لكم. أسأل الله أن يُعِين كلًّا على كلٍّ. وإذا رأيتموني أُنفِذ فيكم الأمر فأنفِذوه على أذلاله.[٦٠] وايم الله، إن لي فيكم لصَرْعى كثيرة؛ فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي.

---

[٦٠] أذلاله: على حاله التي هو عليها.

قال: فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال: أشهد أيها الأمير، لقد أُوتيتَ الحكمة وفَصْل الخطاب. فقال: كذبت، ذلك نبي الله داود، صلوات الله عليه.

قال: فقام الأحنف بن قيس فقال: إنما الثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، وإنا لن نُثنيَ حتى نبتلي. فقال له زياد: صدقت.

فقام أبو بلال مِرداس بن أُديَّة[٦١] وهو يهمس ويقول: أنبأنا الله بغير ما قلت. قال الله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾. وأنت تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم، والمطيع بالعاصي، والمقبل بالمدبر. فسمعها زياد فقال: إنا لا نبلُغ ما نريد فيك وفي صحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضًا.

خَلَّاد بن يزيد الأرقط قال، سمعت من يخبر أن الشَّعبي قال: ما سمعت مُتكلمًا على مِنبرٍ قط تكلَّم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفًا من أن يُسيء، إلا زيادًا؛ فإنه كان كلما أكثرَ كان أجود كلامًا.

أبو الحسن المدائني قال، قال الحسن: أوعد عُمرُ فعفا، وأوعد زياد فابتُلي. قال، وقال الحسن: تشبَّه زيادٌ بعُمَر فأفرط، وتشبَّه الحجَّاج بزياد فأهلك الناس.

قال أبو عثمان: قد ذكرنا من كلام رسول الله ﷺ وخطبه صدرًا، وذكرنا من خطب السلف جُملًا، وسنذكر من مقطَّعات الكلام، وتجاوب البُلغاء، ومواعظ النُّساك، ونقصد من ذلك إلى القِصار دون الطوال؛ ليكون ذلك أخفَّ على القارئ، وأبعد من السآمة والملل، ثم نعود بعد ذلك إلى الخطب المنسوبة إلى أهلها إن شاء الله تعالى، ولا قوة إلا بالله.

(١١) مقطَّعات من كلام البُلغاء ومواعظ النُّسَّاك

قال أبو الحسن المدائني: قَدِم عبد الرحمن بن سليم الكلبي على المهلَّب بن أبي صُفرة في بعض أيامه مع الأزارقة، فرأى بَنيه قد ركبوا عن آخرهم، فقال: آنَس الله الإسلام بتلاحقكم؛ فوالله لئن لم تكونوا أسباطَ نُبوةٍ إنكم لأسباطُ مَلحمة.

---

[٦١] كان في الأصل: ابن أمية، وليس بصواب، والصحيح ما أثبتناه. وأبو بلال مرداس بن أدية هذا هو رأس كل حَروري، خرج على الدولة الأموية، فبعث إليه عُبيد الله بن زياد عبَّاد بن علقمة المازني فقاتله بتوج، وقُتل مرداس. فقال عِمران بن حِطَّان يذكُره:

أنكرتُ بَعدَك من قد كنتُ أعرِفُه ... ما الناسُ بَعدَك يا مِرداسُ بالناسِ

قال أبو الحسن: دخل الهُذيل بن زُفر الكلابي على يزيد بن المهلَّب في حَمَالاتٍ لزمتْه، ونوائب نابته، فقال: أصلحك الله، إنه قد عظُم شأنك عن أن يُستعان عليك، ولستَ تصنع شيئًا من المعروف إلا وأنت أكبر منه، وليس العَجب بأن تفعل، ولكن العجب بألا تفعل. فقال يزيد: حاجتَك. فذكَرها، فأمر بها، وأمر له بمائة ألف درهم، فقال: أما الحَمَالات فقد قَبِلتها، وأما المال فليس هذا موضعه.

عيسى بن يزيد بن دأب، عمَّن حدَّثه عن رجل كان يُجالس ابن عبَّاس قال، قال عثمان بن أبي العاص الثقفي لبَنِيه: يا بَنيَّ، إني قد أمجدتكم في أمَّهاتكم، وأحسنت في مهنة أموالكم، وإني ما جلست في ظل رجل من ثقيفٍ أشتم عِرضه، والناكح مغترِس؛ فلينظر امرؤ حيث يضع غَرْسه. والعِرق السوء قلَّما يُنجب ولو بعد حين. قال، فقال ابن عبَّاس: يا غلام، اكتب لنا هذا الحديث.

قال: ولما همَّت ثَقيف بالارتداد قال لهم عثمان: مَعاشر ثقيف، لا تكونوا آخر العرب إسلامًا، وأولهم ارتدادًا.

قال: وسمعت أعرابيًّا ذكر يومًا قريشًا فقال: كفى بقريش شرفًا أنهم أقرب الناس نسبًا برسول الله ﷺ، وأقربهم بيتًا من رسول الله.

الأصمعي قال، قيل لعَقيل بن عُلَّفة: لِمَ تهجو قومك؟ قال: الغَنم إذا لم يُصفَر لها لم تشرب. قال: وقيل لعَقيل بن عُلفة: لِمَ لا تُطيل الهِجاء؟ قال: يكفيك من القِلادة ما أحاط بالعُنق.

قال: وسأل عمر رضي الله عنه عمرو بن معد يكرب عن سعد، فقال: كيف أميركم؟ قال: خير أمير، نَبطيٌّ في حُبْوته، عربيٌّ في نَمِرته، أسدٌ في تامورته،[٦٢] يعدل في القضية، ويَقسِم بالسويَّة، ويَنفِر بالسَّريَّة، وينقُل إلينا حقنا كما تَنقُل الذَّرَّة. فقال عمر: لشَدَّ ما تقارضتما الثناء!

ولما توردَّ الحارث بن قيس الجَهضَمي بعُبيد الله بن زياد منزلَ مسعود بن عمرو العَتَكي عن غير إذن، فأراد مسعود إخراجه من منزله. قال عُبيد الله: قد أجارتني بنتُ عمِّك عليك، وعقدها العقد الذي يلزمك، وهذا ثوبها عليَّ، وطعامها في مذاخري،[٦٣] وقد التفَّ عليَّ منزلك. وشهد له الحارث بذلك.

---

[٦٢] نبطي في حبوته: أي يُشبه القبطي في جلسته واحتبائه. نمرته: شملته. تامورته: هنا بمعنى عرينه.

[٦٣] مذاخري: أمعائي.

مر الشَّعبي بناسٍ من الموالي يتذاكرون النحو، فقال: لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده.

وتكلَّم عبد الملك بن عُمير[٦٤] وأعرابيٌّ حاضر، فقيل له: كيف ترى هذا الكلام؟ قال: لو كان الكلام يؤتدَم به لكان هذا. وقال: العذر طرفٌ من البُخل. وقال أيضًا: الخَرس خير من الخلابة. وقال أبو عمر الضرير: البَكَم خير من البذاء. وقَدِم الهيثم بن الأسود بن العُريان على عبد الملك بن مروان فقال: كيف تجدك؟ قال: أجدني قد ابيضَّ مني ما كنت أُحبُّ أن يَسودَّ، واسودَّ مني ما كنت أُحبُّ أن يبيضَّ، واشتدَّ مني ما كنت أُحبُّ أن يلين، ولانَ مني ما كنت أُحبُّ أن يشتدَّ. ثم أنشد:

اسمَعْ أُنبِّئْكَ بآياتِ الكِبَرْ نَومُ العِشاءِ وسُعالٌ بالسَّحَرْ
وقِلَّةُ النَّومِ إذا اللَّيلُ اعتكَرْ وقِلَّةُ الطُّعمِ إذا الزادُ حضَرْ

وقال أكثم بن صيفي:[٦٥] الكرم حسن الفطنة، واللؤم سوء الفطنة. وقال أكثم: تَباعَدوا في الديار تَقارَبوا في المودَّة. وقال لبَنِيه: تَباذَلوا تحابُّوا.

ودخل عيسى[٦٦] بن طلحة بن عُبيد الله على عُروة[٦٧] بن الزبير وقد قُطعت رِجله، فقال له عيسى: والله ما كنَّا نُعدُّك للصراع، ولقد أبقى الله لنا أكثرك؛ أبقى لنا سمعك

[٦٤] عبد الملك بن عمير: كان يُكنى أبا عمرو، ويُلقب القبطي، وأصله من لخم. تولَّى قضاء الكوفة بعد الشعبي وظل فيه سنة، ثم استعفى الحجَّاج فأعفاه. وكان بليغًا راوية وشاعرًا صاحب أخبار. وكان دميمًا جدًّا، ولدمامته كان يلقِّبه المخنَّثون «منفِّر الغيلان». وُلد سنة ٣٣هـ/٦٥٦م، وتُوفي سنة ١٣٦هـ/٧٤٣م.

[٦٥] أكثم بن صيفي: هو من تميم، من بطن منهم يُقال له بنو شريف. حكيم من حكماء العرب، وخطيب من خطبائهم. أدرك البعثة ولم يُسلِم، وكان يُحرض قومه على اتباع الرسول ﷺ. عاش ١٩٠ سنة. وهو القائل:

وإن امرأً قد عاش تِسعينَ حِجَّةً إلى مائةٍ لم يَسْأمِ العيشَ جاهِلُ
مضتْ مئتانِ غيرَ ستٍّ وأربعٍ وذلك من عدِّ الليالي قلائلُ

[٦٦] عيسى بن طلحة بن عُبيد الله: كان ناسكًا بخيلًا جيِّد الكلام. وفد على عبد الملك بن مروان مع عمر بن عبد الرحمن بن عوف، وكلَّمه في عزل الحجَّاج عن الحجاز فعزله. تُوفي سنة ١٠١هـ/٧١٩م.

[٦٧] عروة بن الزبير: هو ابن الزبير بن العوَّام. يُكنى أبا عبد الله. كان فقيهًا فاضلًا وصبورًا جَلدًا. أصابته أكلة في رِجله وهو عند الوليد بن عبد الملك، فقُطعت رجله والوليد حاضر فلم يتحرك، ولم يشعر الوليد

وبصرك ولسانك وعقلك ويدَيك وإحدى رِجلَيك. فقال له عُروة: والله يا عيسى ما عزَّاني أحد بمِثلِ ما عزَّيتَني به.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكُن، وبالآخرة لم تزَل.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: اقرءوا القرآن تُعرَفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله. ولن يبلُغ حقُّ ذي حقٍّ أن يُطاع في معصية الله، ولن يُقرِّب من أجل، ولن يُباعد من رِزق؛ أن يقوم رجلٌ بحق، أو يُذكِّر بعظيم.

وقال أعرابي لهشام بن عبد الملك: أتت علينا ثلاثة أعوام؛ فعامٌ أكلَ الشَّحم، وعامٌ أكلَ اللَّحم، وعامٌ انتقى العظم. وعندكم أموال؛ فإن كانت لله فادفعوها إلى عباد الله، وإن كانت لعباد الله فادفعوها إليهم، وإن كانت لكم فتصدَّقوا بها عليهم؛ فإن الله يجزي المُتصدقين. قال: فهل من حاجةٍ غير ذلك؟ قال: ما ضربتُ إليك أكباد الإبل أدَّرِع الهجير وأخوض الدُّجى لخاصٍّ دون عام.

قال شدَّاد الحارثي، ويُكنى أبا عُبيد الله: قلت لأَمَةٍ سوداء بالبادية: لمن أنتِ يا سوداء؟ قالت: لسيِّد الحضر يا أصلع. قال، قلت: ما غضبك من الحق؟ قالت: الحقُّ أغضبك، لا تسبُبْ تُرهَب، ولأنْ تتركه أمثَل.

وقال الأصمعي، قال عيسى بن عمر، قال ذو الرُّمَّة: قاتَل الله أَمة آل فلان، ما كان أفصحَها! سألتها: كيف كان المطر عندكم؟ فقالت: غِثنا ما شئنا.

وأنا رأيت عبدًا أسود لبني أسيد، قَدِم عليهم من شِقِّ اليمامة، فبعثوه ناطورًا، وكان وحشيًّا محرَّمًا؛ لطول تغرُّبه كان في الإبل، وكان لا يلقى إلا الأكَرة، فكان لا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم، فلما رآني سكن إليَّ، وسمعته يقول: لعن الله بلادًا ليس فيها عرب، قاتَل الله الشاعر حيث يقول: حُرُّ الثَّرى مُستغرَبُ التُّرابِ. أبا عثمان، إن هذه العرب في جميع الناس كمقدار القُرحة في جميع جلد الفَرس؛ فلولا أن الله رق عليهم فجعلهم في حاشية لطمستْ هذه العُجمان آثارهم. أتُرى الأعيار إذا رأت العِتاق[٦٨] لا ترى لها فضلًا؟ والله ما أمر الله نبيَّه بقتلهم إلا لضنِّه بهم، ولا ترك قَبول الجِزية منهم إلا تنزيهًا لهم.

بقطعها حتى كُويت وشم رائحة الكي، وبقي بعد ذلك ثماني سنين. واحتفر بئرًا بالمدينة يُقال لها بئر عروة ليس بالمدينة بئرٌ أعذب منها. مات بضَيعةٍ له قرب المدينة سنة ٩٤هـ/٧١٢م.

[٦٨] الأعيار: الحمير. العتاق: الخيل الأصائل.

قال الأحنف: أسرَعُ الناس إلى الفتنة أقلُّهم حياءً من الفِرار.

ولما مات أسماء بن خارجة الفزاري، فبلَغ الحجَّاجَ موتُه، قال: هل سمعتم بالذي عاش ثم مات حين شاء.

وقال سلم بن قُتيبة: رَبُّ المعروف أشَدُّ من ابتدائه.[٦٩]

أبو هلال، عن قتادة قال، قال أبو الأسود:[٧٠] إذا أردت أن تُكذِب صاحبك فلقِّنه. وقال أبو الأسود: إذا أردت أن تعظُم فمُت. وقال أبو الأسود: إذا أردت أن تُفحِم عالِمًا فأحضِرْه جاهلًا.

قيل لأعرابي: ما يدعوك إلى نَومة الضُّحى؟ قال: مَبرَدة في الصيف، مَسخَنة في الشتاء.

وقال أعرابيٌّ آخر: نَومة الضُّحى مَعجَزةٌ مَبخَرة. وجاء في الحديث: «الولد مَجبَنةٌ مَبخَلة.»

ونظر أعرابي إلى قومٍ يلتمسون هلال رمضان، فقال: أمَا والله لئن ثُرتموه لتُمسِكنَّ منه بِذُنابى عَيشٍ أغبر.

وقال أسماء بن خارجة: إذا قدُمت المصيبة، تُركت التعزية. وقال: إذا قدُم الإخاء، قبُح الثناء.

وقال إسحاق بن حسَّان: لا تشمِّت الأمراء، ولا الأصحاب القدماء.[٧١]

وسئل أعرابي عن راعٍ له فقال: هو السارح الآخِر، الرائح الباكر، الحالب العاصر، الحاذق الكاسر.

وقال عُتبة بن أبي سفيان[٧٢] لعبد الصمد مؤدِّب ولده: ليكُن أول ما تبدأ به من إصلاحِ بَنيَّ إصلاح نفسك؛ فإن أعيُنهم معقودة بعينك؛ فالحسن عندهم ما استحسنت،

---

[٦٩] رب المعروف: تعهُّده وإصلاحه.

[٧٠] أبو الأسود: هو ظالم بن عمرو أبو الأسود الدؤلي الكناني، أول من وضع العربية، وكان شاعرًا مُجيدًا وعاقلًا حازمًا مبخلًا. شهد صِفين مع علي بن أبي طالب، كرَّم الله وجهه، ووَلي البصرة لابن عبَّاس، وبها فلج وقد أسن. وكان يقول لولده: لا تُجاودوا الله؛ فإنه أجوَد وأمجد، ولو شاء أن يوسِّع على الناس كلهم حتى لا يكون مُحتاج لفعل، ولا تجهدوا أنفسكم في التوسعة فتهلكوا هزالًا. وسمع رجلًا يقول: من يعشِّي الجائع؟ فعشَّاه، ثم ذهب القائل ليخرج فقال له: هيهات، على ألا تؤذيَ المسلمين الليلة. ووضع رجله في الأدهم. مات بالبصرة سنة ٦٩هـ/٦٨٨م.

[٧١] يعني إذا عطس أحدهم فلا تقل له يرحمك الله.

[٧٢] عتبة بن أبي سفيان: هو أخو معاوية. شهد الجمل مع عائشة، وكان خطيبًا بليغًا إلا أنه كان يضعف. ولَّاه معاوية مصر، فبلَغته أمور عن أهلها، فصَعِد المِنبر مُغضَبًا وقال: أيا حاملين ألأم أُنوف رُكِّبت بين

والقبيح عندهم ما استقبحت. وعلِّمهم كتاب الله، ولا تُكرههم عليه فيَملُّوه، ولا تتركهم منه فيهجروه؛ ثم روِّهم من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أشرفه. ولا تُخرجهم من علم إلى غيره حتى يُحكِموه؛ فإن ازدحام الكلام في السمع مَضلَّة للفهم. وتهدَّدْهم بي وأدِّبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء. وجنِّبهم محادثة النساء، وروِّهم سِيَر الحكماء. واستزِدني بزيادتك إيَّاهم أزِدْك. وإيَّاك أن تتَّكل على عذر مني لك؛ فقد اتَّكلت على كفاية منك. وزِدْ في تأديبهم أزِدْك في بِرِّي إن شاء الله تعالى.

محمد بن حرب الهلالي قال، كتب إبراهيم بن أبي يحيى الأسلمي إلى المهدي يعزِّيه على ابنته: أما بعد، فإن أحقَّ من عرف حق الله عليه فيما أخذ منه، من عظَّم حق الله عليه فيما أبقى له. واعلم أن الماضي قبلك هو الباقي لك، وأن الباقي بعدك هو المأجور فيك، وأن أجر الصابرين فيما يُصابون به أعظَمُ من النعمة عليهم فيما يُعافَون منه.

وقال سهل بن هارون: التهنئة على آجل الثواب أولى من التعزية على عاجل المصيبة.

وقال صالح بن عبد القدوس:

إنْ يَكُنْ ما به أُصِبتَ جليلًا ... فذَهابُ العَزاءِ فيه أجَلُّ
كلُّ آتٍ لا شكَّ آتٍ وذو الجَهـ ... ـلِ مُعنًّى والهمُّ والحُزنُ فَضلُ

وقال لقمان لابنه: يا بُنيَّ، إيَّاك والكسلَ والضجر؛ فإنك إذا كسِلت لم تؤدِّ حقًّا، وإذا ضجِرت لم تصبر على حق.

وكان يُقال: أربع لا ينبغي لأحد أن يأنَف منهن وإن كان شريفًا أو أميرًا؛ قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته لضيفه، وقيامه على فرسه، وخدمته للعالِم. وقال بعض الحكماء: إذا رغبت في المكارم، فاجتنِب المحارم. وكان يُقال: لا تغترَّ بمودَّة الأمير، إذا غشَّك الوزير. وكتب آخر: أما بعد، فقد كنت لنا كُلَّك، فاجعل لنا بعضك، ولا ترضَ إلا بالكل منا لك.

أعيُن، إنما قلَّمت أظفاري عنكم لِيَلين مَسِّي إيَّاكم، وسألتكم صلاحكم لكم إذ كان فسادكم راجعًا عليكم. فأما إذا أبيتم إلا الطعن في الوُلاة، والتنقُّص للسلف، فوالله لأقطِّعن على ظهوركم بطون السِّياط؛ فإن حسمت داءكم، وإلا فالسيف من ورائكم؛ فكم من موعظة منا لكم مجَّتها قلوبكم، وزجرةٍ صُمَّت عنها آذانكم، ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذ جُدتم لنا بالمعصية، ولا أُويِسكم من مراجعة الحسنى إن صِرتم إلى التي هي أبَرُّ وأتقى.

ووصف بعض البُلغاء اللسان فقال: اللسان أداةٌ يظهر بها حُسنُ البيان، وظاهرٌ يُخبر عن الضمير، وشاهدٌ يُنبئك عن غائب، وحاكمٌ يُفصَل به الخطاب، وناطقٌ يُرَد به الجواب، وشافعٌ تُدرَك به الحاجة، وواصفٌ تُعرف به الحقائق، ومُعزٍّ يُنفى به الحزن، ومؤنِسٌ تذهب به الوَحشة، وواعظٌ ينهى عن القبيح، ومزيِّن يدعو إلى الحسن، وزارعٌ يحرث المودَّة، وحاصدٌ يستأصل الضغينة، ومُلهٍ يونِق الأسماع.[٧٣]

وقال بعض الأوائل: إنما الناس أحاديث؛ فإن استطعت أن تكون أحسنهم حديثًا فافعل.

ولما وصل عبد العزيز بن زُرارة إلى معاوية قال: يا أمير المؤمنين، لم أزَل أستدلُّ بالمعروف عليك، وأمتطي النهار إليك؛ فإذا ألوى بي الليل، فقُبض البصر، وعُفِّي الأثر، أقام بدني، وسافَر أملي، والنفس تلوم، والاجتهاد يعذر، وإذ قد بلَغتك فقَطنِي.[٧٤]

وقال لقمان: ثلاثة لا يُعرَفون إلا في ثلاثة مَواطن؛ لا يُعرَف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا في الحرب، ولا تعرف أخاك إلا عند حاجتك إليه.

وقال أبو العتاهية:

أنتَ ما استغنيتَ عن صا ... حِـبِـكَ الـدَّهـرَ أخُـوهُ
فـإذا احـتـجـتَ إلـيـه ... ســاعــةً مَـجَّـكَ فُـوهُ

وقال علي بن الحسين لابنه: يا بُني، اصبر على النائبة، ولا تتعرض للحقوق، ولا تُجِب أخاك إلى شيءٍ ضررُه عليك أعظم من منفعته له.

قال الأحنف: من لم يصبر على كلمةٍ سمع كلمات. وقال: رُبَّ غيظٍ تجرَّعته مخافةَ ما هو أشد منه. وقال: من كثُر كلامه كثُر سقطه، ومن طال صمته كثُرت سلامته.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر النُّقَل.

وقال محمد بن حرب الهلالي، عن أبي الوليد الليثي قال: خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظَّرِب العَدواني ابنته عَمرة، وهي أم عامر بن صعصعة، فقال: يا صعصعة، إنك أتيتني تشتري مني كبدي وأرحم ولدي عندي، أبْغَيتك أو زودتك، والحسيب كفء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب، وقد أنكحتك خشيةَ ألا أجد مِثلك،

---

[٧٣] في نسخة: وملهم يوفق الأسماع، وليس لذلك من معنًى صحيح في هذا المقام، والصواب ما أثبتناه.

[٧٤] يكفيني.

أفرُّ من السر إلى العلانية، أنصح ابنًا، وأودع ضعيفًا قويًّا. يا معشر عَدوان، خرجت من بين أظهركم كريمتكم من غير رهبة ولا رغبة، أقسم لو قَسمُ الحظوظ على قدر الجدود ما ترك الأول للآخر ما يعيش به.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل لكُنَّ لها أهلًا؛ لا يرجونَّ أحدكم إلا ربه، ولا يخافنَّ إلا ذنبه، ولا يستحي أحد إذا سئل عما لا يعلم أن يقول «لا أعلم»، وإذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه. واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطع الرأس ذهب الجسد، وكذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان. وقال الأصمعي: أثنى رجل على علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فأفرط، فقال علي، وكان يتَّهمه: أنا دُونَ ما تقول، وفوق ما في نفسك. وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: قيمة كل إنسان ما يُحسِن. وقال له مالك الأشتر: كيف وجد أمير المؤمنين امرأته؟ قال: كالخير من النساء إلا أنها قبَّاء. قال: وهل يريد الرجل من النساء غير ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، حتى تُدفئ الضجيع، وتُرويَ الرضيع.

ووقف رجل على عامر الشعبي فلم يدع قبيحًا إلا رماه به، فقال له عامر: إن كنت كاذبًا فغفر الله لك، وإن كنت صادقًا فغفر الله لي.

وقال إبراهيم النخعي لسليمان الأعمش — وأراد أن يُماشيه — فقال: إن الناس إذا رأونا معًا قالوا: أعور وأعمش. قال: وما عليك أن يأثموا ونؤجَر؟ قال إبراهيم: وما عليك أن يَسلَموا ونَسلَم؟

قال أبو الحسن: كان هشام بن حسَّان إذا ذكر يزيد بن المهلَّب قال: إنه كانت السفن لتجري في جوده. قال: مكتوب في الحكمة: التوفيق خير قائد، وحُسن الخُلق خير قرين، والوحدة خير من قرين السوء.

وكان مالك بن دينار يقول: ما أشدَّ فِطامَ الكبير! ويُنشد قول الشاعر:

وتَرُوضُ عِرسَكَ بعدَما هَرِمتْ ... ومن العَناءِ رياضةُ الهَرِمِ

وقال صالح المُري: كُن إلى الاستماع أسرع منك إلى القول، ومن خطأ الكلام أشد حذرًا من خطأ السكوت.

وقال الحسن بن هانئ:

خَلِّ جَنبَيكَ لِرامِ ... وامْضِ عنه بسَلامِ
مُتْ بِداءِ الصَّمتِ خيرٌ ... لكَ من داءِ الكَلامِ

إنَّما السالمُ مَن ألْـ ـجمَ فاهُ بلِجامِ
ربَّما استفتحتَ بالمَز حِ مَغاليقَ الحِمامِ

قال أبو عُبيدة وأبو الحسن: تكلَّم جماعة من الخطباء عند مَسلمة بن عبد الملك فأسهبوا في القول، ثم افترع المنطقَ رجلٌ من أُخريات الناس لا يخرج من حسن إلا إلى أحسن منه، فقال مَسلمة: ما شبَّهت كلام هذا بعَقِب كلام هؤلاء إلا بسحابة لبَّدت عَجاجة.

قال أبو الحسن: علَّم أعرابي بَنِيه الخراءة، فقال: اتبعِوا الخلاء، وابعدوا من المَلاء، واعلوا الضِّراء، واستقبِلوا الريح، وأفجُّوا فجاج النعامة،[٧٥] وامتسِحوا بأشمُلكم.

ويُروى عن الحسن أنه قال: لما حضرت قيسَ بن عاصم الوفاةُ دعا بنيه فقال: يا بَنيَّ احفظوا عني، فلا أحد أنصح لكم مني، إذا مت فسوِّدوا كباركم، ولا تسوِّدوا صِغاركم فيسفِّه الناس كباركم وتهُونوا عليهم. وعليكم باستصلاح المال؛ فإنه مَنبهة للكريم، ويُستغنى به عن اللئيم. وإيَّاكم ومسألةَ الناس؛ فإنها آخر كسب الرجل.

سئل دَغفَل النسَّابة عن بني عامر بن صعصعة، قال: أعناق ظِباء، وأعجاز نساء. قيل: فتميم؟ قال: حجرٌ أخشن، إن دنَوت منه آذاك، وإن تركته أعفاك. قيل: فاليمن؟ قال: سيِّد وأنوَك.

وكانوا يقولون: لا تستشيروا مُعلمًا، ولا راعيَ غنم، ولا كثير القعود مع النساء.

عفَّان بن شيبة قال: كنت رديف أبي، فلقيه جرير على بغل، فحيَّاه أبي وألطفه، فقلت له: أبعدَ ما قال لنا ما قال؟ قال: يا بني، أفوسِّع جُرحي؟ قال: ودعا جرير رجلًا من شعراء بني كلاب إلى مُهاجاته، فقال الكلابي: إن نسائي بأمتعتهن، ولم تدع الشعراء في نسائك مُترقعًا. وقال جرير: أنا لا أبتدي، ولكني أعتدي.

وكان الحسن في جنازة فيها نوائح ومعه رجل، فهمَّ الرجل بالرجوع، فقال الحسن: إن كنت كلما رأيت قبيحًا تركت له حسنًا أسرع ذلك في دينك.

قال أبو عُبيدة: لقي المخبَّل القُرَيعي الزبرقان فقال: كيف كنت بعدي أبا شَذرة؟ قال: كما يسرُّك مُحِيلًا مُجرِبًا.

قال: وكان عبد الملك بن مروان يقول: جمع أبو زُرعة — يعني رَوح بن زِنباع — طاعة أهل الشام، ودهاء أهل العراق، وفقه أهل الحجاز.

[٧٥] أفجوا فجاج النعامة: أي باعِدوا بين أرجلكم كما تفعل النعامة حينما ترمي بصومها.

وذُكِر لعمر بن الخطاب إتلاف شباب من قريش أموالَهم، فقال عمر: حرفة[٧٦] أحدهم أشدُّ عليَّ من عَيلته. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: حِرفةٌ يُعاش بها خيرٌ من مسألة الناس.

وقال زياد: لو أن لي ألفَ ألفِ درهم، ولي بعيرٌ أجرب، لقمت عليه قيام من لا يملك غيره، ولو أن عندي عشرة دراهم لا أملك غيرها ولزِمني حقٌّ لوضعتها فيه.

وقال عمرو بن العاص: البِطنة تُذهب الفِطنة.

وقال معاوية بن أبي سفيان: ما رأيت رجلًا مستهترًا بالباءة إلا تبيَّنت ذلك في مُنَّته.

قال الأصمعي، قال أبو سليمان الفقعسي لأعرابي من طيئ: أبِامْرأتك حَمْل؟ قال: لا وذو بيتُه في السماء، ما أدري واللهِ ما لها ذنَب تشال به، وما أتيتها إلا وهي ضَبِعة.

قال أبو الحسن المدائني: اتخذ يزيد بن المهلَّب بُستانًا بخراسان في داره، فلما ولي قُتيبة خراسان جعل ذلك لإبله، فقال له مَرزبان مروان: هذا كان بُستانًا ليزيد وقد اتخذته لإبلك! فقال قُتيبة: إن أبي كان أُشتُربان — يعني رئيس الجمَّالين — وأبو يزيد كان بُستان بان.

وقال الحجَّاج بن يوسف لعبد الملك بن مروان يومًا: لو كان رجل من ذهب لكُنتُه. قال: وكيف ذلك؟ قال: لم تلدني أَمةٌ بيني وبين آدم ما خلا هاجر. فقال: لولا هاجر لكنتَ كلبًا من الكلاب.

ومات ابن لعُبيد الله بن الحسن، فعزَّاه صالح المُري فقال: إن كانت مصيبتك في ابنك أحدثتْ لك عِظة في نفسك، فمصيبتك في نفسك أعظم من مصيبتك في ميتك.

وعزَّى عمرو بن عُبيد أخاه على ابنٍ مات له فقال: ذهب أبوك وهو أصلك، وذهب ابنك وهو فرعك، فما حال الباقي بعد ذهاب أصله وفرعه؟

وكان يزيد بن عمر بن هُبيرة[٧٧] يقول: احذفوا الحديث كما يحذفه مُسلم بن قُتيبة.

---

[٧٦] حرفة: يريد إن تجرَّد أحدهم من صنعةٍ يُحسنها أشد عليه من عَيلته؛ أي من فقره.

[٧٧] يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري: كان أميرًا جليلًا وسيدًا شريفًا. تولَّى العراقَين لمروان بن محمد خمس سنين، وكان شجاعًا باسلًا وجوادًا كريمًا، واسع المروءة عظيم الخطر. كان يقسم على زُواره في كل شهر خمسمائة ألف (درهم)، ويعشِّي كل ليلة من شهر رمضان ثم يقضي للناس حوائجهم. ولما ظهرت الدعوة العباسية صمد لها، وحاوَل مقاومتها، فهاجَمه قحطبة بن شبيب الطائي في جموعه،

وقال رجل من بني تميم لصاحب له: اصحب من يتناسى معروفه عندك، ويتذكر حقوقك عليه.

وعذل عاذلٌ شُعيب بن زياد على شرب النبيذ، فقال: لا أتركه حتى يكون شر عملي.

وقال المأمون: اشربه ما استبشعته حتى إذا سهل عليك فاتركه.

وقال النبي ﷺ: «إذا كتب أحدكم فليترِّب كتابه؛ فإن التراب مُبارَك، وهو أنجح للحاجة.» ونظر ﷺ إلى رجل في الشمس فقال: «تحوَّلْ إلى الظل؛ فإنه مُبارَك.»

وقال المُغيرة بن شُعبة:[٧٨] لا يزال الناس بخيرٍ ما تعجَّبوا من العَجب. وكان يُقال: ترك الضحك من العجب، أعجَبُ من الضحك من غيرِ العَجب.

وقَدِم سعيد بن العاص[٧٩] على معاوية فقال: كيف تركت أبا عبد الملك؟ قال: منفِّذًا لأمرك، ضابطًا لعملك. فقال معاوية: إنما هو كصحاب الخبزة كُفي إنضاجها فأكلها. فقال سعيد: كلَّا، إنه بين قوم يتهادَون فيما بينهم كلامًا كوقع النَّبل سهمًا لك وسهمًا عليك. قال: فما باعَد بينك وبينه؟ قال: خِفتُه على شرفي، وخافني على مثله. قال: فأي شيء كان له عندك في ذلك؟ قال: أسُوءه حاضرًا وأسُرُّه غائبًا. قال: يا أبا عثمان، تركتنا

وألجأه إلى التحصُّن بواسط فيمن معه. ولما تمَّت البيعة لأبي العبَّاس السفَّاح ولَّى أخاه أبا جعفر على واسط، فقام أبو جعفر على حصار يزيد بن عمر بها تسعة أشهر، ثم افتتحها صلحًا، وخرج إليه يزيد في ركب من آل بيته بأمان منه، فكان أبو جعفر يقول: لا يعز ملك هذا فيه. ثم غدر به وقتله هو وولده داود سنة ١٣٢هـ/٧٥٩م.

[٧٨] المُغيرة بن شعبة: يُكنى أبا عبد الله، وهو من ثقيف. قيل إنه صحب قومًا من المشركين إلى مصر فقتلهم غيلةً وأخذ ما معهم، ثم لحق بالنبي وأسلم. وشهد بيعة الرضوان، كما شهد اليمامة وفتوح الشام واليرموك والقادسية. وكان من الصحابة الأجلَّاء، والأمراء النُّبلاء، والقادة البُسلاء. ولَّاه عمر بن الخطاب البصرة فافتتح ميسان، ومنها جاء بالسبي الذي كان فيه والدا الحسن البصري ومحمد بن سيرين. وافتتح دست ميسان وأبرقباذ وسوق الأهواز وهمذان، وشهد نهاوند، وكان على ميسرة النعمان بن مقرن. وهو أول من وضع ديوان البصرة، وأول من سُلم عليه بالإمرة، وأول من رشا في الإسلام. يعني أنه رشا حاجب عمر ليسهل له الإذن عليه. وذهبت عينه في إحدى الوقائع. ولما حضرته الوفاة قال: اللهم هذه يميني بايَعت بها نبيَّك، وجاهدت بها في سبيلك. مات بالطاعون في الكوفة وهو أميرها سنة ٥٠هـ/٦٧٠م.

[٧٩] سعيد بن العاص: يُكنى أبا عثمان. كان سيدًا من سادات بني أُمية. قُتل أبوه العاص بن سعيد مُشركًا يوم بدر. وكان سعيد غلامًا فكساه النبي جُبة، وإليه تُنسب الثياب السعيدية. وكان شجاعًا باسلًا، وهو أول من خش الإبل في العظم. مات سنة ٥٩هـ/٦٧٨م.

في هذه الحروب! قال: نعم، تحمَّلت الثقل، وكفيت الحزم، وكنت قريبًا لو دُعِيت لأجبت، ولو أُمرت لأطعت. قال معاوية: يا أهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم.

قال: وكان الحجَّاج يستثقل زياد بن عمرو العتكي، فلما أثنى الوفد على الحجَّاج عند عبد الملك[٨٠] — والحجَّاج حاضر — قال زياد: يا أمير المؤمنين، إن الحجَّاج سيفك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم. فلم يكن بعد ذلك أحد أخفَّ على قلبه منه.

وقال شبيب بن شيبة لمسلم بن قتيبة: والله ما أدري أيُّ يومَيك أشرف؛ أيوم ظَفرك أم يوم عفوك؟ وقال غلام لأبيه، وقد قال «لستَ لي ابنًا»: والله لأنا أشبَهُ بك منك بأبيك، ولأنت أشد تحصينًا لأمي من أبيك لأمك.

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ذي الجناحَين إلى رجل من إخوانه:

> أما بعد، فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأتني بلطف من غير خبرة، ثم أعقبتني جفاءً من غير ذنب، فأطمَعني أولك في إخائك، وآيَسني آخرك في وفائك؛ فلا أنا في اليوم مجمع لك اطراحًا، ولا أنا في غدٍ وانتظاره منك على ثقة؛ فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف. والسلام.

---

[٨٠] أبو عبد الملك: هو مروان بن الحكم. وُلد لسنتَين من الهجرة. وكان من عثمان بن عفان بمكان الوزير والمستشار، وكانت تصرفاته سببًا في الفتنة التي قُتل فيها عثمان، والتي جرَّت على الإسلام من المصائب والنكبات ما هو معروف ومدوَّن في بطون التواريخ. ولَّاه عبد الله بن عامر رستاقًا من أردشير حرة، ثم ولَّاه معاوية البحرين ثم المدينة مرتين. ولما مات معاوية بن يزيد بايَع أهل الشام مروان بالخلافة، وبايَع لعبد الله بن الزبير أهل البصرة، كما اجتمعت له العراق والحجاز واليمن ومصر، وبايَعه سرًّا الضحَّاك بن قيس الفهري بالشام، والنعمان بن بشير بحمص، وزفر بن الحارث الكلابي بقنسرين، لولا أن مروان بن الحكم نازعه الأمر واجتمعت به بنو أمية، وصار الناس في الشام فرقتَين تؤيد منهم اليمانية مروان، وتؤيد القيسية الضحَّاك بن قيس مُبايعين لابن الزبير، واقتتل الفريقان بمرج راهط، فقهر مروان الضحَّاك وقتله. وكانت ولاية مروان بالغلب عشرة أشهر. وكان قد تزوَّج أم خالد بن يزيد بن معاوية لخوفه من خالد، فاتَّفق أن شتم مروان خالدًا شتمًا قبيحًا تناول به أمه، فلما بلَغها ذلك صبرت عليه حتى كان معها، وتركته إلى أن نام، فوضعت على وجهه وسادة، وقعدت على وجهه هي وجواريها حتى مات. وكان سنه إذ ذاك ٦٣ سنة، وموته سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م.

(١٢) كتاب عبد الله بن معاوية بن جعفر إلى أبي مسلم يستعطفه

وكتب إلى أبي مسلم صاحب الدعوة[٨١] من الحبس:

من الأسير في يدَيه، بلا ذنب إليه، ولا خلاف عليه. أما بعد، فآتاك الله حِفظ الوصية، ومنحك نصيحة الرعية، وألهمك عدل القضية؛ فإنك مستودَعٌ ودائع، ومُولًى صنائع، فاحفظ ودائعك بحسن صنائعك، فالودائع عارية، والصنائع مَرعية. وما النِّعم عليك وعلينا فيك بمنزورٍ نداها، ولا بمبلوغٍ مداها؛ فنبِّه للتفكير قلبك، واتَّقِ الله ربك، وأعطِ من نفسك لمن هو تحتك ما تُحب أن يُعطيَك من هو فوقك؛ من العدل والرأفة، والأمن من المخافة؛ فقد أنعم الله عليك بأن فوَّض أمرنا إليك، فاعرف لنا لين شكر المودَّة، واغتفار مس الشدَّة، والرضا بما رضيت، والقناعة بما هَوِيت؛ فإن علينا من سُمك الحديد وثقله أذًى شديدًا، مع معالجة الأغلال، وقلة رحمة العمال، الذين تسهيلهم الغلظة، وتيسيرهم الفظاظة، وإيرادهم علينا الغموم، وتوجيههم إلينا الهموم، زيارتهم الحراسة، وبشارتهم الإياسة؛ فإليك بعد الله نرفع كربة الشكوى، ونشكو شدة البلوى؛ فمتى تُمِل إلينا طرفًا، وتُولِنا منك عطفًا، تجد عندنا نصحًا صريحًا، وودًّا صحيحًا، لا يُضيع مثلُك مثلَه، ولا ينفي مثلُك أهله؛ فارْعَ حُرمة من أدركت بحرمته، واعرف حجة من فلَجت بحجته؛ فإن الناس من حوضك رِواء، ونحن منه ظِماء، يمشون في الأبراد، ونحن نحجل في الأقياد، بعد الخير والسعة، والخفض والدعة، والله المستعان، وعليه التُّكلان، صريح الأخيار، منجِّي الأبرار. الناس من دولتنا في رخاء، ونحن منها في بلاء. حين أمن الخائفون، ورجع الهاربون، رزقنا الله منك التحنُّن، وظاهَر علينا من التمنُّن؛ فإنك أمينٌ مستودَع، ورائد مستصطفًى. والسلام ورحمة الله.

---

[٨١] أبو مسلم صاحب الدعوة: هو أبو مسلم الخراساني، القائم بالدعوة العباسية، والممهِّد لملك العباسيين. نشأ في كنف إدريس بن عيسى جد أبي دُلف العجلي. وكان قائدًا محنَّكًا ذا دهاء وتدبير، وشجاعًا باسلًا. قام بأمر الدعوة العباسية خير قيام، وما زال بها حتى مكَّن لهم وجعل بين أيديهم ملكًا عظيمًا، ثم أوجس منه أبو جعفر المنصور خيفةً فتعلَّل عليه وغدر به. وُلد سنة ١٠٠هـ/٧١٨م، وقُتل سنة ١٣٧هـ/٧٥٤م.

قال هشام بن الكلبي: حدَّثنا خالد بن سعيد، عن أبيه قال: شكَت بنو تغلب السنةَ إلى معاوية، فقال: كيف تشكون الحاجة مع ارتجاج البِكارة، واختلاف المِهارة؟

(١٣) كتاب معاوية إلى قيس بن سعد[٨٢]

وقال ابن الكلبي: كتب معاوية إلى قيس بن سعد: أما بعد، فإنك يهودي ابن يهودي، إن ظَفِر أحبُّ الفريقين إليك عزلك واستبدل بك، وإن ظَفِر أبغضهما إليك قتلك ونكَّل بك. وكان أبوك وتَّر قوسه، ورمى غير غرضه، فأكثر الحز وأخطأ المَفصل، فخذله قومه، وأدركه يومه، ثم مات طريدًا بحوران. والسلام.

(١٤) جواب قيس بن سعد لمعاوية

فكتب إليه قيس بن سعد:

> أما بعد، فإنما أنت وثن ابن وثن، دخلت في الإسلام كرهًا، وخرجت [منه] طوعًا. لم يقدُم إيمانك، ولم يحدُث نفاقك. وقد كان أبي وتَّر قوسه، ورمى غرضه، وشغَّب عليه من لم يبلغ كعبه، ولم يشقَّ غباره، ونحن أنصار الدين الذي خرجتَ منه، وأعداء الدين الذي دخلتَ فيه. والسلام.

وقال أبو عُبيدة وأبو اليقظان وأبو الحسن: قَدِم وفد العراق على معاوية وفيهم الأحنف، فخرج الآذن فقال: إن أمير المؤمنين يعزم عليكم أن لا يتكلم أحد إلا لنفسه. فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عزيمة أمير المؤمنين لأخبرته أن دافَّةً دفَّت، ونازلةً نزلت، ونائبةً نابت، ونابتةً نبتت، كلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبِرِّه. قال: حسبُك يا أبا بحر؛ فقد كفيت الغائب والشاهد.

وقال غَيلان بن خرشة للأحنف: ما فيه بقاء العرب؟ قال: إذا تقلَّدوا السيوف، وشدُّوا العمائم، وركِبوا الخيل، ولم تأخذهم حميَّة الأوغاد. قال: وما حمية الأوغاد؟

[٨٢] قيس بن سعد: هو قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، يُكنى أبا عبد الملك. صحابي جليل، روى عن الرسول ﷺ. وكان شجاعًا باسلًا، طويلًا جسيمًا، وهو يُحسب في المُعلمين. تولَّى مصر لعلي بن أبي طالب، فاحتال معاوية عليه حتى ظن به عليٌّ الظنون، فعزله دون تبيُّن. تُوفي بالمدينة في آخر عهد معاوية سنة ٦٠هـ/٦٧٩م.

قال: أن يعدُّوا التواهب فيما بينهم ضيمًا. وقال عمر: العمائم تيجان العرب. وقيل لأعرابي: ما لك لا تضع العمامة عن رأسك؟ قال: إن شيئًا فيه السمع والبصر لحقيقٌ بالصَّون.

وقال علي رضي الله تعالى عنه: جمال الرجل في كُمَّته، وجمال المرأة في خُفِّها.

وقال الأحنف: استجيدوا النِّعال؛ فإنها خلاخيل الرجال. قال: وجرى ذِكر رَجل عند الأحنف فاغتابوه، فقال الأحنف: ما لكم وما له؟ يأكل رزقه، وتحمل الأرض ثِقله، ويكفي قِرنه.

مَسلمة بن مُحارب قال، قال زياد لحُرقة بنت النعمان: ما كانت لذة أبيك؟ قالت: إدمان الشراب، ومحادثة الرجال.

وقال سليمان بن عبد الملك: قد ركِبنا الفارِه، وتبطَّنَّا الحسناء، ولبِسنا اللَّيِّن حتى استخشنَّاه، وأكلنا الطيِّب حتى أجمْناه، فما أنا اليوم إلى شيءٍ أحوج مني إلى جليسٍ يضع عني مؤنة التحفُّظ.

وأشاروا على عُبيد الله بالحُقنة، فتفحَّشها، فقالوا: إنما يتولَّاها منك الطبيب. فقال: أنا بالصاحب آنَس.

وقال معاوية بن أبي سفيان للنخَّار بن أوس العُذري: ابغِني محدِّثًا. قال: أوَمَعي يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، أستريح منه إليك، ومنك إليه.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لأبي مريم الحنفي: والله لا أُحبُّك حتى تُحبَّ الأرض الدم المسفوح. قال: فتمنعني لذلك حقًّا؟ قال: لا. قال: لا ضير، إنما يأسف على الحب النساء. وقال عمر لرجل همَّ بطلاق امرأته: لمَ تُطلقها؟ قال: لا أحبها. قال: أوَكلُّ البيوت بُنِيت على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم؟

وأُتي عبد الملك بن مروان برجل فقال: زُبيريٌّ عُميري، والله لا يُحبك قلبي أبدًا. قال: يا أمير المؤمنين، إنما تبكي على الحب المرأة، ولكن عدل وإنصاف.

عبد الله بن المبارك، عن هشام بن عُروة قال: نازَع مروانُ ابنَ الزبير[٨٣] عند معاوية، فرأى ابن الزبير أن ضلع معاوية مع مروان، فقال ابن الزبير: يا أمير المؤمنين، إن لك

[٨٣] عبد الله بن الزبير: هو عبد الله بن الزُّبير بن العوَّام، أمُّه أسماء بنت أبي بكر، يُكنى أبا بكر وأبا خبيب. وُلد بالمدينة بعد الهجرة بعشرين شهرًا، وقيل هو أول مولود بها في الإسلام. كان شجاعًا باسلًا وفارسًا مِغوارًا. طلب الخلافة فاستولى على الحجاز والعراق واليمن ومصر تسع سنين، فسيَّر إليه

حقًّا وطاعة علينا، وإن لك بَسطةً وحُرمة فينا، فأطِعِ الله نُطِعك؛ فإنه لا طاعة لك علينا إلا في حق الله، ولا تُطرِق إطراق الأُفعوان في أُصول السَّخبر.

أبو عُبيدة قال: قيل لشيخٍ مرَّةً: ما بقي منك؟ قال: يسبقني من بين يدي، ويلحقني من خلفي، وأنسى الحديث، وأذكر القديم، وأنعس في الملاء، وأسهر في الخلاء، وإذا قمت قرُبت الأرض مني، وإذا قعدت تباعدت عني.

الأصمعي قال: قلت لأعرابي معه ضاجعةٌ من شاءٍ: لمن هذه؟ قال: هي لله عندي.

ولما قتل عبد الملك بن مروان مُصعبًا ودخل الكوفة، قال لهيثم بن الأسود النخعي: كيف رأيت الله صنع؟ قال: قد صنع الله خيرًا، فخفِّفِ الوطأة وأقِلَّ التثريب.

وقال ابن عبَّاس: إذا ترك العالم قول «لا أدري» أُصيبت مَقاتله. وكانوا يستحبُّون ألا يُجيبوا في كل ما سئلوا عنه. وقال ابن عمر: من قال عند ما لا يدري «لا أدري»، فقد أحرز نصف العلم.

وقال ابن عباس: إن لكل داخل دهشةً، فآنِسوه بالتحيَّة.

واعتذر رجل إلى مسلم بن قُتيبة، فقال مسلم: لا يدعونَّك أمر قد تخلَّصتَ منه إلى الدخول في أمر لعلَّك لا تَخلُص منه.

وكان يُقال: دعوا المَعاذر؛ فإن أكثرها مَفاجر.

وقال إبراهيم النخعي لعبد الله بن عوف: تجنَّبِ الاعتذار؛ فإن الاعتذار يُخالطه الكذب.

واعتذر رجل إلى أحمد بن أبي خالد فقال لأبي عبَّاد: ما تقول في هذا؟ قال: يوهب له جُرمه، ويُضرب على عُذره أربعمائة. وقد قال الأول: عُذرُه أعظَمُ من ذنبه.

وقيل لابن عبَّاس: وُلد عُمر بن أبي ربيعة في الليلة التي مات فيها عُمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فسُمِّي باسمه. فقال ابن عباس: أي حق رُفع، وأي باطل وُضع.

وقال عبد الله بن جعفر لابنته: يا بُنيَّة، إيَّاك والغَيرةَ فإنها مِفتاح الطلاق، وإيَّاك والمعاتبةَ فإنها تورث الضغينة، وعليك بالزينة والطِّيب، واعلمي أن أزين الزينة الكحل، وأطيب الطيب الماء.

عبد الملك بن مروان الحجَّاج بن يوسف الثقفي، فناجَزه الحرب وحاصَره بمكة. وكان ابن الزبير قد بنى الكعبة وجعل لها بابَين، فرماها الحجَّاج بالنفط والنار فأحرقها، وأصاب ابنَ الزبير سهمٌ عارٍ، فمات سنة ٧٤هـ/٦٩٣م.

ولما نازَع ابن الزبير مروان عند معاوية، قال ابن الزبير: يا معاوية، لا تدع مروان يرمي جماهير قريش بمَشاقصه، ويضرب صَفاتهم بمَعاوله.[٨٤] ولولا مكانك لكان أخفَّ على رقابنا من فراشة، وأقل في نفوسنا من خَشاشة.[٨٥] ولئن ملك أعنَّة خيل تنقاد له ليركبنَّ منك طبقًا تخافه. قال معاوية: إن يطلب هذا الأمر فقد طمع فيه من هو دونه، وإن يتركه يتركه لمن هو فوقه، وما أراكم بمُنتهين حتى يبعث الله إليكم من لا يعطف عليكم بقرابة، ولا يذكركم عند مُلمَّة، يسومكم خسفًا، ويورِدكم تلفًا. فقال ابن الزبير: إذًا والله نُطلق عِقال الحرب بكتائبَ تمورُ كرِجل الجراد[٨٦] حافاتُها الأسل، لها دويٌّ كدويِّ الريح، تتبع غِطريفًا من قريش لم تكن أمه براعية ثَلَّة. قال معاوية: أنا ابن هند، أطلقتُ عِقال الحرب فأكلت ذروة السَّنام، وشربت عُنفوان المَكرع، وليس للآكل إلا الفِلذة، ولا للشارب إلا الرَّنق.[٨٧]

بكر بن الأسود: قال الحسن بن علي لحبيب بن مَسلمة: رُبَّ مَسيرٍ لك في غير طاعة الله. قال: أما مسيري إلى أبيك فلا. قال: بلى، ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة، فلعَمْري لئن كان قام بك في دنياك لقد قعد بك في دينك، ولو أنك إن فعلت شرًّا قلت خيرًا كنت كما قال الله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾. ولكنك كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

قال أبو الحسن: سمعت أعرابيًّا في المسجد الجامع بالبصرة بعد العصر سنة ثلاث وخمسين ومائة وهو يقول: أما بعد، فإنَّا أبناء سبيل، وأنضاء طريق، وفلُّ سنة، تصدَّقوا علينا؛ فإنه لا قليل مع الأجر، ولا غِنى عن الله، ولا عمل بعد الموت. أما والله إنا لنقوم هذا المقام وفي الصدر حزازة، وفي القلب غُصة.

وقال الأحنف بخراسان: يا بني تميم، تحابُّوا تجتمع كلمتكم، وتباذلوا تعتدل أموركم، وابدءوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلُّوا يَسلَم لكم جهادكم. ومن كلام الأحنف السائر في أيدي الناس: الزَمِ الصحة يَلزَمك العقل.

---

[٨٤] المشاقص: الحجارة المُلس الصغار. صفاتهم: صخرتهم الصمَّاء.

[٨٥] الخشاشة: الحشرة.

[٨٦] كرجل الجراد: كجماعات الجراد.

[٨٧] الرنق: الماء المشوب.

وقال خالد بن صَفوان، وسئل عن الكوفة والبصرة: نحن مَنابتنا قصَب، وأنهارنا عجَب، وسماؤنا رُطَب، وأرضنا ذهب. وقال الأحنف: نحن أبعَدُ منكم سَريَّة، وأعظم منكم تجرِية، وأكثر منكم ذُرية، وأغذى منكم بَرِّية.

وقال أبو بكر الهُذلي: نحن أكثر منكم سَاجًا، وعاجًا، وديباجًا، وخراجًا، ونهرًا عجَّاجًا.

وكتب صاحب لأبي بكر الهُذلي إلى رجل يُعزيه عن أخيه: أوصيك بتقوى الله وحده؛ فإنه خلَقك وحده، ويبعثك يوم القيامة وحده، والعَجب كيف يعزِّي ميتٌ ميتًا عن ميت. والسلام.

وقال رجل لابن عبَّاس: أيُّما أحبُّ إليك؛ رجلٌ قليل الذنوب قليل العمل، أو رجلٌ كثير الذنوب كثير العمل؟ قال: ما أعدِل بالسلامة شيئًا.

وقال آخر: حماقة صاحبي عليَّ أشدُّ ضررًا منها عليه. شعبة أبو بسطام قال، قال عبد الرحمن بن أبي ليلى:[٨٨] لا أُماري أخي؛ فإما أن أُكذِبه، وإما أن أُغضِبه. واحتدَّ على ابن أبي ليلى رجلٌ من جلسائه، فقال ابن أبي ليلى له: أهدِ إلينا من هذا ما شئت. فلما مات ابن أبي ليلى وعمرو بن عُبيد رحمهما الله، قال أبو جعفر المنصور: ما بقي أحدٌ يُستحيى منه.

ولما مات عبد الله بن عامر، قال معاوية: رحم الله أبا عبد الرحمن، بمن يُفاخر مَسلمة بن مُحارب؟

وقال زياد: ما قرأت كتاب رجل قطُّ إلا عرفت عقله فيه.

أبو معشر قال: لما بلَغ عبدَ الله بن الزبير قتلُ عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق، قام خطيبًا فقال: إن أبا ذِبَّان قتل لَطيم الشيطان، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. ولما جاءه قتل أخيه مُصعب بن الزبير، قام خطيبًا

---

[٨٨] عبد الرحمن بن أبي ليلى: هو من ولد أُحيحة بن الجُلاح، وكان ابن شُبرمة وغيره يدفعه عن هذا النسب ويقول:

وكيف تُرجَّى لفصلِ القضاءِ ... ولم تُصِبِ الحُكمَ في نَفْسِكا
وتَزعمُ أنَّك لابْنِ الجُلاحِ ... وهيهاتَ دَعواكَ من أصلِكا

ولي ابن أبي ليلى القضاء لبني أمية ثم لبني العبَّاس، وكان فقيهًا مُفتيًا من أصحاب الرأي. مات وهو على القضاء سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م.

بعد خطبته الأولى فقال: إن مصعبًا قدَّم أيْره وأخَّر خيره، وتشاغل بنكاح فلانة وفلانة، وترك حلبة أهل الشام حتى غشيته في داره، ولئن هلك مصعب إن في آل الزبير خلفًا منه.

ولما قَدِم ابن الزبير بفتح إفريقية، أمره عثمان فقام خطيبًا، فلما فرغ من كلامه قال عثمان: أيها الناس، انكِحوا النساء على آبائهن وإخوتهن؛ فإني لم أرَ في ولد أبي بكر الصدِّيق، رضي الله تعالى عنه، أشبه به من هذا.

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أعرابيًّا يقول: اللهم اغفر لأم أوفى. قال: ومن أم أوفى؟ قال: امرأتي، وإنها لحَمقاء مِرغامة، أكول مِلقامة، لا تبقى لها خامَّة، غير أنها حسناء فلا تُفرَك، وأم غِلمان فلا تُترَك.

ودفعوا إلى أعرابية عِلكًا لتمضغه فلم تفعل، فقيل لها في ذلك فقالت: ما فيه إلا تعب الأضراس وخَيبة الحنجرة.

وكان أبو مُسلمٍ استشار مالك بن الهيثم حين ورد عليه كتاب المنصور في القدوم عليه بذلك، فلم يُشِر عليه، فلما قُتل أبو مُسلم أذكره ذلك، فقال: إن أخاك إبراهيم الإمام حدَّث عن أبيه محمد بن علي أنه قال: لا يزال الرجل يُزاد في رأيه إذا نصح لمن استشاره. فكنت له يومئذٍ كذلك، وأنا اليوم لك كذلك.

وقال الحسن: التقدير نصف الكسب، والتودُّد نصف العقل، وحُسن طلب الحاجة نصف العلم.

قال رجل لعمرو بن عُبيد: إني لأرحمك مما يقول الناس فيك. قال: أفتسمعني أقول فيهم شيئًا؟ قال: لا. قال: إيَّاهم فارْحَم.

ومدح نُصَيب أبو الحجناء عبد الله بن جعفر، فأجزل له من كل صنف، فقيل له: أتصنع هذا بمِثل هذا العبد الأسود؟ قال: أمَا والله لئن كان جِلده أسود فإن ثناءه لأبيض، وإن شِعره لعربي، وقد استحقَّ بما قال أكثر مما نال، وإنما أخذ رواحل تنضى، وثيابًا تبلى، ومالًا يفنى، وأعطى مديحًا يُروى، وثناءً يبقى.

وقف أعرابي في بعض المواسم فقال: اللهم إن لك عليَّ حقوقًا فتصدَّقْ بها عليَّ، وللناس تَبِعات قِبَلي فتحمَّلْها عني، وقد أوجبتَ لكل ضعيف قِرًى، وأنا ضيفك فاجعل قِراي في هذه الليلة الجنة. ووقف أعرابي فسأل قومًا فقالوا له: عليك بالصيارفة. قال: هناك والله قرارةُ اللؤم.

وقال مَسلمة: ثلاثة لا أعذرهم؛ رجلٌ أحفى شَعره ثم أعفاه، ورجلٌ قصَّر ثيابه ثم أطالها، ورجلٌ كان عنده سراري فتزوَّج حُرة.

أبو إسحاق قال: قال حُذيفة: كن في الفتنة كابْنِ لَبون، لا ظهر فيُركَب، ولا لبن فيُحلَب. وقال الشاعر، وليس هذا الباب في الخبر الذي قبل هذا:

أَلمْ ترَ أَنَّ النابَ تُحلَبُ عُلْبةً ويُترَكُ ثِلْبٌ لا ضِرابٌ ولا ظَهرُ[٨٩]

عُتبة بن هارون قال: قلت لرؤبة: كيف خلَّفت ما وراءك؟ قال: التراب يابس، والمَرعى عابس.

وقال معاوية بن أبي سفيان لابن عبَّاس: إني لأعلم أنك واعظ نفسه، ولكن المصدور إذا لم يَنفث جَوِي.[٩٠]

وقيل لعُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود: أتقول الشعر مع النُّسك والفضل والفقه؟ قال: لا بد للمصدور من أن يَنفث.

قال أبو الذيَّال شُوَيس:[٩١] أنا والله العربي، لا أرقع الجِربَّان، ولا ألبس التُّبَّان، ولا أُحسن الرطانة، ولأنا أرسى من حَجر، وما قَرقَمني إلا الكرم.

---

[٨٩] الناب العلبة: الناقة المسنَّة. الثلب: البعير لا يصلح للضراب؛ أي الوثوب على الناقة، ولا للركوب.

[٩٠] الجوى: حرقة الوجد وشدته.

[٩١] في نسخة: قال أبو الذيال: قال شويس. كأن أبا الذيال وشويسًا مُتغايران، والحق أنهما واحد. روى أبو عُبيد البكري في كتابه «التنبيه» فقال: هذا الكلام لأبي الذيال شويس الأعرابي العدوي. وأورده على وجهه، قال (يعني أبو الذيال): أنا ابن التاريخ، أنا والله العربي المحض، لا أرفع الجربان، ولا ألبس التبان، ولا أحسن الرطانة، وإني لأرسب من رصاصة، وما قرقمني إلا الكرم. قال أبو عُبيد: قوله: أنا ابن التاريخ؛ يعني أنه وُلد سنة الهجرة. ويريد بجملة قوله: أنه أعرابي بدويٌّ محض، من أهل الوبر، لا من أهل المدر ولا من أهل الأمصار التي تكون على الأرياف والأنهار؛ فهم يتعلمون فيها السباحة، وإنه لم يُجاور العجم فيُحسن رطانتهم. والأعرابي إذا قال: قَدِمت الريف، فإنما يريد الحضر. وأما قوله: وما قرقمني إلا الكرم، فإنه يعني أن أباه طلب المناكح الكريمة فلم يجدها إلا في أهله، فجاء ولده ضاويًا. ومنه الحديث: «اغترِبوا لا تضووا.» أي أنكحوا في الغرائب.

قلت: ومعنًى آخر أورده ابن منظور في لسان العرب. قال: ما قرقمني إلا الكرم؛ أي إنما جئت ضاويًا لكرم آبائي وسخائهم بطعامهم عن بطونهم. الجربان: أصله الكفاف الذي في جيب القميص، والمراد به ها هنا القميص نفسه. التبان: سروال صغير يستر النصف الأسفل من الجسم يتخذه الملَّاحون والمُصارعون.

أبو الحسن وغيره قال، قال عمرو بن عُتبة بن أبي سفيان للوليد بن يزيد بن عبد الملك وهو بالنَّجْراء من أرض حِمص: يا أمير المؤمنين، إنك تستنطقني بالأُنس بك، وأكفُّ عن ذلك بالهيبة لك، وأراك تأمن أشياء أخافها عليك، أفأسكت مُطيعًا أم أقول مُشفقًا؟ قال: كل ذلك مقبول منك، ولله فينا عِلمُ غَيب نحن صائرون إليه، ونعود فنقول. قال: فقُتل بعد أيام.

وكان أيوب السختياني يقول: لا يعرف الرجل خطأ مُعلمه حتى يسمع الاختلاف.

قال بعضهم: كنت أجالس ابن صُعير في النَّسب، فجلست إليه يومًا فسألته عن شيء من الفقه، فقال: ألك بهذا حاجة؟ عليك بذلك. وأشار بذلك إلى سعيد بن المسيب. فجلست إليه لا أظن أن عالمًا غيره، ثم تحوَّلت إلى عُروة ففتقت به ثَبج بحر. قال، وقلت لعثمان البُرِّي: دُلَّني على باب الفقه. قال: اسمع الاختلاف.

وقيل لأعرابي: عند من تُحب أن يكون طعامك؟ قال: عند أم صبي راضع، أو ابن سبيل شاسع، أو كبير جائع، أو ذي رحم قاطع.

وقال بعضهم: إذا اتسعت المقدرة نقصت الشهوة. قال: قلت: فمن أسوأ الناس حالًا؟ قال: من اتَّسعت معرفته، وبعدت همته، وقويت شهوته، وضاقت مقدرته. وذُكِر عند عائشة الشرف فقالت: كل شرف دونه لؤم فاللؤم أولى به، وكل لؤم دونه شرف فالشرف أولى به.

ودخل رجل على أبي جعفر فقال له: اتَّقِ الله. فأنكر وجهه، فقال: يا أمير المؤمنين، عليكم نزلت، ولكم قيلت، وإليكم رُدَّت.

وقال رجل عند مَسلمة: ما استرحنا من حائك كندة[٩٢] حتى جاءنا هذا المزوني.[٩٣] فقال مَسلمة: أتقول هذا لرجل سار إليه فريقا قريش؟ — يعني نفسه والعباس بن الوليد[٩٤] — حاوَل عظيمًا، ومات كريمًا.

عبد الله بن الحسن قال، قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: خُصصنا بخمس؛ فصاحة، وصباحة، وسماحة، ونجدة، وحظوة. يعني عند النساء.

---

[٩٢] حائك كندة: يريد به عبد الرحمن بن الأشعث.

[٩٣] المزوني: يريد به يزيد بن المهلَّب.

[٩٤] في نسخة: ويزيد بن المهلب. وليس هنا مكان ذكره بعد أن ذكر فريقَي قريش ممثَّلين في مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد.

علي بن مجاهد بن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: جُبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وبُغض من أساء إليها.

وقال الأصمعي: كُتِب كتاب حكمة فبقيت منه بقية، فقالوا: ما نكتب فيه؟ فقال: اكتبوا: يُسأل عن كلِّ صناعةٍ أهلها.

وقال شبيب بن شيبة للمهدي: إن الله لم يَرضَ أن يجعلك دون أحد من خلقه، فلا تَرضَ لنفسك أن يكون أحدٌ أخوَفَ لله منك.

قال يحيى بن أكثم:[٩٥] سياسة القضاء أشد من القضاء. وقال: إن من إهانة العلم أن تُجاريَ فيه كل من جاراك.

وحمَّل رقبة بن مَصقلة من خراسان رجلًا إلى أمه خمسمائة درهم، فأبى الرجل أن يدفعها إليها حتى تكون معها البيِّنة على أنها أمه، فقالت لخادم لها: اذهبي حتى تأتيَنا ببعض من يعرفنا. فلما أتاها الرجل برزت وقالت: الحمد لله، أشكو إلى الله الذي أبرزني، وشهَّر بالفاقة أهلي. فلما سمع الرجل كلامها قال: أشهد أنك أمُّه، فرُدِّي الخادم ولا حاجة بنا إلى أن تجيء البيِّنة.

وكان الحسن يقول في خطبة النكاح، بعد حمد الله والثناء عليه: أما بعد، فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحام المُنقطعة، والأنساب المُتفرقة، وجعل ذلك في سُنة من دينه، ومنهاجٍ واضح من أمره. وقد خطب إليكم فلان وعليه من الله نعمة.

عامر بن سعيد قال: سمعت الزبير يعزِّي عبد الرحمن على بعض نسائه، فقال وهو قائم على قبرها: لا يَصفَر رَبعُك، ولا يوحَش بيتك، ولا يَضِع أجرك. رحمَ الله متوفَّاك، وأحسن الخلافة عليك.

قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: خير صناعات العرب أبياتٌ يُقدمها الرجل بين يدَي حاجته، يستميل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم.

---

[٩٥] يحيى بن أكثم: قاضي القضاة في عهد المأمون، وهو من ولد أكثم بن صيفي حكيم العرب. وكان يحيى أحد أعلام الدنيا علمًا وفضلًا ورياسة وسياسة، وكان وزراء المأمون لا يعملون في تدبير الملك شيئًا إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم. وكان أديبًا بليغًا وخطيبًا فصيحًا، وله شِعرٌ حسن جدًّا. وقد حضر مع المأمون إلى مصر سنة ٢١٥هـ، وولَّاه المأمون قضاء مصر، وحكم بها ثلاثة أيام ثم خرج مع المأمون. وتُروى عنه أحداث مع الأحداث لا ندري مَبلغها من الصحة. كان مولده سنة ١٥٩هـ/٧٧٥م، وتُوفي بالربذة سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م.

ولِيمَ ابنُ الزبير على طول خطبته عشيةَ عرفة فقال: أنا قائم وهم جلوس، وأتكلَّم وهم سكوت، ويضجرون؟

وقال موسى بن يحيى، كان يحيى بن خالد يقول: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها؛ الكتاب يدل على مقدار عقل كاتبه، والرسول على مقدار عقل مُرسِله، والهدية على مقدار مُهديها. وذكر أعرابي أميرًا فقال: يقضي بالعَشوة، ويُطيل النشوة، ويقبل الرِّشوة.

وقال يزيد بن الوليد: إن النشوة تُحلُّ العُقدة، وتُطلِق الحُبوة. وقال: إياكم والغناء، فإنه مِفتاح الزنا.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إذا توجَّه أحدكم في وجهٍ ثلاث مرَّات فلم يُصِب خيرًا فليدعه.

قال علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه: لا تكوننَّ كمن يعجز عن شكر ما أُوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي؛ وينهى ولا ينتهي، ويأمر الناس بما لا يأتي؛ يُحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم، ويُبغض المُسيئين وهو منهم؛ ويكره الموت لكثرة ذنوبه، ولا يدعها في طول حياته.

قال أعرابي: خرجت حين انحدرت أيدي النجوم، وشالت أرجلها، فلم أزَل أصدع الليل حتى انصدع لي الفجر. وسألت أعرابيًّا عن مسافة ما بين بلدَين فقال: عُمرُ ليلة وأديمُ يوم. وقال آخر: سواد ليلة أو بياض يوم. وقال بعض الحكماء: لا يضرُّك حبُّ امرأة لا تعرفها.

وقال رجل لأبي الدرداء: فلان يُقرئك السلام. فقال: هديةٌ حسنة، ومَحملٌ خفيف.

وسرق مزيد نافجةَ مِسك، فقيل له: إن كل من غلَّ يأتي يوم القيامة بحمله على عنقه. قال: إذًا والله أحملها طيِّبة الريح، خفيفة المَحمل.

قال: ومن أبخلِ البخل تركُ رد السلام. قال ابن عمر: لعَمْري إني لأرى حق رجع جواب الكتاب كردِّ السلام.

وجاء رجل إلى سليمان فقال: يا أبا عبد الله، فلانٌ يقرأ عليك السلام. فقال: أمَا إنك لو لم تفعل لكانت أمانةً في عنقك.

قال مُثنَّى بن زُهير لرجل: احتفِظ بكتابي حتى تُوصله إلى أهلي. فمن العَجب أن الكتاب مُلقًّى، والسَّكران مؤتًّى. وكان عبد الملك بن حجاج يقول: لأنا للعاقل المُدبِر أرجى من الأحمق المُقبِل. قال: إيَّاك ومصاحبةَ الأحمق؛ فإنه ربما أراد أن ينفعك فضرَّك.

وكتب الحجَّاج إلى عامل له بفارس: ابعث إليَّ بعسل من عسل خُلَّار، من النحل الأبكار، من الدَّستِفشار، الذي لم تمسَّه النار. وقال الشاعر:

وما المرءُ إلا حيث يَجعلُ نَفْسَه ففي صالحِ الأخلاقِ نَفْسَك فاجْعَلِ

ونظر أبو الحارث جُمَّين إلى بِرذَون يُستقى عليه الماء، فقال: وما المرء إلا حيث يجعل نفسه. لو أن هذا البِرذَون هَمْلج ما فُعِل به هذا.

عمران بن هُدَّاب قال، قال مسلم بن قُتيبة: رَبُّ[٩٦] المعروف أشد من ابتدائه.

وقال محمد بن واسع: الاتقاء على العمل أشد من العمل.

وقال يحيى بن أكثم: سياسة القضاء أشد من القضاء.

وقال محمد بن محمد الحُمراني: من التوقِّي تركُ الإفراط في التوقِّي.

وقال أبو قُرَّة: الجوع للحِمية أشد من العِلة.

وقال الجمَّاز: الحِمية إحدى العِلَّتَين.

وقال القمي: من احتمى فهو على يقين من تعجيل المكروه، وفي شكٍّ مما يأمل من دوام الصحة. وقال: اعتبر عزمه بحِميته، وحَزْمه بمتاع بيته. قال: وذكر أعرابي رجلًا فقال: حناء المُبتلى، حنوط المُعافى.

وقالوا: أمران لا ينفكَّان من الكذب؛ كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار.

وقيل لرجل من الحكماء: ما جِماع البلاغة؟ قال: معرفة السليم من المُعتل، وفصل ما بين المضمَّن والمُطلق، وفرق ما بين المشترك والمفرد، وما يحتمل التأويل من المنصوص المقيَّد.

وقال سهل بن هارون في كتاب له: وجب على كل ذي مقالة أن يبتدئ بالحمد قبل استفتاحها، كما بُدئ بالنعمة قبل استحقاقها.

وقال أبو البلاد:[٩٧]

إنَّا وجَدْنا الناسَ عُودَين طيِّبًا وعُودًا خبيثًا لا يَبِضُّ على العَصرِ
تَزِينُ الفتى أخلاقُه وتَشِينُه وتُذكَرُ أخلاقُ الفتى وهْو لا يَدري

---

[٩٦] رب المعروف: يعني موالاة المعروف والقيام عليه.

[٩٧] أبو البلاد: هو أبو البلاد الطهوي الشاعر المشهور.

وقال آخر في هذا المعنى:

سابِقْ إلى الخَيراتِ أَهْلَ العُلا فـإنَّـمـا الـنـاسُ أحـاديـثُ
كلُّ امرئٍ في شأنِه كادحٌ فـوارِثٌ مـنـهـم ومـوروثُ

ولما قال حَمَل بن بدر لبني عبس — والأسنَّة في ظهورهم، والبوارق فوق رءوسهم — «نؤدي السبق، ونَدي الصِّبيان، وتُخلون سِربنا، وتسودون العرب»، انتهره حُذيفة وقال: إياك والكلام المأثور.

وقال الشاعر:

اليومَ خَمرٌ ويَبدو في غدٍ خبرٌ والدَّهرُ من بينِ إنعامٍ وإيآسِ

وقال أعرابي: إن المسافر ومتاعه لعلى قَلَتٍ إلا ما وقى الله.

وقالوا: السفر قطعة من العذاب، وصاحب السوء قطعة من النار.

وجلس معاوية رضي الله تعالى عنه بالكوفة يُبايع الناس على البراءة من علي بن أبي طالب، كرَّم الله تعالى وجهه، فجاءه رجل من بني تميم، فأراده على ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، نُطيع أحياءكم ولا نبرأ من موتاكم. فالتَفت إلى المُغيرة فقال: إن هذا رجل فاستوصِ به خيرًا. وقال الشاعر:

قالت أُمامةُ يومَ بُرْقةِ واصلٍ يا ابنَ العَذِيرِ لقد جعلتَ تَغيَّرُ
أصبحتَ بعدَ زمانِكَ الماضي الذي ذهبتْ شَبيبتُه وغُصنُك أخضَرُ
شيخًا دِعامتُك العصا ومشيَّعًا لا تبتغي خَبرًا ولا تُستخبَرُ

وكان الربيع بن خيثم لا يُخبِر ولا يَستخبر. وكان مطرِّف بن عبد الله يَستخبر ويُخبر. قالوا: فينبغي أن يكون أعقلهم. وقال أبو عُبيدة: كان ابن سِيرين لا يستخبر ولا يُخبر، وأنا أُخبر وأستخبر.

وقال أبو عمرو بن العلاء لأهل الكوفة: لكم حَذلقة النَّبَط وصلَفهم، ولنا دهاء فارس وأحلامهم. وأنشدوا للحارث بن حِلِّزة اليشكري:

لا أعرِفنَّكَ إنْ أرسلتُ قافيةً تُلقِي المَعاذيرَ إنْ لم تَنفعِ العِذَرُ
إنَّ السعيدَ له في غيرِه عِظةٌ وفي التَّجارِبِ تحكيمٌ ومُعتبَرُ

ومعنى المعاذير ها هنا على غير معنى قول الله تبارك وتعالى في القرآن: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾. [المعاذير] ها هنا: الستور.

أراد رجلٌ الحج فسلَّم على شُعبة بن الحجَّاج[98] فقال له: أمَا إنك إن لم تعُدَّ الحِلم ذلًّا، ولا السفه أنفًا، سَلِم لك حجُّك.

وكان علي رضي الله تعالى عنه بالكوفة قد منع الناس من القعود على الطريق، فكلَّموه في ذلك فقال: أدعكم على شريطة. قالوا: وما هي يا أمير المؤمنين؟ قال: غض الأبصار، ورد السلام، وإرشاد الضال. قالوا: قد قبِلنا. فتركهم.

وكان [أبو] نوفل بن أبي عقرب لا يجلس إلا على باب داره وكان عامرًا بالمارَّة، فقيل له: إن في ذلك نَشرة، وصرف النفوس عن الأماني، واعتبارًا لمن اعتبر، وعظةً لمن فكَّر. فقال: إن في ذلك حقوقًا يعجز عنها ابن خيثمة. قالوا: وما هي؟ قال: غض الطرف، ورد التحية، وإرشاد الضال، وضم اللقطة، والتعرض لطُلاب الحوائج، والنهي عن المنكر، والشغل بفضول النظر الداعية إلى فضول القول والعمل، وعادة إن قطعتها اشتدَّت وحشتك، وإن وصلتها قطعتك عن أمورٍ هي أولى بك.

قال فُضيل بن عِياض[99] لسُفيان الثوري:[100] دُلَّني على جليسٍ أطمئنُّ إليه. قال: هيهات، تلك ضالَّة لا توجد.

---

[98] شعبة بن الحجاج بن الورد مولى الأشاقر عتاقة، يُكنى أبا بسطام. وقد زعموا أنه وُلد لسنتين. وكان أسنَّ من سفيان الثوري بعشر سنين. وكان شيعيًّا من أصحاب الحديث. وكان شاعرًا مُتكلمًا ألثغ. وكان يقول: والله لأنا في الشعر أسلَمُ مني في الحديث، ولو أردت الله ما خرجت إليكم، ولو أردتم الله ما جئتموني، ولكنَّا نُحب المدح ونكره الذم. وُلد سنة ٨٥هـ/٧٠٤م، وتُوفي بالصرة سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م.

[99] فضيل بن عياض: كان تميميًّا، يُكنى أبا علي. وهو من العُبَّاد النُّساك الفضلاء. وُلد بأبيورد من خراسان، وورد الكوفة وهو كبير، فسمع من منصور بن المعتمر وغيره من شيوخها، ثم انتقل إلى مكة وأقام بها إلى أن مات سنة ١٨٧هـ/٨٠٢م.

[100] سفيان الثوري: هو سفيان بن سعيد بن مسروق، يُكنى أبا عبد الله، ويُنسب إلى ثور بن عبد مناة أو ثور أطحل، وهو جبل. وكان يتشيَّع مع ورعٍ شديد وتقوى؛ ولأجل هذا توارى من السلطان حتى مات مُتواريًا بالبصرة، ودُفن عشاءً، فقال فيه الشاعر:

تَحرَّزَ سُفيانٌ وفرَّ بدِينِه   وأمسى شريكٌ مرصدًا للدراهمِ

كان مولده سنة ٩٧هـ/٧١٥م، وكانت وفاته سنة ١٦١هـ/٧٧٧م.

وقيل لبعض العلماء: أي الأمور أمتع؟ قال: مذاكرة العلماء. وقيل لعبد الرحمن بن أبي بَكرة: أي الأمور أمتع؟ قال: الأماني.

وقال رجاء بن حيوة[١٠١] لعبد الملك بن مروان في أسارى ابن الأشعث: إن الله قد أعطاك ما تحب من الظَّفر، فأعطِ الله ما يُحب من العفو.

وقال هُزيم بن عدي بن أبي طَحمة[١٠٢] ليزيد بن عبد الملك بعد ظفَره بيزيد بن المهلَّب: ما رأينا أحدًا ظُلِم ظلمك، ولا نُصِر نصرك، ولا عفا عفوك. قال: وذم رجل رجلًا فقال: هو سيِّئ الرويَّة، قليل التقيَّة، كثير السعاية، قليل النكاية.

قال معاوية لمعاوية بن حُديج الكندي:[١٠٣] ما جرَّأك على قتل قريش؟ قال: ما أنصفتمونا؛ تقتلون حلماءنا وتلوموننا على قتل سفهائكم. وهو الذي قال لأم الحكم بنت أبي سفيان: والله لقد نكحتِ فما استكرمتِ، وولدتِ فما أنجبتِ.

أبو بكر بن مَسلمة، عن أبي إسحاق القيسي قال: لما قَدِم قُتيبة بن مُسلم خُراسان قال: من كان في يدَيه شيء من مال عبد الله بن خازم[١٠٤] فلينبذه، وإن كان في فيه فليلفظه، وإن كان في صدره فلينفثه. فعجِب الناس من حسن ما فصَّل وقسَّم. قال: ثم غبر بعد ذلك عيال عبد الله بن خازم وما بخراسان أحسن مالًا منهم.

عَنبسة القطَّان قال: شهدت الحسن وقال له رجل: بلَغنا أنك تقول: لو كان عليٌّ بالمدينة يأكل من حشَفها لكان خيرًا له مما صنع. فقال الحسن: يا لُكَع، أمَا والله لقد

---

[١٠١] رجاء بن حيوة: يُكنى أبا المقدام وأبا نصر. وهو كندي من أعيان التابعين وفضلائهم. كان أحمر الوجه، أبيض اللحية، حسن الكلام، بليغ المنطق. مات سنة ١١٢هـ/ ٧٣٠م.

[١٠٢] هزيم بن عدي: ضبطه ابن قُتيبة في المعارف بالراء المهملة، وقال عنه: هريم بن أبي طحمة التيمي، واسم أبي طحمة حارثة بن عدي. وكان هريم شجاعًا كيِّسًا، وكان مع المهلَّب في قتال الأزارقة، ومع عدي بن أرطاة في قتال يزيد بن المهلب، كما خرج على يزيد بن عبد الملك. ولما كان يوم سورا أخذ اللواء ثم أقحم في خمسة فوارس، فانهزم يزيد بن المهلب، فكبَّر هريم، فحوَّل اسمه في أعوان الديوان ليُرفع عنه الغزو، فقيل له: إنك لا تُحسن أن تكتب. فقال: إن لا أكتب فإني أمحو الصحف. وكان ابنه الترجمان على الأهواز وعلى بني حنظلة في فتنة ابن سهيل. وقد مر ذكر ولده في الجزء الأول من هذا الكتاب.

[١٠٣] في نسخة: خديج، بالخاء المعجمة، وهو خطأ شائع، والصواب ما أثبتناه.

[١٠٤] في نسخة: حازم، بالحاء المهملة، وهو خطأ، والصواب بالخاء المعجمة كما أثبتناه. وهو عبد الله بن خازم السلمي، يُكنى أبا صالح. كان من أشجع الناس وأقواهم وأعظمهم بسالةً. تولَّى خراسان عشر سنين، وفتح الطبسين، ثم ثار به أهل خراسان وقاتلوه، فخرَّ صريعًا في المعركة، وذلك في سنة ٥٦هـ/ ٦٧٥م.

فقدتموه سهمًا من مرامي الله، غيْرَ سئوم لأمر الله، ولا سَروقة لمال الله، أعطى للقرآن عزائمه فيما عليه وله، فأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه، حتى أورده ذلك رياضًا مُونِقة، وحدائق مُغدِقة، ذاك ابن أبي طالب يا لكع.

يزيد بن عقال، قال عبد الملك بن صالح يوصي ابنه وهو أمير سَرية ونحن ببلاد الروم، فقال له: أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمُضارب الكيِّس الذي إن وجد ربحًا تجر، وإلا احتفظ برأس المال، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشدَّ خوفًا من احتيال عدوك عليك.

وقال بعض الحكماء: لا تصطنعوا إلى ثلاثة معروفًا؛ اللئيم فإنه بمنزلة الأرض السَّبِخة، والفاحش فإنه يرى أن الذي صنعت إليه إنما هو لمخافة فحشه، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه؛ فإذا اصطنعت إلى الكرام فازْدرِع المعروف واحصد الشكر. قال: وواضع المعروف في غير أهله كالمُسرِج في الشمس، والزارع في السَّبخ. ومثله البيت السائر في الناس:

ومن يَصنعِ المعروفَ في غيرِ أهلِه يُلاقي الذي لاقى مُجِيرُ امِّ عامِرِ

وقالوا: من لم يعرف سوء ما يولِي لم يعرف حسن ما يولى.

وقال الإيادي صاحب الصرح الذي اتخذ سُلَّمًا لمُناجاة الرب — وهو الذي كان يقول: مُرضعة وفاطمة، القطيعة والفجيعة، وصلة الرحم وحسن الكلم — قال: زعم ربُّكم ليَجزيَنَّ بالخير ثوابًا وبالشر عقابًا. إن من في الأرض عبيد لمن في السماء، هلكت جُرهُم وربَلت إياد، وكذلك الصلاح والفساد. من رشد فاتبعوه، ومن غوى فارفضوه، كل شاة برجلها معلَّقة. وإياه عنى الشاعر بقوله:

ونحن إيادٌ عَبيدُ الإلهِ ورَهطُ مُناجيه في السُّلَّمِ
ونحن وُلاةُ حِجابِ العَتيقِ زمانَ الرِّعافِ على جُرهُمِ

تعزية امرأة للمنصور على أبي العبَّاس مَقدمَه من مكة، قالت: أعظم الله أجرك، فلا مصيبة أجلُّ من مصيبتك، ولا عِوض أعظم من خلافتك.

وقال عثمان بن حزيم للمنصور حين عفا عن أهل الشام في إجلائهم مع عبد الله بن علي عمه: يا أمير المؤمنين، لقد أُعطيت فشكرت، وابتُليت فصبرت، وقدرت فعفوت. وقال آخر: يا أمير المؤمنين، الانتقام عدل، والتجاوز فضل، والمُتفضل قد جاوَز حد المُنصف؛

فنحن نُعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبَين، دون أن يبلغ أرفع الدرجتَين. وقال آخر: من انتقم فقد شفى غيظ نفسه، وأخذ أقصى حقه. وإذا انتقمت فقد انتقصت، وإذا عفوت تطوَّلت. ومن أخذ حقه، وشفى غيظه، لم يجب شكره، ولم يُذكَر في العالمين فضله. وكَظمُ الغيظ حِلم، والحِلم صبر، والتشفِّي طرف من العجز. ومن رضي ألا يكون بين حاله وبين حال الظالم إلا سِترٌ رقيق، وحجابٌ ضعيف، فلم يجزم في تفضيل الحِلم، وفي الاستيثاق من ترك دواعي الظلم. ولم ترَ أهل النُّهى والمنسوبين إلى الحِجا والتُّقى مدحوا الحُكام بشدة العقاب، وقد ذكروهم بحسن الصفح، وبكثرة الاغتفار، وشدة التغافل. وبعد، فالمُعاقِب مستعدٌّ لعداوة أولياء المُذنب، والعافي مُستدعٍ لشكرهم، آمنٌ من مكافأتهم أيام قدرتهم. ولأن يُثنى عليك باتساع الصدر خيرٌ من أن يُثنى عليك بضيق الصدر. على أن إقالتك عثرة عِباد الله موجب لإقالتك عثرتك من رب عباد الله، وعفوك عنهم موصول بعفو الله عنك، وعقابك لهم موصول بعقاب الله لك.

قال: الموت الفادح، خيرٌ من اليأس الفاضح. وقال آخر: لا أقل من الرجاء. فقال الآخر: بل اليأس المُريح. وقال عبد الله بن وهب الراسبي: ازدحام الجواب مضلَّة للصواب، وليس الرأي بالارتجال، ولا الحزم بالاقتضاب؛ فلا تدعونَّك السلامة من خطأٍ مُوبِق، أو غنيمةٍ نِلتها من صوابٍ نادر إلى معاودته، والتماس الأرباح من قِبَله. إن الرأي ليس بنُهْبى، وخميرُ الرأي خيرٌ من فطيره، ورُبَّ شيء غابُّه خير من طريِّه، وتأخيره خير من تقديمه.

ولما قُدِم بعبد الجبَّار بن عبد الرحمن إلى المنصور، قال: يا أمير المؤمنين، قِتلةً كريمة. قال: تركتَها وراءك يا ابن اللَّخْناء.

ولما احتال أبو الأزهر المُهلب بن عُبيثر المهري لعبد الحميد بن رَبعي بن خالد بن مِغداق، وأسلمه إلى حُميد بن قحطبة، وأسلمه حُميد إلى المنصور، ولما صار إلى المنصور قال: لا عُذْر فأعتذر وقد أحاط بي الذنب، وأنت أولى بما ترى. قال: لست أقتل أحدًا من آل قَحطبة، بل أهَب مُسيئهم لمُحسِنهم، وغادِرَهم لوفيِّهم. قال: إن لم يكن فيَّ مُصطنَع فلا حاجة لي في الحياة، ولست أرضى أن أكون طليق شفيع وعتيق ابن عم. قال: اخرج، فإنك جاهل، وأنت عتيقهم ما حييت.

قال زياد بن ظَبيان التيمي لابنه عُبيد الله بن زياد، وزياد يومئذٍ يكيد بنفسه وعُبيدُ الله غلام: ألا أوصي بك الأمير زيادًا؟ قال: لا. قال: ولِمَ؟ قال: إذا لم تكن للحي إلا وصية الميت فالحيُّ هو الميت.

ودخل عمرو بن سعيد على معاوية بعد موت أبيه — وعمرو يومئذٍ غلام — فقال له معاوية: إلى من أوصى بك أبوك يا غلام؟ قال: إن أبي أوصى إليَّ ولم يُوصِ بي. قال: وبأي شيء أوصاك؟ قال: أوصاني أن لا يفقد إخوانه منه إلا وجهه. قال معاوية لأصحابه: إن ابن سعيد هذا لأشدَق. ولما داهَن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب في شأن إبراهيم بن عبد الله، وصار سفيان إلى المنصور، أمر الربيع فخلع سواده، ووقف به على رءوس اليمانية في المقصورة في يوم الجمعة، ثم قال: يقول لكم أمير المؤمنين: قد عرفتم ما كان من إحساني إليه، وحسن بلائي عنده، والذي حاوَل من الفتنة والغدر والبغي وشق العصا ومعاونة الأعداء، وقد رأى أمير المؤمنين أن يهبَ مُسيئكم لمُحسِنكم، وغادِرَكم لوفيِّكم.

قال يونس بن حبيب:[١٠٥] المفحَم يأتيه دون ما يرضى، ويطلب فوق ما يقوى.

وذكر بعض الحكماء أعاجيب البحر وتزيُّد البحريِّين فقال: البحر كثير العجائب، وأهله أصحاب الزوائد، فأفسدوا بقليل الكذب كثير الصدق، وأدخلوا ما لا يكون في بابٍ ما قد يكاد أن يكون، فجعلوا تصديق الناس لهم في غرائب الأحاديث سُلَّمًا إلى ادِّعاء المُحال. وقال بعض العرب: حدِّث عن البحر ولا حرج، وحدِّث عن بني إسرائيل ولا حرج، وحدِّث عن مَعنٍ ولا حرج. وجاء في الحديث: «كفى بالمرء حرصًا ركوبُه البحر.»

وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يصف له البحر، فقال: يا أمير المؤمنين، البحر خلقٌ عظيم، يركبه خلقٌ صغير، دُود على عُود. وقال الحسن: إملاء الخير خيرٌ من الصمت، والصمت خير من إملاء الشر. وقال بعضهم: مُروا الأحداث بالمِراء، والكهول بالفكر، والشيوخ بالصمت.

عبد الله بن شداد،[١٠٦] قال: أرى داعيَ الموت لا يُقلع، وأرى من مضى لا يرجع. لا تزهدنَّ في معروف؛ فإن الدهر ذو صروف. كم من راغب قد كان مرغوبًا إليه، وطالبٍ

---

[١٠٥] يونس بن حبيب: كان مولًى لبني ضبَّة، يُكنى أبا عبد الرحمن. كان بارعًا في النحو، وله فيه أقيسة ومذاهب تفرَّد بها. صحب أبا عمرو بن العلاء، وسمع من الأعراب، وروى عن سيبويه فأكثر، وسمع منه الكسائي والفراء، وكانت له حلقة بالبصرة ينتابها أهل العلم وطلاب الأدب، ويغشاها فصحاء الأعراب والبادية. حدَّث عن نفسه فقال: قال لي رؤبة بن العجَّاج: حتى متى تسألني عن هذه البراطيل وأزخرفها لك؟ أمَا ترى الشيب قد تلع في لحيتك؟ قارَب التسعين ولم يتزوج ولم يتسرَّ. وُلد سنة ٩٠هـ/٧٠٨م، ومات سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م.

[١٠٦] عبد الله بن شداد: كان محدِّثًا فقيهًا — وكان جده أبو أبيه يُسمَّى أسامة ويُلقَّب بالهادي؛ لأنه كان يوقد النار ليلًا لمن يسلك الطريق — وكان عبد الله ابن خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عبَّاس.

أصبح مطلوبًا إليه. والزمان ذو ألوان، من يصحب الزمان يرَ الهوان. وإن غلبت يومًا على المال فلا تغلبنَّ على الحيلة على حال. وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالًا، أقل ما تكون في الباطن مالًا.

وقيل لقيس بن عاصم: بِمَ سُدتَ قومك؟ قال: ببذل الندى، وكفِّ الأذى، ونصر المولى. وقيل لشيخ: أين شبابك؟ قال: من طال أمده، وكثُر ولده، ودف عدده، وذهب جَلده، ذهب شبابه. وقال زياد: لا يُعدمنَّك من الجاهل كثرة الالتفات، وسرعة الجواب.

وقال عبد الرحمن بن أم الحكم: لولا ثلاث ما باليت متى مت؛ تزاحف الأحرار إلى طعامي، وبذل الأشراف وجوههم إليَّ في أمرٍ أجد إليه السبيل، وقول المُنادي: الصلاة أيها الأمير.

وقال ابن الأشعث: لولا أربع خصال ما أعطيت بشريًّا طاعة؛ لو ماتت أم عمران — يعني أمه — ولو شاب رأسي، ولو قرأت القرآن، ولو لم يكن رأسي صغيرًا.

وقال معاوية: أُعِنتُ على علي بثلاث خصال؛ كان رجلًا يُظهر سرَّه، وكنت كتومًا لسرِّي؛ وكان في أخبث جند وأشده خلافًا، وكنت في أطوع جند وأقله خلافًا؛ وخلا بأصحاب الجمل فقلت: إن ظفر بهم اعتددت بهم عليه وهنًا في دينه، وإن ظفروا به كانوا أهوَن عليَّ شوكةً منه. وكنت أحبَّ إلى قريش منه. فكم شتيتٍ جامع إليَّ ومفرِّق عنه!

جَهْم بن حسَّان السليطي، قال رجل للأحنف: دُلَّني على حمدٍ بلا مرزئة. قال: الخُلق السجيح، والكف عن القبيح، ثم اعلموا أن أدوى الداء اللسان البذيء، والخُلق الرديء.

وقال محمد بن حرب الهلالي، قال بعض الحكماء: لا يكوننَّ منكم المحدِّث ولا يُنصَت له، والداخل في سرِّ اثنين لم يُدخِلاه، ولا آتي الدعوة لم يُدعَ إليها، ولا الجالس المجلس لا يستحقُّه، ولا الطالب الفضل من أيدي اللئام، ولا المتعرِّض للخير من عند عدوه، ولا المتحمِّق في الدالَّة.

(١٥) باب مزدوج الكلام

قالوا: قال رسول الله ﷺ في معاوية رضي الله تعالى عنه: «اللهم علِّمه الكتاب والحساب، وقِهِ العذاب.»

وقال رجل من بني أسد: مات لشيخٍ منَّا ابن، فاشتدَّ جزعه عليه، فقام إليه شيخٌ منَّا فقال: اصبر أبا أمامة؛ فإنه فرَطٌ أفرطتَه، وخيرٌ قدَّمتَه، وذُخرٌ ادَّخرتَه. فقال مُجيبًا له: ولدٌ دفنتُه، وثُكلٌ تعجَّلتُه، وغيبٌ وُعِدتُه. والله لئن لم أجزع من النقص لا أفرح بالمزيد.

قال الأصمعي، قال ابن قصير: خير الخيل الذي إذا استدبرته حبا، وإذا استقبلته أقعى، وإذا استعرضته استوى، وإذا مشى ردى، وإذا ردى دحا.

ونظر ابن قصير إلى خيل عبد الرحمن بن أم الحكم، فأشار إلى فرس منها فقال: تجيء هذه سابقة. قالوا: وكيف؟ قال: رأيتها مشت فكتَفت، وخبَّت فوجَفت، وعدَت فنسَفت. وذكرت امرأة زوجها فقالت: ذهبَ زَفرُه، وأقبل بَخرُه، وفتَر ذَكرُه. وكان مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه يسمع شعر جرير والفرزدق، فسأله أبوه عنهما فقال: جريرٌ يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر. فقال: الذي يغرف من بحرٍ أشعَرُهما.

قد ذكرنا من مقطَّعات الكلام وقِصار الأحاديث بعد ما أسقطنا به مؤنة الخُطب الطوال، وسنذكر من الخُطب المسنَدة إلى أربابها مِقدارًا لا يستفرغ مجهود من قرأها، ثم نعود بعد ذلك إلى ما قصر منها وخف، وإلى أبواب قد تدخل في هذه الجملة وإن لم تكن مِثل هذه بأعيانها، والله الموفِّق.

(١٦) خطبة عبد الله بن الأهتم

أبو الحسن، عن يحيى بن سعيد، عن ابن خرَّبوز البكري، عن خالد بن صفوان، قال: دخل عبد الله بن الأهتم على عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى مع العامة، فلم يُفجأ عمر إلا وهو ماثل بين يدَيه يتكلم، فحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال:

> أما بعد، فإن الله خلق الخلق غنيًّا عن طاعتهم، آمِنًا لمعصيتهم، والناس يومئذٍ في المنازل والرأي مختلفون، والعرب بشرٍّ تلك المنازل، أهل الوبر وأهل المدر، تُحتاز دونهم طيبات الدنيا ورفاغة عيشتها؛[١٠٧] ميتهم في النار، وحيُّهم أعمى، مع ما لا يُحصى من المرغوب عنه، والمزهود فيه. فلما أراد الله أن ينشر فيهم رحمته بعث إليهم رسولًا منهم ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، فلم يمنعهم ذلك أن جرحوه في جسمه، ولقَّبوه في اسمه، ومعه كتاب من الله لا يرحل إلا بأمره، ولا ينزل إلا بإذنه، واضطرُّوه إلى بطنِ غارٍ،

[١٠٧] في نسخة: ورفاعة عيشتها، وليست كذلك، إنما الصواب بالغين كما أثبتناه، والمراد برفاغة عيشتها سعة العيش ورفاهته.

فلما أُمر بالغرامة اصفرَّ لأمر الله لونُه، فأفلج الله حُجته، وأعلى كلمته، وأظهر دعوته، ففارق الدنيا تقيًّا نقيًّا ﷺ.

ثم قام بعده أبو بكر رضي الله تعالى عنه، فسلك سُنته، وأخذ بسبيله، وارتدَّت العرب، فلم يقبل منهم بعد رسول الله ﷺ إلا الذي كان قابلًا منهم، فانتضى السيوف من أغمادها، وأوقد النيران من شُعَلها، ثم رَكب بأهل الحق أهلَ الباطل، فلم يَبرَح يفصِّل أوصالهم، ويسقي الأرض دماءهم، حتى أدخلهم في الذي خرجوا عنه، وقرَّرهم بالذي نفَروا منه. وقد كان أصاب من مال الله بكرًا يرتوي عليه، وحبشيةً تُرضع ولدًا له، فرأى ذلك غُصةً عند موته في حلقه، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده، وبرئ إليهم منه، وفارَق الدنيا تقيًّا نقيًّا على منهاج صاحبه، رضي الله تعالى عنه.

ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فمصَّر الأمصار، خلط الشِّدة باللِّين، فحسر عن ذراعَيه، وشمَّر عن ساقَيه، وأعدَّ للأمور أقرانها، وللحرب آلتها. فلما أصابه قِنُّ[١٠٨] المُغيرة بن شُعبة، أمر ابن عبَّاس أن يسأل الناس: هل يُثبتون قاتله؟ فلما قيل له «قِن المغيرة» استهلَّ بحمد الله أن لا يكون أصابه ذو حق في الفيء فيستحل دمه بما استحل من حقه. وقد كان أصاب من مال الله بضعًا وثمانين ألفًا، فكسَر بها رباعه، وكرِه بها كفالة أهله وولده، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده، وفارَق الدنيا تقيًّا نقيًّا على منهاج صاحبه، رضي الله تعالى عنهما.

ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ظُلَّع.[١٠٩]

ثم إنك يا عمر ابنُ الدنيا، ولَدتْك ملوكها، وألقمتْك ثديَها، فلما ولِيتَها ألقيتها حيث ألقاها الله، فالحمد لله الذي جلا بك حوبتها، وكشف بك كربتها. امضِ ولا تلتفت؛ فإنه لا يُغْني من الحق شيئًا. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات.

---

[١٠٨] القن: هو العبد. والمراد بقن المغيرة أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، واسمه فيروز، وهو الذي وجأ عمر فقتله.

[١٠٩] ظلع: عُرْج.

قال: ولما أن قال «ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ظُلَّع»، سكت الناس كلهم إلا هشامًا، فإنه قال: كذبت.

(١٧) خطبة عمر بن عبد العزيز

أبو الحسن قال: حدَّثنا المُغيرة بن مطرف، عن شعيب بن صفوان، عن أبيه، قال: خطب عمر بن عبد العزيز بخُناصرة[١١٠] خطبةً لم يخطب بعدها غيرها حتى مات رحمه الله تعالى، فحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، إنكم لم تُخلَقوا عبثًا ولم تُترَكوا سُدًى، وإن لكم معادًا يحكم الله فيه بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحُرِم الجنة التي عرضُها السموات والأرض. واعلموا أن الأمان غدًا لمن خاف ربه، وباع قليلًا بكثير، وفانيًا بباقٍ. ألا ترَون أنكم في أسلاب الهالكين، وسيخلفها من بعدِكم الباقون، كذلك حتى تُردوا إلى خير الوارثين، ثم أنتم في كل يوم تشيِّعون غاديًا ورائحًا إلى الله قد قضى نَحْبه، وبلَغ أجله، ثم تُغيبونه في صَدْع من الأرض، ثم تدَعونه غير مُوسَّد ولا مُمهَّد، قد خلع الأسباب، وفارَق الأحباب، وواجَه الحساب، غنيًّا عما ترك، فقيرًا إلى ما قدَّم. وايم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما عندي، فأستغفر الله لي ولكم. وما تبلُغنا حاجةٌ يتَّسع لها ما عندنا إلا سددناها، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي، ويحمي الذين يلونني، حتى يستويَ عيشنا وعيشكم. وايم الله أن لو أردت غير هذا من عيش أو غَضارة، لكان اللسان مني ناطقًا ذلولًا، عالمًا بأسبابه، لكنه مضى من الله كتابٌ ناطق، وسُنةٌ عادلة، دلَّ فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته.

ثم بكى فتلقَّى دموع عينَيه بطرف ردائه، ثم نزل فلم يُرَ على تلك الأعواد حتى قبضه الله.

---

[١١٠] خناصرة: بلد بالشام. قيل سُمِّيت باسم خناصرة بن عروة بن الحارث.

خطبة أخرى [له] ذهب عني إسنادها

أما بعد، فإنك ناشئ فتنة، وقائد ضلالة، قد طال جُثومها، واشتدَّت غمومها، وتلوَّنت مصائد عدو الله فيها، وما نصب من الشَّرَك لأهل الغفلة عما في عواقبها، فلن يهدَّ عمودَها، ولن ينزع أوتادَها، إلا الذي بيده تلك الأشياء، وهو الله الرحمن الرحيم. ألا وإن لله بقايا من عباده لم يتحيَّروا في ظُلمتها، ولم يُشايعوا أهلها على شُبهتها، مصابيح النور في أفواههم تزهو، وألسنتهم بحُجج الكتاب تنطق، ركِبوا نهج السبيل، وقاموا على العلَم الأعظم، هم خُصماء الشيطان الرجيم، وبهم يُصلِح الله البلاد، ويدفع عن العباد؛ فطُوبى لهم وللمُستصبِحين بنورهم، أسأل الله أن يجعلنا منهم.

(١٨) خطبة أبي حمزة الخارجي

دخل أبو حمزة الخارجي[١١١] مكة — وهو أحد نُساك الإباضية وخطبائهم، واسمه يحيى بن المختار — فصَعِد مِنبرها مُتوكئًا على قوس له عربية، فحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال:

> أيها الناس، إن رسول الله ﷺ كان لا يتأخر ولا يتقدم إلا بإذن الله وأمره ووحيه، أنزل الله له كتابًا بيَّن له فيه ما يأتي وما يتَّقي، فلم يكن في شك من دينه، ولا في شبهة من أمره، ثم قبضه الله إليه وقد علَّم المسلمين مَعالم دينهم.

[١١١] أبو حمزة الخارجي: هو يحيى بن المختار بن عوف الأزدي. كان يَرِد الموسم كل سنة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد، وظل هكذا حتى ورد عبد الله بن يحيى في أواخر سنة ١٢٨هـ فقال له: يا رجل، أسمع كلامًا حسنًا، أراك تدعو إلى حق، فانطلق معي فإني رجلٌ مُطاع في قومي. فخرج حتى ورد حضرموت، فبايَعه أبو حمزة على الخلافة، ودعا إلى الثورة على مروان وآل مروان. وبينما الناس بعرفة سنة ١٢٩ طلع عليهم أبو حمزة في سبعمائة من أتباعه يحملون رماحًا عليها أعلام وعمائم سُود، ففزِع الناس، وراسَلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وكان يومئذٍ على مكة والمدينة، ثم خلَّى لهم مكة فدخلها أبو حمزة وأصحابه بغير قتال. وفي سنة ١٣٠ دخل أبو حمزة المدينة بعد قتال شديد وقَع له بقديد مع عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وعساكره. وقد خطب على مِنبر رسول الله خطبًا آية في البلاغة والموعظة. ثم إن أبا حمزة ترك المدينة وسار بجموعه نحو الشام، وكان مروان قد أعدَّ لقتاله أربعة آلاف فارس بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي، فجدَّ عبد الملك في طلبه حتى لقيَه بوادي القرى، فصمد له وقاتَله أشد قتال، وما زال به حتى خرَّ أبو حمزة صريعًا وانهزم أصحابه، وذلك في أواخر سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م.

ووَلَّى أبا بكر صلاتهم، فولَّاه المسلمون أمر دنياهم حين ولَّاه رسول الله ﷺ أمر دينهم، فقاتَل أهل الرِّدَّة، وعمل بالكتاب والسُّنة، فمضى لسبيله رضي الله تعالى عنه.

ثم وَلِيَ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فسار بسيرة صاحبه، وعمل بالكتاب والسُّنة، وجبى الفيء، وفرض الأعطية، وجمع الناس في شهر رمضان، وجلد في الخمر ثمانين، وغزا العدو في بلادهم، ومضى لسبيله رضي الله تعالى عنه.

ثم وليَ عثمان بن عفَّان فسار ست سنين بسيرة صاحبَيه، وكان دونهما، ثم سار في الست الأواخر بما أحبط به الأوائل، ثم مضى لسبيله رضي الله تعالى عنه.

ثم وليَ علي بن أبي طالب، فلم يبلغ من الحق قصدًا، ولم يرفع له مَنارًا، ثم مضى لسبيله رضي الله تعالى عنه.

ثم وليَ مُعاوية بن أبي سفيان لَعين رسول الله وابن لَعينه، اتخذ عباد الله خوَلًا، ومال الله دُوَلًا، ودينه دغَلًا، ثم مضى لسبيله، فالْعَنوه، لعَنه الله.

ثم وليَ يزيد بن معاوية؛ يزيد الخمور، يزيد القرود، ويزيد الفهود، الفاسق في بطنه، المأبون في فَرْجه.

ثم اقتصَّهم خليفةً خليفة، فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه ولم يذكره، ثم قال:

ثم وليَ يزيد بن عبد الملك، الفاسق في بطنه، المأبون في فَرْجه، الذي لم يؤنَس منه رشد، وقد قال الله تعالى في أموال اليتامى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾. فأمرُ أمَّة محمد أعظم. يأكل الحرام، ويشرب الخمر، ويلبس الحُلَّة قُوِّمت بألف دينار، قد ضُربت فيها الأبشار، وهُتكت فيها الأستار، وأُخذت من غير حِلها، حَبابةُ عن يمينه وسلَّامةُ[١١٢] عن يساره تغنِّيانه، حتى

[١١٢] حبابة وسلامة: كانتا جاريتَين مغنِّيتَين، وأخبارهما منثورة في الأغاني وفي السِّفر الخامس من نهاية الأرب، فارجع إليهما إذا شئت.

إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قدَّ ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما فقال: ألا أطير؟ نعم، فطِرْ إلى لعنة الله، وحريق ناره، وأليم عذابه.

وأما بنو أمية ففِرقةُ ضلالة، وبطشهم بطش جَبرية، يأخذون بالظِّنَّة، ويقضون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويحكمون بالشفاعة، ويأخذون الفريضة من غير موضعها، ويضعونها في غير أهلها، وقد بيَّن الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف، فقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾. فأقبل صنفٌ تاسع ليس منها فأخذها كلها. تِلكم الفِرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله.

وأما هذه الشِّيَع فشيعٌ ظاهَرت بكتاب الله، وأعلنت الفِرية على الله. لم يُفارقوا الناس ببصرٍ نافذ في الدين، ولا بعلمٍ نافذ في القرآن. ينقمون المعصية على أهلها، ويعملون إذا وُلُّوا بها. يُصرُّون على الفتنة ولا يعرفون المخرج منها. جُفاة عن القرآن، أتباع كُهان، يؤمِّلون الدول في بعث الموتى، ويعتقدون الرَّجعة إلى الدنيا. قلَّدوا دينهم رجلًا لا ينظر لهم. قاتَلهم الله أنَّى يؤفَكون.

ثم أقبل على أهل الحجاز فقال:

يا أهل الحجاز، أتعيِّرونني بأصحابي وتزعمون أنهم شباب؟! وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ إلا شبابًا؟ أمَا والله إني لعالم بتتايُعكم[١١٣] فيما يضركم في معادكم. ولولا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم. شبابٌ والله مُكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعيُنهم، ثقيلة عن الباطل أرجُلهم، أنضاء عِبادة، وأطلاح[١١٤] سهر، فنظر الله إليهم في جوف الليل مُنحنِيةً أصلابهم على أجزاء القرآن، كلما مر أحدهم بآية من ذِكر الجنة بكى شوقًا إليها، وإذا مر بآية من ذِكر النار شهق شهقةً كأن زفير جهنم بين

---

[١١٣] في نسخة: بتتابعكم فيما يضركم، وليس كذلك، وإنما الصواب: بتتايعكم، والتتايع: الترامي على الشر والسقوط فيه.

[١١٤] أنضاء عبادة: أي إن العبادة قد أخذت منهم حتى جعلتهم ضِئال الأجسام لا يحملون شحمًا ولا لحمًا. وأطلاح سهر: أي إن طول السهر في العبادة وقيام الليل قد أخذ منهم حتى أهزلهم وأخواهم.

> أذنَيه. موصول كَلالهم بكلالهم، كَلال الليل بكلال النهار. قد أكلت الأرض رُكبهم وأيديَهم وأنوفهم وجِباههم، واستقلُّوا ذلك في جَنْب الله، حتى إذا رأوا السهام قد فُوِّقت، والرماح قد أُشرِعت، والسيوف قد انتُضيت، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت، استخفُّوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله، ومضى الشاب منهم قُدمًا حتى اختلفت رِجْلاه على عنق فرسه، وتخضَّبت بالدماء مَحاسن وجهه، فأسرعت إليه سباع الأرض، وانحطَّت عليه طير السماء، فكم من عينٍ في مِنقار طير طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من كفٍّ زالت عن مِعصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله.

ثم قال: أوَّه أوَّه أوَّه! ثم بكى، ثم نزل.

(١٩) خطبة قَطَري بن الفُجاءة

صَعِد قطري بن الفجاءة[115] — وهو أحد بني مازن بن عمرو بن تميم — مِنبر الأزارقة، فحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال:

> أما بعد، فإني أحذِّركم الدنيا؛ فإنها حُلوةٌ خَضِرة، حُفَّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحبَّبت بالعاجلة، وحُلِّيت بالآمال، وتزيَّنت بالغرور، لا تدوم حَبرتها، ولا تؤمن فجعتها، غرَّارة ضرَّارة، خوَّانة غدَّارة، وحائلة زائلة، ونافدة بائدة، أكَّالة غوَّالة، بدَّالة نقَّالة، لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾.

---

[115] قطري بن الفجاءة: هو من مازن بن مالك، كان من أبطال الخوارج وقادتهم وبُلغائهم. يُكنى أبا نعامة. خرج في زمن عبد الله بن الزبير، وكان مصعب واليًا من قِبل أخيه على العراقين، فبقي قطري يُقاتل جند السلطان وينكِّل بجيوش الدولة، ويسلم عليه من أتباعه بالخلافة عشرين سنة. وكان الحجَّاج يجرِّد عليه الجيش بعد الجيش فيمزِّق شملهم، حتى المهلب لم ينَل منه مأربًا، وناهيك بالمهلب وأولاده. وكان آخر من بعثه إليه الحجَّاج سفيان بن الأبرد الكلبي، فتغلَّب عليه سفيان وقتله بطبرستان سنة ٧٩هـ/٦٩٨م.

مع أن امرأً لم يكن منها في حَبرة إلا أعقبته بعدها عَبرة، ولم يلقَ من سرَّائها بطنًا إلا منحته من ضرَّائها ظهرًا، ولم تطُله غيثة رخاء إلا أهطلت عليه مُزنة بلاء، وحريٌّ إذا أصبحت له مُنتصرة أن تُمسيَ له خاذلةً مُتنكرة، وإن جانبٌ منها اعذَوذَب واحلَولى أمرَّ عليه منها جانبٌ وأوبى، وإن آتت امرأً من غَضارتها ورفاهتها نِعمًا أرهقته من نوائبها نِقمًا، ولم يُمسِ امرؤٌ منها في جناحِ أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف، غرورٌ ما فيها، فانٍ ما عليها، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى، من أقلَّ منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يُوبقه ويُطيل حزنه ويُبكي عينَيه.

كم واثق بها قد أفجعته، وذي طُمأنينة إليها قد صرَعته، وذي اختيال فيها قد خدعته، وكم من ذي أُبَّهة بها قد صيَّرته حقيرًا، وذي نخوة قد ردَّته ذليلًا، وكم من ذي تاج قد كبته لليدَين والفم. سلطانها دُوَل، وغَيثها رَنق، وعَذْبها أُجاج، وحُلوُها صبر، وغذاؤها سِمام، وأسبابها رِمام، وقِطافها سَلَع. حيُّها بعرَضِ موت، وصحيحها بعرَضِ سُقم، ومنيعها بعرَضِ اهتضام. مليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجامعها محروب، مع أن وراء ذلك سكرات الموت، وهول المطلع، والوقوف بين يدَي الحكم العدل؛ ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

ألستم في مساكن من كان أطول منكم أعمارًا، وأوضح منكم آثارًا، وأعدَّ عديدًا، وأكثف جنودًا، وأعند عنودًا؟ تعبَّدوا الدنيا أيَّ تعبُّد، وآثروها أي إيثار، وظعنوا عنها بالكره والصَّغار، فهل بلَغكم أن الدنيا سمحت لهم نفسًا بفِدية، أو أغنت عنهم فيما قد أهلكتهم بخطب، بل قد أرهقتهم بالفوادح، وضعضعتهم بالنوائب، وعقرتهم بالمصائب، وقد رأيتم تنكُّرها لمن دان لها وأخلد إليها، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر المسند. هل زوَّدتهم إلا الشقاء، وأحلَّتهم إلا الضنك، أو نوَّرت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة؟ فهذه تؤثِرون أم عليها تحرصون، أم إليها تطمئنون؟ يقول الله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فبئست الدار لمن أقام فيها، فاعلموا وأنتم تعلمون أنكم تارِكوها لا بد، فإنما هي كما وصفها الله باللعب واللهو، وقد قال الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾، وذكر الذين قالوا من أَشَدُّ منا قوة. ثم قال: حُملوا إلى قبورهم فلا يُدعَون رُكبانًا، وأُنزلوا فيها فلا يُدعَون ضِيفانًا، وجُعل لهم من الضريح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرُّفات جيران؛ فهم جيرة لا يُجيبون داعيًا، ولا يمنعون ضيمًا. إن أخصبوا لم يفرحوا، وإن أقحطوا لم يقنطوا. جمعٌ وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد. مُتناءون لا يزورون ولا يُزارون. حُلماء قد ذهبت أضغانهم، وجُهلاء قد ماتت أحقادهم. لا يُخشى فجعهم، ولا يُرجى دفعهم. وكما قال الله تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾. استبدلوا بظهور الأرض بطنًا، وبالسعة ضيقًا، وبالأهل غُربة، وبالنور ظُلمة، فجاءوها كما فارقوها؛ حُفاة عُراة فُرادى، غير أنهم ظعنوا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة وإلى خلود الأبد. يقول الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾. فاحذروا ما حذَّركم الله، وانتفِعوا بمواعظه، واعتصِموا بحبله. عصمَنا الله وإياكم بطاعته، ورزقنا وإياكم أداء حقه.

(٢٠) خطبة محمد بن سليمان يوم الجمعة، وكان لا يغيِّرها

الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستغفره، وأومن به وأتوكَّل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كرِه المشركون. من يعتصم بالله ورسوله فقد اعتصم بالعُروة الوُثقى، وسعِد في الأولى والآخرة. ومن يعصِ الله ورسوله فقد ضل ضلالًا بعيدًا، وخسر خُسرانًا مُبينًا. أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يُطيعه ويُطيع رسوله، ويتبع رضوانه، ويتجنَّب سُخطه؛ فإنما نحن له وبه. أوصيكم عِبادَ الله بتقوى الله، وأحثُّكم على طاعة الله، وأرضى لكم ما عند الله؛ فإن تقوى الله أفضل ما تَحاثَّ الناس عليه، وتَداعَوا إليه، وتَواصَوا به؛ فاتَّقوا الله ما استطعتم، ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون.

(٢١) خطبة عُبيد الله بن زياد

صَعِد المِنبر بعد موت يزيد بن معاوية — وحيث بلغه أن سَلمة بن ذُؤيب الرياضي قد جمع الجموع يريد خلعه — فقال:

يا أهل البصرة انسِبوني، فوالله ما مُهاجَر أبي إلا إليكم، ولا مَولدي إلا فيكم، وما أنا إلا رجل منكم. والله لقد وَلِيَكم أبي وما مُقاتلتكم إلا أربعون ألفًا، فبلَغ بها ثمانين ألفًا، وما ذُريتكم إلا ثمانون ألفًا، وقد بلَغ بها عشرين ومائة ألف، وأنتم أوسع الناس بلادًا، وأكثره جنودًا، وأبعد مقادًا، وأغنى الناس عن الناس. انظروا رجلًا تُولُّونه أمركم، يكفُّ سفهاءكم، ويجبي لكم فيئكم، ويَقسِمه فيما بينكم؛ فإنما أنا رجل منكم.

فلما أبَوْا غيره قال: إني أخاف أن يكون الذي يدعوكم إلى تأميري حداثة عهدكم بأمري.

(٢٢) وصية معاوية بن أبي سفيان

الهيثم بن عدي، عن أبي بكر بن عيَّاش، عن أشياخه، قال: لما حضرت معاويةَ الوفاةُ ويزيد غائب، دعا معاوية مسلم بن عُقبة المُري، والضحَّاك بن قيس الفهري،[١١٦] فقال:

أبلِغا عني يزيد وقولا له: انظر إلى أهل الحجاز؛ فهُمْ أصلُك وعِترتك، فمن أتاك منهم فأكرِمْه، ومن قعد عنك فتعهَّدْه. وانظر إلى أهل العراق؛ فإن سألوك عزل عامل في كل يوم فاعزله عنهم؛ فإن عزل عامل أهوَنُ عليك من سلِّ مائة ألف سيف ثم لا تدري على ما أنت عليه منهم. ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشِّعار دون الدِّثار؛ فإن رابَك من عدوك رَيب فارمِهم بهم، فإن أظفرك الله

[١١٦] الضحاك بن قيس الفهري: كان من رجال معاوية المعدودين، وأهل ثقته المُخلِصين، وكان شجاعًا باسلًا. ولَّاه معاوية الكوفة بعد زياد بن أبي سفيان. ولما مات معاوية بن يزيد وتوثَّب مروان بن الحكم على الخلافة وأراد التغلب عليها، ثار الضحَّاك به في قيس بالشام مؤيدًا لبيعة عبد الله بن الزبير، لكن مروان صمد له في بني أمية واليمانية، وحارَبه في مرج راهط، وقتله سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م.

بهم فارددْ أهل الشام إلى بلادهم، ولا يُقيموا في غير بلادهم فيتأدَّبوا بغير أدبهم. لست أخاف عليك غير عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وحسين بن علي؛ فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه الورع، وأما الحسين فإني أرجو أن يكفيَكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه، وأما ابن الزبير فإنه خبٌّ ضَب.

وفي غير هذه الرواية: فإن ظفرت بابن الزبير فقطِّعه إربًا.

فمات معاوية، فقام الضحَّاك بن قيس خطيبًا فقال:

إن أمير المؤمنين معاوية كان أنف العرب، وهذه أكفانه ونحن مُدرِجوه فيها، ومُخْلون بينه وبين ربه، فمن أراد حضوره بعد الظهر فليحضره.

فصلَّى عليه الضحَّاك بن قيس، ثم قدَّم يزيد ولده، فلم يُقدِم أحد على تعزيته حتى دخل عليه عبد الله بن همام السلولي فأنشأ يقول:

اصبِرْ يَزيدُ فقدْ فارَقتَ ذا كرَمِ ... واشكُرْ حِباءَ الذي بالمُلكِ أصفاكا
لا رُزْءَ أصبحَ في الأقوامِ قد عَلِموا ... كما رُزئتَ ولا عُقْبى كعُقْباكا
أصبحتَ راعيَ أهلِ الدِّينِ كلِّهمِ ... فأنتَ تَرْعاهمُ واللهُ يَرْعاكا
وفي معاويةَ الباقي لنا خَلَفٌ ... إذا نُعِيتَ ولا نَسمَعْ بمَنْعاكا

فانفتح الخطباء للكلام بعد ذلك.

(٢٣) خطبة قُتيبة بن مُسلم الباهلي

قام بخراسان حين خلع فقال: أتدرون من تُبايعون؟ إنما تُبايعون يزيد بن ثروان — يعني هَبنَّقة القَيسي[١١٧] — كأني بأمير من حاءٍ وحَكَم قد أتاكم يحكم في أموالكم

[١١٧] هبنقة القيسي: هو يزيد بن ثروان — وفي نسخة: ثوران، وهو خطأ — كان يُضرب به المثل بالحُمق في الجاهلية. وكان يُكنى بأبي الودعات؛ لأنه نظم ودعًا لنفسه في سلك وجعله في عنقه علامةً لنفسه لئلا يضيع. قيل إن أخاه راقَبه يومًا إلى أن نام فأخذ العقد من عنقه وجعله في عنق نفسه، فلما انتبه هبنقة ورأى أخاه وفي عنقه العقد، قال له: أنت أنا فأنا تُرى من هو أنا؟ ومن طريف حمقه أنه كان إذا رعى غنمًا أو إبلًا جعل خير المراعي للسمان ونحى عنها المهازيل وقال: لا أُصلِح ما أفسد الله. وله أخبارٌ كثيرة.

وفُروجكم وأبشاركم. ثم قال: الأعراب وما الأعراب، فلعنة الله على الأعراب. جمعتُكم كما يُجمَع قرع الخريف من منابت الشِّيح والقَيصوم، ومَنابت القِلقِل،[118] وجزيرة ابن كاوان، تركبون البقر، وتأكلون العضبة، فحمَلتكم على الخيل، وألبستكم السلاح، حتى منع الله بكم البلاد، وأفاء بكم الفيء.

قالوا: مُرنا بأمرك. قال: غُرُّوا غيري.

وخطب مرةً أخرى فقال:

> يا أهل العراق، ألستُ أعلم الناس بكم؟ أما هذا الحي من أهل العالية فنَعَم الصدقة، وأما هذا الحي من بكر بن وائل فعِلجةٌ بَظراء لا تجمع رِجلَيها، وأما هذا الحي من عبد القيس فما ضرب العَير بذَنبه، وأما هذا الحي من الأزد فعُلوجُ خلقِ الله وأنباطه. وايم الله لو ملكت أمر الناس لنقشت أيديَهم. فأما هذا الحي من تميم فإنهم كانوا يُسمُّون الغدر في الجاهلية كَيسًا.

وخطب مرةً أخرى فقال:

> يا أهل خُراسان، قد جرَّبتم الوُلاة قبلي؛ أتاكم أمية فكان كاسمه أمية الرأي وأمية الدين، فكتب إلى خليفته: إن خراج خُراسان وسِجستان لو كان في مطبخه لم يكفِه. ثم أتاكم بعده أبو سعيد فدوَّخ بكم البلاد لا تدرون أفي طاعة أنتم أم في معصية، ثم لم يَجبِ فيئًا ولم ينكأ عدوًّا. ثم أتاكم بنوه بعده مثل أطْباء الكلبة، منهم ابن الرخمة حِصان يضرب في عانة، ولقد كان أبوه يخافه على أمهات أولاده. ثم قد أصبحتم وقد فتح الله عليكم البلاد، وأمَّن لكم السُّبل، حتى إن الظعينة لتخرج من مَرْو إلى سمرقند في غير جواز.

(٢٤) خطبة الأحنف بن قيس

قال بعد حمد الله والثناء عليه وصلَّى على نبيِّه:

> يا معشر الأزد وربيعة، أنتم إخواننا في الدين، وشُركاؤنا في الصِّهر، وأشقاقنا في النَّسب، وجيراننا في الدار، ويدُنا على العدو. والله لَأزدُ البصرة أحَبُّ إلينا من

[118] القلقل: نبت له حب أسود حسن الشم.

تميم الكوفة، ولأزدُ الكوفة أحبُّ إلينا من تميم الشام. فإن استشرف شنآنكم، وأبى حسد صدوركم، ففي أموالنا وسَعة أحلامنا لنا ولكم سَعة.

(٢٥) خطبة جامع المُحاربي

ومن مُحاربٍ جامعٌ، كان شيخًا صالحًا خطيبًا لسِنًا، وهو الذي قال للحجَّاج حين بنى مدينة واسط: بنَيتَها في غير بلدك، وأورثتَها غير ولدك، وكذلك من قطعه العُجب عن الاستشارة، والاستبداد عن الاستخارة.

وشكا الحجَّاج[١١٩] سوء طاعة أهل العراق وتنقُّم مذهبهم، وتسخُّط طريقتهم.

فقال له جامع: أمَا إنهم لو أحبُّوك لأطاعوك، على أنهم ما شنِئوك لنَسبك، ولا لبلدك، ولا لِذات نفسك، فدَعْ ما يُبعدهم منك إلى ما يقرِّبهم إليك، والتَمِس العافية ممن دونك تُعطَها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك.

قال الحجاج: إني والله ما أرى أن أردَّ بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف.

فقال: أيها الأمير، إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار.

فقال الحجاج: الخيار يومئذٍ لله.

قال: أجل، ولكن لا تدري لمن يجعله الله.

فغضب الحجاج وقال: يا هناه، إنك من مُحارب.

---

[١١٩] الحجَّاج بن يوسف: هو الحجَّاج بن يوسف بن الحَكم الثقفي. قيل: كان في مبدأ أمره يعلِّم هو وأبوه الغِلمان بالطائف، ثم التحقا بخدمة الدولة الأموية، فكان الحجَّاج في شرطة رَوح بن زِنباع الجُذامي، فأظهر همة وبراعة، فعهِد إليه في ولاية تبالة فلم يرضَها، ثم ولِيَ شرطة أبان بن مروان، فلما ظهر أمر عبد الله بن الزبير وجَّهه عبد الملك لقتاله، فنهد لابن الزبير وقاتَله أحرَّ قتال، وما زال به حتى حصره، ثم قتله وصلبه سنة ٧٣هـ/٦٩٢م، فولَّاه عبد الملك الحجاز ثلاث سنين، فكان يحجُّ بالناس، ونقض بُنيان الكعبة الذي كان بناه ابن الزبير وأعاده على أساسه الأول. ثم تولَّى العراقين فكان فيها عشرين سنة، وكان له مع أهلها خطوب. كما كانت له مع الخوارج مواقف ومشاهد ووقائع دلَّت على همته وشجاعته، ونفاذ عزيمته، وبارع تدبيره، وقوة سياسته، مع الفصاحة والبلاغة، وقوة البيان وشدة العارضة. ومن الحق أن يُقال: لولا الحجَّاج لذهب ملك بني أمية من الوجود، أو لَما قامت له قائمة بعد معاوية وبنيه. وبنى واسط سنة ٨٣هـ/٧٠٢م، ثم مرض ومات بواسط وبها دُفن، وعُفي قبره، وأُجري عليه الماء. وكان مولده سنة ٤٢هـ/٦٦٢م، وتُوفي سنة ٩٥هـ/٧١٣م.

فقال جامع:

وللحَربِ سُمِّينا وكنَّا مُحارِبًا		إذا ما القنا أمسى من الطعنِ أحمَرا

والبيت للخُضري.

فقال الحجاج: والله لهممت أن أخلع لسانك فأضرب به وجهك.

فقال جامع: إن صدَقْناك أغضَبْناك، وإن غشَشْناك أغضَبْنا الله، فغضبُ الأمير أهوَنُ علينا من غضب الله.

قال: أجل. وسكن، وشُغِل الحجاج ببعض الأمر، وانسلَّ جامع فمرَّ بين صفوف خيل الشام حتى جاوَزهم إلى خيل أهل العراق — وكان الحجاج لا يخلطهم — فأبصر كوكبة فيها جماعة من بكر العراق، وتميم العراق، وأزد العراق، وقيس العراق، فلما رأوه اشرأبُّوا إليه، وبلَغهم خروجه، فقالوا له: ما عندك؟ دافَع الله لنا عن نفسك. فقال: وَيحَكم! عُمُّوه بالخلع كما يعمُّكم بالعداوة، ودَعُوا التعاديَ ما عاداكم، فإذا ظفرتم به تراجعتم وتعاقبتم. أيها التميمي هو أعدى لك من الأزدي، وأيها القيسي هو أعدى لك من التغلِبي. وهل ظفر بمن ناوأه إلا بمن بقي معه منكم؟ وهرب جامع من فوره ذلك إلى الشام، فاستجار بزُفَر بن الحارث.

(٢٦) خطبة الحجاج بن يوسف الثقفي

وخطب الحجَّاج فقال:

> اللهم أرِني الغيَّ غيًّا فأجتنبَه، وأرِني الهدى هدًى فأتَّبعَه، ولا تَكِلني إلى نفسي فأضلَّ ضلالًا بعيدًا. والله ما أُحبُّ أن ما مضى من الدنيا بعمامتي هذه، ولما بقي منها أشبَهُ بما مضى من الماء بالماء.

وخطبة له، الهيثم بن عدي قال، أنبأني ابن عيَّاش عن أبيه قال: خرج الحجَّاج يومًا من القصر بالكوفة، فسمع تكبيرًا في السوق، فراعه ذلك، فصَعِد المِنبر، فحَمِد الله وأثنى عليه، وصلَّى على نبيِّه، ثم قال:

> يا أهل العراق، يا أهل الشِّقاق والنِّفاق، ومساوئ الأخلاق، وبني اللكيعة، وعبيد العصا، وأولاد الإماء، والفَقع بالقَرقر، إني سمعت تكبيرًا لا يُراد به

الله وإنما يُراد به الشيطان، وإنما مَثلي ومثلكم ما قال عمرو بن برَّاق الهَمْداني:

وكنتُ إذا قومٌ غزَوني غزَوتُهم   فهل أنا في ذا يا الَ هَمْدانَ ظالِمُ؟
متى تَجمَعِ القلبَ الذَّكيَّ وصارمًا   وأنفًا حَميًّا تَجتنبْكَ المَظالمُ

أما والله لا تقرع عصًا عصًا إلا جعلتها كأمس الدابر.

(٢٧) خطبة عمرو بن كلثوم

أما بعد، فإنه لا يُخبِر عن فضل المرء أصدَقُ من تركه تزكية نفسه، ولا يعبِّر عنه في تزكية أصحابه أصدَقُ من اعتماده إياهم برغبته، وائتمانه إياهم على حُرمته.

(٢٨) خطبة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

ولما قُتل يزيد بن الوليد ابنَ عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، قام خطيبًا، بعد أن حَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس، والله ما خرَجتُ أشَرًا ولا بَطرًا، ولا حرصًا على الدنيا، ولا رغبةً في الملك، وما بي إطراء نفسي، وإني لظلوم لها، ولقد خسرت إن لم يرحمني ربي، ولكني خرجت غضبًا لله ودينه، وداعيًا إلى الله وسُنة نبيه، لما هُدمت معالم الهدى، وأُطفئ نور التقوى، وظهر الجبَّار العنيد المُستحل لكل حُرمة، والراكب لكل بدعة، مع أنه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب، ولا يصدِّق بالثواب والعقاب، وإنه لابْنُ عمي في النَّسب، وكُفئي في الحسب، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره، وسألته ألا يكلني إلى نفسي، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي، حتى أراح الله منه العباد، وطهَّر منه البلاد، بحول الله وقوته، لا بحولي وقوتي.

أيها الناس، إن لكم عليَّ ألا أضع حجرًا على حجر، ولا لَبِنةً على لَبِنة، ولا أكْريَ نهرًا، ولا أكنز مالًا، ولا أعطيَه زوجًا ولا ولدًا، ولا أنقل مالًا من بلد إلى بلد، حتى أسدَّ فقر ذلك البلد وخَصاصة أهله بما يُغنيهم؛ فإن فضَل فضلٌ نقلتُه إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه منه، وألا أجمِّركم في ثغوركم فأفتنكم

وأفتن أهليكم، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويُّكم ضعيفكم، ولا أحمل على أهل جِزيتكم ما أُجليهم به عن بلادهم وأقطع نسلهم. ولكم عندي أُعطِياتكم في كل سنة، وأرزاقكم في كل شهر، حتى تَستدرَّ المعيشة بين المسلمين فيكون أقصاهم كأدناهم، فإذا أنا وفَّيت فعليكم السمع والطاعة، وحسن المؤازرة والمكاتفة، وإن أنا لم أوفِ لكم فلكم أن تخلعوني، إلا أن تستتيبوني، فإن أنا تبت قبِلتم مني. وإن عرفتم أحدًا يقوم مقامي ممن يُعرَف بالصلاح، يُعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم، فأردتم أن تُبايعوه، فأنا أول من بايَعه ودخل في طاعته.

أيها الناس، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فلما بُويِع مروان بن محمد نبَشه وصلَبه.

وكانوا يقرءون في الكُتب: يا مبذِّر الكنوز، ويا سجَّادًا بالأسحار، كانت ولايتُك رحمة، وعليهم حُجة، أخذوك فصلَبوك.

(٢٩) خطبة يوسف بن عمر[١٢٠]

قام خطيبًا فقال:

اتقوا الله؛ فكم من مؤمِّل أملًا لا يبلُغه، وجامع مالًا لا يأكله، ومانع عمَّا سوف يتركه، ولعله من باطلٍ جمَعه، ومن حقٍّ منعه، أصابه حرامًا، وأورثه عدوًّا، فاحتمل إصره، وباء بوِزره، وورد على ربه آسفًا لاهفًا، قد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخُسران المُبين.

[١٢٠] يوسف بن عمر: هو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي، كان يُكنى أبا عبد الله. كان من وُلاة بني أمية ومن جبابرتهم. وليَ اليمن لهشام ثم ولَّاه العراق بعد خالد بن عبد الله القسري سنة ١٢٠هـ، وأطلق يده في خالد فسجنه وعذَّبه حتى مات في سجنه، وكذلك كان شأنه مع بلال بن أبي بردة. فلما وليَ يزيد بن الوليد سنة ١٢٦هـ عزله، وولَّى مكانَه منصور بن جمهور، فلما أحسَّ يوسف بن عمر بذلك هرب إلى الشام فظفِر به هناك فسُجن، ثم انتهز يزيد بن خالد بن عبد الله القسري فرصة سجنه، فدخل عليه فقتله في السجن وأدرك ثأر أبيه، وذلك في سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م. وفي ولاية يوسف بن عمر

(٣٠) كلام زعماء الوفود عند عمر بن الخطاب

بشَّار بن عبد الحميد، عن أبي ريحانة، قال: وفد هلال بن وكيع، والأحنف بن قيس، وزيد بن جَبَلَة على عمر، فقال هلال بن وكيع:

يا أمير المؤمنين، إنا لُباب من خلْفَنا، وغُرَّة مَن وراءنا من أهل مِصرنا، فإنك إن تَصرِفْنا بالزيادة في أُعطياتنا، والفرائض لعيالاتنا، يَزِد ذلك الشريف تأميلًا، وتكُن لذوي الأحساب أبًا وصولًا، فإنا إن نكن — مع ما نمُتُّ به من فضائلك، ونُدلي به من أسبابك — كالجُدِّ الذي لا يُحَل ولا يُرحَل، نرجع بآنُفٍ مصلومة، وجدودٍ عائرة، فامتحنا[١٢١] وأهالينا بسَجْل من سِجالك المُترَعة.

وقام زيد بن جبلة فقال:

يا أمير المؤمنين، سوِّدِ الشريف، وأكرِمِ الحسيب، وازرع عندنا من أياديك ما نسدُّ به الخَصاصة، ونطرد به الفاقة؛ فإنا بقُفٍّ من الأرض يابس الأكناف، مُقشعرِّ الذروة، لا شجر فيه ولا زرع، وإنا من العرب اليوم إذ أتيناك بمرأًى ومَسمع.

فقام الأحنف فقال:

يا أمير المؤمنين، إن مفاتيح الخير بيد الله، والحرص قائد الحِرمان، فاتَّقِ الله فيما لا يُغْني عنك يوم القيامة قيلًا ولا قالًا، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والإنصاف شيئًا يكفيك وِفادة الوفود واستماحة المُمتاح؛ فإن كل امرئ إنما يجمع في وِعائه إلا الأقل ممن عسى أن تقتحمه الأعيُن، وتخونهم الألسُن، فلا يوفد إليك يا أمير المؤمنين.

العراق خرج زيد بن علي زين العابدين وبويع له بالخلافة، وشهَر الحرب على عمال السلطان، فجمع له يوسف جموعًا، وجرى بينهما قتالٌ شديد أصاب زيدًا فيه سهمٌ عائر أثبت خوذته في جبهته فخرَّ صريعًا. وكان زيد من عظماء أهل البيت علمًا وزهدًا وورعًا وشجاعةً ودينًا وكرمًا. وفي بعض الأخبار أن الرأس الوحيد الذي ورد القاهرة ودُفن بها إنما هو رأس زيد، وهو بالمقام الذي يُطلِق عليه العامة مقام زين العابدين بخط السيدة زينب.

[١٢١] في نسخة: فمحنا، وليس الخطاب من هذا الباب، وإنَّما المراد ما أثبتناه.

(٣١) خطبة الحجاج بن يوسف

خطب أهل العراق بعد دَير الجماجم فقال:

يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم فخالَط اللحم والدم، والعصب والمسامع، والأطراف والأعضاء والشِّغاف، ثم أفضى إلى الأمخاخ[١٢٢] والأصماخ، ثم ارتفع فعشَّش، ثم باض وفرَّخ، فحشاكم نِفاقًا وشِقاقًا، وأشعركم خلافًا، أخذتموه دليلًا تتبعونه، وقائدًا تُطيعونه، ومؤامرًا تستشيرونه، فكيف تنفعكم تَجرِبة، أو تعظكم وقعة، أو يحجركم إسلام، أو ينفعكم بيان؟ ألستم أصحابي بالأهواز، حيث رُمْتم المكر، وسعيتُم بالغدر، واستجمعتم للكفر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطَرْفي، وأنتم تتسلَّلون لِواذًا، وتنهزمون سراعًا؟ ثم يوم الزاوية، وما يوم الزاوية؟ بها كان فشلكم وتنازُعكم وتخاذُلكم، وبراءة الله منكم، ونُكوص وليكم عنكم؛ إذ ولَّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حن عضَّكم السلاح، وقعصتكم[١٢٣] الرماح. ثم يوم دَير الجماجم، وما يوم دير الجماجم؟ بها كانت المعارك والملاحم، بضربٍ يُزيل الهامَ عن مَقيله، ويُذهِل الخليل عن خليله.

يا أهل العراق، الكفَرات بعد الفجَرات، والغدَرات بعد الختَرات، والنَّزوة بعد النَّزَوات، إن بعثتُكم إلى ثغوركم غلَلتُم وخُنتُم، وإن أَمِنتُم أرجَفتُم، وإن خِفتُم نافَقتُم. لا تذكرون حسنة، ولا تشكرون نعمة. هل استخفَّكم ناكث، أو استغواكم غاوٍ، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع، إلا تبعتموه وآويتموه، ونصرتموه ورحبتموه؟

يا أهل العراق، هل شَغَب شاغب، أو نَعَب ناعب، أو زفَر زافر، إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟

يا أهل العراق، ألم تنهَكم المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟

---

[١٢٢] في نسخة: الأفخاخ، ولا معنى لها، والصحيح ما أثبتناه.

[١٢٣] في نسخة: وقصمكم، وظاهرٌ خطأ هذا التعبير، والصحيح ما أثبتناه.

ثم التفت إلى أهل الشام فقال:

يا أهل الشام، إنما أنا لكم كالظَّليم[١٢٤] الرامح عن فِراخه، ينفي عنها المدر، ويُباعد عنها الحجر، ويُكنُّها من المطر، ويحميها من الضِّباب، ويحرسها من الذئاب.

يا أهل الشام، أنتم الجُنَّة والرِّداء، وأنتم العُدَّة والحِذاء.

(٣٢) فضيلة الصبر على المصيبة

وقال رجل لحُذيفة: أخشى أن أكون مُنافقًا. فقال: لو كنتَ مُنافقًا لم تخشَ ذلك. وقال آخر: اعلم أن المصيبة واحدة إن صبرت، وإن لم تصبر فهما مُصيبتان، ومصيبتك بأجرك أعظم من مصيبتك بميتك. وقال صالح بن عبد القُدُّوس:

إنْ يكُنْ ما به أُصِبتَ جليلًا فذَهابُ العَزاءِ فيه أجَلُّ

وقال آخر: تعزَّ عن الشيء إذا مُنِعتَه؛ لقِلَّة ما يصحبك إذا أُعطيتَه. وما خفَّف الحسابَ وقلَّله، خيرٌ مما كثَّره وثقَّله.

وحدَّثنا أبو بكر الهُذلي، واسمه سُلْمي، قال: إذا جمع الطعام أربعًا فقد كمل؛ إذا كان حلالًا، وكثُرت الأيدي عليه، وسُمِّي الله في أوله، وحُمد في آخره.

(٣٣) خطبة زياد بن أبي سفيان

وخطب زياد فقال:

استوصوا بثلاثة منكم خيرًا؛ الشريف، والعالِم، والشيخ. فوالله لا يأتيني شيخ بشابٍّ قد استخفَّ به إلا أوجعته، ولا يأتيني عالِم بجاهلٍ استخفَّ به إلا نكَّلت به، ولا يأتيني شريف بوضيعٍ استخفَّ به إلا انتقمت له منه.

---

[١٢٤] الظليم: ذكر النعام.

عليٍ بن سليم قال، قال حاتم طي لعديٍّ ابنه: أي بُنيَّ، إن رأيتَ أن الشر يتركك إن تركتَه فاتركه. قال: وقال عدي بن حاتم لابنٍ له: قُم بالباب فامنع من لا تعرف، وأْذَن لمن تعرف. قال: لا والله، لا يكون أول شيء وَلِيته من أمر الدنيا منع قوم من طعامك. وقال مديني لعبد الملك بن مروان، ودخل عليه بنوه: أراك الله في بَنِيك ما أرى أباك فيك، وأرى بَنِيك فيك ما أراك في أبيك.

وقال ابن شُبرمة:[١٢٥] ذهب العلم إلا عبارات في أوعية سوء.

الهيثم بن عدي،[١٢٦] عن ابن عيَّاش، عن أبيه، قال: خرج الحجَّاج إلى الفارسان، فإذا هو بأعرابي في زرع، فقال له: ممن أنت؟ قال: من أهل عُمان. قال: فمن أي القبائل؟ قال: من الأزد. قال: ما عِلمُك بالزرع؟ قال: إني لأعلم من ذلك علمًا. قال: فأيُّ الزَّرع خير؟ قال: ما غلُظ قَصبُه، واعتمَّ نَبتُه، وعظُمت جُثته، وطالت سُنبلته. قال: فأي العنب خير؟ قال: ما غلُظ عموده، واخضرَّ عُوده، وعظُم عنقوده. قال: فما خير التمر؟ قال: ما غلُظ لِحاؤه، ودقَّ نواه، ورقَّ سحاؤه.

(٣٤) باب من اللغز في الجواب

قالوا: كان الحُطيئة يرعى غنمًا وفي يده عصًا، فمرَّ به رجل، فقال: يا راعيَ الغنم، ما عندك؟ قال: عَجراء من سَلَم. يعني عصاه. قال: إني ضيف. قال: للضِّيفان أعدَدتُها.

وقال ابن سُليم: إن قيس بن سعد بن عُبادة قال: اللهم ارزقني حمدًا ومجدًا؛ فإنه لا حمد إلا بفَعَال، ولا مجد إلا بمال.

قال خالد بن الوليد لأهل الحيرة: أخرِجوا إليَّ رجلًا من عُقلائكم. فأخرجوا إليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن بُقيلة[١٢٧] الغساني، وهو الذي بنى القصر،

---

[١٢٥] ابن شبرمة: هو عبد الله بن شبرمة. كان قاضيًا لأبي جعفر المنصور على سواد الكوفة، وكان شاعرًا فصيحًا، ومُتكلمًا بليغًا، حسن الخُلق جوادًا. وكان يقول لابنه: يا بُني، لا تمكِّن الناس من نفسك؛ فإن أجرأ الناس على السباع أكثرهم لها معاينة. مات سنة ١٤٤هـ/٧٦١م.

[١٢٦] الهيثم بن عدي: هو من طيئ. كان راوية إخباريًّا، وكان يرى رأي الخوارج، وقد يروي الضعيف والمصنوع. وُلد سنة ١٢٨هـ/٧٤٥م، ومات سنة ٢٠٩هـ/٨٢٤م.

[١٢٧] ابن بقيلة، في الأصل: نفيلة، وليس في أجداد عبد المسيح من اسمه نفيلة؛ ولهذا أثبتنا الصواب وهو بقيلة. وقوله: وهو الذي بنى القصر، قال ابن دريد في كتاب الاشتقاق: وبقيلة هو الذي بنى القصر كما

وهو يومئذٍ ابن خمسين وثلاثمائة سنة، فقال له خالد: من أين أقصى أثرك؟ قال: من صُلْب أبي. قال: فمن أين خرجت؟ قال: من بطن أمي. قال: فعلامَ أنت؟ قال: على الأرض. قال: ففيمَ أنت؟ قال: في ثيابي. قال: ما سِنُّك؟ قال: عَظْم. قال: أتعقل، لا عقلتَ؟ قال: إي والله وأقيِّد. قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد. قال: كم أتى عليك من الدهر؟ قال: لو أتى علي شيء لقتلني. قال: ما تزيدني مسألتك إلا غمًّا. قال: ما أجبتك إلا عن مسألتك. قال: أعَربٌ أنتم أم نَبَط؟ قال: عربٌ استنبطنا، ونبطٌ استعربنا. قال: فحربٌ أنتم أم سِلم؟ قال: سِلم. قال: فما بال هذه الحصون؟ قال: بنَيناها للسفيه حتى يجيء الحليم فينهاه. قال: كم أتت عليك سنة؟ قال: خمسون وثلاثمائة. قال: ما أدركت؟ قال: أدركت سفن البحر ترفأ إلينا في هذا الجرف، ورأيت المرأة من أهل الحيرة تأخذ مِكتلها على رأسها ولا تتزود إلا رغيفًا واحدًا، فلا تزال في قُرًى مُخصِبة مُتواترة حتى ترد الشام، ثم قد أصبحت خرابًا يبابًا، وذلك دأب الله في العباد والبلاد.

وأتى أزهرَ بن عبد الحارث رجلٌ من بني يَربوع، فقال: ألا أدخل؟ قال: وراءك أوسع لك. فقال: إن الشمس أحرقت رِجليَّ. قال: بُلْ عليهما تَبرُدا. قال: يا آل يربوع. قال: ذليلًا دعَوت. يا بُني حُريص، أطعمتُكم عامًا أول جُلة، فأكلتم جُلَّتكم وأغَرتُم على جُلة الضِّيفان.

وقال الحجَّاج لرجل من الخوارج: أجَمَعتَ القرآن؟ قال: أمُتفرقًا كان فأجمعه؟ قال: أتقرأ ظاهرًا؟ قال: بل أقرؤه وأنا أنظر إليه. قال: أتحفظه؟ قال: أخشيت فِراره فأحفظه؟ قال: ما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: لعنه الله ولعنك معه. قال: إنك مقتول، فكيف تلقى الله؟ قال: ألقاه بعملي وتلقاه بدمي.

وقال لقمان لابنه وهو يعظه:

> يا بُني، ازحَم العلماء برُكبتَيك، ولا تُجادلهم فيمقتوك. وخذ من الدنيا بَلاغك، وأنفِقْ فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالًا، وعلى أعناق الرجال كَلًّا. وصم يومًا يَكسِر شهوتك، ولا تصم يومًا يضرُّ بصلواتك؛ فإن الصلاة أفضل من الصوم. وكن كالأب لليتيم، وكالزوج للأرملة، ولا تحابِ القريب، ولا تُجالس السفيه، ولا تُخالط ذا الوجهَين البتَّة.

بنى ديرًا بظاهر الحيرة يُعرف بدير الجرعة. وعبد المسيح هو الذي صالَح خالد بن الوليد على الحيرة. وكان من أكابر قومه العباديين ورءوسهم، وكان ذا حكمة وبيان وفصاحة ولسان، وكان يقول الشعر. مات على النصرانية.

وسمع الأحنف رجلًا يُطرِي يزيد عند معاوية، فلما خرج من عنده اسحنفر[128] في ذمهما، فقال الأحنف: مه؛ إن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا. وقال سعيد بن أبي عروبة: لأن يكون لي نصف وجه ونصف لسان، على ما فيهما من قبح المنظر وعجز المَخبر، أَحَبُّ إليَّ من أن أكون ذا وجهَين وذا لسانَين، وذا قولَين مختلفين.

وقال أيوب السختياني:[129] النمَّام ذو الوجهَين أحسَنَ الاستماع، وخالَف في الإبلاغ.

(٣٥) كتاب عمر إلى معاوية

حفص بن صالح الأزدي، عن عامر الشعبي قال، كتب عمر إلى معاوية:

> أما بعد، فإني كتبت إليك بكتاب في القضاء لم آلُك ونفسي فيه خيرًا. الزَمْ خمس خِصال يَسلَم لك دينك، وتأخذ فيه بأفضل حظك؛ إذا تقدَّم إليك الخَصمان فعليك بالبيِّنة العادلة، واليمين القاطعة. وأدْنِ الضعيف حتى يشتدَّ قلبه وينبسط لسانه. وتعهَّدِ الغريب؛ فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله، وإنما ضيَّع حقَّه من لم يَرفُق به. وآسِ بينهم في لحظك وطرفك. وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبِن لك فصل القضاء.

أبو يوسف،[130] عن العرزمي، عمن حدَّثه عن شُريح، أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى كتب إليه: لا تُشارِ ولا تُمارِ، ولا تَبِع ولا تَبتَع في مجلس القضاء، ولا تقضِ بين اثنين وأنت غضبان.

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل؛ عِلم ما كان قبله، ونزاهة عن الطمع، وحِلم عن الخصم، واقتداء بالأئمة، ومشاورة أهل الرأي.

---

[128] اسحنفر: بالَغ ومضى مُتوسعًا في الذم.

[129] أيوب السختياني: هو أيوب بن أبي تميمة، وكان أيوب يُكنى أبا بكر، وهو مولى بني عمَّار بن شدَّاد، وكان عمار مولًى لعنزة، فهو مولى مولًى. وكان ناسكًا مُتزهدًا. وُلد سنة ٦٨هـ/٦٨٧م، ومات بالطاعون بالبصرة سنة ١٣١هـ/٧٤٨م.

[130] أبو يوسف: هو القاضي الشهير يعقوب بن إبراهيم بن حبيب، من بجيلة. كان حافظًا من أصحاب الحديث، وكان يروي عن الأعمش وهشام بن عُروة وغيرهما، ثم لزِم أبا حنيفة وصار من أصحاب الرأي. وليَ قضاء بغداد، وهو أول من لُقب «قاضي القضاة»، وما زال في القضاء حتى مات في عهد هارون الرشيد. وكان ولده يوسف يلي قضاء الجانب الغربي من بغداد في حياة أبيه. وأبو يوسف هو أكبر

قال الهلالي: لما ولَّى يزيد بن معاوية سَلْم بن زياد على خُراسان قال له: إن أباك كفى أخاه عظيمًا، وقد استكفيتك صغيرًا، فلا تتكلنَّ على عُذر مني لك؛ فقد اتَّكلت على كفاية منك. وإياك مني قبل أن أقول إياي منك؛ فإن الظن إذا أخلف منك أخلف مني فيك. وأنت في أدنى حظك فاطلب أقصاه. وقد أتعبك أبوك فلا تُريحنَّ نفسك، وكن لنفسك تكن لك. واذكُر في يومك أحاديث غدك تسعد إن شاء الله تعالى.

ومما قالوا في التشديق وفي ذِكر الأشداق، قال المازني:[١٣١]

مَن كانَ يَزعُمُ أنَّ بِشرًا مُلصَقٌ ... فاللهُ يَجزِيه ورَبُّك أعلَمُ
يُنبِيكَ ناظِرُه وقِلَّةُ لَحمِه ... وتَشادُقٌ فيه ولَونٌ أسحَمُ
إنَّ الصَّريحَ المَحضَ فيه دلالةٌ ... والعِرقُ مُنكشِفٌ لمن يَتوسَّمُ
أما لسانُك واحتباؤك قاعدًا ... فزُرارةُ العُدُسِيُّ عِندَك أعجَمُ
إنِّي لَأرجو أن يكونَ مَقالُهم ... زُورًا وشانِيكَ الحَسُودُ المُرغَمُ

وفي مثل ذلك يقول مورق العبدي:[١٣٢]

قد عَلِمَ الغَربيُّ والمُشرِّقُ ... أنَّكَ في القومِ صَميمٌ مُلصَقُ
عُوداكَ نَبعٌ وهَشيمٌ بَورقُ ... وأنتَ جَدبٌ وربيعٌ مُغدِقُ
وأنتَ ليلٌ ونهارٌ مُشرِقُ ... لولا عَجوزٌ قَحْمةٌ ودَردَقُ

أصحاب الإمام أبي حنيفة والمقدَّم فيهم، وهو أول من وضع الكتب على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، وبثَّ علم أبي حنيفة في أقطار الأرض، ولولاه ما عُرِف أبو حنيفة إلا بين إخوانه. ولأبي يوسف من المصنَّفات: الأمالي والنوادر، وكتاب الخراج. كانت وفاته سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م.

[١٣١] المازني: هو أبو عثمان بكر بن محمد المازني النحوي البصري. روى عن أبي عُبيدة والأصمعي وأبي زيد، وعنه روى المُبرد والفضل بن محمد اليزيدي وغيرهما. وكان حجة ثبتًا في العربية واسع الرواية. وكان يميل إلى مذهب «المرجئة»، ولا يناظره أحد إلا قطعه لقدرته على الكلام. سئل يومًا عن أهل العلم فقال: أصحاب القرآن فيهم تخليط وضعف، وأهل الحديث فيهم حشو ورقاعة، والشعراء فيهم هوج، والنحاة فيهم ثِقل، وفي رواة الأخبار الظرف كله. وله مصنَّفات عِدة. مات سنة ٢٤٨هـ/٨٦٢م.

[١٣٢] لم نعثر فيما بين أيدينا من الكُتب على تعريف لهذا المورق، ولم نجد هناك من العبديين، أي المنسوبين لعبد القيس، إلا المثقب وهو عائذ بن محصن، والممزق وهو شاس بن نهار، والحصيص وهو عامر بن زيد مناة، والمطلع وهو ربيعة بن ليث، وكل هذا لا يمنع وجود هذا المورق.

وصاحبٌ جَمُّ الحديثِ مُونِقُ   كيفَ الفَواتُ والطَّلوبُ مُورِقُ
شيخٌ مَغِيظٌ وسِنانٌ يُبرِقُ   وحَنجَرٌ رَحبٌ وصَوتٌ مِصلَقُ
وشِدقُ ضِرْغامٍ ونابٌ يَحرِقُ   وشاعرٌ باقي الرُّسومِ مُفلِقُ

(٣٦) باب في صفة الرائد للغيث، وفي نعته للأرض

قال أبو المُجيب: وصف رائدٌ أرضًا جدبةً فقال: اغبرَّت جادَّتُها، وذَرَع مَرتعها، وقَضِم شجرها، ورقَّت كَرِشها، وخوِر عَظْمها، والتَقى سَرْحاها، وتميَّز أهلها، ودخل قلوبَهم الوهَلُ،[١٣٣] وأموالَهم الهزَلُ.

قال: الجادة: الطريق إلى الماء، والجمع جوادٌّ. والتقى سرحاها، يقول: إذا أكل كل سارح ما يليه التَقَيا عند الماء، وإذا لم يكن للجمال مرعًى إلا الشجر وحده رقَّت أكراشه. وقوله: تميز أهلها، تفرَّقوا في طلب الكلأ. ومرتع مذرع: إذا كان بعيدًا من الماء. ومرتع قاصر: إذا كان قريبًا من الماء. ويقولون: كلأٌ قاصر للقريب. ويقولون: ماء مطنب وماء مطلب، إذا ألجأهم إلى طلبه من بُعده.

ووصف أعرابي أرضًا أحمَدَها فقال: خلَع شِيحُها، وأبقَل رِمثًا،[١٣٤] وخضَب عَرفجُها،[١٣٥] واتَّسق نَبتُها، واخضرَّت قُريانها،[١٣٦] وأخوصت بُطنانها، وأحلست أكمامها، وأعتم نبتُ جراثيمها، وأجْرَت بَقلتُها وذُرَقتها وخبَّازتها، واحورَّت خواصر إبلها، وشكِرت حَلوبتها، وسمِنت قَتوبتها، وعمِد ثراها، وعقِدت تناهيها، وأماهت ثِمارها،[١٣٧] ووثِق الناس بصائرها.

قال: ويُقال خلَع الشِّيح، إذا أورق. الخالع من العضاه: الذي لا يسقط ورقه أبدًا، وكذلك السدر لا يتجرد، وكل شجر له شوك فهو عضاه، والواحد عِضة، إلا القتاد، ولا يُعبِل إلا الأرطى. ويُقال كلح الشجر، إذا أخوصت بُطنانها إذا نبت فيه قُضبان رقاق.

---

[١٣٣] الوهل: الخوف والفزع.

[١٣٤] الرمث: نبتٌ ترعاه الإبل.

[١٣٥] العرفج: شجرٌ ينبت في السهل.

[١٣٦] القريان: مجاري السيول.

[١٣٧] أماهت: مُلئت ماءً.

وخضب عرفجها، يقول: اسود. وأخوص الشجر: وهو الذي لا شوك له، ومن العِضاه قِشره وقِصَده، فإذا يبست فهي عُود. اتسق نبتها: أي تتامَّ. أجرت بقلتها: أي نبت فيها مثل الجِراء، جمع جَرْو. والعُلَّفة: ثمرة الطَّلح، والحُبلة للسَّلَم. واحورت خواصر إبلها: تشد أحناها على خواصرها كي لا تحبط. والحبط انتفاخ بطنها من مرعًى ترعاه. قيل للنبي ﷺ: أيَضرُّ العبط؟ قال: نعم، كما يَضرُّ الحبط. وشكرت، يقول: غزُرت. وقوله: عمد ثراها، وذلك إذا قبضت منه على شيء فتعقَّد واجتمع من نُدُوَّته، يُقال: عَمِد الثرى يَعمَد عمدًا، وهو ثرًى عَمِدٌ، فالعَمَد أن يُجاوز الثرى المنكب، وهو أن تقيس السماء بالمِرفق، فيقول: بلَغت وضَح الكف، ثم الرُّسغ، ثم العظمة، ثم المِرفق، ثم ينصُف العَضُد، ثم يبلغ المَنكب، فإذا بلغ المنكب قيل: عمِد الثرى. فيقال: إن ذلك حيا سنين. والتناهي: واحدتها تنهية، وهي مستقَرُّ السَّيل، وعقدها أن يمرَّ السيل مُقبلًا حتى إذا انتهى منتهاه دار بالأبطح حتى يلتقيَ طرفا السيل. والصائرة: الكلأ والماء.

(٣٧) خطبة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

قالوا: قاتَل الحجَّاج ابن الأشعث في المِربَد، فخطب ابن الأشعث الناس فقال:

أيها الناس، إنه لم يبقَ من عدوِّكم إلا كما يبقى من ذنَب الوزَغة، تضرب به يمينًا وشمالًا فما تَلبَث إلا أن تموت.

فمرَّ به رجل من بني قشير فقال: قبَّح الله هذا ورأيه، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس، ويعِدُهم الأضاليل، ويمنِّيهم الأباطيل!

وناسٌ كثير يرَون أن ابن الأشعث هو المُحسِن دون القُشيري.

قال بشَّار:

وحَمدٍ كعَصبِ البُردِ حمَّلتُ صاحبي ... إلى مَلِكٍ للصالحاتِ قَرينِ

وقال آخر:

وبِكرٍ كنُوَّارِ الرِّياضِ حديثُها ... تَرُوقُ بوَجهٍ واضحٍ وقَوَامِ

أبو الحسن: كان معاوية يأذن للأحنف أول من يأذن له، فأذِن له يومًا، ثم أذِن لمحمد بن الأشعث حتى جلس بين معاوية والأحنف، فقال له معاوية:

> لقد أحسستَ من نفسك ذلًّا، إني لم آذَن له قبلك إلا ليكون إليَّ في المجلس دونك، وإنا كما نملك أموركم نملك تأديبكم، فأريدوا ما يُراد بكم؛ فإنه أبقى لنعمتكم، وأحسن لأدبكم.

وقال النبي ﷺ لأُصيلٍ الخُزاعي: يا أُصيل، كيف تركت مكة؟ قال: تركتها وقد أحجَن ثُمامُها، وأمشَر سَلَمها، وأعذَق إذخرُها. فقال ﷺ: دَعِ القلوب تَقرَّ.

وسأل أبو زياد الكلابي الصقيل العُقيلي حين قدِم من البادية عن طريقه، فقال: انصرفت من الحج فأصعدت إلى الربَذة في مَقاطِّ الحَرَّة، ووجدت صِلالًا من الربيع، من خَضمة خَمص، وصِلِّيان، وقَرمَل، حتى لو شئت لأنَختُ إبلي في أذن القَفعاء، فلم أزَل في مَرعًى لا أحسن منه شيئًا حتى بلَغت أهلي.

وقال سلَّام الكلابي: رأيت ببطن فَلْج منظرًا من الكلأ لا أنساه؛ وجدت الصفراء والحمراء يضربان نُحور الإبل، تحتهما قَفْعاء وحُربُث قد أطاع وأمسك بأفواه المال — أي لا تقدر أن ترفع رءوسها — وتركت الحوذان ناقعةً في الأجارع. وذم أرضًا فقال: وجدنا أرضًا ماحلةً مِثل جِلد الأجرب، تصيء حيَّاتها، ولا يسكت ذِيبُها، ولا يقيِّد راكبها.

وقال النضر: قلت لأبي الخُضير: ما أعجبُ ما رأيتَ من الخِصب؟ قال: كنت أشرب رثئةً تجرُّها الشفتان جرًّا، وقارصًا ممارصًا إذا تجشَّأت جدع أنفي، ورأيت الكَمْأة تدوسها الإبل بمَناسمها، والوضر يشمُّه الكلب فيَعطِس.

قال الأصمعي، قال المُنتجع بن نَبهان، قال رجل من أهل البادية: كنت أرى الكلب يمر بالخَصَفة عليها الخلاصة فيشمُّها ويمضي عنها.

محمد بن كُناسة قال، أخبرني بعض فصحاء أعراب طي قال: بعث قوم رائدًا فقالوا: ما وراءك؟ قال: عُشبٌ وتعاشيب، وكمأةٌ مُتفرقة شِيب، تَقلَعها بأخفافها النِّيب. قالوا: لم تصنع شيئًا، هذا كذب. فأرسلوا آخر فقالوا: ما وراءك؟ قال: عُشبٌ ثأدٌ مأد، موليٌّ عَهْد، مُتدارك جَعد، كأفخاذ نساء بني سعد، تشبع منه الناب وهي تَعْد. وقال: لأن النبت إذا كان قليلًا وقفت عليه الإبل، وإذا كان كثيرًا أمكنها الأكل وهي تعدو.

وقالوا: بعث رجلٌ أولاده يرتادون في خِصب، فقال أحدهم: رأيت بقلًا، وماءً غيلًا، يسيل سيلًا، وخوصةً تميل ميلًا، يحسبها الرائد ليلًا. وقال الثاني: رأيت دِيمةً على ديمة، في عهدها غير قديمة، وكلأً تشبع منه الناب قبل العظيمة.

وقال أبو مُجيب: قيل لأوفى بن عبيد: ايتِ واديَ كذا وكذا فارتَدْه لنا. فقال: وجدت به خُشبًا هَرْمى، وعشبًا شَرْمى. قال: والهرمى الذي ليس له دخان إذا أُوقد من يُبسِه وقِدمه. والشرمى: العشب الضخم، يُقال: هذا عشبٌ شرم.

وقال هَرِم بن زيد الكلبي: إذا أحيا الناسُ قيل: قد أكلأت الأرض، واخرَنفشَت العَنز لأختها، ولحِسَ الكلب الوضَر.

وقال آخر: نِفاش العنز أن ينتفش شعرها، وتنصب رَوقَيها في أحد شِقَّيها لتنطح صاحبتها، وإنما ذلك من الأشَر حين ازدهت وأعجبتها نفسها. ولحس الكلب الوضر: لما يُفضِلون منه؛ لأنهم في الجدب لا يدعون للكلب شيئًا يلحسه.

قال أبو مُجيب: إذا أجدب الرائد قال: وجدت أرضًا أرْمى عَشْمى. فأما العشمى فالتي يُرى فيها الشجر الأعشم، وإنما يَعشَم من الهَبوة، ويُقال للشيخ: إنما هو عَشَمة. فأما الأرمى فالتي أرمت فليس فيها أصل شجرة.

قال أبو عُبيدة، قال بعض الأعراب: تركت جُرادَ عرادًا كأنها نعامةٌ باركة. يريد التِفاف نَبْتها، وهي من نبت بلاد تميم.

وقيل لأعرابي: ما وراءك؟ قال: خلَّفتُ أرضًا تظالم مِعزاها. يقول: سمِنت وأشِرت فتظالمت. وتقول العرب: ليس أظلَمُ من حيَّة. وتقول العرب: ليس أظلم من وَرَل، وأظلم من ذئب. كما تقول: أغدر من ذئب. وكما تقول: أكسب من ذئب. قال الأسدي:

لعَمرُكَ لو أنِّي أُخاصِمُ حيَّةً ... إلى فَقعَسٍ ما أنصفَتنيَ فَقعَسُ
إذا قلتُ ماتَ الداءُ بيني وبينهم ... أتى حاطبٌ منهم لآخَرَ يَقبِسُ
فما لكمُ طُلْسًا إليَّ كأنَّكم ... ذئابُ الغَضا والذئبُ باللَّيلِ أطلَسُ

وقال الفزاري:

ولو أُخاصِمُ أفْعى نابُها لَثِقٌ ... أوِ الأساوِدَ من صُمِّ الأهاضيبِ
ولو أُخاصِمُ ذئبًا في أكيلتِه ... لَجاءَني جَمعُهم يَسْعى مع الذِّيبِ

يقول: بلَغ من ظلم قومنا لنا أنَّا لو خاصمنا الذئاب والحيَّات — وبها يضربون المثل في الظلم — لقضَوا لهما علينا.

وقالت العرب: إذا شبِعت الدقيقة، لحِست الجليلة. هذا في قلة العُشب، وإنما تلحسه الناقة لقِلَّته وقِصَره.

وحدَّثنا أبو زياد الكلابي قال: بعث قوم رائدًا لهم بعد سنين تتابعت عليهم، فلما رجع إليهم قالوا له: ما وراءك؟ قال: رأيت بَقلًا يَشبَع منه الجَمل البَروك، وتشكَّت منه النساء، وهمَّ الرجل بأخيه.

قال: أما قوله «الجمل البروك»، يقول: لو قام قائمًا لم يتمكن منه لقِصَره. وأما قوله: وتشكت منه النساء، فإنه مأخوذ من الشَّكوة، والشِّكاء أصغر الوِطاب. يقول: لم يكثر اللبن بعد فيمخض في الوطاب. وقوله: وهمَّ الرجل بأخيه؛ أي همَّ أن يدعوَه إلى منزله كما يصنعون في أيام الخِصب.

وقال غيره: الخِصب يدعو إلى طلب الطوائل، وغزو الجيران، وإلى أن يأكل القوي مَن هو أضعف منه. وقالوا في الكلأ: كلأٌ تشبع منه الإبل مُعقَّلة، وكلأٌ حابس فيه كمُرسِل.

يقول: من كثرته سواء عليك حبستها أو أرسلتها، وتقول: كلأ يتجع منه كبدُ المُصرِم. وأنشد الباهلي:

ثُم مُطِرْنا مَطْرةً رَوِيَّةْ فنَبَتَ البَقلُ ولا رَعِيَّةْ

وأنشد الأصمعي:

فجنَّبَكَ الجُيوشَ أبا زُنَيبٍ وجادَ على مَسارِحِكَ السَّحابُ

يجوز أن يكون دعاءً عليه، وأن يكون دعاءً له.

وقال الآخر:

أمْرَعَتِ الأرضُ لوَ انَّ مالا لوَ انَّ نُوقًا لكِ أو جِمالا أو ثَلَّةً من غَنَمٍ إمَّا لا

وقال ابن الأعرابي: سأل الحجَّاج رجلًا قدِم من الحجاز عن المطر، فقال: تتابعت علينا الأسمِية، حتى منَعت السُّفَّار، وظالمت المِعزى، واحتُلبت الدِّرَّة بالجِرَّة.

لقيط قال: دخل رجل على الحجَّاج فسأله عن المطر، فقال: ما أصابني من مطر، ولكني سمعت رائدًا يقول: هلمَّ أُظعِنْكم إلى مَحلَّة تطفأ فيها النيران، وتتنافش فيها المِعزى، وتبقى بها الجِرَّة، حتى تتنزل الدِّرَّة.

أبو زيد، قال: تخاصمت امرأتان إلى ابنة الخُس في مراعي أبوَيهما، فقالت الأولى: إبل أبي ترعى الإسيلح. قالت ابنة الخُس: رِغوة وصريح، وسَنامٌ إطريح. قالت الأخرى: مَرعى إبل أبي الخَلَّة. قالت ابنة الخُس: سريعة الدِّرَّة والجِرَّة.

وقال الأحوص بن جعفر بعدما كَبِر وعمِي، وبنوه يسوقون به: أيَّ شيءٍ ترتعي الإبل؟ قالوا: عرف الثمام والضغة. قال: سُوقوا. ثم إنها عادت فارتعت بمكانٍ آخر، فقال: أي شيء ترتعي الإبل؟ قالوا: العِضاه والغمضة. قالوا: عُودٌ عويد، شِبعٌ بعيد. وقال: سوقوا. حتى إذا بلَغوا بلدًا آخر قال: أي شيء ترتعي الإبل؟ قالوا: نَصِيًّا وصِلِّيانًا. قال: مكفية لرعائها، مَطوَلة لذُراها، ارعَوا واشبعوا. ثم سألهم فقال: أي شيء ترتعي الإبل؟ فقالوا: الرِّمث. قال: خُلِقت منه وخُلِق منها.

قال أبو صاعد: وزعم الناس أن أول ما خُلقت الإبل من الرِّمث، وعلامة ذلك أنك لا ترى دابَّةً تريده إلا الإبل.

وقيل لرؤبة: ما وراءك؟ قال: الثرى يابس، والمَرعى عابس.

وقالت امرأة من الأعراب: أصبحنا ما يرقد لنا فرس، وما ينام لنا حرس.

قالوا: كان أبو المُجيب كثيرًا ما يقول: لا أرى امرأةً تصبِّر عينَيها، ولا شريفًا يَهنأ بعيرًا، ولا امرأةً تلبس نِطاق يمنة.

وخطب بلال بن أبي بُردة بالبصرة، فعرف أنهم قد استحسنوا كلامه، فقال: لا يمنعكم سوء ما تعلمون منَّا، أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما قومٌ أشبه بالسلف من الأعراب، لولا جفاءٌ فيهم.

وقال غيلان أبو مروان: إذا أردت أن تتعلم الدعاء، فاسمع دعاء الأعراب.

وقال رجل من بني سُليم، وسأله الحجَّاج عن المطر فقال: أصابتنا سحائب ثلاث؛ سحابة بحَوران بقَطرٍ صِغار وقَطرٍ كِبار، فكان الصغار للكبار لُحْمة؛ ثم أصابتنا الثانية بسُواء فلبَّدت الدِّماث، ورحَضت العَزاز، وأسالت التِّلاع، وحرقت الرجع، وصدَعت الكمأة عن أماكنها؛ ثم أصابتنا الثالثة بالقريتَين فملأت الآحاد، وأفعمت كل وادٍ، وأقبلنا في ماء يجرُّ الضبُع ويستخرجها من وجارها.

وقال رجل من بني أسد لمحمد بن مروان وسأله عن المطر فقال: ظهَر الإعصار، وكثُر الغُبار، وأُكل ما أشرف من الخبئة، وأيقنَّا أنه عام سَنة.

قال أبو الحسن بن العتَّاب، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، أن الإسكندر كان لا يدخل مدينةً إلا هدمها وقتل أهلها، حتى مرَّ بمدينةٍ كان مؤدِّبه فيها، فخرج إليه، فألطفه الإسكندر وأعظمه، فقال له: أيها الملك، إن أحقَّ من زيَّن لك أمرك وآتاك على كل ما هوِيت لأنا، وإن أهل هذه المدينة قد طمِعوا فيك لمكاني منك، وأُحبُّ ألا تشفِّعني فيهم، وأن تُخالفني في كل ما سألتك لهم. فأعطاه الإسكندر من ذلك ما لا يقدر على الرجوع عنه، فلما توثَّق منه قال: فإن حاجتي أن تدخلها وتُخربها وتقتل أهلها. قال: ليس إلى ذلك سبيل، ولا بد من مخالفتك.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أفضل العبادة الصمت، وانتظار الفرج.

وقال يزيد بن المهلَّب، وقد طال عليه حبس الحجَّاج: وا لهفاه على فرج في جبهة أسد، وطلبة بمائة ألف!

قال الأصمعي: دخل دُرُست بن رباط الفُقيمي على بلال بن أبي بُردة وهو في الحبس، فعَلِم بلال أنه شامت به، فقال بلال: ما يسرُّني بنصيبي من الكُره حُمْر النَّعم. فقال درست: فقد أكثر الله لك منه.

قال الهيثم بن عدي: كان سجَّان يوسف بن عمر يرفع إلى يوسف بن عمر أسماء الموتى، فقال له بلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري: اقبض هذه العشرة الآلاف درهم وارفع اسمي في الموتى. قال: فرفع اسمه في الموتى، فقال له يوسف بن عمر: جِئني به. فرجع إليه فأعلمه، فقال: وَيحَك، اتَّقِ الله فيَّ؛ فإني أخاف القتل. قال: وأنا أيضًا أخاف ما تخاف. ثم قال: قتلُك أهوَنُ من قتلي، ولا بد من قتلك. فوضع على وجهه مخدَّة فذهبت نفسه مع المال.

وأما عبد الله بن المقفع[١٣٨] فإن صاحب الاستخراج لما ألحَّ عليه في العذاب، قال لصاحب الاستخراج: أعندك مال وأنا أُربِحك ربحًا ترضاه؟ وقد عرفتَ وفائي وسخائي

---

[١٣٨] ابن المقفع: هو الكاتب البليغ الذي لم يتعلق بمنزلته في الفصاحة والبلاغة وقوة البيان مُتعلق. كان والده داذويه خوزي ينتحل نِحلة المجوس، وكان يتولى للحجَّاج بن يوسف خراج فارس، فنشأ ولده روزبة على ما ينشأ عليه أبناء اليسار، ورُبي تربيةً إسلامية، وأُولع بالعلوم والآداب، فجاء وهو في سن العشرين آية الآيات، وكان على ميعة شبابه لا يُشَق له غبار في حُسن البيان ومتانة التبيان. كتب على

وكِتماني، فعيِّنِّي مِقدار هذا النجم. فأجابه إلى ذلك، فلما صار عليه مال ترفَّق به مخافةَ أن يموت تحت العذاب فيَتْوى ماله.

وقال رجل لعمرٍو الغزَّال: مررت بك البارحة وأنت تقرأ. قال: لو أخبرتني أي آية كنت فيها لأخبرتك كم بقي من الليل.

عهد بني أمية لداود بن يوسف بن عمر بن هُبيرة، وفي عهد الدولة العبَّاسية لعيسى بن علي العبَّاسي عم السفَّاح، وعلى يدَيه أسلم، ثم كان آخر أمره في خدمة أخيه سليمان بن علي أيامَ ولايته على البصرة، وكتب له واختصَّ به، وتسمَّى بعبد الله. وكان يصوغ الكُتب التي تُنقل لأبي جعفر المنصور عن اليونانية والفارسية في القالب العربي المُبين، فضلًا عما كان ينقله هو إلى العربية من اللسان الفارسي من الأسفار البديعة النافعة، مثل «كليلة ودمنة» و«التاج» و«الأدب الكبير» و«الأدب الصغير» و«اليتيمة»، ويُقال إن كتاب «كليلة ودمنة» من وضعِه لا من نقله.

ومن كلامه الدال على مأخذه قوله: شربت من الخطب رِيًّا، ولم أضبط لها رَويًّا، ففاضت ثم فاضت، فلا هي نظامًا، وليس غيرها كلامًا. والمراد بالخطب خطب الإمام علي كرَّم الله وجهه.

وحدَّث شبيب بن شَيبة، قال: كُنَّا وُقوفًا بالمِربد (موضع بالبصرة)، وكان المربد عائف الأشراف، إذ أقبل ابن المقفع فبَشبَشنا به وبدأناه بالسلام، فردَّ علينا السلام ثم قال: لو مِلتم إلى نيروز وظلِّها الظليل، وسورها المديد، ونسيمها العجيب، فعوَّدتم أبدانكم تمهيد الأرض، وأرَحتُم دوابَّكم من جهد الثقل؛ فإن الذي تطلبونه لم تفلتوه، ومهما قضى الله لكم من شيءٍ تنالوه. فقبِلنا ومِلنا، فلما استقرَّ بنا المكان قال لنا: أي الأمم أعقل؟

فنظر بعضنا إلى بعض، فقلنا لعله أراد أصله من فارس، فقلنا: فارس.

فقال: ليسوا بذاك، إنهم ملكوا كثيرًا من الأرض، ووجدوا عظيمًا من المُلك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عقد الأمر، فما استنبطوا شيئًا بعقولهم، ولا ابتدعوا باقيَ حكم في نفوسهم.

قلنا: فالروم.

قال: أصحاب صنعة.

قلنا: فالصين.

قال: أصحاب طُرفة.

قلنا: فالهند.

قال: أصحاب فلسفة.

قلنا: فالسودان.

قال: شر خلق الله.

قلنا: فالتُّرك.

قال: كلابٌ مُختلسة.

قلنا: فالخزر.

وسمع مؤرِّج البصري رجلًا يقول: أمير المؤمنين يردُّ على المظلوم. فرجع إلى مصحفه فردَّ على براءة «بسم الله الرحمن الرحيم».

وكان عبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه يعطش، وقيل له: إن شربت الماء مت. فأقبل ذات يوم بعض العُوَّاد فقال: كيف حال أمير المؤمنين؟ قال: أنا صالح والحمد لله. ثم أنشأ يقول:

ومُستخبِرٍ عنَّا يُريدُ بنا الرَّدى ومُستخبِراتٍ والعُيونُ سَواجِمُ

ويلكم، اسقوني ماءً ولو كان فيه تلف نفسي. فشرب ثم مات.

وكان حبيب بن مَسلمة الفهري رجلًا غزَّاءً للتُّرك، فخرج ذات مرة إلى بعض غزواته، فقالت له امرأته: أين موعدك؟ قال: سُرادق الطاغية أو الجنة إن شاء الله تعالى. قالت: إني لأرجو [أن] أسبقك إلى أي الموضعين كنت به. فجاء فوجدها في سرادق الطاغية تُقاتل التُّرك.

ولما مدح الكُميت بن زيد الأسدي مُخلَّد بن يزيد المهلَّب، قال له ابن بَيض: إنك يا أبا المُستهِلِّ لَكالجالب التمر إلى هَجَر. قال: نعم، ولكن تمرُنا أجود من تمركم.

قال: بقرٌ سائمة.

قلنا: فقل.

قال: العرب. فضَحِكنا.

فقال: أمَا إني ما أردت موافقتكم، ولكن إذ فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة. إن العرب حكمت على غير مثال مُثِّل لها، ولا آثارٍ أُثرت. أصحاب إبل وغنم، وسكان شَعر وأدم، يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويُشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حُجة، ويُحسِّن ما شاء فيحسُن، ويُقبِّح ما شاء فيقبُح. أدبَّتهم أنفُسهم، ورفعتهم هِممُهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزَل حِباء الله فيهم، وحباؤهم في أنفسهم، حتى رفع لهم الفخر، وبلَغ بهم أشرف الذِّكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر. الخير فيهم ولهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. فمن وضع حقَّهم خسر، ومن أنكر فضلهم خُصِم، ودفع الحق باللسان أكبَتُ للجَنان. قُتل بدعوى الكيد للإسلام، وباتهامه بالزندقة، والحقُّ أن ذلك كان لضغن عليه.

وُلد سنة ١٠٦هـ/٧٢٤م، وقتله سليمان بن معاوية والي البصرة سنة ١٤٢هـ/٧٥٩م.

وكان السيد الحِميري مُولعًا بالشراب، فمدح أميرًا من أمراء الأهواز، ثم صار إليه بمديحه له، فلم يصل إليه، وأغبَّ الشراب، فلما كان ذاتَ يومٍ شرب ثم وصل إليه، فجلس من بُعْد، فقرَّبه وشمَّ منه ريح الشراب، فقال له: ما كنت أظن أبا هاشم يفعل هذا! ولكن يُحتمل لمادح آل رسول الله ﷺ أكثر من هذا. يُمازحه. ثم قال: يا جارية هلمِّي الدواة. ثم كتب إلى بعض وُكلائه: ادفع إلى أبي هاشم مائتَي دَورق مَيتَحنحًا. قال السيد: لقد كنت أظن الأمير أبلغ ما هو! قال: وأيَّ شيء رأيتَ من العي؟ قال جمعك بين حرفين وأنت تجتزئ بأحدهما، امحُ هذه الخيشة بحنحًا ودع مينًا على حالها. ففعل، وحمل الكتاب فأخذها غبيطًا.

عبد الله بن قائد قال، قالت امرأة الحُصين بن المُنذر للحُصين: كيف سُدْت قومك وأنت بخيل وأنت دميم؟ قال: لأني سديد الرأي، شديد الإقدام.

وقال مَسلمة بن عبد الملك[١٣٩] لهشام بن عبد الملك: كيف تطمع في الخلافة وأنت بخيل وأنت جبان؟ قال: لأني حليم وأني عفيف. قال زبَّان:

إنَّ بَني بَدرٍ يَراعٌ جُوفُ كلُّ خطيبٍ منهمُ مَئوفُ
أهوَجُ لا يَنفعُه التثقيفُ

---

[١٣٩] مَسلمة بن عبد الملك: كان يُكنى أبا سعيد، ويُلقَّب الجرادة الصفراء؛ لصُفرةٍ كانت تعلوه. وكان شجاعًا باسلًا، وفارسًا بطلًا، وقائدًا دربًا. فتح في الروم فتوحًا كثيرة بين بلاد وحصون وقلاع، منها حصن طوانة، وحصن عمورية، وأذارولية، وهرقلة، وقمونية، وسبسطية، والزريانين، وطرسوس، وكثير غيرها مما يطول شرحه. وفي سنة ٩٨هـ جهَّز سليمان بن عبد الملك جيشًا وعلى رأسه أخوه مسلمة لفتح القسطنطينية، فعبر الخليج وحاصَر المدينة، فلما اشتد على أهلها الحصار راسَلوا مسلمة في أن يُعطوه عن كل رأس دينارًا، فأبى إلا أن يفتتحها عنوةً، فقال عظماء الدولة للاون البطريق: إن صرفت عنا المسلمين ملَّكناك علينا. فلما استوثق منهم جاء إلى مسلمة، واستأمنه على نفسه وذويه، ووعده أن يفتح له المدينة إذا هو تنحَّى بعسكره قليلًا ليطمئنَّ أهل المدينة، ثم هو بعد ذلك حر في أن يكر عليهم. فانخدع مسلمة وتنحَّى إلى بعض الرساتيق. ودخل لاون فلبس التاج واقتعد السرير، واعتزل الملك ثاوذوسيوس، ولبس المسوح مُعتكفًا في كنيسة. ولما علم مسلمة بخديعة لاون كرَّ راجعًا بجيوشه، ونزل بفناء القسطنطينية، وظل مُحاصِرًا لها أشهرًا، ولقي جنده ما لم يلقَه جيشٌ آخر، حتى كان الرجل يخاف أن يخرج من العسكر وحده خوف أولئك الذين استجاشهم لاون من البلغار والفرنج والروم وغيرهم من الأجناس. ولما بلَغ مسلمةَ موتُ سليمان رجع بجنوده عن القسطنطينية. ولمسلمة في بلاد الترك بلاءٌ عظيم. ولما خرج يزيد بن المهلَّب على يزيد بن عبد الملك سار إليه مسلمة وقاتله وقتله، وفرَّق

وقال لَبيد بن ربيعة:

وأبيضَ يَجتابُ الخُروقَ على الوَجا　　خطيبًا إذا التفَّ المَجامعُ فَيصلا

وقال في تفضيل العلم والخطابة، وفي مدح الإنصاف وذم الشغب:

ولقد بَلَوتُك وابتليتُ خَليقتي　　ولقد كفَاك مُعلِّمي تَعليمي

وقال لَبيد:

ذهبَ الذين يُعاشُ في أكنافِهم　　وبقيتُ في خَلفٍ كجِلدِ الأجربِ
يَتأكَّلونَ مَغالةً وخيانةً　　ويُعابُ قائلُهم وإنْ لم يَشغَبِ

وقال زيد بن جندب:

ما كانَ أغْنى رِجالًا ضلَّ سَعيُهمُ　　عنِ الجِدالِ وأغْناهم عنِ الخُطَبِ

وقال لقيط بن زُرارة:

إنِّي إذا عاقبتُ ذو عِقابٍ　　وإنْ تُشاغِبْني فذو شِغابِ

جموعه، وأهلك آل المهلب، وقد كانوا أعضاد الدولة الأموية وحُماتها. ولما انتهى من أمر آل المهلب جمع له أخوه يزيد ولاية الكوفة والبصرة وخراسان، وذلك في سنة ١٠١هـ/٧١٩م. وتُوفي مسلمة في عهد هشام سنة ١٢٣هـ/٧٤٠م. ورثاه الوليد بن يزيد بقوله:

أتانا بَريدانِ من واسطٍ　　يخبَّانِ بالكُتبِ المُعجَمةْ
أقولُ وما البعدُ إلا الرَّدى　　أمسلمَ لا تُبعدَنْ مَسلمةْ
فقد كنتَ نورًا لنا في البلادِ　　تُضيءُ فقد أصبحتْ مُظلمةْ
كتَمْنا لنَعيك نَخشى اليقينَ　　فجلَّى اليقينُ عن الجمجمةْ
وكم من يتيمٍ تَلافيتَه　　بأرضِ العدوِّ وكم أيِّمةْ
وكنتَ إذا الحربُ درَّت دمًا　　نصبتَ لها رايةً معلمةْ

وقال ابن أحمر:

وكم حلَّها من تَيَّحانٍ سَمَيذَعٍ مُصافي النَّدى سارٍ بِيَهماءَ مُطعِمِ
طَوِي البطنِ مِتلافٍ إذا هبَّتِ الصَّبا على الأمرِ غوَّاصٍ وفي الحيِّ شَيْظَمِ

وقال الآخر:

وأغَرَّ مُنخرِقَ القميصِ سَمَيذعٍ يدعو ليَغزوَ ظالمًا فيُجابُ
قد مدَّ أرسانَ الجِيادِ من الوَجا فكأنَّما أرسانُها أطنابُ

وقال الآخر:

كريمٌ يَغُضُّ الطَّرْفَ عندَ خيانةٍ ويَدنو وأطرافُ الرِّماحِ رَوَانِ
وكالسَّيفِ إنْ لايَنتَه لانَ مَتنُه وحدَّاه إنْ خاشَنتَه خَشِنانِ

وقال آخر:

يُقطِّعُ طَرْفَه عنِّي سُوَيدٌ ولم أذكُرْ بسَيِّئةٍ سُوَيدا
تَوَقَّ حِدادَ شَوكِ الأرضِ تَسلَمْ وغيْرَ الأُسْدِ فاتَّخذَنَّ صَيْدا

وقال آخر:

لا تَحسَبَنَّ المَوتَ مَوتَ البِلى فإنَّما الموتُ سؤالُ الرِّجالْ
كِلاهما موتٌ ولكنَّ ذا أَشَدُّ من ذاك لذُلِّ السؤالْ

وللحسين بن مَطير:

رأتْ رَجلًا أوْدى بوَافرِ لَحمِه طِلابُ المَعالي واكتسابُ المَكارمِ
خفيفَ الحَشا ضَربًا كأنَّ ثِيابَه على قاطعٍ من جوهرِ الهِندِ صارمِ
فقلتُ لها لا تَعجَبِنَّ فإنَّني أرى سِمَنَ الفِتيانِ إحدى المَشاتِمِ

وكان عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، إذا رأى عبد الله بن عبَّاس في الأمر يعرض مع جِلة أصحاب رسول الله ﷺ يقول: غُصْ غوَّاصُ.

وقال ابن أحمر:

هل لامَني قومٌ لمَوقِفِ سائلٍ   أو في مُخاصَمةِ اللَّجوجِ الأصيَدِ؟

وقال لبيد بن ربيعة في التطبيق على قوله:

يا هَرِمَ بنَ الأكرمينَ مَنصِبا   إنَّك قد أُوتيتَ حُكمًا مُعجِبا
فطبِّقِ المَفصِلَ واغنَمْ طيِّبا

وقال آخر:

فلمَّا أنْ بَدا القَعقاعُ لجَّتْ   على شَرَكٍ تُناقِلُه نِقالا
تَعاوَرْنَ الحديثَ وطبَّقتْه   كما طبَّقتَ بالنَّعلِ المِثالا

وقال ابن أحمر:

لو كنتَ ذا عِلمٍ عَلِمتُ وكيف لي   بالعِلمِ بعدَ تَدبُّرِ الأمرِ

وقال:

ليستْ بشَوشاةِ الحديثِ ولا   فَتِقٍ مُغالِبةٍ على الأمرِ

وقال:

تَضَعُ الحديثَ على مَواضِعِه   وكَلامُها من بعدِه نَزْرُ

وقال:

وخَصْم مُضِلٍّ في الضِّجاجِ تركتُه   وقد كانَ ذا شَغْبٍ فولَّى مُواثِبا

وذكر علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، أكتلَ بن شمَّاخ العُكلي فقال: الصبيح الفصيح. وهو أول من اتَّخذ بيت مال لنفسه في داره.

عبد الله بن المبارك، عن معمر، عن الحسن، عن النبي ﷺ، قال: سيكون بعدي أمراء يُعطون الحكمة على منابرهم وقلوبُهم أنتَنُ من الجِيَف.

(٣٨) خطبة للحَجَّاج

جعفر بن سليمان الضبعي، عن مالك بن سليمان، قال: غدوت إلى الجمعة، فجلست قريبًا من المِنبر، فصَعِد الحجَّاج المِنبر ثم قال:

> امرؤٌ زوَّر عمله، امرؤٌ حاسَب نفسه، امرؤٌ فكَّر فيما يقرؤه في صحيفته ويراه في ميزانه، امرؤٌ كان عند قلبه زاجرًا، وعند همه ذاكرًا، امرؤٌ أخذ بعِنان قلبه كما يأخذ الرجل بخِطام جمله؛ فإن قاده إلى طاعة الله قبِله وتبِعه، وإن قاده إلى معصية الله كفَّه.

وبعث عدي بن أرطاة إلى المهالبة أبا المليح الهُذلي، وعبد الله بن عبد الله بن الأهتم، والحسن البصري، فتكلَّم الحسن، فقال عبد الله: والله ما تمنَّيت كلامًا قط أحفظُه إلا كلام الحسن يومئذٍ.

وتنقَّص ابنٌ لعبد الله بن عُروة بن الزُّبير عليًّا، رضي الله تعالى عنه، فقال له أبوه: والله ما بنى الناس شيئًا قط إلا هدمه الدين، ولا بنى الدين قط شيئًا فاستطاعت الدنيا هدمه. ألم ترَ إلى عليٍّ كيف يُظهر بنو مروان من عيبه وذمه؟ والله لكأنما يأخذون بناصيته رفعًا إلى السماء. وما ترى ما يندبون به موتاهم من التأبين والمديح؟ والله لكأنما يكشفون به عن الجِيَف.

أبو الحسن قال، قال عبد الله بن الحسن لابنه محمد حين أراد الاستخفاء: أي بُني، إني مؤدٍّ إليك حق الله في حسن تأديبك، فأدِّ إليَّ حق الله في حسن الاستماع. أي بُني، كُفَّ الأذى، وارفض البذاء، واستغنِ عن الكلام بطول الفكر في المَواطن التي تدعوك نفسك فيها إلى القول؛ فإن للقول ساعاتٍ يضرُّ فيها خطؤه ولا ينفع صوابه. احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحًا، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشًّا؛ فإنه يوشك أن يورِّطاك بمشورتهما، فيسبق إليك مكر العاقل وتوريط الجاهل.

وكان يُقال: من لانَت كلمته وجبَت محبَّته، ومن طال صمته اجتلب من الهيبة ما ينفعه، ومن الوَحشة ما يضرُّه.

(٣٩) باب أن يقول كل إنسان على قدر طبعه وخُلُقه

قال قُتيبة بن مُسلم للحُصين بن المُنذر: ما السرور؟ قال: امرأةٌ حسناء، ودارٌ قوراء وفرسٌ فارهٌ مُرتبط بالفِناء. وقيل لضرار بن الحسين: ما السرور؟ قال: لواءٌ منشور، وجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير. وقيل لعبد الملك بن صالح: ما السرور؟ قال:

كلُّ الكرامةِ نِلتُها   إلَّا التحيَّةَ بالسَّلامِ

وقيل لعبد الله بن الأهتم: ما السرور؟ قال: رفع الأولياء، وحطُّ الأعداء، وطول البقاء، مع القدرة على النماء. وقيل للفضل بن سهل: ما السرور؟ قال: توقيعٌ جائز، وأمرٌ نافذ.

أبو الحسن المدائني قال: قيل لإنسانٍ بحري: أيَّ شيءٍ تمنَّى؟ قال: شربةً من ماء الفِنطاس، والنوم في ظل الشراع، وريحًا ذُنبداذًا.

وقيل لطُفيلي: كم اثنتَين في اثنتين؟ قال: أربعة أرغفة. وقال الفلَّاس القصَّاص: كان أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر ثلاثمائة وستين درهمًا. وقلت لملَّاح لي، وذلك بعد العصر في رمضان: انظر كم بين عين الشمس وبين موضع غروبها من الأرض؟ قال: أكثر من مُردِيَّين ونصف. وقال آخر: وقع علينا اللصوص، فأول رجل دخل علينا السفينةَ كان في طول هذا المردي، وكانت فخذه أغلظ من هذا السُّكَّان، واسودَّ وجه صاحب السفينة حتى صار أشد سوادًا من هذا القير. وأردت الصعود مرةً في بعض القناطر، وشيخٌ ملَّاح جالس، وكان يوم مطر وزلق، فزلِقَ حماري فكاد يُلقيني بجنبي، لكنه تماسَك فأقعى على عجُزه، فقال الشيخ الملَّاح: لا إله إلا الله، ما أحسن ما جلس على كَوثَله! ومررت بتل طين أحمر ومعي أبو الحسين النحَّاس، فلما نظر إلى الطين قال: أي أداري يجيء من هذا الطين؟ ومررنا بالخُلد بعد خرابه، فقال: أي إصطبلات تجيء من هذا الموضع؟

وقيل لبعضهم: ما المروءة؟ قال: طهارة البدن، والفعل الحسن. وقيل لمحمد بن عِمران: ما المروءة؟ قال: ألا تعمل في السر شيئًا تستحي منه في العلانية. وقيل للأحنف: ما المروءة؟ قال: العِفَّة والحِرفة. وقال طلحة بن عُبيد الله: المروءة الظاهرة الثياب الطاهرة. وقيل لأبي هُريرة: ما المروءة؟ قال: تقوى الله، وإصلاح الصنيعة، والغداء والعشاء بالأفنية.

ونظر بكر بن الأشعر — وكان سجَّانًا — مرةً إلى سور دار بَجالة بن عَبْدة، فقال: لا إله إلا الله، أيُّ سجنٍ يجيء من هذا؟ وقال إنسانٌ صَيرَفي: باعَني فلان عشرين جَريبًا ودانقَين ونصفًا ذهبًا.

ونظر عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه إلى عِيرٍ مُقبِلة، فقال لأبي ذر: ما كنت تُحب أن تحمل هذه؟ فقال أبو ذر: رجالًا كأمثال عمر.[١٤٠]

وقيل للزُّهري: ما الزُّهد في الدنيا؟ قال: أما إنه ليس بشَعَث اللِّمَّة، ولا قَشَف الهيئة، ولكنه ظَلْف النفس عن الشهوة. وقيل للزهري: ما الزهد في الدنيا؟ قال: ألا يغلب الحرام صبرك، ولا الحلال شكرك. ونظر زاهد إلى فاكهة في السوق، فلما لم يجد شيئًا يبتاعها به عزَّى نفسه وقال: يا فاكهة، موعدي وإيَّاك الجنة.

قال: مرَّ المسيح، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه، بخلق من بني إسرائيل فشتموه، فكلما قالوا شرًّا قال المسيح خيرًا، فقال له سمعان الصفا: أكلما قالوا شرًّا قلت خيرًا؟ قال المسيح صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه: كلُّ امرئٍ يُعطي ما عنده.

وقال بعضهم: قيل لامرئ القيس بن حُجر: ما أطيب عيش الدنيا؟ قال: بيضاء رُعبوبة، بالطِّيب مشبوبة، بالشَّحم مكروبة. وسئل عن الدنيا الأعشى فقال: صَهباء صافية، تَمزجها ساقية، من صوبِ غادية. وقيل مثل ذلك لطرفة فقال: مَطعمٌ شهي، ومَلبس دفي، ومَركبٌ وطي.

وقال: كان محمد بن راشد البجلي يتغدى، وبين يدَيه شبُّوطة، وخيَّاط يقطع له ثيابًا وراءه يلحظ الشبوطة، فقال: قد زعمت أن الثوب يحتاج إلى خِرقة، فكم مقدارها؟ قال: ذراع في عرض الشبوطة.

ودخل آخر على رجلٍ يأكل أُترُجَّة بعسل، فأراد أن يقول السلام عليكم، فقال: عَسَلَيكم.

ودخلت جاريةٌ روميَّة على راشد البُستي لتسأل به عن مولاتها، فبصرت بحمار قد أدلى في الدار، فقالت: قالت مولاتي: كيف أيْر حماركم؟ فيما زعم أبو الحسن المدائني.

وأنشد ابن الأعرابي:

وإذا أظهَرتَ أمرًا حسَنًا فلْيَكُن أحسَنَ منه ما يُسَر
فمُسِرُّ الخيرِ موسومٌ به ومُسِرُّ الشرِّ موسومٌ بِشَر

---

[١٤٠] كأمثال عمر: كان في الأصل: لأمثل عمري، وعندي أنه خطأ، ولعل الصواب ما أثبته.

وأنشد ابن الأعرابي:

أرى الناسَ يَبْنونَ الحُصونَ وإنَّما غوائلُ آجالِ الرِّجالِ حُصونُها
وإنَّ من الأعمالِ دُونًا وصالحًا فصالِحُها يَبْقى ويَهلِكُ دُونُها

وأنشد ابن الأعرابي:

حَسبُ الفتى من عَيشِه زادٌ يُبلِّغُه المَحلَّا
خُبزٌ وماءٌ باردٌ والظلُّ حين يُريدُ ظِلَّا

وقال بعض الأعراب:

وما العَيشُ إلَّا شَبعةٌ وتَشرُّقٌ وتَمرٌ كأخفافِ الرَّباعِ وماءُ

محمد بن حرب الهلالي قال: قلت لأعرابي: إني لك لوادٌّ. قال: وإن لك من قلبي لرائدًا. قال: وأتيت أعرابيًّا في أهله مسلِّمًا عليه، فلم أجده، فقالت امرأته: عشَّر الله خُطاك. أي جعلها عشرة أمثالها.

وكان مُسلم بن قُتيبة يقول: لم يضيِّع امرؤٌ صواب القول حتى يضيِّع صواب العمل.

(٤٠) ما يجب على الآباء للأبناء

أبو الحسن قال، قال الحجَّاج لمعلِّم ولده: علِّم ولدي السباحة قبل الكتابة؛ فإنهم يُصيبون من يكتب عنهم، ولا يُصيبون من يسبح عنهم.

أبو عَقيل بن دُرُست قال: رأيت أبا هاشم الصوفي مُقبِلًا من جهة النهر، فقلت له: في أي شيء كنت اليوم؟ قال: في تعلُّم ما ليس يُنسى، وليس لشيء من الحيوان عنه غِنًى. قلت: وما ذاك؟ قال: السباحة.

حدَّثنا علي بن محمد وغيره قال: كتب عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، إلى ساكني الأمصار: أما بعد، فعلِّموا أولادكم السباحة والفروسية، ورَوُّوهم ما سار من المَثل، وحسُن من الشِّعر.

وقال ابن التوءم: علِّمِ ابنك الحساب قبل الكتاب؛ فإن الحُسَّاب أكسب من الكُتَّاب، ومؤنة تعلُّمه أيسر، ووجوه منافعه أكثر. وكان يُقال: لا تعلِّموا بناتكم الكتاب، ولا

تُرَوُّوهن الشِّعر، وعلِّموهن القرآن، ومن القرآن سورة النور. وقال آخر: بنو فلانٍ يُعجِبهم أن يكون في نسائهم إباضيَّات، ويؤخَذون بحفظ سورة النور. وكان ابن التوءم يقول: من تمام ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء أن يعلِّموهم الكتاب والحساب والسباحة.

خطب رجلٌ امرأةً أعرابية فقالت له: سَل عني بني فلان وبني فلان وبني فلان. فعدَّت قبائل. قال: وما عِلمهم بك؟ قالت: في كلهم قد نكحت. قال: أرى بك جَلَنفعةً قد حزمتك الحزائم. قالت: لا، ولكني جوَّالة بالرجل شمريس.

وقال الفرزدق لامرأته نَوار: كيف رأيت جريرًا؟ قالت: رأيتك ظلمتَه أولًا ثم شغَرتَ عنه برِجلك آخِرًا. قال: أنا أنِي؟ قالت: نعم، أما إنه قد غلبك في حُلوه، وشارَكك في مُرِّه.

وتغدَّى صَعصَعة بن صُوحان عند معاوية يومًا، فتناوَل من بين يدَي معاوية شيئًا، فقال: يا ابن صُوحان، لقد انتجعت من بعيد. قال: من أجدَبَ انتجَع.

وبَصُر الفرزدق بجرير مُحرِمًا فقال: والله أفسدت على ابن المَراغة حجَّه. ثم جاءه مُستقبلًا له، فجمزه بمِشقصٍ كان معه، ثم قال:

إنَّكَ لاقٍ بالمَشاعرِ من مِنًى ... فَخارًا فخبِّرْني بمَن أنتَ فاخرُ

فقال جرير: لَبَّيك اللهم لَبَّيك. ولم يُجِبه.

وأُدخل مالك بن أسماء سجن الكوفة، فجلس إلى رجل من بني مُرة، فاتَّكأ المُري عليه يُحدثه حتى أكثر وغمَّه، ثم قال: هل تدري كم قتلنا منكم في الجاهلية؟ قال مالك: أما في الجاهلية فلا، ولكني أعرف من قتلتم منا في الإسلام. قال المُري: ومن قتلنا منكم في الإسلام؟ قال: أنا، قد قتلتني وغمًّا.

ودخل رجل من مُحارب قيس على عبد الله بن زيد الهلالي، وهو عامل على أرمينية، وقد بات في موضع غدير قريب منه فيه ضفادع، فقال عبد الله للمُحاربي: ما تركَتنا أشياخ مُحارب ننام في هذه الليلة لشدة أصواتها. قال المحاربي: أصلح الله الأمير، إنها أضلَّت بُرقعًا لها فهي في بِغائه. أراد الهلالي قول الأخطل:

تَنِقُّ بِلا شَيءٍ شُيوخُ مُحارِبٍ ... وما خِلتُها كانت تَرِيشُ ولا تَبْري
ضفادعُ في ظَلْماءِ لَيلٍ تَجاوَبَت ... فدلَّ عليها صوتُها حيَّةَ البَحرِ

وأراد المُحاربي قول الشاعر:

لكلِّ هِلاليٍّ من اللُّؤمِ بُرقُعٌ ولابْنِ هِلالٍ بُرقُعٌ وقَميصُ

وقال العُتبي:

رأينَ الغَواني الشَّيبَ لاحَ بعارِضي فأعرَضنَ عنِّي بالخُدودِ النَّواضِرِ
وكُنَّ إذا أبصَرنَني أو سمِعنَ بي سعَينَ فرَقَّعنَ الكُوى بالمَحاجِرِ
لئن حُجِبَت عنِّي نواظرُ أعيُنٍ رمَينَ بأحداقِ المَها والجآذِرِ
فإنِّيَ من قومٍ كِرامٍ أصولُهم لأقدامِهم صِيغَت رُءوسُ المَنابِرِ
خلائفُ في الإسلامِ في الشِّركِ قادةٌ بهم وإليهم فَخرُ كلِّ مُفاخِرِ

قال لَبيد:

والشَّاعِرونَ الناطِقونَ إذا هُمُ سلَكوا طريقَ مُرَقِّشٍ ومُهلهِلِ

وقال آخر:

أم مَن لِبابٍ إذا ما اشتدَّ حاجِبُه أم مَن لخَصمٍ بَعيدِ الغَورِ مِغوارِ

وقال حاجب بن دينار المازني:

ونحنُ بَنُو الفَحلِ الذي سالَ بَولُه بكلِّ بلادٍ لا يَبُولُ بها فَحْلُ
أبى الناسُ والأقلامُ أنْ يَحسِبوهمُ إذا حصَلَ الأخماسُ أو يُحسَبَ الرَّملُ
فإنْ غَضِبوا شدُّوا المَشارفَ منهمُ مُلوكٌ وحُكامٌ كَلامُهمُ فَصْلُ

وقال أعرابي من بني حنيفة وهو يمزح:

مرَّ الجرادُ على زَرْعي فقلتُ له الزَمْ طريقَكَ لا تُولَعْ بإفسادِ
فقام منهم خطيبٌ فوقَ سُنبلةٍ إنَّا على سَفرٍ لا بُدَّ من زادِ

وقال آخر يهجو بعض الخطباء:

يُمانُ ولا يَمُونُ وكانَ شيخًا   شديدَ اللَّقْمِ صِلقامًا خطيبا

ذهب إلى قول الأحوص:

ذهبَ الذين أُحبُّهم فَرَطًا   وبَقِيتُ كالمَقمورِ في خَلْفِ
من كلِّ مَطويٍّ على عُنُقٍ   مُتضجِّعٍ يُكْفى ولا يَكْفي

وقال الحسن بن هانئ:

إذا نابَه أمرٌ فإمَّا كفَيتَه   وإمَّا عليه بالكَفِيِّ تُشيرُ

وقال آخر:

ذَرِينيَ لا أعيا بما حلَّ ساحتي   أَسُودُ وأُكْفى أو أُطيعُ المُسوَّدا

وقال بشَّار:

وفي العَبَراتِ الغُرِّ صَبرٌ على النَّدى   أولئك حيٌّ من حزيمةَ أغلَبُ
وألأمُ من يمشي ضبيعةُ إنَّهم   زعانفُ لم يَخطُبْ إليهم مُحجَّبُ

وكذلك قول أعشى بني ثعلبة:

ما ضرَّ غازي نِزارٍ أنْ يُفارِقَه   كَلبٌ وجَرمٌ إذا أبناؤه اتَّفقوا
قالت قُضاعة إنَّا من ذوي يَمَنٍ   اللهُ يَعلَمُ ما بَرُّوا ولا صدَقوا
يَزدادُ لحمُ المَناقي في مَنازِلنا   طِيبًا إذا عزَّ في أعدائِنا المَرَقُ
وما خطَبْنا إلى قومٍ بَناتِهِم   إلا بأرعَنَ في حافاتِه الحُرَقُ

قوله «خطبنا» ها هنا من الخِطبة، وقولهم في الشعر الأول من الخُطبة.
وقال بلعاء بن قيس:

أَبَيتُ لنَفْسي الخَسْفَ لمَّا رَضُوا به   ودلَّيتُهم شَتْمي وما كنتُ مُفحَما

وقال بلعاء بن قيس لسُراقة بن مالك بن جعثم:

أَلَا أبلِغْ سُراقةَ بنَ مالكٍ ... فبئسَ مَقالةُ الرَّجلِ الخطيبِ
أَتَرْجو أنْ تَئُودَ بظَعنِ لَيثٍ ... فهذا حينَ تُبصِرُ من قريبِ

وقال منصور الضبِّي:

ليتَ الفتى عَجْردًا منَّا مكانَهمُ ... وليتَهم من وراءِ الأخضرِ الجاري
قد قامَ سيِّدُهم عِمرانُ يَخطُبُهم ... ما كانَ للخيرِ عِمرانٌ بأمَّارِ

تقول العرب: الخَلَّة تدعو إلى السَّلَّة. وكانوا إذا أَسَروا أسيرًا قال المادح: أَسَرَه في مزاحفة ولم يأسره في سَلَّة. وفي الحديث: «لا إسلال ولا إغلال.» وفي المثل: الحاجة تفتح باب المعرفة.

ونذكر هنا أبيات شعر تصلح للرواية والمذاكرة:

قال سُوَيد المراثد الحارثي أو غيره:

بَنِي عمِّنا لا تَذكُروا الشِّعرَ بعدَما ... دفَنتُم بصحراءِ الغَميمِ القوافيا
فلَسْنا كمَن كنتُم تُصيبونَ سَلَّةً ... فنَقبَلَ عَقلًا أو نُحكِّمَ قاضيا
ولكنَّ حُكْمَ السَّيفِ فيكم مُسلَّطٌ ... فنَرْضى إذا ما أصبَحَ السيفُ راضيا
فإنْ قلتُمُ إنَّا ظُلِمْنا فإنَّكم ... بدأتُم ولكنَّا أسأنا التقاضيا
وقد ساءني ما جرَّتِ الحَربُ بيْنَنا ... بَنِي عمِّنا لو كانَ أمرًا مُدانِيا

وقال ضابئ بن حارث:

ورُبَّ أمورٍ لا تَضِيرُكَ ضَيْرةً ... وللقلبِ من مَخْشاتِهنَّ وَجيبُ[١٤١]

وقال حارثة بن بدر:

وقُل للفؤادِ إنْ نزا بِكَ نَزْوةً ... من الرَّوعِ أفرِخْ أكثَرُ الرَّوعِ باطِلُه[١٤٢]

---

١٤١ وجيب: اضطراب وخفوق.

١٤٢ نزا: اضطرب وكاد يثب من مكانه. أفرخ روعه: هدأ واطمأن.

وقال لَبيد:

واكْذِبِ النَّفْسَ إذا حدَّثتَها إنَّ صِدقَ النَّفْسِ يُزْري بالأمَلْ

وقال الشاعر، وهو حبيب بن أوس الطائي:

وطولُ مُقامِ المَرءِ في الحيِّ مُخلِقٌ لِديباجتَيه فاغترِبْ تَتجدَّدِ[١٤٣]
فإنِّي رأيتُ الشمسَ زِيدَت مَحبَّةً إلى الناسِ أنْ ليستْ عليهم بسَرمَدِ[١٤٤]

وقال آخر:

هو الشمسُ إلَّا أنَّ للشَّمسِ غَيْبةً وهذا الفَتى الجَرميُّ ليس يَغِيبُ
يَرُوحُ ويَغْدو ليس يَفتُرُ ساعةً وإنْ قِيلَ ناءٍ منك فهْو قَريبُ

وقال آخر:

خِلافًا لقَولي من فَيالةِ رأيِه كما قيلَ قبلَ اليومِ خالِفْ فتُذكَرا

وقال حارثة بن بدر:

إذا ما متُّ سرَّ بَنِي تَميمٍ على الحَدَثانِ لو يَلقَونَ مِثْلي
عدوٌّ عدوِّهم أبدًا عدوِّي كذلك شِكلُهم أبدًا وشِكْلي

وهو شبيه بقول الأعشى:

عُلِّقتُها عَرَضًا وعُلِّقتْ رَجُلًا غَيْري وعُلِّقَ أخرى غيْرَها الرَّجلُ

وقال عمرو لمعاوية: من أصبَرُ الناس؟ قال: من كان رأيه رادًّا لهواه.

واختلفوا بحضرة الزُّهري في معنى قول القائل: فلانٌ زاهد. فقال الزهري: الزاهد الذي لا يغلب الحرام صبره، ولا الحلال شكره.

---

[١٤٣] مخلق لديباجتيه: مُبلٍ لجِلدة وجهه، والمُراد مُزيل لماء وجهه.

[١٤٤] بسرمد: بدائم.

وقال ابن هُبيرة وهو يؤدِّب بعض بنيه: لا تكوننَّ أول مُشير، وإيَّاك والهوى والرأيَ الفَطير، وتجنَّبِ ارتجال الكلام، ولا تُشِر على مُستبد، ولا على وغد، ولا على متلوِّن، ولا على لجوج، وخَفِ الله في موافقة هوى المُستشير؛ فإن التماس موافقته لؤم، وسوء الاستماع منه خيانة. وقال: من كثُر كلامه كثر سقَطُه، ومن ساء خُلقُه قلَّ صديقه.

وقال عمر للأحنف: من كثُر ضحكه قلَّت هيبته، ومن أكثر من شيء عُرِف به، ومن كثُر مزاحه كثر سقطُه، ومن كثُر سقَطُه قلَّ ورعه، ومن قلَّ ورعه ذهب حياؤه، ومن ذهب حياؤه مات قلبه.

(٤١) وصية المهلَّب لبنيه

وقال المهلَّب:[١٤٥] يا بَني، تَباذَلوا تَحابُّوا؛ فإن بني الأم يختلفون، فكيف بنو العَلَّات. إن البِرَّ ينسأ في الأجل، ويزيد في العدد، وإن القطيعة تورث القِلَّة، وتُعقب النار بعد الذِّلَّة. واتقوا زلَّة اللسان؛ فإن الرجل تزلُّ رجله فينتعش، ويزلُّ لسانه فيهلك. وعليكم في الحرب بالمكيدة؛ فإنها أبلغ من النجدة؛ فإن القتال إذا وقع وقع القضاء، فإن ظَفِر فقد سَعِد، وإن ظُفِر به لم يقولوا فرَّط.

ولقي الحسين، رضي الله تعالى عنه، الفرزدق فسأله عن الناس، فقال: القلوب معك، والسيوف عليك، والنصر في السماء.

---

[١٤٥] المهلب: هو المهلَّب بن أبي صُفرة، واسم أبي صفرة ظالم بن سراق، وكان من أزد العتيك، أزد دبا، ودبا مكان فيما بين عمان والبحرين. نزل أبو صُفرة البصرة، وبها نشأ ولده المهلَّب على ما تنشَّأ عليه أبناء السادة والرءوس. وكان سيدًا نبيلًا، وشجاعًا باسلًا، وفارسًا مِغوارًا، وقائدًا مُحكمًا، وفقيهًا عاقلًا. وكان في الحرب ذا حِيَل ومَكايد، وفي السِّلم ذا فِطن ومَحامد. لما اشتدَّ أمر الخوارج وخيف على الدولة منهم بعد أن عجزت جيوشها وقُوادها عنهم، أجمع الرؤساء والأشراف وأصحاب الرأي في البصرة على التوجه إلى المهلب، والرغبة إليه في أن يتولَّى حربهم، وقالوا له: إنما اخترناك إيثارًا للدين، وكل من في مصرك ماد عينه إليك، راجٍ أن يكشف الله عز وجل هذه الغُمَّة بك. فقَبِل ذلك واشترط ما شاء عليهم مما يضمن الفوز له والأمن لهم. وبعد أن أعدَّ العُدَّة خرج إلى الخوارج وصمد لهم هو وأولاده الأبطال ومن معهم من الجند يُراوحهم القتال ويُغاديهم زهاءَ اثنتَي عشرة سنة حتى مزَّق شملهم، وفرَّق جمهم. وكان الخوارج يُسمُّونه الساحر، وينعتونه بالكذاب؛ حقدًا منهم عليه. ثم ولي خراسان خمس سنين. ومات بمَرو الروز سنة ٨٣هـ/٧٠٢م.

وقال بعضهم: حُجِب أعرابي على باب السلطان، فقال:

أُهِينُ لهم نَفْسي لأُكرِمَها بهم ولا يُكرِمُ النَّفْسَ الذي لا يُهِينُها

وقال جرير:

قومٌ إذا حضَرَ المُلوكَ وُفودُهم نُتِفتْ شوارِبُهم على الأبوابِ

وقال آخر:

نَهَيتُ جميعَ الحَضرِ عن ذِكرِ خُطَّةٍ يُدبِّرُها في رأيِه ابنُ هِشامِ
فلمَّا ورَدتُ البابَ أيقَنتُ أنَّنا على اللهِ والسلطانِ غيرُ كِرامِ

وقال آخر:

وافى الوفودُ فوافى من بَنِي جَمَلٍ بِكْرُ الحَمَالةِ قاني السِّنِّ عُرزُومُ[١٤٦]

وقال تميم:

فَدَيتُكِ أن لا تُسمِعيني مَلامةً ولا تَنْكئي قُرْحَ الفؤادِ فَيَيجَعا

وقال آخر:

قليلَ التَّشكِّي للمَصائبِ ذاكرًا منَ اليومِ أعقابَ الأحاديثِ في غَدِ

وقالوا: أشَدُّ من الموت ما يُتمنَّى له الموت.
وقال الفرزدق وهو يصف طعنةً:

يَودُّ لكَ الأدنَونَ لو متَّ قبْلَها يرَونَ بها شرًّا عليكَ من القتلِ

وقيل للأحنف: ما بلَغ من حَزمِك؟ قال: لا أَلِي ما كُفِيت، ولا أُضيع ما وَلِيت.

---

[١٤٦] عرزوم: شديد مجتمع.

وقال آخر: لا تُقيموا ببلاد ليس فيها نهرٌ جارٍ، وسوقٌ قائمة، وقاضٍ عَدْل.

وقالوا: لا تُبْنى المدن إلا على الماء والمَرعى والمُحتطَب.

وقال مالك بن دينار:[١٤٧] لربَّما رأيت الحجَّاج يتكلم على مِنبره، ويذكر حُسْن صنيعه إلى أهل العراق وسوء صنيعهم إليه، حتى إنه ليُخيَّل إليَّ أنه صادقٌ مظلوم.

أبو عبد الله الثقفي، عن عمه قال، سمعت الحسن يقول: لقد وقَذتني كلمةٌ سمعتها من الحجاج. قلت: وإن كلام الحجاج ليَقِذك؟ قال: نعم، سمعته على هذه الأعواد يقول: إن امرأً ذهبت ساعةٌ من عمره في غير ما خُلِق له لحَريٌّ أن تطول عليها حسرته.

وقال بعضهم: كان يُقال: ما وجدنا أحدًا أبلَغ في خير وشر من صاحب عبد الله بن سلَمة.

دخل الزِّبرِقان بن بدر على زياد، وقد كُفَّ بصره، فسلَّم تسليمًا جافيًا، فأدناه زياد فأجلسه معه، وقال: يا أبا عيَّاش، القوم يضحكون من جفائك. قال: وإن ضحكوا فوالله إن منهم رجلًا إلا يودُّ أني أبوه دون أبيه لغِيَّة أو لرِشْدة.[١٤٨]

ونظر هشام بن عبد الملك إلى قبر عثمان بن حيَّان المُري فقال: جُثوةٌ من جُثى النار.

وكان يُقال: صاحب السوء قطعة من النار، والسفر قطعة من العذاب.

وكان يُقال: عذابان لا يكترث لهما الداخل فيهما؛ السفر الطويل، والبناء الكبير.

وقال رجل من أهل المدينة: من ثَقُل على صديقه خفَّ على عدوِّه، ومن أسرع إلى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون.

وقال سهل بن هارون: ثلاثةٌ يعودون إلى أجنِّ المجانين، وإن كانوا أعقل العقلاء؛ الغَضبان، والغَيران، والسَّكران. فقال له أبو عَبْدان المُخلَّع الشاعر: ما تقول في المُنعِظ؟ فضحك حتى استلقى ثم قال:

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمرٍو   بصاحِبِكِ الذي لا تَصْبَحينا

وقال أبو الدرداء: أقرب ما يكون العبد من غضَب الله إذا غَضِب.

وقال ناس: البخل قيد، والغضب جنون، والسُّكْر مِفتاح الشر.

---

[١٤٧] مالك بن دينار: يُكنى أبا يحيى. عالمٌ ناسك مشهور بالتقوى والورع. كان يكتب المصاحف ويعيش من أجرها. مات سنة ١٣١هـ/٧٤٨م.

[١٤٨] لغية أو لرشدة: لحرام أو لحلال.

وقال بعض البخلاء: ما نصَب الناس لشيء نصبهم لنا، هَبْهم يُلزموننا الذم فيما بيننا وبينهم، ما لهم يُلزموننا التقصير فيما بيننا وبين أنفسنا؟

وقال إبراهيم بن عبد الله بن حسن لأبيه: ما شِعر كُثَيِّر عندي كما يصف الناس. فقال أبوه: إنك لن تضع كُثَيِّرًا بهذا، إنما تضع بهذا نفسك.

وأنشد رجل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قول طَرَفة:

فلولا ثلاثٌ هُنَّ من عِيشةِ الفتى — وجَدِّكَ لم أحفِلْ متى قامَ عُوَّدي

فقال عمر: لولا أن أسير في سبيل الله، وأضع جبهتي لله، وأجالس أقوامًا ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب التمر، لم أُبالِ أن أكون قد مت.

وقال عامر بن عبد قيس: ما آسى من العراق إلا على ثلاث؛ على ظمأ الهواجر، وتجاوب المؤذِّنين، وإخوان لي منهم الأسود بن كُلثوم.

وقال آخر: ما آسى من البصرة إلا على ثلاث؛ رطب السكر، وليل الخرير، وحديث ابن أبي بَكرة.

وقال سهل بن هارون:

ولكنَّني أبْكي بعَينٍ سَخينةٍ — على جَلَلٍ تَبْكي له عَينُ أمثالي
فِراقِ خَليلٍ أو شَجًى يَستشِفُّني — لخَلَّةِ أمرٍ لا يقومُ لها مالي
فيا كَبِدي حتَّى متى القلبُ مُوجَعٌ — بثُكْلِ حَبيبٍ أو تَعذُّرِ إفضالِ
وما العيشُ إلا أنْ تَطُولَ بِنائلٍ — وإلا لقاءُ الأخِ ذي الخُلُقِ العالي[١٤٩]

وقال أعرابي:

لولا ثلاثٌ هُنَّ عَيشُ الدَّهرِ — الماءُ والنَّومُ وأمُّ عَمرِو — لَمَا خَشِيتُ من مَضيقِ القبرِ

وقال الأحنف: أربعٌ مَن كنَّ فيه كان كاملًا، ومن تعلَّق بخصلة منهن كان من صالحي قومه؛ دِين يُرشده، أو عقل يُسدده، أو حَسب يصونه، أو حياء يَقْناه.[١٥٠]

---

[١٤٩] تطول بنائل: تتطول بعطاء.

[١٥٠] يقناه: يحفظه.

وقال: المؤمن بين أربع؛ مؤمن يحسُده، ومُنافق يُبغِضه، وكافر يُجاهده، وشيطان يَفتنه. وأربع لَسْن أقلَّ منهن؛ اليقين، والعدل، ودرهم حلال، وأخ في الله.

وقال الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما: من أتانا لم يَعدم خصلةً من أربع: آيةً مُحكَمةً، أو قضيةً عادلة، أو أخًا مُستفادًا، أو مجالسة العلماء.

وقالوا: من أُعطيَ أربعًا لم يُمنَع أربعًا؛ من أُعطيَ الشكر لم يُمنَع المزيد، ومن أُعطي التوبة لم يُمنع القَبول، ومن أُعطي الاستخارة لم يُمنع الخِيَرة، ومن أُعطي المشورة لم يُمنع الصواب.

قال أبو ذر الغِفاري: كان الناس ورقًا لا شوك فيه، فصاروا شوكًا لا ورق فيه.

وقالوا: تعامل الناس بالدين حتى ذهب الدين، وبالحياء حتى ذهب الحياء، وبالمروءة حتى ذهبت المروءة، وقد صاروا إلى الرغبة والرهبة، وأحْرِ بهما أن تذهبا.

وقال بعضهم: دعا رجل عليَّ بن أبي طالب، كرَّم الله تعالى وجهه، إلى طعام، فقال: نأتيك على ألا تتكلف لنا ما ليس عندك.

وقال الحُصين بن المُنذر:

وكلُّ خفيفِ السَّاقِ يَسْعى مُشمِّرًا إذا فتحَ البوَّابُ بابَك إصبَعا
ونحنُ الجُلوسُ الماكِثونَ تَوقُّرًا حياءً إلى أن يُفتَحَ البابُ أجْمَعا

وقال آخر:

ونَفْسَكَ أكرِمْها فإنَّك إنْ تَهُنْ عليكَ فلنْ تَلْقى لها الدَّهْرَ مُكرِما

اعتذر أبو عَون إلى إبراهيم النَّخَعي[١٥١] فقال له: اسكت معذورًا؛ فإن الاعتذار يُخالطه الكذب.

أبو عمرو الزعفراني قال: كان عمرو بن عُبيد عند حفص بن سالم، فلم يسأله أحد من حشمه في ذلك اليوم شيئًا إلا قال: لا. فقال عمرو: أقِلَّ من قول لا؛ فإنه ليس في الجنة قول لا، وإن رسول الله ﷺ كان إذا سئل ما لا يجد قال: يصنع الله.

[١٥١] إبراهيم النخعي: هو إبراهيم بن يزيد النخعي، يُكنى أبا عمران. كان من جِلَّة التابعين، وكان عالمًا ورِعًا وفيه مزاح. قيل حُمِل العلم عنه وهو ابن ثماني عشرة سنة، ومات وهو ابن ست وأربعين سنة.

قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أكثِروا لهن من قول لا؛ فإن قول نعم يضرِّيهن على المسألة.

وإنما خصَّ عمر رضي الله تعالى عنه بذلك النساء.

(٤٢) كلمات لعلي بن أبي طالب في الدنيا

وقال بعضهم: ذمَّ رجل الدنيا عند علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، فقال عليٌّ: الدنيا دار صِدق لمن صدَقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنًى لمن تزوَّد منها، ومَهبِط وحي الله، ومصلَّى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومَتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة؛ فمن ذا الذي يذمُّها وقد آذنت ببَيْنها، ونادت بفِراقها، وشبَّهت بسرورها السرور، وببلائها البلاء، ترغيبًا وترهيبًا. فيا أيها الذامُّ للدنيا، المعلِّل نفسه، متى خدعتك الدنيا؟ أم متى استذمَّت إليك؟ أبمَصارع آبائك في البِلى، أم بمَضاجع أمهاتك في الثرى؟ كم مرَّضت بيدَيك، وكم علَّلت بكفَّيك، تطلب له الشفاء، وتستوصف له الأطبَّاء، غداةَ لا يُغني عنه دواؤك، ولا ينفعه بُكاؤك.

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: ما بال أحدكم ثانيَ وِسادِه عند امرأة مغيَّبة؟[١٥٢] إن المرأة لحم على وضَم إلا ما ذُبَّ عنه.

وقال بعضهم: مات ابنٌ لبعض العظماء فعزَّاه بعضهم فقال: عِش أيها الملك العظيم سعيدًا، ولا أراك الله بعد مصيبتك ما يُنسيكها.

ولما تُوفي معاوية جلس ابنه يزيد، ودخل عليه عطاء بن أبي صَيفي الثقفي فقال: يا أمير المؤمنين، أصبحتَ وقد رُزئت خليفة الله، وأُعطيت خلافة الله، وقد قضى معاوية نَحبَه، فغفر الله ذنبه، وقد أُعطيت بعده الرئاسة، ووليت السياسة، فاحتسِبْ عند الله أعظم الرزيَّة، واشكره على أفضل العطيَّة.

ولما تُوفي عبد الملك وجلس ابنه الوليد، دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنِّئونه أم يُعزُّونه، فأقبل غَيلان بن مَسلمة الثقفي فسلَّم عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين، أصبحتَ قد

قال أبو عون: كنت في جنازة إبراهيم فما كان فيه إلا سبعة أنفُس. وقال الأصمعي: مات إبراهيم سنة ٩٦هـ/٧١٤م.

[١٥٢] المغيبة: هي المرأة التي غاب عنها زوجها.

رُزئت خير الآباء، وسُميت خير الأسماء، وأُعطيت أعظم الأشياء، فعظَّم الله لك على الرزيَّة الصبر، وأعطاك في ذلك نوافل الأجر، وأعانك على حسن الولاية والشكر، ثم قضى لعبد الملك بخير القضية، وأنزله بأشرف المنازل المَرْضية، وأعانك من بعده على الرعية. فقال له الوليد: من أنت؟ فانتسب له. قال: في كم أنت؟ قال: في مائة دينار. فألحقه بأهل الشرف.

ولما تُوفي المنصور دخل ابن عُتبة مع الخطباء على المهدي فسلَّم، قال: آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلَّفه له أمير المؤمنين بعده؛ فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين، ولا عُقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطيَّة، واحتسبْ عند الله أعظم الرزيَّة.

وكتب ميمون بن مهران[١٥٣] إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى يعزِّيه عن ابنه عبد الملك، فكتب إليه عمر: كتبتَ إليَّ تعزِّيني عن ابني عبد الملك، وهو أمر لم أزَل أنتظره، فلما وقع لم أُنكِره.

وقال الشاعر:[١٥٤]

تَعزَّيتُ عن أوفى بغَيلانَ بَعدَه عَزاءً وجَفنُ العَينِ مَلآنُ مُترَعُ[١٥٥]
ولم تُنسِني أوفى المُصيباتُ بَعدَه ولكنَّ نَكْأَ القَرحِ بالقَرحِ أوجَعُ

وقيل: قدِّم ما عندك ولا تدَّخر عنا ما عندك.

وقال آخر: كان شيخٌ يأتي ابن المقفع، فألحَّ عليه يسأله الغداء عنده، وفي ذلك يقول: إنك تظن أني أتكلَّف لك شيئًا؟ لا والله، لا أقدِّم إليك إلا ما عندي. قال: فلما أتاه إذا ليس في مَنزله إلا كِسرةٌ يابسة ومِلحٌ جَريش. ووقف سائل بالباب فقال له: بُورِك فيك. فلما لم يذهب قال: والله لئن خرجت إليك لأدقَّنَّ ساقَيك. فقال ابن المقفع للسائل: إنك لو تعرف مِن صِدق وعيده مِثلما أعرف مِن صِدق وعده لم تُرادَّه كلمةً، ولم تقِف طرفةَ عين.

---

[١٥٣] ميمون بن مهران: كان هو وابنه عمرو بن ميمون على الرِّق فأُعتقا. وكان ميمون بزَّازًا، ومع هذا فقد ولَّاه عمر بن عبد العزيز على خراج الجزيرة، فكان ميمون يجلس في حانوته وهو يتولى الخراج. مات سنة ١١٧هـ/٧٣٥م.

[١٥٤] الشاعر هو مسعود بن عُقبة أخو ذي الرُّمَّة، وهذا الشعر رثا به ذا الرُّمَّة.

[١٥٥] أوفى: هو أخو مسعود وذي الرمة. وغيلان: هو ذو الرمة الشاعر المشهور.

وكان يُقال: أول العلم الصمت، والثاني الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العمل به، والخامس نشره.

وكان يُقال: لا وحشةَ أوحَشُ من عُجْب، ولا ظهير أعوَنُ من مَشورة، ولا فقر أشدُّ من عدم العقل.

وقال مؤرِّق العِجلي: ضاحكٌ مُعترفٌ بذنبه، خيرٌ من الباكي المُدلِّ على ربه. وقال: خير من العُجب بالطاعة ألا يأتيَ بالطاعة.

وقال شبيب لأبي جعفر: إن الله لم يجعل فوقك أحدًا، فلا تجعلنَّ فوق شكرك شكرًا.

وقال آخر لأبي جعفر في أول رَكبة ركِبها: إن الله قد رأى ألا يجعل أحدًا فوقك، فَرَ نفسك أهلًا ألا يكون أحدٌ أطوَعَ لله منك.

وسفِه رجل على ابن له، فقال: والله لأنا أشبَهُ بك منك بأبيك، ولأنت أشَدُّ تحصينًا لأمي من أبيك لأمك.

وقال عمرو بن عُبيد لأبي جعفر: إن الله قد وهب لك الدنيا بأسْرها، فاشترِ نفسك منه ببعضها.

وقال الأحنف: ثلاث لا أناة فيهن عندي. قيل: وما هن يا أبا بحر؟ قال: المبادرة بالعمل الصالح، وإخراج ميتك، وأن تُنكح الكُفء أيِّمَك. وكان يقول: لأفعى تَحكَّكُ في ناحية بيتي أحَبُّ إليَّ من أيِّم ردَدتُ عنها كفؤًا. وكان يُقال: ما بعد الصواب إلا الخطأ، وما بعد منعهن من الأكْفاء إلا بَذلُهن للسِّفلة والغَوغاء.

وكان يُقال: لا تطلبوا الحاجة إلى ثلاثة؛ إلى كَذوب فإنه يقرِّبها وإن كانت بعيدة، ويباعدها وإن كانت قريبة؛ ولا إلى الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرَّك، ولا إلى رجل له إلى صاحب الحاجة حاجة؛ فإنه يجعل حاجتك وقايةً لحاجته.

وكان الأحنف يقول: لا مروءة لكذوب، ولا سؤدد لبخيل، ولا ورع لسيِّئ الخُلق.

وقال الشعبي: عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرُّك؛ فإنه ينفعك، واجتنِبِ الكذب في موضعٍ ترى أنه ينفعك؛ فإنه يضرُّك.

وقالوا: لا تصرِفْ حاجتك إلى من معيشته من رءوس المكاييل وألسنة الموازين.

وقالوا: انفرد الله عز وجل بالكمال، ولم يبرِّئ أحدًا من النُّقصان.

وقال عامر بن الظَّرِب العَدواني: يا معشر عَدْوان، إن الخير ألوفٌ عَزوف، ولن يُفارق صاحبه حتى يُفارقه، وإني لم أكُن حليمًا حتى اتَّبعت الحُلماء، ولم أكن سيدكم حتى تعبَّدت لكم.

وقال الأحنف: لأن أُدعى من بعيدٍ أَحَبُّ إليَّ من أن أُقصى من قريب. وكان يقول: إياك وصدرَ المجلس وإنْ صدَّرك صاحبه؛ فإنه مجلس قُلْعة.

وقال زياد: ما أتيت مجلسًا قطُّ إلا تركت منه ما لو أخذته كان لي، وترك ما لي أَحَبُّ إليَّ من أخذ ما ليس لي.

وقال الأحنف: ما كشفت أحدًا عن حالي عنده إلا وجدتها دون ما كنت أظن.

وأثنى رجل على علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فأفرط، وكان عليٌّ له متَّهِمًا، فقال: أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك.

وكان يُقال: خمس خصال تكون في الجاهل: الغضب في غير غضب، والكلام في غير نفع، والعطية في غير موضع، والثقة بكل أحد، وألا يعرف صديقه من عدوه.

وأثنى أعرابي على رجل فقال: إنَّ خيرك لسريح، وإنَّ منعك لُمريح، وإنَّ رِفدك لربيح.

وقال سعيد بن سَلْم: كنت واليًا بأرمينية، فغبَر أبو زهمان العلَّاتي على بابي أيامًا، فلما وصل إليَّ مثَل بين يدَي قائمًا بين السِّماطَين، وقال: والله إني لأعرف أقوامًا لو علِموا أن سفَّ التراب يُقيم من أود أصلابهم لجعلوه مُسْكة لازمًا فيهم؛ إيثارًا للتنزُّه عن عيش رقيق الحواشي. أمَا والله إني لبعيدُ الوَثبة، بطيء العَطفة. إنه والله ما يَثنيني عليك إلا مِثل ما يصرفني عنك، ولأن أكون مُقِلًّا مقرَّبًا أَحَبُّ إليَّ من أن أكون مُكثِرًا مُبعَدًا. والله ما نسأل عملًا لا نضبطه، ولا مالًا إلا نحن أكثر منه. وهذا الأمر الذي صار في يدَيك كان في يد غيرك، فأمسَوا والله حديثًا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. فتحبَّبْ إلى عِباد الله بحُسن البِشر ولين الجانب؛ فإن حب عباد الله موصول بحب الله، وبُغضهم موصول ببغض الله؛ لأنهم شهداء الله على خلقه، ورقباؤه على من اعوجَّ عن سبيله.

ودخل عُتبة بن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام على خالد بن عبد الله القسري[١٥٦] بعد حجاب شديد، وكان عُتبة سخيًّا، فقال خالد يُعرِّض به: إن ها هنا رجالًا يُدانون في أموالهم، فإذا فَنِيت ادَّانوا في أعراضهم. فعَلِم عُتبة أنه يُعرِّض به، فقال: أصلح الله الأمير، إن رجالًا من الرجال تكون أموالهم أكثر من مروءاتهم، فأولئك تبقى

[١٥٦] خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كُرز البجلي ثم القسري، أحد وُلاة بني أمية على العراق، ثم عُزل وسُلِّم إلى يوسف بن عمر الذي تولَّى بعده من قِبل الوليد بن يزيد، فعذَّبه حتى أماته. وكان ذلك في سنة ١٢٦هـ/٧٤٣م.

لهم أموالهم، ورجالًا تكون مروءاتهم أكثر من أموالهم؛ فإذا نفِدت ادَّانوا على سَعة ما عند الله. فخَجِل خالد وقال: إنك لِمنهم ما علِمت.

وقيل لعبد الله بن يزيد بن أسد بن كُرز: هلَّا أجبتَ أمير المؤمنين إذ سألك عن مالك؟ قال: إنه إن استكثره حسدني، وإن استقلَّه حقرني.

أبو الحسن قال: وعظ عُروة بنيه فقال: تعلَّموا العلم؛ فإنكم إن تكونوا صغار قوم فعسى أن تكونوا كبار قوم آخرين. ثم قال: الناس بأزمانهم أشبَهُ منهم بآبائهم، وإذا رأيتم من رجلٍ خلةً فاحذروه، واعلموا أن عنده لها أخوات.

وقال رجل لرجل: هَبْ لي دُريهمًا. قال: أتصغِّره؟ لقد صغَّرت عظيمًا. الدرهم عُشْر العشرة، والعشرة عُشْر المائة، والمائة عُشْر الألف، والألف عُشْر الدِّية.

قال الأصمعي: خرجت بالدارمي قُرحةٌ في جوفه، فبزق بَزقةً خضراء، فقيل له: قد برئت إذ قد بزقتها خضراء. قال: والله لو لم يبقَ في الدنيا زُمرُدَّة خضراء إلا بزقتها ما نجوت.

مرَّ الوليد بن عبد الملك بمعلِّم صِبيان، فرأى جارية، فقال: وَيلَك ما لهذه الجارية؟ قال: أعلِّمها القرآن. قال: فليكن الذي يعلِّمها أصغر منها.

إسحاق بن أيوب قال: هرب الوليد بن عبد الملك من الطاعون، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، إن الله يقول: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. قال: ذلك القليل نريده.

وهرب رجل من الطاعون إلى النجف أيام شُريح، فكتب إليه: أما بعد، فإن الفرار لن يُبعد أجلًا، ولن يُكثر رزقًا، وإن المُقام لن يُقرِّب أجلًا، ولن يُقلل الرزق، وإن من بالنجف من ذي قدرة لَقريب.

ودخل على الوليد فتًى من بني مخزوم فقال له: زوِّجني ابنتك. فقال: هل قرأت القرآن؟ قال: لا. قال: أدْنوه مني. فأدنَوه فضرب عمامته بقضيبٍ كان في يده، وقرع رأسه به قرعات، ثم قال لرجل: ضُمَّه إليك، فإذا قرأ زوَّجناه.

ولما استعمل يزيد ابنَ أبي مُسلم بعد الحجَّاج قال: أنا كمن سقط منه درهم فوجد دينارًا. وقال يزيد لابن أبي مسلم: قال أبي للحجَّاج: إنما أنت جِلدة ما بين عينيَّ. وأنا أقول: إنك جلدة وجهي كله. ومع هذا إنه صَعِد المِنبر فقال: علي بن أبي طالب لُص ابن لُص، صُبَّ عليه شُؤبوب عذاب. فقال أعرابي كان تحت المنبر: ما يقول أميركم هذا؟ وفي

قوله: لص ابن لص، أعجوبتان؛ إحداهما رميه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه لِص، والأخرى أنه بلغ من جهله ما لم يجهله أحد؛ أنه ضم اللام في لص.

بكر بن عبد العزيز الدمشقي قال: سمعت الوليد بن عبد الملك على المِنبر حين ولي الخلافة وهو يقول: إذا حدَّثتكم فكذبتكم فلا طاعة لي عليكم، وإذا وعدتكم فأخلفتكم فلا طاعة لي عليكم، وإذا أغربتكم فجمَّرتكم فلا طاعة لي عليكم. فيقول مِثل هذا الكلام ثم يقول لأبيه: يا أمير المؤمنين، اقتل أبي فُدَيك. وقال مرةً أخرى: يا غلام، رُدَّ الفَرسان الصادَّان عن الميدان.

وقال عبد الملك: أضرَّ بالوليد حبُّنا له؛ فلم نوجِّهه إلى البادية.

ولحن الوليد على المنبر، فقال النكروس: لا والله إن رأيته على هذه الأعواد قط فأمكنني أن أملأ عيني منه؛ من كثرته في عيني وجلالته، فإذا لحن هذا اللحن الفاحش صار عندي كبعض أعوانه. وصلَّى يومًا الغداة فقرأ السورة التي تُذكَر فيها الحاقة فقال: يا ليتها كانت القاضية. فبلغت عمر بن عبد العزيز فقال: أما إنه إن كان قالها إنه لأحَدُ الأحَدِين.

قالوا: وكان الوليد ومحمد ابنا عبد الملك لحَّانَين، ولم يكن في ولده أفصح من هشام ومَسلمة.

وقال صاحب الحديث: أخبرني أبي، عن إسحاق بن قبيصة، قال: كانت كُتُب الوليد تأتينا ملحونة، وكذلك كُتُب محمد، فقلت لمولى محمد: ما بال كُتبكم تأتينا ملحونة وأنتم أهل الخلافة؟ فأخبره المولى بقولي، فإذا كتاب قد ورد عليَّ: أما بعد، فقد أخبرني فلان بما قلت، وما أحسبك تشكُّ أن قريشًا أفصح من الأشعَرين. والسلام.

ومن بني الصَّريم: الصُّدَيُّ بن الخَلَق، وفَد به الحجَّاج على الوليد بن عبد الملك، فقال له: ممَّن أنت؟ قال: من بني صَريم. قال له: ما اسمك؟ قال: الصدي بن الخلق. قال: دُعًّا في عنقه؛ خارجيٌّ خبيث.

هذا يدل على أن عامة بني صريم كانوا خوارج. وكان منهم البُرَك الصَّريمي، واسمه الحجَّاج، الذي ضرب معاوية بالسيف، وله حديث. والخزرج بن الصدي بن الخلق كان خطيبًا. وقال الشاعر في بني صَريم:

أُصلِّي حيثُ تُدرِكُني صلاتي وبئسَ الدِّينُ دِينُ بني صَرِيمِ
قيامًا يَطعَنونَ على مَعَدٍّ وكلُّهمُ على دِينِ الخَطِيمِ

والخطيم باهلي.

قال الأصمعي وأبو الحسن: دخل على الوليد بن عبد الملك شيخان، فقال أحدهما: نجدك تملك عشرين سنة. وقال الآخر: كذبت، بل نجده يملك ستين سنة. فقال الوليد: ما الذي قال هذا لائط بصَفَري، ولا ما قال هذا يغرُّ مِثلي، والله لأجمعن المال جمْعَ من يعيش أبدًا، ولأفرِّقنَّه تفريق من يموت غدًا.

وخطب الوليد فقال: إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول إن الحجَّاج جِلدةُ ما بين عينيَّ، ألا وإنه جِلدةُ وجهي كله.

باب اللحن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

قال أبو عثمان عمرو بن بحر: حدَّثنا عثَّام أبو يحيى، عن الأعمش، عن عِمارة بن عُمير، قال: كان أبو مَعمر يحدِّثنا فيلحن، يَتْبع ما سَمِع.

أبو الحسن قال: أوفد زيادٌ عُبيدَ الله بن زياد إلى معاوية، فكتب إليه معاوية: إن ابنك كما وصفت، ولكن قوِّم من لسانه. وكانت في عُبيد الله لُكنة؛ لأنه كان نشأ بالأساورة مع أمه مرجانة، وكان زياد تزوَّجها من شِيرويه الأسواري. وكان قال مرةً: افتحوا سيوفكم. يريد: سُلُّوا سيوفكم. فقال يزيد بن مُفرغ:

ويومَ فتَحتَ سَيفَكَ من بَعيدٍ　　　أضَعتَ وكلُّ أمرِك للضَّياعِ

ولما كلَّمه سُويد بن منجوف في الهَثهات بن ثور، قال له: يا ابن البَظراء. فقال له سُويد: كذبتَ على نساء بني سَدوس. قال: اجلس على است الأرض. قال سُويد: ما كنت أحسب أن للأرض استًا.

قالوا: قال بِشر بن مروان — وعنده عمر بن عبد العزيز — لغلام له: ادْعُ لي صالحًا. فقال الغلام: يا صالحًا. فقال له بشر: ألقِ منها ألِف. فقال له عمر: وأنت فزِدْ في ألِفك ألِفًا.

وزعم يزيد مولى عَون قال: كان رجل بالبصرة له جارية تُسمَّى ظَمياء، فكان إذا دعاها قال: يا ضمياء. بالضاد. فقال له ابن المقفع: قل يا ظمياء. فناداها: يا ضمياء. فلما غيَّر عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثًا قال: هي جاريتي أو جاريتك؟

قال نصر بن سيَّار: لا تُسمِّ غلامك إلا باسمٍ يخفُّ على لسانك.

وكان محمد بن الجهم ولَّى المكِّيَّ صاحب النظَّام موضعًا من مواضع كسكر، وكان المكي لا يُحسن أن يسمِّيَ ذلك المكان ولا يتهجَّاه ولا يكتبه، وكان اسم ذلك المكان «شانَمَثنا».

وقيل لأبي حنيفة: ما تقول في رجلٍ أخذ صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله، أتُقيده به؟ قال: لا، ولو ضرب رأسه بأبا قُبيس.

وقال يوسف بن خالد التيمي لعمرو بن عُبيد: ما تقول في دجاجة ذُبحت من قفائها؟ قال له عمرو: أحسِنْ. قال: من قفاؤها. قال: أحسِنْ. قال: من قفاءها. قال له: من عنَّاك هذا؟ قل من قفاها واسترِح. قال: وسمعت من يوسف بن خالد يقول: لا، حتى يشِجَّه. بكسر الشين. يريد: حتى يشُجَّه. بضم الشين. وكان يوسف يقول: هذا أحمر من هذا. يريد: هذا أشد حُمرةً من هذا.

وقال بِشر المريسي: قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه وأهنؤها. فقال قاسم التمَّار: هذا على قوله:

إنَّ سُلَيمى واللهُ يَكْلؤُها ضنَّت بشَيءٍ ما كانَ يَرزَؤُها

فصار احتجاج قاسم أطيبَ من لحن بِشر.

وقال مسلم بن سلَّام، حدَّثني أبان بن عثمان قال: كان زياد النَّبَطي شديد اللُّكنة، وكان نحويًّا. قال: وكان بخيلًا. دعا غلامه ثلاثًا، فلما أجابه قال: فمن لَدُن دَأَوتُك فقلت لَبَّي إلى أن أجبتني ما كنت تَصنَأ؟ يريد: من لَدُن دعوتُك إلى أن أجبتني ما كنت تصنع؟ قال: وكانت أم نُوح وبلال ابنَي جرير أعجمية. فقال لها: لا تتكلمي إذا كان عندنا رجال. فقالت يومًا: يا نوح، جُرْذَان دخل في عِجان أمك. وكان الجُرذ أكل من عجينها.

قال أبو الحسن: أُهدي إلى فيلٍ مولى زياد حِمارُ وحش، فقال لزياد: أهدَوا لنا هِمارَ وَهْش. قال: أيَّ شيء تقول وَيلَك؟ قال: أهدَوا إلينا أيْرًا. يريد عَيرًا. قال زياد: الثاني شر من الأول.

قال يحيى بن نوفل:

وإنْ يَكُ زَيدٌ فصيحَ اللِّسانِ ... خطيبًا فإنَّ اسْتَه تَلحَنُ
عـلـيكَ بِسُكٍّ ورُمَّـانـةٍ ... ومِلْحٍ يُدَقُّ ولا يُطحَنُ
وحِلْتِيتِ كَرْمَانَ أو نانَخاهُ ... وشمعٍ يُسخَّنُ في مُدْهُنِ[١]

وهذا الشعر في بعض معانيه يُشبه قول ابن مُناذر:[٢]

إذا أنـتَ تَـعـلَّـقـتَ ... بحبلٍ من أبي الصَّلتِ
تَـعلَّـقـتَ بـحـبـلٍ وا ... هِـنِ الـقـوَّةِ مُـنـبَـتِّ
فخُذْ من سلحِ كَيسانٍ ... ومن أظفارِ سُبُّخْتِ[٣]
ألـمْ يَبلُـغْك تَسْآلـي ... لـدى الـعلَّامـةِ الـبُرْتِ
وقالَ المرءُ ماسَرجيـ ... ـسُ داءُ المرءِ من تَحتِ[٤]

---

[١] حلتيت: هو مادة صمغية راتنجية تسيل من جذوع الأنجزان متى تشققت، ذات رائحة قوية وطعم مُر كريه، تذوب في مح البيض. وفي شرح المواليد أنها من أشد مضادات التشنج، ومُنبهة للوظائف الهضمية، ومدرة للطمث، طاردة للديدان المعوية. نانخاه: بذور ذات رائحة طيبة مقبولة، وهي مخرجة للرياح، وتُسمَّى عند العامة: نخوة.

[٢] ابن مناذر: هو محمد بن مناذر، مولى بني صبير بن يربوع، يُكنى أبا جعفر. كان شاعرًا فصيحًا، مقدَّمًا في العلم باللغة، إمامًا فيها، حجة في روايتها، أخذ عنه أكابر أهلها. وكان في مبدأ أمره مُتنسكًا مُتألهًا، ثم خلع وفتك وهجا الناس وقذف الأعراض، ونُفي من البصرة إلى الحجاز. وكان من جُلساء سفيان بن عُيينة. ولما ترك النسك والتأله وعظه المعتزلة ومنعوه دخول المسجد، فنابذهم وطعن عليهم وهجاهم، وكان يأخذ المِداد فيطرحه في مطاهرهم بالليل، فإذا توضَّئوا به سوَّد وجوههم وثيابهم. تُوفي سنة ١٩٨هـ/٨١٣م.

[٣] سلح كيسان، في نسخة: شعر كيسان، وما أثبتناه هو الأقرب إلى الصواب، وهو رواية ثعلب. وكيسان هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان النحوي. وسبخت: هو لقب لأبي عُبيدة معمر بن المثنى، الإمام الراوية المشهور.

[٤] ماسرجيس: هو ماسرجويه الطبيب البصري المشهور. كان سرياني اللغة، يهودي النِّحلة. وهو الذي تولَّى في أيام مروان بن الحكم تفسير كناش القس أهرن بن أعين إلى العربية، ووجده عمر بن عبد العزيز في خزائن الكتب، فأخرجه وبثَّه في الناس.

وقال البَردُخت:[٥]

لقد كان في عينَيكَ يا حفصُ شاغلٌ وأنفٍ كَثيلِ العَوْدِ عمَّا تَتبَّعُ[٦]
تُتبَّعُ لَحنًا في كلامٍ مُرقَّشٍ وخَلقُك مبنيٌّ على اللحنِ أجمَعُ
وعَينُك إقواءٌ وأنفُكَ مُكفَأٌ ووَجهُكَ إيطاءٌ فأنتَ المُرقَّعُ[٧]

وقال المَيْساني في هجائه أهل المدينة:

ولَحنُكمُ بتَقصيرٍ ومدٍّ وألأمُ من يَدِبُّ على العَفارِ

علي بن معاذ قال: كتبت إلى فتًى كتابًا، فأجابني، فإذا عنوان الكتاب: إلى ذاك الذي كتب إليَّ. وقرأت على عنوان كتاب لأبي أميَّة الشَّمَّري: للموتِ أنا قبله. وكتب ابن المرادي إلى بعض ملوك بغداد: جُعلتُ فِداك برحمتِه.

وقال إبراهيم بن سيَّار: أنا لا أقول «متُّ قبلك»؛ لأني إذا قلت «مت قبلك» مات هو بعدي، ولكن أقول: مت بدَلَك.

وكتب عِقال بن شبَّة بن عِقال إلى زُهير بن المُسيب:

للأميرِ المسيَّبِ بنِ زُهيرٍ من عِقالِ بنِ شبَّةَ بنِ عِقالِ

ولما كتب بَشير بن عُبيد الله على خاتَمه:

بشير بن عُبيد الله بالرحمنِ لا يُشرِكْ

قرأه أبوه على خاتمه، قال: هذا أقبَحُ من الشرك.

وقال عبد الملك بن مروان: اللَّحن هُجنة على الشريف، والعُجب آفة الرأي. وكان يُقال: اللحن في المنطق أقبح من آثار الجُدري في الوجه.

---

[٥] البردخت، في نسخة: البردحت، والذي أثبتناه هو الصواب. والبردخت: هو علي بن خالد الضبي، أحد بني السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة.

[٦] كثيل العود: كقضيب البعير.

[٧] الإقواء: اختلاف إعراب القافية. والإكفاء: اختلاف حروف القوافي. والإيطاء: تكرار القافية لفظًا ومعنًى.

وقال يحيى بن نوفل في خالد بن عبد الله القسري:

وألحَنُ النَّاسِ كلِّ النَّاسِ قاطبةً وكان يُولَعُ بالتَّشديقِ في الخُطَبِ

وزعم المدائني أن خالد بن عبد الله — وكان يُولَع بالتشديق — قال: إن كنتم رجبيُّون فإنا رمضانيُّون.

ولولا أن تلك العجائب قد صُححت على الوليد ما جوَّزت هذا على خالد.

قال: وكتب الحُصين بن الحُر كتابًا إلى عمر فلحن في حرف منه، فكتب إليه عمر: أن قنِّعْ كاتِبَك سوطًا.

وبلَغني عن كُثيِّر بن أحمد بن زُهير بن سيَّار أنه كان يُنشد بيت أبي دُلَف:

ألبِسيني الدِّرعَ قد طا لَ عن الحَربِ جَماحي

فسألته عن ذلك فحلف أنه إنما قال:

ألبِسيني الدِّرعَ قد طا لَ عن الحربِ جِماصي

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾. فاللحن في ذلك الموضع غير اللحن في ذلك الموضع.

وكان سليمان بن عبد الملك يقول: المُغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث يُفخم اللحن كما يُفخم نافع بن جُبير الإعراب.

وقال الشاعر في نحو ذلك:

لعَمْري لقد قعَّبتَ حينَ لِقيتَنا وأنتَ بتقعيبِ الكلامِ جَديرُ[8]

وقال خلف الأحمر:

وفَرقَعَهنَّ بتَقعيبِه كفَرقعةِ الرَّعدِ بينَ السَّحابِ

[8] التقعيب: أن تتكلم من أقصى فمك حتى كأنه قعب.

وقال المَيْساني:

ولَحنُكمُ بتَقعيبٍ ومدٍّ　　وألأمُ من يَدِبُّ على العَفارِ

وقال الأصمعي: خاصَم عيسى بن عمر[٩] النحوي الثقفي رجلًا إلى بلال بن أبي بُردة، فجعل عيسى يُشبع الإعراب، وجعل الرجل ينظر إليه، فقال له بلال: لأن يذهب بعض حق هذا أحَبُّ إليه من ترك الإعراب، فلا تتشاغلْ به واقصِد بحُجتك.

وقدَّم رجل من النحويين رجلًا إلى السلطان في دَين له عليه، فقال: أصلح الله الأمير، لي عليه درهمان. قال خصمه: لا والله أيها الأمير، إن هي إلا ثلاثة دراهم، لكنه لظهور الإعراب ترك من حقه درهمًا.

قال: خاصَم رجل إلى الشعبي أو إلى شُريح رجلًا فقال: إن هذا باعَني غلامًا فصيحًا صبيحًا. قال: هذا محمد بن عمر بن عطارد بن حاجب بن زرارة.

قال: مرَّ ماسرجويه الطبيب بجدِّ معاذ بن سعيد بن حميد الحِميري، فقال: يا ماسرجويه، إني أجد في حلقي بَحَحًا. قال: إنه عملُ بُلغَم. فلما جاوزه قال: أنا أُحسن أن أقول بَلغَم، ولكنه كلَّمني بالعربية فكلَّمته بالعربية.

وروى أبو الحسن أن الحجَّاج كان يقرأ: إنا من المجرمون المنتقمون. وقد زعم رُؤبة بن العجَّاج وأبو عمرو بن العلاء أنهما لم يرَيا قرويَّين أفصح من الحسن والحجاج. وغلط الحسن في حرفَين من القرآن، مثل قوله: ص والقرآن. والحرف الآخر: وما تنزَّلت به الشياطون.

أبو الحسن قال: كان سابقٌ الأعمى يقول: الخالق البارئ المصوَّر. فكان ابن جابان إذا لقيه قال: يا سابق، ما فعل الحرف الذي تُشرِك بالله فيه؟ قال: وقرأ: ولا تَنكحوا المشركين حتى يؤمنون. وقال ابن جابان: وإن آمنوا أيضًا لم نَنكِحهم.

وقال مَسلمة بن عبد الملك: إني لأُحبُّ أن أسأل هذا الشيخ. يعني عمرو بن مسلم. فما يمنعني منه إلا لحنه.

---

[٩] عيسى بن عمر الثقفي: كان مولى خالد بن الوليد، ثم نزل في ثقيف فنُسب إليهم. إمام في النحو والعربية والقراءة. أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق، وروى عن الحسن البصري والعجاج وغيرهما، وعنه روى الأصمعي وغيره. قيل: كان له نيِّف وسبعون مصنَّفًا ذهبت كلها. وكان يتقعَّر في كلامه. مات سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م.

قال: وكان أيوب السختياني يقول: تعلَّموا النحو؛ فإنه جمال للوضيع، وتركه هُجنة للشريف.

وقال عمر: تعلَّموا النحو كما تَعلَّمون السنن والفرائض.

قال رجل للحسن: يا أبي سعيد. فقال: كسب الدوانيق شغَلك عن أن تقول يا أبا سعيد؟

قالوا: وأول لحن سُمِع بالبادية: هذه عصاتي. وأول لحن سُمِع بالعراق: حيٍّ على الفلاح.

(١) باب من لَحْن البُلغاء

ومن اللحَّانين البُلغاء خالد بن عبد الله القَسْري، وخالد بن صَفوان الأهتمي، وعيسى بن المدوَّر.

وقال بعض النُّسَّاك: أعرَبْنا في كلامنا فما نَلحَن حرفًا، ولحَنَّا في أعمالنا فما نُعرِب حرفًا.

أخبرَنا الربيع بن عبد الرحمن السُّلَمي، قال: قلت لأعرابي: أتَهمِز إسرائيل؟ قال: إني إذًا لَرَجلُ سوء. قلت: فتجرُّ فلسطين؟ قال: إني إذًا لقَوي.

وكان هُشيم[١٠] يقول: حدَّثنا يَوْنِسْ عن الحسن. يقولها بفتح الياء وكسر النون.

وكان عبد الأعلى بن الله السُّلمي[١١] يقول: فأخذِه فصرعِه فذبحِه فأكلِه، بكسر هذا أجمع.

وكان مهدي بن مُهلهل يقول: حدَّثنا هشامْ، مجزومةً؛ ثم يقول: ابنْ، ويجزمه؛ ثم يقول حسانْ، ويجزمه؛ لأنه حين لم يكن نحويًّا رأى أن السلامة في الوقف.[١٢]

وأما «خالد بن الحارث» و«بِشر بن المفضَّل» الفقيهان، فإنهما كانا لا يلحنان.

وممن كان لا يلحن البتَّةَ حتى كأن لسانه لسان أعرابي فصيح: «أبو زيد» النحوي، و«أبو سعيد» المعلِّم.

[١٠] هشيم: هو هشيم بن بشير، مولى بني سليم، يُكنى أبا معاوية. كان من المحدِّثين البُلغاء. وُلد سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م، وتُوفي سنة ١٨٣هـ/٧٩٩م.

[١١] في الأصل: عبد الأعلى بن الأعلى السامي، ولم أعرف له مُسمًّى، ولعل الصواب ما أثبتناه.

[١٢] قلت: كان قاسم بك أمين رحمه الله يرى هذا الرأي ويستحسنه.

قال خلف: قلت لأعرابي: أُلقي عليك بيتًا ساكنًا؟ قال: على نفسك فألْقِه.

وقال أبو الفضل العنبري لعلي بن بشير: إني التقطت كتابًا من الطريق فأُنبئت أن فيه شعرًا، أفتريده حتى آتيَك به؟ قال: نعم، إن كان مقيَّدًا. قال: والله ما أدري أمقيَّد هو أم مغلول.

الأصمعي قال: قيل لأعرابي: أتهمز الرمح؟ قال: نعم. قيل له: فقلها مهموزةً. فقالها مهموزة. قال: أتهمز التُّرس؟ قال: نعم. فلم يدع سيفًا ولا ترسًا إلا همزه، فقال له أخوه وهو يهزأ به: دعوا أخي؛ فإنه يهمز السلاح أجمع.

وقال بعضهم: ارتفع إلى زيادٍ رجل وأخوه في ميراث، فقال: إن أبونا مات، وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله. فقال زياد: الذي أضعتَ من لسانك أضَرُّ عليك مما أضعتَ من مالك. وأما القاضي فقال: فلا رحم الله أباك، ولا تنح عظم أخيك. قم في لعنة الله! وقال أبو شيبة قاضي واسط: أتيتمونا بعد أن أردنا أن نقم؟

قد ذكرنا في صدر هذا الكتاب من الجزء الأول، وفي بعض الجزء الثاني، كلامًا من كلام العقلاء البلغاء، ومذاهب من مذاهب الحكماء والعلماء، وقد روَينا نوادر من كلام الصِّبيان والمحرَّمين من الأعراب، ونوادر كثيرة من كلام المجانين وأهل المِرَّة[١٣] من المُوسوِسين، ومن كلام أهل الغفلة من النَّوكى وأصحاب التكلُّف من الحمقى، فجعلنا بعضها في باب الهزل والفكاهة، ولكل جنس من هذا موضعٌ يصلح له، ولا بد لمن استكدَّه الجد من الاستراحة إلى بعض الهزل.

قال أبو عُبيدة: أرسل ابنٌ لعِجل بن لُجيم فرسًا له في حلبة، فجاء سابقًا، فقال لأبيه: يا أبتِ، بأي شيء أسمِّيه؟ فقال: افقأ إحدى عينَيه وسمِّه الأعور.

وشعراء مُضَر يُحمِّقون رجال الأزد ويستخفُّون أحلامهم.[١٤] قال عمر بن لجاء:

تَصطَكُّ ألْحِيها على دِلائِها　　　تَلاطُمَ الأزدِ على عَطائِها[١٥]

[١٣] وفي نسخة: أهل المره، والصواب ما أثبتناه. وأهل المرة: يعني الممرورين الموسوسين.

[١٤] في الأصل: أخلاقهم، والصواب ما أثبتناه.

[١٥] تصطك: تضطرب.

وقال بشَّار:

وكأنَّ غَلْيَ دِنانِهم في دُورِهم   لَغَطُ العَتِيكِ على خِوانِ زِيادِ[١٦]

وقال الراجز:

لَبَّيكَ بي أرفُلُ في بِجَادي   حازِمُ حَقوَيَّ وصَدْري بادي
أُفرِّجُ الظَّلْماءَ عن سوادي   أقْوى لِشَولٍ بكَّرَت صَوادِ
كأنَّما أصواتُها بالوادي   أصواتُ حجٍّ عن عُمانَ غادِ[١٧]

وقال الآخر:

وإذا سَمِعتَ هَديلَهنَّ حَسِبتَه   لَغَطَ المَعاوِلِ في بُيوتِ هَدادِ

وبسبب هذا يُدخلون في هذا المعنى قبائل اليمانية. وقال ابن أحمر:

إخالُها سَمِعَت عَزفًا فتَحسَبُه   إهابَةَ القَسْرِ ليلًا حينَ تَنتشِرُ[١٨]

وقال الكُميت:

كأنَّ الغطامطَ من غَلْيِها   أراجيزُ أسلَمَ تَهْجو غِفارا[١٩]

---

[١٦] العتيك: هم الأزد أو فخذ منهم، وهم قوم المهلَّب بن أبي صُفرة.

[١٧] عمان: بلد باليمن، والمراد بها هنا الأزد؛ لأنهم كانوا يُسمَّون أزد عمان أيضًا.

[١٨] إهابة القسر: نداء القسر، والقسر قبيلةٌ يمانية يُنسب إليها خالد بن عبد الله القسري.

[١٩] لهذا البيت حكايةٌ طريفة نرى إيرادها هنا لِما فيها من النقد: اجتمع نُصيب والكُميت، فاستنشد النصيب الكميت، فأنشده قصيدته التي أولها «أبت هذه النفس إلا ادِّكارا»، فلما بلغ إلى قوله:

إذا ما الهجارسُ غنَّينها   يُجاوِبن بالفلواتِ الوبارا

فقال له نصيب: الفلوات لا تسكنها الوبار. فلما بلغ إلى قوله:

كأنَّ الغطامطَ من غَليِها   أراجيزُ أسلَمَ تَهْجو غِفارا

قال له نصيب: ما هجت أسلم غفارًا قط. فاستحيا الكميت وسكت؛ لأنَّهما من قبيلةٍ واحدة.

فجعل الأراجيز، التي شبَّهها في لغطها والتفافها بصوت غليان القِدر، لأسلم دون غفار.

(٢) باب النَّوكى والمجانين

قالوا: ومن النوكى «مالك بن زيد مناة» بن تميم، الذي لما دخل على امرأته فرأت ما رأت به من الجفاء والجهل، وجلس في ناحية مُنقبضًا مُشتملًا، قالت: ضع عُلبتك. قال: يدي أحفظ لها. قالت: فاخلع نعلَيك. قال: رِجلاي أحفظ لهما. قالت: فضع شَمْلتك. قال: ظهري أولى بها. فلما رأت ذلك قامت فجلست إلى جانبه، فلما شم ريح الطِّيب وثب عليها.

ومن المجانين والمُوسوسين والنوكى «ابن فِنان»، و«صبَّاح المُوسوِس»، و«ريسموس اليوناني»، و«أبو حيَّة النُّميري»، و«أبو يَس الحاسب»، و«جُعيفران الشاعر»، و«جَرَنفَش»، ومنهم «سارية الليل»، ومنهم «رَيطة بنت كعب» بن سعد بن تيم بن مُرة، وهي التي نقضت غزلها أنكاثًا، فضرب الله تبارك وتعالى بها المثل، وهي التي قيل لها: خَرقاء وجدت صوفًا. ومنهم «دُغة»، و«جَهيزة»، و«شَولة»، و«ذراعة المعدِّيَّة»، ولكل واحد من هؤلاء قصةٌ سنذكُرها في موضعها إن شاء الله تعالى.

فأما «ريسموس» فكان من مُوسوِسي اليونانيين. قال له قائل: ما بال ريسموس يعلِّم الناس الشعر ولا يستطيع قوله؟ قال: مثله مثل المِسَن الذي يشحذ ولا يقطع. ورآه رجلٌ يأكل في السوق فقال: ما بال ريسموس يأكل في السوق؟ قال: إذا جاع في السوق أكل في السوق. وألحَّ عليه بالشتيمة رجل وهو ساكت، فقيل له: يشتمك مِثلُ هذا وأنت ساكت؟ قال: أرأيت إن نبحك كلبٌ أتنبحه، أو رمحك حمارٌ أترمحه؟ وكان إذا خرج في الفجر يريد الفُرات ألقى في دوَّارة بابه حجرًا حتى لا يُعانيَ دفع بابه إذا رجع. وكان كلما رجع إلى بابه وجد الحجر مرفوعًا والباب مُنصفقًا، فعَلِم أن أحدًا يأخذ الحجر من مكانه، فكمَن لصاحبه يومًا، فلما رآه قد أخذ الحجر قال: ما لك تأخذ ما ليس لك؟ قال: لم أعلم أنه لك. قال: فقد عَلِمت أنه ليس لك!

أما «جُعيفران» المُوسوِس الشاعر، فشَهِدت رجلًا أعطاه درهمًا وقال: قل شعرًا على الجيم، فأنشأ يقول:

عادَني الهمُّ فاعتلَجْ كلُّ همٍّ إلى فَرَجْ
سلِّ عنك الهُمومَ بالـ ـكأسِ وبالرَّاحِ تَنفرِجْ

وهي أبيات. وكان يتشيَّع، قال له قائل: أتشتم فاطمة وتأخذ درهمًا؟ قال: لا، بل أشتم عائشة وآخذ نصف درهم. وهو الذي يقول:

ما جَعفرٌ لأبيهِ ... ولا له بشَبيهِ
أضحى لقومٍ كثيرٍ ... فكلُّهم يدَّعيهِ
هذا يقولُ بُنيٍّ ... وذا يُخاصِمُ فيهِ
والأمُّ تَضحَكُ منهم ... لعِلمِها بأبيهِ

وهو الذي يقول في قوم لاطة:

كأنَّهم والأيورُ عامدةٌ ... صَياقلٌ في جِلايةِ النُّصُلِ

وأما «أبو يس» الحاسب فإن عقله ذهب بسبب تفكُّره في مسألة، فلما جُن كان يهذي بأنه سيصير ملكًا، وقد أُلهِم ما يحدُث في الدنيا من الملاحم. وكان أبو نواس والرَّقاشي يقولان على لسانه أشعارًا، على مذاهب أشعار ابن عقب الليثي، ويُروِّيانها أبا يس، إذا حفظها لم يشكَّ أنه هو الذي قالها، فمن تلك الأشعار قول أبي نواس:

منَعَ النَّومَ ادِّكاري زمنًا ... ذا تهاويلَ وأشياءَ نُكُرْ
واعتراكُ الرُّومِ في مَعمَعةٍ ... ليس فيها لجبانٍ من مَقَرْ
كائناتٌ ليس عنها مَذهبٌ ... خطُّها يُوشَعُ في كُتْبِ الزُّبُرْ
وعلاماتٌ ستأتي قَبْلَه ... جمَّةٌ أوَّلُها سَكْرُ النَّهَرْ
ويليهم رَجلٌ من هاشمٍ ... أقنَصُ الناسِ جميعًا للحُمُرْ
يَبْتني في الصَّحنِ من مَسجِدِهم ... للمُصلِّينَ من الشَّمسِ سُتُرْ
ورجاءٌ يَبْتني مَطهَرةً ... ضَخمةً في وَسْطِها طَشْتٌ صُفُرْ
فهُناكم حينَ يفشو أمرُكم ... وهُناكم يَنزلُ الأمرُ النُّكُرْ
فاتْبَعوه حيثُ ما سارَ بكم ... أيها النَّاسُ وإنْ طالَ السَّفَرْ
ودَعُوا باللهِ أنْ تَهزُوا به ... لعنَ الرحمنُ من مِنه سَخِرْ

والبصريُّون يزعمون أن أبا يس كان أحسب الناس.

أما «أبو حيَّة النُّميري» فإنه أجَنُّ من جُعيفران، وكان أشعر الناس، وهو الذي يقول:

أَلَا حيِّ أطلالَ الرُّسومِ البواليا لَبِسنَ البِلى ممَّا لَبِسنَ اللياليا

وهو الذي يقول:

فألقتْ قِناعًا دُونَه الشمسُ واتَّقَت بأحسنِ مَوصولَينِ كفٍّ ومِعصَمِ

وحدَّثني أبو المنجوف قال: قال أبو حية: عنَّ لي ظبيٌ فرمَيته، فراغَ عن سهمي، فعارَضه والله السهم، ثم راغ فراوَغه حتى صرعه ببعض الجِنارات. وقال: والله رميت ظَبْية، فلما نفذ السهم ذكرت بالظبية حبيبةً لي، فشددت وراء السهم حتى قبضت على قُذَذه، وكان يكلِّم العُمَّار، ويُخبر عن معاوضته للجن.

وأما «جرنفش» فإنه لما خلع الفرزدق لجام بَغلته، وأدنى رأسها من الماء، قال له جرنفش: نحِّ بغلتك، حلق الله ساقيك. قال: ولمَ عافاك الله؟ قال: لأنك كذوب المَخبرة، زاني الكمرة. قال أبو الحسن: وبلَغني أن الفرزدق لما أن قال له الجرنفش ما قال، نادى: يا بني سدوس. فلما اجتمعوا إليه قال: سوِّدوا الجرنفش عليكم؛ فإني لم أرَ فيكم أعقل منه.

ومن مجانين الكوفة «عينادة»، و«طاق البصل». حدَّثني صديق لي قال: قلت لعينادة: أيما أجن؛ أنت أو طاق البصل؟ قال: أنا شيء وطاق البصل شيء.

ومن مجانين الكوفة «بُهلول»، وكان يتشيع. قال له إسحاق بن الصبَّاح: أكثر الله في الشيعة مِثلك. قال: بل أكثر الله في المرجئة مِثلي، وأكثر في الشيعة مِثلك. وكان جيِّد القفاء، فربما مرَّ به من يحب العبث فيقفذه، فحشا قفاه خرءًا، وجلس على قارعة الطريق، فكلما قفذه إنسانٌ تركه حتى يجوز، ثم يصيح به: يا فتى، شُم يدك. فلم يعُد بعدها أحدٌ يقفذه. وكان يغنِّي بقيراط ويسكت بدانق. وكانت بالكوفة امرأةٌ رَعناء يُقال لها «مُجيبة»، فقفذ بُهلولًا فتًى كانت مُجيبة أرضعته، فقال له بُهلول: كيف لا تكون أرعن وقد أرضعتَك مُجيبة؟ فوالله لقد كانت تزقُّ لي الفرخ فأرى الرُّعونة في طيرانه.

حدَّثني حُجر بن عبد الجبَّار، قال: مر «موسى بن أبي ردقاء» فناداه «صبَّاح» الموسوس: يا ابن أبي الردقاء، أسْمنتَ بِرْذَونك، وأهزلت دينك. أما والله إن أمامك لعقبة لا يجوزها إلا المُخِف. فحبس موسى بِرْذَونه وقال: من هذا؟ فقيل له: هذا صبَّاح الموسوس. فقال: ما هو بمُوسوس، هذا نذير.

قال أبو الحسن: دعا بعض السلاطين مجنونَين ليُحركهما فيضحك مما يجيء منهما، فلما أسمعاه وأسمعهما غَضِب ودعا بالسيف، فقال أحدهما لصاحبه: كنَّا مجنونين فصِرنا ثلاثة.

وقال عمر بن عثمان: شيَّعت عبد العزيز بن عبد الملك المخزومي وهو قاضي مكة إلى منزله، وبباب المسجد مجنونةٌ تصفِّق وتقول:

أرَّقَ عَيْني طراطِرُ القاضي هذا المُقِيمُ ليس ذاك الماضي

فقال: يا أبا حفص، أتُراها تعني قاضيَ مكة؟

وتذاكروا اللُّثْغ، فقال قوم: أحسَنُ اللَّثغ ما كان على السين، وهو أن يصير ثاءً. وقال آخرون: على الراء، وهو أن يصير غينًا. فقال «مجنون البكرات»: أنا أيضًا ألثغ، إذا أردت أن أقول شرائط، قلت: رشيط.

وبعث عُبيد الله بن مروان عم الوليد إلى الوليد بقطيفةٍ حمراء، فكتب إليه الوليد: قد وصلت إليَّ القطيفة، وأنت يا عَمُّ أحمق أحمق.

وقال محمد بن بلال لوكيله زيد: اشترِ لي طِيبًا سيرافيًّا. قال: تريده سِيرافي، أو سَيْرافي سِيَرافي؟

وقال محمد بن الجهم للمكي: أراك مُستبصرًا في اعتقاد الجزء الذي لا يتجزأ، فينبغي أن يكون عندك حقًّا حقًّا. قال: أما أن يكون عندي حقًّا حقًّا فلا، ولكنه عندي حق.

ودخل أبو طالب صاحب الطعام على «هاشمية» جارية حمدونة بنت الرشيد — على أن يشتريَ طعامًا من طعامها في بعض البيادر — فقال لها: إني قد رأيت متاعك. قالت هاشمية: قل طعامك. قال: وقد أدخلت يدي فيه، فإذا متاعك قد خمَّ وحميَ وصار مِثل الجيفة. قالت: يا أبا طالب، ألست قد قبلت الشعير؟ فأعطِنا ما شئت وإن وجدته فاسدًا. ودخل أبو طالب على المأمون فقال: كان أبوك يا أبا خيرًا لنا منك، وأنت يا أبا ليس تعدنا وليس تبعث إلينا، ونحن يا أبا تُجَّارك وجيرانك. والمأمون في كل ذلك يتبسم.

قيل للمُثنَّى بن يزيد بن عمر بن هُبيرة وهو على اليمامة: إن ها هنا مجنونًا له نوادر. فأتَوه به، فقال: ما هجاء النشَّاش؟ قال: الفلَج القادي. فغضب ابن هبيرة وقال: ما جئتموني به إلا عمدًا، ما هذا بمجنون!

والنشاش: يومٌ كان لقيس على حنيفة. والفلج: يومٌ كان لحنيفة على قيس.

وأنشدوا:

ترى القومَ أسواءً إذا حُسِبوا معًا وفي القومِ زَيفٌ مِثلُ زَيفِ الدَّراهمِ

وقال:

فتًى زادَه عِزُّ المَهابةِ ذِلَّةً وكلُّ عَزيزٍ عندَه مُتواضِعُ

وقال:

قد يَنفعُ الأدبُ الأحداثَ في مَهَلٍ وليس يَنفعُ بعدَ الكَبْرةِ الأدبُ
إنَّ الغُصونَ إذا قوَّمتَها اعتدلتْ ولن تَلِينَ إذا قوَّمتَها الخُشُبُ

(٣) باب في العِي

قال جعفر بن أخت واصل: كتب رجل إلى صديق له: بلَغني أن في بُستانك آسًا يهمُّني، فهَبْ لي منه أمرًا من أمر الله عظيمًا.

وقال أبو عبد الملك، وهو الذي كان يُقال له عناق: كان عيَّاش وثُمامةُ حيٌّ كان يعظِّمني تعظيمًا ليس في الدنيا مِثله، فلما مات ثُمامة صار ليس يعظِّمني تعظيمًا ليس في الدنيا مثله. وقال له عياش بن القاسم: بأي شيء تزعمون أن أبا علي الأسواري أفضل من سلَّام أبي المُنذر؟ قال: لأنه لما مات سلَّام أبو المنذر ذهب أبو علي في جنازته، فلما مات أبو علي لم يذهب سلَّام في جنازته. وكان يقول: فيك عشر خِصال من الشر، أما الثانية والرابعة كذا، وأما السابعة كذا، وأما العاشرة كذا.

قال: قلنا للفَقْعسي: كيف ثناؤك على حمدان بن حبيب؟ فقال: هو والله عندي الكذا الكذا.

وقال الخُرداذي: آجَرك الله، وعظَّم أجركم، وأجَركم. فقيل له في ذلك فقال: هذا كما قال عثمان بن الحكم: بارك الله لكم، وبارك الله عليكم، وبارك الله فيكم. قالوا له: ويلك، إن هذا لا يُشبِه ذلك. وكتب إلى بعض الأمراء: أبقاك الله، وأطال بقاءك، ومد في عمرك.

وكان أبو إدريس السمَّان يقول: وأنت فلا صبَّحك الله إلا بالخير. ويقول: وأنت فلا حيَّا الله وجهك إلا بالسلام، وأنتم فلا بيَّتكم الله إلا بالخير.

ومرَّ ابن أبي علقمة، فصاح به الصِّبيان، فهرب منهم، وتلقَّاه شيخ وعليه ضفيرتان، فقال له: ﴿يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾.

وقال المهلَّب لرجل من بني مِلكان، أحد بني عدي: متى أنت؟ قال: أيام «عُتيبة بن الحارث بن شهاب». وأقبل على رجل من الأزد فقال له: متى أنت؟ فقال: أكلت من حبوة رسول الله ﷺ عامَين. قال: أطعمك الله لحمك.

وأنشدني المُعَيطي:

وأنزَلَني طُولُ النَّوى دارَ غُربةٍ ... إذا شئتُ لاقيتُ الذي لا أُشاكِلُهُ

فحامَقتُه حتى يُقالَ سَجيَّةٌ ... ولو كانَ ذا عقلٍ لكنتُ أُعاقِلُهُ

وخطب عتَّاب بن ورقاء[٢٠] فحثَّ على الجهاد، فقال: هذا كما قال الله تعالى:

كُتِبَ القتلُ والقِتالُ علينا ... وعلى الغانِياتِ جَرُّ الذُّيولِ

وخطب والي اليمامة فقال: إن الله لا يقارُّ عباده على المعاصي، وقد أهلك الله أمَّةً عظيمة في ناقةٍ ما كانت تُساوي مائتَي درهم. فسُمِّي «مقوِّم ناقة الله».

وهؤلاء من الجُفاة والأعراب المحرمين، وأصحاب العجرفيَّة، ومَن قلَّ فقهه في الدين، إذا خطبوا على المنابر فكأنهم في طباع أولئك المجانين.

وخطب وكيع بن أبي سُود[٢١] بخراسان، فقال: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أشهر. فقيل له: إنها ستة أيام! قال: وأبيك لقد قلتها وإني لأستقلُّها. وصعِد المِنبر فقال: إن ربيعة لم تزَل غِضابًا على الله مُذ بعث الله نبيَّه من مُضَر، ألا وإن ربيعة قومٌ كُشُف، فإذا رأيتموهم فاطعنوا الخيل في مناخرها؛ فإن فرسًا لم يُطعن في مَنخره إلا كان أشدَّ على فارسه من عدوِّه.

---

[٢٠] عتاب بن ورقاء: هو عتاب بن ورقاء الرياحي، كان يُكنى أبا ورقاء. قائد من قُواد الدولة الأموية، وكان من الشجعان الأجواد. وكان له بلاءٌ حسن في فتنة الفرخان صاحب الري حينما ارتد، فقاتله حتى ظفِر به وفتح الري. ووليَ أصبهان أيام فتنة عبد الله بن الزبير، ووجَّهه الحجَّاج على جيش أهل الكوفة لقتال الأزارقة. ووليَ المدائن ونواحيَها فبيَّته شبيب بن يزيد الشيباني، فتفرَّق عنه جيشه وخرَّ صريعًا في المعركة، وذلك في سنة ٧٧هـ/٦٩٦م.

وضربت بنو مازن الحُتات بن يزيد المُجاشعي، فجاءت جماعة منهم فيهم غالب أبو الفرزدق، فقال: يا قوم، كونوا كما قال الله: لا يعجز القوم إذا تعاوَنوا.

وتزعم بنو تميم أن صَبِرة بن شَيمان قال في حرب مسعود والأحنف: إن جاء حُتات جئت، وإن جاء الأحنف جئت، وإن جاء حارثة جئت، وإن جاءوا جئنا، وإن لم يجيئوا لم نجئ. وهذا باطل، وقد سمِعنا لصبرة كلامًا لا ينبغي أن يكون صاحب ذلك الكلام يقول هذا الكلام.

ولما سمع الأحنف فِتيان بني تميم يضحكون من قول العَرَندس:

لحا اللهُ قومًا شَوَوا جارَهم　　إذِ الشاةُ بالدِّرهمَين الشُّصُبْ
أرى كلَّ قومٍ رعَوا جارَهم　　وجارُ تميمٍ دُخانٌ ذَهَبْ

قال: أتضحكون؟ أمَا والله إن فيه لمعنى سوء.

وكان قبيصة يقول: رأيت غرفةً فوق البيت، ورأى جرادًا يطير فقال: لا يَهولنَّكم ما ترَون؛ فإن عامَّتها موتى. وإنه أول ما جاء الجراد قبَّل جرادةً ووضعها على عينَيه، على أنها من الباكورة.

وهذه الأشياء ولَّدها «الهَيثم بن عدي» عند صنيع «داود بن يزيد» في أمر تلك المرأة ما صنع.

قال أبو الحسن: وتغدَّى «أبو السرايا» عند سليمان بن عبد الملك، وهو يومئذٍ وليُّ عهد، وقُدَّامه جَدْي، فقال: كُلْ من كُليته؛ فإنه يزيد في الدماغ. فقال: لو كان هذا هكذا لكان رأس الأمير مِثل رأس البغل.

---

[٢١] وكيع بن أبي سود: هو وكيع بن حسَّان بن قيس بن أبي سود التميمي، ويُقال له ابن الدورقية، كان يُكنى أبا مطرف، وكان سيِّد تميم. افترض مع سلم بن زياد فجعل مكتبه بسجستان، وولي عبد العزيز بن عبد الله بن عامر سجستان، فغضب على وكيع في بعض الأمر، فقبض عليه وحبسه؛ فبَيْنا هو في حبسه مرَّ به ابن لعبد العزيز مع ظئر له، فدعا به فأمسكه، ثم دعا بسِكِّين وقال: والله لأذبحنَّه أو لتخلِّينَّ عني. فبلَغ ذلك عبد العزيز، فجاءه فقال: خلِّ عنه ونؤمِّنك. فقال: لا والله حتى يجيء عشرة من بني تميم فتضمن لهم، ثم يكونون هم الذين يُطلِقون عني. ففعل ذلك. ثم تحوَّل وكيع إلى خراسان فكان رأسًا، فكتب الحجاج إلى قُتيبة بن مسلم يأمره بقتله، وكان وكيع قد أبلى مع قتيبة في مغازيه ويوم التُّرك خاصةً بلاءً حسنًا، فما كان من قتيبة إلا أن عزله عن الرياسة. فلما ولي الوليد بن عبد الملك وخلع

قال أبو كعب: كنَّا عند «عيَّاش بن القاسم» ومعنا «سَيفوَيه القاصُّ»، فأُتينا بفالوذجةٍ حارَّة، فابتلع سيفويه منها لُقمةً فغُشِي عليه من شدة حرها، فلما أفاق قال: مات لي ثلاثة بنينَ ما دخل جوفي عليهم من الحُرقة ما دخل جوفي من حُرقة هذه اللقمة.

سعيد بن مالك قال: جالَسني رجلٌ فقير لا يكلِّمني ساعةً، ثم قال لي: جلستَ قطُّ على رأس تنُّور فخَرِيت فيه آمنًا مطمئنًّا؟ قلت: لا. قال: فإنك لم تعرف شيئًا من النعيم قط.

وقال هشام بن عبد الملك ذات يوم لجلسائه: أيُّ شيءٍ ألَذ؟ قال له الأبرش بن حسَّان: أأصابك جرَبٌ قطُّ فحكَكتَه؟ قال: ما لك! أجرَب اللهُ جِلدك، ولا فرَّج الله عنك. وكان آنس الناس به.

ومن غرائب الحُمق: المذهب الذي ذهب إليه الكُميت بن زيد في مدح النبي ﷺ، حيث يقول:

فاعتتَبَ الشَّوقُ في فُؤاديَ والشِّعـ ... ـرُ إلى من إليه مُعتتَبُ
إلى السِّراجِ المُنيرِ أحمَدَ لا ... تَعدِلُني رَغبةٌ ولا رَهَبُ
عنه إلى غيرِه ولو رَفَعَ النَّا ... سُ إليَّ العُيونَ وارتَقبوا
وقيلَ أفرَطتَ بل قصَدتُ ولو ... عنَّفَني القائلونَ أو ثَلَبُوا
إليكَ يا خيرَ مَن تضمَّنَتِ الـ ... أرضُ ولو عابَ قولِيَ العُيُبُ
لَجَّ بتفضيلِكَ اللِّسانُ ولو ... أُكثِرَ فيك اللَّجاجُ واللَّجَبُ

فمن رأى شاعرًا مدح النبي ﷺ فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس حتى يزعم أن ناسًا يعيبونه ويثلبونه ويعنِّفونه؟ ولقد مدح النبي ﷺ، فما زاد على قوله:

وبُورِكَ قبرٌ أنتَ فيه وبُورِكَت ... به وله أهلٌ بذلك يَثرِبُ
لقد غيَّبوا بِرًّا وحَزمًا ونائلًا ... عَشيَّةَ واراه الصَّفيحُ المُنصَّبُ

قتيبة، وسار بالناس نحو فرغانة، بايَع الناس وكيعًا، فقتل قتيبة وبعث برأسه إلى سليمان بن عبد الملك. وظل وكيع غالبًا على خراسان تسعة أشهر إلى أن تولَّاها يزيد بن المهلب فقتله سنة ٩٨هـ/٧١٦م.

يعني قبر النبي ﷺ، ويثرب يعني المدينة. وهذا شعرٌ يصلح في عامة الناس.

وكتب مَسلمة بن عبد الملك إلى يزيد بن المهلب: إنك والله ما أنت بصاحب هذا الأمر، صاحب هذا الأمر مغمور وموتور، وأنت مشهورٌ غير موتور. فقال له رجل من الأزد يُقال له عثمان بن المفضَّل: قدِّم ابنك مخلَّدًا حتى يُقتَل فتصير موتورًا.

وقال: جاء ابنٌ لجُديع بن علي — وكان ابن خال يزيد بن المهلَّب — فقال ليزيد: زوِّجني بعض ولدك. فقال له عثمان بن المفضل: زوِّجه ابنك مخلدًا؛ فإنه إنما طلب بعض الولد ولم يستثنِ شيئًا.

ومن الحمقاء كُثيِّر عَزَّة. ومن حُمْقه أنه دخل على عبد العزيز بن مروان، فمدحه بمديحٍ استجاده، فقال له: سَلْني حوائجك. فقال: تجعلني في مكان ابن زمانة. قال: ويلك، ذاك رجلٌ كاتب وأنت شاعر! فلما خرج ولم ينَل شيئًا قال:

عجِبتُ لأخذي خُطَّةَ الغَيِّ بعدَما   تبيَّنَ من عبدِ العزيزِ قَبولُها
فإنْ عادَ لي عبدُ العزيزِ بِمثلِها   وأمكنَني منها إذًا لا أُقِيلُها

قال أبو الحسن، قال «طارق»، قال «ابن جابان»: لقي رجل رجلًا ومعه كلبان، فقال: هَبْ لي أحدهما. قال: أيهما تريد؟ قال: الأسود. قال: الأسود أَحَبُّ إليَّ من الأبيض. قال: فهَبْ لي الأبيض. قال: الأبيض أحَبُّ إليَّ من كِليهما.

وقال رجل لرجل: بكم تبيع الشاة؟ قال: أخذتها بستة، وهي خير من سبعة، وقد أعطيت بها ثمانية، فإن كانت حاجتك بتسعة فزِنْ عشرة.

قال أبو الحسن، قال «طارق بن المبارك»: دخل رجل على بلال فكساه ثوبَين، فقال: كساني الأمير ثوبَين، فاتَّزرتُ بالآخَر، وارتديت بالآخَر. وقال: مرِض فتًى عندنا فقال له عمه: أيَّ شيء تشتهي؟ قال: رأس كبشَين. قال: لا يكون. قال: فرأسَي كبش. طارقٌ قال: وقع بين جارٍ لنا وجارٍ له يُكنى أبا عيسى كلام، فقال: اللهم خذ مني لأبي عيسى. قالوا: أتدعو الله على نفسك؟ قال: فخذ لأبي عيسى مني.

أبو زكريا العَجلاني قال: دخل عمرو بن سعيد على معاوية وهو ثقيل، فقال: كيف أصبحتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: أصبحت صالحًا. قال: أصبحت عَينُك غائرة، ولونك كاسفًا، وأنفك ذابلًا، فاعهد عهدك ولا تُخدَعن عن نفسك.

وقال عُبيد الله بن زياد بن ظبيان التيمي:[٢٢] يرحم الله عمر بن الخطاب، كان يقول: اللهم إني أعوذ بك من الزانيات وأبناء الزانيات. فقال عُبيد الله بن زياد بن أبيه: رحم الله عمر، كان يقول: لم يقُم جنين في بطن حَمقاء تسعة أشهُر إلا خرج مائقًا.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كونوا بُلهًا كالحمام.

وقال قائل: حماقة صاحبي عليَّ أشَدُّ ضررًا منها عليه.

وقالوا: شرَد بعيرٌ لهَبنَّقة القَيسي — وبجنونه يُضرَب المثل — فقال: مَن جاء به فله بعيران. فقيل له: أتجعل في بعيرٍ بعيرَين؟ فقال: إنكم لا تعرفون فرحة الوجدان.

وهبنَّقة هو يزيد بن ثروان، أحد بني قيس بن ثعلبة، وكُنيته أبو نافع. قال الشاعر:

عِشْ بِجَدٍّ ولا يَضُرُّكَ نَوكٌ إنَّما عيشُ مَن تَرى بالجُدودِ
عِشْ بجَدٍّ وكُنْ هَبَنَّقَةَ القَيـ ـسِيِّ نَوكًا أو شَيبةَ بنَ الوليدِ

ولما خلع قتيبة بن مسلم سليمان بن عبد الملك بخراسان، قام خطيبًا فقال: يا أهل خُراسان، أتدرون من وليُّكم؟ إنما وليُّكم يزيد بن ثروان. كنَّى به عن هبنَّقة؛ وذلك أن هبنقة كان يُحسِن من إبله إلى السِّمان ويدع المهازيل، ويقول: إنما أُكرمُ من أكرم الله، وأُهين من أهان الله. وكذلك كان سليمان يُعطي الأغنياء ولا يُعطي الفقراء، ويقول: أُصلح ما أصلح الله، وأُفسد ما أفسد الله.

---

[٢٢] كان عُبيد الله بن زياد بن ظبيان شجاعًا باسلًا، وفاتكًا جريئًا، وخطيبًا مُبينًا، ومِنطيقًا بليغًا. وكان يوم البشر على جند العراق من بكر بن وائل. قتل مصعب بن الزبير أخاه أبان بن زياد بن ظبيان في ضِمن حروبه ضد عبد الملك بن مروان، فحقدها عليه عبيد الله، فلما ولي مصعب العراق لأخيه عبد الله كان ابن ظبيان على رأس عسكر مما سيَّره عبد الملك إليه، فلما تفرَّق أكثر الجند عن مصعب ولم يبقَ معه أكثر من سبعة رجال، تقدَّم إليه عُبيد الله ودعاه إلى المبارزة، فقال له مصعب: اعزب يا كلب! وشد عليه فضربه على البيضة فهشَّمها وجرحه. فرجع عُبيد الله فعصب رأسه، ثم عاد إليه وحمل عليه فصُرِع مصعب بين يدَيه. قال عُبيد الله بن ظبيان: فلما وُضع رأس مصعب بين يدَي عبد الملك سجد، فهمَمتُ والله أن أقتله فأكون أفتك العرب؛ لقَتْلي ملكَين من قريش في يومٍ واحد، ثم وجدت نفسي تُنازعني إلى الحياة فأمسكت. وقيل لعُبيد الله بن زياد بن ظبيان: بماذا تحتجُّ عند الله من قتلك لمصعب؟ فقال: إن تُركت أحتجُّ رجَوت أن أكون أخطب من صعصعة بن صوحان. وقال له مالك بن مسمع يومًا: أكثر الله في العشيرة مِثلك. فقال: لقد سألتَ الله شططًا. وقيل: كان ابن ظبيان بعد قتله مصعبًا لا ينتفع بنفسه في نومة ولا يقظة، كان يهول عليه في منامه فلا ينام حتى كلَّ جسمه ونهك، فلم يزَل كذلك حتى مات.

وقال الفرزدق: ما عيِيتُ بجوابِ أحدٍ قطُّ ما عيِيتُ بجواب مجنون بدَير هرقل، دخلت إليه فإذا هو مشدود إلى أسطوانة، فقلت: بلَغني أنك حاسب. قال: ألقِ عليَّ ما شئت. فقلت: أمسِكْ معك خمسة وجُلِدتَها. قال: نعم. قلت: أمسِكْ أربعة وجُلِدتَها. قال: نعم. فقلت: كم معك؟ قال: تسعة وجُلِدتَها مرتَين.

وكان زُريق الفزاري يمرُّ بالليل وهو شاربٌ فيَشتمُ أهل المجلس، فلما أن كان بالغداة عاتَبوه، قال: نعم، زَنَّيت أمهاتكم، فماذا عليكم؟

وخطب يومًا عتَّاب بن ورقاء فقال: هذا كما قال الله تبارك وتعالى: إنما يتفاضل الناس بأعمالهم، وكل ما هو آتٍ قريب. قالوا له: إن هذا ليس من كتاب الله. قال: ما ظننت إلا أنه من كتاب الله.

وخطب عدي بن زياد الإيادي فقال: أقول كما قال العبد الصالح: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾. قالوا له: ليس هذا من قولِ عبدٍ صالح، إنما هو من قول فرعون. قال: من قاله فقد أحسن. وقال أعرابي:

خَلَقَ السَّماءَ وأهْلَها في جُمعةٍ وأبوكَ يَمدُرُ حَوضَه في عامِ

وكان عبد الملك بن مروان أول خليفة من بني أمية منع الناس من الكلام عند الخلفاء، وتقدَّم فيه وتوعَّد عليه، وقال: إن جامعة عمرو بن سعيد بن العاص عندي، وإني والله لا يقول أحدكم هكذا إلا قلت به هكذا. وفي خطبة له أخرى: إني والله ما أنا بالخليفة المستضعَف — وهو يعني عثمان بن عفان — ولا أنا بالخليفة المُداهن — يعني معاوية — ولا أنا بالخليفة المأبون. يعني يزيد بن معاوية.

قال أبو إسحاق: والله لولا نَسبُك من هذا المستضعَف، وسببك من هذا المُداهن، لكنتَ منها أبعَدَ من العَيُّوق. والله ما أخذتَها من جهة الميراث، ولا من جهة السابقة، ولا من جهة القرابة، ولا تدَّعي شورى ولا وصية.

قال أبو الحسن: دخل كَردَم السدوسي على بلال بن أبي بُردة، فدعاه إلى الغداء، فقال: قد أكلت. قال: وما أكلت؟ قال: قليلَ رزٍّ فأكثرت منه. ودخل كردم الذرَّاع أرض قوم يذرِّعها، فلما انتهى إلى زنَقة منها لم يُحسِن تذريعها، قال: هذه ليست لكم. قالوا: هي لنا ميراث، وما نازَعَنا فيها إنسانٌ قط. قال: لا والله ما هي لكم. قالوا: فحصِّل لنا حساب ما لا نشكُّ فيه. قال: عشرين في عشرين مائتين. قالوا: من أجل هذا الحساب صارت الزنقة ليست لنا.

ودخل عُكابة بن نُميلة النُّميري دار بلال بن أبي بردة، فرأى ثورًا مُجلَّلًا، فقال: ما أفرَهَه من بغل لولا أن حوافره مشقوقة.

ومن النَّوكى، وممن ربما عدُّوه في المجانين، «ابن فِنان» الأزدي، وضرب به المثَلَ ابنُ ضبٍّ العَتَكي في قوله لجُديع بن علي، خال يزيد بن المهلب، حيث قال:

لولا المُهلَّب يا جديعُ ورُسْلُه   تَغدُو عليكَ لكُنتَ كابْنِ فِنانِ
أنتَ المُردَّدُ في الجِيادِ وإنَّما   تأتي سُكَيتًا كلَّ يومِ رِهانِ

وقال آخر يهجو امرأته بأنها مِضياعٌ خرقاء:

وإنَّ بَلائي من دَرِينةَ كُلَّما   رجَوتُ انتعاشًا أدرَكَتْني بِعاثِرِ
تُبرِّدُ ماءَ السُّعْنِ في ليلةِ الصَّبا   وتستعملُ الكركورَ في شَهرِ ناجِرِ[٢٣]

وفي خطأ العلماء قال أبو الحسن، قال الشَّعبي: سايَرتُ أبا سَلمة بن عبد الرحمن بن عوف[٢٤] فكان بيني وبين أبي الزِّناد،[٢٥] فقال: بينكما عالم أهل المدينة. فسألته امرأة عن مسألة فأخطأ فيها.

وقال طَرَفة بن العبد[٢٦] يهجو قابوس بن هند الملك:

---

[٢٣] السعن: قِربة تُقطع من نِصفها ويُنبذ فيها، وقد يُستقى بها، وقد يُجعل فيها الغزل والقطن. شهر ناجر: أحد شهور الصيف.

[٢٤] أبو سلمة: هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف. كان من خيار التابعين، وكان فقيهًا يُحمل عنه الحديث. مات سنة ١٠٤هـ/٧٢٢م.

[٢٥] أبو الزناد: هو عبد الله بن ذكوان، مولى رملة زوجة عثمان بن عفان. كان ورِعًا تقيًّا. ولَّاه عمر بن عبد العزيز خراج العراق مع عبد الحميد الخطابي. مات فجأةً في شهر رمضان سنة ١٣٠هـ/٧٤٧م.

[٢٦] طرفة بن العبد: هو الشاعر الفتي الجاهلي المعروف، يُعَد في شعراء الطبقة الأولى. وهذه الأبيات التي أوردها الجاحظ هي من قصيدةٍ يهجو بها عمرو بن هند ملك الحيرة وأخاه قابوس بن المنذر، وقبلها:

فلَيتَ لنا مَكانَ المَلكِ عَمرٍو   رغوثًا حولَ قُبَّتِنا تَدورُ
من الزَّمِراتِ أسبَلَ قادِماها   وضَرَّتُها مركَّنةٌ درورُ
يُشارِكُنا لنا رَخِلانِ فيها   وتعلوها الكِباشُ فما تنورُ

ومات طرفة في خبرٍ طويلٍ سنة ٥٦٤م.

لَعَمرُكَ إنَّ قابوسَ بنَ هندٍ ليَخلِطُ مُلْكَه نَوْكٌ كثيرُ
قسَمتَ الدَّهرَ في زمنٍ رَخِيٍّ كذاك الحُكمُ يَقصِدُ أو يَجُورُ
لنا يومٌ وللكِرْوانِ يومٌ تَطِيرُ البائساتُ ولا نَطيرُ
فأمَّا يومُنا فنَظلُّ رَكْبًا وُقوفًا ما نَحُلُّ وما نَسِيرُ
وأما يومُهنَّ فيَومُ سُوءٍ يُطارِدُهنَّ بالحَدَبِ الصُّقورُ

الفلوشكي قال: قلت لأعرابي: أيَّ شيءٍ تقرأ في صلاتك؟ قال: أُمَّ الكتاب، ونِسبة الرب، وهِجاء أبي لهب.

وكان الفلوشكي البكرادي أجنَّ الناس وأعيا الخلق لسانًا، وكان شديد القمار، شديد اللعب بالودع. قال ابن عم له: وقفتُ على بقيَّة تَمْر في بَيدَر لي، فأردت أن أعرفه بالحَزْر، ومعنا قومٌ يُجيدون الخَرْص، وقد قالوا فيها واختلفوا، فهجم علينا الفلوشكي فقلت له: كم تَحزُر هذا التَّمر؟ قال: أنا لا أعرف الأكرار وحساب القُفْزان، ولكنْ عندي مِرجلٌ أطبخ فيه تمرَ نبيذي، وهو يسع مكُّوكَين، وهذا التمر يكون فيه مائتَين وستِّين مِرجلًا، فلا والله إنْ أخطأ بقفيزٍ واحد.

قال المهلب، والأزد حوله: أرأيتم قول الشاعر:

إذا غَرَزَ المَحالِبُ أتْأَقَتْه يَمُجُّ على مَناكِبِه الثُّمالا[٢٧]

وإلى جَنْب غَيلان بن خرَشة شيخٌ من الأزد، فقال له: قل: هو ابن الفحل. فقالها، فقال المهلب: ويلكم، ما جالستم الناس؟

وأنشد بعض أصحابنا:

أَلِكْنِي إلى مَولى أُكَيمةَ وانْهَهُ وهل ينتهي عن أوَّلِ الزَّجرِ أحمَقُ[٢٨]

وزعم الهيثم بن عدي عن رجاله أن أهل يَبرين[٢٩] أخَفُّ بني تميم أحلامًا، وأقلُّهم عقولًا.

---

[٢٧] غرز المحالب: قل اللبن في آنية الحلب. أتأقته: أترعته حتى تمج نواحيه. الثمالا: الزائد.

[٢٨] ألكني: احمل عني الألوكة، وهي الرسالة.

[٢٩] يبرين: بلد بالبحرين.

قال الهيثم: ومن النَّوكى «عُبيد الله بن الحُر»، وكُنيته «أبو الأبرش».

قال الهيثم: خطب قَبيصة،[٣٠] وهو خليفة أبيه على خُراسان وأتاه كتابه، فقال: هذا كتاب الأمير، وهو والله أهلٌ لأن أُطيعه، وهو أبي وأكبر مني.

وكان، فيما زعموا، ابن السعيد الجوهري يقول: صلَّى الله تبارك وتعالى على محمد ﷺ.

قال أبو الحسن: صَعِد عدي بن أرطاة المِنبر، فلما رأى جماعة الناس حَصِر فقال: الحمد لله الذي يُطعِم هؤلاء ويسقيهم.

وصعِد روح بن حاتم المنبر، فلما رآهم قد شفَنوا أبصارهم[٣١] وفتحوا أسماعهم نحوه، قال: نكِّسوا رءوسكم، وغُضُّوا أبصاركم؛ فإن المنبر مركزٌ صعب، وإذا يسَّر الله فتْحَ قُفلٍ تيسَّر.

قالوا: وصعِد عثمان بن عفان، رضي الله تعالى عنه، المنبر فأُرتِج عليه، فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدَّان لهذا المقام مقالًا، وأنتم إلى إمامٍ عادل أحوَجُ منكم إلى إمامٍ خطيب.

قالوا لزياد الأعجم: لِمَ لا تهجو جريرًا؟ قال: أليس الذي يقول:

كأنَّ بَني طُهَيَّةَ رَهطَ سَلْمى حجارةُ خارِئٍ يَرْمي كِلابا

قالوا: بلى. قال: ليس بيني وبين هذا عمل.

قال أبو الحسن: خطب مُصعب بن حيَّان أخو مُقاتل بن حيَّان خطبة نكاح، فحَصِر فقال: لقِّنوا موتاكم قول لا إله إلا الله. فقالت أم الجارية: عجَّل الله موتك! ألهذا دعَوناك؟

وخطب أمير المؤمنين الموالي — وهكذا لقبُه — خطبة نكاح، فحَصِر، فقال: اللهم إنا نحمدك ونستعينك ولا نشكرك.

وقال مولًى لخالد بن صفوان: زوِّجني أمَتَك فلانة. قال: قد زوَّجتُكها. قال: أفأُدخِل الحيَّ حتى يحضروا الخِطبة؟ فقال: أدخلهم. فلما دخلوا ابتدأ خالد فقال: أما بعد، فإن الله أجَلُّ وأعَزُّ مِن أن يُذكَر في نكاح هذين الكلبَين، وقد زوَّجْنا هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة.

---

[٣٠] قبيصة: هو قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة.

[٣١] شفنوا أبصارهم: رمَوه بأنظارهم.

وقال إبراهيم النخعي لمنصور بن المعتمر: سَلْ مسألة الحمقى، واحفظ حِفظ الأكياس.

ودخل كُثيِّر عَزَّة — وكان مُحمَّقًا، ويُكنى أبا صخر — على يزيد بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، ما يعني الشمَّاخ بن ضِرار بقوله:

إذا الأرْطى تَوسَّدَ أبْرَدَيه خُدودَ جَوازِئٍ بالرَّمْلِ عِينِ

قال يزيد: وما يضرُّ أميرَ المؤمنين ألا يعرف ما عنى هذا الأعرابي الجِلف؟ واستحمقه وأخرجه.

وكان عامر بن كُريز يُحمَّق، قال عوانة: قال عامر لأمِّه: يا أمَّه، مِسستُ اليوم بُرْد العاص بن وائل السهمي. فقالت: ثَكلتْك أمُّك! رجل بين عبد المطلب بن هاشم وبين عبد شمس بن عبد مناف يفرح أن تُصيب يده بُرْد رجل من بني سهم؟

ولما حَصِر عبد الله بن عامر على منبر البصرة فشقَّ ذلك عليه، قال له زياد: أيها الأمير، إنك إن أقمت عامَّةَ من ترى أصابه أكثر مما أصابك.

وقيل لرجل من الوجوه: قم فاصعد المنبر وتكلَّمْ. فلما صعِد حصِر وقال: الحمد لله الذي يرزق هؤلاء. وبقي ساكتًا، فأنزلوه. وصعِد آخَر، فلما استوى قائمًا وقابَل بوجهه وجوه الناس، وقعت عينه على صَلعة رجل، فقال: اللهم الْعَن هذه الصَّلعة.

وقيل لوازعٍ اليَشكُري: قم فاصعد المِنبر وتكلَّمْ. فلما رأى جَمْع الناس قال: لولا أن امرأتي، لعنها الله، حمَلَتني على إتيان الجمعة اليوم ما جمَّعت، وأنا أُشهدكم أنها مني طالق ثلاثًا.

ولذلك قال الشاعر:

وما ضرَّني ألا أقومَ بخُطبةٍ وما رَغْبتي في ذا الذي قالَ وازعُ

ودخلت على أنس بن أبي شيخ، وإذا رأسه على مِرفقه والحجَّام يأخذ من شعره، فقلت له: ما يحملك على هذا؟ قال: الكسل. قلت: فإن لقمان قال لابنه: إيَّاك والكسل، وإيَّاك والضجر؛ فإنك إذا كسِلتَ لم تؤدِّ حقًّا، وإذا ضجِرت لم تصبر على حق. قال: ذاك والله أنه لم يعرف لذة الكسولة.

وقيل لبحر بن الأحنف: ما يمنعك أن تكون مِثل أبيك؟ قال: الكسل.

وقال الآخر:

أطالَ اللهُ كَيْسَ بَني رَزينِ　　وحُمْقي أنْ شَرِبتُ لهم بدِيني
أأكتبُ إبلَهم شاءً وفيها　　بِرَيعِ فِصالِها بِنْتَا لَبُونِ[٣٢]
فما خُلِقوا بكَيسِهِمُ دُهاةً　　ولا مُلَجاءَ بعدُ فيُعجِبوني[٣٣]

وذكر آخَر الكَيسَ في معاتبته لبني أخيه، حين يقول:

عفاريتًا عليَّ وأكْلِ مالي　　وعجزًا عن أُناسٍ آخَرينا
فهلَّا غيْرَ عَمِّكم ظلَمتُم　　إذا ما كُنتُمُ مُتظلِّمينا[٣٤]
فلو كنتُم لكَيِّسةٍ أكاسَت　　وكَيسُ الأُمِّ أكيَسُ للبَنِينا[٣٥]

وقال بعضهم: عيادة النَّوكى الجلوس فوق القَدْر، والمجيء في غير وقت.

وعاد رجل رقبةَ بن الحُر، فنعى رجالًا اعتلُّوا مِثل عِلَّته، فنعى بذلك إليه نفسه، فقال له رقبة: إذا دخلتَ على المرضى فلا تَنعَ إليهم الموتى، وإذا خرجتَ من عندنا فلا تعُد إلينا.

وسأل معاوية ابنَ الكوَّاء عن أهل الكوفة، فقال: أبحَثُ الناس عن صغيرة، وأترَكُهم لكبيرة.

وسئل شَريك عن أبي حنيفة فقال: أعلَمُ الناس بما لا يكون، وأجهَلُ الناس بما يكون.

وسأل معاوية دَغفلًا النسَّابة عن اليمن، فقال: سيِّد وأنوَك.

وذُكِر عُيينة بن حِصن[٣٦] عند النبي ﷺ، فقال: الأحمق المُطاع.

وجُن أعرابي من أعراب المربد، ورماه الصِّبيان، فرُجم، فقالوا له: أمَا كنت وقورًا حليمًا؟ فقال: بلى بأبي أنتم وأمي، والله ما استُحمقت إلا قريبًا. وكان أول جنونه من

---

[٣٢] بنتا لبون: ناقتان صغيرتان.

[٣٣] الملجاء: الرجال الأجلَّاء.

[٣٤] متظلمينا: هنا بمعنى ظالمين.

[٣٥] أكاست: ولدتكم كيسى عُقلاء.

[٣٦] كان في الأصل: عُتيبة بن حصين، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

عبث الناس به. ورمى إنسانًا فشجَّه، فتعلَّق به وهو لا يعرفه، وضمَّه إلى الوالي، فقال له الوالي: ولِمَ رمَيت هذا وشجَجته؟ قال: أنا لم أرمِه، هو دخل تحت رميتي.

وكان وكيع بن الدَّورقية[٣٧] يُحمَّق. قال الوليد بن هشام القَحذمي أبو عبد الرحمن، قال أخبرني أبي، قال: لما قدِم أمية[٣٨] خُراسان قيل له: لِمَ لا تُدخِل وكيع بن الدورقية في صحابتك؟ قال: هو أحمق. فرَكِب يومًا وسايَره فقال له: ما أعظمَ رأس بِرْذَونك! قال: قد كفاك الله حَمْله. ثم سايَره قليلًا فقال: أصلحك الله، أرأيتَ يوم لقيتَ أبا فُدَيك[٣٩] ما منعك أن تكون قدَّمت رِجلًا وأخَّرت رِجلًا، وداعَستَ بالرمح حتى يفتح الله عليك؟ قال: أعزِبْ، قبحك الله. وأمر به فنُحِّي.

وسايَر سعيد بن سَلم موسى أمير المؤمنين، والحَربة في يد عبد الله بن مالك، وكانت الريح تَسْفي التراب الذي تُثيره دابَّةُ عبد الله بن مالك في وجه موسى، وعبد الله لا يشعر بذلك، وموسى يَحِيد عن سَنن التراب، وعبد الله فيما بين ذلك يلحظ موضع مسير موسى، فيتكلف أن يسير على مُحاذاته، وإذا حاذاه ناله ذلك التراب، فلما طال ذلك عليه أقبل على سعيد بن سلم فقال: ألا ترى ما نَلقى من هذا المائق في مَسيرنا هذا؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما قصَّر في الاجتهاد، ولكنه حُرِم التوفيق.

وسايَر البِطريق الذي خرج إلى المُعتصم من سور عمُّوريَّة محمد بن عبد الملك،[٤٠] والأفشِين بن كاوُس،[٤١] فساوَم كلَّ واحد منهما بِبرذَونه، وذكر أنه كان يرغِّبهما أو

---

[٣٧] وكيع بن الدورقية: هو وكيع بن حسان بن أبي سود، المارُّ ذِكره.

[٣٨] أمية: هو أمية بن عبد الله بن أسيد.

[٣٩] أبو فديك: هو عبد الله بن ثور بن سَلمة، أبو فديك الخارجي. خرج في سنة ٧٢ باليمن، فغلب على البحرين، وقتل نجدة بن عامر الحنفي رأس الخوارج هناك. فسيَّر عليه خالد بن عبد الله بن أسيد أخاه أمية بن عبد الله بن أسيد في جيشٍ كثيف، فهزمه أبو فديك، ونجا أمية على فرس له لا يلوي على شيء حتى دخل البصرة في ثلاثة أيام. ولما استشرى شرُّه سيَّر إليه عبد الملك بن مروان عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي في عشرة آلاف في خيرة الجند، فلما ورَدوا البحرين صمد لهم أبو فديك وقاتلهم أشد قتال. وإذ رأى عمر بن عبد الله ما هو عليه من القوة جدَّ في قتاله، وما زال به حتى قتله، واستباح عسكره، وقتل من أتباعه مَقتلةً عظيمة، ثم عاد بجنوده وأسْراه إلى البصرة، وذلك في سنة ٧٣هـ/٦٩٢م.

[٤٠] محمد بن عبد الملك: هو محمد بن عبد الملك الزيَّات. كان أبوه تاجرًا في أيام المأمون غنيًّا مُوسرًا، ونشأ محمدٌ نشأة أهل اليسار، فتأدَّب وقرأ وفَهِم. وكان ذكيًّا فطِنًا، فبرَع في كل شيء ألمَّ به حتى صار نادرةَ وقته عقلًا وفهمًا وذكاءً، وبلاغةً في الكتابة، وفصاحةً في الشعر، وسعةً في المعارف والآداب، وكان ذا خبرة بآداب الرياسة وقواعد الملوك. سأله أبوه العمل معه في تجارته فأبى، والتَحق بالديوان، وكتب

يُربِحهما. فإذا كان هذا أدب البطريق مع محلِّه من الملك والمملكة، فما ظنُّك بمن هو دونه منهم؟! ولما استجلس المعتصم بطريق خَرشَنة تربَّع ومدَّ رجلَيه.

(٤) واجبات الملوك والأمراء

قال زياد: وقرأت مِثل كُتُب الربيع بن زياد الحارثي، ما كتب إليَّ إلا في اجترار مَنفعة أو دفع مَضرَّة، وما كان في مَوكبي قطُّ فتقدَّم عِنانُ دابَّته عِنانَ دابَّتي، ولا مسَّت رُكبتُه رُكبتي، ولا شاورت الناس قطُّ في أمر إلا سبقهم إلى الرأي فيه.

للوزراء، واشتهر حتى صار من كُتَّاب الدولة العباسية، وظل كذلك إلى أن ورَد كتاب من بعض العُمال على المعتصم يذكُر فيه خِصب الناحية وكثرة الكلأ، فسأل المعتصم وزيره أحمد بن عمار عن الكلأ فلم يدرِ ما يقول، فدعا محمد بن عبد الملك الزيَّات — وكان أحد خواصه وأتباعه — فسأله عن الكلأ، فقال: أول النبات يُسمَّى بَقلًا، فإذا طال قليلًا فهو الكلأ، فإذا يبس وجفَّ فهو الحشيش. فصرف المعتصم أحمد بن عمار واستوزر محمد بن عبد الملك الزيَّات، فنهض بأعباء الوزارة نهوضًا لم يكُن لمن تقدَّمه من أضرابه. وكان جبَّارًا غليظ القلب، فظًّا مُتكبرًا، خشِن الجانب، مبغَّضًا إلى الخلق. ومات المعتصم وهو على وزارته. وقد كان المعتصم أمر لابنه الواثق بمال، فأشار ابن الزيات على المعتصم بألا يُعطيَه شيئًا، فرجع فيما كان أمر به، فلما علِم الواثق بما فعله ابن الزيَّات حقد عليه، وكتب بخطه عهدًا ليقتلنَّ ابن الزيات متى ولِي الخلافة شرَّ قِتلة. فلما ولِي الخلافة بعد وفاة أبيه المعتصم قال للحاجب: أدخِلْ إليَّ عشرة من الكُتَّاب. فلما أُدخلوا عليه اختبرهم فما أرضاه واحد منهم، فقال للحاجب: أدخِلْ مَن الملك مُحتاج إليه؛ محمد بن الزيات. فلما مثَل بين يدَيه قال لخادم: أحضِرْ إليَّ المكتوب الفلاني. فأحضر له ذلك العهد، فدفعه إلى ابن الزيات، وقال: اقرأه. فلما قرأه قال: يا أمير المؤمنين، أنا عبدٌ إن عاقبتَه فأنت حاكم فيه، وإن كفَّرت عن يمينك واستبقيته كان أشبه بك. فقال الواثق: والله ما أبقيتك إلا خوفًا من خُلوِّ الدولة من مِثلك، وسأكفِّر عن يميني؛ فإني أجد عن المال عوضًا ولا أجد عن مِثلك عوضًا. ثم كفَّر عن يمينه، واستوزره، وقدَّمه وفوَّض الأمور إليه. وظل في وزارته إلى أن مات الواثق ووِلي أخوه المتوكل، فقبض عليه وقتله في تنُّوره سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م.

[٤١] الأفشين بن كاوس: اسمه خيذر. كان من أعظم قُواد الدولة العباسية، ومن ذوي النفوذ والسلطان في عهد المعتصم. وهو الذي حارَب بابك الخرمي الذي خرج على الدولة، وغلب على جبل طبرستان عشرين سنة، وعظُم أمره، واشتدَّت شوكته، وهزم كثيرًا من جند الدولة. فسيَّر إليه المعتصم قائده العظيم الأفشين، فجرَت له معه معارك شديدة في مدةٍ طويلة، ثم انتصر عليه الأفشين، واستولى على مدينة البذ، وأسَرَه ومن كان معه من خاصة أنصاره، واقتادهم إلى المعتصم، فأراح الدنيا منهم. وكان للأفشين غير ذلك بَلاءٌ عظيم في حروب الدولة، غير أن المعتصم كشف عليه أمورًا خطيرة أحفظته عليه، فحبسه حتى مات، ثم صلبه، ثم أحرق جُثَّته في خبرٍ يطولُ سنة ٢٢٦هـ/٨٤٠م.

كان على شُرَط زياد عبدُ الله بن الحُصين صاحب مقبرة بني حصين، والجعد بن قيس النمري صاحب طاق الجعد، وكانا يتعاقبان مجلس صاحب الشرطة، فإذا كان يوم حَمْل الحَربة سارا بين يدَيه معًا، فجرى بينهما كلام وهما يسيران بين يدَيه، فكان صوت الجعد أرفع، وصوت عبد الله أخفض، فقال زياد لصاحب حربته: تناوَلِ الحَربة من يد الجعد ومُرْه بالانصراف إلى منزله.

وعدا رجل من أهل العسكر بين يدَي المأمون، فلما انقضى كلامه قال له بعض من يسير بقربه: يقول لك أمير المؤمنين: اركب. قال المأمون: لا يُقال لِمثل هذا اركب، إنما يقال لِمثل هذا: انصرِف.

وكان الفضل بن الربيع يقول: مُساءلة الملوك عن أحوالهم من تحيَّة النَّوكى، فإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير؟ فقُل: صبَّح الله الأمير بالكرامة. فإذا أردت أن تقول: كيف يجد الأمير نفسه؟ فقُل: أنزَل الله على الأمير الشفاء والرحمة. والمُساءلة توجِب الجواب، فإن لم يُجِبك اشتدَّ عليك، وإن أجابك اشتدَّ عليه.

وقال محمد بن الجهم: دخلت على المأمون فقال لي: ما زال أمير المؤمنين إليك مُشتاقًا. فلم أدرِ ما جواب هذه الكلمة بعينها، وأخذت لا أقصِّر فيما قدرت عليه من الدعاء ثم الثناء.

قال أبو الحسن، قال ابن جابان، قال المهدي: كان شَبيب بن شَيبة يُسايرني في طريق خراسان فيتقدَّمني بصدر دابَّته، فقال لي يومًا: ينبغي لمن سايَر خليفةً أن يكون بالموضع الذي إذا أراد الخليفة أن يسأله عن شيء لا يلتفت إليه، ويكون من ناحية إن التفت لم تستقبله الشمس. قال: فبينما نحن كذلك إذ انتهينا إلى مخاضة، فأقحمت دابَّتي، ولم يقِف واتبعني، فملأ ثيابي ماءً وطينًا، فقلت: يا أبا مَعمر، ليس هذا في الكتاب.

(٥) رجعٌ إلى النَّوكى

قال الهيثم بن عدي: كنت قائمًا إلى حُميد بن قَحطبة وهو على بِرذَون، فتفاجَّ البِرذَون ليبول، فقال لي: تنحَّ لا يُهريق عليك البِرذَون الماء.

وجاء رجل إلى محمد بن حرب الهلالي بقوم فقال: إن هؤلاء الفُسَّاق ما زالوا في مسيس هذه الفاجرة. قال: ما ظننت أنه بلَغ من حُرمة الفواجر ما ينبغي أن يُكنَّى عن الفجور بهن.

وقلت لرجل من الحُسَّاب: كيف صار البرذَون المُتحصن إلى البَغلة أحرص منه على الرَّمَكة، والرَّمَكة أشكَلُ بطبعه؟ قال: بلَغني أن البغلة أطيب خلوةً.

وقال صديق لنا: بعث رجلٌ وكيله إلى رجل من الوجوه يقتضيه مالًا له عليه، فرجع إليه مضروبًا، فقال: ما بالك ويلك؟ قال: سبَّك فسبَبتُه فضربني. قال: وبأي شيء سبَّني؟ قال: قال: هَنُ الحمار في حِرِ أمِّ مَن أرسلك. قال: دعني من افترائه عليَّ، أنت كيف جعلت لأيْر الحمار من الحُرمة ما لم تجعله لحِرِ أمِّي؟ فهلَّا قلت: أير الحمار في هنِ أمِّ من أرسلك؟

أبو الحسن قال: كان رجل من ولد عبد الرحمن بن سَمُرة أراد الوثوب بالشام، فحُمِل إلى المهدي، فخلَّى سبيله وأكرمه وقرَّب مجلسه، فقال له يومًا: أنشِدْني قصيدة زهير التي أولها «لمن الديار بِقُنة الحَجر» وهي التي على الراء:

لِمَن الدِّيارُ بِقُنَّةِ الحجرِ   أقوَينَ مِن حِججٍ ومن شهرِ[٤٢]

فأنشده، فقال المهدي: ذهب والله من يقول مِثل هذا. قال السَّمري: وذهب والله من يُقال فيه مِثل هذا. فغضب المهدي واستجهله، ونحَّاه ولم يُعاقبه، واستحمقه الناس.

ولما دخل خالد بن طُليق على المهدي مع خصومه وأنشد قول شاعرهم:

إذا القُرَشيُّ لم يَضرِبْ بعِرقٍ   خُزاعيٍّ فليس من الصَّميمِ

فغضِب المهدي وقال: أحمق. فأنشد خالد فقال:

إذا كنتَ في دارٍ فحاوَلتَ رِحلةً   فدَعْها وفيها إنْ أردتَ مَعادُ

فسكن عند ذلك المهدي. وقال بشَّار:

خليليَّ إنَّ العُسرَ سوف يُفيقُ   وإنَّ يسارًا من غدٍ لَخَليقُ
وما كنتُ إلا كالزَّمانِ إذا صحا   صحَوتُ وإنْ ماقَ الزَّمانُ أمُوقُ

[٤٢] القنة: أعلى الجبل. ومُراد الشاعر ها هنا ما أشرف من الأرض. والحجر: موضع بعينه هو حجر اليمامة. أقوين: خلون وأقفرن. والحجج: السنون. وراجع ما حقَّقناه عن هذه الأبيات في ترجمة المفضَّل الضبِّي التي حرَّرناها وصدَّرنا بها المفضَّليات المشروحة بقلمنا.

قالوا: ومن النَّوكى «أبو الربيع العامري»، واسمه عبد الله، وكان وليَّ بعض منابر اليمامة، وفيه يقول الشاعر:

شَهِدتُ بأنَّ اللهَ حقٌّ لِقاؤُه وأنَّ الرَّبيعَ العامريَّ رَقيعُ
أقادَ لنا كَلبًا بكَلبٍ ولم يَدَعْ دِماءَ كلابِ المُسلِمينَ تَضيعُ

قالوا: ومن النوكى «ربيعة بن عِسْل»، أحد بني عمرو بن يربوع، وأخوه «صبيع بن عِسل». وفد ربيعة على معاوية، فقال معاوية: ما حاجتك؟ قال: زوِّجني ابنتك. قال: اسقوا ابن عِسل عسلًا. فأعاد عليه، فأعاد عليه العسل ثلاثًا، فتركه وقد كاد تنقدُّ بطنه. قال: فاستعمِلني على خُراسان. قال: زيادٌ أعلم بثغوره. قال: فاستعمِلني على شُرطة البصرة. قال: زيادٌ أعلم بشُرطته. قال: فاكسني قطيفة. أو قال: هَبْ لي مائة ألف جذع لداري. قال: وأين دارك؟ قال: بالبصرة. قال: كم ذرعها؟ قال: فرسخان في فرسخَين. قال: فدارك في البصرة أو البصرة في دارك؟

قال عوانة: استعمل معاوية رجلًا من كلب، فذكر يومًا المجوس وعنده الناس، فقال: لعن الله المجوس، ينكحون أمهاتهم، والله لو أُعطيت مائة ألف درهم ما نكحت أمي. فبلَغ ذلك معاوية فقال: قاتَله الله، أترَونه لو زاده على مائة ألف فعل؟ فعزله.

أبو الحسن: وفد ربيعة بن عسل، وهو من بني عمرو بن يربوع، على معاوية، فقال لمعاوية: أعنِّي بعشرة آلاف جذع في بناء داري بالبصرة. فقال له معاوية: كم دارك؟ قال: فرسخان في فرسخين. قال معاوية: هي في البصرة أم البصرة فيها؟ قال: بل هي في البصرة. قال معاوية: فإن البصرة لا تكون هذا.[٤٣]

وقال أبو الأحوص الرياحي:

ليس بيَربُوعٍ إلى العقلِ حاجةٌ سوى دَنَسٍ تَسوَدُّ منه ثِيابُها
فكيف بنَوكى مالكٍ إنْ كفَرتُمُ لهم هذه أو كيفَ بعدُ خِطابُها؟
مَشائمُ ليسوا مُصلِحينَ عَشيرةً ولا ناعبٍ إلا ببَينٍ غُرابُها

[٤٣] هذه الرواية التي رواها الجاحظ عن أبي الحسن كانت مُضطربة في الأصل اضطرابًا غريبًا، فأقمنا أودها على هذه الصورة. على أننا كنا اعتزمنا حذفها لأنها رُويت قبل ذلك بأسطر، ولكنا آثرنا إصلاحها وإبقاءها ضنًّا بمرويات الجاحظ أنى كانت.

الهيثم، عن الضحَّاك بن رُمَل قال: بيْنا «معاوية بن مروان» واقف بدمشق ينتظر عبد الملك على باب طحَّان، وحمار له يدور بالرَّحى وفي عنقه جُلجُل، إذ قال للطحَّان: لِمَ جعلتَ في عنق هذا الحمار هذا الجلجل؟ قال: ربما أدركتني سآمة أو نَعسة، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علِمت أنه قد قام فصِحتُ به. قال معاوية: أفرأيت إن قام ثم قال برأسه هكذا وهكذا — وجعل يُحرك رأسه يَمنةً ويَسرة — وما يُدريك أنت أنه قائم؟ فقال الطحَّان: ومن لي بحمار بعقل مِثل عقل الأمير؟

ومعاوية بن مروان هذا هو الذي قال لأبي امرأته: ملأتْنا ابنتك البارحةَ بالدم؟ قال: إنها من نسوةٍ يَخبَأن ذلك لأزواجهنَّ.

وصعِد يوسف بن عمر المِنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد قتل الله زيدًا ونصر بن سيَّار. يريد نصر بن خُزيمة.

وقال علي الأسواري: عمر بن الخطاب معلَّقٌ بشعرة. قلت: وما صيَّره إلى ذلك؟ قال: لِما صنَع بنصر بن سيَّار. يريد نصر بن الحجَّاج بن عِلاط.

وقالوا: أحبَّ الرشيد أن ينظر إلى أبي شُعيب القلَّال كيف يعمل القِلال، فأدخلوه القصر وأتَوه بكل ما يحتاج إليه من آلة العمل، فبينا هو يعمل إذا هو بالرشيد قائمٌ فوق رأسه، فلما رآه نهض قائمًا، فقال له الرشيد: دونك ما دُعيتَ له؛ فإني لم آتِك لتقوم إليَّ، وإنما أتيتك لتعمل بين يديَّ. قال: وأنا لم آتِك ليسوء أدبي، وإنما أتيتك لأزداد بك في كثرة صوابي. فقال له الرشيد: إنما تعرَّضتَ لي حين كسَدت سوقك. قال أبو شعيب: يا سيد الناس، وما كساد عملي في جلال وجهك؟ فضحِك الرشيد حتى غطَّى وجهه، ثم قال: والله ما رأيت أنطَقَ منه أولًا، ولا أعيا منه آخرًا، ينبغي لهذا أن يكون أعقل الناس أو أجنَّ الناس.

عبد الله بن شدَّاد قال: أرى داعيَ الموت لا يُقلِع، وأرى من مضى لا يرجع، ومن بقي فإليه يَنزع. ولا تزهدنَّ في معروف؛ فإن الدهر ذو صروف؛ فكم من راغب قد كان مرغوبًا إليه، وطالب قد كان مطلوبًا إليه، والزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان يرَ الهوان.

الفرج بن فُضالة، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن علي، عن أبيه، عن النبي ﷺ، قال: «إذا فعلت أمَّتي خمس عشرة خصلةً حلَّ بها البلاء؛ إذا أكلوا الأموال دولًا، واتخذوا الأمانة مَغنمًا، والزكاة مَغرمًا، وأطاع الرجل زوجته، وعقَّ أمَّه، وبرَّ صديقه، وجفا أباه، وارتفعت الأصوات في المساجد، وأُكرِم الرجل مَخافة شره، وكان زعيم القوم أرذلهم، وإذا لُبِس الحرير، وشُرِبت الخمور، واتُّخذت القِيان والمعازف، ولعَن آخَر هذه الأمة أولها؛ فليرتقبوا بعد ذلك ثلاث خصال؛ ريحًا حمراء، ومسخًا، وخسفًا.»

الهيثم قال، أخبرنا الكلبي قال: كانت قريش تعدُّ أهل الجزالة في الرأي: العباس بن عبد المطلب، وأبا سفيان، وابنَيهما، وأميَّة بن خلَف.

قال: وقال ابن عباس: لم يكن في العرب أمرَد ولا أشيَب أشدَّ عقلًا من السائب بن الأقرع.

قال: حدَّثني الشَّعبي أن السائب شَهِد فتح مِهرجان قَذَق، ودخل منزل الهُرمُزان وفي داره ألف بيت، فطاف فيه، فإذا ظبيٌ من جِص في بيت منها مادٌّ يده، فقال: أُقسم بالله أنه يُشير إلى شيء، انظروا. فنظروا فاستخرجوا سفَط كَنز الهُرمزان، فإذا فيه ياقوت وزبرجد، فكتب فيه السائب إلى عمر، وأخذ منه فصًّا أخضر، وكتب إلى عمر: إن رأى أمير المؤمنين أن يهبَه لي فليفعل. فلما عرض عمر السفط على الهرمزان قال: فأين الفص الصغير؟ قال عمر: سألنيه صاحبنا فوهبته له. فقال: إن صاحبك بالجوهر لعالم.

أخبرنا مجالد، عن الشعبي قال، قال السائب لجميل بن بَصبَهَري: أخبِرني عن مكان من القُريَّة لا يَخرب حتى أقتطع ذلك المكان. قال: ما بين الماء إلى دار الإمارة. قال: فاختطَّ لثقيف في ذلك الموضع. قال الهيثم: بِتُّ عندهم ليلةً، فإذا ليلهم مِثل النهار.

أبو الحسن قال، قال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المُغيرة لمعاوية: أما والله لو كنَّا على السواء بمكة لعلِمت. قال معاوية: إذًا كنتُ أكون معاوية بن أبي سفيان منزلي الأبطح ينشقُّ عني سَيلُه، وكنتَ أنت عبد الرحمن بن خالد منزلُك أجياد، أعلاه مَدَرة، وأسفله عَذِرة.

وقال سُهيل بن عمرو: أشبه امرؤٌ بعضَ بَزِّه. فصار مثلًا. وقال مُحرز بن علقمة:

لقد وارى المَقابرُ من شريكٍ كثيرَ تَحلُّمٍ وقليلَ عابِ
صَمُوتًا في المَجالسِ غيرَ عيٍّ جديرًا حينَ ينطقُ بالصوابِ

وقال ابن الرِّقاع:[٤٤]

أُممٌ تَداخَلتِ الحُتوفُ عليهمُ أبوابَهم فكشَفنَ كلَّ غِطاءِ

[٤٤] ابن الرقاع: هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملي. شاعر مقدَّم بليغ. كان مدَّاحًا لبني أمية، واختصَّ من بينهم بالوليد بن عبد الملك. وهو صاحب القصيدة التي أولها «عرف الديار توهمًا فاعتادها». ولما كانت هذه القصيدة غير مُستكمَلة في كتاب من كُتُب الأدب المتداولة، فقد رأيت أن أثبتها

فإذا الذي في حِصنِه مُتحرِّزٌ منهم كآخَرَ مُصحِرٍ بفَضاءِ
والمَرءُ يُورِثُ مَجْدَه أبناءَه ويموتُ آخَرُ وهْوَ في الأحياءِ
والقومُ أشباهٌ وبيْنَ حُلومِهم بَونٌ كذاك تَفاضُلُ الأشياءِ

ها هنا بأكملها لندرتها وبلاغتها وتنافُس الأدباء فيها. وقد كنت نشرتها بجريدتي «الثمرات» بالعدد الصادر في ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٤٤ (٣ يونيو سنة ١٩٢٦)، وقد عُثر عليها في مكتبة تيمور باشا، ونقلها القائمون على كتاب نهاية الأرب في جزئه الرابع، ص٢٤٧، وها هي:

عرَفَ الدِّيارَ توهُّمًا فاعتادَها من بعدِ ما شَمِلَ البلا أبلادَها
إلا رواسيَ كلُّهنَّ قدِ اصطلى جمرًا وأشعَلَ أهلُها إيقادَها
كانت رواحلَ للقدورِ فعُرِّيتْ منهنَّ واستلبَ الزَّمانُ رمادَها
وتنكَّرَت كلَّ التنكُّرِ بعدَنا والأرضُ تعرفُ تلعَها وجمادَها
ولرُبَّ واضحةِ العوارضِ حرةٍ كالرِّيمِ قد ضرَبَت بها أوتادَها
تصطادُ بهجتُها المعلَّلَ بالصِّبا عرضًا فتقصدُه ولن يصطادَها
كالظَّبيةِ البِكرِ الفريدةِ ترتعي من أرضِها قفراتِها وعِهادَها
حصبتْ بها عُقَدُ البُراقِ حنينَها عن عكرِها عَلجانَها وعرادَها
كالزَّينِ في وجه العَروسِ تبذَّلَت بعدَ الحياءِ فلاعَبَت أرآدَها
تُزجي أغنَّ كأنَّ إبرةَ رَوقِه قلمٌ أصابَ من الدواةِ مِدادَها
رِكِبَت به من عالجٍ مُتحيرًا قفرًا تريِّث وحشُه أولادَها
فترى محانيَه التي تسقي الثرى والهبرَ يُونِقُ نبتُها رُوَّادَها
بانت سعادُ وأخلفتْ ميعادَها وتباعَدَت عنَّا لتمنعَ زادَها
إني إذا ما لم تَصِلْني خُلَّتي وتباعَدَت عني اغتفرتُ بِعادَها
إما ترَي شَيْبي تقشَّعَ لِمَّتي حتى علا وضحٌ يلوحُ سوادَها
فلقد ثنَيتُ يدَ الفتاةِ وسادةً لي جاعلًا يُسْرى يديَّ وِسادَها
وأُصاحبُ الجيشَ العَرَمرَمَ فارسًا في الخيلِ أشهَدُ كَرَّها وطِرادَها
وقصيدةٍ قد بِتُّ أجمَعُ بيْنَها حتى أقوِّمَ مَيلَها وسِنادَها
نظَرَ المثقِّفِ في كُعوبِ قناتِه حتى يُقِيمَ ثِقافُه مُنآدَها

وقال بعضهم:

بَيْضاءُ ناصعةُ البياضِ كأنَّها ... قمرٌ تَوسَّطَ نِصفَ لَيلٍ مُبرِدِ
موسومةٌ بالحُسنِ ذاتُ حَواسدٍ ... إنَّ الحِسانَ مَظِنَّةٌ للحُسَّدِ
وترى مآقيَها تُقلِّبُ مُقْلةً ... حَوراءَ تَرغَبُ عن سوادِ الإثمدِ

وقال الآخر:

خَودٌ إذا كَثُرَ الحديثُ تعوَّذَت ... بحِمى الحياءِ وإنْ تَكلَّمْ تَقصِدِ

فسترتُ عَيبَ مَعيشتي بتَكرُّمٍ ... وأتيتُ في سَعةِ النَّعيمِ سَرادَها
وعلِمتُ حتى ما أُسائلُ واحدًا ... عن عِلمِ واحدةٍ لكَي أزدادَها
صلَّى الإلهُ على امرئٍ ودَّعتُه ... وأتمَّ نِعمتَه عليه وزادَها
وإذا الرَّبيعُ تَتابَعَت أنواؤُه ... فسقى خُناصرةَ الأَحَصِّ فَجادَها
نزَلَ الوليدُ بها فكانَ لأهلِها ... غَيثًا أغاثَ أنيسَها وبلادَها
أوَلا ترى أنَّ البَريَّةَ كلَّها ... ألقتْ خزائمَها إليه فقادَها؟
ولقد أرادَ اللهُ إذ ولَّاكَها ... من أمَّةٍ إصلاحَها ورشادَها
أعمَرَت أرضَ المُسلِمينَ فأقبلتْ ... وكفَفتَ عنها من يَرُومُ فسادَها
وأصبتَ في أرضِ العدوِّ مُصيبةً ... عمَّت أقاصيَ غَورِها ونِجادَها
ظفَرًا ونصرًا ما تناوَلَ مِثلَه ... أحدٌ من الخُلفاءِ كانَ أرادَها
فإذا نشرتَ له الثَّناءَ وجدتَه ... جَمَعَ المَكارمَ طُرْفَها وتِلادَها
غَلَبَ المساميحَ الوليدُ سماحةً ... وكفى قريشَ المُعضِلاتِ وَسادَها
تأتيه أسلابُ الأعِزَّةِ عَنْوةً ... قَسرًا وتجمعُ للحروبِ عتادَها
وإذا رأى نارَ العدوِّ تضرَّمَت ... سامى جماعةَ أهلِها فاقتادَها
بعَرَمرمٍ تَئدُ الروابيَ ذي وغًى ... كالحَرَّةِ احتملَ الضُّحى أطوادَها
أطفأتَ نارًا للحروبِ وأُوقدتْ ... نارٌ قدَحتَ براحتَيك زِنادَها
فبَدَت بصيرتُها لمن يَبْغي الهدى ... وأصابَ حرُّ شديدِها حُسَّادَها
وإذا غدا يومًا بنَفحةِ نائلٍ ... عرَضَت له الغدَ مِثلُها فأعادَها
وإذا عدَتْ خَيلٌ تُبادِرُ غايةً ... فالسابقُ الجالي يقودُ جِيادَها

وقال:

لِسانُكَ خَيرٌ وَحْدَه من قبيلةٍ　　وما عُدَّ بُعدٌ في الفتى أنتَ فاعِلُه
سوى طَبَعِ الأخلاقِ والفُحشِ والخنا　　أبَتْ ذاكُمُ أخلاقُه وشمائلُه[٤٥]

وقال الآخر:

على امرئٍ هدَّ عَرشَ الحيِّ مَصرَعُه　　كأنَّه من ذوي الأحلامِ من عادِ

وقال النابغة:

أحلامُ عادٍ وأجسادٌ مطهَّرةٌ　　من المَعِقَّةِ والآفاتِ والأثَمِ[٤٦]

وقالت الخنساء:

خطَّابُ مُعضِلةٍ فرَّاجُ مَظلَمةٍ　　إنْ جاءَ مُفظِعةً هيَّا لها بابا

وعد الأصمعي خِصالَ مَعدٍّ فقال:

كانوا أديمًا ماعزًا شاتُه　　أخلَصَ فيه القَرَظَ الآهِبُ[٤٧]
أو مُرقئٌ عِرقَ دمٍ مُفرَجٍ　　أو سائلٌ في لَزْبةٍ زاعِبُ[٤٨]
أو ذِمَّةٌ يُوفى بها عاقِدٌ　　أو عُقدةٌ يُحكِمُها آرِبُ[٤٩]
أو حائطٌ من غيرِ لا نِعمةٍ　　أو رَحِمٌ مَتَّ بها جانِبُ[٥٠]
أو خُطبةٌ بَزْلاءُ مفصولةٌ　　يَرضى بها الشاهدُ والغائبُ[٥١]

---

٤٥ طبع الأخلاق: شينها وعيبها.

٤٦ المعقة: سوء الخُلُق، أو فساد المعدة، وكلٌّ صالح في التفسير.

٤٧ الأديم الماعز: الجلد الصلب دُبغ أو لم يُدبغ. القرظ: ورق السلم وثمر السنط تُدبغ به الجلود. الآهب: دابغ الأهب.

٤٨ مرقئ الدم: حاقنه. المفرج: المقتول في الفلاة غير المعروف قاتله. اللزبة: السنة الشديدة. الزاعب: السيل المنحدر.

٤٩ الآرب: العاقل الداهي المحكم.

٥٠ جانب: غريب.

٥١ خطبة بزلاء: فاصلة بين الحق والباطل.

وقال ابن نوفل يهجو:

وأنتَ كساقطٍ بين الحشايا　　يصيرُ إلى الخبيثِ من المَصيرِ
ومِثْلُ نعامةٍ تُدْعى بَعيرًا　　تُعاظِمُها إذا ما قيلَ طِيري
وإنْ قِيلَ احمِلي قالت فإنِّي　　من الطَّيرِ المُرِبَّةِ بالوُكُورِ[٥٢]
وكنتَ لدى المُغيرةِ عَيْرَ سُوءٍ　　تَبُولُ من المَخافةِ للزَّئيرِ
لأعلاجٍ ثمانيةٍ وشَيخٍ　　كبيرِ السِّنِّ ذي بَصَرٍ ضَريرِ
تقولُ لِما أصابَك أطعِموني　　شرابًا ثم بُلْتَ على السَّريرِ

وقال عبد يغوث:[٥٣]

ألا لا تلوماني كفى اللَّومَ ما بِيا　　فما لكما في اللَّومِ خيرٌ ولا ليا
ألمْ تَعلَما أنَّ المَلامةَ نَفعُها　　قليلٌ وما لَومي أخي من شِماليا
فيا راكبًا إمَّا عرَضتَ فبلِّغنْ　　ندامايَ من نَجْرانَ ألَّا تَلاقيا
أبا كَرِبٍ والأيهَمَينِ كِلَيهما　　وقيسًا بأعلى حضرموتَ اليمانيا
جزى اللهُ قومي بالكُلابِ مَلامةً　　صريحَهمُ والآخَرينَ المَواليا
أقولُ وقد شدُّوا لِساني بنِسْعةٍ　　أمَعشَرَ تَيمٍ أطلِقوا من لِسانيا
وتَضحَكُ منِّي شَيخةٌ عَبشَميَّةٌ　　كأنْ لم ترَ قَبْلي أسيرًا يَمانيا

قال أبو عثمان: وليس في الأرض أعجب من طَرَفة بن العبد وعبد يغوث؛ وذلك أنَّا إذا قِسنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما لم تكُن دون سائر أشعارهما في حال الأمن والرفاهية.

أبو عُبيدة قال: حدَّثني أبو عبد الله الفزاري، عن مالك بن دينار قال: ما رأيت أحدًا أبيَنَ من الحجَّاج، إن كان لَيَرقى المِنبر فيذكُر إحسانه إلى أهل العراق وصَفْحه عنهم وإساءتهم إليه، حتى أقول في نفسي: إني لأحسبه صادقًا، وإني لأظنُّهم ظالمين له.

قال: وكانت العرب تخطب على رواحلها، وكذلك روى النبي ﷺ عن قُس بن ساعدة. قال: وأخبرني عبد الرحمن بن مهدي، عن مالك بن أنس قال: الوقوف على ظهر

---

[٥٢] المربة: المقيمة الملازمة.

[٥٣] راجع هذه القصيدة بأكملها في كتاب المفضليات مشروحةً بقلمنا شرحًا وافيًا.

الدواب بعرفةَ سُنة، والقيام على الأقدام رُخصة. وجاء في الأثر: لا تجعلوا ظهور دوابكم مجالس.

ووقف الهيثم بن مُطهَّر الفأفاء على ظهر دابَّته على باب الخَيزُران ينتظر بعض من يخرج من عندها، فلما طال وقوفه بعث إليه عمر الكَلْواذي فقال: انزل عن ظهر دابتك. فلم يردَّ عليه شيئًا، فكرَّر الرسول إليه، فقال: إني رجلٌ أعرج، وإن خرج صاحبي من عند الخيزران في موكبه خِفتُ ألا أدركه. فبعث إليه: إن لم تنزل أنزلناك. فبعث إليه قال: هو حبيس في سبيل الله إن أنزلتني عنه إن أقضَمتُه شهرًا، فانظر أيهما خير له، أراحة ساعة أو جوع شهر؟ قالوا له: هذا الهيثم بن مطهَّر. قال: هذا شيطان.

وقال أبو علقمة النحوي: يا آسي،[٥٤] إني رجعت إلى المنزل وأنا سَنِقٌ لَقِس، فأتيت لِشِنشِنة من لويَّةٍ ولَكِيك، وقطيع أقرن قد غدرن هناك من سمْن، ورقاقٍ سرشصان، وسقيط عُطعُط، ثم تناولت عليها كأسًا،[٥٥] فقال له الطبيب: خذ خَرفَقًا وسَفلَقًا وجَرفَقًا. فقال: ويلك، أي شيء هذا؟ قال: وأيَّ شيءٍ ما قلت؟

وقال الزِّبرقان: أحَبُّ صِبياننا إلينا العريض الوَرِك، السَّبِط الغُرة، الطويل الغُرْلة، الأبله العَقول. وأبغَضُ صِبياننا إلينا الأُقَيعس الذَّكر، الذي كأنما ينظر من جُحر، وإذا سأله القوم عن أبيه هرَّ في وجوههم.

قال الهيثم: قال الأشعث: إذا كان الغلام سائل الغُرَّة، طويل الغُرلة، مُلتاث الإزْرة، كأن به لوثة، فما يُشَك في سؤدده.

قال أبو المِخَش: كان المِخَش أشدقَ خُرطُمانيًّا، سائلًا لُعابه، كأنما ينظر من قَلتَين، كأن تَرقُوته بُوانٌ أو خالفة، وكأن كاهله كِركِرة جمل، فقأ الله عينيَّ هاتَين إن كنتُ رأيت بعده ولا قبله مِثله.

وكان زيادٌ حول المنبر وبيوت الأموال والدواوين إلى الأزد، وصلَّى بهم، وخطب في مسجد حُدان، فقال عمرو بن العرندس:

فأصبحَ في الحُدَّانِ يَخطُبُ آمِنًا ... ولـلأزدِ عِـزٌّ لا يـزالُ تِـلادُ

---

[٥٤] يا آسي: يا طبيب. سنق: بشم مُتخَم. اللقس: الذي غثت نفسه وخبثت من البشم والتخمة.

[٥٥] الشنشنة: قطعة من اللحم. اللوية: ما يدخره الرجل لنفسه أو لضيفه، قال الشاعر:

آثرتَ ضَيفَك باللَّويَّةِ والذي ... كانت له ولمِثلِه الإدخارُ

ولكيك: ولحم.

وقال الأعرج:

والقائِلِينَ فلا يُعابُ خطيبُهم   يومَ المُقامةِ بالكَلامِ الفاصلِ

وقال ابن مفرِّغ:

ومتى تَقُمْ يومَ اجتماعِ عشيرةٍ   خُطباؤُنا بينَ العشيرةِ تَفصِلِ

وقال:

فيا رُبَّ خَصمٍ قد كُفِيتُ دِفاعَه   وقوَّمتُ منه دَرْأَه فتَنكَّبا

وقال آخر:

وحامِلِ ضَبِّ ضِغنٍ لم يَضِرْني   بَعيدٍ قلبُه حُلوِ اللِّسانِ
ولو أنِّي أشاءُ نقَمتُ منه   بشَغبٍ من لسانٍ تَيِّحانِ

وقال:

عَهِدتُ به هِندًا وهِندٌ عزيزةٌ   عنِ الفُحشِ بَلْهاءُ العِشاءِ نَئُومُ
رَواحُ الضُّحى ميَّالةٌ بَخْتريَّةٌ   لها مَنطِقٌ يُصبِي الحليمَ رخيمُ

وقال آخر:

وخَصمٍ يَركَبُ العَوصاءَ طاطٍ   على المُثلى قُصاراه القِراعُ
وملمومٍ جوانبُها رَداحٍ   تُزجَّى بالرِّماحِ لها شُعاعُ

وقال محلِّم بن فِراس يرثي منصورًا وهمَّامًا ابنَي المِسجاح:

كم فيهمُ لو تَمتَّعنا حياتَهم   من فارسٍ يومَ رَوحِ الحيِّ مِقدامِ
ومن فتًى يملأُ الشِّيزى مُكلَّلةً   شَحْمَ السَّديفِ نَدِيِّ الحمدِ مِطعامِ
ومن خطيبٍ غَداةَ الحَفلِ مُرتجِلٍ   ثبْتِ المَقامِ أريبٍ غيرِ مِقحامِ

وقال خالد للقعقاع: أُنافرك على أيُّنا أطعَنُ بالرماح، وأطعم للسِّحاح، وأنزل بالبراح؟ قال: لا، بل على أيُّنا أفضل أبًا وجدًّا وعمًّا، وقديمًا وحديثًا. قال خالد: أعطيتَ يومًا من سأل، وأطعمتَ حولًا من أكل، وطعنتَ فارسًا طعنةً شككت فخذَيه بجنب الفرس؟ قال القعقاع، وأخرج نعلَين فقال: ربعَ أبي عليهما أربعين مِرباعًا لم تثكل فيهن تميمية ولدًا.

كان مالك بن الأخطل التغلبي — وبه كان يُكنى — أتى العراق فسمع شعر جرير والفرزدق، فلما قدِم على أبيه سأله عن شعرهما، فقال: وجدت جريرًا يغرف من بحر، ووجدت الفرزدق ينحت من صخر. فقال الأخطل: الذي يغرف من بحرٍ أشعرهما. وقال بعضهم:

وما خيرُ مَن لا يَنفعُ الأهلَ عيشُه   وإنْ ماتَ لم يَجزَعْ عليه أقاربُه
كَهامٌ على الأقصى كَليلٌ لسانُه   وفي بَشَرِ الأدنى حِدادٌ مَخالِبُه

وقال العُماني:

إذا مَشى لكلِّ قِرنٍ مُقرِنِ   ثم مشى القِرنُ له كالأرعَنِ
بِصارمٍ يَفْري صفيحَ الجَوشَنِ   مُقرطَنٌ ذافَ إلى مُقرطَنِ
يُفضِي إلى أمِّ الفِراخِ المُكمِنِ   حيثُ تقولُ الهامةُ اسْقِني اسْقِني
كم لأبي محمَّدٍ من مَوطِنِ

وقال العُماني:

ومِقوَلٌ نِعْمَ لِزَازُ الخَصمِ   ألَدُّ يَشتَقُّ لأهلِ العِلمِ[٥٦]
بباطلٍ يَدحَضُ حقَّ الخَصمِ   حتى يصيروا كسَحابِ البُكْمِ[٥٧]

[٥٦] ومقول: ولسان مُبين داحض. لزاز الخصم: آخذ على الخصم المسالك، مضيِّق عليه المسارب. ألد: قوي الخصومة شديد اللدد فيها. يشتق: يأتي بالحجج ويولِّد الأدلة والبراهين لأهل العلم.
[٥٧] بباطل: يريد أنه لقوة لسَنه وشدة عارضته يدحض حق الخصم بالحق وبالباطل.

وقال عُبيد في حديث علي بن أبي طالب، كرَّم الله تعالى وجهه، حين رأى فلانًا يخطب فقال: هذا الخطيب الشَّحشَح. قال: هو الماهر الماضي. قال الطِّرمَّاح:

كأنَّ المَطايا ليلةَ الخَمسِ عُلِّقَت　　　بوَثَّابةٍ تَنْضو الرَّواسمَ شَحشَحِ

وقال ذو الرُّمَّة:

لَدُنْ غُدوةً حتى إذا امتدَّتِ الضُّحى　　　وحثَّ القَطِينُ الشَّحشَحانُ المُكلَّفُ

يعني الحادي. وكان أسد بن كُرْز[٥٨] يُقال له: خطيب الشيطان. فلما استعمل ابنه على العراق قيل له: خطيب الله. فجَرَت إلى اليوم. قال أبو السلم الهُذلي:

أصَخرَ بنَ عبدِ اللهِ إنْ كنتَ شاعرًا　　　فإنَّك لا تُهدِي القريضَ لمُفحَمِ

وقال بَلْعاء بن قيس:

أبَيتُ لنَفْسي الخَسْفَ لمَّا رَضُوا به　　　وولَّيتُهم سَمْعي وما كنتُ مُفحَما

وقال عبد الله بن مُصعب: وقف معاوية على امرأة من بني كنانة فقال لها: هل من قِرًى؟ قالت: نعم. قال: وما قِراك؟ قالت: عندي خبزٌ خمير، ولبنٌ فطير، وماءٌ نمير. وقال أُحَيحة:

والصَّمتُ أكرَمُ بالفتى　　　ما لم يَكُنْ عِيٌّ يَشِينُه
والقولُ ذو خَطَلٍ إذا　　　ما لم يَكُنْ لُبٌّ يُعِينُه

وقال أبو ثُمامة الضبِّي:

ومنَّا حُصَينٌ كان في كلِّ خُطبةٍ　　　يقولُ ألَا من ناطقٍ مُتكلِّمِ

---

[٥٨] أسد بن كرز: هو جد خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز القسري البجلي. وكان أسد بن كرز يُدعى في الجاهلية رب بجيلة. وكان ممن حرَّم الخمر في الجاهلية تنزهًا عنها. وكان سيدًا شاعر فاتكًا مِغوارًا. أدرك أسد وابنه يزيد الإسلام وأسلما، وأهدى أسد إلى رسول الله ﷺ يوم إسلامه قوسًا. وكان كريمًا ممدحًا، ولتأبط شرًّا فيه مديحٌ جيد.

وقال عُبيد بن أميَّة الضبِّي، واستبَّ هو والحارث بن شَيبة المُجاشعي عند النُّعمان، فقال:

تُرى بيوتٌ وتُرى رِماحُ ونَعَمٌ مُزَنمٌ سِحاحُ[٥٩]
ومَنطقٌ ليس له نجاحُ يا قصبًا طارَ به الرِّياحُ
وأذرُعًا ليستْ لها ألواحُ

وقال قيس بن الخطيم:

وبعضُ القولِ ليس له حَصاةٌ كمَخضِ الماءِ ليس له إتاءُ

وهذا شبيه بقوله:

كُسالى إذا لاقَيتَهم غيرَ مَنطقٍ يُلهَّى به المَتبولُ وهْو عَناءُ

وقال أبو ثُمامة:

أُخاصِمُهم مَرَّةً قائمًا وأجثو إذا ما جثَوا للرُّكَبْ
إذا مَنطِقٌ قالَه صاحبي تعقَّبتُ آخَرَ ذا مُعتقَبْ

وقال الشمَّاخ:

ومَرتبةٍ لا يُستطاعُ بها الرَّدى تركتُ بها الشكَّ الذي هو عاجزُ

ويُروى: تلافى بها حِلمي عن الجهلِ حاجزُ.

(٦) باب من الكلام المحذوف

ثم نرجع بعد ذلك إلى الكلام الأول.

هيثم، عن يونس، عن الحسن يرفعه، أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله، إن الأنصار فضَلونا بأنهم آوَوا ونصروا، وفعلوا وفعلوا. قال النبي ﷺ: «أتعرفون ذاك لهم؟» قالوا: نعم. قال: «فإن ذاك.» ليس في الحديث غير هذا، يريد: إن ذاك شكر ومكافأة.

---

[٥٩] نعم مزنم سحاح: النعم هنا الإبل. والمزنم: كان من عادة العرب أن تعرض لكرام إبلها فتقطع من أذن كل بعير قطعةً ولا تفصلها، بل تتركها معلَّقة. والسحاح: السِّمان.

قال: وكلَّم رجل من قيسٍ عمر بن عبد العزيز، رحمه الله تعالى، في حاجة، وجعل يمتُّ بقرابة، فقال عمر: وإنَّ ذاك. ثم ذكر حاجته، فقال: لعل ذاك. لم يزِده على أن قال: فإن ذاك، ولعل ذاك. فإن ذاك كما قلت، ولعل حاجتك أن تُقضى. وقال عُبيد الله بن قيس:[٦٠]

بَكَرَت عليَّ عواذلي   يَلحَينَني وأَلُومُهنَّه
ويَقُلنَ شَيبٌ قد علا   كَ وقد كبِرتَ فقلتُ إنَّه

وقال الأسدي[٦١] لعبد الله بن الزُّبير: لا حُمِلتْ ناقةٌ حمَلتني إليك. قال ابن الزبير: إنَّ وراكِبَها.

عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن أبي هاشم القاسم بن كثير، عن قيس الخارجي أنه سمع عليًّا يقول: سبق رسول الله ﷺ، وصلَّى أبو بكر، وثلَّث عمر، وخبطتنا فتنة فما شاء الله. ليس في الحديث أكثر من هذا.

ولما كتب أبو عُبيدة[٦٢] إلى عمر جواب كتاب عمر في أمر الطاعون، فقرأ عمر الكتاب واسترجع، فقال له المسلمون: مات أبو عبيدة؟ قال: لا وكأنْ قدِ.

وقال النابغة:

أَزِفَ التَّرحُّلُ غيْرَ أنَّ رِكابَنا   لمَّا تَزُلْ برِحالِنا وكأنْ قَدِ

[٦٠] كان في الأصل: عبد الله، والصواب ما أثبتناه. وهو عبيد الله بن قيس بن شريح العامري، المعروف بابن قيس الرُّقيَّات. كان شاعرًا مُجيدًا، له مدائح حِسان في مصعب بن الزبير وفي عبد الملك بن مروان. قال حمَّاد الراوية: إذا أردت أن تقول الشعر فارْوِ شعر ابن قيس الرقيات؛ فإنه أرَقُّ الناس حواشيَ شعر. وسأل سعيد بن المسيب نوفل بن مساحق: من أشعر: ابن قيس الرقيات أم ابن أبي ربيعة؟ فقال: ابن أبي ربيعة أشهر بالغزل، وابن قيس أكثر أفانين شعر. قال: صدقت.

[٦١] الأسدي: هو فضالة بن شريك الأسدي. وفد على عبد الله بن الزبير، فلما مثَل بين يدَيه قال: إن ناقتي قد تعِبت ودبرت. فقال ابن الزبير: ارقعها بجلد، واخصِفها بهلب، وسربها البردين. فقال فضالة: إني قد جئتك مُستحملًا لا مُستشيرًا، فلعن الله ناقةً حمَلتني إليك! فقال ابن الزبير: إنَّ وراكِبَها. يعني نعم وراكبها. وزعم يونس بن حبيب أن هذه الحادثة إنما كانت مع عبد الله بن فضالة لا مع فضالة نفسه.

[٦٢] أبو عبيدة: هو أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجرَّاح القرشي. كان من كبار الصحابة وأجلَّائهم، حتى لقد رشَّحه أبو بكر للخلافة يوم سقيفة بني ساعدة، وقال: رضيت لكم أحد صاحبيَّ؛ أبا عبيدة أو عمر. شهد كثيرًا من المشاهد والفتوحات، وكان شجاعًا باسلًا، وقائدًا بطلًا، وأميرًا عاقلًا، وكان عفًّا زاهدًا. تُوفي بالشام عن ٥٨ سنة في طاعون عَمواس سنة ١٨هـ/٦٣٩م.

وأنشد ابن الأعرابي:

إذا قيلَ أعمى قلتُ إنَّ ورُبَّما أكونُ وإنِّي من فتًى لَبَصِيرُ
إذا أبصَرَ القلبُ المُروءةَ والتُّقى فإنَّ عمى العَينَينِ ليس يَضِيرُ
وإنَّ العمى أجْرٌ وذُخْرٌ وعِصمةٌ وإنِّي إلى هذي الثلاثِ فَقيرُ

ابن أبي الزناد قال: كنت كاتبًا لعمر بن عبد العزيز، رحمه الله تعالى، وكان يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب في المظالم فيُراجعه، فكتب إليه:

إنه ليُخيَّل إليَّ أني لو كتبتُ إليك أن تُعطيَ رجلًا شاة، لكتبتَ إليَّ: أضأن أم ماعز؟ وإن كتبتُ إليك بأحدهما، كتبتَ إليَّ: أذَكَر أو أنثى؟ وإن كتبتُ إليك بأحدهما، كتبتَ إليَّ: صغير أم كبير؟ فإذا أتاك كتابي في مَظلمة فلا تُراجعني. والسلام.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إني لأستعين بالرجل الذي فيه. ليس في الحديث غير هذا، ثم ابتدأ بالكلام فقال: ثم أكون على قفائه إذا كان أقوى من المؤمن الضعيف. وأراد هو قول الأسدي:

سُوَيدٌ فيه فابْغُونا سِواه أبَيْناه وإنْ بهَّاه تاجُ

ولم يقل: فيه كذا وفيه كذا. وقال الراجز:

بِتْنا بحسَّانٍ ومِعْزاه تَئِطْ في سَمَنٍ جَمٍّ وتَمرٍ وأقِطْ[٦٣]
حتى إذا كادَ الظلامُ يَنكشِطْ جاءَ بمَذْقٍ هل رأيتَ الذئبَ قَطْ؟[٦٤]

وقيل للمُنتجع بن نَبهان، أو لأبي مهديَّة: ما النَّضْناض؟ فأخرج طرف لسانه وحرَّكه. وقيل له: ما الدَّلَنظى؟ فزَحَر وتقاعَس وفرَّج ما بين مَنكِبَيه.

[٦٣] تئط: تتجاوب بأصواتها. سمن حم: كثير سائل. الأقط: الجبن يُتخذ من اللبن بصناعةٍ معروفة.
[٦٤] ينكشط: يذهب. جاء بمذق: جاء بلبنٍ مشوب بماء. هل رأيت الذئب قط: يعني أن لون ما قدَّم له من مذقة اللبن كلَون الذئب.

ومن الكلام كلامٌ يذهب السامع منه إلى معاني أهله، وإلى قصد صاحبه، كقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾. وقال: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾. وقال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾.

وسئل المفسِّر عن قوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، فقال: ليس فيها بكرة ولا عشي. وقال لنبيه ﷺ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾. قالوا: لم يشكَّ ولم يسأل.

وقال عمر، رضي الله تعالى عنه، في جواب كلام قد تقدَّم، وقول قد سلف منه: مُتْعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما. وهذا مِثل قائل لو قال: أتضربنا على الكلام في الصلاة وعلى التطبيق إذا ركعنا؟ فيقول: نعم، أشدَّ الضرب. إذا كان قد تقدَّم منه إعلامه إيَّاهم بحال الناسخ والمنسوخ.

وقد سأل رجل بلالًا مولى أبي بكر، رضي الله تعالى عنه — وقد أقبل من الحَلْبة — فقال له: من سبق؟ قال: سبق المقرَّبون. قال: إنما أسألك عن الخيل. قال: وأنا أجيبك عن الخير. فترك بلالٌ جواب لفظه إلى خيرٍ هو أنفع له.

حدَّثنا عبد الملك بن شيبان قال، حدَّثني يعقوب بن الفضل الهاشمي قال:

كتب أبو جعفر إلى سَلمٍ يأمره بهدم دور من خرج مع إبراهيم[٦٥] وعقر نخلهم، قال: فكتب إليه سَلم: بأي ذلك نبدأ؛ بالدور أم بالنخل؟ فكتب إليه أبو جعفر: أما بعد، فإني لو كتبت إليك بإفساد ثمرهم لكتبتَ إليَّ تستأذنني بأيةٍ نبدأ؛ بالبَرْني أم بالشِّهريز؟ وعزله وولَّى محمد بن سليمان.

وقال ابن مسعود: إن طول الصلاة وقِصَر الخُطبة مَئنَّة من فِقه الرجل. مئنة كقولك: مَخلقة ومَجدرة ومَجرأة. قال الأصمعي: مئنة: علامة.

وقال عبد الله: عليكم بالعلم؛ فإن أحدكم لا يدري متى يُخيل إليه.

ولما أقدم عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، عمرو بن العاص من مصر، قال له عمر: لقد سِرت سيرَ عاشق. قال عمرو: إني والله ما تأبَّطتني الإماء ولا حمَلتني البغايا في غُبَّرات المآلي.[٦٦] قال له عمر: والله ما هذا بجواب الكلام الذي سألتك عنه، وإن

---

[٦٥] هو إبراهيم بن عبد الله بن حسن العلوي، خرج في زمن أبي جعفر المنصور فصُرع في المعركة سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م.

[٦٦] غبرات المآلي: آثار الحيض في الخِرق البوالي.

الدجاجة لتفحص في الرماد فتضع لغير الفَحل، والبيضة منسوبة إلى طَرقِها. وقام عمر فدخل، وقام عمرو فقال: قد أفحش أمير المؤمنين علينا.

وجاء في الحديث: لا يُمنع فضل الماء ليُمنَع به فضل الكلأ. وقال أعرابي: اللهم لا تُنزلني ماء سوء فأكون امرأ سوء.

وقال بَلعاء بن قيس:

وكم كان في آلِ المُلوَّحِ من فتًى مُنادًى مُفدًّى حينَ تُبْلى سرائرُه
وكم كان في آلِ المُلوَّحِ من فتًى يُجِيبُ خطيبًا لا يُخافُ عواثِرُه

وقال آخر:

ومُخاصِمٍ قاوَمتُ في كَبَدٍ مِثلِ الرِّهانِ فصارَ لي العُذرُ[٦٧]

وقال آخر:

وجهٌ قبيحٌ ولسانٌ أبكَمُ ومِشفَرٌ لا يتوارى أضجَمُ

ولما رأى الفرزدق درست بن رباط الفُقيمي على المنبر، وكان أسود دميمًا قصيرًا، قال:

بَكى المِنبَرُ الشَّرقيُّ إذ قامَ فوقَه أميرٌ فُقَيميٌّ قصيرُ الدَّوارِجِ

وقال:

بَكى المِنبَرُ الشَّرقيُّ والناسُ إذ رأوا عليه فُقَيميًّا قصيرَ القوائمِ

وإنما كان يُعادي بني فُقيم لأنهم قتلوا أباه غالبًا.

قال أبو عُبيدة، قال رجل ليونس بن حبيب: إذا أخذتم في مذاكرة الحديث وقع عليَّ النعاس. قال: فاعلم أنك حِمار في مِسلاخ[٦٨] إنسان.

---

[٦٧] الكبد: الشدة.

[٦٨] المسلاخ: الجلد.

ودخل عبد الله بن خازم على عُبيد الله بن زياد وهو يَخطِر في مِشيته، فقال للمُنذر بن الجارُود: حرِّكه. فقال: يا ابن خازم، إنك لتجرُّ ثوبك كما تجرُّ المرأة البغيُّ ذيلها. قال: أمَا والله إني مع ذلك لأنفُذ بالسَّريَّة، وأضرب هامة البطل المُشيح، ولو كنتَ وراء هذا الحائط لوضعت أكثرك شَعرًا. وقد كان قبض عطاءه فصبَّه بين أيديهم، ثم قال: لعنكِ الله من دراهم، والله ما تقومين بمؤنةِ خيلنا.

وقال علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه: خذ الحكمة أنَّى أتَتك؛ فإن الحكمة تكون في صدر المُنافق فتتلجلج في صدره حتى تخرج فتَسكُن إلى صاحبها.

وقال عمرو بن العاص لأهل الشام يوم صِفِّين: أقيموا صفوفكم مِثل قص الشارب، وأعيرونا جماجمكم ساعةً من النهار؛ فقد بلَغ الحق مَقطعه، فوإنما هو ظالم أو مظلوم.

وقال علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه يومئذٍ: عَضُّوا على النواجذ من الأضراس؛ فإنه أنبا للسيوف عن الهام.

وقال رجل: طِدْ رِجْلك إذا اعتقبتَ بالسيف والعصا، وأنت مخيَّر في رفعها ساعة المسالمة والموادعة. ولما أقاموا ابن قُميئة بين العقابين قال له أبوه: طِدْ رِجلَيك الأرض، وأصرَّ إصرار الفرس، واذكر أحاديث غد، وإيَّاك وذِكر الله في هذا الموضع فإنه من الفشل.

وقيل للحجَّاج: من أخطَبُ الناس؟ قال: صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة. يعني الحسن.

وقال الأحنف، قال عمر: تفقَّهوا قبل أن تسودوا. وقال عمر: احذر من فلتات الشباب كل ما أورثك النَّبز وأعلقك اللقب؛ فإنه إن يعظم بعدها شأنك يشتدَّ على ذلك ندمك.

(٧) كلام لعمر بن الخطاب

ولما بنى عُتبة بن غَزْوان وأصحابه بالبصرة بِناء اللَّبِن، كتب إليهم عمر: قد كنت أكره لكم ذلك، فإذا فعلتم ما فعلتم فعرِّضوا الحيطان، وارفعوا السَّمْك، وقارِبوا بين الخشب. ولما بلغه أنهم قد اتخذوا الضِّياع وعمَروا الأرض، كتب إليهم: لا تنهكوا وجه الأرض؛ فإن شحمتها فيه. وقال عمر: بِعِ الحيوان أحسن ما يكون في عينك. وقال: فرِّقوا بين المنايا، واجعلوا الرأس رأسين. وقال: املِكوا العجين؛ فإنه أحدُ الرَّيعَين. وقال: إذا اشتريت بعيرًا فاجعله ضخمًا؛ فإن أخطاك خُبْر لم يُخطئك سوق. وقال عمر: العمائم تيجان العرب. وقال: نِعْم المُستنَد الاحتماء.

وقال رسول الله ﷺ: الناس كالإبل، ترى المائة لا تجد فيها راحلة.

وأنشدوا:

وكأنَّ من زَهرِ الخُزامى والنَّدى والأُقحُوانِ عليه رَيطةَ بُرنُسِ
وإذا تَـرنَّـمَ حـوْلَـه ذِبَّـانُـه أصغى تَسمُّعَ خائفٍ مُتوجِّسِ
خرَجَت عليه من الضِّراءِ دواجنٌ تَحتَثُّ نَحوَ مَلاذِ وانٍ أشوَسِ[٦٩]
يَسْعى يُمثِّلُ والصفيرُ كلامُه وتَحِي يَداه لهنَّ وَحْيَ الأخرَسِ[٧٠]

وقال الراعي:

أبـا خـالـدٍ لا تَـنـبِـذَنَّـا فـصـاحـةً كوَحيِ الصَّفا خُطَّت لكم في فؤاديا

وقال الشاعر:

رُبَّ طَـرْفٍ مُـصـرِّحٍ عن ضميرٍ بما هَجَسْ

وقال آخر:

بلَحنِ القولِ والطَّرْفِ الفَصيحِ

وقال المُثقِّب العَبدي في استماع الثور وتوجُّسه وجمع باله إذا أحسَّ بشيء من أسباب القانص، وذكر ناقة:

كـأنَّـهـا أسـفَـعُ ذو جُـدَّةٍ يَضُمُّه القَفرُ وليلٌ سَدِي[٧١]
كـأنَّـمـا يَـنـظُـرُ مـن بُـرقُـعٍ من تحتِ رَوقٍ سَكِبٍ مِذوَدِ[٧٢]

---

[٦٩] الضراء: الشجر الملتف يخفي ما وراءه. الدواجن: يريد بها كلاب الصيد المستخفية في الضراء. تحتث: تُسرع العدْو. الملاذ: الملجأ. وانٍ: متوانٍ في عدْوه تعبًا. أشوس: جريء؛ يعني ثور الوحش.
[٧٠] الوحي: الإيماء باليد.
[٧١] الأسفع: الذي بخدَّيه حُمرةٌ تضرب إلى السواد. والجدة: الخطة في ظهر الثور تُخالف لونه، ومنه قوله تعالى: ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾. وليل سدي: أي ليل ذو ندًى.
[٧٢] الروق: القرن. سكب: يريد أنه مصمت. المذود: القرن.

تُصيخُ للنَّبْأةِ أسماعُه إصاخةَ الناشِدِ للمُنشَدِ[٧٣]
ويُوجِسُ السَّمعَ لنَكْرائِه من خَشيةِ القانصِ والمؤسِدِ[٧٤]

وقال بعض العبيد شعرًا يقع في ذِكر الخطباء وفي ذِكر أشداقهم وتشادُقهم:

أغرَّكَ منِّي أنَّ مولايَ مَزيَدًا سريعٌ إلى داعي الطعامِ سَرُوطُ
غُلامٌ أتاه الذُّلُّ من نَحوِ شِدقِه له نَسَبٌ في الواغلِينَ بَسيطُ
له نَحوَ دَورِ الكاسِ إما دعَوتَه لسانٌ كذَلقِ الزَّاعِبيِّ سَليطُ[٧٥]

وقال الأول:

إنَّ سليطًا كاسْمِه سليطُ

وقال بعض العبيد وقد كان مفتوق اللهاة وشاعرًا:

أشدَقُ يَفْري حينَ لا أحدٌ يَفْري

وقال مؤرِّق العبد يتوعَّد مولاه:

لولا عَجوزٌ قَحمةٌ ودَردَقُ وصاحبٌ جمُّ الحديثِ مُونِقُ[٧٦]
كيف الفواتُ والطَّلوبُ مُورِقُ شيخٌ مَغِيظٌ وسِنانٌ يُبرِقُ
وحَنجرٌ رَحبٌ وصَوتٌ مُصلِقُ وشِدقُ ضِرغامٍ ونابٌ مُخرِقُ

وسأل رجلٌ عمر بن عبد العزيز عن الجمل وصِفِّين فقال: تلك دماءٌ كفَّ الله يدي عنها؛ فلا أُحبُّ أن أغمس لساني فيها.

---

[٧٣] النبأة: الصوت الخفي. الناشد: الطالب. المنشد: المطلوب.

[٧٤] لنكرائه: أي لما يُنكره ويخشاه. المؤسد: المغري كلابه بالصيد.

[٧٥] كذلق الزاعبي سليط: يعني طويلًا كحد السِّنان.

[٧٦] القحمة: المرأة المسنة، ويريد بها أمه. والدردق: أطفاله الصغار. ويريد بالصاحب: امرأته. مونق: معجب.

ويقع في باب التطبيق قول الشاعر:

لَأنتم ببَيعِ اللَّحمِ أعلَمُ منكمُ　　بضَربِ السُّيوفِ المُرهَفاتِ القواطعِ

وقال عمرو بن هدَّاب: إنما كنا نعرف سؤدد مُسلم بن قُتيبة أنه كان يركب وحده ويرجع في خمسين.

وقال الأصمعي: دخل حبيب بن شَوذَب الأسدي على جعفر بن سليمان بالمدينة، فقال: أصلح الله الأمير، حبيب بن شوذب وادُّ الصدر، جميل الذِّكر، يكره الزيارة المُملَّة، والعُقدة المُنسِية. وفي الحديث: «زُرْ غِبًّا تَزدَد حُبًّا.»

وقال بعضهم، عن الثوري، عن محمد بن عَجلان، عن عِياض بن عبد الله قال: إن الدَّين مَجمع لكل هم؛ همٌّ بالليل وذُل بالنهار، وراية الله في أرضه؛ فإذا أراد الله أن يُذِل عبدًا جعله طوقًا في عنقه.

عمر بن ذر قال: الحمد لله الذي جعلنا من أمَّةٍ تُغفَر لهم السيئات، ولا تُقبَل من غيرهم الحسنات.

ابن أبي الزِّناد: كنا لا نكتب إلا سُنة، وكان الزُّهري يكتب كل شيء؛ فلما احتيج إليه عُرِف أنه أوعى الناس.

قال فيروز بن حُصين: إذا أراد الله أن يُزيل عن عبده نعمةً كان أول ما يغيِّر منه عقله.

وقيل لمحمد بن كعب القُرظي: ما علامة الخِذلان؟ قال: أن يستقبح الرجل ما كان عنده حسنًا، ويستحسن ما كان عنده قبيحًا.

وقال محمد بن حفص: كن إلى الاستماع أسرع منك إلى القول، ومن خطأ القول أشد حذرًا من خطأ السكوت.

وقال الحسن: إذا جالستَ العلماء فكُن على أن تسمع أحرَصَ منك على أن تقول، وتعلَّمْ حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول، ولا تقطع على أحدٍ حديثه.

سُفيان بن عُيينة قال: كان يُقال: العالِم مِثل السِّراج، من مرَّ به اقتبس منه.

وقال الشاعر أبو دُهْمان الغلابي:

لئن مِصرُ فاتَتْني بما كنتُ أرتجي　　وأخلَفَني منها الذي كنتُ آمُلُ
فما كلُّ ما يَخشى الفتى بمُصيبِه　　وما كلُّ ما يرجو الفتى هو نائلُ
فما كانَ بيني لو لقيتُك سالمًا　　وبينَ الغِنى إلا ليالٍ قلائلُ

وقال الآخر:

وإنَّ كلامَ المرءِ في غيرِ كُنْهِه　　　لَكالنَّبلِ تَهوي ليس فيها نِصالُها

وقال كعب الأحبار: قرأت في بعض ما أنزل الله على أنبيائه عليهم السلام: الهدية تفقأ عين الحكيم، وتُسفِّه عقل الحليم. زحم رجلٌ سالم بن عبد الله، فزحم سالمٌ الذي يليه، فقال له: يا شيخ، ما أحسبك إلا شيخ سوء. قال سالم: ما أحسبك أبعدت.

وسأل رجلٌ محمد بن عُمير بن عُطارد وعتَّاب بن وَرقاء في عشر دِيات، فقال محمد: عليَّ دية. فقال عتَّاب: الباقي عليَّ. فقال محمد: نِعْم العَون اليسار على المروءة.

وقال الأحنف:

فلو مُدَّ سَروِي بمالٍ كثيرٍ　　　لجُدتُ وكنتُ به باذِلا
فإنَّ المروءةَ لا تُستطاعُ　　　إذا لم يَكُنْ مالُها فاضِلا

وقال يزيد بن حُجيَّة، حين بلغه أن زياد بن خَصْفة تَبِعه ولم يلحق به:

أبلِغْ زيادًا أنَّني قد كفَيتُه　　　أُموري وخلَّيتُ الذي هو غالِبُه
وبابٍ شديدٍ داؤُه قد فتحتُه　　　عليكَ وقد أعيَتْ عليك مَذاهِبُه
هُبِلتَ فما ترجو غَنايَ ومَشهَدي　　　إذا كانَ يومٌ لا توارى كواكِبُه

قال آخر:

ومَنطقٍ حُرِّقَ بالعواسلِ

وتجرَّدت الحضرمية لزوجها ثم قالت: هل ترى في خلق الرحمن من تفاوُت؟ قال: أرى فُطورًا. وقال آخر: راودت امرأةٌ شيخًا واستهدفت له، وأبطأ عليه الانتشار فلامَته، فقال لها: إنك تفتحين بَيتًا، وأنا أنشر مَيتًا.

(٨) كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري

علي بن محمد، عن عمر بن مُجاشع، أن عمر رضي الله تعالى عنه كتب إلى أبي موسى الأشعري:

أما بعد، فإن للناس نُفرةً عن سلطانهم، فأعوذ بالله أن تُدركني وإيَّاك عَمياء مجهولة، وضغائن محمولة، وأهواءٌ متَّبَعة، ودنيا مؤثَرة، فأقِم الحدود ولو

ساعةً من نهار. وإذا عَرَض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا، فآثِر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا؛ فإن الدنيا تنفد، والآخرة تبقى. وكن من خشية الله على وجل، وأخِف الفُساق واجعلهم يدًا يدًا، ورِجلًا رجلًا. وإذا كانت بين القبائل نائرةٌ وتداعَوا: يا آل فلان، فإنما تلك نجوى الشيطان، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله، وتكون دعواهم إلى الله وإلى الإمام. وقد بلَغ أميرَ المؤمنين أن ضبَّة تدعو: يا آل ضبة. وإني والله ما أعلم أن ضبة ساق الله بها خيرًا قط، ولا منع بها سوءًا قط، فإذا جاءك كتابي هذا فأنهكْهم عقوبةً حتى يَفرَقوا إن لم يفقهوا. وألصق بغَيلان بن خرشة من بينهم. وعُد مرضى المسلمين، واشهد جنائزهم، وافتح بابك، وباشِر أمرهم بنفسك. أنت امرؤ منهم، غير أن الله جعلك أثقلهم حِملًا. وقد بلَغ أميرَ المؤمنين أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئةٌ في لباسك ومَطعمك ومَركبك ليس للمسلمين مِثلها؛ فإيَّاك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرَّت بوادٍ خصيب، فلم يكن لها هِمَّة إلا السِّمن، وإنما حتفُها في السِّمن. واعلم أن للعامل مَردًّا إلى الله، فإذا زاغ العامل زاغت رعيَّته، وإنَّ أشقى الناس من شقِيَت به رعيَّته. والسلام.

عَوانة قال: قدِم علينا أعرابي من كلب، وكان يحدِّثنا الحديث فلا يكاد يقطعه، فقال له رجل: أمَا لحديثك هذا آخِر؟ فقال: إذا عجز وصَلْناه.

وقال معاوية ليونس الثقفي: اتقِ أن أطير بك طيرةً بطيئًا وُقوعُها. قال: أليس لي ولك المَرجع بعدُ إلى الله؟ قال: بلى، فأستغفر الله.

رَقبة بن مَصقَلة قال: ما سمعت عُمر بن ذَرٍّ يتكلم إلا ذكرت النفخ في الصُّور، ولا سمعت أحدًا يحكيه إلا تمنَّيت أن يُجلَد ثمانين. قال: وتكلَّم عمر بن ذَر فصاح بعض الزفَّانين[٧٧] صيحةً فلطمه رجل. قال عمر بن ذر: ما رأيت ظلمًا قطُّ أوفَقَ لي من هذا. وقال طاوس: كنت عند محمد بن يوسف، فأبلغه رجل من بعض أعدائه كلامًا، فقال رجل من القوم: سبحان الله! فقال طاوس: ما ظننت أن قول سبحان الله معصيةٌ لله حتى كان اليوم. كأنه عنده إنما سبَّح ليُظهر استعظام الذي كان من الرجل ليُوقِع به.

[٧٧] الزفانون: الرقاصون.

وقال الآخر:

لو كانَ عَدْواك البطيءُ المُسهِمُ إذا بَدا منك الذي لا يُكتَمُ
وجهٌ قبيحٌ ولسانٌ أبكَمُ ومِشفَرٌ لا يتوارى أضجَمُ

وقال الآخر:

يُقعِّرُ القولَ لِكَيما تَحسَبَه من الرِّجالِ الفُصحاءِ المُعرِبةْ
وهْوَ إذا نسَبتَه من كَرَبةْ من نَخلةٍ نابتةٍ في خَرِبةْ[٧٨]

قالت امرأة الحُطيئة للحُطيئة، حين تحوَّل عن بني رياح إلى بني كُليب: بئس ما استبدلت من بني رياح بَعْر الكبش. لأنهم مُتفرقون، وكذلك بعر الكبش يقع مُتفرقًا.

(٩) كلام لعائشة أم المؤمنين في قتل عثمان

علي بن محمد، عن مَسلمة بن مُحارب، عن داود بن أبي حرب بن أبي الأسود، عن أبيه قال: بعثني وعِمرانَ بن حُصين عثمانُ بن حنيف إلى عائشة، رضي الله تعالى عنها، فقلنا: يا أم المؤمنين، أخبرينا عن مسيرك هذا، أعهدٌ عهِده إليك رسول الله ﷺ أم رأيٌ رأيتِه؟ قالت: بل رأيٌ رأيتُه حين قُتل عثمان، إنا نقِمنا عليه ضربةً بالسوط، وموقعَ السحابة المُحماة، وإمرةَ سعيد والوليد، فعدَوتُم عليه فاستحللتم منه الحُرَم الثلاث؛ حُرمة البلد، وحُرمة الخلافة، وحُرمة الشهر الحرام، بعد أن مِصْناه كما يُماص الإناء فاستنقى، فرِكبتُم منه هذه ظالمين، فغضِبنا لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيفكم؟ قلت: فما أنت وسيفنا وسوط عثمان وأنت حَبيس رسول الله ﷺ، أمَرك أن تَقرِّي في بيتك فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض؟ قالت: وهل أحدٌ يُقاتلني أو تقول غير هذا؟ قلنا: نعم. قالت: ومن يفعل ذلك؟ أزَنِيم بني عامر؟ ثم قالت: هل أنت مُبلِغ عني يا عمران؟ قال: لا، لست مُبلِغًا عنك خيرًا ولا شرًّا. فقلت: لكني مُبلِغ عنك فهاتي ما شئت. قالت: اللهم اقتل مذمَّمًا — تعني محمد بن أبي بكر — قِصاصًا بعثمان، وارْمِ الأشتر بسهمٍ من سهامك لا يَشْوى، وأرْدِ[٧٩] عمَّارًا بحفرته في عثمان.

[٧٨] الكربة: أصل السعفة اليابس.

(١٠) بين زياد والحكم بن عمرو

حدَّثنا يزيد بن هارون قال، أخبرنا هشام بن حسان، عن الحسن، أن زيادًا بعث الحَكم بن عمرو على خراسان، فأصاب مَغنمًا، فكتب إليه زياد: إن أمير المؤمنين معاوية كتب إليَّ يأمرني أن أصطفيَ له كل صَفراء وبَيضاء، فإذا أتاك كتابي هذا فانظر ما كان من ذهب وفضة فلا تَقسِمه، واقسم ما سوى ذلك. فكتب إليه الحكم: إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، ووالله لو أن السموات والأرض كانتا رَتقًا على عبد فاتَّقى الله تعالى لجعل الله له منها مَخرجًا. والسلام.

ثم أمر المُنادي فنادى في الناس: أنِ اغدوا على غنائمكم. فغدَوا فقسَّمها بينهم.

وقال خالد بن صَفوان: ما رأينا أرضًا مِثل الأُبُلَّة أقرب مسافةً، ولا أطيب نُطفةً، ولا أوطأ مطيَّةً، ولا أربح لتاجر، ولا أخفى لعابد.

(١١) كلام بعض الأعراب

قال الكِسائي: لقيت أعرابيًّا فجعلت أسأله عن الحرف بعد الحرف، والشيء بعد الشيء أقرنه بغيره، فقال: تالله ما رأيت رجلًا أقدر على كلمة إلى جنب كلمة منها أشبه شيء بها، وأبعد شيء منها، منك. ووصف أعرابي رجلًا فقال: ذاك والله ممن ينفع سِلمه، ويتواصف حِلمه، ولا يُستمرأ ظُلمه. وقال آخر لخَصمه: لئن هملجتَ إلى الباطل، إنك لقطوف إلى الحق.

ورأى رَقَبة بن مَصقَلة العبدي جاريةً عند العطَّار، فقال له: ما تصنع هذه عندك؟ قال: أكيل لها حنَّاء. قال: أظنُّك والله تكيل لها كيلًا لا يأجرك الله عليه.

(١٢) كلام عمرو بن العاص لعبد الله بن عبَّاس

محمد بن سعيد، عن إبراهيم بن خُويطب قال، قال عمرو بن العاص لعبد الله بن عبَّاس: إن هذا الأمر الذي نحن وأنتم فيه ليس بأولِ أمرٍ قاده البلاء، وقد بلَغ الأمر بنا وبكم ما نرى، وما أبقت لنا هذه الحرب حياءً ولا صبرًا. ولسنا نقول: ليت الحرب عادت. ولكننا

---

[٧٩] وأرْدِ، في نسخة: وأدرك، وليس للإدراك معنًى هنا، والصحيح ما أثبتناه.

نقول: ليتها لم تكن كانت. فانظر فيما بقي بغير ما مضى؛ فإنك رأس هذا الأمر بعد علي، وإنما هو أميرٌ مُطاع، ومأمورٌ مُطيع، ومُشاورٌ مأمون، وأنت هو.

وقال عيسى بن طَلحة لعُروة بن الزُّبير حين ابتُلي برِجله فقطعها: يا أبا عبد الله، ذهب أهوَنُك علينا، وبقي أكثرك لنا.

قال أبو الحسن: خطب الحجَّاج يوم جمعة فأطال الخطبة، فقال رجل: إن الوقت لا ينتظرك، وإن الرب لا يَعذِرك. فحبسه، فأتاه أهل الرجل وكلَّموه فيه وقالوا: إنه مجنون. فقال: إن أقرَّ بالجنون خلَّيتُ سبيله. فقيل له: أقِرَّ بالجنون. قال: لا والله، لا أزعم أنه ابتلاني وقد عافاني.

(١٣) وصف الإبل

قالت أم هشام السَّلولية: ما ذكَر الناس مذكورًا خيرًا من الإبل؛ أحناه على أحدٍ بخير، إن حمَلت أثقلت، وإن مشَت أبعدت، وإن نُحرت أشبعت، وإن حُلبت أروَت.

(١٤) كتاب الحسن بن علي إلى زياد وردُّ زياد عليه

حدَّثني سليمان بن أحمد الخرشني قال، حدَّثني عبد الله بن محمد بن حبيب قال: طلب زياد رجلًا كان في الأمان الذي سأله الحسن بن علي لأصحابه، فكتب فيه الحسن رضي الله تعالى عنه إلى زياد:

من الحسن بن علي إلى زياد، أما بعد، فقد علِمتَ ما كنَّا أخذنا لأصحابنا، وقد ذكر لي فلانٌ أنك عرضت له، فأُحبُّ ألا تَعرِض له إلا بخير.

فلما أتاه الكتاب، ولم ينسب الحسن إلى أبي سفيان، غضِب فكتب:

من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن، أما بعد، أتاني كتابك في فاسقٍ يؤوِيه الفُسَّاق من شِيعتك وشيعة أبيك، وايم الله لأطلبنَّهم ولو بين جِلدك ولحمك، وإن أحبَّ لحم إليَّ آكله للَحمٌ أنت منه.

(١٥) كتاب معاوية إلى زياد

فلما وصل الكتاب الحسن وجَّه به إلى معاوية، فلما قرأه معاوية غضِب وكتب:

من معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان، أما بعد، فإن لك رأيَين؛ رأيًا من أبي سُفيان ورأيًا من سُمية، فأما رأيك من أبي سفيان فحِلم وحَزم، وأما رأيك من

سُمية فكما يكون رأي مِثلها. وقد كتب إليَّ الحسن بن علي أنك عرَضت لصاحبه، فلا تَعرِض له؛ فإني لم أجعل لك إليه سبيلًا، وإن الحسن بن علي ممَّن لا يُرمى به الرَّجَوان. والعَجب من كتابك إليه لا تنسبه إلى أبيه، أفإلى أمه وكَلتَه، وهو ابن فاطمة بنت محمد ﷺ؟ فالآن حين اخترت له. والسلام.

(١٦) خطبة مُصعَب بن الزُّبير

قدِم مصعب بن الزبير العراق فصعِد المِنبر ثم قال:

بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿طسم ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، وأشار بيده نحو الشام، ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾، وأشار بيده نحو الحجاز، ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾، وأشار بيده نحو العراق.

وكتب محمد بن كعب: «القرظي». فقيل له: والأنصاري؟ قال: أكره أن أمُنَّ على الله بما لم أفعل.

(١٧) عمرو بن العاص وعبد الله بن عبَّاس

وقام عمرو بن العاص بالمَوسم، فأطرى مُعاوية وبني أميَّة، وتناوَل بني هاشم، ثم ذكر مَشاهده بصِفِّين، فقال ابن عباس: يا عمرو، إنك بِعتَ دينك من معاوية فأعطيته ما في يدك، ومنَّاك ما في يد غيره، فكان الذي أخذ منك فوق الذي أعطاك، وكان الذي أخذتَ منه دون ما أعطيته، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في يدك تتبَّعك فيها بالعزل والتنقُّص حتى لو أن نفسك فيها لألقيتها إليه، وذكرتَ مَشاهدك بصِفِّين فما ثقُلتْ علينا يومئذٍ وطأتُك، ولا نكأتنا فيها حربك، وإن كنتَ فيها لطويل اللسان، قصير السِّنان، آخِرَ الحرب إذا أقبلَت، وأوَّلَها إذا أدبرَت، لك يدان؛ يد لا تبسطها إلى خير، ويد لا تقبضها عن شر، ووجهان؛ وجهٌ مؤنِس، ووجه مُوحِش. ولَعَمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحريٌّ أن يطول حزنه على ما باع واشترى. لك بيان وفيك خطل، ولك رأي وفيك نكد، ولك قدر وفيك حسد؛ فأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك. فقال عمرو: أمَا والله ما في قريشٍ أحدٌ أثقل وطأةً عليَّ منك، ولا لأحد من قريش قدرٌ عندي مِثل قدرك.

(١٨) كلام عمرو بن عتبة

ورأى عمرو بن عُتبة بن أبي سفيان رجلًا يشتم رجلًا، وآخر يسمع له، فقال للمُستمع: نزِّه سمعك عن استماع الخَنا كما تنزِّه لسانك عن الكلام به؛ فإن السامع شريك القائل، وإنما نظر إلى شرِّ ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو رُدَّت كلمة جاهل في فيه لسعد رادُّها كما شقِي قائلها.

(١٩) خصمان عند زياد

عوانة قال: اختصم إلى زيادٍ رجلان في حقٍّ كان لأحدهما على الآخر، فقال المدَّعي: أيها الأمير، إنه ليسطو عليَّ بخاصَّةٍ ذكَر أنها له منك. فقال زياد: صدق، وسأخبرك بمنفعتها له؛ إن يكن الحق له عليك أخذتك به، وإن يكن لك عليه حكمت عليه ثم قضيت عنه.

(٢٠) تأبين عائشة لأبي بكر الصدِّيق

ولما تُوفي أبو بكر، رضي الله تعالى عنه، قامت عائشة، رضي الله تعالى عنها، على قبره فقالت: نضَّر الله وجهك، وشكر لك صالح سعيك؛ فلقد كنت للدنيا مُذِلًّا بإدبارك عنها، وللآخرة مُعِزًّا بإقبالك عليها. وإن كان لأجَلَّ الأرزاء بعد رسول الله ﷺ رُزْؤك، وأكبر المصائب فقدُك. وإن كتاب الله ليعِد بجميل العزاء [فيك] حُسْن العِوض منك، فأنتجز من الله موعده فيك بالصبر عنك، وأستخلصه بالاستغفار لك.

(٢١) تأبين الأحنف بن قيس

وقامت فَرغانة بنت أوس بن حَجَر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة، فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، [رحمك الله] أبا بحر من مِجنٍّ في جَنَن، ومُدرَج في كفن؛ فوالذي ابتلاني بفقدك، وبلَّغَنا يوم موتك، لقد عِشتَ حميدًا، ومتَّ فقيدًا. ولقد كنت عظيم الحِلم، فاضل السِّلم، رفيع العماد، وارِيَ الزِّناد، منيع الحريم، سليم الأديم. وإن كنت في المَحافل لشريفًا، وعلى الأرامل لعطوفًا، ومن الناس لقريبًا، وفيهم لغريبًا. وإن كنت لمُسوَّدًا، وإلى الخُلفاء لمُوفَدًا، وإن كانوا لقولك لمُستمِعين، ولرأيك لمتَّبِعين. ثم انصرفت.

(٢٢) وصف عمرو بن العاص لمعاوية

أبو الحسن قال، قال عمرو بن العاص: ما رأيت معاوية قطُّ متَّكئًا على يساره، واضعًا إحدى رِجلَيه على الأخرى، كاسرًا إحدى عينَيه، يقول للذي يُكلمه يا هناه، إلا رحمت الذي يُكلمه.

(٢٣) كلام لعمر بن الخطاب

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: كونوا أوعية الكتاب، وينابيع العلم، وسلوا الله رِزق يوم بيوم، ولا يَضيركم ألا يُكثِر لكم.

(٢٤) بين معاوية وعائشة

وكتب معاوية إلى عائشة أنِ اكتبي إليَّ بشيءٍ سمعتِه من أبي القاسم ﷺ، فكتبت إليه: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: من عمل بما يُسخِط الله عادَ حامده من الناس له ذامًّا.

(٢٥) وصية عالم لابنه

أوصى بعض العلماء ابنه فقال: أوصيك بتقوى الله، وليَسَعك بيتك، واملِك عليك لسانك، وابكِ على خطيئتك.

(٢٦) فضل الشورى

بكر بن أبي بكر القرشي قال، قال أعرابي: ما غُبِنتُ قطُّ حتى يُغبَن قومي. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا أفعل شيئًا حتى أُشاورهم. قيل لرجل من عبس: ما أكثرَ صوابَكم! قال: نحن ألف رجل، وفينا حازم ونحن نُطيعه، فكأننا ألف حازم.

(٢٧) الحجَّاج أول مُجرٍ لنوع من السفن، وأول صانع للمَحامل

قال أبو الحسن: أول من أجرى في البحر السفن المُقيَّرة المسمَّرة، غير المخرَّزة والمدهونة، وغير ذوات الجآجئ، وكان أول من عمل المحامل: الحجاج. قال بعض رُجَّاز الأكرياء:

أوَّلُ عبدٍ عَمِلَ المَحامِلا　　　أخْزاه ربِّي عاجِلًا وآجِلا

وقال آخر:

شيَّبَ أصداغي وهُنَّ بِيضُ مَحاملٌ لقَدِّها نَقيضُ

(٢٨) كلام بعض الأعراب

قال الأصمعي: سمعت أعرابيًّا يقول: لو تنخَّل رجل أخًا شقيقًا لم يأمل أن يبدوَ منه ما يبدو من الثوب ذي الحَرَق، فرَحِم الله رجلًا أغضى على الأقذاء، واستمتع بالظاهر. وقال الأصمعي: سمعت بعض الأعراب يقول: من ولَّد الخير أنتج له فراخًا تطير بالسرور، ومن ولَّد الشر أنبت له نباتًا مرًّا مذاقُه، قُضبانه الغيظ، وثمره الندم. وأنشد النَّضْر بن شُمَيل:[٨٠]

يُحِبُّ بقائي المُشفِقونَ ومُدَّتي إلى أجَلٍ لو يَعلَمون قريبِ
وما أرَبي في أرذَلِ العُمْرِ بعدَما لبِثتُ شبابي قَبْلَه ومَشِيبي

وأنشد ابن الأعرابي:[٨١]

يا ابنَ الزُّبيرِ جَزاكَ اللهُ لائمةً هلَّا انتهيتُم وفي الأقوالِ تعتيبُ
تَنْزو لتُدرِكَ من كَعبٍ غَطارفةً لا تَستوي بُسْرةُ العُرجُونِ والطِّيبُ

---

[٨٠] النضر بن شميل: المازني النحوي البصري. كان عالمًا ثقةً صاحب غريب وفقه ومعرفة بأيام الناس، وكان شاعرًا محدِّثًا، أخذ عن الخليل بن أحمد، وأقام في البادية أربعين سنة، وله في رواية الأثر والسُّنن والأخبار منزلة. ضاقت به المعيشة في البصرة، فأراد الخروج إلى خراسان، فشيَّعه من أهل البصرة نحو ثلاثة آلاف رجل ما فيهم إلا محدِّث أو نحوي أو لُغوي أو عَروضي أو إخباري. فلما صار بالمربد جلس وقال: يا أهل البصرة، يعِزُّ عليَّ فِراقكم، والله لو وجدت كل يوم كيلجة باقلَّا ما فارقتكم. ثم أتى خراسان وأفاد بها مالًا عظيمًا. قال النضر: كنت أدخل على المأمون حينما كان مُقيمًا بمَرو، فجرى الحديث، فقال: حدَّثنا هُشيم، عن خالد، عن الشعبي، عن ابن عبَّاس قال: قال رسول الله ﷺ: إذا تزوَّج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سَداد من عَوَز. فقلت: صدق يا أمير المؤمنين هشيم، حدَّثنا عوف بن أبي جميلة، عن الحسن، عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: إذا تزوَّج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سِداد من عَوَز. قال: وكان المأمون متَّكئًا فاستوى جالسًا وقال: يا نضر، كيف قلت سداد؟ قلت: لأن السداد ها هنا لحن. قال: أوَتُلحِّنني؟ قلت: إنما لحن هشيم، وكان لحَّانة. قال: فما الفرق بينهما؟ قلت: السَّداد، بالفتح: القصد في الدين والسبيل. والسِّداد، بالكسر: البُلغة، وكل ما سددت به شيئًا فهو سداد ... إلخ. تُوفي سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م.

كما ترى فَرْخَ عُشٍّ لا حَراكَ به   وفوْقَه من نُسالِ الرِّيشِ تزغيبُ
ما فيكمُ قد عَلِمْنا من مُحافَظةٍ   يومَ الحِفاظِ ولا خيرٌ لمَنكوبِ
وأنتمُ تحتَ أرواقِ البيوتِ إذا   هبَّت شآميَّةٌ دُرْنٌ طَحاريبُ
أنتم مُناخ الخنا قُبحًا لخَلَّتِكم   فكلُّكم يا بَني البَلقاءِ مَقشوبُ[٨٢]
في ذِمَّتي أنْ تَضِجُّوا من مُصادَمتي   كما تَضِجُّ من الحَرِّ الجناديبُ
ما بيْنَ أدْبَسَ نتَّاجٍ له دَفَرٌ   ومُقصَدِ القَلبِ ذي سِتِّينَ مَعصوبِ[٨٣]
خالي سَماعةُ فاعلَمْ لا خَفاءَ به   لقد هوى بِكَ يا دَفِينُ شُنْخوبُ[٨٤]
صَعبٌ مَناكِبُه تَعْيا الكُماةُ به   خَوفًا وتَصطادُهم منه كلاليبُ

وأنشد ابن المُعذَّل:[٨٥]

تَواعَدَ للبَينِ الخليطُ ليَنْبتُّوا   وقالوا لِراعي الظَّهرِ مَوعِدُك السَّبتُ
ففاجَأني بَغتًا ولم أخْشَ بينَهم   وأفظَعُ شَيءٍ حينَ يَفجَؤُك البَغتُ
مَضى لسُلَيمى منذُ ما لم أُلاقِها   سِنونَ توالتْ بيْنَنا خمسٌ اوْ سِتُّ

[٨١] ابن الأعرابي: هو أبو عبد الله محمد بن زياد. كان مولىً لبني هاشم، وكان أبوه عبدًا سنديًّا. كان نحويًّا كوفيًّا راوية ناسبًا لُغويًّا ثقة. أخذ عن المفضَّل الضبي، وأبي معاوية الضرير، والقاسم بن معن المسعودي، والكسائي. وأخذ عنه إبراهيم الحربي، وأبو العبَّاس ثعلب، وابن السِّكِّيت، وغيرهم. وكان رأسًا في غريب اللغة، ناقَش العلماء واستدرك عليهم وخطَّأ كثيرًا من نقلة اللغة. وكان يزعم أن أبا عُبيدة والأصمعيَّ لا يُحسِنان شيئًا. وكان يحضر مجلسَه خلقٌ كثير من المُستفيدين ويُملي عليهم، وكان واسع المحفوظ. قال أبو العبَّاس ثعلب: شاهدت مجلس ابن الأعرابي بضع عشرة سنة، وكان يحضره زهاء مائة إنسان، وكان يُسأل ويُقرأ عليه فيُجيب من غير كتاب، ولم أرَ بيده كتابًا قط، ولقد أملى على الناس ما يُحمل على الجمال، ولم يُرَ أحد في علم الشعر أغزر منه. وله تصانيف عدة. كان مولده سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م، وتُوفي سنة ٢٣١هـ/٨٤٥م.

[٨٢] مقشوب: هنا بمعنى مذموم.

[٨٣] أدبس: أسود. الدفر: الريح الخبيثة. المقصد: المصاب. المعصوب: السغب.

[٨٤] في نسخة: شخوب، ولا معنى لها هنا، والشخوب: رأس الجبل.

[٨٥] ابن المعذل: هو أحمد بن المعذل. كان شاعرًا مُتعففًا ذا دين ومروءة. وكان مُتقدمًا عند المعتزلة، ذا جاهٍ واسع وحُرمة عند سلطانه. وكان أخوه عبد الصمد شاعرًا هجَّاءً، خبيث اللسان، كثير الحسد لأخيه أحمد، هجَّاءً له، وكان أحمد يحلم عليه. كتب أحمد إلى أخيه عبد الصمد يقول: إني أرى المكروه من

وفي النَّفْسِ حاجاتٌ إليكم كثيرةٌ　　بِرُبَّانِها في الحيِّ لو أُخِّرَ الوَقتُ
تأيَّمتُ حتى لامَني كلُّ صاحبٍ　　رجاءَ سُلَيمى أنْ تَئِيمَ كما إمْتُ[٨٦]
لئنْ بِعتُ حظِّي مِنكِ يومًا بغيرِه　　لبئسَ إذًا يومَ التغابُنِ ما بِعتُ
تمنَّى رِجالٌ أنْ أموتَ وعَهدُهم　　بأنْ يَتمنَّوا لو حيِيتِ إذا مِتُّ
وقد علِموا عندَ الحقائقِ أنَّني　　أخو ثِقةٍ ما إنْ وَنِيتُ ولا إنْتُ[٨٧]
وإنِّي وقد سيَّرتُ نَبْلي وإنَّني　　كأنِّي وقد وقَّعت أنصالَها رِشْتُ

وقال أحمد بن المُعذَّل: أنشدني أعرابي من طي:

ولستُ بميَّالٍ إلى جانِبِ الغِنى　　إذا كانتِ العَلياءُ في جانبِ الفَقرِ
وإنِّي لصبَّارٌ على ما يَنُوبُني　　وحَسبُك أنَّ اللهَ أثْنى على الصَّبرِ

(٢٩) خطبة للحجَّاج

حدَّثني محمد بن يحيى بن علي، عن عبد الحميد، عن عبد الله بن أبي عُبيدة بن محمد بن عمَّار بن ياسر، قال: خرج الحجَّاج يريد العراق واليًا عليها في اثنَي عشر راكبًا على النجائب، حتى دخل الكوفة فجأةً حين انتشر النهار — وقد كان بِشر بن مروان بعث

حيث يُرتجى المحبوب، وقد شمل عرك، وعمَّ أذاك، وصِرتُ فيك كأبي الابن العاق، إن عاش نغصه، وإن مات نقصه، وقد خشنت بقلبٍ جيبُه لك ناصح. والسلام. فردَّ عليه عبد الصمد:

أطاعَ الفريضةَ والسُّنَّةْ　　فتاهَ على الإنس والجِنَّةْ
كأنَّ لنا النَّارَ من دونِه　　وأفرَدَه اللهُ بالجَنَّةْ
ويَنظُرُ نَحوِي إذا زُرتُه　　بعَينِ حَماةٍ إلى كَنَّةْ

وقال أحمد في عبد الصمد:

قال لي أنت أخو الكلبِ وفي　　ظنِّه أنْ قد هجاني واجتهَدْ
أحمَدُ اللهَ تعالى أنَّه　　ما دَرى أنِّي أخو عبدِ الصَّمَدْ

[٨٦] تئيم، في نسخة: تئم، وهو غلط، والصواب ما أثبتناه.
[٨٧] إنت: تريثت.

المهلَّب إلى الحرورية — فبدأ الحجَّاج بالمسجد فدخله، ثم صعِد المِنبر وهو متلثِّم بعمامةِ خزٍّ حَمراء، فقال: عليَّ بالناس. فحسِبوه وأصحابه خوارج، فهمُّوا به، حتى إذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه، ثم قال:

أنا ابنُ جَلا وطلَّاعُ الثَّنايا متى أضَعِ العِمامةَ تَعرِفوني

أمَا والله إني لأحتمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمِثله. وإني لأرى رءوسًا قد أينعَت وحان قِطافُها، وإني لصاحبها، وإني لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللِّحى، قد شمَّرَت عن ساقها فشمِّر.

ثم قال:

هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدِّي زِيَمْ قد لفَّها الليلُ بسوَّاقٍ حُطَمْ
ليس بِراعي إبلٍ ولا غَنَمْ ولا بجزَّارٍ على ظَهرِ وَضَمْ

وقال أيضًا:

قد لفَّها الليلُ بعَصلَبيٍّ أروَعَ خرَّاجٍ من الدوِّيِّ
مُهاجِرٍ ليس بأعرابيِّ

إني والله يا أهل العراق، والشِّقاق والنِّفاق، ومَساوئ الأخلاق، ما أُغمَز تَغْماز التِّين، ولا يُقعقَع لي بالشِّنان، ولقد فُررت عن ذكاء، وفُتِّشت عن تجربة، وجرَيت من الغاية. إن أمير المؤمنين كبَّ كِنانته ثم عجم عيدانها، فوجدني أمرَّها عُودًا، وأصلبها عمودًا، فوجَّهني إليكم؛ فإنكم طالما أوضَعتُم في الفتن، واضطجعتم في مَراقد الضلال، وسننتم سُنَن الغي. أمَا والله لألحُوَنَّكم لَحْو العصا، ولأعصبنَّكم عَصب السَّلمة، ولأضربنَّكم ضرب غرائب الإبل؛ فإنكم لكأهلِ ﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. إني والله لا أَعِد إلا وفَيت، ولا أهُمُّ إلا أمضيت، ولا أخلُقُ إلا فريت، فإيَّاي وهذه الجماعات، وقال وقيل، وما تقول، وفيم أنتم وذاك. أمَا والله لتستقيمُنَّ على طريق الحق

أو لأدعَنَّ لكل رجل منكم شغلًا في جسده. من وجدتُ بعد ثلاثة من بعثِ المهلَّب سفكت دمه وأنهبت ماله.

ثم دخل منزله.

(٣٠) كتاب الحجَّاج إلى قَطَري

بسم الله الرحمن الرحيم
أبو الحسن قال: كتب الحجَّاج بن يوسف إلى قَطَريٍّ بن الفُجاءة:

سلام عليك. أما بعد، فإنك مرقتَ من الدين مُروق السهم من الرمِيَّة، قد علِمت حيث تجرثمت ذلك أنك عاصٍ لله ولوُلاة أمره، غير أنك أعرابي جِلف أميٌّ، تستطعم الكِسرة وتستشفي بالتَّمرة، والأمور عليك حسرة. خرجت لتنال شُبعة فلحِقَ بك طَغامٌ صَلُوا بمِثل ما صَلِيت به من العيش، يهزُّون الرماح، ويستنشون الرياح، على خوف وجهد من أمورهم، وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهِلوا معرفته، ثم أهلكهم الله بتَرحتَين. والسلام.

(٣١) جواب قطري بن الفجاءة

فأجابه قَطَري بن الفُجاءة:

من قطري بن الفجاءة إلى الحجَّاج بن يوسف، سلام على الهُداة من الوُلاة، الذين يرعَون حريم الله ويرهبون نِقَمه، فالحمد لله على ما أظهر من دينه، وأظلع به أهل السفالة، وهدى به من الضلالة، ونصر به عند استخفافك بحقه. كتبتَ إليَّ تذكُر أني أعرابي جِلف أميٌّ أستطعم الكِسرة وأستشفي بالتمرة. ولعَمري يا ابن أم الحجَّاج إنك لميِّت في جُبَّتك، مُطلخِمٌّ في طريقتك، واهٍ في وثيقتك، لا تعرف الله، ولا تجزع من خطيئتك، يئستَ واستيئَست من ربك، فالشيطان قرينك، لا تُجاذبه وثاقك، ولا تُنازعه خناقك. فالحمد لله الذي لو شاء أبرز لي صفحتك، وأوضح لي طلعتك؛ فوالذي نفس قَطَري بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال، ليس كتصدير المقال، مع أني أرجو أن يدحض الله حُجتك، وأن يمنحني مُهجتك.

(٣٢) بين معاوية وعدي بن حاتم

خالد بن يزيد الطائي قال: كتب معاوية إلى عدي بن حاتم: حاجَيتُك ما لا يُنسى. يعني قتل عثمان. فذهب عدي بالكتاب إلى علي فقال: إن المرأة لا تنسى قاتل بِكرها، ولا أبا عُذرها. فكتب إليه عدي: إن ذلك مني كلَيلة شَيباء.

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: يا غلام، ارفع ذلك النثيل. يعني روثًا. وقيل له: أين خرج هذا الحِبْن؟[88] قال: تحت مَنكبي.

وقيل لقُتيبة: أين خرج بك هذا الخراج؟ قال: بين الرانفة والصَّفنة.

وقيل لرَقبة: ما بال القُراء أشد شيء نَهمةً وغُلمةً؟ قال: أما الغُلمة فإنهم لا يزنون، وأما النَّهمة فلأنهم يصومون. وعرض عليه رجلٌ الغداء، فقال له: يا هذا، إن أقسمت عليَّ وإلا فدَعني.

وقال مؤرِّق العجلي: ما تكلَّمت بكلمة في الغضب أندم عليها في الرضا، وقد سألت الله حاجةً منذ أربعين سنةً فما أجابني ولا يئست منها، ولا أتكلَّم إلا فيما يعنيني. قيل: مكتوب في حكمة داود عليه السلام: على العاقل أن يكون عالمًا بأهل زمانه، مالكًا للسانه، مُقبلًا على شانه. ولما قدِم الفرزدق الشام، قال له جرير وكان هناك: ما ظننت أنك تَقدَم بلدًا أنا فيه. قال الفرزدق: إني طالما خالفت رأي العَجَزة. وقال يونس بن حبيب: إذا قالوا غلب الشاعر فهو الغالب، وإذا قالوا مغلَّب فهو المغلوب. قال امرؤ القيس:

وإنَّك لم يَفخَرْ عليكَ كعاجِزٍ　　　ضعيفٍ ولم يَغلِبْك مِثلُ مُغلَّبِ

وقال بعضهم:

إنِّي امرؤٌ يَنفَعُ قَومي مَشهَدي　　　أذُبُّ عنهم بلِساني ويدي

وقال قُتيبة بن مُسلم: إذا غزَوتم فأطيلوا الأظفار، وقصِّروا الشعور.

ونظر مخنَّث إلى شيخٍ قبيح الوجه في الطريق، فقال: ألمْ يَنهَكم سليمان بن داود عليهما السلام عن الخروج بالنهار؟

---

[88] الحبن: الدمل.

وعزَّى أعرابي ناسًا فقال: يرحم الله فلانًا، لقد كان كثير الإهالة، دسِم الأشداق. وقال الشاعر:

تَرى ودَكَ السَّديفِ على لِحاهم كلَونِ الرَّاءِ لبَّدَه الصَّقيعُ

وقال أعرابي: رحم الله فلانًا، إن كان لضخم الكاهل. ثم جلس وسكت. وقال آخر: كان والله نقيَّ الأظفار، قليل الأسرار. وسارَّ رجل أعرابيًّا بحديث فقال: أفهمت؟ قال: بل نسيت.

(٣٣) هجاء واثلة السَّدوسي لعبد الملك بن المهلَّب

قال واثلة بن خليفة السدوسي يهجو عبد الملك بن المهلب:

لقد صبَرتْ للذُّلِّ أعوادُ مِنبرٍ تقومُ عليها في يدَيك قَضيبُ
بَكى المِنبَرُ الغربيُّ إذ قمتَ فوقَه وكادتْ مَساميرُ الحديدِ تَذُوبُ
رأيتُك لمَّا شِبتَ أدركَك الذي يُصيبُ سَراةَ الأزدِ حينَ تَشِيبُ
سَفاهةُ أحلامٍ وبُخلٌ بِنائلٍ وفيكَ لمَن عابَ المُزونَ عُيوبُ
وقد أوحشَتْ منكم رَساتيقُ فارسٍ وبالمِصرِ دُورٌ جَمَّةٌ ودُروبُ
إذا عُصبةٌ ضجَّت من الجُرحِ ناسبَت مَزُونيَّةً إنَّ النسيبَ نَسيبُ

(٣٤) رثاء بشَّار لعمر بن حفص

وقال بشَّارٌ الأعمى في عمر بن حَفص:

ما بالُ عَينِك دَمعُها مَسكوبُ حَرِبَت فأنتَ بنَومِها مَحروبُ
وكذاك من صَحِبَ الحوادثَ لم يَزَلْ تأتي عليه سلامةٌ ونُكوبُ
يا أرضُ وَيحَكِ أكْرِميه فإنَّه لم يَبْقَ للعَتكيِّ فيكِ ضَريبُ
أبْهى على خَشبِ المَنابِرِ قائمًا يومًا وأحزَمُ إنْ تَشِبُّ حُروبُ
إنَّ الرَّزيَّةَ لا رَزيَّةَ مِثلُها يومَ ابنُ حَفصٍ في الدِّماءِ خَضيبُ
لا يَستجيبُ ولا يَحِيرُ لِسانُه ولقد يَحِيرُ لِسانُه ويُجيبُ
غُلِبَ العَزاءُ على ابنِ حَفصٍ والأسى إنَّ العَزاءَ بمِثلِه مغلوبُ

إذ قِيلَ أصبحَ في المَقابِرِ ثاويًا   عُمرٌ وشُقَّ لِواؤُه المنصوبُ
فظَلِلتُ أندُبُ سيفَ آلِ محمَّدٍ   عُمرًا وعَزَّ هُنالِك المندوبُ
فعَليكَ يا عُمَرُ السَّلامُ فإنَّنا   باكُوكَ ما هبَّت صَبًا وجَنوبُ

قال إسماعيل بن غزوان: الأصوات الحسنة والعقول الحِسان كثيرة، والبيان الجيِّد والجمال البارع قليل.

وذكر أبو الحارث صاحب مسجد ابن رغبان، فقال: إن حدَّثتَه سابَقك إلى ذلك الحديث، وإن سكتَّ عنه أخذ في التُّرَّهات.

وقال أبو وهب: أنا أستثقل الكلام كما يستثقل حُرَيثٌ السكوت. كما قال ابن شُبرُمة لإياس بن معاوية: شَكلي وشكلك لا يتَّفقان، أنت لا تشتهي أن تسكت، وأنا لا أشتهي أن أسمع.

وقال أبو مُقبل بن درست: إذا لم يكن المُستمِع أحرصَ على الاستماع من القائل على القول لم يبلغ القائل في منطقه، وكان النُّقصان الداخل على قوله بقدر الخَلَّة بالاستماع منه.

وقال ابن بشَّار البَرقي: كان عندنا واحدٌ يتكلم في البلاغة، فسمعته يقول: لو كنت أنا ليس أنا وأنا ابنُ مَن أنا منه، لكنت أنا أنا وأنا ابنُ مَن أنا منه، فكيف وأنا أنا وابن من أنا منه؟

وقالوا: ثلاث يُسرع إليهن الخلَف؛ الحريق، والتزويج، والحج.

قال المهلَّب: ليس شيءٌ أنمى من بقيَّة السيف. فوجد الناس تصديق قوله فيما نال ولده من السيف وصار فيهم من النماء.

وقال علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه: بقيَّة السيف أنمى عددًا، وأكثر ولدًا. ووجد الناس ذلك بالعيان، للذي صار إليه ولده من نهك السيف، وكثرة الذرء، وكرم النجل.

قال الله تباك وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾. وقال بعض الحكماء: قتلُ البعض إحياءٌ للجميع. وقال همَّام الرَّقاشي:

أبلِغْ أبا مِسمَعٍ عنِّي مُغلغَلةً   وفي العِتابِ حياةٌ بينَ أقوامِ
قدَّمتَ قَبْلي رِجالًا لم يكُنْ لهمُ   في الحقِّ أنْ يَلِجوا الأبوابَ قُدَّامي

لو عُدَّ قبرٌ وقبرٌ كنتُ أكرَمَهم　　قبرًا وأبعَدَهم من مَنزلِ الذَّامِ
حتى جعلتُ إذا ما حاجةٌ عرَضَت　　ببابِ قَصرِك أدلُوها بأقوامِ

(٣٥) الحجَّاج وامرأةٌ خارجية

وقال الحجَّاج لامرأة من الخوارج: والله لأعُدَّنَّكم عدًّا، ولأحصُدنَّكم حصدًا. فقالت: أنت تحصد والله يزرع، فانظر أين قدرة المخلوق من قدرة الخالق.

ولم يظهر من عدد القتلى مِثل الذي ظهر في آل أبي طالب، وآل الزُّبير، وآل المهلَّب. وقال الشاعر في آل الزبير:

آلُ الزُّبيرِ بَنُو حُرَّةٍ　　مَرَوا بالسُّيوفِ صدورًا حِناقا
يموتونَ والقتلُ داءٌ لهم　　يُغِيثونَ يومَ السِّباقِ السِّباقا
إذا فرَّجَ القتلُ عن عِيصِهم　　أبى ذلك العِيصُ إلا اتِّفاقا[٨٩]

احترقت دار ثُمامة، فقالوا له: ما أسرعَ خلَفَ الحريق؟ قال: فأنا أستحرق الله. وقال ثُمامة: سمعت قاصًّا بعبَّادان يقول في دعائه: اللهم ارزقنا الشهادة وجميعَ المسلمين. قال: وتساقَط الذِّبَّان على وجهه فقال: الله أكبر، كثَّر الله بكم القبور. قال: وسمع أعرابي رجلًا يقرأ سورة براءة، فقال: ينبغي أن يكون هذا آخر القرآن. قيل له: ولِمَ؟ قال: رأيت عهودًا تُنبَذ. وقال أبو عبد العزيز: قال الغزَّال القاصُّ في قصصه: ليت الله لم يكُن خلقني وأنا الساعة أعوَر. فحكيت ذلك لأبي عتَّاب الجزَّار، فقال أبو عتَّاب: بئس ما قال! وددتُ والله الذي لا إله إلا هو أن الله لم يكن خلقني وأنِّي الساعة أعمى مقطوع اليدَين والرِّجلَين.

(٣٦) عمر والزِّبرِقان والحُطيئة

ولما استعدى الزِّبرقان على الحُطيئة فأمر عُمر بقطع لسانه، قال الزبرقان: نشَدتُك الله يا أمير المؤمنين ألا تقطعه، فإن كنت لا بد فاعلًا فلا تقطعه في بيت الزبرقان. قيل له: إنه لم يذهب هناك، إنما أراد أن يقطع لسانه عنك برغبة أو رهبة.

---

[٨٩] العيص: الشجر المُلتف.

(٣٧) من كلام العرب

وتقول العرب: قتلت أرضٌ جاهلَها، وقتل أرضًا عالمُها. وتقول: ذبحني العطش، والمِسك الذبيح، وركِب بنو فلان الفلاةَ فقطع العطش أعناقهم. وتقول العرب: فلانٌ لسان القوم ونابُهم الذي يَفترُّون عنه، وهؤلاء أنفُ القوم وخراطيمهم، وبيان لسان الأرض يوم القيامة، وفلانٌ اصطلمَه الوادي، وفلانٌ عين البلد.

قال الأصمعي: قال رجل لأبي عمرو بن العلاء: أكرمك الله. قال: مُحدَثة. قال: وكان أبو عَون يقول: كيف أنت أصلحك الله؟

وكان الأصمعي يقول: قولهم: جُعلتُ فِداك، وجعلني الله فِداك، مُحدَث. وقد روى علماء البصريين أن الحسن لما سمع صراخًا في جنازة أم عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر فالتفت، قال له عبد الأعلى: جُعلتُ فِداك، لا والله ما أمرت ولا شعرت. قال الأصمعي: صلَّى أعرابي فأطال الصلاة، وإلى جانبه ناس، فقالوا: ما أحسنَ صلاتَه! فقال: وأنا مع هذا صائم. قال الشاعر:

صلَّى فأعجَبَني وصامَ فرابَني　　　عَدِّ القَلوصَ عن المُصلِّي الصائمِ

وقال طاهر بن الحسين لأبي عبد الله المَروَزي: منذ كم صِرت إلى العراق يا أبا عبد الله؟ قال: دخلت العراق منذ عشرين سنة، وأنا أصوم الدهر منذ ثلاثين سنة. قال: يا أبا عبد الله، سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتَين؟

(٣٨) بسم الله الرحمن الرحيم

قال عوانة: قال زياد بن أبيه: من سعادة الرجل أن يطول عمره، ويرى في عدوِّه ما يسرُّه. قال الباهلي: قيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ قال: لأنَّا نقول وأكبادنا تحترق. قال أبو الحسن: كانت بنو أميَّة لا تَقبَل الراوية إلا أن يكون راوية للمراثي. قيل: ولِمَ ذاك؟ قيل: لأنها تدل على مكارم الأخلاق.

(٣٩) عمر والشعر

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: من خير صناعات العرب الأبيات يقدِّمها الرجل بين يدَي حاجته، يستنزل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم.

وقال شُعبة: كان سِماك بن حرب إذا كان له إلى الوالي حاجةٌ قال فيه أبياتًا ثم يسأله حاجته.

(٤٠) لصٌّ ينطق بالحكمة

قال أبو الحسن: كان شِظاظ لصًّا، فأغار على قوم من العرب فطرد نَعمَهم فساقها ليلته حتى أصبح، فقال رجل من أصحابه: لقد أصبحنا على قصدٍ من طريقنا. قال: إن المُحسِن مُعان.

(٤١) عبد الملك بن مروان وتعقُّله

وقال أبو الحسن: أربى غلامٌ من بني علي على عبد الملك، وعبد الملك يومئذٍ غلام، فقال له كَهْل من كهولهم لما رآه مُمسكًا عن جواب المُربِي عليه: لو شكوتَه إلى عمه انتقم لك منه. قال: أمسِكْ يا كَهْل؛ فإني لا أعُدُّ انتقام غيري انتقامًا. قال أبو الحسن: خاض جلساء عبد الملك يومًا في قتل عثمان، فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين، في أيِّ سِنِّك كنتَ يومئذٍ؟ قال: كنت دون المُحتلم. قال: فما بلَغ من حزنك عليه؟ قال: شغَلني الغضب له عن الحزن عليه.

وكان عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، إذا اشترى رقيقًا قال: اللهم ارزقني أنصحهم حياءً وأطولهم عمرًا. وكان إذا استعمل رجلًا قال: إن العمل كِير، فانظر كيف تخرج منه.

(٤٢) الكَرخي المتفقِّه

ومضى أبو عبد الله الكرخي إلى الرَّبَض، فجلس على بابه، ونفش لحيته، وادَّعى الفقه، فوقف عليه رجل فقال له: إني أدخلت إصبعي في أنفي فخرج عليها دم. فقال: احتجِم. قال: جلست طبيبًا أو فقيهًا؟ قالوا: بينا الشَّعبي جالسٌ في مجلسه وأصحابه يُناظرونه في الفقه، وإذا شيخ بقربة قد أقبل عليه بعد أن طال جلوسه، فقال له: إني أجد في قفايَ حكَّةً، أفترى لي أن أحتجم؟ قال الشعبي: الحمد لله الذي حوَّلَنا من الفقه إلى الحجامة. وذكر ناس رجلًا بكثرة الصوم وطول الصلاة وشدة الاجتهاد، فقال أعرابي كان شاهدًا لكلامهم: بئس الرجل هذا! أيظنُّ أن الله لا يرحمه حتى يعذِّب نفسه هذا التعذيب؟

وقال ابن عَون: أدركت ثلاثةً يتشدَّدون في السماع، وثلاثةً يتساهلون في المعاني؛ فأما الذين يتساهلون فالحَسن، والشَّعبي، والنَّخعي، وأما الذين يتشددون فمحمد بن سيرين، والقاسم بن محمد، ورجاء بن حَيْوة.

وقال رجل من أصحاب ابن لهيعة: ما رأيت أحسن أدبًا من عبد الله بن المُبارَك والمعافى بن عمران. قال أبو الحسن، حدَّثني عبد الأعلى قال: رأيت الطِّرِمَّاح مؤدِّبًا بالرَّي، فلم أرَ أحدًا آخَذ لعقول الرجال، ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه. ولقد رأيت الصِّبيان يخرجون من عنده كأنهم قد جالسوا العلماء.

وكان رجلٌ يبلُغه كلام الحسن البصري، فبيْنا الرجل يطوف بالبيت إذ سمع رجلًا يقول: عَجبًا لقوم أُمروا بالزاد ونُوديَ فيهم بالرحيل، وحُبِس أولهم على آخرهم! قال: فقلت في نفسي: هذا الحسن.

قال: وأربعة من قريشٍ كانوا رُواة الناس للأشعار، وعلماءهم بالأنساب والأخبار: مَخرمة بن نَوفل بن وُهيب بن عبد مناف بن زُهرة، وأبو الجهم بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عوف، وحُويطب بن عبد العُزَّى، وعَقيل بن أبي طالب.

وكان عقيل أكثرهم ذكرًا لمثالب الناس، فعادَوه لذلك، وقالوا فيه وحمَّقوه، وسمعت ذلك العامة منهم، فلا تزال تسمع الرجل يقول: قد سمعت الرجل يُحمِّقه. حتى ألَّف بعض الأعداء فيه الأحاديث، فمنها قولهم: ثلاثة حُمقاء كانوا إخوةَ ثلاثةٍ عُقلاء والأمُّ واحدة: علي وعَقيل، وأمهما فاطمة بنت أسد بن هاشم؛ وعُتبة ومعاوية ابنا أبي سفيان، وأمهما هند بنت عُتبة بن ربيعة؛ وعبد الملك ومعاوية ابنا مروان، وأمهما عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص. فكيف وجعدة بن هبيرة يقول:

أبي من بني مخزومَ إنْ كنتَ سائلًا   ومن هاشمٍ أمِّي لخيرِ قَبيلِ
فمَن ذا الذي يَبأى عليَّ بخالِه   وخالي عليٌّ ذو النَّدى وعَقيلُ

وقال قُدامة بن موسى بن عمر بن قُدامة بن مَظعون:

وخالي بُغاةُ الخَيرِ تَعلَمُ أنَّه   جديرٌ بقَولِ الحقِّ لا يَتوعَّرُ
وجَدِّي عليٌّ ذو التُّقى وابنُ أُمِّه   عَقِيلٌ وخالي ذو الجَناحَينِ جَعفرُ
فنحن وُلاةُ الخيرِ في كلِّ مَوطِنٍ   إذا ما وَنى عنه رجالٌ وقصَّروا

وقال حسَّان:

إنَّ خالي خَطيبُ جابيةِ الجَو ... لانِ عندَ النُّعمانِ حينَ يقومُ
وهو الصَّقرُ عندَ بابِ ابنِ سُلمى ... يومَ نُعمانُ في الكُبولِ سقيمُ
وسَطَت نِسْبتي الذوائبَ منهم ... كلُّ دارٍ فيها أبٌ لي عَظيمُ
وأبي في سُمَيحةَ القائلُ الفا ... صِلُ يومَ التفَّت عليه الخُصومُ
يَفصِلُ القولَ بالبيانِ وذو الرَّأ ... يِ من القومِ ظالمٌ مَكعومُ
تِلكَ أفعالُه وفِعلُ الزِّبَعرى ... خاملٌ في صديقِه مذمومُ
رُبَّ حِلمٍ أضاعَه عدمُ الما ... لِ وجهلٍ غطَّى عليه النَّعيمُ
ولِيَ الناسَ منكمُ إذ أبَيتُم ... أسْرةٌ من بني قُصَيٍّ صَميمُ
وقريشٌ تَجُولُ منَّا لِواذًا ... أنْ يُقِيمُوا وخفَّ منها الحُلومُ
لم تُطِقْ حَمْلَه العواتِقُ منهم ... إنما يَحمِلُ اللِّواءَ النُّجومُ

(٤٣) عقيل بن أبي طالب

وكان عَقيل رجلًا قد كفَّ بصره، وله بعدُ لسانه ونَسبه وأدبه وجوابه، فلما فضَل نُظراءه من العلماء بهذه الخصال صار لسانه بها أطول، وغاضَب عليًّا وأقام بالشام، فكان ذلك أيضًا أطلق للسان الباغي والحاسد فيه. وزعموا أنه قال له معاوية: هذا أبو يزيد، لولا أنه علِم أني خيرٌ له من أخيه لَمَا أقام عندنا وتركه. فقال له عقيل: أخي خيرٌ لي في ديني، وأنت خيرٌ لي في دُنياي. وقال له مرةً: أنت معنا يا أبا يزيد؟ قال: ويوم بدر كنت معكم.

وقال معاوية يومًا: يا أهل الشام، هل سمعتم قول الله تبارك وتعالى في كتابه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾؟ قالوا: نعم. قال: فإن أبا لهب عمه. فقال عقيل: فهل سمعتم قول الله عز وجل: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾؟ قالوا: نعم. قال: فإنها عمته. قال معاوية: حسبُنا ما لقينا من أخيك.

وذكروا أن امرأة عقيل، وهي فاطمة بنت عتبة بن ربيعة، قالت: يا بني هاشم، لا يُحبُّكم قلبي أبدًا. أين أبي؟ أين عمي؟ أين أخي؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة ترِد أُنُفهم قبل شِفاههم. قال لها عقيل: إذا دخلت جهنم فخُذي على شمالك.

وقيل لعمر رضي الله تعالى عنه: فلان لا يعرف الشر. قال: ذلك أجدَرُ أن يقع فيه. وسمع أعرابي رجلًا يقرأ: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ

كَانَ كُفِرَ﴾. قالها بفتح الكاف، فقال الأعرابي: لا يكون. فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء، فقال الأعرابي: يكون.

(٤٤) تشابيه من الشعر

قال الشاعر:

بدا البَرقُ من نَحوِ الحِجازِ فشاقَني ... وكلُّ حِجازيٍّ له البَرقُ شائقُ
سَرى مِثلَ نَبضِ العِرقِ واللَّيلُ دُونَه ... وأعلامُ أُبْلى كلُّها والأسالِقُ

وقال الآخر:

أرِقتُ لبَرقٍ آخِرَ اللَّيلِ يَلمَعُ ... سَرى دائبًا حِينًا يَهُبُّ ويَهجَعُ
سرى كاحتساءِ الطَّيرِ والليلُ ضاربٌ ... بأرواقِه والصُّبحُ قد كادَ يَسطَعُ

(٤٥) المنصور والشابُّ الهاشمي

حدَّثني إبراهيم بن السِّندي، عن أبيه قال: دخل شابٌّ من بني هاشم على المنصور، فسأله عن وفاة أبيه. قال: مرِض أبي رضي الله تعالى عنه يوم كذا، ومات رضي الله تعالى عنه يوم كذا، وترك رضي الله تعالى عنه من المال كذا ومن الولد كذا. فانتهره الربيع وقال: بين يدَي أمير المؤمنين تُوالي بالدعاء لأبيك؟ فقال الشاب: لا ألومك؛ لأنك لم تعرف حلاوة الآباء. قال: فما علِمنا أن المنصور ضحِك في مجلسه ضحكًا قطُّ افترَّ عن نواجذه إلا يومئذٍ.

(٤٦) آداب الملوك

وحدَّثني إبراهيم بن السِّندي، عن أبيه قال: دخل شابٌّ من بني هاشم على المنصور، فاستجلسه ذات يوم ودعا بغدائه، فقال للفتى: ادْنُه. فقال: قد تغدَّيت يا أمير المؤمنين. فكفَّ عنه الربيع حتى ظننَّا أنه لم يَفطِن لخطابه، فلما نهض للخروج أمهله، فلما كان من وراء السِّتر دفع في قفاه، فلما رأى ذلك الحُجَّاب منه دفعوا في قفاه حتى أخرجوه من الدار، فدخل رجال من عمومة الفتى فشكَوا الربيع إلى المنصور، فقال المنصور: إن الربيع لا يُقدِم على مِثل هذا إلا وفي يدَيه حُجة، فإن شئتم أغضيتم على ما فيها، وإن

شئتم سألته وأنتم تسمعون. قالوا: فاسأله. ودعا الربيع وقصُّوا قِصَّته، فقال الربيع: هذا الفتى كان يسلِّم من بعيد وينصرف، فاستدناه أمير المؤمنين حتى سلَّم عليه من قريب، ثم أمره بالجلوس، ثم تبذَّل بين يدَيه وأكل، ثم دعاه إلى طعام ليأكل معه من مائدته، فبلَغ به الجهل بفضيلة المَرتبة التي صيَّره فيها إلى أن قال حين دعاه إلى غذائه: قد تغدَّيت. وإذًا ليس عنده لمن تغدَّى مع أمير المؤمنين إلا سدُّ خَلَّة الجوع، ومِثل هذا لا يقوِّمه القول دون الفعل.

حدَّثني إبراهيم بن السِّندي، عن أبيه قال: والله إني لواقفٌ على رأس الرشيد، والفضل بن الربيع واقف في الأيسر، والحسن اللؤلئيُّ يُسائله ويحدِّثه عن أمور، وكان آخر ما سأله عن بيع أمهات الأولاد، فلولا أني ذكرت أن سلطان ما وراء السِّتر للحاجب، وسلطان الدار لصاحب الحرس، وأن سلطاني إنما هو على من خرج من حدود الدار، لقد كنت أخذت بضَبعه وأقمتُه، فلما أن صِرنا وراء الستر قلت له والفضلُ يسمع: أمَا والله لو كان هذا منك في مسايرة أو موقف لعلِمتَ أن للخلافة رجالًا يصونونها عن مجلسك.

وحدَّثني إبراهيم بن السِّندي قال: بيْنا الحسن اللؤلئيُّ في بعض الليالي بالرَّقَّة يحدِّث المأمون — والمأمون يومئذٍ أمير — إذ نعس المأمون، فقال له اللؤلئيُّ: نِمتَ أيها الأمير؟ ففتح المأمون عينَيه وقال: سُوقيٌّ والله، خذ يا غلام بيده. قال: وكنَّا يومًا عند زياد بن محمد بن منصور بن زياد — وقد هيَّأ لنا الفضل بن محمد طعامًا، ومعنا في المجلس خادم وكان لا يُتَّهم — فجاء رسول الفضل إلى زياد فقال: يقول لك أخوك: قد أدرك طعامنا فتحوَّلوا. ومعنا في المجلس إبراهيم النظَّام، وأحمد بن يوسف، وقُطرُب النحوي، في رجال من أدباء الناس وعلمائهم، فما منَّا أحدٌ فَطِن لخطأ الرسول، فأقبل عليه مبشِّر الخادم، فقال: يا ابن اللَّخناء، تقف على رأس سيدك فتستفتح الكلام كما يستفتحه الرجل من عُرْض الناس؟ ألا تقول: يا سيدي، يقول لك أخوك: ترى أن تصير إلينا بإخوانك فقد تهيَّأ أمرنا؟

وابتعت خادمًا كان قد خدم أهل الثروة واليسار وأشباه الملوك، فمرَّ به خادم من معارفه ممن قد خدم الملوك فقال: إن الأديب — وإن لم يكن ملكًا — فقد يجب على الخادم أن يخدمه خِدمة الملوك، فانظر أن تخدمه خدمةً تامَّة. قلت له: وما الخدمة التامة؟ قال: الخدمة التامة أن تقوم في دارك لبعض الأمر وبينك وبين النعل مَمشى خمس خُطًى، فلا يدعك أن تمشي إليها، ولكن يأخذها ويُدنيها منك. ومن كان يضع النعل اليُسرى قُدَّام الرِّجل اليمنى فلا ينبغي لِمثل هذا أن يدخل دار ملِك ولا أديب. ومن

الخدمة التامة أن يكون إذا رأى متَّكئًا يحتاج إلى مخدَّة ألا ينتظر أمرك، ويتعاهد ليقة الدواة قبل أن تأمره أن يصبَّ فيها ماءً أو سوادًا، وينفُض عنها الغبار قبل أن يأتيَك بها، وإن رأى بين يدَيك قِرطاسًا على طيِّه قطع رأسه ووضعه بين يدَيك على كِسره، وأشباه ذلك.

ولما كلَّم عُروة بن مسعود الثقفي رسول الله ﷺ، كان في ذلك ربما مسَّ لحية النبي ﷺ، فقال له المُغيرة بن شُعبة: نحِّ يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل ألا ترجع إليك يدك. فقال عُروة: يا غُدَر، وهل غسلت رأسك من غَدرتك إلا بالأمس؟

ونادى رجال من وفد بني تميم النبيَّ ﷺ باسمه من وراء الحُجرات، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. وقال الله عز وجل ذِكره: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾. وقال ابن هَرْمة أو غيره:

للهِ دَرُّ سَمَيذَعٍ فجَعَت به ... يومَ البَقيعِ حوادثُ الأيَّامِ
هشٍّ إذا نزَلَ الوُفودُ بِبابِه ... سَهلِ الحِجابِ مؤدَّبِ الخُدَّامِ
فإذا رأيتَ شقيقَه وصديقَه ... لم تدرِ أيُّهما أخو الأرحامِ

(٤٧) شيء من نوادر الأعراب

قال أبو الحسن: بيْنا هشام يسيرُ ومعه أعرابي إذ انتهى إلى ميل عليه كتاب، فقال للأعرابي: انظر أيُّ ميلٍ هذا؟ فنظر ثم رجع إليه فقال: عليه مِحجن وحلقة، وثلاثةٌ كأطْباء الكَلبة، ورأسٌ كأنه رأس قَطاة. فعرفه هشام بصورة الهجاء ولم يعرفه الأعرابي، وكان عليه «خمسة». وهي من نوادر الأعراب.

استشهدوا أعرابيًّا على رجل وامرأة، فقال: رأيته قد تقمَّصها، يَحفِزها[٩٠] بمؤخَّره، ويجذبها بمقدَّمه، وخفِي عليَّ المسلك. وقال آخر: رأيته قد تبطَّنها، ورأيت خَلخالها شائلًا، وسمعت نفَسًا عاليًا، ولا عِلم لي بشيءٍ بعدُ.

وقال أعرابي: رأيت هذا قد تناوَل حجرًا فالتفَّ بهذا، وحجز الناس بينهم، وإذا هذا يستدمي.

[٩٠] تقمصها، يحفزها. في نسخة: تقمصها، يخفرها. وهذا غلط، والصواب ما أثبتناه.

(٤٨) كلام في الشَّيب

وقال بعضهم: الشيب نذير الآخرة. وقال قيس بن عاصم: الشيب خِطام المنيَّة. وقال آخر: الشيب توءَم الموت. وقال الحكيم: شَيب الشعر موت الشعر، وموت الشعر عِلَّة موت البشر. وقال المعتمر بن سليمان: الشَّيب أول مراحل الموت. وقال السَّهمي: الشَّيب تمهيد الحِمام. وقال العتَّابي: الشيب تاريخ الكتاب. وقال النَّمري: الشيب عُنوان الكِبَر. وقال عَدي بن زيد العِبادي:

وابْيِضاضُ السَّوادِ من نُذُرِ الشَّرِّ وهـلْ مِـثـلُـه لـحَـيٍّ نـذيـرُ؟

وقال الآخر:

أصبحَ الشَّيبُ في المَفارِقِ شاعا واكتَسى الرَّأسُ من بياضٍ قِناعا
ثـم ولَّـى الـشـبـابُ إلَّا قـلـيـلًا ثـم يـأبـى الـقـلـيـلُ إلا نـزاعـا

(٤٩) كلمات لأشعب

وقال رجل لأشعب: ما شكرتَ معروفي عندك. قال: لأن معروفك جاء من عند غير مُحتسِب، فوقع إلى غير شاكر. وخفَّف أشعَبُ الصلاةَ مرةً، فقال له بعض أهل المسجد: خفَّفتَ صلاتك جدًّا. فقال: لأنه لم يُخالطها رياء.

(٥٠) كلام بعض المتكلِّمين من الخُطباء

الحمد لله كما هو أهله، والسلام على أنبيائه المقرَّبين الطيِّبين. أخي، لا تغترنَّ بطول السلامة مع تضييع الشكر، ولا تُعمِلن نعمة الله في معصيته؛ فإن أقل ما يجب لمُهدِيها ألا يجعلها ذريعةً في مخالفته. واعلم أن النِّعم نَوافر، ولقلَّما أقشعت نافرة فرجعت في نِصابها، فاستدعِ شاردها بالتوبة، واستدِم الراهن منها بكرم الجوار، واستفتِح باب المزيد بحسن التوكُّل، ولا تحسب أن سُبوغ سِتر نِعَم الله عليك غير مُتقلص عما قريب إذا لم ترجُ لله وقارًا. وإني لأخشى أن يأتيَك أمر الله بَغتةً أو لإملاء؛ فهو أولى مغبَّةً وأثبت في الحُجَّة. ولأن لا تعلم ولا تعمل خيرٌ من أن تعلم ولا تعمل. إن الجاهل العامل لم يؤتَ من سوء نية، ولا استخفاف بربوبية، وليس كمن قهرته الحُجة، وأعرب له الحق مُفصِحًا عن

نفسه، فآثَر الغفلة، والخسيس من الشهوة، على الله تبارك وتعالى، فأسمحت نفسه عن الجنة، وأسلمها لأبد العقوبة. فاستشِر عقلك، وراجع نفسك، وادرس نِعَم الله عليك، وتذكَّر إحسانه إليك؛ فإنه مَجلبة للحياء، ومَردعة للشهوة، ومَشحذة على الطاعة؛ فقد أظلَّ البلاء أو كأنْ قد. فكفكِف عنك غَرْب شؤبوبه، وجوائح سطواته، بسرعة النزع، وطول التضرُّع.

ثلاثٌ هي أسرع في العقل من النار في يَبيس العَرفج؛ إهمال الفكرة، وطول التمنِّي، والاستغراب في الضحك. إن الله لم يخلق النار عبثًا، ولا الجنة هملًا، ولا الإنسان سُدًى؛ فاعترِف رِق العبودية، وعجز البشرية؛ فكلُّ زائدٍ ناقص، وكلُّ قرينٍ مُفارق، وكلُّ غنيٍّ مُحتاج، وإن عصفت به الخُيلاء، وأبطره العُجب، وصال على الأقران؛ فإنه مُذالٌ مدبَّر، ومقهورٌ ميسَّر. إن جاع سخِط المحنة، وإن شبِع بطِر النعمة. تُرضيه اللمحة فيستشري مَرحًا، وتُغضبه الكلمة فيستطير شَفقًا، حتى تنفسخ لذلك مُنَّته، وتنتقض مَريرته، وتضطرب فريصته، وتنتشر عليه حُجته. ولَلعَجب من لبيبٍ تُوبقه الحياطة، ويَسلَم مع الإضاعة، ويؤتى من الثقة، ولا يشعر بالعاقبة؛ إن أهمل عمِي، وإن علِم نسِي؛ كيف لم يتَّخذ الحق مَعقِلًا يُنجيه، والتوكُّل ذائدًا يحميه؛ أعمِيَ عن الدلائل وعن وضوح الحجة، أم آثَر الخسيس على الآجل النفيس؟ وكيف توجد هذه الصفة مع صحة العقيدة واعتدال الفطرة؟ وكيف يُشير رائد العقل بإيثار القليل الفاني على الكثير الباقي؟

وما أظن الذي أقعدك عن تناول الحظ مع قُرب مَجناه — حتى صار لا يَثنيك زجرُ الوعيد، ولا يقدح في عزَماتك فَوتُ الجنة، وحتى ثقلت على سمعك الموعظة، ونأت عن قلبك العِبرة — إلا طول مجاورة التقصير، واعتياد الراحة، والأُنس بالهُوَينى، وإيثار الأخف، وإلف قرين السوء؛ فاذكُر الموت وأدِم الفكرة فيه؛ فإن من لم يعتبر بما رأى لا يعتبر بما لا يرى. وإن كان ما يوجد بالعيان من مواقع العِبرة لا يكشف لك عن قبيح ما أنت عليه، وهُجنة ما أصبحت فيه — من إيثار باطلك على حق الله، واختيار الوهن على القوة، والتفريط على الحزم، والإشفاق على الدُّون، واصطناع العار، والتعرُّض للمَقت، وبسط لسان العائب — فمُستنبَطات الغيب أحرى بالعجز عن تحريكك ونقلك عن سوء العادة التي آثَرتها على ربك، فاستحي للُبِّك، واستبقِ ما أفضل الخِذلانُ من قوَّتك، قبل أن يستوليَ عليه الطبع، ويشتدَّ عليه العجز. أوَما علِمتَ أن المعصية تُثمر المَذلَّة، وتفلُّ غَرب اللسان مع السلاطة؟ بل ما علِمت أن المُستشعر بذلِّ الخطيئة، المُخرِج نفسه من كنَف العصمة، المتحلِّيَ بدنس الفاحشة، قطِفُ الثناء، زَمِر المروءة، قَصيُّ المجلس، لا يُشاوَر وهو ذو بَزلاء، ولا يُصدَّر وهو جميل الرُّواء؛ يُسالم من كان يسطو عليه، ويَضرَع لمن

كان يرغب إليه؛ يَجذَل بحاله المُبغِض الشانئ، ويُثلَب بقُربه القريب الداني، غامض الشخص، ضئيل الصوت، نَزْر الكلام، مُتلجلج الحُجة، يتوقَّع الإسكات عند كل كلمة، وهو يرى فضل مزيَّته، وصريح لُبه، وحسن فضيلته، ولكن قطعه سوء ما جنى على نفسه، ولو لم تطَّلع عليه عيون الخليقة لهجت العقول بإدهانه؟ وكيف يمتنع من سقوط القدر وظن المُتفرِّس، مَن عرِيَ من حِلية التقوى، وسُلِب طائع الهدى؟ ولو لم يتغشَّه ثوب سريرته، وقبيح ما احتجن إليه من مخالفة ربه، لأضرعته الحُجة، ولفسخه وهَن الخطيئة، ولقطعه العلم بقبيح ما قارَف، عن اقتدار ذوي الطهارة في الكلام، وإدلال أهل البراءة في النداء. وهذه حال الخاطئ في عاجل الدنيا؛ فإذا كان يوم الجزاء الأكبر فهو عانٍ لا يُفَك، وأسيرٌ لا يُفادى، وعاريةٌ لا تؤدَّى؛ فاحذر عادة العجز، وإلف الفُكاهة، وحُب الكفاية، وقلة الاكتراث للخطيئة، والتأسُّف على الفائت منها، وضعف الندم في أعقابها.

أخي، أنعى إليك القاسي؛ فإنه ميت وإن كان مُتحركًا، وأعمى وإن كان رائيًا؛ فاحذر القسوة فإنها رأس الخطايا، وأمارة الطَّبَع، وهي الشَّوهاء العاقر، والداهية العُقام، وأراكٌ تركض في حبائلها، وتستقبس من شرَرها. ولا بأس أن يعظ المقصِّر ما لم يكن هاذيًا، ولن يهلك امرؤٌ عرف قَدرَه. ورُبَّ حاملِ علم إلى من هو أعلم منه. علَّمنا الله وإيَّاكم ما فيه نجاتنا، وأعاننا وإيَّاكم على تأدية ما كُلِّفْنا. والسلام.

قال: وقلت لحباب: إنك تكذب في الحديث، فقال: وما عليك إذا كان الذي أزيد فيه أحسن منه، فوالله ما ينفعك صِدقه، ولا يضرُّك كذبه، وما يدور الأمر إلا على لفظٍ جيِّد ومعنًى حسن، ولكنك والله لو أردت ذلك لتلجلج لسانك، وذهب كلامك.

(٥١) نوادر لبعض الأعراب

قال أبو الحسن: سمع أعرابي رجلًا يقول: أشهد أن محمدًا رسولَ الله. قال: يفعل ماذا؟
وكان يُقال: أول العلم الصمت، والثاني الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العمل به، والخامس نشره.

أبو الحسن قال: قرأ رجل في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، فقال الأعرابي: لا يكون.[٩١]

[٩١] يريد الأعرابي أن المقام ليس مقام رحمة وغفران، وهذا من سلامة طبعه، فقراءة الآية على هذه الصورة خطأ، والصواب: فاعلم أن الله عزيز حكيم. وهذا مُقتضى المقام.

(٥٢) واعظ بين يدَي المهدي

قال: ودخل على المهدي صالحُ بن عبد الجليل، فسأله أن يأذن له في الكلام، فقال: تكلَّم. فقال: إنَّا لما سَهُل علينا ما توعَّر على غيرنا من الوصول إليك، قُمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله ﷺ بإظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي عند انقطاع عذر الكتمان في التقيَّة، ولا سيَّما حين اتَّسمتَ بميسم التواضع، ووعدتَ الله وحمَلة كتابه إيثار الحق على ما سواه، فجمَعنا وإيَّاك مشهدٌ من مشاهد التمحيص، ليتم مؤدِّينا على موعود الأداء عنهم، وقابلنا على موعود القبول، أو يردَّنا تمحيص الله إيانا في اختلاف السر والعلانية، ويحلِّينا بحِلية الكاذبين؛ فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: من حجب الله عنه العلم عذَّبه على الجهل. وأشَدُّ منه عذابًا من أقبل إليه العلم وأدبر عنه. ومن أهدى الله إليه علمًا فلم يعمل به فقد رغب عن هدية الله وقصَّر بها، فاقبل ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبولَ تحقيقٍ وعمل، لا قبولًا فيه سُمعة ورياء؛ فإنه لا يُخلفك منَّا إعلام لما تجهل، أو مواطأة على ما تعلم، أو تذكير لك من غفلة؛ فقد وطَّن الله تبارك وتعالى نبيَّه ﷺ على نزولها تعزيةً عما فات، وتحصينًا من التمادي، ودلالةً على المخرج، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. فأطلِع الله على قلبك بما يُنور الله به القلوب من إيثار الحق ومنابذة الأهواء؛ فإنك إن لم تفعل ذلك يُرى أثرك وأثر الله عليك فيه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٥٣) تعزية معاوية عن سنٍّ سقطت له

قال: ودخل رجل على معاوية وقد سقطت أسنانه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الأعضاء يرث بعضها بعضًا؛ فالحمد لله الذي جعلك وارثها ولم يجعلها وارثتك.

(٥٤) تأبين عمر بن عبد العزيز لولده

وحدَّثنا إسماعيل بن عُليَّة قال: حدَّثنا زياد بن حسَّان أنه شهِد عمر بن عبد العزيز حين دفن ابنه عبد الملك، فلما سُوِّي عليه قبره بالأرض، وجعلوا على قبره خشبتَين من زيتون، إحداهما عند رأسه، والأخرى عند رِجلَيه، ثم جعل قبره بينه وبين القِبلة، واستوى قائمًا وأحاط به الناس، قال: رحِمك الله يا بُني؛ فقد كنت برًّا بأبيك، وما زِلتُ مُذ وهبك الله لي بك مسرورًا، ولا والله ما كنت قط مسرورًا بك ولا أرجى لحظي من الله فيك منذ وضعتك

في الموضع الذي صيَّرك الله إليه، فغفر الله لك ذنبك، وجازاك بأحسن عملك، وتجاوَز عن سيئاتك، ورحِم الله كل شافع يشفع لك بخير من شاهد وغائب، رضينا بقضاء الله، وسلَّمنا لأمره؛ فالحمد لله رب العالمين.

ثم انصرف.

(٥٥) حديث عمرو بن معاوية

وحدَّثني محمد بن عبيد بن عمر قال، أخبرني طارق بن المبارك عن أبيه قال، قال لي عمرو بن معاوية بن عُتبة: جاءت هذه الدولة وأنا حديث السن، كثير العِيال، منتشر الأموال؛ فكنت لا أكون في قبيلة إلا شُهشر أمري، فلما رأيت ذلك عزمت على أن أفديَ حُرَمي بنفسي. قال المبارك: فأرسل إليَّ أنْ وافِني عند باب الأمير سليمان بن عبد الملك. قال: فأتيته فإذا عليه طيلسانٌ أبيض مُطبَق، وسراويل وَشْي مسدولة. قال: فقلت: يا سبحان الله، ما تصنع الحداثة بأهلها؟ إن هذا ليس من لباس هذا اليوم. قال: لا والله، لكن ليس عندي ثوب إلا أشهى ما ترى. قال: فأعطيته طيلساني وأخذت طيلسانه، ولويت سراويله إلى ركبتَيه. قال: فدخل ثم خرج إليَّ مسرورًا. قال: فقلت له: حدِّثنا ما جرى بينك وبين الأمير. قال: دخلت عليه، ولم يرَني قبل ذلك، فقلت: أصلح الله الأمير، لفَظني البلاء إليك، ودلَّني فضلك عليك، فإما قبِلتَني غانمًا، وإما ردَدتَني سالمًا. قال: من أنت؟ أعرفك؟ قال: فانتسبت له، فقال: اقعد فتكلَّمْ غانمًا سالمًا. ثم أقبل عليَّ فقال: حاجتَك يا ابن أخي؟ قال: فقلت: إن الحُرَم اللاتي أنت أقرب الناس إليهن معنا، وأولى الناس لهن بعدنا، قد خِفنَ بخوفنا، ومن خاف خيف عليه. قال: فوالله ما أجابني إلا بدموعه. فقال: يا ابن أخي، يحقن الله دمك، ويحفظ حُرَمك، ويوفِّر عليك مالك. ولو أمكنني ذلك في جميع قومك لفعلت. قال: فقلت: أكون مُتواريًا أو ظاهرًا؟ فقال: كن مُتواريًا كظاهر. فكنت والله أكتب إليه كما يكتب الرجل إلى أبيه وعمه. قال: فلما فرغ من الحديث رددت إليه طيلسانه، فقال: مهلًا، إن ثيابنا إذا فارقتنا لم ترجع إلينا.

(٥٦) بعض أحاديث النوكى

ومن أحاديث النوكى حُدِّثت عن أبي سعيد الرفاعي أنه سئل عن الدنيا والدايسة، فقال: أما الدنيا فهذه التي أنتم فيها، وأما الدايسة فهي دارٌ بائنة من هذه الدار، لم يسمع أهلها بهذه الدار ولا بشيء من أمرها، إلا أنه قد صحَّ عندنا أن بيوتهم من قِثَّاء، وسقوفهم من قِثاء، وأنعامهم من قِثاء، وهم في أنفسهم من قِثاء، وقِثاؤهم أيضًا من قِثاء. قالوا

له: يا أبا سعيد، زعمتَ أن أهل تلك الدار لم يسمعوا بهذه الدار ولا بشيء من أمرها، وكذلك نحن لهم، وأراك تُخبرنا عنهم بأخبارٍ كثيرة. قال: فمن ثَمة أعجب زيادةً.

قالوا: ذمَّ رجل عند الأحنف الكَمْأة بالسمن، فقال: رُبَّ مَلوم لا ذنب له.

عبد الله بن مسلم، عن شيبة بن عِقالٍ أن رجلًا قال في مجلس عُبيد الله بن زياد: ما أطيَبُ الأشياء؟ فقال رجل: ما شيءٌ أطيب من تمرة برسيان، كأنها من آذان النوكى علَّيتَها بزُبدة. وقال أوس بن حارثة لابن عامر:

ظلَّت عُقابُ النُّوكِ تَخفِقُ فوقَه ... رِخوٌ طفاطفُه قديمُ المَلعبِ
قد ظلَّ يُوعِدني وعَينُ وزيرِه ... خَضْراءُ خاشعةٌ كعَينِ العَقرَبِ

يعني بوزيره عبد الله بن عُمير الليثي، وكان أخاه لأمه، أمهما دجاجة بنت أسماء السُّلَمية.

وقال ابن مُناذر في خالد بن عبد الله بن طليق الخُزاعي، وكان المهدي استقضاه وعزل عُبيد الله بن الحسن العَنبري:

أتى دَهرُنا والدَّهرُ ليس بمُعتَبِ ... بـآبِـدةٍ والـدُّهـرُ جَـمُّ الأوابـدِ
بعَزلِ عُبَيدِ اللهِ عنَّا فيا له ... خِلافًا وباستعمالِ ذي النَّوكِ خالدِ
بحَيرانَ عن قصدِ السَّبيلِ تَصُدُّه ... خِـيـانـةُ سَـلَّامٍ ولِـحـيـةُ قـائـدِ
أذَلِكَ من رَيبِ الزَّمانِ وصَرفِه ... وأحداثِه أم نَحنُ في حُلْمِ راقِدِ

وقال أيضًا:

قُلْ لأمـيـرِ الـمـؤمِـنِـين الـذي ... من هاشمٍ في سِرِّها واللُّبابْ
إنْ كنتَ للسَّخطةِ عاقَبتَنا ... بـخـالـدٍ فـهْـو أشَـدُّ الـعذابْ
أصَمُّ أعمى عن سبيلِ الهُدى ... قد ضَرَبَ الجَهلُ عليه الحِجابْ
يا عَجَبًا من خالدٍ كيف لا ... يُخطِئ فينا مَرَّةً بالصوابْ

وقال:

خالدٌ يَحكُمُ في النَّاسِ بحُكمِ الجاثليقِ ... يا أبا الهَيثمِ ما كنتَ لهذا بخَليقِ
لا ولا كنتَ لِما حُمِّلتَ منه بمُطِيقِ ... أيُّ قاضٍ أنتَ للظُّلمِ وتَعطيلِ الحُقوقِ

وقال:

يَقطَعُ كفَّ القاذفِ المُفتري   ويَجلِدُ اللِّصَّ ثَمانينا
سَقيًا ورَعيًا لك من حاكمٍ   يُحيِي لنا السُّنَّةَ والدِّينا

وقال زُهرة:

يا قومُ مَن دلَّ على عالِمٍ   يَعلَمُ ما حدُّ حُرٍّ سارِقِ

وقال آخر:

وإنِّي لَمضَّاءٌ على الهَولِ واحدًا   ولو ظلَّ يَنْهاني أُخيفِشُ شاحِجُ
تُشبَّهُ للنَّوكى أُمورٌ كثيرةٌ   وفيها لأكياسِ الرِّجالِ مَخارِجُ

وقال آخر:

ولا يَعرِفونَ الشَّرَّ حتَّى يُصِيبَهم   ولا يَعرِفونَ الأمرَ إلَّا تَدبُّرا

غيره:

إذا ظعَنوا عن دارِ ضَيمٍ تَعاذَلوا   عليها وردُّوا وَفْدَهم يَستقيلُها

وقال النابغة:

ولا يَحسَبونَ الخيرَ لا شرَّ بَعدَه   ولا يَحسَبونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لازِبِ

والعرب تقول: أخزى الله الرأيَ الدَّبَري.

وقالوا: وجَّه الحجَّاج إلى مطهَّر بن عمَّار بن ياسر عبدَ الرحمن بن سُليم الكلبي، فلما كان بحُلوان أتبَعه الحجَّاج مَددًا، وعجَّل عليه بالكتاب مع تُحَيت الغلط — وإنما قيل له ذلك لكثرة غلطه — فمرَّ تُحَيتٌ بالمدد وهم يُعرِضون بخانِقِين، فلما قدِم على عبد الرحمن قال له: أين تركت مددنا؟ قال: تركتهم يُخنَقون بعارِضِين. قال: أوَيُعرَضون بخانِقِين؟ قال: نعم، اللهم لا تُخانقْ في بارِكين. ولما ذهب يجلس ضرط، وكان عبد الرحمن أراد أن يقول: ألا تَغدَّى؟ فقال: ألا تَضرِط؟ قال: قد فعلتُ أصلحك الله. قال: ما هذا أردت. قال: صدقت، ولكن الأمير غلط كما غلطنا. فقال: أنا غلطت من فمي، وغلط هو من استه.

(٥٧) باب من البَلَه الذي يُعترى من قِبل العبادة وترك التعرُّض للتجارب

وهو كما قال أبو وائل: أسمعكم تقولون: الدانق والقيراط، فأيُّما أكثر؟ قالوا: وكان عامر بن عبد الله بن الزبير في المسجد، وكان قد أخذ عطاءه، فقام إلى منزله ونسِيَه، فلما صار في منزله وذكره بعث رسولًا ليأتيَه به، فقال له: وأين تجد ذلك المال؟ قال: سبحان الله، أوَيأخذ أحدٌ ما ليس له؟ أبو الحسن قال، قال سعيد بن عبد الرحمن الزُّبيري: سُرقتْ نعل عامر بن عبد الله الزُّبيري فلم يتَّخذ نعلًا حتى مات. وقال: أكره أن أتَّخذ نعلًا فلعلَّ رجلًا أن يسرقها فيأثم.

وقالوا: إن الخلفاء والأئمَّة أفضل من الرعيَّة، وعامة الحُكام أفضل من المحكوم عليهم ولهم؛ لأنهم أفقه في الدين، وأقوَم بالحقوق، وأرَدُّ على المسلمين، وعِلمهم بهذا أفضل من عبادة العُبَّاد، ولأن نفع ذلك لا يعدو قِمم رءوسهم، ونفع هؤلاء يخصُّ ويعُم. والعبادة لا تُدلِّه ولا تُورث البَلَه إلا لمن آثَر الوحدة وترك معاملة الناس ومجالسة أهل المعرفة، فمن هُنالك صاروا بُلهًا، حتى صار لا يجيء من أعبدهم حاكم ولا إمام. وما أحسن ما قال أيوب السختياني حيث يقول: في أصحابي من أرجو دعوته ولا أقبل شهادته، فإذا لم يُجَز في الشهادة كان من أن يكون حاكمًا أبعد.

وقال الشاعر:

وعاجِزُ الرَّأيِ مِضْياعٌ لفُرصتِه   حتى إذا فاتَ أمرٌ عاتَبَ القَدَرا

ومن غير هذا الباب قوله:

إذا ما الشَّيخُ عُوتِبَ زادَ شرًّا   ويُعتِبُ بعدَ صَبْوتِه الوَليدُ

وقال علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه: من أفضلِ العبادة الصمتُ وانتظار الفرَج.

وقال الشاعر:

إذا تَضايَقَ أمرٌ فانتظِرْ فَرَجًا   فأضيَقُ الأمرِ أدناه منَ الفَرَجِ

وقال الفرزدق:

وإنِّي وسَعدًا كالحُوارِ وأُمِّه   إذا وطِئَتَه لم يَضِرْه اعتمادُها

وقال أعرابي:

تُعلِّمُني بالعَيشِ عِرْسي كأنَّما   تُبصِّرُني الأمرَ الذي أنا جاهِلُه
يَعِيشُ الفتى بالفقرِ يومًا وبالغِنى   وكلٌّ كأنْ لم يَلقَ حينَ يُزايِلُه

وقال آخر:

شَهِدتُ وبَيتِ اللهِ أنَّك بارِدُ الثَّـ   ـنايا لَذيذٌ لَثْمُها حينَ تُلثَمُ

وقال غيره:

اللهُ يَعلَمُ يا مُغِيرةُ أنَّني   قد دُسْتها دَوْسَ الحِصانِ الهَيكلِ
وأخذتُها أخْذَ المُقصِّبِ شاتَه   عَجْلانَ يَشوِيها لقَومٍ نُزَّلِ

وقال آخر:

شَهدتُ وبَيتِ اللهِ أنَّك بارِدُ الثَّـ   ـنايا وأنَّ الكَشْحَ مِنكَ لَطِيفُ
وأنَّك مشبوحُ الذِّراعَينِ خَلجَمٌ   وأنَّك إذ تَخلُو بهِنَّ عَفِيفُ

وقال آخر:

فهَلَّا من وِزارٍ أو حُصَينٍ   حمَيتُم فَرْجَ حاصنةٍ كَعابِ
وأُقسِمُ أنَّه قد حلَّ منها   مَحَلَّ السَّيفِ من قَعرِ القِرابِ

وقال آخر:

أتَرجُو أنْ تَسُودَ ولنْ تُعنَّى   وكيفَ يَسُودُ ذو الدَّعةِ البَخيلُ؟

وقال الهُذلي:

وإنَّ سيادةَ الأقوامِ فاعلَمْ   لها صَعْداءُ مَطلَبُها طويلُ

وقال جرير بن الخطَفى:

تُرِيدينَ أنْ أرضى وأنتِ بَخيلةٌ   ومن ذا الذي يُرضي الأخِلَّاءَ بالبُخلِ؟

وقال إسحاق بن حسَّان بن قُوهي:

ودُونَ النَّدى في كلِّ قلبٍ ثنيَّةٌ   لها مَصعَدٌ حَزْنٌ ومُنحدَرٌ سَهلُ
ووِدَّ الفتى في كلِّ نَيلٍ يُنِيلُه   إذا ما انقضى لو أنَّ نائلَه جَزْلُ

وقال آخر:

عزَمتَ على إقامةِ ذي صَباحٍ   لشيءٍ ما يُسوَّدُ من يَسُودُ

وقال آخر:

وتَعجَبُ إنْ حاوَلتُ مِنكَ تَنصُّفًا   وأعجَبُ منه ما تُحاوِلُ من ظُلْمي
أبا حَسنٍ يَكفيكَ ما فيك شاتمًا   لِعِرضِكَ من شَتمِ الرِّجالِ ومن شَتْمي

وقال آخر:

كما قالَ الحِمارُ لسَهمِ رامٍ   لقد جُمِّعتَ من شتَّى لأمْرِ

وقال آخر:

أراكَ حديدةً في رأسِ قِدْحٍ   ومَتنَ جُلالةٍ من رِيشِ نَسْرِ

وقال آخر:

إذا ما ماتَ مِثلي ماتَ شيءٌ   يَمُوتُ بمَوتِه بَشرٌ كثيرُ

وأشعَرُ منه عَبْدة بن الطبيب، حيث يقول في قيس بن عاصم:

فما كان قَيسٌ هُلْكُه هُلْكَ واحِدٍ   ولكنَّه بُنيانُ قومٍ تَهدَّما

وقال امرؤ القيس في شبيه بهذا المعنى:

فلو أنَّها نَفْسٌ تَمُوتُ سَويَّةً   ولكنَّها نَفْسٌ تُساقِطُ أنفُسا

وقال آخر:

وزهَّدَني في صالِحِ العَيشِ أنَّني　　رأيتُ يدي في صالِحِ العَيشِ قَلَّتِ

وقال مَعْن بن أوس:

ولقد بدا لي أنَّ قَلبَكَ ذاهِلٌ　　عنِّي وقلبي لو بدا لك أذهَلُ
كلٌّ يُجامِلُ وهْوَ يُخفِي بُغْضَه　　إنَّ الكريمَ على القِلا يَتجمَّلُ

وقال ركَّاض:

نُرامي فنَرْمي نحن منهنَّ في الشَّوى　　ويَرمِين لا يَعدِلنَ عن كَبِدٍ سَهْما
إذا ما لبِسنَ الحَلْيَ والوَشيَ أشرَقَت　　وُجوهٌ ولَبَّاتٌ يُثلِّبنَنا الحِلْما
ولَيْنَ السُّبوبَ حُمْرةً قُرَشيَّةً　　زُبَيريَّةً يَعلُمنَ في لَونِها عَلْما

وقال آخر:

أُعلِّلُ نَفْسي بما لا يَكُو　　نُ كما يَفعلُ المائقُ الأحمَقُ

وقال آخر:

تولَّتْ بَهجةُ الدُّنيا　　فكلُّ جديدِها خَلَقُ
وخانَ النَّاسُ كلُّهمُ　　فما أدري بمن أثِقُ
رأيتُ مَعالِمَ الخَيْرا　　تِ سُدَّت دُونَها الطُّرُقُ
فلا حَسَبٌ ولا أدَبٌ　　ولا دِينٌ ولا خُلُقُ

وقال أبو الأسود الدؤلي:

لنا جِيرةٌ سَدُّوا المَجازةَ بيْنَنا　　فإنْ ذَكَّروك السدَّ فالسَّدُّ أكيَسُ
ومن خيرِ ما ألصقتَ بالدارِ حائطٌ　　يَزِلُّ به صُقعُ الخطاطيفِ أملَسُ

وقال آخر:

عقِمتْ أمٌّ أتَتْنا بِكُمُ　　ليس مِنكم رَجلٌ غيرُ دَنِي
وإذا ما الناسُ عدُّوا شَرَفًا　　كنتُمُ من ذاك في بالٍ رَخِي

وقال آخر:

قد بَلَوناكَ بحَمدِ اللهِ إنْ أغْنى البَلاءُ
فإذا كلُّ مَواعيدِكَ والجَحدُ سواءُ

وقال آخر:

ولقد هزَزتُكَ للمَديحِ فكُنتَ ذا نَفْسٍ لَكِيعةْ
أنتَ الرَّقيعُ ابنُ الرَّقيعِ ابنِ الرَّقيعِ ابنِ الرَّقيعةْ

وقال آخر:

لكلِّ أُناسٍ سُلَّمٌ يُرتقى به ... وليس إلينا في السَّلاليمِ مَطلَعُ
وغايتُنا القُصوى حِجازٌ لمن به ... وكلُّ حِجازٍ إنْ هبَطْناه بَلقَعُ
ويَنفِرُ منَّا كلُّ وَحشٍ وينتمي ... إلى وَحشِنا وحشُ البلادِ فيَرتَعُ

وقال آخر:

لو جَرَت خَيلٌ نُكوصًا ... لَجَرَت خَيلُ دِفافةْ
هي لا خَيلُ رجاءٍ ... لا ولا خَيلُ مَخافةْ

وقال الخُزَيمي:

اخلَعْ ثِيابَك من أبي دُلَفٍ ... واهرُبْ من الفَجْفاجةِ الصَّلِفِ
لا يُعجِبنَّكَ من أبي دُلَفٍ ... وجهٌ يُضيءُ كدُرَّةِ الصَّدَفِ
إنِّي رأيتُ أخي أبا دُلَفٍ ... عندَ الفَعالِ مُولَّدَ الشَّرَفِ

وأنشد ابن الأعرابي:

أهلَكَتْني بفُلانٍ ثِقَتي ... وظُنونٌ بفُلانٍ حَسَنةْ
ليس يَستوجبُ شُكرًا رَجلٌ ... نِلتُ خيرًا منه من بَعدِ سَنةْ
كنتُ كالهادي من الطَّيرِ رأى ... طمَعًا أدخَلَه في مَسجنةْ
زادَني قُربُ صديقي فاقةً ... أورَثَت من بعدِ فقرٍ مَسكنةْ

وأنشدنا:

إذا المَرءُ أولاكَ الهَوانَ فأَوْلِه ... هوانًا وإنْ كانت قريبًا أواصِرُه
فإنْ أنتَ لم تَقدِرْ على أنْ تُهينَه ... فذَرْه إلى اليومِ الذي أنتَ قادِرُه
وقارِبْ إذا ما لم تَكُنْ لكَ قُدرةٌ ... وصمِّمْ إذا أيقنتَ أنَّكَ عاقِرُه

وقال بعض ظُرفاء الأعراب:

وإذا خَشِيتَ من الفؤادِ لَجاجةً ... فاضرِبْ عليه بجُرعةٍ من رائبِ

وهذا من شكل قوله:

ذكَرتُكِ ذِكرةً فاصطدتُ ضبًّا ... وكنتُ إذا ذكَرتُكِ لا أخيبُ

وقال بعض المُحدَثين:

ما أشبَهَ الإمْرةَ بالوَصلِ ... وأشبَهَ الهِجرانَ بالعَزلِ

وقالت الخنساء:

لم تَرَه جارةٌ يَمشي بساحتِها ... لِرِيبةٍ حينَ يُخلِي بَيْتَه الجارُ
مِثلُ الرُّدَينيِّ لم تَدنَسْ عِمامتُه ... كأنَّه تحتَ طَيِّ البُردِ إسوارُ

وقال آخر:

نادَيتُ هَيْذانَ والأبوابُ مُغلَقةٌ ... ومِثلُ هَيْذانَ سنَّى فَتْحةَ البابِ
كالهِندُوانيِّ لم تَفلُلْ مَضارِبُه ... وَجهٌ جميلٌ وقَلبٌ غيرُ وجَّابِ

وقال آخر:

أرى كلَّ رِيحٍ سَوفَ تَسكُنُ مَرَّةً ... وكلَّ سماءٍ ذاتِ دَرٍّ ستُقلِعُ
ولستُ بقوَّالٍ إذا قامَ حالبًا ... لكَ الوَيلُ لا تَجهَدْ لعلَّكَ تُرضِعُ
ولكن إذا جادت بما دُونَ حَلبِها ... جهِدْنا ولم نَمذُقْ بما نَتوسَّعُ

وقال آخر:

تَمنَّى رجالٌ أنْ أمُوتَ وغايتِي ... إلى أجَلٍ أقصى مَداهُ قريبِ
وما رَغْبتي في آخِرِ الدَّهرِ بعدَما ... لبِستُ شَبابي كلَّه ومَشِيبي
وأصبحتُ في قَومٍ كأنْ لستُ مِنهمُ ... وبادَ قُروني مِنهمُ وضُروبي؟

وقال:

رأيتُ النَّاسَ لمَّا قَلَّ مالي ... وأكثرتُ الغَرامةَ ودَّعُوني
فلمَّا أنْ غَنِيتُ وثابَ وَفْري ... إذا هُم لا أبَا لَكَ راجَعُوني

وقال آخر:

وكنَّا نَستطبُّ إذا مَرِضْنا ... فصارَ سَقامُنا بيَدِ الطَّبيبِ
فكيفَ نُجيزُ غُصَّتَنا بشَيءٍ ... ونحنُ نَغَصُّ بالماءِ الشَّريبِ؟

وقال عَديُّ بن زيد:

لو بغَيرِ الماءِ حَلْقي شَرِقٌ ... كنتُ كالغَصَّانِ بالماءِ اعتصاري

وقال التُّوت اليماني — ويُروى التُّوب بالباء، والتُّوت هو الصواب — وهو المعروف بتُوَيت، فكبَّره هنا:

على أيِّ بابٍ أطلُبُ الإذنَ بعدَما ... حُجِبتُ منَ البابِ الذي أنا حاجِبُه؟

وقال آخر:

لا تَضجِرنَّ ولا تَدخَلْكَ مَعجَزةٌ ... فالنُّجحُ يَهلِكُ بينَ العَجزِ والضَّجَرِ

وقال محمد بن بِشر:

إنَّ الأمورَ إذا انسدَّتْ مَسالِكُها ... فالصَّبرُ يَفتحُ منها كلَّ ما ارتُتِجا
لا تَيئسَنَّ وإنْ طالت مُطالَبةٌ ... إذا استعنتَ بصَبرٍ أنْ تَرى فَرَجا
أخلِقْ بذِي الصَّبرِ أنْ يَحظى بحاجتِه ... ومُدمِنِ القَرعِ للأبوابِ أنْ يَلِجا

وقال بعض الأعراب:

فإنَّ طعامًا ضَمَّ كفِّي وكفَّها   لَعَمرُكَ عِندي في الحياةِ مُبارَكُ
فمِن أجلِها أستوعِبُ الزَّادَ كلَّه   ومن أجلِها تَهْوي يَدي وتُدارِكُ

وقال آخر:

كأنِّيَ لمَّا مسَّني السَّوطُ مُقرَمٌ   من العُجمِ صَعبٌ أنْ يُقادَ نَفُورُ
فكم قد رأينا من لئيمٍ مُوطَّأٍ   صَبُورٌ على مَسِّ السِّياطِ وَقُورُ
وذي كَرَمٍ في القومِ نَهْدٍ مُشيَّعٍ   جَزُوعٌ على مَسِّ السِّياطِ ضَجُورُ

وقال أُحَيحة بن الجُلاح:

استَغنِ عن كلِّ ذي قُرْبى وذي رَحِمٍ   إنَّ الغَنيَّ منِ استغنى عنِ النَّاسِ
والبَسْ عَدُوَّك في رِفقٍ وفي دَعةٍ   لِباسَ ذي إرْبةٍ للدَّهرِ لبَّاسِ
ولا يَغُرَّنْكَ أضغانٌ مُزمَّلةٌ   قد يُضرَبُ الدَّبِرُ الدَّامي بأحلاسِ

وقال أحيحة أيضًا:

استَغنِ أو مُتْ ولا يَغرُرْكَ ذو نَشَبٍ   منِ ابنِ عمٍّ ولا عمٍّ ولا خالِ
إنِّي أُكِبُّ على الزَّوْراءِ أعمُرُها   إنَّ الكريمَ على الأقوامِ ذو المالِ
يلوُونَ ما عِندَهم عن حقِّ أقرَبِهم   وعن عشيرتِهم والمالُ بالوالي

وقال آخر:

سأُنبِيكَ مالًا بالمدينةِ إنَّني   أرى عازِبَ الأموالِ قلَّت فواضِلُه

وقال آخر:

ولا خيرَ في فَضلٍ إذا لم يَكُنْ له   على طُولِ مَرِّ الحادثاتِ بَقاءُ

وقال العبَّاس بن الأحنف:

لم يَصْفُ حُبٌّ لمَعشوقَينِ لم يَذُقا   وَصلًا يَمُرُّ على مَن ذاقَه العَسَلُ

وقال بعض سُفهاء الأعراب:

لا خَيرَ في الحُبِّ أبا السَّنَوَّرِ   أو يَلتقي أشْعَرُها وأشْعَري
وأُطبِقَ الخُصْيةَ فوقَ المَبعَرِ

وقال آخر:

وحظُّكَ زَوْرةٌ في كلِّ عامٍ   مُوافَقةً على ظَهرِ الطَّريقِ
سلامًا خاليًا من كلِّ شيءٍ   يَعُودُ به الصديقُ على الصديقِ

وقال عُطارد:

ولا يَلبَثُ الحَبلُ الضعيفُ إذا التَوى   وجاذَبَه الأعداءُ أنْ يَتخذَّما
وما يَستوي السَّيفانِ سَيفٌ مؤنَّثٌ   وسيفٌ إذا ما عضَّ بالعَظمِ صمَّما

وقال طُريح بن إسماعيل في الوليد بن يزيد بن عبد الملك:

سَعَيتُ ابتغاءَ الشُّكرِ فيما صنَعتَ بي   فقصَّرتُ مغلوبًا وإنِّي لَشاكِرُ
لأنَّك تُعطيني الجَزيلَ بَداهةً   وأنتَ لِما استكثرتُ من ذاك حاقِرُ
فأرجِعُ مَغبوطًا وأرجعُ بالَّتي   لها أوَّلٌ في المَكرُماتِ وآخِرُ
وقد قُلتُ شِعرًا فيك لكنْ تَقُولُه   مَكارِمُ ممَّا تَبْتني ومَفاخِرُ
قَواصِرُ عنها لم تُحِطْ بصِفاتِها   يُرادُ بها ضَربٌ من الشِّعرِ آخَرُ

وقال آخر:

فكم من مُليمٍ لم يُصِبْ بمَلامةٍ   ومُتَّبَعٍ بالذَّنْبِ ليس له ذَنْبُ
وكم من مُحِبٍّ صدَّ عن غيرِ عِلَّةٍ   وإنْ لم يَكُنْ في وَصلِ خُلَّتِه عَتْبُ

وقال آخر:

لعلَّ له عُذرًا وأنتَ تَلُومُ   وكم لائمٍ قد لامَ وهْوَ مَلِيمُ

كما قال الأحنف: رُبَّ ملومٍ لا ذنب له. وقال ابن المقفع:

فلا تَلُمِ المَرءَ في شأنِه   فرُبَّ مَلُومٍ ولم يُذنِبِ

وقال سعيد بن عبد الرحمن بن حسَّان بن ثابت الأنصاري:

وإنَّ امرأً يُمسِي ويُصبِحُ سالمًا   من الناسِ إلَّا ما جَنى لَسَعِيدُ

(انتهى الجزء الثاني ويتلوه الجزء الثالث وأوله كتاب العصا.)

الجزء الثالث

هذا كتاب العصا

الحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وصلَّى الله تعالى على محمدٍ خاصَّة، وعلى أنبيائه عامَّة.

هذا أبقاك الله تعالى الجزء الثالث من القول في «البيان والتبيين»، وما شابَه ذلك من غُرَر الأحاديث، وشاكَله من عيون الخُطب، ومن الفِقَر المستحسَنة، والنُّتَف المتخيَّرة، والمقطَّعات المستخرَجة، وبعض ما يجوز في ذلك من أشعار المذاكرة، والجوابات المنتخَبة.

ونبدأ على اسم الله تعالى بذِكر مذهب الشُّعوبيَّة[1] ومن يتحلَّى بِاسم التسوية، وبمطاعنهم على خُطباء العرب بأخذ المِخصَرة عند مناقلة الكلام، ومساجلة الخصوم بالموزون والمُقفَّى، والمنثور الذي لم يُقفَّ، وبالأرجاز عند المَتْح، وعند مُجاثاة الخصم، وساعة المشاولة، وفي نفس المجادلة والمحاولة، وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة، واستعمال المنثور في خُطب الحَمالة، وفي مقامات الصُّلح وسَلِّ السخيمة، والقول عند

[1] الشعوبية: فِرقة من الناس يذهبون إلى تحقير شأن العرب وتصغير أمرهم، ويرون أن لا فضل لهم على غيرهم، ومنهم من يسوِّي العرب بسواهم من الأمم والشعوب، ومنهم من يفضِّل بعض أنواع العجم عليهم. ومَنشأ ذلك أن زياد بن أبيه لما استلحقه معاوية بأبي سفيان عِلم أن العرب لا تُقرُّ له بذلك مع عِلمهم بنَسبه، فعمل كتاب المثالب، وألصق بالعرب كل نقيصة، ثم ثنَّى على ذلك الهيثم بن عدي، وكان دعيًّا فأراد أن يُعرَّ أهل الشرف تشفِّيًا منهم، ثم جدَّد ذلك أبو عُبيدة مَعمر بن المثنَّى وزاد فيه؛ لأن أصله يهودي. ولابن غرسية رسالةٌ فصيحة في تفضيل العجم على العرب. ثم نشأ غيلان الشعوبي الورَّاق، وكان مُتزندقًا، فعمل لطاهر بن الحُسين كتابًا خارجًا عن آداب الإسلام، بدأ فيه بمَثالب بني هاشم ثم بطون قريش ثم سائر العرب، وبَهَتهم بكل نقيصة، وأجازه طاهر عليه بثلاثين ألفًا. وكان هشام بن عبد الملك قد أمر النضر بن شُميل وخالد بن سَلمة المخزومي فوضعا كتابًا في مثالب العرب ومناقبها، وليس لقريش في هذا الكتاب ذِكر.

المعاقرة والمعاهدة، وترك اللفظ يجري على سجيَّته وعلى سلامته، حتى يخرج على غير صنعة، ولا اختلاف تأليف، ولا التماس قافية، ولا تكلُّف لوزن، مع الذي عابوا من الإشارة بالعِصِي، والاتكاء على أطراف القِسِي، وخدِّ وجه الأرض بها، واعتمادها عليها إذا استحفزت في كلامها، وافتنَّت يوم الحفل في مذاهبها، ولزومهم العمائم في أيام الجموع، وأخذ المخاصر في كل حال، وجلوسها في خطب النكاح، وقيامها في خطب الصلح وكل ما دخل في باب الحمالة، وأكَّد شأن المحالفة، وحقَّق حُرمة المجاورة، وخطبهم على رواحلهم في المواسم العظام، والمجامع الكبار، والتماسح بالأكُف، والتحالف على النار، والتعاقد على المِلح، وأخذ العهد المؤكَّد، واليمين الغموس، مثل قولهم: ما سرى نجم، وهبَّت ريح، وبلَّ بحرٌ صوفة، وخالفت جرةٌ درة؛ ولذلك قال الحارث بن حِلِّزة اليَشكُري:

واذكُروا حِلفَ ذي المَجازِ وما قُدِّ ... مَ فيه العُهودُ والكُفلاءُ
حَذَرَ الخَونِ والتَّعدِّي وهل تَنـ ... ـقُضُ ما في المَهارِقِ الأهواءُ

الخون: الخيانة، ويُروى: «الجور». وقال أوس بن حَجَر:[٢]

إذا استقبلتْه الشَّمسُ صدَّ بوَجهِه ... كما صدَّ عن نارِ المُهوِّلِ حالِفُ[٣]

وقال الكُميت:

كَهُولةِ ما أوقَدَ المُحلِفونَ ... لدى الحالِفينَ وما هوَّلوا[٤]

وقال الأول:

حلَفتُ بالمِلحِ والرَّمادِ وبالنَّا ... رِ وباللهِ تُسلِمُ الحَلَقةْ
حتى يظلَّ الجوادُ مُنعفِرًا ... وتَخضِبَ النَّبْلُ غُرَّةَ الوَرَقةْ

[٢] أوس بن حجر الأسدي، قال أبو عمرو بن العلاء: كان أوس فَحْل مُضَر حتى نشأ النابغة وزُهير فأخملاه. وقال الأصمعي: كان أوس أشعر من زُهير، وكان زُهير راوية أوس. تُوفي أوس ٦٢٠م.

[٣] المهول: المتصدر لأحلاف الناس. والبيت في وصف ثور وحش.

[٤] التهويل: كانوا في الجاهلية إذا أرادوا أن يستحلفوا إنسانًا أوقدوا نارًا ليحلف عليها، وكان السَّدَنة يطرحون فيها مِلحًا من حيث لا يشعر، يهولون بها عليه.

وقال الأول:

حلَفتُ لهم بالمِلحِ والجَمعُ شُهَّدٌ وبالنَّارِ واللَّاتِ التي هيَ أعظَمُ

وقال الحُطيئة في إضجاع القِسِي:

أم مَن لخَصمٍ مُضجِعِينَ قِسِيَّهم صُعْرٍ خُدودُهمُ عِظامُ المَفخَرِ

وقال لَبيد بن ربيعة في خدِّ وجه الأرض بالقِسِي والعِصِي:

نَشِينَ صِحاحَ البِيدِ كلَّ عَشيَّةٍ بعُوجِ السَّراءِ عندَ بابِ مُحجَّبِ

ومِثله:

إذا اقتسمَ النَّاسُ فَضْلَ الفَخارِ أطَلْنا على الأرضِ مَيلَ العصا

ومِثله:

حكَمَت لنا في الأرضِ يومَ مُحرِّقٍ أيَّامُنا في الناسِ حُكْمًا فَيصَلا

وقال لَبيد بن ربيعة في ذِكر القِسِي:

ما إنْ أهابَ إذا السُّرادِقُ عمَّه قَرعُ القِسِيِّ وأُرعِشَ الرِّعديدُ

وقال كُثيِّر، في الإسلام:

إذا فَرَعوا المَنابِرَ ثُمَّ خطُّوا بأطرافِ المَخاصِرِ كالغِضابِ

وقال أبو عُبيدة: سأل معاوية شيخًا من بقايا العرب: أي العرب رأيتَه أضخم شأنًا؟ قال: حِصن بن حُذيفة، رأيته مُتوكئًا على قوسه يَقسِم في الحليفَين أسد وغطفان.
وقال لبيد بن ربيعة في الإشارة:

غُلْبٌ تَشذَّرُ بالذُّحولِ كأنَّها جِنُّ البَدِيِّ رَواسيًا أقدامُها

وقال مَعن بن أوس المُزني:[٥]

ألا مَن مُبلِغٌ عنِّي رسولًا　　عُبَيدَ اللهِ إذ عَجِلَ الرِّسالا
تُعاقِلُ دُونَنا أبناءَ ثَورٍ　　ونحن الأكثرونَ حَصًى ومالا
إذا اجتمعَ القبائلُ جئتَ رِدفًا　　أمامَ الماسِحِينَ لك السِّبالا
فلا تُعطي العصا الخُطباءَ يومًا　　وقد تَكفي المَقادةَ والمَقالا

فذكر عصا الخطباء كما ترى. وقال الآخر في حمل القناة:

إنِّي امرؤٌ لا تَخطَّاه الرِّفاقُ ولا　　جَدبُ الخِوانِ إذا ما استُثنيَ المَرَقُ
صُلْبُ الحَيازيمِ لا هَذرُ الكَلامِ إذا　　هزَّ القناةَ ولا مُستعجِلٌ زَهِقُ

وقال جرير الخطَفى في حمل القناة:

مَن للقَناةِ إذا ما عيَّ قائلُها　　وللأعِنَّةِ يا عمرُو بنَ عمَّارِ

قالوا: وهذا مِثل قول أبي المُجيب الرَّبَعي حيث يقول: لا تزال تحفظ أخاك حتى يأخذ القناة؛ فعند ذلك يفضحك أو يمدحك. يقول: إذا قام يخطب فقد قام المقام الذي لا بد من أن يخرج منه مذمومًا أو محمودًا. وقال عبد الله بن رؤبة: سأل رجلٌ رؤبة عن أخطب بني تميم، فقال: خِداش بن بشر بن لبيد بن خالد. يعني البَعيث الشاعر، وإنما قيل له البعيث لقوله:

تَبعَّثَ منِّي ما تَبعَّثَ بعدَما　　أُمِرَّت حِبالي كُلَّ مِرَّتِها شَزْرا

وقال أبو اليقظان: كانوا يقولون: أخطَبُ بني تميم البعيثُ إذا أخذ القناة فهزَّها ثم اعتمد بها على الأرض ثم رفعها. قال يونس: لعَمْري لئن كان مغلَّبًا في الشعر لقد كان غلَب في الخُطب.

وإذا قالوا غلَبَ فهو الغالب، وإذا قالوا مُغلَّب فهو المغلوب.

---

[٥] معن بن أوس المزني: شاعرٌ فَحْل مُجِيد من مُخضرَمي الجاهلية والإسلام.

وفي حديث النبي ﷺ أنه جاء البقيع ومعه مِخصَرة، فجلس فنكت بها الأرض، ثم رفع رأسه فقال: «ما من نفسٍ منفوسة إلا وقد كُتِب مكانها من الجنة أو النار.» وهو من حديث أبي عبد الرحمن السُّلَمي.

ومما يدلُّك على استحسانهم شأن المِخصرة حديث عبد الله بن أُنيس ذي المخصرة، وهو صاحب ليلة الجُهَني، وكان النبي ﷺ أعطاه مخصرة، فقال: «تلقاني بها في الجنة.» وهو مُهاجرٌ عَقَبي أنصاري، وهو ذو المِخصرة في الجنة.

(١) مَطاعن الشعوبية على العرب بشأن العصا

وقالت الشُّعوبية ومن يتعصَّب للعجمية: القضيب للإيقاع، والقناة للقار، والعصا للقتال، والقوس للرَّمي، وليس بين الكلام وبين العصا سبب، ولا بينه وبين القوس نَسب. وهما إلى أن يشغلا العقل، ويصرفا الخواطر، ويعترضا الذهن، أشبَه. وليس في حملها ما يشحذ الذهن، ولا في الإشارة بها ما يجلب اللفظ. وقد زعم أصحاب الغناء أن المغنِّيَ إذا ضرب على غنائه قصَّر عن المغنِّي الذي لا يضرب على غنائه. وحمل العصا بأخلاق الفدَّادين أشبه، وهو بجُفاة الأعراب وعُنجُهيَّة أهل البدو، ومزاولة إقامة الإبل على الطُّرق، أشكَل، وبه أشبَه.

قالوا: والخطابة شيءٌ في جميع الأمم، وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة، حتى إن الزنج — مع الغثارة، ومع فرط الغباوة، ومع كلال الحد، وغِلظ الحس، وفساد المزاج — لتُطيل الخُطب، وتفوق في ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ، وألفاظها أخطأ وأجهل. وقد علمنا أن أخطبَ الناس الفُرس، وأخطب الفُرس أهل فارس؛ وأعذبَهم كلامًا، وأسهلهم مَخرجًا، وأحسنهم ولاءً، وأشدُّهم فيه تحنُّكًا، أهل مَرو؛ وأفصحَهم بالفارسية الدَّريَّة، وباللغة الفَهلوية، أهل قصبة الأهواز. فأما نَغْمة الهِربِذ ونغمة الموبذان فلصاحب تفسير الزمزمة. قالوا: ومن أحبَّ أن يبلُغ في صناعة البلاغة، ويعرف الغريب، ويتبحَّر في اللغة، فليقرأ كتاب «كاروَند». ومن احتاج إلى العقل والأدب، والعلم بالمراتب والعِبَر والمَثُلات، والألفاظ الكريمة، والمعاني الشريفة، فلينظر إلى سِيَر الملوك.

فهذه الفُرس ورسائلها وخُطبها، وألفاظها ومعانيها، وهذه يونان ورسائلها وخُطبها، وعِللها وحِكمها، وهذه كُتبها في المنطق التي قد جعلتها الحكماء بها تعرف السقم من الصحة، والخطأ من الصواب، وهذه كُتُب الهند في حِكمها وأسرارها، وسِيَرها وعِللها؛ فمن قرأ هذه الكتب عرف غَوْر تلك العقول، وغرائب تلك الحِكم، وعرف أين

البيان والبلاغة، وأين تكاملت تلك الصناعة؛ فكيف سقط على جميع الأمم من المعروفين بتدقيق المعاني، وتخيُّر الألفاظ، وتمييز الأمور، أن يُشيروا بالقنا والعِصِي، والقُضبان والقِسِي؟ كلا، ولكنكم كنتم رُعاة بين الإبل والغنم، فحملتم القنا في الحضر بفضل عادتكم لحملها في السفر، وحملتموها في المدر بفضل عادتكم لحملها في الوبر، وحملتموها في السِّلم بفضل عادتكم لحملها في الحرب. ولطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل جفا كلامكم، وغلظت مخارج أصواتكم، حتى كأنكم إنما تُخاطبون الصُّمَّان إذا كلَّمتم الجُلساء. وإنما كان جُل قتالكم بالعِصِي؛ ولذلك فخر الأعشى على سائر العرب فقال:

لَسْنا نُقاتِلُ بالعِصِيِّ ... ولا نُرامي بالحِجارةْ
إلا عُلالَةَ أو بَدا ... هةَ قارحٍ نَهْدِ الجُزارةْ

وقال الآخر:

فإنْ تَمنَعوا منَّا السِّلاحَ فعِندَنا ... سِلاحٌ لنا لا يُشترى بالدَّراهمِ
جَنادِلُ أمْلاءُ الأكُفِّ كأنَّها ... رُءوسُ رِجالٍ حُلِّقت بالمَواسِمِ

وقال جَندَل الطُّهَوي:

حتى إذا دارَت رَحًى لا تَجري ... صاحت عِصِيٌّ من قنًا وسِدْرِ

وقال آخر:

دعا ابنُ مُطِيعٍ للبِياعِ فجِئتُه ... إلى بَيْعةٍ قلبي لها غيرُ آلِفِ
فناوَلني خَشْناءَ لمَّا لمَستُها ... بكفِّيَ ليستْ من أكُفِّ الخلائفِ
من الشَّثِناتِ الكُزْمِ أنكَرتُ مسَّها ... وليستْ من البِيضِ الرِّقاقِ اللَّطائفِ[٦]
مُعاوِدةً حَمْلَ الهَراوى لقَومِها ... فَرُورًا إذا ما كانَ يومُ التَّنائفِ

وقال آخر:

ما لِلفَرزَدقِ من عِزٍّ يَلُوذُ به ... إلا بَنِي العمِّ في أيدِيهم الخَشَبُ

[٦] الشثنات: الخشنات. الكزم: القصار.

(٢) مطاعن الشعوبة على العرب بشأن آلات الحرب

قالوا: وإنما كانت رِماحكم من مُرَّان، وأسِنَّتكم من قرون البقر، وكنتم تركبون الخيل في الحرب أعراء؛ فإن كان الفَرس ذا سَرْج فسَرجُه رِحالة من أدَم، ولم يكن ذا رِكاب، والرِّكاب من أجود آلات الطاعن برمحه، والضارب بسيفه، وربما قام فيهما أو اعتمد عليهما. وكان فارسكم يطعن بالقناة الصمَّاء، وقد علِمنا أن الجَوفاء أخَفُّ محملًا، وأشد طعنةً. وتفخرون بطول القناة ولا تعرفون الطعن بالمطارد، وإنما القنا الطِّوال للرَّجَّالة، والقِصار للفُرسان، والمطارد لصيد الوحش. وتفخرون بطول الرمح وقِصَر السيف، فلو كان المُفتخِر بقِصَر السيف الراجل دون الفارس، لكان الفارس يفخر بطول السيف، وإن كان الطول في الرمح إنما صار صوابًا لأنه ينال به البعيد، ولا يفوته العدو، ولأن ذلك يدل على شدة أسْر الفارس وقوة أيده، فكذلك السيف العريض الطويل. وكنتم تتَّخذون للقناة زُجًّا وسِنانًا حين لم يقبض الفارس منكم على أصل قناته، ويعتمد عند طعنته بفخذه، ويستعين بحميَّة فَرسه. وكان أحدكم يقبض على وسط القناة ويخلِّف منها على مِثل ما قدَّم، فإنما طعنكم الدَّرْه والنَّهْزة، والخَلس والزَّج.[٧] وكنتم تتساندون في الحرب، وقد عُلِم أن الشركة رديَّة في ثلاثة أشياء؛ في المُلك، والحرب، والزوجة. وكنتم لا تُقاتلون بالليل، ولا تعرفون البَيات، ولا الكمين، ولا المَيمنة، ولا المَيسرة، ولا القلب، ولا الجَناح، ولا الساقة، ولا الطليعة، ولا النفَّاضة، ولا الدرَّاجة. ولا تعرفون من آلة الحرب الرتيلة، ولا العرَّادة، ولا المجانيق، ولا الدبَّاب، ولا الخنادق، ولا الحَسَك. ولا تعرفون الأقبِية، ولا السراويلات، ولا تعليق السيوف، ولا الطبول، ولا البنود والتجافيف، ولا الجواشن، ولا الخُوَذ، ولا السواعد، ولا الأجراس، ولا الوَهق، ولا الرمي بالبَنجكان، ولا الزَّرق بالنِّفط ولا النيران. وليس لكم في الحرب صاحب عَلَم يرجع إليه المُنحاز، ويتذكره المُنهزِم. وقتالكم إما سلَّة وإما مزاحفة. والمزاحفة على مَواعد متقدِّمة، والسلَّة مسارقة وفي طريق الاستلاب والخُلسة.

قالوا: والدليل على أنكم لم تكونوا تُقاتلون بالليل قولُ العامري:[٨]

يا شَدَّةً ما شَدَدْنا غيرَ كاذبةٍ على سَخِينةَ لولا الليلُ والحَرَمُ

[٧] الدره: الرمي والقذف. والنهز: الدفع. والخلس: المخالسة في الطعن. والزج: القذف بالرمح القصير.

[٨] العامري: هو خِداش بن زهير. وهذا البيت من قصيدةٍ قالها يوم نخلة، وهو يوم من أيام الفجار، التجأت فيه قريش إلى الحرم معتصمةً به. وسخينة: لقب تُنبَذ به قريش.

ويدل على ذلك أيضًا قول الحارث بن ضِرار:

وعمرٌو إذ أتانا مُستمِيتًا كَسَونا رأسَه عَضْبًا صَقِيلا
فلولا اللَّيلُ ما آبُوا بشَخصٍ يُخبِّرُ أهلَهم عنهم قليلا

وقال أميَّة بن الأشكر:

ألَمْ تَرَ أنَّ ثَعلبةَ بنَ سَعدٍ غِضابٌ حبَّذا غَضَبُ المَوالي
ترَكتُ مُصرَّفًا لمَّا التَقَينا صَرِيعًا تحتَ أطرافِ العَوالي
ولولا اللَّيلُ لم يَغلِبْ ضِرارٌ ولا رأسُ الحِمارِ أبو جُفالِ

(٣) رد الجاحظ على الشعوبية

قلنا: ليس لكم فيما ذكرتم في هذه الأشعار دليل على أن العرب لا تُقاتل بالليل، وقد يُقاتل بالليل والنهار من تَحُول دون ماله المُدُن وهَول الليل، وربما تحاجز الفريقان وإن كان كل واحد منها يرى البَيات، ويرى أن يُقاتل إذا بيَّتوه، وهذا كثير. والدليل على أنهم كانوا يُقاتلون بالليل قول سعد بن مالك في قتل كعب بن مُزَيقِيا الملِك الغسَّاني:

وليلةَ تُبَّعٍ وخَميسِ سَعدٍ أتَونا بعدَما نِمْنا دَبِيبا
فلَمْ نَهدَأْ لبأسِهمُ ولكنْ رَكِبْنا حدَّ كوكبِهم رُكوبا
بضَربٍ تُفلَقُ الهاماتُ منه وطَعنٍ يَفصِلُ الحَلَقَ الصَّلِيبا

وقال بِشر بن أبي خازم:

فأمَّا تميمٌ تميمُ بنُ مُرٍّ فألفاهم القومُ رَوْبى نِياما

يقول: شرِبوا اللبن الرائب فسكِروا منه، وهو اللبن الذي قد أُخرجت زبدته.
وقال عِياضٌ السِّندي:

ونحن نَجَلْنا لابْنِ مَيلاءَ نَحرَه بنَجْلاءَ من بينِ الجوانحِ تَشهَقُ[٩]

[٩] نجلنا: طعنَّاه طعنةً نجلاء، والنجلاء هي التي يتدفق منها الدم بغزارة لسعتها.

ويومَ بَنِي الدَّيَّانِ نالَ أخاهمُ بأرماحِنا بالسَّبي مَوتٌ مُحدِّقُ[١٠]
ومنَّا حُماةُ الجيشِ ليلةَ أقبلَتْ إيادٌ يُزجِّيها الهُمامُ مُحرِّقُ

وقال آخر:

وعلى شُتَيرٍ راحَ منَّا رائحٌ بأبي قَبيصةَ كالفَتيقِ المُقرَمِ[١١]
يَردِي بشِرْحافِ المَغادِرِ بعدَما نشرَ النَّهارُ سَوادَ لَيلٍ مُظلِمِ[١٢]

وقال عياضٌ السِّندي:

لحِمامِ بِسْطامِ بنِ قَيسٍ بعدَما جَنَحَ الظَّلامُ بِمثلِ لَونِ العِظلَمِ[١٣]

---

[١٠] الديان، في نسخة: الذبان، وليس هنالك.

[١١] الفتيق المقرم: الجمل السمين المتخَذ للضِّراب.

[١٢] يردي بشرحاف المغادر، في نسخة: بشرخاف، وليس هنالك. يصف فرسًا بأنه يعدو في المحادر بشرحاف المغادر؛ يعني بحوافر عراض تُغادر الحصى يتناثر خلفها.

[١٣] بسطام بن قيس: كان من فُرسان العرب المشهورين، وشُجعانها المعدودين، وكان من أشرف بيوتات ربيعة وأجلِّها نَسبًا. قال أبو عُبيدة: قدِم على النُّعمان بن المُنذر وفودُ ربيعة ومُضَر ابنَي نِزار، فكان فيمن قدِم عليه من وفود ربيعة بسطام بن قيس والحوفزان بن شريك البكريَّان، وفيمن قدِم عليه من وفود مضر عامر بن مالك وعامر بن الطفيل، ومن تميم قيس بن عاصم والأقرع بن حابس، فلما انتهَوا إلى النعمان أكرمهم وحباهم، وكان يتَّخذ للوفود عند انصرافهم مجلسًا يطعم فيه معهم ويشرب، وكان إذا وُضع الشراب سُقي النعمان، فمن بُدئ به على أثره فهو أفضل الوفد، فلما شرب النعمان قامت القينة تنظر إلى النعمان؛ مَن الذي يأمرها أن تسقيَه وتفضِّله من الوفد؟ فنظر في وجهها ساعةً ثم أطرق، ثم رفع رأسه وأنشأ يقول:

اسقِي وُفودَك ممَّا كنتِ ساقِيَتي وابدي بكأسِ ابنِ ذي الجدَّين بِسطامِ
أغرَّ تَنمِيه من شَيبانَ ذو أنفٍ حامي الذِّمارِ وعن أعراضِها رامي
قد كان قيسُ بنُ مسعودٍ ووالدُه تبدا الملوكُ به أيَّامَ أيَّامِ
فارْضُوا بما فَعَلَ النُّعمانُ في مُضَرٍ وفي ربيعةَ من تعظيمِ أقوامِ
هُمُ الجماجمُ والأذنابُ غيرُهمُ فارْضُوا بذلك أو بُوءوا بإرغامِ

... إلخ. ففضَّل بسطامًا عليهم جميعًا. العظلم: عصارة شجر سوداء.

وقال أوس بن حجر:

باتُوا يُصِيبُ القومُ ضَيفًا لهم　　حتَّى إذا ما ليلُهم أظْلَما
فرَدَّهم شَهْباءُ مَلمومةٌ　　مِثلَ حريقِ النارِ أو أضْرَما
واللهِ لولا قُرْزُلٌ ما نَجا　　وكان مَثْوى خدِّكَ الأخْرَما[١٤]
نجَّاكَ جيَّاشٌ هَزِيمٌ له　　أحمَيتَ وَسْطَ الوَبَرِ المِيسَما

وبعدُ فهل قتل ذؤابٌ الأسدي[١٥] عُتيبة بن الحارث بن شهاب إلا وسط الليل الأعظم حين تبِعوهم فلحقوهم؟ وكانوا إذا اجتمعوا للحرب دخَّنوا بالنهار، وأوقدوا بالليل. قال عمرو بن كُلثوم وذكر واقعةً لهم:

ونحن غَداةَ أُوقِدَ في خَزازى　　رَفَدْنا فوقَ رَفدِ الرَّافِدِينا

وقال خَمْخامٌ السَّدوسي:

وإنَّا بالصُّلَيبِ ببَطنِ فَخٍّ　　جميعًا واضِعِينَ به لَظانا
نُدخِّنُ بالنَّهارِ ليُبصِرُونا　　ولا نَخْفى على أحدٍ أتانا

وأما قولهم: لا يعرفون الكمين، فقد قال أبو قيس بن الأسلت:

وأحرَزْنا المَغانِمَ واستبَحْنا　　حِمى الأعداءِ واللهُ المُعِينُ
بغَيرِ خَلابةٍ وبغَيرِ مَكرٍ　　مُجاهَرةً ولم يُخبَأ كَمِينُ

وأما ذِكرهم للرُّكُب، فقد أجمعوا على أن الرُّكُب كانت قديمة، إلا أن رُكُب الحديد لم تكن في العرب إلا أيام الأزارقة، وكانت العرب لا تعوِّد أنفُسها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها في الرُّكُب، وإنما كانت تنزو نزوًا. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لا تخور قُوًى ما كان صاحبها ينزو ويَنزِع.

يقول: أي لا تنتكث قوته ما دام ينزع في القوس، وينزو في السرج، من غير أن يستعين بركاب.

---

[١٤] قرزل: اسم فرس عامر بن الطُّفيل.

وقال عمر: الراحة عُقلة، وإيَّاكم والسِّمنة فإنها عقلة.

ولهذه العلة قُتل خالد بن سعيد بن العاص حين غشِيَه العدو وأراد الركوب ولم يجد من يحمله.

ولذلك قال عمر حين رأى المهاجرين والأنصار لما أخصبوا، وهمَّ كثير منهم بمقاربة عيش العجم: تَمَعدَدوا واخشوشِنوا، واقطعوا الرُّكُب، وانزوا على الخيل نزوًا. وقال: احفَوا وانتعِلوا؛ فإنكم لا تدرون متى تكون الجَفلة.

وكانت العرب لا تدع اتخاذ الرِّكاب للرَّحل، فكيف تدع الرِّكاب للسَّرج؟ ولكنهم كانوا وإن اتخذوا الرُّكب فإنهم لا يستعملونها إلا عند ما لا بد منه؛ كراهيةَ أن يتَّكلوا على بعض ما يُورثهم الاسترخاء والتفتُّخ، ويُضاهئون أصحاب الترفُّه والنعمة. قال الأصمعي: قال العُمري: كان عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه اليسرى، ثم يجمع جراميزه ويثب، فكأنما خُلِق على ظهر فرسه. وفعل مِثلَ ذلك الوليدُ بن يزيد وهو يومئذٍ وليُّ عهد هشام، ثم أقبل على مَسلمة بن هشام فقال له: أبوك يُحسِن مِثل هذا؟ فقال مَسلمة: لأبي مائة عبد يُحسِنون مِثل هذا. فقال الناس: لم يُنصِفه في الجواب.

---

[١٥] ذؤاب الأسدي: هو ذؤاب بن ربيعة بن عبيد بن سعد بن جذيمة بن مالك بن نصر الأسدي. كان فارسًا مِغوارًا، وأسدًا كرَّارًا. لما مات رثاه أبوه بقوله:

أبلِغْ قبائلَ جَعفرٍ مخصوصةً ... ما إنْ أُحاوِلُ جَعفرَ بنَ كلابِ
إنَّ المَودَّةَ والهوادةَ بيْننا ... خلقٌ كسَحقِ الرَّيطةِ المنجابِ
إلا بجيشٍ لا يكتُّ عديدَه ... سُودُ الجلودِ من الحديدِ غِضابِ
ولقد علِمتُ على التجلُّدِ والأسى ... أنَّ الرزيَّةَ كانَ يومَ ذؤابِ
أذؤابُ إنِّي لم أهَبْكَ ولم أقُم ... للبَيعِ عندَ تَحضُّرِ الأجلابِ
إنْ يَقتُلوكَ فقد هتَكتَ بُيوتَهم ... بعُتيبةَ بنِ الحارثِ بنِ شِهابِ
بأحَبِّهم فَقدًا إلى أعدائِهم ... وأشَدِّهم فَقدًا على الأصحابِ
وعِمادِهم في كلِّ يومِ كريهةٍ ... وثِمالِ كلِّ مُعصبٍ قرضابِ
أهوى له تحتَ العجاجِ بطعنةٍ ... والخيلُ تردي في الغبار الكابي
أذؤابُ صابَ على صداك فجادَه ... صَوبُ الرَّبيعِ بِوابلٍ سكَّابِ
ما أنسَ لا أنساه آخِرَ عَيشِنا ... ما لاحَ بالمعزاءِ ريعُ سرابِ

وزعم رجال من مَشيختنا أنه لم يقُم أحد من ولد العبَّاس بالمُلك إلا وهو جامع لأسباب الفروسية.

وأما ما ذكروا في شأن رِماح العرب فليس الأمر في ذلك على ما يتوهَّمون. وللرماح طبقات؛ فمنها «النَّيزك»، ومنها «المربوع»، ومنها «المخموس»، ومنها «التام»، ومنها «الخَطِل» وهو الذي يضطرب في يد صاحبه لإفراط طوله، فإذا أراد الرجل أن يُخبِر عن شدة أسْر صاحبه ذكره، كما ذكر مُتمِّم بن نُوَيرة أخاه مالكًا فقال: كان يخرج في الليلة الصِّنَّبرة، عليه الشَّملة الفلوت، بين المزادتَين النضوحَين، على الجمل الثَّفال، مُعتقَل الرمح الخَطِل. قالوا له: وأبيك إن هذا لهو الجَلد. ولا يحمل الرمحَ الخَطِل منهم إلا الشديدُ الأيد، والمُدلُّ بفضل قوَّته عليه، الذي إذا رآه الفارس في تلك الهيئة هابه وحاد عنه، فإن شد عليه كان أشد لاستخدامه له. والحال الأخرى أن يخرجوا في الطلب بعقب الفارَّة، فربما شد على الفارس المُولي فيفوته بأن يكون رمحه مربوعًا أو مخموسًا، وعند ذلك يستعملون النيازك، والنيزك أقصر الرماح. وإذا كان الفارس الهارب يفوت الفارس الطالب زجَّه بالنيزك، وربما هاب مخالطته فيستعمل الزج دون الطعن، صنيع ذؤاب الأسدي بعُتيبة بن الحارث بن شهاب. وقال الشاعر:

وأسـمَـرَ خـطِّـيًّـا كـأنَّ كُـعـوبَـه نَوى القَسبِ قد أرْمى ذِراعًا على العَشْرِ

وقال آخر:

هاتِيكَ تَحمِلُني وأبيَضَ صارمًا ومُحرَّبًا في مارِنٍ مَخموسِ

وقال آخر:

تَولَّوا وأطرافُ الرِّماحِ عليهمُ بَوادِرُ مَربوعاتُها وطِوالُها

وهم قومٌ الغارات فيهم كثيرة، وبقدر كثرة الغارات كَثُر فيهم الطلب. والفارس ربما زاد في طول رمحه ليُخبِر عن فضل قوته، ويُخبِر عن قِصَر سيفه ليُخبِر عن فضل نجدته. قال كعب بن مالك:

نَصِلُ السُّيوفَ إذا قَصُرنَ بخَطوِنا قُدُمًا ونُلحِقُها إذا لم تُلحَقِ

وقال آخر:

إذا الكُماةُ تَنحَّوا أنْ يَنالَهمُ حدُّ الظُّباةِ وَصَلْناها بأيدينا

وقال رجل من بني تميم بن نُمير:

وصَلْنا الرِّقاقَ المُرهَفاتِ بخَطوِنا على الهَولِ حتى أمكنَتْنا المَضارِبُ

وقال حُميد بن ثور الهلالي:

ووَصلُ الخُطى بالسَّيفِ والسَّيفِ بالخُطى إذا ظنَّ أنَّ السَّيفَ ذو السَّيفِ قاصِرُ

وقال آخر:

الطاعِنونَ في النُّحورِ والكُلى شَزْرًا ووصَّالُ السُّيوفِ بالخُطى

وأما ما ذكروا من اتخاذ الزج لسافلة الرمح، والسِّان لعاليته، فقد ذكروا أن رجلًا قتل أخوَين في نَقاب — تقول العرب: لقيته سقابًا ونقابًا؛ أي مواجهة — أحدهما بعالية الرمح والآخر بسافلته، وقدِم في ذلك راكب من قِبَل بني مروان على قتادة يستثبت الخبر، فأثبته له من قِبَله. وقال الآخر:

إنَّ لقَيسٍ عادةً تعتادُها سَلَّ السُّيوفِ وخُطًى تَزدادُها

وقد وصفوا السيوف أيضًا بالطول، فقال عُمارة بن عُقيل:

بكلِّ طويلِ السَّيفِ ذي خَيزُرانةٍ جريءٍ على الأعداءِ مُعتمِدِ الشَّطبِ

وجملة القول إنَّا لا نعرف الخُطب إلا للعرب والفُرس.

وأما الهند فإنما لهم معانٍ مدوَّنة، وكُتبٌ مجلَّدة، لا تُضاف إلى رجلٍ معروف، ولا إلى عالمٍ موصوف، وإنما هي كُتبٌ متوارثة، وآداب على وجه الدهر سائرةٌ مذكورة.

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق. وكان صاحب المنطق نفسه بَكيء اللسان، غير موصوف بالبيان، مع عِلمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه، وبخصائصه. وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة، ولا بهذا الجنس من البلاغة.

وفي الفُرس خُطباء، إلا أن كل كلام للفُرس، وكل معنًى للعجم، فإنما هو عن طول فكرة، وعن اجتهاد وخلوة، وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكر ودراسة الكتب، وحكاية الثاني عِلم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار تلك الفِكَر عند آخرهم.

وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك مُعاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وَهمَه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخِصام، أو حين أن يَمتَح على رأس بئر، أو يحدُوَ ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيَه المعاني أرسالًا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالًا، ثم لا يقيِّده على نفسه، ولا يدرِّسه أحدًا من ولده.

وكانوا أمِّيِّين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلَّفون، وكان الكلام الجيِّد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر وأقهر. وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع. وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل. وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفُّظ أو يحتاجوا إلى تدارُس. وليس هم كمن حفِظ عِلم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علِق بقلوبهم، والْتَحم بصدورهم، واتَّصل بعقولهم، من غير تكلُّف ولا قصد، ولا تحفُّظ ولا طلب. وإن شيئًا الذي في أيدينا جزءٌ منه لبالِمقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب، وعد التراب، وهو الله الذي يُحيط بما كان، والعالِم بما سيكون.

ونحن، أبقاك الله، إذا ادَّعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمعنا العلم على أن ذلك لهم شاهدٌ صادق من الديباجة الكريمة، والرَّونق العجيب، والسَّبك والنَّحت الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم، ولا أرفعهم في البيان، أن يقول في مِثل ذلك إلا في اليسير، والنَّبذ القليل.

ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفُرس أنها صحيحةٌ غير مصنوعة، وقديمة غير مولَّدة، إذا كان مِثل ابن المقفع وسهل بن هارون وأبي عُبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولِّدوا مِثل تلك الرسائل، ويصنعوا مثل تلك السِّيَر.

وأخرى؛ أنك متى أخذت بيَد الشعوبي فأدخلته بلاد الأعراب الخُلَّص، ومَعدِن الفصاحة التامة، ووقَفتَه على شاعرٍ مُفلق، أو خطيبٍ مِصقع، علِم أن الذي قلت هو الحق، وأبصر الشاهد عيانًا، فهذا فرق ما بيننا وبينهم.

فتفهَّم عني، فهَّمك الله، ما أنا قائل في هذا، واعلم أنك لم ترَ قومًا قطُّ أشقى من هؤلاء الشعوبية، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكًا لعِرضه، ولا أطول نصَبًا، ولا أقل غُنمًا، من أهل هذه النِّحلة. وقد شفى الصدورَ منهم طولُ جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقُّد نار الشنآن في قلوبهم، وغليان تلك المَراجل الفائرة، وتسعُّر تلك النيران المضطرمة. ولو عرفوا أخلاق كل مِلَّة، وزِيَّ كل لُغة، وعِللهم في اختلاف إشاراتهم وآلاتهم، وشمائلهم وهيئاتهم، وما علة كل شيء من ذلك، ولِمَ اختلقوه ولِمَ تكلَّفوه؛ لأراحوا أنفُسهم، ولخفَّت مؤنتهم على من خالطهم.

والدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصلٍ كريم، ومن مَعدِن شريف، ومن المواضع التي لا يعيبها إلا جاهل، ولا يعترض عليها إلا مُعاند، اتخاذُ سليمان بن داود، صلوات الله تعالى وسلامه على نبينا وعليه، العصا لخطبته وموعظته، ولمقاماته وطول صلاته، ولطول التلاوة والانتصاب، فجعلها لتلك الخصال جامعة. قال الله عز وجل وقولُه الحق: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾. والمِنسأة هي العصا. وقال أبو طالب حين قام بذم الرجل الذي ضرب زميله بالعصا فقتله حين تخاصما في حبل وتجاذبا:

أَمِنْ أجلِ حَبلٍ لا أباكَ عَلَوتَه   بِمنسأةٍ قد جاءَ حَبلٌ وأحبُلُ

وقال آخر:

إذا دبَبتَ على المِنساةِ من كِبَرٍ   فقد تَباعَدَ عنك اللَّهوُ والغَزَلُ

قال أبو عثمان: وإنما بدأنا بذِكر سليمان، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، لأنه من أنبياء العجم، والشعوبية إليهم أميَل، وعلى فضائلهم أحرص، ولِما أعطاهم الله أكثر وصفًا وذِكرًا. وقد جمع الله لموسى بن عِمران في عصاه من البُرهانات العِظام، والعلامات الجِسام، ما عسى أن يفيء ذلك بعلامات عِدَّة من المُرسَلين، وجماعة من النبيِّين. قال الله تبارك وتعالى فيما يذكُر في عصاه: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾. فلذلك قال الحسن بن هانئ في شأن خصيب وأهل مصر حين اضطربوا عليه:

فإنْ تَكُ من فِرعَونَ فيكم بَقيَّةٌ   فإنَّ عصا موسى بكفِّ خَصيبِ

ألَمْ ترَ أن السَّحرة لم يتكلفوا تغليط الناس والتمويه عليهم إلا بالعصا، ولا عارضهم موسى إلا بعصاه؟ وقال الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾. وقال الله عز وجل: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ألا ترى أنهم لما سحروا أعيُن الناس واسترهبوهم بالعِصي والحبال، لم يجعل الله للحبال من الفضيلة في إعطاء البرهان ما جعل للعصا، وقدرة الله على تصريف الحبال في الوجوه كقدرته على تصريف العصا؟

وقال الله تبارك وتعالى: *﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾. فبارَك الله كما ترى على تلك الشجرة، وبارَك في تلك العصا، وإنما العصا جزء من الشجرة. وقال عز وجل: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾.

وقالت الحكماء: إنما تُبنى المدائن على الماء والكلأ والمُحتطَب.

فجمع بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ النجم والشجر، والمِلح واليقطين، والبقل والعشب؛ فذكر ما يقوم على ساق وما يتفنن وما يتسطح، وكل ذلك مَرعى، ثم قال على النسق: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾. فجمع بين الشجر والماء والكلأ والماعون كله؛ لأن المِلح لا يكون إلا بالماء، ولا تكون النار إلا من الشجر. وقال الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾. وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ﴾. والمَرخ والعَفار، والسَّواس والعراجين، وجميع عيدان النار، وكل عُود يُقدح على طول الاحتكاك، فهو غنيٌّ بنفسه، بالغ للمُقوي وغير المُقوي. وحجر المرو يحتاج إلى قرَّاعة الحديد، وهما يحتاجان إلى العُطبة ثم إلى الحطب، والعيدان هي القادحة، وهي المُورية، وهي الحطب. قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

والماعون: الماء والنار والكلأ. وقال الأسدي:

وكأنَّ أرحُلَنا بجوٍّ مُحصَّبٍ بلِوَى عُنَيزةَ من مَقيلِ التُّرمُسِ
في حيثُ خالَطَتِ الخُزامى عَرفجًا يأتيكَ قابسُ أهلِها لم يَقبِسِ

وإنما وصف خِصب الوادي، ولُدونة عيدانه، ورطوبة الورق. وهذا خلاف قوله:

فإنَّ السِّنانَ يَركَبُ المَرءُ حدَّه من العارِ أو يعدو على الأسَدِ الوَردِ
وإنَّ الذي يَنهاكمُ في طِلابِها يُناغي نِساءَ الحَيِّ في طُرَّةِ البُردِ
يُعلَّلُ والأيَّامُ تَنقُصُ عُمْرَه كما تَنقُصُ النِّيرانُ من طَرَفِ الزَّندِ

وذكَر الله عز وجل النخلة فجعلها شجرة، فقال: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾. وذكَر رسول الله ﷺ حُرمة الحرم، فقال: «لا يُختلى خلاها، ولا يُعضَد شجرها.» وقال الله عز وجل: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾. وتقول العرب: ليس شيءٌ أدفأ من شجرة، ولا أظلَّ من شجرة. ولم يكلِّم الله موسى إلا من شجرة، وجعل أكثر آياته في عصاه، وهي من الشجرة. ولم يمتحن الله عز وجل صبر آدم وحوَّاء، إذ هما أصل هذا الخلق وأوله، إلا بشجرة؛ ولذلك قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وجعل بيعة الرضوان تحت شجرة، وقال: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾. وسِدرة المُنتهى التي عندها جنة المأوى شجرة، وشجرة سُرَّ تحتها سبعون نبيًّا لا تُعبَل ولا تُسرَف. وحين اجتهد إبليس في الاحتيال لآدم وحوَّاء، عليهما السلام، لم يصرف الحيلة إلا إلى الشجرة، وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾.

وفيما ضُرب من الأمثال بالعصا قالوا: قال جميل بن بَصبَهَري حين شكا إليه الدهاقين شر الحجَّاج: أخبِروني، أين مولده؟ قالوا: الحجاز. قال: ضعيفٌ مُعجَب. قال: فمَنشؤه؟ قالوا: الشام. قال: ذاك شر. ثم قال: ما أحسنَ حالَكم إن لم تُبتلَوا معه بكاتب منكم — يعني من أهل بابل — فابتُلوا بزاذان فرُّوخ الأعور. ثم ضرب لهم مثلًا فقال: إن فأسًا ليس فيه عودٌ أُلقي بين الشجر، فقال بعض الشجر لبعض: ما أُلقي هذا ها هنا لخير. فقالت شجرةٌ عاديَّة: إن لم يدخل في است هذا منكن عودٌ فلا تخَفنَه. وقال يزيد بن مفرِّغ:

العَبدُ يُقرَعُ بالعصا والحُرُّ تَكفِيه المَلامةْ

قالوا: أخذه من الفلَتان الفَهمي حيث قال:

العَبدُ يُقرَعُ بالعصا والحُرُّ تَكفِيه الإشارةْ

وقال مالك بن الرَّيب:

العَبدُ يُقرَعُ بالعَصا والحُرُّ يَكفِيه الوَعيدُ

وقال بشَّار:

الحُرُّ يُلْحى والعصا للعَبدِ وليس للمُلحِفِ مِثلُ الرَّدِّ

وقال آخر:

حاوَلتُ حينَ صرَمتَني والمرءُ يَعجزُ لا مَحالةْ
والدَّهرُ يَلعبُ بالفتى والدهرُ أروَغُ من ثُعالةْ
والمرءُ يَكسبُ مالَه بالشُّحِّ يُورِثُه الكَلالةْ
والعَبدُ يُقرَعُ بالعصا والحُرُّ تَكفِيه المَقالةْ

ومما يدخل في باب الانتفاع بالعصا أن عامر بن الظَّرب العَدْواني حكَم العرب في الجاهلية، لما أسنَّ واعتراه النسيان أمر بِنتَه أن تقرع بالعصا إذا هو فَهَّ عن الحكم، وجار عن القصد، وكانت من حكيمات بنات العرب، حتى جاوزت في ذلك مِقدار صُحْر بنت لُقمان، وهند بنت الخُس، وخمعة بنت حابس بن مَليل الإياديين. وكان يُقال لعامرٍ ذو الحِلم؛ ولذلك قال الحارث بن وَعْلة:

وزَعمتُمْ أنْ لا حُلومَ لنا إنَّ العصا قُرِعَت لِذِي الحِلمِ

وقال المُتلمِّس:

لِذِي الحِلمِ قبْلَ اليومِ ما تُقرَعُ العصا وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا ليَعلَما

وقال الفرزدق بن غالب:

فإنْ كنتُ أنساني حُلومُ مُجاشِعٍ فإنَّ العصا كانت لِذِي الحِلمِ تُقرَعُ

ومن ذلك حديث سعيد بن مالك بن ضُبَيعة بن قيس بن ثعلبة، واعتزم الملك على قتل أخيه إن هو لم يُصِب ضميره، فقال له سعيد: أبَيتَ اللعن، أتدعُني حتى أقرع بهذه العصا أختها؟ فقال له الملك: وما عِلمه بما تقول العصا؟ فقرع بها وأشار بها مرةً ثم رفعها ثم وضعها، ففهِم المعنى، فأخبره ونجا من القتل.

وذِكر العصا يجري عندهم في معانٍ كثيرة، تقول العرب: العصا من العُصيَّة، والأفعى بنت حيَّة. تريد أن الأمر الكبير يحدث عن الأمر الصغير. ويُقال: طارت عصا فلان شِققًا. وقال الأسدي:

عِصِيُّ الشَّمل من أسدٍ أُراها قدِ انصدَعت كما انصدَعَ الزُّجاجُ

يُقال: فلانٌ شقَّ عصا المسلمين. ولا يُقال: شق ثوبًا ولا غير ذلك مما يقع عليه اسم الشق. وقال العتَّابي في مديح بعض الخُلفاء:

إمامٌ له كَفٌّ تَضُمُّ بَنانُها عصا الدِّينِ ممنوعٌ من البَرْيِ عُودُها
وعَينٌ مُحِيطٌ بالبَريَّةِ طَرْفُها سَواءٌ عليه قُربُها وبَعيدُها

وقال المُضرِّس الأسدي:

وألقَتْ عَصاها واستقرَّت بها النَّوى كما قرَّ عَينًا بالإيابِ المُسافِرُ

وقال المضرِّس أيضًا:

فألقَتْ عصا التَّسْيارِ عنها وخيَّمَت بأرجاءِ عَذبِ الماءِ بِيضٍ مَحافِرُه

يُقال لبني أسد: عبيد العصا. يعنى أنهم كانوا ينقادون لكل من حالفوا من الرؤساء. قال بِشر بن أبي خازم:

عَبِيدُ العصا لم يَتَّقوكَ بذِمَّةٍ سِوى شَيبِ سَعدٍ إنَّ شَيْبَكَ واسِعُ

وتُسمِّي العرب كل صغير الرأس «العصا». وكان عمر بن هُبَيرة صغير الرأس. قال سويد:

فمن مُبلِغٌ رأسَ العصا أنَّ بيْنَنا ضغائنُ لا تُنْسى وإنْ قَدُمَ الدَّهرُ

وقال آخر:

فمن مُبلِغٌ رأسَ العصا أنَّ بيْنَنا ضغائنُ لا تُحصى وإنْ قِيلَ سُلَّتِ
رضِيتَ لقَيسٍ بالقليلِ ولم تَكُنْ أخًا راضيًا لو أنَّ نَعْلَك زلَّتِ

وكان والبة[١٦] صغير الرأس، فقال أبو العتاهية في رأس والبة ورءوس قومه:

رُءوسُ عِصِيٍّ كُنَّ من عُودِ أثْلةٍ لها قادحٌ يَفْري وآخَرُ مُجرِبُ

والدليل على أنهم كانوا يتَّخذون المَخاصر في مجالسهم كما يتَّخذون القنا والقِسيَّ في المحافل، قول الشاعر في بعض الخُلفاء:

في كفِّه خَيزُرانٌ رِيحُها عَبِقٌ من كفِّ أروَعَ في عِرنِينِه شَمَمُ
يُغضِي حياءً ويُغْضى من مَهابتِه فما يُكلَّمُ إلا حِينَ يَبتسمُ

وقال الآخر:

مَجالسُهم خَفضُ الحديثِ وقولُهم إذا ما قضَوا في الأمرِ وَحيُ المَخاصِرِ

وقال الأنصاري:

يُصِيبونَ فَصْلَ القولِ في كلِّ خُطبةٍ إذا وصَلوا أيمانَهم بالمَخاصِرِ

وحدَّثني بعض أصحابنا قال: كنَّا مُنقطِعين إلى رجل من كِبار أهل العسكر، وكان لُبثُنا عنده يطول، فقال بعضنا: إن رأيت أن تجعل لنا أمارة إذا ظهرت لنا حفِظنا عنك ولم نُتعبك بالقعود؛ فقد قال أصحاب معاوية لمعاوية مِثل الذي قلنا لك. فقال: أمارة

[١٦] والبة: هو والبة بن الحُباب الأسدي. كان من شعراء الدولة العباسية. وهو أستاذ أبي نُواس. وكان شاعرًا ظريفًا عابثًا وصَّافًا للشراب، وقد هاجى بشَّارًا وأبا العتاهية فظفِرا به، ففرَّ منهما إلى الكوفة. ومن جيِّد شعره ورقيقه قوله:

ولها ولا ذَنْبَ لها حبٌّ كأطرافِ الرِّماحِ
في القلبِ يَقدَح والحشى فالقلبُ مجروحُ النَّواحي

ذلك أن أقول: إذا شئتم. وقيل ليزيد مِثل ذلك فقال: إذا قلت: على بركة الله. وقيل لعبد الملك مِثل ذلك فقال: إذا ألقيت الخيزرانة من يدي. قالوا: فأي شيء تجعل لنا أصلحك الله؟ قال: إذا قلت: يا غلام، الغداء.

وفي الحديث أن رجلًا ألحَّ على النبي ﷺ في طلب بعض المَغنم وبيده مِخصرة، فدفعه بها، فقال: يا رسول الله، أقِصَّني. فلما كشف النبي ﷺ له عن بطنه احتضنه وقبَّل بطنه.

وفي تثبيت شأن العِصي وتعظيم أمرها، والطعن على ذم حاملها، قالوا: كانت لعبد الله بن مسعود عشر خِصال؛ أولها السواد، وهو سِرار النبي ﷺ، فقال ﷺ: «إذنُك عليَّ أن يُرفع الحِجاب، وتسمع سوادي.» وكان معه مِسواك النبي ﷺ، وكانت معه عصاه.

ودخل عمر بن سعد على عمر بن الخطاب حين رجع إليه من عمل حمص — وليس معه إلا جراب وإداوة وقصعة وعصاه — فقال له عمر: ما الذي أرى بك، من سوء الحال أم تصنُّع؟ قال: وما الذي تراني؟ أوَلست صحيح البدن، معي الدنيا بحذافيرها؟ قال: وما معك من الدنيا؟ قال: معي جِرابي أحمل فيه زادي، ومعي قَصعتي أغسل فيها ثوبي، ومعي إداوتي أحمل فيها مائي لشرابي، ومعي عصاي إن لقيت عدوًّا قاتلته، وإن لقيت حيةً قتلتها، وما بقي من الدنيا تبع لِما معي.

وقال الهيثم بن عدي عن الشَّرقي بن القَطامي، وسأله سائل عن قول الشاعر:

لا يَعدِلنَّ أُتاويُّونَ تَضرِبُهم   نَكْباءُ صِرٌّ بأصحابِ المُحِلَّاتِ

قال: أليس المُحلَّات الدلوَ والمِقدحة والقِربة والفأس؟ قال: فأين أنت عن العصا؟ والصُّفن خير من الدلو أجمع. وقال النَّمِر بن تَولب:

أفْرَغتَ في حَوضِها صُفْني لتَشرَبَه   فـي داثرٍ خَـلَـقِ الأعضـاءِ أهـدامِ

وأما العصا فلو شئت أن أشغل مَجلسي كله بخصالها لفعلت.

وتقول العرب في مديح الرجل الجَلْد الذي لا يُفتات عليه بالرأي: ذلك الفَحل لا يُقرَع أنفه. وهذا كلام يُقال للخاطب إذا كان على هذه الصفة؛ لأن الفَحل اللئيم إذا أراد الضِّراب ضُرِب أنفه بالعصا. وقد قال ذلك أبو سفيان بن حرب بن أمية عندما بلَغه من تزويج النبي ﷺ بأم حبيبة، وقيل له: مِثلك تُنكَح نساؤه بغير إذنه؟ فقال: ذلك

الفحل لا يُقرَع أنفه. والحمار الفاره يُفسِده السوط، وتُصلِحه المقرعة. وأنشد لسلامة بن جَندَل:[١٧]

إنَّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِعٌ　　كان الصُّراخُ له قَرْعَ الظَّنابيبِ[١٨]

وقال الحجاج: والله لأعصبنَّكم عصب السَّلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. وذلك لأن الأشجار تُعصَب أغصانها ثم تُخبَط بالعِصي لسقوط الورق وهشيم العيدان. ودخل أبو مجلز على قُتيبة بخُراسان، وهو يضرب رجالًا بالعِصي، فقال: أيها الأمير، إن الله قد جعل لكل شيء قدْرًا، ووقَّت فيه وقتًا؛ فالعِصي للأنعام والبهائم، والسوط للحدود والتعزير، والدِّرَّة للأدب، والسيف لقتال العدو والقوَد.

ثم قال الشرقي: دعنا من هذا. خرجتُ من المَوصل وأنا أريد الرِّقَّة مُستخفيًا، وأنا شابٌّ خفيف الحال، فصحِبني من أهل الجزيرة فتًى ما رأيت بعده مِثله، فذكر أنه

---

[١٧] سلامة بن جندل: شاعرٌ جاهلي قديم، من شعراء تميم المعدودين، وفارس من فُرسانهم المشهورين، ويُعَد من شعراء العرب المُقلِّين؛ ولهذا اختار له المفضَّل الضبِّي قصيدته التي منها هذا البيت في المفضليات التي شرحناها ونشرناها أخيرًا، وأول القصيدة كما في المفضليات:

أودى الشبابُ حميدًا ذو التَّعاجيبِ　　أودى وذلك شأوٌ غيرُ مطلوبِ

وهي طويلة، انظرها هناك. وبعد نشر المفضليات وقع لي ديوان سلامة بن جندل الذي نشره الأب لويس شيخو، فرأيته في ص٢٦ منه يقول: ولهذه القصيدة مَطلع في ستة أبيات لم يرد هنا (يعني في الديوان)، وقد ورد في بعض نسخ المفضليات طبعة ليبسك ص٢٦ … وهو كما يأتي:

يا دارَ أسماءَ بالعَلياءِ من إضَمٍ　　بينَ الدَّكادكِ من قوٍّ فمعصوبِ
كانت لنا مَرَّةً دارًا فغيَّرَها　　مرُّ الرِّياحِ بِسافي التُّربِ مجلوبِ
هل في سؤالِك عن أسماءَ من حوبٍ　　وفي السلامِ وإهداءِ المناسيبِ؟
ليست من الزلِّ أردافًا إذا انصرفتْ　　ولا القِصارِ ولا السُّودِ العناكيبِ
إنِّي رأيتُ ابنةَ السعديِّ حين رأت　　شَيْبى وما خلَّ من جِسمي وتَحنيبي
تقولُ حينَ رأت رأسي ولِمَّته　　شَمْطاءُ بعدَ بَهيمِ اللونِ غِربيبِ

[١٨] الظنابيب: جمع ظنبوب، والظنبوب مقدَّم عظم الساق. والمعنى: إذا جاءنا مُستغيث كانت إغاثته الجِدَّ في نصرته.

تغلبي من ولد عمرو بن كلثوم، ومعه مِزود وركوة وعصًا، فرأيته لا يُفارقها، وطالت ملازمته لها، فكِدتُ من الغيظ عليه أرمي بها في بعض الأودية. فكنا نمشي فإذا أصبنا دوابَّ ركِبْناها، وإذا لم نُصِب الدواب مشَينا. فقلت له في شأن عصاه، فقال لي: إن موسى بن عِمران، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه، حين آنَس من جانب الطور نارًا، وأراد الاقتباس لأهله منها، لم يأتِ النار من مِقدار تلك المسافة القليلة إلا ومعه عصاه، فلما صار بالوادي المقدَّس من البُقعة المباركة قيل له: ألقِ عصاك واخلع نعلَيك. فرمى نعلَيه راغبًا عنهما، حين نزَّه الله ذلك الموضع عن الجلد غير الذكي، وجعل الله جِماع أمره من أعاجيبه وبرهاناته في عصاه، ثم كلَّمه من جوف شجرة، ولم يكلمه من جوف إنسان ولا جان.

قال الشرقي: إنه ليُكثر من ذلك وإني لأضحك مُتهاونًا بما يقول، فلما برَزنا على حمارَينا تخلَّف المُكاري، فكان حماره يمشي فإذا تلكَّأ أكرهه بالعصا، وكان حماري لا ينساق، وأعلم أنه ليس في يدي شيء يُكرهه، فسبقني الفتى إلى المنزل فاستراح وأراح، ولم أقدر على البراح، حتى وافاني المُكاري، فقلت: هذه واحدة. فلما أردنا الخروج من الغد لم نقدر على شيءٍ نركبه، فكنَّا نمشي، فإذا أعيا توكَّأ على العصا، وربما أحضر ووضع العصا على وجه الأرض فاعتمد عليها ومر كأنه سهمٌ والح، حتى انتهَينا إلى المنزل وقد تفسَّختُ من الكَلال، وإذا فيه فضلٌ كثير، فقلت: هذه ثانية. فلما كان في اليوم الثالث، ونحن نمشي في أرضٍ ذات أخاقيق وصدوع، إذ هجمنا على حيَّة مُنكَرة فساورتنا، فلم تكن عندي حيلة إلا خذلانه وإسلامه إليها والهرب منها، فضربها بالعصا فثقلت، فلما بهشت له ورفعت صدرها ضربها حتى وقذها، ثم ضربها حتى قتلها، قلت: هذه ثالثة، وهي أعظمهن. فلما خرجنا في اليوم الرابع، قرمت والله إلى اللحم، وأنا هاربٌ مُعدم، إذا أرنب قد اعترضت، فحذفها، فما شعرت والله إلا وهي معلَّقة، وأدركنا ذكاتها، فقلت: هذه رابعة. وأقبلت عليه فقلت له: لو أن عندنا نارًا لَمَا أخَّرت أكلها إلى المنزل. قال: فإن عندك نارًا. فأخرج عُويدًا من مِزوده ثم حكَّه بالعصا فأورت إيراءَ المَرخُ والعَفار عنده لا شيء، ثم جمع ما قدر عليه من الغثاء والحشيش، وأوقد ناره، وألقى الأرنب في جوفها. فأخرجناها وقد لزق بها من الرماد والتراب ما نغصها إلي، فعلَّقها بيده اليسرى ثم ضرب بالعصا على جُنوبها وأعراضها ضربًا رقيقًا حتى انتثر كل شيء عليها، فأكلناها وسكن القرم وطابت النفس، فقلت: هذه خامسة. ثم إنا نزلنا ببعض الخانات، وإذا البيوت مَلأى روثًا وترابًا، ونزلنا بعقب جند وخراب مُتقدم، فلم نجد موضعًا نظل فيه،

فنظر إلى حديدة مِسحاة مطروحة في الدار، فأخذها فجعل العصا نِصابًا لها، ثم قام فجرف جميع ذلك الرَّوث والتراب، وجرَد الأرض بها جردًا حتى ظهر بياضها، وطابت ريحها، فقلت: هذه سادسة. وعلى أي حال لم تَطِب نفسي أن أضع طعامي وثيابي على تلك الأرض، فنزع والله العصا من حديدة المِسحاة فوتدها في الحائط، وعلَّق ثيابي عليها، فقلت: هذه سابعة. فلما صِرتُ إلى مَفرِق الطُّرق وأردت مفارقته، قال لي: لو عدلت معي فبِتَّ عندي كنت قد قضيت حق الصحبة، والمنزل قريب. فعدلت معه، فأدخلني في منزلٍ يتَّصل ببيعة. قال: فما زال يحدِّثني ويُطرفني ويُلطفني الليل كله، فلما كان السَّحَر أخذ خشبةً ثم أخرج تلك العصا بعينها فقرعها بها، فإذا ناقوس ليس في الدنيا مِثله، وإذا هو أحذق الناس بضربه، فقلت له: وَيلَك، أمَا أنت مسلم؟ وأنت رجل من العرب من ولد عمرو بن كلثوم؟ قال: بلى. قلت: فلِمَ تضرب بالناقوس؟ قال: جُعلت فِداك، إن أبي نصراني، وهو صاحب البِيعة، وهو شيخٌ ضعيف، فإذا شهدته برَرته بالكفاية. وإذا هو شيطانٌ مارد، وإذا أظرف الناس كلهم وأكثرهم أدبًا وطلبًا. فخبَّرته بالذي أحصَيته من خصال العصا بعد أن كنت همَمت أن أرميَ بها، فقال: والله لو حدَّثتك عن مناقب نفع العصا إلى الصبح لَمَا استنفدتها.

ومن جُمَل القول في العصا وما يجوز فيها من المنافع والمرافق، تفسير شعر غَنيَّة الأعرابية في شأن ابنها؛ وذلك أنها كان لها ابنٌ شديد العَرامة، كثير التلفُّت إلى الناس، مع ضعف أَسْر ودِقَّة عظم؛ فواثَب مرةً فتًى من الأعراب، فقطع الفتى أنفه، وأخذت غنيَّة دِية أنفه فحسُنت حالها بعد فقر مُدقِع؛ ثم واثَب آخر فقطع أذنه فأخذت الدية، فزادت دية أذنه في المال وحُسن الحال؛ ثم واثب بعد ذلك آخر فقطع شفته، فلما رأت ما قد صار عندها من الإبل والغنم والمتاع والكسب بجوارح ابنها حَسُن رأيها فيه، فذكرته في أرجوزة لها تقول فيها:

أحلِفُ بالمَروةِ يومًا والصَّفا   أنَّك خيرٌ من تفاريقِ العصا

فقيل لابن الأعرابي: ما تفاريق العصا؟ قال: العصا تُقطَّع ساجورًا، وتُقطَّع عصا الساجور فتصير أوتادًا، ويُفرَّق الوتِد فتصير كل قطعة شِظاظًا، فإن كان رأس الشِّظاظ كالفُلكة صار للبُختي مِهارًا، وهو العُود الذي يُدخَل في أنف البُختي، وإذا فُرِّق المِهار جاءت منه تَوادٍ.

والسواجير تكون للكلاب والأسرى من الناس. وقال النبي ﷺ: «يؤتى بناس من ها هنا يُقادون إلى حظوظهم بالسواجير.»

وإذا كانت قناةً فكل شِقَّة منها قوس بندق. قال: فإن فُرِّقت الشِّقَّة صارت سهامًا، فإن فُرِّقت السهام صارت حِظاءً، وهي سِهامٌ صِغار. قال الطرماح: كحِظاء الغلام. والواحدة حظوة وسروة. فإن فُرِّقت الحظاء صارت مَغازل، فإن فُرِّق المِغزل شَعَب به الشَّعَّاب أقداحه المصدوعة المشقوقة، على أنه لا يجد لها أصلح منها. وقال الشاعر:

نَوافذُ أطرافِ القَنا قد شَكَكتُه كشَكِّكَ بالشَّعبِ الإناءَ المُثلَّما

فإذا كانت العصا صحيحةً سالمة ففيها من المنافع الكبار والمرافق الأوساط والصغار ما لا يُحصيه أحد، وإذا فُرِّقت ففيها مِثل الذي ذكرنا وأكثر، فأي شيء يبلُغ في المرفق والمرد مبلغ العصا؟ وفي قول موسى على نبينا وعليه السلام ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ دليلٌ على كثرة المرافق فيها؛ لأنه لم يقُل: ولي فيها مأربةٌ أخرى. والمآرب كثيرة؛ فالذي ذكَرنا قبل هذا داخل في تلك المآرب.

ولا نعرف شِعرًا يُشبِه معنى شعر غنيَّة لا يُغادر منه شيئًا، ولكن زعم بعض أصحابنا أن أعرابيَّين ظريفَين من شياطين الأعراب حطمَتْهما السَّنة، فانحدرا إلى العراق، واسم أحدهما «حيدان»، فبيْنا هما يتماشيان في السوق فإذا فارس قد أوطأ دابَّته رِجل حيدان فقطع إصبعًا من أصابعه، فتعلَّقا به حتى أخذا منه أرش الإصبع — وكانا جائعين مقرورين — فحين صار المال في أيديهما قصدا لبعض الكرابج فابتاعا من الطعام ما اشتهيا، فلما أكل صاحب حيدان فشبِع أنشأ يقول:

فلا غَرَثٌ ما كانَ في النَّاسِ كُربَجٌ وما بقِيَت في رِجْلِ حَيْدانَ إصبَعُ

وهذا الشعر وشعر غنية من المظرف الناصع الذي سمعت به، وظرف الأعراب لا يقوم له شيء.

وناسٌ كثير لا يستعملون في القتال إلا العصا، منهم الزنج؛ قنبلة، كنجوبة؛ والنمل والكلاب؛ وتكفو وتنبو؛ على ذلك يعتمدون في حروبهم. ومنهم النَّبَط، ولهم بها ثقافة وشدة وغلبة، وأثقف ما تكون الأكراد إذا قاتلت بالعِصي، وقتال المخارجات كلها بالعِصي، ولهم هناك ثقافة ومنظرٌ حسن، ولقتالهم منزلة بين السلامة والعطب.

والناس يضربون المثل بقتال البقَّار بقناته، ويُقال في المثل: ما هو إلا أُبْنة عصًا، وعُقدةُ رِشًا. ويُقال للراعي: إنه لضعيف العصا، إذا كان قليل الضرب بها للإبل، شديد الإشفاق عليها. قال الراعي:[١٩]

ضعيفُ العَصا بادي العُروقِ تَرى له عليها إذا ما أجدَبَ الناسُ إصبَعا

وإذا كان الراعي جَلدًا قويًّا عليها قالوا: صُلْب العصا. ولذلك قال الراجز:

صُلْبُ العصا باقٍ على أذاتِها

وقال الآخر في معنى الراعي:

لا تَضرِباها واشْهَرا العِصِيَّا

ويقولون: قد أقبل فلان ولانت عصاه، إذا أصابه السُّواف[٢٠] فرجع وليس معه إلا عصاه؛ لأنه لا يُفارقها، كانت له إبل أم لا. ويقولون: كلما قُرِعت عصًا بعصًا، وعصًا على عصًا، وعصًا عصًا؛ قالوا: أخذوا فلانًا بذلك.

---

[١٩] الراعي: هو عبيد بن حصين بن معاوية النميري، يُكنى أبا جندل، والراعي لقبٌ غلب عليه لكثرة وصفه الإبل وجودة نعته إياها. وكان شاعرًا فحلًا من شعراء الإسلام، وما زال مقدَّمًا مفضَّلًا حتى اعترض بين جرير والفرزدق، فاستكفَّه جرير، فأبى أن يكفَّ، فهجاه بقصيدته التي يقول فيها:

أَلمْ تَرَني صببَتُ على عبيدٍ وقد فارتْ أباجِلُه وشابا
أعدُّ له مَواسمَ حامياتٍ فيَشفي حرُّ شُعلتِها الجِرابا
فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّك من نُميرٍ فلا كَعبًا بلَغتَ ولا كِلابا

ففضحه. وقال محمد بن سلَّام: كان الراعي من رجال العرب ووجوه قومه، وكان يُقال له في شعره: كأنه يعتسف الفلاة بغير دليل. أي إنه لا يحتذي شعر شاعر ولا يُعارضه، وكان مع ذلك بذيًّا هجَّاءً لعشيرته. وهذا البيت الذي جاء به الجاحظ هو من قصيدة فيها يقول:

بَني وابشٍ إنَّا هوِينا جِوارَكم وما جمَّعَتْنا نِيَّةٌ قَبْلَها مَعا
خَليطَينِ من حيَّينِ شتَّى تَجاوَرا جميعًا وكانا بالتفرُّقِ أضيَعا
أرى أهلَ ليلى لا يُبالي أسيرُهم على حالةِ المحزونِ أنْ يَتصدَّعا

[٢٠] السواف: مرض تهلك به الإبل.

وقال حُميد بن ثَور:

اليومَ تُنتزَعُ العَصا من ربِّها ويَلُوكُ ثِنْيَ لسانِه المِنْطيقُ

ويُكتَب مع قوله:

تَخْشى العصا والزَّجرَ إنْ قِيلَ حَلِ يُرسِلُها التَّغميضُ إنْ لم تُرسَلِ[٢١]

وقال آخر:

هـذا ووَردُ بُـزَّلٍ وسُـدُسِ يُغْلي بها كلُّ مُسِيمٍ مُرغِسِ[٢٢]
رُدَّتْ منَ الغَورِ وأكنافِ الرَّسِي من عُشُبٍ أحوى وحَمضٍ مُورِسِ[٢٣]
وذائدٍ جَلْدِ العَصا وكَهْمَسِ إنْ قِيلَ قُمْ قامَ وإنْ قِيلَ اجلِسِ[٢٤]
داسَت سِماطَي عَفَرٍ مُدعَّسِ[٢٥]

ويدل على شدة قتالهم بالعصا قول بَشامة بن حَزْن النَّهشَلي:[٢٦]

---

[٢١] حل: كلمة تُزجر بها الإبل، فيُقال لها: حل حل.

[٢٢] بزل وسدس، البزل: جمع بازل، وهو البعير في تاسع سِنيه، وليس بعده سنٌّ تُسمَّى. والسدس: البعير قبل أن يبزل. المسيم: هنا بمعنى المبتاع. المرغس: الناعم الرافه.

[٢٣] الغور: كل ما انخفض من الأرض. الرسي: العمود الثابت وسط الخباء، كذا عرَّفه الفيروزآبادي، ولا أدري ما علاقة ذلك العمود بما يؤدي إليه معنى البيت.

[٢٤] الكهمس: القبيح الوجه.

[٢٥] سماطي عفر: جانبَي طريق. مدعس: كثير الآثار.

[٢٦] بشامة بن حزن النهشلي: لم نعثر له على ترجمة فيما بين أيدينا من كُتُب، حتى البغدادي في كتابه خِزانة الأدب يقول إنه لم يرَ له ترجمة في كُتُب الأنساب. ولعله من شعراء الإسلام. وهو صاحب القصيدة التي اختارها أبو تمَّام في حماسته، وقال إنها لبعض بني قيس بن ثعلبة، والتي أولها:

إنَّا مُحَيُّوكِ يا سَلْمى فحَيِّينا وإنْ سقَيتِ كِرامَ الناسِ فاسْقِينا
وإنْ دَعَوتِ إلى جُلَّى ومَكرُمةٍ يومًا سَراةً كِرامَ النَّاسِ فادْعِينا
إنَّا بَني نَهشَلٍ لا ندَّعي لأبٍ عنه ولا هو بالأبناءِ يَشْرِينا

... إلخ.

فِدًى لِرِعاءٍ بالبُحَيرةِ دبَّبُوا بأعصِيهمُ والماءُ بَردُ المَشارِبِ[٢٧]
وآلى نُعَيمٌ لا تَجُوزُ بحَوضِه فقلتُ تَحلَّلْ يا نُعَيمُ بنَ قارِبِ
فإنَّ زيادًا لم يَكُنْ لِيَرُدَّها وسَبْرةَ عن ماءِ النَّضيحِ المُقارِبِ
أغرَّكَ أنْ جاءت ظِماءً وباشَرَت بأعناقِها بَرْدَ النِّصابِ الصُّباصِبِ؟[٢٨]
تَناوَلنَ ما في الحَوضِ ثم امتذَينَه بجِذعٍ وأعناقٍ طِوالِ الذوائبِ[٢٩]

ويقولون: فلان ضعيف العصا، إذا كان لا يستعمل عصاه؛ ولذلك قال البَعيث:

وأنتَ بِذاتِ السِّدرِ من أُمِّ سالمٍ ضعيفُ العصا مُستضعَفٌ مُتهضَّمُ

وقال الآخر:

وما صادياتٌ حُمْنَ يومًا وليلةً على الماءِ يَخشَينَ العِصِيَّ حَوانِ
لَوائبُ لا يَصدُرنَ عنه بوجهةٍ ولا هنَّ من بَردِ الحِياضِ دَوانِ[٣٠]
يَرَينَ حَبابَ الماءِ والموتُ دُونَه فهُنَّ لأصواتِ السُّقاةِ رَوانِ
بأوجَعَ منِّي جُهْدَ شَوقٍ وغُلَّةٍ إليكِ ولكنَّ العَدُوَّ عَداني

وقال الآخر:

فما وَجدُ مِلْواحٍ من الهِيمِ حُلِّئَت عنِ الماءِ حتى جَوفُها يَتصلصَلُ[٣١]
تَحُومُ وتَغْشاها العِصِيُّ وحَوْلَها أقاطِعُ أنعامٍ تَعِلُّ وتَنهَلُ
بأعظَمَ منِّي غُلَّةً وتَعطُّفًا إلى الوِردِ إلَّا أنَّني أتَجمَّلُ

---

[٢٧] دببوا: منعوا وردوا.
[٢٨] النصاب: أصل الحوض. الصباصب: ما بقي فيه من ماء.
[٢٩] امتذينه: تركن ماءه يسيل من صنبوره.
[٣٠] لوائب: عِطاش يَحُمن حول الماء ولا يصلن إليه.
[٣١] الملواح: الشديد الظمأ. الهيم: النوق العطاش. حلئت: مُنعت من الورود. يتصلصل: يعني أنه لجفافه من الماء كان له صلصال، وهو صوت الطين الجاف.

ويقال: ضُرِب فلانٌ ضرب غرائب الإبل. وهي تُضرب عند الهرب، وعند الخِلاط، وعند الحوض، أشد الضرب. وقال الحارث بن صخر:

بِضَربٍ يُزيلُ الهامَ عن سَكَناتِه كما ذِيدَ عن ماءِ الحِياضِ الغَرائبُ

وقال الآخر:

لِلْهامِ ضرَّابونَ بالمَناصِلِ ضَرْبَ المُذِيدِ غُرَبَ النَّواهِلِ[٣٢]

وقال ابن أحمر:

رَودُ الشَّبابِ كأنَّها غُصْنُ بحَرامِ مكَّةَ ناعمٌ نَضْرُ

وقال الآخر:

إما تَرَيني قائمًا في جلِّ جمِّ الفُتوقِ خَلَقٍ هِمِلِّ
مُحاذِرًا أُبغِض عن تَحتلِّ عندَ اعتلالِ دَهرِك المُعتلِّ
فقد أرى في اليَلمَقِ الرِّفَلِّ أصوَنَ للأُنسِ جميلَ الدَّلِّ[٣٣]
لُدنًا كخُوطِ البانةِ المُبتلِّ

وتكون العصا مِحراثًا، وتكون مِخصرة، وتكون المِخصرة قضيب حبرة وعود ساجور، ثم تكون تَودية. وُيقال للرجل إذا كانت فيه أُبنة: فلانٌ يَخبأ العصا. وقال الشاعر:

زوجُكِ زوجٌ صالحٌ لكنَّه يَخْبا العصا

وفي الأمثال: تحذفه بالقول كما تحذف الأرنب بالعصا. وقال إياس بن قتادة العَبشمي:

سأنحَرُ أُولاها وأحذِفُ بالعصا على إثْرِها إنِّي لِما قلتُ عازِمُ

---

[٣٢] المذيد: الدافع المانع.

[٣٣] اليلمق الرفل: القباء الواسع.

قال ابن كُناسة في شرط الراعي على صاحب الإبل: ليس لك أن تذكُر أمي بخير ولا شر، ولك حذفي بالعصا عند غضبك، أصبتَ أم أخطأت، ولي مَقعدي من النار، وموضع يدي من الحارِّ والقار، كان العتبي يحدِّث في هذا بحديثين: أحدهما قوله عن الأعرابي: وكان إذا خرست والقار. كان العُتبي يحدِّث في هذا بحديثَين؛ أحدهما قوله عن الأعرابي: وكان إذا خرست الألسُن عن الرأي حذف بالصواب كما تحذف الأرنب بالعصا. وأما الحديث الآخر فذكر أن قومًا أضلوا الطريق، فاستأجروا أعرابيًّا يدلهم على الطريق، فقال: إني والله لا قومًا أضلُّوا الطريق، فاستأجروا أعرابيًّا يدلُّهم على الطريق، فقال: إني والله لا أخرج معكم حتى أشرط لكم وأشرط عليكم. قالوا: فهاتِ ما لك. قال: يدي مع أيديكم في الحارِّ والقار، ولي موضعي من النار موسَّع عليَّ ما فيه، وذِكر والدي عليكم محرَّم. قالوا: فهذا لك، فما لنا عليك إن أذنبت؟ قال: إعراضة لا تؤدي إلى تعب وعتب، وهجرة لا تمنع من مجامعة السُّفرة. قالوا: فإن لم تعتب؟ قال: فحذفة بالعصا أخطأت أم أصابت. وهذان الحديثان لم أسمعهما من عالِم، وإنما قرأتهما في بعض الكُتب من المُستحدَثين.

ولأهل المدينة عِصيٌّ في رءوسها عُجَر لا تكاد أكفُّهم تُفارقها إذا خرجوا إلى ضِياعهم ومتنزهاتهم، ولهم فيها أحاديث حسنة وأخبار طيِّبة.

وكان الأفشين[٣٤] يقول: إذا ظفِرت بالعرب شدخت رءوس عُظمائهم بالدَّبُّوس. والدبوس شبيه بهذه العصا التي في رأسها عُجرة. وقال جَحشويه:

يا رَجلًا هامَ بلبَّادِ   مُعتدِلٍ كالغُصنِ ميَّادِ
هامَ به غسَّانُ لمَّا رأى   أيْرًا له مِثلَ عصا الحادي

[٣٤] الأفشين: هو خيذر بن كاوس. كان من أكابر قُواد المعتصم وفُحول شُجعانه. قيل إن أصله من سلالة ملوك فارس. ولَّاه المعتصم المشرق، ووجَّهه لحرب بابك الخرمي بعد أن استفحل أمره، واستشرى شره، وصار خطرًا يتهدد الدولة، وبعد أن هزم جيوش السلطان مِرارًا عدة، وقتل من القواد جماعة لا يُستهان بشأنهم. فلما انتدب له الأفشين صمد له وقاوَمه أشد مقاومة، وما زال به يضيِّق عليه، وبابك ينهزم بين يدَيه بالرغم من جيوشه التي لا عد لها ولا حصر، حتى ألجأه الأفشين إلى مدينته البذ، فلما ضاق أمره خرج هاربًا بأهله إلى بلاد الروم في زي التُّجار، فعرفه بعض البطارقة، فأسره وبعث به إلى الأفشين، فحمله الأفشين إلى المعتصم، فقطَّعه وصلبه وانتهى أمره. وبهذا عَظُم شأن الأفشين وكبر خطره، ثم علِم المعتصم من أمره ما أحفظه عليه؛ لأنه كشف عليه أنه يُحاول قلب الدولة ويُكاتب

ولم يَزَلْ يَهْوى أبو مالكٍ   كلَّ فتًى كالغُصنِ مُنآدِ
يُعجِبُه كلُّ مَتِينِ القُوى   للطَّعنِ في الأدبارِ مُعتادِ

وقالوا: تغمض الناقة عينها كي تركب العصا إلى الحوض. وهو في معنى قول أبي النجم:

تَخْشى العصا والزَّجرَ إنْ قِيلَ حَلِ   يُرسِلُها التغميضُ إنْ لم تُرسَلِ

وهذا مِثل قول الهُذلي:

ولأنتَ أشجَعُ من أُسامةَ إذ   شدُّوا المَناطقَ فوقَها الحَلَقُ
حدُّ السُّيوفِ على عواتِقِهم   وعلى الأكُفِّ ودُونَها الدَّرَقُ
كَغَماغِمِ الثِّيرانِ بيْنَهمُ   ضَربٌ تُغمَّضُ دُونَه الحَدَقُ

وقال حُميد بن ثَور الهِلالي:

اليومَ تُنتزَعُ العصا من ربِّها   ويَلُوكُ ثِنْيَ لِسانِه المِنْطيقُ

يقال: رجل كالقناة، وفرس كالقناة. وقال الشاعر:

متى ما يَجيءُ يومًا إلى المالِ وارِثي   يَجِدْ جَمْعَ كفٍّ غيرِ مَلْأى ولا صِفْرِ
يَجِدْ فَرَسًا مِثلَ القَناةِ وصارمًا   حُسامًا إذا ما هزَّ لم يَرْضَ بالهَبْرِ

وجاء في الحديث: أجدبت الأرض على عهد عمر، رضي الله تعالى عنه، حتى ألقت الرِّعاء العِصي، وعُطِّلت النَّعَم، وكُسِر العظم، فقال كعب: يا أمير المؤمنين، إن بني إسرائيل كانوا إذا أصابتهم السَّنة استسقَوا بعُصبة الأنبياء. فكان ذلك سبب استسقائه بالعبَّاس بن عبد المطلب.

المازيار يحسِّن له الخلاف والعِصيان. وبعد تحرِّي أمره وكشف خبيئته، قبض عليه المعتصم وقتله، ثم صلبه على خشبة بابك، ووجده لا يزال بقلفته لم يُختن، ووجد في بيته أصنامًا أحرقوه بها، وكان ذلك في سنة ٢٢٦هـ/ ٨٤٠م.

وساوَرَت حيَّة أعرابيًّا فضربها بعصاه وسَلِم منها، فقال:

لولا الهَراوةُ والكفَّانِ أنهَلَني حَوْضَ المَنيَّةِ قتَّالٌ لمَن ورَدا

وقال الآخر:

دعا ابنُ مُطِيعٍ للبِياعِ فجئتُه إلى بَيعةٍ قلبي لها غيرُ آلِفِ
فناوَلَني خَشْناءَ لمَّا لَمَستُها بكفِّيَ ليست من أكُفِّ الخلائفِ
من الشَّثِناتِ الكُزْمِ أنكَرتُ لَمْسَها وليستْ منَ البِيضِ الرِّقاقِ اللَّطائفِ
مُعاوِدةً حَمْلَ الهَراوى لقَومِها فَرُورًا إذا ما كانَ يومُ التَّنائفِ

وقال الحجَّاج بن يوسف لأنس بن مالك: والله لأقلعنَّك قَلْع الصمغة، ولأعصبنَّك عَصْب السَّلمة، ولأجرِّدنَّك تجريد الضب. وقال عمر رضي الله تعالى عنه لأبي مريم الحنفي: والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح.

لأن الأرض لا تقبل الدم، فإذا جف الدم تقلَّع جُلَبًا.

ولقد أسرف المتلمِّس حيث يقول:

أحارِثُ إنَّا لو تُساطُ دِماؤُنا تَزايَلنَ حتى لا يَمَسَّ دمٌ دَما

وأَشَدُّ سَرفًا منه قول أبي بكر الشَّيباني، قال: كنت أسيرًا مع بني عم لي من بني شيبان، وفينا من مَوالينا جماعة في أيدي التغالبة، فضربوا أعناق بني عمي وأعناق الموالي على وَهدة من الأرض، فكنت والذي لا إله إلا هو أرى دم العربي ينماز من دم الموالي حتى أرى بياض الأرض بينهما، فإذا كان هجينًا قام فوقه ولم يعتزل. وأنشد الأصمعي:

يُذَدنَ وقد أُلِقيتَ في قَعرِ حُفرةٍ كما ذِيدَ عن حَوضِ العِراكِ غَرائبُه

وقال العبَّاس بن مِرداس:

نُقاتِلُ عن أحسابِنا برِماحِنا فنَضرِبُهم ضَرْبَ المُذِيدِ الخَوامِسا

وقال الفرزدق بن غالب:

ذكَرتُ وقد كادت عصا البَينِ تَنشَظي خيالَك من سَلْمى وذو اللُّبِّ ذاكِرُ

وقال الأسدي:

إذا المرءُ أولاكَ الهَوانَ فأَوْلِه هَوانًا وإنْ كانت قريبًا أواصِرُه
ولا تَظلِمِ المَولى ولا تَضَعِ العصا على الجهلِ إنْ طارت إليكَ بَوادِرُه

وقال جرير بن عطيَّة:

ألا رُبَّ مَصلوبٍ حمَلتُ على العصا وبابُ اسْتِه عن مِنبَرِ المُلْكِ زائلُ

وقالوا في مديح العصا نفسها مع الأغصان وكرم جوهر العِصي والقِسي:

إذا قامت لسَبْحتِها تَثنَّت كأنَّ عِظامَها من خَيزُرانِ

وقال المؤمَّل بن أُمَيل:

والقومُ كالعِيدانِ يَفضُلُ بَعضُهم بَعضًا كذاك يَفُوقُ عُودٌ عُودا
لو تستطيعُ عنِ القضاءِ حِيادةً وعنِ المَنيَّةِ أنْ تُصِيبَ مَجِيدا
كانت تُقيِّدُ حينَ تَنزِلُ مَنزِلًا فالآنَ صارَ لها الكَلالُ قُيُودا

وقال آخر:

وأَسْلَمَها الباكون إلَّا حَمامةً مُطوَّقةً وَرْقاءَ بانَ قرينُها
تُجاوِبُها أخرى على خَيزُرانةٍ يَكادُ يُدنِّيها من الأرضِ لِينُها

وقال الآخر:

ألا أيُّها الرَّكبُ المُخِبُّونَ هل لكم بأُختِ بَني هِندٍ عُتيبةَ من عَهدِ
أألَقتْ عَصاها واستقرَّت بها النَّوى بأرضِ بني قابوسَ أم ظعَنَت بَعْدي

وقال الآخر:

ألا هتَفَت وَرْقاءُ في رَونَقِ الضُّحى على غُصُنٍ غَضِّ النَّباتِ من الرَّندِ

وقال آخر في امرأةٍ رآها في شارة وبِزَّة، فظنَّ بها جمالًا، فلما سفرت إذا هي غول، فقال:

وأظـهَـرَهـا ربِّـي بـمَـنٍّ وقُـدرةٍ علـيَّ ولولا ذاك مُتُّ منَ الكَربِ
فلمَّا بَدَت سبَّحتُ من قُبحِ وَجهِها وقلتُ لها الساجورُ خيرٌ من الكَلبِ

وقال النبي ﷺ: «يؤتى بقوم من هنا يُقادون إلى حظوظهم في السواجير.» والساجور يُسمَّى «الزَّمَّارة». قالوا: وفي الحديث: فأُتيَ الحجَّاج بسعيد بن جُبير وفي عنقه زمَّارة. وقال بعض المسجَّنين:

ولـي مِـسـمَـعـانِ وزَمَّـارةٌ وظلٌّ مَديدٌ وحِصنٌ أمَقْ
وكم عـائدٍ لـي وكم زائرٍ لوَ ابْصَرَني زائرًا قد شَهَقْ

المسمعان: القيدان. وسمَّى الغل الذي في عنقه زمارة. وأما قول الوليد:

اسقِني يا زُبَيرُ بالقَرقارةْ قد ظَمِينا وحنَّتِ الزَّمَّارةْ
اسقِني اسقِني فإنَّ ذُنوبي قد أحاطت فما لها كفَّارةْ

فالزمارة ها هنا المِزمار. وقال أيضًا صاحب الزمارة في صفة السجن:

فـبِـتُّ بـأحـصَـنِـهـا مَـنـزِلًا ثقيلًا على عُنُقِ السَّـالكِ
ولستُ بضَيفٍ ولا في كِرًا ولا مُـسـتـعـيـرٍ ولا مـالـكِ
ولا مِـسـمَـعـانِ فـأدنـاهـمـا يُغنِّي ويُمسِكُ في الحالكِ
وليسَ بغَصبٍ ولا كالرُّهُونِ ولا يُشبِهُ الوقفَ عن هالكِ
وأقصاهما ناظرٌ في السماءِ عـمـدًا وأرسَـخُ مـن عـاركِ

المسمعان ها هنا أحدهما قيده، والآخر صاحب الجرس.

أخبرني الكلابي قال: قاتلت بنو عم لي بعضهم بعضًا، فجعل بعضهم ينضمُّ إلى بعض لواذًا مني، وليس لي في ذلك هِجِّير إلا قولي:

قد جعَلَت تأوي إلى جُثمانِها وكِرسِها العاديِّ من أعطانِها

فلما طلبوا القِصاص، قلت: دونكم يا بني عمي حقَّكم؛ فنحن اللحم وأنتم الشَّفرة، إن وهبتم شكرتُ، وإن اعتقلتم عقلت، وإن اقتصصتم صبرت.

قال: سألت يونس عن قوله: ﴿نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾. قال: تقول العرب إذا ارتحلوا عن المنزل ينزلونه: انظروا إلى أنسائكم. وهي العصا، والقَدَح، والشِّظاظ، والحبل. قال: فقلت: إني ظننت أن هذه الأشياء لا ينساها أربابها إلا لأنها أهوَن المتاع عليهم. قال: ليس ذلك كذلك، والمتاع الجافي يذكِّر بنفسه، وصغار المتاع تذهب عنها العيون، وإنما تذهب نفوس العامَّة إلى حِفظ كل شيء ثمين وإن صغُر جسمه، ولا يقفون على أقدار فوت الماعون عند الحاجة وفقد المحلات في الأسفار. وقال يونس: المنسيُّ ما تَقادم العهد به ونُسي حينًا لهوانه، ولم تكن مريم لتضرب المثل في هذا الموضع بالأشياء النفيسة التي الحاجة إليها أعظم من الحاجة إلى الشيء الثمين في الأسواق. وقال الأشهب بن رُميلة أو نَهشَل بن حري:

قال الأقاربُ لا تَغرُركَ كَثرتُنا ... وأغْنِ نَفْسَك عنَّا أيُّها الرَّجُلُ
عَلَّ بَنيَّ يَشُدُّ اللهُ أعظُمَهم ... والنَّبعُ يَنبُتُ قُضبانًا فيَكتهِلُ

وكان فرس الأخنس بن شهاب يُسمَّى «العصا»، والأخنس «فارس العصا». وكان لجَذيمة الأبرش فَرسٌ يُقال لها «العصا». ولبني جعفر بن كلاب «شحمة» و«الغدير» و«العصا»؛ فشحمة فرس جزء بن خالد، والعصا فرس عوف بن الأحوص، والغدير فرس شُريح بن الأحوص، و«العصا» أيضًا فرس شبيب بن كعب الطائي. وقال بعضهم أو بعض خطبائهم:

وليس عصاه من عَراجينِ نَخلةٍ ... ولا ذاتِ سَيرٍ من عِصيِّ المُسافِرِ
ولكنَّها إمَّا سألتَ فنَبْعةٌ ... وميراثُ شَيخٍ من جِيادِ المَخاصِرِ

والرجل يتمنَّى إذا لم تكُن له قوة وهو يجد مس العجز، فيقول: لو كان في العصا سير. وكذلك قال حبيب بن أوس:

ما لك من هِمَّةٍ وعَزمٍ ... لو أنَّه في عَصاكَ سَيرُ
رُبَّ قليلٍ حدا كثيرًا ... كم مَطرٍ بَدوُه مُطَيرُ
صَبرًا على النائباتِ صَبرًا ... ما فَعَلَ اللهُ فهْوَ خَيرُ

وإذا لم يجعل المُسافر في عصاه سيرًا سقطت من يده إذا نعس.

وسئل عن قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾. قال: لست أحيط بجميع مآرب موسى عليه السلام، ولكني سأنبئكم جُملًا تدخل في باب الحاجة إلى العصا؛ من ذلك أنها تُحمَل للحيَّة، والعقرب، والذئب، والفحل الهائج، ولعير العانة في زمن هيج الفحول، وكذلك فحول الجحور في المروج، ويتوكَّأ عليها الكبير الدانف، والسقيم المُدنف، والأقطع الرِّجل، والأعرج، فإنها تقوم مقام رجل أخرى. وقال أعرابيٌّ مقطوع الرِّجل:

اللهُ يَعلَمُ أنِّي من رِجالِهِمُ وإنْ تَخدَّدَ عن مَتنَيَّ أطْماري
وإنْ رُزئتُ يدًا كانت تُجمِّلُني وإنْ مشَيتُ على زُجٍّ ومِسمارِ

والعصا تنوب للأعمى عن قائده، وهي للقصَّار والفاشكار والدَّباغ، ومنها المِفأد للمَلَّة[٣٥] ومِحراك للتنُّور. قال الشاعر:

إذا كانَ ضربُ الخُبزِ مَسحًا بخِرقةٍ وأُخـمِـدَ دُونَ الـطَّـارِقِ الـتَّـنُّـورُ

كأنه يكره أن ينفض عنها الرماد بعصًا، فيستدل على أنه قد أنضج خبزته. يصفه بالبخل.

وهي لدقِّ الجصِّ والجِبسين[٣٦] والسمسم. قال الشمَّاخ بن ضِرار:

وجَرُّ شِواءٍ بالعصا غيرِ مُنضَجِ

ولخبط الشجر، وللفَيج وللمُكاري، فإنهما يتَّخذان المخاصر؛ فإذا طال الشَّوط وبعدت الغاية استعانا في حُضْرهما وهَرولتهما في أضعاف ذلك بالاعتماد على وجه الأرض. وهي تعدِّل من ميل المفلوج، وتقيم من ارتعاش المُبرسَم، ويتَّخذها الراعي لغنمه، وكل راكب لَمركبه، ويُدخل عصاه في عُروة المِزود، ويُمسك بيده الطرف الآخر، وربما كان أحد طرفَيها بيد رجل والطرف الآخر بيد صاحبه وعليها حِملٌ ثقيل. وتكون إن شئت وتِدًا في حائط، وإن شئت ركَزتها في الفضاء وجعلتها قِبلة، وإن شئت جعلتها مِظلة، وإن جعلت فيها زُجًّا كانت عَنَزة، وإن زِدت فيها شيئًا كانت عُكَّازًا، وإن زدت فيها شيئًا كانت مِطردًا، وإن زدت فيها شيئًا كانت رمحًا. والعصا تكون سوطًا وسلاحًا.

---

[٣٥] المفأد للملة: المحراك للرماد الحار.

[٣٦] والجبسين، في الأصل: والجبين، وليس هذا مكانه، وإنما هو الجبسين كما أثبتناه.

وكان رسول الله ﷺ يخطب بالقضيب، وكفى بذلك دليلًا على عِظم غَنائها وشرف حالها؛ وعلى ذلك الخُلفاء وكُبراء العرب من الخطباء.

وقد كان مروان بن محمد حين أُحيطَ به دفع البُرد والقضيب إلى خادم، وأمره أن يدفنهما في بعض تلك الرمال، ودفع إليه بنتًا له وأمره أن يضرب عنقها، فلما أُخِذ الخادم في الأسرى قال: إن قتلتموني ضاع ميراث النبي ﷺ، فأمَّنوه على أن يُسلِّم ذلك لهم.

وقال في صفة قناة:

وأسمَرُ عانِقٌ فيه سِنانٌ ... شُراعيٌّ كساطعةِ الشُّعاعِ

وقال آخر:

هَونةٌ في العِنانِ تَهتزُّ فيه ... كاهتزازِ القناةِ تحتَ العُقابِ

ومما يجوز في العصا قول الشاعر:

لِلْهامِ ضرَّابونَ بالمَناصِلِ ... ضَرْبَ المُذِيدِ غُرَبَ النَّواهلِ

وقال عبَّاس بن مِرداس:

نُطاعِنُ عن أحسابِنا بِرماحِنا ... ونَضرِبُهم ضَرْبَ المُذِيدِ الخَوامِسا

وقال آخر:

دافَعَ عنها جَلَبيٌّ وَحْشِي ... فهْو كَعُودِ النَّبْعةِ الأجَشِّ

وقال نُصَيب الأسود:

ومن يُبقِ مالًا عُدَّةً وصِيانةً ... فلا الدَّهرُ مُبقِيه ولا الشُّحُ وافِرُه
ومن يَكُ ذا عُودٍ صَليبٍ يُعِدُّه ... ليَكسِرَ عُودَ الدَّهرِ فالدَّهرُ كاسِرُه

وقال آخر:

تَخيَّرتُ من نَعْمانَ عُودَ أراكةٍ ... لِهندٍ ولكنْ مَن يُبلِّغُه هِندا

خَليليَّ عُوجا بارَكَ اللهُ فيكما وإنْ لم تَكُنْ هندٌ لأرضِكِما قَصْدا
وقُولا لها ليس الضَّلالُ أجارَنا ولكنَّنا جُرْنا لنَلْقاكمُ عَمْدا

وقال الآخر:

وتلك ثيابي لم تُدَنَّسْ بغَدْرةٍ ووَرْيُ زِنادي في ذُرى المَجدِ ثاقبُ
ولو صادَفَت عُودًا سِوى عُودِ نَبْعةٍ وهَيهاتَ أفنَتْه الخُطوبُ النَّوائبُ

وقال الآخر:

عصا شِرْيانةٍ دُهِنَت بِزُبدٍ تَدُقُّ عِظامَه عَظمًا فعَظْما

وليس هذا مِثل قول لقيط بن زُرارة:

إذا دهَنوا رِماحَهمُ بزَيتٍ فإنَّ رِماح تَيمٍ لا تَضِيرُ

وقال صالح بن عبد القُدُّوس:

لا تَدخُلَنْ بِنَميمةٍ بينَ العصا ولِحائِها

وقال شِبل بن معبد البَجَلي:

بَرَتْني صُروفُ الدَّهرِ من كلِّ جانبٍ كما يَنْبري دُونَ اللِّحاءِ عَسِيبُ

وقال أوس بن حجر:

لَحَوتُهم لَحْوَ العَصا فطَرَدتُهم إلى سَنةٍ جُرْذانُها لم تَحلَّمِ

وقال الرَّقاشي في صفة القناة التي تُبرى منها القِسي:

من شُقَقٍ خُضْرٍ بِرُوصِيَّاتِ صُفْرِ اللِّحاءِ وحَلُوفِيَّاتِ
جُدِلْنَ حتَّى إضْنَ كالحيَّاتِ وشائقًا غيرَ مؤَبَّناتِ
آنَقَهنَّ مُتمطِّراتِ عمرُو بنُ عُصفورٍ على استثباتِ

وقال محمد بن يسير:

ومُشمِّرينَ عن السَّواعِدِ حُسَّر عنها بكلِّ دقيقةِ التَّوتيرِ
ليس الذي تَشْوي يَداه رميَّةً فيهم بمُعتذِرٍ ولا معذورِ
عُطُفِ السِّياتِ مَوانعٍ في عَطفِها تُعْزى إذا نُسِبَت إلى عُصفورِ

ذهب إلى قوله:

في كفِّه مُعطِيةٌ مَنُوعُ

وهذا مِثل قوله:

خَرْقاءُ إلَّا أنَّها صَنَاعُ

وهذا مِثل قوله:

غادَرَ داءً ونَجا صحيحا

ومِثل قوله:

حتى نجا من جَوفِه وما نجا

وإذا طال قيام الخطيب صار فيه انحناء وجَنأ. وقال الأسدي:

أنا ابنُ الخالِدَينِ إذا تَلاقى من الأيَّام يومٌ ذو ضَجَاجِ
كأنَّ اللُّعبَ والخُطباءَ فيه قِسِيُّ مُثقَّفٍ ذاتُ اعوِجاجِ

وعلى هذا قال الشمَّاخ بن ضِرار:

فأضْحَت تَفالى بالسِّتارِ كأنَّها رِماحٌ نَحاها وِجهةَ الرِّيحِ راكِزُ

وقال العُماني:

عاتٍ يرى ضَرْبَ الرِّجالِ مَغنَما إذا رأى مُصدِّقًا تَجهَّما
وهزَّ في الكفِّ وأبدى مِعصَما هَراوةً بنَبْعةٍ أو سَلَما
تَترُكُ ما رامَ رُفاتًا رِمَما

وقال أميَّة بن الأشكر:

هلَّا سألتِ بِنا إنْ كنتِ جاهلةً ... ففي السؤالِ من الإعياءِ شافِيها
تُخبِرْكِ عنَّا مَعَدٌّ إنْ هُمُ صدَقوا ... ومن قبائلِ نَجْرانٍ يَمانِيها
وبالجِيادِ نَجُرُّ الخيلَ عابسةً ... كأنَّ مَذرُورَ مِلْحٍ في هَوادِيها
قومٌ إذا فَزَعُ الأقوامِ طافَ بهم ... ألْقى العِصِيَّ عِصِيَّ الجَهلِ بارِيها

قال: والرجل إذا لم يكن معه عصًا فهو «باهل»، و«ناقة باهل وباهلة» إذا كانت بغير صِرار. وقال الراجز:

أبْهَلَها ذا يدِها وسبَّحا ... ودقَّتِ المَركُوَّ حتَّى ابْلَندَحا

احتجنا إلى أن نذكُر ارتفاق بعض الشعراء من العُرجان بالعِصي عند ذكر العصا وتصرُّفها في المنافع، والذي نحن ذاكِروه من ذلك في هذا الموضع قليل من كثير مما ذكرناه في كتاب «العرجان»، فإن أردتموه فهو هناك موجود إن شاء الله تعالى.

قالوا: ولما شاع هجاء الحَكَم بن عبدل الأسدي لمحمد بن حسَّان بن سعد وغيره من الوُلاة والوجوه، هابَه أهل الكوفة، واتَّقى لسانَه الصغيرُ والكبير. وكان الحَكم أعرج لا تُفارقه عصاه، فترك الوقوف بأبوابهم، وصار يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسوله فلا يُحبس له رسول، ولا يؤخَّر لقراءة الكتاب، ثم تأتيه الحاجة على أكثر مما قدَّر، وأوفر مما أمَّل؛ فقال يحيى بن نَوفل:

عَصا حَكَمٍ في الدَّارِ أوَّلُ داخِلٍ ... ونحنُ على الأبوابِ نُقْصى ونُحجَبُ

وأما قول بِشر بن أبي خازم:

للهِ دَرُّ بَنِي حدَّاءَ من نَفَرٍ ... وكلُّ جارٍ على جِيرانِه كَلِبُ
إذا غدَوا وعِصِيُّ الطَّلحِ أرجُلُهم ... كما تُنصَّبُ وَسْطَ البِيعةِ الصُّلُبُ

وإنما يعني أنهم كانوا عُرجانًا، فأرجلهم كعصي الطلح، وعصي الطلح معوَجَّة، وكذلك قال مَعْدان الأعمى في قصيدته الطويلة التي وصف فيها الغالية والرافضة والتميمية والزيدية:

والذي طفَّفَ الجِدارَ من الذُّعـ ... ـرِ وقد باتَ قاسِمَ الأنفالِ
فغَدا خامِعًا بوَجهٍ هشيمٍ ... وبِساقٍ كعُودِ طَلْحٍ بالِ

وقال بعض العُرجان ممن جعل العصا رِجلًا:

ما للكَواعِبِ يا دَهماءُ قد جعَلَت ... تَزوَرُّ عنِّي وتُلْقى دُونِيَ الخُمُرُ
لا أسمَعُ الصَّوتَ حتَّى أستديرَ له ... ليلًا طويلًا يُناغِيني له القَمَرُ

وقال رجل من بني عِجل:

وشى بِيَ واشٍ عندَ ليلى سَفاهةً ... فقالت له ليلى مَقالةَ ذي عَقْلِ
وخبَّرَها أنِّي عرَجتُ فلم تَكُنْ ... كوَرْهاءَ تَجترُّ المَلامةَ للبَعلِ
وما بِيَ من عَيبِ الفتى غيْرَ أنَّني ... جعلتُ العصا رِجلًا أُقِيمُ بها رِجْلي

وقال أبو ضبَّة في رِجله:

وقد جعَلتُ إذا ما نِمتُ أوجَعَني ... ظَهْري وقمتُ قِيامَ الشارفِ الظِّهْري
وكنتُ أمشي على رِجلَينِ مُعتدِلًا ... فصِرتُ أمشي على رِجلٍ منَ الشَّجرِ

وقال أعرابي من بني تميم:

وما بِيَ من عَيبِ الفتى غيْرَ أنَّني ... أَلِفتُ قَناتي حينَ أوجَعَني ظَهْري

قال: ودخل الحكَم بن عبدل الأسدي وهو أعرج على عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وهو أعرج، وكان صاحب شُرَطه أعرج، فقال ابن عبدل:

أَلْقِ العصا ودَعِ التَّخادُعَ والتَمِسْ ... عَملًا فهَذِي دولةُ العُرجانِ
لأميرِنا وأميرِ شُرطتِنا معًا ... لكِلَيهما يا قَوْمَنا رِجْلانِ
فإذا يكونُ أميرُنا ووزيرُنا ... وأنا فإنَّ الرابعَ الشيطانُ

ومما يدلك على أن للعصا مَوقعًا منهم، وأنها تدور مع أكثر أمورهم، قول مزرِّد بن ضِرار:

فجاءَ على بَكرٍ ثَفالٍ يَكُدُّه ... عَصاه استُه وَحْيَ العجابةِ بالفِهرِ

ويقولون: اعتصى بالسيف، إذا جعل السيف عصًا، وإنما اشتقوا للسيف اسمًا من العصا لأن عامَّة المواضع التي تصلح فيها السيوف تصلح فيها العصي، وليس كل موضع

تصلح فيه العصا يصلح فيه السيف. وقال الآخر:

ونحنُ صَدَعْنا هامَةَ ابنِ مُحرِّقٍ كذلك نَقضي بالسُّيوفِ الصَّوارمِ

وقال عمرو بن الإطنابة:

وفتًى يَضرِبُ الكتيبةَ بالسَّيـ ـفِ إذا كانتِ السُّيوفُ عِصِيًّا

وقال عمرو بن مُحرز:

نزَلوا إليهم والسيوفُ عِصِيُّهم وتَذكَّروا دِمَنًا لهم وذُحُولا

وقال الفرزدق بن غالب بن صَعصَعة:

إنَّ ابنَ يوسفَ محمودٌ خلائقُه سِيَّانِ مَعروفُه في النَّاسِ والمَطَرُ
هو الشِّهابُ الذي يُرْمى العَدُوُّ به والمَشرَفيُّ الذي تَعْصى به مُضَرُ

يقال: عَصِيَ بالسيف واعتصى به.
قال العُريان بن الأسود في ابن له مات:

ولقد تَحمِلُ المُشاةُ كريمًا ليِّنَ العُودِ ماجِدَ الأعراقِ
ذاكَ قَولي ولا كقَولِ نِساءٍ مُعوِلاتٍ يَبكِينَ للأوراقِ

وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه: إن البحر خَلقٌ عظيم، يركبه خَلقٌ صغير، كأنهم دود على عود. وقال واثلة السدوسي:

رأيتُكَ لمَّا شِبتَ أدرَكَكَ الذي يُصِيبُ سَراةَ الأزدِ حينَ تَشِيبُ
سَفاهةُ أحلامٍ وبُخلٌ بِنائلٍ وفيكَ لمَن عابَ المَزُونَ عُيوبُ
لقد صبَرَت للذُّلِّ أعوادُ مِنبَرٍ تقومُ عليها في يَدَيكِ قَضِيبُ
وقد أوحَشَت منهم رساتيقُ فارسٍ وفي المِصرِ دُورٌ جَمَّةٌ ودُروبُ

وأنشد الأصمعي:

أعدَدتُ للضِّيفانِ كَلبًا ضاريًا وهَراوةً مَجلُوزةً من أرزَنِ

ومَعاذِرًا كذِبًا ووَجهًا باسرًا وتشكِّيًا عضَّ الزمانِ الألزَنِ
وشَذاةَ مَرهوبِ الأذى قاذورةٍ خَشِنٍ جوانبُه دَلُوظٍ ضَيزَنِ
وبكفِّ مَحُبوكِ اليَدَينِ عنِ العُلا والباعِ مُسوَدِّ الذِّراعِ مُقَحزَنِ
وتَجنِّيًا لهم الذُّنوبَ وأتَّقي بغليظِ جِلدِ الوَجنتَينِ عَشوزَنِ

وقال جرير:

تَصِفُ السُّيوفَ وغَيرُكم يَعصِي بها يا ابنَ القُيونِ وذاك فِعلُ الصَّيقَلِ

وقال الراعي:

تَبِيتُ ورِجْلاها أذانانِ لِاسْتِها عصاها استُها حتى يَكِلَّ قَعُودُها

وقال أعرابي للحُطيئة: ما عندك يا راعي الغنم؟ قال: عَجْراء من سَلَم. قال: إني ضيف. قال: للضِّيفان أعددتُها. وقال الشمَّاخ بن ضِرار:

إلى بَقَرٍ فيهنَّ للعَينِ مَنظرٌ ومَلهًى لمَن يَلهُو بهنَّ أنِيقُ
رَعَينَ النَّدى حتَّى إذا وَقَدَ الحصا ولم يَبْقَ من نَوءِ السِّماكِ بُرُوقُ

وقال امرؤ القيس:

قُولا لِدُودانٍ عَبيدِ العصا ما غرَّكم بالأسدِ الباسِلِ

وقال علي بن الغدير:

وإذا رأيتَ المَرءَ يَشعَبُ أمْرَه شَعْبَ العصا ويُلِحُّ في العِصيانِ
فاعمِدْ لِمَا تَعلُو فما لك بالذي لا تَستطيعُ من الأمورِ يَدانِ

وقال الآخر:

وهَجْهاجةٍ لا يَملأُ اللَّيلُ صَدْرَه إذا النِّكسُ أغْضى طَرْفَه غيرَ أروَعِ
صحيحٍ بَرِيءِ العُودِ من كلِّ أُبْنةٍ وجمَّاعِ نَهبِ الخَيرِ في كلِّ مَجمَعِ

وقال مِسكين الدارمي:

تَسْمُو بأعناقٍ وتَحبِسُها　　　عنا عِصِيُّ الذَّادةِ العُجرُ

حَباب بن موسى، عن مُجالد، عن الشعبي، عن جرير بن قيس قال: قدِمتُ المدائن بعدما ضُرِب علي بن أبي طالب، كرَّم الله تعالى وجهه، فلقِيَني ابن السوداء، وهو ابن حرب، فقال لي: ما الخبر؟ فقلت: ضُرِب أمير المؤمنين ضربةً يموت الرجل من أيسَرَ منها، ويعيش من أشد منها. قال: لو جئتمونا بدماغه في مائة صرَّة لعلِمنا أنه لا يموت حتى يذودكم بعصاه. وقال الله تبارك وتعالى:﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾. وقال الشاعر:

رأيتُ الغانياتِ نَفَرنَ منِّي　　　نُفُورَ الوَحشِ من رامٍ مُفِيقِ
رأينَ تَغيُّري وأَردنَ لَدنًا　　　كغُصنِ البانِ ذي الفَنَنِ الوَرِيقِ

وقال أبو العتاهية:

عَرِيتُ منَ الشَّبابِ وكانَ غضًّا　　　كما يَعْرى من الوَرَقِ القَضِيبُ
ألا ليتَ الشَّبابَ يَعُودُ يومًا　　　فأُخبِرَه بما صَنَعَ المَشِيبُ

وقال الآخر:

فلئن عَمِرتُ لقد عَمِرتُ كأنَّني　　　غُصنٌ تُثنِّيه الرِّياحُ رَطِيبُ
وكذاك حقًّا من يُعمَّرْ يُبْلِه　　　كَرُّ الزَّمانِ عليه والتقليبُ
حتى يعودَ من البِلا وكأنَّه　　　في الكفِّ أَفوَقُ ناصِلٌ مَعصوبُ
مَرِطُ القِذاذِ فليسَ فيه مَصنعٌ　　　لا الرِّيشُ يَنفَعُه ولا التَّعقيبُ

وقال عُروة بن الورد:

أليسَ وَرائي أنْ أدِبَّ على العصا　　　فيأمَنَ أعدائي ويَسأَمَني أهلي؟

وأنشد:

عَصَوا لسُيوفِ الهندِ واعتركتْ بهم　　　بَراكاءُ مَوتٍ لا يَطِيرُ غُرابُها

وقال لبيد:

أليسَ وَرائي إنْ تَراخَتْ مَنيَّتي   لُزومُ العصا تُحْنى عليها الأصابعُ؟

وقال آخر:

نُقيمُ العصا ما كانَ فيها لُدُونةٌ   وتأبى العصا في يُبسِها أنْ تُقوَّما

وقال الآخر:

إنَّ الغُصونَ إذا قوَّمتَها اعتدلتْ   ولن تَلِينَ إذا قوَّمتَها الخُشُبُ

وقال جرير:

ما للفَرَزدقِ من عِزٍّ يَلُوذُ به   إلا بَنُو العمِّ في أيدِيهم الخَشَبُ
سِيروا بَنِي العمِّ فالأهوازُ مَنزِلُكم   ونَهرُ تِيرَى فما تَدرِيكم العَرَبُ

وقال جرير في هجائه بني حنيفة:

أبناءُ نَخْلٍ وحِيطانٍ ومَزرَعةٍ   سُيوفُهم خَشَبٌ فيها مَساحِيها
قَطعُ الدِّيارِ وسَقيُ النَّخلِ عادتُهم   قِدْمًا وما جاوزَت هذا مَساعِيها
لو قِيلَ أينَ هَوادي الخيلِ ما عَلِموا   قالوا لأعجازِها هذي هَوادِيها
أو قيلَ إنَّ حِمامَ المَوتِ آخِذُكم   أو تُلجِموا فَرسًا قامت بَواكِيها
لمَّا رأتْ خالدًا بالعِرضِ أهلَكَها   قَتلًا وأسلَمَها ما قالَ طاغِيها
دانتْ وأعطَت يدًا للسَّلْمِ طائعةً   من بعدِ ما كادَ سيفُ اللهِ يُفنِيها

وقال سلامة بن جَندَل:

كنَّا إذا ما أتانا صارِخٌ فَزِعٌ   كان الصُّراخُ له قَرْعَ الظَّنابيبِ

ويُقال للخطاب إذا كان مرغوبًا فيه كريمًا: ذاك الفحل الذي لا يُقرع أنفه؛ لأن الفحل اللئيم إذا هبَّ على الناقة الكريمة ضربوا وجهه بالعصا. وقال الآخر:

كأنَّها إذ رُفِعَت عَصاها   نَعامةٌ أوحَدَها رَألاها

وممن أضافوه إلى عصاه داودُ مَلكِينَ اليَشكُري، وقد كان ولِيَ شُرطة البصرة.

وجاء في الحديث أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه أفاض من جَمْع وهو يَحرش بعيره بِمحجَنه. وقال الأصمعي: المِحجَن: العصا المعوجَّة. وفي الحديث المرفوع «أنه طاف بالبيت يستلم الأركان بمِحجَنه ثم يجذبه إليه». يريد بذلك تحريكه.

وقال الراعي:

فألقى عصا طَلحٍ ونَعلًا كأنَّها جَناحُ السُّمانى رأسُها قد تَصوَّعا

والعصا أيضًا فرس شَبيب بن كُرَيب الطائي.

أبو الحسن، عن علي بن سليمان قال: كان شبيب بن كُريب الطائي يُصيب الطريق في خلافة علي بن أبي طالب، كرَّم الله تعالى وجهه، فبعث إليه أحمر بن شميط العِجلي وأخاه في فوارس، فهرب شبيب وقال:

ولمَّا أنْ رأيتُ ابنَي شميطٍ بسِكَّةِ طيِّءٍ والبابُ دُوني
تجلَّلتُ العصا وعلِمتُ أنِّي رَهينُ مُخيِّسٍ إنْ يَثقِفُوني[37]
ولو أنظَرتُهم شيئًا قليلًا لَساقُوني إلى شَيخٍ بَطِينِ[38]
شَدِيدِ مَجالِزِ الكفَّينِ صُلْبٍ على الحَدَثانِ مُجتمِعِ الشُّئونِ[39]

وقال النجاشي لأم كثير ابنة الصَّلت:

ولستُ بِهنديٍّ ولكنَّ ضَيْعةً على رَجُلٍ لو تَعلَمينَ مزيرِ
وأعجَبتِني للسَّوطِ والنَّوطِ والعَصا ولم تُعجِبيني خُلَّةً لأميرِ[40]

وقال أعشى بني ربيعة:[41]

وكانَ الخلائفُ بعدَ الرَّسُو لِ كلُّهمُ أُسوةً خاشِعا

[37] رهين مخيس: رهين سجن. والتخييس من صفات السجن، وهو التذليل.
[38] الشيخ البطين: هو علي بن أبي طالب، كرَّم الله وجهه، وكان يُوصف بكبر البطن.
[39] شديد مجالز الكفين: أصل الجلز الطَّي واللَّي والمد والنزع، والمعنى أنه قويُّ اليدين مُعتمل الكفين.
[40] الخلة: هنا بمعنى الزوجة.

شَهِيدَين من بعدِ صِدِّيقِهم وكانَ ابنُ صَخرٍ هو الرَّابِعا[٤٢]
وكانَ ابنُه بعدَه خامسًا مُطِيعًا لمن قَبْلَه سامِعا[٤٣]
ومَرْوانُ سادِسُ مَن قد مضى وكانَ ابنُه بَعدَه سابِعا[٤٤]
وبِشرٌ يُدافِعُ عبدَ العزيزِ مضى ثامنًا ذا وذا تاسِعا
وأيُّهمُ ما يَكُنْ سائسًا لها لم يَكُنْ أمرُها ضائِعا
فإمَّا تَرَيني حَلِيفَ العَصا فما كنتُ من وَثْبةٍ خامِعا[٤٥]
فساوَمَني الدَّهرُ حتَّى اشترى شَبابي وكنتُ له مانِعا

وقال عوف بن الخَرِع:

ألا أبْلِغا عنِّي جُرَيحةَ آيةً فهل أنتَ عن ظُلمِ العَشيرةِ مُقصِرُ؟
وإنْ ظعَنَ الحيُّ الجميعُ لِطِيَّةٍ فأمرُكَ مَعصيٌّ وشَربُكَ مُغوِرُ[٤٦]
أفي صِرْمةٍ عِشرينَ أو هي دُونَها قشَرتُم عَصاكم فانظُروا كيفَ تُقشَرُ[٤٧]
زَعمتُم من الهُجرِ المُضلِّلِ أنَّكم ستَنصُرُكم عمرٌو علينا ومِنقَرُ[٤٨]

---

[٤١] أعشى بني ربيعة: كان في الأصل أعشى بن ربيعة، وليس كذلك، والصواب ما أثبتناه، واسم أعشى بني ربيعة صالحُ بن خارجة.

[٤٢] ابن صخر: هو معاوية بن أبي سفيان. وهذا يدل على أن هذا الأعشى كان أمويَّ الهوى، فلم يذكر عليًّا ولا ولده الحسن، وجعل معاوية رابع الخلفاء، ومضى في قصيدته على هذا النحو من الحساب الفاسد.

[٤٣] يريد بالخامس يزيد بن معاوية.

[٤٤] ويريد بالسابع عبد الملك بن مروان.

[٤٥] الخمع: العرج أو شِبهه.

[٤٦] لطيته: لنيته التي انتواها.

[٤٧] الصرمة: القطعة من الإبل.

[٤٨] الهجر: فاحش القول. المروت: وادٍ لبني حمان بن عبد العزى، وله يوم من أيام العرب بين تميم وبني قشير، وفيه يقول الشاعر:

فإنْ تَكُ هامةٌ بهراةَ تزقوا فقد أزقَيتُ بالمروتِ هاما

فيا شَجَرَ الوادي ألَا تَنصُرُونَهم وقد كانَ بالمَرُّوتِ رِمثٌ وسَخبَرُ[٤٩]
ألمْ تَجعَلوا تَيمًا على شُعبتَي عصًا فما يُنطِقُ المعروفَ إلا مُعَذِّرُ؟

وقال رجل من مُحارب يرثي ابنه:

ألمْ يَكُ رَطبًا يَعصِرُ القومُ ماءَه وما عُودُه للكاسرين بِيابسِ؟

وقال حاجب [بن] زرارة: والله ما القعقاع برَطبٍ فيُعصَر، ولا يابس فيُكسَر.
وقال حمَّاد عَجرد:

وجَرَوا على ما عُوِّدوا ولكلِّ عِيدانٍ عُصارةْ

وقال أيضًا:

فأنتَ أكرَمُ من يَمشي على قَدَمٍ وأنضَرُ النَّاسِ عندَ النَّاسِ أغصانا
لو مجَّ عُودٌ على قَومٍ عُصارتَه لمجَّ عُودُك فينا المِسكَ والبانا

وقال آخر:

وإنَّا وَجَدْنا النَّاسَ عُودَين طيِّبًا وعُودًا خبيثًا ما يَبِضُّ على العَصرِ
تَزِينُ الفتى أخلاقُه وتَشِينُه وتُذكَرُ أخلاقُ الفتى وهْو لا يدري

وقال المؤمِّل بن أُمَيل:

كانت تُقيَّدُ حينَ تَنزلُ مَنزلًا فاليومَ صارَ لها الكَلالُ قُيودا
والقومُ كالعِيدانِ يَفضُلُ بَعضُهم بعضًا كذاك يَفُوقُ عُودٌ عُودا

وقالت ليلى الأخيليَّة:

نحنُ الأخائلُ لا يَزالُ غُلامُنا حتى يَدِبَّ على العصا مَذكورا

---

[٤٩] الرمث: شجر يُشبِه العِضاه لا يطول، ولكنه ينبسط ورقه، وهو شبيه بالأشنان، الإبل تتحمض به. والسخبر: شجر إذا طال تدلَّت رءوسه، وقيل هو من شجر الشمام، له قُضبٌ مجتمعة وجرثومة، وله عيدان كالكرات كثرةً. وهذا البيت آية في التهكُّم والاستخفاف.

انظر، أبقاك الله، في كم فن تصرَّف فيه ذِكر العصا من أبواب المنافع والمرافق، وفي كم وجه صرَّفه الشعراء وضُرِب به المثل، ونحن لو تركنا الاحتجاج لمخاصر البُلغاء، وعِصي الخُطباء، لم نجد بدًّا من الاحتجاج لجِلَّة المُرسَلين، وكبار النبيِّين؛ لأن الشعوبية قد طعنت في جملة هذا المذهب على قضيب النبي ﷺ وعنَزته، وعلى عصاه ومِخصرته، وعلى عصا موسى؛ لأن موسى عليه السلام قد كان اتَّخذها من قبل أن يعلم ما عند الله فيها، وإلى ما يكون صيُّور أمرها. ألا ترى أنه لما قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾، قال: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾. وبعد ذلك قال: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾. ومن يستطع أن يدَّعيَ الإحاطة بما فيها من مآرب موسى إلا بالتقريب وذكر ما خطر على البال؟ وقد كانت العصا لا تُفارق يد سليمان بن داود عليهما السلام؛ في مقاماته، ولا صلواته، ولا في موته، ولا في أيام حياته، حتى جعل الله تسليط الأَرَضة عليها وسليمان ميت، وهو معتمد عليها، من الآيات عند من كان لا يعلم أن الجن لم تكن تعلم إلا ما تعلم الإنس.

ولو علِم القوم أخلاق كل مِلَّة، وزِيَّ أهل كل لغة، وعِللهم في ذلك، واحتجاجهم له، لقلَّ شغبهم، وكفَونا مؤنتهم. وهذه الرُّهبان تتَّخذ العِصي من غير سقم ولا نقصان في جارحة، ولا بد للجاثليق من قناع، ومن مِظلَّة، وبُرطُلَّة،[٥٠] ومن عكازة، ومن عصًا، من غير أن يكون الداعي إلى ذلك كبرًا ولا عجزًا في الخلقة. وما زال المُطيل القيام بالموعظة أو القراءة أو التلاوة يتخذ العصا عند طول القيام، ويتوكأ عليها عند المشي، كأن ذلك زائد في التكهُّل والزماتة،[٥١] وفي نفي السُّخف والخِفَّة.

وبالناس، حفِظك الله، أعظم الحاجة إلى أن يكون لكل جنس منهم سيما، ولكل صنف منهم حِلية وسِمة يتعارفون بها. قال الفرزدق:

به نَدَبٌ ممَّا يَقولُ ابنُ غالبٍ ... يَلُوحُ كما لاحَت وُسومُ المُصدِّقِ[٥٢]

---

[٥٠] البرطلة: شبه المظلة، قيل إن أصلها ابن المظلة، وليست عند الأصمعي من كلام العرب، بل هي نبطية.

[٥١] الزماتة: الرزانة.

[٥٢] به ندب: به آثار جروح. وسوم المصدق: العلامات التي يضعها جابي الصدقات على إبل الصدقة، ولا تكون هذه الوسوم إلا بالكي.

وقال الآخر:

أنارَ حتى صدَقَت سِماتُه وظهَرَت من كَرَمٍ آياتُه

وأنشد أبو عُبيدة:

سَقاها مِيسَمٌ من آلِ عمرٍو إذا ما كانَ صاحِبُها جَحِيشا

وذكر بعض الأعراب ضروبًا من الوسم، فقال:

بِهنَّ في خُطَّافِها عَلطٌ وُسِمْ وحَلَقٌ في آخِرِ الذِّفْرى نُظِمْ
معها نظامٌ مِثلُ خَطٍّ بالقَلَمْ وقُرْمةٌ ولستُ أدري مَن قَرَمْ
عَرضٌ وخَبطٌ لمُجلِّيها الوَسَمْ

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾. وكما خالفوا بين الأسماء للتعارف. وقال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

فعند العرب العِمَّة وأخذ المِخصرة من السِّيما. وقد لا يلبس الخطيب المِلحفة ولا الجُبَّة ولا القميص ولا الرِّداء، والذي لا بد منه العِمَّة والمِخصرة. وربما قام فيهم وعليه إزاره قد خالَف بين طرفَيه، وربما قام فيهم وعليه عِمامته وفي يده مِخصرته، وربما كان قضيبًا، وربما كانت العصا، وربما كانت قناة. وفي القنا ما هو أغلظ من الساق، وفيها ما هو أدق من الخنصر، وقد تكون مُحكَّكة الكعوب، مثقَّفة من الاعوجاج، قليلة الأبن، وربما كان العود نَبعًا، وربما كان شَوحطًا، وربما كان من آبنوس، ومن غرائب الخشب، ومن كرائم العيدان، ومن تلك المُلس المصفَّاة. وربما كانت لُب غُصن كريم؛ فإن للعيدان جواهر كجواهر الرجال، ولولا ذلك لَمَا كانت في خزائن الخلفاء والملوك. ومنها ما لا تقربه الأرضة، ولا تؤثر فيه القوادح. والعُكاز إذا لم يكن في أسفله زُجٌّ فهو عصًا؛ لأن أطول القنا أن يُقال: رمحٌ خَطِل، ثم رمحٌ نائر، ثم رمحٌ مخموس، ثم رمحٌ مربوع، ثم رمحٌ مُطرد، ثم عُكاز، ثم عصًا، ثم من العِصي نُصُب المَساحي، والمرور، والقُدم، والفئوس والمعاول، والمناجل، والطبرزينات،[٥٣] ثم تكون من ذلك نُصُب

[٥٣] الطبرزينات: جمع طبرزين، ومعناه الفأس، وأصل الكلمة فارسية: تبر، تبر، وهي آلة تُستعمل في القتال.

السكاكين، والسيوف، والمشامل. وكل سِهام نبعية، وغير ذلك من العيدان التي امتدحها أوس بن حجر، أو الشمَّاخ بن ضرار، أو أحد من الشعراء، فإنما هي من كل عصًا. وكل قوس بندق فإنما جيء بقناتها من بروص، ومُدِح ببَرْيها وصنعتها عُصفورٌ القوَّاس. وقال الرَّقاشي:[٥٤]

أنْعَتُ قَوسًا نَعْتَ ذي انتقاءِ — جاءَ بها جالِبُ بَروَضاءِ
عندَ اعتيامٍ منه وانتصاءِ — كافيةَ الطُّولِ على انتهاءِ
مَجلُوزةَ الأكعُبِ في استواءِ — سالمةً من أُبَنِ السِّيساءِ
فلمْ تَزَلْ مَساحِلُ البرَّاءِ — تأخذُ من طوائفِ اللِّحاءِ
حتى بَدَت كالحيَّةِ الصَّفراءِ — تَرنو إلى الطائرِ في السَّماءِ
بمُقْلةٍ سريعةِ الإقذاءِ — ليستْ بكَحْلاءِ ولا زَرْقاءِ

وقال آخر:

قد أغتدي مَلْثَ الظَّلامِ بفِتْيةٍ — للرَّمي قد حسَروا له عن أذرُعِ[٥٥]
مُتنكِّبينَ خرائطًا لبنادقٍ — من بينِ مَضفورٍ وبين مُرسَّعِ[٥٦]
بأكُفِّهم قُضبانُ بَروَصَ قد عَدَوا — للطَّيرِ قبلَ نُهوضِها للمَرتَعِ
تُقذِي مَنيَّاتُ الطُّيورِ عُيونَها — يومًا إذا رمِدَت بأيدي النُّزَّعِ
صُفْرِ البُطونِ كأنَّ لِيطَ مُتونِها — سَرَقُ الحريرِ نَواضرٌ لم تُشبَعِ[٥٧]

وكانت العنَزة التي تُحمَل بين يدَي رسول الله ﷺ — وربما جعلوها قِبلة — أشهَر وأذكَر من أن يُحتاج في تثبيتها إلى ذِكر الإسناد. وكانت سيماء أهل الحرم إذا خرجوا من

[٥٤] الرقاشي: هو الفضل بن عبد الصمد مولى رقاش. كان شاعرًا مطبوعًا، نقيَّ الكلام، سهل النظام، من شعراء البرامكة، ومن المُختصين بهم المستظلين بظلهم. وكان بينه وبين أبي نواس منافرات ومناقضات. حفِظ للبرامكة فضلهم، فرثاهم بعد نكبتهم، وعرَّض نفسه بوفائه لهم لمَخاطر جِسام.

[٥٥] ملث الظلام: اختلاط الليل.

[٥٦] متنكبين خرائطًا: حاملين على عواتقهم خرائط البنادق، وهي أوعية من أدم. المرسع: المتداخلة سيوره بعضها في بعض.

[٥٧] صفر البطون: خماصها. ليط متونها: ما لزق بها. سرق الحرير: شققه.

الحرم إلى الحِل في غير الأشهر الحُرُم أن يتقلدوا القلائد، ويعلِّقوا عليهم العلائق، وإذا أوذَم[٥٨] أحدهم الحج تزيًّا بزيِّ الحاج، وإذا ساق بدنةً أشعرها.[٥٩] وخالفوا بين سِمات الإبل والغنم، وأعلموا البحيرة[٦٠] بغير عَلَم السائبة، وأعلموا الحاميَ[٦١] بغير عَلَم الفحول. وكذلك الفَرَع والرَّجبيَّة والوصيلة والعتيرة[٦٢] من الغنم، وكذلك سائر الأغنام السائمة. وإذا كانت الإبل من حِباء ملك غرَزوا في أسنِمتها الريش والخِرَق؛ ولذلك قال الشاعر:

يَهَبُ الهِجانَ برِيشِها ورِعائِها   كالليلِ قبلَ صباحِه المتبلِّجِ

وإذا بلَغت الإبل ألفًا فقئوا عين الفحل، فإن زادت فقئوا العين الأخرى؛ فذلك «المفقَّأ» و«المعمَّى». وقال شاعرهم:

فقأتُ لها عَينَ الفَحيلِ تعيُّفًا   وفيهنَّ رَعلاءُ المَسامِعِ والحامي

وقال آخر:

وهَبْ لنا وأنتَ ذو امتنانِ   تُفقَأُ فيها أعيُنُ البُعرانِ

وقال الآخر:

فكانَ شُكْرَ القومِ عندَ المِنَنِ   كيُّ الصحيحاتِ وفَقءُ الأعيُنِ

وإذا كان الفحل من الإبل كريمًا قالوا «فَحِيل»، وإذا كان الفحل من النخل كريمًا قالوا «فُحَّال». وقال الراعي:

كانت نَجائبُ مُنذِرٍ ومُحرِّقٍ   أُمَّاتُهنَّ وطُرْقُهنَّ فَحِيلا

---

[٥٨] أوذم: فرض.

[٥٩] أشعرها: علَّمها؛ أي وضع عليها شعارًا.

[٦٠] البحيرة: القلوص التي تُنتجها السائبة، وكانوا يشقون أذنها، وقد نُهي عنها في قوله: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾.

[٦١] الحامي: البعير الذي امتد عمره فتركوه بلا انتفاع منه.

وكان الكاهن لا يلبس المصبَّغ، والعرَّاف لا يدع تذييل قميصه وسحب رِدائه، والحَكم لا يُفارق الوبر، وكان لحرائر النساء زي، ولكل مملوك زي، ولذوات الرايات زي. وكان الزبرقان يصبغ عمامته بصُفرة، وذكره الشاعر فقال:

وأشهَدُ من عَوفٍ حُلولًا كثيرةً يَحُجُّونَ سِبَّ الزِّبرِقانِ المُعصفَرا

وكان أبو أُحيحة سعيد بن العاص إذا اعتمَّ لم يعتمَّ معه أحد، هكذا في الشعر، ولعل ذلك أن يكون مقصورًا في بني عبد شمس. وقال أبو قيس بن الأسلت:

وكان أبو أُحَيحةَ قد عَلِمتُم بمكَّةَ غيرَ مُهتضَمٍ ذَمِيمِ
إذا شدَّ العِصابةَ ذاتَ يومٍ وقامَ إلى المَجالسِ والخُصومِ
فقد حَرُمَت على من كانَ يَمشي بمكَّةَ غيرَ مُدَّخِلٍ سَقِيمِ
وكانَ البَختريُّ غداةَ جَمْعٍ يُدافِعُهم بلُقمانَ الحكيمِ
بأزهَرَ من سَراةِ بني لؤيٍّ كبَدرِ الليلِ راقَ على النُّجومِ
هو البيتُ الذي بُنِيَت عليه قُرَيشُ السِّرِّ في الزَّمَنِ القديمِ
وسَطتَ ذوائبَ الفَرعَينِ منهم فأنتَ لُبابُ سِرِّهم الصَّميمِ

وقال غَيلان بن خرَشة للأحنف: يا أبا بحر، ما بقاء ما فيه العرب؟ قال: إذا تقلَّدوا السيوف، وشدُّوا العمائم، واستجادوا النِّعال، ولم تأخذهم حميَّة الأوغاد. قال: وما حمية الأوغاد؟ قال: أن يعدُّوا التواهب ذُلًّا. وقال الأحنف: استجيدوا النِّعال؛ فإنها خلاخل الرجال. والعرب تُسمِّي السيوف بحمائلها «أردِية». وقال علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، قولًا أحسن من هذا، قال: تمام جمال المرأة في خُفِّها، وتمام جمال الرجل في لِمَّته. ومما يؤكد ذلك قول مجنون بني عامر:

أأعقِرُ من جَرًّا كريمةَ ناقتي ووَصْليَ مَفروشٌ لوَصلِ مُنازِلِ
إذا جاءَ قَعقَعنَ الحُلِيَّ ولم أكُنْ إذا جئتُ أرجو صَوتَ تلك الخَلاخلِ
ولم تُغْنِ سيجانُ العِراقينِ نَقْرةً درفشُ القَلَنسى بالرِّجالِ الأطاوِلِ

[٦٢] الفرع: أول نتاج الشاة. والرجبية: شاة كانت تُذبح قُرباناً للآلهة في رجب. والوصيلة: الشاة تلد ذكرًا ثم أنثى. والعتيرة: شاة تُذبح لآلهتهم.

والعصابة والعمامة سواء. وإذا قالوا: سيِّد معمَّم، فإنما يريدون أن كل جناية يجنيها الجاني في تلك العشيرة فهي معصوبة برأسه. وقال دُرَيد بن الصِّمَّة:[٦٣]

أبلِغْ نُعَيمًا وأوفى إنْ لقِيتَهما إنْ لم يَكُنْ كانَ في سَمعَيهما صَمَمُ[٦٤]
فلا يَزالُ شِهابٌ يُستضاءُ به يَهدي المَقانبَ ما لم تَهلِكِ الصِّمَمُ[٦٥]
عاري الأشاجِعِ مَعصوبٌ بلِمَّتِه أمرُ الزَّعامةِ في عِرنِينِه شَمَمُ

وقال الكِناني:

تَنخَّبتُها للنَّسلِ وهْيَ غَريبةٌ فجاءَت به كالبَدرِ خِرقًا مُعمَّما[٦٦]
فلو شاتَمَ الفِتْيانَ في الحيِّ ظالمًا لما وجَدوا غيرَ التكذُّبِ مَشتَما

ولذلك قيل لسعيد بن العاصي «ذو العصابة». وقد قال القائل:

كَعابٌ أبوها ذو العِصابةِ وابنُه وعُثمانُ ما أكفاؤُها بكَثيرِ

يقولها خالد بن يزيد.[٦٧]

[٦٣] دريد بن الصمة: كان في الجاهلية فارسًا مقدَّمًا، وشجاعًا بطلًا، وشاعرًا فحلًا. وكان أطول الفُرسان الشعراء غزوًا، وأبعدهم أثرًا، وأكثرهم ظفرًا، وأيمنهم نقيبة. وكان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم في حروبهم. غزا نحو مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها. أدرك الإسلام ولم يُسلِم، وكان قد شاخ وأصبح لا فضل فيه للحرب، وأخرجه قومه معهم يوم حُنين في صف المشركين، وإنما أخرجوه تيمنًا به واستنارة برأيه، فقُتل إذ ذاك عن مائة سنة، وكان ذلك في سنة ٨هـ/٦٢٩م.

وهذه الأبيات التي رواها له الجاحظ قالها يوم قتل مجمع بن مزاحم اليربوعي أخاه عبد يغوث بن الصمة، وكان نازلًا بين أظهُر بني الصارد.

[٦٤] وبعد هذا البيت:

فما أخي بأخي سوءٍ فينقصَه إذا تقارَبَ بابنِ الصارد القسمُ

[٦٥] المقانب: جمع مِقنب، والمقنب القطعة من الجيش. الصمم: الشجعان.

[٦٦] الخرق: الكريم.

[٦٧] خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: كان من سادات بني أمية وعظمائهم، وكان من المعدودين في السخاء والعقل والفصاحة، وكان عالمًا جليل القدر، وشاعرًا بليغًا، وهو أول من نقل كُتُب اليونان إلى العربية. تُوفي سنة ٨٢هـ/٧٠١م. وهذا البيت الذي استشهد به الجاحظ من أبياتٍ قالها حينما طلَّق

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: العمائم تيجان العرب.

وقيل لأعرابي: إنك لتُكثِر لُبْس العمامة؟ قال: إن شيئًا فيه السمع والبصر لجديرٌ أن يوقى من القُر.

وذُكرت العمامة عند أبي الأسود الدؤلي فقال: جُنَّة في الحرب، ومِكنَّة من الحر، ومِدفأة من القُر، ووقار في النَّدِي، وواقية من الأحداث، وزيادة في القامة، وهي تُعَد عادةً من عادات العرب. وقال عمرو بن امرئ القيس:[٦٨]

يا مالِ والسيِّدُ المعمَّمُ قد ... يُبطِرُه بعدَ رأيِه السَّرَفُ
نحن بما عندَنا وأنتَ بما عنـ ... ـدَك راضٍ والرأيُ مُختلِفُ[٦٩]

وكان من عادة فُرسان العرب في المواسم والجموع، وفي أسواق العرب، كأيام «عُكاظ» و«ذي المَجاز» وما أشبه ذلك، التقنُّع، إلا ما كان من أبي سليط طريف بن تميم، أحد بني عمرو بن جندب؛ فإنه كان لا يتقنع ولا يُبالي أن يُثبت عينه جميع فُرسان العرب. وكانوا يكرهون أن يُعرفوا، فلا يكون لفُرسانِ عدوِّهم همٌّ غيرهم، ولما أقبل «حَميصة الشيباني» يتأمل طريفًا، قال طريف:

أوَكُلَّما ورَدَت عُكاظَ قبيلةٌ ... بَعَثوا إليَّ عَريفَهم يَتوسَّمُ
فتَوسَّموني إنَّني أنا ذاكمُ ... شاكٍ سِلاحي في الحوادثِ مُعلَمُ
تَحْتي الأغَرُّ وفوقَ جِلديَ نَثْرةٌ ... زَغفٌ تَرُدُّ السَّيفَ وهْوَ مُثلَّمُ
ولكلِّ بَكريٍّ إليَّ عداوةٌ ... وأبو ربيعةَ شانئٌ ومُحلَّمُ

زوجته آمنة بنت سعيد بن العاصي وتزوَّجها بعده الوليد بن عبد الملك، روى منها أبو العبَّاس المُبرد هذَين البيتين:

فتاةٌ أبوها ذو العِصابةِ وابنُه ... وعُثمانُ ما أكفاؤُها بكَثيرِ
فإنْ تَفتلتْها والخلافةَ تَنقلبْ ... بأكرَم علقي مِنبَرٍ وسريرِ

[٦٨] عمرو بن امرئ القيس: كان يُكنى أبا سريح، وهو أحد بني الحارث بن الخزرج، وهو جد عبد الله بن رواحة. كان شاعرًا فحلًا، وكان من حكام العرب وقضاتهم. وهذان البيتان هما من أبياتٍ قالها يُخاطب بها مالك بن العجلان حين رد قضاءه في واقعة من وقائع الأوس والخزرج.

[٦٩] أراد: نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راضٍ، فكفَّ عن خبر الأول إذ كان في الآخر معناه.

فكان هذا من شأنهم، وربما مع ذلك أعلم الفارس منهم نفسه بسيما، كان حمزة يوم بدر مُعلَمًا بريشة نعامة حمراء، وكان الزبير مُعلَمًا بعمامةٍ صفراء؛ ولذلك قال درهم بن زيد:

إنَّكَ لاقٍ غدًا غُواةَ بَنِي الـ ـمَلْكاءِ فانظُرْ ما أنتَ مُزدهِفُ[٧٠]
يَمشُونَ في البِيضِ والدُّروعِ كما تَمشي جِمالٌ مَصاعبٌ قُطُفُ[٧١]
فأبْدِ سِيماكَ يَعرِفوكَ كما يُبدُونَ سِيماهم فتُعتَرَفُ

وكان «المقنَّع الكِندي»[٧٢] الشاعر، واسمه «محمد بن عمير»، كان الدهر مقنَّعًا. والقناع من سيما الرؤساء، والدليل على ذلك، والشاهد الصادق، والحُجة القاطعة، أن رسول الله ﷺ كان لا يكاد يُرى إلا مقنَّعًا. وجاء في الحديث: «حتى كأن الموضع الذي يصيب رأسه من ثوبه ثوب دهَّان.» وكان «المقنع»[٧٣] الذي خرج بخُراسان يدَّعي الربوبية، لا يدع القناع في حال من الحالات، وجهِل ادعاء الربوبية من جهة المناسخة، فادَّعاها من

[٧٠] روى أبو الفرج الأصبهاني هذا البيت هكذا:

إنَّكَ لاقٍ غدًا غُواة بني عَمِّيَ فانظُرْ ما أنت مُزدهِفُ

[٧١] وهذا البيت يرويه أبو الفرج لمالك بن العجلان من قصيدة له، وبعده:

كما تمشَّى الأسودُ في رَهجِ الـ ـموتِ إليه وكلُّهم لهفُ

ويظهر أن الجاحظ قد خلط بين قصيدتَي درهم بن زيد ومالك بن العجلان، وكثيرًا ما يفعل. ومن الغريب أن الجاحظ لم يذكر مالك بن العجلان ضِمن هؤلاء الذين يتقنعون أو يُخفون أنفسهم في الحرب؛ لأن مالكًا كان إذا شهد الحرب يغيِّر لباسه ويتنكر لئلا يُعرف فيُقصد؛ ولهذا قال له درهم في أبياته: فأبدِ سيماك.

[٧٢] المقنع الكندي: اسمه محمد بن ظفر بن عمير، والمقنع لقبٌ غلب عليه؛ لأنه فيما قيل كان أجمل الناس وجهًا، وأمدَّهم قامة، وأكملهم خلقًا. وقد زعموا أنه كان إذا سفر اللثام عن وجهه أصابته العين فيمرض، ويلحقه عنت، فكان لا يمشي إلا مقنعًا. وهو شاعر مُقلٌّ من شعراء الدولة الأموية، وكان ذا محلٍّ كبير وشرف ومروءة وسؤدد في عشيرته، مع جود وسخاء، وسماحة وكرم، وكان لا يرُد سائلًا، ولا يُخيِّب قاصدًا.

[٧٣] المقنع: هو المقنع الخراساني، اسمه عطاء. كان في مبدأ أمره قصَّارًا من أهل مرو من قرية يُقال لها كره. وكان مشوَّه الخلق أعور قصيرًا. وكان يعرف شيئًا من الشعبذة والنيرنجيات، فاستغوى العامَّة وضِعاف العقول، واستمالهم، وجمع منهم جموعًا، وخرج على الدولة مدَّعيًا النبوة، لا، بل الربوبية. ومن

الوجه الذي لا يختلف فيه الأحمر والأسود، والمؤمن والكافر، أن باطله مكشوف كالنهار، لا يُعرف في شيء من المِلل والنِّحل القول بالتناسخ إلا في هذه الفِرقة من الغالية. وهذا «المقنَّع» كان قصَّارًا من أهل مرو، وكان أعور ألكَن، فما أدري أيهما أعجب؛ أدعواه بأنه رب، أو إيمان من آمن به وقاتَل دونه! وكان اسمه عطاء.

وقال الآخر:

إذا المرءُ أثْرى ثم قالَ لقَومِه　　أنا السيِّد المُفْضى إليه المُعمَّمُ
ولم يُعطِهم شيئًا أبَوا أنْ يَسُودَهم　　وهانَ عليهم زَعمُه وهْوَ ألوَمُ

وقال آخر:

إذا كشَفَ اليومُ العَماسُ من استِه　　فلا يَرتدي مِثلي ولا يَتعمَّمُ

قالوا: وكان «مصعب بن الزبير» يتعمَّم العقداء، وهو أن يعقد العمامة في القفاء. وكان «محمد بن سعد بن أبي وقَّاص» الذي قتله الحجَّاج يعتمُّ المَيلاء.

وقال الفرزدق:

ولو شَهِدَ الخيلَ ابنُ سَعدٍ لقنَّعوا　　عِمامتَه المَيلاءَ عَضبًا مهنَّدا

وقال شَمعلة بن أخضر الضبِّي:

جَلَبْنا الخيلَ من أطرافِ فَلْجٍ　　تَرى فيها من الغَزوِ اقوِرارا
بكُلِّ طِمِرَّةٍ وبكلِّ طِرْفٍ　　يَزينُ سوادُ مُقلتِه العِذارا
حَوالَي عاصبٍ بالتَّاجِ منَّا　　جَبِينَ أغَرَّ يَستلِبُ الدُّوارا
رئيسٌ ما يُنازِعُه رئيسٌ　　سِوى ضَربِ القِداحِ إذا استشارا

شعبذته أنه خيَّل للناس صورة قمر يطلع ويراه الناس من مسافةٍ بعيدة. واتخذ لنفسه وجهًا من ذهب تقنَّع به ليحجب دمامته وسوء خلقه. وكان يقول بالحلول، فيزعم أن الله حل في آدم ثم في نوح ثم في نبي بعد نبي حتى حل فيه. وعمَّر قلعة سنام فيما وراء النهر من رستاق كيش، وتحصَّن فيها، وجمع فيها الطعام والعلوفة، وبث دعاته في الناس، فطلبه المهدي ووجَّه إليه الجيوش فحاصرته، فلما أيقن بالهلاك جمع إليه نساءه وسائر أهله، وسقاهم السم فماتوا عن آخرهم، ثم أحرق كل ما كان بالقلعة من دابَّة وطعام وثياب، وألقى نفسه في النار، وذلك في سنة ١٦٣هـ/٧٧٩م.

وأنشد:

إذا لَبِسوا عَمائمَهم طوَوها على كَرَم وإنْ سفَروا أناروا
يَبيعُ ويَشتري لهمُ سِواهم ولكنْ بالطِّعانِ هُمُ تِجارُ
إذا ما كنتَ جارَ بَنِي لؤيٍّ فأنتَ لِأكرَمِ الثَّقلَينِ جارُ

وأنشد:

وداهـيـةٍ جَـرَّهـا جـارِمٌ جعلتَ رِداءَك فيها خِمارا

ولذِكر العمائم مواضع. قال زيد بن كَثْوة العَنبَري:

مَنَعتُ من العُهَّارِ أطهارَ أُمِّه وبعضُ الرِّجالِ المُدَّعَينَ زناءُ
فجاءتْ به عَبْلَ القَوامِ كأنَّما عِمامتُه فوقَ الرِّجالِ لِواءُ

لأن العمامة ربما جعلوها لواءً، ألا ترى أن «الأحنف بن قيس» يوم «مسعود بن عمرو» حين عقد لـ «عبس بن طلق» اللواء، إنما نزع عمامته من رأسه فعقدها له.
وربما شدُّوا بالعمائم أوساطهم عند المجهدة، وإذا طالت العقبة؛ ولذلك قال شاعرهم:

فسِيرُوا فقد جَنَّ الظلامُ عليكمُ فباسْتِ الذي يَرجو القِرى عندَ عاصمِ
دُفِعْنا إليه وهْوَ كالذَّيخِ حاظيًا نَشُدُّ على أكبادِنا بالعَمائمِ[٧٤]

وقال الفرزدق:

بَنِي عاصمٍ إنْ تَلحَبوها فإنَّكم مَلاحي للسَّوآتِ دُسْمُ العمائمِ

وقال آخر:

خليليَّ شُدَّا لي بفَضلِ عِمامتي على كَبِدٍ لم يَبقَ إلا صميمُها

العرب تَلهَج بذِكر النِّعال، والفُرس تَلهَج بذِكر الخِفاف. وفي الحديث المأثور أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا ينهَون نساءهم عن لبس الخفاف الحُمْر والصُّفر، ويقولون: هو من زينة نساء آل فرعون.

---

[٧٤] الذيخ: حيوان خبيث. قالوا: إنه يتولد بين الذئب والضبع.

وأما قول شاعرهم:

إذا اخضرَّتْ نِعالُ بني غُرابٍ ... بَغَوا ووجدتَهم أَسْرى لِئاما

فلم يُرِد صفة النعل، وإنما أراد أنهم إذا اخضرَّت الأرض وأخصبوا طغَوا وبغَوا، كما قال الآخر:

وأطوَلُ في دارِ الحِفاظِ إقامةً ... وأوزَنُ أحلامًا إذا النَّعلُ أخضَلا

ومِثل قوله:

يا ابنَ هِشامٍ أهلَكَ النَّاسَ اللَّبَنْ ... فكلُّهم يَسعى بسَيفٍ وقَرَنْ

وأما قول الآخر:

وكيف أُرجِّي أنْ أَسُودَ عشيرتي ... وأمِّيَ من سَلمى أبُوها وخالُها
رأيتُكمُ سُودًا جِعادًا ومالكٌ ... مُخصَّرةٌ بِيضٌ سِباطٌ نِعالُها

فلم يذهب إلى مدح النِّعال في أنفُسها، وإنما ذهب إلى سباطة أرجُلهم وأقدامهم، ونفي الجعودة والقِصَر عنهم. وقال النابغة:

رِقاقُ النِّعالِ طيِّبٌ حُجُزاتُهم ... يُحيَّونَ بالرَّيحانِ يومَ السَّباسِبِ
يَصُونونَ أجسادًا قَديمٌ نَعِيمُها ... بخالصةِ الأردانِ خُضْرِ المَناكِبِ

قال: وبنو الحارث بن سدوس لم ترتبط حِمارًا قط، ولم تلبس نعلًا قط إذا نَقِبت، وقد قال قائلهم:

ونُلقِي النِّعال إذا نُقِّبَت ... ولا نستعينُ بأخلاقِها
ونحن الذؤابةُ من وائلٍ ... إلينا تَمُدُّ بأعناقِها

وهم رهط «خالد بن معمَّر»، يقول فيه شاعرهم:

مُعاوِيَ أمِّرْ خالدَ بنَ مُعمَّرٍ ... فإنَّك لولا خالدٌ لم تُؤمَّرِ

وقائلهم يقول:

أغاضِبةٌ عمرُو بنُ شَيبانَ أنْ رأتْ عديدَينِ من جُرثومةٍ ودَخِيسِ
فلو شاءَ ربِّي كانَ أيْرُ أبيكمُ طويلًا كأيْرِ الحارثِ بنِ سَدُوسِ

وكان عمر، رضي الله تعالى عنه، جعل رياسة بكر لـ «مَجزأة بن ثَور»، فلما استُشهد مجزأة جعلها أبو موسى لخالد بن المعمر، ثم ردَّها عثمان على «شقيق بن مجزأة» بن ثور، فلما خرج أهل البصرة إلى صِفِّين تنازع شقيق وخالدٌ الرياسة، فصيَّرها عند ذلك علي إلى حُضَين بن المُنذر، فرضي كل واحد منهما، وكان يخاف أن يصيرها إلى خصمه، فسكنت بكر، وعرف الناس صحة تدبير علي رضي الله تعالى عنه في ذلك. وأما قول الآخر:

يا ليتَ لي نَعلَينِ من جِلدِ الضَّبُعْ وشُرُكًا من استِها لا تَنقطِعْ
كلَّ الحذاءِ يَحتذي الحافي الوَقِعْ

فهذا كلام مُحتاج، والمحتاج يتجوز. أما قول «النجاشي»[٧٥] لهند بن عاصم:

إذا اللهُ حيَّا صالحًا من عِبادِه كريمًا فحَيَّا اللهُ هِندَ بنَ عاصمِ
وكلُّ سَلوليٍّ إذا ما لقيتَه سريعٌ إلى داعي النَّدى والمَكارمِ
ولا يأكلُ الكَلبُ السَّرُوقُ نِعالَهم ولا تنتقي المُخُّ الذي في الجَماجمِ

فقال يونس: كانوا لا يأكلون الأدمغة، ولا ينتعلون إلا بالسِّبت.
وقال كُثيِّر:

إذا نُبِذَت لم تَطَّبِ الكلبَ ريحُها وإنْ وُضعَت في مَجلِسِ القومِ شُمَّتِ

وقال عُتيبة بن الحارث، وهو ابن فَسوة:

إلى مَعشرٍ لا يَخصِفونَ نِعالَهم ولا يَلبَسونَ السِّبتَ ما لم يُخصَّرِ

[٧٥] النجاشي: اسمه قيس بن عمرو بن مالك من بني الحارث بن كعب. شاعر فَحل من شعراء اليمن، أسلم فيمن أسلم من قومه، وكان من شيعة علي كرَّم الله وجهه يوم صِفِّين، وكان رقيق الدين.

وإذا مدح الشاعر النعل بالجودة فقد بدأ بمدح لابسها قبل أن يمدحها.

قال الله تبارك وتعالى لموسى على نبينا وعليه السلام: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

وقال بعض المفسِّرين: كان من جلدٍ غير ذكي. وقال الزبيري: ليس كما قال، بل أعلمه حق المقام الشريف، والمدخل الكريم. ألا ترى أن الناس إذا دخلوا إلى الملوك ينزعون نعالهم خارجًا؟ قال: وحدَّثنا سلَّام بن مِسكين قال: ما رأيت الحسن إلا وفي رِجلَيه النعل، رأيته على فِراشه وهي في رِجلَيه، وفي مسجده وهو يصلِّي وهي في رِجلَيه. وكان بكر بن عبد الله تكون نعله بين يدَيه، فإذا نهض إلى الصلاة لبسها. ورُوي ذلك عن عمرو بن عُبيد، وهاشم الأوقص، وحوشب، وكلاب، وعن جماعة من أصحاب الحسن.

وكان الحسن يقول: ما أعجب قومًا يرَون أن رسول الله ﷺ صلَّى في نَعلَيه، فلما انفتل من الصلاة علِم أنه قد كان وطئ على كذا وكذا، وأشباهًا لهذا الحديث، ثم لا نرى أحدًا منهم يصلِّي مُنتعِلًا.

وأما قوله:

قامَ بَناتي بالنِّعالِ حواسرًا ... وألصَقنَ وَقْعَ السِّبتِ تحتَ القلائدِ

فإن النساء ذوات المصائب إذا قعدن في المناحات كنَّ يضربن صدورهن بالنِّعال.

وقال محمد بن يسير:

كم أرى من مُستعجِبٍ من نِعالٍ ... ورِضائي منها بلُبسِ البوالي
كلُّ جَرْداءَ قد تَحيَّفها الخَصـ ... ـفُ بأقطارِها بسَرْوِ النِّعالِ
لا تُدانى وليس تُشبِهُ في الخِلـ ... ـقةِ إنْ أُبرِزَت نِعالَ المَوالي
لا ولا عن تَقادُمِ العَهدِ منها ... بَلِيَت لا ولا لكَرِّ الليالي
ولقد قُلتُ حينَ أُوثِرَ ذا الودِّ ... عليها بثَروتي وبمالي
من يُغالي من الرِّجالِ بنَعلٍ ... فسِوائي إذًا بِهنَّ يُغالي
أو بَغاهُنَّ للجَمالِ فإنِّي ... في سِواهنَّ زِينتي وجَمالي
في إخائي وفي وفائي ورأيي ... وعفافي ومَنطِقي وفَعالي
ما وَقاني الحَفا وبلَّغني الحا ... جةَ مِنها فإنَّني لا أُبالي

وقال خلَف الأحمر:

سَقى حُجَّاجَنا نَوءُ الثُّرَيَّا ... على ما كانَ من مَطْلٍ وبُخْلِ
هُمُ جمَعوا النِّعالَ فأحرَزوها ... وسدُّوا دُونَها بابًا بقُفْلِ
إذا أهدَيتُ فاكهةً وشاةً ... وعَشْرَ دَجايِجٍ بَعَثوا بنَعلِ
ومِسْواكَينِ طُولُهما ذِراعٌ ... وعَشرٌ من رَدِيِّ المُقْلِ خَشْلِ
فإنْ أهدَيتُ ذاك لتَحمِلوني ... على نَعلٍ فدَقَّ اللهُ رِجْلي

وقال كُثَيِّر:

كأنَّ ابنَ ليلى حين يبدو فتَنجلي ... سُجوفُ الخِباءِ عن مَهِيبٍ مُشمَّتِ
مُقارِبُ خَطوٍ لا يُغيِّرُ نَعلَه ... رَهيفَ الشِّراكِ سَهلةَ المُتسمِّتِ
إذا طُرِحَت لم تَطَّبِ الكَلبَ رِيحُها ... وإنْ وُضِعَت في مَجلِسِ القومِ شُمَّتِ

وقال بشَّار:

إذا وُضِعَت في مَجلِسِ القَومِ نَعلُها ... تَضوَّعَ مِسكًا ما أصابَت وعَنبَرا

ولما قال علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، لصَعصعة بن صُوحان في المُنذر بن الجارود ما قال، قال صعصعة: يا أمير المؤمنين، لئن قلت ذاك إنه لنظَّار في عِطفَيه، تفَّال في شِراكَيه، تُعجِبه حُمرة بُردَيه.

وذم رجلٌ ابن التوءم فقال: رأيته مشحَّم النعل، دَرِن الجَورب، مغضَّن الخُف، دقيق الجِرِبَّان.

وقال الهيثم: يمينٌ لا يحلف بها الأعرابي أبدًا، أن يقول: لا أورَدَ الله لك صادرًا، ولا أصدر لك واردًا، ولا حطَطتَ رَحلَك، ولا خلعت نعلك.

وقال آخر:

عَلِقَ الفؤادُ بِرَيِّقِ الجَهلِ ... وأبرَّ واستعصى على الأهلِ
وصَبا وقد شابتْ مَفارِقُه ... سَفَهًا وكيف صَبابةُ الكَهلِ؟
أدركتُ مُعتصَري وأدرَكَني ... حِلمي ويسَّرَ قائدي نَعلي

(٤) ثم رجع الكلام إلى القول في العصا

قال ابن عبَّاس، رضي الله تعالى عنهما، في تعظيم شأن عصا موسى على نبينا وعليه السلام: الدابَّة ينشقُّ عنها الصفا، معها عصا موسى وخاتم سليمان؛ تمسح المؤمن بالعصا، وتختم الكافر بالخاتم.

وجعل الله تبارك وتعالى أكبر آداب النبي ﷺ في السواك، وحضَّ عليه ﷺ، والمِسواك لا يكون إلا عصًا.

وقال أبو الوجيه: قُضبان المساويك البَشام، والضَّرو، والعَتم، والأراك، والعُرجون، والجريد، والإسحِل.

وقد يلبس الناس الخِفاف والقلانس في الصيف كما يلبسونها في الشتاء إذا دخلوا على الخلفاء وعلى الأمراء، وعلى السادة والعُظماء؛ لأن ذلك أشبه بالاحتفال، وبالتعظيم والإجلال، وأبعد من التبذُّل والاسترسال، وأجدر أن يفصلوا بين مواضع أُنْسهم في منازلهم ومواضع انقباضهم.

وللخلفاء عِمة، وللفقهاء عمة، وللبغَّالين عمة، وللأعراب عمة، وللصوص عمة، وللأبناء عمة، وللروم والنصارى عمة، ولأصحاب التشاجي عمة.

ولكل قوم زِي؛ فللقضاة زي، ولأصحاب القضاة زي، وللشُّرَط زي، وللكُتَّاب زي، ولكُتَّاب الجند زي؛ ومن زيِّهم أن يركبوا الحمير وإن كانت الهماليج لهم مُعرضة.

وأصحاب السلطان ومن دخل الدار على مراتب؛ فمنهم من يلبس المبطَّنة، ومنهم من يلبس الدُّرَّاعة، ومنهم من يلبس القباء، ومنهم من يلبس البازبكند، ويعلِّق الخنجر، ويأخذ الجُرز، ويتَّخذ الجُمَّة.

وزي مجالس الخلفاء في الصيف القطن، وفي الشتاء فُرُش الصوف. وترى أن ذلك أجزل وأكمل وأفخم وأقبل؛ ولذلك وضعت ملوك العجم على رءوسها التِّيجان، وجلست على الأسِرَّة، وظاهرت بين الفُرُش. وهل يملأ عيونَ الأعداء، ويُرعب قلوبَ المُخالفين، ويحشو صدورَ العوام إفراط التعظيم، وتعظيم شأن السلطان، والزيادة في الأقدار، إلا الآلات؟ وهل دواؤهم إلا في التهويل عليهم؟ وهل يُصلحهم إلا إخافتك إيَّاهم؟ وهل ينقادون لِما فيه الحظ لهم، ويُسلِّمون بالطاعة التي فيها صلاح أمورهم، إلا بتدبيرٍ يجمع المحبة والمهابة؟

وكانت الشُّعراء تلبس الوَشي والمقطَّعات والأردِية السُّود، وكل ثوب مشهَّر، وقد كان عندنا منذ نحو من خمسين سنةً شاعرٌ يتزيَّا بزيِّ الماضين، وكان له بُرْد أسود يلبسه في الصيف والشتاء، فهجاه بعض الطِّياب من الشعراء، فقال في قصيدة له:

بِعْ بُرْدَك الأسوَدَ قبلَ البَرْدِ في قُرَّةٍ تأتِيكَ صَمًّا صَرْدِ

وكان لجِربَّان قميص بشَّار الأعمى وجُبَّته لَبِنتان، فكان إذا أراد نزع شيء منهما أطلق الأزرار فسقطت الثياب على الأرض، ولم ينزع قميصه من جهة رأسه قط. و«قدوَيه العدوي الشحَّاجي» لم يلبس قميصًا قط، وهو اليوم حي، وهو شيخهم. وسعيد بن العاص الجواد الخطيب لم ينزع قميصه قط. فقدويه الشحَّاجي ضد سعيد بن العاص الأموي.

وقال الحطيئة:

سَعيدٌ فلا تَغرُرْكَ قِلَّةُ لَحمِه تَخدَّدَ عنه اللَّحمُ فهْوَ صَلِيبُ

وكان شديد السواد نحيفًا.

ومن شأن المُتكلمين أن يُشيروا بأيديهم وأعناقهم وحواجبهم، فإذا أشاروا بالعصا فكأنهم قد وصلوا بأيديهم أيديًا أُخَر. ويدلُّك على ذلك قول الأنصاري حيث يقول:

وسارتْ لنا سيَّارةٌ ذاتُ سؤددٍ بكُومِ المَطايا والخُيولِ الجَماهِرِ
يؤمُّونَ مَلْكَ الشَّامِ حتَّى تَمكَّنوا مُلوكًا بأرضِ الشَّامِ فوقَ المَنابِرِ
يُصِيبونَ فَصْلَ القَولِ في كلِّ خُطبةٍ إذا وصَلوا أيمانَهم بالمَخاصِرِ

وقال الكُميت بن زيد:

ونَزُورُ مَسلَمَةَ المُهذَّ بَ بالمؤيَّدةِ السَّوائرْ
بالمُذهَباتِ المُعجِبا تِ لمُفحَمٍ منَّا وشاعِرْ
أهلُ التَّجاوُبِ في المَحا فِلِ والمَقاوِلِ بالمَخاصِرْ

وأيضًا إن حَمْل العصا والمِخصرة دليل على التأهُّب للخطبة، والتهيُّؤ للإطناب والإطالة، وذلك شيءٌ خاص في خطباء العرب، ومقصور عليهم، ومنسوب إليهم، حتى إنهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصرُ في أيديهم؛ اتقاءً وتوقعًا لبعض ما يوجِب حملها والإشارة بها.

وعلى ذلك المعنى أشار النساء بالمآلي وهن قيام في المناحات؛ وعلى ذلك المثال: ضربن الصدور بالنِّعال.

وإنما يكون العجز والذِّلَّة في دخول الخلل والنقص على الجوارح، فأما الزيادة فيها فالصواب فيه، وهل ذلك إلا كتعظيم كُور العمامة، واتخاذ القضاة القلانس العظام في حمارَّة القَيظ، واتخاذ الخلفاء العمائم على القلانس؟ فإن كانت القلانس مكشوفةً زادوا في طولها وحدَّة رءوسها حتى تكون فوق قلانس جميع الأمة، وكذلك القناع؛ لأنه أهيب.

وعلى ذلك المعنى كان يتقنَّع «العبَّاس بن محمد» و«عبد الملك بن صالح»، و«العبَّاس بن موسى» وأشباههم. و«سليمان بن أبي جعفر»، و«عيسى بن جعفر»، و«إسحاق بن عيسى»، و«محمد بن سليمان»، ثم «الفضل بن الربيع» و«السندي بن شاهك» وأشباههما من الموالي؛ لأن ذلك أهيَب في الصدور، وأجَلُّ في العيون. والمتقنِّع أروَع من الحاسر؛ لأنه إذا لم يُفارقه الحِجاب وإن كان ظاهرًا في الطرق، وكان أشبه بملاينة العوام وسياسة الرعية. وطرح القِناع ملابسة وابتذال، ومؤانسة ومقاربة.

والدليل على صواب هذا العمل من بني هاشم، ومن صنائعهم ورجال دعوتهم، وأنهم قد علِموا حاجة الناس إلى أن يهابوهم، وأن ذلك هو صلاح شأنهم، أن رسول الله ﷺ كان أكثر الناس قناعًا.

والدليل على أن ذلك كان في الأسلاف المتبوعين، أنَّا نجد رؤساء جميع أهل المِلل وأرباب النِّحل على ذلك؛ ولذلك اتَّخذوا في الحروب الرايات والأعلام، وإنما ذلك كله خِرَق سُود وحُمْر وصُفر وبِيض. وجعلوا اللواء علامةً للعَقد، والعَلَم في الحروب مرجعًا لصاحب الجولة. وقد علِموا أنها وإن كانت خِرقًا على عِصيٍّ أن ذلك أهيَبُ في القلوب، وأهوَل في الصدور، وأعظم في العيون؛ ولذلك أجمعت الأمم رجالها ونساؤها على إطالة الشعور؛ لأن ذا الجُمَّة أضخم هامةً، وأطول قامة، والكاسي أفخم من العاري. ولولا أن حلق الرأس طاعة وعبادة، وتواضع وخضوع، وكذلك السعي ورمي الجِمار، لَمَا فعلوا ذلك. وفي الحديث أنه لا يفتح عمُّوريةَ إلا رجالٌ ثيابهم ثياب الرُّهبان، وشعورهم شعور النساء. وكل ما زادوه في الأبدان، ووصلوه في الجوارح، فهو زيادة في تعظيم تلك الأبدان.

والعِصي والمَخاصر — مع الذي عددناه، ومع الذي ذكرناه، ونريد ذِكره من خِصال منافعها — كله بابٌ واحد في المعنى.

والمغنِّي قد يوقِّع بالقضيب على أوزان الأغاني، والمُتكلم قد يُشير برأسه ويده على أقسام كلامه وتقطيعه، ففرَّقوا ضروب الحركات على ضروب الألفاظ وضروب المعاني، ولو قُبضت يده ومنع حركة رأسه لذهب ثُلُثا كلامه.

وقال عبد الملك بن مروان: لو ألقيت الخَيزُرانة من يدي لذهب شطر كلامي.

وأراد معاوية سحبان وائل على الكلام، وقد كان اقتضبه اقتضابًا، فلم ينطق حتى أتَوه بمِخصرة فرطَلها بيده فلم تُعجِبه، حتى أتَوه بمِخصرته من بيته. والمثل المضروب بعصا الأعرج، يقولون: أقرَبُ من عصا الأعرج. ويضربون المثل بعصا النَّهدي. وقال علقمة في صفة فرس أنثى:

سُلاءةٌ كعصا النَّهدي غُلَّ لها　　　مُنظَّمٌ من نَوى قُرَّانَ مَعجومُ

ويضربون المثل برُمَيح أبي سعد، وكان أبو سعدٍ أعرج، وفَد في وفْدِ عَدوان. قال ذو الإصبع العَدواني:

إنْ تَكُنْ شِكَّتي رُمَيحَ أبي سَعــ　　　ــدٍ فقد أحمِلُ السِّلاحَ مَعا

قال عبَّاس بن مِرداس:

جَزى اللهُ خيرًا خَيْرَنا لصَدِيقِه　　　وزوَّدَه زادًا كزَادِ أبي سَعدِ
وزوَّدَه صِدقًا وبِرًّا ونائلًا　　　وما كانَ في تلك الوِفادةِ من حَمدِ

وقال آخر:

فآبَ بجَدْوى زامِلٍ وابنُ زامِلٍ　　　عدُوُّك أو جَدْوى كُلَيبِ بنِ وائلِ

ويقولون: لو كان في العصا سير! ويقولون: ما هو إلا أُبْنة عصًا، وعُقدة رِشا. ويقولون: أخرج عوده كعصا البقَّار، وأخرج عوده كعصا الحادي.

وكان أبو العتاهية أهدى إلى أمير المؤمنين المأمون عصا نَبْع، وعصا شريان، وعصا آبنوس، وعصًا أخرى كريمة العِيدان، شريفة الأغصان، وأرديةً قطرية، وركاءً يمانية، ونِعالًا سِبتية، فقَبِل من ذلك عصًا واحدة وردَّ الباقي. وبعث إليه مرةً أخرى بنعل وكتب إليه:

نَعلٌ بَعَثتُ بها لتَلبَسَها　　　تَسعى بها قَدَمٌ إلى المَجدِ
لو كنتُ أقدِرُ أنْ أُشرِّكَها　　　خَدِّي جعلتُ شِراكَها خَدِّي

فقبِلها.

الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عبَّاس، أن الشجرة التي نُودي منها موسى على نبينا وعليه السلام هي عَوسج، وأنه نُودي من جَوف العَوسج، وأن عصاه كانت من آس الجنة، وأنها كانت من العود الذي في وسط الورقة، فكان طولها طول موسى عليه السلام. وقالوا: من العُلَّيق.

وقال آخر:

صَفْراءُ من نَبعٍ كلَونِ الوَرْسِ أبدؤُها بالدَّهنِ قبلَ نَفْسي

وأنشد الأصمعي عن بعض الأعراب:

ألا قالتِ الخَنساءُ يومَ لِقيتُها كبِرتَ ولم تَجزَع من الشَّيبِ مَجزَعا
رأتْ ذا عصًا يَمشي عليها وشَيبةٍ تَقنَّعَ منها رأسُه ما تَقنَّعا
فقلتُ لها لا تَهْزئي بي فقلَّما يَسُودُ الفتى حتى يَشِيبَ ويَصلَعا
ولَلْقارِحُ اليَعبوبُ خيرٌ عُلالةً من الجَذَعِ المُجرى وأبعَدُ مَنزَعا

وقال إسحاق بن سُويد:

في رِداءِ النَّبيِّ أقوى دليلٍ ثُمَّ في العَقْبِ والعَصا والقَضيبِ

وقال أبو الشيص الأعمى[٧٦] في هارون الرشيد:

يا بَنِي هاشمٍ أفيقوا فإنَّ الـ ـمُلكَ منكم حيثُ العَصا والرِّداءُ
ما لِهارونَ في قُرَيشٍ كِفاءٌ وقُرَيشٌ ليست لهم أكْفاءُ

---

[٧٦] أبو الشِّيص: هو محمد بن رزين بن سليمان بن تميم، وهو عم دعبل بن علي الخُزاعي. وأبو الشيص لقبٌ غلب عليه، وكُنيته أبو جعفر. شاعرٌ معروف يُعَد في طبقةٍ دون طبقة مسلم بن الوليد وأشجع السُّلمي وأبي نُواس. وكان مُنقطعًا إلى عقبة بن جعفر بن الأشعث الخزاعي أمير الرقَّة، صرف أكثر شعره في مدحه، وأغناه عقبة عن سؤال غيره. قال عبد الله بن المُعتز: قال لي أبو خالد العامري: من أخبرك أنه كان في الدنيا أشعر من أبي الشيص فكذِّبه، والله لكان الشعر أهوَن عليه من شرب الماء على العطشان. قلت: وأنا لا تُعجبني هذه الأحكام، ولا أُعنى بمن يُصدِرها؛ لِما فيها من المجازفة وعدم التقدير، ولخُلوِّها من البرهان الذي يُقيم أودها. قيل إن أبا الشيص كف بصره في أواخر عمره، ومات مقتولًا بيد غلام في سنة ١٩٦هـ/٨١١م.

وقال الآخر:

عليّ خَشَباتِ المُلكِ منه مَهابةٌ　　وفي الحربِ عَبلُ السَّاعدَينِ قَرُوعُ
يَشُقُّ الوَغى عن رأسِه فضْلُ نَجْدةٍ　　وأبيَضُ من ماءِ الحديدِ وقيعُ

ومما يجوز أيضًا في العصا قول أبي الشيص:

أنْعى فَتى الجُودِ إلى الجُودِ　　ما مِثلُ مَن أنْعى بمَوجودِ
أنْعى فتًى مصَّ الثَّرى بعدَه　　بقيَّةَ الماءِ من العُودِ

ومن هذا الباب قول عبد الله بن جُدعان:

فلم أرَ مِثلَهم حيَّينِ أبْقى　　على الحَدَثانِ إنْ طرَقَت طُرُوقا
وأصبرَ عندَ ضَنكِ الأمرِ منهم　　وأسلَكَهم لأحزَنِه طريقا
شرَيتُ صَلاحَهم بتِلادِ مالي　　فعادَ الغُصنُ مُعتدِلًا ورِيقا

ويقولون للرَّجل إذا أفاد وأثرى وكثُرت نعمته: ضع عصاك، وقد وضع عصاه. وقال أبو الأعور سعيد[٧٧] بن زيد بن عمرو بن نُفيل:

وتَجُرُّ الأذيالَ في نعمةٍ زَوْ　　لٍ تَقُولانِ ضَعْ عَصاكَ لِدَهرِ

ويقولون للمستوطِن في البلد والمُستطيب للمكان: قد ألقى عصاه. وقال زُهير بن أبي سُلمى:

فلمَّا وَرَدنَ الماءَ زُرْقًا جِمامُه　　وضَعنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتخيِّمِ[٧٨]

[٧٧] كان سعيد من السابقين الأولين في الإسلام، وكان إسلام عمر عنده في بيته؛ لأنه كان زوج أخته فاطمة. هاجَر وشهِد أُحدًا والمشاهد بعدها، ولم يشهد بدرًا. وكان شجاعًا فارسًا، وشاعرًا بليغًا. تُوفي سنة ٥١هـ/٦٧١م عن ثلاث وسبعين سنة.

[٧٨] وردن الماء: جئنه وحلَلنَ به، وهي مياه المحاضر التي كانوا ينزلون بها في غير زمن المرتبع. زرقًا جمامه: صافٍ ماؤه على كثرته، وأنه لم يُكدره واردٌ قبلهن. وهذا البيت من قصيدةٍ مشهورة ضِمن المعلَّقات، وأولها:

أمِنْ أُمِّ أوفى دِمنةٌ لم تَكلَّمِ　　بحَومانةِ الدَّرَّاجِ فالمُتثلَّمِ؟

كتاب الزهد

بسم الله الرحمن الرحيم

نبدأ باسم الله وعَونه بشيء من كلام النُّسَّاك في الزهد، وبشيء من ذِكر أخلاقهم ومواعظهم.

عوف، عن الحسن قال: لا تزول قدما ابن آدم حتى يُسأل عن ثلاث؛ شبابه فيمَ أبْلاه، وعمره فيمَ أفناه، وماله من أين كسبه وفيمَ أنفقه.

وقال يونس بن عبيد: سمعت ثلاث كلمات لم أسمع بأعجب منهن؛ قول حسَّان بن أبي سِنان: ما شيءٌ أهوَنَ من ورع، إذا رابَك أمرٌ فدَعه. وقول ابن سيرين: ما حسدت أحدًا على شيءٍ قط. وقول مؤرِّق العِجلي: لقد سألت الله حاجةً منذ أربعين سنة ما قضاها ولا يئست منها. فقيل لمؤرِّق: ما هي؟ قال: تركُ ما لا يعنيني.

وقال أبو حازم الأعرج: إن عُوفينا من شرِّ ما أُعطينا لم يَضِرنا ما زُوِي عنا.

وقال أبو عبد الحميد: لم أسمع أعجب من قول عمر: لو أن الصبر والشكر بَعيرانِ ما باليت أيهما ركِبت.

وقال ابن ضُبارة: إنَّا نظرنا فوجدنا الصبر على طاعةٍ أهوَنَ من الصبر على عذاب الله.

وقال زياد عبد عيَّاش بن أبي ربيعة: أنا من أن أُمنَع الدعاء أخوَفُ من أن أُمنَع الإجابة.

وقال له عمر بن عبد العزيز رحمه الله: يا زياد، إني أخاف الله مما دخلت فيه. قال: لست أخاف عليك أن تخاف، وإنما أخاف عليك ألا تخاف. وقال بعض النُّسَّاك: كفى موعظةً أنك لا تموت إلا بحياة، ولا تحيا إلا بموت. وهو الذي قال: اصحب من ينسى معروفه عندك. وهو الذي قال: لا تجعل بينك وبين الله مُنعِمًا، وعُدَّ النِّعَم منه عليك مَغرَمًا.

ودخل سالم بن عبد الله مع هشام بن عبد الملك البيت، فقال له هشام: سَلْني حاجتك. قال: أكره أن أسأل في بيت الله غيرَ الله.

وقيل لرابعة القيسية: لو كلَّمنا رجال عشيرتكِ فاشترَوا لكِ خادمًا تكفيك مؤنة بيتك؟ قالت: والله إني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا، فكيف أسألها من لا يملكها؟

وقال بعض النُّسَّاك: دياركم أمامكم، وحياتكم بعد موتكم.

وقال السَّمَوءَل بن عادياء اليهودي:

مَيتًا خُلِقتُ ولم أكُنْ من قَبلِها شَيئًا يَمُوتُ فمتُّ حينَ حيِيتُ

وقال أبو الدَّرداء: كان الناس ورقًا لا شوك فيه، وهم اليوم شوكٌ لا ورق فيه.

الحسن بن دينار قال: رأى الحسن رجلًا يكيد بنفسه. فقال: إن امرأً هذا آخره لجديرٌ أن يُزهَد في أوله، وإن أمرأً هذا أوله لجديرٌ أن يُخاف آخره.

وقال أبو حازم: الدنيا غرَّت أقوامًا فعملوا فيها بغير الحق، ففاجأهم الموت، فخلَّفوا ما لهم لمن لا يحمدهم، وصاروا إلى من لا يَعذِرهم؛ وقد خُلِّفنا بعدهم، فينبغي لنا أن ننظر إلى الذي كرِهناه منهم فنجتنبه، وإلى الذي غبِطناهم به فنستعمله.

موسى بن داود، رفع الحديث قال: النظر إلى خمسةٍ عبادة؛ النظر إلى الوالدَين، والنظر إلى البحر، والنظر إلى المصحف، والنظر إلى الصخرة، والنظر إلى البيت.

عبد الله بن شداد قال: أربعٌ من كنَّ فيه فقد برئ من الكِبْر؛ من اعتقل البعير، وركِب الحمار، ولبِس الصوف، وأجاب دعوة الرجل الدُّون.

وذُكِر عند أنسٍ الصوم فقال: ثلاثٌ من أطاقَهن فقد ضبط أمره؛ من تسحَّر، ومن قال،[١] ومن أكل قبل أن يشرب، وشرِب ثم لم يأكل؛ فقد ضبط نفسه.

وقال الجمَّاز:[٢] ليس يقوى على الصوم إلا من كَثُر لَقمه، وطاب أُدْمه.

مُجالد بن سعيد، عن الشَّعبي قال، حدَّثني مُرَّة الهَمْداني — قال مجالد: وقد رأيته — وحدَّثنا إسماعيل بن أبي خالد أنه لم يرَ مِثل مُرَّة قط، كان يصلِّي في اليوم

---

[١] قال، من القيلولة: النوم في الظهيرة.

[٢] الجماز: هو ابن أخت سَلم الخاسر، كان شاعرًا جيِّد القريحة في الهجاء، وكان ظريفًا مستهترًا. هجا أبا العتاهية وعبد الصمد بن المعذَّل والجاحظ وغيرهم، فلم يقُم له منهم أحد. ومن أفضل ما قاله في أبي العتاهية قوله وقد دخل عليه وهو يُنشد قثم بن جعفر بن سليمان، فأنشأ يقول:

ما أقبَحَ التَّزهيدَ من واعظٍ يُزهِّدُ النـاسَ ولا يَزهَدُ
لو كانَ في تزهيدِه صادقًا أضحى وأمسى بَيتُه المَسجدُ

والليلة خمسمائة ركعة. وكان مُرَّة يقول: لما قُتل عثمان، رضي الله تعالى عنه حمدت الله ألا أكون دخلت في شيء من قتله، فصلَّيت مائة ركعة؛ فلما وقع الجَمل وصِفِّين حمدت الله ألا أكون دخلت في شيء من تلك الحروب، وزدت مائتي ركعة؛ فلما كانت وقعة النهروان حمدت الله إذ لم أشهدها، وزدت مائة ركعة؛ فلما كانت فتنة ابن الزبير حمدت الله إذ لم أشهدها، وزدت مائة ركعة.

وأنا أسأل الله أن يغفر لمُرة، على أنَّا لا نعرف لبعض ما قال وجهًا؛ لأنك لا تعرف فقيهًا من أهل الجماعة لا يستحلُّ قتال الخوارج، كما أنَّا لا نعرف أحدًا منهم لا يستحلُّ قتال اللصوص، وهذا ابن عمر، وهو رئيس الحلسية وزعيمهم، قد لبس السلاح لقتال نجدة. وقيل لشُريح: الحمد لله الذي سلَّمك من القتال في شيء من هذه الفتن. قال: فكيف أصنع بقلبي وهواي؟ وقال الحسن: قتل الناقةَ رجلٌ واحد، ولكن الله عمَّ القوم بالعذاب لأنهم عمُّوه بالرضا. وسُئل عمر بن عبد العزيز عن قتلة عثمان وخاذليه وناصريه، فقال: تلك دماءٌ كفَّ الله يدي عنها؛ فأنا أُحبُّ ألا أغمس لساني فيها.

ودخل أبو الدرداء على رجلٍ يعوده فقال: كيف تجدك؟ فقال: أفرَقُ من الموت. قال: فمِمَّن أصبتَ الخير كله؟ قال: من الله. قال: فلِمَ تَفرَق ممَّن لم تُصِب الخير كله إلا منه؟

يَخافُ أنْ تَنفَدَ أرزاقُه ... والرِّزقُ عندَ اللهِ لا يَنفَدُ

والرِّزقُ مقسومٌ على مَن تَرى ... يَنالُه الأبيَضُ والأسوَدُ

وهجا الجماز عبد الصمد بن المعذل بقوله:

ابنُ المعذَّلِ من هو ... ومَن أبُوه المعذَّلُ

سألتُ وهبانَ عنه ... فقالَ بيضٌ مُحوَّلُ

ووهبان هذا كان رجلًا يبيع الدجاج، فقال عبد الصمد يهجو الجماز:

نَسَبُ الجمَّازِ مقصو ... رٌ إليه مُنتهاه

يتراءى نَسَبُ النا ... سِ فما يَخفى سِواه

يَتحاجى في أبي الجمَّا ... زِ من هو كاتِباه

ليس يَدري من أبو الجمَّا ... زِ إلا من يَراه

هذه رواية أبي الفرج. ومن الغريب أنَّ يموت بن المزرع روى هذا الشعر للجاحظ في الجماز كما أثبتناه في ترجمته في صدر الجزء الأول.

ولما قُذِف إبراهيم عليه السلام في النار قال له جبرائيل عليه السلام: ألك حاجة يا خليل الله؟ قال: أما إليك فلا.

ورأى بعض النُّسَّاك صديقًا له من النُّسَّاك مهمومًا، فسأله عن ذلك، فقال: كان عندي يتيمٌ أحتسب فيه الأجر، فمات. قال: فاطلب يتيمًا غيره؛ فإن ذلك لا يعدمك إن شاء الله. قال: أخاف ألا أصيب يتيمًا في سوء خُلُقه. قال: أما إني لو كنت مكانك لم أذكُر سوء خُلُقه.

ودخل بعض النُّسَّاك على صاحب له وهو يكيد بنفسه، فقال: طِبْ نفسًا؛ فإنك تلقى ربًّا رحيمًا. قال: أما ذنوبي فإني أرجو أن يغفرها الله لي، وليس اغتمامي إلا لمن أدعُ من بناتي. قال له صاحبه: الذي ترجوه لمغفرة ذنوبك فارْجُه يحفظ بناتك!

وكان مالك بن دينار يقول: لو كانت الصحف من عندنا لأقلَلنا الكلام.

وقال يونس بن عبيد: لو أُمِرنا بالجَزَع لصبرنا. وكان يقول: كسبت في هذه السوق ثمانين ألفَ درهمٍ ما فيها درهم إلا وأنا أخاف أن أُسأل عنه.

سمع عمرو بن عبيد عبدَ الرحمن بن حذيفة يقول: قال الحُطيئة: إنما أنا حَسبٌ موضوع. فقال عمرو: كذب، ترَّحه الله، ذلك التَّقوى.

وقال أبو الدرداء: نِعْم صومعة المؤمن مَنزلٌ يكفُّ فيه نفسه وبصره وفرجه، وإيَّاكم والجلوس في هذه الأسواق؛ فإنها تُلغِي وتُلهِي.

(١) عظةٌ بالغة للحسن البصري

وقال الحسن: يا ابن آدم، بِع دُنياك بآخرتك تربحهما جميعًا، ولا تَبِع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعًا. يا ابن آدم، إذا رأيت الناس في الخير فنافِسْهم فيه، وإذا رأيتهم في الشر فلا تَغبِطهم به. الثواء ها هنا قليل، والبقاء هناك طويل. أُمَّتكم آخر الأمم، وأنتم آخر أُمَّتكم، وقد أُسرعَ بخِيارکم، فماذا تنظرون؟ آلْمُعايَنة؟ فكأنْ قد. هيهات هيهات، ذهبت الدنيا بحال بالها، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم، فيا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة. أما إنه والله لا أُمة بعد أمتكم، ولا نبيَّ بعد نبيكم، ولا كتاب بعد كتابكم. أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وإنما يُنتظر بأولكم أن يلحقه آخركم. من رأى محمدًا ﷺ فقد رآه غاديًا ورائحًا، لم يضع لبنةً على لبنة، ولا قصبةً على قصبة، رُفِع له عَلمٌ فشمَّر إليه؛ فالوَحاءَ الوَحاء، والنَّجاءَ النَّجاء. علامَ تعرجون؟

أُتيتُم ورب الكعبة. قد أُسرِعَ بخِيارِكم وأنتم كل يوم ترذلون، فماذا تنتظرون؟ إن الله تبارك وتعالى بعث محمدًا ﷺ على علم منه، اختاره لنفسه، وبعثه برسالته، وأنزل عليه كتابه، وكان صفوته من خلقه، ورسوله إلى عباده، ثم وضعه من الدنيا موضعًا ينظر إليه أهل الأرض، وآتاه منها قوتًا وبُلْغة، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. فرغِب أقوام عن عيشه، وسخِطوا ما رضِي له ربه، فأبعدهم الله وسحقهم. يا ابن آدم، طَأِ الأرض بقدمك؛ فإنها عن قليلٍ قبرُك. واعلم أنك لم تزَل في هدم عمرك، منذ سقطت من بطن أمك. رحِمَ الله رجلًا نظر فتفكَّر، وتفكَّر فاعتبر، وأبصر فصبر؛ فقد أبصر أقوام ولم يصبروا، فذهب الجزع بقلوبهم، ولم يُدركوا ما طلبوا، ولم يرجعوا إلى ما فارَقوا. يا ابن آدم، اذكُر قوله: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. عدَل واللهِ عليك من جعَلك حسيب نفسك. خُذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها؛ فليس الصفو ما عاد كدرًا، ولا الكدر ما عاد صفوًا. دعوا ما يَرِيبكم إلى ما لا يَرِيبكم. ظهر الجفاء، وقلَّت العلماء، وعفَت السُّنَّة، وشاعت البدعة. لقد صحِبت أقوامًا ما كانت صحبتهم إلا قُرة العين، وجِلاء الصدور. ولقد رأيت أقوامًا كانوا لحسناتهم أشفَق من أن تُرَد عليهم منكم من سيئاتكم أن تُعذَّبوا عليها، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرَّم الله عليكم منها. ما لي أسمع حسيسًا، ولا أرى أنيسًا؟ ذهب الناس وبقي النسناس. لو تكاشفتم ما تدافنتم. تهادَيتم الأطباق ولم تتهادَوا النصائح. قال ابن الخطاب: رحِمَ الله امرأً أهدى إلينا مساوينا. أعِدُّوا الجواب فإنكم مسئولون. المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه، ولكن أخذه من قِبَل ربه. إن هذا الحق قد جهِد أهله وحال بينهم وبين شهواتهم، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله ورجا عاقبته؛ فمن حمِد الدنيا ذمَّ الآخرة، وليس يكره لقاءَ الله إلا مُقيم على سخطه. يا ابن آدم، الإيمان ليس بالتحلِّي ولا بالتمنِّي، ولكنه ما وقَر في القلب وصدَّقه العمل.

وكان إذا قرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، قال: عمَّ ألهاكم؟ عن دار الخلود، وجَنَّة لا تبيد. هذا، والله فضَح القوم، وهتَك الستر، وأبدى العُوار. تُنفِق مِثل دينك في شهواتك سَرفًا، وتمنع في حق الله درهمًا؟ ستَعلَم يا لُكَع. الناس ثلاثة: مؤمن، وكافر، ومنافق؛ فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف، وقوَّمه ذِكر العرض؛ وأما الكافر فقد قمعه السيف، وشرَّده الخوف، فأذعن بالجِزية، وسمح بالضريبة؛ وأما المُنافق ففي الحُجرات والطُّرقات، يُسرُّون غير ما

يُعلنون، ويُضمِرون غير ما يُظهرون؛ فاعتبروا إنكارهم ربَّهم بأعمالهم الخبيثة. وَيلَك، قتلتَ وليَّه ثم تتمنَّى عليه جَنَّته؟

وكان يقول: رحِمَ الله رجلًا خلا بكتاب الله، فعرَض عليه نفسه؛ فإن وافَقه حمِد ربه وسأله الزيادة من فضله، وإن خالَفه اعتتب وأناب، وراجَع من قريب. رحِمَ الله رجلًا وعظ أخاه وأهله فقال: يا أهلي، صَلاتَكم صَلاتَكم، زكاتَكم زكاتَكم، جيرانَكم جيرانَكم، إخوانَكم إخوانَكم، مساكينَكم مساكينَكم، لعل الله يرحمكم؛ فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبدٍ من عِباده فقال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾. يا ابن آدم، كيف تكون مُسلِمًا ولم يَسلَم منك جارك؟ وكيف تكون مؤمنًا ولم يأمَنْك الناس؟

وكان يقول: لا يستحقُّ أحدٌ حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه، ولا يأمر بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه؛ فإنه إذا فعل ذلك لم يُصلِح عيبًا إلا وجد في نفسه عيبًا آخر ينبغي له أن يُصلِحه؛ فإذا فعل ذلك شُغِل بخاصة نفسه عن عيب غيره. وإنك ناظر إلى عملك بوزن خيره وشره، فلا تَحقِرنَّ شيئًا من الخير وإن صَغُر؛ فإنك إذا رأيته سرَّك مكانه، ولا تحقِرنَّ شيئًا من الشر وإن صَغُر؛ فإنك إذا رأيته ساءك مكانه.

وكان يقول: رحِمَ الله عبدًا كسب طيبًا، وأنفق قصدًا، وقدَّم فضلًا. وجِّهوا هذه الفضول حيث وجَّهها الله، وضعوها حيث أمر الله؛ فإنَّ من كان قبلكم كانوا يأخذون من الدنيا بَلاغهم، ويؤثِرون بالفضل. ألا إن هذا الموت قد أضرَّ بالدنيا ففضحها؟ فلا والله ما وُجِد ذو لُب فيها فرِحًا؛ فإيَّاكم وهذه السُّبل المتفرِّقة التي جِماعها الضلالة، وميعادها النار. أدركت من صدر هذه الأمة قومًا كانوا إذا جنَّهم الليل فقيامٌ على أطرافهم، يفترشون خدودهم، تجري دموعهم على خدودهم، يُناجون مولاهم في فِكاك رِقابهم، إذا عمِلوا الحسنة سرَّتهم وسألوا الله أن يتقبَّلها منهم، وإذا عملوا سيئة ساءتهم، وسألوا الله أن يغفرها لهم. يا ابن آدم، إن كان لا يُغْنيك ما يكفيك، فليس ها هنا شيءٌ يُغْنيك؛ وإن كان يُغْنيك ما يكفيك، فالقليل من الدنيا يكفيك. يا ابن آدم، لا تعمل شيئًا من الحق رياءً، ولا تتركه حياءً.

وكان يقول: إن العلماء كانوا قد استغنَوا بعِلمهم عن أهل الدنيا، وكانوا يقضون بعلمهم على أهل الدنيا ما لا يقضي أهل الدنيا بدنياهم فيها. وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم لأهل العلم رغبةً في عِلمهم، فأصبح اليوم أهل العلم يبذلون علمهم لأهل الدنيا رغبةً في دنياهم؛ فرغِب أهل الدنيا بدنياهم عنهم، وزهِدوا في عِلمهم لِما رأوا من سوء مَوضعه عندهم.

وكان يقول: لا أذهب إلى من يُواري عني غِناه، ويُبدي لي فقره، ويُغلِق دوني بابه، ويمنعني ما عنده؛ وأدَع من يفتح لي بابه، ويُبدي لي غناه، ويدعوني إلى ما عنده.

وكان يقول: يا ابن آدم، لا غِنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، مؤمنٌ مُهتم، وعِلجٌ أغتَم، وأعرابي لا فِقه له، ومُنافقٌ مكذِّب، ودنياوي مُترَف، نعَق بهم ناعق فاتَّبعوه، فَراشُ نار، وذِبَّان طمَع. والذي نفس الحسن بيده ما أصبح في هذه القرية مؤمنٌ إلا أصبح مهمومًا رزينًا، وليس لمؤمنٍ راحةٌ دون لقاء الله. الناس ما داموا في عافيةٍ مستورون، فإذا نزل بهم بَلاءٌ صاروا إلى حقائقهم؛ فصار المؤمن إلى إيمانه، والمنافق إلى نفاقه. أيْ قوم، إن نعمة الله عليكم أفضل من أعمالكم، فسارِعوا إلى ربكم؛ فإنه ليس لمؤمنٍ راحةٌ دون الجنة، ولا يزال العبد بخيرٍ ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همِّه.

وقال الحسن في يوم فِطر، وقد رأى الناس وهيئاتهم: إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مِضمارًا لخلقه يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلَّف آخرون فخابوا؛ فالعَجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المُحسِنون، ويخسر فيه المُبطِلون. أما والله لو أن كُشِف الغطاء لشُغِل مُحسِن بإحسانه، ومُسيء بإساءته، عن ترجيل شعر، أو تجديد ثوب.

(٢) عِظات لعمر بن الخطاب

وحدَّث عن عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، أنه قال: الناس طالبان؛ طالبٌ يطلب الدنيا فارفضوها في نحره؛ فإنه ربما أدرك الذي طلب منها فهلك بما أصاب منها، وربما فاته الذي طلب منها فهلك بما فاته منها؛ وطالبٌ يطلب الآخرة، فإذا رأيتم طالب الآخرة فنافِسوه.

وحدَّث عن عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، أنه قال: يا أيها الناس، إنه أتى عليَّ حينٌ وأنا أحسب أن من قرأ القرآن أنه إنما يريد به الله وما عنده، ألا وقد خُيِّل إليَّ أن أقوامًا يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس، ألا فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم؛ فإنا كنا نعرفكم إذا الوحي ينزل، وإذا النبي ﷺ بين أظهُرنا؛ فقد رُفع الوحي وذهب النبي ﷺ؛ فإنما أعرفكم بما أقول لكم. ألا فمن أظهر لنا خيرًا ظننَّا به خيرًا وأثنَينا به عليه، ومن أظهر لنا شرًّا ظننَّا به شرًّا وأبغضناه عليه. اقدَعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طُلَعة؛ فإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية. إن هذا

الحق ثقيلٌ مرئ، وإن الباطل خفيف وبئ. وتركُ الخطيئة خيرٌ من معالجة التوبة. ورُبَّ نظرةٍ زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنًا طويلًا.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فكأنَّك بالدنيا لم تكُن، وبالآخرة لم تزَل.

وقال أبو حازمٍ الأعرج: وجدت الدنيا شيئَين؛ شيئًا هو لي لن أعجَله دون أجله ولو طلبتُه بقوة السموات والأرض، وشيئًا هو لغيري لم أنَلْه فيما مضى ولا أناله فيما بقي، يُمنَع الذي لي كما يُمنَع الذي لغيري مني؛ ففي أي هذين أفني عمري وأهلك نفسي؟

ودخل على بعض ملوك بني مروان فقال: يا أبا حازم، ما المَخرج مما نحن فيه؟ قال: تنظر إلى ما عندك فلا تضعه إلا في حقه، وما ليس عندك فلا تأخذه إلا بحقه. قال: ومن يُطِيق ذلك يا أبا حازم؟ قال: فمن أجل ذلك مُلئت جهنم من الجِنَّة والناس أجمعين. قال: ما مالك؟ قال: مالان. قال: ما هما؟ قال: الثقة بما عند الله، واليأس مما في أيدي الناس. قال: ارفع حوائجك إلينا. قال: هيهات، رفعتها إلى من لا تُختزَل الحوائج دونه؛ فإن أعطاني منها شيئًا قبِلت، وإن زوى عني شيئًا رضِيت.

وقال الفُضَيل بن عِياض: يا ابن آدم، إنما يَفضُلك الغنيُّ بيومَين؛ أمس قد خلا، وغدٌ لم يأتِ؛ فإن صبرت يومك أحمدت أمرك وقوِيت على غدك، وإن جزعت يومك أذممت أمرك وضعفت عن غدك. وإن الصبر يُورِث البُرء، وإن الجَزع يُورِث السقم؛ وبالسقم يكون الموت، وبالبرء تكون الحياة.

وقال الحسن: أبا فلان، أترضى هذه الحال التي أنت عليها للموت إذا نزل بك؟ قال: لا. قال: أفتحدِّث نفسك بالانتقال عنها إلى حالٍ ترضاها للموت إذا نزل بك؟ قال: حديثًا بغير حقيقة. قال: أفبعد الموت دار فيها مُستعتَب؟ قال: لا. قال: فهل رأيت عاقلًا رضِي لنفسه بمِثل الذي رضِيتَ به لنفسك؟

(٣) كلامٌ منسوب لسيدنا عيسى

قال عيسى بن مريم صلوات الله على نبينا وعليه: «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، وإلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يُميت قلوبهم، وتركوا منها ما علِموا أنْ سيتركهم.» ورأوه يخرج من بيت مُومِسة، فقيل له: يا رُوح الله، ما تصنع عند هذه؟ قال: إنما يأتي الطبيب المرضى. وقال حين مرَّ ببعض الخلق فشتموه، ثم مر بآخرين

فشتموه، فكلما قالوا شرًّا قال خيرًا، فقال له رجل من الحواريِّين: كلما زادوك شرًّا زِدتهم خيرًا حتى كأنك إنما تُغْريهم بنفسك، وتحثُّهم على شتمك! قال: كل إنسان يُعطي مما عنده. وقال: وَيلَكم يا عبيد الدنيا، كيف تُخالف فُروعكم أصولكم، وعقولكم أهواءكم؟ قولكم شفاء يُبرئ الداء، وعَملكم داءٌ لا يَقبَل الدواء. ولستم كالكَرمة التي حسن ورقُها، وطاب ثمرها، وسهُل مُرتقاها، بل أنتم كالثمرة التي قلَّ ورقها، وكثُر شوكها، وصعُب مُرتقاها. وَيلَكم يا عبيد الدنيا، جعلتم العمل تحت أقدامكم من شاء أخذه، وجعلتم الدنيا فوق رءوسكم لا يُستطاع تناولها. لا عبيدٌ أتقِياء، ولا أحرارٌ كِرام. وَيلَكم أُجراءَ السوء، الأجرَ تأخذون، والعملَ تُفسِدون. سوف تلقَون ما تَحذَرون. يوشك رب العمل أن ينظر في عمله الذي أفسدتم، وفي أجره الذي أخذتم. وَيلَكم غُرَماء السوء، تبدءون قبل قضاء الدَّين بالنوافل، تطَّوعون، وما أُمِرتم به لا تؤدُّون، إن رب الدَّين لا يقبل الهدية حتى يُقضى دينه.

وكان أبو الدَّرداء يقول: أقرَبُ ما يكون العبد من غضب الله إذا غضِب، واحذر أن تظلم من لا ناصر له إلا الله. وقال وَزرٌ العبد:

لَعَمرُ أبي المملوكُ ما عاشَ إنَّه وإنْ أعجَبَته نَفْسُه لَذَلِيلُ
يرى الناسَ أنصارًا عليه وما له من الناسِ إلا ناصِرُونَ قليلُ

وقال شيخ من أهل البادية: المعرِّض بالناس اتَّقى صاحبه ولم يتَّقِ ربه.

وكان بكر بن عبد الله يقول: أطفِئوا نار الغضب بذِكر نار جهنم. وقال: من كان له من نفسه واعظٌ عارَضه ساعةَ الغفلة، وحينَ الحميَّة.

وقال علي رضي الله تعالى عنه للأشتر: انظر في وجهي. حين جرى بينه وبين الأشعث بن قيس ما جرى.

وكانت العجم تقول: إذا غضِب الرَّجل فليَستلقِ، وإذا أعيا فليرفع رِجلَيه.

وقال أبو الحسن: كان لرجل من النُّسَّاك شاة، وكان مُعجَبًا بها، فجاء يومًا فوجدها على ثلاث قوائم، فقال: من صنع هذا بالشاة؟ قال غلامه: أنا. قال: ولِمَ؟ قال: أردت أن أغمَّك. قال: لا جَرَم، لأغُمنَّ الذي أمرك بغمِّي، اذهب فأنت حُر.

سعيد بن عامر، عن محمد بن عمرو بن علقمة قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يُخاطب الناس وهو يقول: ما أنعَمَ الله على عبدٍ نعمةً فانتزعها منه فعاضه من ذلك الصبر إلا كان ما عاضَه اللهُ أفضلَ ممَّا انتزع منه. ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد عن أصحابه، قال: حضرتْ عمرَو بن عُبيد الوفاةُ فقال لعديله: نزل بي الموت ولم أتأهَّب له، اللهم إنك تَعلَم أنه لم يُسنَح لي أمران لك في أحدهما رضًا ولي في الآخر هوًى إلا آثرت رِضاك على هواي، فاغفر لي.

ولما خبَّر أبو حازمٍ سليمان بن عبد الملك بوعيد الله للمُذنِبين، قال: فأين رحمة الله؟ قال أبو حازم: ﴿قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

قالوا: وخرج عثمان بن عفان، رضي الله تعالى عنه، من داره، فرأى في دهليزه أعرابيًّا في بَتٍّ، أشغى، غائر العينَين، مُشرِف الحاجبَين، فقال: يا أعرابي، أين ربك؟ قال: بالمِرصاد.

وكان الأعرابي عامرَ بن عبد قيس، وكان ابن عامر سيَّره إليه.

قال: وغدا أعرابي من طيِّئ مع امرأة له، فاحتلبا لبنًا ثم قعدا يتجمعان، فقالت له امرأته: أنحن أنعَمُ عَيشًا أم بنو مروان؟ قال: هم أطيَبُ طعامًا منَّا، ونحن أردأ كُسوةً منهم؛ وهم أنعم منا نهارًا، ونحن أظهر منهم ليلًا.

قال: وعَظ عمر بن الخطاب رجلًا فقال: لا يُلهِك الناس عن نفسك؛ فإن الأمر يصير إليك دونهم. ولا تقطع النهار سادرًا؛ فإنه محفوظ عليك ما عمِلت. وإذا أسأت فأحسن؛ فإني لم أرَ شيئًا أشدَّ طلبًا ولا أسرع درَكًا من حسنةٍ حديثة لذنبٍ قديم.

قال: وكان بلال بن مسعود يقول: زاهِدُكم راغب، ومُجتهدكم مقصِّر، وعالِمكم جاهل، وجاهلكم مُقتِر.

مَسلمة بن مُحارب قال: قال عامر بن عبد قيس: الدنيا والِدة للموت، ناقضة للمُبرَم، مُرتجِعة للعطيَّة، وكل من فيها يجري إلى ما لا يدري، وكل مستقر فيها غير راضٍ بها، وذلك شهيد بأنها ليست بدار قرار.

قال الحسن: من أيقن بالخَلَف جاد بالعطيَّة.

وقال أسماء بن خارجة: إذا قَدُمت المودَّة سَمُج الثناء.

وقال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القُرَظي: عِظْني. قال: لا أرضى نفسي لك، إني لَأصلِّي بين الغني والفقير فأميل على الفقير، وأوسِّع على الغني.

وقال الحسن: ما أطال عبدٌ الأمل إلا أساء العمل.

قال: وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا قيل له مات فلان، قال: لا إله إلا الله. وكان عثمان يقول: فلا إله إلا الله. وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه كثيرًا ما يُنشد:

لا تَزالُ تَنْعى مَيِّتًا حتى تَكُونَه ... وقد يَرجُو الفتى الرَّجا فيَمُوتُ دُونَه

وركِب سليمان بن عبد الملك يومًا في زيٍّ عجيب، فنظرت إليه جارية فقالت: إنك لمعنيٌّ ببَيتَي الشاعر. قال: وما هما؟ فأنشدته:

أنتَ نِعْمَ المَتاعُ لو كنتَ تَبْقى غـيـرَ أنْ لا بَـقـاءَ لـلإنـسـانِ
ليس فيما بَدا لنا منك عَيبٌ كان في الناسِ غيرَ أنَّك فانِ

قال: وَيلكِ، نعَيتِ إليَّ نفسي؟

قال: وصام رجلٌ سبعين سنة، ثم دعا الله في حاجة لم يستجب له، فرجع إلى نفسه فقال: منكِ أُتيت. فكان اعترافه أفضل من صومه. وقال: من تذكَّر قدرة الله لم يستعمل قدرته في ظلم عباده.

وقال الحسن: إذا سرَّك أن تنظر إلى الدنيا بعدك فانظر إليها بعد غيرك. وكان الحسن يقول: ليس الإيمان بالتمنِّي ولا بالتحلِّي، ولكن ما وقر في القلوب وصدَّقه العمل.

ومات ذر بن أبي ذر الهَمْداني من بني مُرهِبة — وهو ذر بن عمر بن ذر — فوقف أبوه على قبره فقال: يا ذر، شغلني الحزن لك عن الحزن عليك. ثم قال:

اللهم إنك وعدتني بالصبر على ذرٍّ صلواتِك ورحمتَك. اللهم وقد وهبتَ ما جعلت لي من أجر على ذر لذر، فلا تُعرِّفه قبيحًا من عمله. اللهم وقد وهبتَ له إساءته إليَّ فهَبْ لي إساءته إلى نفسه؛ فإنك أجوَد وأكرم. فلما انصرف عنه التفت إلى قبره فقال: يا ذر، قد انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا ما نفعناك.

سُحَيم بن حفص قال: قال هانئ بن قبيصة لحُرقة ابنة النُّعمان، ورآها تبكي: ما لكِ تبكين؟ قالت: رأيت لأهلك غَضارة، ولم تمتلئ دارٌ قط فرحًا إلا امتلأت حزنًا.

ونظرت امرأةٌ أعرابية إلى امرأةٍ حولها عشرةٌ من بنيها كأنهم الصقور، فقالت: لقد ولدت أمُّكم حزنًا طويلًا.

وقال النبي ﷺ لأزواجه: «أسرَعُكنَّ لَحاقًا بي أطوَلُكنَّ يدًا.» فكانت عائشة تقول: أنا تلك أطولكن يدًا. فكانت زينب بنت جحش؛ وذلك أنها كانت امرأةً كثيرة الصدقة، وكانت صَناعًا تصنع بيدها وتبيعه وتتصدق به.

قال الشاعر:

فما إنْ كانَ أكثَرَهم سَوامًا ولكنْ كانَ أطوَلَهم ذِراعا

كان الحسن يقول: ما أنعم الله على عبدٍ نعمة إلا وعليه فيها تَبِعة، إلا ما كان من نعمته لسليمان على نبينا وعليه السلام؛ فإن الله عز وجل قال عزَّ ذِكره: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وباع عبد الله بن عُتبة بن مسعود أرضًا بثمانين ألفًا، فقيل له: لو اتَّخذت لولدك من هذا المال ذُخرًا. قال: أنا أجعل هذا المال ذخرًا لي عند الله، وأجعل الله ذُخرًا لولدي. وقسَم المال.

وقال رجل: صحِبت الربيع بن خيثم سنتَين، فما كلَّمني إلا كلمتَين؛ قال لي مرةً: أمُّك حيَّة؟ وقال لي مرةً أخرى: كم في بني تميم من مسجد؟ وقال أبو فَروة: كان طارقٌ صاحب شُرَط خالد بن عبد الله القَسري مرَّ بابن شُبرمة، وطارق في موكبه، فقال ابن شُبرمة:

أراها وإنْ كانت تُحَبُّ فإنَّها سَحابةُ صَيفٍ عن قريبٍ تَقشَّعُ

اللهم لي ديني ولهم دنياهم. فاستُعمل ابن شُبرمة على القضاء بعد ذلك، فقال ابنه: أتذكُر قولك يوم مرَّ طارق في موكبه؟ فقال: يا بُني، إنهم يجدون مِثل أبيك، ولا يجد أبوك مِثلهم. يا بُني، إن أباك أكل من حَلوائهم، وحطَّ في أهوائهم.

قال الحسن: من خاف اللهَ أخاف منه كلَّ شيء، ومن خاف الناسَ أخافه اللهُ من كل شيء. وقال الحسن: ما أُعطيَ رجل من الدنيا شيئًا إلا قيل له: خُذه ومِثلَه من الحرص.

قال: ومر مروان بن الحكم في العام الذي بُويع فيه بزُرارة بن جُزَي الكلابي — وهم على ما لهم — فقال: كيف أنتم آلَ جُزي؟ قالوا: بخير، زرَعَنا الله فأحسنَ زرْعَنا، وحصَدَنا فأحسنَ حصادَنا.

وقال الحسن: ابن آدم، إنما أنت عدد، فإذا مضى يوم فقد مضى بعضك. مَسلمة قال: وقال الحسن: ابنَ آدم، إن كان يُغْنيك من الدنيا ما يكفيك فأدنى ما فيها يُغْنيك، وإن كان لا يُغْنيك منها ما يكفيك فليس فيها شيءٌ يُغْنيك. قال: نزل الموت بفتًى كان فيه رمق، فرفع رأسه فإذا أبواه يبكيان عند رأسه، فقال: ما لكما تبكيان؟ قالوا: تخوفًا عليك من الذي كان منك من إسرافك على نفسك. فقال: لا تبكيا؛ فوالله ما يسرُّني أن الذي بيد الله بأيديكما.

أبو الحسن، عن علي بن عبد الله القرشي قال، قال قتادة: يُعطي الله العبد على نية الآخرة ما شاء من الدنيا والآخرة، ولا يُعطي على نية الدنيا إلا الدنيا.

عوانة قال، قال الحسن: قدِم علينا بِشر بن مروان أخو الخليفة وأمير المِصرَين وأشبُّ الناس، فأقام عندنا أربعين يومًا، ثم طُعِن في قدمه فمات، فأخرجناه إلى قبره، فلما صِرنا به إلى الجبَّانة فإذا نحن بأربعة سودان يحملون صاحبًا لهم إلى قبره، فوضعنا السرير فصلَّينا عليه، ووضعوا صاحبهم فصلَّوا عليه، ثم حملنا بِشرًا إلى قبره، ودفنَّا بِشرًا، ودفنوا صاحبهم، ثم انصرفوا وانصرفنا، ثم التفتُّ التفاتةً فلم أعرف قبر بِشر من قبر الحبشي، فلم أرَ شيئًا قطُّ كان أعجبَ منه.

وقال عبد الله بن الزِّبَعرى:

والعَطِيَّاتُ خِساسٌ بيْنَنا وسَواءٌ قبرُ مُثْرٍ ومُقِلْ

وتقول الحكماء: ثلاثة أشياء يستوي فيها الملوك والسُّوقة، والعِلية والسِّفلة؛ الموت، والطَّلْق، والنَّزْع.

وقال الهَيثم بن عدي عن رجاله: بَيْنا حُذيفة بن اليمان وسَلمان الفارسي يتذاكران أعاجيب الزمان، وتغيُّر الأيام — وهما في عَرصة إيوان كسرى — وكان أعرابي من غامدٍ يرعى شُوَيهات له نهارًا، فإذا كان الليل صيَّرهن إلى داخل العرصة، وفي العرصة سرير رخام كان كسرى ربما جلس عليه، فصعدت غُنَيمات الغامدي على سرير كسرى، فقال سلمان: ومن أعجب ما تَذاكرنا صعودُ غُنَيمات الغامدي على سرير كسرى.

قال: لما انصرف علي بن أبي طالب، رضي الله تعالى عنه، من صِفِّين مرَّ بمقابر، فقال: السلام عليكم أهلَ الديار المُوحِشة، والمحالِّ المُقفِرة، من المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، أنتم لنا سلفٌ فارط، ونحن لكن تبع، وبكم عما قليلٍ لاحقون. اللهم اغفر لنا ولهم، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم. الحمد لله الذي جعل الأرض كِفاتًا، أحياءً وأمواتًا، والحمد لله الذي منها خلقكم، وعليها يحشركم، ومنها يبعثكم. طُوبى لمن ذكر المعاد، وأعدَّ للحساب، وقنَع بالكفاف.

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: استغزِروا العُيون بالتذكُّر.

وقال الشاعر:

سَمِعنَ بِهَيجا أوجَفَت فذَكَرنَه ولا يَبعَثُ الأحزانَ مِثلُ التَّذكُّرِ

وقال أعرابي:

لا تُشرِفنَّ يَفاعًا إنَّه طَرِبٌ ولا تُغَنِّ إذا ما كنتَ مُشتاقا

قال ابن الأعرابي: سمعت شيخًا أعرابيًّا يقول: إني لأُسَر بالموت، ولا دَين ولا بنات.

علي بن الحسن قال، قال صالحٌ المُرِّي: دخلت دار المورياني، فاستفتحت ثلاث آيات من كتاب الله استخرجتها حين ذكرت الحال، فيها قوله: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، وقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾. قال: فخرج إليَّ أسود من ناحية الدار فقال: يا أبا بِشر، هذا سخط المخلوق، فكيف سخط الخالق؟

قال: وأصاب ناسًا مطرٌ شديد وريح وظُلمة، ورعد وبرق، فقال رجل من النُّسَّاك: اللهم إنك قد أريتنا قدرتك، فأرِنا رحمتك.

عوانة قال، قال عبد الله بن عمر: فاز عمر بن أبي ربيعة بالدنيا والآخرة؛ غزا البحر فأحرقوا سفينته فاحترق.

قال: وطلَّق أبو الخندق امرأته أم الخندق، فقالت: أتطلِّقني بعد طول الصُّحبة؟ فقال: ما دهاك عندي غيره. وكان أبو إسحاق يقول: ما ألأمَها من كلمة!

قال: مرَّ عمر بن الخطاب بقوم يتمنَّون، فلما رأوه سكتوا، قال: فيمَ كنتم؟ قالوا: كنا نتمنَّى. قال: فتمنَّوا وأنا أتمنَّى معكم. قالوا: فتمنَّ. قال: أتمنَّى رجالًا مِلء هذا البيت مِثل أبي عُبيدة بن الجرَّاح، وسالم مولى أبي حُذيفة،[٣] إن سالمًا كان شديد الحب لله، لو لم يخَف الله ما عصاه. وقال رسول الله ﷺ: «لكل أُمة أمين، وأمين هذه الأمَّة أبو عُبيدة بن الجرَّاح.»

شعبة، عن عمر بن مرة قال: قدِم وفدٌ من أهل اليمن على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقرأ عليهم القرآن فبكَوا، فقال أبو بكر: هكذا كنَّا حتى قست القلوب. وقال أبو بكر: طُوبى لمن مات في نأنأة الإسلام.

وقال سعد بن مالك، أو معاذ: ما دخلت في صلاة فعرفت مَن عن يميني ولا من عن شمالي، ولا شيَّعت جنازة قطُّ إلا حدَّثت نفسي بما يُقال له وما يقول، وما سمعت رسول الله ﷺ قال شيئًا قط إلا علِمت أنه كما قال.

قال أبو الدرداء:[٤] أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث؛ أضحكني مؤمِّل الدنيا والموتُ يطلبه، وغافل لا يُغفَل عنه، وضاحكٌ مِلءَ فيه ولا يدري أساخطٌ ربُّه أم راضٍ؛ وأبكاني

---

[٣] سالم مولى أبي حذيفة بن عتبة: كان من كبار الصحابة، أصله من أهل إصطخر. آخى النبي بينه وبين أبي بكر. شهد المشاهد، وقُتل يوم اليمامة في حرب مُسيلمة الكذَّاب سنة ١١هـ/٦٣٢م.

هَول المَطلع، وانقطاع العمل، وموقفي بين يدَي الله ولا يُدرى أيؤمَر بي إلى الجنة أم إلى النار.

سُحيم بن حفص قال: رأى إياس بن قتادة العَبشمي شيبةَ لحيته فقال: أرى الموت يطلبني، وأراني لا أفوته. أعوذ [بالله] من فُجاءات الأمور، وبَغتات الحوادث. يا بني سعد، إني قد وهبت لكم شبابي، فهَبُوا لي شيبتي. ولزِم بيته، فقال له أهله: إنك تموت هزلًا. فقال: لأن أموت مؤمنًا مهزولًا أَحَبُّ إليَّ من أن أموت مُنافقًا سمينًا.

وذكر قومٌ إبليس فلعنوه وتغيَّظوا عليه. وقال أبو حازمٍ الأعرج:[٥] وما إبليس؟ لقد عُصي فما ضر، وأُطيعَ فما نفع.

وقال بكر بن عبد الله المُزَني:[٦] الدنيا ما مضى منها فحُلم، وما بقي منها فأماني.

ودخل أبو حازمٍ مسجد دمشق، فوسوس إليه الشيطان: إنك قد أحدثت بعد وضوئك. فقال: أوَقدْ بلَغ هذا من نصحك؟ وقال بعض الطِّياب:

عجِبتُ من إبليسَ في كِبْرِه   وخُبثِ ما أظهرَ من نِيَّتِه
تاهَ على آدمَ في سَجدةٍ   وصارَ قَوَّادًا لذُرِّيَّتِه

فأنشدتها مِسمع بن عاصم فقال: وأبيك لقد ذهب مَذهب الفضل بن مسلم. وقال مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير:[٧] لا تنظروا إلى خَفْض عيشهم، ولِين ثيابهم، ولكن انظروا إلى سرعة ظعنهم، وسوء مُنقلَبهم.

قال أبو ذر: لقد أصبحت وإنَّ الفقر أَحَبُّ إليَّ من الغِنى، والسقم أحب إليَّ من الصحة، والموت أحب إليَّ من الحياة. قال هشم: لكني لا أقول ذلك.

---

[٤] أبو الدرداء: اسمه عُويمر بن مالك، كان من الصحابة، وكان قبل إسلامه تاجرًا. مات بالشام سنة ٣٢هـ/٦٥٢م.

[٥] أبو حازم الأعرج: اسمه سَلمة بن دينار مولى بني ليث بن بكر، وقد يُقال له أبو حازمٍ المدني. وكان أعرج، وكان قاصًّا بمسجد المدينة. مات سنة ١٤٢هـ/٧٥٩م.

[٦] بكر بن عبد الله المزني: تابعيٌّ جليل، وهو من مزينة مضر. وكانت أمه موسرة وزوجها كثير المال. وكان بكرٌ حسن اللباس جدًّا. قيل: إن قيمة كُسوته أربعة آلاف درهم. وكان صالحًا تقيًّا. مات سنة ١٠٨هـ/٧٢٦م.

[٧] مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير الحريشي، يُكنى أبا عبد الله. تابعي كانت لأبيه صحبة. وكان ينزل ماءً على ثلاث ليالٍ من البصرة يُقال له الشخير. مات في سنة ٨٨هـ/٧٠٦م.

وقال داود النبي: اللهم لا صحة تُطغيني، ولا مرض يُضنيني، ولكن بين ذلك.

وقال الحسن: إن قومًا جعلوا تواضُعهم في ثيابهم، وكِبْرهم في صدورهم، حتى لَصاحب المِدرعة بِمدرعته أشَدُّ فرحًا من صاحب المِطرف بِمطرفه.

وقال داود النبي: إن لله سَطوات ونَقمات؛ فإذا رأيتموها فداوُوا قرحكم بالدعاء؛ فإن الله تبارك وتعالى يقول: لولا رجالٌ خُشَّع، وصِبيانٌ رُضَّع، وبهائم رُتَّع، لصببتُ عليكم العذاب صبًّا.

قال: اشترى مُحرز بن صفوان بدنةً بتسعة دنانير، فقيل له: أتشتري بدنةً بتسعة دنانير وليس عندك غيرها؟ قال: سمعت الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

وقيل لمحمد بن سوقة: أتحجُّ وعليك دَين؟ قال: هو أقضى للدَّين.

وقال: ولقي ناسك ناسكًا ومعه خُف، فقال: ما تصنع بهذا؟ قال: أعدُّه للشتاء. وكانوا يستحيون من هذا.

قال أبو ذر: تَخضَمون ونَقضَم، والمَوعد الله!

قال الزبير: يكفينا من خَضْمكم القَضم، ومن نصِّكم العَنَق.

وقال أيمن بن خُريم:

رجَوا بالشِّقاقِ الأكلَ خَضْمًا فقد رَضُوا ... أخيرًا منَ اكْلِ الخَضْمِ أنْ يأكُلوا القَضْما

وقال عمرو لمعاوية: من أصبَرُ الناس؟ قال: من كان رأيه رادًّا لهواه.

وتواصفوا حال الزهد بحضرة الزُّهري، فقال الزهري: الزاهد من لم يغلب الحرام صبره، والحلال شكره.

وذُكِر عند أعرابي رجلٌ بشدة الاجتهاد، وكثرة الصوم، وطول الصلاة، فقال: هذا رجل سوء، وما يظنُّ هذا أن الله يرحمه حتى يُعذِّب نفسه هذا التعذيب؟

وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: ما ظنُّك بخالق الكرامة لمن يريد كرامته وهو عليه قادر؟ وما ظنُّك بخالق الهوان لمن يريد هوانه وهو عليه قادر؟

وزعم أبو عمرو الزعفراني قال: كان عمرو بن عُبيد عند حفص بن سالم، فلم يسأله أحد من أهله وحشمه حاجةً إلا قال: لا. فقال عمرو: أقِلَّ من قول لا؛ فإنه ليس في الجنة لا. قال: وقال عمرو: كان رسول الله ﷺ إذا سُئل ما يجد أعطى، وإذا سُئل ما لا يجد قال: يصنع الله. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أكثِروا لهنَّ من قول لا؛ فإن نَعَم يُضرِّيهن على المسألة. وإنما يخص عمر بذلك النساء.

قال الحسن: أدركت أقوامًا كانوا من حسناتهم أشفَقَ من أن تُرَد عليهم، منكم من سيئاتكم أن تُعذَّبوا عليها.

قال أبو الدرداء: من يشتري مني عادًا وأموالها بدرهم؟

ودخل علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه المقابر، فقال: أما المَنازل فقد سُكِنت، وأما الأموال فقد قُسِمت، وأما الأزواج فقد نُكِحت؛ فهذا خبرُ ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟ ثم قال: والذي نفسي بيده لو أُذِن لهم في الكلام لأخبروا أن خير الزاد التقوى.

قال أبو سعيد الزاهد: عيَّرَت اليهود عيسى بن مريم بالفقر، فقال: من الغنى أُتِيتم.

وقال آخر: لو لم يُعرَف من شرف الفقر إلا أنك لا ترى أحدًا يعصي الله ليفتقر. وهذا الكلام بعينه مدخول.

وسأل الحجَّاج أعرابيًّا عن أخيه محمد بن يوسف: كيف تركته؟ فقال: تركته عظيمًا سمينًا. قال: ليس عن هذا أسألك. قال: تركته ظلومًا غشومًا. قال: أوَما علِمت أنه أخي؟ قال: أتُراه بك أعزَّ مني بالله؟

وقال بعضهم: نجد في زَبُور داود: من بلَغ السبعين اشتكى من غير عِلَّة.

جعفر بن سليمان قال، قال محمد بن حسَّان النَّبطي: لا تسأل نفسك العام ما أعطتك في العام الماضي.

أبو إسحاق بن المبارك قال: قيل لخالد بن يزيد بن معاوية: ما أقرَبُ شيء؟ قال: الأجل. قيل: فما أبعَدُ شيء؟ قال: الأمل. قيل: فما أوحَشُ شيء؟ قال: الميت. قيل: فما آنَسُ شيء؟ قال: الصاحب المُواتي.

وقال آخر: آنَسُ شيءٍ الموتى.

وقال الآخر: نسِي عامر بن عبد الله بن الزبير عطاءه في المسجد، فقيل له: قد أُخذ. فقال: سبحان الله، وهل يأخذ أحدٌ ما ليس له؟!

جرير بن عبد الحميد، عن عطاء بن السائب، عن عبدة الثقفي قال: لا يشهد عليَّ الليل بنَوم أبدًا، ولا يشهد عليَّ النهار بأكل أبدًا. فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فعزم عليه، فكان يُفطِر في العيدَين وأيامَ التشريق.

وقال الحسن بن أبي الحسن: يكون الرجل عالِمًا ولا يكون عابدًا، ويكون عابدًا ولا يكون عاقلًا. وكان مُسلم بن بدر عالمًا عابدًا عاقلًا.

وقال عُبادة بن الصامت: من الناس من أُوتيَ علمًا ولم يؤتَ حِلمًا، وشدَّاد بن أوس أُوتيَ عِلمًا وحِلمًا.

قال إبراهيم: كان عمرو بن عُبيد عالمًا عاقلًا عابدًا، وكان ذا بيان وحِلم، وصاحب قرآن.

إبراهيم بن سعد، عن أبي عبد الله القيسي قال، قال أبو الدرداء: لا يَحرز المؤمن من شِرار الناس إلا قبرَه.

وقال عيسى بن مريم: الدنيا لإبليس مَزرعة، وأهلها له حرَّاثون.

عبد الملك بن عُمير، عن قَبيصة بن جابر قال: ما الدنيا في الآخرة إلا كنَفجة الأرنب.

قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لولا أن أسير في سبيل الله، وأضع جبهتي لله، وأُجالس أقوامًا ينتقون أحسن الحديث كما يُنتقى أطايب التمر، لم أُبالِ أن أكون قد مِت.

قال عامر بن عبد قيس:[٨] ما آسى من العراق إلا على ثلاث: ظماء الهواجر، وتجاوُب المؤذنين، وإخوان لي منهم الأسود بن كلثوم.

وقال المؤرِّق العِجلي:[٩] ضاحكٌ مُعترف بذنبه، خيرٌ من باكٍ مُدلٍّ على ربه. وقال: خير من العُجب بالطاعة ألا تأتيَ بطاعة.

قالوا: كان الربيع بن خيثم يقول: لا تُطعم إلا صحيحًا، ولا تكسُ إلا جديدًا، ولا تعتق إلا سويًّا.

وقال بعض الملوك لبعض العلماء: أذمم لي الدنيا. فقال: أيها الملك، الآخذة لما تُعطي، المورثة بعد ذلك الندم؛ السالبة ما تكسو، المُعقِبة بعد ذلك الفضوح؛ تسدُّ بالأراذل مكان الأفاضل، وبالعجَزة مكان الحزَمة؛ تجد في كلٍّ من كلٍّ خلفًا، وترضى بكلٍّ من كلٍّ بدلًا؛ تُسكن دار كل قرن قرنًا، وتُطعم سؤر كل قوم قومًا.

وكان سعيد بن أبي العَروبة يُطعِم المساكين السُّكَّر، ويتأول قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾.

---

[٨] عامر بن عبد قيس: هو عامر بن عبد الله بن عبد القيس العنبري، يُكنى أبا عبد الله. كان فاضلًا خيِّرًا، وفصيحًا مفحمًا. سيَّره (نفاه) عبد الله بن عامر إلى الشام بأمر عثمان فمات هناك، وكان سبب تسييره أن حمران بن أبان كتب فيه أنه لا يأكل اللحم، ولا يغشى النساء، ولا يقبل الأعمال، فعرَّض بأنه خارجي. فكتب عثمان إلى ابن عامر أنِ ادعُ عامرًا؛ فإن كانت فيه هذه الخصال فسيِّره. فسأله فقال: أما اللحم فإني مررت بقصَّابٍ يذبح ولا يذكر اسم الله، فإذا اشتهيت اللحم اشتريت شاة فذبحتها، وأما النساء فإن لي عنهن شُغلًا، وأما الأعمال فما أكثر من تجدونه سواي. فقال له حمران: لا أكثر الله فينا أمثالك. فقال له عامر: بل أكثر الله فينا أمثالك كسَّاحين وحجَّامين.

[٩] مؤرق العجلي: هو مؤرق بن المشمرج، يُكنى أبا المعتمر. عابدٌ صالح. مات سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م.

وكان محمد بن علي إذا رأى مُبتلًى أخفى الاستعاذة، وكان لا يُسمع من داره للسائل: بُورِك فيك، ولا: يا سائل خُذ هذا. وكان يقول: سمُّوهم بأحسنِ أسمائهم.

وتمنَّى قومٌ عند يزيد الرَّقاشي، فقال يزيد: سأتمنَّى كما تمنَّيتم. قالوا: تمنَّ. قال: ليتنا لم نُخلَق، وليتنا إذ خُلِقنا لم نمُت، وليتنا إذ متنا لم نُبعث، وليتنا إذ بُعثنا لم نُحاسَب، وليتنا إذ حُوسبنا لم نُعذَّب، وليتنا إذ عُذِّبنا لم نُخلَّد.

وقال رجل لأُم الدرداء: إني لأجد في قلبي داءً لا أجد له دواءً، وأجد قسوةً شديدة، وأملًا بعيدًا. قالت: اطلع في القبور، واشهد الموتى.

ابن عَون[١٠] قال: قلت للشَّعبي: أين كان علقمة[١١] من الأسوَد؟[١٢] قال: كان الأسود قوَّامًا صوَّامًا، وعلقمة مع البطيء وهو يسبق السريع.

وقيل لغالب بن عبد الله الجَهضمي: إنا نخاف على عينَيك العمى من طول البكاء. قال: هو لهما شهادة.

محمد بن طلحة بن مُضرب، عن محمد بن جحادة قال: لما قُتل الحسين، رضي الله تعالى عنه، أتى قومٌ الربيع بن خيثم، فقالوا: لنستخرجنَّ اليوم منه كلامًا. فقالوا: قُتل الحسين! قال: الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. وأتته بُنيَّة له فقالت: يا أبتِ، أذهب ألعب؟ فقال: اذهبي فقولي خيرًا وافعلي خيرًا.

وقال أبو عُبيدة: استقبل عامرَ بن عبد قيس رجلٌ في يوم حلبة. قال: فقال: من سبق يا شيخ؟ قال: المقرَّبون.

علي بن سُليم قال: قيل للربيع بن خيثم: لو أرَحتَ نفسك؟ قال: إراحتَها أريد. إن عُمر كان كيِّسًا.

وقال أبو حازم: ليتَّقِ الله أحدُكم على دينه، كما يتَّقي على نعله.

جعفر بن سليمان الضبعي قال: أتى مطرِّفَ بن عبد الله بن الشِّخير أبي، فجلس مجلس مالك بن دينار وقد قام، فقال أصحابه: لو تكلَّمت؟ قال: هذا ظاهرٌ حسن، ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

---

[١٠] ابن عون: هو عبد الله بن عون بن أرطبان، مزني بالولاء، يُكنى أبا عون. تقيٌّ صالح. مات سنة ١٥١هـ/٧٦٨م.

[١١] علقمة: هو علقمة بن قيس النخعي، يُكنى أبا شبل. تقيٌّ صالح. مات سنة ٦٢هـ/٦٨٧م.

[١٢] الأسود: هو الأسود بن يزيد بن قيس النخعي، يُكنى أبا عبد الرحمن. صالحٌ خيِّر. مات سنة ٧٤هـ/٦٩٣م.

وقال رجل لآخر وباع منه ضيعةً له: أَمَا والله لقد أخذتها ثقيلة المئونة، قليلة المعونة. فقال الآخر: أنت لقد أخذتها بطيئة الاجتماع، سريعة التفرُّق.

واشترى رجل من رجل دارًا فقال لصاحبه: لو صبرت لاشتريت منك الذراع بعشرة دنانير. قال: وأنت لو صبرت لبِعتُك الذراع بدرهم.

ورأى ناسكٌ ناسكًا في المنام فقال له: كيف وجدت الأمر يا أخي؟ قال: وجدنا ما قدَّمنا، وربِحنا ما أنفقنا، وخسِرنا ما خلَّفنا.

وقال بكر بن عبد الله المُزني: اجتهِدوا في العمل؛ فإن قصَّر بكم ضعف فكفُّوا عن المعاصي.

وقال أعرابي: إنه ليقتل الحُبارى جوعًا ظُلمُ الناس بعضهم لبعض.

وقيل لمحمد بن علي: من أَشَدُّ الناس زُهدًا؟ قال: من لا يُبالي الدنيا في يد من كانت. وقيل له: من أخسَرُ الناس صفقةً؟ قال: من باع الباقيَ بالفاني. وقيل له: من أعظَمُ الناس قدرًا؟ قال: من لا يرى الدنيا لنفسه قدرًا.

الأصمعي، عن شيخ من بكر بن وائل، أن هانئ بن قَبيصة أتى حُرقة بنت النُّعمان وهي باكية، فقال لها: لعل أحدًا آذاك؟ قالت: لا، ولكن رأيت غَضارة في أهلكم، وقلَّما امتلأت دار سرورًا إلا امتلأت حزنًا.

وقالوا: يهرم ابن آدم وتشبُّ له خَلَّتان؛ الحِرص والأمل.

الأصمعي قال، قال محمد بن واسع:[١٣] ما آسى من الدنيا إلا على ثلاث؛ بُلغةٍ من عيشٍ ليس لأحد عليَّ فيها مِنَّة، ولا لله عليَّ فيها تَبِعة؛ وصلاةٍ في جمعٍ أُكفى سهوَها، ويُدَّخر لي أجرها؛ وأخٍ في الله إذا ما اعوججت قوَّمني.

وقال آخر: ما آسى من العراق إلا على ثلاث؛ ليل الحريق، ورطب الشكر، وحديث ابن أبي بَكرة.[١٤]

---

[١٣] محمد بن واسع بن جابر من الأزر، كان مع قُتيبة بن مُسلم بخراسان في غمار جنده، وكان في الزهد والعبادة أوحد زمانه. قال ابن قتيبة: مات سنة ١٢٠هـ/٧٣٧م.

[١٤] ابن أبي بكرة: لعله عبيد الله بن أبي بكرة. قيل: كان جميلًا على شدة سواده، وكان شجاعًا باسلًا، وجوادًا كريمًا. أقطع عمر بن عبيد الله بن معمر القرشي سبعمائة جريب في دفعة (قلت: الجريب يختلف مقداره باختلاف الأقاليم؛ فبعض الناس يجعله ٣٦٠٠ ذراعًا، وبعضهم يجعله ١٠٠٠٠ ذراعًا

وقال آخر: إذا سمعت حديث أبي نضرة،[١٥] وكلام ابن أبي بكرة، فكأنك مع لسان الحُمَّرة.[١٦]

وقال أبو يعقوب الخزيمي الأعور: تلقَّاني مع طلوع الشمس سعيد بن وهب،[١٧] فقلت: أين تريد؟ قال: أدور على المجالس؛ فلعلِّي أسمع حديثًا حسنًا. ثم لم أجاوز بعيدًا حتى تلقَّاني أنس بن أبي شيخ،[١٨] فقلت له: أين تريد؟ قال: عندي حديثٌ حسن، فأنا أطلب له إنسانًا حسن الفهم حسن الاستماع. قلت: حدِّثني؛ فأنا كذاك. قال: أنت حسن الفهم رديء الاستماع، وما أرى لهذا الحديث إلا إسماعيل بن غَزوان.

هشامٌ قال: أخبرني رجل من أهل البصرة قال: وُلد للحسن بن أبي الحسن غلام، فقال له بعض جُلسائه: بارَك الله لك في هِبَته، وزادك في أحسن نعمته. فقال الحسن: الحمد لله على كل حسنة، وأسأل الله الزيادة في كل نعمة، ولا مرحبًا بمن إن كنت عائلًا أنصبَني، وإن كنت غنيًّا أذهلَني، لا أرضى بسعيي له سعيًا، ولا بكدِّي له في الحياة كدًّا،

أرضًا زراعية)، فحلف عمر أن لا يراه أبدًا إلا أخذ بركابه. وكان عبد الملك ينعته بـ «سيِّد أهل الشرق». ولَّاه الحجَّاج سجستان، فغزا العدو، فأصابه وأصحابَه جوعٌ شديد فمات، وهلك معه خلقٌ كثير، وذلك في سنة ٧٨هـ/٦٩٧م، ورثاهم أعشى هَمدان بقوله:

أَسَمِعتَ بالجَيشِ الذين تَمزَّقوا ... وأصابَهم رَيبُ الزَّمانِ الأعوَجِ
لبِثوا بكابلَ يأكُلونَ خِيارَهم ... في شرِّ مَنزلةٍ وشرِّ مُعرَّجِ
لم يَلقَ جيشٌ في البلادِ كما لَقُوا ... فلِمِثلِهم قُل للنَّوائحِ تَنشجِ

أو لعله عبد الرحمن بن أبي بكرة، ولم أقف له على خبر فيما بين يدي من كُتُب.

[١٥] أبو نضرة: هو المنذر بن مالك العوفي، كان لسِنًا بيِّنًا محبَّبًا إلى القلوب ورِعًا. مات سنة ١٠٤هـ/٧٢٢م.

[١٦] ابن لسان الحمرة، قال ابن قُتيبة: هو ورقاء بن الأشعر، كان أنسب العرب وأعظمهم بصرًا.

[١٧] سعيد بن وهب: كان كاتبًا بليغًا، وشاعرًا مطبوعًا، ونديمًا ظريفًا. نشأ بالبصرة، وأقام ببغداد مُختصًّا بالفضل بن يحيى البرمكي حظيًّا عنده. بَذل جُل شعره في الغزل والنسيب. وكان في أول أمره فاسقًا فاتكًا، ثم تاب ونسك وتزهَّد وأناب. ومات على مذهبٍ مَرْضي في عهد المأمون (انظر ترجمته بالأغاني، ج٢١).

[١٨] أنس بن أبي شيخ: كان من بابة سعيد بن وهب، وكان مختصًّا بجعفر بن يحيى البرمكي، نديمًا له، حظيًّا عنده.

حتى أُشفق عليه من الفاقة بعد وفاتي، وأنا بحالٍ لا يصل إليَّ من همِّه حزن، ولا من فرحه سرور.

وقال الحسن للمُغيرة بن مُخارش التميمي: إن مَن خوَّفك حتى تلقى الأمن، خيرٌ لك ممن أمَّنك حتى تَلقى الخوف.

وقال عَون بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود: ما أحسنَ الحسنةَ في إثر الحسنة، وما أقبحَ السيئةَ في أثر السيئة!

الحسن قال: ما رأيت يقينًا لا شك فيه، أشبَهَ بشكٍّ لا يقين فيه، من أمرٍ نحن فيه.

وكان الحسن إذا ذكر الحجَّاج قال: كان يتلو كتاب الله على لَخمٍ وجُذام، ويعظ عظة الأزارقة، ويبطش بطش الجبَّارين. وكان يقول: اتقوا الله؛ فإن عند الله حجَّاجِين كثيرًا.

وكان سِنان بن سَلمة بن قيس يقول: اتقوا الله؛ فإن عند الله أيامًا مِثل شوَّال.

قال خالد بن صفوان: بِتُّ ليلتي أتمنَّى كلها، فكسَيت البحر الأخضر بالذهب الأحمر، فإذا الذي يكفيني من ذلك رغيفان وكُوزان وطِمْران.

وكان الحسن يقول: إنكم لا تنالون ما تُحبُّون إلا بترك ما تشتهون، ولا تُدركون ما تؤمِّلون إلا بالصَّبر على ما تكرهون.

ودخل قوم على عوف بن أبي جميلة في مرضه، فأقبلوا يُثنون عليه، فقال: دَعُونا من الثناء، وأمِدُّونا بالدعاء.

وقال أبو حازم: نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب، ونحن لا نتوب حتى نموت.

وكان الحسن يقول: يا ابن آدم، نهارك ضيفك فأحسِنْ إليه؛ فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك، وإن أسأت إليه ارتحل بذمِّك، وكذلك ليلك.

وقيل لبعض العلماء: من أسوأ الناس حالًا؟ قال: عبد الله بن عبد الأعلى الشيباني، القائل عند موته: دخلتها جاهلًا، وأقمت فيها جائرًا، وأُخرجت منها كارهًا. يعني الدنيا.

وقيل لآخر: من أسوأ الناس حالًا؟ قال: من قوِيَت شهوته، وبعُدت همَّته، واتَّسعت معرفته، وضاقت مَقدرته.

وقيل لآخر: من شر الناس؟ قال: من لا يُبالي أن يراه الناس مُسيئًا.

وقيل لآخر: من شر الناس؟ قال: القاسي. فقيل له: أيُّما شر؛ الوَقاح، أم الجاهل، أم القاسي؟ قال: القاسي.

وذكر أبو صفوان، عن البطَّال أبي العلاء من بني عمرو بن تميم، قال: قيل له قبل موته: كيف تجدك يا أبا العلاء؟ قال: أجدني مغفورًا لي. قالوا: قل إن شاء الله. قال: قد شاء الله. ثم قال:

أُوصِيكمُ بالجِلَّةِ التِّلادِ   فإنَّما حَوْلَكمُ الأعادي

قال ابن الأعرابي: كان العبَّاس بن زُفَر لا يُكلِّم أحدًا حتى تنبسط الشمس، فإذا انفتل عن مُصلَّاه ضرب الأعناق وقطع الأيدي والأرجُل. وكان جرير بن الخطَفى لا يتكلم حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قذف المُحصَنات. قال: ومرَّت به جنازة فبكى وقال: أحرقتني هذه الجنائز. قيل: فلِمَ تقذف المُحصَنات؟ قال: يبدو لي ولا أصبر. وكان يقول: أنا لا أبتدي، ولكن أعتدي.

الحسن بن الربيع الكندي بإسنادٍ له قال: قال رجل للنبي ﷺ: دُلَّني على عمل إذا أنا عمِلته أحبَّني الله وأحبَّني الناس. قال: ازهد في الدنيا يُحبَّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يُحبَّك الناس.

قال: وبلغني عن القاسم بن مُحيمرة الهمداني أنه قال: إني لأُغلقُ بابي فما يُجاوزه همِّي.

قال أبو الحسن: وُجد في حجرٍ مكتوب: ابنَ آدم، لو أنَّك رأيت يسير ما بقي من أجلك، لزهِدت في طول ما ترجو من أملك، ولرغِبت في الزيادة في عملك، ولقصَّرت من حِرصك وحِيَلك، وإنما يلقاك غدًا ندمك، وقد زلَّت بك قَدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، وتبرَّأ منك القريب، وانصرف عنك الحبيب؛ فلا أنت إلى أهلك بعائد، ولا في عِلمك بزائد.

وقال عيسى بن مريم: تَعمَلون للدنيا وأنتم تُرزَقون فيها بغير العمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا تُرزَقون فيها إلا بالعمل؟ قال: أوحى الله تبارك تعالى إلى الدنيا: من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه. وقال: من هوانِ الدنيا على الله أنه لا يُعصى إلا فيها، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها.

ومر عيسى بن مريم بقوم فقال: ما بالهم يبكون؟ فقالوا: على ذنوبهم. قال: اتركوها تُغفر لكم.

وقال زياد بن أبي زياد مولى عيَّاش بن أبي ربيعة: دخلت على عمر بن عبد العزيز، فلما رآني ترجَّل عن مجلسه، فقال: إذا دخل عليك رجل لا ترى لك عليه فضلًا فلا تأخذ عليه شرف المجلس.

وقال الحسن: إن أهل الدنيا وإن دقدقتْ بهم الهماليج، ووطئ الناس أعقابهم، فإن ذُل المعصية في قلوبهم.

قالوا: وكان الحجَّاج يقول إذا خطب: إنا والله ما خُلقنا للفناء، وإنما خُلقنا للبقاء، وإنما نُنقل من دار إلى دار. وهذا من كلام الحسن.

ولما ضرب عبد الله بن علي تلك الأعناق، قال له قائل: هذا والله جَهدُ البلاء! فقال عبد الله: ما هذا وشرطة الحجَّام إلا سواء، وإنما جَهدُ البلاء فقرٌ مُدقِع بعد غِنًى مُوسَع.

وقال آخر: أشد من الخوف الشيءُ الذي يشتدُّ من أجله الخوف.

وقال آخر: أشد من الموت ما يُتمنى له الموت، وخيرٌ من الحياة ما إذا فقدته أبغضت له الحياة.

وقال أهل النار: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾. قال: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾. فلما لم يُجابوا إلى الموت قالوا: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾. وقالوا: ليس في النار عذابٌ أشد على أهله من عِلمهم بأنه ليس لكربهم تنفيس، ولا لضِيقهم ترفيه، ولا لعذابهم غاية؛ ولا في الجنة نعيمٌ أبلغ من عِلمهم أن ذلك المُلْك لا يزول.

قالوا: قارَف الزُّهري[١٩] ذنبًا فاستوحش من الناس وهام على وجهه، فقال زيد بن علي: يا زهري، لَقُنوطك من رحمة الله التي وسِعت كل شيء أَشَدُّ عليك من ذنبك. فقال الزهري: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. ورجع إلى أهله وماله وأصحابه.

قال ابن المُبارَك:[٢٠] أفضل الزهد أخفاه.

[١٩] الزهري: هو محمد بن مُسلم القُرشي، كان من أعلام التابعين، رأى عشرة من الصحابة وسمع منهم، وروى عنه جماعة من الأئمة، منهم مالك بن أنس وسفيان الثوري وغيرهما. وكان إذا جلس في بيته وضع كُتبه حوله مُشتغلًا بها عن كل أحد، فقالت له زوجته: والله لهذه الكتب أشد عليَّ من ثلاث ضراير. مات سنة ١٢٤هـ/٧٤١م.

[٢٠] ابن المبارك: هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك، العالِم الفقيه الزاهد الورِع. تفقَّه على سفيان الثوري، وأخذ عن الأوزاعي، وروى الموطأ عن مالك بن أنس. كانت له منزلة في النفوس، وجلالة في القلوب. قدِم الرشيد الرقة وقدِمها في الوقت ابن المبارك، فانحفل الناس خلف ابن المبارك، وداس بعضهم بعضًا، وارتفعت الغبرة، فأشرفت جارية للرشيد، فلما رأت تجمُّع الناس قالت: ما هذا؟ قالوا: عالِم أهل خراسان قدِم الرقة. فقالت: هذا والله المُلْك لا مُلْك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرَط وأعوان. وكان ابن المبارك غازيًا، وله شعر. وُلد بمَرو سنة ١١٨هـ/٧٣٦م، وتُوفي بهيت سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م.

الأوزاعي،[٢١] عن مكحول[٢٢] قال: إن كان في الجماعة الفضيلة، فإن في العُزلة السلامة.

إسماعيل عن عيَّاش، عن عبد الله بن دينار قال: قال ﷺ: إن الله كرِهَ لكم اللعب في الصلاة، والرفث في الصيام، والضحك في المقابر.

وقال أزدشير مرة: احذروا صولة الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبِع.

وقال واصل بن عطاء: المؤمن إذا جاع صبر، وإذا شبِع شكر.

وقيل لعامر بن عبد قيس: ما تقول في الإنسان؟ قال: ما عسى أن أقول فيمن إذا جاع ضرع، وإذا شبِع طغى.

ونظر أعرابي في سفره إلى شيخ قد صحِبه، فرآه يصلِّي فسكن إليه، فلما قال أنا صائم، ارتاب به، وأنشأ يقول:

صلَّى فأعجَبَني وصامَ فرَابَني   عَدِّ القَلُوصَ عن المُصلِّي الصائمِ

وهو الذي يقول:

لم يَخلُقِ اللهُ مسجونًا تُسائِلُه   ما بالُ سِجنِكَ إلَّا قالَ مظلومُ

الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن يحيى بن جعدة قال: كان يُقال: اعمل وأنت مُشفِق، ودع العمل وأنت تُحبُّه.

قال: وقيل لرابعة القيسيَّة: هل عمِلتِ عملًا قط تَرَين أنه يُقبَل منك؟ قالت: إن كان شيء فخَوْفي من أن يُرَد عليَّ.

وقال محمد بن كعب القُرَظي لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين، لا تَنظُرن إلى سلعة قد بارت على من كان قبلك تريد أن تجوز عنك.

---

[٢١] الأوزاعي: هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، الإمام الفقيه الحُجة الورِع. سمع من الزهري وعطاء وابن أبي كثير، وعنه أخذ الثوري وابن المبارك وخلقٌ كثير. كان مولده ببعلبك سنة ٨٨هـ/٧٠٦م، وتُوفي ببيروت سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م.

[٢٢] مكحول: هو مكحول الشامي، أصله من كابل، مولًى من موالي العرب. كان تقيًّا ورِعًا. مات سنة ١١٣هـ/٧٣١م.

الحسن قال: كان مَن قبلكم أرقَّ قلوبًا وأصفق ثيابًا، وأنتم أرَقُّ منهم ثيابًا وأصفق قلوبًا.

عبد الله بن المبارك قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الجرَّاح بن عبد الله الحَكَمي: إنِ استطعت أن تدع ممَّا أحلَّ الله لك ما يكون حاجزًا بينك وبين ما حرَّم الله عليك فافعل؛ فإنه من استوعب الحلال كلَّه تاقت نفسه إلى الحرام.

وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه لخالد بن الوليد حين وجَّهه: احرص على الموت تُوهَب لك الحياة.

وقال رجل: أنا أُحبُّ الشهادة. فقال رجل من النُّسَّاك: أَحِبَّها إن وقعت عليك، ولا تُحبِبْها حُبَّ من يريد أن يقع عليها.

وقال رجل لداود بن نصير الطائي العابد: أوصِني. فقال: اجعل الدنيا كيَومٍ صُمتَه، واجعل فِطرك الموت؛ فكأنْ قد. والسلام. قال: زِدني. قال: لا يراك الله عند ما نهاك عنه، ولا يفقدك عند ما أمرك به. قال: زِدني. قال: ارضَ باليسير مع سلامة دينك، كما رضِي قوم بالكثير مع هلاك دينهم.

قال رجل ليونس بن عُبيد:[٢٣] أتعلم أحدًا يعمل بعمل الحسن؟ قال: والله ما أعرف أحدًا يقول بقوله، فكيف يعمل بمِثل عمله؟ قال: فصِفْه لنا. قال: كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه، وإذا جلس فكأنه أسيرٌ قد أُمِر بضرب عنقه، وكان إذا ذُكرت النار عنده فكأنها لم تُخلق إلا له.

وُهَيب بن الورد قال: بَيْنا أنا أدور في السوق إذ أخذ آخذٌ بقفائي فقال لي: يا وُهَيب، اتَّقِ الله في قدرته عليك، واستحي الله في قُربه منك.

وقال عبد الواحد بن زيد: ألا تستحيون من طول ما لا تستحيون؟

الهيثم، قال: كان شيخ من أعراب طيِّئ كثيرَ الدعاء بالمغفرة له، فقيل له في ذلك، فقال: والله إن دعائي بالمغفرة مع قُبح إصراري لَلؤم، وإن تركي الدعاء مع قوة طمعي لَعَجز.

قال أبو بِشر صالحٌ المُرِّي: إن تكُن مصيبتك في أخيك أحدثت لك خشية فنِعْم المصيبة مصيبتك، وإن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جزعًا فبئس المصيبة مصيبتك.

---

[٢٣] يونس بن عبيد: أصله من عبد القيس، كان تقيًّا ورِعًا. مات سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م.

وقال عمرو بن عبيد لرجل يعزِّيه: كان أبوك أصلَك، وابنك فرعك، فما بقاء شيء ذهبَ أصله ولم يبقَ فرعه؟

وقال الحسن: إن امرأً ليس بينه وبين آدم إلا أب قد مات لُمعرِق في الموت.

وقالوا: أعظم من الذنب اليأسُ من الرحمة، وأشد من الذنب المماطلةُ بالتوبة.

ابن لَهيعة، عن سيَّار بن عبد الرحمن قال: قال لي بكير بن الأشج: ما فعل خالك؟ قلت: لزِم بيته. قال: أما لئن فعل لقد لزِم قوم من أهل بدر بيوتهم بعد مقتل عثمان رضي الله تعالى عنه، فما خرجوا منها إلا إلى قبورهم.

وقال الحسن: إن لله تَرائك في خلقه، لولا ذلك لم ينتفع النبيُّون وأهل الانقطاع إلى الله بشيء من أمور الدنيا؛ وهي الأمل، والأجل، والنِّسيان.

وقال مُطرف بن عبد الله لابنه: يا بُني، لا يُلهينَّك الناس عن نفسك؛ فإن الأمر خالص إليك دونهم، إنك لم ترَ شيئًا هو أشد طلبًا ولا أسرع درَكًا من توبةٍ حديثة لذنبٍ قديم.

وفي الحديث أن أبا هُريرة مرَّ بمروان وهو يبني داره، فقال: يا أبا عبد القُدُّوس، ابنِ شديدًا، وأمِّل بعيدًا، وعِش قليلًا، وكلْ خَضمًا، والمَوعد الله.

وكان عمرو بن خولة أبو سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص، وأمه خولة من المسامعة، وكان ناسكًا يجتمع إليه القُراء والعلماء يوم الخميس، فقال الشاعر:

وأصبحَ زَورُك زَوْرُ الخَمِيسِ إلـيـكَ كـمَـرعـيَّـةٍ وارِدةْ

وقال الآخر [وذكر] ابن سيرين:

فأنتَ باللَّيلِ ذئبٌ لا حريمَ له وبالنَّهارِ على سَمتِ ابنِ سِيرِين

وقال ابن الأعرابي: قال بعض الحكماء: لا يَغلِبنَّ جهل غيرك بك عِلمَك بنفسك. قال: وصلَّى محمد بن المُنكدِر[٢٤] على «عِمران بقرة»، فقيل له في ذلك، فقال: إني لأستحيي من الله أن أرى أن رحمته تَعجز عن عِمران بقرة.

---

[٢٤] محمد بن المنكدر بن هدير، من بني تيم قُريش رهط أبي بكر الصدِّيق. كان تقيًّا فاضلًا. مات سنة ١٣١هـ/٧٤٨م.

(٤) باب

وقال محمد بن يسير:[٢٥]

كأنَّه قد قِيلَ في مَجلِسٍ قد كنتُ آتِيه وأغْشاهُ
محمَّدٌ صارَ إلى ربِّه يَرحَمُنا اللهُ وإيَّاهُ

وقال الآخر:[٢٦]

لَقلَّ عارًا إذا ضَيفٌ تَضيَّفَني ما كانَ عندي إذا أعطيتُ مجهودي
فضْلُ المُقِل إذا أعطاه مُصطبرًا ومُكثرٍ في الغِنى سِيَّانِ في الجُودِ
لا يَعدِمُ السائلونَ الخيرَ أفعَلُه إما نَوالي وإما حُسنُ مَردودي

وكان الربيع بن خيثم إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحنا ضُعفاءَ مُذنِبين، نأكل أرزاقنا، وننتظر آجالنا. وقال ابن المقفع: الجود بالمجهود مُنتهى الجود.

قال مطرِّف بن عبد الله: كان يُقال: لم يلتقِ مؤمنان إلا كان أفضلهما أشدهما حبًّا لصاحبه، وكنت أرى أني أشد حبًّا لمذعور بن طُفيل منه لي، فلما سُيِّر لقِيَني ليلًا

---

[٢٥] محمد بن يسير، وفي الأغاني: ابن بشير الرياشي، وهذا تصحيف، والصواب ابن يسير كما ذكره الجاحظ، وكذلك هو عند المبرد. شاعرٌ ظريف مُقلٌّ من شعراء المُحدَثين، لم يُفارق البصرة، وكان ماجنًا هجَّاءً خبيثًا. وهذان البيتان اللذان أوردهما له الجاحظ من أبياتٍ رواها المبرد هكذا:

وَيلٌ لمَن لم يَرحَمِ اللهُ ومن تَكُونُ النارُ مَثْواه
يا حَسْرتي في كلِّ يَومٍ مَضى يُذكِّرُني الموتُ وأنْساه
من طالَ في الدُّنيا به عُمرُه وعاشَ فالموتُ قَصاراه
كأنَّه قد قِيلَ في مَجلِسٍ قد كنتُ آتِيه وأغْشاه
صارَ اليسيريُّ إلى ربِّه يَرحَمُنا اللهُ وإيَّاه

[٢٦] قوله: وقال الآخر: قد روى هذه الأبيات أبو الفرج الأصبهاني لمحمد بن يسير نفسه. قال: قال محمد بن سعد: كنَّا في حلقة التوزي، فلما تقوَّضت أنشدنا محمد بن يسير لنفسه:

جُهدُ المُقِلِّ إذا أعطاه مُصطبرًا أو مُكثِرٌ من غِنًى سِيَّانِ في الجُودِ
لا يَعدِمُ السائلونَ الخيرَ أفعَلُه إما نِوالٌ وإما حُسنُ مَردودِ

فحدَّثني فقلت: ذهب الليل. قال: ساعة. فعلِمت أنه كان أشد حبًّا لي مني، فلما أصبح سيَّره ابن عامر[٢٧] مع عامر.[٢٨]

وقالوا لعيسى بن مريم: من نُجالس؟ قال: من تُذكِّركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغِّبكم في الآخرة عمله.

إسحاق بن إبراهيم قال: دخلنا على كَهمس العابد، فجاءنا بإحدى عشرة بُسرةً حمراء، فقال: هذا الجهد من أخيكم، والله المستعان.

الأصمعي، عن السكن الحرشي قال: اشتريت من أبي المنهال سيَّار بن سلامة شاةً بستِّين درهمًا، فقلت: تكون عندك حتى آتيَك بالثمن. قال: ألستَ مُسلِمًا؟ قلت: بلى. قال: فخُذها. فأخذتها ثم انطلقت بها، فأتيته بالستين، فأخرج منها خمسة دراهم وقال لي: اعلفها بهذه.

وقال مُساورٌ الورَّاق[٢٩] لابنه:

شَمِّرْ قميصَك واستعِدَّ لقائلٍ   واحكُكْ جبينَك للقضاءِ بثُومِ
واجعلْ صِحابَك كلَّ حِبرٍ ناسكٍ   حَسنِ التعهُّدِ للصَّلاة صَئُومِ

---

[٢٧] ابن عامر: هو عبد الله بن عامر بن كُريز العَبشمي. كان من شُجعان الصحابة وخيارهم، فتح عامة فارس وخراسان وسجستان وكابل. واتخذ النباج وغرس فيها، فهي تُدعى نباج ابن عامر. واتخذ القريتَين، وغرس بها نخلًا، وأنبط عيونًا تُعرف بعيون ابن عامر، بينها وبين النباج ليلة على طريق المدينة، وحفر الحفير، ثم حفر السمينة، واتخذ بقرب قباء قصرًا، وجعل فيه زنجًا ليعملوا فيه فماتوا فتركه، واتخذ بعرفات حياضًا ونخلًا، وولي البصرة لعثمان بن عفان فاحتفر بها نهرَين، وحفر نهر الأُبلة. وكان يقول: لو تُركت لخرجت المرأة في حداجتها على دابتها ترِد كل يوم ماءً وسوقًا حتى تُوافيَ مكة. وكان علي بن أبي طالب يقول عنه: إنه فتى قريش. مات سنة ٥٩هـ/٦٧٨م.

[٢٨] عامر: هو عامر بن عبد قيس المار ذِكره.

[٢٩] مساور الوراق: هو مساور بن سوار بن عبد الحميد. شاعرٌ كوفي ظريف من أصحاب الحديث ورُواته، روى عن صدر من التابعين، وروى عنه وجوه أصحاب الحديث. وهذه الأبيات التي رواها له الجاحظ رواها أبو الفرج الأصبهاني بسنده مع زيادة وتغيير قليل، وهي:

شَمِّرْ ثِيابَك واستعِدَّ لقائلٍ   واحكُكْ جبينَك للعُهودِ بثُومِ
إنَّ العُهودَ صَفَت لكلِّ مُشمِّرٍ   دبرِ الجبين مُصفرٍ موسومِ
أحسِنْ وصاحِبْ كلَّ قارٍ ناسكٍ   حَسنِ التعهُّدِ للصلاةِ صئومِ

من ضربِ حمَّادٍ هُناك ومِسمَعٍ وسِماكٍ العَبسيِّ وابنِ حكيمِ
وعليك بالغَنويِّ فاجلِسْ عندَه حتى تنالَ وديعةً ليَتيمِ

قال: بَيْنا سليمان بن عبد الملك يتوضأ، ليس عنده غير خاله والغلامُ يصُب عليه، إذ خرَّ الغلام ميتًا، فقال سليمان:

قرِّبْ وُضوءَك يا حُصَينُ فإنَّما هذي الحياةُ تَعِلَّةٌ ومَتاعُ

ونظر سليمان في مرآة فقال: أنا الملِك الشاب. فقالت جارية له:

أنتَ نِعْمَ المَتاعُ لو كنتَ تَبْقى غيرَ أنْ لا بَقاءَ للإنسانِ

وقيل لسعيد بن المسيِّب:[٣٠] إن محمد بن إبراهيم بن محمد بن طلحة سقط عليه حائط فقتله، فقال: إن كان لَوصولًا لرحِمِه، فكيف يموت مِيتةَ سوء؟ وقال أسماء:

عيَّرتني خَلَقًا أبلَيتُ جِدَّتَه وهل رأيتَ جديدًا لم يَعُدْ خَلَقا؟

وتمثَّل عبد الملك بن مروان فقال:

وكلُّ جديدٍ يا أُمَيمُ إلى بِلًى وكلُّ امرئٍ يومًا يصيرُ إلى كانا

وقال آخر:

فاعملْ على مَهَلٍ فإنَّك ميِّتٌ واكدَحْ لنَفسِك أيُّها الإنسانُ
فكأنَّ ما قد كانَ لم يَكُ إذ مضى وكأنَّ ما هو كائنٌ قد كانا

من ضَربِ حمَّادٍ هناك ومسعرٍ وسماكٍ العتكيِّ وابنِ حكيمِ
وعليك بالغنويِّ فاجلِسْ عندَه حتى تُصيبَ وديعةً ليَتيمِ
تُغنِيك عن طلبِ البُيوعِ نسيئةً وتكفُّ عنك لسانَ كلِّ غريمِ
وإذا دخلتَ على الربيعِ مسلِّمًا فاخصُصْ شبابةَ منكَ بالتسليمِ

[٣٠] سعيد بن المسيب: كان أفقه أهل الحجاز، وأعبر الناس للرؤيا، وقد جمع بين الحديث والفقه والنسك والتعبير. وُلد سنة ١٣هـ/٦٣٤م، ومات سنة ٩٤هـ/٧١٢م.

وكان عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه يقول: إني لأكره أن يأتيَ عليَّ يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله. يعني المصحف. وكان عثمان رضي الله تعالى عنه حافظًا، وكان حجره لا يكاد يُفارق المصحف، فقيل له في ذلك فقال: إنه مُبارَكٌ جاء به مُبارَك.

ولما مات الحجَّاج خرجت عجوز من داره وهي تقول:

اليومَ يَرحَمُنا من كانَ يَغبِطُنا   واليومَ نَتبَعُ من كانوا لنا تَبَعا

حدَّثني بكر بن المعتمر، عن بعض أصحابه قال: قال أبو عثمان النهدي:[٣١] أتت عليَّ ثلاثون ومائة سنة، ما منِّي شيء إلا وقد أنكرته، إلا أملي؛ فإنه يزيد.

وقال مِسور بن مَخرَمة[٣٢] لجلسائه: لقد وارت الأرض أقوامًا لو رأوني معكم لاستحيَيت منهم. وأنشدني أعرابي:

ما يَمنعُ الناسُ شيئًا جئتُ أطلُبُه   إلا أرى اللهَ يَكفي فَقْدَ ما مَنَعوا

وجزع بكر بن عبد الله على امرأته، فوعظه الحسن، فجعل يصف فضلها، فقال الحسن: عند الله خير منها. فتزوَّج أختها، فلقيه بعد ذلك فقال: يا أبا سعيد، هي خيرٌ منها. وأنشد:

يؤمِّلُ أن يُعمَّرَ عُمرَ نُوحٍ   وأمرُ اللهِ يَطرُقُ كلَّ ليلةْ

عوف، عن الحسن قال: قال النبي ﷺ: للمسلم على أخيه ست خِصال؛ يسلِّم عليه إذا لقِيَه، وينصح له إذا غاب، ويعوده إذا مرض، ويشيِّع جنازته إذا مات، ويُجيبه إذا دعاه، ويشمِّته إذا عطس.

---

[٣١] أبو عثمان النهدي: هو عبد الرحمن بن مل من قضاعة، أدرك النبي ولم يرَه. شهد فتح القادسية وجلولاء وتستر ونهاوند واليرموك وأذربيجان. وكان يسكن الكوفة، فلما قُتل الحسين بن علي تحوَّل إلى البصرة، وبها مات سنة ٧٥هـ/٦٩٤م.

[٣٢] مسور بن مخرمة: هو المسور بن مخرمة بن نوفل بن عبد مناف. أمه أخت عبد الرحمن بن عوف. كان يُعدل بالصحابة وليس منهم. قال يومًا: إن يزيد بن معاوية يشرب الخمر. فجَلَده معاوية الحد، فقال:

أيَشرَبُها صِرفًا يَفتُّ ختامَها   أبو خالدٍ ويُجلَد الحدَّ مِسورُ؟

وكان مع ابن الزبير بمكة فأصابه حجر فمات سنة ٦٤هـ/٦٨٣م.

وقال أعرابي:

تُبصِّرُني بالعيشِ عِرْسي كأنَّما تُبصِّرُني الأمرَ الذي أنا جاهِلُه
يعيشُ الفتى بالفقرِ يومًا وبالغِنى وكلًّا كأنْ لم يَلقَ حينَ يُزايِلُه

وأنشد أبو صالح:

ومُشيِّدٍ دارًا ليَسكُنَ دارَه سَكَنَ القبورَ ودارُه لم تُسكَنِ

وكان صالحٌ المُري أبو بِشر ينشد في قصصه. وأنشد غيره:

فباتَ يُروِّي أصولَ الفسيلِ فعاشَ الفسيلُ وماتَ الرَّجلُ

وقال الآخر:

إذا أبقَتِ الدُّنيا على المرءِ دِينَه فما فاتَ من شيءٍ فليسَ بِضائرِ
فلن يَعدِلَ الدُّنيا جَناحَ بَعُوضةٍ ولا وزنَ زِفٍّ من جَناحٍ لطائرِ
فما رَضِيَ الدُّنيا ثوابًا لمؤمِنٍ ولا رَضِيَ الدُّنيا عِقابًا لكافرِ

وقال الآخر:

أبَعْدَ بِشرٍ أسيرًا في بُيوتِهِمُ يَرجو الخَفارةَ منِّي آلُ ظَلَّامِ
فلن أُصالِحَكم ما دمتُ ذا فَرسٍ واشتدَّ قبضًا على السِّيلانِ إبهامي
فإنَّما الناسُ يا للهِ أُمُّهمُ أكائِلُ الطيرِ أو جَثْوٌ لآرامِ
هم يَهلِكونَ ويبقى بعضُ ما صنعوا كأنَّ آثارَهم خُطَّت بأقلامِ

وأنشد لمحمد بن يسير:

عَجبًا لي ومن رِضايَ بحالٍ أنا منها على شَفا تغريرِ
عالِمًا لا أشُكُّ أني إذا متُّ إلى عدنٍ أو عذابِ السعيرِ
كُلَّما مُرَّ بي على أهلِ نادٍ كنتُ حينًا بهم كثيرَ المُرورِ
قيلَ من ذا على سريرِ المنايا؟ قيلَ هذا محمَّدُ بن يَسيرِ

وأنشد:

لكلِّ أُناسٍ مَقبَرٌ لفنائِهم   فهم يَنقُصونَ والقبورُ تزيدُ
هُمُ جِيرةُ الأحياءِ أمَّا مَحلُّهم   فَدَانٍ ولكنَّ اللقاءَ بَعيدُ

وقال أبو العتاهية:

سُبحانَ ذي الملكوتِ أيَّةُ ليلةٍ   مخَضَت بوَجهِ صباحِ يومِ المَوقِفِ
لو أنَّ عينًا وهَّمَتها نَفْسُها   ما في الفِراقِ مُصوَّرًا لم تَطرِفِ

وقال أبو العتاهية:

يا خاطِبَ الدُّنيا إلى نَفْسِها   تَنَحَّ عن خِطبتِها تَسلَمِ
إنَّ التي تَخطُبُ غرَّارةٌ   سريعةُ العُرسِ منَ المأتمِ

وقال الآخر:

ناداهما بِفراقِ بَيْـ   ـنِهما الزَّمانُ فأسرَعا
وكذاك ما زالَ الزَّما   نُ مُفرِّقًا ما جمَّعا

وقال الآخر:

يا وَيحَ هَذِي الأرضِ ما تَصنَعُ   أكُلَّ حيٍّ فوقَها تَصرَعُ
تَزرَعُهم حتى إذا ما أتَوا   عادَت لهم تَحصُدُ ما تَزرَعُ

وقال الآخر:

ذكَرتُ أبا أروى فبِتُّ كأنَّني   بِرَدِّ أُمورِ الماضياتِ وَكِيلُ
لكلِّ اجتماعٍ من خليلَينِ فُرقةٌ   وكلُّ الذي دُونَ المَماتِ قليلُ
وإنَّ افتقادي واحدًا بعدَ واحدٍ   دليلٌ على ألا يدومَ خليلُ

وقال محمد بن المنتشر: إذا أيسر الرجل ابتُلي به أربعة؛ مولاه القديم ينتفي منه، وامرأته يتسرَّى عليها، وداره يهدمها ويبني غيرها، ودابَّته يستبدل بها.

وقال الآخر:

يُجدِّدُ أحزانًا لنا كلُّ هالكٍ ... ونُسرعُ نِسيانًا ولم يأتِنا أمْنُ
وإنَّا ولا كُفْرانَ للهِ ربِّنا ... لَكالبُدْنِ لا تَدري متى يومُها البُدْنُ

الأوزاعي، عن مكحولٍ قال: إن كان في الجماعة فضلٌ فإن في العُزلة سلامة.

أبو جَناب الكلبي، عن أبي المحجَّل، عن ابن مسعود قال: ثلاثٌ من كنَّ فيه دخل الجنة؛ من إذا عرف حق الله عليه لم يؤخِّره، وكان عمله الصالح في العلانية على قوام من السريرة، وكان قد جمع مع ما قد عمل صلاحَ ما يؤمِّله. وقال: كفى موعظةً أنك لا تحيى إلا بموت، ولا تموت إلا بحياة.

وقال أبو نُواس:

شاعَ فيَّ الفَناءُ عُلْوًا وسُفْلًا ... وأُراني أموتُ عُضوًا فعُضْوا
ذهبَتْ جِدَّتي بطاعةِ نَفْسِي ... وتذكَّرتُ طاعةَ الله نِضْوا

وقال الآخر:

وكم من أكْلةٍ منَعَت أخاها ... بلذَّةِ ساعةٍ أكلاتِ دَهرِ
وكم من طالبٍ يَسعى لشيءٍ ... وفيه هلاكُه لو كانَ يدري

وقال الآخر:

كلُّ امرئٍ مُصبَّحٍ في أهلِه ... والموتُ أدنى من شِرَاك نَعلِه

وقال آخر:

واستَيقِني في ظلمِ البُيوتِ ... أنَّكِ إن لم تُقتَلي تَمُوتي

وقال عنترة:

بَكَرَت تُخوِّفُني الحُتوفَ كأنَّني ... أصبحتُ عن غَرَضِ الحُتوفِ بمَعزِلِ
فأجَبتُها إنَّ المَنيَّةَ مَنهَلٌ ... لا بُدَّ أنْ أُسقى بكأسِ المَنهَلِ
فاقْنَي حياءَكِ لا أبَا لكِ واعلَمي ... أنِّي امرؤٌ سأموتُ إنْ لم أُقتَلِ
إنَّ المَنيَّةَ لو تُصوَّرُ صُوِّرَت ... مِثْلي إذا نزلوا بضَنكِ المَنزِلِ

وقال أبو العتاهية:

أُذْنَ حيٍّ تَسمَّعي   واسمعي ثُمَّ عِي وَعِي
عِشتُ تِسعينَ حِجَّةً   ثُمَّ وافَيتُ مَضجَعي
أنا رَهنٌ لمَصرَعي   فاحذَري مِثْلَ مَصرَعي
ليس زادًا سِوى التُّقى   فخُذِي منه أو دَعِي

وقال الخليل بن أحمد:

عِشْ ما بدا لك قَصرُك المَوتُ   لا مَهرَبٌ منه ولا فَوتُ
بَيْنا غِنى بَيتٍ وبَهجتُه   آلَ الغِنى وتَقوَّضَ البَيتُ

وقال أبو العتاهية:

اسمَع فقد أسمَعَكَ الصَّوتُ   إنْ لم تُبادِرْ فهُوَ الفَوتُ
نِلْ كُلَّ ما شئتَ وعِشْ سالمًا   آخِرُ هذا كلِّه المَوتُ

وقال الوزيري:

وأعلَمُ أنَّني سأصيرُ مَيْتًا   إذا سارَ النواجعُ لا أسيرُ
وقالَ السائلونَ مَن المُسجَّى   فقالَ المُخبِرونَ لهم وزيرُ

وقال أبو العتاهية:

الحقُّ أوسَعُ من مُعا   لَجةِ الهوى ومَضيقِهِ
لا تَعرِضَنَّ لكلِّ أمْـ   ـرٍ أنتَ غيرُ مُطيقِهِ
والعيشُ يَصلُحُ إنْ مَزَجـ   ـتَ غليظَه برَقيقِهِ
لا يَخدَعنَّك زُخرفُ الدُّ   نيا بحُسن بَريقِهِ
وإذا رأيتَ الرأيَ مُضـ   ـطربًا فخُذْ بوَثيقِهِ
ولرُبَّما غَصَّ البَخيـ   ـلُ إنِ استُنيلَ بريقِهِ

وقال أيضًا:

من أجابَ الهوى إلى كلِّ ما يَد   عُوه ممَّا يُضِلُّ ضلَّ وَتاها

ومن رأى عِبرةً ففكَّرَ فيها آذَنَته بالبَينِ حينَ يَراها
ربما استغلَقَت أُمورٌ على من كانَ يأتي الأمورَ مِن مأتاها
وسيَأوي إلى يدٍ كلُّ ما تأ تي ويأوي إلى يدٍ حُسناها
قد تكونُ النَّجاةُ تَكرَهُها النَّفـ ـسُ وتأتي ما كانَ فيه رَداها

وقال أيضًا:

لو أنَّ عَبدًا له خزائنُ ما في الأرضِ ما عاشَ خوفَ إملاقِ
يا عَجبًا كلُّنا يَحِيدُ عنِ الحَيـ ـنِ وكلٌّ لحَينِه لاقِ
كأنَّ حيًّا قد قامَ نادِبُه والتفَّتِ الساقُ منه بالسَّاقِ
واستلَّ منه حياتَه مَلَكُ المَو تِ خفيًّا وقيلَ مَن راقِ

وقال السَّمَوءَل بن عادياء:

تُعيِّرُنا أنَّا قليلٌ عديدُنا فقلتُ لها إنَّ الكِرامَ قليلُ
وما قلَّ من كانت بَقاياه مِثلَنا شبابٌ تَسامى للعُلى وكُهولُ
وما ضرَّنا أنَّا قليلٌ وجارُنا عزيزٌ وجارُ الأكثرِينَ ذليلُ
فنحنُ كماءِ المُزنِ ما في نِصابِنا كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخِيلُ
وأسيافُنا في كلِّ شرقٍ ومَغربٍ بها من قِراعِ الدارِعِينَ فُلولُ
مُعوَّدةٌ ألا تُسَلَّ نِصالُها فتُغمَدَ حتى يُستباحَ قَبِيلُ
سَلي إنْ جَهِلتِ الناسَ عنَّا وعنهمُ وليسَ سواءً عالمٌ وجَهُولُ

وقال الربيع بن أبي الحُقَيق:

ومن يَكُ عاقلًا لم يَلقَ بؤسًا يُنِخْ يومًا بِساحتِه القضاءُ
تَعاوَرُه بَناتُ الدَّهرِ حتى تُثلِّمَه كما ثُلِمَ الإناءُ
وكلُّ شديدةٍ نَزَلَت بحيٍّ سيأتي بعدَ شِدَّتِها رَخاءُ
وبعضُ خلائقِ الأقوامِ داءٌ كداءِ الشيخِ ليس له دواءُ

وأنشد:

قد حالَ من دَونِ ليلى مَعشَرٌ قُذُمٌ وهُم على ذاك من دُوني مَواليها
واللهُ يَعلَمُ أنِّي إن أتَتْ حِجَجٌ وحِيلَ من دُونِها أنْ لَستُ ناسِيها

وأنشد:

وليلٍ يقومُ القومُ من ظُلُماتِه ... سواءٌ بَصِيراتُ العُيونِ وعُورُها
كأنَّ لنا منه بُيوتًا حَصِينةً ... مُسوحًا أعاليها وساجًا كُسُورُها

وقالوا: أتى سعيد بن عبد الرحمن بن حسَّان أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وهو عامل سليمان بن عبد الملك، فسأله أن يكلِّم سليمان في حاجة له، فوعده أن يقضيَها فلم يفعل، وأتى عمر بن عبد العزيز فكلَّمه فقضى حاجته، فقال سعيد:

ذُممتَ ولم تُحمَدْ وأدركتُ حاجتي ... تَولَّى سِواكم شُكْرَها واصطناعَها
أبى لك فِعلَ الخيرِ رأيٌ مُقصِّرٌ ... ونفسٌ أضاقَ اللهُ بالخيرِ باعَها
إذا هي حثَّته على الخيرِ مَرَّةً ... عصاها وإنْ همَّت بشَرٍّ أطاعَها
سيَكفيكَ ما ضيَّعتَ منها وإنَّما ... يُضِيعُ الأمورَ سادرًا مَن أضاعَها
وَلايةُ من ولَّاكَ سُوءُ بَلائِها ... وولَّى سِواكَ أجْرَها واصطناعَها

وأنشد:

إذا ما أطعتَ النَّفْسَ مالَ بك الهوى ... إلى كلِّ ما فيه عليك مَقالُ

وأنشد:

حَسْبُ الفتى من عَيشِه ... زادٌ يُبلِّغُه المَحلَّا
خُبزٌ وماءٌ باردٌ ... والظِّلُّ حينَ يُريدُ ظِلَّا

وأنشد:

وما العيشُ إلا شَبعةٌ وتَشرُّقٌ ... وتَمرٌ كأخفافِ الرِّباعِ وماءُ

قالوا: استبطأ عبد الملك بن مروان ابنه مَسلمة في مسيره إلى الروم، فكتب إليه:

لمَنِ الظعائنُ سَيرُهنَّ تَزحُّفُ ... سَيرَ السَّفِينِ إذا تَقاعَسَ تُجدَفُ

فلما قرأ مَسلمة الكتاب كتب إليه:

ومُستعجِبٍ ممَّا يَرى من أناتِنا ... ولو زَبَّنَته الحربُ لم يَترمرمِ

ومسلمة هو القائل عندما دُلِّي بعضهم في قبره، فتمثَّل بعض من حضر فقال:

وما كانَ قيسٌ هُلكُه هُلْكَ واحدٍ ولـكـنَّـه بُـنـيـانُ قـومٍ تَـهـدَّمـا

فقال مسلمة: لقد تكلَّمتَ بكلمة شيطان. هلَّا قلت:

إذا مُقرَمٌ منَّا ذرا حدُّ نابِه تَخمَّطَ فينا نابُ آخَرَ مُقرَمِ

وكان مسلمة شجاعًا خطيبًا، وبارع اللسان جوادًا، ولم يكن في ولد عبد الملك مثله ومثل هشام بعده.

وقال بعض الأعراب يهجو قومًا:

تَصبَّرْ للبَلاءِ الحَتمِ صَبرًا إذا جاوَرتَ حيَّ بني أبانِ
أقاموا الدَّيدبانَ على يَفاعٍ وقالوا ليَ احترِسْ للدَّيدبانِ
فإنْ أبصَرتَ شَخصًا من بَعيدٍ فصفِّقْ بالبَنانِ على البَنانِ
تَراهم خَشْيةَ الأضيافِ خُرسًا يُقِيمونَ الصَّلاةَ بلا أذانِ

وقال بعض الأعراب يمدح قومًا:

وسارٍ تَعنَّاه المَبيتُ فلمْ يَدَعْ له حابِسُ الظَّلماءِ واللَّيلِ مَذهَبا
رأى نارَ زيدٍ من بَعِيدٍ فخالَها وقد كذَبَته النَّفْسُ والظنُّ كَوكبا
رَفَعتُ له بالكفِّ نارًا تَشُبُّها شآميَّةٌ نَكْباءُ أو عارِضٌ صَبا
وقلتُ ارفَعُوها بالصعيدِ كفى بنا مُشِيرًا لساري ليلةٍ أنْ تأوَّبا
فلمَّا أتانا والسَّماءُ تَبُلُّه نَقُولُ له أهلًا وسهلًا ومَرحَبا
وقمتُ إلى البَركِ الهواجدِ فاتَّقَت بكَوماءَ لم يَترُكْ لها النِّيُّ مَهرَبا
فرحَّبتُ أعلى الجَنبِ منها بطَعنةٍ دعَت مُستكِنَّ الجَوفِ حتى تَصبَّبا

وقال الآخر:

واستَيقِني في ظُلَمِ البُيوتِ أنَّكِ إنْ لم تُقتَلي تَمُوتي

وقال أبو سعيد الزاهد: من عمل بالعافية فيمن دونه أُعطيَ العافية ممن فوقه.

وقال عيسى ابن مريم صلوات الله تعالى على نبينا وعليه: في المال ثلاث خِصال. قالوا: وما هي يا رُوح الله؟ قال: يكسبه من غير حِله. قالوا: فإن كسبه من حِله؟ قال: يمنعه من حقه. قالوا: فإن وضعه في حقه؟ قال: يشغله إصلاحه عن عبادة ربه.

قيل لرجلٍ مريض: كيف تجدك؟ قال: أجدني لم أرضَ حياتي لموتي.

سعيد بن بشير، عن أبيه، أن عبد الملك قال حين ثقُل ورأى غسَّالًا يلوي ثوبًا بيده: وددتُ أني كنت غسَّالًا لا أعيش إلا بما أكتسب يومًا فيومًا. فذُكِرَ ذلك لأبي حازم فقال: الحمد لله الذي جعلهم عند الموت يتمنَّون ما نحن فيه، ولا نتمنى عند الموت ما هم فيه.

الهيثم قال: أخبرنا موسى بن عبيدة الزيدي، عن عبد الله بن خداش الغفاري قال، قال أبو ذر: فارقت رسول الله ﷺ وقُوْتي من الجمعة إلى الجمعة مُد، ولا والله لا أزداد عليه حتى ألقاه. قال: وكان يقول: إنما مالك لك، أو للجائحة، أو للوارث، فاغْنَ ولا تكن أعجز الثلاثة.

فُضَيل بن عِياض، عن المطَّرِح بن يزيد، عن عبد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم مولى يزيد بن معاوية، عن أبي أمامة الباهلي قال، قال عمر رضي الله تعالى عنه: أدِّبوا الخيل، وتسوَّكوا، واقعدوا في الشمس، ولا تُجاورنكم الخنازير، ولا يُرفَعن فيكم الصليب، ولا تأكلوا على مائدة تُشرَب عليها الخمر، وإيَّاكم وأخلاقَ العجم، ولا يحلُّ لمؤمنٍ أن يدخل الحمَّام إلا بمئزر، ولا لامرأة إلا من سقم؛ فإن عائشة رضي الله تعالى عنها حدَّثتني قالت: حدَّثني خليلي على مفرشي هذا قال: إذا وضعت المرأة خِمارها في غير بيت زوجها هتكت ما بينها وبين الله، فلم تَناهَ دون العرش.

(٥) نُسَّاك البصرة وزُهَّادها

عامر بن عبد قيس وبَجالة بن عبَدة العنبريان؛ وعثمان بن أدهم، والأسود بن كلثوم، وصِلة بن أشيَم، ومذعور بن الطُّفيل. ومن بني منقرٍ جعفر وحرب ابنا جِرفاس. كان الحسن يقول: إني لا أرى كالجعفرين جعفرًا. يعني جعفر بن جرفاس، وجعفر بن زيد العبدي. ومن النساء مُعاذة العدوية امرأة صلة بن أشيم، ورابعة القيسية.

(٦) زُهَّاد الكوفة

عمرو بن عُتبة، وهمَّام بن الحارث، والربيع بن خيثم، وأُوَيس القَرَني.

وقال الراجز:

من عاشَ دهرًا فسيأتيه الأجَلْ والمرءُ توَّاقٌ إلى ما لم يَنَلْ
الموتُ يَتلُوه ويُلهِيه الأمَلْ

وقال الآخر:

لا يَغُرَّنْكَ عِشاءٌ ساكنٌ قد يُوافي بالمَنيَّاتِ السَّحَرْ

وقال الآخر:

كُلُّنا يأملُ مَدًّا في الأجَلْ والمَنايا هيَ آفاتُ الأمَلْ

وقال الآخر:

أنتَ وهَبتَ الفِتيةَ السَّلاهِبْ وهَجْمةً يَحارُ فيها الحالِبْ
وغنَمًا مِثْلَ الجرادِ السَّارِبْ مَتاعُ أيَّامٍ وكلٌّ ذاهِبْ

وقال المسعودي:

إنَّ الكِرامَ مُناهِبُو كَ المَجدَ كلَّهمُ فناهِبْ
أخلِفْ وأتلِفْ كلُّ شَي ءٍ زعزَعَته الرِّيحُ ذاهِبْ

وقال التميمي:

إذا كانتِ السَّبعونَ سِنَّك لم يَكُنْ لِدائِكَ إلا أنْ تَمُوتَ طبيبُ
وإنَّ امرأً قد سارَ سَبعِينَ حِجَّةً إلى مَنهَلٍ مِن وِردِه لَقَرِيبُ
إذا ما مضى القَرنُ الذي كنتَ فيهمُ وخُلِّفتَ في قَرنٍ فأنتَ غَرِيبُ
إذا ما خلَوتَ الدَّهرَ يومًا فلا تَقُلْ خلَوتُ ولكنْ قُلْ عليَّ رقيبُ

وقال غسَّان خال الغدَّار:

ابيَضَّ مني الرأسُ بعدَ سَوادِ ودعا المَشِيبُ حليلتي ببِعادِ
واستُحصدَ القِرنُ الذي أنا منهمُ وكفى بِذاك علامةً لحَصادي

وكان علي بن موسى بن ماهان كثيرًا ما يقول: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾. وكان كثيرًا ما يقول: ويلٌ للظالمين من الله.

وقال ابن واسع: الاتقاء على العمل أشد من العمل.

وكان أبو وائل النَّهشلي يقول في أول كلامه: إن الدهر لا يذوق طعم الفراق ولا يُذيقه أهله، وإنما ينغمسون في ليل، ويطغون في نهار، فيوشك شاهد الدنيا أن يغيب، وغائب الآخرة أن يشهد. وقال: سأل رجل رجلًا حاجة، فقال له المسئول: اذهب بسلام. فقال له السائل: قد أنصفَنا من ردَّنا إلى الله.

الحِزامي، عن سفيان بن حمزة، عن كثير بن الصلت: أن حكيم بن حزام باعَ داره من معاوية بستين ألف درهم، فقيل له: غبَنك واللهِ معاوية. فقال: والله ما أخذتها في الجاهلية إلا بزقٍّ من خمر، أُشهدكم أنها في سبيل الله، فانظروا أيُّنا المَغبون.

قال سفيان الثوري: ليس من ضلالة إلا عليها زينة، فلا تعرِّضن دينك لمن يُبغِّضه إليك.

وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضًا للخصومات أكثر التنقُّل. وأتى مسلمًا نصراني يعزِّيه فقال له: مِثلي لا يُعزِّي مِثلك، ولكن انظر إلى ما زهِد فيه الجاهل فارغب فيه.

وكان الحسن بن زيد بن علي بن الحسين بن علي يُلقَّب ذا الدمعة؛ فإذا عُوتب في كثرة البكاء قال: وهل تركت النار والسهمان لي مضحكًا؟ يريد قتل زيد بن علي أبيه، ويحيى بن زيد أخيه.

وقيل لشيخ من الأعراب: قمت مقامًا خِفنا عليك منه. قال: ما الموت أخاف، شيخٌ كبير، وربٌّ غفور، ولا دَين ولا بنات.

وقال أبو العتاهية:

وكما تَبْلى وُجوهٌ في الثرى فكذا يَبْلى عليهنَّ الحَزَنْ

وقال بشَّار:

كيف يَبكي لمُحبَسٍ في طُلولِ من سيُفضي لحبسِ يومٍ طويلِ
إنَّ في البعثِ والحسابِ لشُغلًا عن وُقوفٍ بكلِّ رسمٍ مَحِيلِ

وقال محمودٌ الورَّاق:

أليسَ عَجيبًا بأنَّ الفتى ... يُصابُ ببعضِ الذي في يَدَيه
فمِن بينِ باكٍ له مُوجَعٍ ... وبينَ مُعَزٍّ مُغِذٍّ إلَيه
ويَسلبُه الشَّيبُ شَرْخَ الشَّبابِ ... فليس يُعزِّيه خَلقٌ عليه

وقال أيضًا:

بَكَيتُ لقُربِ الأجَلْ ... وبُعدِ فَواتِ الأمَلْ
ووافِدِ شَيبٍ طرا ... بعَقبِ شبابٍ رَحَلْ
شبابٌ كأنْ لم يَكُنْ ... وشَيبٌ كأنْ لم يَزَلْ
طَواكَ بَشِيرُ البَقا ... وحلَّ بَشِيرُ الأجَلْ
طوى صاحبٌ صاحبًا ... كذاك اختلافُ الدُّوَلْ

وقال محمود أيضًا:

رأيتُ صَلاحَ المَرءِ يُصلِحُ أهلَه ... ويُعدِيهمُ داءُ الفسادِ إذا فَسَدْ
يُعظَّمُ في الدُّنيا بفضلِ صلاحِه ... ويُحفَظُ بعدَ الموتِ في الأهلِ والولَدْ

وقال الحسن بن هانئ:

أيَّةَ نارٍ قَدَحَ القادِحُ ... وأيَّ جِدٍّ بَلَغَ المازِحُ
للهِ دَرُّ الشَّيبِ من واعظٍ ... وناصحٍ لو حظِيَ الناصحُ
يأبى الفتى إلَّا اتباعَ الهوى ... ومَنهجُ الحقِّ له واضِحُ
فاسمُ بعَينَيكَ إلى نِسْوةٍ ... مُهورُهنَّ العملُ الصالحُ
لا يَجتلي العَذراءَ من خِدرِها ... إلا امرؤٌ مِيزانُه راجِحُ
من اتَّقى اللهَ فذاكَ الذي ... سِيقَ إليه المَتجَرُ الرابِحُ

وقال أيضًا:

خَلِّ جَنبَيكَ لِرامِ ... وامْضِ عنه بِسَلامِ
مُتْ بِداءِ الصَّمتِ خيرٌ ... لكَ من داءِ الكَلامِ
إنَّما السالمُ من ألـ ... ـجَمَ فاهُ بِلِجامِ

رُبَّما استفتحتَ بالمَز ... حِ مَغاليقَ الحِمامِ
رُبَّ لفظٍ ساقَ آجا ... لَ فِئامٍ لِفِئامِ
فالْزَمِ الصَّمتَ فإن الصَّـ ... ـمتَ أبقى للجَمامِ
والمنايا آكِلاتٌ ... شارباتٌ للأنامِ
شِبتَ يا هذا وما تَتـ ... ـرُكُ أخلاقُ الغُلامِ؟

وقال أيضًا:

كُنْ من اللهِ يَكُنْ لَكْ ... واتَّقِ اللهَ لَعلَّكْ
لا تَكُنْ إلا مُعَدًّا ... للمَنايا فكأنَّكْ
إنَّ للمَوتِ لَسَهمًا ... واقعًا دُونَك أو بِكْ
نحنُ نَجري في أفانيـ ... ـنِ سُكونٍ ونُحرَّكْ
فعَلى اللهِ تَوكَّلْ ... وبتَقواه تَمسَّكْ

وقال أيضًا:

يا نُواسيُّ تفكَّرْ ... وتَعَزَّ وتَصبَّرْ
ساءَك الدَّهرُ بشَيءٍ ... ولما سرَّكَ أكثَرْ
يا كبيرَ الذَّنبِ عَفوُ اللهِ ... من ذَنبِك أكبَرْ

قال سعيد بن ربيعة بن مالك بن سعيد بن زيد مناة بن تميم:

ألَا إنَّما هذا المَلالُ الذي تَرى ... وإدبارُ جِسمي من رَدى العَثَراتِ
وكم من خليلٍ قد تجلَّدتُ بعدَه ... تَقطَّعُ نَفْسي بعدَه حَسَراتِ

وهذا من قديم الشعر.
وقال الطِّرِمَّاح في هذا المعنى:

وشيَّبني ألَّا أزالَ مُناهِضًا ... بغيرِ قُوًى أنزُو بها وأبُوعُ
وأنَّ رجالَ المالِ أضحَوا ومالُهم ... لهم عندَ أبوابِ المُلوكِ شفيعُ
أمُخترِمي رَيبُ المَنُونِ ولم أنَلْ ... منَ المالِ ما أعصي به وأُطيعُ

ومن قديم الشعر قول الحارث بن يزيد، وهو جد الأُحيمر اللِّص السعدي:

لا لا أعـقُّ ولا أحـو   بُ ولا أُغِيرُ على مُضَرْ
لـكـنَّـمـا أغـزو إذا   ضجَّ المَطيُّ من الدَّبَرْ

وقال آدم بن عبد العزيز:

وإنْ قالت رجالٌ قد تَولَّى   زمانُكمُ وذا زمنٌ جديدُ
فما ذهبَ الزَّمانُ لنا بمَجدٍ   ولا حَسَبٍ إذا ذُكِرَ الجُدودُ
وما كنَّا لنَخلُدَ إذ مَلَكْنا   وأيُّ الناسِ دامَ له الخُلودُ؟

وقيل لأخيه بعد أن رأوه حمَّالًا: لقد حطَّك الزمان، وعضَّك الحدَثان. فقال: ما فقدنا من عيشنا إلا الفضول.

وقال عُروة بن أُذَينة الكِناني:

نُراعُ إذا الجنائزُ قابَلَتنا   ويُحزِنُنا بُكاءُ الباكياتِ
كرَوعةِ ثُلَّةٍ لمُغارِ ذئبٍ   فلمَّا غابَ عادَت راتعاتِ

وقالت خنساء بنت عمرو:

تَرتَعُ ما غفَلَت حتى إذا ادَّكَرَت   فـإنَّـمـا هـيَ إقـبـالٌ وإدبـارُ

وقال أبو النجم:

فلو تَرى التُّيوسَ مُضجَعاتِ   عرَفتَ أنْ لسْنَ بِسالِماتِ
أقولُ إذ جئنَ مُذبَّحاتِ   ألَمْ تَكُنْ من قبلُ راتِعاتِ
ما أقربَ الموتَ من الحياةِ

وقال سليمان بن الوليد:

رُبَّ مَغروسٍ يُعاشُ به   عدِمَته كفُّ مُغترِسِه
وكذاكَ الدَّهرُ مأتمُه   أقرَبُ الأشياءِ من عُرُسِه

وقال آخر:

يا راقِدَ اللَّيلِ مَسرورًا بأوَّلِه   إنَّ الحوادثَ قد يَطرُقنَ أسحارا

وقالت امرأة في بعض الملوك:

أبكِيكَ لا للنَّعيمِ والأنَسِ   بل للمَعالي والرُّمحِ والفَرسِ
أبكي على فارسٍ فُجِعتُ به   أرمَلني قبلَ ليلةِ العُرُسِ

(٧) أخلاط من شعر وأحاديث ونوادر

قال هُبيرة بن وهب المخزومي:

وإنَّ مَقالَ المرءِ في غيرِ كُنهِه   لَكالنَّبلِ تَهوي ليس فيها نِصالُها

وقال الراجز:

والقولُ لا تَملِكُه إذا نمى   كالسَّهمِ لا يَرجِعُه رامٍ رمى

وإلى هذا ذهب عامر الشعبي حيث يقول: وإنك على إيقاع ما لم تُوقِع أقدَرُ منك على رد ما قد أوقعت. وأنشد:

فداوَيتُه بالحِلمِ والمرءُ قادرٌ   على سَهمِه ما دامَ في كفِّه السَّهمُ

وقال الأنصاري:

وبعضُ القولِ ليس له حَصاةٌ   كمَخضِ الماءِ ليسَ له إتاءُ
وبعضُ خلائقِ الأقوامِ داءٌ   كداءِ الشَّيخِ ليس له دواءُ

وقال الآخر:

ومَولًى كداءِ البَطنِ أمَّا لقاؤُه   فحِلمٌ وأمَّا غَيبُه فظُنونُ

وقال آخر:

تَقسَّمَ أولادُ المُلِمَّةِ مَغنَمي   جِهارًا ولم يَغلِبْك مِثلُ مُغلَّبِ

وقال الثِّلْب:

وهنَّ شرُّ غالبٍ لمن غَلَبْ

وقال النبي ﷺ: إذا كتب أحدكم فليترِّبْ كتابه؛ فإن التُّراب مُبارَك. وقال: هو أنجَحُ للحاجة. وذكر الله عز وجل آدم الذي هو أصل البشر فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾. ولذلك كنَّى النبي ﷺ عليًّا أبا تراب. قالوا: وكانت أحبَّ الكُنى إليه.

وقال الآخر:

وإنْ جئتَ الأميرَ فقُلْ سَلامٌ … عليكَ ورحمةُ اللهِ الرَّحيمِ
وأمَّا بعدَ ذاكَ فلِي غريمٌ … من الأعرابِ قُبِّحَ من غَريمِ
له ألفٌ عليَّ ونِصفُ ألفٍ … ونِصفُ النِّصفِ في صكٍّ قديمِ
دراهمُ ما انتفعتُ بها ولكنْ … وصَلتُ بها شيوخَ بني تميمِ

وقال الكُمَيت:

حلَفتُ بربِّ الناسِ ما أُمُّ خالدٍ … بأُمِّكَ إذ أصواتُنا الهَلُ والهَبُ
ولا خالدٌ يَستطعمُ الماءَ قائمًا … بعَذلِك والداعي إلى الموتِ يَنعَبُ

وقال ابن نَوفل:

تقولُ لِما أصابَك أطعِمُوني … شَرابًا ثُمَّ بُلْتَ على السَّريرِ
لأعلاجٍ ثمانيةٍ وشيخٍ … كبيرِ السِّنِّ ذي بَصرٍ ضريرِ

وقال ابن هَرمة:

تَراه إذا ما أبصرَ الضَّيفَ كلبُه … يُكلِّمُه من حبِّه وهْو أعجَمُ

وقال المهلَّب: عجبت لمن يشتري المماليك بماله ولا يشتري الأحرار بمعروفه.

وقال الشاعر:

رُزِقتُ لُبًّا ولم أُرزَقْ مُروءتَه … وما المروءةُ إلا كثرةُ المالِ
إذا أردتُ مُساماةً تُقاعِدُني … عمَّا يُنوِّهُ بِاسمِي رِقَّةُ الحالِ

وقال الأحنف:

فلو مُدَّ سَرْوي بمالٍ كثيرٍ لجُدْتُ وكنتُ له باذِلا
فإنَّ المروءةَ لا تُستطاعُ إذا لم يَكُنْ مالُها فاضِلا

وقال جرير بن يزيد:

خيرٌ من البُخلِ للفتى عُدمُه ومن بَنِينَ أعِقَّةٍ عُقمُه

قال: ومشى رجال من تميم إلى عتَّاب بن وَرقاء ومحمد بن عمير في عشر دِيات، فقال محمد بن عمير: عليَّ دية. فقال عتَّاب: عليَّ الباقية. فقال محمد: نِعْم العَون على المروءة المال.

وقال آخر:

ولا خيرَ في وَصلٍ إذا لم يَكُنْ له على طُولِ مرِّ الحادِثاتِ بَقاءُ

وقال الآخر:

شِفاءُ الحُبِّ تَقبيلٌ وشمٌّ وضمٌّ بالبُطونِ على البُطونِ

وأنشد:

واللهِ لا أرْضى بطُولِ ضَمِّ ولا بتَقبيلٍ ولا بشَمِّ
إلا بهَزهازٍ يُسلِّي همِّي يَسقطُ منه فَتَخِي في كُمِّي
لِمثلِ هذا ولَدَتني أُمِّي

وقال آخر:

لا يَنفَعُ الجاريةَ الخِضابُ ولا الوِشاحانِ ولا الجِلبابُ
من دونِ أن يَصطفقَ الأركابُ وتلتقي الأسبابُ والأسبابُ
ويخرجَ الزُّبُّ له لُعابُ

وقال آخر:

ولقد بَدا لي أنَّ قلبَك ذاهلٌ عنِّي وقلبي لو بَدا لك أذهَلُ
كلٌّ يُجامِلُ وهْوَ يُخفي بُغْضَه إنَّ الكريمَ على القِلى يَتجمَّلُ

وقال الآخر:

وحظُّكَ زَوْرةٌ في كلِّ عامٍ مُوافقةً على ظَهرِ الطَّريقِ
سلامًا خاليًا من كلِّ شيءٍ يَعُودُ به الصَّديقُ على الصَّديقِ

وقال الآخر:

وزعَمتَ أنِّي قد كذبتُكَ مَرَّةً بعضَ الحديثِ فما صدَقتُك أكثَرُ

وقال الآخر:

أهِينوا مَطاياكم فإنِّي وجَدتُه يَهُونُ على البِرذَونِ موتُ الفتى النَّدْبِ

وقال الآخر:

لا يَحفِلُ البُردُ مَن يُبلي حواشِيَه ولا تُبالي على من راحَتِ الإبِلُ

وقال الآخر:

ألا لا يُبالي البُردُ من جرَّ فَضْلَه كما لا تُبالي مُهْرةٌ من يَقُودُها

وقال الآخر:

وإنِّي لَأرثي للكريمِ إذا غدا على حاجةٍ عندَ اللَّئيمِ يُطالِبُه
وأرثي له من مَجلسٍ عندَ بابِه كمَرثِيَتي للطَّرْفِ والعِلجُ راكِبُه

وقال الفرزدق:

أتَرجُو رَبيعٌ أنْ يجيءَ صِغارُها بخَيرٍ وقد أعيا رَبيعًا كِبارُها

وقال الشاعر:

ألَمْ تَرَ أنَّ سَيرَ الخيرِ رَيثٌ وأنَّ الشَّرَّ راكِبُه يَطِيرُ

وقال ابن يسير:

تأتي المَكارِهُ حينَ تأتي جُملةً　　　وتَرى السُّرورَ يجيءُ في الفَلَتاتِ

(٨) عيوبٌ تمنع من السؤدد

قيل لبلال بن أبي بُردة: لمَ لا تُولِّي أبا العجوز بن أبي شيخ العراق؟ وكان بلال مُسترضَعًا فيهم، وهو من بَلهُجَيم. قال: لأني رأيت منه ثلاثًا؛ رأيته يحتجم في بيوت إخوانه، ورأيت عليه مِظلَّة وهو في الظل، ورأيته يُبادر بيض البقيلة.

وكان عندي شيخٌ عظيم البدن، جهير الصوت، يستقصي الإعراب، وقد ولده رجل من أهل الشورى، وكان بقُربي عبدٌ أسود، دقيق العظم، دميم الوجه، ورآني أكبره، فقال لي حين نهض ورأى عظمًا: يا أبا عثمان، لا والله أن يُساويَ ذلك العظم البالي، بصرت عيني به في الحمام، وتناول قطعة من فَخار فأعطاها رجلًا وقال له: حُكَّ بها ظهري. أفتظنُّ هذا يا أبا عثمان يُفلح أبدًا؟

قال أبو الحسن: سأل الحجَّاج غلامًا فقال له: غلامُ مَن أنت؟ قال: غلام سيِّد قيس. قال: ومن ذاك؟ قال: زُرارة بن أوفى. قال: كيف يكون سيِّد قيس وفي داره التي ينزلها سُكان؟[٣٣]

قال: وقال رجل لابنه: إذا أردت أن تعرف عيبك فخاصِمْ شيخًا من قُدماء جيرانك. قال: يا أبتِ لو كنت إذا خاصمت جاري لم يعرف عيبي غيري كان ذلك رأيًا، ولكن جاري لا يُعرِّفني عيبي حتى يُعرِّفه عدوِّي.

وقد أخطأ الذي وضع هذا الحديث؛ لأن أباه نهاه ولم يأمره.

وقال الآخر:

اصطنِعْني وأقِلْني عَثْرتي　　　إنَّها قد وقَعَت منِّي بِقُرْ
واعلَمَنْ أنْ ليسَ ألفَا دِرهمٍ　　　لمَديحي وهِجائي بخَطَرْ
يَذهَبُ المالُ ويَبقى المَنطِقُ　　　شائعًا يأثُره أهلُ الخَبَرْ
ثُمَّ أرميكم بوَجهٍ بارزٍ　　　لستُ أمشي لعَدُوِّي بخَمَرْ

---

[٣٣] السكان: دفة السفينة.

وقال أشهب بن رُميلة يوم صِفِّين: إلى أين يا بني تميم؟ قد ذهب الناس، أتفرُّون وتُعذَرون؟

قال: ونهض الحارث بن حوط الليثي إلى علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه وهو على المنبر، فقال: أتظن أنَّا نظنُّ أن طلحة والزبير كانا على ضلال؟ قال: يا حار، إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يُعرَف بالرجال، فاعرف الحق تعرف أهله.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لا أدركت أنا وأنت زمانًا يتغايرون فيه على العلم كما يتغايرون على الأزواج.

قال: وبعث قَسامة بن زُهير العنبري إلى أهله بثلاثين شاة ونِحيٍ صغير فيه سمن، فسرق الرسول شاة وأخذ من رأس النِّحي شيئًا من السمن، فقال لهم الرسول: ألكم إليه حاجةٌ أخبره بها؟ فقالت له امرأته: أخبِرْه أن الشهر محاق، وأن جَدْينا الذي كان يُطالعنا وجدناه مرثومًا،[٣٤] فاسترجِع منه الشاة والسمن.

قال سليمان بن علي لرؤبة: ما بقي من باهك يا أبا الحجاف؟ قال: يمتدُّ ولا يشتد، وأستعين بيدي ثم لا أُورد، وأُطيل الظَّمْء ثم أُقصِّر. قال: ذلك الكِبَر. قال: لا، ولكنه طول الرِّغاث.

قيل لأعرابي: أي الدواب آكل؟ قال: بِرذَونةٌ رغوث. وقيل لغيره: لمَ صارت اللبؤة أنزق، وعلى اللحم أحرص؟ قال: هي الرغوث.

قال: وقال عبد الله بن عمر: اتَّقوا من تُبغِضه قلوبكم.

وقال إسماعيل بن غَزوان: لا تُنفق درهمًا حتى تراه، ولا تثق بشكر من تُعطيه حتى تمنعه؛ فالصابر هو الذي يشكر، والجازع هو الذي يكفر.

عامر بن يحيى بن أبي كثير، قال: لا تشهد لمن لا تعرف، ولا تشهد على من لا تعرف، ولا تشهد بما لا تعرف.

أبو عبد الرحمن الضرير، عن علي بن زيد بن جُدعان، عن سعيد بن المسيب قال: قال النبي ﷺ: رأس العقل بعد الإيمان بالله التودُّدُ إلى الناس.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: لا سَمَر إلا لثلاثة: مُسافر، ومُصلٍّ، وعَروس.

---

[٣٤] مرثوم: مكسور.

(٩) قريش أفصح العرب

وقال معاوية يومًا: من أفصَحُ الناس؟ فقال قائل: قومٌ ارتفعوا عن لَخلَخانية الفرات، وتيامنوا عن كَشكَشة تميم، وتياسروا عن كَسكَسة بَكر، ليست لهم غَمغَمة قُضاعة، ولا طُمطُمانية حِميَر. قال: من هم؟ قال: قريش. قال: ممن أنت؟ قال: من جَرْم.

وقال الراجز:

إنَّ تميمًا أُعطِيَت تَماما ... وأُعطِيَت مآثرًا عِظاما
وعددًا وحسبًا قَمْقاما ... وباذخًا من عزِّها قُدَاما
في الدهرِ أعيا الناسَ أنْ يُراما ... إذا رأيتَ منهم الأجساما
والدَّلَّ والشِّيمةَ والكلاما ... وأذرُعًا وقَصَرًا وهاما[٣٥]
عرَفتَ أنْ لم يُخلَقوا طَغاما ... ولم يَكُنْ أبوهمُ مِسْقاما
لم تَرَ فيمن يأكُلُ الطَّعاما ... أقلَّ منهم سَقَطًا وذاما

تقول العرب: لو لم يكن في الإبل إلا أنها رَقوء الدم. قال جندل بن صخر، وكان عبدًا مملوكًا:

وما فكَّ رِقِّي ذاتُ دَلٍّ خَبَرنَجٍ ... ولا شانَ مالي صَدْقةٌ وعُقولُ[٣٦]
ولكنْ نَماني كلُّ أبيضَ خِضرِمٍ ... فأصبحتُ أدري اليومَ كيفَ أقولُ

وقال الفُقيمي:

وما كنتُ نوَّامًا ولكنَّ ثائرًا ... أناخَ قليلًا فوقَ ظَهرِ سبيلِ
وقد كنتُ مخزونَ اللِّسانِ ومُفحَمًا ... فأصبحتُ أدري اليومَ كيفَ أقولُ

وقال المُغيرة بن شُعبة: مَن دخل في حاجة رجل فقد ضمِنها.

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: لكلِّ شيءٍ شرف، وشرف المعروف تعجيله. وقال رجل لإبراهيم النخعي: أعِدُ الرجل الميعاد. قال: فإلى متى؟ قال: إلى وقت الصلاة.

---

[٣٥] القصر: الأعناق الغلاظ؛ يعني أنهم في تمام الخلق.

[٣٦] الخبرنج: المرأة الناعمة.

قال: وقال لي بعض القُرشيين: من خاف الكذب أقلَّ من المواعيد. وقال: أمران لا يَسلَمان من الكذب؛ كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار.

قال إبراهيم النظَّام: قلت لـ «خنجيركور» ممرور الزياديين: اقعد ها هنا حتى أرجع إليك. قال: أما حتى ترجع فإني لا أصبر لك، ولكن أقعد لك إلى الليل.

(١٠) رسالة ابن سيَّابة إلى يحيى بن خالد بن بَرمَك[٣٧]

وبلَغني أن عامة أهل بغداد يحفظونها في تلك الأيام، وهي كما ترى، وأولها: للأصيَد الجواد، الواري الزِّناد، الماجد الأجداد، الوزير الفاضل، الأشمِّ الباذل، اللُّباب الحُلاحِل، من

[٣٧] ابن سيابة: هو إبراهيم بن سيَّابة مولى بني هاشم. كان شاعرًا من مُتوسطي شعراء وقته، غير نابه الذِّكر ولا شريف الشعر، وإنما اختص بمودته ومدائحه إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، فكانا يتغنَّيان بشعره، ويُشيدان بذِكره، ويذكرانه للخلفاء والوزراء، ويُسببان له بذلك النفع والعطاء الجزيل. وكان مع هذا ماجنًا خليعًا طيب النادرة. عُوتِب يومًا على مجونه وعبثه، فقال: ويلكم، لَأن ألقى الله تبارك وتعالى بذلِّ المعاصي فيرحمني أَحَبُّ إليَّ من أن ألقاه أتبختر دلالًا بحسناتي فيمقتني. وكتب يومًا إلى صديق له يقترض منه شيئًا، فكتب إليه يعتذر له ويحلف أنه ليس عنده ما سأله، فكتب إليه: إن كنت كاذبًا فجعلك الله صادقًا، وإن كنت ملومًا فجعلك الله معذورًا. وروى له صاحب الأغاني هذه الكلمة: إذا كانت في جيرانك جنازة وليس في بيتك دقيق فلا تحضر الجنازة؛ فإن المصيبة عندك أكبر منها عند القوم، وبيتك أولى بالمأتم من بيتهم. قلت: وهذه الكلمة قد رُويت لإبراهيم النظَّام أحد شيوخ المعتزلة، وهي بالنظَّام أشبه (راجع ص٧٨ من الجزء الأول من البيان والتبيين)، وأحب ابن سيَّابة جاريةً سوداء فلِيمَ عليها وعوتب، فقال:

يكونُ الخالُ في وجهٍ قبيحٍ فيَكسوه الملاحةَ والجمالا
فكيف يُلامُ معشوقٌ على من يَراها كلَّها في العَينِ خالا؟

ومن قوله:

أعياني الشَّادنُ الربيبُ أكتبُ أشكو فلا يُجيبُ
من أينَ ألقى شفاءَ ما بي وإنَّما دائي الطبيبُ
يا ربِّ فرِّج إذًا وعجِّل فإنَّك السامعُ المُجيبُ

ويحيى بن خالد بن برمك كان إليه الأمر والنهي وتصريف أمور الدولة العبَّاسية في عهد هارون الرشيد، وكان من النُّبل والعقل وجميل الخِلال على أكمل ما يكون عليه الرجل، وكان من البُلغاء

المستكين المستجير، البائس الضرير، فإني أحمد الله ذا العزة القدير، إليك وإلى الصغير والكبير، بالرحمة العامَّة، والبركة التامَّة. أما بعد، فاغنَم واسلَم، واعلم إن كنت تعلم، أنه من يَرحم يُرحم، ومن يَحرم يُحرم، ومن يُحسِن يَغنَم، ومن يصنع المعروف لا يعدم، وقد سبق إليَّ تغضُّبك عليَّ، واطِّراحك لي، وغفلتك عني بما لا أقوم له ولا أقعد، ولا أنتبه ولا أرقد، فلست بحيٍّ صحيح، ولا بميتٍ مُستريح، فرَرتُ بعد الله منك إليك، وتحمَّلت بك عليك؛ ولذلك قلت:

أسرَعَت بي حثًّا إليك خطائي فأناخَت بمُذنِبٍ ذي رجاءِ
راغبٍ راهبٍ إليك يُرجِّي منك عفوًا عنه وفَضْلَ عَطاءِ
ولعَمْري ما من أصرَّ ومن تا بَ مُقِرًّا من ذَنْبِه بسَواءِ

فإن رأيت، أراك الله ما تحب، وأبقاك في خير، ألا تزهد فيما ترى من تضرُّعي وتخشُّعي، وتذلُّلي وتضعُّفي، فإن ذلك ليس مني بنحيزة ولا طبيعة، ولا على وجه تصنُّع ولا تخدُّع، ولكنه تذلُّل وتخشُّع وتضرُّع، من غير ضارع ولا مَهين، ولا خاشع لمن لا يستحقُّ ذلك، إلا لمن التضرُّع له عز ورِفعة وشرف.

محمد بن حرب الهلالي قال: دخل زُفر بن الحارث على عبد الملك بعد الصلح فقال: ما بقي من حبِّك للضحَّاك؟ فقال: ما لا ينفعني ولا يضرُّك. قال: شدَّ ما أجبتموه مَعاشر قيس! قال: أجَبْناه ولم نُواسِه، ولو كنَّا آسَيناه لقد كنَّا أدركنا ما فاتنا منه. قال: فما منعك من مُواساته يوم المرج؟ قال: الذي منع أباك من مُواساة عثمان يوم الدار. قال الشاعر:

لكلِّ كريمٍ من ألائمِ قومِه على كلِّ حالٍ حاسِدونَ وكُشَّحُ

قالوا: وقال سليمان بن سعد: لو صحِبني رجل فقال اشترِط عليَّ خصلةً واحدة ولا تَزِد عليها، لقلت: لا تكذبني. قال: وكان يُقال: أربع خِصال يسود بها المرء؛ العلم، والأدب، والعِفَّة، والأمانة.

الأبيناء، والكِرام الأسخياء. وكان المأمون يقول: لم يكن كيحيى بن خالد وكولده — الفضل وجعفر ومحمد وموسى — أحد في الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة. وكان مولد يحيى في سنة ١٢٠هـ/٧٣٧م، ومات في حبس الرشيد حينما نكب البرامكة سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م.

وقال الشاعر:

لئن طِبتَ نَفْسًا عن ثنائي فإنَّني لَأطيَبُ نَفْسًا عن نَداكَ على عُسري
فلستُ إلى جَدواك أعظَمَ حاجةٍ على شِدَّةِ الإعسارِ منك إلى شُكري

وقال الآخر:

أأنْ سُمْتَني ذُلًّا فعِفتُ حِياضَه سَخِطتَ؟ ومن يأبَ المَذلَّةَ يُعذَرِ
فها أنا مُسترضيك لا من جِنايةٍ جنَيتُ ولكنْ من تجنِّيكَ فاغفِرِ

وقال إياس بن قتادة:

وإنَّ من الساداتِ من لو أطعتَه دَعاك إلى نارٍ يَفُورُ سَعيرُها

وقال الآخر:

عزمتُ على إقامةِ ذي صباحٍ لأمرٍ ما يُسوَّدُ من يَسُودُ

وقال الهُذلي:

وإنَّ سِيادةَ الأقوامِ فاعلَمْ لها صَعداءُ مَطلَبُها طويلُ

وقال حارثة بن بدر:

إذا الهمُّ أمسى وهْوَ داءٌ فأَمضِه ولستَ بمُمضِيه وأنتَ تُغازِلُه
ولا تُنزِلَنْ أمْرَ الشديدةِ بامرئٍ إذا رامَ أمرًا عوَّقَته عوازِلُه
وقُلْ للفؤادِ إنْ نَزا بك نَزْوةً من الرَّوعِ أفرِخْ أكثَرُ الرَّوعِ باطِلُه

وقال الآخر:

وإنَّ بقَومٍ سوَّدوك لَفاقةً إلى سيِّدٍ لو يَظفَرونَ بسيِّدِ

وقال آخر:

وما سُدْتَ فيهم أنَّ فَضْلَك عمَّهم ولكنَّ هذا الحظَّ في الناسِ يُقسَمُ

وقال حارثة بن بدر:

خَلَتِ الدِّيارُ فسُدتُ غيرَ مُسوَّدِ ومن الشَّقاءِ تَفرُّدِي بالسؤدُدِ

الفضل بن تميم قال/قال المغيرة: من لم يغضب لم يُعرَف حِلمه.
وقال الشاعر:

وما بالُ ضبعٍ ظلَّ يَطلُبُ دائبًا فريستَه بينَ الأُسودِ الضَّراغِمِ؟

وقال الآخر:

ذكَرتُ بها عهدًا على الهَجرِ والقِلى ولا بُدَّ للمُشتاقِ أن يَتذكَّرا

وقال الآخر:

إذا ما شفَيتُ النَّفْسَ أبلَغتُ عُذْرَها ولا لَومَ في أمرٍ إذا بَلَغَ العُذرُ

وقال الآخر:

لَعَمرُك ما الشَّكوى بأمرِ حَزامةٍ ولا بُدَّ من شَكوى إذا لم يَكُنْ صَبرُ

وقال الآخر:

لولا ثلاثٌ هنَّ عيشُ الدَّهرِ الماءُ والنَّومُ وأُمُّ عَمرِو
لَمَا خَشِيتُ من مَضِيقِ القَبرِ

وقال لقيط بن زُرارة:

شَتَّانِ هذا والعِناقُ والنَّومْ والمَشرَبُ الباردُ في ظلِّ الدَّومْ

وقال والبة [بن الحباب]:

ما العَيشُ إلا في المُدا مِ وفي اللِّثامِ والقُبَلْ
وإرادةِ الظَّبيِ الغريـ ـرِ تَسُومُه ما لا يُحَلْ

وقال شيخ من أهل المدينة: ما كنت أريد أن أجلس إلى قوم إلا وفيهم من يحدِّث عن الحسن، ويُنشد الفرزدق.

وقال مُجيب: لا ترى امرأةً مُصبَّرة العين، ولا امرأةً عليها طاق يَمْنة، ولا شريفًا يَهنأ بعيرًا.

وقال أبو براح: ذهب الفِتيان فما ترى فتًى مفرَّق الشعر بالدُّهن، معلِّقًا نعله، ولا ديكَين في خِطار،[٣٨] ولا صديقًا له صديق إن قمَرَ ضَغا، وإن عُوقِب جزِع، وإن خلا بصديق فتًى خنثه، وإن ضُرب أقر، وإن طال حبسه ضجِر، ولا ترى فتًى يُحسِن أن يمشيَ في قيده ولا يُخاطب أميره.

قال أبو الحسن: قال أبو عَباية: ترى زُقاق بَراقش، وبساتين هزارِمرد، ما كان يسلكه غلام إلا بخفير، وهم اليوم يخترقونه. قلت: هذا من صلاح الفِتيان. قال: لا، ولكن من فسادهم.

اليقطري قال: قيل لطُفيل العرائس: كم اثنان في اثنين؟ قال: أربعة أرغفة.

وقال رجل لرجل: انتظرتك على الباب بقدر ما يأكل إنسان جردقتَين.

عبد الله بن مصعب قال: أرسل علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه عبد الله بن عبَّاس لما قدِم البصرة، فقال: ائتِ الزبير ولا تأتِ طلحة؛ فإن الزبير ألْيَن، وإنك تجد طلحة كالثَّور عاقصًا قرنه، يركب الصعوبة[٣٩] ويقول: هي أسهل. فاقرأ عليه السلام، وقل له: يقول لك ابن خالك: عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا؟[٤٠] قال: فأتيت الزبير فقال: مرحبًا يا ابن لُبابة، أزائرًا جئت أم سفيرًا؟ قلت: كل ذلك. وأبلغته ما قال علي، فقال الزبير: أبلِغه السلام، وقل: بيننا وبينك عهد خليفة، ودم خليفة، واجتماع ثلاثة، وانفراد واحد، وأمٌّ مبرورة، ومشاورة العشيرة، ونشر المصاحف، فتُحِل ما أحلَّت، وتُحرِّم ما حرَّمت. فلما كان من الغد حرَّش بين الناس غوغاؤهم، فقال الزبير: ما كنت أرى أن مِثل ما جئنا له يكون فيه قتال.

---

[٣٨] في خطار: في مراهنة، وكان في الأصل: في حظار، وما اخترناه أجود.

[٣٩] عاقصًا قرنه: يعني متغطرسًا متعجرفًا. يركب الصعوبة ويقول هي أسهل: الذي في النهج: يركب الصعب ويقول هو الذلول.

[٤٠] فما عدا مما بدا، كان في الأصل: بدا لك، والتصويب عن النهج. قال الشريف الرضي: هو أول من سمعت منه هذه الكلمة، أعني فما عدا مما بدا. والمعنى: ما الذي صرفك عما كان بدا وظهر منك.

قال: ومن جيِّد الشعر قول جرير:

لئن عُمِّرَت تَيمٌ زَمانًا بِعِزَّةٍ   لقد حُدِيَت تَيمٌ حُداءً عَصَبصبا[٤١]
فلا يَضغمَنَّ اللَّيثُ تَيمًا بغرةٍ   وتيمٌ يَشُمُّون الفريسَ المنيَّبا[٤٢]

وقال الأعرابي: كحِّلني بالمِيل الذي تُكحَل به العيون الداءة.
وقال ابن أحمر:

وهَجلٍ من قسًا ذَفرِ الخُزامى   تَهادى الجِربياءُ به الحنينا[٤٣]
بها تَتزخَّرُ القَلَعُ السواري   وجُنَّ الخازبازُ به جُنونا[٤٤]
تكادُ الشمسُ تخشعُ حينَ يبدو   لهنَّ وما نزَلنَ وما عسِينا

وقال الحكم الخُضري:

كُومٌ تَظاهَرَ نَيُّها وتربَّعَت   بَقْلًا بِعَيهَمَ والحِمى مجنونا

والمجنون: المصروع، ومجنون بني عامر، ومجنون بني جعدة، وإذا فخر النبات قيل: قد جُنَّ. قال الشنفرى:[٤٥]

وجلَّت ودقَّت واسبكرَّت وأنضَرَت   فلو جُنَّ إنسانٌ من الحُسنِ جُنَّتِ

---

[٤١] حديت تيم حداء عصبصبا: يعني سيقت سوقًا شديدًا.

[٤٢] فلا يضغمن: فلا يعضن. الفريس المنيب: المقتول بالناب.

[٤٣] الهجل: المطمئنُّ من الأرض. قسًا: اسم مكان. ذفر الخزامى: منتشر فيه ريح الخزامى. قال أبو حنيفة: والخزامى عشبة طويلة العيدان، صغيرة الورق، حمراء الزهور، طيبة الريح، لها نَور كنور البنفسج. والجربياء: ريح تهبُّ بين الصَّبا والجنوب.

[٤٤] تتزخر القلع السواري: تجتمع السحب السارية. والخازبار: ضرب من ذباب الرياض.

[٤٥] الشنفرى: هو الذي يُضرَب به المثل في العَدْو فيُقال: أعدى من الشنفرى. وهو من الأزد، وكان من شياطين العرب وأصحاب الغارات فيهم، وكان مع هذا شاعرًا، وإليه تُنسَب اللامية المعروفة بلامية العرب. وقال أبو بكر بن دُرَيد: إن القصيدة المنسوبة إلى الشنفرى التي أولها:

أقيموا بني أمِّي صدورَ مَطِيِّكم   فإنِّي إلى قومٍ سِواكم لأميلُ

هي لخلف الأحمر. قال: وهي من المقدَّمات في الحسن والفصاحة والطول.

قال: وسمع الحجَّاج امرأةً من خلف حائط تُناغي طفلًا، فقال: مجنونة أو أُم صبي؟ وقال أبو ثُمامة بن عازب:

وكلُّهمُ قد ذاقنا فكأنَّما يَرَونَ علينا جِلدَ أجرَبَ هائلِ

وقال الثعلبي:

يرى الناسُ منَّا جِلدَ أسوَدَ سالخٍ وفَروةَ ضِرغامٍ من الأُسدِ ضَيغَمِ

وأنشدنا الأصمعي:

مُنهرِتُ الشِّدقَين عُودٌ قد كَمَلْ كأنَّما قُمِّصَ من لِيطٍ جُعَلْ

وقال نُصيب لعمر بن عبد العزيز: إن لي بُنيَّةً ذررت عليها من سوادي.

وقال عبد الملك للوليد: لا تعزل أخاك عبد الله عن مصر، وانظر عمك محمد بن مروان فأقِرَّه على الجزيرة، وأما الحجَّاج فأنت أحوَجُ إليه منه إليك، وانظر علي بن عبد الله فاستوصِ به خيرًا. فضرب عليًّا بالسياط، وعزل أخاه وعمه.

وقال أبو نخيلة:

أنا ابنُ سعدٍ وتوسَّطتُ العَجَمْ فأنا فيما شئتُ من خالٍ وعَمْ

وأنشد:

هُمُ وسَطٌ يَرضى الإلهُ بحُكمِهم إذا نَزَلَت إحدى الليالي بمُعظَمِ

يجعلون ذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

وأنشد:

ولولا خُلَّةٌ سَبَقَت إليه وأخْوٌ كانَ من عَرَقِ المُدامِ
دلَفتُ له بأبيَضَ مَشرَفيٍّ كما يَدنو المُصافِحُ للسَّلامِ

وقال يزيد بن ضبَّة:

لا تُبدِيَنَّ مَقالةً مأثورةً   لا تستطيعُ إذا مضَت إدراكَها

وقال ابن ميَّادة:

يا أيُّها الناسُ رُدُّوا القولَ واستمِعوا   وكلُّ قولٍ إذا ما قيلَ يُستمَعُ

وقال جرير:

ما المُدلِجُ الغادي إليه بسُحرةٍ   إلَّا كآخَرَ قاعدٍ لم يَبرَحِ

وقال العلاء بن المِنهال الغَنوي في شريك بن عبد الله:

فليتَ أبا شريكٍ كان حيًّا   فيُقصِرُ عن مَقالتِه شريكْ
ويَترُكَ مِن تَدَرِّيه علينا   إذا قُلنا له هذا أبوكْ

وقال طارق بن دِثار الطائي:

ما إنْ يَزالُ ببغدادٍ يُزاحِمُنا   على البراذينِ أشباهُ البراذينِ
ما شئتَ من بَغلةٍ سَفواءَ ناجيةٍ   ومن إناثٍ وقولٍ غيرِ موزونِ
أعطاهم اللهُ أموالًا ومَنزلةً   من المُلوكِ بلا عَقلٍ ولا دِينِ

وقال مُنقذ بن دِثار الهلالي:

لا تذكُرنَّ صَنيعةً سلَفت منـ   ـكَ وإنْ كنتَ لستَ تُنكِرُها
عندَ امرئٍ أنْ تَقُولَ إنْ ذُكِرَت   يومًا من الدهرِ لستُ أذكُرُها
فإنَّ إحياءَها إماتتُها   وإنَّ منَّا بها يُكدِّرُها

قال بعض الحكماء: صاحبك من ينسى معروفه عندك، ويتذكر حقوقك عليه.
وقال مِنقر بن فَروة المِنقري:

وإنْ خِفتَ من أمرٍ فَواتًا فوَلِّه   سِواكَ وعن دارِ الأذى فتَحوَّلِ
وما المرءُ إلا حيثُ يجعلُ نَفْسَه   ففي صالحِ الأعمالِ نَفْسَكَ فاجْعَلِ

ونظر أبو الحارث جُمَّين[٤٦] إلى بِرذَون يُستقى عليه الماء، فقال: وما المرء إلا حيث يجعل نفسه، لو هملجَ هذا البِرذَون لم يُجعل للراوية.

وأنشد:

لا خيرَ في كلِّ فتًى نئومِ　　　لا يَعتريه طارقُ الهُمومِ

وأنشد:

اجعل أبا حَسنٍ كمَن لا تَعرفُ　　　واهجُرْه مُقترِنًا وإنْ لم يُخلِفِ
آخِ الكِرامَ المُنصِفِين وصِلْهمُ　　　واقطَع مودَّةَ كلِّ من لم يُنصِفِ

وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير:

ما زالَ عِصيانُنا للهِ يُسلِمُنا　　　حتى دُفِعْنا إلى يحيى ودينارِ
إلى عُلَيجَينِ لم يُقطَعْ ثِمارُهما　　　قد طالما سجَدا للشمسِ والنارِ

وشاتَم أعرابي أعرابيًّا فقال: إنكم لتعتصرون العطاء، وتُعيرون النساء، وتبيعون الماء.

وقال أبو الأسود الدؤلي:

لنا جِيرةٌ سدُّوا المَجازةَ بَيْننا　　　فإنْ ذكَّروكَ السدَّ فالسدُّ أكيَسُ
ومن خيرِ ما ألصقتَ بالدارِ حائطٌ　　　تَزِلُّ به صُقْعُ الخطاطيفِ أملَسُ

وأنشد:

إذا لم يَكُنْ للمَرءِ بدٌّ من الرَّدى　　　فأكرَمُ أسبابِ الرَّدى سببُ الحُبِّ

---

[٤٦] أبو الحارث جمين: زعم الفيروزآبادي أن المحدثين أخطئوا في اسمه، والصواب عنده أن اسمه جميز، مُستشهدًا على ذلك بقول أبي بكر بن مقسم:

إنَّ أبا الحارث جميزا　　　قد أُوتي الحكمةَ والميزا

وعندي أن الاسم جمين صحيح، وما سمَّاه هذا الشاعر جميزًا إلا من باب التندر به والتلاعب باسمه لغرابته.

وقال الآخر:

وإذا شَنِئتُ فتًى شَنِئتُ حديثَه　　وإذا سَمِعتُ غِناءَه لم أطرَبِ

وأنشد المسروحي لكامل بن عِكرمة:

لها كلَّ عامٍ مَوعِدٌ غيرُ مُنجَزٍ　　ووقتٌ إذا ما رأسُ حَولٍ تَجرَّما
فإنْ وعَدَت شرًّا أتى قبلَ وقتِه　　وإنْ وعَدَت خيرًا أراثَ وعتَّما

وقال الآخر:

ألمْ ترَ أنَّ سَيرَ الخَيرِ رَيثٌ　　وأنَّ الشرَّ راكِبُه يَطِيرُ

وقال محمد بن يسير:

تأتي المَكارِهُ حينَ تأتي جُملةً　　وترى السرورُ يجيءُ في الفَلَتاتِ

وقال الآخر:

إذا ما بَرِيدُ الشامِ أقبَلَ نحوَنا　　ببَعضِ الدواهي المُفظِعاتِ فأسرَعا
فإنْ كانَ شرًّا سارَ يومًا وليلةً　　وإنْ كانَ خيرًا أقصَدَ السَّيرَ أربَعا

وقال آخر:

فإذا نهضتُ فما النُّهوضُ بدائمٍ　　وإذا نُكِبتُ توالتِ النَّكَباتُ

وقال آخر:

وتُعجِبُنا الرؤيا فجُلُّ حديثِنا　　إذا نحنُ أصبحنا الحديثَ عنِ الرؤيا
وإنْ حَسُنَت لم تأتِ عَجْلى وأبطأَتْ　　وإنْ قَبُحَت لم تحتبس وأتَت عَجْلى

قيل لأعرابي: ما أعددت للشتاء؟ قال: جُلَّة رَيوضًا، وصيصة سلوكًا، وشَملة مكودًا، وقُرمصًا دفيئًا، وناقة مُجالحة. وقيل لآخر: ما أعددت للشتاء؟ قال: شِدة الرِّعدة. وقيل

لآخر: كيف ليلكم؟ قال: سَحرٌ كله. وقيل لآخر: كيف البرد عندكم؟ قال: ذاك إلى الريح. وقال مَعن بن أوس المُزَني:

فلا وأبي حبيبٍ ما نَفاه … منَ ارْضِ بَني ربيعةَ من هوانِ
وكانَ هو الغنيُّ إلى غِناه … وكانَ من العشيرةِ في مكانِ
تَكنَّفَه الوُشاةُ فأزعَجُوه … ودَعسٌ من قُضاعةَ غيرُ وانِ
فلولا أنَّ أُمَّ أبيه أُمِّي … وأنْ من قد هَجاه فقد هَجاني
وأنَّ أبي أبوه لَذاقَ منِّي … مَرارةَ مِبرَدي ولكانَ شاني
إذًا لأصابَه منِّي هِجاءٌ … يَمُرُّ به الرَّويُّ على لساني
أُعلِّمُه الرِّمايةَ كلَّ يومٍ … فلمَّا اشتدَّ ساعِدُه رَماني

وقال بعض اليهود:

ولو كنتُ أرضى لا أبا لك بالذي … به العائلُ الجثَّامُ في الخَفضِ قانعُ
إذًا قصَرَت عندي الهمومُ وأصبحتْ … عليَّ وعِندي للرِّجالِ صنائعُ

(١١) ذِكر ما قيل في المهالبة وغيرهم

إنَّ المَهالبةَ الكِرامَ تَحمَّلوا … دَفْعَ المَكارهِ عن ذوي المكروهِ
زانُوا قديمهم بحُسنِ حديثِهم … وكريمَ أخلاقٍ بحُسنِ وُجوهِ

وقال أبو الجهم العدوي في معاوية بن أبي سفيان:

نُقلِّبُه لنَخبُرَ حالتَيه … فنَخبُرَ منهما كَرَمًا ولِينا
نَميلُ على جوانبِه كأنَّا … نَميلُ إذا نَميلُ على أبينا

وقال الآخر في هذا الشكل:

إنْ أجْزِ عَلقمةَ بنَ سيفٍ سَعيَه … لا أجْزِه ببَلاءِ يومٍ واحدِ
لأحَبَّني حُبَّ الصبيِّ ورمَّني … رمَّ الهديِّ إلى الغنيِّ الواجدِ
ولقد شفَيتُ غليلتي فنَقَعتُها … من آلِ مسعودٍ بماءٍ باردِ

وقال بُكَير بن الأخنس:

نزَلتُ على آلِ المهلَّبِ شاتيًا   فقيرًا بَعِيدَ الدارِ في سَنةٍ مَحلِ
فما زالَ بي إلطافُهم وافتقادُهم   وإكرامُهم حتى حسِبتُهمُ أهْلي

وقال في كلمة له أخرى:

وقد كنتُ شيخًا ذا تَجارِبَ جَمَّةٍ   فأصبحتُ فيهم كالصبيِّ المدلَّلِ

ورأى المهلَّبَ وهو غلام فقال:

خُذوني به إن لم يَسُدْ سَرَواتِهم   ويَبرَعَ حتى لا يكونَ له مِثلُ

وقال الحزين في طلحة بن عبد الله من ولد أبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه:

فإنْ تَكُ يا طَلْحَ أعطيتَني   جُماليةً تستحقُّ السِّفارا
فما كان نَفعُك لي مَرَّةً   ولا مَرَّتَين ولكنْ مِرارا

وقال أبو الطَّمَحان:

سأمدحُ مالكًا في كلِّ رَكبٍ   لقيتُهمُ وأتركُ كلَّ رَذلِ
فما أنا والبَكارةُ من مَخاضٍ   عِظامٍ جِلَّةٍ سُدُسٍ وبُزْلِ
وقد عرَفَت كلابُكمُ ثيابي   كأني منكمُ ونسيتُ أهلي
نَمَتْكم من بني شَمخٍ زِنادٌ   لها ما شئتَ من فرعٍ وأصلِ

وقال أبو الشغب:

ألا إنَّ خيرَ الناسِ قد تَعلَمونَه   أسيرُ ثقيفٍ مُوثَقًا في السَّلاسلِ
لَعَمري لئن أعمَرتُم السجنَ خالدًا   وأوطأتموه وَطأةَ المُتثاقِلِ
لقد كانَ نهَّاضًا بكلِّ مُلِمَّةٍ   ومُعطي اللُّها غَمرًا كثيرَ النوافلِ
فإنْ تَسجِنوا القَسريَّ لا تَسجِنوا اسمَه   ولا تَسجِنوا معروفَه في القبائلِ

ومن هذا الباب قول أعشى همدان في خالد بن عتَّاب بن ورقاء:

رأيتُ ثناءَ الناسِ بالغَيبِ طيِّبًا ... عليكَ وقالوا ماجدٌ وابنُ ماجِدِ
بَني الحارثِ السَّامِينَ للمَجدِ إنَّكم ... بَنَيتُم بِناءً ذِكرُه غيرُ بائدِ
هنيئًا لِما أعطاكم اللهُ واعلَموا ... بأنِّي سأطري خالدًا في القصائدِ
فإنْ يَكُ عتَّابٌ مَضى لسبيلِه ... فما ماتَ من يَبقى له مِثلُ خالدِ

ومن هذا الشكل قول الحسين بن مُطَير الأسدي:[٤٧]

أَلِمَّا على مَعْنٍ وقُولا لقَبرِه ... سَقَتكَ الغَوادي مَربَعًا ثُمَّ مَربَعا[٤٨]
أيا قَبرَ مَعنٍ كنتَ أوَّلَ حُفرةٍ ... من الأرضِ خُطَّت للسَّماحةِ مَوضِعا
ويا قَبرَ مَعنٍ كيف وارَيتَ جُودَه ... وقد كانَ منه البَرُّ والبحرُ مُترَعا
بلى قد وسِعتَ الجودَ والجودُ ميِّتٌ ... ولو كان حيًّا ضِقتَ حتى تَصدَّعا
فلمَّا مضى مَعنٌ مضى الجودُ والندى ... وأصبحَ عِرنينُ المَكارمِ أجدعا
فتًى عِيشَ في معروفِه بعدَ موتِه ... كما كانَ بعدَ السَّيلِ مَجراه مَرتَعا
تَعزَّ أبا العبَّاس عنه ولا يَكُنْ ... جزاؤُك من مَعنٍ بأنْ تَتضَعضعا
فما ماتَ من كنتَ ابنَه لا ولا الذي ... له مِثلُ ما أسدى أبوكَ وما سعى
تَمنَّى أناسٌ شأوَه من ضلالِهم ... فأضحَوا على الأذقانِ صَرْعى وظُلَّعا

---

[٤٧] الحسين بن مطير الأسدي: أسدي بالولاء. كان شاعرًا راجزًا فصيحًا متقدمًا، من مُخضرَمي الدولتين الأموية والعباسية. وكان يذهب في زيه وفي كلامه مذهب الأعراب وأهل البادية. قال أبو عُبيدة: والله لوددت أن الشعراء قاربت الحسين بن مُطَير في قوله:

مخصرةُ الأوساطِ زانت عقودَها ... بأحسنَ ممَّا زيَّنَتها عقودُها
بصُفرٍ تَراقيها وحُمْرٍ أكُفُّها ... وسُودٍ نواصيها وبِيضٍ خُدودُها

[٤٨] معن: هو معن بن زائدة الشيباني. كان من كبار الولاة في الدولتين الأموية والعباسية. وكان شجاعًا بطلًا وفارسًا مغوارًا وجوادًا كريمًا، وكان شاعرًا مُبينًا. ولَّاه أبو جعفر المنصور سجستان بعد أن رضي عنه، وله فيها آثار وأحوال، وقصده بها الشعراء، فكان يُجيزهم ويُجزِل لهم العطاء. وبينا كان في داره صُناع يعملون له بعض الإصلاح اندسَّ بينهم جماعة من الخوارج فقتلوه وهو يحتجم، فتتبَّعهم ابن أخيه يزيد بن مزيد بن زائدة حتى قتلهم بأسرهم، وكان قتله بمدينة بست سنة ١٥١هـ/٧٦٨م.

وهذا مِثلُ قول مُسلم بن الوليد[٤٩] في يزيد بن مَزيَد:[٥٠]

قَبرٌ ببَردَعةَ استسرَّ ضريحُه   خَطرًا تَقاصَرَ دُونَه الأخطارُ[٥١]
أبقى الزمانُ على مَعَدٍّ بعدَه   حُزنًا كعُمرِ الدهرِ ليس يُعارُ[٥٢]
نقَضَت به الآمالُ أحلاسَ الغِنى   واسترجَعَت نُزَّاعَها الأمصارُ[٥٣]
فاذهَبْ كما ذهَبَت غَوادي مُزنةٍ   أثْنى عليها السهلُ والأوعارُ

(١٢) ذِكر حروف من الأدب من حديث بني مروان وغيرهم

قيل: إذا رسخ الرجل في العلم رُفعت عنه الرؤيا الصالحة.

مَسلمة قال: كان عند عمر بن عبد العزيز رَجلان فجعلا يلحنان، فقال الحاجب: قُوما فقد أوذيتما أمير المؤمنين. قال عمر: أنت آذى لي منهما.

المدائني قال: قعد قُدَّام زياد رجلٌ ضباعي — من قرية باليمن يُقال لها ضباع — وزيادٌ يبني داره، فقال له: أيها الأمير، لو كنت عملت باب مشرقها من قِبَل مغربها، وباب مَغربها من قِبَل مَشرقها. فقال: أنَّى لك هذه الفصاحة؟ قال: إنها ليست من كتاب ولا حساب، ولكنها من ذكاوة العقل. فقال: وَيلَك، الثاني شر.

---

[٤٩] مسلم بن الوليد: يُلقَّب صريع الغواني. كان مولى الأنصار، وكان شاعرًا مُبدِعًا، كثير الافتنان، حسن التصرُّف في القول، وكان من مُتقدمي شعراء الدولة العباسية. وُلد ونشأ بالكوفة. وكان هو وأخوه سليمان الأعمى مُنقطعين إلى يزيد بن مزيد الشيباني ومحمد بن منصور بن زياد، ثم اختص بعد ذلك بالفضل بن سهل، فقلَّده الفضل ديوان المظالم بجرجان، وبها تُوفي سنة ٢٠٨هـ/٨٢٣م. وترجمة مسلم مبسوطة بسطًا كافيًا في كتاب «مهذب الأغاني»، فليرجع إليها هناك من شاء.

[٥٠] يزيد بن مزيد: كان ابن أخي مَعن بن زائدة المار ذِكره، وكان من الأمراء المشهورين، وكان من الشجاعة والكرم في الذروة. ولَّاه الرشيد أرمينية ثم ضم إليه أذربيجان. ولولا يزيد وبلاؤه في محاربة الوليد بن طريف الشيباني الخارج على سلطان الرشيد لكان للدولة العباسية من الشأن غير شأنها، ولبلغ البرامكة منها ما أرادوا. تُوفي يزيد سنة ١٨٥هـ/٨٠١م.

[٥١] في الأصل: ببرذعة، وقد ضبطها ابن خَلِّكان بالدال فجارَيناه. الذي في الأمالي: قبر بحلوان أسر ضريحه.

[٥٢] الذي في وَفَيات الأعيان وفي مهذب الأغاني: أبقى الزمان على ربيعة.

[٥٣] الذي بالأمالي:

نفضت بك الأحلاس نفضَ إقامةٍ   واستعجلت نُزاعَها الأمصارُ

والذي في المهذب: واسترجعت رؤادها. والذي في وفيات الأعيان:

نقضت بك الأحلاس آمال الغنى   واسترجعت زوارها …

شُعبة، عن الحكم، قال: قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: لا أُماري أخي؛ فإما أن أكذِبه وإما أن أُغضِبه.

ابن أبي الزِّناد قال: إذا اجتمعت حُرمتان تُركَت الصغرى للكبرى.

وعن أبي بكر الهُذلي، واسمه سُلْمي، قال: إذا جمع الطعام أربعًا فقد كمل؛ إذا كان حلالًا، وكثرت عليه الأيدي، وسُمِّي الله على أوله، وحُمد على آخره.

وقال ابن قميئة:

وأهوَنُ كفٍّ لا تَضِيرُك ضَيرةً ... يدٌ بينَ أيْدٍ في إناءِ طعامِ
يدٌ من قريبٍ أو غريبٍ بقَفْرةٍ ... أتَتْك بها غَبْراءُ ذاتُ قَتامِ

وقال حمَّاد عَجرَد:

حُبَيشٌ أبو الصَّلتِ ذو خِبرةٍ ... بما يُصلِحُ المِعدةَ الفاسدةْ
تَخوَّفَ تُخْمةَ أصحابِه ... فعوَّدَهم أكْلةً واحدةْ

وقال سُوَيد المراثد:

إنِّي إذا ما الأمرُ بيَّنَ شكَّه ... وبَدَت بَصائرُه لمن يَتأمَّلُ
وتَبرَّأَ الضُّعفاءُ من إخوانِهم ... وألَحَّ من حَرِّ الصميمِ الكَلكَلُ
أدَعُ التي هي أرأفُ الخَلَّاتِ بي ... عندَ الحفيظةِ للَّتي هي أجمَلُ

(١٣) ومما يُكتب في باب العصا

[قال حسَّان بن الغدير]:[٥٤]

قالت أُمامةُ يَومَ بُرْقةِ واسطٍ ... يا ابنَ الغديرِ لقد جَعَلتَ تَغيَّرُ*

[٥٤] ليس في الأصل اسم الشاعر، لا نكرة ولا معرفة، فأثبتناه. ولهذه الأبيات قصةٌ لطيفة ذكَرها صاحب الأمالي في الذيل بسنده، قال: حدَّثني مجمع بن يعقوب الأنصاري، قال: أدركت حسان بن الغدير شيخًا كبيرًا من أجمل الشيوخ وأحسنهم، فحدَّثني قال: سارت سائرة من بني جشم بن بكر، فرأيت فيهم فتاةً ما رأيت في نساء العرب مثلها حسنًا، فكنت أخطبها، فلم يُقدر لي تزويجها، فضرب الدهر بيننا، فإني

أصبحتَ بعدَ زمانِك الماضي الذي ذهبَتْ شبيبتُه وغُصنُك أخضَرُ[٥٥]
شيخًا دِعامتُك العَصا ومُشيَّعًا لا تَبتغي خيرًا ولا تُستخبَرُ[٥٦]

ويُضم البيت الأخير إلى قوله:

وهُلكُ الفتى ألَّا يراحَ إلى النَّدى وألَّا يرى شيئًا عجيبًا فيَعجَبا
ومن يبتغي مني الظُّلامةَ يَلقَني إذا ما رآني أصلَعَ الرأسِ أشيَبا

وقال بعض الحكماء: أعجَبُ من العَجب تركُ التعجُّب من العَجب. وقيل لشيخٍ هِم: أيَّ شيءٍ تشتهي؟ قال: أسمع بالأعاجيب.

وأنشد:

عريضُ البِطانِ جَديبُ الخِوانِ قريبُ المِراثِ من المَرتَعِ
فنِصفُ النهارِ لكِرْياسِه ونِصفٌ لمَأكَلِه أجمَعِ

ومما يُضم إلى العصا قوله:

لَعَمْري لئن حُلِّئتُ عن مَنهَلِ الصِّبا لقد كنتُ ورَّادًا لمَشرَبِه العَذبِ
لياليَ أغدو بينَ بُردَينِ لاهيًا أمِيسُ كغُصنِ البانةِ الناعِمِ الرَّطبِ

بعد ذلك بأربعين سنةً لفي بلادي إذ أهلوها قد ساروا، وإذا بها عجوزٌ تسأل عني، فلما دُفعت إليَّ ورأت كِبَري قالت: أأنت ابن الغدير؟ فقلت: نعم. قالت: لقد أكل الدهر عليك وشرِب! قال: فذلك قولي فيها، وقد كبرت أيضًا وتغيَّرت: قالت أمامة ... إلخ.

* تغير، في ذيل الأمالي: تنكر.

[٥٥] الذي في ذيل الأمالي:

أصبحتَ بعدَ شبابِك الغضِّ الذي ولَّت شبيبتُه وغُصنُك أخضَرُ

[٥٦] وبعد هذا البيت الذي في الأصل قوله:

فأجبتُها أنْ مَن يُعمَّرْ يَعترفْ ما تَزعُمِينَ وينبُ عنه المَنظرُ
ولقد رأيتُ شبيهَ ما عيَّرتِني يَسْري عليَّ به الزمانُ ويبكرُ
وجعلتُ يُغضبُني اليسيرُ وملَّني أهلي وكنتُ مُكرَّمًا لا أكهرُ
وشرِبتُ في القَعبِ الصغيرِ وقادَني نحوَ الجماعةِ من بَنيَّ الأصغرُ

سلامٌ على سَيرِ القِلاصِ معَ الرَّكْبِ ووَصلِ الغَواني والمُدامةِ والشَّربِ
سَلامَ امرئٍ لم تَبقَ منه بَقيَّةٌ سِوى نظرِ العَينَينِ أو شَهوةِ القَلبِ

وقال حاجب بن ذبيان لأخيه زرارة:

عجِلتُ مَجيءَ الموتِ حتَّى هجَرتَني وفي القبرِ هَجرٌ يا زُرارُ طويلُ

وقال الآخر:

ألمْ تَعلَمي يا عَمْرَكِ اللهُ أنَّني كريمٌ على حينِ الكِرامُ قليلُ
وأنِّيَ لا أخزى إذا قيلَ مُقتِرٌ جوادٌ وأخزى أنْ يُقالَ بَخِيلُ
وإلَّا يَكُنْ عَظْمي طويلًا فإنَّني له بالخِصالِ الصَّالحاتِ وَصُولُ
إذا كنتُ في القَومِ الطِّوالِ فضَلتُهم بعارفةٍ حتَّى يُقالَ طويلُ
ولا خيرَ في حُسنِ الجُسومِ وطُولِها إذا لم يَزِنْ حُسْنَ الجُسومِ عُقولُ
وكائنْ رأيْنا من فُروعٍ طويلةٍ تَموتُ إذا لم تُحيِهنَّ أُصولُ
ولم أرَ كالمعروفِ أمَّا مَذاقُه فحُلوٌ وأمَّا وَجهُه فجَمِيلُ

وقال زياد بن زيد:

إذا ما انتهى عِلمي تَناهَيتُ عندَه أطالَ فأمْلى أم تَناهى فأقصَرا
ويُخبِرُني عن غائبِ المرءِ فِعلُه كفى الفِعلُ عمَّا غيَّبَ المرءُ مُخبِرا

وقال آخر:

أبِرُّ فما يَزدادُ إلا حماقةً ونَوكًا وإنْ كانت كثيرًا مَخارِجُه

وقال ابن الرِّقاع:[٥٧]

وقصيدةٍ قد بِتُّ أجمَعُ بينها حتى أُقوِّم ميلَها وسِنادَها

[٥٧] راجع القصيدة بتمامها في هامش رقم ٢٣ [الجزء الثاني – باب اللحن – (٥) رجعٌ إلى النَّوكى، الهامش رقم ٤٤].

نَظَرَ المثقِّفِ في كُعوبِ قناتِه   حتى يُقِيمَ ثِقافُه مُنآدَها
وعلِمتُ حتى لستُ أسألُ عالِمًا   عن حرفِ واحدةٍ لكَي أزدادَها

وقال بعض الأعراب:

لولا مَسرَّةُ أقوامٍ تَصعَّدَني   أو الشَّماتةُ من قوم ذوي إحَنِ
ما سرَّني أنَّ إبْلي في مَبارِكِها   وأنَّ أمرًا قَضاه اللهُ لم يَكُنِ

وقال الآخر:

وإنِّي لأهوى ثُم لا أتبَعُ الهوى   وأُكرِمُ خِلَّاني وفيَّ صُدودِ
وفي النَّفْسِ عن بَعضِ التعرُّضِ غِلظةٌ   وفي العَينِ عن بَعضِ البُكاءِ جمودِ

وقال كُثَيِّر:

تَرى القومَ يُخفُونَ التبسُّمَ عندَه   ويُنذِرُهم عُورَ الكَلامِ نَذيرُها
فلا هاجِراتُ القولِ يؤثَرنَ عندَه   ولا كلِماتُ النُّصحِ مُقصًى مُشِيرُها

وقال المُقشعرُّ:

يقرُّ بعيني أنْ أرى قِصَدَ القنا   وصَرْعى رِجالٍ في وغًى أنا حاضِرُه

وقال الكُمَيت:

أحسَنُ منها ذِيادُ خامسةٍ   في الوِردِ أو فَيلَقٌ يُجالِدُها

وقال صالح بن مِخراق في كلام له: لولا أن الله تبارك وتعالى قال ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ لأنبأتكم أني لا أكرهه.

وقال الآخر:

تركتُ الرِّكابَ لأربابِها   وأكرَهتُ نَفْسي على ابنِ الصَّعِقْ
جعلتُ يديَّ وِشاحًا له   وبعضُ الفوارسِ لا يُعتنَقْ

قال: قال عمر بن عبد العزيز يومًا في مجلسه: من أُم النُّعمان بن المُنذر؟ فقال رَوح بن الوليد بن عبد الملك: سَلمى بنت عُقاب. قال: إنه ليُقال ذلك، يا حاجبُ أحسِنْ إذنه.

قالوا: عشر خِصال في عشرة أصناف من الناس أقبَحُ منها في غيرهم؛ الضِّيق في الملوك، والغدر في الأشراف، والكذب في القضاة، والخديعة في العلماء، والغضب في الأبرار، والحرص في الأغنياء، والسفه في الشيوخ، والمرض في الأطبَّاء، والزهو في الفقراء، والفخر في القُراء.

وأنشد:

ولا تَقبَلوا عَقلًا وأُمُّوا بِغارةٍ بَني عبدِ شمسٍ بينَ دُومةَ والهَضْبِ
وهُزُّوا صُدورَ المَشرَفيِّ كأنَّما يَقَعنَ بِهامِ القومِ في حَنظَلٍ رَطْبِ

ويُضم إلى بيت الكُميت وبيت المُقشعر قولُ الحَكَمي:

أحسَنُ عِندِي من انكبابك بالـ ـفِهرِ مُلِحًّا به على وَتِدِ
وُقوفُ ريحانةٍ على أُذنٍ وسيرُ كأسٍ إلى فمٍ بِيَدِ

وفي بابٍ غير هذا يقول حسَّان بن ثابت:

ما أُبالي أنَبَّ بالحَزنِ تَيسٌ أم لَحاني بظَهرِ غَيبٍ لئيمُ

وأنشدوا:

خُبِّرتُ أنَّ طُوَيلبًا يَغْتابُنا بعَضِيهةٍ يَتنحَّلُ الأقوالا
ما ضرَّ سادةَ نَهشَلٍ أهَجاهمُ أم قامَ في عُرضِ الحويِّ فَبالا

وقال الفرزدق في هذا المعنى:

ما ضَرَّ تَغلِبَ وائلٍ أهَجَوتَها أم بُلْتَ حيثُ تَناطَحَ البَحرانِ

وقال الآخر في هذا المعنى:

ما يَضِيرُ البَحرَ أمسى زاخرًا أنْ رَمى فيه غُلامٌ بحَجَرْ

(١٤) ومما يُزاد في باب العصا

قول جرير بن الخطفى:

ويُقضى الأمرُ حينَ تَغِيبُ تَيمٌ ... ولا يُستأمَرونَ وهُمْ شُهودُ
وقد سلَبَت عَصاك بنو تميمٍ ... فما تَدري بأيِّ عصًا تذودُ

وقال الحسن بن عَرفطة بن نَضلة:

لِيَهنِكَ بُغضٌ في الصديقِ وضِنَّةٌ ... وتحديثُك الشيءَ الذي أنتَ كاذِبُه
وأنَّك مِهداءُ الخَنا نَطِفُ الثَّنا ... شديدُ السِّبابِ رافِعُ الصَّوتِ غالِبُه
وأنَّك مشنوءٌ إلى كلِّ صاحبٍ ... بَلاكَ ومِثلُ الشَّرِّ يُكرَهُ جانِبُه
ولم أرَ مِثلَ الجَهلِ أدنى إلى الرَّدى ... ولا مِثلَ بُغضِ الناسِ غُمِّضَ صاحِبُه

وقال قتادة بن خُرجة التغلبي:

خليليَّ يومَ السَّلسلَين لوَ انَّني ... بهيرا اللِّوا أنكرتُ ما قُلتُما ليا
ولكنَّني لم أنْسَ ما قالَ صاحِبي ... نَصِيبَك من ذُلٍّ إذا كنتَ نائبا

وقال خالد بن نَضلة:

إذا كنتَ في قومٍ عِدًى لستَ منهمُ ... فكُلْ ما عُلِفتَ من خبيثٍ وطيِّبِ

وقال أحمد بن يوسف، وكان يتعشَّق يحيى بن سعيد بن حماد:

إنَّ يحيى بنَ سعيدٍ ... يَشتهي أنْ أشتهيه
فهْوَ يَلقاني بِتَورِيـ ... ـمٍ وأحيانًا بِتِيه

وقال أبو سعيد، دَعيُّ بني مخزوم، في مُهاجاة دِعبل:

ولولا نِزارٌ لَضاقَ الفضاءُ ... ولم يَبقَ حِرزٌ ولا مَعقِلُ
وأخرَجَتِ الأرضُ أثقالَها ... وأُدخِلَ في استِ امِّه دِعبلُ

وقال:

حَـدَقُ الآجـالِ آجـالُ   والـهَـوى لـلـمَـرءِ قتَّـالُ
والهوى صَعبٌ مَراكِبُه   ورُكوبُ الصَّعبِ أهوالُ
ليس من شَكْلي فأشتُمَه   دِعبلٌ والناسُ أشكالُ
هِمَّتي في التاجِ ألبسُه   ولـه فـي الـشِّـعرِ آمالُ

وقال:

هـذا الـلُّبـانيُّ يَـحـوي   جـوائـزَ الـخُـلـفـاءِ
ففي حِرِ امِّي مَديحي   وفي حِرِ امِّي هِجائي
وفي حِرِ امِّي وإنْ كُنـ   ـتُ سيِّدَ الشُّعَراءِ

وقال محمد بن يسير:

في حِرِ امِّ النَّاسِ كلِّهِم   أنـا فـي هـذا مـنَ اوَّلِـهـم
لستَ تدري حينَ تُخبِرُهم   أينَ أدناهم منَ افضَلِهم

وقال:

إذا ما جاوَزَ النُّدماءُ خمسًا   بِرَبِّ البَيتِ والساقي الأديبِ
فأيْرٌ في حِرِ امِّ فتًى دعانا   وأيْرٌ في حِرِ امِّ فتًى مُجيبِ

وقال سَلْم الخاسر:

بِهارونَ قرَّ الملكُ في مُستقَرِّه   وأشرَقَتِ الدُّنيا وأينَعَ نَورُها
ولـيس لأيَّامِ الـمَـكارمِ غـايـةٌ   تَـتِـمُّ بـهـا إلَّا وأنـت أمـيـرُهـا

وقال بشَّار بن بُرد:

من فتاةٍ صُبَّ الجَمالُ عليها   فـي حـديـثٍ كـلَـذَّةِ الـنَّـشْـوانِ
ثُـم فـارَقـتُ ذاك غـيـرَ ذمـيـمٍ   كلُّ عَيشِ الدُّنيا وإنْ طالَ فانِ

وقال مُزاحم العُقيلي:

تَـزِيـنُ سَـنـا الـمـاويِّ كلَّ عَـشـيَّـةٍ   علـى غَـفَـلاتِ الـزَّيـنِ والـمُـتـجـمِّـلِ
وُجوهًا لوَ انَّ المُدلِجين اعتشَوا بها   صَدَعنَ الدُّجى حتى يُرى الليلُ يَنجلي

وقال المسعودي:

إنَّ الـكِـرامَ مُـنـاهِـبُـو   ك المَجدَ كلَّهمُ فَناهِبْ
أخلِفْ وأتلِفْ كلَّ شي   ءٍ زَعزَعَته الرِّيحُ ذاهِبْ

قال شيخ من الأطبَّاء: الحمد لله، فلانٌ يُزاحمنا في الطب ولم يختلف إلى البيمارستان تمام خمسين سنة.

وحدَّثني محمد بن عبد الملك، صديقٌ لي، قال: سمعت رجلًا من فُرسان طبرستان يقول: فلانٌ يدَّعي الفروسية، ولو كُلِّف أن يُخليَ فروج فرسه مُنحدرًا من جبل لَمَا قدر عليه.

وقال بعض العبيد:

أيَبعَثُني في الشَّاءِ وابنُ مُخَيلدٍ   على هَجمةٍ قد لوَّحَتها الطبائخُ
متى كانَ حمرانُ النَّباتيُّ راعيًا   وقد راعَه بالذَّودِ أسوَدُ سالخُ

وقال كُثيِّر في عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

تَكلَّمتَ بالحقِّ المُبينِ وإنَّما   تُبيَّنُ آياتُ الهُدى بالتكلُّمِ
ألا إنَّما يَكفي القنا بعدَ زيغِه   من الأوَدِ البادي ثِقافُ المُقوِّمِ

الأصمعي قال: قال ابن عبيد: لا يزال الناس بخيرٍ ما داموا إذا اختلج في صدر الرجل شيءٌ وجد من يُفرِّج عنه.

قال البعيث في إبراهيم بن عدي:

تَرى مِنبَرَ العَبدِ اللَّئيمِ كأنَّما   ثلاثةُ غِربانٍ عليه وُقوعُ

وقال الأعشى:

رُبَّ رِفدٍ هرَقتَه ذلك اليَو مَ وأسرى من مَعشرٍ أقيالِ

وقالوا: لا وَكْس ولا شَطَط.
وقال الشاعر:

ومُدجَّجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزالَه لا مُمعِنٍ هَرَبًا ولا مُستسلِمِ

وقال زُهير:

دُونَ السماءِ وفوقَ الأرضِ قَدرُهما عندَ الذُّنابى فلا فَوتٌ ولا دَرَكُ

وقالوا: خير الأمور أوساطها، وشر السَّير الحَقحقة. قال: والمثل السائر، والصواب المستعمل: لا تكُن حُلوًا فتُزدرَد، ولا مرًّا فتُلفَظ.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إن هذا الأمر لا يُصلحه إلا لِين في غير ضعف، وشِدَّة في غير عنف.

وكان الحجَّاج يُجاوز العنف إلى الخُرق، وكان كما وصف نفسه، قال: أنا حديدٌ حقود، وذو قسوةٍ حسود. وذكره آخر فقال: كان شرًّا من صبي.

وقال أكثم بن صَيفي: تناءَوا في الديار، وتواصَلوا في المَزار.

وكان ناسئ الشهور يقول: اللهم باعِدْ بين نسائنا، وقارِبْ بين رِعائنا، واجعل الأموال في سُمحائنا.

وقال آخر:

شتَّى مَراجِلُهم فَوضى نساؤُهمُ فكلُّهم لأبيه ضَيزَنٌ سَلِفُ

وقال آخر: من أمَّل أحدًا هابَه، ومن قصَّر عن شيءٍ عابَه.
وقال الآخر:

رجَعْنا سالِمِينَ كما بَدأنا وما خابت غنيمةُ سالمينا

وقال امرؤ القيس بن حُجْر:

لقد نقَّبتُ في الآفاقِ حتى　　　رضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

وقيل لابن عبَّاس: أيُّما أحَبُّ إليك، رجلٌ يُكثِر من الحسنات ويُكثِر من السيئات، أو يُقلُّ من الحسنات والسيئات؟ قال: ما أعدِل بالسلامة شيئًا.

وقالت أعرابية:

لا تَحمَدوني في الزيارةِ إنَّني　　　أَزُورُكمُ إلَّا أجِدْ مُتعلَّلا

يعقوب بن داود قال: ذم رجلٌ الأشتر، فقال له رجل من النخع: اسكت؛ فإن حياته هزمت أهل الشام، وموته هزم أهل العراق.

أبو الحسن قال: أُرسلت الخيل أيامَ بِشر بن مروان، فسبق فرس عبد الملك بن بشر، فقال له إسماعيل بن الأشعث:

والله لأُرسلنَّ غدًا مع فرسك فرسًا لا يعرف أن أباك أمير العراق. فجاء فرس إسماعيل سابقًا، فقال: ألمْ أُعلمك؟

وقال أبو العتاهية:

أيا مَن لي بأُنسِك يا أُخيَّا　　　ومن لي أنْ أبُثَّكَ ما لديَّا
كفى حُزنًا بدَفنِك ثُم أنِّي　　　نفَضتُ تُرابَ قبرِك عن يَديَّا
طوَتْكَ خُطوبُ دَهرِك بعدَ نشرٍ　　　كذاك خُطوبُه نَشرًا وطَيَّا
فلو نَشَرَت قُواك ليَ المنايا　　　شكَوتُ إليك ما صنَعَت إليا
بَكيتُك يا أُخيَّ بدرِّ عيني　　　فلم يُغنِ البُكاءُ عليك شيَّا
وكانت في حياتِك لي عِظاتٌ　　　وأنتَ اليومَ أوعَظُ منك حيَّا

وقال الآخر:

أبَعدَ الذي بالنَّعفِ نَعفِ كُويكبٍ　　　رَهينةَ رَمسٍ بينَ تُربٍ وجَندَلِ
أُذكَّرُ بالبُقيا على من أصابَني　　　وبُقيايَ أني جاهدٌ غير مؤتَلِ؟

يقول: وهذا بَقياي.

(١٥) كلام عن حِلم معاوية

قال: قيل لشَريك بن عبد الله: كان معاوية حليمًا. قال: لو كان حليمًا ما سَفِه الحق ولا قاتَل عليًّا، ولو كان حليمًا ما حمل أبناء العبيد على حُرمه، ولمَا أنكح إلا الأكْفاء. وأصوَبُ من هذا قول الآخر: كان معاوية يتعرَّض ويَحلُم إذا أُسمِع، ومن تعرَّض للسفيه فهو سفيه. وقال الآخر: كان يحب أن يُظهِر حِلمه، وقد كان طار اسمه بذلك، فكان يحب أن يزداد في ذلك.

وقال الفرزدق:

وكانَ يُجِيرُ الناسَ من سَيفِ مالكٍ ... فأصبحَ يَبْغي نفسَه من يُجِيرُها
وكانَ كعَنزِ السُّوءِ قامت بظِلفِها ... إلى مُدْيةٍ تحتَ التُّرابِ تُثِيرُها

وقال التُّوت اليماني:

على أيِّ بابٍ أطلُبُ الإذنَ بعدَما ... حُجِبتُ عنِ البابِ الذي أنا حاجِبُه

وهذا مِثل قوله:

والسببُ المانعُ حظَّ العاقِلِ ... هو الذي سبَّبَ رِزقَ الجاهِلِ

ومِثله:

ورُبَّتَ حَزمٍ كانَ للسُّقمِ عِلَّةً ... وعِلَّةُ بُرءِ الداءِ حظُّ المُغفَّلِ

وقال آخر:

يَخِيبُ الفتى من حيثُ يُرزَقُ غيرُه ... ويُعطى الفتى من حيثُ يُحرَمُ صاحِبُه

وقال عثمان بن الحُويرث لعمرو بن العاص:

له أبَوانِ فهْوَ يُدعى إليهما ... وشرُّ العِبادِ من له أبَوانِ
وقد حكَما فيه لتصديقِ أُمِّه ... وكانَ لها عِلمٌ به ببَيانِ
فقالت صَراحًا وهْيَ تَعلَمُ غيرَه ... ولكنَّها تهذي بغيرِ لِسانِ

وقال الآخر:

يَطلُبنَ بالقومِ حاجاتٍ تَضمَّنَها بَدرٌ بكلِّ لسانٍ يَلبَسُ المِدَحا
كأنَّ فَيضَ يَدَيه قبلَ مسألةٍ بابُ السماءِ إذا ما بالحيا انفتحا
وكَّلتَ بالدَّهرِ عَينًا غيرَ غافلةٍ من جُودِ كفِّك تأسو كلَّما جَرَحا

ومِثله:

إذا افتقرَ المِنهالُ لم يُرَ فَقرُه وإنْ أيسَرَ المِنهالُ أيسَرَ صاحِبُه

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: من أفضل العبادة الصمتُ وانتظار الفَرَج.

وقال يزيد بن المهلَّب، وكان في سجن الحجَّاج: لهفي على طلبة بمائة ألف، وفرج في جبهة أسد.

وأنشد:

رُبَّما تَجزَعُ النُّفوسُ من الأمـ ـر له فُرجةٌ كحَلِّ العِقالِ

وأنشد:

كَرِهتُ وكانَ الخيرُ فيما كَرِهتُه وأحبَبتُ أمرًا كان فيه شَبا القَتلِ

وهذا مِثل قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾.

وكان يُقال: خذ مُقتصد العراق، ومُجتهد الحجاز.

وقال الآخر:

لكلِّ كريمٍ من ألائمِ قومِه على كلِّ حالٍ حاسِدونَ وكُشَّحُ

وقال جرير:

إنِّي لآمُلُ منك خيرًا عاجلًا والنَّفْسُ مُولَعةٌ بحُبِّ العاجلِ

وقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.
وقال ابن هَرمة:

أَشَمُّ من الذين بهم قُرَيشٌ　　تُداوي بَيْنها عَينَ القتيلِ
كأنَّ تلألؤَ المعروفِ فيه　　شُعاعُ الشمسِ في السَّيفِ الصَّقيلِ

وقال امرؤ القيس:

أجارتَنا إنَّ المَزارَ قريبُ　　وإنِّي مُقِيمٌ ما أقامَ عَسِيبُ
أجارتَنا إنَّا غريبانِ ها هُنا　　وكلُّ غريبٍ للغريبِ نَسِيبُ

وقال بشَّار:

وإذا أغرتَ فلا تَكُنْ جَشِعًا　　تَسمُو لغَثِّ الكَسبِ تكسبُه

وقال حسَّان بن ثابت:

أهدى لهم مِدَحي قلبٌ يُوازِرُه　　فيما أُحِبُّ لسانٌ حائكٌ صَنَعُ

وقال الأصمعي: أنشدَنا أبو مهديَّة:

ضَحَّوا بأشمَطَ عُنوانُ السُّجودِ به　　يُقطِّعُ الليلَ تسبيحًا وقُرآنا

وقال الخزرجي يرد على أبي قيس بن الأسلت، واسمه صيفي:

أتَفخَرُ صَيفيٌّ فيما تَقُو　　لُ أنْ نِلتُمُ عَيلةً أربعةْ
عَرانينَ كلُّهمُ ماجِدُ　　كثيرُ الدسائعِ والمَنفعةْ
فهَلَّا حضَرتَ غداةَ البقيـ　　ـع لمَّا استمالَ أبو صعصعةْ
ولكن كَرِهتُم شُهودَ الوَغى　　وكنتم كذلك في المَعمعةْ
سِراعًا إلى القتلِ في خِفيةٍ　　بِطاءً عن القتلِ في المَجمعةْ

وأنشد الأصمعي:

آتي النديَّ فلا يُقرَّبُ مَجلسي　　وأقودُ للشَّرفِ الرفيعِ حِماريا

وقال حبيب بن أوس:

كالخُوطِ في القَدِّ والغزالةِ في البَهـ ـجةِ وابن الغزالِ في غَيَدِه
وما حكاه ولا نعيمَ له في جيدِه بل حَكاه في جَيَدِه
إلى المُفدَّى أبي يزيدَ الذي يَضِلُّ غَمرُ الملوكِ في ثَمَدِه
ظِلُّ عُفاةٍ يُحِبُّ زائرَه حُبَّ الكبيرِ الصغيرَ من ولدِه
إذا أناخوا ببابِه أخذوا حُكمَهمُ من لسانِه ويدِه

وقال أيضًا:

لَعَمرُك ما كانوا ثلاثةَ إخوةٍ ولكنَّهم كانوا ثلاثَ قبائلِ

(١٦) ومن خُطباء الخوارج

قَطَرِيُّ بن الفُجاءة، أحد بني كِنانة بن حُرقوص، وكُنيته أبو نعامة في الحرب، وفي السلم أبو محمد، وهو أحد رؤساء الأزارقة، وكان خطيبًا فارسًا. خرج زمن مصعب بن الزبير، وبقي عشرين سنةً، وكان يدين بالاستعراض والسِّباء وقتل الأطفال. وكان آخر من بُعث إليه سفيان بن الأبرد الكلبي، وقتله سَورة بن الجبر الدارمي من بني أبان بن دارم.

(١٧) ومن خطباء الخوارج وشعرائهم وعلمائهم

حبيب بن جدرة، عِداده في بني شيبان، وهو مولًى لهلال بن عامر.

ومن علمائهم وخطبائهم وأئمتهم الضحَّاكُ بن قيس، أحد بني عمرو بن محلم بن ذهل بن شيبان، ويُكنى أبا سعيد، ملك العراق، وصلَّى خلفه عبد الله بن عمر[٥٨] وعبد الواحد بن سليمان. وقال شاعرهم:

ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أظهَرَ دِينَه وصلَّت قُريشٌ خلفَ بَكرِ بنِ وائلِ؟

ومن علمائهم وخطبائهم نصر بن مِلحان، وكان الضحَّاك ولَّاه الصلاة بالناس والقضاء بينهم.

---

[٥٨] يعني عبد الله بن عمر بن عبد العزيز.

ومن علمائهم مُلَيل وأصغر ابنا عبد الرحمن، وأبو عبيدة كورين، واسمه مسلم، وهو مولًى لعُروة بن أُذَينة.

ومن علمائهم وخطبائهم وشعرائهم وقَعَدهم وأهل الفقه [منهم] عِمرانُ بن حِطَّان، ويُكنى أبا شهاب، أحد بني عمرو بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة.

ومن الخوارج من بني ضبة ثم أحد بني صبيح: القاسم بن عبد الرحمن بن صُدَيق، وكان ناسبًا عالِمًا داهيًا، وكان يشوب ذلك ببعض الظرف.

ومن علمائهم ونُسابهم وأهل اللَّسَن منهم الجَون بن كلاب، وهو من أصحاب الضحاك.

ومن رجالهم وأهل البيان والنجدة منهم خُراشة، وكان ركَّاضًا، ولم يكن اعتقد.

أخبرني أبو عُبيدة قال: كان مِسمار مُستخفيًا بالبصرة، فتخلَّصت إليه، فأخبرني أنه الذي طعن مالك بن علي في فيه، وذلك أنه فتح فاه يقول أنا أبو علي، فاتحًا فاه، فطعنه في جوف فمه.

ومن شعرائهم عِتبان بن وصيلة الشيباني، وهو الذي يقول:

ولا صُلْحَ ما دامَت مَنابِرُ أرضِنا يقومُ عليها من ثقيفَ خطيبُ

وعن عيسى بن طلحة قال: قلت لابن عباس: أخبِرني عن أبي بكر. قال: كان خيرًا كله، على الحدة وشدة الغضب. قال: قلت: أخبِرني عن عمر. قال: كان كالطائر الحذِر، قد علِم أنه قد نُصِب له في كلِّ وجهٍ حِبالة، وكان يعمل لكل يوم بما فيه على عنف السياق. قال: قلت: أخبِرني عن عثمان. قال: كان والله صوَّامًا قوَّامًا، لم يخدعه نومه عن يقظته. قال: قلت: فصاحبكم؟[٥٩] قال: كان والله مملوءًا حِلمًا وعِلمًا، غرَّته سابقته وقرابته، وكان يرى أنه لا يطلب شيئًا إلا قدر عليه. قلت: أكنتم ترَونه محدودًا؟ قال: أنتم تقولون ذاك.

(١٨) كلام في الأدب

قال معاوية: ما رأيت سَرفًا قط إلا وإلى جنبه حقٌّ مضيَّع.

وقال عثمان بن العاص: الناكح مُغترِس، فلينظر امرؤٌ حيث يضع غرسه.

[٥٩] يعني الإمام عليًّا كرَّم الله وجهه.

وقالت هند ابنة عُتبة: المرأة غُل، ولا بد للعنق منه، فانظر من تضعه في عنقك.

وقال ابن المقفع: الدَّين رِق، فانظر عند من تضع نفسك.

وقال عمرو بن مسعدة، أو ثابت أبو عبَّاد: لا تستصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفؤاد علمه. ومن كانت غايته الاحتيال على مالك، وإطرائك في وجهك، فإن هذا لا يكون إلا رديء الغيب، سريعًا إلى الذم.

بسم الله الرحمن الرحيم

قد قلنا في صدر هذا الجزء الثالث في ذِكرنا العصا ووجوه تصرُّفها، وذكرنا من مقطَّعات كلام النُّساك، ومن قِصار مواعظ الزهاد، وغير ذلك مما يجوز في نوادر المعاني وقِصار الخُطب، ونحن ذاكرون على اسم الله وعونه صدرًا من دعاء الصالحين والسلف المتقدمين، ومن دعاء الأعراب؛ فقد أجمعوا على استحسان ذلك واستجادته، وبعض دعاء الملهوفين والنُّساك المتبتِّلين.

قال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾. وقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾. وقال: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

قالوا: كان عمرو بن معاوية العُقيلي يقول: اللهم قِني عثرات الكِرام.

وقال أعرابي لرجلٍ سأله: جعل الله الخير عليك دليلًا، ولا جعل حظ السائل منك عُذرة صادقة.

وقال بعض كرام الأعراب ممن يَقرِض الشعر ويؤثِر الشكر:

لعلَّ مُفِيداتِ الزمانِ يُفِدنَني ... بني صامتٍ في غيرِ شيءٍ يَضِيرُها

وقال شيخٌ أعرابي: اللهم لا تُنزِلني ماء سوء فأكون امرأ سوء.

قال: وسمعت عمر بن هُبيرة يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من صديقٍ مُطرٍ، وجليسٍ مُغرٍ، وعدوٍّ مُسرٍ.

قال: كتب ابن سيَّابة إلى صديق له، إما مُستقرضًا وإما مُستفرضًا، فذكر صديقه خلةً شديدة، وكثرة عيال، وتعذُّر الأمور، فكتب إليه ابن سيَّابة: إن كنت كاذبًا فجعلك الله صادقًا، وإن كنت مَليمًا فجعلك معذورًا.

قال الأصمعي: سمعت أعرابيًّا يقول: أعوذ بك من الفواقر والبواقر، ومن جار السوء في دار المُقامة والظعن، وما ينكِّس برأس المرء ويُغري به لئام الناس.

قال الأصمعي: قيل لخالد بن نَضلة: قال عبد يغوث بن وقَّاص: ما أذمُّ فيها إلا غطينًا، ليس خالدَ بن نضلة. يعني مُضَر. قال خالد: اللهم إن كان كاذبًا فاقتله على يد ألأم حي في مُضَر. فقتلته تَيم الرِّباب.

قالوا: وقف سائل من الأعراب على الحسن فقال: رحم الله عبدًا أعطى من سَعة، وآسى من كفاف، وآثر من قِلَّة.

وقال في الأثر المعروف: حصِّنوا أموالكم بالزكاة، وادفعوا أمواج البلاء بالدعاء.

ومن دعائهم: أعوذ بك من بَطَر الغنى، وذِلَّة الفقر.

قال: ومن دعاء السلف: اللهم احملنا من الرُّجلة، وأغنِنا من العَيلة.

وسأل أعرابي، فقيل له: بُورِك فيك. فتوالى ذلك عليه من غير مكان، فقال: وكَلَكم الله إلى دعوة لا يحضرها نيَّة.

وقال أعرابي: أعوذ بك من سقم وعَدواه، وذي رَحِم ودعواه، ومن فاجر وجدواه، وعمل لا ترضاه.

وسأل أعرابي، فقال له صبي من جوف الدار: بُورِك فيك. فقال: قبَّح الله هذا الفم، لقد تعلَّم الشر صغيرًا. وهذا السائل هو الذي يقول:

رُبَّ عَجوزٍ عِرمِسٍ زَبُونِ   سريعةِ الرَّدِّ على المِسكينِ
تَحسَبُ أنْ بُورِكَها يَكفيني   إذا غدوتُ باسطًا يميني

وقال آخر: اللهم أعِنِّي على الموت وكُرْبته، وعلى القبر وغُمَّته، وعلى الميزان وخِفَّته، وعلى الصراط وزَلَّته، وعلى يوم القيامة ورَوعته.

وقالت عجوزٌ بلَغها موت الحجَّاج: اللهم أنت أمَتَّه، فأمِتْ سُنَّته.

وكان محمد بن علي بن الحسين يقول: اللهم أعِنِّي على الدنيا بالغِنى، وعلى الآخرة بالتقوى.

وقال عمرو بن عُبيد: اللهم أغنِني بالافتقار إليك، ولا تُفقِرني بالاستغناء عنك. وقال عمرو بن عُبيد: اللهم أعِنِّي على الدنيا بالقناعة، وعلى الدين بالعصمة.

قال: ومرِض عوف بن أبي جميلة، فعاده قوم فجعلوا يُثنون عليه، فقال: دَعُونا من الثناء، وأمِدُّونا بالدعاء.

قال: وسمعت عمر بن هُبيرة يقول: اللهم إني أعوذ بك من طول الغفلة، وإفراط الفِطنة. اللهم لا تجعل قولي فوق عملي، ولا تجعل أسوأ عملي ما قارَب أجلي.

وقال أبو مذحج: اللهم اجعل خير عملي ما وليَ أجلي.

ودَعت أعرابية لرجل فقالت: كبَت الله كل عدو لك إلا نفسك.

وقال يزيد بن جبل: احرس أخاك إلا من نفسه.

قال: ودعا أعرابي فقال: اللهم هَبْ لي حقَّك، وأرضِ عنى خلقك.

قال: وكان قومٌ نُسَّاك في سفينة في البحر، فهاجت الريح بأمرٍ هائل، فقال رجل منهم: اللهم قد أريتَنا قدرتك، فأرِنا عفوك ورحمتك.

قال: وسمع مطرِّف رجلًا يقول: أستغفر الله وأتوب إليه. فأخذ بذراعه وقال: لعلك لا تفعل، من وعد فقد أوجب.

وقال رجل لابن قثم: كيف أصبحت؟ قال: إن كان من رأيك أن تسدَّ خلَّتي، وتقضيَ دَيني، وتكسوَ عَورتي، خبَّرتك، وإلا فليس المُجيب بأعجب من السائل.

وقال آخر: اللهم أمتِعنا بخيارنا، وأعِنَّا على شرارنا، واجعل الأموال في سُمحائنا.

وقال أعرابي: اللهم إنك قد أمَرتَنا أن نعفوَ عمَّن ظلمَنا، وقد ظلَمْنا أنفُسنا فاعفُ عنا.

وقال أعرابي، ورأى إبل رجل قد كثُرت بعد قلة، فقيل: إنه قد تزوَّج أمة فجاءته بنافجة مال، فقال: اللهم إنا نعوذ بك من بعض الرزق.

أبو مجيب الربعي قال: قال أعرابي: جنَّبك الله الأمَرَّين، وكفاك شر الأجوَفَين. الأجوفان: البطن والفَرْج. والأمَرَّان: الجوع والعُري.

وجاء في الحديث: من وُقِي شر قَبقَبه وذَبذَبه ولَقلَقه، فقد وُقِي الشر كله.

وقال أعرابي: منحكم الله مِنحةً ليست بحدَّاء، ولا نَكداء، ولا ذات داء.

قال: قيل لإبراهيم النخعي: أي رجل أنت لولا حِدَّة فيك! قال: أستغفر الله مما أملِك، وأستصلحه ما لا أملِك.

وقال أعرابي، ومات ابن له: اللهم إني قد وهبت له ما قصَّر فيه من بِرِّي، فهَبْ لي ما قصَّر فيه من طاعتك.

قال: لما صافَّ قُتيبة بن مُسلم التُّرك وهالَه أمرهم سأل عن محمد بن واسع، وقال: انظروا ما يصنع؟ فقيل: ها هو ذاك في أقصى المَيمنة جانحًا على سِية قوسه، يُنضنض بإصبعه نحو السماء. قال قُتيبة: تلك الإصبع الفاردة أحَبُّ إليَّ من مائة ألف سيف شهير، وسِنانٍ طرير.

أبو الدرداء قال: إن أبغض الناس إليَّ أن أظلمه من لم يستعِن عليَّ إلا بالله.

وقال خالد بن صفوان: احذروا مجانيق الضعفاء. يعني الدعاء. وقال: لا يُستجاب إلا لمُخلِص أو مظلوم.

قال: وكان علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه يقول: اللهم إن ذنوبي لا تضرُّك، وإن رحمتك إيَّاي لا تنقصك، فاغفر لي ما لا يضرُّك، وأعطِني ما لا ينقصك.

وقال أعرابي: اللهم إنك حبستَ عنَّا قَطر السماء، فذابَ الشحم، وذهب اللحم، ورقَّ العظم، فارحم أنين الآنة، وحنين الحانة، اللهم ارحم تحيُّرها في مَراتعها، وأنينها في مَرابضها.

قال: وحجَّت أعرابية، فلما صارت بالموقف قالت: أسألك الصحبة يا كريم الصحبة، وأسألك سِترك الذي لا تُزيله الرياح، ولا تخرقه الرِّماح.

وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: كم بين السماء إلى الأرض؟ قال: دعوةٌ مستجابة. قالوا: كم بين المشرق إلى المغرب؟ قال: مسيرة يوم للشمس. ومن قال غير هذا فقد كذب.

قال: وحجَّ أعرابي فقال: اللهم إن كان رِزقي في السماء فأنزِله، وإن كان في الأرض فأخرِجه، وإن كان نائيًا فقرِّبه، وإن كان قريبًا فيسِّره.

أبو عثمان اليقطري، عن عبد الله بن سلم الفهري، قال: لما ولِيَ مسروق السلسلة انبرى له شابٌّ فقال له: وقاك الله خشية الفقر، وطول الأمل، فلا تكونن دريئة للسُّفهاء، ولا شينًا للفُقهاء.

وقال أعرابي في دعائه: اللهم لا تخيِّبني وأنا أرجوك، ولا تعذِّبني وأنا أدعوك. اللهم فقد دعَوتُك كما أمرتَني، فأجِبني كما وعدتَني.

وقال عبد الله بن المبارك: قالت عائشة: يا بني، لا تطلبوا ما عند الله من عند غير الله بما يُسخِط الله.

قال: وقال رجل من النُّساك: إن ابتُليتَ أن تدخل مع ناس إلى السلطان، فإذا أخذوا في الثناء فعليك بالدعاء.

وقال الكذَّاب الحِرمازي:

لاهُمَّ إنْ كانت بَنو عميرةْ   رهطَ التِّلِبِّ دعوةٌ مستورةْ
قد أجمعوا لخِلقةٍ مقصورةْ   واجتمعوا كأنَّهم قارورةْ

فـي غَـنـمٍ وإبـلٍ كـثـيـرةْ　　　فابعث عليهم سنةً قاشورةْ
تحتلقُ المالَ احتلاقَ النُّورةْ

وقال أعرابي:

لاهُـمَّ أنت الرَّبُّ تُـسـتـغـاثُ　　　لك الـحـيـاةُ ولك الـمـيـراثُ
وقد دعاك الناسُ فاستغاثوا　　　غِـيـاثَـهـم وعِـنـدَك الـغِـيـاثُ
لـم يَـبـقَ إلا عِـكـرِشٌ أنكاثُ　　　وشِـيَـحٌ أُصـولُـهـا مـثـاثُ
وطـاحـتِ الألـبـانُ والأرمـاثُ

وكان سعد بن أبي وقاص يُسمَّى: المستجاب الدعوة. وقال لعمر حين شاطَره ماله: لقد هممت. فقال له عمر: أن تدعوَ الله عليَّ؟ قال: نعم. قال: إذًا لا تجدُني بدعاء ربي شقيًّا.

وقال رسول الله ﷺ: كم من ذي طِمرَين لا يؤبَه له لو أقسم على الله لأبرَّه، منهم البراء بن مالك. وجمع الناس إليه، وقد دهمهم العدو، فأقسم فمنحهم الله أكنافهم.

الأصمعي وأبو الحسن قالا: أخبرنا إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، عن أبيه، أو عن غيره، قال: بلَغ سعدًا شيءٌ فعله المهلَّب في العدو، والمهلَّب يومئذٍ فتًى، فقال سعد: اللهم لا تُرِه ذُلًّا. فيَرَون أن الذي ناله المهلَّب بتلك الدعوة.

وقال آخر:

الموتُ خيرٌ من رُكوبِ العارِ　　　والعارُ خيرٌ من دُخولِ النارِ
واللهُ من هذا وهذا جاري

قالها حسين بن علي رضي الله تعالى عنهما.

وقال الآخر وكان قد وقع في الناس وباءٌ جارف، وموتٌ ذريع، فهرب على حماره، فلما كان في بعض الطريق ضرب وجه حِماره راجعًا إلى حيِّه وقال:

لن يُسبَقَ اللهُ على حِمارِ　　　ولا على ذي مَيعةٍ خطَّارِ
قد يُصبحُ اللهُ أمامَ السَّاري

وسمع مُجاشع الربعي رجلًا يقول: الشحيح أعذَرُ من الظالم. فقال: إن شيئين خيرهما الشُّح لَناهيك بهما شرًّا.

قال المُغِيرة بن شُعبة: سمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلًا يقول في دعائه: اللهم اجعلني من الأقلِّين. فقال له عمر: ما هذا الدعاء؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾. وسمعته يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. فقال عمر: عليك من الدعاء بما يُعرَف.

وقال ناس من الصحابة لعمر: ما بالُ الناس كانوا إذا ظُلموا في الجاهلية فدَعوا استُجيب لهم، ونحن لا يُستجاب لنا وإن كنا مظلومين؟ قال: كانوا ولا زاجر لهم إلا ذاك، فلما أنزل الله تبارك وتعالى الوعد والوعيد، والحدود والقصاص والقوَد، وكَلَهم إلى ذلك.

وقال عمر رضي الله تعالى عنه: في يوم كذا وكذا، من شهر كذا وكذا، لساعة كذا وكذا، ألا يدعو الله فيها أحدٌ إلا استُجيب له. فقال له قائل: أرأيت إن دعا فيها مُنافق؟ قال: فإن المنافق لا يوفَّق لتلك الساعة. ولما صعِد المِنبر قابضًا على يد العبَّاس يوم الاستسقاء لم يَزِد على الدعاء والاستغفار. فقيل له: إنك لم تستسقِ، وإنما كنت تستغفر! قال: قد استسقَيت بمجاديح السماء.

ذهب إلى قوله: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾. وكان عمر حمل الهُرمُزان مع جماعة في البحر فغرقوا، قال ابن سيرين: لو كان دعا عليهم بالهلاك لهلكوا.

قال محمد بن علي لابنه: يا بُني، إذا أنعم الله عليك نعمة فقل: الحمد لله. وإذا حزَبك أمرٌ فقل: لا حول ولا قوة إلا بالله. وإذا أبطأ عنك الرزق فقل: أستغفر الله. قالوا: كان محمد بن علي لا يُسمِع المُبتلى الاستعاذة من البلاء.

قال قوم ليزيد بن أسد: أطال الله بقاءك. قال: دعوني أمُت وفيَّ بقيَّة تبكون بها عليَّ.

رأى سالم بن عبد الله سائلًا يسأل يوم عرفة فقال: يا عاجز، أفي هذا اليوم تسأل غير الله؟

قال: كان رجل من الحُكماء يقول في دعائه: اللهم احفَظني من الصديق. وكان يقول: اللهم اكفِني بَوائق الثِّقات.

حدَّثني صديق لي كان وليَ ضِياع الري، قال: قرأت على باب شيخ منهم: جزى الله من لا نعرفه ولا يعرفنا أحسن الجزاء، ولا جزى من نعرفه ويعرفنا إلا ما هو أهله، إنه عدلٌ لا يجور.

وكان على رواشم عمر بن مهران التي يرشم بها على الطعام: اللهم احفظه ممن يحفظه.

وقال المُغيرة بن شُعبة في كلام له: إن المعرفة لتنفع عند الكلب العَقور، والجمل الصئول، فكيف بالرجل الكريم؟

أبو الحسن قال: قالت امرأة من الأعراب: اللهم إني أعوذ بك من شر قريش وثقيف، وما جمعت من اللفيف، وأعوذ بك من عبدٍ مَلَك أمره، ومن عبدٍ ملأ بطنه.

قال: مر عمر بن عبد العزيز برجلٍ يسبِّح بالحصى، فإذا بلَغ المائة عزل حصاة، فقال له عمر: ألقِ الحصى وأخلِص الدعاء.

وكان عبد الملك بن هلال الهنائي عنده زنبيلٌ ملآن حصًى، فكان يسبِّح بواحدةٍ واحدة، فإذا ملَّ شيئًا طرح ثِنتَين ثِنتَين، ثم ثلاثًا ثلاثًا، فإذا ملَّ قبض قبضةً وقال: سبحان الله بعدد هذا. وإذا ملَّ شيئًا قبض قبضتَين وقال: سبحان الله بعدد هذا. فإذا ضجِر أخذ بعُروتَي الزنبيل وقلَبه وقال: الحمد لله بعدد هذا. وإذا بكر لحاجة لحَظَ الزنبيل وقال: الحمد لله عدد ما فيه.

قال غَيلان: إذا أردت أن تتعلم الدعاء فاسمع دعاء الأعراب.

قال سعيد بن المُسيب: مر بي صلة بن أشيَم، فما تمالكت أن نهضت إليه فقلت له: يا أبا الصهباء، ادعُ الله لي. فقال: رغَّبك الله فيما يبقى، وزهَّدك فيما يفنى، ووهب لك اليقين الذي لا تسكن النفس إلا إليه، ولا تعوِّل في الدين إلا عليه.

أبو الحسن قال: سمع رجل بمكة رجلًا يدعو لأمه، فقال له: ما بالُ أبيك؟ قال: هو رجلٌ يحتال لنفسه.

أبو الحسن، عن عُروة بن سليمان العبدي قال: كان عندنا رجل من بني تميم يدعو لأبيه ويدع أمه، فقيل له في ذلك، فقال: إنها كلبيَّة.

ورفع أعرابي يده بمكة قبل الناس فقال: اللهم اغفر لي قبل أن يدهمك الناس.

وقال النبي ﷺ: إن الله يُحب المُلحِّين في الدعاء.

وقال آخر: دعوتان أرجو إحداهما كما أخاف الأخرى؛ دعوة مظلوم أعَنتُه، ودعوة ضعيف ظلمتُه.

قال: وكان من دعاء أبي الدرداء: اللهم أمتِعنا بخِيارنا، وأعِنَّا على شِرارنا، واجعلنا خِيارًا كلَّنا، وإذا ذهب الصالحون فلا تُبقِنا.

وقال آخر لبعض السلاطين: أسألك بالذي أنت بين يدَيه أذَلُّ مني بين يدَيك، وهو على عِقابك أقدر منك على عقابي، إلا نظرت في أمري نظرَ من يري بُرئي أحبَّ إليه من سُقمي.

قالوا: وكان مُطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير يقول: اللهم إنك أمرتَنا بما أمرتَنا ولا نقوى عليه إلا بعونك، ونهيتَنا عما نهيتَنا ولا ننتهي عنه إلا بعِصمتك، واقعة علينا حُجَّتك، غير معذورين فيما بيننا وبينك، ولا مبخوسين فيما عمِلنا لوجهك.

عبد العزيز بن أبان، عن سفيان في قوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، قال: كان أحدهم إذا أراد أن يدعو قال: سبحانك اللهم.

سفيان، عن ابن جُريج، عن عكرمة قال في قوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، قال: كان موسى عليه السلام يدعو وهارون يؤمِّن، فجعلهما الله داعِيَين.

قال: ولما وقع يونس في البحر وقد وُكل به حوت، فلما وقع ابتلعه فهوى به إلى قرار الأرض، فسمع تسبيح الحصى، فنادى يونس في الظُّلمات: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. قال: ظُلمة بطن الحوت، وظُلمة البحر، وظُلمة الليل. وقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وفي الحديث المرفوع أن من دعاء النبي ﷺ: أعوذ بك من قلب لا يخشع، وبطن لا يشبع، ودعاء لا يُسمع.

علي بن سليم، أن قيس بن سعد قال: اللهم ارزقني حمدًا ومجدًا؛ فإنه لا حمد إلا بفَعَال، ولا مجد إلا بمال.

وقال رجل في مجلس الحسن: ليَهنِك الفارس. قال الحسن: فلعلَّه خامر، إذا وهب الله لرجل ولدًا فقل: شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب، وبلَغ أشده، ورُزقت بِره.

أبو سلمة الأنصاري قال: كان عمر بن عبد العزيز يقول: ما أحسنَ تعزيةَ أهل اليمن! وتعزيتهم: لا يحزنكم الله تعالى ولا يفتنكم، وأثابكم ما أثاب المتَّقين، وأوجب لكم الصلاة والرحمة.

قال: كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه إذا عزَّى رجلًا قال: ليس مع العزاء مُصيبة، ولا مع الجزع فائدة، الموت أشَدُّ ما قبله، وأهوَن ما بعده، اذكروا فقدَ رسول الله ﷺ تهُن عندكم مصيبتكم، صلى الله على محمد، وعظَّم أجركم.

وكان علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه إذا عزَّى قومًا قال: إن تجزعوا فأهل ذلك الرحم، وإن تصبروا ففي ثواب الله عِوض من كل فائت، وإن أعظم مصيبة أُصيبَ بها المسلمون محمد ﷺ، وعظَّم الله أجركم.

وعزَّى عبد الله بن عبَّاس عمرَ بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، على بُنيٍّ له مات، فقال: عوَّضك الله منه ما عوَّضه منك.

وهذا الصبيُّ الذي مات هو الذي كان عمر بن الخطاب قال فيه: ريحانةٌ أشمُّها، وعن قريبٍ ولدٌ بارٌّ، أو عدوٌّ ضارٌّ.

سفيان قال: كان أبو ذر يقول: اللهم أمتِعنا بخيارنا، وأعِنَّا على شِرارنا.

قال: ودعا أعرابي فقال: اللهم إني أعوذ بك من الفقر المُدقِع، والذل المُضرِع.

عزَّت امرأةٌ المنصور على أبي العبَّاس، مَقدمَه من مكة، فقالت: أعظم الله أجرك؛ فلا مصيبة أعظم من مصيبتك، ولا عِوض أعظم من خلافتك.

قالوا: وقال عمر بن عبد العزيز وقد سمعوا وقْعَ الصواعق، ودويَّ الريح، وصوت المطر، فقال وقد فزع الناس: هذه رحمته، فكيف نِقمته؟

وقال أبو إسحاق: اللهم إن كان عذابًا فاصرِفه، وإن كان صلاحًا فزِد فيه، وهبْ لنا الصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء. اللهم إن كانت منحةً فمُنَّ علينا بالعِصمة، وإن كان عِقابًا فمُنَّ علينا بالمغفرة.

وقال أبو ذر: الحمد لله الذي جعلنا من أمةٍ تُغفَر لهم السيئات، ولا تُقبَل من غيرهم الحسنات.

وكان الفضل بن الربيع يقول: المسألة للملوك من تحيَّة النَّوكى، فإذا أردت أن تقول: كيف أصبحت؟ فقل: صبَّحك الله بالخير. وإذا أردت أن تقول: كيف تجدك؟ فقل: أنزل الله عليك الشفاء والرحمة.

قال أحمد الهُجيمي أبو عمر، أحد أصحاب عبد الواحد بن زيد: اللهم يا أجوَدَ الأجودين، ويا أكرَم الأكرمين، ويا أعفى العافين، ويا أرحم الراحمين، ويا أحكم الحاكمين، ويا أحسن الخالقين، فرِّج عني فرجًا عاجلًا تامًّا، هنيئًا مباركًا لي فيه، إنك على كل شيء قدير.

وكان عبد الله الشقري — وهو الكعبي، أحد أصحاب المِضمار من غِلمان عبد الواحد بن زيد، وكنيته أبو محمد، وكنية عبد الواحد أبو عُبيدة — يقول: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمَتك، ناصيتي بيدك، اللهم هبْ لي يقينًا، وأدِم لي العافية، وافتح عليَّ

باب رِزقي في عافية، وأعوذ بك من النار والعار، والكذب والسخف، والخسف والقذف، والحقد والغضب، وحبِّبني إلى خلقك، وحبِّبهم إليَّ، وأسألك فرجًا عاجلًا في عافية، إنك على كل شيء قدير.

(١٩) دعاء الغنوي في حبسه

أعوذ بك من السجن والدَّين، والسب والضرب، ومن الغُل والقيد، ومن التعذيب والتجسيس، وأعوذ بك من الحَور بعد الكَور، ومن شر العدو في النفس والأهل والمال، وأعوذ بك من الهم والأرَق، ومن الهرب والطلب، ومن الاستخذاء والاستخفاء، ومن الإطراد والإغراب، ومن الكذب والعضيهة، ومن السعاية والنميمة، ومن لؤم القدرة، ومقام الخِزي في الدنيا والآخرة، إنك على كل شيء قدير.

(٢٠) ومن دعائه في الحبس

أسألك طول العمر في الأمن والعافية، والحِلم والعلم والحزم، والأخلاق الحسنة السنية، والأفعال المَرْضية، واليُسر والتيسير، والنماء والتثمير، وطِيب الذِّكر وحُسن الأحدوثة، والمحبة في الخاصة والعامة، وهَبْ لي ثبات الحُجة، والتأييد عند المنازعة والمخاصمة، وبارِك لي في الموت، إنك على كل شيء قدير.

وكان صالحٌ المُرِّي كثيرًا ما يردِّد في مجلسه: أعوذ بك من الخسف والمسخ، والرجفة والزلزلة، والصاعقة والريح المُهلِكة، وأعوذ بك من جهد البلاء، ومن شماتة الأعداء. وكان يقول: أعوذ بك من التعب والتعذُّر، والخيبة وسوء المُنقلَب. اللهم من أرادني بخير فيسِّر لي خيره، ومن أرادني بشرٍّ فاكفِني شره. اللهم أسألك خِصب الرحل، وصلاح الأهل.

وكان عيسى بن أبي المدوَّر يقول: أعوذ بك من الذِّلَّة والقِلَّة، ومن الإهانة والمِهنة، والإخفاق والوَحدة، وأعوذ بك من الحَيرة وقلة الحيلة، وأعوذ بك من جهد البلاء، وشماتة الأعداء.

محمد بن عبد الله قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: من أُعطيَ الدعاء لم يُحرَم الإجابة، قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. ومن أُعطيَ الشكر لم يُحرَم الزيادة؛ لقوله عز وجل: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. ومن أُعطيَ الاستغفار لم يُحرَم القَبول؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: كُونوا أوعية الكتاب، وينابيع العلم، وسلوا الله رِزق يوم بيوم.

وروى محمد بن علي عن آبائه، عن النبي ﷺ قال: إذا سألتم الله فسلوه بباطن الكفَّين، وإذا استعذتموه فاستعيذوه بظاهرهما.

وقال آخر: اللهم إني أعوذ بك من بَطَر الغِنى، وذلة الفقر.

أبو سعيد المؤدِّب، عن هشام بن عُروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله تعالى قالت: سلوا ربَّكم حتى الشِّسع؛ فإنه إن لم يُيسره لم يتيسر.

سُحيم، عن طاوس قال: يكفي من الدنيا ما يكفي العجينَ من المِلح.

قال: سأل رجل رجلًا حاجة، فقال المسئول: اذهب بسلام. فقال السائل: قد أنصفنا من ردَّنا إلى الله في حوائجنا.

مُجالد، عن الشعبي قال: قال النبي ﷺ: اللهم أذهِبْ مُلْك غسان، وضع مُهور كِندة.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لكلِّ شيءٍ رأس، ورأس المعروف تعجيله.

(٢١) إسماعيل بن إبراهيم ونطقه بالعربية دون تلقين

القول في إنطاق الله تعالى إسماعيل بن إبراهيم، صلى الله على نبينا وعليهما، بالعربية المُبينة على غير التلقين والتمرين، وعلى غير التدريب والتدريج، وكيف صار عربيًّا أعجميَّ الأبوَين. وأول من عليه أن يُقر بهذا القحطاني؛ فإنه لا بد من أن يكون له أبٌ كان أول عربي من جميع بني آدم عليه السلام. ولو لم يكن ذلك كذلك، وكان لا يكون عربيًّا حتى يكون أبوه عربيًّا، وكذلك أبوه وكذلك جده، كان ذلك مُوجبًا لأن يكون نوح عليه السلام عربيًّا، وكذلك آدم عليه السلام.

قال أبو عُبيدة: حدَّثنا مسمع بن عبد الملك، عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين، عن آبائه، قال: أول من فتق لسانَه بالعربية المبينة إسماعيلُ وهو ابن أربع عشرة سنة. قال النبي ﷺ: شهدتُ الفِجار وأنا ابن أربع عشرة سنة، وكنت أنبل على عمومتي. يريد: أجمع لهم النبل. قال أبو عُبيدة: فقال له يونس: صدقت يا أبا يسار، هكذا حدَّثني نصر بن طريف.

وروى قيس بن الربيع عن بعض أشياخه، عن ابن عباسٍ أن الله ألهم إسماعيل العربية إلهامًا. وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾. قال: قد يرسل الله الرسول إلى قومه، ولو أرسل في ذلك الوقت إلى قومٍ آخرين لَما

كان الثاني ناقضًا للأول، وإذا كان الأمر كذلك كان قومه أول من يفهم عنه ثم يصيرون حُجة على غيرهم. وإذا كان الله عز وجل قد بعث محمدًا ﷺ إلى العجم فضلًا عن العرب، فقحطان وإن لم يكونوا من قومه أحقَّ بلزوم الفرض من سائر العجم. وهذا الجواب جواب عوام النِّزارية، فأما الخواص الخُلَّص فإنهم قالوا: العرب كلهم شيءٌ واحد؛ لأن الدار والجزيرة واحدة، والأخلاق والشِّيَم واحدة، وبينهم من التصاهر والتشابك، والاتفاق في الأخلاق وفي الأعراق، من جهة الخئولة المرددة، والعمومة المُشتبكة، ثم المناسبة التي بُنيت على غريزة التربة، وطِباع الهواء والماء؛ فهم في ذلك شيءٌ واحد؛ في الطبيعة واللغة، والهِمَّة والشمائل، والمراعي والراية، والصناعة والشهوة؛ فإذا بعث الله عز وجل نبيًّا من العرب فقد بعثه إلى جميع العرب، وكلهم قومه، ولأنهم جميعًا يد على العجم، وعلى من حارَبهم من الأمم؛ لأن تناكُحهم لا يعدوهم، وتصاهُرهم مقصور عليهم.

قالوا: والمشاكلة من جهة الاتفاق في الطبيعة والعادة، ربما كانت أبلغ وأوغل من المشاكلة من جهة الرحم، نعم، حتى تراه أغلب عليه من أخيه لأمه وأبيه، وربما كانت أشبه به خَلقًا وخُلقًا، وأدبًا ومذهبًا، فيجوز أن يكون الله تبارك وتعالى حين حوَّل إسماعيل عربيًّا أن يكون كما حوَّل طبع لسانه إلى لسانهم، وباعده من لسان العجم، أن يكون أيضًا حوَّل سائر غرائزه، وسلخ سائر طبائعه، فنقلها كيف أحب، وركَّبها كيف شاء، ثم فضَّله بعد ذلك بما أعطاه من الأخلاق المحمودة، واللسان البيِّن، بما لم يكن عندهم، وكما خصَّه من البيان بما لم يخصهم به فكذلك يخصه من تلك الأخلاق ومن تلك الدلائل بما يفوقهم ويروقهم؛ فصار بإطلاق اللسان على غير التلقين والترتيب، وبما نُقِل [إليهم] من طبائعه، ونقل إليه من طبائعهم، وبالزيادة التي أكرمه الله بها، أشرف شرفًا وأكرم كرمًا.

وقد علِمنا أن الخُرس والأطفال إذا دخلوا الجنة وحُوِّلوا في مقادير البالغين، وإلى الكمال والتمام، لا يدخلونها إلا مع الفصاحة بلسان أهل الجنة، ولا يكون ذلك إلا على خلاف الترتيب والتدريج، والتعليم والتقويم. وعلى ذلك المثال كان كلام عيسى بن مريم عليه السلام في المهد، وإنطاق يحيى عليه السلام بالحكمة صبيًّا، وكذلك القول في آدم وحوَّاء عليه السلام.

وقد قلنا في ذئب أُهبان بن أوس، وغُراب نوح، وهدهد سليمان، وكلام النملة، وحِمار عُزير، وكذلك كل شيء أنطقه الله بقدرته، وسخَّره لمعرفته ومشيئته، وإنما يمتنع البالغ من المعارف من قِبَل أمور تَعرِض من الحوادث، وأمور في أصل تركيب الغريزة؛ فإذا

كفاهم الله تلك الآفات، وحصَّنهم من تلك المواضع، ووفَّر عليهم الذكاء، وجلب إليهم جياد الخواطر، وصرف أوهامهم إلى التعرُّف، وحبَّب إليهم التبيُّن؛ وقعت المعرفة، وتمَّت النعمة. والموانع قد تكون من قِبَل الأخلاط الأربعة على قدر القلة والكثرة، والكثافة والرِّقَّة. ومن ذلك ما يكون من جهة سوء العادة، وإهمال النفس؛ فعندها يستوحش من الفكرة، ويستثقل النظر. ومن ذلك ما يكون من الشواغل العارضة، والقُوى المُنقسمة. ومن ذلك ما يكون من خُرق المعلِّم، وقلة رِفق المؤدِّب، وسوء صبر المثقِّف. فإذا صفَّى الله ذهنه ونقَّحه وهذَّبه وثقَّفه، وفرَّغ باله، وكفاه انتظار الخواطر، وكان هو المقيِّد له، والقائم عليه، والمُريد لهدايته، لم يلبث أن يعلم. وهذا صحيح في الأوهام، غير مدفوع في العقول، وقد جعل الله الخال أبًا، وقالوا: الناس بأزمانهم أشبَهُ منهم بآبائهم.

وقد رأينا اختلاف صور الحيوان على قدر اختلاف طبائع الأماكن، وعلى قدر ذلك شاهَدنا اللغات والأخلاق والشهوات؛ ولذلك قالوا: فلانٌ ابن بَجْدتها، وفلانٌ بيضة البلد. يقع ذمًّا ويقع حمدًا. وقال زياد: والله لَلكوفة أشبه بالبصرة من بكر بن وائل بتميم. ويقولون: ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة! كأنهم قالوا: ما أشبه زمان يوسف بن عمر بزمان الحجَّاج. وقال سهل بن عمرو: أشبه امرأً بعضُ بَزِّه. وقال الأضبط بن قُرَيع: بكلِّ وادٍ بنو سعد.

ولولا أن الله عز وجل أفرد إسماعيل من العجم، وأخرجه بجميع معانيه إلى العرب، لكان بنو إسحاق أولى به. وإنما ذلك كرجل قد أحاط علمه بأن هذا الطفل من نجل هذا الرجل، ولكن لما كان من سِفاح لم يجُز أن يُضيفه إليه ويدعوَه أباه. وقد جعل الله نسب ابن الملاعِنة نسب أمه وإن وُلد على فراش أبيه. وقد أرسل الله موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وقومه وإلى جميع القبط، وهما أمَّتان؛ كنعاني وقبطي. وقد جعل الله قوم كل نبي هم المبلِّغين والحُجة، ألا ترى أنَّا نزعم أن عجز العرب عن مِثل نظم القرآن حُجة على العجم من جهة إعلام العرب العجم أنهم كانوا عن ذلك عجَزة؟ وقال النبي ﷺ: «خُصِصت بأمور؛ منها أني بُعثت إلى الأحمر والأسود، وأُحلَّت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طَهورًا.» فدلَّ بذلك على أن غيره من الرسل إنما كان يُرسَل إلى الخاص، وليس يجوز لمن عرف صِدق ذلك الرسول من سائر الأمم أن يكذِّبه ويُنكِر دعواه، والذي عليه ترك الإنكار والعمل بشريعة النبي الأول.

هذا فرق ما بين من بُعث إلى البعض ومن بُعث إلى الجميع. انقضى الباب.

(٢٢) حديث يوم السقيفة

قال: وقال حُباب بن المُنذِر يوم السقيفة: أنا جُذَيلها المحكَّك، وعُذَيقها المُرجَّب، إن شئتم كررناها جَذَعة، منا أمير ومنكم أمير؛ فإن عمل المهاجري شيئًا في الأنصاري رد ذلك عليه الأنصاري، وإن عمل الأنصاري شيئًا في المهاجري رد عليه المهاجري. فأراد عمر الكلام، فقال أبو بكر: على رِسْلك.

نحن المهاجرون، أول الناس إسلامًا، وأوسطهم دارًا، وأكرم الناس أحسابًا، وأحسنهم وجوهًا، وأكثر الناس ولادةً في العرب، وأمَسُّهم رحمًا برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم، وقُدِّمنا في القرآن عليكم؛ فأنتم إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفيء، وأنصارنا على العدو. آويتم ونصرتم وآسيتم، فجزاكم الله خيرًا. نحن الأمراء، وأنتم الوزراء. لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش. أنتم محقوقون ألا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم.

قالوا: فإنَّا قد رضِينا وسلَّمنا.

عيسى بن نذير قال: قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: نحن أهل الله، وأقرب الناس بيتًا من بيت الله، وأمَسُّهم رحمًا برسول الله ﷺ. إن هذا الأمر إن تطاولت إليه الخزرج لم تقصر عنه الأوس، وإن تطاولت إليه الأوس لم تقصر عنه الخزرج، وقد كان بين الحيَّين قَتلى لا تُنسى، وجِراح لا تُداوى؛ فإن نعق منكم ناعق فقد جلس بين لَحيَي أسد، يضغمه المُهاجري ويجرحه الأنصاري.

قال ابن دأب: فرماهم والله بالمُسكِتة.

من حديث ابن أبي سفيان بن حُويطب، عن أبيه، عن جده، قال: قدِمت من عَمرتي فقال لي أهلي: أعلِمت أن أبا بكر بالموت؟ فأتيته فإذا عيناه تذرفان، فقلت: يا خليفة رسول الله، أما كنت أول من أسلم، وثانيَ اثنَين في الغار، فصدَقت هِجرتك، وحسُنت نُصرتك، ووليت فأحسنت صُحبتهم، واستعملت خيرهم عليهم؟ قال: وحسنًا ما صنعت؟ قلت: نعم والله. قال: والله للهُ أشكر له وأعلم به، ولا يمنعني ذلك من أن أستغفر الله. فما خرجت حتى مات.

أبو الخطاب الزُّراري، عن حَجناء بن جرير قال: قلت: يا أبتِ إنك لم تهجُ أحدًا إلا وضعته إلا التيم! قال: إني لم أجد حسبًا فأضعه، ولا بناءً فأهدمه. قال: وقيل للفرزدق: أحسن الكُمَيت في مدائحه في تلك الهاشميَّات؟ قال: وجد آجُرًّا وجصًّا فبنى.

عامر بن الأسود قال: دخل رجل من ولد عامر بن الظَّرِب على عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فقال له: خبِّرني عن حالك في جاهليتك، وعن حالك في إسلامك. قال: أما جاهليتي فما نادَمت فيها غير لُمة، ولا هممت فيها بأَمَة، ولا خِمت فيها عن بُهمة، ولا رآني راءٍ إلا في نادٍ أو عشيرة، أو حَمْل جريرة، أو خيلٍ مُغيرة.

عوانة قال: قال عمر: الرجال ثلاثة؛ رجلٌ ينظر في الأمور قبل أن تقع فيُصدِرها مَصدرها، ورجلٌ مُتوكل لا ينظر، فإذا نزلت به نازلةٌ شاوَر أهل الرأي وقبِل قولهم، ورجلٌ حائرٌ بائر، لا يأتمر رشدًا، ولا يُطيع مُرشدًا.

قال: كلَّم عِلباء بن الهيثم السدوسي عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في حاجة، وكان أعور دميمًا، جيِّد اللسان، حسن البيان، فلما تكلَّم في حاجته فأحسن، صعَّد عمر بصره فيه وحدَره، فلما أن قام قال: لكل أناس في جُمَيلهم خُبْر.

أخبرنا عيسى بن يزيد عن أشياخه، قال: قدِم معاوية المدينة فدخل دار عثمان، فقالت عائشة ابنة عثمان: وا أبتاه. وبكت، فقال معاوية: يا ابنة أخي، إن الناس أعطَونا طاعة وأعطيناهم أمانًا. وأظهَرْنا لهم حِلمًا تحته غضب، وأظهروا لنا طاعةً تحتها حقد. ومع كل إنسان سيفه، وهو يرى مكان أنصاره، وإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا. ولأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأة من عُرْض المسلمين. وقالت عائشة ابنة عثمان في أبان بن سعيد بن العاص حين خطبها، وكان نزل بأيلة وترك المدينة:

نزلتَ ببَيتِ الضَّبِّ لا أنتَ ضائرٌ عدوًّا ولا مُستنفِعًا أنت نافعُ

أبو الحسن قال: قال سلامة بن رَوح الجُذامي لعمرو بن العاص: إنه كان بينكم وبين العرب باب فكسرتموه، فما حمَلكم على ذلك؟ قال: أردنا أن نُخرج الحق من جفير الباطل.

قدِم ببيعة علي إلى الكوفة يزيد بن عاصم المُحاربي، فبايَع أبو موسى، فقال عمَّار لعلي: والله لينقضن عهده، وليحُلَّن عقده، وليفرَّنَّ جهده، وليُسلِمن جنده.

وقال علي في رواية الشعبي: حمَلت إليكم دِرَّة عمر لأضربكم بها لتنتهَوا فأبَيتم، حتى اتخذت الخيزرانة فلم تنتهوا، وقد أرى الذين يريدون السيف، ولا آتي لأُصلحكم بفسادي.

(٢٣) مقطَّعات من نوادر الأعراب وأشعارهم

كانت العادة في كُتُب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار، لما ذكرت عَجبك بذلك، فأحببت أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر إن شاء الله تعالى.

قال أبو العَرف الطُّهَوي:

وافى الوفودُ فوافى من بني جَملٍ　　بكرُ الوفادةِ فاتي السِّنِّ عُرزُومُ
كزُّ المِلاطَين في السِّربالِ حيث مشى　　وفي المَجالسِ لحَّاظٌ زرامِيمُ
لما رأى البابَ والبوَّابَ أخرَجَه　　لؤمٌ مُخالِطُه جُبنٌ وتجزيمُ
قد كان لي بِكُمُ عِلمٌ وكان لكم　　مَمشًى وراءَ ظُهورِ القومِ معلومُ

وقال الحارث بن حِلِّزة (قال أبو عبيدة: الباقي مصنوع):

يا أيُّها المُزمِعُ ثُم انثنى　　لا يَثنِك الحازي ولا الشاحجُ
ولا قعيدٌ أعضبٌ قَرنُه　　هاجَ له من مَرتعٍ هائجِ
بَيْنا الفتى يَسعى ويُسعى له　　تاحَ له من أمرِه خالجُ
يتركُ ما رُقِّح من عيشِه　　يَعبثُ فيه هَمَجٌ هامجُ
قلتُ لعمرٍو حينَ أرسلتُه　　وقد حبى من دُونِنا عالجُ
لا تَكسَعِ الشُّولَ بأغبارِها　　إنَّك لا تدري مَن الناتجُ
واصبُب لأضيافِك ألبانَها　　فإنَّ شرَّ اللَّبَنِ الوالجُ

وقال زبَّان بن يسار بن عمرو بن جابر:

تُخبِّرُ طِيرةٌ فيها زيادٌ　　لتُخبِرَه وما فيها خبيرُ
أقامَ كأنَّ لُقمانَ بنَ عادٍ　　أشارَ له بحكمتِه مُشيرُ
تَعلَّمْ أنه لا طيرَ إلا　　على مُتطيِّرٍ وهْوَ الثُّبورُ
بلى شيءٌ يُوافقُ بعضَ شيءٍ　　أحايينًا وباطِلُه كثيرُ
ومن يُنزَحْ به لا بُدَّ يومًا　　يجيءُ به نَعِيٌّ أو بَشِيرُ

وقال بعض الأعراب:

نَـجـيـبـةُ بـطَّـالٍ لَـدُنْ شـبَّ هـمُّـه   لِعابُ الغَواني والمُدامُ المُشعشَعُ
جَلا المِسكُ والحَمَّامُ والبِيضُ كالدُّمى   وطِـيبُ الدِّهـانِ رأسَـه فـهْـوَ أنـزَعُ
أُسَـيـلـمُ ذاكـم لا خـفًـا بـمـكـانِـه   لـعَـيـنٍ تَـدجَّـى أو لأُذنٍ تَـسـمَّـعُ
من النَّفَرِ الشُّمِّ الذين إذا انتدَوا   وهابَ الرِّجالُ حَلْقةَ البابِ قَعقَعوا
إذا النَّفَرُ السُّودُ اليمانونَ نَمنَموا   لـه حَـوكَ بُـردَيه أطـالـوا وأوسـعـوا

وقال بعض الأعراب:

ألبانُ إبْلِ تَعِلَّةَ بنِ مُسافرٍ   ما دامَ يَملِكُها عليَّ حَرامُ
وطعامُ عِمرانَ بنِ أوفى مِثلُه   ما دامَ يَسلكُ في البطونِ طعامُ
إن الذين يَسوغُ في أحلاقِهم   زادٌ يـمـنُّ عـلـيـهـمُ لَـلِـئـامُ
لعَنَ الإلهُ تَعِلَّةَ بنَ مُسافرٍ   لـعـنًـا يُشَنُّ عليه من قُدَّامُ

وقال بعض الأعراب:

نجيبةُ قومٍ شادَها القتُّ والنَّوى   بيَثربَ حتى نيُّها مُتظاهِرُ
فقلتُ لها سِيري فما بكِ عِلَّةٌ   سَنامُكِ مَلمومٌ ونابُكِ فاطرُ
فمِثلُك أو خيرًا تركتُ رَزيَّةً   تُقلِّبُ عَينَيها إذا مرَّ طائرُ

وقال بعض الأعراب، مجهول الاسم، وهو من جيِّد مُحدَث أشعارهم:

حفَرْنا على رغمِ اللَّهازِمِ حُفرةً   ببَطنِ فُلَيحٍ والأَسِنَّةُ جُنَّحُ
وقد غضِبوا حتى إذا ملئوا الرُّبى   رأوا أنَّ إقرارًا على الضَّيمِ أروَحُ

وقال رجل من مُحارب:

وقـائـلـةٍ تَـطـوَّفْ فـي جَـدادٍ   وأنت، إخالُ، مُعطًى لو تقومُ
فقلتُ الضارباتُ الطَّلْحِ وهنًا   على يُمنايَ إذ وضَحَ النُّجومُ
قصَرنَ عليَّ بعدَ اللهِ فَقْري   فلا أسَلُ الصديقَ ولا أَلُومُ

وقال حاتم الطائي:

وإنِّي لأستحيي حياءً يَسُرُّني ... إذا اللؤمُ من بعضِ الرِّجالِ تَطلَّعا
إذا كان أصحابُ الإناءِ ثلاثةً ... حَيِيًّا ومُستحيًا وكلبًا مجشَّعا
فإنِّي لأستحيي أكيليَ أنْ يَرى ... مكانَ يدي من جانبِ الزَّادِ أقرَعا
أكفُّ يدي من أن تَمَسَّ أكُفَّهم ... إذا نحن أهوَينا وحاجتِنا معا
وإنَّك مَهما تُعطِ بطنَك سؤلَه ... وفَرْجَك نالا مُنتهى الذمِّ أجمَعا

قال، وأظنُّها لبعض اليهود:

وإني لأستبقي إذا العُسر مسَّني ... بشاشةَ وَجْهي حينَ تُبْلى المَناقعُ
فأُعفي ثَرى قومي ولو شئتُ نَوَّلوا ... إذا ما تَشكَّى المُلحِفُ المُتضارِعُ
مَخافةَ أنْ أُقْلى إذا جئتُ زائرًا ... وتُرجِعُني نحوَ الرجالِ المَطامعُ
فأسمعَ منًّا أو أُشرَّفَ مُنعَمًا ... وكلُّ مُصادي نعمةٍ مُتواضِعُ

وقال بعض بني أسد:

ألا جعلَ اللهُ اليمانينَ كلَّهم ... فِدًى لفَتى الفِتيانِ يَحيى بنِ حيَّانِ
ولولا عُرَيقٌ فيَّ من عصبيَّةٍ ... لقُلتُ وألفًا من مَعَدِّ بنِ عَدنانِ
ولكنَّ نَفْسي لم تَطِبْ بعَشيرتِي ... وطِبتُ له نفسًا بأبناءِ قَحطانِ

وقال ثروان، أو ابن ثروان، مولًى لبني عُذرة:

ولو كنتُ مَولى قيسِ عَيلانَ لم تَجِدْ ... عليَّ لإنسانٍ من الناسِ دِرهما
ولكنَّني مَولى قُضاعةَ كلِّها ... فلستُ أُبالي أنْ أدِينَ وتَغرما
أولئك قومي بارَكَ الله فيهمُ ... على كلِّ حالٍ ما أعَفَّ وأكرَما
جُفاةُ المَحَزِّ لا يُصيبونَ مَفصِلًا ... ولا يأكلونَ اللَّحمَ إلا تَخذُّما

وقال آخر:

أيا ابنةَ عبدِ اللهِ وابنةَ مالكٍ ... ويا ابنةَ ذي البُردَين والفَرسِ الوَردِ
إذا ما عمِلتِ الزَّادَ فالتَمِسي له ... أكِيلًا فإنِّي لستُ آكُلُه وحدي

كريمًا قصيًّا أو قريبًا فإنَّني أخافُ مَذمَّاتِ الأحاديثِ من بَعدي
وكيف بشبعِ المرءِ زادًا وجارُه خفيفُ المِعَى بادي الخَصاصةِ والجَهدِ
ولَلمَوتُ خيرٌ من زيارةِ باخلٍ يُلاحِظُ أطرافَ الأكيلِ على عَمْدِ
وإنِّي لعَبدُ الضَّيفِ ما دامَ ثاويًا وما فيَّ إلا تلك من شِيمةِ العَبدِ

وقال ابن عَبدل:

ولو شاءَ بِشرٌ كان من دونِ بابِه طماطمُ سُودٌ أو صَقالبةٌ حُمْرُ
ولكنَّ بِشرًا سهَّلَ البابَ للَّتي يكونُ لبِشرٍ عندَها الحَمدُ والأجرُ
بَعِيدُ مُرادِ العَينِ ما ردَّ طَرْفَه حِذارَ الغواشي بابُ دارٍ ولا سِترُ

وقال بعض الحِجازيين:

لو كنتُ أحمِلُ خمرًا يومَ زُرتُكمُ لم يُنكِرِ الكلبُ أنِّي صاحِبُ الدَّارِ
لكنْ أتَيتُ وريحُ المِسكِ يَفغَمُني والعَنبرُ الوَردُ أُذكِيه على النَّارِ
فأنكرَ الكلبُ ريحي حينَ أبصَرَني وكانَ يَعرفُ ريحَ الزِّقِّ والقارِ

وقال ابن عَبدل:

نِعْمَ جارُ الجزيرةِ المُرضِعُ الغَر ثى إذا ما غدا أبو كُلثومِ
طاويًا قد أصابَ عندَ صديقٍ من غذاءٍ مُلبَّقٍ مأدومِ
ثم أنحى بجَعرِه حاجِبَ الشَّمـ ـسِ فألقى كالمَعلِفِ المهدومِ

وقال حبيب بن أوس:

وحياةُ القريضِ إحياؤُك الجُو دَ فإنْ ماتَ الجوادُ ماتَ القريضُ
يا مُحِبَّ الإحسانِ في زمنٍ أصـ ـبحَ فيه الإحسانُ وهْوَ بَغِيضُ

وقال:

ثم اطَّرحتُم قَراباتي وآصِرتي حتى تَوهَّمتُ أنِّي من بني أسدِ
وطَلعةُ الحمدِ أقْلى في عُيونِهمِ وفي صُدورِهمِ من طَلعةِ الأسَدِ

وقال:

إيَّاك يَعني القائلونَ بقولِهم إنَّ الشَّقيَّ بكلِّ حَبلٍ يُخنَقُ
من شاعرٍ وقفَ الكلامُ بِبابِه واكتنَّ في كنَفي ذُراه المَنطِقُ
سِرْ حيثُ شئتَ من البِلادِ فلِي بها سُورٌ عليك من الرِّجالِ وخَندَقُ
قد ثقَّفت منه الشآمُ وسهَّلَت منه الحِجازُ ورقَّقَته المَشرِقُ

وقال:

بنو عبدِ الكَريمِ نُجومُ ليلٍ تُرى في طيِّئٍ أبدًا تلُوحُ
إذا كانَ الهِجاءُ لهم ثوابًا فخبِّرْني لِمن خُلِقَ المديحُ

وقال:

أيُّ شيءٍ يكونُ أحسَنَ من صَبٍّ أديبٍ مُتيَّمٍ بأديبِ

وقال:

نَقِّلْ فؤادَكَ حيثُ شِئتَ من الهوى ما الحُبُّ إلَّا للحبيبِ الأوَّلِ
كم مَنزِلٍ في الأرضِ يألَفُه الفتى وحنينُه أبدًا لأوَّلِ مَنزِلِ

وقال:

اشرَبْ فإنَّك سوفَ تَعلَمُ أنَّه قَدَحٌ يُصِيبُ العِرضَ منه خُمارُ
عاداك أسوارُ الكلامِ بشُرَّدٍ عُونِ القَريضِ حُتوفُها أبكارُ
غُرَرٌ متى ما شئتَ كنَّ شَواهدي إنْ لم يَكُنْ لي والدٌ عطَّارُ

وقال سَلمة بن الحارث الأنماري:

أبلِغ سُبَيعًا وأنتَ سيِّدُنا قِدْمًا وأوفى رِجالِنا ذِمَما
أنَّ بَغِيضًا وأنَّ إخوتَها ذُبيانَ قد ضرَّموا الذي اضطرما
نُبِّئتُ أنْ حكَّموكَ بينهمُ فلا يقولُنَّ بئسَ ما حكَما
إنْ كنتَ ذا عِرفةٍ بشأنِهمِ تَعرفُ ذا حقِّهم ومن ظلَما

وتُـنـزِلُ الأمـرَ فـي مَـنـازِلِـه حَزمًا وعَزمًا وتُحضِرُ الفُهَما
ولا تُبالي مَن المُحِقُّ ولا الـ ـمُبطِلُ لا إِلَّةً ولا ذِمَما[٦٠]
فاحكمْ فأنتَ الحكيمُ بينهمُ لن يَعدِموا الحُكمَ ثابتًا صتَما
واصدَع أديمَ السَّواءِ بينهمُ على رِضا مَن رَضِي ومن رغِما
إنْ كانَ مالًا ففُضَّ عِدَّتَه مالًا بمالٍ وإنْ دمًا فَدَما
هذا وإنْ لم تُطِقْ حكومتَهم فانبِذْ إليهم أُمورَهم سَلَما

وقال آخر:

أبلِغْ ضِرارًا أبا عمرٍو مُغلغَلةً أنْ كلُّ قولِك ظَهْرَ الغيبِ يأتِينا
ارهَنْ قَبيصةَ إنْ صُلحٌ همَمتَ به إنَّ ضِرارًا لكم رهنٌ بما فينا
إنَّ ضُحَيكًا قتيلٌ من سَراتِكمُ وإنَّ حِطَّانَ منَّا فاعدِلوا الدِّينا[٦١]
وانْهَ عُبَيدًا فلا يؤذي عشيرتَه نَهيُكَ خيرٌ له من نَهيِ ناهِينا

وقال آخر:

بَني عَدِيٍّ ألا يُنهى سفيهُكمُ إنَّ السَّفِيهَ إذا لم يُنْهَ مأمورُ

وقال حضرمي بن عامر الأسدي، ومات أخوه، فقال جزء: قد فرِح بأكل الميراث:

قد قالَ جَزءٌ ولم يَقُلْ جَلَلا إنِّي تَروَّحتُ ناعمًا جَذِلا
إنْ كنتَ أزنَنتَني بها كَذِبًا جَزءٌ فلاقَيتَ مِثلَها عَجِلا
أفرَحُ أنْ أُرزَأَ الكِرامَ وأنْ أُورَثَ ذَودًا شصائصًا نَبَلا؟

وقال حُرَيث بن سَلمة بن مُرارة:

تقولُ ابنةُ العَمريِّ لمَّا رأيتُها تَنكَّرتَ حتى كِدتُ منكَ أُهالُ
فإنْ تَعجَبي منِّي عُمَيرُ فقد أتَت لـيـالٍ وأيَّـامٌ عـلـيَّ طِـوالُ

---

٦٠ الإلة: هنا بمعنى الحِلف أو القرابة. والذمة: العهد.

٦١ الدين: الجزاء.

وإنِّي لمن قومٍ تَشِيبُ سَراتُهم كذاكَ وفيهم نائلٌ وفِعالُ
ولو لِقيَت ما كنتُ ألقى من العِدى إذًا سالَ منها مَفرِقٌ وقَذالُ
ولكنَّها في كِلَّةٍ كلَّ شَتْوةٍ وفي الصيفِ كِنٌّ باردٌ وحِجالُ
تُصانُ وتُعْل المِسكَ حتى كأنَّها إذا وضَعَت عنها النَّصيفَ غَزالُ

وقال بعض الخوارج لامرأته وأرادت أن تنفر معه:

إنَّ الحَروريَّةَ الحرَّا إذا ركِبوا لا تستطيعُ لهم أمثالُكِ الطَّلَبا
إنْ يَركَبوا فَرسًا لا تَركَبي فَرسًا ولا تُطِيقي معَ الرَّجَّالةِ الخَبَبا

وقال خُزَز بن لَوْذان لامرأته في شبيه بهذا:

لا تَذكُري مُهْري وما أطعَمتُه فيكونَ جِلدُكِ مِثلَ جِلدِ الأجرَبِ
إنَّ الغَبوقَ له وأنتِ مَسوءةٌ فتأوَّهي ما شئتِ ثُم تَحوَّبي
كَذِبَ العتيقُ وماءُ شَنٍّ باردٍ إنْ كنتِ سائلتي غَبوقًا فاذهَبي
إنِّي لَأخشى أنْ تقولَ خليلتي هذا غُبارٌ ساطعٌ فتَلبَّبِ
إنَّ العدوَّ لهم إليكِ وسيلةٌ إنْ يأخذوكِ تَكحَّلي وتَخضَّبي
ويكونُ مَركبُكِ القَعودَ وحِدجَه وابنُ النَّعامةِ يومَ ذلك مَركَبي
وأنا امرؤٌ إنْ يأخذوني عَنوةً أقرَنْ إلى شرِّ الرِّكابِ وأُجنَبِ

وأراد أعرابي أن يُسافر فطلبت إليه امرأته أن تكون معه، فقال:

إنَّكِ لو سافَرتِ قد مَذِحتِ وحكَّكِ الحِنْوانِ فانفتحتِ
وقلتُ هذا صوتُ ديكٍ تَحتي

المذح: سجح إحدى الفخذَين بالأخرى.
وفي شبيه بهذا المعنى الأول يقول عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة:

وأعجَبَها من عَيشِها ظلُّ غُرفةٍ وريَّانُ مُلتفُّ الحدائقِ أخضَرُ
ووالٍ كَفاها كلَّ شيءٍ يُهِمُّها فليستْ لشيءٍ آخِرَ الدَّهرِ تَسهَرُ

وقال سلامة بن جندل هذه الأبيات وبعث بها إلى صعصعة بن محمود بن عمرو بن مرثد، وكان أخوه أحمر بن جندل أسيرًا في يده، فأطلقه له:

سأجزِيكَ بالودِّ الذي كان بيْنَنا   أصَعصَعَ إنِّي سوفَ أجزِيكَ صَعصَعا[٦٢]
سأُهدي وإنْ كنَّا بتَثليثِ مِدْحةً   إليكَ وإنْ حلَّت بُيوتُك لَعلَعا
فإنْ يَكُ محمودٌ أباك فإنَّنا   وجَدْناك محمودَ الخلائقِ أروَعا[٦٣]
وإنْ شئتَ أهدَينا ثناءً ومِدحةً   وإنْ شئتَ أهدَينا لكم مائةً مَعا[٦٤]

قال [صعصعة بن محمود]: الثناء والمِدحة أحَبُّ إلينا.

وقال أوس بن حجر حين حُبِس وأقام عند فضالة بن كندة، وتولَّت خدمتَه حليمةُ ابنة فضالة، شاكرًا لذلك:

لَعَمرُكَ ما ملَّت ثَواءً ثوى بها   حليمةُ إذ ألقى مَراسيَ مَقعَدِ
ولكنْ تَلقَّت باليدَينِ ضَمانتي   وحلَّ بفَلْجٍ فالقَنافذِ عُوَّدي
وقد غبَرَت شَهرَي ربيعٍ كلَيهما   بحَملِ البلايا والخِباءِ الممدَّدِ
ولم تُلهِها تلكَ التكاليفُ أنَّها   كما شئتَ من أُكرومةٍ وتَخرُّدِ
هي ابنةُ أعراقٍ كِرامٍ نَمَينَها   إلى خُلُقٍ عَفوٍ بَرازتُه قدِ
سأجزِيكِ أو يَجزِيكِ عنَّا مُثوَّبٌ   وحَسبُكِ أنْ يُثنى عليكِ وتُحمَدي

وقال الخُريمي:

ولم أجْزِه إلا المودَّةَ جاهدًا   وحَسبُك منِّي أنْ أودَّ فأجهَدا

---

[٦٢] الذي في ديوان سلامة بن جندل المطبوع في بيروت:

سأجزيك بالقدِّ الذي قد فكَكتَه   سأجزيك ما أبلَيتَنا العامَ صَعصَعا

[٦٣] رواية الديوان هكذا:

فإنْ يكُ محمودٌ أباك فإنَّنا   وجَدْناك منسوبًا إلى الخيرِ أروَعا

[٦٤] رواية الديوان هكذا:

وإنْ شئتَ أهدَينا ثناءً ومِدحةً   وإنْ شئتَ عدَّينا لكم مائةً معا

وقال الأسدي:

وإنِّي أُحِبُّ الخُلدَ لو أستطيعُه وكالخُلدِ عِندِي أنْ أموتَ ولم أُلَمْ

وقال الحادرة:

فأثنُوا علينا لا أبَا لأبيكمُ بإحسانِنا إنَّ الثناءَ هو الخُلدُ

وأنشد الأصمعي لمُهلهِل:

فقَتلًا بتَقتيلٍ وعَقرًا بعَقرِكم جزاءَ العطاءِ لا يموتُ من اتَّأرْ

وضاف أبو الشليل العَنبري بني حَكم، فخذًا من عنَزة، فقال:

أراني في بني حَكَمٍ قصيًّا على قَتَرٍ أزُورُ ولا أُزارُ
أُناسٌ يأكلونَ اللَّحمَ دُوني وتأتيني المَعاذِرُ والقُتارُ

وقال آخر:

إذا مدَّ أربابُ البُيوتِ بُيوتَهم على رُجَّح الأكفالِ ألوانُها زُهرُ
فإنَّ لنا منها خِباءً يَحُفُّنا إذا نحنُ أمسَينا المَجاعةُ والفقرُ

وقال آخر، وهو أبو المهوِّش الأسدي:

تَراه يُطوِّفُ الآفاقَ حِرصًا ليأكلَ رأسَ لُقمانِ بنِ عادِ

وقال أيضًا:

وبنو الفُقَيمِ قليلةٌ أحلامُهم ثُطُّ اللِّحى مُتشابهو الألوانِ
لو يسمعونَ بأكْلةٍ أو شَربةٍ بعُمانَ أصبحَ جمعُهم بعُمانِ
مُتأبِّطينَ بَنِيهمُ وبَناتِهم صُعْرَ الأُنوفِ لرِيحِ كلِّ دُخانِ

وقال آخر:

وجِيرةٍ لن تَرى في الناسِ مِثلَهمُ إذا يكونُ لهم عيدٌ وإفطارُ
إنْ يُوقِدوا يُوسِعوني من دُخانِهِمِ وليس يبدو لنا ما تُنضِجُ النارُ

وقال أبو الطروق الضبي في خاقان بن عبد الله بن الأهتم:

وشكَّ الناسُ في خاقانَ لمَّا   أتـى لـولادِه سَـنـةٌ وشَـهـرُ
وقـالـت أُخـتُـه إنِّـيَ بَـراءٌ   إلى الرحمنِ منك وذاك نُكْرُ
ولم يُسمَعْ بحَملٍ قبلَ هذا   أتى من دونِه دَهرٌ ودَهرُ
فنـافَرَهـا فـألـحقَه شَبيبٌ   وأثبتَـه فـثـابَ عـلـيـه وَفرُ

وقال مكِّي بن سوادة البُرجُمي:

تَحيَّرَ اللؤمُ يَبغي من يُحالِفُه   حتى تَناهى إلى أبناءِ خاقانِ
أزْرى بكم يا بَني خاقانَ أنَّكمُ   من نَسلِ حجَّامةٍ من قِنِّ هِزَّانِ
سـفَّـاكـةٍ لـدمـاءِ الـقـومِ آكِـلـةٍ   قِدمًا لأموالِهم من غيرِ سُلطانِ
لـو تسـألـونَ بـهـا أيُّوبَ جاءَكمُ   على الذي قلتُ أيُّوبٌ ببُرهانِ
أيامَ تُعطِيه خَرْجًا من حِجامتِها   يـومًـا فـيَـومًـا تُـوفِّـيـه بـأُرْبـانِ
فإنْ رَدَدتُم عليه ما يقولُ أتى   عـلـى مَـقـالـتِـه فـيـهـا بـتِـبْـيـانِ
ثُم اشتراها أبو خاقانَ حينَ عسَت   فالتقطتْ نُقطةً منه بأقطانِ
فاستدخلتْها ولا يَدري بما فعلتْ   حتى إذا ركضَت جاءت بخاقانِ

وقال اللعين المنقري في آل الأهتم:

وكيفَ تُسامُونَ الكِرامَ وأنتمُ   دَوارِجُ جِبريُّونَ فُدْعُ القَوائمِ
بنو مُلصَقٍ من وُلدِ حَذلَمَ لم يَكُنْ   ظَلُومًا ولا مُستنكِرًا للمَظالمِ

وقال آخر:

قالت عَهِدتُك مجنونًا فقلتُ لها   إنَّ الشَّبابَ جُنونٌ بُرؤُه الكِبَرُ

وقال أعرابي، وهو أبو حيَّة النُّمَيري:

رمَتْني وسِترُ اللهِ بَيْني وبَيْنها   عشيَّةَ أرآمِ الكِناسِ رَمِيمُ
ألا رُبَّ يومٍ لو رَمَتني رَمَيتُها   ولكنَّ عَهدي بالنِّضالِ قديمُ
رميمُ التي قالت لجاراتِ بَيتِها   ضمنتُ لكم ألَّا يزالَ يَهِيمُ

وقال أبو يعقوب الأعور:

بِقَلبي سَقامٌ لستُ أُحسِنُ وَصْفَه   على أنَّه ما كانَ فهْوَ شديدُ
تَمُرُّ به الأيامُ تَسحَبُ ذَيْلَها   فتَبْلى به الأيَّامُ وهْوَ جديدُ

وقال الثقفي:

من كانَ ذا عَضُدٍ يُدرِكْ ظُلامتَه   إنَّ الذَّليلَ الذي ليست له عَضُدُ
تَنبُو يَداه إذا ما قلَّ ناصِرُه   ويأنَفُ الضَّيمَ إنْ أثرى له عَدَدُ

وقال أشجع السُّلمي في هارون أمير المؤمنين:

وعلى عَدُوِّك يا ابنَ عمِّ محمدٍ   رَصَدانِ ضوءُ الصُّبحِ والإظلامُ
فإذا تَنبَّهَ رُعتَه وإذا هَدى   سلَّت عليه سيوفَك الأحلامُ

وقال:

انتجِعِ الفَضلَ أو تخلَّ من الدُّ   نيا فهاتانِ غايَتا الهِمَمِ

وقال:

أبَتْ طَبَرستانُ إلَّا الذي   يَعُمُّ البَريَّةَ من دائِها
ضمَمتَ مَناكِبَها ضَمَّةً   رَمَتْك بما بيْنَ أحشائِها

وقالوا: لم يدع الأول للآخر معنًى شريفًا ولا لفظًا بهيًّا إلا أخذه، إلا بيت عنترة:

فَترى الذُّباب بها يُغنِّي وحدَه   غَرِدًا كفِعلِ الشَّارِبِ المُترنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِراعَه بذِراعِه   فِعلَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأجذَمِ

وقال الفُقيمي، قاتل غالب أبي الفرزدق:

وما كنتُ نوَّامًا ولكنَّ ثائرًا   أناخَ قليلًا فوقَ ظَهرِ سَبيلِ
وقد كنتُ مخزونَ اللِّسانِ ومُفحَمًا   فأصبحتُ أدري اليومَ كيفَ أقولُ

وقال أبو المثلَّم الهُذلي:[٦٥]

أَصَخرُ بنَ عبدِ اللهِ إنْ كنتَ شاعرًا فإنَّك لا تُهدي القريضَ لمُفحَمِ

وقال الهُذلي:[٦٦]

على عبدِ بنِ زُهرةَ طُو لَ هذا الدَّهرِ أنتحِبُ[٦٧]
أخٌ لي دُونَ مَن لي مِن بَني عمِّي وإنْ قَرُبوا
طوى من كانَ ذا نَسَبٍ إلـيَّ وزادَه الـنَّـسـبُ
أبـو الأضـيـافِ والأيـتـا مِ سـاعـةَ لا يُـعَـدُّ أبُ
ألا لـلـه دَرُّك مِـن فَتى قومٍ إذا رِكِبوا[٦٨]
وقالوا مَن فتًى للثَّغْـ ـرِ يَرقُبُنا ويَرتقبُ[٦٩]

---

[٦٥] أبو المثلم الهذلي: هو أحد شعراء هُذيل المعدودين، كان بينه وبين صخر بن عبد الله الخيثمي الهذلي المعروف بصخر الغي تنافُس، وكان صخر خليعًا ذا بأس وشر، ومن شره أنه عمد إلى رجلٍ مُزني كان جارًا لبني خناعة بن سعد بن هذيل فقتله، فأخذ أبو المثلَّم يُحرض قومه على مطالبته بدم جارهم المزني، فبلغ ذلك صخرًا فقال يذكر أبا المثلم وما فعله:

إنـي بـدهـمـاءَ عزَّ ما أجِدُ عـاوَدنـي مـن حـبِّـهـا زُؤَدُ
عاوَدني حبُّها وقد شحطت صرفُ نَواها فإنني كَمِدُ
فلستُ عبدًا للمُوعِدِين ولا أقبَلُ ضَيمًا أوتي به أحدُ
جاءت كبير كيما أخفرَها والقومُ صِيدٌ كأنهم رمدوا
في المُزني الذي حشَشت به مـالُ ضـريـك تِـلادُه نَـكِـدُ
إن امتسكه فبالغداءِ وإن أُقـتـلْ بـسـيـفـي فـإنـه قَـوَدُ

فردَّ عليه أبو المثلم بقصيدة منها البيت الذي في الأصل.

[٦٦] الهذلي: هو أبو العيال الهُذلي، وقد مرَّت ترجمته في ص٢١ من الجزء الأول.

[٦٧] رواية الأصبهاني: طول الليل أكتئب.

[٦٨] رواية الأصبهاني: إذا رهبوا.

[٦٩] رواية الأصبهاني: فتًى للحرب.

فكنتَ أخاهمُ حقًّا   إذا تُدعى لها تَثِبُ[70]
وقد ظَهَرَ السوابغُ فيـ   ـهِمُ والبِيضُ واليَلَبُ
أقامَ لدى مدينةِ آ   لِ قُسطَنطِينَ وانقلَبوا
نجيبًا حينَ يُدعى إنَّ   آباءَ الفتى نُجُبُ

وقال أدهم بن مُحرز الباهلي:

لمَّا رأيتُ الشَّيبَ قد شانَ أهلَه   تفتَّيتُ وابتعتُ الشبابَ بدِرهمِ

وقال آكِل المُرار الملك:[71]

إنَّ مَن غَرَّه النِّساءُ بشَيءٍ   بعدَ هندٍ لَجاهلٌ مَغرورُ[72]
حُلوةُ العَينِ واللِّسانِ ومُرٌّ   كلُّ شيءٍ يُجِنُّ منها الضميرُ
كلُّ أنثى وإنْ بَدَت لك منها   آيةُ الحُبِّ حُبُّها خَيتَعورُ[73]

وقال طُفيل الغَنوي:[74]

إنَّ النِّساءَ كأشجارٍ نَبَتنَ معًا   منها المُرارُ وبعضُ المُرِّ مأكولُ
إنَّ النِّساءَ متى يُنهَينَ عن خُلُقٍ   فإنَّه واجبٌ لا بُدَّ مفعولُ

---

[70] رواية الأصبهاني:

فكنتَ فَتاهمُ فيها   إذا يُدعى لها يَثِبُ

[71] آكل المرار الملك: هو الحارث بن عمرو الكندي جد امرئ القيس، وكان ابن هبولة الغساني سبى امرأته فلحقه الحارث فقتله وارتجع المرأة، وكان قد نال منها، فقال لها: هل كان أصابك؟ قالت: نعم والله ما اشتملت النساء على مِثله. فأوثقها بين فرسين، ثم استحفزهما حتى قطعاها، وقال الأبيات.

[72] ويُروى: بود.

[73] ويُروى:

كلُّ أنثى وإنْ بَدا لك منها   آيةُ الودِّ حُبُّها خَيتَعورُ

والخيتعور: الكثير التقلب لا يدوم على حال.

[74] طُفيل الغنوي: هو طُفيل بن عوف بن غني بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان، شاعرٌ جاهلي معدود. كان وصَّافًا للخيل مُجيدًا. قال قتيبة بن مسلم لأعرابي من غني قدِم عليه خراسان: أي بيت قالته

وقال علقمة بن عَبدة:[٧٥]

فإنْ تَسألوني بالنِّساءِ فإنَّني بَصيرٌ بأدواءِ النساءِ طبيبُ
إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ مالُه فليسَ له من ودِّهنَّ نَصِيبُ
يُرِدنَ ثَراءَ المالِ حيثُ علِمنَه وشَرخُ الشَّبابِ عندَهنَّ عَجِيبُ

وقال أبو الشَّغب السعدي:

أبَعدَ بني الزَّهراءِ أرجو بَشاشةً من العيشِ أو أرجو رَخاءً من الدَّهرِ؟
غَطارفةٌ زُهرٌ مضَوا لسبيلِهم أَلَهْفي على تلك الغطارفة الزُّهرِ
يُذكِّرُنيهم كلُّ خيرٍ رأيتُه وشرٍّ فما أنفكُّ منهم على ذِكرِ

العرب أعف؟ قال: قول طُفيل:

ولا أكونُ وِكاءَ الزادِ أحبسُه لقد علِمتُ بأنَّ الزادَ مأكولُ

قال: فأي بيت قالته العرب في الحرب أجوَد؟ قال: قول طُفيل:

بجيشٍ إذا قيلَ اركبوا لم يَقُلْ لهم عَواوينَ يخشَونَ الرَّدى أينَ نَركَبُ

قال: فأي بيت قالته العرب في الصبر أجود؟ قال: قول نافع بن خليفة الغنوي:

ومن خيرِ ما فينا من الأمرِ أنَّنا متى ما نُوافي مَوطِنَ الصَّبرِ نَصبِرِ

قال قتيبة: فما تركت لإخوانك من باهلة؟ قال: قول صاحبهم:

وإنَّا أُناسٌ ما تزالُ سوامُنا تنوِّرُ نيرانَ العدوِّ مَناسمُه
وليس لنا حيٌّ نُضافُ إليهمُ ولكنْ لنا عُودٌ شديدٌ شكائمُه

[٧٥] علقمة بن عبدة: هو المعروف بعلقمة الفحل، شاعر من فحول شعراء الجاهلية ومقدَّميهم. مات سنة ٦٢٥م. والأبيات التي رواها الجاحظ هي من قصيدةٍ بارعة مَطلعُها:

طَحا بِكَ قلبٌ في الحِسانِ طَرُوبُ بُعَيدَ الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

وهي طويلة، ارجع إليها في المفضليات مشروحةً بقلمنا شرحًا وافيًا.

وقال أبو حُزابة[٧٦] في عبد الله بن ناشرة:

ألا لا فتًى بعدَ ابنِ ناشرةَ الفتى ... ولا خيرَ إلا قد تولَّى وأدبَرا
وكانَ حَصادًا للمَنايا ازدرَعنَه ... فهلَّا تَركنَ النَّبتَ ما كانَ أخضَرا
لَحا الله قومًا أسلَموك ورفَّعوا ... عَناجيجَ أعطَتها يمينُك ضُمَّرا[٧٧]
أمَا كانَ فيهم فارسٌ ذو حفيظةٍ ... يَرى الموتَ في بعضِ المَواطِنِ أعذَرا؟[٧٨]
يَكُرُّ كما كرَّ الكُليبيُّ بعدَما ... رأى الموتَ تَحدُوه الأسِنَّةُ أحمَرا[٧٩]
فكرَّ عليه الوَردَ يَدمى لَبانُه ... وما كرَّ إلا رَهبةً أنْ يُعيَّرا

وقال أعرابي:

رعاكِ ضمانُ اللهِ يا أُمَّ مالكٍ ... ولله أنْ يَشفيك أرعى وأوسَعُ
يُذكِّرُنيك الخيرُ والشرُّ والذي ... أخافُ وأرجو والذي أتوقَّعُ

وقال دُرَيد بن الصِّمَّة:

وقالوا ألَا تَبكي أخاك وقد أرى ... مكانَ الأسى لكنْ بُنِيتُ على الصَّبرِ

---

[٧٦] أبو حزابة: هو الوليد بن حنيفة التميمي، شاعر من شعراء الدولة الأموية. كان من أهل البادية فتحضَّر وسكن البصرة، ثم اكتُتب في بعث سجستان، فكان بها مدة ثم عاد إلى البصرة. وكان شاعرًا راجزًا فصيحًا، خبيث اللسان هجَّاءً. ثم خرج مع ابن الأشعث وقُتل معه سنة ٨٣هـ/٧٠٢م. وكان ابن ناشرة معه بسجستان، وقُتل في فتنة ابن الزبير.

[٧٧] ويُروى: وحردوا، بدل ورفعوا.

[٧٨] ويُروى:

أمَا كان فيهم ماجدٌ ذو حفيظةٍ ... يَرى الموتَ في بعضِ المَواطنِ أفخَرا؟

[٧٩] خلط صاحب الأغاني هذا البيت بالبيت بعده ورواه هكذا:

يكرُّ كما كرَّ الكُليبيُّ مُهرَه ... وما كرَّ إلا خشيةً أنْ يُعيَّرا

ومن هذه القصيدة قوله:

لَعَمْري لقد هدَّت قُرَيشٌ عُروشَنا ... بأبيضَ نفَّاحِ العشيَّاتِ أزهَرا
فلا صُلْحَ حتى تَزحَفَ الخيلُ والقنا ... بنا وبكم أنْ يصدرَ الأمر مَصدرا

فقلت أعَبدَ اللهِ أبكي أمِ الذي على الجَدَثِ الباقي قَتيلَ أبي بَكرِ؟
وعبدَ يَغُوثٍ أو يَمينيَّ خالدًا وعزَّ المُصابُ وضعُ قبرٍ إلى قبرِ
أبى القتلُ إلا آلَ صِمَّةَ إنَّهم أبَوا غيرَه والقَدْرُ يَجري إلى القَدْرِ
فإمَّا تَرَينا ما تَزالُ دِماؤُنا لدى ثائرٍ يَسعى بها آخِرَ الدَّهرِ
فإنَّا للَحمِ السَّيفِ غيرَ نَكيرةٍ ونَلحَمَه حينًا فليس بِذِي نُكْرِ
يُغارُ علينا واتِرينَ فيُشتفى بنا إنْ أُصِبْنا أو نُغِيرُ على وَتْرِ
قَسَمْنا بذاك الدَّهرَ شَطرَينِ بَيْنَنا فلا يَنقضي إلا ونحنُ على شَطرِ

وقال آخر:

إذا ما تَراءاه الرِّجالُ تَحفَّظوا فلمْ تُنطَقِ العَوراءُ وهْوَ قريبُ
حبيبٌ إلى الزُّوَّارِ غِشيانُ بَيتِه جميلُ المحيَّا شبَّ وهْوَ أديبُ
فتًى لا يُبالي أن يكونَ بجسمِه إذا نالَ خلَّاتِ الكِرامِ شُحوبُ
حليمٌ إذا ما الحِلمُ زيَّنَ أهلَه مع الحِلمِ في عَينِ العدوِّ نَجيبُ
حليفُ النَّدى يدعو النَّدى فيُجِيبُه قريبًا ويدعوه النَّدى فيُجِيبُ
يَبِيتُ النَّدى يا أُمَّ عَمرٍو ضجيعَه إذا لم يَكُنْ في المُنقَياتِ حَلُوبُ

يقول: إذا كان الجدب ولم يكن للمال لبن فهو وهوبٌ مِطعام في هذا الزمن. والمنقيات: المهازيل التي ذهب نِقيُهن، والنقي: مخ العظام وشحم العين، وجمعه أنقاء، وناقة منقية أي ذات نقي.

وقال آخر:

ألَا تَرَينَ وقد قطَّعتِني عَذَلًا ماذا من الفَوتِ بينَ البُخلِ والجُودِ
إلا يَكُنْ وَرِقٌ يومًا أجُودُ به للمُعتفِينَ فإني لَيِّنُ العُودِ

وإلى هذا ذهب ابن يسير حيث يقول:

لا يَعدِمُ السائلونَ الخيرَ أفعَلُه إمَّا نَوالي وإما حُسنُ مَردودي

وقال الهُذلي:[٨٠]

وهَّابُ ما لا تكادُ النَّفسُ تُرسِلُه   من التِّلادِ وَصُولٌ غيرُ منَّانِ[٨١]

وقال أبو عُبيدة معمر بن المثنى: ومن الشوارد التي لا أرباب لها قوله:

إنْ يَفجروا أو يَغدِروا   أو يَبخَلوا لم يَحلِفوا
يغدوا عليك مرجَّليـ   ـنَ كأنَّهم لم يفعلوا
كأبي بَراقشَ كلُّ لَو   نٍ لَـونُـه يَـتـخـيَّـلُ

ومِثله في بعض معانيه:

أكولٌ لأرزاقِ العِبادِ إذا شَتا   صبورٌ على سوءِ الثَّناءِ وَقَاحُ

وقال:

وما نَفى عنك قومًا أنتَ خائفُهم   كمِـثـلِ وَقـمِـك جُـهَّـالًا بـجُـهَّـالِ
فاقعَسْ إذا حدَبوا واحدَبْ إذا قعَسوا   ووازِنِ الـشـرَّ مِـثـقـالًا بـمِـثـقـالِ

---

[٨٠] الهذلي: هو أبو المثلم المار ذِكره قريبًا. وهذا البيت من أبياتٍ يرثي بها صخر الغي لما قُتل، وأولها حسب رواية صاحب الأغاني:

لـو كـانَ لـلـدَّهـرِ مـالٌ كـانَ قـلَّـدَه   لـكـانَ لـلـدَّهـرِ صـخـرٌ مـالَ قُـنـيـانِ
آبِي الـهـضـيمةِ نابٍ بـالـعـظـيـمةِ مِتـ   ـلافُ الـكـريـمـةِ لا نِـكـسٌ ولا وانِ
حامي الـحـقيقةِ نسَّالُ الوريقةِ مِعـ   ـقالُ الوسـيـقةِ جَلْدٌ غيرُ ثِـنـيـانِ
ربَّـاءُ مَـرقـبـةٍ مـنَّـاعُ مَـغـلـبـةٍ   ركَّـابُ سَـلـهـبـةٍ قـطَّـاعُ أقـرانِ
هـبَّـاطُ أودِيـةٍ شـهَّـادُ أنـدِيـةٍ   حـمَّـالُ ألـوِيـةٍ سِـرحـانُ فِـتـيـانِ
يحمي الصِّحابَ إذا جدَّ الضِّرابُ ويَكـ   ـفي القائلين إذا ما كُبِّل العاني
ويـتـركُ الـقِـرنَ مُـصـفـرًّا أنـامـلُـه   كـأنَّ فـي رَيـطـتَـيـه نَـضـخُ أرقـانِ

[٨١] وبعد الأبيات السابقة روى صاحب الأغاني هذا البيت هكذا:

يُعطيك ما لا تكادُ النفسُ تُسلِمُه   من التِّلادِ وَهُوبٌ غيرُ منَّانِ

وقال الراجز:

وقد تَعلَّلتُ ذَمِيلَ العَنسِ　　بالسَّوطِ في ديمومةٍ كالتُّرسِ
إذ عَرَجَ اللَّيلُ برَوحِ الشَّمسِ

وقال الراجز:

قد كنتُ إذ حَبلُ صِباك مُدمَشُ　　وإذ أهاضيبُ الشبابِ تَبغَشُ

وقال الراجز:

طالَ عليهنَّ تكاليفُ السُّرى　　والنصُّ في حينِ الهجيرِ والضُّحى
حتى عَجاهنَّ فما تحتَ العَجى　　رواعِبٌ يَخضِبنَ مِبيضَّ الحَصى

سمع ذلك ابن وُهيب[٨٢] فرامَ مِثله فقال:

يَخضِبُ مَروًا دمًا نجيعًا　　من فرطِ ما تُنكَبُ الحَوامى

وقال عامر مُلاعب الأسنَّة:

دفعتُكمُ عنِّي وما دفعُ راحةٍ　　بشيءٍ إذا لم تَستعِنْ بالأناملِ
يُضعضعُني حِلمي وكثرةُ جهلِكم　　عليَّ وأنِّي لا أصُولُ بجاهلِ

وقال آخر:

لا بُدَّ للسؤدُدِ من أرماحِ　　ومن سفيهٍ دائمِ النُّباحِ
ومن عديدٍ يُتَّقى بالرَّاحِ

وقال أبو نخيلة لبعض سادات بني سعد:

وإنَّ بقَومٍ سوَّدوك لَفاقةً　　إلى سيِّدٍ لو يَظفَرونَ بسيِّدِ

---

[٨٢] ابن وهيب: هو محمد بن وهيب الحِميَري، شاعر من متوسطي شعراء الدولة العباسية، أصله من البصرة وسكن بغداد. وكان مختصًّا بالحسن بن سهل، وكان يتشيع، وهو من مؤدِّبي الفتح بن خاقان.

وتمثَّل سفيان بن عُيينة وقد جلس على مرقبٍ عالٍ، وأصحاب الحديث مدى البصر يكتبون، بقول الآخر:

خلَتِ الدِّيارُ فسُدتُ غيرَ مُسوَّدِ ... ومن الشَّقاءِ تَفرُّدي بالسؤدُدِ

وقال الأول في الأحنف:

وإنَّ من الساداتِ من لو أطعتَه ... دعاكَ إلى نارٍ يَفُورُ سَعِيرُها

وقال آخر:

فأصبحتُ بعدَ الحِلمِ في الحيِّ ظالمًا ... تَخمُّطُ فيهم والمُسوَّدُ يَظلِمُ

وقال رجل من بني الحارث بن كعب يُقال له سُويد:

إنِّي إذا ما الأمرُ بيَّنَ شكَّه ... وبَدَت بَصائرُه لمن يَتأمَّلُ
وتَبرَّأَ الضُّعفاءُ من إخوانِهم ... وألَحَّ من حَرِّ الصميمِ الكَلكَلُ
أدَعُ التي هي أرفَقُ الحالاتِ بي ... عندَ الحفيظةِ للَّتي هي أجمَلُ

وقال الآخر:

ذهبَ الذين أُحِبُّهم فَرَطًا ... وبَقِيتُ كالمغمورِ في خَلْفِ
من كلِّ مَطويٍّ على حَنَقٍ ... مُتصنِّعٍ يُكفى ولا يَكفي

وقال أبو الطَّمَحان القَيني:

فكم فيهمُ من سيِّدٍ وابنِ سيِّدٍ ... وفيٍّ بعَقدِ الجارِ حينَ يُفارِقُه
يكادُ الغَمامُ الغُرُّ يَرغَبُ أنْ يَرى ... وُجوهَ بَني لأمٍ ويَنهلُّ بارِقُه

وقال طُفيل الغنوي:

وكان هُريمٌ من سِنانٍ خليفةً ... وعمرٍو ومن أسماءَ لمَّا تَغيَّبوا
نُجومُ سماءٍ كُلَّما انقضَّ كَوكبٌ ... بَدا وانجلتْ عنه الدُّجُنَّةُ كَوكبُ

وقال رجل من بني نهشل:

إنَّا لمِن مَعشرٍ أفنى أوائلُهم ... قِيلُ الكُماةِ ألا أينَ المُحامونا
لو كانَ في الألفِ منَّا واحدٌ فدَعوا ... من عاطفٌ خالَهم إيَّاه يَدعُونا
وليس يذهبُ منَّا سيِّدٌ أبدًا ... إلا افتلَينا غُلامًا سيِّدًا فينا

وقال بعض الحِجازيين:

إذا طَمَعٌ يومًا عَراني قَرَيتُه ... كتائبَ يأسٍ كرَّها وطِرادَها
أكُدُّ ثِمادي والمياهُ كثيرةٌ ... أُعالِجُ منها حَفْرَها واكتدادَها
وأرضى بها من بحرِ آخَرَ إنَّه ... هو الرِّيُّ إنْ تَرضى النُّفوسُ ثِمادَها

وقال أبو مِحجَن الثقفي:

ألمْ تَسألْ فوارسَ من سُلَيمٍ ... بِنَضلةَ وهْوَ موتورٌ مُشِيحُ؟
رأوه فازدَرَوه وهْوَ خِرْقٌ ... وينفعُ أهلَه الرَّجلُ القبيحُ
فلم يخشَوا مَصالِتَه عليهم ... وتحتَ الرِّغوةِ اللَّبَنُ الصَّريحُ
فكرَّ عليهمُ بالسَّيفِ صَلتًا ... كما عضَّ الشَّبا الفَرسُ الجَمُوحُ
فأطلَقَ غِلَّ صاحِبِه وأردى ... جريحًا منهمُ ونجا جَرِيحُ

وقال بعض اليهود:

سئمتُ وأمسَيتُ رَهنَ الفِراشِ ... ومن حَملِ قومٍ ومن مَغرَمِ
ومن سَفَهِ الرَّأيِ بعدَ النُّهى ... ورُمتُ الرَّشادَ فلمْ يَفهَمِ
فلَو أنَّ قومي أطاعوا الحليمَ ... ولم تَتعدَّ ولم تَظلِمِ
ولكنَّ قومي أطاعوا السَّفيـ ... ـهَ حتى تَعكَّظَ أهلُ الدَّمِ
فأودى السفيهُ برأيِ الحليـ ... ـمِ فانتشرَ الأمرُ لم يُبرَمِ

وقال بعض الشعراء:

وكنتُ جليسَ قَعقاعِ بنِ شُورٍ ... ولا يَشقى بقَعقاعٍ جليسُ
ضَحُوكُ السِّنِّ إنْ أمَروا بخيرٍ ... وعندَ الشرِّ مِطراقٌ عَبُوسُ

وقال آخر:

ولستُ بزِمِّجةٍ في الفِرا ... شِ وجَّابةٍ يحتمي أنْ يُجيبا
ولا ذي قلازمَ عندَ الحِياضِ ... إذا ما الشَّريبُ أرابَ الشَّريبا

وقال حَجْل بن نَضلة:

جاءَ شقيقٌ عارضًا رُمْحَه ... إنَّ بَني عمِّك فيهم رِماحْ
هل أحدَثَ الدهرُ لنا نَكبةً ... أم هل رَقَت أُمُّ شقيقٍ سِلاحْ؟

وقال:

ويلُ امِّ لَذَّاتِ الشَّبابِ مَعِيشةً ... معَ الكُثرِ يُعطاه الفَتى المُتلِفُ النَّدِي
وقد يَقصُرُ القُلُّ الفتى دُونَ همِّه ... وقد كانَ لولا القُلَّ طلَّاعَ أنجُدِ

وقال الآخر:

قامت تُخاصِرُني بقُنَّتِها ... خَودٌ تأطَّرُ غادةٌ بِكرُ
كلٌّ يَرى أنَّ الشبابَ له ... في كلِّ مَبلَغِ لذَّةٍ عُذرُ

وقال سعد بن ربيعة بن مالك بن سعد بن زيد مناة، وهو من قديم الشعر وصحيحه:

ألا إنَّما هذا السُّلالُ الذي تَرى ... وإدبارُ جِسمي من رَدى العَثَراتِ
وكم من خليلٍ قد تَجلَّدتُ بَعدَه ... تَقطَّعُ نَفْسي دُونَه حَسَراتِ

وقال الطِّرمَّاح في هذا المعنى:

وشيَّبَني ألَّا أزالَ مُناهِضًا ... بغيرِ ثرًا أسرُو به وأبُوعُ
أمُخترِمي رَيبُ المَنُونِ ولم أنَلْ ... من المالِ ما أعصي به وأُطيعُ

وقال الأضبط بن قُرَيع:

لكلِّ همٍّ من الهمومِ سَعةْ ... والمُسْيُ والصُّبحُ لا فَلَاحَ مَعَه
فَصِلْ حِبالَ البَعيدِ إنْ وَصَلَ الـ ... ـحبلَ وأقصِ القريبَ إنْ قَطَعَه

لا تَحقُرنَّ الفقيرَ علَّكَ أنْ   تَركَعَ يومًا والدهرُ قد رَفَعَه
قد يَجمَعُ المالَ غيرُ آكِلِه   ويأكلُ المالَ غيرُ من جَمَعَه

وقال أعرابي، ونحر ناقةً في حُطمةٍ أصابتهم:

أكَلْنا الشَّوى حتى إذا لم نَجِد شوًى   أشَرْنا إلى خيراتِها بالأصابعِ
وللسَّيفُ أحرى أنْ تُباشِرَ حدَّه   من الجوعِ لا تُثنى عليه المَضاجِعُ
لَعَمرُكَ ما سلَّيت نفسًا شحيحةً   عن المالِ في الدنيا بِمِثلِ مَجاوِعِ

وقدَّم ناقة له أخرى إلى شجرة ليكون المُحتطب قريبًا من المنحر، فقال:

وأدنَيتُها من رأسِ عشَّاءَ عَشَّةٍ   مُفصَّلةِ الأفْنانِ صُهبٍ فُروعُها
وقلتُ لها لمَّا شدَدتُ عِقالَها   وبالكفِّ مُمْهاةٌ شديدٌ وُقوعُها
لقد عُنِيَت نَفْسي عليكِ شحيحةً   ولكنْ يُسخِّي شَحَّةَ النَّفْسِ جُوعُها

وقال أسقُف نجران:

مَنَعَ البقاءَ تَصرُّفُ الشمسِ   وطُلوعُها من حيثُ لا تُمسِي
وطُلوعُها بَيضاءَ صافيةً   وغُروبُها صَفراءَ كالوَرسِ
اليومَ نَعلَمُ ما يَجيءُ به   ومَضى بفَصلِ قضائِه أمسِ

وقال آخر:

وهُلْكُ الفَتى ألَّا يَراحَ إلى النَّدى   وألَّا يَرى شيئًا عجيبًا فيَعجَبا
ومن يبتغي منِّي الظُّلامةَ يَلْقَني   إذا ما رآني أصلَعَ الرأسِ أشيَبا

(٢٤) أشعار في الخمر

وقال سُحيم بن وثيل الرياحي:

تقولُ حَدراءُ ليسَ فيك سِوى الـ   ـخَمرِ مَعابٌ يَعِيبُه أحدُ
فقلتُ أخطأتِ بل مُعاقَرتي الـ   ـخَمرَ وبَذْلي فيها الذي أجِدُ

هو الثَّناءُ الذي سَمِعتِ به   لا سَبَدٌ مُخلِدي ولا لَبَدُ
وَيحَكِ لولا الخمورُ لم أحفِلِ الـ   ـعَيشَ ولا أنْ يضمَّني لَحدُ
هي الحَيا والحياةُ واللَّهو لا   أنتِ ولا ثروةٌ ولا وَلدُ

وقال عبدٌ راعٍ:

غَضِبَت عليَّ لأنْ شَرِبتُ بجِزَّةٍ   فلئنْ أَبَيتِ لأشرَبَنْ بخَرُوفِ
ولئن نطَقتِ لأشرَبنَّ بنَعجةٍ   حَمراءٍ من آلِ المُذالِ سَحُوفِ

وقال:

ناحت رُقيَّةُ من شاةٍ شَرِبتُ بها   ولا تَنُوحُ على ما يأكلُ الذِّيبُ

وقال أبو حفص القُريعي:

قد تَغرَّبتُ للشَّقاوةِ حِينًا   حينَ بدَّلتُ للسَّعادةِ نُوقا
يومَ فارَقتُ بَلدَتي وقَراري   وتَبدَّلتُ سُوءَ رأيٍ ومُوقا
ليتَ عِندي بخيرِ مِعزايَ عَشرًا   طَيلَسانًا من الطِّرازِ عَتيقا
وبخَمسٍ منهنَّ أيضًا قميصًا   سابريًّا أَمِيسُ فيه رقيقا
قد هجرتُ النبيذَ مُذ هُنَّ عِندِي   وتَمزَّزتُ رِسلَهنَّ مَذِيقا
فوجدتُ المَذيقَ يُوجِعُ بَطْني   ووجدتُ النبيذَ كانَ صَدِيقا
يَعِدُ النَّفْسَ بالعَشيِّ مُناها   ويَسُلُّ الهمومَ سلًّا رفيقا

وكان فتًى طيِّب من ولد يقطين لا يصحو، وكان في أهله روافض يُخاصمون في أبي بكر وعمر، وعثمان وعلي، وطلحة والزبير، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، فقال:

رُبَّ عُقارٍ باذرَنجيَّةٍ   اصطدتُها من بيتِ دِهقانِ
جَندَرتُ أرواحًا وطيَّبتُها   بعدَ اتِّساخٍ طالَ في الحانِ
سَكتًا وسَلتًا لم يَخُضْ في أذًى   من قتلِ عُثمانَ بنِ عفَّانِ
ولا أبي بَكرٍ ولا طَلحةٍ   ولا زُبيرٍ يومَ عُثمانِ
اللهُ يَجزِيهم بأعمالِهم   ليس علينا عِلْمُ ذا الشَّانِ

وقال المُنخَّل اليَشكُري:

ولقد شرِبتُ من المُدا مةِ بالصغيرِ وبالكثيرِ
ولقد شرِبتُ الخَمر بالـ ـخَيلِ الإناثِ وبالذُّكورِ
فإذا سكِرتُ فإنَّني رَبُّ الخَوَرنقِ والسَّدِيرِ
وإذا صحَوتُ فإنَّني رَبُّ الشُّوَيهةِ والبعيرِ
يا رُبَّ يومٍ للمُنخَّـ ـلِ قد لها فيه قصيرِ

وقال أبو عطاء السِّندي[٨٣] لزائر له ورآه يومئ إلى امرأته:

كُلْ هنيئًا وما شرِبتَ مَريئًا ثُم قُمْ صاغرًا فغَيْرَ كريمِ[٨٤]
لا أُحِبُّ النديمَ يُومِضُ بالعَيـ ـنِ إذا ما خَلا بعِرسِ النَّديمِ[٨٥]

وقال وتعرَّضت له امرأة صاحبه:

رُبَّ بَيضاءَ كالقضيبِ تَثنَّى قد دَعَتني لوَصلِها فأبَيتُ
ليس شاني تَحرُّجًا غيرَ أنِّي كنتُ نَدمانَ زوجِها فاستحَيتُ

وقال آخر:

فلا واللهِ لا أُلْفى وشَرْبًا أُنازِعُهم شَرابًا ما حيِيتُ
ولا واللهِ ما أُلْفى بلَيلٍ أُراقِبُ عِرسَ جاري ما بَقِيتُ
سأترُكُ ما أخافُ عليَّ منه مَقالتَه وأجملَه السُّكوتُ
أبى لي ذاك آباءٌ كِرامٌ وأجدادٌ بمَجدِهم رُبِيتُ

---

[٨٣] أبو عطاء السندي: هو أفلح بن يسار مولى بني أسد، شاعر من شعراء الدولتين، له مدائح في بني أمية وبني العباس. وكان ألثغ ألكن لا يكاد يُبين، وكان مع هذا من أحسن الناس بديهةً وأشدهم عارضة. وكان له غلامٌ فصيح سمَّاه عطاءً وتكنَّى به، فكان يروِّيه أشعاره فيُنشِدها بين يدَي من ينتجعه. مات في أواخر عهد المنصور سنة ١٦٨هـ/٨٠٢م.

[٨٤] رواية الأغاني: ثم قم صاغرًا وأنت ذميم، على الإقواء.

[٨٥] رواية الأغاني:

لا أحب النديم يومض بالطَّرْ فِ إذا ما خلا لعِرسِ النديم

وقال السُّحيمي:

وما ليَ وجهٌ في اللِّئامِ ولا يدٌ ولكنَّ وَجْهي في الكِرامِ عَرِيضُ
أَهَشُّ إذا لاقَيتُهم وكأنَّني إذا أنا لاقَيتُ اللِّئامَ مَرِيضُ

وقال ابن كُناسة:[٨٦]

فيَّ انقباضٌ وحِشمةٌ فإذا لاقيتَ أهلَ الوفاءِ والكَرَمِ
خلَّيتُ نَفْسي على سجيَّتِها وقلتُ ما قلتُ غيرَ مُحتشِمِ

وقال عبد الرحمن بن الحكَم:[٨٧]

وكأسٍ تَرى بينَ الأنامِ وبيْنَها قَذى العينِ قد نازَعتُ أُمَّ أبانِ
تَرى شاربيها حينَ يَعتقِبانِها يميلانِ أحيانًا ويَعتدِلانِ
فما ظنُّ ذا الواشي بأبيَضَ ماجِدٍ وبدَّاءِ خَودٍ حينَ يَلتقيانِ

وقال الرمَّاح بن ميَّادة،[٨٨] وكان الأصمعي يقول: خُتِم الشعر بالرماح، وأظن النابغة أحد عمومته:

ألا رُبَّ خمَّارٍ طرَقتُ بسُدْفةٍ من اللَّيلِ مُرتادًا لنَدمانيَ الخَمرا
فأنهَلتُه خَمرًا وأحلِفُ أنَّها طِلاءٌ حَلالٌ كي يُحمِّلَني الوِزْرا

[٨٦] ابن كناسة: هو محمد بن كناسة عبد الله بن عبد الأعلى بن عبد الله الأسدي، يُكنى أبا يحيى، وكان ابن أخت إبراهيم بن أدهم الزاهد العابد المشهور. كان شاعرًا من شعراء الدولة العباسية، وُلد ونشأ بالكوفة. وكان تقيًّا صالحًا لا يمدح ولا يهجو. وقد رُوي عنه شيء من الحديث. وكانت له جارية شاعرة مغنِّية يُقال لها دنانير، وكان أهل الأدب وذوو المروءة يقصدونها للمذاكرة والمساجلة في الشعر. مات سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م.

[٨٧] عبد الرحمن بن الحكم — كان في الأصل: ابن الحكيم — هو ابن أبي العاص بن أمية، يُكنى أبا مطرف. شاعر إسلامي من متوسطي شعراء زمانه.

[٨٨] الرماح بن ميادة: هو الرماح بن أبرد بن ثوبان المري، يُكنى أبا شرحبيل، وميادة أُمه غير عربية. كان شاعرًا مقدَّمًا من شعراء الدولتين الأموية والعباسية.

وقال آخر:

ولقد شرِبتُ الخَمرَ حتَّى خِلتُني   لمَّا خرَجتُ أجُرُّ فضلَ المِئزَرِ
قابوس أو عمرَو بنَ هندٍ قاعدًا   يُجبى له ما بيْنَ دارةِ قَيصَرِ
في فِتيةٍ بِيضِ الوُجوهِ خَضارمٍ   عندَ النِّدامِ عَشيرُهم لم يَخسَرِ

وقال ابن ميَّادة:

ومُعتَّقٍ حُرِمَ الوَقُودَ كرامةً   كدَمِ الذَّبيحِ تَمُجُّه أوداجُه
ضَمِنَ الكُرومُ له أوائلَ حَملِه   وعلى الدِّنانِ تَمامُه ونَتاجُه

وأنشد اللائح لبعض الروافض:

إذا المُرْجيُّ سَرَّكَ أنْ تَراه   يموتُ بِدائِه من قبلِ موتِه
فجَدِّدْ عندَه ذِكرى عليٍّ   وصلِّ على النبيِّ وأهلِ بَيتِه

(٢٥) ما قيل في البرامكة من الهجاء

وقال بعضهم في البرامكة:

إذا ذُكِرَ الشِّركُ في مَجلسٍ   أنارَت وُجوهُ بَني بَرمَكِ
وإنْ تُلِيَت عندَهم آيةٌ   أتَوا بالأحاديثِ عن مَزدكِ[٨٩]

وقال آخر:

لَعَنَ اللهُ آلَ بَرمَكَ إنِّي   صِرتُ من أجلِهم أخا أسفارِ
إنْ يَكُ ذو القَرنَين قد مَسَحَ الأر   ضَ فإنِّي مُوكَّلٌ بالعِيارِ

---

[٨٩] مزدك، ويقال: مردك. ظهر هذا الزنديق في أيام قباذ بن فيروز من ملوك الفرس الساسانية، وادعى النبوة وأنَّ رسالته تنحصر في التساوي والتشارك بين الناس في أموالهم ونسائهم، وأجابه قباذ إلى دعوته، ولقي الناس من ذلك الأمَرَّين. ولما تولى أنوشروان بن قباذ قتل مردك، وتتبَّع المزدكية حتى أتى عليهم تقتيلًا وتشريدًا، وردَّ الأمور إلى نِصابها.

وقال آخر:

إنَّ الـفَـراغَ دَعـانـي   إلى ابتناءِ المَساجِدْ
وإنَّ رأيِـيَ فـيـهـا   كَرأيِ يحيى بنِ خالِدْ

وقال أبو الهَول في جعفر بن يحيى:

أصبحتُ مُحتاجًا إلى الضَّربِ   في طَلَبِ العُرفِ إلى الكَلبِ
إذا اشتكى صبٌّ إليه الهوى   قالَ لـه مـا لـي ولـلـصَّبِّ
أَعْنِي فتًى يُطعَنُ في دِينِه   يَشِبُّ مَعْهُ خَشَبُ الصَّلبِ

وقال رجل من أهل الشام:

أبَعدَ مَروانَ وبَعدَ مَسْلمةْ   وبَعدَ إسحاقَ الذي كان لُمةْ
صارَ على الثَّغرِ فِرَنجُ الرَّخَمةْ   إنَّ لنا بفِعلِ يحيى نِقْمةْ
مُهلِكةً مُبيرةً مُنتقِمةْ   أكلًا بَني بَرمَكَ أكْلَ الحُطمةْ
إنَّ لهذا الأكلِ يومًا تُخَمةْ   أيسَرُ شيءٍ فيه حزُّ الغَلصَمةْ

وقال الشاعر:

ما رَعى الدَّهرُ آلَ بَرمكَ لمَّا   أنْ رمى مُلْكَهم بأمرٍ بَدِيعِ
إنَّ دهرًا لم يَرْعَ حقًّا ليحيى   غيرُ راعٍ ذِمامَ آلِ الرَّبيعِ

وقال سهل بن هارون في يحيى بن خالد:

عدوُّ تِلادِ المالِ فيما يَنُوبُه   مَنُوعٌ إذا ما مَنعُه كانَ أحزَما
مُذلِّلُ نَفْسٍ قد أبَت غيرَ أنْ ترى   مَكارِهَ ما تأتي من الحقِّ مَغنَما

وقال حسان بن حسان:

من مُبلِغٌ يحيى ودُونَ لقائِه   زَبَراتُ كلِّ خُنابسٍ هَمْهامِ
يا راعيَ السُّلطانِ غيرَ مُفرِّطٍ   في لِينِ مُختبِطٍ وطِيبِ شِمامِ
يُغدِي مَسارِحَه ويُصفي شَرْبَه   ويَبِيتُ بالرَّبَواتِ والأعلامِ

حتى يُنحنِحَ ضاربًا بِجرانِه   ورَسَت مَراسيه بِدارِ سَلامِ
في كلِّ ثَغرٍ حارسٌ من قبلِه   وشُعاعُ طَرْفٍ لا يُفتَّرُ سامِ

وهذا شبيه بقول العتَّابي في هارون:

إمامٌ له كفٌّ يضمُّ بَنانَها   عصا الدِّينِ ممنوعًا من البَري عُودُها
وعَينٌ مُحِيطٌ بالبَريَّةِ طَرفُها   سَواءٌ عليه قُربُها وبَعيدُها
وأصمَعُ يَقظانٌ يَبِيتُ مُناجيًا   له في الحشا مُستودَعاتٌ يَكِيدُها
سميعٌ إذا ناداه من قَعرِ كُربةٍ   مُنادٍ كفَتْه دَعوةٌ لا يُعِيدُها

وقال كُلثوم بن عمرو العتَّابي:

تَلُومُ على تَركِ الغِنى باهليَّةٌ   طوى الدهرُ عنها كلَّ طِرفٍ وتالدِ
رأت حَوْلَها النِّسوانَ يَرفُلنَ في الكُسا   مُقلَّدةً أجيادُها بالقلائدِ
يَسُرُّك أنِّي نِلتُ ما نالَ جعفرٌ   من المُلكِ أو ما نالَ يحيى بنُ خالدِ
وأنَّ أميرَ المؤمِنينَ أغَصَّني   مَغصَّهما بالمُرهَفاتِ البَوارِدِ
ذَرِيني تَجِئْني مِيتتي مُطمئنَّةً   ولم أتَقحَّمْ هَوْلَ تلك المَوارِدِ
فإنَّ كريماتِ المَعالي مَشُوبةٌ   بمُستودَعاتٍ في بُطونِ الأساوِدِ

وقال الحسن بن هانئ:

عجِبتُ لِهارونَ الإمامِ وما الذي   يُروِّي ويرجو فيك يا خِلقةَ السِّلْقِ
قفًا خَلْفَ وجهٍ قد أُطيلَ كأنَّه   قفا مَلِكٍ يَقضي الحقوقَ على ثَبْقِ
وأعظَمُ زَهوًا من ذُبابٍ على خرًا   وأبخَلُ من كلبٍ عَقورٍ على عِرقِ
أرى جعفرًا يَزدادُ بُخلًا ودِقَّةً   إذا زادَه الرحمنُ في سَعةِ الرِّزقِ
ولو جاءَ غيرُ البُخلِ من عندِ جَعفرٍ   لَمَا وضَعوه الناسُ إلَّا على الحُمقِ

(٢٦) ما قيل في البرامكة من المديح

ولما أنشد ابن حفصة الفضل بن يحيى بن خالد:

ضرَبتَ فلا شُلَّت يدٌ خالديَّةٌ   رتَقتَ بها الفَتقَ الذي بيْنَ هاشمِ

قال له الفضل: قل: فلا شُلَّت يد برمكية؛ فخالدٌ كثير، وليس برمك إلا واحدًا.
وقال سَلْم في يحيى، ويحيى يومئذٍ شابٌّ:

وفتًى خَلا من مالِه ... ومن المروءةِ غيرُ خالِ
وإذا رأى لك مَوعدًا ... كانَ الفَعَالُ معَ المَقالِ
للهِ دَرُّكَ من فتًى ... ما فيكَ من كَرَمِ الخِلالِ
أعطاكَ قبلَ سؤالِه ... فكَفاكَ مَكروهَ السؤالِ

ومن جيِّد ما قيل فيهم:

للفضلِ يومَ الطَّالقانِ وقبلَه ... يومٌ أنافَ به على خاقانِ
ما مِثلُ يومَيه اللَّذَين تَوالَيا ... في غَزوتَين حواهما يومانِ
عصَمَت حكومتُه جماعةَ هاشمٍ ... من أنْ يُجرَّدَ بينها سَيفانِ
تلك الحكومةُ لا التي عن لَبسِها ... عَظُمَ الثَّأى وتفرَّق الحُكمانِ

وقال الحسن بن هانئ في جعفر بن يحيى:

ذاك الوزيرُ الذي طالت عَلاوتُه ... كأنَّه ناظرٌ في السَّيفِ بالطُّولِ

ذكروا أن جعفر بن يحيى كان أول من عرض الجِرِبَّانات لطول عنقه.
وقال مَعْدان الأعمى، وهو أبو السَّريِّ السُّميطي:

يومَ تُشفى النُّفوسُ من يَعصُرِ اللُّؤ ... مِ ويُثنى بِسامةَ الرَّحَّالِ
وعَديٍّ وتَيمِها وثقيفٍ ... وأُمَيٍّ وتَغلِبٍ وهِلالِ
لا حرورٌ ولا النوابتُ تنجو ... لا ولا صحبُ واصلِ الغزَّالِ
غيرَ كَفتِي ومن يلوذُ بكَفتِي ... فَهُمُ رَهطُ الأعوَرِ الدَّجَّالِ
وبنو الشَّيخِ والقتيلُ بفَجٍّ ... بعدَ يحيى ومؤيِمِ الأشبالِ
سنَّ ظُلمُ الإمامِ في القومِ بِشرٌ ... إنَّ ظُلْمَ الإمامِ ذو عُقَّالِ

وقال الكُمَيت:

آمَت نِساءُ بَني أُميَّةَ منهمُ ... وبَنُوهمُ بمَضِيعةٍ أيتامُ

نامت جُدودُهمُ وأُسقِطَ نَجمُهم   والنَّجمُ يَسقُطُ والجُدودُ تَنامُ
خلَتِ المَنابِرُ والأَسِرَّةُ منهمُ   فعلَيهمُ حتَّى المَماتِ سَلامُ

وقال خليفة أبو خلف بن خليفة:

أعفِني آلَ هاشمٍ يا أُميَّا   جعلَ اللهُ بَيتَ مالِكِ فيَّا
أنْ عَصى اللهَ آلُ مَرْوانَ والعا   صِي لقد كانَ للرَّسولِ عَصِيَّا
لو تَصفَّحتَ أولياءَ عليٍّ   لم تَجِدْ في جميعِهم باهليَّا

وقال الراعي في بني أمية:

بَني أُميَّةَ إنَّ اللهَ مُلحِقُكم   عمَّا قليلٍ بعُثمانَ بنِ عفَّانِ

وقال كعب الأشقري[٩٠] لعمر بن عبد العزيز:

إنْ كنتَ تَحفَظُ ما يَليكَ فإنَّما   عُمَّالُ أرضِكَ بالبِلادِ ذئابُ
لن يَستجيبوا للذي تدعو له   حتى يُجلَّدَ بالسُّيوفِ رِقابُ
بأكُفِّ مُنصلتَين أهلِ بَصائرٍ   في وَقعِهنَّ مَزاجرٌ وعِقابُ
هلَّا قُرَيشٌ ذكَّروا بثُغورِها   حَزمٌ وأحلامٌ هناك رِغابُ
لولا قريشٌ نَصرُها ودِفاعُها   أُلفِيتُ مُنقطِعًا بيَ الأسبابُ

فلما سمع هذا الشعر قال: لمن هذا؟ قالوا: لرجل من أزد عمان يُقال له كعب الأشقري. قال: ما كنت أظن أهل عمان يقولون مِثل هذا الشعر.

قال [أبو] اليقظان: وقام إلى عمر بن عبد العزيز رجل وهو على المِنبر فقال:

إنَّ الذين بَعَثتَ في أقطارِها   نَبَذوا كِتابَك واستُحلَّ المَحرَمُ
طُلْسُ الثِّيابِ على مَنابِرِ أرضِنا   كلٌّ يجوزُ وكلُّهم يَتظلَّمُ
وأردتَ أنْ يَلِيَ الأمانَةَ منهمُ   عَدلٌ وهَيهاتَ الأمينُ المُسلِمُ

---

[٩٠] كعب الأشقري: هو كعب بن معدان الأشقري الأزدي. شاعرٌ مُجِيد، وخطيبٌ بليغ، وفارسٌ شجاع. كان من أصحاب المهلَّب الذين أبلَوا بين يديه في حروب الأزارقة خير بلاء. قال الفرزدق: شعراء الإسلام أربعة؛ أنا، وجرير، والأخطل، وكعب الأشقري. مات مقتولًا بيد أخ له من أمه بعمان سنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠م.

وكان زيد بن علي كثيرًا ما يتمثل بقول الشاعر:

شـرَّدَه الـخـوفُ وأزرى بـه　　كذاك من يَكرَهُ حَرَّ الجِلادْ
مُنخرِقُ الخُفَّينِ يَشكو الوَجى　　تَنكُبُه أطرافُ مَروٍ حِدادْ

وقال عبد الله بن كثير السهمي، وكان يتشيع، لولادةٍ كانت نالته، وسمع عمال خالد بن عبد الله القسري يلعنون عليًّا والحسين على المنابر:

لعنَ اللهُ من يَسُبُّ عليًّا　　وحُسَينًا من سُوقةٍ وإمامِ
أيَسُبُّ المُطيَّبونَ جُدودًا　　والكِرامُ الأخوالِ والأعمامِ
يأمَنُ الظَّبيُ والحَمَامُ ولا يَأ　　مَنُ آلُ الرسولِ عندَ المَقامِ
طِبتَ بيتًا وطابَ أهلُكَ أهلًا　　أهْلَ بَيتِ النَّبيِّ والإسلامِ
رحمةُ اللهِ والسَّلامُ عليهم　　كلَّما قامَ قائمٌ بسَلامِ

وقال حين عابوه بذلك الرأي:

إنَّ امرأً أمسَت مَعايِبُه　　حُبَّ النَّبيِّ لَغَيرُ ذي ذَنْبِ
وبَني أبي حَسنٍ ووالدُهم　　مَن طابَ في الأرحامِ والصُّلْبِ
أيُعَدُّ ذَنبًا أنْ أُحِبَّهمُ　　بل حُبُّهم كفَّارةُ الذَّنْبِ

وقال يزيد بن أبي بكر بن دأب الليثي:

اللهُ يَعلَمُ في عليٍّ عِلمَه　　وكذاك عِلمُ اللهِ في عُثمانِ

وقال السيِّد الحِميري:[٩١]

إنِّي امرؤٌ حِميَريٌّ غيرُ مؤتَشِبٍ　　جَدِّي رُعَينٌ وأخوالي ذوو يَزَنِ
ثُم الولاءُ الذي أرجو النَّجاةَ به　　يومَ القيامةِ للهادي أبي الحَسنِ

---

[٩١] السيد الحميري: هو إسماعيل بن محمد بن يزيد الحميري، والسيد لقبه، ويُكنى أبا هاشم. شاعرٌ مُتقدم مطبوع. قيل إن أكثر الناس شعرًا في الجاهلية والإسلام ثلاثة؛ بشار، وأبو العتاهية، والسيد.

وقال ابن أُذَينة:[٩٢]

سَمِينُ قُرَيشٍ مانعٌ منك لَحمَه وغَثُّ قُرَيشٍ حيث كانَ سَمِينُ

وقال ابن الرُّقيَّات:

ما نقموا من بني أميَّةَ إلا أنَّهم يَحلُمون إنْ غضِبوا
وأنَّهم مَعدِنُ الملوكِ ولا تَصلُحُ إلا عليهم العَرَبُ

وقال عُروة بن أُذَينة:

إذا قريشٌ تولَّى خيرَ صالحِها فاستيقِننَّ بأنْ لا خيرَ في أحدِ
رَهطُ النبيِّ وأولى الناسِ مَنزِلةً بكلِّ خيرٍ وأثرى الناسِ في العَددِ

وقال حسَّان بن ثابت يرثي أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه:

إذا تَذكَّرتَ شَجوًا من أخي ثِقةٍ فاذكُرْ أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
التاليَ الثانيَ المحمودُ مَشهَدُه وأوَّلُ الناسِ منهم صدَّقَ الرُّسُلا

وكان السيد غاليًا في التشيُّع، وكان يذهب مذهب الكيسانية، ويقول بإمامة محمد بن الحنفية. ومن أرَقِّ ما رُوي له قوله:

ما جَرَت خَطرةٌ على القلبِ منِّي فيك إلا استترتُ عن أصحابي
من دموعٍ تَجري فإنْ كنتُ وَحدي خاليًا أسعَدتْ دُموعي انتحابي
إنَّ حبِّي إيَّاك قد سلَّ جِسمي ورماني بالشَّيبِ قبلَ الشَّبابِ
لو مُنِحتُ اللِّقا شَفى بك صبًّا هائمَ القلبِ قد ثوى في التُّرابِ

[٩٢] ابن أذينة: هو عُروة بن أذينة الليثي الكناني، يُكنى أبا عامر. شاعرٌ غزِل مُتقدم من شعراء المدينة. وهو يُعَد من الفقهاء والمحدِّثين، روى عنه مالك بن أنس، وعبد الله بن عمر العدوي. وقفت سُكينة بنت الحسين على عروة يومًا فقالت: يا أبا عامر، أنت الذي تزعم أن لك مروءة، وأن غزلك من وراء عفة، وأنك تقي؟ قال: نعم. قالت: أفأنت الذي تقول:

قالت وأبثَثتُها وَجْدي فبُحتُ به قد كنتَ عِندي تُحبُّ السِّترَ فاستترِ
ألستَ تُبصِرُ من حَوْلي فقلتُ لها غطَّى هواك وما ألقى على بَصَري

قال لها: بلى. فقالت: جواري حرائر إن كان هذا خرج من قلبٍ سليم.

وثانيَ اثنَين في الغارِ المُنِيفِ وقد	طافَ العدوُّ به إذ صعَّدَ الجَبلا
وكانَ حِبَّ رسولِ اللهِ قد علِموا	خيرِ البَريَّةِ لم يَعدِلْ به رَجُلا

وقال بعض بني أسد:

لما تَخيَّرَ ربِّي فارتضى رَجُلًا	من خَلقِه كانَ منَّا ذلك الرُّجلُ
لنا المَساجدُ نَبْنيها ونَعمُرُها	وفي المَنابِرِ قُعدانٌ لنا ذُلُلُ

وقال يزيد بن الحكم بن أبي العاص في شأن السقيفة:

قدِ اختصمَ الأقوامُ بعدَ محمَّدٍ	فسائلْ قُريشًا حينَ جدَّ اختصامُها
ألمْ تَكُ من دُونِ الخليقةِ أمَّةً	بكفِّ امرئٍ من آلِ تَيمٍ زِمامُها
هدى اللهُ بالصِّدِّيقِ ضُلَّالَ أمَّةٍ	إلى الحقِّ لمَّا ارفَضَّ عنها نِظامُها

وقالت صفية في ذلك اليوم:

قد كانَ بَعدَكَ أنباءٌ وهَنتشةٌ	لو كنتَ شاهِدَها لم تَكثُرِ الخُطَبُ
إنَّا فقَدْناك فقْدَ الأرضِ وابِلَها	واختلَّ قومُك فاشهَدْهم فقد سغِبوا

وقال الفرزدق:

صلَّى صُهَيبٌ ثلاثًا ثُم أسلَمَها	إلى ابنِ عفَّانَ مُلكًا غيرَ مَقصورِ
ولايةً من أبي حَفصٍ لثالِثِهم	كانوا أخلَّاء مَهديٍّ ومحبورِ

وقال مُزرد بن ضِرار يرثي عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه:

عليكَ السَّلامُ من إمامٍ وبارَكَت	يدُ اللهِ في ذاكَ الأديمِ المُمزَّقِ
قضَيتَ أُمورًا ثُم غادَرتَ بَعدَها	بَوائقَ في أكمامِها لم تُفتَّقِ
وما كنتُ أخشى أن تكونَ وفاتُه	بكفَّي سَبَنْتى أزرقِ العَينِ مُطرِقِ

قال: وسمعوا في تلك الليلة هاتفًا يقول:

لِيَبكِ على الإسلامِ من كان باكيًا	فقد أوشكوا هُلكًا وما قَدُمَ العَهدُ
وأدبَرَتِ الدُّنيا وأدبَرَ خيرُها	وقد ملَّها من كان يُوقِنُ بالوَعدِ

وعن أبي الحُجاف عن مسلم البطين:

إنا نُعاتِبُ لا أبا لك عُصبةً علِقوا الفِرى وبَرَوا من الصِّدِّيقِ
وبَرَوا سَفاهًا من وزيرِ نبيِّهم تبًّا لمن يَبْرا من الفاروقِ
إني على رغمِ العُداةِ لَقائلٌ دِينًا بدِينِ الصادِقِ المصدوقِ

وقال الكُمَيت:

فقُل لبَني أُميَّةَ حيثُ حلُّوا وإنْ خِفتَ المهنَّدَ والقطيعا
أجاعَ اللهُ من أشبعتُموه وأشبَعَ من بجُودِكمُ أُجِيعا
بمَرْضيٍّ السياسةِ هاشميٍّ يكونُ حَيًا لأمَّتِه ربيعا

وقال حربُ بن المُنذِر بن الجارود:

فحَسْبي من الدُّنيا كَفافٌ يُقِيمُني وأثوابُ كَتَّانٍ أزورُ بها قَبري
وحُبِّي ذوي قُربى النَّبيِّ محمَّدٍ فما سُؤْلُنا إلا المودَّةُ من أجْرِ

وجه التدبير في الكتاب إذا طال أن يُداويَ مؤلِّفه نشاط القارئ له، ويسوقه إلى حظه بالاحتيال له؛ فمن ذلك أن يُخرجه من شيء إلى شيء، ومن باب إلى باب، بعد ألا يُخرجه من جملة ذلك الفن، ومن جمهور ذلك العلم.

وقد يجب أن نذكُر بعض ما انتهى إلينا من كلام خُلفائنا من ولد العبَّاس، ولو أن دولتهم أعجميةٌ خراسانية، ودولة بني مروان عربيةٌ أعرابية، وفي أجنادٍ شامية، والعرب أوعى لِما تسمع، وأحفظ لِما تأتي، ولها الأشعار التي تقيِّد عليها مآثرها، وتخلِّد لها محاسنها، وجرَت من ذلك في إسلامها على مِثل عادتها في جاهليتها؛ فبنت بذلك لبني مروان شرفًا كثيرًا، ومجدًا كبيرًا، وتدبيرًا لا يُحصى.

ولو أن أهل خراسان حفظوا على أنفسهم وقائعهم في أهل الشام، وتدبير ملوكهم، وسياسة كبرائهم، وما جرى في ذلك من فرائد الكلام وشريف المعاني، كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه، وأسَّس لمن بعده، ما يفي بجماعة ملوك بني مروان.

ولقد تتبَّع أبو عُبيدة النحوي، وأبو الحسن المدائني، وهشام الكلبي، والهيثم بن عدي، أخبارًا اختلفت، وأحاديث تقطَّعت، فلم يُدركوا إلا قليلًا من كثير، وممزوجًا من خالص.

وعلى كل حال فإنا إذا صِرنا إلى بقيَّة ما رواه العبَّاس بن محمد، وعبد الملك بن صالح، والعبَّاس بن موسى، وإسحاق بن عيسى، وإسحاق بن سليمان، وأيوب بن جعفر، وما رواه إبراهيم بن السندي[٩٣] عن السندي، وعن صالحٍ صاحب المصلَّى، عن مشيخة بني هاشم ومواليهم، عرفتَ بتلك البقية كثرةَ ما فات، وبذلك الصحيح أين موضع الفساد مما صنعه الهيثم بن عدي، وتكلَّفه هشام بن الكلبي.

(٢٧) شيء من سياسة بني العبَّاس وأدبهم

وسنذكُر جُملًا مما انتهى إلينا من كلام المنصور، ومن شأن المأمون وغيرهما، وإن كنَّا قد ذكرنا من ذلك طرفًا. ونقصد من ذلك إلى التخفيف والتقليل؛ فإنه يأتي من وراء الحاجة، ويُعرَف بجملته مُراد البقية.

قال: وكان المنصور داهيًا أريبًا، مُصيبًا في رأيه سديدًا، وكان مقدَّمًا في علم الكلام، ومُكثرًا من كتاب الآثار، ولكلامه كتابٌ يدور في أيدي العارفين الورَّاقين معروف عندهم. ولما همَّ بقتل أبي مسلمٍ سقط بين الاستبداد برأيه والمشاورة فيه، فأرِقَ في ذلك ليلته، فلما أصبح دعا بإسحاق بن مسلم العُقيلي، فقال له: حدِّثني حديث المِلك الذي أخبرتني عنه بحران. قال: أخبرني أبي عن الحُصين بن المُنذِر أن مِلكًا من ملوك فارس يُقال له سابور الأكبر، كان له وزير ناصح قد اقتبس أدبًا من آداب الملوك، وشابَ ذلك بفَهم في الدين، فوجَّهه سابور داعية إلى خراسان، وكانوا قومًا عجمًا يعظِّمون الدنيا جهالةً بالدين، ويُخلُّون بالدِّين استكانةً لقُوت الدنيا، وذلًّا لجبابرتها، فجمعهم على دعوةٍ من الهوى يكيد به مطالب الدنيا، واغترَّ بقتل ملوكهم لهم وتخوُّلهم إياهم. وكان يُقال: لكلِّ ضعيفٍ صولة، ولكلِّ ذليلٍ دولة. فلما تلاحمت أعضاء الأمور التي لقَّح استحالت حربًا

[٩٣] إبراهيم بن السندي: والسندي بن شاهك. كان، كما قال عنه الجاحظ، رجلًا لا نظير له، وكان خطيبًا، وكان ناسبًا، وكان فقيهًا، وكان عروضيًّا، وحافظًا للحديث، رواية للشعر شاعرًا، وكان فخم الألفاظ، شريف المعاني، وكان كاتب القلم، كاتب العمل، وكان يتكلم بكلام رؤبة، ويعمل في الخراج بعمل زاذان فروخ الأعور، وكان مُنجمًا طبيبًا.

وكان من رؤساء المتكلمين، عالِمًا بالدولة، شديد الحب لأبناء الدعوة. وكان أحفظ الناس لما سمع، وأقلهم نومًا، وأصبرهم على السهر. لو قلت: لسانه كان أرد على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير وسِنان طرير، لكان ذلك قولًا ومذهبًا.

عَوانًا شالت أسافلها بأعاليها، فانتقل العز إلى أرذلهم، والنباهة إلى أخملهم، فأُشربوا له حبًّا مع خفض من الدنيا افتُتح بدعوة من الدين؛ فلما استوثقت له البلاد بلَغ سابور أمرهم، وما أحال عليه من طاعتهم، ولم يأمن زوال القلوب وغدرات الوزراء، فاحتال في قطع رجائه عن قلوبهم. وكان يُقال:

وما قُطِعَ الرَّجاءُ بِمثلِ يأسٍ   تُبادِهُه القلوبُ على اغترارِ

فصمَّم على قتله عند وروده عليه برؤساء أهل خراسان وفُرسانهم، فقتله، فبغتهم بحدث، فلم يرُعْهم إلا ورأسه بين أيديهم، فوقف بهم بين الغربة، ونأيِ الرَّجعة، وتخطُّف الأعداء، وتفرُّق الجماعة، واليأس من صاحبهم، فرأوا أن يستتمُّوا الدعوة بطاعة سابور ويتعوَّضوه من الفُرقة، فأذعنوا له بالمُلك والطاعة، وتبادروه بمواضع النصيحة، فملكهم حتى مات حَتْف أنفه.

فأطرقَ المنصور مليًّا ثم رفع رأسه وهو يقول:

لِذِي الحِلمِ قبلَ اليومِ ما تُقرَعُ العصا   وما عُلِّمَ الإنسانُ إلا ليَعلَما

وأمر إسحاق بالخروج، ودعا بأبي مسلم، فلما نظر إليه داخلًا قال:

قد اكتنفَتْك خَلَّاتٌ ثلاثٌ   جَلَبنَ عليك مَحذورَ الحِمامِ
خِلافُكَ وامتنانُك تَرتميني   وقَودُك للجماهيرِ العِظامِ

ثم وثب إليه، ووثب معه بعض حشمه بالسيوف، فلما رآهم وثب، فبدره المنصور فضربه ضربةً طوَّحه منها، ثم قال:

اشرَبْ بكأسٍ كنتَ تَسْقي بها   أَمَرَّ في الحَلقِ من العَلقَمِ
زعمتَ أنَّ الدَّينَ لا يُقتضى   كذَبتَ فاستَوفِ أبا مُجرِمِ

ثم أمر فحُز رأسه، وبعث به إلى أهل خراسان وهم ببابه، فجالوا حوله ساعةً، ثم رد عن شغبهم انقطاعهم عن بلادهم، وإحاطة الأعداء بهم، فذلُّوا وسلَّموا له، فكان إسحاق إذا رأى المنصور قال:

وما ضرَبوا لك الأمثالَ إلَّا   لتَحذُو إنْ حَذَوتَ على مِثالِ

وكان المنصور إذا رآه قال:

وخلَّفَها سابورُ للنَّاسِ يُقتدى بأمثالِها في المُعضِلاتِ العظائمِ

وكان المهديُّ يُحبُّ القِيان وسماع الغناء، وكان مُعجَبًا بجاريةٍ يُقال لها جوهر، وكان اشتراها من مروان الشامي، فدخل عليه ذات يوم مروان الشامي وجوهر تغنِّيه، فقال مروان:

أنتِ يا جَوهرُ عِندي جَوهرةْ في بَياضِ الدُّرَّةِ المُشتهَرةْ
فـإذا غنَّت فَـنـارٌ ضَـرِمَت قذَفَت في كلِّ قلبٍ شَرَرةْ

فاتَّهمه المهدي، وأمر به فدُعَّ في عنقه إلى أن أُخرج، ثم قال لجوهر: أطرِبيني. فأنشأت تقول:

وأنتَ الذي أخلَفتَني ما وعَدتَني وأشمَتَّ بي من كانَ فيك يَلُومُ
وأبرَزتَني للنَّاسِ ثُم تَركتَني لهم غَرضًا أُرمى وأنتَ سَلِيمُ
فلو أنَّ قولًا يَكلِمُ الجِسمَ قد بَدا بجِسميَ من قولِ الوُشاةِ كُلُومُ

فقال المهدي:

ألا يا جَوهَرَ القلبِ لقد زِدتِ على الجَوهَرْ
وقد أكملَكِ اللهُ بحُسنِ الدَّلِّ والمَنظَرْ
إذا ما صُلْتِ ما أحسنَ خَلقِ اللهِ بالمِزهَرْ
وغنَّيتِ ففاحَ البيتُ من رِيقِكِ بالعَنبَرْ
فلا واللهِ ما المهديُّ أولى مِنكِ بالمِنبَرْ
فإنْ شئتِ ففي كفِّكِ خَلعُ ابنِ أبي جَعفَرْ

قال الهيثم: أنشدت هارون، وهو وليُّ عهدٍ أيام موسى، بيتَين لحمزة بن بِيض في سليمان بن عبد الملك:

حـازَ الـخِـلافـةَ والِـداكَ كِـلاهُـمـا من بينِ سَخطةِ ساخطٍ أو طائعِ
أبَـواكَ ثُـم أخـوكَ أصـبـحَ ثـالـثًـا وعلى جَبينِكَ نُورُ مُلكٍ ساطِعِ

قال: يا يحيى، اكتب لي هذين البيتين.

ولما مدح ابن هرمة أبا جعفر المنصور، أمر له بألفَي درهم، فاستقلَّها، وبلَغ ذلك أبا جعفر فقال: أمَا يرضى أني حقنت دمه وقد استوجب إراقته، ووفرت ماله وقد استحقَّ تلفه، وأقررته وقد استأهل الطرد، وقرَّبته وقد استحقَّ البعد؟ أليس هو القائل في بني أمية:

إذا قيلَ من عندَ رَيبِ الزَّمانِ لِمُعتَرٍّ فِهرٍ ومُحتاجِها
ومن يُعجِلُ الخيلَ يومَ الوَغى بإلجامِها قبلَ إسراجِها
أشارت نساءُ بني مالكٍ إليكَ به قبلَ أزواجِها

قال ابن هَرمة: فإني قد قلت فيك أحسن من هذا. قال: هاتِه. قال: قلت:

إذا قلتُ أيَّ فتًى تَعلَمونَ أهَشَّ إلى الطعنِ بالذَّابلِ
وأضرَبَ للقِرنِ يومَ الوَغى وأطعَمَ في الزَّمَنِ الماحِلِ
أشارتْ إليكَ أكُفُّ الورى إشارةَ غَرْقى إلى ساحِلِ

قال المنصور: أما هذا الشعر فمُسترَق، وأما نحن فلا نُكافئ إلا بالتي هي أحسن.

(٢٨) سياسة المنصور في العفو عن المُسيء

ولما احتال أبو الأزهر المهلب [بن عبيثر المهري] لعبد الحميد بن ربعي بن خالد بن مغداق، وأسلمه [إلى] حميد [بن قحطبة، وأسلمه حميد] إلى المنصور، قال: لا عُذرَ فأعتذر، وقد أحاط بي الذنب، وأنت أولى بما ترى. قال: لست أقتل أحدًا من آل قَحطبة، بل أهب مُسيئهم إلى مُحسِنهم، وغادِرَهم لوفيِّهم. قال: إن لم يكُن فيَّ مُصطنَع فلا حاجة لي في الحياة، ولست أرضى أن أكون طليق شفيع، وعتيق ابن عم. قال: اسكت مقبوحًا مشقوحًا، اخرج فإنك أنوَك جاهل، أنت عتيقهم وطليقهم ما حييت.

ولما داهَن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلَّب في شأن إبراهيم بن عبد الله، وصار إلى المنصور، أمر الربيع بخلع سواده والوقوف به على رءوس اليمانية في المقصورة يوم الجمعة، ثم قال: قل لهم: يقول لكم أمير المؤمنين: قد عرفتم ما كان من إحساني

إليه، وحُسنِ بَلائي عنده، وقديم نعمتي عليه، والذي حاوَل من الفتنة، ورامَ من البغي، وأراد من شقِّ العصا ومعاونة الأعداء، وإراقة الدماء؛ وأنه قد استحقَّ بهذا من فِعله أليم العقاب، وعظيم العذاب، وقد رأى أمير المؤمنين إتمام بلائه الجميل لديه، وربَّ نَعمائه السابقة عنده؛ لما يتعرَّفه أمير المؤمنين من حسن عائدة الله عليه، وما يؤمِّله من الخير العاجل والآجل عند العفو عمن ظلم، والصفح عمن أساء، وقد وهب أمير المؤمنين مُسيئهم لُمحسِنهم، وغادِرَهم لوفيِّهم.

(٢٩) وصف المأمون لصنوف العلم

وقال سهل بن هارون يومًا وهو عند المأمون: من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه، وقد يُرغَب عن بعض العلم كما يُرغَب عن بعض الحلال.

قال المأمون: قد يُسمَّى بعض الشيء علمًا وليس بعلم؛ فإن كنت أردت هذا فوجهه الذي ذكرنا، ولو قلت: إن العلم لا يُدرَك غَوره، ولا يُسبَر قَعره، ولا تُبلغ غايته، ولا يُستقصى أصنافه، ولا يُضبط آخره، فالأمر على ما قلت؛ فإذا كان الأمر كذلك فابدءوا بالأهم فالأهم، وابدءوا بالفرض قبل النفل؛ فإذا فعلتم ذلك كان عدلًا، وقولًا صِدقًا. وقد قال بعض العلماء: اقتصِد من أصناف العلم إلى ما هو أشهى إلى نفسك، وأخف على قلبك؛ فإن نفاذك فيه على حسب شهوتك وسهولته عليك. وقال أيضًا بعض العلماء: لست أطلب العلم طمعًا في بلوغ غايته، والوقوف على نهايته، ولكن التماس ما لا يسع جهله، ولا يَحسُن بالعاقل إغفاله. وقال آخرون: عِلم الملوك النَّسبُ والخبر وجُمل الفقه، وعِلم التُّجار الحسابُ والكتاب، وعلم أصحاب الحرب درسُ كُتُب المغازي وكُتُب السِّيَر. فأما أن تُسمِّي الشيء علمًا وتنهى عنه من غير أن يكون شيءٌ يشغل عما هو أنفع منه، بل تنهى نهيًا جزمًا، وتأمر أمرًا حتمًا. والعلم بصر، وخلافه عمًى، والاستبانة للشر ناهية عنه، والاستبانة للخير آمِرة به.

ولما قرأ المأمون كُتُبي في الإمامة فوجدها على ما أمر به، وصِرت إليه، وقد كان أمر اليزيدي بالنظر فيها ليخبره عنها، قال لي: قد كان بعض من نرتضي عقله ونصدِّق خبره، خبَّرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة. فقلت: قد تَرْبى الصفة على العِيان، فلما رأيتها رأيت العِيان قد أربى على الصفة، فلما فلَيتُها أربى الفَليُ على العِيان كما أربى العِيان على الصفة. وهذا كتابٌ لا يُحتاج إلى حضور صاحبه، ولا يفتقر إلى

المُحتجِّين عنه، قد جمع استقصاء المعاني، واستيفاء جميع الحقوق، مع اللفظ الجَزْل، والمَخرج السهل؛ فهو سوقيٌّ مُلوكي، وعامِّيٌّ خاصِّي.

(٣٠) مجادلة المأمون للخراساني المرتد

ولما دخل عليه المرتدُّ الخراساني وقد كان حمله من خراسان حتى وافى به العراق، قال له المأمون:

لَأن أستحييَك بحقٍّ أَحَبُّ إليَّ من أن أقتلك بحق، ولأن أقبلك بالبراءة أحب إليَّ من أن أدفعك بالتهمة. قد كنتَ مسلمًا بعد أن كنت نصرانيًّا، وكنت فيها أتيح، وأيامك أطول، فاستوحشت مما كنت به آنسًا، ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافرًا، فخبِّرنا عن الشيء الذي أوحشك من الشيء الذي صار آنَس لك من إلفك القديم، وأُنسك الأول؛ فإن وجدت عندنا دواء دائك تَعالجت به، والمريض من الأطبَّاء يحتاج إلى المشاورة، وإن أخطأك الشفاء، ونبا عن دائك الدواء، كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة؛ فإن قتلناك قتلناك بحكم الشريعة، أو ترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة، وتعلم أنك لم تقصِّر في اجتهاد، ولم تفرِّط في الدخول في باب الحزم.

قال المرتد: أوحشَني كثرةُ ما رأيت من الاختلاف فيكم.

قال المأمون: لنا اختلافان؛ أحدهما كالاختلاف في الأذان، وتكبير الجنائز، والاختلاف في التشهد، وصلاة الأعياد، وتكبير التشريق، ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفُتيا، وما أشبه ذلك، وليس هذا باختلاف، إنما هو تخيير وتوسعة، وتخفيف من المحنة؛ فمن أذَّن مثنَّى وأقام مثنًّى لم يؤثَّم، ومن أذَّن مثنًّى وأقام فُرادى لم يُحوَّب. لا يتعايرون ولا يتعايبون. أنت ترى ذلك عِيانًا، وتشهد عليه تبيانًا. والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث عن نبينا، مع إجماعنا على أصل التنزيل، واتفاقنا على عين الخبر. فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب، فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متَّفَقًا على تأويله، كما يكون متَّفَقًا على تنزيله، ولا يكون بين جميع النصارى واليهود اختلاف في شيء من التأويلات، وينبغي لك ألا ترجع إلا إلى لغةٍ لا اختلاف في تأويل ألفاظها. ولو شاء الله أن يُنزل كُتُبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفَعل، ولكنَّا لم نرَ شيئًا من الدين والدنيا دُفِع إلينا على الكفاية. ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة، وذهبت المسابقة والمنافسة، ولم يكن تفاضُل، وليس على هذا بنى الله الدنيا.

قال المرتد: أشهد أن الله واحد لا ند له ولا ولد، وأن المسيح عبده، وأن محمدًا صادق، وأنك أمير المؤمنين حقًّا.

فأقبل المأمون على أصحابه فقال: فِرُوا عليه عِرضه، ولا تَبرُّوه في يومه رَيثما يَعتُق إسلامه؛ كي لا يقول عدوه إنه أسلم رغبةً، ولا تنسوا بعدُ نصيبكم من بِرِّه وتأنيسه ونصرته والعائدة عليه.

(٣١) دفاع المأمون عن إيقاع الملوك بخاصَّتهم

حدَّثنا أحمد بن أبي داود[٩٤] قال: قال لي المأمون: لا يستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزرائهم، ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحُماتهم وكُفاتهم، وبين صنائعهم وبطانتهم؛ وذلك أنهم يرَون ظاهر حُرمة وخِدمة، واجتهاد ونصيحة، ويرَون إيقاع الملوك بهم ظاهرًا، حتى لا يزال الرجل يقول: ما أوقع به إلا رغبةً في ماله، أو رغبةً في بعض ما لا تجود النفوس به، ولعل الحسد والملال وشهوة الاستبدال اشتركت في ذلك، وهناك خيانات في صُلْب المُلك أو في بعض الحُرَم، فلا يستطيع المِلك أن يكشف للعامة موضع العورة في المُلك، ولا أن يحتجَّ لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب، ولا يستطيع الملك ترك عقابه لما في ذلك من الفساد، على عِلمه بأن عذره غير مبسوط للعامة، ولا معروف عند أكثر الخاصة.

(٣٢) من آداب الملوك

ونزل رجل من أهل العسكر، فعدا بين يدَي المأمون وشكا إليه مَظلمته، فأشار بيده أنْ حَسبُك. فقال له بعض من كان يقرُب من المأمون: يقول لك أمير المؤمنين: اركب. قال المأمون: لا يُقال لِمثل هذا: اركب. إنما يُقال له: انصرِف.

وحدَّثني إبراهيم بن السندي قال: بَيْنا الحسن اللؤلئيُّ يحدِّث المأمون ليلًا وهو بالرقة، وهو يومئذٍ وليُّ عهد، وأطال الحسن الحديث حتى نعس المأمون، فقال الحسن: نعستَ أيها الأمير! ففتح عينَيه وقال: سوقيٌّ وربِّ الكعبة. يا غلامُ خُذ بيده.

---

[٩٤] أحمد بن أبي دؤاد: كان من ذوي المروءة والعصبية، وكان من أصحاب واصل بن عطاء المعتزلي، ويُعَد من رءوس أهل الكلام، وكان خطيبًا بليغًا وشاعرًا فصيحًا، وهو أول من افتتح الكلام مع الخلفاء.

(٣٣) ذِكر بقيَّة كلام النَّوكى والمُوسوِسين والجُفاة والأغبياء وما ضارَع ذلك وشاكَله

وأحبَبنا ألا يكون مجموعًا في مكانٍ واحد إبقاءً على نشاط القارئ والمستمع.

مرَّ ابن أبي عَلقمة بمجلس بني ناجية، فكبا حماره لوجهه، فضحكوا منه، فقال: ما يُضحككم؟ رأى وجوه قريش فسجد.

أبو الحسن قال: أتى رجل عباديًّا صيرفيًّا يستسلف منه مائتَي درهم، فقال: وما تصنع بها؟ قال: أشتري بها حمارًا؛ فلعلَّي أربح فيه عشرين درهمًا. قال: إذا أنا وهبتك العشرين، فما حاجتك إلى المائتَين؟ قال: ما أريد إلا المائتَين. فقال: أنت لا تريد أن تردَّها عليَّ.

قال: وأتى قوم عباديًّا فقالوا: تُحبُّ أن تُسلف فلانًا ألف درهم وتؤخِّره سنة؟ فقال: هاتان حاجتان، وسأقضي لكم إحداهما، وإذا فعلت ذلك فقد أنصفت؛ أما الدراهم فلا تسهُل عليَّ، ولكني أؤخره سنتَين.

ولعب رجلٌ قُدَّام بعض الملوك بالشِّطرنج، فلما رآه قد استجاد لعبه وفاوَضه الكلام قال له: لمَ لا تولِّيني نهر بوق؟ قال: أولِّيك نِصفه. اكتبوا له عهده على بوق. وقال له مرةً: ولِّني أرمينية. قال: يُبطئ على أمير المؤمنين خبرك.

وقدِم آخر على صاحب له من فارس، فقال له: قد كنت عند أمير المؤمنين، فأيَّ شيءٍ ولَّاك؟ قال: ولَّاني قفاه.

ومن كلامه: ليس بكاملٍ من لم يحمل وليَّه على مِنبر ولو أنه حارس، وعدوَّه على جذع ولو أنه وزير. وكان من جُلساء المأمون ثم من خاصَّة المعتصم، وقد ولَّاه المعتصم القضاء خلفًا ليحيى بن أكثم، وكان ممن أعان على فتنة القول بخلق القرآن، ومدحه أبو تمَّام فقال:

لقد أنسَتْ مَساويَ كلِّ دَهرٍ مَحاسنُ أحمدَ بنِ أبي دؤادِ
وما سافرتُ في الآفاقِ إلا ومن جَدواك راحِلتي وزادي

وكان بين القاضي أحمد بن أبي دؤاد وبين الوزير محمد بن عبد الملك الزيَّات منافسات، وكان الجاحظ في جانب ابن الزيَّات. ولما نُكب ابن الزيَّات، ورضي ابن أبي دؤاد عن الجاحظ، وضع له الجاحظ كتاب «البيان والتبيين»، وأهداه إليه، فأجازه ابن أبي دؤاد عليه بمبلغ خمسة الآلاف دينار. تُوفي سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م.

قال: ونظر أمير إلى أعرابي فقال: لقد همَّ لي الأمير بخير؟ قال: ما فعلت. قال: فبشِّر؟ قال: وما فعلت. قال: إن الأمير لمجنون.

قال أبو الحسن: شهِد مجنون على امرأة ورجل بالزنا، فقال الحاكم: تشهد أنك رأيته يُدخله ويُخرجه؟ قال: والله لو كنتُ جلدةَ استها لما شهِدت بهذا.

قال: وكان رجل من أهل الري يجالسنا، فاحتبس عنا، فأتيته فجلست معه على بابه، وإذا رجلٌ يدخل ويخرج، فقلت: من هذا؟ فسكت، ثم أعدت فسكت، فلما أعدت الثالثة قال: هو زوج أخت خالتي.

وقال الشاعر:

إذا المرءُ جازَ الأربعينَ ولم يَكُنْ ... له دُونَ ما يأتي حياءٌ ولا سِترُ
فدَعه ولا تَنفِسْ عليه الذي أتى ... ولو جرَّ أرسانَ الحياةِ له الدَّهرُ

أعرابيٌّ خاصَمَته امرأته إلى السلطان، فقيل له: ما صنعت؟ قال: خيرًا، كبَّها الله لوجهها، وأمر بي إلى السجن.

قال أبو الحسن: عرض الأسد لأهل قافلة، فتبرَّع عليهم رجل، فخرج إليه، فلما رآه سقط وركِبه الأسد، فشدُّوا عليه بأجمعهم، فتنحَّى عنه الأسد، فقالوا له: ما حالك؟ قال: لا بأس عليَّ، ولكن الأسد خرى في سراويلي.

قال أبو عباية السليطي: قد فسد الناس. قلت: وكيف؟ قال: ترى بساتين هزارمرد هذه ما كان يمرُّ بها غلام إلا بخفير. قلت: هذا صلاح. قال: لا، بل فساد.

أبو الحسن قال: خطب سعيد بن العاص عائشة ابنة عثمان على أخيه، فقالت: لا أتزوَّجه، قال: ولمَ؟ قالت: هو أحمق، له بِرذَونان أشهبان، فيحتمل مؤنة اثنين وهما عند الناس واحد.

قال: كان المغيرة بن المهلَّب ممرورًا، وكان عند الحجَّاج يومًا فهاجت به مِرَّته، فقال له الحجَّاج: ادخل المتوضَّأ. وأمر من يُقيم عنده حتى يتقيَّأ ويُفيق.

قال أبو الحسن: قالت خَيرة بنت ضَمرة القُشيرية، امرأة المهلَّب، للمهلَّب: إذا انصرفت من الجمعة فأُحبُّ أن تمرَّ بأهلي. قال لها: إن أخاك أحمق. قالت: فإني أحب أن تفعل. فجاء وأخوها جالس وعنده جماعة فلم يوسِّع له، فجلس المهلَّب ناحيةً ثم أقبل عليه فقال له: ما فعل ابن عمك فلان؟ قال: حاضر. فقال: أرسِل إليه. ففعل، فلما نظر إليه غير مرفوع المجلس قال: يا ابن اللَّخناء، المهلَّب جالس ناحيةً وأنت جالس في

صدر المجلس؟ وواثبه. فتركه المهلَّب وانصرف، فقالت له خيرة: أمرَرتَ بأهلي؟ قال: نعم، وتركت أخاك الأحمق يُضرَب.

قال: وكتب الحجَّاج إلى الحكم بن أيوب: اخطب على عبد الملك بن الحجَّاج امرأةً جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة في قومها، ذليلة في نفسها، أَمَةً لبعلها. فكتب إليه: قد أصبتها لولا عِظَم ثَدْيها. فكتب إليه الحجَّاج: لا يَحسُن نحر المرأة حتى يَعظُم ثدياها. قال المُرار بن مُنقذ العدوي:[٩٥]

صَلتةُ الخدِّ طويلٌ جِيدُها ضَخمةُ الثَّديِ ولمَّا يَنكسِرْ

قال علي بن أبي طالب كرَّم الله تعالى وجهه: لا، حتى تُدفئ الضجيع، وتُرويَ الرضيع.

وقال ابن صديقة لرجلٍ رأى معه خُفًّا: ما هذه القَلنسوة؟ فاحتكموا إلى عِرباض، فقال عرباض: هي قلنسوة الرِّجلَين.

قال أبو إسحاق: قلت لخنجير كوز: وعدتك أن تجيء ارتفاعَ النهار، فجئتني صلاة العصر! قال: جئتك ارتفاعَ العَشِي.

قال: قيل لأعرابي: ما اسم المرق عندكم؟ قال: السَّخين. قال: فإذا برد؟ قال: لا ندعه حتى يبرد.

باع نخَّاس من أعرابي غلامًا فأراد أن يتبرَّأ من عيبه، قال: اعلم أنه يبول في الفِراش. قال: إن وجد فِراشًا فليبُلْ فيه.

حدَّثنا صديق لي قال: أتاني أعرابي بدرهم فقلت له: هذا زائف، فمن أعطاك هذا؟ قال: لصٌّ مِثلك.

وقال زيد بن كَثوة: أتيت بني كَشٍّ هؤلاء، فإذا عُرسٌ، وبُلق الباب، فادرَنفَق وادَّمج فيه سرعانٌ من الناس، وألصتُ وُلوج الدار فدَلظَني الحدَّاد دلظةً دهوَرَني على قمة رأسي، وأبصرت شِيخانَ الحي هناك ينتظرون المزيَّة فعِجت إليهم، فوالله إنْ زِلنا نَظارِ نَظارِ حتى عقَل الظل، فذكرت أخلَّائي من بني تبر، فقصدتهم وأنا أقول:

تَرَكنَ بَني كشٍّ وما في دِيارِهم عَوامِدَ واعصَوصَبنَ نحوَ بَني تبرِ
إلى مَعشرٍ شُمِّ الأُنوفِ قِراهمُ إذ نزلَ الأضيافُ من قمَعِ الجُزرِ

---

[٩٥] راجع القصيدة التي منها هذا البيت بالمفضليات مشروحةً بقلمنا.

وانصرفت وأتيت باب كش وإذا الرجال صَتِيَتان، وإذا أرمداء كثيرة، وطُهاة لا تُحصى، ولحمانٌ في جثمان الإكام.

صالح بن سليمان قال: أحمَقُ الشعراء الذي يقول:

أَهِيمُ بدَعدٍ ما حيِيتُ فإنْ أمُتْ ... أُوكِّلْ بدَعدٍ من يَهِيمُ بها بَعْدي

ولا يُشبِه قول الآخر:

فلا تُنكَحي إنْ فرَّقَ الدَّهرُ بيْنَنا ... أغمَّ القفا والوجهِ ليس بأنزَعا

قال: مات لابن مُقرن غلام، فحفر لهم أعرابيٌّ قبره بدرهمَين، وذلك في بعض الطواعين، فلما أعطَوه الدرهمين قال: دعوهما حتى يجتمع لي عندكم ثمن ثوب.

وأدخل أعرابي إلى المربد جنيبًا له، فنظر إليها بعض الغوغاء، فقال: لا إله إلا الله، ما أسمَنَ هذه الجزر! قال له الأعرابي: ما لها تكون جزرًا، جزرك الله؟

قال أبو الحسن: جاء رجل إلى رجل من الوجوه فقال: أنا جارك، وقد مات أخي فلان، فمُرْ لي بكفن. قال: لا والله ما عندي اليومَ شيء، ولكن تعهَّدنا وتعود بعد أيام فسيكون الذي تحب. قال: أصلحك الله، فنملِّحه إلى أن يتيسَّر عندكم شيء؟

قال: كان مولى البكرات يدَّعي البلاغة، فكان يتصفح كلام الناس فيمدح الرديء ويذمُّ الجيد، فكتب إلينا رسالةً يعتذر فيها من ترك المجيء، فقال: وقطعني عن المجيء إليكم أنه طلعتْ في إحدى إليتَي ابني بَثرةٌ، فعظُمت حتى صارت كأنها رُمَّانةٌ صغيرة.

وقال عليٌّ الأُسواري: فلما رأيته اصفرَّ وجهي حتى صار كأنه الكثوث.

وقال محمد بن الجهم: إلى أين بلَغ الماء منك؟ قال: إلى العانة. قال شُعيب بن زُرارة: لو كان قال إلى الشعرة، كان أجود. وقال له محمد بن الجهم: هذا الدواء الذي جئت به قدرَ كم آخُذ منه؟ قال: قدر بَعرة.

وقال علي: جاءني رجل حَزَنبل من ها هنا إلى ثَمة.

(٣٤) شيء من سُخفِ قاسم التمَّار

وقال قاسم التمَّار: بينهما كما بين السماء إلى قريب من الأرض. وقال قاسم التمَّار: أينما رأيت إيوان كسرى كأنما رُفعت عنه الأيدي أول من أمس. وأقبل على أصحاب له وهم يشربون النبيذ، وذلك بعد العصر بساعة، فقال لبعضهم: قم صلِّ فاتتك الصلاة! ثم

أمسك عنه ساعة، ثم قال لآخر: قم صلِّ ويلك فقد ذهب الوقت! فلما أكثر عليهم في ذلك وهو جالسٌ لا يقوم يصلِّي قال له واحد منهم: فأنت [لِمَ] لم تصلِّ؟ فأقبل عليه فقال: ليس والله يعرفون أصلي في هذا. قلت: وأيُّ شيءٍ أصلك؟ قال: لا نصلِّي لأن هذه المغرب قد جاءت. وقال قاسم: أنا أنفَسُ بنفسي على السلطان. وأتى منزل ابن أبي شهاب وقد تعشَّى القوم، وجلسوا على النبيذ، فأتَوه بخبز وزيتون وكامَخ، فقال: أنا لا أشرب النبيذ إلا على زُهومة. وقال: حين بِعتُ البغل بدأت بالسَّرج. وقال: ليس في الدنيا ثلاثةٌ أنكح مني؛ أنا أُكسِل منذ ثلاث ليالٍ في كل ليلة عشرَ مرَّات. كأن الإكسال عنده هو الإنزال. وقال: ذهب والله مني الأطيبَين؟ قلت: وأي شيء الأطيبَين؟ قال: قوة اليدَين والرِّجلَين. وقال: فالْتَوى لي عِرق حين قعدت منها مقعد الرجل من الغلام. وقال في غلام له رُومي: ما وضعت بيني وبين الأرض أطيب منه. قال: ومحمد بن حسان لا يشكرني، ووالله ما ناك حاذرًا قطُّ إلا على يدي.

وقال أبو خَشْرم: ما أعجبَ أسبابَ النَّيك! فقيل له: النَّيك وحده؟ قال: سمِعنا الناس يقولون: ما أعجبَ أسباب الرزق، وما أعجبَ الأسباب!

وكان قاسم التمَّار عند ابن لأحمد بن عبد الصمد بن علي، وهناك جماعة، فأقبل وهبٌ المُحتسب يعرِّض له بالغِلمان، فلما طال ذلك على قاسمٍ أراد أن يقطعه عن نفسه بأن يعرِّفه هو أن ذلك القول عليه، فقال: اشهدوا جميعًا أني أنِيك الغِلمان، واشهدوا جميعًا أني أعفِج الصِّبيان. والتفت التفاتةً فرأى الأخوَين الهُذليين وكانا يُعاديانه بسبب الاعتزال، فقال: عنَيت بقولي. فقال: اشهدوا جميعًا أني لُوطي؛ أي على دين لوط. قال القوم بأجمعهم: أنت لم تقُل اشهدوا أني لوطي، إنما قلت: اشهدوا أني أنيك الصِّبيان.

قال سُفيان السَّدوسي: لم يكن في الأرض أحدٌ قطُّ أعلم بالنجوم ثم بالقراءات من «ما شاء الله»، كان يريد ما شاء الله المنجِّم. وكان يقول: هو أكفر عندي من رام هُرمُز. يريد أكفر من هرمز.

وممَّن وسوس غَلفاءُ بن الحارث ملِك قيس عيلان، وسوس حين قُتل إخوته، وكان يتغلف ويغلِّف أصحابه بالغالية، فسُمِّي غَلفاء بذلك.

وكان رجلٌ ينيك البَغلات، فجلس يومًا يحدِّث عن رجلٍ كيف نال بغلة، وكيف انكسرت رِجله، وكيف كان ينالها، قال: كان يضع تحت رجله لَبِنة، فبينما هو يُنْحي فيها إذ انكسرت اللَّبِنة من تحت رِجله، وإذا أنا على قفاي.

ومن الأحاديث المولَّدة التي لا تكون، وهو مليح في ذلك، قولهم: ناكَ رجلٌ كلبة فعقدت عليه، فلما طال عليه البلاء رفع رأسه فصادف رجلًا يطَّلع عليه من سطح، فقال له الرجل: اضرب جنبها. فلما ضرب جنبها وتخلَّص قال: قاتَله الله، أيُّ نيَّاكِ كلباتٍ هو!

وكان عندنا قاصٌّ أعمى ليس يحفظ من الدنيا إلا حديث جِرجيس، فلما بكى واحد من النظَّارة قال القاص: أنتم بأي شيء تبكون؟ إنما البلاء علينا مَعاشر العلماء.

قال: وبكى حول أبي شيبان وُلْده وهو يريد مكة، قال: لا تبكوا يا بَنيَّ؛ فإني أريد أن أضحِّيَ عندكم. وقال أخوه: وُلدت في رأس الهلال للنصف من شهر رمضان، احسب أنت الآن هذا كيف شئت. وقال: تزوَّجت امرأةٌ مخزومية عمَّها الحجَّاج بن الزُّبير الذي هدم الكعبة. وقال: ذلك لم يكن أبًا، إنما كان والدًا. وقال أبو دينار: هو وإن كان أخًا فقد ينبغي أن يُنصَف.

ومن المجانين علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ، وكان أول ما عُرِف من جنونه أنه قال: أرى الخطأ قد كثُر في الدنيا، والدنيا كلها في جوف الفلك، وإنما نؤتى منه، وقد تخلخل وتخرَّم وتزايل، فاعتراه ما يعتري الهَرماء، وإنما هو مجنون، فكم يصبر؟ وسأحتال في الصعود إليه؛ فإني إن بخرته ورَندَجته وسوَّيته، انقلب هذا الخطأ كله إلى الصواب. وجلس مع بعض مُتعاقلي فِتيان العسكر، وجاءهم النخَّاس بجَوارٍ فقال: ليس نحن في تقويم الأبدان، إنما نحن في تقويم الأعضاء؛ ثمن أنف هذه خمسة وعشرون دينارًا، وثمن أذنَيها ثمانية عشر، وثمن عينَيها ستة وسبعون، وثمن رأسها بلا شيء من حواسها مائة دينار. فقال صاحبه المُتعاقل: ها هنا بابٌ هو أدخَلُ في الحكمة من هذا، كان ينبغي لقدم هذه أن تكون لساق تلك، وأصابع تلك أن تكون لقدم هذه، وكان ينبغي لشفتَي تيك أن تكونا لفم تيك، وأن تكون حاجبا تيك لجبينَي هذه. فسُمِّي مقوِّم الأعضاء.

ومن النوكى كلاب بن ربيعة، وهو الذي قتل الخثعمي قاتل أبيه دون إخوته، وهو القائل:

ألمْ تَرَني ثأرتُ بشيخٍ صِدقٍ وقد أخذَ الإداوةَ فاحتساها
ثأرتُ بشيخه شيخًا كريمًا شفاءُ النفسِ إن شيءٌ شفاها

ومنهم نعامة، وهو بيهس، وهو الذي قال: مُكرَهٌ أخاك لا بطل. وإيَّاه يعني الشاعر:

ومن حذرِ الأيَّامِ ما حزَّ أنفَه قصيرٌ ولاقى الموتَ بالسَّيفِ بَيهَسُ
نَعامةُ لما صرَّعَ القومُ رَهطَه تَبيَّنَ في أثوابِه كيفَ يَلبَسُ

وقال الحضرمي: أما أنا فأشهد أن تميمًا أكثر من مُحارب.

وقال حيَّان البزَّار: قبَّح الله الباطل، الرُّطب بالسُّكَّر والله طيِّب.

قال أبو الحسن: سمعت الصُّغدي الحارثي يقول: كان الحجَّاج أحمق، بنى مدينة واسط في بادية النَّبَط ثم قال لهم: لا تدخلوها. فلما مات دبُّوا إليها من قريب.

مَسعدة بن المبارك قال: قلت للبكراوي: أبِامرأتك حَمْل؟ قال: شيء ليس بشيء.

قال: بنى عُبيد الله بن زياد البيضاء، فكتب رجل على باب البيضاء: شيء، ونصف شيء، ولا شيء. الشيء مهران الترجمان، ونصف الشيء هند ابنة أسماء، ولا شيء عُبيد الله بن زياد. فقال عُبيد الله: اكتب إلى جنبه: لولا الذي زعمت أنه لا شيء لما كان ذلك الشيء شيئًا، ولا ذلك النصف نصفًا.

وقال هشام بن عبد الملك يومًا في مجلسه: يُعرَف حُمقُ الرجل بخصال؛ بطول لحيته، وشناعة كُنيته، وبشهوته، ونقش خاتمه. فأقبل رجلٌ طويل اللحية فقال: هذه واحدة. ثم سأله عن كنيته فإذا هي شنعاء، فقال: هاتان ثِنتان. ثم قال: وأي شيء أشهى إليك؟ قال: رُمَّانة مُصاصة، قال أمصَّك الله بَظْر أمك.

وقيل لأبي القَمقام: لمَ لا تغزو أو تخرج إلى المَصيصة؟ قال: أمصَّني الله إذًا ببظر أمي.

وقالوا لأبي الأصبغ بن رِبعي: أمَا تسمع بالعدوِّ وما يصنعون في البحر؟ فلِمَ لا تخرج إلى قِتال العدو؟ قال: أنا لا أعرفهم ولا يعرفونني، فكيف صاروا لي أعداءً؟

قال: كان الوليد بن القعقاع عاملًا على بعض الشام، فكان يستسقي في كل خطبة وإن كان في أيام الشِّعرى، فقام إليه شيخ من أهل حِمص فقال: أصلح الله الأمير، إذًا تفسد القَطاني. يعني الحبوب، واحدها قطنيَّة.

وأما نفيسٌ غلامي فإنه كان إذا صار إلى فِراشه في كل ليلة في سائر السنة يقول في دعائه: اللهم حوالَينا ولا علينا.

قال: وكان بالرقَّة رجلٌ يحدِّث الناس عن بني إسرائيل، وكان يُكنى أبا عقيل، فقال له الحجَّاج بن حنتمة: ما كان اسم بقرة بني إسرائيل؟ قال: حنتمة. فقال له رجل من ولد أبي موسى: في أي الكتب وجدت هذا؟ قال: في كتاب عمرو بن العاص.

ومن اللحَّانين الأشراف ابن ضَحيان الأزدي، وكان يقرأ: قل يا أيها الكافرين. فقيل له في ذلك، فقال: قد عرفت القراءة في ذلك، ولكني لا أجِلُّ أمر الكفرة.

وقال حبيب بن أوس:

ما ولَدَت حوَّاءُ أحمقَ لِحيةً   من سائلٍ يرجو الغِنى من سائلِ

وقال أيضًا:

أيوسفُ جئتَ بالعَجبِ العجيبِ   تركتَ الناسَ في شكٍّ مُرِيبِ
سمعتُ بكلِّ داهيةٍ نآدٍ   ولم أسمَعْ بسرَّاجٍ أديبِ
أمَا لو أنَّ جَهلَك عادَ عِلمًا   إذًا لنفَذتَ في عِلمِ الغُيوبِ
وما لك بالغريبِ يدٌ ولكنْ   تَعاطيكَ الغريبَ من الغريبِ

وأنشدوا:

أرى زمَنًا نَوكًا وأسعَدَ أهْلَه   ولكنَّما يَشقى به كلُّ عاقلِ
مشى فوقه رِجْلاه والرأسُ تحتَه   فكبَّ الأعالي بارتفاعِ الأسافلِ

وهذه أبياتٌ كتبناها في غير هذا المكان من هذا الكتاب، ولكن هذا المكان أولى بها.
وقال الشاعر:

وللدَّهرِ أيامٌ فكُنْ في لِباسِها   كلِبْستِه يومًا أجدَّ وأخلَقا
وكُنْ أكيَسَ الكَيْسى إذا كنتَ فيهمُ   وإنْ كنتَ في الحَمْقى فكُنْ أنت أحمَقا

وقال الآخر:

وأنزلَني طولُ النَّوى دارَ غُربةٍ   إذا شئتُ لاقَيتُ الذي لا أُشاكِلُه
فحامَقتُه حتى يُقالَ سجيَّةٌ   ولو كانَ ذا عقلٍ لكنتُ أُعاقِلُه

وقال أبو العتاهية:

من سابَقَ الدَّهرَ كَبا كَبْوةً   لم يَستقِلْها من خُطى الدَّهرِ
فاخْطُ معَ الدَّهرِ على ما خَطا   واجرِ معَ الدَّهرِ كما يَجري
ليس لِما ليست له حيلةٌ   موجودةٌ خيرٌ من الصَّبرِ

وقال بِشر بن المُعتمِر:

حيلةٌ ما ليست له حيلةٌ   حُسنُ غَزاءِ النفسِ والصَّبرِ

وقال صالح بن عبد القُدُّوس:

وإنَّ عَناءً أن تُفهِّمَ جاهلًا   ويَحسَبُ جَهلًا أنَّه منك أفهَمُ
متى يَبلُغُ البُنيانُ يومًا تَمامَه   إذا كنتَ تَبْنيه وآخَرُ يَهدِمُ

وقال بِشر بن المُعتمِر:

إذا الغبيُّ رأيتَه مُستغنِيًا   أعيا الطبيبَ وحيلةَ المُحتالِ

ومن المجانين مهدي بن الملوَّح الجعدي، وهو مجنون بني جَعدة. وبنو المجنون قبيل من قبائل بني جعدة، وهو غير هذا المجنون. وأما مجنون بني عامر وبني عقيل، فهو قيس بن معاذ، وهو الذي يُقال له: مجنون بني عامر. وهما شاعران؛ قيل ذلك لهما لتجنُّنهما بعشيقتَين كانتا لهما، ولهما أشعارٌ معروفة.

(٣٥) رأيٌ فيما كان يُروى

وقد أدركت رُواة المسجديِّين والمِربديِّين، ومن لم يَروِ أشعار المجانين ولصوص الأعراب، ونسيب الأعراب، والأرجاز الأعرابية القِصار، وأشعار اليهود، والأشعار المُنصِفة؛ فإنهم كانوا لا يعُدُّونه من الرُّواة، ثم استبردوا ذلك كله، ووقفوا على قِصار الأحاديث والقصائد، والفِقر والنُّتَف من كل شيء. ولقد شهدتهم وما هم على شيءٍ أحرص منهم على نسيب العبَّاس بن الأحنف، فما هو إلا أن أورَد عليهم خلفٌ الأحمر نسيب الأعراب، فصار زهدهم في نسيب العبَّاس بقدر رغبتهم في نسيب الأعراب، ثم رأيتهم منذ سُنيَّات وما يروي عندهم نسيبَ الأعراب إلا حدَثُ السِّن قد ابتدأ في طلب الشعر، أو فِتيانيٌّ متغزِّل.

وقد جلست إلى أبي عبيدة، والأصمعي، ويحيى بن نُجيم، وأبي مالك عمرو بن كِركِرة، مع من جالست من رُواة البغداديين، فما رأيت أحدًا منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده، وكان خلفٌ يجمع ذلك كله. ولم أرَ غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب، ولم أرَ غاية رُواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنًى صعبٌ يحتاج إلى

الاستخراج، ولم أرَ غاية رُواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمَثل، ورأيت عامَّتهم — فقد طالت مشاهدتي لهم — لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيَّرة، والمعاني المنتخَبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة، والديباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكِّن، وعلى السَّبك الجيِّد، وعلى كل كلام له ماء ورَونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلَّت الأقلام على مَدافن الألفاظ، وأشارت إلى حِسان المعاني، ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رُواة الكتاب أعم، وعلى ألسِنة حُذاق الشعراء أظهر، ولقد رأيت أبا عمرو الشيباني يكتب أشعارًا من أفواه جلسائه ليُدخلها في باب التحفظ والتذاكر، وربما خُيِّل إليَّ أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبدًا أن يقولوا شعرًا جيدًا لمكان إغراقهم في أولئك الآباء.

ولولا أن أكون عيَّابًا، ثم للعلماء خاصة، لصوَّرت لك في هذا الكتاب بعض ما سمعت من أبي عُبيدة، ومن هو أبعد في وَهْمك من أبي عُبيدة.

قال ابن المبارك: كان عندنا رجلٌ يُكنى أبا خارجة، فقلت له: لِمَ كنَّوك أبا خارجة؟ قال: لأني وُلدت يوم دخل سليمان بن علي البصرة.

وكان عندنا شيخٌ حارس من عُلوج الجبل، وكان يُكنى أبا خُزيمة، فقلت لأصحابنا: هل لكم في مسألة هذا الحارس عن سبب كُنيته؛ فلعلَّ الله يفيد من هذا الشيخ علمًا، وإن كان في ظاهر الرأي غير مأمول ولا مطمع؟ وهذه الكنية كنية زُرارة بن عدس، وكنية خازم بن خزيمة، وكنية حمزة بن أدرك، وكنية فلان وفلان، وكل هؤلاء إما قائدٌ متبوع، وإما سيِّد مُطاع، ومن أين وقع هذا العِلج الألكن على هذه الكُنية؟ فدعوته فقلت له: هذه الكنية كنَّاك بها إنسان أو كنَّيت بها نفسك؟ قال: لا، ولكني كنَّيت بها نفسي. قلت: فلِمَ اخترتَها على غيرها؟ قال: وما يُدريني؟ قلت: ألك ابنٌ يُسمَّى خُزيمة؟ قال: لا. قلت: أفكان أبوك أو عمك أو مولًى لك يُسمَّى خزيمة؟ قال: لا. قلت: فاترك هذه الكنية واكتنِ بأحسن منها وخذ مني دينارًا. قال: لا والله ولا بجميع الدنيا.

أعطى المحلول ابنه درهمًا وقال: زِنْه. فطرح وزن درهمَين وهو يحسبه وزن درهم؛ فلما رأى الدرهم قد شال وضع معه وزن درهم، فلما رفعه وجده شائلًا، فألقى معه حبَّتَين، فقال له أبوه: كم فيه؟ قال: ليس فيه شيء، وهو ينقص حبَّتَين.

وكان عندنا قاصٌّ يُقال له أبو موسى كُوش، فأخذ يومًا في ذِكر قِصَر الدنيا وطول أيام الآخرة، وتصغير شأن الدنيا وتعظيم شأن الآخرة، فقال: إن الذي عاش خمسين سنةً لم يعِش شيئًا وعليه فضل سنتَين. قالوا: وكيف ذاك؟ قال: خمس وعشرين سنةً

ليلٌ هو فيها لا يعقل قليلًا ولا كثيرًا، وخمس سنين قائلة، وعشرون سنة إما أن يكون صبيًّا، وإما أن يكون معه سُكْر الشباب فهو لا يعقل، ولا بد من صبحة بالغداة، ونعسة بين المغرب والعشاء، وكالغَشْي الذي يُصيب الإنسان مِرارًا في دهره، وغير ذلك من الآفات، فإذا حصَّلنا ذلك فقد صحَّ أن الذي عاش خمسين سنةً لم يعِش شيئًا وعليه فضل سنتَين.

وقال بعض الهُلَّاك: دخل فلان على كسرى فقال: أصلحك الله، ما الأمر في كذا كذا؟

قال رجل من وُجوه أهل البصرة: حدَثت حادثةٌ أيام الفُرس فنادى كسرى: الصلاة جامعة.

وقلت لغُلامي نفيس: بعثتك إلى السوق في حوائج فاشتريت ما لم آمُرك به، وتركت كل ما أمرتك به؟ قال: يا مولاي، أنا ناقة وليس في رُكبتي دماغ. وقال نفيس لغلام لي: الناس وَيلَك أنت حياءً كلهم أقل. يريد: أنت أقل الناس كلهم حياءً.

وقلت لقيس بن بُرَيهة: هذا الصبي في أي شيء أسلموه؟ قال: في أصحاب سِند نِعال. يريد: في أصحاب النِّعال السِّندية.

(٣٦) تأويل حديث

روى الأصمعي وابن الأعرابي عن رجالهما أن رسول الله ﷺ قال: إنا معشرَ الأنبياء بِكاء. فقال ناس: البكء: القلة، وأصل ذلك من اللبن؛ فقد جعل صفة الأنبياء قلة الكلام، ولم يجعله من إيثار الصمت ومن التحصيل وقلة الفضول. قلنا: ليس في ظاهر هذا الكلام دليل على أن القلة من عجز في الخِلقة، وقد يحتمل ظاهر الكلام الوجهين جميعًا، وقد يكون القليل من اللفظ يأتي على الكثير من المعاني. والقلة تكون من وجهين؛ أحدهما من جهة التحصيل والإشفاق من التكلُّف، وعلى تصديق ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾، وعلى البعد من الصنعة، ومن شدة المحاسبة وحصر النفس، حتى يصير بالتمرين والتوطين إلى عادةٍ تُناسب الطبيعة، وتكون من جهة العجز ونُقصان الآلة، وقلة الخواطر، وسوء الاهتداء إلى جِياد المعاني، والجهل بمحاسن الألفاظ، ألا ترى أن الله قد استجاب لموسى على نبينا وعليه السلام حين قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾؟ فلو

كانت تلك القلة من عجزٍ كان النبي ﷺ أحق بمسألة إطلاق تلك العُقدة من موسى؛ لأن العرب أشد فخرًا ببيانها، وطول ألسنتها، وتصريف كلامها، وشدة اقتدارها، وعلى حسب ذلك كانت زِرايتها على كل من قصَّر عن ذلك التمام، ونقص من ذلك الكمال، وقد شاهَدوا النبي ﷺ وخطبه الطِّوال في المَواسم الكِبار، ولم يُطِل التماسًا للطول، ولا رغبةً في القدرة على الكثير، ولكن المعاني إذا كثُرت، والوجوه إذا افتنَّت، كثُر عدد اللفظ، وإن حُذِفت فضوله بغاية الحذف. ولم يكن الله ليُعطيَ موسى لتمام إبلاغه شيئًا لا يُعطيه محمدًا، والذين بُعِث فيهم أكثر ما يعتمدون عليه البيان واللَّسَن، وإنما قلنا هذا لنحسم جميع وُجوه الشغب، لا أن أحدًا من أعدائه شاهَد هناك طرفًا من العجز، ولو كان ذلك مرئيًا ومسموعًا لاحتجُّوا به في الملا، ولتناجَوا به في الخلا، ولتكلَّم به خطيبهم، ولقال فيه شاعرهم؛ فقد عرف الناس كثرة خُطبائهم، وتسرُّع شعرائهم.

هذا على أننا لا ندري أقال ذلك رسول الله ﷺ أم لم يقُله؛ لأن مِثل هذه الأخبار يُحتاج فيها إلى الخبر المكشوف، والحديث المعروف، ولكنا بفضل الثقة، وظهور الحُجة، نُجيب بمِثل هذا وشبهه.

وقد علِمنا أن من يقرض الشعر، ويتكلف الأسجاع، ويؤلِّف المزدوج، ويتقدم في تحبير المنثور، وقد تعمَّق في المعاني، وتكلَّف إقامة الوزن، والذي تجود به الطبيعة وتُعطيه النفس سهوًا رهوًا، مع قلة لفظه وعدد هجائه، أحمد أمرًا، وأحسن موقعًا من القلوب، وأنفع للمستمعين من كثيرٍ خرج بالكدِّ والعلاج، ولأن التقدُّم فيه، وجمع النفس له، وحصر الفكر عليه، لا يكون إلا ممن يُحبُّ السُّمعة، ويهوى الفلج والاستطالة، وليس بين حال المُتنافسين وبين حال المُتحاسدين إلا حِجابٌ رقيق، وحِجازٌ ضعيف، والأنبياء بمندوحة من هذه الصفة، وفي ضد هذه الشِّيمة.

وقال عامر بن عبد قيس: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تُجاوز الآذان.

وتكلَّم رجل عند الحسن بمواعظ جَمَّة ومعانٍ تدعو إلى الرِّقَّة، فلم يرَ الحسن رَق، فقال الحسن: إما أن يكون بنا شر أو بك! يذهب إلى أن المُستمع يرقُّ على قدر رقَّة القائل.

والدليل الواضح، والشاهد القاطع، قول النبي ﷺ: نُصِرت بالصَّبا، وأُعطيت جوامع الكَلِم، وهو القليل الجامع للكثير. وقال الله تعالى وقوله الحق: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾. ثم قال: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾. ثم قال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾. فعمَّ ولم يخص، وأطلق ولم يقيِّد؛ فمن الخِصال التي ذمَّهم بها

تكلُّف الصَّنعة، والخروج إلى المُباهاة، والتشاغل عن كثير من الطاعة، ومناسبة أصحاب التشديق. ومن كان كذلك كان أشد افتقارًا إلى السامع من السامع إليه؛ لشغفه أن يُذكَر في البُلغاء، وصبابته باللحاق بالشعراء. ومن كان كذلك غلَبت عليه المنافسة والمغالبة، وولَّد ذلك في قلبه شدة الحميَّة وحب المحاربة.

ومن سخَفَ هذا السُّخف، وغلَب الشيطان عليه هذه الغلبة، كانت حاله داعية إلى قول الزور، والفخر بالكذب، وصرف الرغبة إلى الناس، والإفراط في مديح من أعطاه، وذم من منعه؛ فنزَّه الله رسوله ولم يعلِّمه الكتاب والحساب، ولم يرغِّبه في صنعة الكلام، والتقيُّد لطلب الألفاظ، والتكلُّف لاستخراج المعاني؛ فجمع له باله كله في الدعاء إلى الله، والصبر عليه، والمجاهدة فيه، والانبتات إليه، والميل إلى كل ما يُقرب منه؛ فأعطاه الإخلاص الذي لا يشوبه رياء، واليقين الذي لا يَعتوِره شك، والعزم المُتمكن، والقوة الفاضلة؛ فإذا رأت مكانَه الشعراء، وفهِمته الخطباء، ومن قد تعبَّد للمعاني، وتعوَّد نَظْمها وتنضيدها، وتأليفها وتنسيقها، واستخراجها من مَدافنها، وإثارتها من أماكنها، علِموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم مما قد استفرغهم واستغرق مجهودهم، وبكثيرٍ ما قد خُوِّلوه، قليلًا مما يكون معه على البَداهة والفُجاءة، من غير تقدُّم في طلبه، واختلاف إلى أهله.

وكانوا مع تلك المَقامات والسياسات، ومع تلك الكُلف والرياضات، لا ينفكُّون في بعض تلك المقامات من بعض الاستكراه والزلل، ومن بعض التعقيد والخطل، ومن التفنن والانتشار، ومن التشديق والإكثار، ورأوه مع ذلك يقول: إيَّايَ والتشادق، وأبغَضُكم إليَّ الثرثارون المُتفيهِقون. ثم رأوه في جميع دهره غايةً في التسديد والصواب التام، والعصمة الفاضلة، والتأييد الكريم، وعلِموا أن ذلك من ثمرة الحكمة ونتاج التوفيق، وأن تلك الحكمة من ثمرة التقوى ونتاج الإخلاص.

وللسلف الطيِّب حِكَم وخُطَب كثيرة، صحيحة ومدخولة، لا يخفى شأنها على نُقَّاد الألفاظ وجهابذة المعاني، مُتميزة عند الرُّواة الخُلَّص، وما بلَغنا عن أحد من جميع الناس أن أحدًا ولَّد لرسول الله ﷺ خطبةً واحدة.

فهذا وما قبله حُجَّة في تأويل ذلك الحديث إن كان حقًّا.

وفي كتاب الله المنزَّل أن الله تبارك وتعالى جعل منيحة داود الحكمة وفَصْل الخِطاب، كما أعطاه إلانة الحديد. وفي الحديث المأثور، والخبر المشهور، أن رسول الله ﷺ قال: شُعيبٌ خطيب الأنبياء، وعلَّم الله سليمان منطق الطير، وكلام النمل، ولُغات الجن. فلم يكن عز وجل ليُعطيَه ذلك ثم يبتليَه في نفسه وبيانه عن جميع شأنه بالقلة والمَعجزة، ثم

لا تكون تلك القلة إلا على الإيثار منه للقلة في موضعها، وعلى البعد من استعمال التكلُّف، ومناسبة أهل الصنعة، والمشغوفين بالسُّمعة، وهذا لا يجوز على الله عز وجل. فإن كان الذي روَيتم من قوله إنا معاشر الأنبياء بِكاءٌ، على ما تأوَّلتم، وذلك أن لفظ الحديث عامٌّ في جميع الأنبياء، فالذي ذكرنا من حال داود وسليمان عليهما السلام، وحال شعيب والنبي ﷺ، دليل على بُطلان تأويلكم، ورد لعموم لفظ الحديث.

وهذه جملةٌ كافية لمن كان يُريد الإنصاف.

(٣٧) تعليل أمِّيَّة النبي ﷺ

وكان شيخ من البصريين يقول: إن الله إنما جعل نبيه أميًّا لا يكتب، ولا يحسب، ولا ينسب، ولا يقرض الشعر، ولا يتكلف الخطابة، ولا يتعمد البلاغة؛ لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة، ويَقصُره على معرفة مصالح الدين دون ما تتباهى به العرب؛ من قيافة الأثر، وعيافة الطير، ومن العلم بالأنواء وبالخيل، وبالأنساب وبالأخبار، وتكلُّف قول الأشعار؛ ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم، وتكلَّم بالكلام العجيب، كان ذلك أدلَّ على أنه من الله، وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظًّا من الحاسب والكاتب، ومن الخطيب الناسب، ولكن ليجعله نبيًّا، وليتولَّى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى، فإنما نقصه ليزيده، ومنعه ليُعطيَه، وحجبه عن القليل ليجلِّيَ له الكثير.

(٣٨) رد هذا التعليل وإيراد تعليل آخر

وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يُرِد إلا الخير، وقال بمَبلغ علمه ومُنتهى رأيه. ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة، وأداة قريض الشعر وجميع النسب، قد كانت فيه تامَّةً وافرة، مجتمعةً كاملة، ولكنه ﷺ صرَف تلك القُوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة، وأشبه بمَرتبة الرسالة، وكان إذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البُلغاء، وإذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء، وأنسب من كل ناسب، وأقوَف من كل قائف. ولو كان في ظاهره والمعروف من شأنه أنه كاتبٌ حاسب، وشاعرٌ ناسب، ومُتفرسٌ قائف، ثم أعطاه الله بُرهانات الرسالة، وعلامات النبوَّة، لَمَا كان ذلك مانعًا من وجوب تصديقه، ولزوم طاعته، والانقياد لأمره على سخطهم ورِضاهم، ومكروههم ومحبوبهم، ولكنه أراد ألا

يكون للشاعر مُتعلَّق عمَّا دعا إليه حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حِجاب وإن رَق، وليكون ذلك أخفَّ في المؤنة، وأسهل في المحنة؛ فلذلك صرَف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلَّفونها ويتنافسون فيها؛ فلما طال هِجرانه لقريض الشعر وروايته، صار لسانه لا ينطق به، والعادة تَوءَم الطبيعة، فأما في غير ذلك فإنه إذا شاء كان أنطق من كل مِنطيق، وأنسب من كل ناسب، وأقوَف من كل قائف، وكانت آلته أوفر، وأداته أكمل، إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أبعد، وبين أن يُضيف إليه العادة الحسنة وامتناع الشيء عليه من طول الهجران له فرق.

ومن العَجب أن صاحب هذه المقالة لم يرَه عليه السلام في حال مَعجزة قط، بل لم يرَه إلا وهو إن أطال الكلام قصَّر عنه كل مُطيل، وإن قصَّر القول أتى على غاية كل خطيب، وما عَدِم منه إلا الخط وإقامة الشعر، فكيف ذهب ذلك المذهب والظاهرُ من أمره عليه السلام خلافُ ما توهَّم؟

وسنذكُر بعض ما جاء في تفضيل الشعر والخوف منه، ومن اللسان البليغ والمُداراة له، وما أشبه ذلك.

(٣٩) تفضيل الشعر ومُداراة البليغ

قال أبو عُبيدة: اجتمع ثلاثة من بني سعد يُراجزون بني جَعدة، فقيل لشيخ من بني سعد: ما عندك؟ قال: أرجُز بهم يومًا إلى الليل لا أفثج. وقيل للآخر: ما عندك؟ قال: أرجُز بهم يومًا إلى الليل لا أنكف. فقيل للثالث: ما عندك؟ قال: أرجُز بهم يومًا إلى الليل لا أنكش. فلما سمعت بنو جعدة كلامهم انصرفوا وخلَّوهم.

قال: وبنو ضِرار أحدُ بني ثعلبة بن سعد لما مات أبوهم وترك الثلاثة الشعراء صِبيانًا، وهم شمَّاخ، ومُزرِّد، وجَزء، أرادت أمهم — وهي أم أوس — أن تتزوج رجلًا يُسمَّى أوسًا، وكان أوس هذا شاعرًا، فلما رأوه بنو ضِرار بفِناء أمهم للخِطبة، تناول شمَّاخٌ حبل الدَّلو ثم متح، وهو يقول:

أُمُّ أُوَيسٍ نَكَحَت أُوَيسا

وجاء مزرِّد فتناول الحبل فقال:

أعجَبَها حَذارةً وكَيْسا

وجاء جزء فتناول الحبل فقال:

أصدَقَ منها لَجْبةً وتَيْسا

فلما سمع أويس رجز الصِّبيان بها هرب وتركها.

قال أبو عُبيدة: كان الرجل من بني نُمَير إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: نُمَيري كما ترى. فما هو إلا أن قال جرير:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيرٍ　　فلا كَعبًا بلَغتَ ولا كِلابا

فصار الرجل من بني نُمَير إذا قيل له: ممَّن الرجل؟ قال: من بني عامر. قال: فعند ذلك قال الشاعر يهجو قومًا آخرين:

وسوف يَزِيدُكم ضَعةً هِجائي　　كما وضعَ الهِجاءُ بني نُمَيرِ

فلما هجاهم أبو الرُّديني العُكلي فتوعَّدوه بالقتل، قال [أبو] الرديني:

أتُوعِدُني لِتَقتُلَني نُمَيرٌ　　متى قتَلَتْ نُمَيرٌ من هَجاها؟

فشدَّ عليه رجل منهم فقتله. وما علِمت في العرب قبيلةً لقيت من جميع ما هُجِيت به ما لقيت نمير من بيت جرير. ويزعمون أن امرأةً مرَّت بمجلس من مجالس بني نُمير، فتأمَّلها ناس منهم، فقالت: يا بني نمير، لا قولَ الله سمِعتم، ولا قولَ الشاعر أطعتم. قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾. وقال الشاعر:

فغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ من نُمَيرٍ　　فلا كَعبًا بلَغتَ ولا كِلابا

وأخلِقْ بهذا الحديث أن يكون مولَّدًا، ولقد أحسن من ولَّده، وفي نمير شرفٌ كثير. وهل أهلك عنزة وجَرمًا وعُكلًا، وسلول وباهلة وغنيًّا إلا الهِجاء؟ وهذه قبائل فيها فضلٌ كثير وبعض النقص، فمحق ذلك الفضلَ كله هجاءُ الشعراء. وهل فضح الحَبَطات، مع شرف حَسَكة بني عتَّاب، وعبَّاد بن الحُصين وولده، إلا قول الشاعر:

رأيتُ الخَمرَ من شرِّ المَطايا　　كما الحَبَطاتُ شرُّ بَني تَمِيمِ

وهل أهلك ظُليمَ البراجم إلا قولُ الشاعر:

إنَّ أبانًا فَقْحةٌ لِدارِمِ   كما الظُّلَيمُ فَقْحةُ البَراجِمِ

وهل أهلك بني العَجلان إلا قولُ الشاعر:

إذا اللهُ عادى أهلَ لؤمٍ ودِقَّةٍ   فعادى بني العَجلانِ رَهطَ ابنِ مُقبِلِ
قبيلتَه لا يَغدِرون بذِمَّةٍ   ولا يَظلمون الناسَ حَبَّةَ خَردَلِ
ولا يَرِدُون الماءَ إلا عشيَّةً   إذا صدَرَ الوُرَّادُ عن كلِّ مَنهَلِ

وأما قول الأخطل:

وقد سَرَّني من قَيسِ عَيلانَ أنَّني   رأيتُ بني العَجلانِ سادوا بني بَدرِ

فإن هذا البيت لم ينفع بني العجلان، ولم يضرَّ بني بدر.

قال أبو عُبيدة: كان الرجل من بني أنف الناقة إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: من بني قُرَيع. فما هو إلا أن قال الحُطيئة:

قومٌ همُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهمُ   ومن يُساوي بأنفِ الناقةِ الذَّنَبا؟

فصار الرجل منهم إذا قيل له: ممن أنت؟ قال: من بني أنف الناقة.

وناسٌ سلِموا من الهجاء بالخمول والقلة، كما سلِمت غسَّان وغَيلان من قبائل عمرو بن تميم، وابتُليت الحَبَطات لأنها أنبه، والنباهة التي لا يضرُّ معها الهجاء مِثل نباهة بني بدر وبني فزارة، ومثل نباهة بني عدس بن زيد وبني عبد الله بن دارم، ومثل نباهة الديان بن عبد المدان وبني الحارث بن كعب؛ فليس يَسلَم من مَضرَّة الهجاء إلا خاملٌ جدًّا أو نبيه جدًّا. وقد هُجيت فزارة بأكل أير الحمار، وبكثرة شعر القفا؛ لقول الحارث بن ظالم:

فما قَومي بثعلبةَ بنِ سعدٍ   ولا بفَزارةَ الشُّعُرِ الرِّقاب

ثم افتخر مُفتخِرهم بذلك ومدحهم به الشاعر، فقال مُزرد بن ضِرار:

مَنِيعٌ بينَ ثعلبةَ بنِ سعدٍ   وبينَ فَزارةَ الشُّعُرِ الرِّقابِ
فما من كانَ بينكما بنِكسٍ   لَعَمرُكَ في الخُطوبِ ولا بكابِ

وأما قصة أير الحمار فإنما اللوم على المُطعم لرفيقه ما لا يعرفه، فهل كان على الفزاري في حق الأنفة أكثر من قتل من أطعمه الجوفان من حيث لا يدري؟ فقد هُجوا بذلك وشرفُهم وافر، وقد هُجِيت الحارث بن كعب، وكتب الهيثم بن عدي فيهم كتابًا فما ضعضع ذلك منهم حتى كأن قد كتبه لهم.

ولولا الربيع بن خيثم وسفيان الثوري ما علِم الناس أن في الرباب حيًّا يُقال لهم بنو ثور.

وفي عُكل شعرٌ وفصاحة، وخيلٌ معروفة الأنساب، وفُرسان في الجاهلية والإسلام. وزعم يونس أن عكلًا أحسن العرب وُجوهًا في غبِّ حرب. وقال بعض فُتَّاك بني تميم:

خليلي الفتى العُكليُّ لم أرَ مِثلَه تَحلَّبُ كفَّاه ندًى شائعَ القَدرِ
كأنَّ سُهَيلًا حينَ أوقَدَ نارَه بعَلْياءَ لا يَخفى على أحدٍ يَسري

ولم أكتب هذا الشعر ليكون شاهدًا على مِقدار حظهم في الشرف، ولكن لنضمَّه إلى قول جِران العَود:

أُراقِبُ لَمحًا من سُهَيلٍ كأنَّه إذا ما بَدا من آخِرِ اللَّيلِ يَطرِفُ

وربما أُتيت القبيلة إذا برَّزت عليها إخوتها، كنحو فُقَيم بن جرير بن دارم، وزيد بن عبد الله بن دارم، وكنحو الجِرماز ومازن؛ ولذلك يُقال: إن أصلح الأمور لمن تكلَّف عِلم الطب ألا يُحسِن منه شيئًا، أو يكون من الحُذَّاق المتطبِّبين؛ فإنه إذا أحسن منه شيئًا ولم يبلغ فيه المَبالغ هلك وأهلك أهله. وكذلك العلم بصناعة الكلام، وليس كذلك سائر الصناعات؛ فليس يضرُّ من أحسن باب الفاعل والمفعول به، وباب الإضافة، وباب المعرفة والنكرة، أن يكون جاهلًا بسائر أبواب النحو. وكذلك من نظر في علم الفرائض، فليس يضرُّ من أحكم باب الصُّلب أن يجهل باب الجَد. وكذلك الحساب، وهذا كثير.

وذكروا أن حَزن بن الحارث أحد بني العنبر ولد مِحجنًا، فولد مِحجن شعيث بن سهم، فأُغير على إبله، فأتى أوس بن حجر يستنجده، فقال له أوس: أوَخَيرٌ من ذلك، أحضِّض لك قيس بن عاصم؟

وكان يُقال إن حزن بن الحارث هو حزن بن منقر، فقال أوس:

سائِلْ بها مَولاكَ قيسَ بنَ عاصمٍ فمَولاكَ مَولى السوءِ إنْ لم تُغيَّرِ

لَعَمرُكَ ما أدري أَمِن حَزْنِ مِحجَنٍ ... شُعيثُ بنُ سهمٍ أم لحَزْنِ بنِ مِنقرِ
فما أنتَ بالمَولى المُضيِّعِ حقَّه ... وما أنت بالجارِ الضعيفِ المُستَّرِ

فسعى قيس في إبله حتى ردَّها عن آخرها.
وقال الآخر:

ألْهى بني تَغلِبٍ عن كلِّ مَكرُمةٍ ... قصيدةٌ قالَها عمرُو بنُ كُلثُومِ

ومما يدل على قدر الشعر عندهم بُكاء سيِّد بني مازن مُخارق بن شهاب حين أتاه محمد بن المُكعبر العَنبري الشاعر فقال: إن بني يربوع قد أغاروا على إبلي فاسعَ لي فيها. فقال: وكيف وأنت جار وَرْدان بن مَخرمة؟ فلما ولَّى عنه محزونًا بكى مُخارق حتى بلَّ لحيته، فقالت له ابنته: ما يُبكيك؟ فقال: وكيف لا أبكي واستغاثني شاعر من شعراء العرب فلم أُغِثه؟ والله لئن هجاني ليفضحنِّي قوله، ولئن كفَّ عني ليقتلنِّي شُكره. ثم نهض فصاح في بني مازن فردَّت عليه إبله. وذكر وَردان الذي كان أخفره فقال:

أقولُ وقد بَزَّت بتِعشارَ بَزَّةٌ ... لوَرْدانَ جِدَّ الآنَ فيها أو العَبِ
فعَضَّ الذي أبقى المَواسي من أُمِّه ... خفيرٌ رآها لم يُشمِّرْ ويَغضَبِ
إذا نزَلَت وَسْطَ الرِّبابِ وحَوْلَها ... إذا حُصِّنَت ألفا سِنانٍ مُجرَّبِ
حمَيتَ خُزاعيًّا وأفناءَ مازنٍ ... ووَرْدانُ يحمي عن عديٍّ بنِ جُندُبِ
ستعرفُها وِلدانُ ضَبَّةَ كلُّها ... بأعيانِها مردودةً لم تُغيَّبِ

قال: وفَد رجل من بني مازن على النُّعمان بن المُنذر، فقال له النُّعمان: كيف مُخارق بن شهاب فيكم؟ قال: سيِّدٌ كريم، وحسبُك من رجلٍ يمدح نفسه ويهجو ابن عمه! ذهب إلى قوله:

تَرى ضَيْفَها فيها يَبِيتُ بِغِبطةٍ ... وجارُ ابنِ قيسٍ جائعٌ يَتحوَّبُ

قال: ومن قَدْر الشِّعر، وموقعه في النفع والضر، أن ليلى بنت النضر بن الحارث بن كلدة لما عرَضت للنبي ﷺ وهو يطوف بالبيت، واستوقفته، وجذبت رِداءه حتى

انكشف مَنكبه، وأنشدته شِعرها بعد مقتل أبيها، قال رسول الله ﷺ: لو كنت سمعت شِعرها هذا ما قتلته. والشعر:[٩٦]

يا راكبًا إنَّ الأُثَيلَ مَظنَّةٌ	من صُبحِ خامسةٍ وأنتَ مُوفَّقُ
أبلِغْ بها مَيْتًا بأنَّ قصيدةً	ما إنْ تَزالُ بها الرَّكائبُ تَخفِقُ
فلَيَسمعَنَّ النَّضرُ إنْ نادَيتُه	إنْ كانَ يَسمَعُ ميِّتٌ لا يَنطِقُ
ظلَّت سُيوفُ بني أبيه تَنُوشُه	للهِ أرحامٌ هناك تُشقَّقُ
قَسرًا يُقادُ إلى المَنيَّةِ مُتعَبًا	رَسْفَ المُقيَّدِ وهْوَ عانٍ مُوثَقُ
أمحمَّدٌ ها أنت ضِنءُ نَجيبةٍ	في قومِها والفَحلُ فَحلٌ مُعرِقُ
ما كان ضرُّك لو منَنتَ ورُبَّما	منَّ الفتى وهْوَ المَغِيظُ المُحنَقُ؟

قال: ويبلغ من خوفهم من الهِجا، ومن شِدة السب عليهم، وتخوُّفهم أن يبقى ذِكر ذلك في الأعقاب، ويُسَب به الأحياء والأموات، أنهم إذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق، وربما شدوا لسانه بنِسعة، كما صنعوا بعبد يغوث بن وقَّاص المُحاربي حين أسَرَته بنو تيمٍ يوم الكُلاب، وهو الذي يقول:

أقولُ وقد شدُّوا لِساني بنِسْعةٍ	أمَعشرَ تَيمٍ أطلِقوا من لِسانيا
وتَضحكُ منِّي شَيخةٌ عَبشَميَّةٌ	كأنْ لم تَرى قبلي أسيرًا يَمانيا
كأنِّيَ لم أركَبْ جَوادًا ولم أقُلْ	لخَيْليَ كُرِّي كَرَّةً عن رِجاليا
فيا راكبًا إمَّا عَرَضتَ فبلِّغَنْ	نَداماي من نَجْرانَ أنْ لا تَلاقيا
أبا كَرِبٍ والأيهمَينِ كِلَيهما	وقيسًا بأعلى حضرموتَ اليمانيا

وكان سألهم أن يُطلِقوا لسانه لينوح على نفسه، ففعلوا، فكان ينوح بهذه الأبيات، فلما أنشد قومه هذا الشعر قال قيس: لبَّيك وإن كنت أخَّرتَني.

وقيل لعُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود: كيف تقول الشعر مع الفقه والنُّسك؟ فقال: لا بد للمصدور من أن ينفُث.

وقال معاوية لصُحار العبدي: ما هذا الكلام الذي يظهر منك؟ قال: شيءٌ تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا.

---

[٩٦] وقد يُنسب هذا الشعر إلى قتيلة أخت النضر.

وقال ابن حرب: من أحسن شيئًا أظهره.

وفي المثل: من أحبَّ شيئًا أكثر ذِكره.

وقال: خاصَم أبو الحُوَيرث السحيمي حمزة بن بيض إلى المهاجر بن عبد الله في طويٍّ له، فقال أبو الحُوَيرث:

أغمضتُ في حاجةٍ كانت تؤرِّقُني   لولا الذي قلتَ فيها قلَّ تغميضي

قال: وما قلت لك؟ قال:

حلفتَ باللهِ لي أنْ سوفَ تُنصِفُني   فساغَ في الحَلقِ رِيقٌ بعدَ تَجريضِ

قال: وأنا أحلف بالله لأُنصفنَّك. قال:

فاسألْ أُلى عن أُلى أنْ ما خُصومتُهم   أم كيف أنتَ وأصحابُ المعاريضِ؟

قال: أوجعهم ضربًا. قال:

فاسألْ سُحَيمًا إذا وافاكَ جَمعُهمُ   هل كانَ بالبئرِ حَوضٌ قبلَ تحويضي؟

قال: فتقدَّمت الشهود فشهدت لأبي الحويرث. قال: فالتفت إلى ابن بيض فقال:

أنتَ ابنُ بَيضٍ لَعَمْري لستُ أُنكِرُه   حقًّا يقينًا ولكنْ مَن أبو بيضِ؟
إنْ كنتَ أنبضتَ لي قَوسًا لِتَرميَني   فقد رَمَيتُك رَميًا غيرَ تنبيضِ
أو كنتَ خَضخَضتَ لي وَطبًا لِتَسقيَني   فقد سَقَيتُك وَطبًا غيرَ ممخوضِ
إنَّ المُهاجرَ عدلٌ في حكومتِه   والعدلُ يَعدِلُ عندي كلَّ تعريضِ

قال: وتزوَّج شيخ من الأعراب جارية من رهطه، وطمع أن تلد له غلامًا فولدت له جارية، فهجرها وهجر منزلها، وصار يأوي إلى غير بيتها، فمرَّ بخِبائها بعد حول وإذا هي تُرقِّص بُنيَّتها منه وهي تقول:

ما لأبي حَمْزةَ لا يأتينا   يظلُّ في البيتِ الذي يَلِينا
غَضْبانَ أنْ لا نَلِدَ البَنِينا   تاللهِ ما ذلك في أيدينا
وإنَّما نأخذُ ما أُعطِينا

فلما سمِع الأبيات مرَّ الشيخ نحوهما حُضرًا حتى ولج عليها الخباء، فقبَّلها وقبَّل بُنيتها، وقال: ظلمتُكما وربِّ الكعبة.

وقال مُسلم بن الوليد:

فـإنِّـي وإسـماعـيلَ عنـدَ فِـراقِـنـا   لَكالجَفنِ يومَ الرَّوعِ فارَقَه النَّصلُ
أمُـنـتـجِـعًـا مَـروًا بـأثـقـالِ هَـمِّـه   دَعِ الثِّقلَ واحملْ حاجةً ما لها ثِقلُ
ثناءً كعَرْفِ الطِّيبِ يُهدى لأهلِه   ولـيس لـه إلا بـنـي خـالـدٍ أهْـلُ
فإنْ أغْشَ قومًا بعدَهم أو أزورُهم   فكالوَحشِ يُدنِيها من الأَنَسِ المَحلُ

وقال ابن أبي عُيينة:

هل كنتَ إلا كلَحمِ مَيْتٍ   دعا إلى أكلِه اضطرارُ؟

وقال الآخر:

لئن حبَسَ العبَّاسُ عنَّا رغيفَه   لَمَا فاتَنا من نعمةِ اللهِ أكثَرُ

وقال أبو كعب: كان رجلٌ يُجري على رجل رغيفًا في كل يوم، فكان إذا أتاه الرغيف يقول: لعنك الله ولعن من بعثك، ولعنني إن تركتك حتى أصيب خيرًا منك.

وقال بشَّار:

إذا بَلَغَ الرأيُ النصيحةَ فاستعِنْ   برأيِ نصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ
ولا تَحسَبِ الشُّورى عليكَ غَضاضةً   فـإنَّ الـخَـوافـي عُـدَّةٌ لـلـقَـوادِمِ
وخلِّ الهُوَينى للضعيفِ ولا تَكُنْ   نَـئُـومًـا فـإنَّ الـحَـزمَ لـيسَ بِـنـائـمِ
وأدنِ على القُربى المقرِّبَ نَفْسَه   ولا تُشهِدِ الشُّورى امرأً غيرَ كاتِمِ
وما خيرُ كفٍّ أمسكَ الغُلَّ أُختَها   وما خيرُ سيفٍ لم يؤيَّدْ بقائمِ؟
فإنَّك لا تَستطردُ الهمَّ بالمُنى   ولا تَبلُغُ العَليا بغيرِ المَكارمِ

وقال آخر:

تُعرِّفُني هُنَيدةُ مَن بَنُوها   وأعرفُها إذا اشتدَّ الغُبارُ
متى ما تَلقَ منَّا ذا ثناءٍ   يؤزُّ كأنَّ رِجلَيه شِجارُ

فلا تَعجَلْ عليه فإنَّ فيه ... مَنافعَ حينَ يَبتلُّ العِذارُ
أنا ابنُ المَضرحيِّ أبي شليلٍ ... وهل يَخفى على الناسِ النهارُ؟
ورِثْنا صُنْعَه ولكلِّ فَحلٍ ... على أولادِه منه نِجارُ

وقال أعشى هَمدان في خالد بن عتَّاب بن وَرقاء:

تُمنِّيني إمارتَها تميمُ ... وما أمرِي وأمرُ بني تميمِ؟
وكان أبو سُلَيمانٍ خليلي ... ولكنَّ الشِّراكَ من الأديمِ
أتَينا أصبهانَ فهزَّلَتنا ... وكنَّا قبلَ ذلك في نعيمِ
أتَذكُرُنا ومُرَّةَ إذ غَزَونا ... وأنتَ على بُغَيلِك ذي الشَّئومِ؟
ويَركَبُ رأسَه في كلِّ وحْلٍ ... ويَعثُرُ في الطريقِ المُستقيمِ
وليس عليك إلا طَيلسانٌ ... نُصَيبيٌّ وإلا سَحْقُ نِيمِ

وقال آخر:

فلستُ مُسلِّمًا ما دُمتُ حيًّا ... على زيدٍ بتسليمِ الأميرِ
أميرٌ يأكلُ الفالوذَ سِرًّا ... ويُطعِمُ ضيفَه خبزَ الشَّعيرِ
أتَذكُرُ إذ قَباؤُك جِلدُ شاةٍ ... وإذ نَعلاكَ من جِلدِ البعيرِ؟
فسُبحانَ الذي أعطاكَ مُلكًا ... وعلَّمَك الجلوسَ على السَّريرِ

وقال آخر:

دَعْ عَنك مَرْوانَ لا تَطلُبْ إمارتَه ... ففِيكَ راعٍ لها ما عِشتَ شَرشُورُ
ما بالُ بُردِك لم يَمسَسْ حواشيَه ... من ثَرمداءَ ولا صنعاءَ تحبيرُ

وقال ابن فنان المُحاربي:

أقولُ لمَّا جئتُ مَجلسَهم ... قبَحَ الإلهُ عمائمَ الخَزِّ
لولا قُتَيبةُ ما اعتجرتَ بها ... أبدًا ولا أقعيتَ في غَرْزِ
عَجبًا لهذا الخَزِّ يَلبَسُه ... من كانَ مُشتاقًا إلى الخُبزِ
من كانَ يَشتُو في عَباءتِه ... متقبِّضًا كتقبُّضِ العَنزِ

وقال ثابت قُطنة في رجلٍ كان المهلَّب ولَّاه بعض خراسان:

ما زالَ رأيُك يا مُهلَّبُ فاضلًا حتى بَنَيتَ سُرادقًا لوَكيعِ
وجعلتَه ربًّا على أربابِه ورفعتَ عبدًا كانَ غيرَ رفيعِ
لو را أبُوه سُرادقًا أحدَثتَه لَبَكى وفاضَت عينُه بدُموعِ

وقال ابن سيخان مَولى المُغيرة في بني مُطيع العدويين:

حرامٌ كنَّتي منِّي بسوءٍ وأذكُرُ صاحِبي أبدًا بِذامِ
لقد حرَّمتُ ودَّ بني مُطيعٍ حرامَ الدُّهنِ للرَّجلِ الحرامِ
وخَزُّهم الذي لم يَشتُروه ومَجلِسَهم بمُعتلَجِ الظَّلامِ
وإنْ جَنَفَ الزَّمانُ مَددتُ حَبلًا مَتينًا من حِبالِ بني هِشامِ
وريقٌ عُودُهم أبدًا رطيبٌ إذا ما اغبرَّ عِيدانُ اللِّئامِ

وقال آخر:

لمَن جُزُرٌ يُنحِّرُها سُوَيدٌ ألا يا مُرَّ للمَجدِ المُضاعِ
كأنك قد سَعَيتَ بِذِمَّتَيهم وكنتَ ثِمالَ أيتامٍ جِياعِ

وقال:

سُبحان من سبَّحَ السَّبعُ الطِّباقُ له حتى لهَرثَمةَ الذُّهليِّ أبوابُ

وأنشدنا الأُحيمر:

بأقَبَّ مُنصلِتِ اللَّبانِ كأنَّه سِيدٌ تَنصَّلَ من جُحورِ سَعالي

وقال خَلَف: لم أرَ بيتًا أفاد وجاد، وساد وزاد، وقاد وعاد، ولا أفضل من قول امرئ القيس:

له أيطَلا ظَبيٍ وساقا نَعامةٍ وإرخاءُ سِرحانٍ وتقريبُ تَتفُلِ

وقال الآخر:

رمى الفقرُ بالفِتيانِ حتى كأنَّهم   بأقطارِ آفاقِ البلادِ نُجومُ
وإنَّ امرأً لم يَفقرِ العامَ بَيتُه   ولم يتَّخذْ لَحمُه لَلئيمُ

وقال عبد العزيز بن زُرارة الكلابي:

وليلةٍ من ليالي الدَّهرِ صالحةٍ   باشَرتُ في هَولِها مَرأًى ومُستمَعا
ونَكبةٍ لو رمى الرَّامي بها حجرًا   أصمَّ من جَندَلِ الصَّمَّانِ لانصدَعا
مرَّت عليَّ فلم أطرَحْ لها سَلَبي   ولا استكنتُ لها وَهنًا ولا جَزَعا
وما أزالُ على أرجاءِ مَهلَكةٍ   يُسائلُ المَعشرُ الأعداءُ ما صنَعا
ولا رمَيتُ على خَصمٍ بفاقرةٍ   إلا رمَيتُ بخَصمٍ فرَّ لي جَذَعا
ما سُدَّ مُطَّلَعٌ يُخشى الهلاكُ به   إلا وجدتُ بظَهرِ الغيبِ مُطَّلعا
لا يَملأُ الهَولُ قلبي قبلَ وقعتِه   ولا يَضِيقُ له صَدري إذا وقَعا

وقال الآخر:

لقد طالَ إعراضي وصَفْحي عن التي   أُبلَّغُ عنكم والقلوبُ قلوبُ
وطالَ انتظاري عَطْفَةَ الرَّحمِ منكمُ   لِيَرجعَ ودٌّ أو يُنيبَ مُنيبُ
فلا تأمَنوا منِّي عليكم شبيهَها   فيرضى بغيضٌ أو يُساءَ حبيبُ
ويَظهرَ منَّا في المَقالِ ومنكمُ   إذا ما ارتمَينا في النِّضالِ عُيوبُ
فإنَّ لسانَ الباحثِ الداءَ ساخطًا   بَني عمِّنا ألوى البيانُ كَذُوبُ

وقال الأشهب بن رُمَيلة:

وإنَّ الأُلى حانت بفَلْجٍ دماؤُهم   هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أُمَّ خالدِ
هُمُ ساعِدُ الدَّهرِ الذي يتَّقي به   وما خيرُ كفٍّ لا تَنُوءُ بساعدِ
أُسُودُ شرًى لاقت أُسودَ خَفيَّةٍ   تَساقَوا على حَردٍ دِماءَ الأساوِدِ

قوله: هم ساعد الدهر، إنما هو مثل، وهذا الذي تُسمِّيه الرُّواة البديع. وقد قال الراعي:

هُمُ كاهِلُ الدَّهرِ الذي يتَّقي به   ومَنكِبُه إنْ كانَ للدَّهرِ مَنكِبُ

وقد جاء في الحديث: موسى الله أحدُّ، وساعِد الله أشدُّ. والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربَت على كل لسان، والراعي كثير البديع في شعره، وبشَّارٌ حسن البديع، والعتَّابي يذهب شعره في البديع.

وقال كعب بن عدي:

شدَّ العِقابَ على البريءِ بمَن جَنى حتى يكونَ لغَيرِه تنكيلا
والجهلُ في بعضِ الأمورِ إذا اغتدى مُستخرِجٌ للجاهلين عُقولا

وقال زُفَر بن الحارث:

لئن عُدْتَ واللهِ الذي فوقَ عرشه مَنَحتُك مَسنونَ الغِرارَين أزرَقا
فإنَّ دواءَ الجهلِ أن تُضرَبَ الطُّلا وأن يُغمَسَ العِرِّيضُ حتى يُغرَّقا

وقال مبذول العُذري:

ومَولًى كضِرسِ السُّوءِ يؤذِيكَ مسُّه ولا بُدَّ إنْ آذاك أنَّك فاقِرُه
دَوِي الجَوفِ إنْ يُنزَعْ يَسُؤْكَ مَكانُه وإنْ يَبقَ يُصبِحْ كلَّ يوم تُحاذِرُه
يُسِرُّ لك البَغضاءَ وهْوَ مُجامِلٌ وما كلُّ من يَجْني عليكَ تُساوِرُه
وما كلُّ مَن مدَّدتَ ثَوْبَك دُونَه لتَستُرَ ممَّا قد أتى أنتَ ساتِرُه

وقال الآخر:

أطالَ اللهُ كَيْسَ بَني رَزِينٍ وحُمْقي إنْ شَرِبتُ لهم بدَيني
أأكتبُ إبْلَهم شاءً وفيها برَيعِ فِصالِها بِنْتا لَبُونِ
فما خُلِقوا بكَيسِهِم دُهاةً ولا مُلَجاءَ بعدُ فيُعجِبُوني

وقال آخر:

عفاريتًا عليَّ وأكلِ مالي وعَجزًا عن أُناسٍ آخَرينا
فهلَّا غيْرَ عمِّكمُ ظَلَمتُم إذا ما كُنتمُ مُتظلِّمينا
فلو كنتم لكَيِّسةٍ أكاسَت وكَيْسُ الأمِّ أكيَسُ للبَنِينا

وقالت رُقيَّة بنت عبد المطَّلب في النبي ﷺ:

أَبُنَـيَّ إنِّـي رابَـني حَـجَـرٌ   يَغدُو بكفِّك حيثما يَغدُو
وأخـافُ أن تَـلْـقى غَـويَّـهـمُ   أو أنْ يُصِيبَك بعدُ من يَعدُو

ولما دخل مكة لقِيَه جواريها يَقُلن:

طَلَعَ البَدرُ علينا   من ثَنيَّاتِ الوَداعْ
وَجَب الشُّكرُ علينا   ما دَعا للهِ داعْ

يُضاف إلى باب الخُطب، وإلى القول في تلخيص المعاني والخروج من الأمر المشبَّه بغيره، قول حسَّان بن ثابت:

إنَّ خالي خطيبُ جابيةِ الجَو   لانِ عندَ النُّعمانِ حينَ يقومُ
وهو الصَّقرُ عندَ بابِ ابنِ سَلمى   يومَ نُعمانُ في الكُبولِ سقيمُ
وسَطَت نِسبتي الذوائبَ منهم   كلُّ دارٍ فيها أبٌ لي عظيمُ
وأبي في سُمَيحةَ القائلُ الفا   صِلُ يومَ التفَّت عليه الخُصومُ
يَفصِلُ القولَ بالبيانِ وذو الرَّأ   يِ من القومِ ظالعٌ مكعومُ
تلك أفعالُه وفعلُ الزِّبَعرى   خاملٌ في صديقِه مذمومُ
رُبَّ حِلمٍ أضاعَه عدمُ الما   لِ وجَهلٍ غطَّى عليه النعيمُ
ولِيَ الناسَ منكمُ إذ أبَيتُم   أُسْرةٌ من بني قُصيٍّ صميمُ
وقُرَيشٌ يَحُولُ منَّا لِواذًا   أنْ يُقِيموا وخفَّ منها الحُلومُ
لم يُطِقْ حَمْلَه العواتقُ منهم   إنَّما يَحمِلُ اللواءَ النُّجومُ

ولما دفن سليمان بن عبد الملك أيوب وقف ينظر إلى القبر ثم قال:

كنتَ لنا أُنسًا ففارَقتَنا   فالعيشُ من بعدِك مرُّ المَذاقِ

وقُرِّبت دابَّته فركِب ووقف على قبره، وقال:

وُقوفًا على قبرٍ مُقِيمٍ بقَفْرةٍ   مَتاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مُفارِقِ

ثم قال: وعليك السلام. ثم عطف رأس دابَّته وقال:

فإنْ صبَرتُ فلم ألفِظْك من شِبَعٍ وإنْ جَزِعتُ فعِلْقٌ مُنفِسٌ ذَهَبا

المدائني قال: لما مات محمد بن الحجَّاج جزِع عليه فقال: إذا غسَّلتموه فأعلِموني. فلما نظر إليه قال:[٩٧]

الآنَ لمَّا كنتَ أكرَمَ من مَشى وافترَّ نابُك عن شَباةِ القارِحِ
وتَكامَلَت فيك المُروءةُ كلُّها وأعَنتَ ذلك بالفَعَالِ الصالحِ

ثم أتاه موت أخيه محمد بن يوسف فقال:

حَسْبي ثوابُ اللهِ من كلِّ ميِّتٍ وحَسْبي بَقاءُ اللهِ من كلِّ هالكِ
إذا ما لقيتُ اللهَ عنِّيَ راضيًا فإنَّ شفاءَ النفسِ فيما هُنالِكِ

تمثَّل معاوية في عبد الله بن بديل:

أخو الحربِ إن عضَّت به الحربُ عضَّها وإنْ شمَّرَت عن ساقِها الحربُ شمَّرا
ويَدنُو إذا ما الموتُ لم يَكُ دُونَه قِدى الشِّبرِ يَحمي الأنفَ أنْ يَتأخَّرا

---

٩٧ وقد روى القالي هذه الرواية بسنده عن أبي عُبيدة قال: لما هلك أبان بن الحجَّاج وأمه أم أبان بنت النعمان بن بشير، فلما دفنه قام الحجَّاج على قبره فتمثَّل بقول زياد الأعجم:

الآنَ لمَّا كنتَ أكمَلَ من مَشى وافترَّ نابُك عن شَباةِ القارحِ
وتَكامَلَت فيك المُروءةُ كلُّها وأعَنتَ ذلك بالفَعَالِ الصالحِ

فلما انصرف إلى منزله قال: أرسلوا خلف ثابت بن قيس الأنصاري. فأتاه، فقال: أنشِدني مَرثيَّتك في ابنك الحسن. فأنشده:

قد أكذَبَ اللهُ من نعى حَسنًا ليس لتكذيبِ مَوتِه ثَمنُ
أجُولُ في الدارِ لا أراكَ وفي الدا رِ أُناسٌ جِوارُهم غَبنُ
بُدِّلتُهم منكَ ليتَ أنَّهمُ أضحَوا وبيني وبينهم عَدنُ

قلت: والبيتان اللذان أتى بهما الجاحظ في الأصل هما من قصيدةٍ بالغة حدَّ الإجادة الأقصى، قالها زياد الأعجم يرثي بها المغيرة بن المهلَّب بن أبي صُفرة، وهي مُثبَتة بأكملها في ذيل الأمالي.

ورأى معاوية هُزاله وهو مُتعرٍّ فقال:

أرى الليالِيَ أسرَعَت في نَقْصي أخَذنَ بَعضي وتَرَكنَ بَعضي
حَنَينَ طُولي وتَرَكنَ عِرضي أقعَدنَني من بعدِ طُولِ النَّهضِ

وتمثَّل عبد الملك حين وثب بعمرو بن سعيد الأشدق:

سكَّنتُه ليَقِلَّ منِّي نَفرُه فأصولُ صَولةَ حازمٍ مُستمكِنِ
وحمَيتُه غَضبًا لنَفْسي إنَّه ليسَ المُسيءُ سبيلُه كالمُحسِنِ

وسمِع معاوية رجلًا يقول:

ومن كريمٌ ماجدٌ سَمَيدعُ يؤتى فيُعطي من ندًى ويمنعُ

فقال: هذا منَّا، هذا والله عبدُ الله بن الزُّبير.

(٤٠) وصف معاوية لقومه

المدائني قال: قال معاوية: إذا لم يكن الهاشمي جوادًا لم يُشبِه قومه، وإذا لم يكن المخزومي تيَّاهًا لم يُشبِه قومه، وإذا لم يكن الأموي حليمًا لم يُشبِه قومه. فبلَغ قوله الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما فقال: ما أحسنَ ما نظر لنفسه! أراد أن تجود بنو هاشم بأموالها فتفتقر إلى ما في يدَيه، وتزهو بنو مخزوم على الناس فتُبغَض وتُشنأ، وتحلُم بنو أمية فتُحَب.

وقال بشَّار:

أحسِنْ صحابتَنا فإنَّك مُدرِكٌ بعضَ اللَّبانةِ باصطناعِ الصاحبِ
وإذا جفَوتَ قطَعتَ عنك لُبانتي والدَّرُّ يَقطَعُه جَفاءُ الحالبِ
تأتي اللئيمَ وما سَعى حاجاتُه عددَ الحَصى ويَخِيبُ سَعيُ الدائبِ

وأنشد:

إذا ما أمورُ الناسِ رثَّت وضُيِّعَت وجَدتُ أُموري كلَّها قد رَمَمتُها

وقال أعرابي:

نَدِينُ ويَقضي اللهُ عنَّا وقد نَرى   مكانَ رِجالٍ لا يَدِينون ضُيَّعا

وقال أعرابي:

وليس قضاءُ الدَّينِ بالدَّينِ راحةً   ولكنَّه ثِقْلٌ مُمِضٌّ إلى ثِقْلِ

وأنشد أبو عُبيدة لعُبيد العنبري، وهو أحد اللصوص:

يا ربِّ عَفوَك عن ذي تَوبةٍ وجِلٍ   كأنَّه من حِذارِ الناسِ مجنونُ
قد كان أسلَفَ أعمالًا مُقاربةً   أيامَ ليسَ له عقلٌ ولا دِينُ

وقال أعرابي:

يا ربِّ قد حلَفَ الأقوامُ واجتهَدوا   أيمانَهم أنَّني من ساكِني النارِ
أيَحلِفونَ على عَمْياءَ وَيلَهمُ   جهلًا بعَفوِ عظيمِ العفوِ غفَّارِ

وقال أعرابي وهو محبوس:

أسجنًا وقَيدًا واغترابًا ووَحشةً   وذِكرى حبيبٍ إنَّ ذا لَعَظِيمُ
وإنَّ امرأً دامت مَواثيقُ عهدِه   على كلِّ ما لاقَيتُه لَكَرِيمُ

وقال أعرابي:

يا أُمَّ عَمرٍو بيِّني أنتِ كلَّما   تَرفَّعَ حادٍ أو دعا كلُّ مُسلِمِ
نظرتُ إليها نَظرةً ما يَسُرُّني   وإنْ كنتُ مُحتاجًا بها ألفَ دِرهَمِ

وقال الشاعر:

وما كَثرةُ الشَّكوى بأمرِ حَزامةٍ   ولا بُدَّ من شَكوى إذا لم يَكُنْ صَبرُ

ومِثله:

وأبثَثتُ بَكرًا كلَّ ما في جَوانحي   وجرَّعتُه من مُرِّ ما أتَجرَّعُ
ولا بُدَّ من شَكوى إلى ذي حفيظةٍ   إذا جعلَت أسرارُ نَفْسي تَطلَّعُ

وقال الشاعر:

حسَدوا الفتى إذ لم يَنالوا سَعيَه فـالـقـومُ أعـداءٌ لـه وخُـصـومُ
كضرائرِ الحَسْناءِ قُلْنَ لوَجهِها حَـسـدًا وبَـغـيًا إنَّـه لَـدَمِـيـمُ

وقال بُزُرجمِهر: ما رأينا أشبه بالمظلوم من الحاسد.

وقال الأحنف بن قيس: لا راحة لحسود.

وقال الشعبي: الحاسد منغَّص بما في يد غيره.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وقال بعضهم يمدح أقوامًا:

مُـحـسَّـدونَ وشـرُّ الـنـاسِ مَـنـزلـةً من عاشَ في الناسِ يومًا غيرَ محسودِ؟

وقال الشاعر:

الـرِّزقُ يـأتـي قـدَرًا عـلـى مَـهَـلْ والمَرءُ مطبوعٌ على حُبِّ العَجَلْ

وقالوا: من تمام المعروف تعجيله.

ووصف بعض الأعراب أميرًا فقال: إذا أوعد أخَّر، وإذا وعد عجَّل. وعيده عفو، ووعده إنجاز.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

ودخل عمرو بن عُبيد على المنصور وهو يومئذٍ خليفة، وروى هذا الحديثَ العُتبيُّ عن عُتبة بن هارون قال: شهِدته وقد خرج من عنده، فسألته عمَّا جرى بينهما، فقال: رأيت عنده فتًى لم أعرفه، فقال لي: يا أبا عثمان، أتعرفه؟ فقلت: لا. فقال: هذا ابن أمير المؤمنين ووليُّ عهد المسلمين. فقلت له: قد رضيت له أمرًا يصير إليه إذا صار وقد شُغِلتَ عنه. فبكى ثم قال: عِظني يا أبا عثمان؟ فقلت: إن الله قد أعطاك الدنيا بأسْرها، فاشترِ نفسك منه ببعضها؛ فلو أن هذا الأمر الذي صار إليك بقي في يدَي من كان قبلك لم يصل إليك، وتذكَّر يومًا يتمخض بأهله لا ليلة بعده.

المدائني قال: سمعت أعرابيًّا يسأل وهو يقول: رحِمَ الله امرأً لم تُمجَّ أذنه كلامي، وقدَّم لنفسه معاذة من سوء مقامي؛ فإن البلاد مُجدِبة، والحال سيئة، والعقل زاجر

ينهى عن كلامكم، والفقر عارمٌ يحملني على إخباركم، والدعاء أحد الصدقتَين؛ فرحِمَ الله امرأً أمر بمَير، أو دعا بخير.

وقال رجل من طيئ:

قَتَلْنا بقَتْلانا من القومِ مِثلَهم ... كِرامًا ولم نأخُذْ بهم حَشَفَ التَّمرِ

وقال آخر:

قَتَلْنا بهم ما بينَ مَثنى ومَوحَدٍ ... وأربعةٌ منهم وآخَرُ خامِسُ

وقال آخر:

قَتَلْنا رِجالًا من تميمٍ أخايرًا ... بقومٍ كِرامٍ من رِجالٍ أخايِرِ

وسُئل بعض العرب: ما العقل؟ قال: الإصابة بالظُّنون، ومعرفة ما لم يكن بما قد كان.

وقال جرير يُعاتب المُهاجر بن عبد الله:

يا قيسَ عَيلانَ إنِّي قد نَصَبتُ لكم ... بالمَنجَنيقِ ولمَّا أُرسِلِ الحَجَرا

فوثب المهاجر فأخذ بحَقْوه وقال: لك العُتبى يا أبا حَزْرة، لا تُرسلْه.

وقال سُويد بن صامت:

ألا رُبَّ من تدعو صديقًا ولو تَرى ... مقالتَه بالغيبِ ساءَك ما يَفْري
مقالتُه كالشَّحمِ ما دامَ شاهدًا ... وبالغَيبِ مأثورٌ على ثَغرةِ النَّحرِ
تُبِينُ لك العَينانِ ما هو كاتِمٌ ... من الشرِّ والبَغضاءِ بالنَّظَرِ الشَّزْرِ
يَسُرُّك باديه وتحتَ أديمِه ... نَميمةُ غِشٍّ تُبتَرى عقبَ الظَّهرِ
فرُشْني بخَيرٍ طالمًا قد بَرَيتَني ... وخيرُ المَوالي من يَرِيشُ ولا يَبْري

وقال حارثة بن بدر لما تحالفت الأزد وربيعة:

لا تَحسبَنَّ فؤادي طائرًا فَزِعًا ... إذا تَخالَفَ ضبُّ البَرِّ والنُّونُ

وأنشد ابن الأعرابي:

فإنْ أكُ قَصدًا في الرِّجالِ فإنَّني   إذا حلَّ أمرٌ ساحتي لَحَلِيمُ
تُعيِّرُني الإعدامَ والوجهَ مُعرِضٌ   وسَيفي بأموالِ التِّجارِ زَعِيمُ

وأنشد ابن الأعرابي لعمرو بن شاس:

متى يَبلُغُ البُنيانُ يومًا تَمامَه   إذا كنتَ تَبْنيه وآخَرُ يَهدِمُ

وقال عَبيد بن الأبرص:

ساعِدْ بأرضٍ إذا كنتَ بها   ولا تَقُلْ إنَّني غَرِيبُ
قد يُوصِلُ النازحُ النَّائي وقد   يُقطَعُ ذو السَّهمةِ القَريبُ

وأنشد الأصمعي لكُثَيِّر:

رأيتُ أبا الوليدِ غَداةَ جَمعٍ   به شَيبٌ وقد فقدَ الشَّبابا
ولكنْ تَحتَ ذاك الشَّيبِ حَزمٌ   إذا ما ظَنَّ أمرَضَ أو أصابا

ويمدحون بإصابة الظن ويذمُّون بخطائه. قال أوس بن حَجَر:

الألمعيَّ الذي يظنُّ بك الظنَّ   كأنْ قد رأى وقد سمِعا

وفي بعض الحكمة: من لم ينتفع بظنِّه لم ينتفع بيقينه.
وقال السموءل بن عادياء:

وإنَّا لَقَومٌ ما نَرى القتلَ سُبَّةً   إذا ما رأتْه عامرٌ وسَلُولُ
يُقرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنا لنا   وتَكرَهُه آجالُهم فتَطُولُ
تَسِيلُ على حدِّ السُّيوفِ نُفوسُنا   وليست على غيرِ السُّيوفِ تَسِيلُ
وما ماتَ منَّا سيِّدٌ في فِراشِه   ولا طُلَّ منَّا حيثُ كانَ قتيلُ

وقال حسَّان بن ثابت:

لم تَفُتها شمسُ النهارِ بشيءٍ   غيرَ أنَّ الشبابَ ليس يَدُومُ
لو يَدِبُّ الحَوليُّ من ولدِ الذَّرِّ   عليها لأندبَتْها الكُلومُ

وقال بشَّار بن بُرد:

من فتاةٍ صُبَّ الجَمالُ عليها … في حديثٍ كلذَّةِ النَّشْوانِ
ثم فارقتُ ذاك غيرَ ذميمٍ … كلُّ عَيشِ الدُّنيا وإنْ طالَ فانِ

وقال مُزاحم العُقيلي:

تَزِينُ سَنا الماويِّ كلَّ عَشيَّةٍ … على غَفَلاتِ الزَّينِ والمُتجمِّلِ
وُجوهًا لوَ انَّ المُدلِجِين اعتشَوا بها … صدَعنَ الدُّجى حتى تَرى اللَّيلَ يَنجلي

وقال المسعودي:

إنَّ الكِرامَ مُناهِبو … كَ المَجدَ كلَّهم فناهِبْ
أخلِف وأتلِف كلُّ شَي … ءٍ زَعزَعَته الرِّيحُ ذاهِبْ

(٤١) خطبة شدَّاد بن أوس

قال: قام شدَّاد بن أوس وقد أمره معاوية أن ينتقص عليًّا، فقال:

الحمد لله الذي افترض طاعته على عِباده، وجعل رِضاه عند أهل التقوى آثَر من رضا خلقه. على ذلك مضى أولهم، وعليه يمضي آخرهم. أيها الناس، إن الآخرة وعدٌ صادق، يحكم فيها ملِكٌ قادر، وإن الدنيا عرَضٌ حاضر، يأكل فيها البر والفاجر، وإن السامع المُطيع لله لا حُجَّة عليه، وإن السامع العاصيَ لله لا حُجَّة له. وإن الله إذا أراد بالعِباد صلاحًا عمل عليهم صُلحاؤهم، وقضى بينهم فُقهاؤهم، وملَكَ المالَ سُمحاؤهم. وإذا أراد بهم شرًّا عمل عليهم سُفهاؤهم، وقضى بينهم جُهلاؤهم، وملَكَ المالَ بُخلاؤهم. وإن من صلاح الوُلاة أن يصلح قُرناؤها، ونصح لك يا معاوية من أسخَطَك بالحق، وغشَّك من أرضاك بالباطل. قال: اجلس رحمك الله، قد أمرنا لك بمال. قال: إن كان من مالك الذي تعهَّدت جمعه مَخافة تَبِعته فأصبتَه حلالًا وأنفقته إفضالًا، فنعم؛ وإن كان مما شارَكك فيه المسلمون فاحتجنته دونهم، فأصبته اقترافًا، وأنفقته إسرافًا، فإن الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾.

وأَذِن معاوية للأحنف بن قيس وقد وافى معاويةَ محمدُ بن الأشعث، فقدَّمه عليه، فوجد من ذلك محمد بن الأشعث، وأَذِن له فدخل، فجلس بين معاوية والأحنف، فقال معاوية: إنا والله ما أَذِنَّا له قبلك إلا ليجلس إلينا دونك، وما رأيت أحدًا يرفع نفسه فوق قدرها إلا من ذلةٍ يجدها، وقد فعلت فِعل من أحسَّ من نفسه ذلًّا وضعة، وإنا كما نملك أموركم نملك تأديبكم، فأريدوا منا ما نريده منكم؛ فإنه أبقى لكم، وإلا قصرناكم كرهًا، فكان أشدَّ عليكم وأعنف بكم.

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ: ما كان أجهلَ قومَك حين ملَّكوا عليهم امرأة! فقال: بل قومك أجهل، قالوا حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى الحق وأراهم البيِّنات: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. ألا قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدِنا له؟

قال: ولما سقطت ثَنيَّتا معاوية لفَّ وجهه بعمامة، ثم خرج إلى الناس فقال: لئن ابتُليت لقد ابتُلي الصالحون قَبْلي، وإني لأرجو أن أكون منهم، ولئن عوقبت لقد عوقب الخاطئون قبلي، وما آمن أن أكون منهم، ولئن سقط عُضوان مني لَمَا بقي أكثر، ولو أتى على نفسي لَمَا كان لي عليه خيارٌ تبارك وتعالى؛ فرحِمَ الله عبدًا دعا بالعافية، فوالله لئن كان عتب عليَّ بعض خاصتكم لقد كنت حدبًا على عامتكم.

ولما بلَغت معاويةَ وفاةُ الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما، دخل عليه ابن عبَّاس، فقال له معاوية: آجَرك الله أبا العبَّاس في أبي محمد الحسن بن علي — ولم يُظهر حزنًا — فقال ابن عبَّاس: إنا لله وإنا إليه راجعون. وغلبه البكاء، فردَّه ثم قال: لا يسدُّ والله مكانَه حفرتُك، ولا يزيد موتُه في أجلك. والله لقد أُصِبنا بمن هو أعظم منه فقدًا فما ضيَّعنا الله بعده. فقال له معاوية: كم كانت سِنُّه؟ قال: مَولده أشهر من أن تُتعرف سِنُّه! قال: أحسبه ترك أولادًا صغارًا؟ قال: كلُّنا كان صغيرًا فكَبِر، ولئن اختار الله لأبي محمدٍ ما عنده وقبضه إلى رحمته، لقد أبقى الله أبا عبد الله، وفي مِثله الخلف الصالح.

(٤٢) وصية أعرابية لولدها

الأصمعي، عن أبان بن ثعلبة، قال: مررت بامرأة بأعلى الأرض وبين يدَيها ابن لها يريد سفرًا، وهي توصيه، فقالت: اجلس أمنَحْك وصيتي وبالله توفيقك، وقليلٌ إجداؤه عليك أنفع من كثير عقلك. إيَّاك والنمائم؛ فإنها تزرع الضغائن. ولا تجعل نفسك غَرضًا للرُّماة؛ فإن الهدف إذا رُمي لم يلبث أن ينثلم. ومثِّل لنفسك مثالًا، فما استحسنته من

غيرك فاعمل به، وما كرِهته منه فدعه واجتنبه. ومن كانت مودته بشَرهٍ كان كالريح في تصرُّفها. ثم نظرت فيَّ فقالت: كأنك يا عراقي أُعجبت بكلام أهل البدو؟ ثم قالت لابنها: إذا هززت فهزَّ كريمًا؛ فإن الكريم يهتزُّ لهزتك. وإياك واللئيم؛ فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها. وإياك والعذر؛ فإنه أقبح ما تُعومل به. وعليك بالوفاء؛ ففيه النماء. وكُن بمالك جوادًا، وبدِينك شحيحًا. ومن أُعطي السخاء والحِلم فقد استجاد الحلة؛ ريطتها وسِربالها. انهض على اسم الله.

وقال أعرابي لرجلٍ مَطَله في حاجة: إن مِثل الظَّفر بالحاجة تعجيل اليأس منها إذا عسُر قضاؤها، وإن الطلب وإن قلَّ أعظم قدرًا من الحاجة وإن عظُمت، والمَطل من غير عُسر آفةُ الجود.

خطب الفضل الرَّقاشي إلى قوم من بني تميم، فخطب لنفسه، فلما فرغ قام أعرابي منهم فقال: توسَّلت بحُرمة، وأدليت بحق، واستندت إلى خير، ودعوت إلى سُنة؛ ففرضك مقبول، وما سألت مبذول، وحاجتك مقضيَّة إن شاء الله تعالى. قال الفضل: لو كان الأعرابي حمِد الله في أول كلامه، وصلَّى على النبي ﷺ، لفضحني يومئذٍ.

(٤٣) وصية الملك المُنذِر لوليِّ عهده

المدائني قال: قال المنذر بن المنذر، لما حارَب غسَّان بالشام، لابنه النُّعمان يوصيه: إياك واطِّراحَ الإخوان، واطِّرافَ المعرفة، وإياك ومَلاحاة الملول، وممازحة السفيه، وعليك بطول الخَلوة، والإكثار من السَّمر، والبس من القِشر ما يَزينك في نفسك ومروءتك، واعلم أن جماع الخير كله الحياء، فعليك به، وتواضع في نفسك، وانخدع في مالك، واعلم أن السكوت عن الأمر الذي يعنيك خير من الكلام، فإذا اضطررت إليه فتحرَّ الصدق والإيجاز تَسلَم إن شاء الله تعالى.

(٤٤) كلام في تعزية بعض الملوك

قال: إن الخلق للخالق، والشكر للمُنعِم، والتسليم للقادر، ولا بد مما هو كائن، وقد جاء ما لا يُرَد، ولا سبيل إلى رد ما قد فات، وقد أقام معك ما سيذهب أو ستتركه، فما الجَزَع مما لا بد منه؟ وما الطمع فيما لا يُرجى؟ وما الحيلة فيما سيُنقل عنك أو تُنقل عنه؟ وقد مضت أصولٌ نحن فروعها، فما بَقاء الفرع بعد ذهاب الأصل؟ فأفضل الأشياء عند المصائب الصبر، وإنما أهل الدنيا سَفْر لا يحلُّون الركائب إلا في غيرها؛ فما أحسنَ الشُّكرَ

عند النِّعم، والتسليم عند الغِيَر؛ فاعتبِر بمن رأيت من أهل الجزع، فإن رأيت الجزع رد أحدًا منهم إلى ثقة من دَرْك فما أولاك به.

واعلم أن أعظم من المصيبة سوءُ الخلف منها، فاتَّقِ فإن المَرجع قريب.

واعلم أنه إنما ابتلاك المُنعِم، وأخذ منك المُعطي، وما ترك أكثر؛ فإن نسيت الصبر فلا تنسَ الشكر، وكلًّا فلا تَدَع، واحذر من الغفلة استلاب النِّعَم، وطول الندامة؛ فما أصغر المصيبة اليوم مع عِظم الغنيمة غدًا، فاستقبِل المصيبة بالحِسبة تستخلف بها نِعمًا، فإنما نحن في الدنيا غرض يُنتضل فيه بالمنايا، ونهب للمصائب، مع كلِّ جرعةٍ شَرَق، ومع كلِّ أكلةٍ غَصَص. لا تُنال نعمة إلا بفِراق أُخرى، ولا يستقبل مُعمَّر يومًا من عمره إلا بهدم آخر من أَجَله، ولا تحدُث له زيادة في أكله إلا بنفاد ما قبله من رزقه، ولا يحيا له أثر إلا مات له أثر، ونحن أعوان الحُتوف على أنفسنا، وأنفُسنا تسوقنا إلى الفَناء، فمن أين نرجو البقاء؟ وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفًا إلا أسرعا الكَرَّة في هدم ما رفعا، وتفريق ما جمعا؛ فاطلب الخير من أهله، واعلم أن خيرًا من الخير مُعطيه، وشرًّا من الشر فاعِله.

وقال أبو نُواس:

أتتبَّعُ الظُّرَفاءَ أكتبُ عنهمُ ... كيما أُحدِّثَ من أُحِبُّ فيَضحَكا

وقال آخر:

قدَرتُ فلم أترُكْ صَلاحَ عَشيرتي ... وما العفوُ إلا بعدَ قُدرةِ قادرِ

وقال آخر:

أخو الجِدِّ إنْ جَدَّ الرِّجالُ وشمَّروا ... وذو باطلٍ إنْ كانَ في القومِ باطِلُ

قبيصة بن عمر المهلَّبي، أن رجلًا أتى ابن أبي عُيينة، فسأله أن يكتب إلى داود بن يزيد كتابًا، ففعل وكتب في أسفله:

إنَّ امرأً قذَفَت إليكَ به ... في البحرِ بعضُ مَراكبِ البَحرِ
تَجري الرِّياحُ به فتَحمِلُه ... وتَكفُّ أحيانًا فلا تَجري
ويرى المَنيَّةَ كُلَّما عصَفَت ... ريحٌ به للهَولِ والذُّعرِ

قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: ما وجد أحد في نفسه كِبْرًا إلا من مَهانةٍ يجدها في نفسه.

ودخل رجل من بني مخزوم، وكان زُبيريًّا، على عبد الملك بن مروان، فقال له عبد الملك: أليس قد ردَّك الله على عقبَيك؟ قال: أوَمَن رُدَّ إليك فقد رُدَّ على عقبَيه؟ فاستحيا وعلِم أنه قد أساء.

وقال المخبَّل:

إذا أنت لاقَيتَ الرِّجالَ فلاقِهم وعِرضُك من غثِّ الأُمورِ سليمُ

وقال النضر بن خالد:

كِبْرُه يَبلُغُ الكواكبَ إلا أنَّه في مُروءةِ البقَّالِ

وقال خِداش بن زُهير:

النـاسُ تَـحـتَـكَ أقدامٌ وأنـتَ لـهـم رأسٌ فكيفَ يُسوَّى الرأسُ والقَدَمُ؟
إنَّـا لَـنَـعـلَـمُ أنَّـا مـا بـقِـيـتَ لـنـا فينا السَّماحُ وفينا الجُودُ والكَرَمُ
وحَسبُنا من ثناءِ المادِحِين إذا أثنَوا عليك بأنْ يُثنُوا بما عِلموا

وقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: كانت قريشٌ تألَف مَنزل أبي بكر رضي الله تعالى عنه لخصلتَين؛ للعلم والطعام؛ فلما أسلم أسلم عامَّةُ من كان يُجالسه.

(٤٥) بعض كلام الأعراب

قال الأصمعي: وقف أعرابيٌّ يسأل فقال:

ألا فـتًـى أروَعَ ذا جَـمـالٍ من عَرَبِ الناسِ أوِ المَوالي
يُعينُني اليومَ على عِيالي قد كثَّروا همِّي وقلَّ مالي
وساقَهم جَدْبٌ وسوءُ حالِ وقـد مِلـلتُ كثـرةَ السُّـؤالِ

وقال أعرابي:

يا ابنَ الكِرامِ والدًا وولدا لا تَـحـرِمَـنَّ سـائـلًا تَـعـمَّـدا
أفقَرَه دهرٌ عليه قد عَدا من بعدِ ما كان قديمًا سيِّدا

وقال أعرابي: اللهم إني أسألك قلبًا توَّابًا أوَّابًا، لا كافرًا ولا مُرتابًا.

وهبَ رجل لأعرابي شيئًا فقال: جعل الله للخير عليك دليلًا، وجعل عندك رفدًا جزيلًا، وأبقاك بقاءً طويلًا، وأبلاك بلاءً جميلًا.

وقف أعرابي على قوم فمنعوه فقال: اللهم اشغلنا بذِكرك، وأعِذنا من سخطك، وأولِجنا إلى عفوك؛ فقد ضنَّ خلقك برزقك، فلا تشغلنا بما عندهم عن طلب ما عندك، وآتِنا من الدنيا القُنعان، وإن كان كثيرها يُسخطك؛ فلا خير فيما يُسخطك.

الأصمعي، قال: سمعت أعرابيًّا يدعو وهو يقول: اللهم اغفر لي إذا الصُّحف منشورة، والتوبة مقبولة، قبل ألا أقدر على استغفارك حين ينقطع الأمل، ويحضر الأجل، ويفنى العمل.

وقال: سمعت أعرابيًّا يدعو وهو يقول: اللهم ارزقني مالًا أكبِت به الأعداء، وبنين أَصول بهم على الأقوياء.

وكان مُنادي سعد بن عُبادة يقول على أُطُمه: من أراد خبزًا ولحمًا فليأتِ أطم سعد. وخلفه قيس بن سعد ابنه، وكان يفعل كفعله، فإذا أكل الناس رفع يده إلى السماء وقال: اللهم إني لا أصلُح على القليل، ولا يصلُح القليل لي. اللهم هَبْ لي حمدًا ومجدًا؛ لأنه لا حمد إلا بفعال، ولا مجد إلا بمال.

وقال أعرابي: اللهم إن لك عليَّ حقوقًا فتصدَّق بها عليَّ، وللناس عليَّ حقوقًا فأدِّها عني، وقد أوجبت لكل ضيف قِرًى وأنا ضيفك، فاجعل قِرايَ في هذه الليلة الجنة.

وقف أعرابي على قومٍ يسألهم فأنشأ يقول:

هل من فتًى عندَه خُفَّانِ يَحمِلُني ... عليهما إنَّني شيخٌ على سَفَرِ
أشكو إلى اللهِ أهوالًا أُمارِسُها ... من الصُّداعِ وأنِّي سيِّئ البَصَرِ
إذا سَرى القومُ لم أُبصِرْ طريقَهمُ ... إنْ لم يَكُنْ عندَهم ضَوءٌ من القَمَرِ

الأخفش قال: خرج أعرابي يطلب الصدقة ومعه ابنتان له، فقالت ابنته لما رأت إمساك الناس عنه:

يا أيُّها الراكبُ ذو التَّعريسِ ... هل فيكمُ من طاردٍ لِلبُوسِ
عن ذي هُداجٍ بيِّنِ التقويسِ ... بفَضلِ سِرْبالٍ له دَرِيسِ
أو فاضلٍ من زادِه خسيسِ ... أثابَه الرحمنُ بالنَّفيسِ

ووقف سائل على الحسن فقال: رحِمَ الله عبدًا أعطى من سَعة، أو آسى من كَفاف، أو آثَر من قِلَّة.

وقال الطائي [حبيب بن أوس أبو تمَّام]:

فتًى كُلَّما فاضت عُيونُ قبيلةٍ　　دمًا ضَحِكَت عنه الأحاديثُ والذِّكْرُ
فتًى ماتَ بينَ الطعنِ والضربِ مِيتةً　　تقومُ مَقامَ النَّصرِ إذ فاتَه النَّصرُ

وقال:

بِكْرٌ إذا ابتسمَت أراكَ وميضُها　　نَوْرَ الأقاحِ برَمْلةٍ مِيعاسِ[٩٨]
وإذا مشَت ترَكَت بِصَدرِك ضِعفَ ما　　بحُليِّها من كَثرةِ الوَسواسِ
قالت وقد حُمَّ الفِراقُ فكأسُه　　قد خُولِطَ السَّاقي بها والحاسي
لا تَنسَيَنْ تِلكَ العُهودَ فإنَّما　　سُمِّيتَ إنسانًا لأنَّكَ ناسِ
هدأتْ على تأميلِ أحمَدَ هِمَّتي　　وأطافَ تقليدي بها وقِياسي
نَورُ العَرارةِ نَورُه ونَسِيمُه　　نَشرُ الخُزامى في اخضرارِ الآسِ
إقدامُ عَمرو في سماحةِ حاتمٍ　　في حِلمِ أحنَفَ في ذكاءِ إياسِ
لا تُنكِروا ضَرْبي له من دُونَه　　مَثلًا شَرُودًا في النَّدى والباسِ
فاللهُ قد ضربَ الأقلَّ لنُورِه　　مَثلًا من المِشكاةِ والنِّبراسِ

وقال:

احفَظ رسائلَ شِعرٍ فيك ما ذهَبَت　　خواطِرُ البَرقِ إلا دُونَ ما ذهَبا
يَغدُونَ مُغترِباتٍ في البلادِ فما　　يَزَلنَ يؤنِسْنَ في الآفاقِ مُغترِبا
ولا تُضِعْها فما في الأرضِ أحسَنُ من　　نَظْمِ القَوافي إذا ما صادَفَت أدَبا

أُسِر رؤبة في بعض حروب تميم فمُنِع الكلام، فجعل يصرخ: يا صاحباه، يا بني تميم، أطلِقوا من لساني.

وربما قال الشاعر في هِجائه قولًا لا يعيب به المهجوَّ فيمتنع من فِعله المهجو وإن كان لا يلحق فاعِلَه ذم، وكذلك إذا مدحه بشيءٍ أُولع بفعله وإن كان لا يصير إليه

[٩٨] رملة ميعاس: قد سحها المطر.

بفعله مدح، فمن ذلك تقدُّم كُلْثم بنت سريع مَولى عمرو بن حُرَيث إلى عبد الملك بن عُمير، وهو على قضاء الكوفة، تُخاصم أهلها، فقضى لها عبد الملك على أهلها، فقال هُذيل الأشجعي:

أتـاه ولـيدٌ بـالـشُّـهـودِ يَـقُـودُهـم على ما ادَّعى من صامتِ المالِ والخَوَلْ
وجـاءت إلـيـه كُـلـثـمٌ وكـلامُـهـا شِـفـاءٌ مـن الـداءِ الـمُـخـامِـرِ والـخَـبَـلْ
فـأدلـى ولـيـدٌ عـنـد ذاك بـحـقِّـه وكـان ولـيـدٌ ذا مِـراءٍ وذا جَـدَلْ
وكـان لـهـا دَلٌّ وعَـيـنٌ كَـحِـيـلـةٌ فأدلَتْ بحُسنِ الدَّلِّ منها وبالكَحَلْ
ففتَّنَتِ القِبطيَّ حتى قَضى لها بغيرِ قضاءِ اللهِ في السُّوَرِ الطُّوَلْ
فلو كانَ مَن بالقَصرِ يَعلَم عِلمَه لَمَا استُعملَ القِبطيُّ فينا على عَمَلْ
له حينَ يَقضي للنِّساءِ تَخاوُصٌ وكان وما فيه التخاوصُ والحَوَلْ
إذا ذاتُ دلٍّ كـلَّـمَـتـه بـحـاجـةٍ فهمَّ بأنْ يَقضي تَنحنحَ أو سَعَلْ
وبـرَّقَ عَـيـنَـيـه ولاكَ لِـسـانَـه يَرى كلَّ شيءٍ ما خلا شَخصِها جَلَلْ

قال: فقال عبد الملك: أخزاه الله، [والله] لرُبَّما جاءتني السعلة أو النحنحة وأنا في المتوضَّأ فأذكُر قوله فأردُّها لذلك.

وزعم الهيثم بن عدي عن أشياخه أن الشاعر لما قال في شهر بن حَوشب:

لقد باعَ شَهرٌ دينَه بخريطةٍ فمن يأمَنُ القُرَّاءَ بَعدَك يا شَهرُ؟

ما مسَّ خريطة حتى مات.

وقال رجل من بني تغلب، وكان ظريفًا: ما لقي أحدٌ من تغلب ما لقيت أنا. قلت: وكيف ذاك؟ قال: قال الشاعر:

لا تَطلبنَّ خئولةً في تغلبٍ فالزِّنجُ أكرَمُ منهمُ أخوالا
لو أنَّ تَغلِبَ جمَّعَت أحسابَها يومَ التفاخُرِ لم يَزِنْ مِثقالا
تَلقاهمُ حُلَماءَ عن أعدائِهم وعلى الصَّديقِ تَراهمُ جُهَّالا
والتغلبيُّ إذا تَنَحنَحَ للقِرى حكَّ اسْتَه وتَمثَّلَ الأمثالا

والله إني لأتوهَّم أن لو نهشت استي الأفاعيُّ ما حكَكتُها.

(٤٦) كلام في مَقامات الشعراء في الجاهلية والإسلام

كان الشاعر أرفع قدرًا من الخطيب، وهم إليه أحوج؛ لردِّه مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم؛ فلما كثُر الشعراء وكثُر الشعر صار الخطيب أعظم قدرًا من الشاعر.

والذين هجَوا فوضعوا من قدر من هجَوه، ومدحوا فرفعوا من قدر من مدحوه، وهجاهم قوم فردُّوا عليهم فأفحموهم، وسكت عنهم بعض من هجاهم مَخافة التعرُّض لهم، وسكتوا عمن هجاهم رغبةً بأنفسهم عن الرد عليهم، وهم في الإسلام جريرٌ والفرزدق والأخطل، وفي الجاهلية زُهير وطَرَفة والأعشى والنابغة. هذا قول أبي عُبيدة.

وزعم أبو عمرو بن العلاء أن الشعر فُتِح بامرئ القيس وخُتِم بذي الرُّمَّة.

ومن الشعراء من يُحكِم القريض ولا يُحسِن من الرَّجز شيئًا؛ ففي الجاهلية منهم زهير والنابغة والأعشى، وأما من يجمعهما فامرؤ القيس وله شيء من الرَّجز، وطَرَفة وله كمِثل ذلك، ولبيد وقد أكثر. ومن الإسلاميين من لا يقدر على الرَّجز وهو في ذلك يُجيد القريض، كالفرزدق وجرير، ومن يجمعهما فأبو النجم وحُميد الأرقط والعُماني وبشَّار بن بُرد. وأقل من هؤلاء يُحكِم القصيد والأرجاز والخُطب. وكان الكُميت والبَعيث والطِّرمَّاح شُعراء خُطباء، وكان البعيث أخطبهم. وقال يونس: إن كان مُغلَّبًا في الشعر لقد كان غُلِّب في الخُطب. وإذا قالوا غُلِّب فهو الغالب.

وقال الحسين بن مطير الأسدي:

فيا قبرَ مَعنٍ كنتَ أوَّلَ حُفرةٍ ... من الأرضِ خُطَّت للمَكارمِ مَضجَعا
فلما مضى مَعنٌ مضى الجُودُ والنَّدى ... وأصبحَ عِرنِينُ المَكارمِ أجدَعا
فتًى عِيشَ في معروفِه بعدَ موتِه ... كما كانَ بعدَ السَّيلِ مَجراه مَرتَعا
تَعزَّ أبا العبَّاسِ عنه ولا يَكُنْ ... جَزاؤُك من مَعنٍ بأنْ تَتضَعضَعا
فما ماتَ من كنتَ ابنَه لا ولا الذي ... له مِثلُ ما أسدى أبوكَ وما سَعى
تَمنَّى أُناسٌ شأوَه من ضَلالِهم ... فأضحَوا على الأذقانِ صَرْعى وظُلَّعا

وقال مُسلم الأنصاري يرثي يزيد بن مزيد:

قَبرٌ ببَردَعَةَ استسرَّ ضريحُه ... خَطرًا تَقاصَرُ دُونَه الأخطارُ
أبْقى الزمانُ على مَعدٍّ بعدَه ... حُزنًا لعَمرُ الدَّهرِ ليس يُعارُ
نفَضَت بكَ الآمالُ أحلاسَ الغِنى ... واسترجَعَت نُزَّاعَها الأمصارُ
فاذهب كما ذهَبَت غوادي مُزْنةٍ ... أثْنى عليها السَّهلُ والأوعارُ

وقال هاشم الرَّقاشي:

أبلِغْ أبا مِسمَعٍ عني مُغلغَلةً ... وفي العِتابِ حياةٌ بينَ أقوامِ
قدَّمتُ قَبْلي رِجالًا لم يَكُنْ لهُمُ ... في الحقِّ أنْ يَلِجوا الأبوابَ قُدَّامي
لو عُدَّ قَبرٌ وقُبرٌ كنتَ أكرَمَهم ... قَبرًا وأبعَدَهم من مَنزلِ الذَّامِ
حتى جعَلتُ إذا ما حاجةٌ عرَضَت ... ببابِ قَصرِك أدلُوها بأقوامِ

وقال الأُبيرد الرياحي يرثي أخاه:

فتًى إنْ هو استغنى تَخرَّقَ في الغِنى ... وإنْ قلَّ مالٌ لم يَؤُدْ مَتنَه الفَقرُ
وسامى جَسِيماتِ الأمورِ فنالَها ... على العُسرِ حتى يُدرِكَ العُسرةَ اليُسرُ
تَرى القومَ في العَزَّاءِ ينتظرونَه ... إذا شكَّ رأيُ القومِ أو حَزَبَ الأمرُ
فلَيتَك كنتَ الحيَّ في الناسِ باقيًا ... وكنتُ أنا المَيْتَ الذي غيَّبَ القَبرُ
لقد كنتُ أستعفي الإلهَ إذا اشتكى ... من الأجرِ لي فيه وإنْ سَرَّني الأجرُ
وأجزَعُ أنْ يَنأى به بَينُ ليلةٍ ... فكيفَ ببَينٍ صارَ مِيعادُه الحَشرُ؟

وقال أبو عُبيدة: أنشدني رجل من بني عِجل:

وكنتُ أُعِيرُ الدَّمعَ قَبْلَك من بَكى ... فأنت على من ماتَ بَعدَك شاغِلُه
لقد رحَلَ الحيُّ المُقِيمُ وودَّعوا ... فتًى لم يَكُنْ بإزائِه من يُنازِلُه
ولم يَكُ يَخشى الجارُ منه إذا دَنا ... أذاه ولا يَخشى الحريمةَ سائِلُه
فتًى كانَ للمعروفِ يَبسطُ كفَّه ... إذا قُبِضَت كفُّ البخيلِ ونائلُه

قال: دخل مَعن بن زائدة على أبي جعفر المنصور فقارَب في خطوه، فقال المنصور: لقد كَبِرت سنُّك. قال: في طاعتك. قال: وإنك لجَلْد. قال: على أعدائك. قال: وأرى فيك بقيَّة. قال: هي لك.

(٤٧) كتاب عبد الملك إلى عمرو بن سعيد الأشدق

قال: كتب عبد الملك بن مروان إلى عمرو بن سعيد الأشدق حين خرج عليه: أما بعد، فإن رحمتي لك تَصرِفني عن الغضب عليك؛ لتمكُّن الخُدَع منك، وخذلان التوفيق إياك.

نهضت بأسباب وهَمَتك أطماعك أن تستفيد بها عزًّا، كنت جديرًا لو اعتدلت ألا تدفع بها ذلًّا. ومن رحل عنه حُسن النظر، واستوطنته الأماني، ملَكَ الحَين تصريفه، واستترت عنه عواقب أمره، وعن قليلٍ يتبين من سلك سبيلك، ونهض بمِثل أسبابك، أنه أسير غفلة، وصريع خدع، ومغيض ندم، والرحم تحمل على الصفح عنك ما لم تحلُل بك عواقب جهلك، وتزجر عن الإيقاع بك؛ وأنت إن ارتدعت في كنفٍ وسِتر. والسلام.

(٤٨) رد عمرو بن سعيد على عبد الملك

فكتب إليه عمرو: أما بعد، فإن استدراج النِّعم إياك أفادك البَغي، ورائحة القدرة أورثتك الغفلة، زجرت عما واقعت مثله، وندبت إلى ما تركت سبيله، ولو كان ضعف الأسباب يؤيس الطلاب ما انتقل سلطان، ولا ذلَّ عزيز، وعن قليلٍ تتبين مَن أسير الغفلة، وصريع الخدع، والرحم تعطف على الإبقاء عليك مع دفعك عما غيرك أقوَم به منك. والسلام.

(٤٩) كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد

قال أبو الحسن: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد بن عبد الملك: أما بعد، فإنك كتبت تذكُر أن عاملًا أخذ مالك بالحميَّة، وتزعم أني من الظالمين، وإن أظلم مني وأترك لعهد الله من أمَّرك صبيًّا سفيهًا على جيش من جيوش المسلمين، لم تكن له في ذلك نية إلا حب الوالد لولده. وإن أظلم مني وأترك لعهد الله لأنت؛ فأنت عمر بن الوليد، وأُمك صنَّاجة تدخل دور حمص وتطوف في حوانيتها. رُوَيدك أنْ لو قد التقت حَلْقتا البِطان لحملتك وأهلَ بيتِك على المَحجَّة البيضاء؛ فطالما ركِبتم ثنيَّات الطريق، مع أني قد همَمت أن أبعث إليك من يحلق دلادلك؛ فإني أعلم أنها من أعظم المصائب عليك. والسلام.

(٥٠) شِدَّة مراقبة عبد الملك لوُلاته

قال أبو الحسن: كان عبد الملك بن مروان شديد اليقظة، وكثير التعهُّد لوُلاته، فبلَغه أن عاملًا من عماله قبِل هديةً، فأمر بإشخاصه إليه، فلما دخل عليه قال له: أقبِلتَ هديَّة منذ ولَّيتُك؟ قال له: يا أمير المؤمنين، بلادك عامرة، وخَراجك موفور، ورعيَّتك على أفضل حال. قال: أجب فيما سألتك عنه، أقبِلتَ هدية منذ ولَّيتُك؟ قال: نعم. قال: لئن كنت قبِلت ولم تُعوِّض إنك للئيم. ولئن أنلتَ مُهدِيك لا من مالك أو استكفيته ما لم يكن يُستكفاه

إنك لجائرٌ خائن. ولئن كان مذهبك أن تُعوِّض المُهدي إليك من مالك، وقبِلت ما اتَّهمك به عند من استكفاك وبسط لسان عائبك، وأطمع فيك أهل عملك، إنك لجاهل. وما فيمن أتى أمرًا لم يخلُ فيه من دناءة أو خيانة أو جهل مُصطنَع نحَّياه عن عمله.

قال أبو الحسن: عرض أعرابي لعُتبة بن أبي سفيان وهو على مكة فقال: أيها الخليفة. قال: لستُ به ولم تُبعد. قال: يا أخاه. قال: أسمعتَ فقل. قال: شيخ من بني عامر يتقرب إليك بالعمومة، ويختصُّ بالخئولة، ويشكو إليك كثرة العِيال، ووطأة الزمان، وشِدة فقر، وترادُف ضر، وعندك ما يسعه ويصرف عنه بؤسه. قال: أستغفر الله منك، وأستعينه عليك، قد أمرت لك بغِناك، وليت إسراعي إليك يقوم بإبطائي عنك.

وقال أعرابي يعيب قومًا: هم أقل الناس ذنوبًا إلى أعدائهم، وأكثرهم جُرمًا إلى أصدقائهم، يصومون عن المعروف، ويُفطرون على الفحشاء.

وقال مُجَّاعة بن مُرار لأبي بكر الصدِّيق رضي الله تعالى عنه: إذا كان الرأي عند من لا يُقبَل منه، والسلاح عند من لا يستعمله، وكان المال عند من لا يُنفقه، ضاعت الأمور.

الأصمعي قال: نعت أعرابي رجلًا فقال: كأن الألسُن والقلوب رِيضت له، فما تنعقد إلا على وده، ولا تنطق إلا بثنائه.

وقال أعرابي: وعدُ الكريم نقد وتعجيل، ووعدُ اللئيم مَطْل وتعليل.

أتى أعرابيٌّ عمر بن عبد العزيز فقال: رجل من أهل البادية ساقَته الحاجة، وانتهت به الفاقة، والله يسألك عن مقامي غدًا. فبكى عمر.

وقال الشاعر:

ومن يُبقِ مالًا عُدَّةً وصِيانةً   فلا البُخلُ مُبقِيه ولا الدَّهرُ وافِرُه
ومن يَكُ ذا عُودٍ صليبٍ يُعِدُّه   ليَكسِرَ عُودَ الدَّهرِ فالدَّهرُ كاسِرُه

وقال أبان بن الوليد لإياس بن معاوية: أنا أغنى منك. فقال إياس: بل أنا أغنى منك. قال أبان: وكيف ولي كذا وكذا؟ وعدَّد أموالًا، قال: إن كسبك لا يفضُل عن مؤنتك، وكسبي يفضُل عن مؤنتي.

وكان يُقال: حاجب الرجل عامله على عِرضه.

وقال أبو الحسن: رأيت امرأةً أعرابية غمَّضت ميتًا وترحَّمت عليه، ثم قالت: ما أحقَّ من أُلبس العافية، وأُطيلت له النَّظِرة، ألا يعجز عن النظر لنفسه قبل الحلول بساحته، والحيالة بينه وبين نفسه!

وقال ابن الزُّبير لمعاوية حين أراد أن يُبايع لابنه يزيد: أتُقدِّم ابنك على من هو خير منه؟ قال: كأنك تريد نفسك؟ إن بيته بمكة فوق بيتك. قال ابن الزبير: إن الله رفع بالإسلام بيوتًا؛ فبيتي مما رَفَع. قال معاوية: صدقت، وبيت حاطب بن أبي بلتعة.

وقال: عاتَب أعرابي أباه فقال: إن عظيم حقك عليَّ لا يُذهب صغير حقي عليك، والذي تمتُّ إليَّ به أمتُّ بمِثله إليك، ولست أزعم أنَّا سواء، ولكني أقول: لا يحلُّ لك الاعتداء.

قال: مدح رجل قومًا فقال: أدَّبَتهم الحكمة، وأحكمتهم التجارِب، ولم تَغرُرهم السلامة المُنطوية على الهلكة، ورحل عنهم التسويف الذي قطع الناس به آجالهم، فأحسنوا المقال، وشفعوه بالفعال.

وقال بعض الحكماء: التواضع مع السخافة والبخل أحمد عند العلماء من الكِبْر مع السخاء والأدب؛ فأعظِمْ بحسنة عفَّت عن سيئتَين، وأفظِع بعيبٍ أفسد من صاحبه حسنتَين.

وقيل لرجل: مات صديق لك. فقال: رحمة الله عليه، لقد كان يملأ العين جمالًا، والأذن بيانًا، ولقد كان يُرجى فلا يُخشى، ويُخشى فلا يُغشى، ويُعطي ولا يُعطى، قليلًا لدى الشر حضورُه، سليمًا للصديق ضميره.

وقام أعرابي ليسأل فقال: أين الوجوه الصِّباح، والعقول الصِّحاح، والألسُن الفِصاح، والأنساب الصِّراح، والمكارم الرِّباح، والصدور الفِساح، تُعيذني من مقامي هذا؟

ومدح بعضهم رجلًا فقال: ما كان أفسح صدره، وأبعد ذِكره، وأعظم قدره، وأنفذ أمره، وأعلى شرفه، وأربح صفقة من عرفه، مع سعة الغَناء، وعِظم الإناء، وكرم الآباء.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لصعصعة بن صوحان: والله ما علِمتك إلا أنك لكثير المعونة، قليل المؤنة؛ فجزاك الله خيرًا. فقال صعصعة: وأنت فجزاك الله أحسن ذلك؛ فإنك ما علِمتك بالله عليم، والله في عينك عظيم.

(٥١) وصية عبد الملك بن صالح العبَّاسي لابنه

قال أبو الحسن: أوصى عبد الملك بن صالح[٩٩] ابنًا له فقال: أي بُني، احلُم؛ فإن من حلُم ساد، ومن تفهَّم ازداد. والقَ أهل الخير؛ فإن لقاءهم عمارة للقلوب. ولا تجمح بك مطيَّة

[٩٩] عبد الملك بن صالح: هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عبَّاس، يُكنى أبا عبد الرحمن. كان من عُظماء العباسيين ومن أجلَّاء وُلاتهم، ولي المدينة وقاد الصوائف للرشيد، ثم ولي الشام والجزيرة للأمين.

اللَّجاج. وفيُّك مَن أعتبَك، والصاحب المُناسب لك، والصبر على المكروه يعصم القلب. المِزاح يُورث الضغائن، وحُسنُ التدبير مع الكفاف خيرٌ من الكثير مع الإسراف، والاقتصاد يُثمر القليل، والإسراف يُبير الكثير، ونِعْم الحظ القناعة، وشرُّ ما صحِب المرء الحسد، وما كل عورة تُصان، وربما أبصر العميُّ رشده، وأخطأ البصير قصده، والياس خير من الطلب إلى الناس، والعفة مع الحِرفة خيرٌ من الغنى مع الفجور. ارفُق في الطلب، وأجمِل في المَكسب؛ فإنه رُبَّ طلبٍ قد جر إلى حَرَب. ليس كل طالب بمُنجِح، ولا كلُّ مُلحٍّ بمُحتاج، والمغبون من غُبِن نصيبه من الله. عاتِبْ من رجَوت عُتباه، وفاكِهْ من أمِنتَ بَلواه. لا تكن

حدَّث عن أبيه وعن مالك بن أنس. وكان من أفصح الناس وخطبائهم، وكان نادر المثال في جلالته وعظيم قدره وصيانته. قيل ليحيى بن خالد البرمكي: كيف ولَّاه الرشيد المدينة من بين عماله؟ فقال: أحبَّ أن يُباهيَ به قريشًا ويُعلمهم أن في بني العبَّاس مِثله. وقد جعل الرشيد ولده القاسم في حجره. ولما عهد الرشيد إلى ولدَيه الأمين والمأمون بالولاية بعده، قال عبد الملك يحضُّه على العهد للقاسم معهما:

يا أيُّها الملِكُ الذي ... لو كان نجمًا كان سَعدا
للقاسمِ اعقدْ بَيعةً ... واوْقِدْ له في المُلكِ زَنْدا
اللهُ فردٌ واحدٌ ... فاجعل وُلاةَ العَهدِ فَرْدا

فعهد الرشيد إليه معهما، ثم وشى به واشٍ عند الرشيد فتنكَّر له ثم رضي عنه بعد خَطْب. وله في هذا الرضا روايةٌ حكاها إسحاق بن إبراهيم الموصلي فقال:

> دعاني جعفر بن يحيى البرمكي إلى منزله حتى نخلوَ جميعًا ونتغنى ونأخذ في شأننا بقيَّةَ يومنا، فلما صِرنا إلى منزله طرَحنا ثيابنا ودعا بالطعام فطعِمنا، وأمر بإخراج الجواري وقال: لتبرزُنَّ فليس عندنا من تحتشمن منه. فلما وُضع الشراب دعا بقميص حرير فلبسه، ودعا بخلوق فتخلَّق به، ثم دعا بمِثل ذلك، وجعل يغنِّيني وأغنِّيه، ثم دعا بالحاجب فتقدَّم إليه وأمره بألا يأذن لأحد من الناس كلهم، وإن جاء رسول أمير المؤمنين أعلمه أنه مشغول، واحتاط في ذلك وتقدَّم فيه إلى جميع الحُجَّاب والخدم، ثم قال: إن جاء عبد الملك فأذَنوا له — يعني رجلًا كان يأنس به ويُمازحه ويحضر خلواته — ثم أخذنا في شأننا. فوالله إنا لعلى حالةٍ سارَّة عجيبة إذ رُفع الستر، وإذا عبد الملك بن صالح الهاشمي قد أقبل، وغلط الحاجب ولم يفرِّق بينه وبين الذي يأنس به جعفر بن يحيى — وكان عبد الملك بن صالح الهاشمي من جلالة القدر والتقشُّف وفي الامتناع من منادمة أمير المؤمنين على أمرٍ جليل، وكان أمير المؤمنين قد اجتهد به أن يشرب معه أو عنده قدحًا فلم يفعل ذلك رفعًا لنفسه — فلما رأيناه مُقبلًا أقبل كلٌّ منا ينظر إلى صاحبه، وكاد

مِضحاكًا من غير عَجَب، ولا مشَّاءً إلى غير أرَب. ومن نأى عن الحق أضاقَ مَذهبه، ومن اقتصر على حاله كان أنعم لباله. لا يكبُرنَّ عليك ظلم من ظَلَمك، فإنه إنما سعى في مَضرَّته ونفعك. وعوِّد نفسك السَّماح، وتخيَّرْ لها من كل خُلُق أحسنَه؛ فإن الخير عادة،

جعفر أن ينشقَّ غيظًا. وفهِم الرجل حالنا، فأقبل نحونا حتى إذا صار إلى الرواق الذي نحن فيه نزع قلنسيته فرمى بها مع طيلسانه جانبًا، ثم قال: أطعِمونا شيئًا. فدعا له جعفر بالطعام وهو مُنتفخ غضبًا وغيظًا، فطعِم، ثم دعا برطلٍ فشرِبه، ثم أقبل إلى المجلس الذي نحن فيه فأخذ بعضادتَي الباب ثم قال: أشرِكونا فيما أنتم فيه. فقال له جعفر: ادخل. ثم دعا بقميص حرير وخلوق فلبِس وتخلَّق، ثم دعا برطل ورطل حتى شرِب عدة أرطال، ثم اندفع ليغنِّيَنا فكان والله أحسنَنا جميعًا غِناءً. فلما طابت نفس جعفر وسُرِّي عنه ما كان به التفت إليه فقال له: ارفع حوائجك. فقال: ليس هذا موضع حوائج. فقال: لتفعلن. ولم يَزَل يُلحُّ عليه حتى قال له: أمير المؤمنين عليَّ واجد، فأُحبُّ أن تترضَّاه. قال: فإن أمير المؤمنين قد رضي عنك، فهاتِ حوائجك. فقال: هذه كانت حاجتي. قال: ارفع حوائجك كما أقول لك. قال: عليَّ دَينٌ فادح. قال: هذه أربعة آلاف ألف درهم؛ فإن أحببت أن تقبضها فاقبضها من منزلي الساعة، فإنه لم يمنعني من إعطائك إياها إلا أن قدرك يجلُّ على أن يصلك مِثلي، ولكني ضامن لها حتى تُحمل من مال أمير المؤمنين غدًا؛ فسَل أيضًا. قال: ابني، تُكلِّم أمير المؤمنين حتى ينوِّه بِاسمه. قال: قد ولَّاه أمير المؤمنين مِصر وزوَّجه بنته العالية ومهَرها ألفَي ألف درهم (قلت: والذي تولَّى مصر هو إبراهيم بن عبد الملك بن صالح). قال إسحاق: فقلت في نفسي: قد سكِر الرجل. أعني جعفرًا. فلما أصبحت لم تكن لي همَّة إلا حضور دار الرشيد، وإذا قد بكَّر، ووجدت في الدار جلبة، وإذا أبو يوسف القاضي ونظراؤه قد دعا بهم، ثم بعبد الملك بن صالح وابنه فدخلا على الرشيد، فقال الرشيد لعبد الملك: إن أمير المؤمنين كان واجدًا عليك وقد رضي عنك، وأمر لك بأربعة الآلاف ألف درهم فاقبِضها من جعفر بن يحيى الساعة، ثم دعا بابنه فقال: اشهدوا أني قد زوَّجته العالية بنت أمير المؤمنين، وأمهرتها عنه ألفَي ألف درهم من مالي، وولَّيته مصر.

قال إسحاق: فلما خرج جعفر بن يحيى سألته عن الخبر فقال: بكرت على أمير المؤمنين فحكيت له ما كان منا وما كنَّا فيه حرفًا حرفًا، ووصفت له دخول عبد الملك وما صنع، فعجِب لذلك وسُرَّ به، ثم قلت له: قد ضمِنت له عنك يا أمير المؤمنين ضمانًا. فقال: ما هو؟ فأعلمته. قال: أوفِ له بضمانك. وأمر بإحضاره فكان ما رأيت، ثم غضب عليه الرشيد وتنكَّر له، فحبسه عند الفضل بن الربيع.

وكتب إلى الرشيد وهو متنكِّر له:

أخِلَّايَ لي شَجوٌ وليس لكم شَجوُ — وكلُّ امرئٍ من شَجوِ صاحبِه خِلوُ
من أيِّ نَواحي الأرض أبغي رِضاكمُ — وأنتم أُناسٌ ما لمَرضاتِكم نَحوُ؟
فلا حَسنٌ نأتي به تَعرِفُونه — ولا إنْ أسأنا كان عندَكم عفوُ

والشر لَجاجة، والصدود آية المقت، والتعلُّل آية البخل. ومن الثقة كِتمان السر. ولقاح المعرفة دراسة العلم، وطول التجارِب زيادة في العقل، والقناعة راحة الأبدان، والشرف التقوى، والبلاغة معرفة رَتْق الكلام وفَتْقه. بالعقل تُستخرَج الحكمة، وبالحِلم يُستخرج

فلما وقف عليها الرشيد قال: والله إن كان قالها فقد أحسن، وإن كان رواها فقد أحسن. وكتب إليه من السجن:

قُلْ لأميرِ المؤمِنِين الذي ... يَشكرُه الصادِرُ والوارِدُ
يا واحدَ الأملاكِ في فَضلِه ... ما لك مِثلي في الورى واحِدُ
إن كان لي ذنبٌ ولا ذنبَ لي ... حقًّا كما قد زعمَ الحاسدُ
فلا يَضِقْ عَفوُك عنِّي فقد ... فازَ به المُسلِمُ والجاحِدُ

ومن شعره وهو في السجن:

لئن ساءَني سجني لفقدِ أحبَّتي ... وأنِّيَ فيهم لا أمرُّ ولا أحلي
فقد سَرَّني عِزِّي بتَركِ لقائِهم ... وما أتشكَّى من حِجابي ومن ذُلِّي

ولم يزل في مَحبِسه حتى أطلقه الأمين بعد وفاة الرشيد وعقد له على الشام. ولعبد الملك كلامٌ عجيب في الحقد، وهو أول من مدحه. قيل له: إن أخاك عبد الله يزعم أنك حقود. فقال: إن كان الحقد بقاءَ الشر والخير لأهلهما إنهما عندي لباقيان.

إذا ما امرؤٌ لم يَحقدِ الوترَ لم تَجِدْ ... لديه لدى النَّعماءِ حمدًا ولا شُكْرا

ومن هنا أخذ ابن الرُّومي قوله:

وخيرُ سجيَّاتِ الرِّجالِ سجيَّةٌ ... توقِّيك ما تُسدي من القرضِ والفرضِ
وما الحقدُ إلا تَوءَمُ الشُّكرِ في الفتى ... وبعضُ السجايا يَنتسِبنَ إلى بَعضِ
فحيثُ تَرى حقدًا على ذي إساءةٍ ... فثَمَّ تَرى شكرًا على حَسنِ القرضِ
إذا الأرضُ أدَّت ريعَ ما أنت زارعٌ ... من البَذرِ فيها فهي ناهيك من أرضِ
ولولا الحقودُ المُستكنَّاتُ لم يَكُنْ ... لينقضَ وترًا آخِرَ الدَّهرِ ذو نَقضِ

وعبد الملك أول من ذمَّ الشورى واحتجَّ للاستبداد. قال: ما استشرتَ أحدًا قط إلا تكبَّر عليك وتصاغَرتَ لديه، وداخَلته العزة وداخلتك الذلة؛ فعليك بالاستبداد؛ فإن صاحبه مُبجَّل في العيون، مَهيب في الصدور، وإذا افتقرت إلى العقول حقرتك العيون؛ فيتضعضع شأنك، وتخف بك أركانك، ويستحقرك الصغير، ويستخف بك الكبير. مات في أواخر أيام الأمين سنة ١٩٦هـ/٨١١م.

غَوْر العقل. ومن شمَّر في الأمور، ركِب البحور. شر القول ما نقض بعضه بعضًا. ومن سعى بالنميمة حذِره البعيد، ومقَته القريب. من أطال النظر بإرادةٍ تامَّةٍ أدرك الغاية، ومن تَوانى في نفسه ضاع. من أسرف في الأمور انتشرت عليه، ومن اقتصد اجتمعت له، واللجاجة تُورث الضياع للأمور. غبُّ الأدب أحمَدُ من ابتدائه. مبادرة الفهم تُورث النسيان. سوء الاستماع يُعقب العي. لا تحدِّث من لا يُقبِل بوجهه عليك، ولا تُنصِت لمن لا ينمي بحديثه إليك. البلادة للرجل هُجنة. قلَّ مالكٌ إلا استأثر، وقلَّ عاجزٌ إلا تأخَّر. الإحجام عن الأمور يُورث العجز، والإقدام عليها يُورث اجتلاب الحظ. سوء الطُّعمة يُفسد العِرض، ويُخلِق الوجه، ويمحق الدين. الهيبة قرين الحِرمان، والجسارة قرين الظَّفر. وفيُّك من أنصفك، وأخوك من عاتَبك، وشريكك من وفى لك، وصفيُّك من آثَرك. أعدى الاعتداء العقوق. اتباع الشهوة يُورث الندامة، وفَوتُ الفرصة يُورث الحسرة. جِماع أركان الأدب التأتِّي للرِّفق. أكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقَتك إلى الرغائب؛ فإنك لا تجد بما تبذل من دينك ونفسك عِوضًا. لا تُباعد النساء فيَملَلنك، واستبقِ من نفسك بقية؛ فإنهن إن يرَين أنك ذو اقتدارٍ خير من أن يطَّلعن منك على انكسار. لا تُملِّك المرأة الشفاعة لغيرها فتميل من شفعت لها عليك معها.

أي بني، إني قد اخترت لك الوصية، ومحضتك النصيحة، وأدَّيت الحق إلى الله في تأديبك؛ فلا تُغفلن الأخذ بأحسنها والعمل بها، والله موفِّقك.

قال الغنوي: احتضر رجل منَّا فصاحت ابنته، ففتح عينَيه وهو يكيد بنفسه، فقال:

عَزاءً لا أبا لكِ إنَّ شيئًا تَولَّى ليسَ يُرجِعُه الحَنِينُ

قال بعض الشعراء:

وما إنْ قتَلْناهم بأكثرَ منهمُ ولكنْ بأوفى بالطِّعانِ وأكرَما

المدائني قال: كان يُقال: إذا انقطع رجاؤك من صديقك فألحِقه بعدوِّك.

وقال عبد الملك بن صالح: لا يكبرنَّ عليك ظُلْم من ظَلَمك؛ فإنما سعى في مَضرَّته ونفعك.

وقال مصعب بن الزبير: التواضع أحد مصائد الشرف.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إياك ومؤاخاة الأحمق؛ فإنه ربما أراد أن ينفعك فضرَّك.

وكانوا يقولون: عشرٌ في عشرةٍ هي فيهم أقبَحُ منها في غيرهم؛ الضِّيق في الملوك، والغدر في ذوي الأحساب، والحاجة في العلماء، والكذب في القُضاة، والغضب في ذوي الألباب، والسفاهة في الكهول، والمرض في الأطبَّاء، والاستهزاء في أهل البؤس، والفخر في أهل الفاقة، والشُّح في الأغنياء.

ووصف بعض الأعراب فرسًا فقال: قد انتهى ضموره، وذبل فريره، وظهر حصيره، وتفلقت غروره، واسترخت شاكلته، يُقبل بزور الأسد، ويُدبِر بعَجُز الذئب.

ومات ابن لسليمان بن علي فجزِع عليه جَزعًا شديدًا، وامتنع من الطعام والشراب، وجعل الناس يُعزُّونه فلا يحفل بذلك، فدخل عليه يحيى بن منصور فقال: عليكم نزل كتاب الله؛ فأنتم أعلم بفرائضه، ومنكم كان رسول الله ﷺ؛ فأنتم أعرف بسُنَّته، ولستَ ممن يُعلَّم من جَهْل، ولا يُقوَّم من عِوَج، ولكني أعزِّيك ببيت من شعر. قال: هاتِه. قال:

وهوَّنَ ما ألقى من الوَجدِ أنَّني　　　أُساكِنُه في دارِه اليومَ أو غَدا

قال: أعد. فأعاد، فقال: يا غُلام، الغداء.

قال: دعا أعرابي في طريق مكة فقال: هل من عائدٍ بفضل، أو مُواسٍ من كفاف؟ فأمسك عنه فقال: اللهم لا تِكلْنا إلى أنفُسنا فنعجز، ولا إلى الناس فنضيع.

قال أبو الحسن: جاء خلَف الأحمر إلى حلقة يونس حين مات أبو جعفر، فقال:

قد طرَقَت بنُكرِها بِنتُ طَبَقْ

فقال له يونس: ماذا؟ فقال:

فذمِّروها خَبرًا ضَخْمَ العَنَقْ

فقال يونس: وما هذا؟ فقال:

موتُ الإمامِ فِلقةٌ من الفِلَقْ

قال أبو الحسن: أراد رجلٌ أن يكذب بلالًا فقال له يومًا: يا بلال، ما سنُّ فرسك؟ قال: عَظْم. قال: فكيف جَريُه؟ قال: يحضر ما استطاع. قال: فأين تنزل؟ قال: موضعًا أضع فيه رِجلي. فقال له الرجل: لا أتعنَّتك أبدًا.

قال: ودخل رجل على شريح القاضي يُخاصم امرأة له، فقال: السلام عليكم. قال: وعليكم. قال: إني رجل من أهل الشام. قال: بعيدٌ سحيق. قال: وإني قدِمت إلى بلدكم هذا. قال: خيرَ مَقدم. قال: وإني تزوَّجت امرأة. قال: بالرِّفاء والبنين. قال: وإنها ولدت غلامًا. قال: ليَهنِك الفارس. وقال: وقد كنت شرطت لها صَداقها. قال: الشرط أمْلَك. قال: وقد أردت الخروج بها إلى بلدي. قال: الرجل أحَقُّ بأهله. قال: فاقضِ بيننا. قال: قد فعلت.

قال: وخرج الحجَّاج ذات يوم فأصحر، وحضر غداؤه فقال: اطلبوا من يتغدَّى معي. فطلبوا فإذا أعرابي في شَملة، فأُتي به، فقال: السلام عليكم. قال: هلمَّ أيُّها الأعرابي. قال: قد دعاني من هو أكرَمُ منك فأجبته. قال: ومن هو؟ قال: دعاني الله ربي إلى الصوم فأنا صائم. قال: وصوم في مِثل هذا اليوم الحار! قال: صمتُ ليومٍ هو أحرُّ منه. قال: فأفطِرِ اليوم وصُم غدًا. قال: ويضمن لي الأمير أني أعيش إلى غد؟ قال: ليس ذاك إليه. قال: فكيف يسألني عاجلًا بآجِل ليس إليه؟ قال: إنه طعامٌ طيِّب. قال: ما طيَّبه خبَّازك ولا طبَّاخك. قال: فمن طيَّبه؟ قال: العافية. قال الحجَّاج: بالله إنْ رأيت كاليوم! أخرِجوه.

قال أبو عمرو: خرج صعصعة بن صوحان عائدًا إلى مكة، فلقِيَه رجل فقال له: يا عبد الله، كيف تركت الأرض؟ قال: عريضةً أريضة. قال: إنما عنيت السماء. قال: فوق البشر، ومدى البصر. قال: سبحان الله، إنما أردت السحاب. قال: تحت الخضراء، وفوق الغبراء. قال: إنما أعني المطر، قال: قد عفا الأثر، وملأ القُتر، وبلَّ الوبر، ومُطِرنا أحيا المطر. قال: إنسيٌّ أنت أم جِنِّي؟ قال: بل إنسي، من أمَّة رجل مهدي ﷺ.

وقال بشَّار:

وحمدٍ كبُردِ العَصبِ حمَّلتُ صاحِبي … إلى مَلِكٍ للصالِحين قَرينِ

وقال أيضًا:

وبِكرٍ كنُوَّارِ الرِّياضِ حديثُها … تَرُوقُ بوَجهٍ واضحٍ وقَوَامِ

(٥٢) كتاب من الحجَّاج إلى عبد الملك

وكتب الحجَّاج بن يوسف إلى عبد الملك بن مروان: أما بعد، فإنا نُخبِر أمير المؤمنين أنه لم يُصِب أرضَنا وابلٌ منذ كتبت أُخبره عن سُقيا الله إيَّانا، إلا ما بلَّ وجه الأرض من الطشِّ

والرشِّ والرَّذاذ،[١٠٠] حتى دُقِعت الأرض واقشعرَّت واغبرَّت،[١٠١] وثارت في نواحيها أعاصير تذرو دِقاق الأرض من تُرابها، وأمسك الفلَّاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها[١٠٢] وامتناعها، وأرضنا أرضٌ سريعٌ تغيُّرها، وشيكٌ تنكُّرها، سيئ ظنُّ أهلها عند قُحوط المطر، حتى أرسل الله بالقَبول يوم الجمعة، فأثارت زِبرِجًا مُتقطعًا مُتمصرًا،[١٠٣] ثم أعقبته الشَّمال يوم السبت فطَحطَحت[١٠٤] عنه جَهامه، وألَّفت مُتقطِّعه، وجمعت متمصِّره، حتى انتضد فاستوى، وطما وطحا، وكان جونًا مُرْثعنًّا[١٠٥] قريبًا رواعدُه، واعتدت عوائده بوابلٍ مُنهمِل مُنسجِل[١٠٦] يردُف بعضه بعضًا، كلما أردف شؤبوبٌ[١٠٧] ارتدفته شآبيب لشدة وَقْعه في العِراض.[١٠٨]

وكتبتُ إلى أمير المؤمنين وهي ترمي بمِثل قِطَع القطن قد ملأ اليَباب، وسدَّ الشِّعاب، وسقى منها كلَّ ساقٍ؛ فالحمد لله الذي أنزل غيثه، ونشر رحمته من بعد ما قنطوا، وهو الوليُّ الحميد. والسلام.

وهذا أبقاك الله آخِرُ ما ألَّفناه من كتاب «البيان والتبيين»، ونرجو أن نكون غير مقصِّرين فيما اخترناه من صنعته، وأردناه من تأليفه؛ فإن وقع على الحال التي أردنا، وبالمنزلة التي أمَّلنا، فذلك بتوفيق الله وحُسن تأييده، وإن وقع بخلافها فما قصَّرنا في الاجتهاد، ولكن حُرِمنا التوفيق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(تم الجزء الثالث من كتاب البيان والتبيين،
وبتمامه تم الكتاب، ولله الحمد أولًا وآخرًا.)

---

[١٠٠] الطش والرش والرذاذ: من صفات المطر.

[١٠١] دقعت واقشعرت واغبرت: زال منها كل نبات كان عليها.

[١٠٢] اعتزازها: اشتدادها.

[١٠٣] متمصرًا: متمزقًا.

[١٠٤] طحطحت: فرَّقت ومزَّقت.

[١٠٥] مرثعنًّا: جودًا دراكًا.

[١٠٦] منسجل: منصبٌّ منهمر.

[١٠٧] شؤبوب: دفعة من المطر.

[١٠٨] العراض: الأودية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

خاتمة للشارح

يقول حسن بن أحمد السندوبي: الحمد لله على حُسن تيسيره، وجميل توفيقه. وبعد، فقد كان الفراغ من مراجعة كتاب «البيان والتبيين» لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بأجزائه الثلاثة، وتحقيق الكثير من عباراته، وإبانة الجم من مُشكِلاته، وتعليق حواشيه، والتعريف بالجمهور من رجالاته، وفيهم شيوخ المعتزلة، وزُعماء الفِرَق، ورءوس الخوارج، وكِبار القادة، وعُظماء الفاتحين، وسادة الوُعاظ، والزُّهاد والنُّساك، وثِقات السند والرُّواة، وجمهرة من الشعراء، مما لم يسبقني إليه سابق، وقد فصَّلت مُدمَجاته، وخلَّصت المُلتبِس من إشاراته، وضبطت المُبهَم من كلماته، ووضعت اللازم من عناوينه، وعرضته في هذا المَعرِض من الطبع الجميل في مساء السبت ٢٥ شعبان سنة ١٣٤/ ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٧م.

هذا، ومن يُنعم النظر في هذه الطبعة، وكان له اطلاع على ما سبق من طبعاته، يعرف أني قد بذلت فيها من الجهود، وعانيت في أمرها من المجهود، الشيء الكثير. على أنني ما حاولت في ذلك إرضاء مخلوق جلَّ خطره، أو حقر أمره، وما قصدت إلا رضاء الله وحده، وهو الذي وفَّقني، وأعانني ويسَّر لي من هذا الشأن ما لم أكُن أتوقَّعه؛ فله الحمد على ما يسَّر، والشكر على ما وفَّق.

وليكن في عِلم المطَّلِع أنني كثيرًا ما لجأت في إيضاح بعض العبارات إلى ما رُوي عن الثقات، وتواتر عن الأثبات، وإلى محفوظي الخاص، وإلى الذوق الأدبي في اطِّراد السياق؛ فكنت أضيف إلى بعض الجُمل كلمات في ثناياها لا يمكن أن يستقيم أسلوبها أو تؤدِّيَ الصحيح من معناها إلا بها، غير أنني مع هذا لم أترك ما وضعت من هذه الكلمات تذهب بين ثنايا الموضوعات سُدًى، بل وضعت أكثرها بين معقوفَين هكذا [ ]،

وكثيرًا ما بدَّلت بعض كلمات بغيرها، وأشرت إلى ذلك في ذيل صفحاتها، إلا ما سهوت عن الإشارة إليه. ولست أدَّعي العِصمة والسلامة في كل ما صنعت؛ فأنا أعترف أنه وقعت بعض أغلاط مطبعية لا يمكن أن يخلوَ كتاب من مِثلها، غير أنها لا تكاد تُذكَر، ولا تكاد تخفى على أقل المطَّلِعين إدراكًا؛ لذلك أغفلت تبيانها، والكمال لله وحده، وهو حَسبي ونعم الوكيل.

حسن السندوبي

هنداوي